

الدُّرُوسُ وَالْعِبَرُ
فِي

غَزَوَاتٍ وَسِرَايَا خَيْرِ الْبَشَرِ صَلَّى اللَّهُ
مُسَوِّدَةً سَامِلَةً لِأَعْدَاءِ دُرُوسِ الْغَزَوَاتِ وَالسَّرَايَا السُّورَةِ

غَزَاةٌ وَهَوَاتٌ

غَزَاةٌ وَهَوَاتٌ مَجْمُوعَتَانِ

مِنْ عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ

دَارُ الْوَقْفَاءِ

الوادي
للثقافة والإعلام

الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر ﷺ

غزوة مؤتة

فهرسة أثناء النشر

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفتنية

قاسم ، غريب محمود

الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر ﷺ / موسوعة شاملة لأحداث ودروس

الغزوات والسرايا النبوية / غريب محمود قاسم

- ط ١ - القاهرة: الوادى للثقافة والاعلام، ٢٠٢٠م.

٢٧٤ ص، ٢٤سم.

تدمك ٥ ٠٧ ٦٧٧٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- غزوات النبی ﷺ - عصر الجهاد في سبيل نشر الدعوة ٢- غزوة مؤتة

٢-٣- الفتوحات الإسلامية

٢٣٩، ٤

ب- العنوان

تاريخ الإصدار: ١٤٤١ هـ - ٢٠٢١ م

حقوق الطبع: محفوظة

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: ٢٨١٧٠ / ٢٠٢٠م

الترقيم الدولي: ٥ - ٧ - ٦٧٧٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨ ISBN:

تحذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من

الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفة منها حتى الآن

أو ما يستجد مستقبلاً) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة

أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابي من

الناشر.

الوادى

للثقافة والإعلام

سبب (١٣٥) محمد هريدي القاهرة ١١٥١٨
E-mail: darannshr@hotmail.com

الدروس والعبر في

غزوات وسرايا خير البشر ﷺ

موسوعة شاملة لأحداث ودروس الغزوات والسرايا النبوية

غزوة مؤتة

الباب الأول: الغزوات والسرايا بين خيبر ومؤتة.

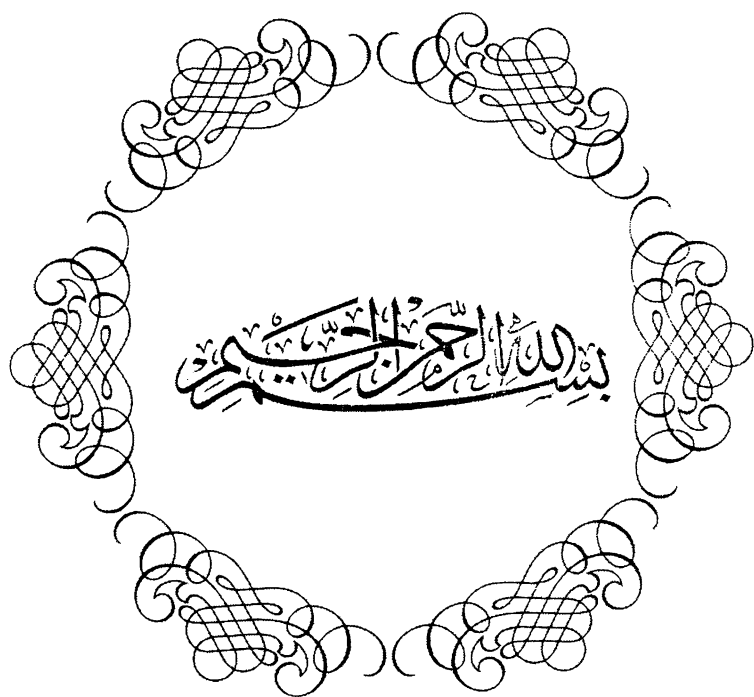
الباب الثاني: غزوة مؤتة.

الباب الثالث: السرايا بين مؤتة وفتح مكة.



غريب محمود قاسم

من علماء الأزهر الشريف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد

فهذه هي المجموعة السادسة من كتاب «الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر ﷺ»، أتناول فيه «غزوة مؤتة»، وما قبلها وما بعدها من الغزوات والسرايا إلى فتح مكة.

وتشتمل على ثلاثة أبواب:

الباب الأول: الغزوات والسرايا بين خيبر ومؤتة.

الباب الثاني: غزوة مؤتة.

الباب الثالث: السرايا بين مؤتة وفتح مكة.

وقد كانت غزوات وسرايا هذه المجموعة هي بداية الانطلاقة الكبرى نحو الشمال، حيث أمنت المدينة من جهة الجنوب بصلح الحديبية، وأمنت اليهود وشروهم بفتح خيبر، فكانت هذه الغزوات والسرايا الشمالية حيث القبائل الأخرى والروم.

وكانت غزوة مؤتة فاتحة المعارك الكبرى لفتوحات الشام والعراق، وقد أظهرت هذه الغزوة الفدائية والشجاعة العظيمة للصحابة رضي الله عنهم، كما أظهرت العبقرية العسكرية لسيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، كما وطدت هذه الغزوات والسرايا للإسلام في شبه الجزيرة العربية.

وقد حاولت جمع ما تيسر لدي من روايات حول هذه الغزوات والسرايا، وكذلك ما استطعت جمعه من أقوال العلماء في الدروس المستفادة من هذه الغزوات والسرايا.

والله أدعو أن أكون قد وفقت في عرض هذه الغزوة، واستعراض ما استخلصه علماؤنا الإجلاء من دروس وعظات وعبر حول هذه الغزوات والسرايا.

وإن كان من نقص أو عور فهو من قصوري العلمي، وأدعو الله أن يغفره لي، وأن يوفق إخواني المسلمين إلى أن يهدوا إليّ ما يرونه من جوانب استكمال هذا العمل المتواضع، فما هو إلا جهد المقل.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كتبه الفقير إلى عفوره / أبو عمر

غريب محمود محمد قاسم

ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة

ليسانس أصول الدين والدعوة - جامعة الأزهر

ليسانس الحقوق - جامعة القاهرة

زاوية البقلي - الشهداء - المنوفية

ت: ٠١١٤٠٨٤٧٤٧٨ - ٠١٠٠٦٥٣٦١١٠

MAKKA29167@Gmail.COM

النسخة الأولى في: الخميس الثاني من صفر ١٤٣٠هـ / ٢٩ من يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٩م.

وكانت آخر مراجعة وتنقيح في: الخميس ٧ شوال ١٤٣٩هـ / ٢١ يونيو (حزيران) ٢٠١٨م.

الباب الأول

الغزوات والسرايا بين خيبر ومؤتة

الفصل الأول: سَرِيَّةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ   إِلَى تَرْبَةَ.

الفصل الثاني: سَرِيَّةُ أَبِي بَكْرٍ   إِلَى نَجْدٍ.

الفصل الثالث: سَرِيَّةُ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ   إِلَى بَنِي مُرَّةٍ بِفَدَكٍ..

الفصل الرابع: سَرِيَّةُ غَالِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيِّ   إِلَى الْمَيْقَعَةِ.

الفصل الخامس: سَرِيَّةُ غَالِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيِّ   إِلَى مِصَابِ أَصْحَابِ
بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ   بِفَدَكٍ.

الفصل السادس: سَرِيَّةُ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ   إِلَى الْحَنَابِ.

الفصل السابع: غَزْوَةُ (عُمَرَةُ) الْقَضِيَّةِ (القضاء).

الفصل الثامن: سَرِيَّةُ الْأَخْرَمِ بْنِ أَبِي الْعَوْجَاءِ السُّلَمِيِّ   إِلَى بَنِي سُلَيْمٍ.

الفصل التاسع: سَرِيَّةُ غَالِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيِّ   إِلَى الْكَدِيدِ.

الفصل العاشر: سَرِيَّةُ كَعْبِ بْنِ عُمَيْرٍ   إِلَى ذَاتِ أَطْلَاحٍ.

الفصل الحادي عشر: سَرِيَّةُ شُجَاعِ بْنِ وَهَبٍ   إِلَى السَّيِّ مِنْ أَرْضِ بَنِي
عَامِرٍ مِنْ نَاحِيَةِ رُكْبَةَ.

الفصل الثاني عشر: سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ   إِلَى مَدْيَنَ (؟؟؟)

الفصل الثالث عشر: تعقيب على السرايا بين خيبر ومؤتة

الفصل الأول

سَرِيَّةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ   إِلَى ثُرَيَّةَ ^(١)

شعبان ٥٧هـ / ديسمبر (كانون أول) ٦٢٨م / كيهك ٣٤٥ قبطي

المبحث الأول

عرض سَرِيَّةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ   إِلَى ثُرَيَّةَ

قبائل هوازن ^(٢):

يقول أ/ باشميل: «كانت قبائل هوازن تُعتبر في منطقة الحجاز وأطراف نجد أقوى قوة ضاربة حيث كان باستطاعتها أن تحشد جيشاً يبلغ مائة ألف مقاتل.

وبعد انتصار المسلمين الساحق في خيبر في السنة السابعة من الهجرة، والذي به انتهى الوجود اليهودي الدخيل في جزيرة العرب أكلهم، لم يبق من العرب - بعد قريش - من يخشاه المسلمون غير قبائل هوازن التي لم تجرب حظها في صدام شامل مسلح مع المسلمين بعد.

أما بقية القبائل العربية الوثنية فقد خضد النبي   شوكتها وشل بحركاته العسكرية الناجحة كل تفكير لديها في التعرض للمسلمين، وخاصة قبائل نجد التي كانت أخشى ما يخشاه المعشر الإسلامي من بين جميع قبائل الجزيرة العربية.. لكون هذه القبائل تُعد من أعظم قبائل العرب وأكثرهم عدداً، ولكونها أقرب الوثنيين إلى المدينة حاضرة الإسلام الأولى، والتي طالما تلقت الإنذار بقرب غزو وشيك الوقوع تقوم به هذه القبائل النجدية القوية المحاربة الشرسة..

(١) تربة: موضع بناحية العباء على أربع ليال من مكة طريق صنعاء ونجران. طبقات ابن سعد ١١١/٢. وقال الصالحى: واد بقرب مكة على يومين منها يصب في بستان ابن عامر، وقيل في مكان غير ذلك. سبل الهدى ٦/٢٠٥.

(٢) هوازن (فتح الهاء وكسر الزاي) قبيلة عظيمة من العدنانية، قال في معجم قبائل العرب: ... بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ١هـ. تتفرع هوازن إلى عشائر كبيرة كثيرة تجمعهم أجرام ثلاثة، كلهم لبكر بن هوازن وهم بنو سعد بن بكر، وبنو معاوية بن بكر، وبنو منبه بن بكر، وإلى هؤلاء تنسب ثقيف، فهو جدهم. تمتد منازل هوازن من نجد تحت أواسط الحجاز وتخوم اليمن.. ومن أوديتهم، وادي حنين الذي لا يبعد عن مكة أكثر من ٢٥ كيلوا متراً، وهو الذي دارت فيه المعركة التاريخية الفاصلة بين المسلمين وبين قبائل هوازن في العهد النبوي، والتي أشارت إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]، وكانت هوازن في الجاهلية هي التي خاضت حرب الفجار المشهورة ضد قريش، وتقع سوق عكاظ الشهيرة في ديار هوازن.

فقد قَلَّمَ النبي   أظافر هذه القبائل العنيدة وألزمها موقف الدفاع عن النفس بعد أن كانت في موقف الهجوم، مُكِّي النفس بالإغارة على المدينة واحتلالها وتصفية الوجود الإسلامي تصفية دموية، وقد فعل النبي   هذا بتلك القبائل في سلسلة من الغارات الوقائية التي كانت تشنها وحدات من جيشه باستمرار على هذه القبائل حتى بعد انتصاره على اليهود في معركة خيبر..

فبعد أن انتهى النبي   من الحرب في خيبر جَرَّد على الأعراب الوثنيين سبع حملات تأديبية، أربع جردها على القبائل النجدية وثلاث جردها على قبائل الحجاز». [غزوة مؤتة لباشميل ٦٥-٦٦].

أحداث سرية عمر   إلى تربة:

يقول أ/ باشميل: «دورية حربية قام بها عمر بن الخطاب   إلى ديار هوازن الذين تُعتبر (تربة) يوم ذاك من منازلهم.

كانت هذه الدورية تتكون من ثلاثين راكبًا، كان هدفها - على ما يظهر - الاستطلاع والحصول على المعلومات وجس نبض هذه القبائل المعادية.

وقد كانت هذه الدورية موجهة إلى عجز هوازن (وهم بنو نصر بن معاوية وبنو جشم بن بكر).

[القاموس المحيط ١٨١/٢].

[جشم (بضم أوله وفتح ثانيه) قبيلة من هوازن. وهو بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن. كانت منازلهم في السروات. قال في معجم قبائل العرب: ... وهي بلاد تفصل بين تهامة ونجد متصلة من اليمن إلى الشام واسم جشم يطلق على قبائل كثيرة من القحطانية والعذنانية].

وبالرغم من أن المسافة التي قطعتها هذه الدورية الصغيرة بين المدينة وتربة لا تقل عن ثلاثمائة ميل، وبالرغم من كثرة هوازن المقصودين بهذه الدورية، فإنهم قد هربوا بمجرد علمهم بقرب مقدم عمر بن الخطاب  . [غزوة مؤتة لباشميل ٦٦-٦٧].

قال الواقدي: «حَدَّثَنَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ   عُمَرَ   فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا إِلَى عَجْزِ هَوَازِنَ بِثُرَيَّةَ، فَخَرَجَ عُمَرُ   وَمَعَهُ دَلِيلٌ مِنْ بَنِي هِلَالٍ (بطن من هوازن. وهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. من منازلهم في الجاهلية نجد والحجاز حول مكة وفي بسائط الطائف. معجم قبائل العرب ١٢٣١/٢)، فَكَانُوا يَسِيرُونَ اللَّيْلَ وَيَكْمُمُونَ النَّهَارَ، وَأَتَى الْخَبْرُ هَوَازِنَ فَهَرَبُوا، وَجَاءَ عُمَرُ   مُحَالِّهُمْ (بتشديد اللام المفتوحة جمع محلة وهي منزل القوم)، فَلَمْ يَلَقَ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَأَنْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى سَلَكَ النَّجْدِيَّةَ (نسبة إلى نجد وهو اسم للأرض التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام)، فَلَمَّا كَانَ بِالْجُدْرِ (بفتح الجيم وسكون الدال

المهملة وبالراء: مسرح الغنم على ستة أميال من المدينة بناحية قباء) قَالَ الْهَلَالِيُّ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ: هَلْ لَكَ فِي جَمْعٍ آخَرَ تَرَكْتَهُ مِنْ خَتْمٍ، جَاؤُوا سَائِرِينَ قَدْ أَجْدَبَتْ (الجذب: بفتح الجيم وسكون الدال المهملة ضد الخصب) يَلَادُهُمْ؟ فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: لَمْ يَأْمُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ، إِنَّمَا أَمَرَنِي أَصْمَدُ (بضم الميم: أفضد) لِقِتَالِ هَوَازِنَ بَثْرِيَّةَ. فَأَنْصَرَفَ عُمَرُ ﷺ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ. [الغازي للواقدي ٢/ ٧٢٢].

يقول أ/ باشميل: «ويظهر أن عمر بن الخطاب ﷺ قد تلقى من النبي ﷺ - عندما أسند إليه قيادة هذه الدورية - أمرًا بأن لا يتخطى في تحركاته حدود (تربة) بدليل أن ابن الخطاب ﷺ لما وصل برجاله إلى (تربة) ووجد أن هوازن قد هربوا لمقدمه عاد إلى المدينة دون أن يلقي حربًا، ودون أن يتعقب أولئك الفارين الذين أمر بأن يطأ بلادهم». [غزوة مؤتة لباشميل ٦٧].

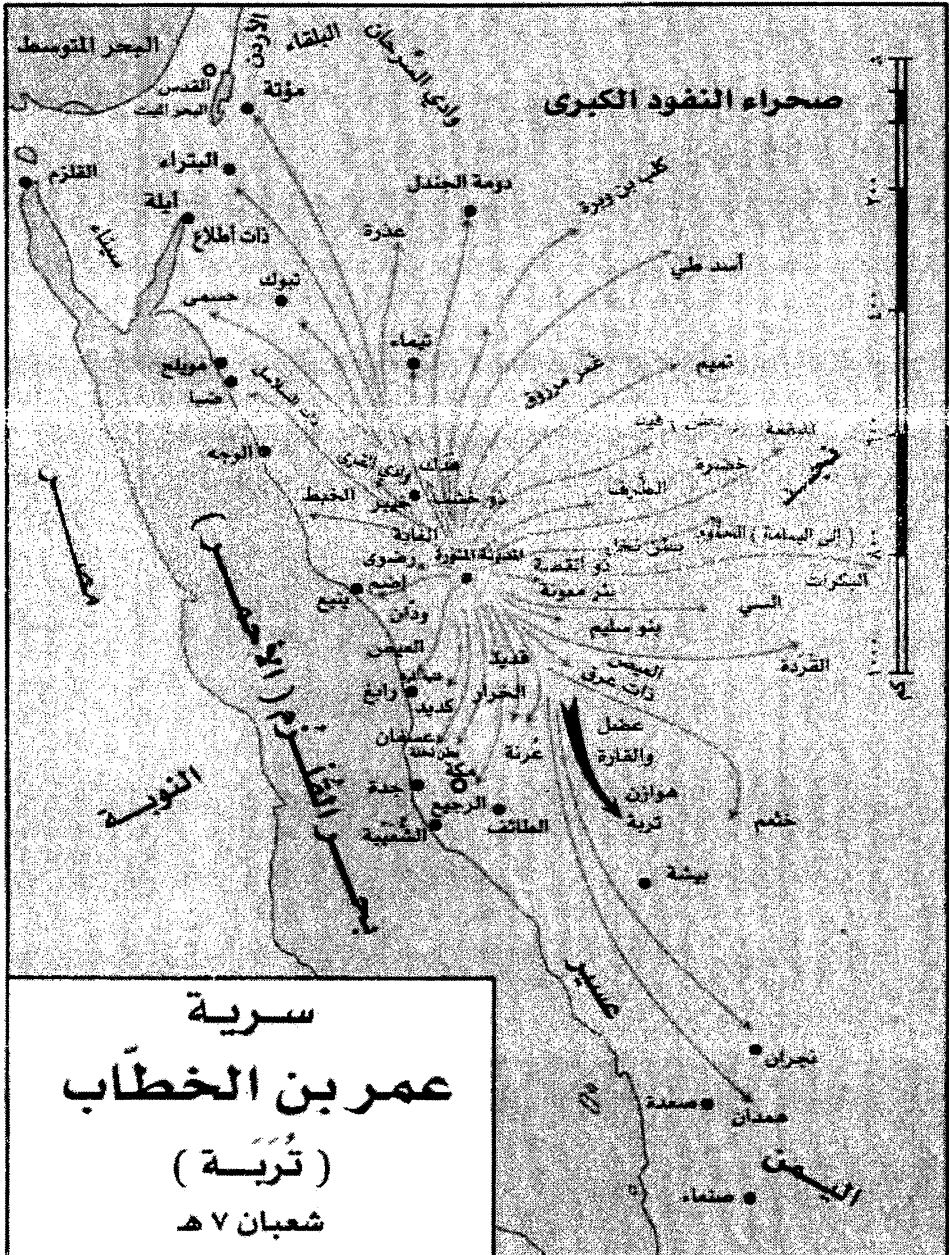
مصادر ومراجع الدراسة:

أ - كتّيب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: المنازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٧٢٢. الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/ ١١٠-١١١، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/ ٢٢، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٢/ ٢٩٢، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٤٤٦-٤٤٧، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٣٥٩، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٣٥٨-٣٥٩، إمتاع الأسع للمقرئزي (٨٤٥هـ) ١/ ٣٢٨، سبل الهدى والرشاد للصلحي (٩٤٢هـ) ٦/ ٢٠٥-٢٠٦، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٩١.

ب - كتب السيرة الحديثية: السيرة النبوية لرزق الله ٥٢٧.

ج - كتب الغزوات والسرّايا: غزوة مؤتة لباشميل ٦٥-٦٩.

(1)



أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ١٨٠.

(٢)



غزوات السنة السابعة من الهجرة المباركة

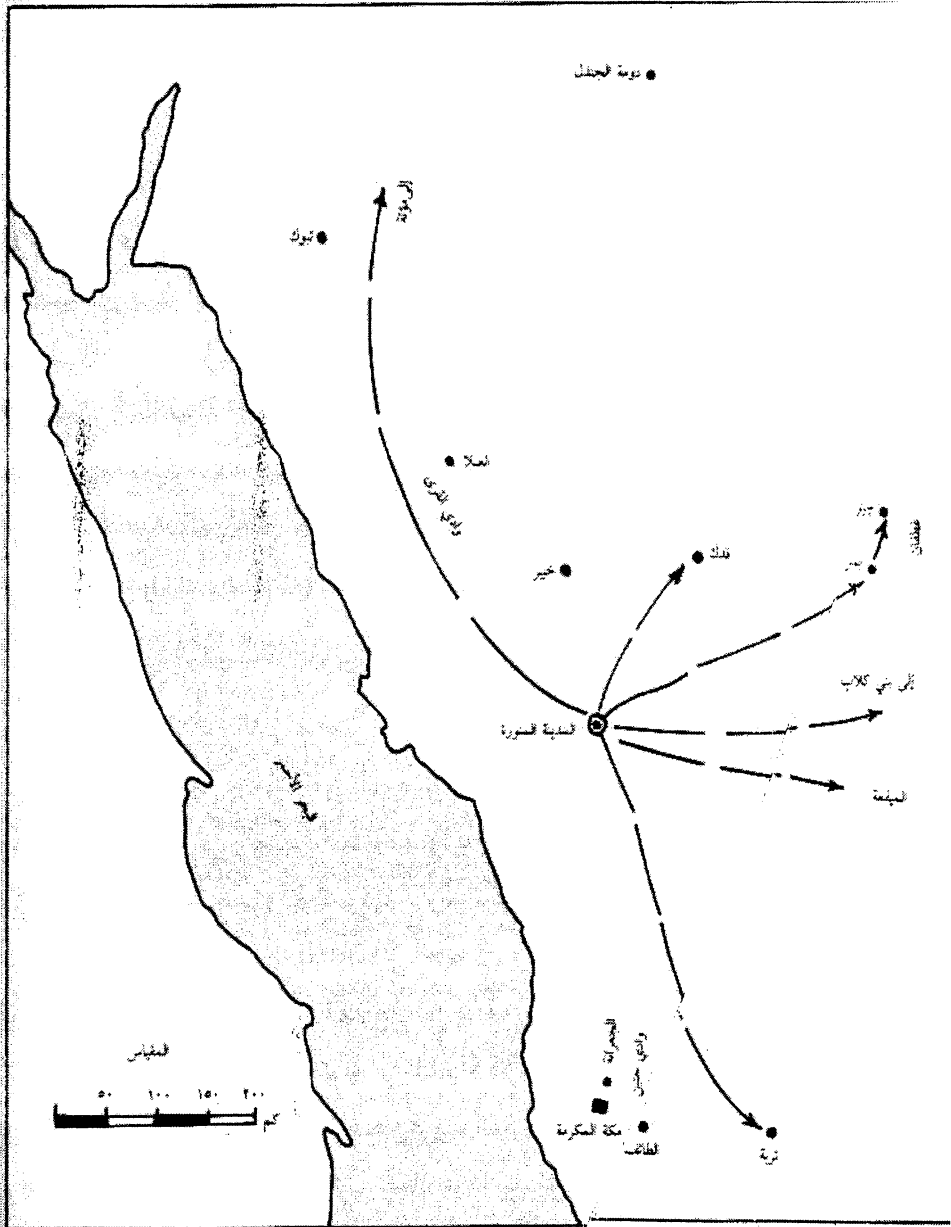
سرايا السنة السابعة من الهجرة المباركة

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ١٨٣.

[illegible]

حدائق الأنوار لبحرق ٥٤٩.

(٤)

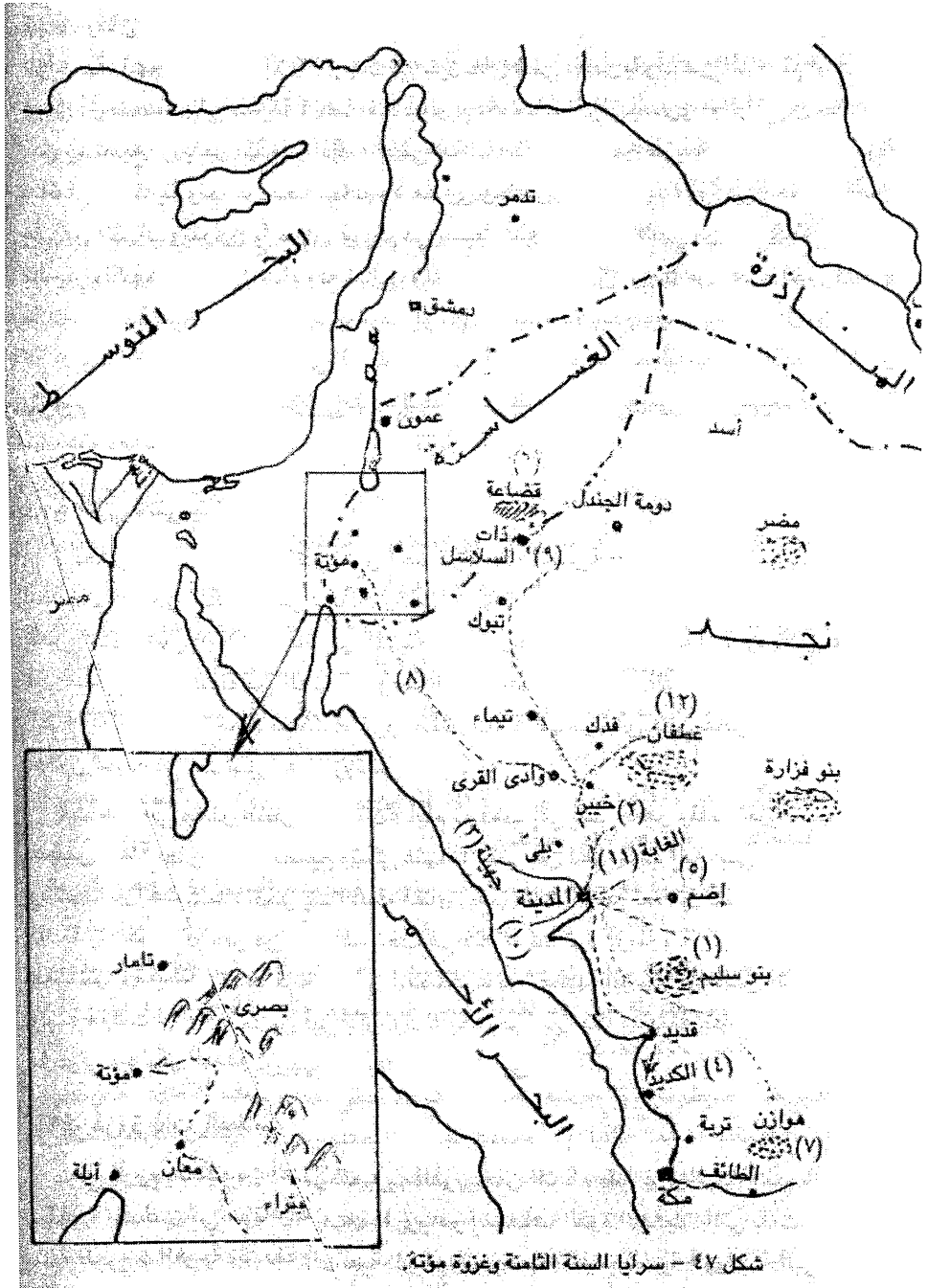


(خريطة رقم ٨)

التحركات المصاحبة للإسلامية بين فتح خيبر وفتح مكة

قراءة سياسية لسيرة النبوة لقلعجي ٢٢٢.

(٥)



شكل ٤٧ - سرايا السنة الثامنة وغزوة مؤتة

خاتم الأنبياء محمد   للبدراي ٧٥٤.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من

سَرِيَّةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ   إِلَى ثُرَيَّةَ

١ - جواز الاستيلاء على أموال الحريين:

سبق تفصيلها في سرية حمزة   إلى العيص ٢هـ.

٢ - أهمية الانضباط العسكري:

يقول أ/ باشميل: «وأثناء عودة القائد ابن الخطاب   بدوريته من ديار هوازن (بترية) حدث ما يدل على أن المسلمين كانوا أسبق الأمم إلى وضع قانون الانضباط العسكري الصارم الدقيق لقواتهم الحرية. فعندما عاد ابن الخطاب   من تربة برجال دوريته - وبينما كان على مقربة من مناطق معادية - اقترح عليه دليله (الهلال) أن يشن الغارة على قوم من الوثنيين - بإمكانه أن يسجل الانتصار عليهم - قائلاً: هَلْ لَكَ فِي جَمْعٍ آخَرَ تَرَكْتَهُ مِنْ خَشَعَمَ ثَقَاتِلُهُمْ؟ فرفض ابن الخطاب   هذا الاقتراح قائلاً: لَمْ يَأْمُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ، إِنَّمَا أَمَرَنِي أَصْمَدُ لِقِتَالِ هَوَازِنَ بِتُرَيْةَ.

وهكذا عاد الفارق   إلى المدينة دون أن يتعرض لتلك القبائل، رغم أنها وثنية معادية للإسلام والمسلمين؛ وذلك تقيداً من الأمير ابن الخطاب   بأوامر القائد الأعلى النبي ﷺ التي حددت له مهمته وهي (فقط) الإغارة على (هوازن).

وهذا هو الانضباط العسكري الصحيح الذي سبق إليه الإسلام كل النظم والقوانين في العالم».

[غزوة مؤتة لباشميل ٦٨-٦٩].

ويقول د/ الحميدي: «موقف لعمر   في طاعة أمر النبي ﷺ وعدم التقدم عليه، وذلك حينما أشار الدليل عليه بغزو قبيلة أخرى قد رحلت من ديارها فأبى عليه وقال: «لَمْ يَأْمُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ» وهذا مثل من الانضباط ولزوم النظام القائم في دولة الإسلام آنذاك، وهو الذي يتمثل بتخطيط النبي ﷺ وتوجيهه وإدارته». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/٧٦].

ويقول أ/ يونس: «إن تحديد الهدف، وعدم الالتفات إلى الأهداف الأخرى من عوامل نجاح الاستخبارات، والحصول على المعلومات، وهذا الهدف تحقق في سرية عمر بن الخطاب  ، فلقد التزم بتحديد الهدف الذي رسمه له الرسول القائد ﷺ، وهو قتال هوازن في أرضهم، فلما هربوا وقيل له: هل لك في قتال خثعم؟ فقال عمر  : إن رسول الله ﷺ حدد لي الهدف، ولم يأمرني إلا بقتال هوازن».

[الاستخبارات في غزوات الرسول ﷺ ليونس ١٥١].

٣- هدف الجهاد في الإسلام:

ويقول د/ الغضبان: «كان مبدأ الغزو هو الذي يسود العرب قبل الإسلام، وتاريخهم وأيامهم كلها يقوم على الفخر بهذه الأجداد من حيث الشجاعة والبطولة والجرأة، ومن هذا المنطلق عرض الدليل الهلالي (بني هلال من عامر بن صعصعة) فكرة غزو قبيلة خثعم، حيث يمكن أن تعود السرية بالغنائم الكبيرة والقتل للعديد من رجال هذه القبيلة، فرفض الفاروق   الأمر من جذوره، وأكد أنه جندي ينفذ أوامر قائده محمد   حيث وجهه إلى تربة، وبالذات إلى عجز بني هوازن، وخثعم لا علاقة لها بهوازن إلا قرب الجوار، فأى معنى يكمن في غزوها وسلبها وسبي أطفالها ونساءها.

إن هذا الجيل يتربى على حرمة الدم، وحرمة المال، وحرمة العرض، وليس القتال والسلب والنهب هو الهدف، إنما الهدف هو حماية الدعوة من أعدائها، وحماية الدولة المسلمة من خصومها، وليست المهمة الاعتداء دون سلبك الخط الأول الذي يقرم على أساس تبليغ دعوة الله تعالى إلى القبائل.

ونشير هنا إلى أن هذا العهد الجديد، إنما ابتدأ بدعوة حُكَّام الأرض إلى الإسلام في أقصى الأرض. وكانت هذه هي الخطوة الأولى في هذا العهد، عن انتشار الإسلام، أما دعوة القبائل إلى الإسلام ومن خلال سرايا تتحرك من المدينة، فلم تبتدئ هذه الخطوات بعد؛ ولهذا قرر عمر   عدم المواجهة مع بني خثعم، وفتح جبهة معهم، وعاد إلى المدينة حين فرت هوازن من المواجهة، ولم يلق منهم أحداً في موقعه. وإشارة أخيرة تعطى العجب لفرار هوازن من سرية قوامها ثلاثون رجلاً، بينما يزول العجب حين نذكر أن عمر بن الخطاب   ذا السمعة الضخمة، والصيت البعيد لقوته وبأسه كان له الدور الفعال في ذلك». [الترية الجماعية للغضبان ١/ ٣٨-٣٩].

٤- تحقيق السرية لأهدافها:

يقول أ/ باشميل: «وعلى العموم، فقد حققت دورية ابن الخطاب   أهدافها على الصعيد المعنوي إلى أبعد الحدود، فقد أثبت اجتياز هذه الدورية الصغيرة، تلك المناطق النائية الممتدة مئات الأميال وسط قبائل كلها لا يزال على شرکه عدوًا للمسلمين، أثبت هذا الاجتياز، أن المسلمين بعد انتصارهم على اليهود في معركة خيبر الحاسمة، أصبحوا سادة الموقف، قد فرضوا هيبتهم على من تبقى من العرب على الوثنية، وأن العرب والفرع والخوف من قوة المسلمين الحربية قد تمكنت من نفوس تلك القبائل وسيطرت عليها، حتى باتت تخاف لمجرد سماعها بذكر المسلمين.

وإلا فما هو التفسير لأن تتمكن دورية صغيرة لا تزيد على ثلاثين رجلاً من أن تقطع تلك المسافات الشاسعة، داخل أراضي كل سكانها الذين يُعدون بالآلاف، عدو للإسلام والمسلمين، دون أن يجراً أحد من هذه القبائل المعادية لهذه الدورية التي جاست خلال ديار هذه القبائل على التعرض لها.

تأثير سقوط خيبر على معنويات الأعراب: إنه لا يمكن إعطاء تفسير لهذه الظاهرة إلا بالقول: إن استيلاء المسلمين على معقل اليهود في خيبر - التي يُعتبر اليهود فيها أقوى قوة ضاربة للكفر في جزيرة العرب من حيث التنظيم وجودة التسليح - قد أّثر على معنويات الوثنيين العرب تأثيراً كبيراً إلى درجة تمكن معها ثلاثون رجلاً من المسلمين أن يطأوا بلاد قوم تُعد قواتهم الحربية بعشرات الآلاف (وهم هوازن) دون أن يجد هؤلاء المسلمون القليلون من يصمد بوجههم». [غزوة مؤتة لباشميل ٦٨].

الفصل الثاني

سرية أبي بكر رضي الله عنه إلى نجد

شعبان ٧هـ / ديسمبر (كانون أول) ٦٢٨م / كيهك ٣٤٥ قبطي

المبحث الأول

عرض سرية أبي بكر رضي الله عنه إلى نجد

الخلاف حول هذه السرية:

ذكر كثير من كتاب السيرة قديماً وحديثاً هذه السرية أنها إلى فزارة، وذكروا فيها حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه الذي استوهب فيها رسول الله ﷺ منه الجارية التي فادى بها بعض المسلمين الأسرى في مكة. إلا أن الواقدي ذكر هذه السرية إلى هوازن بنجد، وأرخ لها بشعبان سنة سبع.

وقد سبق ترجيح د/ بريك للقول بأن هذه السرية التي يتحدثون عنها كانت قبل الحديبية حيث قال: «أما ما يُفهم من روايات أهل الحديث فيفهم من قول سلمة رضي الله عنه عندما سأله النبي ﷺ الجارية: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْجَبْتَنِي، وَمَا كَشَفْتُ لَهَا تَوْبًا» وسكوت رسول الله ﷺ، وتركه الإنكار عليه، دليل على أنهم يستبشرون إذ ذاك وطء الوثنيات، وذلك قبل نزول تحريمه بعد الحديبية.

[ينظر: الخطابي: معالم السنن ٣/ ١٤٦ وهذه المسألة خلافية بين الفقهاء].

ففي ذلك دليل على أن السرية كانت قبل الحديبية.

وكذلك إرسال النبي ﷺ الجارية إلى أهل مكة ليفتدي بها أسيرين من المسلمين كانوا عندهم، دليل آخر على أن السرية كانت قبل الحديبية؛ لأن اتفاقية الحديبية كانت اتفاقية سلام ومعاودة صلح بين المسلمين ومشركي مكة سوّت الوضع القائم بينهما، وأعتقد أنه كان لا يمكن استثناء الأسرى من الاتفاقية لو وُجدوا، فذلك دليل على أن الأسرى قد سوّو وضعهم قبل الحديبية حيث لم يرد في بنود المعاهدة أي ذكر عنهم، والله تعالى أعلم. [ينظر: مرويات الحديبية ١٦٦، غزوة مؤتة لبريك ٥٩-٦١].

وربما اشتبه الأمر عليهم لمشاركة سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في السريتين.

وقال الصالحى: «ثم روى ابن سعد من الطريق السالفة عن سلمة رضي الله عنه القصة السابقة في السرية إلى بني فزارة، وقتل أم قرفة بناحية وادي القرى، مع ذكره لها أولاً، وتبعه على ذلك في العيون هنا، وشيخه الواقدي اقتصر على ما ذكرناه هنا عن سلمة رضي الله عنه، فسَلِمَ من الوَهْم». [سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٠٧]. وبناء عليه اخترت رأي الواقدي في التفريق بين السريتين، وروايته المختصرة لأحداث هذه السرية.

أحداث السرية:

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ ﷺ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ زَمَنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانَ شِعَارُنَا: أَمْتُ أُمْتُ.

[أبو داود في الجهاد (٢٥٩٦)، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح].

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ ﷺ قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا أبا بَكْرٍ ﷺ، فَغَزَوْنَا نَاسًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَبَيَّتْنَاهُمْ نَقْتُلُهُمْ، وَكَانَ شِعَارُنَا تِلْكَ اللَّيْلَةُ: أَمْتُ أُمْتُ.

قَالَ سَلَمَةُ ﷺ: «فَقَتَلْتُ بِيَدِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ سَبْعَةَ أَهْلِ أُبَيَاتٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

[أبو داود في الجهاد (٢٦٣٨)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ ﷺ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ هَوَازَنَ، عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَتَيْنَا مَاءَ لَبْنِي فَرَازَةَ فَعَرَّسْنَا حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ شَنَّاهَا عَلَيْهِمْ غَارَةً، فَأَتَيْنَا أَهْلَ مَاءٍ فَبَيَّتْنَاهُمْ، فَقَتَلْنَاهُمْ تِسْعَةَ أَوْ سَبْعَةَ أُبَيَاتٍ. [ابن ماجة في الجهاد (٢٨٤٠)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

قال الواقدي: «حَدَّثَنِي حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ، عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ، عَنْ إِيَّاسِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أبا بَكْرٍ ﷺ وَأَمْرُهُ عَلَيْنَا، فَبَيَّتْنَا نَاسًا مِنْ هَوَازَنَ، فَقَتَلْتُ بِيَدِي سَبْعَةَ أَهْلِ أُبَيَاتٍ، وَكَانَ شِعَارُنَا: أَمْتُ أُمْتُ!». [المغازي للواقدي ٢/٧٢٢].

وقال الصالحى: «أمت أمت: مرتين: أمر بالموت، والمراد به التفاؤل بالنصر بعد الأمر بالإماتة مع حصول الغرض للشعار فإنهم جعلوا هذه الكلمة علامة يتعارفون بها لأجل ظلمة الليل».

[سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/٢٠٨].

وقال الصالحى: «قَالَ حَمْزَةُ: فَسَيِّئَا هَوَازَنَ، وَقَالَ هِشَامُ بْنُ الْقَاسِمِ: فَسَيَّيَ نَاسًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَقَتَلْنَاهُمْ».

[سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/٢٠٧].

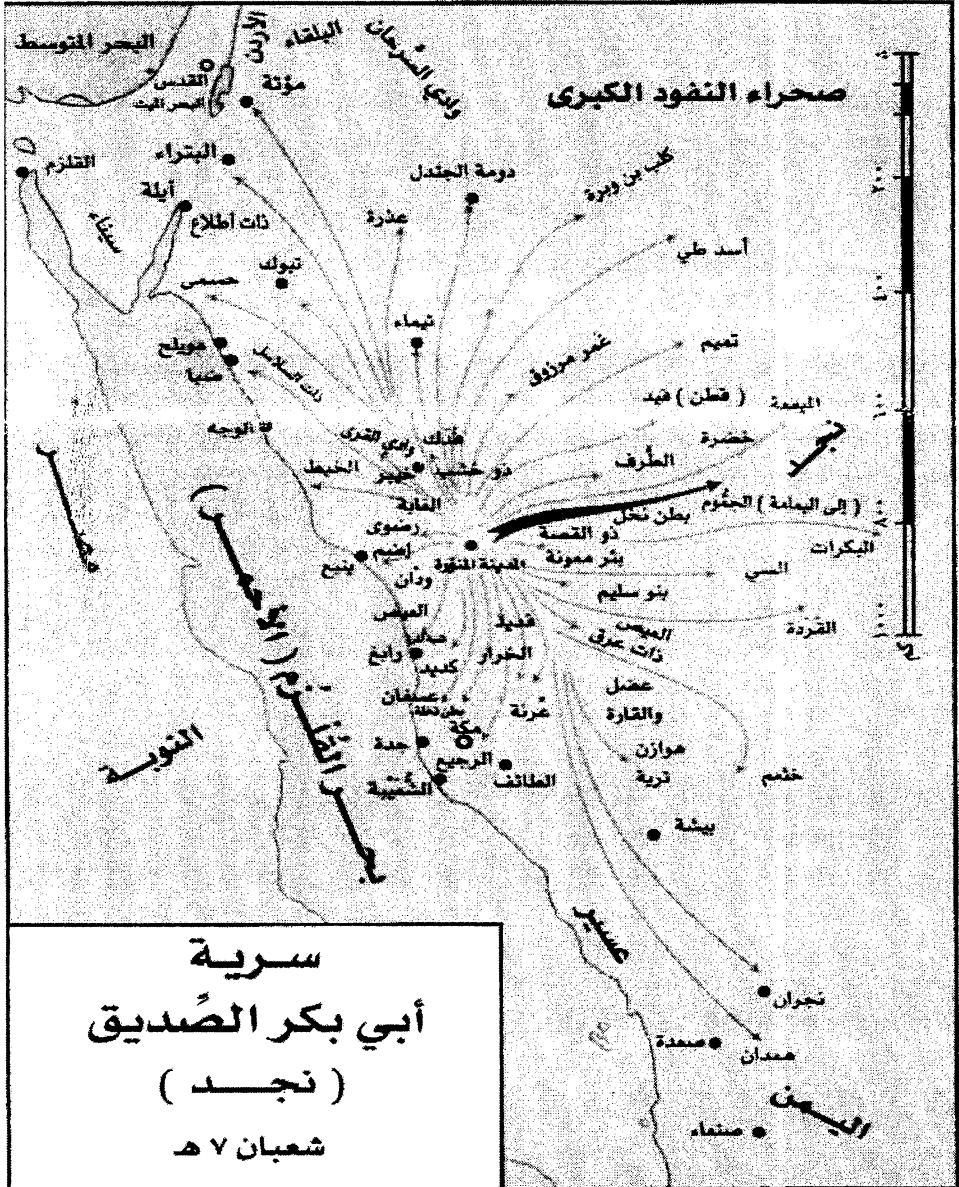
مصادر ومراجع الدراسة:

أ - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/٧٢٢، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/١١١-١١٢، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/٢٢، دلائل النبوة لليبهي (٤٥٨هـ) ٤/٢٩٠-٢٩١، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/٤٤٦، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/٣٥٩، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/٣٥٧-٣٥٨، إمتاع الأسباع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/٣٢٨، سبل الهدى والرشاد للصالحى (٩٤٢هـ) ٦/٢٠٧-٢٠٨، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٣/١٩١.

ب - كتب السيرة الحديثة: صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٦٦، السيرة النبوية لرزق الله ٥٢٧.

ج - كتب الغزوات والسرائيا: غزوة مؤتة لباشمیل ٧٢-٧٣، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١١٢، مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٧٩-١٩٢.

خرائط سرية أبي بكر رضي الله عنه إلى نجد



أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ١٨١.

وتنظر الخرائط المصاحبة لسرية عمر رضي الله عنه إلى تربة.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة

من سِرِّيَّةِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ إِلَى نَجْدٍ

١ - اختيار الفرد المناسب للمهام الصعبة:

يقول د/ الغضبان: «لقد كانت هذه السرايا استطلاعية أكثر منها سرايا حربية، وإعلامية أكثر منها عسكرية، وهدفها مباغته العدو وإشعاره بالقوة الإسلامية والوجود على الساحة؛ ومن أجل هذا اختير لها شخصيات تاريخية، طارت شهرتها في الأفاق العربية، فالصديق ﷺ هو أشهر وأكبر شخصيات هذه الدولة بعد رسول الله ﷺ، وهو الوزير الأول عنده، ومع ذلك بعثه على رأس هذه السرية معنًا في أرض نجد، حيث وصل ضرية من أرض بني هوازن، كما وصل الشخص الثاني في الدولة المسلمة عمر بن الخطاب ﷺ إلى تربة هوازن كذلك، أو فرع منها.

وليس بين رسول الله ﷺ وهوازن ثأر، إلا ما كان من عامر بن الطفيل سيد بني عامر بن صعصعة، والذي فتنك بسبعين من القراء في بئر معونة، وعامر بن صعصعة من هوازن، وتكاد تكون السرايا في نجد بعد الحديبية معظمها مع غطفان، فهي العدو الوحيد الذي بقي متربصًا على الساحة بعد سقوط اليهود في خيبر والهدنة مع قريش، وكل ما لدينا من معلومات عن سرية الصديق ﷺ ما حدثنا عنه سلمة بن الأكوع ﷺ البطل الجريء، الذي شهدناه يواجه كتيبة وحده في غزوة ذات قرد، يحدثنا عن أنه قتل بيده سبعة أهل آيات من هوازن، وهذا يعني أنه قد تم اصطدام بين الفريقين، وهُزم المشركون في المعركة، والجانب الإعلامي فيها هو الرعب الذي يحل بالقبائل المجاورة، بأن سلطان محمد ﷺ قد تجاوز الحجاز إلى نجد، وأن القبائل العربية الكبرى ستعيد حساباتها في تقويم أمر محمد ﷺ.

وإن كانت الروايات تشير إلى أن سرية أبي بكر الصديق ﷺ إنما كانت إلى بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة في ضرية، فعامر بن الطفيل هو من كلاب بن ربيعة، وهو الذي أوقع بالمسلمين أكبر محنة بعد أخذ بغدره ولؤمه، فكان لا بد أن تصله كتائب محمد ﷺ بقيادة أشهر شخصية إسلامية هي أبو بكر الصديق ﷺ، كما أن المصادر لم تُشر إلى عدد أفراد هذه السرية والظاهر أنه عدد قليل؛ لأن نوعية السرايا الاستطلاعية والإعلامية التي ستحدث عنها كانت في أعداد قليلة دون المائة أو الخمسين في أحيان أخرى.

وإنها لمغامرة فذة يقدم عليها المصطفى ﷺ فيقدم أعظم شخصية عنده مع هذا النفر القليل يضربون في الصحراء معنيين فيها وفي قلب البادية العربية، وتشبهها المغامرة نفسها في إرسال الشخصية الثانية في

الامة، عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحدود ثلاثين راكباً إلى تربة، وهوازن فيها، وإن كان فرع هوازن في تربة هم بنو نصر، وهم الذين قادوا فيما بعد حرب المواجهة في حنين بقيادة سيدهم مالك بن عوف النصري.

والملاحظ أن السريتين تحركتا في شهر واحد هو شهر شعبان، ولعل هذا التحرك في هذا الموعد هو للحيلولة دون أن يمد أحدهما الآخر، وهما ينتميان إلى أصل واحد وهو هوازن.

وأما ضربة فقد ذكرت عند القسطلاني كما في شرح المواهب: الثانية (ثم سرية أبي بكر الصديق) أفضل الصحب بلا منازع كما قام عليه من أهل السنة الإجماع وغيرهم محجوجون بما صح عن علي - كرم الله وجهه - أنه خير منه رضي الله عنه (إلى بني كلاب) بكسر الكاف وخفة اللام قبيلة (بنجد بناحية ضربة) يقال: إنه اسم امرأة سمي به الموضع، قال في الصحاح: قرية لبني كلاب على طريق البصرة إلى مكة أقرب (في شعبان سنة سبع) [شرح المواهب للزرقاني ص ٢٤٩]. [التربية الجماعية للغضببان ١/ ٣٧-٣٨].

٢ - اتخاذ الشعار:

يقول د/ أبو فارس: «لقد مرَّ معك أن شعار المسلمين كان: أمت أمت، وقد وُفِّقوا في هذا الشعار، لما له من أثر نفسي على المشركين حيث يسوقونهم إلى الموت ويزهقون أرواحهم، وفي نفس الوقت له أبلغ الأثر في رفع معنويات الجنود المسلمين، ولعل الشعار كان بمثابة سر الليل، وعلامة فاصلة يميز بها المسلم من غير المسلم». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٢].

وقد فصلنا الحديث عن اتخاذ الشعار في المرحلة الأولى نت غزوة بدر الكبرى.

٣ - جواز التعرض لأموال الحريين:

سبق تفصيلها في سرية حمزة رضي الله عنه إلى العيص ٢ هـ.

الفصل الثالث

سرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى بني مرة بفدك

شعبان ٥٧هـ / ديسمبر (كانون أول) ٦٢٨م / كيهك ٣٤٥ قبطي

المبحث الأول

عرض سرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى بني مرة ^(١) بفدك

تاريخ السرية:

يقول د/ بريك: «أَرخ لها الواقدي [الغازي ٢/ ٧٢٣]، وابن سعد [الطبقات ٢/ ١٨٨]، شعبان سنة سبع من مهاجر رسول الله ﷺ.

وذكرها خليفة بن خياط ضمن السرايا التي كانت سنة خمس، ولم يُحدّد الشهر الذي كانت فيه.

[تاريخ: ٧٨].

وأخرج البيهقي خبر السرية مقتضباً بسنده عن عروة، والزهري، وموسى بن عقبة، ولم يذكر لها تاريخاً؛ لأنه سردها ضمن السرايا والبعوث دون الخوض في التفاصيل، وإنّما رتبها بعد بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه نحو اليمن، وقبل بعث عبد الله بن عتيك رضي الله عنه إلى أبي رافع. [دلائل النبوة ٥/ ٤٦٤].

كما أخرجه أيضاً بسنده عن ابن إسحاق، الذي رواه مختصراً في جملة السرايا والبعوث، حيث رتبها بعد سرية محمد بن سلمة رضي الله عنه إلى موضع بهوازن، وقبل سرية بشير بن سعد رضي الله عنه - أيضاً - إلى موضع كداء.

[دلائل النبوة ٥/ ٤٦٧، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشالية لبريك ١٣٣].

سبب السرية:

يقول د/ بريك: «لم توضّح روايتا الواقدي، وابن سعد - وهما من تحدّثا بتفصيل عن هذه السرية - سبب بعث هذه السرية.

وأعتقد - والله تعالى أعلم - أنّ هذه السرية تدخل في نطاق جهود النبي ﷺ في تحطيم وتمزيق الحلف الخبيري المكوّن من يهود خيبر، وفدك، وتيماء، ووادي القرى، والقبائل الغطفانية، وغيرها، المحيطة بهذه المدن والقاطنة في باديتها، وبما أنّ المبعوث إليهم هذه المرة هم بنو مرة، وهي قبيلة غطفانية، ذات شأن في

(١) بنو مرة: قبيلة مشهورة من غطفان، ينتسبون إلى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان، منهم هرم بن سنان الذي مدحه زهير بن أبي سلمى، وخارجة بن سنان - الذي أخرج من بطن أمّه بعد أن ماتت -، وخريم الناعم. جمهرة أنساب العرب ٤١٦ - ٤١٨.

واسم مرة يطلق على قبائل كثيرة من العدنانية والقحطانية. ومرة هنا هم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان.

المنطقة، بل إنَّهَا قَدَّمت للحلفاء في غزوة الأحزاب أربعمائة مقاتل [ينظر: ابن الجوزي: الوفاء ٧١٣]، فذلك يعني أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أراد بهذه السرية التي كانت عبارة عن دورية قتال صغيرة، إضعاف هذه القبيلة اقتصادياً بأخذ أموالهم ومواشيهم في غفلة منهم، تأديباً لهم على مشاركتهم في حلف الأحزاب، ومنعاً لهم من الاستمرارية في الحلف مع اليهود. والله تعالى أعلم. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٣٤].

بنو مرة والعداء للإسلام:

يقول أ/ باشميل: «كان بنو مرة من القبائل النجدية المعادية للإسلام، وكانت هذه القبيلة أحد الأجنحة الأربعة للقوات النجدية الضاربة التي اشتركت مع قريش واليهود في حملة الأحزاب الشهيرة التي نظمها اليهود لاقتلاع الوجود الإسلامي من المدينة ومن الجزيرة كلها، وقد كان قائد جناح بني مرة في غزوة الأحزاب الحارث بن عوف المري.

إلا أن هذا الزعيم النجدي رفض مساندة اليهود في خيبر عندما طلب اليهود نجدة غطفان ضد النبي ﷺ، بل لقد نصح الحارثُ هذا عيينة بن حصن الخزاعي قائد قوات غطفان بأن لا يكرر الخطأ بمساندته اليهود مرة أخرى ضد المسلمين.. ولكن عيينة رفض نصح الحارث، فساند اليهود فباء بالفشل الذريع. لم يكن بنو مرة في رفضهم مساندة اليهود في خيبر ينطلقون من إيمانهم بالنبي ﷺ، وإنما ينطلقون من قناعة قائدهم أن لا فائدة من مساندة اليهود لأن النبي ﷺ سيتنصر في ملحمة خيبر، كما أخبر اليهود أنفسهم بذلك الحارث بن عوف (لم أجد فيما بين يدي من مصادر أنه أسلم).

أما عداء بني مُرَّة للنبي ﷺ ورغبتهم في الإطاحة به وبدينه، فقد ظلَّتا على ما هما عليه لم تتغير. فقد ظلُّوا للنبي ﷺ أعداءً محارِبين؛ ولذلك فقد كانوا في رأس قائمة القبائل الوثنية التي قرر النبي ﷺ - بعد انتصاره على اليهود في خيبر - أن يشن عليهم الغارات التأديبية لإرهابهم، وإقناعهم عملياً بأنه ليس بإمكانهم أن يعودوا إلى موقف المهاجم في نزاعهم مع الإسلام والمسلمين. [غزوة مؤتة لباشميل ٦٩-٧٠].

أحداث السرية:

قال البيهقي: «وبعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ نحو بني مرة بفدك». [أخرجه البيهقي (دلائل ٥/ ٤٦٢، ٤٦٤)، بسنده، من طريق أبي الأسود، عن عروة. ومن طريق محمد بن فليح عن موسى بن عقبة، عن الزهري. ومن طريق إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة، ومحمد بن فليح، عن موسى بن عقبة. وهو من مراسيل عروة، والزهري، وموسى بن عقبة، وهم من أئمة المغازي الثقات المشهورين. كما أنه يتقوَّى ببعضه. والله أعلم]. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٣٥].

ويقول أ/ باشميل: «ففي شهر شعبان (أي بعد خمسة أشهر من فتح خيبر) انتخب النبي ﷺ دورية حربية قوامها ثلاثون رجلاً، وأسند قيادة هذه الدورية إلى بشير بن سعد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكلفه أن يطأ

بدورته الحربية ديار قبيلة بني مرة في فدك الواقعة على أميال قليلة من خير؛ ليصيب منهم في الأرواح والأموال ما أمكنه ذلك.

وخرج بشير بن سعد رضي الله عنه من المدينة بدورته وما زال يسير بها حتى وصل فدك التي لا تبعد عن المدينة أكثر من ستين ميلاً.

وعندما وصل القائد بشير رضي الله عنه إلى منازل بني مرة بفدك لم يجد أحداً من المحاربين، وإنما وجد رعاة في الشاء والإبل، ولدى استجوابه الرعاة، اتضح له أن المحاربين من بني مرة في بواديهم خارج فدك، فاكتفى باستياق الشاء والإبل كأموال لعدو محارب، ثم اتجه بها نحو المدينة راجعاً.

بنو مرة يبيدون الدورية:

وقد حدث أن أحد الرعاة تمكن من الإفلات من أيدي رجال الدورية، فانطلق بأقصى سرعة وأخبر المحاربين باستيلاء دورية بشير بن سعد رضي الله عنه على مواشيهم وجوسهم خلال الديار في فدك. وكان بنو مرة (كما قلنا) من أقوى وأشر القبائل النجدية، وكانوا أهل نجدة وشجاعة. فعندما تلقوا نبأ الإغارة على ديارهم واستياق مواشيهم، تسابق رجالهم ليلحقوا بدورية بشير بن سعد رضي الله عنه، وفعلاً تمكنوا من ذلك.

فقد أدركت طلائع فرسان بني مرة بشير بن سعد رضي الله عنه ودورته على مسافة أميال قليلة من (فدك). وكان بشير بن سعد رضي الله عنه قد تبكّع من عيونه (استخباراته) نبأ مطاردة بني مرة لدورته، فتحصن برجاله.

ووصلت طلائع فرسان بني مرة فبادروا بالهجوم، فقابلهم المسلمون بالسهم من تحصيناتهم، فظل الفريقان يترامون بالنبل حتى حجز الليل بينهم.

وكان بشير ورجال دورته يعتمدون في الدرجة الأولى على السهم في صد الهجوم، ولكن نبال الدورية - لكثرة الترامي - نفدت، وأصبح القائد بشير ودورته في وضع حرج للغاية. فقد توافد محاربو بني مرة أثناء الليل على مكان المعركة حتى بلغوا عدة أضعاف رجال الدورية الذين لا يزيدون على ثلاثين رجلاً.

فعندما أصبحوا، وجد بشير بن سعد رضي الله عنه دورته محاطة بأعداد هائلة من بني مرة الذين شنوا على الدورية هجوماً من جميع الجهات.

فصار همُّ رجال الدورية الدفاع عن أنفسهم، فاشتبكوا مع المشركين في قتال مرير ضار، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة (كما يقولون).

فقد تمكن بنو مُرَّةَ من التغلب على رجال الدورية، فأبادوهم جميعاً، ولم ينج منهم سوى رجل واحد هو علبة بن زيد الحارثي ﷺ.

أما قائد الدورية (بشير بن سعد ﷺ) فقد قاتل قتالاً مريراً حتى أئخسته الجراح فسقط بين القتلى لكثرة ما أصابه من النزيف الشديد، فظنه المريون قد قُتل بعد أن فحصوه فلم يجدوا به حراكاً.. واسترجع المريون كل الشاة والإبل التي استاقها دورية بشير بن سعد ﷺ.

أما بشير نفسه، فإنه - بعد أن انصرف بنو مرة من مكان المعركة - تحامل على نفسه حتى تمكن من الوصول إلى قرية فذك وهناك آواه أحد اليهود الداخلين في ذمة المسلمين، فظل عند اليهودي حتى شُفيت جراحه.

أما علبة بن زيد ﷺ فقدم على رسول الله ﷺ وأخبره خبر القوم، ثم لحق من بعد بشير بن سعد ﷺ.

[خزوة مزنة لباشميل ٧٠-٧٢].

قال الواقدي: «حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ الْفَضِيلِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشِيرَ بْنَ سَعْدٍ ﷺ فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا إِلَى بَنِي مُرَّةَ بِضَدِّكَ، فَخَرَجَ فَلَقِيَ رِعَاءَ (جمع راع) الشَّاءِ فَسَأَلَ: أَيْنَ النَّاسُ؟ فَقَالُوا: هُمْ فِي بَوَادِيهِمْ (البوادي: جمع بادية)، وَالنَّاسُ يَوْمِئِذٍ سَاتُونَ لَا يَخْضُرُونَ الْمَاءَ، فَاسْتَأَقَ النَّعَمَ وَالشَّاءَ وَعَادَ مُنْهَدِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَخَرَجَ الصَّرِيخُ (المستغيث) فَأَخْبَرَهُمْ، فَأَذْرَكَهُ الدُّهُمُ (بفتح الدال المهمله وسكون الهاء وباليم: العدد الكثير، وجمعه الدهوم بضم الدال) مِنْهُمْ عِنْدَ اللَّيْلِ، فَبَاتُوا يَرَامُونَ بِالنَّبْلِ حَتَّى فَنَيْتَ نَبْلُ أَصْحَابِ بَشِيرٍ ﷺ، وَأَصْبَحُوا وَحَمَلَ الْمُرِيُّونَ عَلَيْهِمْ فَأَصَابُوا أَصْحَابَ بَشِيرٍ، وَوَلَّى مِنْهُمْ مَنْ وَلَّى، وَقَاتَلَ بَشِيرٌ ﷺ قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّى ضُرِبَ كَعْبُهُ (الكعب: هو العظم الناشز فوق القدم من جانبيها. وضربه هنا هو للاستدلال على حياة الجريح من عدمها، فإذا تحرك بعد الضرب عرفوا أن به حياة، والعكس صحيح) [أُرْتُتَ] (بضم أوله وسكون الراء وضم الفوقية وبالثلثة: حمل من المعركة رثيًّا أي جريحًا وبه رمق)، وَقِيلَ: قَدْ مَاتَ، وَرَجَعُوا بِنَعِيمِهِمْ وَشَائِهِمْ.

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَدِمَ بِخَيْرِ السَّرِيَّةِ وَمُصَابِهَا عُلْبَةُ بْنُ زَيْدٍ الْحَارِثِيُّ ﷺ.

[عُلْبَةُ - بضم أوله، وسكون اللام، بعدها موحدة - ابن زيد بن عمرو بن زيد بن جشم بن حارثة، الأنصاري الأوسي، ذكر ابن إسحاق، وابن حبيب في المحبر في البكائين في غزوة تبوك، وإنه تصدَّق بعرضه على كلِّ مسلم ناله. الإصابة لابن حجر ٤٩٩/٢ - ٥٠٠].

وَأُمِّهِلَ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ ﷺ وَهُوَ فِي الْقَتْلِ، فَلَمَّا أَمْسَى تَحَامَلَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى فَذَكْ، فَأَقَامَ عِنْدَ يَهُودِيٍّ (ربما كان هذا اليهودي صديقاً له، أو كان بينهما علاقات سابقة أيام الجاهلية؛ وذلك للعلاقة الوثيقة التي

كانت تربط الأرس والخزرج باليهود قبل الإسلام. والله أعلم) بِفَدَاكَ أَيَّامًا حَتَّى ارْتَفَعَ مِنَ الْجَرَّاحِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ». [الغازي للواقدي ٧٢٣/٢].

ويقول أ/ باشميل: «ولم يذكر المؤرخون أن أحدًا من رجال هذه الدورية قد عاد إلى المدينة، ما عدا (بشير بن سعد وعلبة بن زيد رحمهما الله) وهذا يعني أن ثمانية وعشرين من رجال هذه الدورية قد استشهدوا على أيدي بني مرة». [غزوة مؤتة لباشميل ٧٢].

مصادر ومراجع الدراسة:

أ - كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٨١٠-٨١٢.

ب - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: الغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٧٣٢، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/ ١١٢، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/ ٢٢، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٢٩٥، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤١٤، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٤٤٧-٤٤٨، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٣٦٠، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٣٦٠، إمتاع الأسع للمقرئزي (٨٤٥هـ) ١/ ٣٢٨-٣٢٩، سبل الهدى والرشاد للصالحى (٩٤٢هـ) ٦/ ٢٠٩-٢١٠، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٩٢.

ج - كتب السيرة الحديثية: السيرة النبوية لرزق الله (٥٢٧-٥٢٨).

د - كتب الغزوات والسرايا: غزوة مؤتة لباشميل ٦٩-٧٢، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشالية لبريك ١٣٣-١٣٧، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١١٣-١١٤.

[illegible]

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ١٨٢.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من سَرِيَّةِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ إِلَى فِدَكْ

١ - قائد جديد على الساحة الإسلامية:

يقول د/ العضبان: «قائد جديد يبرز لأول مرة من كبار الأنصار وكرامهم هو بشير بن سعد بن ثعلبة بن... الحارث بن الخزرج ﷺ، وهو من الخيرية الثالثة في الأنصار نسباً: «إِنَّ خَيْرَ دُورِ الْأَنْصَارِ: دَارُ بَنِي النَّجَّارِ، ثُمَّ دَارُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، ثُمَّ دَارُ بَنِي عَبْدِ الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ ثُمَّ دَارُ بَنِي سَاعِدَةَ، وَفِي كُلِّ دُورِ الْأَنْصَارِ خَيْرٌ». [مسلم في الفضائل (١٣٩٢، ٢٥١١)، وقال عمقه: هكذا هو في النسخ بني عبد الحارث وكذا نقله القاضي قال: وهو خطأ من الرواة وصوابه بني الحارث بحذف لفظة عبد].

ومن حيث الماضي العريق له فقد حاز أفخر الأجداد، إذ حضر بيعة العقبة الثانية، وحضر بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، كما كان عريق المجد في الجاهلية، وكما يقول عنه ابن سعد: «وَكَانَ بَشِيرٌ ﷺ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَتْ الْكِتَابَةُ فِي الْعَرَبِ قَلِيلًا، وَشَهِدَ بَشِيرٌ ﷺ الْعَقْبَةَ مَعَ السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي رَوَاتِهِمْ جَمِيعًا، وَشَهِدَ بَدْرًا وَأَحَدًا وَالْحَنْدَقَ وَالْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

[الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٤٩٣].

واختاره الرسول ﷺ لأول مرة في مهمة قيادية إلى بني مرة من غطفان في فِدَكْ.

لقد كانت سرية بشير ﷺ في الشهر نفسه الذي كانت فيه سرية أبي بكر بن الصديق وعمر بن الخطاب ﷺ، وذلك في خطة شاملة لاختبار الأرض العربية، وكان أفراد سرية بشير ﷺ كأفراد سرية عمر ﷺ من حيث العدد، وكانت البدايات واحدة حيث استاق بشير ﷺ النعم والشاء ومضى منحدرًا إلى المدينة، لكن بني مرة كانوا غير هوازن، فقد جاء الصريح إليهم ولحقوا بالمسلمين، وأحاطوا بهم وبقائدهم بشير ﷺ، وجاهد المسلمون أعظم جهاد في نبلهم حتى فنى، ثم حمل المريون عليهم حين نفذ سلاحهم، فقتلوهم إلا من تمكن من الفرار، وارث بشير ﷺ من بين القتلى، وأُعِيدَتْ ظاهرة شهداء بئر معونة من جديد، ولكن بشيرًا ﷺ تمكن من مغالبة جراحه بعد أن مضى العدو، وأقام عند يهودي ذمي ريثما عالج هذه الجراح، وعاد إلى رسول الله ﷺ، وكان أول من نقل أخبار المحنة لرسول الله ﷺ علبه بن زيد الحارثي ﷺ - من قوم بشير - وكانت المفاجأة وصول بشير ﷺ بعد أن كان ميمسوبًا من القتلى».

[التربية الجماعية للعضبان ١/ ٣٩-٤٠].

٢ - جواز التعرض لأموال الحربيين:

سبق تفصيلها في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٣ - فدائية عظيمة لأصحاب السرية رضي الله عنه:

يقول د/ بريك: «لقد كانوا في قتالٍ قوي غير متكافئ بين الطرفين، إذ أطبق المريون على بشير وأصحابه فيما لا قبل لهم به، حيث سقط أصحاب بشير الواحد تلو الآخر بعد أن قاوموا ببسالة وقاتلوا بشجاعة، ولكن كثرة المريين لم تتح لهم الفرصة». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشنالية لبريك ١٣٦].

ويقول د/ الحميدي: «ما أصاب سرية بشير بن سعد رضي الله عنه من القتل والجراح حيث هجم عليهم عدد كثير لا طاقة لهم به، ومع ذلك ثبتوا لهم حتى قُتل أكثرهم، وخرَّ قائلدهم صريعاً، وتركوه وهم يظنون أنه في الموتى.

وهذا يبين لنا أنه ليس كل المعارك الحربية تكون لصالح المسلمين بل - أحياناً - يُستأصل أكثرهم كما في هذه المعركة، ومع ذلك فإنهم صابرون محتسبون، ولم يمنعهم ما جرى في هذه المعركة من العودة إلى الجهاد، بل كانوا أشد حماساً وأقوى معنوية، وهذه صفة من يجاهد للآخرة؛ لأنه قد حصَّل ما يريد من الأجر سواء كانت له أو عليه». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧٨/٧-٧٩].

٤ - فدائية عظيمة لبشير بن سعد رضي الله عنه:

يقول د/ بريك: «فلقد قاتل رضي الله عنه قتالاً شديداً أبدى فيه شجاعة فائقة، وبسالة نادرة، حتى أثختته الجراح، وسقط مغشياً عليه من شدتها، حتى إنَّ المريين ظنوا أنه قد مات، حينما ضربوا كعبه فرأوه بلا حراك، فرجعوا بنعمهم وشانهم». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشنالية لبريك ١٣٦].

٥ - سياسة الرسول ﷺ في إعزاز دولة الإسلام:

يقول د/ الحميدي: «ما قام به النبي ﷺ من إعداد سرية أخرى لتأديب بني مرة وإعزاز دولة الإسلام، وقد قام أصحاب هذه السرية بمسؤوليتهم بقيادة غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه الذي اشتهر بالحزم والحكمة وحسن الإدارة، فأوقعوا ببني مرة وقتلوا منهم عدداً كبيراً.

وهكذا كان النبي ﷺ يهتم بإعزاز المسلمين وإظهارهم بمظهر القوة حتى لا يُرَامَ جناهم ولا يُستهان بأمرهم، ومن آثار هذه العزة أن بشير بن سعد رضي الله عنه قائد السرية الأولى لما تحامل على نفسه وانسحب من مكان المعركة، ولجأ إلى رجل من اليهود في فدك لم يتعرض له أحد من اليهود حتى شفاه الله تعالى، ورجع إلى المدينة، بالرغم من أن المسلمين قد غزوا ديار اليهود في خيبر وفدك وفي المدينة قبل ذلك؛ وذلك لأنهم يعلمون أن وراءه الأسود الأشاوس بقيادة النبي ﷺ وأنهم لو قتلوه لأرسل إليهم النبي ﷺ من يهدم عليهم دارهم ويفني رجالهم». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧٩/٧].

الفصل الرابع

سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى الميفعة ^(١)

رمضان ٥٧هـ / يناير (كانون ثان) ٦٢٩م / طوبة ٣٤٥ قبضي

المبحث الأول

عرض سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى الميفعة

الخلاف حول السرية:

في حديثه عن سرية غالب الليثي رضي الله عنه إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنه بفدك يقول د/ بريك: «اختلف في هذه السرية، في قائدها، وفي سببها، وفي الوجهة التي أرسلت إليها، في عدة أقوال بين روايات أهل المغازي، وروايات أهل الحديث، حيث يرى ابن إسحاق، والواقدي: أن هذه السرية هي سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى أرض بني مرة بفدك، وأن أسامة بن زيد رضي الله عنه خرج فيها، وأنه قتل مرداس بن نهيك بعد أن قال: «لا إله إلا الله».

وأضاف الواقدي: أن سبب السرية هو تأديب المزيين الذين أصابوا أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنه في السرية السابقة. [ابن هشام: سيرة ٤/ ٦٢٢، والواقدي: مغازي ٢/ ٧٢٣].

أمّا ابن سعد فعنون لها بـ «سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنه بفدك»، وذكر خروج أسامة بن زيد رضي الله عنه فيها، ولكن دون أن يشير إلى أنه قتل فيها المتعوض، وذلك لأنه يرى أن أسامة لم يقتل ذلك الرجل في هذه السرية، وإنما في سرية أخرى لغالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه كانت لبني عوال، وبني عبد ثعلبة بالميفة. [ابن سعد: طبقات ٢/ ١١٩، ١٢٦].

وتابعه في ذلك ابن سيد الناس [عيون الأثر ٢/ ١٩٦]، والقسطلاني [المواهب اللدنية ١/ ٥٤٨]، والقطب الحلبي في المورد العذب. [ذكر ذلك الشامي: سبل ٦/ ٢١١].

وقد أخذ ابن حجر برأي ابن سعد هذا ونسبه خطأً إلى أهل المغازي [فتح الباري ٧/ ٥١٨]، حيث لم يذكر ذلك غير ابن سعد، ومن تابعه كما أسلفنا.

وعنوّ الطبري للسرية بقوله: وفيها «سرية غالب بن عبد الله رضي الله عنه في شهر رمضان إلى الميفة»، ثم ذكر بسنده عن ابن إسحاق أحداث سرية غالب بن عبد الله الكلبي رضي الله عنه، إلى أرض بني مرة.

[تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٢٢].

(١) الميفة: وراء بطن نخل إلى النقر بناحية نجد، بينها وبين المدينة ثمانية برد. الطبقات ٢/ ٨٦.

ومعلومٌ عند أهل المغازي أنَّ الميفعة ليست أرض بني مرَّة، بل أرض بني عوال، وبني عبد ثعلبة، وهي وراء بطن نخل إلى النقرة، قليلاً بناحية نجد. [ينظر: الطبقات لابن سعد ١١٩/٢]، أمَّا بنو مرَّة فكانوا يسكنون بالقرب من فذك.

كما أخرج ابن سعد قصة أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مكانٍ آخر، فساق بسنده إلى الحضرمي، رجلٌ من أهل اليمامة قال: «بلغني أنَّ رسول الله ﷺ بعث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان يحبه ويحب أباه قبله، فبعثه على جيش... فذكر الحديث». [الطبقات لابن سعد ٦٩/٤، وسنده منقطع، وفيه جهالة الحضرمي].

فقوله: «فبعثه على جيش» يُشعر أنه كان قائداً لذلك الجيش، وكأنَّ الحاكم يرى ذلك - أيضاً - حيث ذكر في الإكليل، كما نقل عنه القسطلاني: «أنَّ أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعل ذلك في سرية كان هو أميراً عليها في سنة ثمان». [عزاه القسطلاني (المواهب ٥٣٨/١) للحاكم في الإكليل، وكتاب الإكليل مفقود].

وكذلك بَوَّب لها البخاري في الصحيح بما يفيد أنه كان أميراً عليها حيث قال: «باب بعث النَّبِيِّ ﷺ أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الحرقات من جهينة» [البخاري: الصحيح ٨٨/٣، ابن حجر: فتح ٥١٧/٧]، ثُمَّ ساق بسنده الحديث إلى أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقه» ^(١).

[أخرجه البخاري (الصحيح ٨٨/٣)، وأخرجه مسلم (الصحيح ١/١٣٣)].

وقد نفى ابن حجر وبناءً على قول أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «بعثنا» أن يكون دليلاً على إمارته للجيش ^(٢).

وكذلك أخرج الحديث مسلم بسنده عن أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلَّا أنه قال فيه: «فصَبَّحْنَا الحرقات من جهينة»

[قال الزرقاني (شرح المواهب ٢/٢٥١)، والجمع في الترجمة باعتبار بطون تلك القبيلة]. [مسلم (الصحيح ١/١٣٤)].

وأخرجه أبو داود (سنن ١٠٢/٣ - ١٠٣) و

(١) قال ابن هشام: الحَرْقَةُ فيما ذكر أبو عبيدة. وقال السهيلي: قال ابن حبيب: في يشكر، حرقه بن ثعلبة، وحرقه بن مالك، كلاهما من بني حبيب بن كعب بن يشكر، وفي قضاعة: حرقه بن جذيمة بن نهد، وفي تميم حرقه بن زيد ابن مالك بن حنظلة. وقال القاضي أبو الوليد: هكذا وقعت هذه الأسماء كلها بالقاف، وذكرها الدارقطني كلها بالفاء. وقال السويدي في نسبة الحميس: بنو الحميس بطن من جهينة ويسمون الحرقه، سُمُّوا بذلك لأنَّهم أحرقوا بني مرَّة بن عوف بن سعد بن ذبيان بالنبل، أي قتلوهم. ينظر: السيرة لابن هشام ٦٢٣/٤، والروض الأنف للسهيلي ٥٢٧/٧، وسبائك الذهب للسويدي ٩١.

(٢) فتح الباري لابن حجر ٥١٨/٧ وقال في مكان آخر: وترجم البخاري في المغازي «بعث النَّبِيِّ ﷺ أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الحرقات من جهينة»، فجرى الداودي في شرحه على ظاهره فقال فيه: «تأمر من لم يبلغ». وتُعَقَّب من وجهين: أحدهما: ليس فيه تصريح بأنَّ أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان الأمير، إذ يُحتمل أن يكون جعل الترجمة باسمه لكونه وقعت له تلك الواقعة لا لكونه كان الأمير.

والثاني: أنها كانت سنة سبع أو ثمان، فما كان أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومئذٍ إلَّا بالغاً، لأنَّهم ذكروا أنه كان له لَمَّا مات النَّبِيُّ ﷺ ثمانية عشر عاماً. فتح الباري ١٩٤/١٢.

والسؤال هنا هو: هل هذه السرية التي خرج فيها أسامة بن زيد رضي الله عنه وقتل فيها ذلك الرجل المتعوذ: سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى بني مرة بفدك، كما ذكر ابن إسحاق والواقدي؟ أم سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه - أيضًا - إلى بني عوال، وبني عبد ثعلبة بالميعة كما ذكر ابن سعد ومتابعوه؟ أم هي سرية أخرى كان أسامة بن زيد رضي الله عنه هو قائدها، كما أشار لذلك البخاري، والحاكم؟! وأيضًا هل كانت وجهة هذه السرية إلى بني مرة، أو إلى بني عوال وبني عبد ثعلبة، أو إلى الحرقات من جهينة؟!

الخلاف حول قاتل مَنْ قال: لا إله إلا الله:

وكما وقع هذا الخلاف بين أهل المغازي، كذلك وقع خلاف آخر بين أهل التفسير في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسَلَمْتُ لَسْتُ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَايِرُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَرَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء].

فقد أخرج الطبري بسنده عن السدي، والثعلبي، من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنه.

وهذا حديث ابن جرير بسنده من طريق أسباط، عن السدي قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية عليها أسامة بن زيد رضي الله عنه إلى بني مرة، فلقوا رجلاً يُدعى مرداس بن نبيك، معه غنيمة له وجمل أحمر، فلما رآهم أوى إلى كهف جبل، واتبعه أسامة رضي الله عنه، فلما بلغ مرداس الكهف وضع فيه غنمه، ثم أقبل إليهم، فقال: «السلام عليكم، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فشدّ عليه أسامه رضي الله عنه فقتله من أجل جملة وغنيمته»... فذكر الحديث. ^(١)

وأخرج الطبري - أيضًا - بسنده عن قتادة في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية، قال: «هذا الحديث في شأن مرداس، رجل من غطفان، ذكر لنا: «أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ بعث جيشًا عليهم غالب الليثي رضي الله عنه إلى أهل فدك وبه ناس من غطفان، وكان مرداس منهم، فقرّ أصحابه، فقال مرداس: إني

(١) أخرجه الطبري (تفسير ٥/ ٢٢٤) من حديث أسباط عن السدي، والثعلبي (الجزء الثاني / لوحة ١٨) من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وسند الطبري مرسل ضعيف، السدي صدوق يهيم، وأسباط كثير الخطأ والإغراب، وذلك واضح في منته حيث الإغراب والوهم والخلط بحديث عامر بن الأصبط. أمّا متابعة الكلبي عن أبي صالح فلا يُعتد بها، لأنه متهم بالكذب، وأبو صالح ضعيف. وقد ذكر الزرقاني (شرح ٢/ ٢٥١) أنه أخرجه ابن أبي حاتم، عن جابر، وأبو نعيم عن أبي سعيد نحوه.

مؤمن، وإني غير متبعكم، فصَبَّحت الخيل غدوة، فلَمَّا لقوه سَلَّمَ عليهم مرداس، فتلَقاه أصحاب رسول الله   فقتلوه وأخذوا ما كان معه من متاع، فأنزل الله جَلَّ وعَزَّ في شأنه: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسَلَّمَ لَسْتُ مُؤْمِنًا  ؛ لَأَنَّ نَحْيَةَ الْمُسْلِمِينَ السَّلَامَ بِهَا يَتَعَارَفُونَ، وَبِهَا يُحْيِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

[أخرجه الطبري: (تفسير ٤/ ٢٢٤) بسنده عن قتادة، وسنده حسن إليه، لكنه مرسل].

وقد رُوِيَ من وجهٍ آخر عن قتادة، وأخرجه الطبري من حديث عبد الرزاق بسنده عنه وقال فيه: «بلغني أنَّ رجلًا من المسلمين أغار على رجلٍ من المشركين فحمل عليه، فقال له المشرك: «إني مسلم، أشهد أن لا إله إلا الله»، فقتله المسلم بعد أن قالها، فبلغ ذلك  ، فقال للذي قتله: «أقتلته وقد قال لا إله إلا الله؟» فقال وهو يعتذر: يا نبي الله إنما قالها متعوذًا وليس كذلك، فقال النبي  : «فهلَّا شققت عن قلبه؟» ثُمَّ مات قاتل الرجل فقبر، فلفظته الأرض، فذكر ذلك للنبي   فأمرهم أن يقبروه، ثُمَّ لفظته الأرض، حتى فَعَلَ به ذلك ثلاث مرَّات، فقال النبي  : «إِنَّ الْأَرْضَ أَبَتْ أَنْ تَقْبَلَهُ، فَأَلْقَوْهُ فِي غَارٍ مِنَ الْغَيْرَانِ».

قال معمر: وقال بعضهم: إِنَّ الْأَرْضَ تَقْبَلُ مِنْ هُوَ شَرِّ مِنْهُ، وَلَكِنْ اللَّهُ جَعَلَهُ لَكُمْ عِبْرَةً.

[أخرجه الطبري (تفسير ٥/ ٢٢٤) من حديث عبد الرزاق بسنده عن قتادة، وسنده صحيح، لكنه مرسل].

قلت: هذه القصة هي بعينها قصة محلم بن جثامة مع عامر بن الأضبط المشهورة عند أهل المغازي التي حدثت في سرية أبي قتادة   إلى إضم، وهي تعتبر أحسن ما رُوِيَ في سبب نزول الآية، كما قال الشوكاني. [فتح القدير ١/ ٥٠٢].

وهذه القصة أخرجه ابن جرير من حديث ابن إسحاق بسنده عن ابن عمر - رضي الله تعالى عنهما - قال: «بعث النبي   محلم بن جثامة  ^(١) مبعثًا، فلقيهم عامر بن الأضبط، فحيَّاهم بتحية الإسلام، وكانت بينهم إحنة (الإحنة - بالكسر -: الحقد، والغضب) في الجاهلية، فرماه محلم بسهم فقتله، فجاء الخبر إلى رسول الله  ، فتكلَّم فيه عيينة (بن حصن)، والأقرع (بن حابس)، فقال الأقرع: يا رسول الله، سَنَّ اليوم وغَيْرَ غَدًا، فقال عيينة: لا والله حتَّى تذوق نساؤه من الثُّكُل (الثُّكُل - بالضم - الموت والهلاك، وفقدان الحبيب أو الولد) ما ذاق نسائي، فجاء محلم في بردين، فجلس بين يدي رسول الله   ليستغفر له، فقال النبي  : «لا غفر الله لك»، فقام وهو يتلقى دموه ببرديه، فما مضت سابعة حتَّى مات ودفنوه، فلفظته

(١) قال ابن حجر: «محلم بن جثامة الليثي، أخو الصعب بن جثامة، قال ابن عبد البر: يُقال: إنه الذي قتل عامر بن الأضبط، وقيل: إنَّ محلمًا غير الذي قتل، وأنَّه نزل حصص ومات بها أيام ابن الزبير، ويقال: إنه الذي مات في حياة رسول الله   ودفن فلفظته الأرض مرَّة بعد أخرى، وجزم بالأول ابن السكن». الإصابة لابن حجر ٣/ ٣٦٩.

لأرض، فجاؤوا إلى النبي ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: «إِنَّ الْأَرْضَ تَقْبِلُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْ صَاحِبِكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ جَلٌّ وَعَزٌّ أَرَادَ أَنْ يَعْظَمَكُمْ، ثُمَّ طَرَحَهُ بَيْنَ صَدْفِي جَبَلٍ، وَأَلْقَوْا عَلَيْهِ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَنَزَلَتْ آيَةٌ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الأنعام: ١١٠]». [وقد أخرجه الطبري (تفسير ٥/ ٢٢٢) وسنده فيه أبو وكيع (صدوق بهم) كما في التقريب ص ١٣٨ وفيه أيضاً عن عنترة ابن إسحاق، وهو مدلس].

وقد أخرجه الطبري أيضاً من حديث ابن إسحاق أيضاً بسنده عن عبد الله بن أبي حدرد قال: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي، ومسلم بن جثامة بن قيس الليثي، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم^(١)، مرَّ بنا عامر بن الأصبط الأشجعي على قعود له معه متبع له ووطب من لبن (الوطب: سقاء اللبن، وهو جلد الجذع فما فوقه)، فلما مرَّ بنا سلم علينا بتحية الإسلام، فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة الليثي لشيء كان بينه وبينه، فقتله وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر، نزل فينا القرآن».

[أخرجه الطبري (تاريخ ٥/ ٢٢٣)، وسنده مداره على ابن إسحاق الذي عنعنه عند الطبري في روايتي سلمة، والمحاري عنه: ولكنه صرح بالتحديث في الروايات الأخرى عند كُلِّ من أحمد، والطبراني، وابن هشام، والبيهقي. (ينظر: السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك بن محمد أبي مایلة ٢٧٦) فهو حسن وإن كان الهيثمي قال عنه: رجاله ثقات].

كما ورد عن المفسرين أَنَّ الآية نزلت في المقداد بن الأسود رضي الله عنه، أخرج ذلك الطبري من حديث سعيد بن جبیر قال: خرج المقداد بن الأسود رضي الله عنه في سرية بعثه رسول الله ﷺ، قال: فمروا برجلٍ في غنيمَةٍ له، فقال: إني مسلم، فقتله المقداد، فلما قدموا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية.

[أخرجه الطبري (تفسير ٥/ ٢٢٥) مرسلًا عن سعيد. وسعيد لم يدرك النبي ﷺ].

هكذا أخرجه مرسلًا عن سعيد، وقد ورد مطولاً موصولاً عند البزار من حديث سعيد أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنه، حيث قال فيه: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمَقْدَادِ رضي الله عنه: «كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ

(١) إضم: قال البكري: وإد دون المدينة. وقال أبو عمرو الشيباني، وابن الأعرابي: إضم جبل لأشجع وجهنة، وقيل: وإد لهم، وذكر الشريف: أَنَّ وادي إضم من أعظم أودية الحجاز، ويُسمَّى اليوم وادي الحمض، وهو يسيل من الجنوب الشرقي لحرّة خيبر، ويسير نحو الجنوب الغربي حتّى يقارب المدينة، حيث تتصل به أودية فرعية منها وادي العقيق، ويبلغ طوله زهاء ٩٠٠ كيلو متر.

وقال البلادي: إضم هو وادي المدينة إذا اجتمعت أوديتها الثلاثة: بطحان، وقناة، والعقيق، بين أحد والشرناء، يُسمَّى الوادي الخليل إلى أن يتجاوز كثانة فيُسمَّى وادي الحمض، إلى أن يصبَّ في البحر بين الوجه وأملج معجم ما ستعجم للبكري ١/ ١٦٥ - ١٦٦، مكّة والمدينة للشريف ٢٦، ومعجم معالم الحجاز للبلادي ٢٩.

كُفَّارٍ، فَأَظْهَرَ إِيَّانَهُ، فَقَتَلْتُهُ، وَكَذَلِكَ كُنْتُ تُخْفِي إِيَّانَكَ بِمَكَّةَ قَبْلُ»^(١).

كما أخرج أحمد والترمذي، وحسنه، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي من حديث ابن عباس - وهذا لفظ أحمد - قال: «مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِيمٍ بِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْعَى غَنَمًا لَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: لَا يَسَلِّمُ عَلَيْنَا إِلَّا لِيَتَعَوَّذَ مِنَّا، فَعَمِدُوا إِلَيْهِ فَقَتَلُوهُ، وَأَتُوا بِغَنَمِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ». [ينظر: المسند، حديث رقم: ٢٠٢٢، وسنن الترمذي ٣٨٦/٨، والمستدرک للحاکم ٢/٢٣٥].

وأخرج الطبري بسنده عن ابن زيد قال: «نزل ذلك في رجلٍ قتله أبو الدرداء.. فذكر من قصة أبي الدرداء نحو القصة التي ذُكِرت عن أسامة». [أخرجه الطبري (التفسير ٥/٢٢٥) وسنده إلى ابن زيد صحيح لكنه منقطع، محمد بن زيد من الخامسة].

وذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة جزء بن الجدرجان، أن ابن منده أخرج بسنده عنه: «أن أخاه فداد بن الجدرجان وفد على رسول الله ﷺ فلقيته سرية له فقتلوه بعد أن قال لهم: «إنه مؤمن، فنزلت فيه الآيات». [عزاه ابن حجر (إصابة ١/٢٣٣) لابن منده، ثم قال عن إسناده: هذا إسناد مجهول]. قال ابن عبد البر: «والاختلاف في المراد بهذه الآية كثير مضطرب فيه جدًا»، قيل: نزلت في أسامة بن زيد، وقيل: في محلم بن جثامة، وقال ابن عباس: نزلت في سرية ولم يسم أحدًا، وقيل: «نزلت في غالب الليثي، وقيل: نزلت في رجل من بني ليث يقال له: فليت، كان على سرية»، وقيل: «نزلت في أبي الدرداء، وهذا اضطراب شديد جدًا». [الاستيعاب لابن عبد البر، هامش الإصابة لابن حجر ٣/٤٩٧-٤٩٨].

(١) أخرجه البزار (ينظر: كشف الأستار حديث ٢٢٠٢)، وقال البزار: لا نعلمه يروى عن ابن عباس رضي الله عنه إلا من هذا الوجه، ولا له عنه إلا هذا الطريق، وإسناده جيد، وعزاه ابن حجر (مختصر زوائد البزار ٢/٧٨-٧٩، وفتح الباري ١٢/١٩٠-١٩١) للطبراني، والدارقطني في الأفراد، من رواية أبي بكر علي بن عطاء بن مقدم، عن حبيب، وقال الدارقطني: تفرد به حبيب، وتفرد به أبو بكر عنه. قال ابن حجر: قد تابع أبا بكر سفيان الثوري، لكنه أرسله، أخرجه ابن أبي شيبة عن وكيع عنه، وأخرجه الطبري من طريق أبي إسحاق الفزاري، عن الثوري كذلك، وعلقه البخاري في صحيحه.

قلت: أخرجه الطبراني في الكبير (٣٠/١٢) ولفظه هو بعينه لفظ البزار، وقال عنه الهيثمي (جمع ٧/٩): إسناده جيد، ولفظ حديث ابن أبي شيبة هو لفظ حديث الطبري السابق، أما حديث البخاري المعلق (ينظر: فتح الباري ١٢/١٨٧) فقال فيه: وَقَالَ حَبِيبُ بْنُ أَبِي عَمْرَةَ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمِقْدَادِ رضي الله عنه: «إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيَّانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ، فَأَظْهَرَ إِيَّانَهُ، فَقَتَلْتُهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتُ أَنْتَ تُخْفِي إِيَّانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلُ». [البخاري في الديات (٦٨٦٦)].

هكذا ذكره البخاري معلقًا مختصرًا بعد حديث المقداد رضي الله عنه الذي سأل فيه النبي: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ لَقِيتُ كَافِرًا فَأَقْتَلْتُنَا فَضَرَبَ يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا ثُمَّ لَادَ مِنِّي شَجَرَةً وَقَالَ أَسْلَمْتُ لَكَ أَقْتَلُهُ بَعْدَ أَنْ قَاتَلْنَا... إلخ الحديث. [البخاري في الديات (٦٨٦٥)].

وقال القرطبي: «واختلف في تعيين القاتل، والمقتول في هذه النازلة، فالذي عليه الأكثر وهو في حيرة ابن إسحاق، ومصنّف أبي داود، والاستيعاب لابن عبد البر: «أنّ القاتل محلم بن جثامة، والمقتول عامر بن الأضبط، ولا خلاف أنّ الذي لفظته الأرض حين مات هو محلم بن جثامة الذي ذكرناه، ولعلّ هذه الأحوال جرت في زمان متقارب، فنزلت الآية في الجميع». [الجامع لأحكام القرآن ٣٣٦/٥ - ٣٣٨].

وقال د/ القريني: «والأحاديث مجموعها تدل على أنّ هذه القصة حصلت لمحلم بن جثامة الليثي في قتله عامر بن الأضبط الأشجعي، بعد أن ظهر منه ما يدل على أنه مسلم، وأنه نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرِشْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَبَّلُوهُ﴾». [مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ٦٢٧/٢].

وقال ابن حجر: «وإن ثبت الاختلاف في تسمية من باشر القتل مع الاختلاف في المقتول احتمل تعدّد القصة». [الإصابة ٤٠١/٣].

وقال الزرقاني: «يُحْتَمَلُ تعدّد القصة، وتكرير نزول الآية». [شرح المواهب ٢٨٦/٢].

وقال المراغي: «ولا مانع من تعدّد الوقائع قبل نزول الآية، وأن النبي ﷺ كان يقرأها على أصحاب كلّ واقعة، فيرون أنّهم سبب نزولها». [تفسير المراغي ١٢٦/٥].

قلت: إن ثبت تعدّد هذه القصة، فإنّ الآية لا يمكن أن تكون نصّاً عليها جميعها، فإنّ هنالك اختلافاً بيّناً في بعض عناصرها، وإن بدت وكأنّ نتيجتها واحدة، وهي زجر رسول ﷺ عن قتل مَنْ بدت منه شبهة تدراً عنه ذلك حتّى يتم التأكيد من حقيقته، فمثلاً قصة أسامة بن زيد - رضي الله تعالى عنهما، لا تنطبق عليها هذه الآية من عدّة وجوه:

١- الأحاديث التي أوردت قصة أسامة ؓ، ومنها أحاديث الصحيحين لم تتطرّق لذكر نزول آية في قصّته، ولو كانت الآية نزلت فيه فعلاً لما أغفلتها تلك الأحاديث نظراً لأهمية الآية في موضوع القصة وتدعيمها، ونظراً لاستقصاء المحدثين وتبّعهم الشديد والمتقن لمثل هذه الأمور.

٢- الآية نفسها لا تنطبق على أسامة بن زيد - رضي الله تعالى عنهما؛ لأنه لم يك مشركاً في يوم من الأيام، بل إنه وُلِدَ في الإسلام، كما شبّ وترعرع في عزه ودولته في المدينة، فلم يك هنالك داعٍ لكتّان إيمانه، كما أوضحت بعض الروايات قصة المقداد.

٣- التقرير والتوبيخ الوارد في الآية لا يتناسب - أيضاً - مع ما صحّ في قصّة أسامة بن زيد - رضي الله تعالى عنهما - من أنه قتل ذلك الرجل المتعوّذ اجتهداً منه في أنه لم ينطق بالشهادة إلا خوفاً من السيف، بخلاف ما وقع في قصّة محلم بن جثامة، فالدوافع التي جعلته يقتل عامر بن الأضبط تختلف عنها في قصّة

أُسامة حيث إنَّ قتله لعامر لم يكن اجتهداً منه بقدر ما كان طمعاً في ماله، وبسبب ما كان بين الاثنين من إحن وتخاصُّم في الجاهلية.

٤ - الأمر الآخر، وهو الذي يهنا هنا بالدرجة الأولى هو عدم إمكان تعدُّد قصَّة أُسامة ۞ في عدَّة مواطن، كما أشار بذلك الحلبي [سيرة ٣/ ١٩٤]، بل هي قصَّة واحدة حدثت في موطن واحد. ولكنَّ السؤال هو: أين حدثت؟

فالذي في الصحيحين، وكتب الحديث الآخر: أنَّ البعث كان إلى الحرقات من جهينة، والذي في المغازي أنه كان لبني مرة بالقرب من فذك، وأنَّ المقتول كان حليفاً لهم من الحرقة.

فهل يُعد ذلك تبايناً بين الروایتين، رواية أهل الحديث، ورواية أهل المغازي؟

فالذي تشير إليه كتب الأنساب أنَّ ديار الحرقات كانت قرية من ديار بني مرة، بدليل أنَّ الحرقة، وهم بنو الحميس لُقِّبوا بالحرقة لأنهم أحرقوا بني مرة قتلًا بالنبل في حربٍ دارت بينهما، ومعلومٌ بداهةً أنَّ كلتا القبيلتين غطفانيتان، ومنازل غطفان تمتد حول منطقة خيبر، ووادي القرى، وفذك.

كما أنَّ ما ذكر في روايات أهل المغازي من أنَّ المقتول كان حليفاً لبني مرة، وما أخرجه البخاري في التاريخ، والبيهقي بسندٍ لا بأس به، عن أُسامة بن زيد - رضي الله تعالى عنهما - قال: «أدركت أنا ورجل من الأنصار - يعني مرداس بن نهيك - ثُمَّ ذكر الحديث...». [أخرجه البخاري (تاريخ ١/ ٢٠)، والبيهقي (دلائل ٢٩٧/ ٤) من حديث محمد بن أُسامة بن محمد بن أُسامة، عن أبيه، عن جده أُسامة بن زيد].

فالنَّص على تسمية الرجل هنا، وموافقة ذلك لروايات أهل المغازي السابقة، كلُّ ذلك يعدُّ قرائن على اتحاد قصَّة أهل الحديث بقصة أهل المغازي، وأنَّها قصة واحدة، رويت بأسانيد مختلفة، وسياق مختلف نوعاً ما. والله تعالى أعلم. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٤١-١٥٧].

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ۞ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ۞ سَرِيَّةً، فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا عَشِيَهُ بِالرُّمَحِ، قَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ، فَقَتَلَهُ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ۞، فَقَالَ: إِنِّي أَذْنَبْتُ فَاسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: حَمَلْتُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا عَشِيْتُهُ بِالرُّمَحِ قَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ مُتَعَوِّذٌ فَقَتَلْتُهُ، فَقَالَ: «هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى يَسْتَبِينَ لَكَ؟» قَالَ: وَیَسْتَبِينَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قَدْ قَالَ لَكَ بِلِسَانِهِ فَلَمْ تُصَدِّقْهُ عَلَى مَا قَالَ فِي قَلْبِهِ»، قَالَ: قَتَمَتِ الرَّجُلُ فَدَفَعْنَاهُ، فَأَصْبَحَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَأَمَرْنَا غُلَامَنَا فَحَرَسُوهُ، فَأَصْبَحَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَقُلْنَا غَفَلُوا فَحَرَسْنَاهُ، فَأَصْبَحَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ۞، فَأَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: «أَمَّا إِنَّمَا تُقْبَلُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُعَلِّمَكُمْ تَعْظِيمَ الدِّمِ» ثُمَّ قَالَ: «ادْهَبُوا بِهِ إِلَى سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، فَانْضِدُّوا عَلَيْهِ مِنَ الْحِجَارَةِ» فَفَعَلْنَا. [المعجم الكبير للطبراني ٢٢٦/ ١٨ رقم ٥٦٢، وقال الشيخ

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ عليه السلام، قَالَ: أَتَى نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ وَأَصْحَابَهُ، فَقَالُوا: هَلَكْتَ يَا عِمْرَانُ، قَالَ: مَا هَلَكْتُ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: مَا الَّذِي أَهْلَكَنِي؟ قَالُوا: قَالَ اللَّهُ: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونََ الَّذِينَ كُفِلَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٩]، قَالَ: قَدْ قَاتَلْنَاهُمْ حَتَّى نَفَيْنَاهُمْ، فَكَانَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، إِنْ شِئْتُمْ حَدِّثْتُمْ، حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالُوا: وَأَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ بَعَثَ جَيْشًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا لَقَوْهُمْ قَاتَلُوهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا، فَمَنَحُوهُمْ أَكْتَافَهُمْ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنْ حُمَتِي عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِالرَّمْحِ، فَلَمَّا غَشِيَهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنِّي مُسْلِمٌ، فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ، قَالَ: «وَمَا الَّذِي صَنَعْتَ؟» مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي صَنَعَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَهَلَّا شَقَقْتَ عَنْ بَطْنِهِ فَعَلِمْتَ مَا فِي قَلْبِهِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ شَقَقْتُ بَطْنَهُ لَكُنْتُ أَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِهِ، قَالَ: «فَلَا أَنْتَ قَبِلْتَ مَا تَكَلَّمُ بِهِ، وَلَا أَنْتَ تَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِهِ»، قَالَ: فَسَكَتَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى مَاتَ، فَدَفَنَاهُ فَأَصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ، فَقَالُوا: لَعَلَّ عَدُوًّا نَبَشَهُ، فَدَفَنَاهُ، ثُمَّ أَمَرْنَا غُلَامَانَا يَحْرُسُونَهُ، فَأَصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ، فَقُلْنَا: لَعَلَّ الْعِلْمَانَ نَعَسُوا، فَدَفَنَاهُ، ثُمَّ حَرَسْنَاهُ بِأَنْفُسِنَا، فَأَصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ، فَأَلْقَيْنَاهُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الشَّعَابِ.

حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ حَفْصِ الْأُمَلِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنِ السَّمِيطِ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ عليه السلام، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَزَادَ فِيهِ، فَنَبَذَتْهُ الْأَرْضُ: فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالَ: «إِنَّ الْأَرْضَ لَتَقْبَلُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَحَبُّ أَنْ يَرِيكُمْ تَعْظِيمَ حُرْمَةٍ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

[ابن ماجه في الفتن (٣٩٣٠)، وقال الشيخ الألباني: حسن بما بعده].

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عليه السلام أَنَّ عُبَيْسًا [عَبْسًا] أَوْ ابْنَ عُبَيْسٍ [عَبْسٍ] فِي أَنْاسٍ مِنْ بَنِي جُشَمٍ [خَثْعَمٍ] أَتَوْهُ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: أَلَا تَقَاتِلُ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً؟ قَالَ: لَعَلِّي قَدْ قَاتَلْتُ حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةً. قَالَ: أَلَا أَحَدْتُمْ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَا أَرَاهُ يَنْفَعُكُمْ فَأَنْصِتُوا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اغْزُوا بَنِي فُلَانٍ مَعَ فُلَانٍ»، قَالَ: فَصَفَّيْتُ [فَصَفَّفْنَا] الرِّجَالَ، وَكَانَتِ النِّسَاءُ مِنْ وَرَاءِ الرِّجَالِ، ثُمَّ لَمَّا رَجَعُوا قَالَ رَجُلٌ: يَا نَبِيَّ [رَسُولَ] اللَّهِ اسْتَغْفِرْ لِي عَفَرَ اللَّهُ لَكَ، قَالَ: «هَلْ أَحَدْتُ؟»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَغْفِرْ لِي عَفَرَ اللَّهُ لَكَ، قَالَ: «هَلْ أَحَدْتُ؟»، قَالَ: لَمَّا هَزِمَ الْقَوْمُ وَجَدْتُ [أَدْرَكْتُ] رَجُلًا بَيْنَ [مِنْ] الْقَوْمِ وَالنِّسَاءِ، فَقَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ، أَوْ قَالَ: أَسْلَمْتُ، فَقَتَلْتُهُ، قَالَ: تَعَوُّذًا بِذَلِكَ حِينَ غَشِيْتُهُ بِالرَّمْحِ، قَالَ: «هَلْ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ تَنْظُرُ إِلَيْهِ؟»، فَقَالَ: لَا، وَاللَّهِ مَا فَعَلْتُ، فَلَمْ يَسْتَغْفِرْ لَهُ أَوْ كَمَا قَالَ.

وَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اغْزُوا بَنِي فَلَانٍ مَعَ فَلَانٍ»، فَاَنْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْ حُفَمَتِي مَعَهُمْ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ اسْتَغْفِرْ لِي غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، قَالَ: «وَهَلْ أَحَدُتُ؟» قَالَ: لَمَّا هَزَمَ الْقَوْمُ أَدْرَكْتُ رَجُلَيْنِ بَيْنَ [مِنَ] الْقَوْمِ وَالنِّسَاءِ فَقَالَا: إِنَّا مُسْلِمَانِ أَوْ قَالَا: أَسْلَمْنَا فَقَتَلْتُهُمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عِمَّا أَقَاتِلَ النَّاسَ إِلَّا عَلَى الْإِسْلَامِ؟ وَاللَّهِ لَا أَسْتَغْفِرُ لَكَ»، أَوْ كَمَا قَالَ: قِمَاتَ بَعْدُ، فَدَفَنْتُهُ عَشِيرَتُهُ، فَأَصْبَحَ قَدْ بَدَنَتْهُ الْأَرْضُ، ثُمَّ دَفَنُوهُ وَحَرَسُوهُ ثَانِيَةً فَبَدَنَتْهُ الْأَرْضُ، ثُمَّ قَالُوا: لَعَلَّ أَحَدًا جَاءَ وَأَنْتُمْ نِيَامُ فَأَخْرَجَهُ فَدَفَنُوهُ ثَالِثَةً، ثُمَّ حَرَسُوهُ فَبَدَنَتْهُ الْأَرْضُ ثَالِثَةً، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ أَلْقَوْهُ، أَوْ كَمَا قَالَ.

[مسند أحمد ٣٣/ ١٦٢-١٦٣ رقم ١٩٩٣٧، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف لإيهام الراوي عن عمران والمعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٢٤٣ رقم ٦٠٩].

وعن شهر بن حوشب، قَالَ: حَدَّثَنِي جُنْدُبُ بْنُ سُفْيَانَ، رَجُلٌ مِنْ بَجِيلَةَ قَالَ: إِنِّي لَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَاءَهُ بَشِيرٌ مِنْ سَرِيَّتِهِ فَأَخْبَرَهُ بِالنَّصْرِ الَّذِي نَصَرَ اللَّهُ سَرِيَّتَهُ وَبَفَتْحِ اللَّهِ الَّذِي فَتَحَ لَهُمْ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَمَا نَحْنُ نَطْلُبُ الْقَوْمَ وَقَدْ هَزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ لَحِقْتُ رَجُلًا بِالسَّيْفِ، فَلَمَّا حَسَّ [أَحْسَ] أَنَّ السَّيْفَ مُوَاقِعُهُ [قَدْ وَاقِعُهُ، التَّمَتَّ]. وَهُوَ يَسْعَى وَيَقُولُ [فَقَالَ]: إِنِّي مُسْلِمٌ، إِنِّي مُسْلِمٌ، قَالَ: فَقَتَلْتُهُ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا تَعَوَّذَ، قَالَ: «فَهَلَّا شَقَقْتُ عَنْ قَلْبِهِ فَظَنَرْتُ أَصَادِقُ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ؟» قَالَ: لَوْ شَقَقْتُ عَنْ قَلْبِهِ مَا كَانَ عَلَمِي [يُعَلِّمُنِي الْقَلْبُ]، هَلْ قَلْبُهُ إِلَّا بَضْعَةٌ [مُضْعَغَةٌ] مِنْ لَحْمٍ؟ قَالَ: «[فَأَنْتَ قَتَلْتَهُ، لَا مَا فِي قَلْبِهِ تَعْلَمُ] [عَلِمْتُ]، وَلَا لِسَانِهِ صَدَقْتُ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: «لَا أَسْتَغْفِرُ لَكَ»، قَالَ: قِمَاتَ ذَلِكَ الرَّجُلِ فَدَفَنُوهُ، فَأَصْبَحَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، ثُمَّ دَفَنُوهُ فَأَصْبَحَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، ثَلَاثَ مَرَاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ [رَأَى ذَلِكَ قَوْمُهُ] اسْتَحْيَوْا وَخَرُّوا يَمًّا لِقِي، فَاحْتَمَلُوهُ [فَحَمَلُوهُ] فَأَلْقَوْهُ فِي شَعْبٍ مِنْ تِلْكَ الشَّعَابِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «سَتَكُونُ بَعْدِي فِتْنٌ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ تَصْدِمُ كَصَدَمِ الْحَيَاتِ وَفُحُولِ الثِّيرَانِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُسْلِمًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي فِيهَا مُسْلِمًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا».

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: فَكَيْفَ نَصْنَعُ عَنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «ادْخُلُوا بُيُوتَكُمْ وَأَخْلِلُوا ذِكْرَكُمْ».

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلُوا عَلَى أَحَدِنَا فِي بَيْتِهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِيَمْسِكَ يَدُهُ وَلِتَكُنْ عَبْدُ اللَّهِ الْمَقْتُولَ وَلَا تَكُنْ عَبْدُ اللَّهِ الْقَاتِلَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَكُونُ فِي قُبَّةٍ فَيَأْكُلُ مَالَ الْغَيْرِ وَيَسْفِكُ دَمَهُ وَيَعْصِي رَبَّهُ وَيَكْفُرُ بِحَالِقِهِ وَتَجِبُ لَهُ جَهَنَّمُ». [مجمع الزوائد ١/ ١٧٦ رقم ٦٠، وقال الهيثمي: قلت: هو في الصحيح باختصار، رواه الطبراني في الكبير ١٧٦/ ٢]، وأبو يعلى [مسند أبي يعلى الموصلي ٣/ ٩١ رقم ١٥٢٢، وقال الشيخ أسد: إسناده حسن، المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي ٤/ ٤١٥-٤١٦ رقم ١٨٤٣، ١٨٤٤]، وفي إسناده عبد الحميد بن بهرام وشهر بن حوشب وقد اختلف في الاحتجاج بهما. ومسند الروياني ٢/ ١٤٧ رقم ٩٧١. وقال الشيخ الصوياني: حديث صحيح. السيرة النبوية للصوياني ٣/ ٢٩١].

وعن حميد بن هلال قال: أتاني أبو العالية وصاحب لي فقال: هلما فإنكما أشبَّ شَبَابًا وَأَوْعَى لِلْحَدِيثِ مِنِّي، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْتُ بِشَرِّ بْنِ عَاصِمِ اللَّيْثِيِّ، فَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: حَدَّثَ هَذَيْنِ حَدِيثًا.

قَالَ بِشَرُّ: حَدَّثَنَا عُقْبَةُ بْنُ خَالِدِ اللَّيْثِيِّ وَكَانَ مِنْ رَهْطِهِ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً فَعَارَتْ عَلَى قَوْمٍ فَشَدَّ مِنَ الْقَوْمِ رَجُلٌ فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ مِنَ السَّرِيَّةِ مَعَهُ السِّنْفُ شَاهِرُهُ، فَقَالَ إِنْسَانٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِنِّي مُسْلِمٌ، إِنِّي مُسْلِمٌ، فَلَمْ يَنْظُرْ فِيهَا قَالَ: فَضَرَبَهُ فَقَتَلَهُ، قَالَ: فَتَنِمَى الْحَدِيثُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ فِيهِ قَوْلًا شَدِيدًا، فَبَلَغَ الْقَاتِلُ، قَالَ: فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ إِذْ قَالَ الْقَاتِلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَاللَّهِ مَا قَالَ الَّذِي قَالَهُ إِلَّا تَعَوُّذًا مِنَ الْقَتْلِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَنْ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ النَّاسِ وَأَخَذَ فِي خُطْبَتِهِ، قَالَ: ثُمَّ عَادَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَاللَّهِ مَا قَالَ الَّذِي قَالَ إِلَّا تَعَوُّذًا مِنَ الْقَتْلِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَنْ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ النَّاسِ، فَلَمْ يَصْبِرْ أَنْ قَالَ فِي الثَّلَاثَةِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ تَعْرِفُ الْمَسَاءَ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَبَى عَلَيَّ أَنْ أَقْتَلَ مُؤْمِنًا». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. [مسند أبي يعلى الموصلي ١٢/ ٢١٠ رقم ٦٨٢٩، وقال الشيخ أسد: إسناده صحيح].

وَعَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ عَامِرٍ قَالَ: لَمَّا قَاتَلَ مَرْوَانَ الضُّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ أَرْسَلَ إِلَى أَيُّمَنَ بْنِ خُزَيْمَةَ الْأَسَدِيِّ فَقَالَ: إِنَّا نَجِبُ أَنْ تُقَاتِلَ مَعَنَا، فَقَالَ: إِنَّ أَبِي وَعَمِّي شَهِدَا بَدْرًا فَعَهْدًا إِلَيَّ أَنْ لَا أَقَاتِلَ أَحَدًا يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ جِئْتَنِي بِرَاءَةٍ مِنَ النَّارِ قَاتَلْتُ مَعَكَ، فَقَالَ: أَذْهَبَ وَوَقَعَ فِيهِ وَسَبَّهُ، فَأَنْشَأَ أَيُّمَنُ يَقُولُ:

وَلَسْتُ مُقَاتِلًا رَجُلًا يُصَلِّي عَلَى سُلْطَانٍ آخَرَ مِنْ قُرَيْشٍ
لَهُ سُلْطَانُهُ وَعَلَيَّ إِثْمِي مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ جَهْلٍ وَطَيْشٍ
أُقَاتِلُ مُسْلِمًا فِي غَيْرِ شَيْءٍ؟ فَلَيْسَ بِنَافِعِي مَا عَشْتُ عَيْشِي

[مسند أبي يعلى الموصلي ٢/ ٢٤٥ رقم ٩٤٧، وقال الشيخ أسد: رجاله ثقات].

تاريخ السرية:

يقول د/ بريك: «أَرَّخَ ابن سعد لسرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد ﷺ بفدك في شهر صفر سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ». [الطبقات ٢/ ١٢٦].

وأَرَّخَ لسرية غالب بن عبد الله ﷺ إلى الميضة التي ذكر فيها أن أسامة بن زيد ﷺ أصاب فيها الذي قال: «لا إله إلا الله، بشهر رمضان سنة سبع من مهاجر رسول الله ﷺ». [الطبقات ٢/ ١١٩].

وتابعه في ذلك ابن سيد الناس [عيون ٢/ ١٩٠، ١٩٧]، والقسطلاني [المواهب ١/ ٥٣٨]، والحلي.

[سيرة ٣/ ١٩٢ - ١٩٣، ١٩٧].

ولم يذكر لها الواقدي تاريخًا - وذلك خلاف عادته - وذكرها مباشرة بعد سرية بشير بن سعد ﷺ إلى فدك، بل إنه لم يجعل لها عنوانًا مستقلًا، وإنَّها تحدَّث عنها بعد فراغه من سرية بشير ﷺ، وكأنَّه يرى أنَّها متعلِّقة بها، وأنَّها كانت في نفس التاريخ [مغازي ٢/ ٧٢٣]، وتابعه في ذلك ابن كثير.

[البداية والنهاية ٤/ ٢٢٢].

أَمَّا ابنُ إِسْحَاقَ فلم يذكر لها تاريخًا حيث ذكرها في جملة السرايا والبعوث، ورثبها بعد غزوة مؤتة، وسرية عيينة بن حصن الفزاري ۞ إلى بني العنبر، وقبل ذات السلاسل. [ابن هشام: سيرة ٤/ ٦٢١ - ٦٢٣]. وذكر البيهقي رواية ابن إِسْحَاقَ بعد رواية الواقدي، بعد سرية بشير بن سعد ۞ إلى بني مَرَّةَ بفدك، وقبل سرية غالب بن عبد الله الليثي ۞ إلى بني الملوح، وسريته أيضًا إلى الميفعة. [دلائل ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧]. وجمع الطبري بين رواية ابن إِسْحَاقَ حول السرية، وبين عنوان سرية غالب الأخرى إلى الميفعة، وهو وهم كما ذكرنا سابقًا، لكنه أَرَّخَ لها بشهر رمضان من السنة الثامنة. [تاريخ ٣/ ٢٢].

وذكرها خليفة بن خياط في سرايا سنة خمس، مباشرةً بعد سرية بشير بن سعد إلى فدك. [تاريخ ٧٨]. وذكرها البلاذري - أيضًا - بعد سرية بشير ۞، دون أن يجعل لها تاريخًا [أنساب الأشراف ٣٧٩]، وكذلك فعل ابن القيم، ولكنه اقتصر على رواية المحدثين حول سرية الحركات. [زاد المعاد ٣/ ٣٦١]. وجمع الشامي كعاداته بين رواية ابن إِسْحَاقَ، ورواية الواقدي، وأَرَّخَ لها في صفر سنة ثمان. [سبل الهدى ٦/ ٢٢١].

ونقل القسطلاني عن الحاكم في الإكليل أنَّها كانت في سنة ثمان. [المواهب اللدنية ١/ ٥٣٨]. قال الزرقاني: وفي البخاري ما يوافقه، فإنه قال بعد غزوة مؤتة (باب بعث النَّبِيِّ ۞ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ۞ إِلَى الْحَرَاقَاتِ). [شرح المواهب ٢/ ٢٥١].

قال ابن حجر: «وقد ذكر أهل المغازي سرية غالب بن عبد الله الليثي ۞ إلى الميفعة - بتحتانية ساكنة وفاء مفتوحة - وهي وراء بطن نخل، وذلك في رمضان سنة سبع، وقالوا: «إِنَّ أُسَامَةَ ۞ قَتَلَ الرَّجُلَ فِي هَذِهِ السَّرِيَةِ، فَإِنْ ثَبَتَ أَنَّ أُسَامَةَ كَانَ أَمِيرَ الْجَيْشِ فَالَّذِي صَنَعَهُ الْبَخَارِيُّ هُوَ الصَّوَابُ، لِأَنَّهُ مَا أُمِّرَ إِلَّا بَعْدَ قَتْلِ أَبِيهِ بِغَزْوَةِ مُؤَتَةَ، وَذَلِكَ فِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانٍ، وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ كَانَ أَمِيرَهَا رَجَّحَ مَا قَالَ أَهْلُ الْمَغَازِي».

[فتح الباري ٧/ ٥١٨].

وذكر الزرقاني، عن بعض شُرَّاحِ البخاري، أنه «لعلَّ المصير إلى ما في البخاري هو الراجح، بل الصواب». انتهى. [شرح المواهب ٢/ ٢٥٢].

قال الزرقاني: «وليس الترجي من وجوه الترجيح، نَعَمْ! روى ابن جرير عن السُّدِّيِّ بعث ۞ سرية عليها أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَذَكَرَ الْقِصَّةَ.

وروى ابن سعد عن جعفر بن برقان قال: «حَدَّثَنِي الْحَضْرَمِيُّ». قال: «بلغني أنه ۞ بعث أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ عَلَى جَيْشٍ فَذَكَرَ الْقِصَّةَ، فَإِنْ ثَبَتَا تَرَجَّحَ صَنِيعُ الْبَخَارِيِّ». [شرح المواهب ٢/ ٢٥٢].

قلت: كل ما ذكروه لا يثبت إمارة أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ - رضي الله تعالى عنهما - للجيش، والروايتان اللتان ذكرهما الزرقاني ضعيفتان كما وضحنا سابقًا.

أما صنع البخاري - رحمه الله تعالى - فقد أوله ابن حجر بغير ما ذكره، كما مر بنا سابقاً. والذي يترجح عندي هو أن هذه السرية كانت بعد سرية بشير بن سعد ﷺ مباشرة؛ لأنها أُرسلت لتأديب الأعراب الذين أصابوا سريته، وأن أسامة بن زيد - رضي الله تعالى عنها - خرج فيها. فأصاب ذلك الرجل المتعوذ، فهي في سنة سبع من مهاجر رسول الله ﷺ، ربما في رمضان منه، كما أشار إلى ذلك ابن حجر، وعزاه إلى ابن سعد عن شيخه الواقدي. [فتح الباري ١٢/١٩٥].

وإن كان هنالك خلاف بين الاثنين حول سريتي غالب بن عبد الله الليثي، وأبيها التي قتل فيها أسامة ﷺ المتعوذ، وقد وضحنا ذلك فيما سبق. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٥٨-١٦١]. وبناء على التفصيل الرائع من د/ بريك حول الاختلاف في السرية وتاريخها، أرى ما يلي:

١ - أن رسول الله ﷺ أرسل غالب الليثي ﷺ إلى الميعة بناء على سبب يختلف عن الثار لأصحاب بشير بن سعد ﷺ - كما سيأتي ذكره - وكانت في رمضان سنة سبع.

٢ - بعد استشفائه عند يهودي بفدك رجع بشير بن سعد ﷺ إلى المدينة في رمضان سنة سبع، فهاج رسول الله ﷺ سرية للثار لأصحاب بشير ﷺ بقيادة الزبير بن العوام ﷺ.

٣ - رجع غالب الليثي ﷺ من سريته إلى الميعة في نفس التوقيت، فأُسند رسول الله ﷺ إليه قيادة السرية بدلاً من الزبير ﷺ، قال الواقدي: «وَهَيَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ﷺ فَقَالَ: «سِرْ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُصَابٍ أَصْحَابِ بَشِيرٍ، فَإِنْ ظَفَرَكَ اللَّهُ بِهِمْ فَلَا تَبْقَ فِيهِمْ».

وَهَيَّا مَعَهُ مَاتِي رَجُلٌ، وَعَقَدَ لَهُ اللَّوَاءَ، فَقَدِمَ غَالِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَرِيَّةٍ قَدْ ظَفَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ﷺ: «اجْلِسْ!»، وَبَعَثَ غَالِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فِي مَاتِي رَجُلٍ».

[الغازي للواقدي ٢/٧٢٣].

٤ - أن هذا الترتيب يوافق ما ذكره الواقدي، حيث ذكر سرية غالب ﷺ إلى الميعة في رمضان سنة سبع، ولكنه ذكر سريته إلى مصاب أصحاب بشير ﷺ في أثناء عرضه لسرية بشير ﷺ؛ لتواصل رواية سرية بشير ﷺ بسرية الثار لها.

ويميل إلى هذا الترتيب د/ الغضبان حيث يقول: «وأن تحمل الركبان خبر مقتل أصحاب النبي ﷺ دون ثار لهم، هو من الخطورة بمكان، وهو يُضعف سمعة محمد ﷺ القوية في الجزيرة، وتغري بقية القبائل بالنيل من المسلمين والهجوم عليهم، فكان الرد العسكري الحاسم، كما ذكر الواقدي.

إن المحافظة على السمعة العسكرية القوية للجيش الإسلامي هي عنصر أصيل من عناصر التربية في هذه المرحلة، فليس الهدف هو القوة ذاتها، ولكن الهدف هو إرهاب العدو، بحيث لا يطمع أو يجترئ على

الحمى الإسلامي، ويعرف أن هذا الطريق خطر وميؤوس منه، والحل هو الحوار الفكري العقلي ومحاولة فهم الإسلام، ومن أجل هذا التوازن كانت السرعة الكبيرة في بعث غالب ﷺ.

وغالب ﷺ قد ظفر في سرية السابقة، وأثبت الكفاءة المطلوبة، وذلك في سرية إلى الميعة في رمضان ومع غطفان بالذات... ويريد رسول الله ﷺ أن يحاصرهم من كل جانب، وهم بالمقابل يحاولون ذلك إذ كانوا يعدون العدة للهجوم، فباغتهم ﷺ بغالب ﷺ. [التربية الجماعية للغضبان ١/ ٤٠-٤١].

ويقول د/ الغضبان أيضًا: «ذكر علماء السيرة هذه السرية في صفر ثمان، بينما أوردتها الواقدي في سنة سبع، وأخذنا برأيه؛ لأن غالبًا ﷺ قد مضى في سرية إلى الكديد في صفر سنة ثمان، ولا يُعقل أن يجمع بين السريتين في شهر واحد، ووافق الواقدي الذهبي». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ٤٣ هامش ١].

٥ - وبناء على هذا يتحدد تاريخ السريتين إلى الميعة وإلى مصاب أصحاب بشير ﷺ بقيادة غالب الليثي ﷺ بشهر رمضان سنة سبع.

٦ - أن حادثة مقتل أسامة ﷺ لمرداس ﷺ كانت في سرية غالب الليثي ﷺ إلى مصاب أصحاب بشير ﷺ في فذك، وليست في سرية إلى الميعة؛ لأن «الحركات» التي وردت في رواية البخاري ورواية أصحاب المغازي أقرب إلى فذك في شمال المدينة - كما قال د/ بريك - على حين أن الميعة إلى جنوب المدينة كما هو واضح في خريطة سرية الميعة.

كما اختار وضعها في هذه السرية المقريري في إمتاع الأسباع ١/ ٣٢٩.

أحداث سرية غالب ﷺ إلى الميعة:

يقول أ/ باشميل: «وهي حملة عسكرية كبيرة شنّها المسلمون على قبائل بني عوال وبني ثعلبة من النجديين الذين تقع منازلهم شرقي المدينة وتبعد عن المدينة حوالي تسعين ميلاً، وبني عوال وعبد بن ثعلبة هؤلاء هم بطن من غطفان تلك القبيلة الجبارة العاتية التي كانت قد ساندت اليهود وقرشاً عملياً في غزوة الأحزاب التي استهدف اليهود من ورائها محو الكيان الإسلامي من الوجود.

فقد كانت تلك القبائل الوثنية المتوحشة أكبر عون في ذلك العدوان المخيف الذي شنته أحزاب الكفر (من اليهود والقرشيين) على المسلمين في المدينة عام الأحزاب (السنة الخامسة من الهجرة)..

حيث كانت قبائل (غطفان) - التي منها بنو عوال وعبد بن ثعلبة - تشكل أهم الأجنحة في القوات المرتزقة التي استأجرها اليهود لتكون العمود الفقري في ذلك العدوان الآثم الذي دبره اليهود وخططوا له في خير؛ قاصدين من ورائه إبادة المسلمين وقطع تيار دعوة الإسلام؛ ليعود هؤلاء اليهود - على أنقاض الكيان الإسلامي - سادة ليشرب وحكاماً عليها.

وكانت حملة المسلمين هذه إلى الميعة بقيادة غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه الذي أسند إليه النبي ﷺ أمرها بعد اقتراح تقدم به إلى النبي ﷺ يسار مولاه.

وكان عدد رجال هذه الحملة مائة وثلاثين رجلاً، وكان دليل هذه الحملة الكبيرة يسار مولى رسول الله ﷺ، الذي سلك بهم طريقاً طويلاً غير معروف، حتى تعبوا وكادوا أن يهلكوا لأن أزوادهم قد نفدت قبل أن يصلوا إلى ديار العدو.

وقد خالطهم لذلك الشك في يسار وساورهم القلق في أن يكون جاسوساً تظاهر بالإسلام، وجاء بهم ليوقعهم في كمين لغطفان، غير أن ظنونهم سرعان ما تبددت عندما وصل بهم يسار إلى ديار القوم على حين غفلة منهم، وساهم مساهمة كبرى بحنكته ودهائه في أخذهم بغتة دون أن يشعروا، الأمر الذي مكّن غالباً رضي الله عنه ورجاله من الفتك بهم واجتياح ديارهم دون أن يتمكنوا من المقاومة.

حيث كان هجوم المسلمين ناجحاً إلى أبعد الحدود، فبالرغم من كثرة عدد رجال العدو، وكونهم من القبائل النجدية العنيدة المعروفة بالشراسة في القتال، فقد كان همهم الوحيد أن ينجوا بأنفسهم إلى الجبال. وقد تمكن غالب رضي الله عنه ورجاله من قتل عدد كبير من أشرافهم، كما نجح غالب رضي الله عنه في الاستيلاء على أكثر مواشيهم، إلا أن أحداً من هؤلاء المشركين لم يقع أسيراً في أيدي رجال غالب الليثي رضي الله عنه.

[غزوة مؤتة لباشيل ٧٣-٧٥].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي عَوْنٍ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُبَيْدٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ الْكُدْرِ^(١) أَقَامَ أَيَّامًا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقِيمَ، فَقَالَ لَهُ يَسَارٌ مَوْلَاهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ غِرَّةَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، فَأَرْسِلْ مَعِيَ إِلَيْهِمْ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ غَالِبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه فِي مِائَةِ وَثَلَاثِينَ رَجُلًا، خَرَجَ بِهِمْ يَسَارٌ رضي الله عنه، فَظَلَعَ بِهِمْ فِي غَيْرِ الطَّرِيقِ حَتَّى فَنِيَتْ أَزْوَادُهُمْ وَجَهَدُوا، وَافْتَسَمُوا التَّمَرَّ عَدَدًا، فَبَيْنَا الْقَوْمُ ذَاتَ لَيْلَةٍ بَعْدَ مَا سَاءَ ظَنُّهُمْ بِيَسَارٍ، وَظَنَّ الْقَوْمُ أَنَّ إِسْلَامَهُ لَمْ يَصِحَّ، وَقَدْ انْتَهَوْا إِلَى مَكَانٍ قَدْ فَحَصَهُ (فحص: أي حفر. النهاية ٣/ ١٨٥) السَّيْلُ، فَلَمَّا رَأَى يَسَارٌ كَبْرَهُ، قَالَ: وَاللَّهِ قَدْ ظَفَرْتُمْ بِحَاجَتِكُمْ، أَسْلُكُوا فِي هَذَا الْفَحْصِ حَتَّى يَنْقَطِعَ بِكُمْ، فَسَارَ الْقَوْمُ فِيهِ سَاعَةً بِحَسِّ خَفِيٍّ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا هَمْسًا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى ضَرْسٍ (الضرس: الأكمة. الصحاح ص ٩٣٩) مِنَ الْحَرَّةِ، فَقَالَ يَسَارٌ رضي الله عنه لِأَصْحَابِهِ: لَوْ صَاحَ رَجُلٌ شَدِيدُ الصَّوْتِ لِأَسْمَعَ الْقَوْمَ، فَازْتَاوَأَ رَأْيَكُمْ! قَالَ غَالِبٌ رضي الله عنه: انْطَلِقْ بِنَا يَا يَسَارُ! وَأَنْتَ وَنَدْعُ

(١) لا أدري كيف أوجه هذه العبارة للواقدي، فغزوة النبي ﷺ إلى (قرقرة الكدر) كانت في الخامس من ذي الحجة من العام الثاني للهجرة، كما سبق تفصيله في الباب الخامس من مجموعة غزوة بدر الكبرى من هذا الكتاب. وربما كان المقصود هو عودة غالب الليثي رضي الله عنه من سرية إلى الكديد في شهر صفر سنة ثمان من الهجرة.

الْقَوْمَ كَمِينًا، فَفَعَلَا، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا مِنَ الْقَوْمِ بِمَنْظَرِ الْعَيْنِ سَمِعْنَا حِسَّ النَّاسِ وَالرَّعَاءِ وَالْخُلَبِ، فَرَجَعَا سَرِيعَيْنِ فَأَنْتَهَيَا إِلَى أَصْحَابَيْهَا، فَأَقْبَلُوا جَمِيعًا حَتَّى إِذَا كَانُوا مِنَ الْحَيِّ قَرِيبًا، وَقَدْ رَعَضَتْهُمْ أُمِيرُهُمْ غَالِبٌ ﷺ وَرَغَبَهُمْ فِي الْجِهَادِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِمْعَانِ فِي الطَّلَبِ وَأَلْفَ بَيْنَهُمْ، وَقَالَ: إِذَا كَبُرَتْ فَكَبَرُوا، فَكَبَّرَ وَكَبَرُوا جَمِيعًا مَعَهُ، وَوَقَعُوا وَسَطَ مَحَالِّهِمْ، فَاسْتَأْفَوْا نَعْمًا وَشَاءَ، وَقَتَلُوا مِنْ أَشْرَفَ هُمْ. وَصَادَفُوهُمْ نِلَاقَ اللَّيْلَةِ عَلَى مَاءٍ يُقَالُ لَهُ الْمَيْعَةُ.

قَالَ: وَاسْتَأْفَوْا النَّعَمَ فَحَدَرُوهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَمْ يُسْمَعْ أَنَّهُمْ جَاؤُوا بِأَسْرَى.

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٢٦-٧٢٧، والطبقات لابن سعد ٢/ ١١٢].

مصادر ومراجع الدراسة:

أ - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٧٢٦-٧٢٧، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/ ١١٢، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/ ٢٢، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٢٩٩-٣٠٠، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٣٦٠-٣٦٢، إمتاع الأسع للمقرئزي (٨٤٥هـ) ١/ ٣٢٩، سبل الهدى والرشاد للصلحي (٩٤٢هـ) ٦/ ٢١١-٢١٢، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٩٢-١٩٤.

ب - كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٥٢٨-٥٢٩.

ج - كتب الغزوات والسرايا: غزوة مؤتة لباشميل ٧٣-٧٥، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١١٤ - ١١٥، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٣٩-١٧٢، مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٩٣-١٩٩.

[illegible]

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ١٨٣.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من

سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى الميعة

١ - استغلال القيادة لكل الطاقات:

يقول د/ الغضبان: «وكان دليلهم يسار ﷺ مولى رسول الله ﷺ، وهو نفسه الذي أسر في غطفان في موقعه الكدر، فهو ابن المنطقة وأحد الرعاة فيها، وحين أخلص الله تعالى وصلى الله، اختاره رسول الله ﷺ من خاصته، فأعتقه وغدا مولى له، وحيث تتسم القيادة النبوية العظيمة باستغلال كل الطاقات مهما كان نوعها، وتفتح الآفاق أمامها لتأخذ مداها الأرحب، فقد وجدنا يسار ﷺ هو الذي يبادر ابتداء ويتابع آخر بني ثعلبة الذين كان عبداً عندهم، ويبلغه عن تجمعاتهم لغزو المدينة، فيتقدم لرسول الله ﷺ قائلاً له: (يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ غِرَّةً مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، فَأَرْسِلْ مَعِيَ إِلَيْهِمْ). وحيث غدا موضع الثقة الكاملة من نبيه المصطفى ﷺ، أخذ رسول الله ﷺ هذا الخبر مأخذ الجد، وأعطاه ما يستحقه من اهتمام، وأرسل معه مائة وثلاثين رجلاً كان هو دليلهم الهادي في هذه البled المهلكة.

ورغم عدم توفر الإمكانات المادية لتحرك السرية، فليس عندهم إلا التمر، وهو الزاد الرئيس بالنسبة إليهم لم يحل هذا دون المبادرة السريعة لضرب هذا العدو المترصص، فالمعركة مستمرة لا يهدأ لها أوار بين غطفان والمسلمين، وانضام هذه الطاقة التي هي هذا العبد إلى المسلمين، يعني الاستفادة من خبرته في الطريق ومعلوماته عن العدو». [التربية الجماعية للغضبان ٤١/١].

٢ - الصبر الجميل واحتساب الأجر عند الله ﷻ:

يقول د/ الحميدي: «فيه صورة مما لقيه الصحابة رضيه الله عنهم من الشدة والجوع في جهاد الأعداء، فقد فني زاد هؤلاء القوم صاروا يقتسمون التمر بالعدد، وهي صورة تتكرر كما سبق لنا، وهذا يدل على قوة احتمال الصحابة وصبرهم الجميل واحتسابهم الأجر عند الله تعالى». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٨١/٧].

٣ - نجاح مهمة يسار ﷺ:

يقول د/ الغضبان: «لقد نجحت مهمة يسار ﷺ نجاحاً كاملاً، ولعله قبل أن يرى المكان الذي فحصه قد توقع أنه تاه عن الطريق فبقى صامتاً، ورأى النظرات قد تغيرت عليه فزاد ألمه إلى أن أنقذه الله تعالى بهذا المعلم من مفحص السبل، واهتدى إلى السبل، وهدى الجيش معه، وحيث إن القيادة الحكيمة لغالب ﷺ قد ضبطت الأمر، واعتبار معلومات يسار ﷺ ثقة، طالب المسير بحس خفي وهمس جديد لإخفاء كل معالم التحرك نحو العدو، إلى أن انتهوا إلى الأكمة.

وراء الأكمة ما وراءها، إن وراءها الهدف الرئيس: العدو نفسه كما حدد موقعه يسار  ، لو صاح رجل شديد الصوت لأسمع القوم فارتؤوا رأيكم». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ٤٢].

٤ - إعطاء القادة القدوة في الفداية:

يقول د/ الغضبان: «وانتهى دور يسار   الرائد، ليأتي دور غالب القائد  ، والعدو على مرمى قريب منه، قال غالب: انطلق بنا يا يسار أنا وأنت، وندع القوم كميناً. إنها خطة جريئة: أن يُعَرَّضَ القائد نفسه للخطر، فيمضي وحيداً مع يسار، وهذا يعني أن ثقة غالب بيسار   غدت ثقة مطلقة، وإلا لما عَرَّضَ نفسه للخطر، ومع هذا فهو القائد الماهر الحاذق الذي يريد أن يستوثق مائة بالمائة من هدفه، فقدّم نفسه مع يسار للموت ليحفظ جيشه إن كان هناك موت. لقد أشرف القائد بنفسه على ساحة المعركة، وخبرها قبل الدخول فيها، وخبر أعداد العدو، وعاد إلى جيشه». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ٤٢].

ويقول د/ الحميدي: «موقف جهادي نبيل لقائد هذه السرية غالب بن عبد الله الليثي   حيث ذهب بنفسه طليعة لأصحابه مع الدليل، والطلائع دائماً فدائيون لاحتمال أن يشعر بهم العدو فيفتك بهم قبل أن يصلوا إلى أصحابهم». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ٨١].

٥ - إلقاء الرعب في قلوب العدو:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أمر غالب بن عبد الله الليثي   جنده ألا يتفرقوا بعد أن آخى بينهم ثم قال لهم: إذا كَبُرَتْ فكَبُرُوا، ولما أحاطوا بالمشركين كَبُرَ غالب   وكبروا معه، وجردوا السيوف، ففزع المشركون وذهبوا ن وملأ الذعر قلوبهم وانهاروا أمام صوت الله أكبر، ولم يلبثوا غير ساعة وانهمزوا أمام المسلمين». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٨].

٦ - إعداد الخطة الحربية:

يقول د/ الغضبان: «لقد حدد الخطة ابتداء بعد أن أدى الدور المعنوي المطلوب، ورغبهم في الجهاد، ووعظهم وذكرهم بالله  ، كانت مرتبطة بإيقاف أي تحرك حتى يسمعو تكبير أميرهم، وتكون مرحلة الهجوم مع انطلاق التكبير من الأمير، ثم الجند خلفه أما المحظور في هذه المعركة، فهو الإيغال في الصحراء وراء العدو والإمعان في الطلب؛ لأن احتمالات خطة التراجع المصطنعة لتوريط الجيش إلى كمين في هذه الصحراء». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ٤٢-٤٣].

٧ - الاستعداد الجيد للمعركة يحقق أهدافه:

يقول د/ عمارة: «يقولون: إن خير وسيلة لمنع الحرب: أن تستعد لها، وقد كان من أهداف السرايا الإسلامية إشعارُ المشركين بأن المسلمين قادرون على رد العدوان، على رد الكيل كيلين، والصاع أصعاً،

بقدر ما كانت شفاءً لصدور قوم مؤمنين. يرى الأعداء منهم اليوم قوة، يمسح الله بها عن جبين المؤمنين لآلئ العرق فوق جباههم التي يجب أن تظل مرفوعة أبدًا.

ومعنى ذلك: حفظ التوازن بين القوى على أرض الجزيرة، حتى لا يكون قتال بالمرّة.

ومعنى ذلك أيضًا:

أ- إيقاف بأس الكافرين.

ب- منع الفساد من الانتشار في الأرض.

ج- إنقاذ المساجد والصوامع والبيع من الدمار.

د- معاقبة المعتدين.

وكان لسرية «الميعة» - وهو واد قريب من مكة على بعد يومين منها [في رمضان من السنة السابعة]، كان لهذه السرية أثرها في التمكين للحق، وإرهاب الأعداء حتى يفكروا ألف مرة قبل أن يتخذوا قرار الاعتداء على المسلمين، بقدر ما كانت شهادة صدق على احترام إنسانية الإنسان.

كان قائد السرية «غالب بن عبد الله الليثي» ﷺ، ومعه مائة وثلاثون رجلًا.

ولما وصل إلى هناك وجدوا القوم على أتم الاستعداد لمنازلة المسلمين.

وقد كان لهذه المفاجأة انعكاسها على خطة السرية التي قرر قائدها الهجوم الفوري، واتخاذ عنصر المفاجأة ذريعة إلى تشتيت القوم الذين لم يتركوا للمسلمين فرصة يعرضون فيها خطة السلام.

وقد حقق الهجوم ثمرته.

أ- فقتلوا بعضًا.

ب- وأسروا آخرين». [تأملات في السيرة النبوية لعمارة ١٥٨-١٥٩].

٨ - مباغطة الأعداء:

يقول ل/ خطاب: «وهكذا باغت غالب ﷺ بسريته المشركين مباغته كاملة، فأثر في معنوياتهم تأثيرًا حاسمًا، مما أدى إلى هزيمتهم بعد تكبيدهم خسائر بالأرواح والمواد، وعاد إلى المدينة بالغنائم منتصرًا، فأدى واجبه في هذه السرية على أحسن وجه». [قادة النبي ﷺ لخطاب ٣٨٩-٣٩٠].

الفصل الخامس

سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه

إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنه بفدك

رمضان ٥٧هـ / يناير (كانون ثان) ٦٢٩م / طوبة ٣٤٥ قبطي

المبحث الأول

عرض سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه

أحداث السرية:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَعَزَوْهُ غَالِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْكَلْبِيُّ - كَلْبُ لَيْثٍ - أَرْضَ بَنِي مُرَّةَ، فَأَصَابَ بِهَا مُرْدَاسَ بَنِ نَهْيَكٍ، حَلِيفًا لَهُمْ مِنَ الْحُرَّةِ، مِنْ جُهَيْنَةَ، قَتَلَهُ أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الْحُرَّةُ، فِيمَا حَدَّثَنِي أَبُو عُبَيْدَةَ». [السيرة النبوية لابن هشام ٦٢٢-٦٢٣].
وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَهَيَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رضي الله عنه فَقَالَ: «سِرْ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُصَابِ أَصْحَابِ بَشِيرٍ، فَإِنْ ظَفَرَكَ اللَّهُ بِهِمْ فَلَا تَبْقَ فِيهِمْ».

وَهَيَّا مَعَهُ مِائَتَيْ رَجُلٍ، وَعَقَدَ لَهُ اللَّوَاءَ، فَقَدِمَ غَالِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه مِنْ سَرِيَّةٍ قَدْ ظَفَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رضي الله عنه: «اجْلِسْ!»، وَبَعَثَ غَالِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه فِي مِائَتَيْ رَجُلٍ، فَخَرَجَ أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنه فِي السَّرِيَّةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مُصَابِ بَشِيرٍ وَأَصْحَابِهِ، وَخَرَجَ مَعَهُ عُلبَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنه.

حَدَّثَنِي أَفْلَحُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ بَشِيرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: كَانَ مَعَ غَالِبٍ رضي الله عنه: عُقْبَةُ بْنُ عَمْرِو، أَبُو مَسْعُودٍ، وَكَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ، وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَعُلبَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنه، فَلَمَّا دَنَا غَالِبُ مِنْهُمْ بَعَثَ الطَّلَاعَ، فَبَعَثَ عُلبَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنه فِي عَشْرَةٍ يَنْظُرُ إِلَى جَمَاعَةِ مَخَالِهِمْ حَتَّى أَوْفَى عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى غَالِبٍ رضي الله عنه فَأَخْبَرَهُ، فَأَقْبَلَ غَالِبٌ رضي الله عنه يَسِيرُ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهُمْ بِمَنْظَرِ الْعَيْنِ لَيْلًا، وَقَدْ أُجْتُلِبُوا وَعَطْنُوا (أي: سقوا الإبل ثم أناخوها وحبسوها عند الماء. لسان العرب ١٧/١٥٨) وَهَدَّوْا، قَامَ فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَتْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَخُدَّةِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ تُطِيعُونِي وَلَا تَعْصُونِي، وَلَا تُخَالِفُوا لِي أَمْرًا، فَإِنَّهُ لَا رَأْيَ لِي أَنْ لَا يُطَاعَ».

ثُمَّ أَلَفَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: يَا فُلَانُ أَنْتَ وَفُلَانٌ، يَا فُلَانُ أَنْتَ وَفُلَانٌ - لَا يُفَارِقُ كُلُّ رَجُلٍ رَمِيلَهُ - وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيَّ أَحَدُكُمْ فَأَقُولُ: أَيْنَ فُلَانٌ صَاحِبُكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، وَإِذَا كَبُرْتُ فَكَبِّرُوا.

قَالَ: فَكَبَّرَ وَكَبَّرُوا، وَأَخْرَجُوا السُّيُوفَ.

قَالَ: فَأَخْطَنَا بِالْخَاضِرِ، وَفِي الْخَاضِرِ نَعَمٌ وَقَدْ عَطْنُوا مَوَاشِيَهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْنَا الرِّجَالُ فَقَاتَلُوا سَاعَةً، فَوَضَعْنَا السُّيُوفَ حَيْثُ شِئْنَا مِنْهُمْ، وَنَحْنُ نَصِيحُ بِشِعَارِنَا: أَمْتُ أُمْتُ.

قَالَ: وَاسْتَقْنَا النَّعْمَ وَالشَّاءَ وَالذَّرِيَّةَ، وَكَانَتْ سِهَامُهُمْ عَشْرَةُ أَبْعَرَةٍ كُلِّ رَجُلٍ أَوْ عِدْلَاهَا مِنَ الْغَنَمِ، وَكَانَ يُحْسِبُ الْجُرُورُ بِعَشْرَةٍ مِنَ الْغَنَمِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٢٣-٧٢٤، ٧٢٥].

قتل أسامة رضي الله عنه لقائل لا إله إلا الله:

عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ قَالَ: سَمِعْتُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه يُحَدِّثُ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحَرْقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَحْنَا الْقَوْمَ فَهَرَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِيَنَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنَتْهُ بِرُيْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ لِي: يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهَا كَانَتْ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ [بَعْدَ مَا] قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَيَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ. [البخاري في

الديبات (٦٨٧٢)، وفي المغازي (٤٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (١٥٩-٩٦)، ومسند أحمد ٣٦/ ٧٣-٧٤ رقم ٢١٧٤٥].

وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ حَدَّثَ: أَنَّ جُنْدَبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْبَحْلِيَّ رضي الله عنه بَعَثَ إِلَى عَسْعَسِ بْنِ سَلَامَةَ زَمَنَ فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه فَقَالَ: اجْمَعْ لِي نَفَرًا مِنْ إِخْوَانِكَ حَتَّى أُحَدِّثَهُمْ، فَبَعَثَ رَسُولًا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَ جُنْدَبُ رضي الله عنه وَعَلَيْهِ بُرُتُسُ (البرنس: كل ثوب رأسه منه ملتصق به من أدراعه) أَصْفَرُ، فَقَالَ: تَحَدَّثُوا بِنَا كُنْتُمْ تَحَدَّثُونَ بِهِ، حَتَّى دَارَ الْحَدِيثُ، فَلَمَّا دَارَ الْحَدِيثُ إِلَيْهِ حَسَرَ (كشف) الْبُرُتُسَ عَنْ رَأْسِهِ فَقَالَ: إِنِّي أَتَيْتُكُمْ وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَخْبِرْكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بَعَثًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّهُمْ التَّقَوَّا، فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَإِنْ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ غَفَلْتُهُ - قَالَ: وَكُنَّا نَحَدِّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنه فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَتَلَهُ، فَجَاءَ الْبَشِيرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ، حَتَّى أَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ، فَدَعَا فَسَأَلَهُ فَقَالَ: «لَمْ قَتَلْتُهُ؟»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْجَعَ فِي الْمُسْلِمِينَ وَقَتَلَ فُلَانًا وَفُلَانًا - وَسَمَى لَهُ نَفَرًا - وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقَتَلْتَهُ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اسْتَغْفِرُ لِي، قَالَ: «وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، قَالَ: فَجَعَلَ لَا يَزِيدُهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [مسلم في الإيمان (١٦٠-٩٧)].

وَعَنْ أَبِي ظَبْيَانَ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ - وَهَذَا حَدِيثُ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ - قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَحْنَا الْحَرْقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَطَعَنَتْهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ؟»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّهَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ، قَالَ: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟»، فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَيَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ.

قَالَ: فَقَالَ سَعْدُ (بن أبي وقاص رضي الله عنه): «وَأَنَا وَاللَّهِ، لَا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ. يَعْنِي أُسَامَةَ.
قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كَلَهُ لِلَّهِ﴾
[الأغفال: ٣٩].

فَقَالَ سَعْدُ رضي الله عنه: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ.
[مسلم في الإيمان (١٥٨-٩٦).
وَعَنْ أَبِي ظَبْيَانَ حَدَّثَنَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى الْحُرَقَاتِ، فَنَدَرُوا بِنَا
(عذسوا وأحسوا) فَهَرَبُوا، فَأَذَرَكْنَا رَجُلًا، فَلَمَّا غَشِيْنَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَضَرَبْنَاهُ حَتَّى قَتَلْنَاهُ، فَذَكَرْتُهُ
لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا قَالَهَا خِيفَةَ السَّلَاحِ، قَالَ:
«أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَهَا أَمْ لَا؟! مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، فَمَا زَالَ
يَقُولُهَا حَتَّى وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أُسَلِّمْ إِلَّا يَوْمَئِذٍ. [أبو داود في الجهاد (٢٦٤٣)].

وَعَنْ أَبِي ظَبْيَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنه يَقُولُ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي جَيْشِ الْحُرَقَاتِ فَلَمَّا
هَرَمْنَا هُمْ انْتَدَبْتُ أَنَا، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَفَ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ وَظَنَنْتُ
أَنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذًا، فَقَتَلْتُهُ، فَرَفَعَ الْأَنْصَارِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ وَهُوَ يَقُولُ: لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، فَمَا زَالَ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى وَجَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ
أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ. [مسند البزار ٧/ ٦١، ٦٣ رقم ٢٦١٢-٢٦١٠].

وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، قَالَ: فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ وَقَدْ
نَدَرُوا بِنَا، قَالَ: فَخَرَجْنَا فِي آثَارِهِمْ، فَأَذَرَكْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَجَعَلْتُ إِذَا لَحِقْتُهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ:
فَظَنَنْتُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَقُولُهَا فَرَقًا مِنَ السَّلَاحِ، قَالَ: فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ فَقَتَلْتُهُ، فَعَرَّضَ فِي نَفْسِي مِنْ أَمْرِ [قَتْلِهِ شَيْءٌ]
فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ قَتَلْتَهُ؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ
يَقُلْهَا مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، إِنَّمَا قَالَهَا فَرَقًا مِنَ السَّلَاحِ، قَالَ: فَقَالَ: «قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ قَتَلْتَهُ فَهَلَا شَقَقْتَ عَنْ
قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهُ إِنَّمَا قَالَهَا فَرَقًا مِنَ السَّلَاحِ»، قَالَ أُسَامَةُ: فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا عَلَيَّ. «قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ
قَتَلْتُهُ»، حَتَّى وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ. [المصنف لابن أبي شيبة ١٧/ ٥٦٣ كتاب السير، باب ما يمتنع به
القتل، وما هو، وما يحقن الدم رقم ٣٣٧٧١، ١٤/ ٥٧٥ كتاب الحدود، باب فيها يحقن به الدم ويرفع به عن الرجل القتل رقم
٢٩٥٣٥، ٢٩٥٣٦، والسنن الكبرى للنسائي رقم ٨٥٤٠، ٨٥٤١].

وَعَنْ أَبِي الشَّعْثَاءِ، عَنْ عَمِّهِ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فِي أَنْاسٍ مِنْ
أَصْحَابِهِ، فَاسْتَبَقْنَا أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى الْعُدُوِّ، فَحَمَلْتُ عَلَى رَجُلٍ، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ كَبُرَ، فَطَعَنَتْهُ

فَقَتَلْتُهُ، وَرَأَيْتُ أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِيُحَرِّزَ دَمَهُ، فَلَمَّا رَجَعْنَا سَبَقَنِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا فَارِسَ خَيْرٍ مِنْ فَارِسِكُمْ، إِنَّا اسْتَلْحَقْنَا رَجُلًا فَسَبَقَنِي إِلَيْهِ، فَكَبَّرَ، فَلَمْ يَمْنَعَهُ ذَلِكَ أَنْ قَتَلَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أُسَامَةُ، مَا صَنَعْتَ الْيَوْمَ؟» فَقُلْتُ: حَمَلْتُ عَلَى رَجُلٍ، فَكَبَّرَ فَرَأَيْتُ أَنَّهُ، إِنَّمَا فَعَلَ لِيُحَرِّزَ دَمَهُ فَقَتَلْتُهُ، فَقَالَ: «كَيْفَ بَعْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ، فَهَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ فَقُلْتُ مَا قَالَ»، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ لِي يَوْمَئِذٍ، فَلَا أَقَاتِلُ رَجُلًا يَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِمَّا نَهَانِي عَنْهُ، حَتَّى أَلْقَاهُ ﷺ.

حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَافِظُ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ نَصْرِ، ثنا هَارُونُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، ثنا عَمْرُو بْنُ أَبِي قَيْسٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، عَنْ أَبِي الشَّعَثَاءِ، عَنْ عَمِّهِ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِخَوْرِهِ. [المستدرک على الصحيحین ۳/ ۱۲۵، رقم ۴۵۹۹، ۴۶۰۰، وسكت عنه الذهبي في التلخيص].
وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: أَذْرَكْتُهُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا شَهَرْنَا عَلَيْهِ السَّلَاحَ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

قَالَ: فَلَمْ نَنْزِعْ عَنْهُ حَتَّى قَتَلْنَاهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَنَا خَبْرَهُ، فَقَالَ: «يَا أُسَامَةُ، مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذًا بِهَا مِنَ الْقَتْلِ، قَالَ ﷺ: «فَمَنْ لَكَ بِهَا يَا أُسَامَةُ؟».

قَالَ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا زَالَ يُرَدِّدُهَا عَلَيَّ حَتَّى لَوَدِدْتُ أَنَّ مَا مَضَى مِنْ إِسْلَامِي لَمْ يَكُنْ، وَأَنِّي كُنْتُ أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ، وَأَنِّي لَمْ أَقْتُلْهُ.

قَالَ: قُلْتُ: أَنْظِرْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَعَاهِدُ اللَّهَ أَنْ لَا أَقْتُلَ رَجُلًا يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَبَدًا.

قَالَ ﷺ: «تَقُولُ بَعْدِي يَا أُسَامَةُ»، قَالَ: قُلْتُ: بَعْدَكَ. [السيرة النبوية لابن هشام ۲/ ۶۲۳].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «... عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: وَخَرَجَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنه فِي إِثْرِ رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: نَبِيكَ بْنُ مُرْدَاسٍ فَأَبْعَدَ، وَحَوَيْنَا عَلَى الْحَاضِرِ وَقَتَلْنَا مَنْ قَتَلْنَا، وَمَعَنَا النِّسَاءُ وَالْمَأْشِيَّةُ فَقَالَ أَمِيرُنَا: أَيْنَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ؟ فَبَجَاءَ بَعْدَ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ فَلَامَهُ أَمِيرُنَا لِأَكْثَمَةِ شَدِيدَةً، وَقَالَ: أَلَمْ تَرِ إِلَى مَا عَاهَدْتَ إِلَيْكَ؟، فَقَالَ: إِنِّي خَرَجْتُ فِي إِثْرِ رَجُلٍ جَعَلَ يَتَهَكَّمُ بِي، حَتَّى إِذَا دَنَوْتُ وَلَحَمْتُهُ بِالسَّيْفِ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ أَمِيرُنَا: أَعَمَدْتَ سَيْفَكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا فَعَلْتُ حَتَّى أَوْرَدْتُهُ شُعُوبَ.

قَالَ: قُلْنَا: وَاللَّهِ بِئْسَ مَا فَعَلْتَ وَمَا جِئْتَ بِهِ، تَقْتُلُ امْرَأًا يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

فَنَدِمَ وَسَقَطَ فِي يَدَيْهِ.

وَحَدَّثَنِي شَيْبُلُ بْنُ الْعَلَاءِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حُوَيْصَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ أَمِيرُنَا أَخَى بَنِي وَبَيْنَ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ.

قَالَ أُسَامَةُ عليه السلام: فَلَمَّا أَصَبْنَاهُ وَجَدْتُ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ مَوْجِدَةً شَدِيدَةً، حَتَّى رَأَيْتُنِي وَمَا أَقْدِرُ عَلَى أَكْلِ الطَّعَامِ حَتَّى قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَنِي وَاعْتَنَقَنِي وَاعْتَفَقَنِي، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا أُسَامَةُ! خَبِّرْنِي عَنْ غَزَاتِكَ.

قَالَ: فَجَعَلَ أُسَامَةُ عليه السلام يُخْبِرُهُ الْخَبَرَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى صَاحِبِهِ الَّذِي قَتَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَتَلْتَهُ يَا أُسَامَةُ وَقَدْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»، قَالَ: فَجَعَلْتُ أَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّدًا مِنَ الْقَتْلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا شَفَقْتَ قَلْبَهُ فَتَعَلَّمَ أَصَادِقُ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ؟».

قَالَ أُسَامَةُ: لَا أَقْتُلُ أَحَدًا يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

قَالَ أُسَامَةُ: وَتَمَكَّنْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ.

حَدَّثَنِي مَعْمَرُ بْنُ رَاشِدٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْجُبَّارِ، عَنْ الْمُقَدَّادِ بْنِ عَمْرٍو عليه السلام: قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ يَقَاتِلُنِي، وَصَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ فَقَالَ: «أَسْلَمْتُ لِلَّهِ»، أَقْتُلُهُ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقْتُلْهُ»، قَالَ: فَإِنِّي قَتَلْتُهُ فَمَاذَا؟ قَالَ: «فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ الَّتِي كُنْتُ بِهَا قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ وَأَنْتَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٢٤-٧٢٦].

مصادر ومراجع الدراسة:

أ - كتب السنة: جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٨/ ٣٥٥-٣٥٨.

ب - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتعذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦٢٢-٦٢٣، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٧٢٣-٧٢٦، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/ ٢٢، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٢٩٦-٢٩٨، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤٢٠-٤٢١، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٤٤٨-٤٤٩، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٣٦٠، ٥٠٥، إمتاع الأسعاع للمقرئزي (٨٤٥هـ) ١/ ٣٢٩، سبل الهدى والرشاد للصالح (٩٤٢هـ) ٦/ ٢٢١-٢٢٤، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٩٧-١٩٨.

ج - كتب السيرة الحديثة: صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٦٦-٣٦٧، السيرة النبوية لرزق الله ٥٣٨-٥٣٩.

د - كتب الغزوات والسرائيا: غزوة مؤتة لباشميل ٧٥-٧٩، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١١٤ - ١١٥، غزوة مؤتة والسرائيا والبعوث الشمالية لبريك ١٣٩-١٧٢، مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٩٣-١٩٩.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنهإلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنه بفدك

١ - الآثار لشهداء المسلمين:

يقول د/ أبو فارس: «وحفاظاً على الروح المعنوية العالية التي يتمتع المسلمون بها، كان الرسول ﷺ لا يجعل سرية تفشل في تحقيق هدفها، أو ينال منها عدوها إلا ويبعث غيرها، تعمل على تحقيق الهدف والثار لشهداء السرية التي سبقتها.

ومن أجل هذا فقد أرسل رسول الله ﷺ سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنه بقرن فلك وأمره ألا يبق أحداً من أولئك القوم، فسار غالب بن عبد الله رضي الله عنه ومن معه رضي الله عنهم، والتقوا بأعدائهم فقتلوا منهم قتلى، وأصابوا أنعامهم، وعادوا سالمين غانمين، وقد أخذوا بالثار». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٣].

٢ - المحافظة على السمعة العسكرية للمسلمين:

يقول د/ الغضبان: «وأن تحمل الركبان خبر مقتل أصحاب النبي ﷺ دون ثأر لهم، هو من الخطورة بمكان، وهو يضعف سمعة محمد ﷺ القوية في الجزيرة، وتغري بقية القبائل بالنيل من المسلمين والهجوم عليهم، فكان الرد العسكري الحاسم.

إن المحافظة على السمعة العسكرية القوية للجيش الإسلامي هي عنصر أصيل من عناصر التربية في هذه المرحلة، فليس الهدف هو القوة ذاتها، ولكن الهدف هو إرهاب العدو، بحيث لا يطمع أو يجترئ على الحمى الإسلامي، ويعرف أن هذا الطريق خطر وميؤوس منه، والحل هو الحوار الفكري العقلي ومحاولة فهم الإسلام، ومن أجل هذا التوازن كانت السرعة الكبيرة في بعث غالب رضي الله عنه.

وغالب رضي الله عنه قد ظفر في سرية السابقة، وأثبت الكفاءة المطلوبة، وذلك في سرية إلى الميعة في رمضان ومع غطفان بالذات... ويريد رسول الله ﷺ أن يحاصرهم من كل جانب، وهم بالمقابل يحاولون ذلك إذ كانوا يعدون العدة للهجوم، فباغتهم رضي الله عنهم بغالب رضي الله عنه، حيث بعث معه مائة وثلاثين رجلاً.

[التربية الجماعية للغضبان ١ / ٤٠-٤١].

٣ - إبقاء الطاقات في توهجها وإبداعها:

يقول د/ الغضبان: «هذه العودة المظفرة لغالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه بالنعم والشاء، وقتل من قُتل من العدو في سرية الميعة، صادف وصولها وصول بشير بن سعد رضي الله عنه إلى المدينة.

وليُبقَى رسول الله ﷺ هذه الطاقات في توهجها وإبداعها، أعاد الزبير ﷺ إلى موقعه، وطلب من غالب ﷺ أن يقود هذه السرية الجديدة بإثني مقاتل، على ضوء الانتصارات التي تحققت بالسرية الأولى، وإلى غطفان نفسها ولكن في موقع آخر، وحمية معاكسة، وأصبح اسم غالب الليثي ﷺ اسماً متداولاً ومعروفاً في الصحراء، فلا بد من استعمال وهج هذا الاسم ثانية إلى مصاب بشير بن سعد ﷺ وقومه.

[التربية الجماعية للغضبان ١/٤٣].

٤ - علبة بن زيد ﷺ دليل السرية:

«علبة بن زيد ﷺ هو الذي قطع الصحراء كلها حتى وصل إلى رسول الله ﷺ، ونقل له خبر سرية بشير بن سعد ﷺ، فليكن هو الدليل إذن لهذه السرية، وقد نجح في أن يقطع الصحراء وحده، وكسب الخبرة، فلتتراكم الخبرات إذن، وليكن هو دليل الجيش الإسلامي إلى مصاب بشير بن سعد ﷺ، ممن خبر الطريق ومهر». [التربية الجماعية للغضبان ١/٤٣].

٥ - استغلال الطاقات الشابة:

يقول د/ الغضبان: «أسامة بن زيد رضي الله عنه: الذي بلغ مبلغ الشباب هذا العام، فأصبح عمره خمسة عشر عاماً، وهو حب رسول الله ﷺ وابن حبه زيد ﷺ، ورسول الله ﷺ يرعاه شبراً فشبراً، وذراعاً فذراعاً، حتى بلغ اليوم مبلغ الرجال، وليرم به في قلب الموت، وفي أتون الجهاد، فهنا مصانع الرجال، ولا مصنع أبدع وأضخم من هذا المصنع، فانضم أسامة ﷺ لهذه السرية وهو يتوقد شوقاً، ويتحرق أملاً أن يجاهد في سبيل الله، ولم يكن أسعد منه يوم أن انضم إلى هذه السرية وبلغ مبلغ الرجال».

[التربية الجماعية للغضبان ١/٤٣].

٦ - طاعة الأمير واجبة:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما كان يفهمه الأمير ويفهمه الجنود، وكان الأمير يذكر جنوده بهذا؛ لأن الطاعة لأمر الأمير أمر حاسم في القتال، وعصيان الأمير ومنازعته الأمر يفضي إلى الفشل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُشَلُّوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وحين خالف الرماة أمر النبي ﷺ ونزلوا عن الجبل، وقد أمرهم بالبقاء عليه، حلّ بالمسلمين ما حلّ من قتل سبعين من خيارهم وأبطالهم تربية لهم وتعليماً.

ولا غرو إذن حين نسمع الأمير غالب بن عبد الله الليثي ﷺ لما اقترب على العدو قال: (لا تعصوني فإن رسول الله ﷺ قال: من أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاه فقد عصاني، وإنكم متى ما تعصوني تعصون نبيكم). [شرح المواهب ٢/٢٦٦].

ويحذّر من مغبة عصيان أمر الأمير أيضًا بقوله: (أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَحَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ تَطِيعُونِي وَلَا تَعْصُونِي، وَلَا تُخَالِفُوا لِأَمْرٍ، فَإِنَّهُ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يَطَاعُ).

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٣-٢٠٤].

٧ - أهمية الشعار في المعركة:

يقول د/ بريك: «كان الشعار في المعركة من مبتكرات النبي ﷺ في غزواته وبعوثه وسراياه وتوضح أهمية الشعار في القتال الليلي، أو الفجري الخاطف، وبخاصة إذا علمنا أن العرب في ذلك الوقت يتشابهون فيما بينهم في اللباس والملامح، حيث لم تكن هنالك بَرَآت (جمع بزة وهي البدلة العسكرية) عسكرية خاصّة لكل جيش كما هو الحال اليوم في المؤسسات العسكرية الحديثة، فكان الشعار ينوب مناب اللباس الخاص للتفريق بين المسلمين وأعدائهم في ميدان المعركة، كما أنّه يثّ روح الحماس في نفوس الجند وهم يتصايحون به أثناء الانقضاض على العدو، كما حدث في هذه السرية». والله تعالى أعلم. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٧١].

وقد فصلت الحديث عن اتخاذ الشعار في المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

٨ - أهمية الهجوم الفجري:

يقول د/ بريك: «اتَّبَعَ المسلمون الهجوم الفجري ضد الأعراب» فكان هذا الهجوم مباغته كاملة أثّرت على معنوياتهم، وأجبرتهم على الفرار.

«إنَّ الهجوم فجرًا يُؤمِّن المباغته؛ لأنَّ العدوَّ يكون بين نائم لا يفيد في القتال، أو مستيقظ غير مُتَّهِّجٍ له، وهؤلاء جميعًا غير مُتَّهِّجِينَ للقتال، ولا جدوى منهم للنهوض بأعباء الحرب.

ولكن الهجوم فجرًا يحتاج إلى قوة مدنية تستطيع معرفة أهدافها، فلا يصطدم بعضها ببعض، فيؤدي ذلك إلى خسائر في الأرواح دون مبرر، ممَّا يدل على تدريب المسلمين تدريجيًا متميزًا على فنون القتال، كما يحتاج الهجوم فجرًا إلى قيادة مهيمنة وإلى ضبط شديد لتنفيذ الأوامر». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢١٧].

وذلك واضح في الخطاب الذي ألقاه قائد السرية عليهم، وتأكيد على الضبط العسكري، ومبدأ طاعة الأوامر، ثم في تأليفه بين الجند ومؤاخاته بينهم، والحث على الاجتماع وعدم التفرق، وترك الإمعان في العمق دون مبرر.

«إنَّ نجاح المسلمين بهذا الهجوم معناه وصولهم إلى درجة عالية في التدريب والضبط، وهما أهم عناصر الجيش القوي الرصين». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢١٧]. [غزوة مؤتة لبريك ١٧١-١٧٢].

٩ - الاهتمام بالخطة الحربية:

يقول د/ الغضبان: «وقد توضحت لنا من خلال السرية السابقة الخطة العسكرية التي يتتبعها غالب رضي الله عنه، فهي لم تختلف عن سرية الميفعة، لكنه كان هو الطليعة في السرية السابقة، أما هذه (فقد بعث عتبة بن زيد رضي الله عنه في عشرة، ينظر إلى جماعة محالهم).

وعلبة ﷺ هو الخير الرئيس، فهو جندي السرية السابقة سرية بشير ﷺ، وهو خير المحنة نفسها (حتى أوفى على جماعة منهم، ثم رجع إلى غالب ﷺ فأخبره، فأقبل غالب ﷺ يسير حتى إذا كان منهم بمنظر العين ليلاً، وقد أجتلبوا وعطّونا وهذؤوا).

وإذا كانت خطبة غالب ﷺ لم تنقل لنا في السرية السابقة إنما قيل: (فوعظهم ورغبهم في الجهاد)، فهنا ينقل لنا الرواة هذه الخطبة القصيرة البليغة: **أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ تَطِيعُونِي وَلَا تَعْصُونِي، وَلَا تُحَالِفُوا لِي أَمْرًا، فَإِنَّهُ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ.**

وإذا نقل لنا عن السرية السابقة أنه ألف بينهم، فهنا يقول: **يَا فَلَانُ أَنْتَ وَفُلَانُ، يَا فَلَانُ أَنْتَ وَفُلَانُ، لَا يُفَارِقُ كُلُّ رَجُلٍ رَمِيلَهُ - وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيَّ أَحَدُكُمْ فَأَقُولُ: أَيْنَ فَلَانُ صَاحِبُكَ؟** فيقول: لا أدري.

فهذه التثنية في التوزيع، تعطي المجال الرحب ليعين الأخ أخاه، أو ينقل الخبر عنه إن استشهد.

والخطوة الثالثة في الخطة كم عهدناها تماماً في السرية السابقة: **(وَإِذَا كَبُرَتْ فَكَبِّرُوا).**

قَالَ: فَكَبِّرْ وَكَبِّرُوا، وَأَخْرَجُوا السُّيُوفَ.

قَالَ: فَأَحْطَنَّا بِالْحَاضِرِ، وَفِي الْحَاضِرِ نَعَمْ وَقَدْ عَطَّنَا مَوَاشِيَهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْنَا الرِّجَالُ فَقَاتَلُوا سَاعَةً، فَوَضَعْنَا السُّيُوفَ حَيْثُ شِئْنَا مِنْهُمْ، وَنَحْنُ نَصِيحُ بِشَعَارِنَا: أَمِتْ أَمِتْ.

وأدرك المسلمون ثأرهم من المرين الذين قتلوا المسلمين في السرية السابقة.

[التربية الجماعية للغضبان ١/ ٤٣-٤٤].

١٠ - أهمية وجود مسؤول عن التربية والتوجيه:

يقول د/ الغضبان: «لقد كان في السرية رجлан من السابقين، وهما المسؤولان عن تربية وتوجيه هذه السرية، وهذه الطاقات الجديدة، وهما: عقبة بن عمرو أبو مسعود ﷺ، وهو من أهل بدر، وكعب بن عُجرة ﷺ، وهو من أهل بيعة الرضوان، وهو الذي كان يتناثر القمل على وجهه وآذاه هوام رأسه، فأفتاه رسول الله ﷺ أن يحلق رأسه ويفدي في عمرة الحديبية، وكان في قمة الفقر، فها هو يعود اليوم بثروة طيبة من الغزوة، عشرة أبرة أو عدلها من الغنم، وهذه بداية طيبة إلى جانب ما جاءه من غنائم خير من الأرض، فأصبح فرداً منتجعاً في المجتمع الإسلامي بعد أن كان عالة عليه، وذاق مرارة الفقر كما حدثنا بقوله: **أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمًا، فَرَأَيْتُهُ مُتَعَبِّرًا، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا أَنْتَ وَأُمِّي! مَا لِي أَرَاكَ مُتَعَبِّرًا، قَالَ: «مَا دَخَلَ جَوْفِي مَا يَدْخُلُ جَوْفَ ذَاتِ كَبِدٍ مُنْذُ ثَلَاثٍ»، قَالَ: فَذَهَبْتُ، فَإِذَا يَهُودِيٌّ يَسْقِي إِبِلًا لَهُ فَسَقَيْتُ لَهُ عَلَى كُلِّ دَلْوٍ تَمْرَةً، فَجَمَعْتُ تَمْرًا، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ أَتَيْنَ لَكَ يَا كَعْبُ؟»، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُحِبُّنِي يَا كَعْبُ؟»، قُلْتُ: يَا أَبَا أَنْتَ نَعَمْ، قَالَ: «إِنَّ الْفَقْرَ أَسْرَعَ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّبِيلِ إِلَى مَعَادِنِهِ، وَإِنَّهُ**

سَيُصِيبُكَ بَلَاءٌ، فَأَعِدْ لَهُ تَحْفَافًا...». [المعجم الأوسط للطبراني ٧/ ١٦٠-١٦١ رقم ٧١٥٧، ومجمع البحرين للهيتمي ١٨/ ٢٩١ رقم ٥١٢٩، ومجمع الزوائد للهيتمي ١٠/ ٥٦٥ كتاب الزهد باب في عيش رسول الله ﷺ والسلف رقم ١٨٢٤٥، وقال الهيتمي: رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده جيد].

فكعب رضي الله عنه إذن أعد نفسه للفقير، كما وعده رسول الله ﷺ ثمن حبه للحبيب المصطفى ﷺ. ولعل هذه الأبرة العشرة تعينه على كسب قوته، وتغنيه عن الناس، وبقيت لذة العمل الشاق ترافقه طيلة عمره، يوم استقى لليهودي كل دلو بتمرة، ليطعم حبيبه ﷺ الذي ما ذاق شيئاً منذ ثلاث، ويتعلم الدرس الخالد: أن الفقر رفيقه، ويا مرجباً بهذا الفقر مع الحب النبوي الخالص». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ٤٤-٤٥].

١١ - سياسة النبي ﷺ العسكرية ضد الأعراب:

يقول د/ بريك: «استمرار سياسة النبي ﷺ العسكرية ضد الأعراب مما أدى إلى حصد النتائج السريعة المتوخاة من تلك السياسة العسكرية المتبعة ضدّهم، نصر، وغنائم، وتأديب، ورعب». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٧١].

١٢ - تحقيق السرية لأهدافها:

يقول ل/ خطاب: «وهكذا حقق غالب رضي الله عنه هدف هذه السرية تحقيقاً كاملاً، فلم تضع دماء أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنه هدراً دون مطالب، بل لقّن الذين أصابوهم من بني ثمرّة درساً قاسياً، وأثّر في معنويات المعتدين، فانهارت بعد هزيمتهم، بينما استعاد المسلمون معنوياتهم العالية بعد إحراز النصر، وبعد تيقّنهم من أن هناك مَنْ يدافع عن حقوقهم ولا يسكت عمّن يُلحق بهم الضرر مادياً أو معنوياً». [قادة النبي ﷺ لخطاب ٣٩٣].

١٣ - باعث أسامة رضي الله عنه على قتل الرجل:

يقول د/ الغضبان: «ما قصة فتانا الناشئ أسامة بن زيد رضي الله عنه في هذه السرية؟ وهل اكتفى بأجاده فيها أن ذهب وعاد وصار مع المجاهدين؟

قال الذهبي عنه: (كان شديد السواد، خفيف الروح، شاطراً، شجاعاً، رباه النبي ﷺ، وأحبه كثيراً) [سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/ ٤٩٨].

فهو لا يملأ العين والذي لا يعرفه يزدرية، فقد ذكر ابن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه قال: إن النبي ﷺ أخر الإفاضة من عرفة من أجل أسامة رضي الله عنه ينتظره، فجاء غلام أسود أفطس، فقال أهل اليمن: إنما جلسنا لهذا، فلذلك ارتدوا، يعني أيام الردة.

[المصدر نفسه ٢/ ٥٠٠ وقال محققه: رجاله ثقات، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير عن أسامة بن زيد رضي الله عنه].

وحسب رواية الواقدي فلقد كان أسامة ﷺ محط استصغار هذا البطل نبيك بن مرداس للونه وفطاسته وقصره، وكان مثار ضحكه، وأراد أسامة ﷺ هذا أن يلقن هذا البطل درسًا لا ينساه طيلة حياته، فهجم عليه وهو الشاب الصغير، فذب الذعر في قلب ذلك البطل، وفر أمام هذا الفتى أسامة ﷺ، فهل يكتفي أسامة ﷺ بالمجد أن يقول: فر البطل من أمامي وانتهى الأمر.

وتذكر أمر أميره، لكنه يريد أن يخط أول خطوط المجد في حياته، أيدع رجلًا يستهزئ به ويمضي ولا يقضي عليه، فتجاوز أمر قائده، ولاحق ذلك البطل، والبطل يجري أمامه حتى أدركه، ورأى البطل المري الموت الزوام بين عينيه، وهو يعلم أن شعار لا إله إلا الله ينجي، فقال: لا إله إلا الله، لعل هذا الفتى يرجع، فقد أرغم أنفه بالذل أن فر من أمامه وهو الأسود الأفطس القصير الصغير الذي كان مثار هزئه وسخريته.

ولكن أسامة ﷺ الواعي لن تنظلي عليه ألعيب هذا البطل، ولعلها تمة التهكم السابق إذ يضحك عليه ويعتبره ساذجًا فيرجع عن قتله بقول: لا إله إلا الله، وكان أسامة ﷺ يرى أنه لا بد من عمل جليل حاسم في هذه المعركة يرفع صفحته عاليًا عند حبيبه المصطفى ﷺ، فيثبت كفاءته القتالية العالية، ولا يكون مجال تندر القوم، ودلهم بصفته حب رسول الله ﷺ، فطعنه برمح وأرداه قتيلاً، وشفى واشتفى، وعاد مظفرًا منصورًا قاهرًا للبطل المهام في المعركة.

يدلنا على بطولة القتل ما تلقاه في رواية مسلم للحادثة: فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَإِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ عَقْلَتَهُ - قَالَ: وَكُنَّا نَحَدِّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنه فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَتَلَهُ.

فبطولة الرجل وقتله في المسلمين قتلاً ذريعاً هي الدافع الآخر لدى أسامة ﷺ، بل لعله الدافع الأول لصحة رواية مسلم على غيرها في قتله هذا الرجل.

إن صانعي المجد حين يقومون بعمل أسامة ﷺ، يضعونه في مصاف الأبطال، فهو ابن الخامسة عشرة من عمره، يقتل بطلاً فاتكاً، ويضعونه في مصاف العباقرة على هذا السن، إذ لم تفت عليه لعبة البطل أن يستغل لا إله إلا الله لينقذ نفسه من القتل، ويُسْطَرُّون له أروع الأجداد، ولو كانت هذه الحادثة في أيام العرب في الجاهلية، لرفعته الحادثة وحدها إلى مصاف القادة السادة في قومه.

أما عند صانعي الإيمان، وحكمة العقيدة، فتختلف القضية - كما يقولون - مائة وثمانين درجة. إن القتل ليس هدفاً أبداً بحد ذاته، كما هو الحال عند هواة المجد، إن القتل وسيلة لدفع الكفر أو عقوبة على الكفر ذاته، أما وقد قال: لا إله إلا الله، فيصبح القتل جريمة يعاقب عليها القاتل؛ لأن الهدف

من الجهاد كله هو أن تلعو كلمة لا إله إلا الله، وقد علت، فلا تُخَفَضُ بالقتل، ولا يُقْضَى عليها حين يعرف العدو أنها لا تعصم من القتل.

ومن أجل ذلك كانت التربية شديدة وعنيفة لأسامة عليه السلام في أول تجربة يخوضها في حياته من حبيسه المصطفى ﷺ، فلم تبق أساريه، ولم يزغرد ﷺ، وقد غدا حبه ابن الخامسة عشرة قاتلاً للبطل الفاتك، إنما راح يؤنبه ثانية وثالثة، ورابعة: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وما أحوج الحركات الإسلامية التي تبنت المواجهة المسلحة إلى أن تصغى إلى هذا الدرس، وقد تلقاه أحب الناس إلى رسول الله من رسول الله ﷺ الحُب بن الحُب، ولم يشفع له سنه الصغير، ولم يشفع له حبه، ولم تشفع له بطولته من هذا التقرع والتأنيب؛ لأنه قتل من يقول: لا إله إلا الله الذي قتل العديد من المسلمين، والذي تهكم بأسامة وأذاه واستخف به، كل هذه لم تشفع أمام لا إله إلا الله التي قالها، فعصمته من القتل.

حتى إن أسامة عليه السلام قبل أن يتلقى تأنيب نبيه ﷺ تلقى تأنيب أميره: وَاللَّهِ بِئْسَ مَا فَعَلْتَ وَمَا جِئْتَ بِهِ، تَقْتُلُ أَمْرًا يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

ولم يمنع موقع أسامة عليه السلام وحُب رسول الله ﷺ أن يوجّه له هذا التأنيب القارع: وَاللَّهِ بِئْسَ مَا فَعَلْتَ وَمَا جِئْتَ بِهِ، فالوساطة والدلال، والمحابة لن تكون على حساب العقيدة، خاصة وقد خالف الأمر الأول فأمعن في الطلب، وترك زميله وحده، والأصل ألا يتركا بعضهما أبداً.

ولم يتناول الفتى المدلل المحبوب على أميره، ويرد له الكلام الصاع صاعين، فهو تربية بيت النبوة، وتربية هذه العقيدة الشاخنة إنها (نَدِمَ وَسَقَطَ فِي يَدَيْهِ) وفي الرواية الثانية عنه: (فَلَمَّا أَصَبَتْهُ وَجَدْتُ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ مَوْجِدَةً شَدِيدَةً، حَتَّى رَأَيْتُنِي وَمَا أَقْدِرُ عَلَى أَكْلِ الطَّعَامِ).

وتُجمع الروايات كلها على مستوى الندم الذي أصابه بعد تقرع رسول الله ﷺ على قوله: «وَمَتَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ».

أي تمنى أن تكون صفحته في الإسلام بيضاء ليس فيها هذا الذنب العظيم الذي يلوثها.

ورواية البخاري: فَمَا زَالَ يُكْرَرُهَا عَلَيَّ حَتَّى مَتَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وحتى تتضح أبعاد القتل بعد لا إله إلا الله، نعرض لحديث المقداد بن الأسود عليه السلام.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ بْنِ الْخُبَّارِ: أَنَّ الْمَقْدَادَ بْنَ عَمْرِو الْكِنْدِيِّ عليه السلام، وَكَانَ حَلِيفًا لِنَبِيِّ زُهْرَةَ، وَكَانَ يَمْنَنُ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ [النَّبِيِّ] ﷺ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: [يَا رَسُولَ اللَّهِ!] أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ [كَافِرًا] فَأَقْتُلْنَا، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَازِمَنِي (أي اعتصم مني) بِشَجَرَةٍ فَقَالَ: أَسْلَمْتُ لِلَّهِ، أَقْتُلْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! بَعْدَ أَنْ قَالَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقْتُلْهُ»، فَقَالَ: يَا

رَسُولُ اللَّهِ! إِنَّهُ قَطَعَ [طَرَحَ] إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا [أَقْتُلُهُ]، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَا تَقْتُلُهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ [وَأَنْتَ] بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ»

[البخاري في المغازي (٤٠١٩)، وفي الدييات (٦٨٦٥)، ومسلم في الإيمان (١٥٥)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٤)].

[التربية الجماعية للغضببان ١/ ٤٥-٤٩].

١٤ - لا محاباة، ولا محسوبيات في دين الإسلام:

يقول د/ بريك: «إِنَّ حُبَّ النَّبِيِّ ﷺ لِأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ - ولأبيه من قبله - رضي الله تعالى عنهما - لم يشفع له عند رسول الله ﷺ عندما أخطأ، فكان اللوم والتقريع والمحاسبة الشديدة على الخطأ. وفي ذلك دليل على أنه لا محاباة، ولا محسوبيات في دين الإسلام، فالكل سواسية أمام الشارع، يحاسبهم على أخطائهم، لا فرق بين قريب أو بعيد، ولا غني أو فقير». [غزوة مؤتة لبريك ١٧٠].

١٥ - لنا الظاهر والله يتولى السرائر:

يقول د/ أبو فارس: «إن الإسلام يأمر أهله بأن يعاملون الناس حسب ما يظهر منهم من أقوال وأفعال وأحوال، ولا يتقَّبوا عن قلوبهم؛ لأنه لا يعلم حقيقة ما في القلوب إلا رب القلوب وبارئها ومقلبها.

أخذنا هذا من إنكار النبي ﷺ على أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنه قتله لرجل نطق بشهادة أن لا إله إلا الله، وقد كان منه الموت قاب قوسين أو أدنى، وقد قتله متأولاً أن الرجل ما نطق بالشهادة إلا تعوداً أي حماية لنفسه من القتل، وقد وقع تحت ضربة السيف». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٤].

ويقول أ/ وجدي: «هنا لا نستطيع أن ندع هذا الحادث الصغير في ذاته، الجليل في مؤداه وأثره، بدون تعليق؛ لأنه يدل على الروح السلمية التي كانت تتولى المسلمين في مجاهدتهم للمشركين، وهو يدل دلالة قاطعة على أن الجهاد في الإسلام لم يُشرع تحت إملاء عاطفة وحشية، كالتي تتسلط على طلاب المغنم بواسطة الغارات، ولا على محبي التبسط في الملك دون مراعاة مبدأ إنساني يُراد من ورائه إحداث إصلاح عام للبشر.

بل شُرِعَ تحت سلطان روح علوية مصاحبة لشعور سام بالحقوق الطبيعية لكل فرد من بني الإنسان، ولكل جماعة من جماعاته، ولولا أن الانتقالات الأدبية والاجتماعية لا تتم إلا على هذا النحو من التدافع والتناحر، وفقاً للسنة الطبيعية التي تشاهد في جميع أدوار التاريخ، وفي كل عهود التطورات الإنسانية، لسَبَقَ الإسلام كل داع للسلام في الأرض، ناهيك أنه احتاط لعهد استقرار السلام العام حين يتقرر بين الأمم، بمبدأ لا يجوز أن يغفله المتكلمون في هذه الناحية من الشؤون الاجتماعية، ألا وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْزَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٧) [الأنفال]، وبناء على هذا الأساس،

فإن الدعوة العامة التي ستتلو هذه الحرب العالمية المستعرة، سيكون الغرض منها إبطال الحرب، عند ذاك يجد المسلمون أنفسهم في بحبوة من الأمر، بل يجدون ما يفخرون به أمام الأمم، حين يفضون إليهم بأن دينهم قد توقع حدوث هذه الدعوة قبل وقوعها بنحو أربعة عشر قرنًا، وفي هذا أكبر داحض لادعاءات خصوم الإسلام بأنه دين تناحر وعدوان، لا دين أخوة وسلام». [السيرة المحمدية لوجدي ٢٥٥-٢٥٦].

ويقول د/ عمارة: «كانت المفاجأة المذهلة عندما رجعت السرية إلى رسول الله ﷺ، ثم أخبروه بما فعل أسامة ﷺ».

وكان الإخبار بما حدث في حد ذاته دلالة على الفطرة السليمة التي لم تقتنع بما حدث، فأحالت القضية إلى الرائد الذي لا يكذب أهله، وبدأت المحاكمة وانتهت بأن أمر الرسول ﷺ أسامة ﷺ أن يعتق رقبة كفارة الخطأ في القتل.

لقد أخطأ حب رسول الله ﷺ، فلم ينبج من المسألة، وبدت روح الإسلام الحريص على إنسانية الإنسان، والذي يرحب بأية بادرة سلام من قبل أعدائه، لتكون بذرة يستثمرها مع الأيام، لتصبح من بعد شجرة باسقة الأغصان، وتأمل كيف قامت الدنيا ولم تقعد لمقتل رجل قال كلمة التوحيد في لحظة حرجة، ومع ذلك: تنزل الآيات الكريمة تُعاتب المتسرعين، ثم ما كان من تحرير رقبة تأخذ مكانها تحت الشمس مكان أجت لها ماتت خطأ، حرصًا من الإسلام على الدماء أن تُراق، تحت أي ظرف من الظروف.

أجل تأمل ذلك؛ لتعلم أن انتصار الإسلام من بعد لم ينشأ من فراغ، وإنما استأهله بهذا العدل، بل بهذا الإحسان». [تأملات في السيرة النبوية لعمارة ١٥٩-١٦٠].

ويقول أ/ الصوياني: «أسامة ﷺ هو حبيب النبي ﷺ الذي كان يحمله بين يديه إلى المسجد، أسامة ﷺ الذي كان ﷺ يطهر جرحه بضمه العطر، ويوصى به عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَاتِلًا: «يَا عَائِشَةُ أَحْبَبِي فَإِنِّي أُحِبُّهُ».

[الترمذي في المناقب (٣٨١٨)، وقال الشيخ الألباني: حسن]، أسامة ﷺ الذي يتحدث بنفسه عن مساحته داخل النبي ﷺ فيقول: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْخُذُنِي فَيَقْعِدُنِي عَلَى فَخْذِهِ، وَيَقْعِدُ الْحَسَنُ عَلَى فَخْذِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْهُمَا فَإِنِّي أَرْحُمُهُمَا». [البخاري في الأدب (٦٠٣)].

كل هذا الحب لا يبرر لأسامة ﷺ ذلك الخطأ، ولا يمنحه حق التحدث عن أسرار القلوب والنوايا، فالتحدث الرسمي لجميع القلوب هو الوحي، والوحي فقط، فإذا لم يكن ثم وحي فالقلب هو ما أمامك لا ما تسافر بك الظنون إليه». [السيرة النبوية للصوياني ٢٩٣/٣].

١٦ - تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله:

يقول د/ العيساوي: «ثبت من سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ حرمة قتل من قال: لا إله إلا الله، بدليل ما قاله أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُھَيْنَةَ، فَصَبَحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ،

وَلَحِجْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِيَنَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنَتْهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ لِي: «يَا أَسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ [بَعْدَ مَا] قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَيَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

[البخاري في الديبات (٦٨٧٢)، وفي المغازي (٤٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (١٥٩)].

وقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». [البخاري في الإيمان (٢٥)، وفي الصلاة (٣٩٣)، وفي الزكاة (١٤٠)، وفي الجهاد والسير (٢٩٤٦)، وفي استئابة المرتدين والمعاندين وقتلهم (٦٩٢٤)، وفي الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٥)، ومسلم في الإيمان (٢٠، ٢١، ٢٢)، وفي فضائل الصحابة (٢٤٠٥)، وأبو داود في الزكاة (١٥٥٦)، وفي الجهاد (٢٦٤٠، ٢٦٤١)، وفي الجنائز (٣١٩٤)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٦، ٢٦٠٧، ٢٦٠٨)، وفي تفسير القرآن (٣٣٤١)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٣)، وفي الجهاد (٣٠٩٠-٣٠٩٥)، وفي تحريم الدم (٣٩٦٧، ٣٩٦٧-٣٩٧٧، ٣٩٧٧، ٣٩٨٢، ٣٩٨٣)، وفي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٣، ٥٠٣٩)، وابن ماجه في المقدمة (٧١، ٧٢)، وفي الفتن (٣٩٢٧-٣٩٢٩)، والدارمي في السير (٢٤٤٦)، ومسند أحمد عن أبي بكر الصديق وعمر وأبي هريرة وأنس وجابر وأوس بن أبي أوس الثقفي ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم].

فكان رسول الله ﷺ يقاتل عبدة الأوثان، وهم قوم لا يوحدون الله، فمن قال منهم: لا إله إلا الله، كان ذلك دليلاً على إسلامه. [الشرح الكبير ١/ ١٥٠].

والحاصل أنه يحكم بإسلامه إذا أقر بخلاف ما كان معلوماً عن اعتقاده؛ لأنه طريق إلى الوقوف على حقيقة الاعتقاد لنا، فنستدل بها نسمع من إقراره على اعتقاده، فإذا أقر بخلاف ما هو معلوم من اعتقاده استدللنا على أنه بدّل اعتقاده. [الشرح الكبير ١/ ١٥٠].

وعبدة الأوثان كانوا يقولون بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَكَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) [الزخرف]، ولكن كانوا لا يقولون بالوحدانية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) [الصافات]، وقال تعالى: ﴿أَجْعَلِ لِلْأَلْهَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنِّي هَذَا لَشَيْءٌ مُعْجَبٌ﴾ (٥) [ص]، فمن قال منهم: لا إله إلا الله، فقد أقر بما هو مخالف لاعتقاده، فهذا جعل دليل إيمانه. [الشرح الكبير ١/ ١٥١].

فقال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

وعلى هذا المانوية وكل من يدعي إلهين، إذا قال واحد منهم: لا إله إلا الله فذلك دليل إسلامه.

[الشرح الكبير ١/ ١٥١، والمحل ٧/ ٣١٦].

فقد ورد أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة قال له رسول الله ﷺ: يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد

بها لك عند الله... الحديث». [مسلم ١/ ٢٣].

وجه الدلالة في الحديث: أنه اكتفى بلا إله إلا الله أن تكون طريقاً للخلاص من الشقاء بالنسبة للمشركين.

فأما اليهود والنصارى فهم يقولون: لا إله إلا الله، فلا تكون هذه الكلمة دليل إسلامهم، وهم في عهد رسول الله ﷺ كانوا لا يقولون برسالته، فكان دليل الإسلام في حقهم الإقرار بأن محمداً ﷺ رسول الله. [السير الكبير ١/١٥١، والمحل ٧/٣١٦].

حيث روي أنه ﷺ، دخل على جاره اليهودي يعوده، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فنظر الرجل إلى أبيه فقال له: أجب أبا القاسم، فشهد بذلك ومات. فقال ﷺ: «الحمد لله الذي أعتق بي نسمة من النار»، ثم قال لأصحابه: «لُوا أَخَاكُمْ». (لوا: أمر من ولي يلي: أي لوا أمره في الدفن والكفن). السير الكبير ١/١٥١).

وقد ثبت فيما تقدم أن الكافر متى أظهر بخلاف ما كان يعتقد أنه يحكم بإسلامه، والأصل فيه قول النبي ﷺ: «أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

وقد كان يقاتل عبدة الأوثان وهم كانوا لا يقولون ذلك [السير الكبير ٥/٢٢٦١]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات].

ثم حين دعا اليهود بالمدينة إلى الإسلام جعل علامة إيمانهم الإقرار برسالته حتى قال لليهودي الذي دخل عليه يعوده: إشهد إني رسول الله، فلما شهد ومات، قال: الحمد لله الذي أعتق بي نسمة من النار [مسلم ١/٥١، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، رقم (٣٢)؛ لأنهم كانوا لا يقولون برسالته فجعل ذلك علامة إيمانهم. [السير الكبير ٥/٢٢٦١].

إذا عرفنا هذا فنقول: إذا حمل مسلمٌ على مشرك ليقتله فلما أرهقه قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فإن كان الكافر من قوم لا يقولون هذا، فعلى المسلم أن يكف عنه؛ لأنه سمع ما هو دليل إيمانه [المصدر نفسه/ نفس الصفحة]، والحجة لهذا حادثة أسامة ﷺ المتقدمة.

ولو كان الرجل ممن يقول: لا إله إلا الله، والمسألة بحالها، فلا بأس بأن يقتله وإن تكلم بهذه الكلمة [السير الكبير ٥/٢٢٦١]؛ لأن هذه ليست بدليل الإسلام في حقه، فإن قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وهو من قوم لا يقولون ذلك، فهذا دليل إسلامه، فعليه أن يكف عنه.

[المصدر نفسه ٥/٢٢٦٥].

وكذلك إن قال حين رهقه: محمد رسول الله، أو قال: قد دخلت في دين الإسلام، أو قال: قد دخلت في دين محمد، فهذا دليل الإسلام، حتى لو مات بعد ما قال هذه المقالة فإنه يُصَلَّى عليه ويُستغفر له.

[المصدر نفسه/ نفس الصفحة].

وذلك لأن نطقه بكلمة التوحيد رفع مكانته وأوجب له حقوقاً وجعل له على أبناء الملة حقوقاً، ومن أهمها حرمة قتله.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْخِيَارِ: أَنَّ الْمَقْدَادَ بْنَ عَمْرِو الْكِنْدِيَّ ﷺ، وَكَانَ حَلِيفًا لِنَبِيِّ زُهْرَةَ، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ [النَّبِيِّ] ﷺ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: [يَا رَسُولَ اللَّهِ!] أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ [كَافِرًا] فَاقْتُلْتُنَا، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَازِمَنِي (أَيِ اعْتَصَمَ مِنِّي) بِشَجَرَةٍ فَقَالَ: أَسَلَمْتُ لَكَ، أَقْتُلْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! بَعْدَ أَنْ قَالَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقْتُلْهُ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ قَطَعَ [طَرَحَ] إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا [أَقْتُلْهُ]، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ [وَأَنْتَ] بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ».

[البخاري في المغازي (٤٠١٩)، وفي الدييات (٦٨٦٥)، ومسلم في الإبان (١٥٥: ٩٥)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٤)].

قال الخطابي: معناه أن الكافر مباح الدم بحكم الدين قبل أن يُسلم، فإذا أسلم صار مُصْبان الدم كالمسلم، فإن قتله المسلم بعد ذلك صار دمه مباحاً بحق القصاص كالكافر بحق الدين، وليس المراد إلحاقه به في الكفر كما يقول الخوارج من تكفير المسلم بالكبيرة نوحاصله اتحاد المنزلتين مع اختلاف المآخذ، أي أنه مثلك في صون الدم وإنك مثله في الهدر. [نيل الأوطار ٧/ ٢٠٢].

ونقل ابن التين عن الدوادبي، أن معناه إنك صرت قاتلاً كما كان هو قاتلاً، وهذا من المعارض لأنه أراد الإغلاظ بظاهر اللفظ دون باطنه.

وإنما أراد أن كلاً منهما قاتل، ولم يرد أنه صار كافراً بقتله إياه، وقيل المعنى أنت عنده حلال الدم قبل أن يسلم كما كان عندك حلال الدم قبل ذلك، وقيل معناه أنه مغفور له بشهادة التوحيد، كما أنك مغفور لك بشهادة بدر [المصدر نفسه ٧/ ٢٠٢، ٢٠٣]؛ لأن الصحابي الذي حدث معه الحوار كان ممن شهد بدراً. بعد هذا العرض المفصل نصل إلى النتيجة الآتية:

حُرمة قتل الكافر بعد أن ينطق بكلمة التوحيد، وهذا إذا كان مشركاً لا يقر بالوحداية.

أما إذا كان يعتقد بوحدانية الله، فلا بد من الإقرار برسالة محمد ﷺ حتى يصبح دمه مصاناً.

[فقه السرايا للعيسوي ١٩٦-٢٠٠، وينظر: مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٩٧-١٩٨].

ويقول د/ أبو فارس: «من نطق بشهادة أن لا إله إلا الله مسلم لا يحل الاعتداء عليه، ويحرم قتله إلا إذا ارتكب من الأفعال ما يوجب ذلك في نظر الشريعة الإسلامية ولا يُسأل عن أفعاله قبل دخوله في الإسلام مهما كبرت وعظمت وتعددت، فالإسلام يُجِبُّ ما قبله، والتوبة تُجِبُّ ما قبلها».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٤-٢٠٥].

١٧ - اعتزال أسامة رضي الله عنه للفتنة الكبرى:

قال في السيرة الحلبية: إن ذلك هو سبب اعتزال أسامة بن زيد رضي الله عنه الفتنة الكبرى، واعتذاره من الاشتراك في القتال إلى جانب أمير المؤمنين على (رضي الله عنهم أجمعين) أثناء الحرب الأهلية الطاحنة التي نشبت أيام الجمل وصفين، فقد كان أسامة بن زيد رضي الله عنه ضمن فئة من الصحابة التزموا الحياد من تلك الحرب الدامية المؤسفة، وقد روى الحلبي عن أسامة رضي الله عنه أنه قال لأمر المؤمنين علي رضي الله عنه (معتذراً عن مقاتلة معاوية وحزبه والزيبر وصحبه): لو أدخلت يا أمير المؤمنين يدك في فم تنين لأدخلت يدي معها، ولكنك قد سمعت ما قال لي رسول الله ﷺ حين قتل ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله.. وقلت له: أعطي الله عهداً ألا أقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله. [السيرة الحلبية ٣/ ١٩٤].

١٨ - فوائد ذكرها ابن حجر في الفتح:

قال ابن حجر: وَهَذِهِ السَّرِيَّةُ يُقَالُ لَهَا سَرِيَّةُ غَالِبِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه، وَكَانَتْ فِي رَمَضَانَ سَنَةِ سَبْعٍ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ شَيْخِهِ، وَكَذَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي الْمَغَازِي «حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ أَسْلَمَ عَنْ رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالُوا: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَالِبَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ الْكَلْبِيِّ ثُمَّ اللَّيْثِيَّ إِلَى أَرْضِ بَنِي مُرَّةَ، وَبِهَا مُرْدَاسُ بْنُ تَمِيمٍ حَلِيفٌ لَهُمْ مِنْ بَنِي الْحُرَّةِ فَقَتَلَهُ أُسَامَةُ»، فَهَذَا يُبَيِّنُ السَّبَبَ فِي قَوْلِ أُسَامَةَ «بَعَثْنَا إِلَى الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ». وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ قِصَّةَ الَّذِي قَتَلَ ثُمَّ مَاتَ فَدُفِنَ وَلَقِطَتْهُ الْأَرْضُ غَيْرُ قِصَّةِ أُسَامَةَ؛ لِأَنَّ أُسَامَةَ عَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ دَهْرًا طَوِيلًا.

وَتَرَجَمَ الْبُخَارِيُّ فِي الْمَغَازِي «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ إِلَى الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ»، فَجَرَى الدَّوْدِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ فَقَالَ فِيهِ «تَأْمِيرٌ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ»، وَتُعَقَّبَ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ تَضَرُّعٌ بِأَنَّ أُسَامَةَ كَانَ الْأَمِيرُ، إِذْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جَعَلَ التَّرْجَمَةَ بِاسْمِهِ لِكُونِهِ وَقَعَتْ لَهُ تِلْكَ الْوَاقِعَةُ، لَا لِكُونِهِ كَانَ الْأَمِيرُ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُمَا إِنْ كَانَتْ سَنَةِ سَبْعٍ أَوْ ثَمَانٍ، فَمَا كَانَ أُسَامَةَ يَوْمَئِذٍ إِلَّا بَالِغًا؛ لِأَنَّهُمْ ذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ لَهُ لَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَامًا...

فِي رِوَايَةِ الْكُشْمِينِيِّ «بَعْدَ أَنْ قَالَ»، قَالَ ابْنُ التَّيْنِ: فِي هَذَا اللَّوْمِ تَعْلِيمٌ وَإِبْلَاحٌ فِي الْمَوْعِظَةِ حَتَّى لَا يُقَدِّمَ أَحَدٌ عَلَى قَتْلِ مَنْ تَلَفَّظَ بِالتَّوْحِيدِ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: فِي تَكْرِيرِهِ ذَلِكَ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ قَبُولِ الْعُذْرِ رَجْرَجٌ شَدِيدٌ عَنِ الْإِقْدَامِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ. قَوْلُهُ (إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّدًا) فِي رِوَايَةِ الْأَعْمَشِ «قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ» وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي عَاصِمٍ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ أُسَامَةَ: «إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِيُخْرِزَ دَمَهُ».

قوله (قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَإِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا) كَذَا أَعَادَ الإِعْتِدَارَ وَأَعِيدَ عَلَيْهِ الإِنْكَارُ، وَفِي رِوَايَةِ الْأَعْمَشِ «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا».

قَالَ النَّوَوِيُّ: الْفَاعِلُ فِي قَوْلِهِ «أَقَالَهَا» هُوَ الْقَلْبُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّكَ إِنَّمَا كَلَّمْتَ بِالْعَمَلِ بِالظَّاهِرِ وَمَا يَنْطِقُ بِهِ اللِّسَانُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ فَلَيْسَ لَكَ طَرِيقٌ إِلَى مَا فِيهِ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ تَرْكَ الْعَمَلِ بِمَا ظَهَرَ مِنَ اللِّسَانِ فَقَالَ «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ» لِيَنْظُرَ هَلْ كَانَتْ فِيهِ حِينَ قَالَهَا وَاعْتَقَدَهَا أَوْ لَا، وَالْمَعْنَى أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ لَسْتَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ فَاصْنَعْ مِنْهُ بِاللِّسَانِ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: فِيهِ حُجَّةٌ لِمَنْ أَثَبَتَ الْكَلَامَ النَّفْسِيَّ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَرْسِبِ الْأَحْكَامِ عَلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ دُونَ الْبَاطِنَةِ.

قَوْلُهُ (حَتَّى تَمَيَّنْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ) أَيُّ أَنْ إِسْلَامِي كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ؛ لِأَنَّ الإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، فَتَمَيَّنْتُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْوَقْتُ أَوَّلَ دُخُولِهِ فِي الإِسْلَامِ لِيَأْمَنَ مِنْ جَرِيرَةِ تِلْكَ الْفَعْلَةِ، وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ تَمَيَّنْتُ أَنْ لَا يَكُونَ مُسْلِمًا قَبْلَ ذَلِكَ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ كَانَ اسْتَصْغَرَ مَا سَبَقَ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فِي مُقَابَلَةِ هَذِهِ الْفَعْلَةِ لِمَا سَمِعَ مِنَ الإِنْكَارِ الشَّدِيدِ، وَإِنَّمَا أَوْرَدَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ، وَبَيَّنَّ ذَلِكَ أَنَّ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ فِي رِوَايَةِ الْأَعْمَشِ «حَتَّى تَمَيَّنْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ»...

وَقَالَ الْحَطَّائِيُّ: لَعَلَّ أَسَامَةَ تَأَوَّلَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَنْفَعُهُمْ لِمَا رَأَوْا بِأَسَاسًا﴾ [غافر: ٨٥]؛ وَلِذَلِكَ عَذَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَلْزِمْهُ دِيَّةً وَلَا غَيْرَهَا.

قُلْتُ: كَأَنَّهُ حَمَلَ نَفْيِ النَّفْعِ عَلَى عُمُومِهِ دُنْيَا وَآخِرَى، وَلَيْسَ ذَلِكَ الْمُرَادُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ أَنَّهُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالَةِ يَنْفَعُهُ نَفْعًا مُقَيَّدًا بِأَنْ يَجِبَ الْكَفُّ عَنْهُ حَتَّى يُجْتَبَرَ أَمْرُهُ هَلْ قَالَ ذَلِكَ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ خَشْيَةً مِنَ الْقَتْلِ، وَهَذَا بِخِلَافِ مَا لَوْ هَجَمَ عَلَيْهِ الْمَوْتُ وَوَصَلَ خُرُوجُ الرُّوحِ إِلَى الْعَرْعَرَةِ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ، فَإِنَّهُ إِذَا قَالَهَا لَمْ تَنْفَعُهُ بِالنِّسْبَةِ لِحُكْمِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ.

وَأَمَّا كَوْنُهُ لَمْ يَلْزِمْهُ دِيَّةً وَلَا كَفَّارَةً فَتَوَقَّفَ فِيهِ الدَّادُوذِيُّ، وَقَالَ: لَعَلَّهُ سَكَتَ عَنْهُ لِعِلْمِ السَّامِعِ، أَوْ كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ نَزُولِ آيَةِ الدِّيَةِ وَالْكَفَّارَةِ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: لَا يَلْزِمُ مِنَ السُّكُوتِ عَنْهُ عَدَمُ الْوُقُوعِ، لَكِنْ فِيهِ بُعْدٌ؛ لِأَنَّ الْعَادَةَ جَرَتْ بِعَدَمِ السُّكُوتِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ إِنْ وَقَعَ، قَالَ: فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ لِأَنَّهُ كَانَ مَأْذُونًا لَهُ فِي أَصْلِ الْقَتْلِ، فَلَا يَضْمَنُ مَا أَتَفَلَ مِنْ نَفْسٍ وَلَا مَالٍ كَالْحَاتِنِ وَالطَّبِيبِ، أَوْ لِأَنَّ الْمَقْتُولَ كَانَ مِنَ الْعَدُوِّ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَحِقُّ دِيَّتَهُ، قَالَ: وَهَذَا يَتِمَّشَقُ عَلَى بَعْضِ الْأَرَاءِ، أَوْ لِأَنَّ أَسَامَةَ أَقْرَبَ بِذَلِكَ وَلَمْ تَقُمْ بِذَلِكَ بَيْنَهُ فَلَمْ تَلْزِمِ الْعَاقِلَةَ الدِّيَةَ وَفِيهِ نَظَرٌ.

[وقال النووي: وَأَمَّا كَوْنُهُ رضي الله عنه لَمْ يُوجِبْ عَلَى أُسَامَةَ قِصَاصًا وَلَا دِيَّةَ وَلَا كَفَّارَةَ، فَقَدْ يُسْتَدَلُّ بِهِ لِإِسْقَاطِ الْجَمِيعِ، وَلَكِنَّ الْكَفَّارَةَ وَاجِبَةً، وَالْقِصَاصَ سَاقِطًا لِلشُّبْهَةِ؛ فَإِنَّهُ ظَنَّهُ كَافِرًا، وَظَنَّ أَنَّ إِظْهَارَهُ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ فِي هَذَا الْحَالِ لَا يَجْعَلُهُ مُسْلِمًا.

وَفِي وَجُوبِ الدِّيَةِ قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ، وَقَالَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَعْضُ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَنُجَابٌ عَنْ عَدَمِ ذِكْرِ الْكَفَّارَةِ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى الْفُورِ، بَلْ هِيَ عَلَى التَّرَاخِي، وَتَأْخِيرِ الْبَيَانِ إِلَى وَقْتِ الْحَاجَةِ جَائِزٌ عَلَى الْمَذْهَبِ الصَّحِيحِ عِنْدَ أَهْلِ الْأُصُولِ.

وَأَمَّا الدِّيَةُ عَلَى قَوْلِ مَنْ أَوْجَبَهَا فَيُحْتَمَلُ أَنَّ أُسَامَةَ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُعْسِرًا بِهَا فَأُخِّرَتْ إِلَى يَسَارِهِ].

[شرح النووي على مسلم ١٠٦/٢]

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: كَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ سَبَبَ حَلِفِ أُسَامَةَ أَنْ لَا يُقَاتِلَ مُسْلِمًا بَعْدَ ذَلِكَ، وَمِنْ ثَمَّ تَخَلَّفَ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه فِي الْجَمَلِ وَصَفِيْنِ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ.

قُلْتُ: وَكَذَا وَقَعَ فِي رَوَايَةِ الْأَعْمَشِ الْمَذْكُورَةِ «أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه كَانَ يَقُولُ: لَا أَقَاتِلُ مُسْلِمًا حَتَّى يُقَاتِلَهُ أُسَامَةُ».

وَأُسْتَدَلَّ بِهِ النَّوَوِيُّ عَلَى رَدِّ الْفِرْعِ الَّذِي ذَكَرَهُ الرَّافِعِيُّ فِيمَنْ رَأَى كَافِرًا أَسْلَمَ فَأَكْرَمَ أَكْرَامًا كَثِيرًا، فَقَالَ: لَيْتَنِي كُنْتُ كَافِرًا فَأَسْلَمْتُ لِأَكْرَمٍ، فَقَالَ الرَّافِعِيُّ: يَكْفُرُ بِذَلِكَ، وَرَدَّهُ النَّوَوِيُّ بِأَنَّهُ لَا يَكْفُرُ لِأَنَّهُ جَازِمٌ الْإِسْلَامَ فِي الْحَالِ وَالْإِسْتِقْبَالِ، وَإِنَّمَا تَمَّتْ ذَلِكَ فِي الْحَالِ الْمَاضِي مُقَيَّدًا لَهُ بِالْإِيمَانِ لَيْتَمَ لَهُ الْإِكْرَامُ، وَأُسْتَدَلَّ بِقِصَّةِ أُسَامَةَ، ثُمَّ قَالَ: وَيُمْكِنُ الْفَرْقُ. [فتح الباري في الديات (٦٨٧٢)].

ويقول د/ بريك: «وقال الزرقاني: «روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أمر رضي الله عنه لأهل مرداس بديته وردَّ ماله إليهم، وقيل: قال له: «اعتق رقبة». [شرح المواهب ٢٠٥٢/٢].

قلت: بالإضافة إلى ما ذكره، فَإِنَّ أُسَامَةَ رضي الله عنه كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ صَغِيرًا فِي السِّنِّ، وَأَنَّ مَا حَمَلَهُ عَلَى قَتْلِ ذَلِكَ الرَّجُلِ هُوَ قَوْلُهُ خَبَرْتَهُ الْفَقْهِيَّةَ، وَبِخَاصَّةِ فَقْهِ الْجِهَادِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا أَوَّلُ مِشَارَكَةٍ جِهَادِيَّةٍ، كَمَا وَرَدَ فِي رَوَايَةِ ابْنِ سَعْدٍ السَّابِقَةِ، وَلَا جُلَّ ذَلِكَ عَذْرُهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَكِنَّهُ أَبْلَغُ فِي اللَّوْمِ وَالْعِتَابِ عَلَيْهِ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ، وَالتَّثْبُتِ، وَبِخَاصَّةٍ وَأَنَّ الْأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِحَيَاةِ إِنْسَانٍ بَدَتْ مِنْهُ شُبْهَةٌ تَدْرَأُ عَنْهُ الْقَتْلُ. والله تعالى أعلم».

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشبالية لبريك ١٧٠].

الفصل السادس

سريّة بشير بن سعد ﷺ إلى الجناب

شوّال ٥٧ / فبراير (شباط) ٦٢٩م / أمشير ٣٤٥ قبطي

المبحث الأول

عرض سريّة بشير بن سعد ﷺ إلى الجناب

التعريف بالجناب، ويمن، وجبار:

يقول د/ بريك: «قال البكري [معجم ما استعجم ٢/ ٣٩٥]: «الجناب - بكسر أوله، وبالباء المعجمة بواحدة».

وقال الحموي [معجم البلدان ٢/ ١٦٤]: «يقال فرس طوع الجناب - بكسر الجيم - إذا كان سلس القياد، ويُقال: لجّ فلان في جناب قبيح، إذا لجّ في مجانبه أهله».

وقال ابن سعد [الطبقات ٢/ ١٢٠]: «والجناب يعارض سلاح، وخير، ووادي القرى».

وقال البكري [معجم ما استعجم ٢/ ٣٩٦]: «أرض لغطفان، هكذا قال أبو حاتم الأصمعي، وقال في موضع آخر: الجناب: أرض لفزارة وعُدرة، وقال إبراهيم بن محمد بن عرفة: الجناب أرض بين فزارة وكلب، ويدلُّ أنَّ لَعُدرة فيها شركة قول جميل لبثينة: ما رأيت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان على البلاط إلّا غرّت عليك وأنت بالجناب، وكان فائق الجمال».

وقال ياقوت [معجم البلدان ٢/ ١٦٤ - ١٦٥]: «وقيل: هو من منازل بني مازن، وقال نصر: الجناب من ديار بني فزارة بين المدينة وفيد، وقال ابن حبيب: الجناب من بلاد فزارة، والحضارم من ناحية اليمامة».

وقال البلادي: «الجناب أرض واسعة تقع شمال خيبر، وتمتد إلى تيماء، يُعرَف جُلّها اليوم باسم (الجهراء)، كانت منازل قضاة، وهي اليوم لعنزة بن أسد». [معجم المعالم الجغرافية في السيرة ٨٦].

وقال في موضع آخر: «صحراء تمتد من حفيرة الأيدا (هي بئر حفرها فرحان الأيدا أمير ولد علي من عنزة في وادٍ صغير هو أحد روافد وادي الزهراء من أودية خيبر، من أعلاه، فاتخذها قاعدة له وحصّنها. ينظر: البلادي: رحلات في بلاد العرب ٢٨)، إلى تيماء». [رحلات في بلاد العرب (في شمال الحجاز والأردن) ٦٤].

أمّا يمن وجبار، فقال ياقوت: «جبار - بالضم - وهو في كلام العرب الهدر، ذهب دمه جباراً كما تقول هدرًا، وهو ماء لبني حميس بن عامر بن ثعلبة بن مودعة بن جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاة، بين المدينة وفيد، قال:

ألا من مُبْلَغِ أسماء عني إذا حَلَّتْ بيمنٍ أو جُبَّار

[معجم البلدان ٢/ ٩٨].

وقال في موضع آخر: «يمن - بالفتح، ويروى بالضم - ثُمَّ السكون، ونون، ماء لغطفان بين بطن قَوْ وَرُؤَاف على الطريق بين تباء وفيد، وقيل: «هو ماء لبني صرمة بن مرّة، وسماه بعضهم: أَمْن، وينشد قول زهير:

عفا من آل فاطمة الجواء فيُمن فالقوادم فالحساء

وقال:..... ولو حَلَّتْ بِيَمَنٍ أَوْ جُبَار. [معجم البلدان ٥/٤٤٩].

وقال ابن سعد: «هي نحو الجناب». [الطبقات ٢/١٢٠].

وقال البكري: «يُمن - بضم أوله، وإسكان ثانيه - ماء، قال عامر ابن الطفيل:

أَلَا مِنْ مُبَلِّغٍ أَسْمَاءَ عَنِّي وَلَوْ حَلَّتْ بِيَمَنٍ أَوْ جُبَار

قال ابن دريد: «يمن وجبار من الحجاز». [معجم ما استعجم ٤/١٤٠٠-١٤٠١].

وقال الحلبي: «جبار - بفتح الجيم - وادٍ قريب من خيبر». [تاريخ ١/١٩٤].

وقال البلادي: «جبار وادٍ تراه من مشرف العشاش (قرية من قرى محافظة خيبر، بُنِيَتْ في طرف أنقاض قرية سلاح القديمة) (سلاح) شمالاً شرقياً، والاسم لماء هناك.

ويمن ماء - أيضاً - في نفس الوادي، وسيل الوادي يصب في وادي العشاش من أعلاه، والمكانان شمالاً شرقياً من العشاش يُريان بالعين». [رحلات في بلاد العرب ٢٦-٢٧]. [غزوة مؤتة لبريك ٢٠١-٢٠٣].

تاريخ السرية:

يقول د/ بريك: «أَرَحَهَا الواقدي بسنة سبع من الهجرة، ولم يحدّد الشهر الذي انطلقت فيه.

[المغازي ٢/٧٢٨].

وتابعه نقلاً عنه كُلُّ من: الطبري [تاريخ ٣/٢٣ وقال الطبري: «قال الواقدي: وفيها سرية بشير بن سعد إلى يمن وجناب، في شوال من سنة سبع»]، والبيهقي [دلائل النبوة ٤/٣٠١]، وابن كثير [البداية والنهاية ٤/٢٢٣]، والذهبي [تاريخ الإسلام، قسم المغازي ٤٥١].

أَمَّا ابن سعد فحدّدها بشهر شَوَّال من نفس السنة. [طبقات ٢/١٢٠].

وتابعه في ذلك البلاذري [أنساب الأشراف ٣٧٩]، وابن سيد الناس [عيون الأثر ٢/١٩١]، والقسطلاني [المواهب اللدنية ١/٥٣٩]، والشامي [سبل الهدى ٦/٢١٣].

وذكر ابن خياط - في سياقه لسرايا النَّبِيِّ   سنة ست - بَعَثَ بشير بن سعد   إلى خيبر. [تاريخ ٧٩]. وأظنه يقصد هذه السرية حيث لم يُذكر غيرها لبشير   في نفس المنطقة سوى سريته السابقة إلى فذك، كما أنَّ يمن وجبار والجناب قريبة من خيبر، كما وَصَّحْنَا سابقاً، والله تعالى أعلم.

أما ابن القيم، فساق الحديث عن هذه السرية ضمن الجدول الذي وضعه لسرايا النبي ﷺ بعد مقدمه من خيبر إلى شوال، حيث رتبها بعد سرية غالب بن عبد الله الكلبي ﷺ إلى بني الملوّح بالكُند، وساق الخبر عنها دون أن ينسبه إلى أحد، وإن كان لفظه هو لفظ الواقدي. [زاد المعاد ٣/ ٣٥٩، ٣٦٣].

وإذا استعرضنا بعض ما ورد في رواية الواقدي الأكثر تفصيلاً للأحداث من رواية ابن سعد، لوجدنا قرائن تُقرّي تحديد ابن سعد لها بشهر شوال من السنة السابعة أي بعد غزوة خيبر.

فقوله مثلاً في بداية روايته: «قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ أَشْجَعٍ يُقَالُ لَهُ: حُسَيْلُ بْنُ نُؤَيْرَةَ، وَقَدْ كَانَ دَلِيلَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ...». [المغازي ٢/ ٧٢٨].

ثم قوله في آخر الرواية: «قَالَ الْحَارِثُ: أَيُّهَا الرَّجُلُ! قَدْ رَأَيْتَ وَرَأَيْنَا مَعَكَ أَمْرًا بَيِّنًا فِي بَنِي النَّضِيرِ، وَيَوْمَ الْخَنْدَقِ وَفُرَيْطَةَ، وَقَبْلَ ذَلِكَ فَيَنْقَاعُ، وَفِي خَيْبَرَ، إِنَّهُمْ كَانُوا أَعَزَّ يَهُودِ الْحِجَازِ كُلِّهِ، يُقْرُونَ هُمْ بِالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ، وَهُمْ أَهْلُ حُصُونٍ مَيِّعَةٍ وَأَهْلُ نَخْلٍ، وَاللَّهِ إِنْ كَانَتِ الْعَرَبُ لَتَلْجَأُ إِلَيْهِمْ فَيَمْتَنِعُونَ بِهِمْ، لَقَدْ سَارَتْ حَارِثَةُ بْنُ الْأَوْسِ حَيْثُ كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَوْمِهِمْ مَا كَانَ فَاغْتَنَعُوا بِهِمْ مِنَ النَّاسِ، ثُمَّ قَدْ رَأَيْتَ حَيْثُ نَزَلَ بِهِمْ كَيْفَ دَهَبَتْ تِلْكَ النَّجْدَةُ وَكَيْفَ أُدِيلَ عَلَيْهِمْ.

فَقَالَ عُمَيْيَةُ: هُوَ وَاللَّهِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ نَفْسِي لَا تُقَرِّئِي...». [المغازي ٢/ ٧٣٠].

كُلُّ ذَلِكَ يُعَدُّ قَرَائِنَ قَوِيَّةَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ السَّرِيَّةَ كَانَتْ بَعْدَ خَيْبَرَ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢٠٤-٢٠٦].

سبب السرية:

يقول أ/ باشميل: «هي أكبر حملة عسكرية يشنها الجيش النبوي على المشركين في نجد عقب الانتصار الساحق على اليهود في معركة خيبر.

قاد هذه الحملة الكبيرة إلى ديار غطفان وفزارة والقبائل الوثنية المجاورة: بشير بن سعد ﷺ، وكان هدف الحملة إحباط مشروع غزو كبير كان السيد الأحق المطاع سيد فزارة عيينة بن حصن قد أعدّه للزحف على المدينة واحتلالها.

وقد أشرنا أكثر من مرة إلى أن القبائل الواقعة شرقي المدينة (مثل غطفان وفزارة وأسد وأشجع وحنيفة) هم من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ مع طاقات عسكرية هائلة، سواء من الناحية البشرية أو من ناحية القدرة القتالية، حيث إنه معترف لهذه القبائل بالشراسة في القتال والصبر على النزال.

وقد دل سياق المؤرخين على أنه بإمكان هذه القبائل الوثنية الشرقية أن تحشد في أسرع وقت جيشاً لا يقل عدده عن عشرين ألف مقاتل.

ولهذا كانت كثرة عددهم وتفوقهم في ميادين الحرب قد أغرتهم أكثر من مرة بالمسلمين حيث حاولوا عدة مرات غزو المسلمين في المدينة وإنهاء وجودهم، وهو أمر لم يجرؤ أحد عليه سوى قريش التي نقلت المعركة ضد المسلمين إلى ضواحي المدينة (أُحُد) ولكن دون أن تجرباً على التفكير يومها في احتلال المدينة. أما هؤلاء الأعراب الشرسون العتاة فقد كان هدفهم - في كل محاولاتهم الحربية - احتلال المدينة والقضاء على المسلمين فيها قضاء تاماً، فعلوا ذلك منفردين، وفعلوه بالاشتراك مع غيرهم من الذين جمعتهم بهم العداوة للإسلام.

وآخر محاولة خطيرة قام بها هؤلاء الأعراب للإطاحة بالمسلمين واحتلال المدينة وانتهاؤها، هي تلك المحاولة التاريخية التي قاموا بها - بالاشتراك مع خيبر ويهود المدينة وقريش - في السنة الخامسة من الهجرة ضمن حلف عسكري ثلاثي لاكتساح المدينة ونسف الوجود الإسلامي بأكمله في السنة الخامسة الهجرية. وقد حاولت هذه القبائل الوثنية مرة أخرى مساندة يهود خيبر لضرب القوات الإسلامية الزاحفة على خيبر وذلك في أوائل السنة السابعة من الهجرة.

ففي هذه السنة جهزت فزارة وبنو أسد وحدها حوالي خمسة آلاف مقاتل، أُلِّفَ منها رابط مع اليهود في حصونهم بخيبر، وأربعة آلاف بقيادة عيينة بن حصن تحركت من مضاربها في صحاري نجد لضرب القوات الإسلامية من الخلف، إلا أن كل هذه المحاولات باءت بالفشل.

وبالرغم من الفشل المتلاحق الذي منيت به هذه القبائل الوثنية الشرقية الشجاعة القوية في كل محاولة تقوم بها للقضاء على المسلمين أو خضد شوكتهم، فإن كثرة عدد هذه القبائل الغامر وقدرتهم القتالية الممتازة، ظلاً عامل غرور يدفع بهذه القبائل العظيمة المحاربة إلى استضعاف المسلمين والتفكير دائماً في القيام بغزوهم والإطاحة بهم وهدم كيانهم داخل عاصمتهم المدينة.

ففي شهر شوال من السنة السابعة للهجرة - أي بعد حوالي سنة كاملة من تصفية اليهود واندحار حلفائهم الوثنيين هؤلاء في خيبر - تبلغت القيادة الإسلامية في المدينة - عن طريق رجال استخباراتها العسكريين المنتشرين بين مضارب تلك القبائل الوثنية شرقي المدينة - أن القائد الفزاري الشهير عيينة بن حصن يقوم بتحشيد قبائل غطفان وفزارة وأشجع وأسد في منطقة يقال لها «يمن وجبار» نحو الجَنَابِ وهو موضع يعارض خيبر ووادي القرى شمال شرقي المدينة.

وإن هدف هذه التجمعات الوثنية هو الزحف على المسلمين وأخذهم على حين غرة في المدينة نفسها. فقد جاء في التقرير الشفوي الذي قدمه جهاز الاستخبارات النبوية (أن عيينة بن حصن الفزاري قد بعث إلى تلك القبائل يقول لهم: إما أن تسيروا إلينا وإما أن نسير إليكم، فأرسلوا إليه أن سر إلينا حتى نزحف إلى محمد).

غير أن ما جاء في تقرير الاستخبارات العسكرية النبوية لم يكن مفاجأة للقيادة في المدينة، فقد كانت المدينة تتوقع أن يعاود الغرور هذه القبائل الوثنية القوية، لما هي عليه من كثرة في العدد وخبرة بالحرب، ولكونها أقرب القبائل الوثنية إلى المدينة التي طالما سال لعاب هؤلاء الأعراب الأجلاف كلما تذكروا خيراتهم الزراعية، التي طالما حاولوا اجتياحها وانتهابها». [غزوة مؤتة لباشميل ٨٠-٨١].

ويقول د/ بريك: «ذكر أهل المغازي الذين رووا أخبار هذه السرية أن السبب الذي أهاج هذه السرية، هو ذلك التقرير المهم الذي جاء به عين النبي ﷺ في منطقة خيبر وما جاورها، ودليله إليها من قبل، حُسيّل بن نيرة الأشجعي، عن التحركات العدوانية التي يقوم بها زعيم قوي ومؤثر من زعماء قبيلة غطفان، هو عيينة بن حصن الفزاري، ومحاولته حشد جمع من غطفان في منطقة الجنب القريبة من خيبر، استعدادًا للزحف إلى رسول الله ﷺ، أو الإغارة على بعض أطراف الدولة الإسلامية.

[ينظر: الواقدي: مغازي ٢/٧٢٨، ابن سعد: طبقات ٢/١٢٠، الطبري: تاريخ ٣/٢٣].

قال الواقدي: «حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ بَشِيرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ أَشْجَعٍ يُقَالُ لَهُ: حُسَيْلُ بْنُ نُؤَيْرَةَ، وَقَدْ كَانَ ذَلِيلَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِنْ أَيْنَ يَا حُسَيْلُ؟»، قَالَ: قَدِمْتُ مِنَ الْجَنْبِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا وَرَاءُكَ؟»، قَالَ: تَرَكْتُ جَمْعًا مِنْ غَطَفَانَ بِالْجَنْبِ، قَدْ بَعَثَ إِلَيْهِمْ عَيْنَةُ يَقُولُ لَهُمْ: إِمَّا تَسِيرُوا إِلَيْنَا وَإِمَّا نَسِيرُ إِلَيْكُمْ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ أَنْ سِرْ إِلَيْنَا حَتَّى نَزْحَفَ إِلَى مُحَمَّدٍ جَمِيعًا، وَهُمْ يُرِيدُونَكَ أَوْ بَعْضَ أَطْرَافِكَ». [المغازي للواقدي ٢/٧٢٧-٧٢٨].

وبما أن عيينة بن حصن قد كانت له سابقة من قبل مع المسلمين، كانت سببًا في غزوة ذي قرد^(١)؛ لذلك أخذ رسول الله ﷺ تقرير حُسيّل مأخذ الجد، وسارع ببعث هذه السرية لضرب ذلك الحشد في عقر داره، قبل أن تستكمل استعداداتهم للتحرك ثم الهجوم، كما فعلوا من قبل. والله تعالى أعلم.

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢٠٧].

تضيق حشد الوثنيين:

يقول أ/ باشميل: «ولذلك فإن النبي القائد ﷺ لم يكذب يتلقى التقرير من رجال استخباراته عن هذه الحشود التي يقوم بها عيينة بن حصن الفزاري، حتى استدعى وزيره أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وبحث معها هذه التطورات الخطيرة، وأبلغها ما تلقى من معلومات عن التحشيدات هذه، فأشاروا عليه بأن يسارع إلى إرسال قوة كبيرة تداهم هؤلاء الأعراب وتضربهم مكان تجمعهم قبل أن يبدأوا تحركاتهم نحو المدينة.

(١) في السنة السادسة أغار عيينة بن حصن، وابنه عبد الرحمن في فوارس من غطفان على لقاح النبي ﷺ التي كانت في الغابة، فقتلوا أحد الرعاة، واستاقوا اللقاح، فنذر بهم رسول الله ﷺ وبعض الصحابة، ولحقوا بهم واستنقذوا اللقاح.

فعمل الرسول ﷺ بمشورة وزيريه وصاحبيه، فاستدعى القائد المشهور بشير بن سعد ﷺ وكلفه بأن يتولى الإغارة على أولئك الأعراب في ديارهم قبل أن يكملوا تجهيزاتهم.

ثم جهز الرسول ﷺ ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، أعطى قيادتهم بشير بن سعد ﷺ الذي عقد له الرسول ﷺ لواءً، فتحرك بشير بهذه القوات الكثيفة واتجه بها صوب الجَنَاب في نجد ليباغت الأعداء في ديارهم وبين مضاربهم قبل أن يتمكنوا من التحرك نحو المدينة.

وتلك دائماً عادته ﷺ، يسارع بنقل المعركة - وعلى جناح السرعة وبسريرة تامة - إلى ديار أي عدو يفكر في الإغارة على المدينة.

وعامل المباغته في العمليات الحربية - دائماً وفي كل زمان ومكان - يكون من أهم عوامل الفوز والنصر وتحقيق الأهداف التي ترسم الخطط الحربية من أجل تحقيقها.

ولكي تنجح خطة المباغته، ويتمكن قائد الحملة من تشتيت المحتشدين الأعداء بسهولة أمر النبي ﷺ القائد بشير بن سعد ﷺ بأن يسير برجاله الليل ويكمن النهار لئلا يعلم أحد بتحركاتهم حتى يدهموا العدو ويأخذوه على حين غرة». [غزوة مؤتة لباشميل ٨٢].

أحداث السرية:

قال الواقدي: «... عَنْ بَشِيرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا - فَذَكَرَ لَهُمَا ذَلِكَ فَقَالَا جَمِيعًا: ابْعَثْ بَشِيرَ بْنَ سَعْدٍ! فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشِيرًا ﷺ، فَعَقَدَ لَهُ لِيَوَاءَ، وَبَعَثَ مَعَهُ ثَلَاثِينَ رَجُلًا، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسِيرُوا اللَّيْلَ وَيَكْمُنُوا النَّهَارَ، وَخَرَجَ مَعَهُمْ حُسَيْنُ بْنُ نُوَيْرَةَ ﷺ دَلِيلًا، فَسَارُوا اللَّيْلَ وَكَمُنُوا النَّهَارَ حَتَّى أَتَوْا [إِلَى يَمَنَ وَجَبَارَ، وَهُمَا نَحْوُ الْجَنَابِ - وَالْجَنَابِ: مُعَارِضُ سِلَاحٍ - وَخَيْبَرُ وَوَادِي الْقُرَى] [زيادة من طبقات ابن سعد ١١٣/٢] أَسْفَلَ خَيْبَرَ فَتَرْتَلَوْا بِسِلَاحٍ^(١)،

(١) يقول د/ بريك: «قال ياقوت: سلاح كأنه على وزن قطام، موضع أسفل من خيبر، وسلاح أيضًا، ماء لبني كلاب شبكة ملح لا يشرب منه أحد إلا سلاح». (معجم ٢٣٣/٣). وقال العباسي: «أخرج أبو داود، والطبراني بسند جيد حديث ابن عمر «يوشك المسلمون أن يخلصوا إلى المدينة حتى يكون أدنى مسالحهم بسلاح».

قلت: أخرجه أبو داود (ينظر: عون المعبود ١١/٣٢١). قال: «حدثت عن ابن وهب، قال: أخبرنا جرير بن حازم عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: ...، ثُمَّ ذَكَرَهُ نَحْوَهُ. قال المنذري: فيه مجهول؛ لأنَّ أبا داود قال: حَدَّثْتُ، ولم يبيِّن مَنْ حَدَّثَ بِهِ. ويقول البلادي: تقع سلاح إلى طرف قرية العشاش من الجنوب. وهي من قرى بلدة خيبر. وهي على ربوة ترتفع عن مجرى السيل. فُقر عين سلاح القديمة مَحْصَصَةٌ ظاهرة. وظلت سلاح محطةً للحُجَّاج حتى تحوَّل الطريق الشامي إلى تبوك. فالعُلا، فاندثرت. ثُمَّ بَنَى بَعْضُ الْعَزِيزِينَ عِشَاشًا بِجَوَارِ الْبَلَدِ الْقَدِيمِ فَسُمِّيَتْ الْعِشَاشُ. وَلَمَّا عُبِدَ طَرِيقُ الْحِجَازِ أَخَذَتِ الْعِشَاشُ فِي الْإِنْتِعَاشِ وَحَفَرُ أَهْلِهَا أَبَارًا عَلَى قُفْرِ عَيْنِ سِلَاحِ الْقَدِيمَةِ. وَلَكِنَّ الْمَاءَ لَيْسَ غَزِيرًا. وعليها اليوم زراعة وبها مقاهٍ ومحطَّاتٌ ومحروقات. رحلات في بلاد العرب ٢٦-٢٨». غزوة مؤتة لبريك ٢٠٩. ويقال له أيضًا: سلاح، بالجيم. وفاء الوفا ٢٢٣/٢.

ثُمَّ خَرَجُوا مِنْ سِلَاحٍ حَتَّى دَنَوْا مِنَ الْقَوْمِ، فَقَالَ هُمْ الدَّلِيلُ: بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْقَوْمِ ثَلَاثُ مَهَارٍ أَوْ نِصْفُهُ، فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ كَمَنْتُمْ (كمن له: استخفى، والكمين: القوم يكمنون في الحرب) وَخَرَجْتُ طَلِيعَةً لَكُمْ حَتَّى آتِيَكُمْ بِالْخَبَرِ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ سِرْنَا جَمِيعًا، قَالُوا: بَلْ نُقَدِّمُكَ، فَقَدَّمُوهُ، فَغَابَ عَنْهُمْ سَاعَةً ثُمَّ كَرَّ عَلَيْهِمْ (كَّرَ عليه: عطف)، فَقَالَ: هَذَا أَوَائِلُ سَرِحِهِمْ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تُغَيِّرُوا عَلَيْهِمْ؟ فَاخْتَلَفَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْ أَغَرَّنَا الْآنَ حَذَرْنَا الرَّجَالَ وَالْعَطَنَ (العطن - محرقة - وطن الإبل ومبركها حول الحوض، ومريض الغنم حول الماء)، وَقَالَ آخَرُونَ: نَعْنَمُ مَا ظَهَرَ لَنَا ثُمَّ نَطْلُبُ الْقَوْمَ، فَشَجُّعُوا عَلَى النَّعْمِ، فَأَصَابُوا نَعْمًا كَثِيرًا مَلَأُوا مِنْهُ أَيْدِيَهُمْ، وَتَفَرَّقَ الرَّعَاءُ وَخَرَجُوا سِرَاعًا، ثُمَّ حَذَرُوا الْجَمْعَ فَتَفَرَّقَ الْجَمْعُ وَحَذَرُوا، وَلَحِقُوا بِعَلِيَاءِ بِلَادِهِمْ، فَخَرَجَ بَشِيرٌ رضي الله عنه بِأَصْحَابِهِ حَتَّى أَتَى مَحَالَّهُمْ (جمع محلة وهي منزل القوم) فَبَجَدَهَا وَكَيْسَ بِهَا أَحَدًا، فَرَجَعَ بِالنَّعْمِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِسِلَاحٍ رَاجِعِينَ لَقُوا عَيْنًا (العين: الجاسوس) لِعَيْنِيَّةَ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ لَقُوا جَمْعَ عَيْنِيَّةَ، وَعَيْنِيَّةُ لَا يَشْعُرُ بِهِمْ فَنَافَوْشُوهُمْ (نافوشهم: المناوشة في القتال تداني الفريقين وأخذ بعضهم بعضًا)، ثُمَّ انْكَشَفَ جَمْعُ عَيْنِيَّةَ (انكشف جمعهم: انهزم)، وَتَبِعَهُمْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَأَصَابُوا مِنْهُمْ رَجُلًا أَوْ رَجُلَيْنِ فَأَسْرَوْهُمَا أَسْرًا، فَقَدَّمُوا بِهِمَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْلَمَا فَأَرْسَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ. [المغازي للواقدي ٢/٧٢٨].

سيد بني مرة الحارث بن عوف ينصح عيينة بن حصن ليسلم:

قال الواقدي: «قَالُوا: وَكَانَ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ الْمُرِّيَّ حَلِيفًا لِعَيْنِيَّةَ وَلَقِيَهُ مِنْهُزِمًا عَلَى فَرَسٍ لَهُ عَتِيقٌ يَعْدُو بِهِ عَدْوًا سَرِيعًا، فَاسْتَوْفَقَهُ الْحَارِثُ فَقَالَ: لَا، مَا أَقْدِرُ! الطَّلَبُ خَلْفِي! أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ! وَهُوَ يَرْكُضُ. قَالَ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ: أَمَا لَكَ بَعْدُ أَنْ تُبْصِرَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ؟ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَطِئَ الْبِلَادَ وَأَنْتَ مَوْضِعٌ فِي غَيْرِ شَيْءٍ».

قَالَ الْحَارِثُ: فَتَنَحَّيْتُ عَنْ سَنَنِ (سَنَنْ الطريق، مثلثة وبضمتين: نهجه وجهته) خَيْلِ مُحَمَّدٍ حَتَّى أَرَاهُمْ وَلَا يَرَوْنِي، فَأَقَمْتُ مِنْ حِينِ زَالَتْ الشَّمْسُ إِلَى اللَّيْلِ مَا أَرَى أَحَدًا - وَمَا طَلَبُوهُ إِلَّا الرَّغَبَ الَّذِي دَخَلَهُ. قَالَ: فَلَقِيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ الْحَارِثُ: فَلَقَدْ أَقَمْتُ فِي مَوْضِعٍ حَتَّى اللَّيْلِ مَا رَأَيْتُ مِنْ طَلَبٍ. قَالَ عُمَيْيَّةُ: هُوَ ذَاكَ، إِنِّي خِفْتُ الْإِسَارَ وَكَانَ أَثَرِي عِنْدَ مُحَمَّدٍ مَا تَعْلَمُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ.

قَالَ الْحَارِثُ: أَيُّهَا الرَّجُلُ! قَدْ رَأَيْتَ وَرَأَيْنَا مَعَكَ أَمْرًا بَيْنَنَا فِي بَنِي النَّضِيرِ، وَيَوْمَ الْخَنْدَقِ وَقُرَيْظَةَ، وَقَبْلَ ذَلِكَ قَيْنِقَاعَ، وَفِي خَيْبَرَ، إِنَّهُمْ كَانُوا أَعَزَّ يَهُودِ الْحِجَازِ كُلِّهِ، يُقْرُونَ هُمْ بِالسَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ، وَهُمْ أَهْلُ حُصُونٍ مَنِيعَةٍ وَأَهْلُ تَحُلٍ، وَاللَّهِ إِنْ كَانَتِ الْعَرَبُ تَلْتَلِجًا إِلَيْهِمْ فَيَمْتَنِعُونَ بِهِمْ، لَقَدْ سَارَتْ حَارِثَةُ ابْنِ الْأَوْسِ حَيْثُ كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَوْمِهِمْ مَا كَانَ فَاِمْتَنَعُوا بِهِمْ مِنَ النَّاسِ، ثُمَّ قَدْ رَأَيْتَ حَيْثُ نَزَلَ بِهِمْ كَيْفَ ذَهَبَتْ تِلْكَ النَّجْدَةُ وَكَيْفَ أُدِيلَ عَلَيْهِمْ.

فَقَالَ عُمَيْيَّةُ: هُوَ وَاللَّهِ ذَاكَ، وَلَكِنْ نَفْسِي لَا تَقْرَنِي.

قَالَ الْحَارِثُ: فَأَدْخُلْ مَعَ مُحَمَّدٍ.

قَالَ: أَصِيرُ تَابِعًا! قَدْ سَبَقَ قَوْمٌ إِلَيْهِ فَهُمْ يُزْرُونَ (زرى عليه زريًا وزراية ومزرية ومزرة وزريًا بالضم: عابه، وعابه) بِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ يَقُولُونَ: شَهِدْنَا بَدْرًا وَغَيْرَهَا.

قَالَ الْحَارِثُ: وَأَتَمَّا هُوَ عَلَى مَا تَرَى، فَلَوْ تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ لَكُنَّا مِنْ عَلَيْهِ أَصْحَابِهِ، قَدْ بَقِيَ قَوْمُهُ بَعْدَهُمْ مِنْهُ فِي مُوَادَعَةٍ، وَهُوَ مَوْفِعُ بِهِمْ وَقَعَةٍ، مَا وَطِئَ لَهُ الْأَمْرُ.

قَالَ عُمَيْيَةُ: أَرَى وَاللَّهِ!

فَاتَّعَدَا يُرِيدَانِ الْهَجْرَةَ وَالْقُدُومَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَى أَنْ مَرَّ بِهِمَا فَرَوْهُ بَنُ هُبَيْرَةَ الْقُشَيْرِيُّ يُرِيدُ الْعُمْرَةَ، وَهُمَا يَتَقَاوَلَانِ، فَأَخْبَرَاهُ بِمَا كَانَا فِيهِ وَمَا يُرِيدَانِ.

قَالَ فَرَوْهُ: لَوْ اسْتَأْنَيْتُمْ حَتَّى تَنْظُرُوا مَا يَصْنَعُ قَوْمُهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا، وَاتَّيَكُمُ بِخَيْرِهِمْ، فَأَخْرُوا الْقُدُومَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَضَى فَرَوْهُ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَتَحَسَّبَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ، فَإِذَا الْقَوْمُ عَلَى عِدَاوَةِ النَّبِيِّ ﷺ، لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَدْخُلُوا طَائِعِينَ أَبَدًا، فَخَبَّرَهُمْ بِمَا أَوْفَعَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِأَهْلِ خِيَابَرِ (خَيْبَر).

قَالَ فَرَوْهُ: وَقَدْ تَرَكْتُ رُؤْسَاءَ الصَّاحِبَةِ عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعِدَاوَةِ لِمُحَمَّدٍ.

قَالَتْ قُرَيْشٌ: فَمَا الرَّأْيُ؟ فَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ الْوَبَرِ؟

قَالَ: نَقْضِي هَذِهِ الْمُدَّةَ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، وَتَسْتَجِلِبُ الْعَرَبَ، ثُمَّ نَغْزُوهُ فِي عَقْرِ دَارِهِ.

تحريض قريش على نقض الهدنة:

وَأَقَامَ أَيَّامًا يَجُولُ فِي مَجَالِسِ قُرَيْشٍ، وَيَسْمَعُ بِهِ نُوْفَلُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الدَّيْلِيُّ، فَتَزَلَّ مِنْ بَادِيَتِهِ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ لِقُرَيْشٍ، فَقَالَ نُوْفَلٌ: إِذَا لَأَجِدُ عِنْدَكُمْ شَيْئًا! قَدِمْتُ الْآنَ لِمُقَدِّمِكَ حَيْثُ بَلَغَنِي، وَلَكِنَّا عَدُوٌّ قَرِيبٌ دَارُهُ، وَهُمْ عِيَّةُ نُصْحِ مُحَمَّدٍ لَا يُعَيَّبُونَ عَلَيْهِ خَرْفًا مِنْ أُمُورِنَا، قَالَ: مَنْ هُمْ؟ قَالَ: خُزَاعَةُ، قَالَ: فَبَحَثْ خُزَاعَةَ، فَقَدِمْتُ بِهَا يَمِينَهَا! قَالَ فَرَوْهُ: فَمَاذَا؟ قَالَ: اسْتَنْصَرَ قُرَيْشًا أَنْ يُعِينُونَا عَلَيْهِمْ، قَالَ فَرَوْهُ: فَأَنَا أَكْفِيكُمْ، فَلَقِي رُؤْسَاءَهُمْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَسُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، فَقَالَ: أَلَا تَرَوْنَ مَاذَا نَزَلَ بِكُمْ؟! إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ أَنْ تُدْفِعُوا مُحَمَّدًا بِالرَّاحِ، قَالُوا: فَمَا نَصْنَعُ؟ قَالَ: تُعِينُونَ نُوْفَلَ بْنَ مُعَاوِيَةَ عَلَى عَدُوِّهِ وَعَدُوِّكُمْ، قَالُوا: إِذَا يَغْزُونَا مُحَمَّدٌ فِي مَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ فَيُوطِنُنَا غَلَبَةً وَنَنْزِلَ عَلَى حُكْمِهِ، وَنَحْنُ الْآنَ فِي مَدَّةٍ وَعَلَى دِينِنَا، فَلَقِي نُوْفَلَ بْنَ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: لَيْسَ عِنْدَ الْقَوْمِ شَيْءٌ، وَرَجَعَ فَلَقِي عُمَيْيَةَ وَالْحَارِثَ فَأَخْبَرَهُمْ، وَقَالَ: رَأَيْتُ قَوْمَهُ قَدْ أَيقَنُوا عَلَيْهِ، فَفَارَبُوا الرَّجُلَ وَتَدَبَّرُوا الْأَمْرَ، فَقَدَّمُوا رِجَالًا وَأَخْرَوْا أُخْرَى.

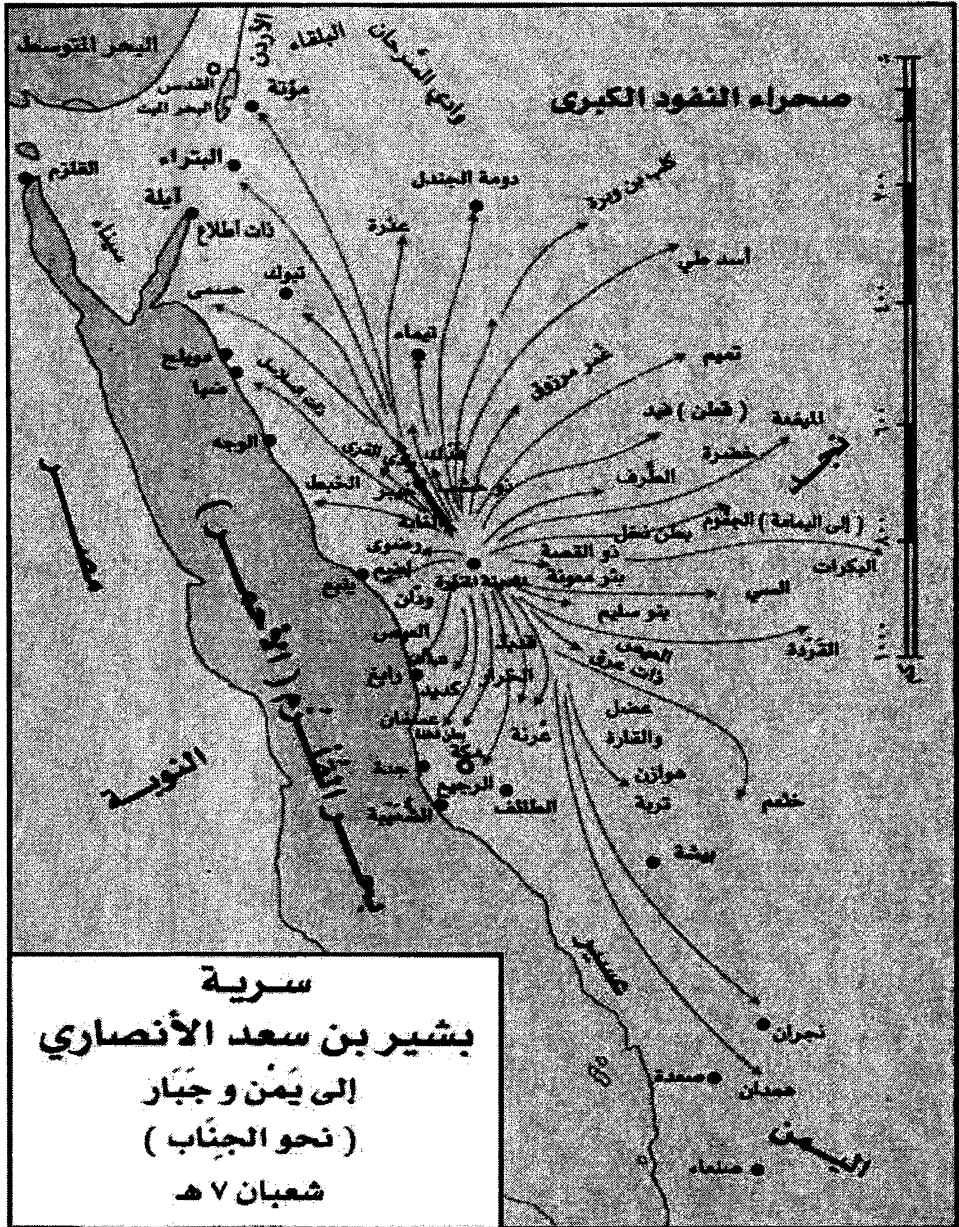
مصادر ومراجع الدراسة:

أ - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٧٢٧-٧٣١، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/ ١١٣، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/ ٢٣، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٣٠١-٣٠٢، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤١٤، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٤٥١-٤٥٢، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٣٦٣-٣٦٤، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٣٦٤، إمتاع الأسع للمقرئزي (٨٤٥هـ) ١/ ٣٣٠، سبل الهدى والرشاد للصالح (٩٤٢هـ) ٦/ ٢١٣-٢١٤، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٩٤-١٩٥.

ب - كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٥٢٩-٥٣٠.

ج - كتب الغزوات والسرائيا: غزوة مؤتة لباشمیل ٧٩-٨٦، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١١٥ - ١١٦، غزوة مؤتة والسرائيا والبعوث الشالية لبريك ١٩٩-٢١٦.

خَرَاطُ سَرِيَّةِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ   إِلَى الْجَنَابِ



المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من

سَرِيَّةِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ إِلَى الْجَنَابِ

١ - أهمية السياسة العسكرية الهجومية:

يقول د/ بريك: «استمرار نجاح سياسة النَّبِيِّ ﷺ العسكرية الهجومية في حربه مع أعدائه من الأعراب بضرب حشودهم في قواعدها، والإغارة عليهم قبل استكمال استعداداتهم، مما كان له أبلغ الأثر في تلك النتائج المدهشة من إدخال الرعب في قلوبهم، والقضاء على مخططاتهم العدوانية - التي كانت موجهة ضد المسلمين - في مهدها، وبسط نفوذ المسلمين على أراضيهم، وبالتالي التمهيد للانطلاق فيما وراء ذلك لتحقيق أهداف المسلمين وإستراتيجياتهم بعيدة المدى من نشر الإسلام خارج نطاق الجزيرة العربية فيما وراء مناطق نفوذ الأعراب». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢١٤-٢١٥].

٢ - مكانة الشيخين ﷺ:

يقول د/ بريك: «إن في استشارة النَّبِيِّ ﷺ لصاحبه أبي بكر الصديق ﷺ، وعمر بن الخطاب ﷺ، لها أكثر من دلالة! فمن كون ذلك يدل على فضلها ومكانتها ومنزلتها الرفيعة عند النَّبِيِّ ﷺ، حتى إنهما كانا بمثابة وزيرين له، وكانا من أصدق الناس به في كُلِّ أموره، في سفره وإقامته، في سلمه وحربه، وكان دائم الاستشارة لهما، المصاحب لهما في كُلِّ الأوقات، وكان دائم الحديث عنهما، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ ﷺ يَقُولُ: «وُضِعَ عُمَرُ ﷺ عَلَى سَرِيرِهِ، فَتَكَفَّهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيُصَلُّونَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، وَأَنَا فِيهِمْ، فَلَمْ يَرْعِنِي إِلَّا رَجُلٌ آخِذٌ مَنْكِبِي، فَإِذَا عَلَيَّ ﷺ فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ ﷺ، وَقَالَ: مَا خَلَفْتُ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَإِنَّمِ اللَّهُ، إِنْ كُنْتُ لَأُظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَحَسِبْتُ أَنِّي كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ». [البخاري في فضائل الصحابة ﷺ (٣٦٨٥، ٣٦٧٧)].

وقد عرف الصحابة ﷺ ذلك لهما، فكان أن قدّموا عليهما في الخلافة.

٣ - مكانة الشورى في الإسلام:

أيضاً يدل ذلك على مكانة الشورى في الإسلام، باعتبار أن المشرع ﷺ كان يُطَبِّقُها في كل زمان ومكان، وذلك تنفيذاً لأمر الباري ﷻ له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وتعليماً لأمته من بعده بتطبيق هذا المبدأ الهام والحيوي في حياتهم بمختلف شؤونها.

وما أصاب المسلمين من الضياع وتسلط الأعداء إلاّ عندما تركوا هذا المبدأ، واستبدّ قادتهم بالرأي دونهم، فكان ذلك وبالأعلى الأمة بأسرها.

٤ - حنكة ومعرفة الشيخين ﷺ بأمور الحرب والسياسة:

كذلك يدل على ما كان يتمتع به الشيخان الجليلان - رضي الله تعالى عنهما - من الحنكة والمعرفة بأمور الحرب والسياسة، حيث نصحا النَّبِيَّ ﷺ بالإسراع بإرسال سرية إلى تلك المنطقة، يقودها رجلٌ مُحَنِّكَ ذو خبرة ومعرفة بأحوالها وأهلها». [غزوة مؤتة والسرايا والمبعوث الشالية لبريك ٢١٥-٢١٦].

٥ - وضع الرجل المناسب في المكان المناسب:

يقول د/ الحميدي: «في اتفاق أبي بكر وعمر ﷺ على تأمير بشير بن سعد ﷺ دلالة على تفوقه في المجال القيادي والإداري، وقد كانت السمة الظاهرة في ذلك العصر وَضْعَ الرجل المناسب في المكان المناسب من غير نظر إلى شهرته ومكانته الاجتماعية، وإنما الذي كان يُلاحظ هو إمكانية نجاحه في العمل الذي يتم توجيهه إليه بأعلى قدر ممكن، فلذلك كُتِبَ النجاح لكل الأعمال التي وجهها رسول الله ﷺ».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٨٣ / ٧].

ويقول د/ بريك: «وضح من خلال هذه السرية، والسرايا قبلها، ذلك الترتيب الذكي الذي كان يتبعه القائد الملهم، الخبير بخبايا الحرب وأمورها الرسول ﷺ، وذلك من خلال اختياره الرجل المناسب للمهمة المناسبة في المنطقة المناسبة، ذلك الاختيار كان يتم وفق معايير خاصة تتعلق بقدرات الرجل المُختار، وخبرته في المنطقة المبعوث إليها، ومعرفته التامة بها وبأهلها.

فكما رأينا في هذه السرية وما قبلها من السرايا في منطقة خيبر وما حولها، كان المبعوث على رأسها في غالب الأحيان هو بشير بن سعد الأنصاري ﷺ، فالتركيز على بشير دون غيره من الصحابة ﷺ، وغالب بن عبد الله الليثي ﷺ، وغيرهما من القادة لم يكن من فراغ، وإنما كان بناءً على ما كان يتمتع به أولئك من قدرات أهليتهم لذلك مما ذكرنا». [غزوة مؤتة والسرايا والمبعوث الشالية لبريك ٢١٥].

٦ - إعادة ثقة القائد بنفسه وإعادة ثقة الجند به:

يقول د/ الغضبان: «لقد كانت هذه السرايا مشتبكة مع بعضها البعض وخلال ثلاثة أشهر هي شعبان ورمضان وشوال، بل شهد شهر شعبان ثلاث سرايا منها، وإذا كان نجم غالب بن عبد الله الليثي ﷺ قد سطع، فهل يمكن أن تكون نهاية بشير بن سعد ﷺ هذه النهاية المأساوية؟ مع أنه استبسل وقاتل حتى آخر رمق، وكان المعد لسريته أن تكون مثل سرية الصديق وسرية عمر ابن الخطاب ﷺ اللتين اتجهتا إلى تربة وضرية من عجز هوازن وكلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، حيث اتجه هو في الشهر نفسه إلى بني مرة الغطفانيين في فذك، وكان عدد السرايا الثلاثة متقارباً، حيث حققت السريتان هدفها وأصبحت الثالثة، وأراد رسول الله ﷺ أن يرتفع قيادياً لمصاف القادة العظام مثل أبي بكر وعمر ﷺ».

وما أحوجنا إلى أن نفقه هذا الدرس العظيم في السرية الجديدة التي أوكلت قيادتها لبشير بن سعد ﷺ بعد أن تماثل إلى الشفاء، وهو صاحب الماضي العريق في الجاهلية والإسلام.

فقد أعاد رسول الله ﷺ بشير بن سعد ﷺ إلى الساحة نفسها التي أُصيب فيها إلى ما بين فذك ووادي القرى، وإلى العدو نفسه غطفان التي أُصيب معها ومع أخطر عدو وأكبر قائد للعدو، مع عيينة بن حصن الفزاري، ولكن كتيبة اليوم هي ثلاثمائة عوضًا عن ثلاثين». [التربية الجماعية للغضب ١/ ٤٩-٥٠].

ويقول د/ أبو فارس: «كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية وأمر عليها أميرًا، وفشلت هذه السرية في تحقيق هدفًا، يُتيح المجال لهذا القائد فيرسله في سرية أخرى، ويزوده بالعدد الكثير المناسب، فيحارب بهم عدوهم، ويكتب الله على يديه الظفر والنصر، فترتفع معنوياته، وتعود إليه ثقته بنفسه، كما تعود ثقة الجنود به، وهذا علاج للنفوس صادر من مشكاة النبوة.

حدث هذا مع بشير بن سعد ﷺ في سرية الأولى التي توجهت إلى بني مرة وكان عددها ثلاثين رجلًا فاستشهدوا جميعًا، ثم ولاه الرسول ﷺ بعد شهر فقط على سرية إلى يمن وجبار وكان عددها ثلاثمائة رجل، فلم يثبتوا أمام المسلمين بل ولّوا على أدبارهم وتركوا أنعامهم وراءهم، فاستاق المسلمون الأنعام وأسروا بعضهم». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٥].

٧ - مباغطة العدو المتجهز لقتال المسلمين:

يقول د/ العيساوي: «فالإمام إذا سمع بقصد عدوه له، وفي جيشه قوة ومنعة لا يقعد ينتظرهم، بل يسير إليهم، كما سار رسول الله ﷺ إلى هوازن حتى لقيهم بحنين. [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٤٧٩]. وكذلك ما حدث في سرية بشير بن سعد ﷺ عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن لتفريق تجمع بأرض غطفان قام به عيينة بن حصن للإغارة على المدينة.

ومثل هكذا إجراء ينتزع عنصر المباغطة من العدو، وما من قوم غزوا في عقر دارهم إلا ذلوا». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٤٨٠]. [فقه السرايا للعيساوي ٢٠١].

٨ - نجاح خطة الكتمان:

يقول أ/ باشميل: «وقد نجحت خطة الكتمان نجاحًا حقق أغراض الحملة إلى أبعد الحدود، حيث لم يشعر عيينة بن حصن وحشوده في الجَنَاب إلا بجيش المسلمين داخل مضاربهم وبين مسارحهم يستاق مواشيهم ويستولي على أموالهم، فانتابهم الرعب والفرع، وفروا هاربين في بطون الشُعاب ورؤوس الجبال لا يلوون على شيء.

فجاس جيش المسلمين خلال ديارهم واستولى على كل ما وصلت إليه أيدي رجاله من أموال تلك القبائل، كغنيمة حرب يغنمونها من عدو محارب كان يُعدُّ العدة لغزوهم وانتهاب مدينتهم.

وقد تتبع الجيش الإسلامي الفارين من الأعداء (وخاصة مجموعة القائد عيينة بن حصن) الذي ناوش المسلمين بعض الوقت ثم فر منهزمًا، بعد أن قتل له جيش المسلمين جاسوسًا وأسر اثنين من رجاله.

وهكذا أحبط النبي ﷺ خطة ذلك الغزو الوثني الذي كان آخر محاولة تقوم بها القبائل النجدية الوثنية الشجاعة الشرسة للزحف على المدينة وضرب المسلمين فيها». [غزوة مؤتة لباشميل ٨٣].

٩ - مكاسب هذه السرية:

يقول د/ الحميدي: «حصل المسلمون من المكاسب في هذه الغزوة على قدر كبير، وذلك أنهم فرّقوا جمع غطفان الأول الذي سيجتمع معه عيينة بن حصن ثم يغيرون على المدينة، ثم فرّقوا جمعهم الثاني الذي كان بقيادة عيينة، فبذلك فشلت خطتهم في الاجتماع لغزو المدينة، إضافة إلى ما غنمه المسلمون من أموال القوم، وفي ذلك إضعاف لهم عن الإقدام على حرب المسلمين». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٨٣/٧].

١٠ - الحرص على إحياء النفوس بالإسلام:

يقول د/ الغضبان: «ها هو بشير بن سعد ﷺ يعود الآن إلى المدينة مظفرًا منصورًا ميمون النقية، وليس غارقًا بجراحه كما عاد من قبل، ويأتي معه الغنائم الكبيرة من النعم والشاء، ولكن أضخم هذه الغنائم هو هذين الأسيرين من غطفان.

وبدل أن يقتلها رسول الله ﷺ دعاها إلى الإسلام فأسلمتا فأرسلها، فكان بذلك أول نواة للإسلام في غطفان، ويستطيع ﷺ أن يعلم منهما أسرار هذا العدو كله، ولكن ماذا يحقق بهما لو قتلها بعد الأسر؟

إن الهدف الحيوي يبقى ماثلاً في ذهن القائد المصطفى ﷺ، والقتل هو الحل الأخير عنده وليس الحل الأول، إن إحياء هذه النفوس بالإسلام، والأخذ بحجزها عن النار هو رسالة الرسول ﷺ إلى الخلق كافة، وإشراق هذه القلوب بالإسلام يعني أنها أصبحت كالغيث أصاب أرضًا نقية، فأنبئت الكلاء والعشب الكثير، وما أحوج رسول الله ﷺ إلى عين له داخل غطفان يعطيه أولاً بأول كل تحركات هذا العدو الشديد الماكر». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ٥٢].

ويقول د/ الغضبان أيضًا: «ونجح الحارث في مهمته بعد حوار عميق مع عيينة، حيث أدرك أعماق نفسه، ووضعه في صورة الحجاز تمامًا، وأنه لا يستطيع وحده أن يناوئ محمدًا ﷺ، وهو قد فر منه الآن، مدعورًا خائفًا الأسر، فقد جاءه في ذلك الوضع النفسي المتأزم، وكل الذي يحشاه عيينة أن يصير تابعًا بعد هذه الزعامة الكبرى على غطفان، فزحزح الحارث هذه القناعة عند عيينة بأن الانضمام إليه الآن يجعله من عليّة أصحابه، وكلما تأخر الزمن كلما فاتت الفرصة، وإذا كانت قريش قد وادعته، وخير قد وطئها

بسنابك خيله، فماذا يفيدنا العناد؟ كان من الممكن أن يمضي الزعيان الغطفانيان، ويعلنا إسلامهما لولا قدوم سيد بني عامر قره بن هبيرة القشيري عليهما، وهو من أكبر حلفائهما في نجد.

وحدث ما حدث في مكة، وبعدها بقي عيينة بن حصن في صراع نفسي، لم يُلْقَ عصا المقاومة، وهو يعرف أنه مأخوذ، فقد فر مدعورًا من كتائب محمد ﷺ، ولم ينجه إلا فرسه السبوح.

[التربية الجماعية للغضبانيان ١/ ٥٣-٥٤].

ويقول د/ رزق الله: «وكانت هذه السرية سببًا في أن يفكر عيينة في أمر الإسلام لحوار دار بينه وبين حليفه الحارث بن عوف المري وفروة بن هبيرة القشيري، وكانت خلاصة الحوار أن أخذوا يقدمون رجلًا ويؤخرون أخرى، ثم أصبح من المؤلفة قلوبهم كما استفاضت الأخبار في ذلك. فقد ثبت أنه حضر حينئذ مع الرسول ﷺ كما في رواية ابن إسحاق». [السيرة النبوية لرزق الله ٥٣٠].

١١ - دروس عسكرية سريعة:

يقول د/ بريك:

- ١- مشروعية اتخاذ الأدلاء من غير المسلمين، وإغرائهم بالمال لمساعدة المسلمين، وفي قصة الهجرة، وقصة هذه السرية، وفتح خيبر دليل على ذلك.
 - ٢ - مشروعية اتخاذ العيون للتجسس على الأعداء، وتزويد المسلمين بأخبارهم وتحركاتهم ضد المسلمين، وقصة هذه السرية، وفتح مكة، وغير ذلك من قصص السرايا والغزوات والأخبار التي تصل تبعًا إلى النبي ﷺ عن تحركات الأعداء وحشودهم دليل على ذلك.
 - ٣ - إن استخدام المسير الليلي كمسير اقترابي (المسير الاقترابي هو الحركة من القاعدة إلى الهدف. الرسول القائد ﷺ لخطاب ١١٦) إلى أرض العدو، واتخاذ الدليل طليعة في أرض العدو، يُعَدُّ من الأسس العملية المهمة للمباغطة، وهي أساليب تُعَدُّ من مبتكرات الرسول القائد ﷺ.
- [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢١٤].

الفصل السابع

غَزْوَةُ (عُمَرَةَ) الْقُضِيَّة (القضاء) ^(١)

ذو القعدة ٧هـ / مارس (آذار) ٦٢٩م / برمهات ٣٤٥ قبطي

المبحث الأول

عرض غَزْوَةِ (عُمَرَةَ) الْقُضِيَّة (القضاء) ^(٢)

الحدث العظيم:

من أهم الأحداث ذات الأثر العميق في تغيير مجرى الصراع بين الإسلام والوثنية لصالح الإسلام والتي نتج عن القيام بها تحولات في الذهنية القرشية، تصححت بها المفاهيم الخاطئة المترسبة في أذهان القرشيين وغيرهم من العرب المجاورين لمكة والتصورات المغلوطة التي بها يتصورون الإسلام وأتباعه.. من أهم هذه الأحداث التي نتجت عنها كل هذه التحولات والتصحيحات.. عمرة القضية أو غزوة القضية - كما يسميها أصحاب المغازي والسير.

وهي العمرة التي قام بها النبي ﷺ وأصحابه قضاء عن العمرة التي مُنع المسلمون من أدائها في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، فعادوا إلى المدينة دون أدائها بعد أن أحرموا بها، وذلك بموجب الصلح التاريخي المعقود بين النبي ﷺ وبين قريش في الحديبية والذي أُطلق عليه اسم (صلح الحديبية). وقد تمت هذه العمرة التاريخية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح].

الحل الوسط في صلح الحديبية:

لقد كان الحل الوسط الذي تم الاتفاق عليه في الحديبية بين النبي ﷺ وبين عشيرته قريش، فأُنهى ذلك النزاع الخطير الذي كاد يبعث حرباً ضروساً بين الفريقين بسبب تصلف قريش وبغيها وعنادها، كان هذا الحل الذي تضمنه صلح الحديبية المعقود في السنة السادسة من الهجرة - يقضي بأن يرجع النبي ﷺ وأصحابه عامهم ذاك إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة، على أن يكون لهم الحق في أن يدخلوها معتمرين في العام القادم وبعد سنة كاملة بالتحديد.

كانت بنود ذلك الصلح محل سخط أكثرية الصحابة الذين كانوا مع النبي ﷺ فقد كان مصدر تضايق لهم لما يحمل في الظاهر من إجحاف، ساء بعضهم دينية وإذلاً للمسلمين.. إلا أنهم - مع كرههم لهذا

(١) سيأتي توجيه اسمها في الدروس المستفادة منها.

(٢) عرض الغزوة للأستاذ باشميل مع إضافة نصوص السنة والسيره وتخريجها من مصادرها الأصلية.

الصلح - لم يسعهم إلا السكوت والتسليم؛ لأنه ليس في إمكانهم عصيان النبي الأعظم ﷺ الخروج على إرادته؛ لأنه إنما يصدر في كل تصرفاته عن أمر ربه.

كيف حقن الصلح الدماء عن أن تُراق:

والواقع أن ارتضاء النبي ﷺ أن يعود بأصحابه إلى المدينة على أن يقوموا بأداء العمرة في العام القادم، وذلك كحل وسط حسم النزاع.. والواقع أن قبول النبي ﷺ بهذا الحل قد كان سبباً في حقن دماء كثيرة كان من الممكن أن تُراق من الفريقين بغزارة في الحرم، لو أن النبي ﷺ استجاب لعواطف أصحابه التي كانت يومها في أعلى درجات الفوران، فاقتحم الحرم بقوة السلاح لأداء مناسك العمرة، كما هي رغبة أكثرية أصحابه الذين يفضلون اقتحام مكة بحد السيف لمباشرة حقهم في الطواف والسعي على أن يعودوا إلى المدينة دون أن يؤدوا عمرتهم.

قانون عام غير مكتوب:

لقد كان القيام بالعمرة - الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة - حق لأي إنسان كائن من كان، له أن يباشره حتى لو كان في حالة حرب مع سكان الحرم أنفسهم.

هذا قانون غير مكتوب أجمع على الالتزام به كل سكان الجزيرة العربية عبر آلاف السنين. غير أن قريشاً ركب العناد رأسها، فركض الشيطان بها في دروب العناد والمكابرة، فخرقت هذا القانون العام حين أصرت على منع المسلمين - بحد السلاح - ذلك العام من دخول الحرم لأداء العمرة بغياً وعدواناً وبطراً ورياء الناس.

وكان من حق المسلمين أن يدخلوا مكة ويقاتلوا من يعترض سبيلهم، وكان ذلك هو رأي الأغلبية من أصحاب النبي ﷺ، ردّاً على عناد قريش وتصلفها.

ولكن النبي ﷺ الأعظم وهو الذي جاء لإرساء قواعد السلم في الأرض، رأى أن مقابلة عناد قريش بعناد مثله - كما هو رأي الأغلبية من أصحابه ﷺ - سيتسبب في إشعال نار حرب طاحنة ضارية داخل الحرم الآمن، لا مبرر لها ولا ضرورة.

لذلك قبل ﷺ الحل الوسط الذي اقترحه وأملاه في وثيقة الصلح مندوب قريش ومفوضها الأول سهيل بن عمرو العامري بالرغم من معارضة الأغلبية العظمى من الصحابة لقبول هذا الحل؛ لأنهم رأوا أن في القبول بأكثر الشروط التي أملاها مندوب قريش في وثيقة صلح الحديبية - ومنها هذا الحل الوسط - دنيئة عليهم في دينهم «كما صرح بذلك الفاروق عمر رضي الله عنه أمام النبي ﷺ وهو يدي في مجلس الرسول ﷺ معارضته العنيفة للصلح».

والواقع أن الصحابة رضي الله عنهم ليسوا ملومين - كبشر عاديين - حينما صارحوا النبي الأعظم ﷺ بانزعاجهم وامتعاضهم لقبول الحل الذي اقترحه مندوب قريش والذي يقضي بأن يعود النبي ﷺ

وأصحابه رضي الله عنهم إلى المدينة ذلك العام (٦ هجرية) دون أن يقضوا مناسكهم، مع اقتدارهم - عسكرياً - على أن يقضوها إذا ما اعترضتهم قريش بالقوة.

كانوا غير ملومين - حين عارضوا الصلح كله لتضمنه تلك الشروط القاسية - لأنهم نظروا إليها من زاوية نظرة الإنسان العادي - فهم بالنسبة لمنزلة النبي الأعظم ﷺ عاديون، والإنسان العادي - فعلاً - لكونه ذا فهم محدود، إذا ما نظر إلى تلك الشروط التي أملاها مفوض قريش ومنذوبها سهيل ابن عمرو في مفاوضات الحديبية، وقيل بها النبي ﷺ، اتضح له - لأول وهلة - أنها تحمل الإجحاف كل الإجحاف بحق المسلمين.

إذ - مثلاً - كيف تطاوع المسلمون أنفسهم أن يقبلوا أن يصدّهم المشركون عن البيت وقد وصلوا حدود الحرم، ثم يعدّون دون أن يقضوا مناسك العمرة التي قطعوا مئات الأميال لأدائها، مع اقتدارهم - عسكرياً - على أن يقضوا هذه المناسك إذا ما اعترضتهم قريش وحاولت منعهم بالقوة؟

ولكن النبي ﷺ الذي يدرك أكثر مما يدرك أصحابه من أبعاد المستقبل، ويعلم من الله ما لا يعلمون لأنه على صلة مباشرة مع السماء ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ السَّمَاءِ﴾ (٦) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (١) [النجم]، رأى أن يقبل ذلك الحل الوسط الذي اقترحه وأمله في وثيقة الصلح مفوض قريش ومنذوبها سهيل بن عمرو، فأمر أصحابه أن يحلوا إحرامهم في الحديبية خارج الحرم، وأن يعدّوا إلى المدينة، على أن يقضوا مناسك عمرتهم في العام القادم كما نصت على ذلك بنود اتفاقية الصلح.

تردد الصحابة كلهم - تقريباً - في حل إحرامه ونحر هديهم في الحديبية وقبل أن يبلغ محله، حتى أغضبوا بذلك النبي ﷺ، فلم ينحروا ويحلوا إحرامهم حتى رأوا النبي ﷺ هديه بيدي الشريفتين.

وقد أجمع المؤرخون على أنه - بسبب قبول النبي ﷺ بشروط الصلح - كاد المسلمون أن يهلكوا للغم الذي نزل بهم؛ لأن نفوسهم لم تستسغ هذه الشروط، لولا التزامهم بطاعة نبيهم ﷺ.

مكاسب صلح الحديبية:

غير أن هؤلاء الصحابة الذين عارضوا الصلح أشد المعارضة - وبمجرد عودتهم إلى المدينة من الحديبية - أخذت بركات ومكاسب هذا الصلح الذي كرهوا واغتموا له تتجلى لهم وتتوارد عليهم شيئاً فشيئاً، متجسدة فيما جد من أحداث نتيجة هذا الصلح، كلها كانت نصراً أو تعزيزاً للمسلمين.

فازداد المسلمون يقيناً بأن نبيهم العظيم يدرك أبعد مما يدركون، وإن الحكمة التي آتاها الله لا يمكن لبشر أن يسبر غورها أو يدرك مداها، وأنه لا يفعل ولا يقول إلا حقاً، وأن ما كرهوا من هذا الصلح قد حقق للمسلمين من الانتصارات المعنوية والسياسية وعلى كل صعيد، ما لم تحققه أية معركة حربية خاضوها وانتصروا فيها على معسكر الشرك والوثنية.

تاريخ غزوة القضية:

كان صلح الحديبية الذي ينص على عودة المسلمين من الحديبية - المساء اليوم بالشمسي - إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة، على أن يسمح لهم بدخولها للعمرة بعد سنة من تاريخ إبرام هذا الصلح، كان هذا الصلح قد عقد في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة.

ولذلك فإن المسلمين بعد مرور سنة كاملة على عقد هذا الصلح أدوا مناسك العمرة قضاءً؛ ومن أجل ذلك أطلق على هذه العمرة التاريخية عمرة القضاء أو عمرة القضية.

ففي شهر ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة - وبعد مرور حوالي أحد عشر شهرًا على انتصار المسلمين الساحق على اليهود في خيبر وقبل أحد عشر شهرًا من فتح مكة وغزوة حنين - وجّه النبي الأعظم ﷺ نداءً إلى أصحابه أمرهم فيه بأن يستعدوا للتوجه معه إلى مكة المكرمة ليعتمروا - قضاء عمرتهم التي صدّهم المشركون عنها في السنة الماضية - وكان أمره ﷺ يقضي بأن لا يتخلف أحد عن عمرة القضاء هذه من الذين شهدوا الحديبية في السنة السادسة للهجرة وصُدوا مع من صُدوا عن البيت. عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ رَدُّوهُ، وَمِنْ الْقَابِلِ عُمَرَةَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَعُمَرَةَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمَرَةَ مَعَ حَجَّتِهِ. [البخاري في العمرة (١٧٧٩)].

وَعَنْ قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْبَرَهُ قَالَ: اعْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ عُمَرٍ كُلُّهُنَّ فِي ذِي الْقَعْدَةِ إِلَّا الَّتِي كَانَتْ [اعْتَمَرَ] مَعَ حَجَّتِهِ: عُمَرَةً مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ [أَوْ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ] فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمَرَةً [عُمَرَتُهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ] مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمَرَةً مِنَ الْجِعْرَانَةِ حَيْثُ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمَرَةَ مَعَ حَجَّتِهِ. [البخاري في المغازي (٤١٤٨)، وفي الحج (١٧٨٠)، ومسلم في الحج (١٢٥٣)، وأبو داود في المناسك (١٩٩٤)].

وَعَنْ قَتَادَةَ: سَأَلْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَمْ اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ أَرْبَعٌ: عُمَرَةُ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، حَيْثُ صَدَّهَ الْمُشْرِكُونَ، وَعُمَرَةُ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ حَيْثُ صَالَحَهُمْ، وَعُمَرَةُ الْجِعْرَانَةِ إِذْ قَسَمَ غَنِيمَةَ أُرَاهُ حُنَيْنٍ، [وَعُمَرَتُهُ مَعَ حَجَّتِهِ]، قُلْتُ: كَمْ حَجَّ؟ قَالَ: وَاحِدَةً.

[البخاري في الحج (١٧٧٨)، ومسنّد أحمد ٢١ / ١٩٠ رقم ١٣٥٦٥].

وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَمْ حَجَّ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: حَجَّةً وَاحِدَةً، وَاعْتَمَرَ أَرْبَعَ عُمَرٍ: عُمَرَةً فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمَرَةَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَعُمَرَةَ مَعَ حَجَّتِهِ، وَعُمَرَةَ الْجِعْرَانَةِ إِذْ قَسَمَ غَنِيمَةَ حُنَيْنٍ.

[الترمذي في الحج (٨١٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اعْتَمَرَ أَرْبَعَ عُمَرٍ: عُمَرَةَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَعُمَرَةَ الثَّانِيَةَ مِنَ قَابِلٍ، وَعُمَرَةَ الْقَضَاءِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمَرَةَ الثَّالِثَةَ مِنَ الْجِعْرَانَةِ، وَالرَّابِعَةَ الَّتِي مَعَ حَجَّتِهِ.

[الترمذي في الحج (٨١٦)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اعْتَمَرَ أَرْبَعَ عُمَرٍ: عُمَرَةَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَعُمَرَةَ الْقَضَاءِ، أَوْ قَالَ: عُمَرَةَ الْقِصَاصِ - شَكَّ شِهَابُ بْنُ عَبَّادٍ - مِنْ قَائِلٍ، وَالثَّلَاثَةَ مِنَ الْجُعْرَانَةِ، وَالرَّابِعَةَ الَّتِي مَعَ حَجَّتِهِ.

[الدارمي في المناسك (١٩٠٠)، وقال الشيخ الداراني: إسناده صحيح].

وَعَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: قَدْ أَحْصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَجَامَعَ نِسَاءَهُ، وَنَحَرَ هَدْيَهُ، حَتَّى اعْتَمَرَ عَامًا قَائِلًا. [البخاري في المحصر (١٨٠٩)].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ خَيْبَرٍ، أَقَامَ بِهَا شَهْرَيْنِ رَبِيعٍ وَجُمَادَيْنِ وَرَجَبًا وَسَعْبَانَ وَرَمَضَانَ وَشَوَّالًا، يَبْعَثُ فِيهَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ غَزْوِهِ وَسَرَايَاهُ ﷺ».

ثُمَّ خَرَجَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ فِي الشَّهْرِ الَّذِي صَدَّهِ فِيهِ الْمَشْرُكُونَ مُعْتَمِرًا عُمَرَةَ الْقَضَاءِ مَكَانَ عُمَرَتِهِ الَّتِي صَدَّوْهُ عَنْهَا. [السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٠ / ٢].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَحَدَّثَنِي خَارِجَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ سَبْعٍ بَعْدَ مَقْدَمِهِ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، وَهُوَ الشَّهْرُ الَّذِي صَدَّتْهُ الْمَشْرُكُونَ لِقَوْلِ اللَّهِ ﻋَزَّ وَجَلَّ: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤].

يَقُولُ: كَمَا صَدَّوْكُمْ عَنْ النَّبِيِّ فَاَعْتَمِرُوا فِي قَائِلٍ. [المغازي للواقدي ٧٣١ / ٢ - ٧٣٢].

فَلَبَّى الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم طَلَبَ نَبِيِّهِمْ ﷺ وَنَفَذُوا أَوَامِرَهُ، فَلَمْ يَتَخَلَفْ عَنْ عَمَرِهِ الْقَضَاءِ هَذِهِ أَحَدٌ مِنْ شَهِدِ الْحُدَيْبِيَّةِ إِلَّا رَجَالٌ كُتِبَتْ لَهُمُ الشَّهَادَةُ فِي مَعْرَكَةِ خَيْبَرِ الْحَاسِمَةِ أَوْ رَجَالٌ وَافَاهُمْ الْأَجَلَ الْمُخْتَوِمَ قَبْلَ أَنْ يَجِلَ مِيعَادُ الْقِيَامِ بِعَمَرَةِ الْقَضَاءِ هَذِهِ.

عدد المعتمرين عمرة القضاء:

كَذَلِكَ لَمْ يَبَاحِ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُ مَنْ أَرَادَ الْعَمْرَةَ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ الْحُدَيْبِيَّةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاعْتَمَرَ مَعَهُ - بِالإِضَافَةِ إِلَى أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ - سِتْمَاةُ كُلِّهِمْ لَمْ يَشْهَدْ الْحُدَيْبِيَّةَ، فَهُوَ إِمَّا مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا وَإِمَّا مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَهَا، فَكَانَ عَدَدُ الَّذِينَ أَدَوْا الْعَمْرَةَ تِلْكَ السَّنَةَ التَّارِيخِيَّةِ أَلْفَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ الزُّهْرِيِّ، وَابْنِ أَبِي حَبِيبَةَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ وَمُعَاذِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حُبَابٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، وَابْنِ أَبِي سَبْرَةَ وَأَبُو مَعْشَرٍ فَكُلُّ قَدْ حَدَّثَنِي بِطَائِفَةٍ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ، وَغَيْرِهِمْ مَنْ لَمْ أَسْمُ، فَكَتَبْتُ كُلَّ مَا حَدَّثُونِي قَالُوا: لَمَّا دَخَلَ هِلَالُ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ سَبْعٍ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَعْتَمِرُوا - قَضَاءَ عُمَرَتِهِمْ - وَأَلَّا يَتَخَلَّفَ أَحَدٌ مِمَّنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَّةَ، فَلَمْ يَتَخَلَّفَ أَحَدٌ شَهِدَهَا إِلَّا رَجَالٌ اسْتَشْهِدُوا بِخَيْبَرٍ، وَرَجَالٌ مَاتُوا، وَخَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سِوَى أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ صَلَحَ الْحُدَيْبِيَّةَ عَمَارًا، فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي عُمَرَةِ الْقَضَاءِ أَلْفَيْنِ».

[المغازي للواقدي ٧٣١ / ٢].

لقد كان فرح المسلمين عظيمًا حينما سمعوا نداء النبي ﷺ وهو يأمرهم بالتأهب للتوجه إلى مكة المكرمة للعمرة، وخاصة المهاجرين الذين كانوا - أكثر من غيرهم - تهفو قلوبهم إلى مكة، موطنهم الأول، ومسقط رأسهم.

فلا ينكر أحد ما للوطن - وخاصة مثل مكة - من ذكريات حلوة يختزنها القلب وتحتل مكانها العالي في النفس.

ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالَ رَجُلٌ مِنْ حَاضِرِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْعَرَبِ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا لَنَا مِنْ زَادٍ، وَمَا لَنَا مَنْ يُطْعِمُنَا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْ يَتَصَدَّقُوا، وَأَلَّا يَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَيَهْلِكُوا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! بِمَ تَصَدَّقُ وَأَحَدُنَا لَا يَجِدُ شَيْئًا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِمَا كَانَ، وَلَوْ بِشِقِّ ثَمَرَةٍ، وَلَوْ بِمَشْقَصٍ (المشقص: نصل السهم إذا كان طويلًا غير عريض. النهاية ٢/ ٢٣٠) يَحْمِلُ بِهِ أَحَدُكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِي ذَلِكَ: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥)، قَالَ: نَزَلَتْ فِي تَرْكِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

حَدَّثَنِي الثَّوْرِيُّ، عَنْ مَنْصُورِ بْنِ الْمُعْتَمِرِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَنَّعَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَوْ بِمَشْقَصٍ، وَلَا تُلْقِ بِيدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

حَدَّثَنِي الثَّوْرِيُّ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ فِي تَرْكِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٢].

أمير على المدينة بالنيابة:

وبعد أن أكمل الأصحاب تجهيزاتهم للرحلة الطويلة إلى مكة وقرر النبي ﷺ مغادرة المدينة في اليوم الذي حدده، أصدر - كما هي عادته في مثل هذه الأحوال - مرسومًا نبويًا عَيْنَ بموجه أميرًا على المدينة يدير شؤونها نيابة عن الرسول الأعظم ﷺ حتى عودته من مكة المكرمة.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: «وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ عُوَيْفَ بْنَ الْأَضْبَطِ الدِّيلِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ». [السيرة لابن هشام ٢/ ٣٧٠].

وقال الصالحى: «قال محمد بن عمر، وابن سعد: واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة أبا رهم - بضم الراء، وسكون الهاء - الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال ابن هشام: واستعمل عوف - بالواو والفاء، تصغير عوف، ويقال فيه عويث - بتحتية فمثلة - ابن الأضبط - بضاد معجمة، فموحدة، فطاء مهملة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال البلاذري: استعمل أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ويقال: عوف بن الأضبط والله أعلم».

[سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٢٨٩].

سَبَبُ تَسْمِيَتِهَا بِعُمْرَةِ الْقِصَاصِ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وُقِيَلاَ لَهَا عُمْرَةُ الْقِصَاصِ؛ لِأَنَّهُمْ صَدَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذِي الْقَعْدَةِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ فَاقْتَصَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ فَدَخَلَ مَكَّةَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ الَّذِي صَدَّوْهُ فِيهِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ.

وَبَلَّغَنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٠].

مَنْ لَمْ يَشْهَدْ عُمْرَةَ الْقِصَاصِ مِنْ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ:

قَالَ الْوَائِدِيُّ: «حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ عَنْ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أُمِّ عِمْرَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: لَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ إِلَّا اعْتَمَرَ عُمْرَةَ الْقِصَاصِ، إِلَّا مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ، فَخَرَجْتُ وَنِسْوَةٌ مَعِيَ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ، فَلَمْ نُصَلِّ إِلَى الْبَيْتِ، فَقَصَّرْنَ مِنْ أَشْعَارِهِنَّ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، ثُمَّ اعْتَمَرْنَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِصَاصَ لِعُمْرَتِهِنَّ، وَنَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ.

وَكَانَ يَمْنُ سَهْدَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَقُتِلَ بِخَيْبَرَ وَلَمْ يَشْهَدْ عُمْرَةَ الْقِصَاصِ: رِبِيعَةُ بْنُ أَكْثَمَ، وَرِفَاعَةُ بْنُ مَسْرُوحٍ، وَثَقَفُ بْنُ عَمْرٍو، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ وَهَبٍ الْأَسَدِيُّ، وَأَبُو صَيَّاحٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ حَاطِبٍ، وَعَدِيُّ بْنُ مُرَّةَ بْنِ سُرَاقَةَ، وَأَوْسُ بْنُ حَبِيبٍ، وَأَتَيْفُ بْنُ وَاثِلٍ، وَمَسْعُودُ بْنُ سَعْدِ الزُّرَيْقِيِّ، وَبِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ، وَعَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٦-٧٣٧].

كَمِيَةِ الْهَدْيِ فِي هَذِهِ الْعُمْرَةِ:

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَعَدَّ سَتِينَ بَدَنَةً لِيَسُوقَهَا مَعَهُ هَدْيًا إِلَى الْحَرَمِ، وَهُوَ الْعَدَدُ الَّذِي سَاقَهُ مَعَهُ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَاضْطُرَّ إِلَى أَنْ يَنْحَرَهُ خَارِجَ حُدُودِ الْحَرَمِ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ نَفْسَهَا بِسَبَبِ إِصْرَارِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى صَدِّهِ عَنِ الْبَيْتِ ذَلِكَ الْعَامَ.

وَقَدْ جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى هَدْيِهِ هَذَا نَاجِيَةَ بَنِ جَنْدَبِ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، وَهُوَ نَفْسُهُ الَّذِي جَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْهَدْيِ الَّذِي سَاقَهُ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ أَضَافَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعَةَ فِتْيَانٍ مِنْ أَسْلَمَ قَوْمِ (نَاجِيَةِ بَنِ جَنْدَبِ رضي الله عنه) لِيَكُونُوا لَهُ عَوْنًا فِي الْعَنَاةِ بِالْهَدْيِ.

قَالَ الْوَائِدِيُّ: «وَحَدَّثَنِي ابْنُ مُوَهَّبٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: سَاقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْقَضِيَّةِ سَتِينَ بَدَنَةً.

حَدَّثَنِي غَانِمُ بْنُ أَبِي غَانِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَنَارٍ قَالَ: جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَاجِيَةَ بَنِ جَنْدَبِ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه عَلَى هَدْيِهِ، يَسِيرُ بِالْهَدْيِ أَمَامَهُ يَطْلُبُ الرَّغْيَ فِي الشَّجَرِ، مَعَهُ أَرْبَعَةُ فِتْيَانٍ مِنْ أَسْلَمَ.

فَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ أَبِي رُهْمٍ رضي الله عنه قَالَ: أَنَا كُنْتُ مِمَّنْ يَسُوقُ الْهَدْيَ وَأَرْكَبُ عَلَى الْبُذْنِ.

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ نَعِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مِمَّنْ صَاحَبَ الْبُذْنَ أَسْوَفَهَا. حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ شُعْبَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَلَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَدْيَهُ بِيَدِهِ هُوَ بِنَفْسِهِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٢-٧٣٣].

من أين أحرم الرسول ﷺ بالعمرة؟

وفي عمرة القضاء هذه أحرم النبي ﷺ من باب مسجده داخل المدينة، أي أنه لم يحرم من الميقات المألوف (ذي الحليفة) وقد ذكر الواقدي سبب ذلك فقال: «حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ مُوسَى بْنِ مَيْسَرَةَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: أَحْرَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ؛ لِأَنَّهُ سَلَكَ إِلَى طَرِيقِ الْفُرْعِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَأَهْلَ مِنَ الْبَيْدَاءِ.

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه: ثُمَّ حَجَّ حَجَّةَ الْوَدَاعِ، فَأَحْرَمَ مِنَ الْبَيْدَاءِ، وَهَذِهِ الْعُمَرَةُ مِنَ الْمَسْجِدِ؛ لِأَنَّ طَرِيقَهُ لَيْسَ عَلَى الْبَيْدَاءِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٣، ٧٣٤].

حَمْلُ السِّلَاحِ احْتِيَاظًا:

ورغم أن النبي ﷺ «في حالة هدنة مع القرشيين بمكة ورغم أن اتفاقية الحديبية تنص على أن ليس للمسلمين أن يحملوا من السلاح - داخل مكة - سوى السيوف في أغمارها، فإن النبي ﷺ قد حملوا معه من المدينة في هذه العمرة من العتاد الحربي - السيوف والبيض والدروع والرماح - ما يكفي لتسليح أصحابه الذين كانوا معه والذي بلغ عددهم الألفين.

كما أن النبي ﷺ أعد كتيبة من الفرسان المسلحين قوامها مائة فارس وكلّف هؤلاء الفرسان بأن يكونوا في مقدمته حتى حدود الحرم.

وعندما قرر النبي ﷺ ذلك ناقشه بعض أصحابه بأن حمل السلاح كاملاً - وعلى تلك الصورة - قد يفسر بأن نقض لاتفاقية الحديبية، فأفهمهم بأنه لا يفكر في ما تسرب إلى أذهانهم، فهو لا ينوي بحمله السلاح الكامل على تلك الصورة لكي يدخل به الحرم، كلا وإنما فعل ذلك استعداداً للطوارئ فقط لأنه ﷺ أدخل في حسابه أن قريباً قد تستغل فرصة تجرّد المسلمين من السلاح فتغدر بهم وهم يؤدون مناسكهم.

ولذلك أمر بحمل السلاح كاملاً، وألّف كتيبة الفرسان لتكون طليعة أمامه من باب الحيطة والحذر، ثم أفهم الأصحاب الذين أبدوا ملاحظاتهم على حمّله السلاح الكامل، بأن حمّله قد يكون مناقضاً لشروط صلح الحديبية، أفهمهم بأنه «لكي يتمشى في تصرفاته مع الاتفاقية الحربية نصّاً وروحاً» سيحمل معه

كامل السلاح إلى أن يصل حدود الحرام، وهناك سترك السلاح (خارج الحرم) في حراسة بعض أصحابه ليلجأ إلى هذا السلاح إذا ما اضطر إليه، وأنه تنفيذًا لاتفاقية الحديدية لن يسمح لأحد من أصحابه بأن يحمل من السلاح داخل الحرم إلا السيف في غمده.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي مُعَاذُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: حَمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّلَاحَ وَالْبَيْضَ وَالذُّرُوعَ وَالرَّمَاحَ، وَقَادَ مِائَةَ فَرَسٍ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى ذِي الْحُلَيْفَةِ قَدَّمَ الْخَيْلَ أَمَامَهُ، وَهِيَ مِائَةُ فَرَسٍ، عَلَيْهَا مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ رضي الله عنه، وَقَدَّمَ السَّلَاحَ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِ بِشِيرَ بْنَ سَعْدٍ رضي الله عنه، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! حَمَلْتَ السَّلَاحَ وَقَدْ شَرَطُوا عَلَيْنَا أَلَّا نَدْخُلَ عَلَيْهِمْ إِلَّا بِسِلَاحِ الْمُسَافِرِ: السُّيُوفُ فِي الْقُرْبِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّا لَا نَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ الْحَرَمَ، وَلَكِنْ نَكُونُ قَرِيبًا مِنْهَا، فَإِنْ هَاجَنَا (هاجته: حركه، الهيج بفتح الهاء، والتحتية، وبالجميم: الحرب) هَبِجَ مِنْ الْقَوْمِ كَانَ السَّلَاحُ قَرِيبًا مِنَّا»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى ذَلِكَ؟ فَأَسْكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدَّمَ الْبُذْنَ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٣].

التحرك من المدينة:

وبعد أن أكمل النبي ﷺ وأصحابه استعدادهم تحرك الرسول الأعظم ﷺ بأصحابه من المدينة يضحجون بالتلبية والتكبير والتهليل.

قريش تحتج على حمل المسلمين السلاح:

وكان النبي الأعظم ﷺ - كما ذكرنا آنفًا - قد انتخب مائة فارس من المهاجرين والأنصار وأمر قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه بأن يتقدم بهم طليعة أمامه حتى مكة، وذلك من قبيل الخيطة والحذر. كما قَدَّمَ الأسلحة والأعتدة الحربية التي قد يُضطر إلى استخدامها إذا ما حزبه أمر وهو بمكة، قَدَّمَ هذه الأسلحة والأعتدة مع القائد المحارب الشهير، بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه، ثم تحرك ﷺ بباقي أصحابه يقدمهم، ممتطيًا ظهر ناقته القصوى يحيط به الأصحاب من كل جانب، تشق أصواتهم عنان السماء بالتلبية والتكبير والتهليل، وقد انتشر بين أيديهم ستون بدنة وهي الهدى المسوق ليُنحر في مكة.

ولما كانت قريش تتوقع أن يأتي النبي ﷺ في أصحابه لأداء مناسك العمرة كما تنص اتفاقية الحديدية، بعث ساداتها بعدد من رجال استخباراتهم ليضربوا في الأرض بعيدًا عن الحرم ليتحسسوا أخبار الرسول ﷺ وأصحابه، ويقدموا لهم تقريرًا مفصلاً عن وضع المسلمين والحالة التي هم عليها أثناء تحركهم نحو مكة المكرمة.

وقد وصل استخبارات قريش في استكشافهم إلى مر الظهران - وهو المسمى اليوم بوادي فاطمة - وهناك رأوا كتيبة الفرسان التي يقودها محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه مدججة بكامل أسلحتها، كما رأوا

الأسلحة الكثيرة وعدد الحرب الكاملة التي تحملها وسائل النقل والرجال المكلفون بحملها تحت قيادة وإشراف بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه، فأفزعهم ذلك، فسألوا محمد بن مسلمة رضي الله عنه، ما الخبر فأبلغهم أن النبي ﷺ سيكون غداة ذلك اليوم في مر الظهران.

فعادوا أدراجهم إلى مكة مسرعين، وهناك أبلغوا سادات قريش ما رأوا من الخيل والسلاح الذي مع محمد بن مسلمة وبشير بن سعد ورجالهما رضي الله عنهم الذين كانوا يقدمون النبي ﷺ وباقي أصحابه كطليعة لهم. ففزعت قريش لذلك فزعاً شديداً وتسرب إلى أذهان قادتها أن النبي ﷺ قد نقض صلح الحديبية حين قدّم أمامه الأسلحة الكثيرة والفرسان المدججين، وأنه - لا شك - قد جاء لغزو قريش واحتلال مكة بقوة السلاح، والهدنة قائمة بين الفريقين؛ لذلك سارعت قريش إلى عقد اجتماع عاجل في دار الندوة لبحث ما تصورت أنه غزو اعترزم النبي ﷺ القيام به ضدهم في فترة الهدنة القائمة بين الفريقين. وبعد استعراض الوضع في دار الندوة قررت قريش التريث أن تبعث أولاً بوفد منها لمقابلة النبي ﷺ لمعرفة نواياه الحقيقية من جلب الفرسان المدججين بكامل أسلحتهم وهو في هدنة معهم ومجيئه للعمرة فقط قبل الهجرة.

اجتماع وفد قريش بالرسول ﷺ في يأجج:

وكان النبي ﷺ قد وصل بأصحابه إلى مر الظهران (وادي فاطمة)، ومن هناك قدّم الخيل والسلاح إلى بطن يأجج بالقرب من أنصاب الحرم، ثم لحق وبقية أصحابه بهم، وهناك (في بطن يأجج) عسكر النبي ﷺ بأصحابه ومعهم كامل عدة الحرب من خيل وأسلحة.

وإلى حيث عسكر النبي ﷺ بأصحابه - وعددهم ألفان - في بطن وادي يأجج وصل الوفد القرشي المكوّن من عدة زعماء برئاسة مكرز بن حفص العامري الذي كان أحد أعضاء الوفد القرشي المفاوض مع سهيل بن عمرو في مفاوضات الحديبية.

ولدى اجتماع الوفد القرشي هذا بالنبي ﷺ في وادي يأجج أعربوا له عن مخاوفهم واحتجوا على حمله الأسلحة ومجيئه بالخيول الكثيفة؛ وكى يبيع لنفسه - كما تصوروا - أن يغزو مكة ويدخلها بكل هذه الأسلحة، وقريش لم يأت منها ما يخل بالعهد الذي أبرم في الحديبية بين الفريقين قبل عام؟

غير أن النبي ﷺ بدّد كل المخاوف التي كانت تساور القرشيين، وأكد لهم بأنه على العهد الذي أعطاه في الحديبية، وأنه لن يسمح لأحد من أصحابه بأن يحمل من السلاح داخل الحرم في هذه العمرة، إلا سلاح الراكب (السيف في قرابه) كما تنص على ذلك بنود اتفاقية الحديبية، فاطمأن الوفد القرشي، وعاد إلى مكة ليُطمئن قريشاً ويزيل عنها المخاوف التي كانت قد أفلقتها.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُلَبِّي، وَالْمُسْلِمُونَ يُلْبِثُونَ، وَمَضَى مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ بِالْحَيْلِ إِلَى مَرِّ الظَّهْرَانِ، فَيَجِدُ بِهَا نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، فَسَأَلُوا مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ﷺ فَقَالَ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ يُضْبِحُ هَذَا الْمَنْزِلَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَرَأَوْا سِلَاحًا كَثِيرًا مَعَ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ، فَخَرَجُوا سِرَاعًا حَتَّى أَتَوْا قُرَيْشًا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالَّذِي رَأَوْا مِنَ الْحَيْلِ وَالسَّلَاحِ، فَفَزَعَتْ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَحَدُنَا حَدَّثًا، وَنَحْنُ عَلَى كِتَابِنَا وَمُدَّتِنَا، فَنِيمَ يَغْزُونَا مُحَمَّدٌ فِي أَصْحَابِهِ؟ وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّ الظَّهْرَانِ، وَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّلَاحَ إِلَى بَطْنِ يَاجْجٍ حَيْثُ يَنْظُرُ إِلَى أَنْصَابِ الْحَرَمِ (الاعلام على حدوده)، وَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ مِكْرَزَ بْنَ حَفْصِ بْنِ الْأَخْنَفِ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى لَقَوْهُ بِبَطْنِ يَاجْجٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ وَالهْدْيُ وَالسَّلَاحُ قَدْ تَلَا حَقُّوا، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! وَاللَّهِ مَا عُرِفَتْ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا بِالْغَدْرِ، تَدْخُلُ بِالسَّلَاحِ الْحَرَمَ عَلَى قَوْمِكَ، وَقَدْ شَرَطْتَ إِلَّا تَدْخُلَ إِلَّا بِسَّلَاحِ الْمُسَافِرِ: السُّيُوفُ فِي الْقُرْبِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَدْخُلُهَا إِلَّا كَذَلِكَ»، ثُمَّ رَجَعَ سَرِيعًا بِأَصْحَابِهِ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَدْخُلُ بِسَّلَاحٍ، وَهُوَ عَلَى الشَّرْطِ الَّذِي شَرَطَ لَكُمْ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٤].

تخزين السلاح قرب حدود مكة:

أما الأسلحة التي جلبها النبي ﷺ معه في عمرته هذه فقد أمر بتخزينها في بطن وادي ياجج، وكانت كميات كبيرة، وقد أمر النبي ﷺ بأن يبقى من أصحابه لحراسة هذه الأسلحة مائتا رجل بقيادة أوس بن خولي الأنصاري ﷺ على أن يأتي من الأصحاب الذين أدوا مناسك العمرة ليحلُّوا محل أوس بن خولي وأصحابه ﷺ لحراسة الأسلحة؛ ليؤدي أوس وأصحابه المائتان ﷺ مناسك العمرة كإخوانهم، وقد حدث ذلك بالفعل، حيث عاد من مكة مائتان من الصحابة وحلوا محل أوس بن خولي وأصحابه ﷺ في حراسة الأسلحة.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي عَائِدُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ أَبِي الْحُوَيْرِثِ قَالَ: وَخَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَائَتِي رَجُلٍ عَلَى السَّلَاحِ عَلَيْهِمْ أَوْسُ بْنُ خَوْلٍ ﷺ...»

وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ مَائَتَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ حِينَ طَافُوا بِالْبَيْتِ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى أَصْحَابِهِمْ بِبَطْنِ يَاجْجٍ فَيَقِيُمُوا عَلَى السَّلَاحِ، وَيَأْتِي الْآخَرُونَ فَيَقْضُوا نُسْكَهُمْ فَفَعَلُوا». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٥، ٧٤٠].

جلاء قريش عن مكة:

ما كانت بنود صلح الحديبية التاريخي الذي بموجبه دخل المسلمون مكة لأداء مناسك العمرة والبقاء ثلاثة أيام، ما كانت هذه البنود تنص على إلزام القرشيين بالجلاء عن مكة عندما يدخلها المسلمون معتمرين ويبقون فيها تلك المدة.

ولكن قريشاً نفسها آثرت الجلاء عن مكة عندما يدخلها المسلمون لقضاء العمرة، فقررت أن تجلو عنها إلى رؤوس الجبال؛ لأنها شعرت أنه ثقل على نفوسها إلى حد لا تطيقه أن تنظر إلى النبي ﷺ

وأصحابه وهم يطوفون بالبيت ويسعون بين الصفا والمروة ويتجولون في أحياء مكة أحراراً دون أن يجروا أي أحد كان على اعتراض سبيلهم، وهم الذين خرجوا بالأمس يتحسسون رؤوسهم يطلبهم الموت في كل مكان بعد أن أهدرت قريش دماءهم وجعلت مائة ناقة جائزة لمن يأتيها برأس سيدهم وبنبيهم محمد ﷺ، وكانوا إلى ما بعد صلح الحديبية لا يستطيعون الاقتراب من حدود الحرم فضلاً أن يقوموا بالطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة؛ لهذا - وتحت ضغط البغض الوثني الأسود - قررت قريش أن تجلو، إلى رؤوس الجبال لأنها لا تحتل النظر إلى النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وقد صرح سادات قريش أنفسهم بما يترجم عن شعورهم بالمرارة وعدم احتمالهم النظر إلى المسلمين وهم داخل مكة.

قَالَ الْوَأَقِدِيُّ: «فَلَمَّا جَاءَ مَكْرَزُ بَحْرِ النَّبِيِّ ﷺ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ وَخَلَّوْا مَكَّةَ، وَقَالُوا: وَلَا نَنْظُرُ إِلَيْهِ وَلَا إِلَى أَصْحَابِهِ». [الغازي للواقدي ٢/ ٧٣٤].

منظر رائع:

أما النبي ﷺ فبعد أن رتب أمر حراسة الأسلحة في وادي يأجج بتركه مائتين من أصحابه بقيادة أوس بن خولي الأنصاري رضي الله عنه تحرك من هذا الوادي إلى (ذي طوى) حيث أمر بحبس الهدي هناك حتى يتكامل أصحابه، وقد خرج في اتجاه ذي طوى على ناقته القصوى وأصحابه يحيطون به متوشحين السيوف تدوي أصواتهم بالتلبية «ليك اللهم لييك. لييك لا شريك لك لييك. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».. وهي تلبية ترى قريش أن تقطع لسان من ينطق بها لو استطاعت، ولكن هيهات هيهات، فقد جدد النبي الحكيم ﷺ بإبرامه صلح الحديبية أنفها حين أرغمت على قبول دخول المسلمين مكة لتأدية مناسك العمرة حسب شريعتهم التي قامت على أساس هدم الوثنية التي كانت قريش حتى ذلك ترى أن من واجبها الذود عنها بالمهج والأرواح.

وعندما تكامل جمع المسلمين بذي طوى وقف الرسول الأعظم ﷺ على ناقته القصوى وسط أصحابه تحيطهم هالة من الوقار والهيبة ثم اندفع بهم نحو المدينة المقدسة (مكة) التي دخلها ﷺ من شالها عند الحجون.

وكان القرشيون - كما قلنا - قد جلوا عن مكة إلى رؤوس الجبال لئلا يروا المسلمين في مكة أو يخالطوهم.

ومن رؤوس تلك الجبال - وعلى مد النظر - رأوا بعيون كاد يزيغها حقد الكفر وضغينة الجاهلية، رأوا النبي محمد ﷺ وأصحابه يزحفون نحو مكة تشق أصواتهم عنان السماء متحذية الشرك بتلبية التوحيد «لييك اللهم لييك. لييك لا شريك لك لييك» وهي تلبية لا يصدع شيء قلوب الوثنيين مثل رفع الصوت بها، وخاصة في مكة التي لا زالت - حتى ذلك اليوم - تحت سلطان الوثنية ومعقلها الأكبر.

رأى المشركون القرشيون وهم معتصمون برؤوس جبال مكة في عملية أشبه بالفرار، رأوا خصمهم الألد محمدًا ﷺ وأصحابه ﷺ قد حجب سوادهم الأفق وهم يتحركون نحو مكة في عزة المسلم وثبات المؤمن وخشوع العابد الصادق الذي لا يعنو وجهه ولا يخضع قلبه إلا للواحد الأحد الفرد الصمد.

رأى المشركون من قمم جبال مكة هذا المنظر المهيب الرائع، فأخذت ذكريات الماضي الأسود - الذي لم تمر عليه أكثر من سبع سنوات - تنهش قلوبهم بضراوة، فكادت - لذلك - هذه القلوب التي ما زال ظلام جهل الوثنية يغلفها، تقفر من أقفاصها في الصدور غيظًا وحنقًا.

لأنه رأوا - وبعيون لا تكاد تصدق ما ترى - محمدًا ﷺ يدخل مكة في هذا الحشد الحاشد (ألفين من أصحابه المغاوير) وهو آمنًا مطمئنًا ورغم أنوفهم، يدخل هكذا وعلى هذا المستوى من العزة والاعتزاز بالله ثم بالنفس وبالقوة البشرية العظيمة التي تحيطه من الأصحاب، وهو - حسب منطقهم - الطريد الذي خرج من مكة - قبل سبع سنوات - مع صاحبه الصديق ﷺ خائفًا يترقب يبحث عنه الموت في كل مكان؛ لأن سيوف الشرك، كل سيوف الشرك، خرجت من مكة يومها مصلته تطلب رأسه، ذلك أن الحقد الوثني الكافر المجنون «يوم أن نجا محمد ﷺ من المؤامرة التي دبرتها دار الندوة لاغتياله على فراشه» جعل مائة ناقة مكافأة لمن يعيد إليهم محمدًا ﷺ حيًّا أو ميتًا.

وها هو محمد اليوم يأتيهم، ولكن لا كما يريدون، بل كأكره ما يكرهون، إنه يدخل مكة على هيئة لا تحمل نفوسهم النظر إليه وهو عليها؛ ولذلك قرروا الجلاء عن مكة - اختيارًا - ليُخلوها له ولأصحابه؛ لأنه وهؤلاء الأصحاب سيدخلون مكة مرفوعة رؤوسهم تحيطهم عزة الإيثار وتحرسهم قوة الإسلام، في موكب مهيب ضم ألفين من المهاجرين والأنصار يلتفون حول نبيهم الحبيب ﷺ كما تلتفت الأسود الضواري وهي تحمي عرين أشبالها، على هذه الهيئة المهيبة وبهذا المنظر الرائع ولج النبي ﷺ وأصحابه الكرام مكة المكرمة، وأعمق التاريخ يدمد فيها صدى وعد الله الحق الذي وعد به نبيه العظيم وصحبه الكرام البررة: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح].

هذه الآية التي استجوب الصحابة النبي الأعظم ﷺ في بيداء الحديبية وهم يبلغونه معارضتهم لذلك الصلح استجوبوه بشأنها.

قَالَ الْوَائِدِيُّ: «وَقَالَ عُمَرُ ﷺ وَرَجَالَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَمْ تَكُنْ حَدَّثْنَا أَنَّكَ سَتَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَتَأْخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَتُعَرِّفُ مَعَ الْمُعَرِّفِينَ؟ وَهَدَيْنَا لَمْ يَصِلْ إِلَى الْبَيْتِ، وَلَا

نَحْنُ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُلْتُ لَكُمْ فِي سَفَرِكُمْ هَذَا؟» قَالَ عُمَرُ ؓ: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَدْخُلُونَهُ، وَآخِذُ مِفْتَاحِ الْكَعْبَةِ، وَأَخْلِقُ رَأْسِي وَرُؤُوسَكُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ، وَأُعَرِّفُ مَعَ الْمُعَرِّفِينَ».

[المغازي للواقدي ٦٠٩ / ٢].

وها هو اليوم قد حدث فيه ما وعدوا به، فالله لا يخلف الميعاد، وقد جاء في كتب السير أن النبي ﷺ لما دخل مكة وطاف بالبيت وسعى في عمرة القضية هذه استدعى عمر بن الخطاب ؓ الذي كان أشد المعارضين لصلح الحديبية وذكره بذلك.

من أين دخل النبي ﷺ مكة يوم العمرة؟

وقد كان دخول النبي ﷺ وأصحابه مكة في هذه العمرة من الشمال عند الحجون، وقد ظل النبي ﷺ وأصحابه يلبون حتى خالطوا بيوت مكة، وهناك قطعوا التلبية.

وكان عبد الله بن رواحة الأنصاري ؓ آخذًا بخطام القصواء - الناقة التي يمتطيها النبي الأعظم ﷺ - واستمر الموكب النبوي في تحركه من الحجون صوب المسجد الحرام، وقد أحاط الأصحاب من المهاجرين والأنصار بالنبي الأعظم ﷺ، وقد انتظمت صفوفهم أمامه وخلفه وعن شماله وعن يمينه تعلوهم السكينة ويظلمهم الوقار، خاشعين لله تعالى شكرًا له على هذا النصر المعنوي العظيم المؤزر.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْهَذْيِ أَمَامَهُ حَتَّى حِسَّ بِذِي طَوًى (واد بقرب مكة).

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ الْقُصَوَاءَ، وَأَصْحَابُهُ مُخْدِقُونَ (محيطون) بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُتَوَشِّحُو السُّيُوفِ (توشح السيف: ألقى طرف علاقته على منكبه الأيمن من تحت يده اليسرى، ويأخذ طرفه الذي ألقاه على منكبه الأيسر من تحت يده اليمنى، ثم يعقداهما على صدره)، يُلْبُونَ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى ذِي طَوًى وَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ الْقُصَوَاءَ وَالْمُسْلِمُونَ حَوْلَهُ، ثُمَّ دَخَلَ مِنَ الثَّنِيَّةِ الَّتِي تُطْلَعُ عَلَى الْحُجُونِ عَلَى رَاحِلَتِهِ الْقُصَوَاءَ، وَابْنُ رَوَاحَةَ ؓ أَخَذَ بِرِمَامِ رَاحِلَتِهِ.

فَحَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ قُسَيْطٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ حُدَيْجٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقْطَعْ الثَّنِيَّةَ حَتَّى جَاءَ عُروُشُ مَكَّةَ (أي بيوتها، وسميت عروشًا لأنها كانت عيدانًا تنصب ويظل عليها، واحدها عرش. النهاية ٣ / ٨١).

حَدَّثَنِي أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَبَّى حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ. حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ عَنْ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ عَنْ أُمِّ عِمَارَةَ ؓ قَالَتْ: شَهِدْتُ عُمَرَةَ الْقُضَيْيَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكُنْتُ قَدْ شَهِدْتُ الْحَدْيِيَّةَ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حِينَ انْتَهَى إِلَى الْبَيْتِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَابْنُ رَوَاحَةَ ؓ أَخَذَ بِرِمَامِ رَاحِلَتِهِ - وَقَدْ صَفَّ

لَهُ الْمُسْلِمُونَ - حِينَ دَنَا مِنَ الرُّكْنِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِ، فَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ بِمِخْبَنِهِ (المحجن: عصا مقنعة الراس يلتقط بها الراكب ما سقط منه) مُضْطَبِّعًا (الاضطباع: هو أن يأخذ الإزار أو البرد فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن ويلقي طرفه على كتفه الأيسر. النهاية ١٢/٣) بِثَوْبِهِ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَالْمُسْلِمُونَ يَطُوفُونَ مَعَهُ قَدْ اضْطَبَّعُوا بِثِيَابِهِمْ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ؓ يَقُولُ:

خَلَّوْا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ إِنِّي شَهِدْتُ أَنَّهُ رَسُولُهُ
حَقًّا وَكُلُّ الْخَيْرِ فِي سَبِيلِهِ نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ
كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ^(١)
وَيُذْهِلُ^(٢) الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؓ: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ!! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عُمَرُ إِنِّي أَسْمَعُ!»، فَأَسْكَتَ عُمَرُ ؓ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٤-٧٣٦].

زاد ابن سعد: «وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيهَا يَا ابْنَ رَوَاحَةَ قَالَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، نَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»، قَالَ: فَقَالَهَا ابْنُ رَوَاحَةَ ؓ، فَقَالَهَا النَّاسُ كَمَا قَالَ».

[الطبقات لابن سعد ٢/ ١١٤].

إشاعة الحمى الصفراء الكاذبة:

كان النبي ﷺ وهو في طريقه إلى مكة لأداء مناسك عمرة القضاء هذه قد بلغه أن أجهزه إعلام القرشيين - لتخط من شأن المسلمين وتظهرهم بمظهر الضعيف المتهالك - قد روجت إشاعة بين جماهير العرب والقرشيين خاصة تقول: إن المسلمين في حالة بؤس وضعف، وأن مرض الحمى الصفراء قد أصابهم فأنهك قواهم؛ ولذلك نجح زعماء قريش في حمل الجماهير القرشية على عدم الاقتراب من المسلمين والارتفاع إلى رؤوس الجبال لئلا يصابوا - كما زعمت قريش - بعدوى الحمى الخطيرة، وكان هدف أجهزة الدعاية الوثنية من وراء هذه الكذبة تحقير شأن المسلمين وتصغيرهم والتقليل من هيبتهم التي بدت قلوب الجماهير القرشية تمتلئ بها.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَخَرَجَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ مِمَّنْ كَانَ صُدَّ مَعَهُ فِي عُمَرَتِهِ تِلْكَ، وَهِيَ سَنَةٌ سَبْعٌ، فَلَمَّا سَمِعَ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ خَرَجُوا عَنْهُ، وَتَحَدَّثَتْ قُرَيْشٌ بَيْنَهَا أَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فِي عُسْرَةٍ وَجَهْدٍ وَشِدَّةٍ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٠].

(١) الهام: جمع هامة وهو الرأس هنا. مقيله: مستعار من موضع القائلة، ويريد الأعناق. شرح أبي ذر ص ٣٥٣.

(٢) يذهل: أي يشغل. شرح أبي ذر ص ٣٥٣.

النبي ﷺ يعمل على إبطال الإشاعة:

وعندما بلغ النبي ﷺ خبر إشاعة إصابة أصحابه بالحمى الصفراء، والتي أطلقتها أبواق الدعاية المعادية، لفت أنظار أصحابه إلى هذه الفرية، وطلب منهم القيام - عملياً - بما يُبطل هذه الإشاعة الكاذبة، وذلك بأن يظهروا - أمام الجماهير القرشية التي تربطهم من التلال - بمظهر القوي النشط، فعندما وصل المسجد قال ﷺ: رَحِمَ اللهُ أَمْرًا أَرَاهُمْ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً.

ثم لكي ينفي فرية الضعف التي أطلقتها قريش بدأ طوافه بالهرولة (وهي حركة مشي نشطة دون الجري) وهرول أصحابه معه كما هرول، واستمر النبي ﷺ يهرول وأصحابه في طوافهم ويهرولون معه ثلاثة أشواط، فمضت بذلك السنة، فصار من السنة - أبد الأبدين - أن يهرول الطائف بالبيت في الأشواط الثلاثة الأول.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يَقْدُمُ عَلَيْكُمْ وَفَدٌ [وَقَدْ] وَهَنَتْهُمْ حُمَى يَثْرِبَ، وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَزْمُلُوا الْأَشْوَاطَ الثَّلَاثَةَ، وَأَنْ يَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، وَلَمْ يَمْنَعُهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَزْمُلُوا الْأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِنْبَاءَ عَلَيْهِمْ.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَزَادَ ابْنُ سَلَمَةَ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَامِهِ الَّذِي اسْتَأْمَنَ قَالَ: «ارْمُلُوا»؛ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ قُوَّتَهُمْ، وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ قَبْلِ قُعَيْقَعَانَ (جبل بمكة). [البخاري في المغازي (٤٢٥٦)، وفي الحج (١٦٠٢)].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مَكَّةَ وَقَدْ وَهَنَتْهُمْ حُمَى يَثْرِبَ، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يَقْدُمُ عَلَيْكُمْ عَدَا قَوْمٍ قَدْ وَهَنَتْهُمْ الْحُمَى، وَلَقُوا مِنْهَا شِدَّةً، فَجَلَسُوا مِمَّا بَلَى الْحِجَرِ، وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَزْمُلُوا ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ، وَيَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ؛ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ جَلْدَهُمْ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ رَعَمْتُمْ أَنْ الْحُمَى قَدْ وَهَنَتْهُمْ، هَؤُلَاءِ أَجْلَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَلَمْ يَمْنَعُهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَزْمُلُوا الْأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِنْبَاءَ عَلَيْهِمْ.

[مسلم في الحج (١٢٦٦)].

وَعَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ: قُلْتُ لَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ قَوْمَكَ رَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَمَلَ، قَالَ: صَدَقُوا وَكَذَّبُوا، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الدَّقِيقِيُّ، نَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، نَا الْجَرِيرِيُّ، قَالَ: نَا أَبُو الطُّفَيْلِ عَامِرُ بْنُ وَائِلَةَ وَنَحْنُ نَطُوفُ بِالْبَيْتِ قَالَ: قُلْتُ لَابْنِ عَبَّاسٍ: أَرَأَيْتَ الرَّمَلَ بِالْبَيْتِ ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ رَمَلًا وَأَرْبَعًا مَسِيًّا؟ قَالَ: قَوْمُكَ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا سَنَةٌ، قَالَ: صَدَقُوا وَكَذَّبُوا، قَالَ: قُلْتُ: مَا صَدَقُوا

وَمَا كَذَبُوا؟ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، فَلَمَّا سَمِعَ أَهْلَ مَكَّةَ، وَكَانُوا قَوْمًا حُسَدَاءَ، قَالُوا: انْظُرُوا إِلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَطُوفُوا بِالْبَيْتِ مِنَ الْهَرَالِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرَوْهُمْ مَا يَكْرَهُونَ».

[صحيح ابن خزيمة في المناسك (٢٧١٩)].

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ قُرَيْشًا قَالَتْ: إِنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ قَدْ وَهَنَتْهُمْ حُمَى يَثْرِبَ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَامِهِ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «أَرْمِلُوا بِالْبَيْتِ ثَلَاثًا؛ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ قُوَّتَكُمْ»، فَلَمَّا رَمَلُوا، قَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا وَهَنَتْهُمْ. [صحيح ابن خزيمة في المناسك (٢٧٢٠)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّمَا سَعَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْبَيْتِ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَوْزَةِ؛ لِيَرَى الْمُشْرِكِينَ قُوَّتَهُ. [البخاري في الحج (١٦٤٩)، وفي المغازي (٤٢٥٧)].

عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَزَلَ مَرَّ الظَّهْرَانِ فِي عُمْرَتِهِ، بَلَغَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ قُرَيْشًا تَقُولُ: مَا يَتَّبِعَانِ (أي: يقومون، أي: الصحابة) مِنَ الْعَجْفِ (أي: الهزال والضعف الحاصل بالجوع والمرض)، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: لَوْ ائْتَحَرْنَا مِنْ ظَهْرِنَا (أي: من جِالِنَا)، فَأَكَلْنَا مِنْ لَحْمِهِ، وَحَسَوْنَا (شربنا) مِنْ مَرَقِهِ، أَصْبَحْنَا غَدًا حِينَ نَدْخُلُ عَلَى الْقَوْمِ وَبِنَا بَهَامَةً؟ (أي: راحة وشبع ووري، بقية من قوة) قَالَ: «لَا تَفْعَلُوا، وَلَكِنْ اجْمَعُوا لِي مِنْ أَرْوَادِكُمْ»، فَجَمَعُوا لَهُ، وَبَسَطُوا الْأَنْطَاعَ، فَأَكَلُوا حَتَّى تَوَلَّوْا، وَحَنَّا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي جِرَابِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ، وَقَعَدَتْ قُرَيْشٌ نَحْوَ الْحِجْرِ، فَاضْطَبَعَ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: «لَا يَرَى الْقَوْمُ فِيكُمْ عَمِيمَةً» (أي: نقیصة یغمز بها بعضهم بعضًا، یقال: فيه غمیمة، أي: مطعن أو مطمع، ويمكن الحمل على المعنى الثاني، أي: لا یرون فیكم ضعفًا یطمعون به فی محاربتکم)، فَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ دَخَلَ حَتَّى إِذَا تَغَيَّبَ بِالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ، مَسَى إِلَى الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا يَرِضُونَ بِالْمُنَى، إِنَّهُمْ لَيَنْقَرُزُونَ (من نَقَرَ كَضَر: إذا وثب، أو بالفاء كَضَرَبَ بمعناه) نَقَرَ الظُّبَاءِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ، فَكَانَتْ سُنَّةً.

قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ: وَأَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَعَلَ ذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ.

[مسند أحمد ٤/ ٤٩٨ رقم ٢٧٨٢، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده قوي، رجاله رجال الشيخين غير عبد الله بن عثمان

بن خثیم، فمن رجال مسلم].

وَعَنْ ابْنِ خُثَيْمٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا الطُّفَيْلِ، فَقُلْتُ: الْأَطْرَافُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي تُسَنَدُ بِالْكَعْبَةِ؟

قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عَنْهَا، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَزَلَ مَرَّ الظَّهْرَانِ فِي صَلَاحِ قُرَيْشٍ، بَلَغَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تَقُولُ: تَبَايَعُونَ ضُعَفَاءَ، قَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَكَلْنَا مِنْ ظَهْرِنَا، فَأَكَلْنَا مِنْ شُحُومِهَا، وَحَسَوْنَا مِنَ الْمَرَقِ، فَأَصْبَحْنَا غَدًا حَتَّى نَدْخُلَ عَلَى الْقَوْمِ وَبِنَا بَهَامًا؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ ائْتُونِي بِفَضْلِ أَرْوَادِكُمْ»، فَبَسَطُوا أَنْطَاعَهُمْ، ثُمَّ جَمَعُوا عَلَيْهَا مِنْ أَطْعِمَاتِهِمْ كُلِّهَا،

فَدَعَا لَهُمْ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ، فَأَكَلُوا حَتَّى تَصَلَّعُوا شَبَعًا، فَأَكْفَتُوا فِي جُرَيْهِمْ (أي: ضموا وجمعوا ما زاد من الطعام فجعلوه في جربهم) فُضُولَ مَا فَضَّلَ مِنْهَا، فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قُرَيْشٍ، وَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ نَحْوَ الْحَجَرِ، اضْطَبَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «لَا يَرَى الْقَوْمُ فِيكُمْ غَمِيرَةً»، وَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ الْيَمَانِي، وَتَغَيَّبَتْ قُرَيْشٌ، مَشَى هُوَ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى اسْتَلَمُوا الرُّكْنَ الْأَسْوَدَ، فَطَافَ ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ؛ فَلِذَلِكَ نَقُولُ قُرَيْشٌ وَهُمْ يَمُرُّونَ بِهِمْ يَزْمُلُونَ: لِكَأَنَّهُمُ الْغَزْلَانُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَكَانَتْ سُنَّةٌ. [الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان في الحج ٩/ ١٢٠ رقم ٣٨١٢، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَحَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَمُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: صَفُّوا لَهُ عِنْدَ دَارِ النَّذْوَةِ لِيَنْظُرُوا إِلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ اضْطَبَعَ بِرِدَائِهِ، وَأَخْرَجَ عَصْدَهُ الْيَمْنَى، ثُمَّ قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا أَرَاهُمْ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً»، ثُمَّ اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، وَخَرَجَ يَهْرُولُ وَيَهْرُولُ أَصْحَابُهُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا وَارَاهُ الْبَيْتُ مِنْهُمْ، وَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ الْيَمَانِي، مَشَى حَتَّى يَسْتَلِمَ الرُّكْنَ الْأَسْوَدَ، ثُمَّ هَرُولَ كَذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ، وَمَشَى سَائِرَهَا.

فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَطْنُونَ أَنَّهَا لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا صَنَعَهَا هَذَا الْحَيَّ مِنْ قُرَيْشٍ لِلَّذِي بَلَغَهُ عَنْهُمْ حَتَّى إِذَا حَجَّ حَجَّةَ الْوَدَاعِ فَلَزِمَهَا، فَمَضَتْ السُّنَّةُ بِهَا.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧١].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَحَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبَّاسٍ عَنْ ثَابِتِ بْنِ الْعَجْلَانِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، قَالَ: نَزَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْجَبَلِ، وَهُمْ يَرُونَكُمْ، امْشُوا مَا بَيْنَ الْيَمَانِيِّ وَالْأَسْوَدِ»، فَفَعَلُوا». [الغازي للواقدي ٢/ ٧٣٦].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اعْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاعْتَمَرْنَا مَعَهُ [كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ اعْتَمَرْنَا]، فَلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ طَافَ [بِالْبَيْتِ]، وَطُفْنَا مَعَهُ، [وَصَلَّى وَصَلَيْنَا مَعَهُ]، [وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رُكْعَتَيْنِ]، وَأَتَى [وَسَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فَسَعَى بَيْنَهُمَا سَبْعًا]، وَأَتَيْنَاهَا مَعَهُ، وَكُنَّا نَسْتُرُهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ [وَمَعَهُ مَنْ يَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ] أَنْ يَرِمِيهِ أَحَدٌ [لَا يُصِيبُهُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ] [سَتَرْنَاهُ مِنْ غُلَامِ الْمُشْرِكِينَ وَمِنْهُمْ]، أَنْ يُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ لِي: أَكَانَ دَخَلَ الْكَعْبَةَ؟ قَالَ: لَا. [البخاري في العمرة (١٧٩١)، وفي الحج (١٦٠٠)، وفي الغازي (٤١٨٨، ٤٢٥٥)، وأبو داود في المناسك (١٩٠٢، ١٩٠٣)، وابن ماجه في المناسك (٢٩٩٠)، والدارمي في المناسك (١٩٦٣)، ومسند أحمد ٣١/ ٤٧٣، ٤٥٣، ٤٧٠، رقم ١٩١٢٩، ١٩١٠٨، ١٩١٢٥].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه قَالَ: اعْتَمَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم [رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم]، فَطَافَ بِالْبَيْتِ، وَطُفْنَا مَعَهُ، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، ثُمَّ خَرَجَ فَطَافَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَخُنْ مَعَهُ نَسْرُهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ لَا [أَنْ] يَرِيهِ أَحَدٌ، أَوْ يُصِيبَهُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ.

قَالَ: فَدَعَا [فَسَمِعَتْهُ يَدْعُو] عَلَى الْأَحْزَابِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعِ الْحِسَابِ، هَازِمِ الْأَحْزَابِ، اللَّهُمَّ اهْزِمْنَاهُمْ وَزَلِّزْلَهُمْ».

قَالَ: وَرَأَيْتُ بِيَدِهِ (أي بيد عبد الله بن أبي أوفى) ضَرْبَةً عَلَى سَاعِدِهِ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: ضَرَبْتُهَا يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَقُلْتُ لَهُ: أَشْهَدَتْ مَعَهُ حُنَيْنًا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَقَبْلَ ذَلِكَ. [مسند أحمد ٣١/٤٧٥ رقم ١٩١٣١، ٣٢/١٥١ رقم ١٩٤٠٧، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

فكانت بداية طواف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مظهرًا من مظاهر القوة والفتوة والنشاط، به انتسخت من أذهان القرشيين تلك الفرية التي أطلقتها أبواق الدعاية القرشية الوثنية.

وفعلًا رأت الجماهير القرشية المضللة بأعينها بطلان تلك الإشاعة الكاذبة، وذلك حين رأوا المسلمين يتحركون في الطواف بالبيت وهم على ذلك المستوى من القوة والنشاط.

ولم يكن كل القرشيين ارتفعوا إلى رؤوس الجبال لثلا يروا المسلمين ويختلطوا بهم، بل بقيت منهم جماعات كثيرة بمكة وقفوا عند دار الندوة صفوفًا ينظرون إلى المسلمين بدافع الفضول، فرأوا عكس ما كانت تروجه دعاية قريش من أكاذيب بشأن المسلمين، رأوا جيلًا من الناس لم يروا مثله في الضبط والسكينة والوقار مع القوة الفائقة وعلامات الشجاعة والبطولة والانقياد لنبينهم صلى الله عليه وسلم.

عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، عَنِ ابْنِ شَهَابٍ، قَالَ: لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ أَمْرَ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «اكْتَسِفُوا عَنِ الْمَنَازِبِ، وَأَسْعُوا فِي الطَّوَافِ»؛ لِيُرِيَ الْمُشْرِكِينَ جَلَدَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ، وَكَانَ يَكِيدُهُمْ بِكُلِّ مَا اسْتَطَاعَ، فَانْكَفَأَ أَهْلُ مَكَّةَ الرِّجَالُ مِنْهُمْ، وَالنِّسَاءُ، وَالصَّبِيَّانَ يَنْظُرُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَأَصْحَابِهِ وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه يَذْكُرُ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَتَوَشِّحًا بِالسَّيْفِ، يَقُولُ:

خَلَّوْا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ	أَنَا الشَّهِيدُ أَنَّهُ رَسُولُهُ
قَدْ نَزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ	فِي صُحُفٍ تُتْلَى عَلَى رَسُولِهِ
فَالْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ	كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ	وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

وَتَغَيَّبَ رِجَالٌ مِنْ أَشْرَافِ الْمُشْرِكِينَ كَرَاهِيَةً أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم غَيْطًا، وَحَنَقًا، وَنَفَاسَةً (النفاسة: يقال نفس الشيء بالكسر نفاسة: حسده عليه ولم يره أهلاً له)، وَحَسَدًا خَرَجُوا إِلَى نَوَاحِي مَكَّةَ،

فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُسْكَهَ وَأَقَامَ ثَلَاثًا. [جمع الزوائد في المغازي ٦ / ٢١٤ رقم ١٠١٨٩، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في القطعة المفقودة] ورجاله رجال الصحيح].

ارْتَجَازُ ابْنِ رَوَاحَةَ ﷺ وَهُوَ يَقُودُ نَاقَةَ الرَّسُولِ ﷺ:

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ وَعَبَدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ يَمْشِي، وَهُوَ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ [تَأْوِيلِهِ]
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي حَرَمِ اللَّهِ تَقُولُ [هَذَا] الشَّعْرُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «خَلَّ عَنْهُ يَا عُمَرُ! [فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَلَامُهُ] فَالْهِيَ [فَلْهُوَ] أَسْرَعُ فِيهِمْ (أي في التأثير في قلوبهم) أَشَدُّ عَلَيْهِمْ] مِنْ نَضْحِ (رمي) [وَقَعِ] النَّبْلِ».

[الترمذي في الأدب (٢٨٤٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٣، ٢٨٩٣). وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ، وَعَبَدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ﷺ آخِذٌ بِغَرَزِهِ، وَهُوَ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
قَدْ أَنْزَلَ الْقُرْآنُ فِي تَنْزِيلِهِ
بِأَنَّ خَيْرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ

[صحيح ابن حبان في السير ١٠ / ٣٧٩-٣٨٠ رقم ٤٥٢١، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ دَخَلَ مَكَّةَ فِي تِلْكَ الْعُمْرَةِ دَخَلَهَا وَعَبَدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ﷺ آخِذٌ بِخَطَامِ نَاقَتِهِ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ خَلُّوا فَكُلَّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ أَعْرِفُ حَقَّ اللَّهِ فِي قَبُولِهِ
نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ كَمَا قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: «نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ» إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ لِعِمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ﷺ فِي غَيْرِ هَذَا الْيَوْمِ وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ رَوَاحَةَ إِنَّمَا أَرَادَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكُونَ لَمْ يَقْرُوا بِالتَّنْزِيلِ، وَإِنَّمَا يُقْتَلُ عَلَى التَّأْوِيلِ مَنْ أَقْرَبَ بِالتَّنْزِيلِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٧١-٣٧٢].

النحربين الصفا والمروة ثم الحلق:

وبعد أن أكمل النبي ﷺ الطواف بالبيت، سعى وأصحابه بين الصفا والمروة سبعة أشواط، وكان في سعيه إذا هبط الوادي بين الصفا والمروة يهرول ويهرول معه كل أصحابه الألفين إظهاراً للقوة وإغاظة للمشركين الذين زعمت أبواقهم الدعائية أن الحمى الصفراء قد أنهكت محمداً ﷺ وأصحابه ﷺ حتى أصبحوا ضعافاً منهوكي القوى.

وقد هروا النبي ﷺ وأصحابه طوال الأشواط السبعة بين الصفا والمروة، فكان ذلك سنة من سنن الحج والعمرة.

وقيل: إن سبب الهرولة بين الميلين في السعي هو أن «هاجر» أم سيدنا إسماعيل ﷺ كانت وهي تبحث لرضيعها إسماعيل عن ماء (قبل ظهور زمزم) تهرول كلما هبطت الوادي والله أعلم.

وبعد أن أكمل النبي ﷺ وأصحابه السعي أمر بالهدي - وكان موقفاً عند المروة - فنحره هناك. قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَحَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: طَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّافَا وَالْمَرْوَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَلَمَّا كَانَ الطَّوَافُ السَّابِعُ عِنْدَ الْمَرْوَةِ عِنْدَ فَرَاغِهِ، وَقَدْ وَقَفَ الْهُدْيُ عِنْدَ الْمَرْوَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا الْمَنْحَرُ وَكُلُّ فِجَاجٍ مَكَّةَ مَنْحَرٌ» فَنَحَرَ عِنْدَ الْمَرْوَةِ.

وَقَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: وَكَانَ قَدْ اعْتَمَرَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قَوْمٌ لَمْ يَشْهَدُوا الْحُدْيَةَ فَلَمْ يَنْحَرُوا، فَأَمَّا مَنْ كَانَ شَهِدَ الْحُدْيَةَ وَخَرَجَ فِي الْقَضِيَّةِ فَإِنَّهُمْ شُرْكُوا فِي الْهُدْيِ.

وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهُمْ فِي الْقَضِيَّةِ أَنْ يُهْدُوا، فَمَنْ وَجَدَ بَدَنَةً مِنَ الْإِبِلِ نَحَرَهَا، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ بَدَنَةً رَخَّصَ لَهُمْ فِي الْبَقَرَةِ، فَقَدِمَ فَلَانَ بِبَقَرٍ اشْتَرَاهُ النَّاسُ مِنْهُ.

حَدَّثَنِي حِزَامُ بْنُ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ خِرَاشَ بْنَ أُمَيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَلَقَ رَأْسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ الْمَرْوَةِ. حَدَّثَنِي عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حَبَانَ: أَنَّ الَّذِي حَلَقَهُ مَعْمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَدَوِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٦، ٧٣٧].

قريش تمنع النبي ﷺ من دخول الكعبة:

وبعد أن قضى النبي ﷺ وأصحابه نسكهم بعث النبي ﷺ مبعوثاً يبلغهم رغبته ﷺ في دخول الكعبة فأبوا عليه ذلك بحجة أن بنود صلح الحديبية لا تنص على أن من حق النبي ﷺ أن يدخل الكعبة، فلم يدخلها ﷺ إلا يوم فتح مكة.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ قَالَ: لَمْ يَدْخُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكُعْبَةَ فِي الْقَضِيَّةِ، قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَبَوْا، وَقَالُوا: لَمْ يَكُنْ فِي شَرِّطِكَ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٨].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه قَالَ: اعْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَطَافَ بِالْبَيْتِ، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ، وَمَعَهُ مَنْ يَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَدْخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكَعْبَةَ؟ قَالَ: لَا.

[البخاري في الحج (١٦٠٠)].

وَعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَدْخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْبَيْتَ فِي عُمَرَتِهِ؟ قَالَ: لَا. [مسلم في الحج (١٣٣٢)].

أذان بلال رضي الله عنه من على ظهر الكعبة يغيظ المشركين:

غير أن النبي ﷺ أمر بلال بن رباح رضي الله عنه أن يؤذّن بالظهر من على ظهر الكعبة، ففعل، وقد أعاظ المشركين ارتقاء بلال رضي الله عنه ظهر الكعبة وهتافه من على ظهرها بكلمة التوحيد؛ لأنه - في نظرهم - عبد خفيض المنزلة، ثم إن إعلان كلمة التوحيد من على ظهر الكعبة المحيطة بها - حتى ذلك اليوم - ثلاثمائة صنم اتخذها القرشيون شركاء لله تقربهم إلى الله زلفى، يعتبر احتقاراً لألهتهم وإلغاء لوجودها.

ماذا قال سادات قريش عند سماع بلال رضي الله عنه يؤذّن؟

قَالَ الْوَلَّاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ عُمَرَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَقِيلٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ: لَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُسُكَهُ دَخَلَ الْبَيْتَ، فَلَمْ يَزَلْ فِيهِ حَتَّى أَذَّنَ بِلَالٌ رضي الله عنه بِالظُّهْرِ فَوْقَ ظَهْرِ الْكَعْبَةِ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهُ بِذَلِكَ.

فَقَالَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ: لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ أَبَا الْحَكَمِ (يعني أباه أبا جهل) حَيْثُ لَمْ يَسْمَعْ هَذَا الْعَبْدَ (يعني بلالاً رضي الله عنه) يَقُولُ مَا يَقُولُ!

وَقَالَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ أَبِي قَبْلَ أَنْ يَرَى هَذَا!

وَقَالَ خَالِدُ بْنُ أَسِيدٍ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَاتَ أَبِي وَلَمْ يَشْهَدْ هَذَا الْيَوْمَ حِينَ يَقُومُ بِلَالٌ بْنُ أُمٍّ بِلَالٍ يَنْهَقُ فَوْقَ الْكَعْبَةِ!

وَأَمَّا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَرِجَالٌ مَعَهُ فَحِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ عَطَّوْا وَجُوهَهُمْ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٧-٧٣٨].

زَوَاجُ الرَّسُولِ ﷺ بِمَيْمُونَةٍ:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ مَيْمُونَةَ [فِي عُمَرَةِ الْقُضَاءِ]، وَهُوَ مُحْرِمٌ، وَبَنَى بِهَا وَهُوَ حَلَالٌ، وَمَاتَتْ بِسَرَفٍ. [البخاري في المغازي (٤٢٥٨، ٤٢٥٩)، وفي جزاء الصيد (١٨٣٧)، وفي النكاح (٥١١٤)، ومسلم في الحج (١٤١٠)، وأبو داود في المناسك (١٨٤٤)، والترمذي في الحج (٨٤٢-٨٤٤)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٣٧، ٢٨٤٠، ٢٨٤١)، وفي النكاح (٣٢٧١-٣٢٧٤)، وابن ماجه في النكاح (١٩٦٥)، والدارمي في المناسك (١٨٦٣)، ومسند أحمد ٣/ ٣٩٨ رقم ١٩١٩، ١٣٠/ ٤، ٢٥٥، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧، رقم ٢٢٧٣، ٢٤٣٧، ٢٥٦٠، ٢٥٦٥، ٢٥٨١، ٢٥٨٧، ٢٥٩٢، ١٢٧/ ٥، ١٥٨، ١٧٠، ١٩٨، ٢٢٠، ٢٨٨، ٣٢٠، ٣٤٣، ٣٧٤، ٣٨٤، ٣٨٩، ٣٩٠ رقم

٢٩٨٠، ٣٠٢٩، ٣٠٥٢، ٣٠٧٥، ٣١٠٩، ٣٢٣٣، ٣٢٨٣، ٣٣١٩، ٣٣٨٤، ٣٤٠٠، ٣٤١٢، ٣٤١٣. وقال الترمذي: وفي الباب عن عائشة رضي الله عنها، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم، وبه يقول سفيان الثوري، وأهل الكوفة، وقال أيضاً: واختلّفوا في تزويج النبي ﷺ ميمونة، لأن النبي ﷺ تزوّجها في طريق مكة، فقال بعضهم: تزوّجها حلالاً، وظهر أمر تزويجها وهو محرم، ثم بنى بها وهو حلال بسرف في طريق مكة، وماتت ميمونة بسرف حيث بنى بها رسول الله ﷺ، وذفت بسرف. وعن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه، أنه كان لا يرى بأساً أن يتزوج الرجل وهو محرم، ويقول: إن نبي الله ﷺ، تزوّج ميمونة بنت الحارث براء، يقال له: سرف، وهو محرم، فلما قضى نبي الله ﷺ حجته، أقبل، حتى إذا كان بذلك الماء أعرس بها.

[مسند أحمد ٤/ ٢٩٤ رقم ٢٤٩٢، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري]. قال الحاكم: حدّثنا بصحة ما ذكرته أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا محمد بن إسحاق الصغاني، ثنا وهب بن جرير بن حازم، ثنا أبي، قال: سمعت أبا فرارة، يحدث عن يزيد بن الأصم، عن ميمونة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ تزوّجها حلالاً، وبنى بها حلالاً، بنى بها بسرف، وماتت بسرف في الليلة التي بنى فيها، وكانت خالتي فتزلت في قبرها أنا وابن عباس، فلما وضعناها في اللحد مال رأسها، فأخذت رداي فجمعته فوضعتُه عند رأسها، فأخذَه ابن عباس فرمى به ووضعه عند رأسها كذّانة». قال: «وكانت حلقت في الحج وكان رأسها مجماً وبين سرف ومكة اثنا عشر ميلاً».

[المستدرک على الصحيحين في معرفة الصحابة رضي الله عنه (٦٧٩٧)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقد انطلق هذا الإسناد الصحيح بأن رسول الله ﷺ تزوّجها حلالاً، فلما أخبر عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه فإنها ناطقة أنه ﷺ تزوّجها وهو محرم].

وعن ابن عباس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ نكح وهو محرم»، قال عمرو: قد ذكرته للزهري، ثم قال: يا عمرو، من تراها؟ قلت: يقولون: ميمونة، فقال ابن شهاب: أخبرني يزيد بن الأصم، أن النبي ﷺ تزوّجها وهو حلال، فقال عمرو لابن شهاب: تجعل أعرابياً يقول على عقبه مثل ابن عباس؟! فقال ابن شهاب: هي خالته، فقال عمرو: «هي خالة ابن عباس أيضاً». [المستدرک على الصحيحين في معرفة الصحابة رضي الله عنه (٦٧٩٨)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي].

قال ابن إسحاق: «وحدّثني أبان بن صالح وعبد الله بن أبي نجيع، عن عطاء بن أبي رباح ومجاهد أبي الحجاج، عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ تزوّج ميمونة بنت الحارث في سفره ذلك وهو حرام، وكان الذي روجه إياها العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه».

قال ابن هشام: وكانت جعلت أمرها إلى أخيها أم الفضل، وكانت أم الفضل تحت العباس رضي الله عنه، فجعلت أم الفضل أمرها إلى العباس رضي الله عنه، فزوّجها رسول الله ﷺ بمكة، وأصدقها عن رسول الله ﷺ أربع مئة درهم. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٢].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي حَبِيبَةَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحَصَنِ عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ مِمْوَنَةَ رضي الله عنها وَهُوَ مُحْرِمٌ، فَجَعَلَتْ أَمْرَهَا إِلَى الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه، فَزَوَّجَهَا النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُحْرِمٌ.

حَدَّثَنِي هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ عَطَاءِ الْخِرَاسَانِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ: لَمَّا حَلَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَهَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٧].

قصة عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه:

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدْعُوهُ يَدْخُلَ مَكَّةَ، حَتَّى قَاصَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ كَتَبُوا: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: لَا نَقْرُ بِهَا، فَلَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مَنَعْنَاكَ شَيْئًا [لَمْ نَمْنَعَكَ وَلَبَّيْنَاكَ]، لَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»، ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: «أَمُحْ [مُحَمَّدٌ] رَسُولُ اللَّهِ»، قَالَ عَلِيُّ رضي الله عنه: لَا، وَاللَّهِ لَا أَتُحَوِّكُ [أُخْوَهُ] أَبَدًا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكِتَابَ، وَلَيْسَ يُحْسِنُ أَنْ يَكْتُبَ، [قَالَ: «فَأَرْنِيهِ»، قَالَ: فَأَرَاهُ إِيَّاهُ، فَمَحَاهُ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ]، فَكَتَبَ [مَكَانَ رَسُولِ اللَّهِ]: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، [أَنْ] لَا يَدْخُلَ مَكَّةَ السَّلَاحَ [بِسِلَاحٍ] إِلَّا السَّيْفَ فِي الْفِرَاقِ، وَأَنْ لَا يُخْرِجَ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ، إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ [إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ]، وَأَنْ لَا يَمْنَعَ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا، إِنْ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا». فَلَمَّا دَخَلَهَا وَمَضَى الْأَجَلَ أَتَوْا عَلِيًّا رضي الله عنه، فَقَالُوا: قُلْ لِصَاحِبِكَ اخْرُجْ [فَلْيُخْرِجْ] عَنَّا [فَلْيَرْجُلْ]، فَقَدْ مَضَى الْأَجَلَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «نَعَمْ»، ثُمَّ ارْتَحَلَ.

فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَتَبِعَتْهُمْ ابْنَةُ حَمْزَةَ رضي الله عنه: يَا عَمَّ! يَا عَمَّ! فَتَنَّاوَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ رضي الله عنها: دُونِكِ ابْنَةَ عَمِّكَ، حَمَلَتْهَا، فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيُّ وَزَيْدٌ وَجَعَفَرٌ رضي الله عنه، فَقَالَ عَلِيُّ رضي الله عنه: أَنَا أَخَذْتُهَا [أَحَقُّ بِهَا]، وَهِيَ بِنْتُ [ابْنَتُ] عَمِّي، وَقَالَ جَعْفَرٌ رضي الله عنه: ابْنَةُ عَمِّي، وَخَالَتُهَا نَحْنِي، وَقَالَ زَيْدٌ رضي الله عنه: ابْنَةُ أَخِي.

فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِحَالَتِهَا، وَقَالَ: «الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ [وَالْجَارِيَةِ عِنْدَ خَالَتِهَا، فَإِنَّ الْحَالَةَ وَالِدَةُ]»، وَقَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: «أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ»، وَقَالَ لَجَعْفَرٍ رضي الله عنه: «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي»، وَقَالَ لَزَيْدٍ رضي الله عنه: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا».

وَقَالَ عَلِيُّ رضي الله عنه: أَلَا تَتَزَوَّجُ بِنْتَ حَمْزَةَ؟ قَالَ: «إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ». [البخاري في المغازي (٤٢٥١)، وفي الصلح (٢٦٩٩)، وفي الجزية (٣١٨٤)، ومختصر في الصلح (٢٦٩٨)، وفي جزاء الصيد (١٨٤٤)، وأبو داود (٢٢٧٨) - (٢٢٨٠)، والدارمي في السير (٢٥٠٧)، ومسنند أحمد (٣٠/ ٥٩٤) رقم ١٨٦٣٥، ١٨٦٣٦ عن البراء رضي الله عنه، ٢/ ١٦٠، ٢١٣، ٢٤٩ رقم ٨٥٧، ٩٣١ عن علي رضي الله عنه، ٣/ ٤٨٠ رقم ٢٠٤٠ عن ابن عباس رضي الله عنه].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي حَبِيبَةَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ عُمَارَةَ بِنْتَ حَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأُمُّهَا سَلْمَى بِنْتُ عُمَيْسٍ كَانَتْ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلَّمَ عَلِيَّ رضي الله عنه النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: عَلَامَ نَتْرُكُ بِنْتَ عَمَّنَا يَتِيمَةً بَيْنَ ظَهْرَيْنِ الْمُشْرِكِينَ؟ فَلَمْ يَنْهَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إِخْرَاجِهَا، فَخَرَجَ بِهَا، فَتَكَلَّمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه، وَكَانَ وَصِيَّ حَمْرَةَ رضي الله عنه، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَخَى بَيْنَهُمَا حِينَ أَخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا، ابْنَةُ أَخِي، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ جَعْفَرُ رضي الله عنه قَالَ: الْحَالَةُ وَالِدَةٌ، وَأَنَا أَحَقُّ بِهَا لِمَكَانِ خَالَتِهَا عِنْدِي، أَسَاءَ بِنْتُ عُمَيْسٍ، فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: أَلَا أَرَأَيْكُمْ فِي ابْنَةِ عَمِّي (يريد ألا أراكم تختلفون في أمر ابنة عمي)، وَأَنَا أَخْرَجْتُهَا مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَيْهَا نَسَبٌ دُونِي، وَأَنَا أَحَقُّ بِهَا مِنْكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا أَحْكُمُ بَيْنَكُمْ: أَمَا أَنْتَ يَا زَيْدُ فَمَوَلَى اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَأَمَا أَنْتَ يَا عَلِيُّ فَأَخِي وَصَاحِبِي، وَأَمَا أَنْتَ يَا جَعْفَرُ فَشَيْبَةُ خَلْقِي وَخُلُقِي، وَأَنْتَ يَا جَعْفَرُ أَحَقُّ بِهَا، تَحْتَكِ خَالَتَهَا، وَلَا تُنْكِحِ الْمَرْأَةَ عَلَى خَالَتِهَا، وَلَا عَلَى عَمَّتِهَا»، فَقَضَى بِهَا لِجَعْفَرٍ رضي الله عنه.

قَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: فَلَمَّا قَضَى بِهَا لِجَعْفَرٍ رضي الله عنه قَامَ جَعْفَرُ رضي الله عنه فَحَجَلَ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَذَا يَا جَعْفَرُ؟»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ النَّجَاشِيُّ إِذَا أَرْضَى أَحَدًا قَامَ فَحَجَلَ حَوْلَهُ، فَقِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ تَرَوُّجَهَا، فَقَالَ: «ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ»، فَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَلَمَةَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنه، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «هَلْ جَزَيْتُ سَلَمَةَ؟ (وذلك أنه هو الذي كان قد زَوَّجَ أمه، أم سلمة، النبي ﷺ)».

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٨-٧٣٩].

قريش تطلب من الرسول ﷺ أن يغادر مكة بعد انقضاء المدة:

وبعد أن قام النبي ﷺ وأصحابه ثلاثة أيام في مكة - كما تنص على ذلك بنود صلح الحديبية - بعثت إليه وفدًا من ساداتها ليطلب منه باسمها أن يغادر مكة في الحال، وأبلغته أنها لن تسمح له ولأصحابه أن يبيتوا في مكة أكثر من ثلاث، فلم يبايع ﷺ في مغادرة مكة وفقًا لاتفاقية الحديبية.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقَامَ فِي عُمَرَةِ الْقَضَاءِ ثَلَاثًا.

[أبو داود في المناسك (١٩٩٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: وَادَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى ثَلَاثٍ: مَنْ أَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ لَنْ يَرُدُّوهُ، وَمَنْ أَتَى إِلَيْنَا مِنْهُمْ رَدُّوهُ إِلَيْهِمْ، وَعَلَى أَنْ يَجِيءَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ وَأَصْحَابُهُ، فَيَدْخُلُونَ مَكَّةَ مُعْتَمِرِينَ، فَلَا يُقِيمُونَ إِلَّا ثَلَاثًا، وَلَا يَدْخُلُونَ إِلَّا جَلَبَ السِّلَاحِ السَّيْفِ وَالْقَوْسِ وَنَحْوِهِ. [مسند أحمد ٣٠/ ٦١٩ رقم ١٨٦٨٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ مُعْتَمِرًا، فَحَالَ كِفَارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ، فَخَرَّ هَذِبُهُ، وَخَلَقَ رَأْسَهُ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، وَقَاضَاهُمْ [فَصَالِحَهُمْ] عَلَى أَنْ يَعْتَمِرَ الْعَامَ الْمُقْبِلِ، وَلَا يَحْمِلَ سِلَاحًا [السِّلَاحَ] عَلَيْهِمْ إِلَّا سُيُوفًا، وَلَا يُقِيمُ بِهَا إِلَّا مَا أَحْبَبُوا، فَاعْتَمَرَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَدَخَلَهَا كَمَا كَانَ صَالِحَهُمْ،

فَلَمَّا أَنْ أَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا أَمَرُوهُ أَنْ يُخْرِجَ فَخَرَجَ.

[البخاري في الصلح (٢٧٠١)، وفي المغازي (٤٢٥٢)، ومسند أحمد ١٠/٢٤٦ رقم ٦٧٦٠].

وروى المؤرخون أن وفد قريش جاء إلى النبي ﷺ بعد ظهر اليوم الرابع، وهو مع كبار أصحابه يبادلهم الحديث في خيمة له، فيهم سعد بن عبادَةَ سيد الخزرج ﷺ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَ مَيْمُونَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَقَامَ بِمَكَّةَ ثَلَاثًا، فَأَتَاهُ حُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّهُ قَدْ انْقَضَى أَجْلُكَ فَأَخْرِجْ عَنَّا قَالَ: «وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكْتُمُونِي فَأَعْرَسْتُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ فَصَنَعْتُ لَكُمْ طَعَامًا فَحَضَرْتُمُوهُ؟» قَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِكَ فَأَخْرِجْ عَنَّا، فَخَرَجَ بِمَيْمُونَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَتَّى أَعْرَسَ بِهَا بِسَرَفٍ.

[المستدرک علی الصحیحین فی معرفة الصحابة (٦٧٩٦)، وقال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُعْرَجْ لَهُ (ووافقه الذهبي)، وَمِمَّا يُتَعَبَّجُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَنَى بِمَيْمُونَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ بِسَرَفٍ وَرَدَّهَا إِلَى الْمَدِينَةِ عِنْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ عُمَرَةِ الْقَضَاءِ، وَبَقِيَتْ عَنْدهُ إِلَى أَنْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِفَتْحِ مَكَّةَ، وَقَدْ أَخْرَجَهَا مَعَهُ إِلَى أَنْ فَتَحَ الطَّائِفَ، وَأَنْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَتَتْ مَيْمُونَةَ بِسَرَفٍ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي بَنَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ تَزَوُّجِهَا].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَ مَيْمُونَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ وَهُوَ حَرَامٌ، كَانَ الَّذِي رَوَّجَهُ إِيَّاهَا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ ثَلَاثًا، فَأَتَاهُ حُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ أَبِي قَيْسٍ بْنِ عَبْدِ وَدٍّ بْنِ نَضْرٍ بْنِ مَالِكِ بْنِ حَسَلٍ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي يَوْمِ الثَّالِثِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ وَكَلَتْهُ بِإِخْرَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ قَدْ انْقَضَى أَجْلُكَ فَأَخْرِجْ عَنَّا، فَقَالَ لَهُمْ: «وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكْتُمُونِي، فَأَعْرَسْتُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ وَصَنَعْنَا لَكُمْ طَعَامًا فَحَضَرْتُمُوهُ» فَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِكَ فَأَخْرِجْ عَنَّا، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. [المعجم الكبير للطبراني ١١/١٧٣ رقم ١١٤٠١].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ ثَلَاثًا، فَأَتَاهُ حُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ أَبِي قَيْسٍ بْنِ عَبْدِ وَدٍّ بْنِ نَضْرٍ بْنِ مَالِكِ بْنِ حَسَلٍ، فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ وَكَلَتْهُ بِإِخْرَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّهُ قَدْ انْقَضَى أَجْلُكَ، فَأَخْرِجْ عَنَّا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكْتُمُونِي فَأَعْرَسْتُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ، وَصَنَعْنَا لَكُمْ طَعَامًا فَحَضَرْتُمُوهُ»، قَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِكَ، فَأَخْرِجْ عَنَّا.

فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَلَفَ أَبَا رَافِعٍ مَوْلَاهُ عَلَى مَيْمُونَةَ، حَتَّى أَتَاهَا بِسَرَفٍ (موقع على بضعة أميال من مكة)، فَبَنَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُنَالِكَ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي ذِي الْحِجَّةِ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٧٢].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي عُبيدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الظُّهْرِ يَوْمَ الرَّابِعِ أَتَى سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَحُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى - وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجْلِسِ الْأَنْصَارِ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

- فَقَالَ: قَدْ انْقَضَى أَجْلُكَ، فَأَخْرَجَ عَنَّا! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكْتُمُونِي فَأَعْرَسْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ (يريد إعراسه بزواج ميمونة رضي الله عنها)، فَصَنَعْتُ لَكُمْ طَعَامًا؟» فَقَالَا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِكَ، أَخْرَجَ عَنَّا! نَشْكُكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ وَالْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا خَرَجْتَ مِنْ أَرْضِنَا، فَهَذِهِ الثَّلَاثُ قَدْ مَضَتْ! وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَنْزِلْ بَيْتًا، وَضُرِبَتْ لَهُ قُبَّةٌ مِنَ الْأَدَمِ بِالْأَبْطَحِ، فَكَانَ هُنَاكَ حَتَّى خَرَجَ مِنْهَا، لَمْ يَدْخُلْ تَحْتَ سَقْفِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِهَا.

فَغَضِبَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه لما رأى مِنْ غِلْظَةِ كَلَامِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِسُهَيْلٍ: كَذَبْتَ لَا أَمَّ لَكَ، لَيْسَتْ بِأَرْضِكَ وَلَا أَرْضِ أَبِيكَ، وَاللَّهِ لَا يَبْرُحُ مِنْهَا إِلَّا طَائِعًا رَاضِيًا. فَتَسَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «يَا سَعْدُ! لَا تُؤْذِ قَوْمًا زَارُونَا فِي رِحَالِنَا». قَالَ: وَأُسْكَيْتَ الرَّجُلَانِ عَنْ سَعْدٍ رضي الله عنه.

قَالَ: ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا رَافِعٍ رضي الله عنه بِالرَّحِيلِ، وَقَالَ: «لَا يُمَسِّسَنَّ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٩ - ٧٤٠].

فترك المسلمون مكة جميعهم ولم يبيت بها أحد منهم إطاعة لأمر نبيهم ﷺ، وبات النبي ﷺ ليلتها خارج مكة بسرف، ثم واصل سيره حتى وصل المدينة.

محاولة سفهاء المشركين التحرش بالمسلمين:

وذكر بعض المؤرخين أن قوماً من سفهاء المشركين بمكة تتبعوا بعض المسلمين للتحرش بهم للإيقاع بهم وأخذهم على حين غرة، غير أن أحد الصحابة - وهو أبو رافع رضي الله عنه - صاح بهؤلاء السفهاء منذراً إياهم قائلاً: هذه والله الخيل والسلاح بيطن يأجج، وأنتم تريدون نقض العهد والمدة، فخافوا وولوا راجعين إلى مكة منكسين.

وكان رسول الله ﷺ - كما تقدم - قد حمل معه الخيل والسلاح وترك الجميع بيطن وادي يأجج خارج الحرم استعداداً للطوارئ وترك على الخيل والسلاح هناك مائتين من أصحابه للحراسة، ثم استبدلهم بغيرهم لكي يقضوا مناسك عمرتهم.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلَ سَرِفَ، وَتَتَمَّ النَّاسُ، وَخَلَفَ أَبَا رَافِعٍ ﷺ لِيَحْمِلَ إِلَيْهِ رَوْحَتَهُ (أي: ميمونة رضي الله عنها) حِينَ يُمَسِّي».

وَأَقَامَ أَبُو رَافِعٍ ﷺ حَتَّى أَمْسَى، فَخَرَجَ بِمِيمُونَةَ وَمَنْ مَعَهَا، فَلَقُوا عَنَاءً مِنْ سَفْهَاءِ الْمُشْرِكِينَ، آذَوْا بِالْأَسْتِهَامِ النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالَ لَهَا أَبُو رَافِعٍ ﷺ: «وَأَنْتَظَرُ أَنْ يَنْطَشَ (البطش: الأخذ القوي الشديد. النهاية ٨٣/ ١) أَحَدٌ مِنْهُمْ فَيَسْتَحْلِي بِهِ، فَلَمْ يَفْعَلُوا: - أَلَا إِنِّي قَدْ قُلْتُ لَهُمْ: «مَا شِئْتُمْ! هَذِهِ وَاللَّهِ الْخَيْلُ وَالسَّلَاحُ يَبِطُنُ

يَأْجِجُ!»، وَإِذَا الْخَيْلُ قَدْ قَرَّبَتْ فَوْقَتْ لَنَا هُنَالِكَ وَالسَّلَاحُ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ مَائَتَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ حِينَ طَافُوا بِالْبَيْتِ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى أَصْحَابِهِمْ يَبْطِنُ يَأْجِجُ فَيَقِيمُوا عَلَى السَّلَاحِ، وَيَأْتِي الْآخَرُونَ فَيَقْضُوا نُسُكَهُمْ فَفَعَلُوا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى بَطْنِ يَأْجِجِ سَارُوا مَعَنَا، فَلَمْ نَأْتِ سِرَفَ حَتَّى ذَهَبَ عَامَهُ اللَّيْلُ، ثُمَّ أَتَيْنَا سِرَفَ، فَبَنَى عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَذْلَجَ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ». [المغازي للواقدي ٢ / ٧٤٠-٧٤١].

مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِ فِيهَا حَدَّثَنِي أَبُو عُبَيْدَةَ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٣٧﴾﴾» [الفتح]. [السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٧٢-٣٧٣].

مصادر ومراجع الدراسة:

- أ - كتب السنة: جامع الأصول لابن الأثير (١٦٠٦هـ) ٨ / ٣٤٥-٣٤٨، مجمع الزوائد للهيتمي (٨٠٧هـ) ٦ / ٢١٤، الفتح الرباني للبنا ٢١ / ١٣٠-١٣٢، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢ / ٨٤٩-٨٥٤.
- ب - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مزيات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ٢ / ٦٦٦-٦٧٤، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهديب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢ / ٣٧٠-٣٧٣، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢ / ٧٣١-٧٤١، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢ / ١١٣-١١٥، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣ / ٢٣-٢٦، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤ / ٣١٣-٣٤٠، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢ / ٢٧٢-٢٧٣، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١ / ٤٥٩-٤٦٧، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣ / ٣٧٠-٣٨١، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦ / ٣٧٣-٣٩٦، إمتاع الأسماع للمقرئزي (٨٤٥هـ) ١ / ٣٣٠-٣٣٤، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٥ / ٢٨٨-٣٠٣، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٢ / ٧٧٩-٧٨٦.
- ج - كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢ / ٤٦٤-٤٦٥، صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٧٥-٣٧٨، السيرة النبوية لرزق الله ٥٣١-٥٣٤، السيرة النبوية للصلاحي ٢ / ٤١٥-٤٢٢.
- د - كتب الغزوات والسرايا: غزوة مؤتة لباشميل ٨٦-١١٣.

خرائط غزوة (عمرة) القضيبة (القضاء)

(١)

عمرة القضاء

(ذي القعدة ٧ هـ)

﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ﴾
(الفتح ٢٧/٤٨)

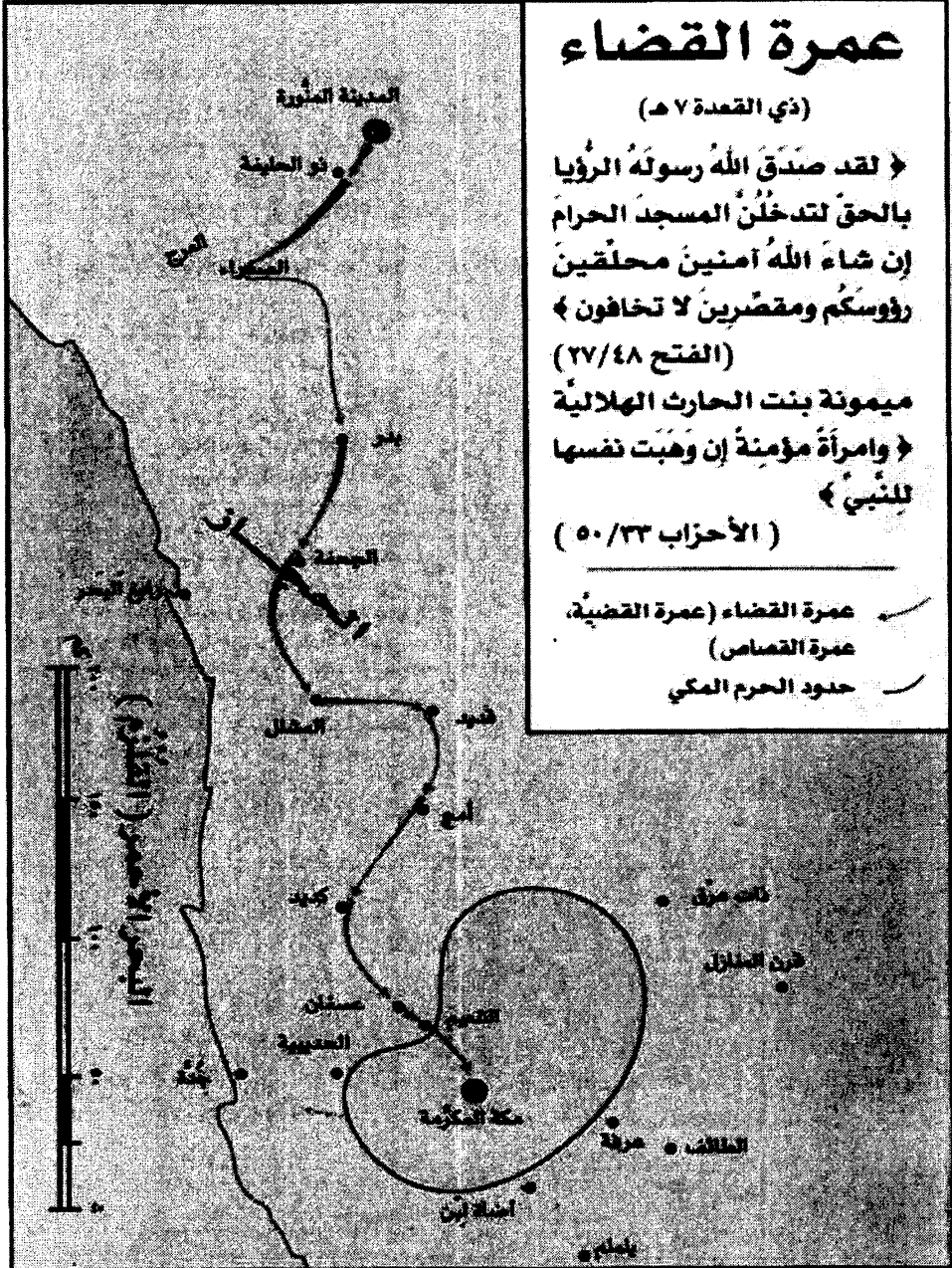
ميمونة بنت الحارث الهلالية
﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ﴾

(الأحزاب ٥٠/٣٣)

✓ عمرة القضاء (عمرة القضيبة،

عمرة القصاص)

✓ حدود الحرم المكي



عُمْرَةُ الْقِضَاءِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ ٧ هـ

لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالْأَنْبَاءِ بِمَا هُوَ بِالنَّبِيِّينَ أَشَدُّ عَلِيمًا ۚ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَمْ يَأْتِ الْغَوْثَ مِنْكُمْ فُرْقَانٌ ۚ كَذِبٌ أَفْكٌ مُذْمُومٌ ۚ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَلَا تَقَعُ بِالْعَنَاءِ لِلَّذِينَ أُخْلِفُوا مِنْكُمْ ۚ فَعَلِمَ اللَّهُ لِقَاءَ رُءُوسِهِمْ يَوْمَ ذَلِكَ ۚ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ ۚ فَلَمَّا كُنُوزُهُمْ مُنْزِلَةً مِنْ رَبِّهِمْ كَانُوا بِالْغَوْثِ الْأُولَىٰ نِعْمًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ

مسيرة الطبع

الرسول صلى الله عليه

وَسَلَّمَ مَعَ أَصْحَابِهِ إِلَى مَكَّةَ فَاصْطَدَّ

العُمره. كما اتفق مع فريش في صلح الحديبية.

حيث اشترطت فريش على المسلمين ألا يدخلوا

مكة بالسلاح إلا السيف في الغراب. وألا يخرج من

ها يلحد إن أراد أن يتبعه، وإلا يمنع الرسول من أصحابه

أين أراد يقيم بها. وقاضاهم أن يقيم في مكة ثلاثة أيام

خرج منها. فطاف المسلمون بالبيت وأمرهم الرسول أن

يروا القوة والجلد في طوافهم لأن فريشاً أشاعت أن

للمين قد أصابهم الوهن من حمى يثرب . فارملوا

ارعدوا بالعدو في الأشواط الثلاثة الأولى. وكانت قریش

فركبت مكة إلى جبل فيعقان تنظر إلى المسلمين

وهم يطوفون بالبيت: بعد أن حقق للمسلمين ما

أرادوا من صلاح الحديبية العظيم !

أرادوا من صلح الحديبية العظيم !

أرض

وادي الضيق

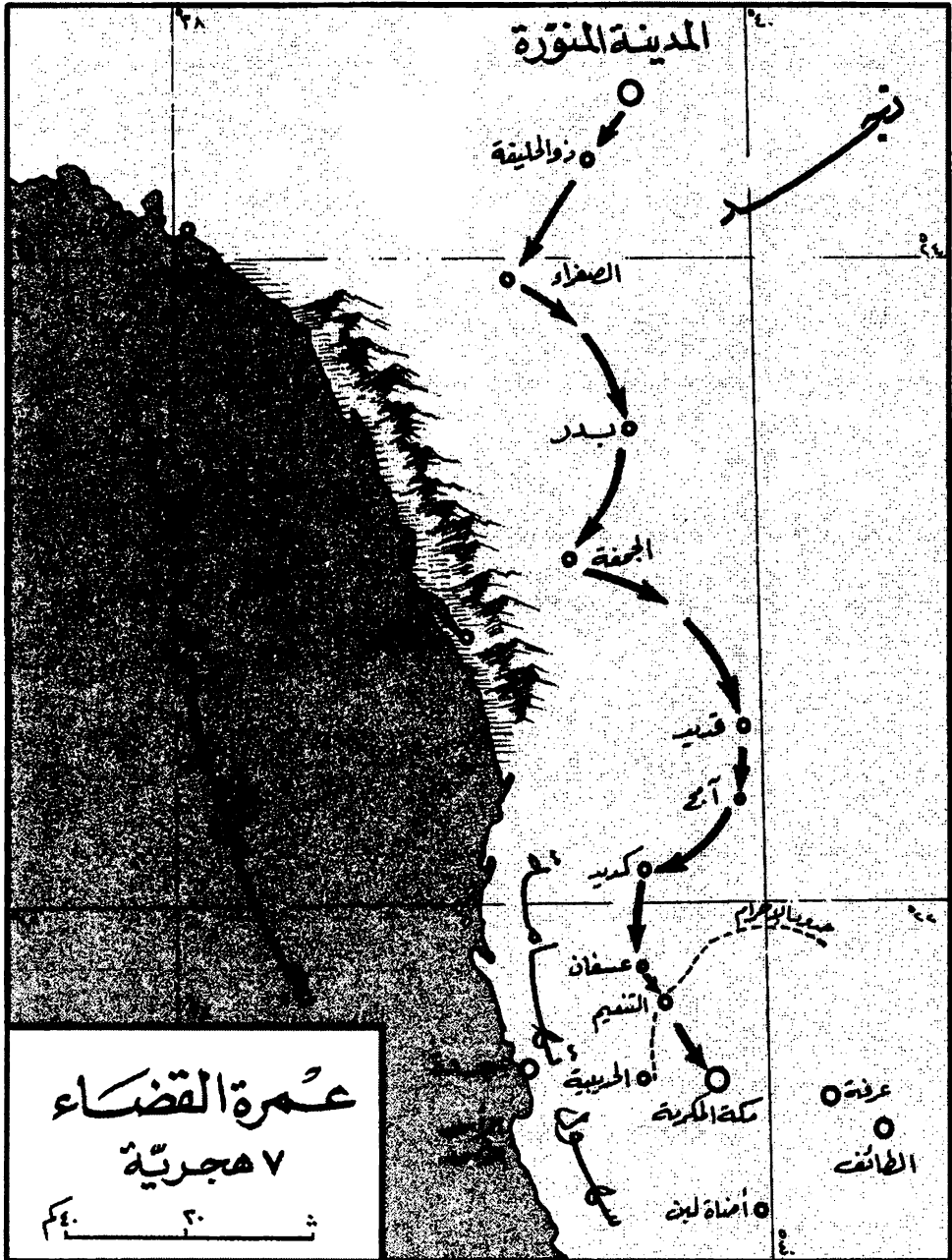
الحجج

مفتیان

مقدمہ

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ١٨٦.

(٣)



السيرة النبوية للندوي ٤٣١.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من
غَزْوَةِ (عُمْرَةِ) الْقُضْيَةِ (القضاء)

١- تسميتها بغزوة:

قال الصالحی: «وَجَّهُوا كَوْنُ هَذِهِ الْعُمْرَةِ غَزْوَةً بِأَنَّ مُوسَى بْنِ عَقْبَةَ ذَكَرَ فِي الْمَغَازِي عَنْ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّهُ ﷺ خَرَجَ مُسْتَعِدًّا بِالسَّلَاحِ وَالْمَقَاتِلَةِ خَشِيَةَ أَنْ يَقَعَ مِنْ قَرِيشٍ غَدْرٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ إِطْلَاقِ الْغَزْوَةِ وَقُوعُ الْمَقَاتِلَةِ.

وقال ابن الأثير رحمه الله في الجامع: هذه العمرة ليست من الغزوات، وذكرها البخاري في الغزوات حيث تضمنت ذكر المصالحة مع المشركين». [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٩٨/٥].

٢- تسميتها بعمرة وأسمائها:

قال الصالحی: «يُقَالُ لِهَذِهِ الْعُمْرَةِ عُمْرَةُ الْقَصَاصِ.

قال السهيلي رحمه الله وهذا الاسم أولى بها لقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ورواه عبد بن حميد بسند صحيح عن مجاهد، وبه جزم سليمان التيمي في مغازيه، وهذه الآية نزلت فيها كما تقدم.

ويقال لها: عمرة القضاء، واختلف في تسميتها بذلك، فقال السهيلي: لأن رسول الله ﷺ قاضى قريشاً عليها؛ لأنه قضى العمرة التي صُدد عن البيت فيها، فإنهم لم تكن فسدت بصددهم له عن البيت، بل كانت عمرة تامة متقبلة، حتى إنهم حين حلّقوا شعورهم بالحل احتملتها الريح فألقته بالحرم، فهي معدودة في عُمَرِ النبي ﷺ.

زاد القاضي (عياض): فالمراد بالقضاء الفصل الذي وقع عليه الصلح؛ ولذلك يقال لها عمرة القضية. قال أهل اللغة: قاضى فلان فلاناً: عاهده، وقاضاه: عاوضه، فيحتمل تسميتها بالأميرين، ويرجع الثاني تسميتها قصاصاً.

وقال آخرون: بل كانت قضاء عن العمرة الأولى، وَعَدَّ عُمْرَةَ الْحَدِيبَةِ فِي الْعُمَرِ لِثَبُوتِ الْأَجْرِ فِيهَا لَا لِأَنَّهَا كَمِلَتْ، وَهَذَا خِلَافُ مَبْنِي عَلَى الْإِخْتِلَافِ فِي وَجُوبِ الْقَضَاءِ عَلَى مَنْ اعْتَمَرَ فَصُدَّ عَنِ الْبَيْتِ. فقال الجمهور: يجب عليه الهدى، ولا قضاء عليه.

وعن الإمام أبي حنيفة رحمه الله عكسه، وعن الإمام أحمد رواية: أنه لا يلزمه هدي ولا قضاء، وأخرى أنه يلزمه الهدى والقضاء، وبيان حجج كل ليس من غرضنا.

وقال ابن إسحاق: تسمى أيضًا عمرة الصلح.

فحصّل من أسائها أربعة: القضاء، والقضية، والقصاص، والصلح.

[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/ ٢٩٧-٢٩٨].

٣ - التعامل مع الكافر بحذر وعدم الاطمئنان إليه:

يقول د/ أبو فارس: «اصطحب النبي ﷺ معه السلاح الكامل، ولم يقتصر على السيوف تحسبًا لكل طارئ قد يقع، خاصة أن المشركين في الغالب لا يحافظون على عهد قطعه، ولا عقد عقده. إن رسول الله ﷺ قد سار ومعه ألفان من المسلمين، ومعهم كامل أسلحتهم من رماح وسيوف ونبال، رغم أن الاتفاق ينص على أن المسلمين لا يصحبون في دخولهم إلى مكة إلا السيوف في أغماها. ذلك لأنه لم يأمن غدر مشركي قريش وخيانتهم، فقد تُسول لهم أنفسهم أن ينصبوا كمينًا أو أكثر للمسلمين ويشنوا عليهم هجومًا مباغتًا، بل لا يأمن بوائقهم وهو يطوف بالبيت ويؤدي النسك. والرسول ﷺ أول مَنْ يفي بهذا العهد والوعد والعقد، ولكنه يعلمنا أيضًا كيف يكون المؤمن حذرًا متحسبًا لكل ما قد يقع من مكروه.

ولقد وثّق رسول الله ﷺ كما علمت، فلم يدخل هو والمسلمون بسلاحهم الكامل الحرم، بل جعلوه قريبًا منهم وعليه الحرس، فكان هذا التدبير منه ﷺ ناجحًا في قطع تفكيرهم بالاعتداء عليه وعلى أصحابه». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٦٧، ٢٧٥].

٤ - الحيطة والحذر مع مراعاة العهود والمواثيق:

يقول د/ الغضبان: «والدرس الجديد الذي تعلمه المسلمون من الحديبية هو أن يأخذوا أهبتهم بسلاحهم الكامل، فقد كادت تُفرض عليهم معركة في الحديبية، وبايعوا على الموت، وهم لا يملكون إلا سيوفهم، وتبقى السيوف سلاح المسافر فقط، لكنها ليست وحدها آلة الحرب، ومن أجل ذلك صدرت أوامر القائد الأعظم ﷺ أن يتجهز المسلمون بسلاحهم كاملاً، كما ذكر عاصم بن عمر قال: (حَمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السِّلَاحَ وَالْيَبْصَ وَالذُّرُوعَ وَالرِّمَاحَ، وَقَادَ مِائَةَ فَرَسٍ).

وكان قائد سلاح الفرسان محمد بن مسلمة ؓ، ومسؤول التسليح بشير بن سعد ؓ، فقد وُزعت المسؤوليات بين قائدين من الأوس والخزرج، وهما مَنْ هما خبرة ودراية وقدرة حربية، وبشير بن سعد ؓ شهدنا كيف استعاد اعتباره في سرية الجناح، وأوقع بعينة بن حصن، وفر منه مذعورًا، وهو العدو المتربص الذي يحرك غطفان كلها ضد المسلمين، فقد كان وجود بشير ؓ على السلاح كله إعلامًا للجيش الإسلامي كله باستعادة بشير بن سعد ؓ لاعتباره بعد محنته التي وقعت به مع بني مرة.

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ قد اختار أن يُقدِّم الفرسان والسلاح أمامه لا أن يخرج الجيش كله مدججاً في السلاح، فحين يرى العرب أن هؤلاء المعتمرين قد أعدوا سلاحهم، وأخذوا أهبتهم سرعان ما يتبادر إلى الذهن أن رسول الله ﷺ قد نقض العهد.

والترية النبوية للأمة كلها مشركها ومسلمها تقوم على أساس مراعاة العهود والمواثيق، وحفظ الذمم، والعرب لا تغفر لمحمد ﷺ نقضه للعهد، ولو فعل ذلك فقد تراجع كثير من القبائل عن الإقدام على العهود معه، خوفاً من أن يغدر بها، ولا بد أن تتعرف العرب على أن هذا النموذج الجديد في الساحة العربية، نموذج يحمل القوة، ويحمل الوعي، ويحمل الأمانة.

يحمل القوة حين قدَّم سلاحه وفرسانه أمامه، فلا يجروُ أحد على مهاجمته. ويحمل الوعي، فلا يعرِّض نفسه للغدر، ولا يعرِّض نفسه للمواجهة وهو بدون سلاح، وليس مغفلاً بحيث يُستدرج إلى معركة بدون سلاح.

ويحمل الأمانة، فهو لم يغدر ولم ينكث، ولم يجعل المعتمرين مقاتلين بأهبتهم الكاملة. والعرب على استعداد أن تنقُص في أي لحظة على محمد ﷺ وهو الذي يحارب عقائدها، ويسفه أصنامها، ويذكر آلهتها بسوء.

إنها الترية المتوازنة التي تجمع بين العبقريّة الحربية، وعظمة العقيدة والالتزام بها، ولا تدع الجيش الإسلامي نهباً للموت في هذه الصحراء المترامية، وهذه القبائل التي يمر عليها الرسول ﷺ هي القبائل المؤهلة للانضمام إلى الإسلام، فهي تقُدس البطولة وتقُدس المروءة، وإن كانت لا تنقيد فيها في كثير من الأحيان.

وعلى تقدير أبي سفيان قائد جيش العدو، أن أكبر طعنة استطاع أن ينفذ فيها إلى النيل من محمد ﷺ عند قيصر هي قوله: (وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُكَيِّ كَلِمَةً أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ). [البخاري في بدء الوحي (٧)].

ولم يستطع أبو سفيان أن يمسك على محمد ﷺ خلال عشرين عاماً مثلبة واحدة ينال بها منه، إلا محاولة التشكيك هذه به بين يدي قيصر.

إن الجانب الخُلقي للجيش المسلم أهم بكثير من الجانب الحربي، ولم تعهد البشرية عامة، ولا العرب خاصة مثل هذه النماذج الربانية التي لا تعرف الحياة سلماً ونهباً فحسب، بل تعرفها قيماً وأخلاقاً، وبطولة، واستقامة.

وشهدنا أبعاد حمل السلاح هذا في الساحة العربية في ثلاثة مواقف:

الموقف الأول: هو التربية التي تربي عليها الجيش المسلم كله، حيث تربي على الوفاء بالعهود والمواثيق سلوكاً وفكراً، إذ القرآن الكريم يريهم على هذه المعاني منذ المرحلة المكية، ومنذ ولادة الدعوة، فهذا جعفر بن أبي طالب ﷺ يُعرِّف الإسلام للنجاشي بقوله: (أَيُّهَا الْمَلِكُ! كُنَّا قَوْمًا عَلَى الشَّرِّكَ نَعْبُدُ الْأَوْثَانَ، وَنَأْكُلُ السَّمِيَّةَ، وَنُسَيِّئُ الْجَوَارَ، وَنَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ وَغَيْرِهَا، لَا نُحِلُّ شَيْئًا وَلَا نُحَرِّمُهُ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا نَبِيًّا مِنْ أَنْفُسِنَا، نَعْرِفُ وَفَاءَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، فَدَعَانَا إِلَى أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَصِلَ الرَّحِمَ، وَنُحْسِنُ الْجَوَارَ، وَنُصَلِّيَ وَنُصُومَ وَلَا نَعْبُدَ غَيْرَهُ...).

[السيرة لابن إسحاق، ن ح د/ محمد حميد الله ص ١٩٥، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٣٦].

وعلى ضوء هذه التربية لم يسكت المسلمون حين رأوا رسول الله ﷺ يحمل السلاح: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! حَمَلْتَ السَّلَاحَ وَقَدْ شَرَطُوا عَلَيْنَا أَلَّا نَدْخُلَ عَلَيْهِمْ إِلَّا بِسِلَاحٍ الْمُسَافِرِ: السُّيُوفُ فِي الْقُرْبِ!

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٣].

فهم أمناء على دعوتهم، وهم حملة رسالة الله تعالى إلى العالمين، فلا يمكن أن يكفوا عن السؤال وهم يعلمون الشرط الذي بينهم وبين قريش، فهي قمة الوعي لهذا الجيل الفريد في التاريخ، قال ﷺ: «إِنَّا لَا نَدْخُلُهَا عَلَيْهِمُ الْحَرَمَ، وَلَكِنْ تَكُونُ قَرِيبًا مِنَّا، فَإِنْ هَاجَنَا (هاجه: حركه، الهيج بفتح الهاء، والتحتية، وبالجميم: الحرب) هَيَّجَ مِنْ الْقَوْمِ كَانَ السَّلَاحُ قَرِيبًا مِنَّا». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٣].

واستمرت التربية النبوية الخالدة بهذا المنحى نفسه، فالشرط سيكون الوفاء به كاملاً، لكن القيادة الواعية هي التي تحسب لكل أمر أهفته، وتتوقع كل الاحتمالات الممكنة، وتتصرف على ضوء هذه الاحتمالات، فما الذي يمنع قريشاً أن تُبَيِّت خطة غدر للمسلمين وهم عَزَل من السلاح، في تواطؤ مع جيرانها من العرب؟!!

وأدرك المسلمون أبعاد النظرة النبوية فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَحَافُ قُرَيْشًا عَلَى ذَلِكَ؟ فَأَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدَّمَ الْبَدَنَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٣].

والخطة النبوية واحدة، فلم يرض أن يركب الخيل ويسوق البدن؛ لأن ركوب الخيل تعني عند العرب الاستعداد للحرب والمواجهة، وهذا ما لحظه ﷺ في أحد حين بعث علياً ﷺ أثر قريش ليتعرف على خطتهم بعد الانسحاب من أحد.

«أُخْرِجَ فِي آثَارِ الْقَوْمِ، فَانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ وَمَا يُرِيدُونَ، فَإِنْ كَانُوا قَدْ جَنَّبُوا الْخَيْلَ وَامْتَطَوْا الْإِبِلَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَكَّةَ، وَإِنْ رَكِبُوا الْخَيْلَ وَسَاقُوا الْإِبِلَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْمَدِينَةَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ أَرَادَوْهَا لَا أَسِيرَنَّ إِلَيْهِمْ فِيهَا، ثُمَّ لَأَنَاجِرِيَهُمْ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩٤، والمغازي للواقدي ١/ ٢٩٧].

الموقف الثاني: هو نزول محمد بن مسلمة ﷺ بالخیل في مر الظهران، ونزول السلاح هناك كذلك، وهو يبعد عن مكة قرابة اثنين وعشرين كيلو مترًا: فَيَجِدُ بِهَا نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، فَسَأَلُوا مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ﷺ فَقَالَ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ يُصْبِحُ هَذَا الْمَنْزِلَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَرَأُوا سِلَاحًا كَثِيرًا مَعَ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ، فَخَرَجُوا سِرَاعًا حَتَّى أَتَوْا قُرَيْشًا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالَّذِي رَأَوْا مِنَ الْخَيْلِ وَالسَّلَاحِ، فَفَزَعَتْ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَحَدُنَا حَدَّثَنَا، وَنَحْنُ عَلَى كِتَابِنَا وَمُدَّتِنَا، فَفِيمَ يَغْزُونَا مُحَمَّدٌ فِي أَصْحَابِهِ؟ وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّ الظَّهْرَانِ، وَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّلَاحَ إِلَى بَطْنِ يَاجِجٍ حَيْثُ يَنْظُرُ إِلَى أَنْصَابِ الْحَرَمِ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٤].

وبطن ياجج على عشرة كيلو مترات من المسجد الحرام، لكنه في الحِل، وهو أقرب إلى مكة من مر الظهران.

وقد تحقق الهدف المقصود من حَمْلِ السلاح وهو فزع قريش، وإلقاء الرعب في صفها، بحيث لا تُسول لها نفسها المواجهة مع محمد وأصحابه، ولم يتكلم محمد بن مسلمة ﷺ، وبشير بن سعد ﷺ شيئًا حين رأوا ذلك النفر من قريش، أنهم لن يدخلوا الحرم بسلاحهم وهم يعرفون ذلك، كل ما قالوه أن مر الظهران هذا حيث الخيل والسلاح للمسلمين، سوف يكون غداً منزل رسول الله ﷺ.

الموقف الثالث: وهي المحاولة السلمية من قريش لصعد النبي ﷺ عن مكة بسلاحه (وَبِعَثَتْ قُرَيْشٌ مَكْرَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ الْأَخْنَفِ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى لَقَوْهُ بِبَطْنِ يَاجِجٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ وَالْهَذْيُ وَالسَّلَاحُ قَدْ تَلَاخَقُوا، فَقَالُوا: «يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا عَرِفْتَ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا بِالْغَدَرِ تَدْخُلُ بِالسَّلَاحِ الْحَرَمَ عَلَى قَوْمِكَ، وَقَدْ شَرَطْتَ أَلَّا تَدْخُلَ إِلَّا بِسِلَاحِ الْمُسَافِرِ: السُّيُوفُ فِي الْقُرْبِ!»).

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٤].

فقد حددوا طبيعة نقض العهد، وهو دخول مكة بهذه الأسلحة، وهم قد قدموا شهادة غالية جداً بين يدي هذا الفرع: يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا عَرِفْتَ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا بِالْغَدَرِ.

وحافظ الرسول ﷺ على هذا المستوى العظيم من الوفاء، وعلى هذا المستوى العظيم من الوعي كذلك، فأجابهم بكلمة حاسمة: «لَا نَدْخُلُهَا إِلَّا كَذَلِكَ».

ثم رجع سريعاً إلى أصحابه بمكة فقال: إِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَدْخُلُ بِسِلَاحٍ، وَهُوَ عَلَى الشَّرْطِ الَّذِي شَرَطَ لَكُمْ.

وحافظت مكة بذلك على هيبتها وسمعتها عند العرب بأنها منعت محمدًا ﷺ أن يدخل مكة بسلاح، حين شرطت عليه ذلك قبل عام، وها هو ينفذ هذا الشرط، فلا يدخلها إلا بسلاح السيوف، ولم تشك

مكة لحظة واحدة في صدق محمد ﷺ، واطمأنت بعد فزع، وعبرت عن شديد حقدها من جهته، وشديد أمنها من جهة ثانية حين غادرت قيادات مكة إلى رؤوس الجبال. ودخلوا مكة، وقالوا: «لَا نَنْظُرُ إِلَيْهِ وَلَا إِلَى أَصْحَابِهِ». [التربة الجماعية للغضبان ١/ ٦٢-٦٦].

٥ - أثر القيادة التعبوية في التأثير في معنويات المشركين:

يقول ل/ خطاب: «واستطاع بشير ﷺ بقيادته التعبوية هذه بإمرة النبي ﷺ، في غزوة من غزواته، أن يؤثر في معنويات قريش، وأن يجعلها لا تفكر بالعدو؛ لأن المسلمين مسلحون، كما استطاع النبي ﷺ أن يطبق مبدأ: الأمن، وذلك بإعداد السلاح لاستخدامه عند الحاجة، في حالة نقض قريش لعهودها، فكان ﷺ كما هو معهود فيه متسماً ببعد النظر، فأدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات، دون أن يغدر أو يفكر بالعدو؛ لأن الوفاء بالعهود من المبادئ الإسلامية الثابتة، ومن تعاليم الإسلام المقررة المعروفة». [قادة النبي ﷺ لخطاب ٣٧٥].

٦ - عمرة القضاء من آثار صلح الحديبية:

يقول د/ عشقي: «تعتبر معاهدة الحديبية من معاهدات الصلح، ومعاهدة الصلح هي اتفاق دولي يُبرم بين الدول المتحاربة، تتعهد هذه الدول بمقتضاه إنهاء حالة الحرب القائمة بينهما على سبيل التآقت أو على سبيل التأييد وتحول الأطراف بموجبها إلى الخيار السلمي. وتتضمن هذه المعاهدات جميع المسائل التي تهم الأطراف المتحاربة، وتحديدها، حسماً للنزاع المستقبلي بينهم».

وقد يسبق معاهدات الصلح اتفاق على هدنة يتوقف بموجبها القتال بين الأطراف المتحاربة خلال فترة معينة.

فإذا كانت معاهدة الصلح تعتبر واحدة من أهم وسائل إعادة السلام وإنهاء حالة الحرب، إلا أن الهدنة تعتبر وسيلة من وسائل الاتصال السلمي بين الدول المتحاربة، شأنها في ذلك شأن وقف القتال، والتسليم.

فالهدنة اتفاق بين حكومات الدول المتحاربة على وقف القتال الناشب بينهم خلال فترة معينة، ومع هذا فإن الهدنة لا تنهي حالة الحرب.

والفقه القانوني يفرق بين الهدنة ووقف القتال، فالهدنة تعتبر اتفاقاً له طبيعة سياسية، مثله في ذلك مثل معاهدات الصلح، بينما وقف القتال، يدخل في اختصاص القادة الميدانيين، كما حدث بين العراق وقادة القوات المشتركة في عاصفة الصحراء، إثر هزيمة القوات العراقية واستسلام القيادة السياسية.

والهدنة لا يترتب عليها انتهاء حالة الحرب، حتى لو نتج عنها إيقاف الأعمال القتالية، وللدول المتحاربة أن تتخذ في فترة الهدنة كل فعل يدخل في إطار سيادتها، لكنها تمتنع عن مباشرة الأعمال الحربية. ومعاهدة الصلح عادة ما تكون نتيجة للمساعي الحميدة لإحدى الدول المحايدة، أو لوساطتها، وتُسمى هذه المساعي (مقدمات الصلح).

فالمساعي الحميدة التي قام بها بديل بن ورقاء سيد خزاعة بين النبي ﷺ وكفار قريش، والوساطة التي بادر بها كل من عروة بن مسعود سيد ثقيف، والحليس بن زبان سيد الأحابيش، وغيرهما، تعتبر من مقدمات الصلح بالمعنى السياسي وليس بالمعنى القانوني؛ لأن مقدمات الصلح القانونية لا بد أن تُسفر عن اتفاقات مبدئية، لكن هذه المقدمات قد أسهمت في تخصيب الموقف المتوتر في الحديبية فتمخضت عنه معاهدة الصلح.

والقانون الدولي لا يقر الطعن في معاهدة الصلح بدعوى أنها تمت تحت تأثير الإكراه المسلح الواقع من الطرف المنتصر؛ لأن هذا الطعن من شأنه إيجاد أوضاع دولية قلقلة على الساحة السياسية، وقد أيدت محكمة العدل الدولية الدائمة هذا العرف فأصبح قانوناً دولياً ساري المفعول.

لقد كانت معاهدة الحديبية صلحاً خالياً من الإكراه، فهي معاهدة سُويت فيها كافة المسائل التي كانت سبباً مباشراً لتسوية حالة الحرب، ومع هذا فإن الأوضاع المستقبلية، لم تنظم في هذه المعاهدة، كما لم تحدد الأوضاع الواجب اتباعها في فترة العلاقات السلمية بين الطرفين.

لقد وقَّي رسول الله ﷺ بما عليه من الالتزامات التي نصت عليها المعاهدة، واستطاع ﷺ أن يقوم بتصفية كافة القواعد اليهودية في كل من خيبر، وتيما، ووادي القرى، وفدك، حال عودته إلى المدينة المنورة، وبهذا أصبحت الجبهة الشمالية آمنة من دسائس اليهود.

بعد تصفية القواعد اليهودية أقام ﷺ بالمدينة المنورة، من جمادى الأولى إلى ذي القعدة، سيرً خلاها بعض السرايا القتالية والاستطلاعية.

بعث أبا بكر رضي الله عنه في سرية إلى بني فزارة، كما أخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سرية إلى (تربة) حيث تواجد قبيلة هوازن قريباً من الطائف، كما سيرَّ عبد الله بن رواحة وبشير بن سعد رضي الله عنهما.

وفي شهر ذي القعدة، خرج رسول الله ﷺ ومن رغب من أصحابه، فخرج معه من كان في عمرته الأولى التي حُبسوا عنها في الحديبية، فكانت هذه العمرة (عمرة قضاء)، وسميت (عمرة القصاص).

كانت العمرة قضاء عما قد أحضر عنه المسلمون عام الحديبية، فقد روي أن أحد الصحابة رضي الله عنه قتل رجلاً من الكفار في الشهر الحرام، فعابه المؤمنون على ذلك فنزل في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ

تُفَنِّئُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ^{١١٩} وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ^{١٢٠} وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ^{١٢١} فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ^{١٢٢} ﴿[البقرة].

فالخطاب في الآيات الكريمة موجّه إلى النبي ﷺ ومن هاجر معه، وإن كان الغرض منه لازماً لكل مؤمن، والضمير عائد إلى من أمر الله بقتله في هذه الآية من أهل مكة، وهم الذين قاتلوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم، وصدوهم عن المسجد الحرام، فالأمر جاء بقتالهم في الحل والحرم في الزمان والمكان.

إن هذه الآية لم تَنسخ الآية السابقة التي تقول: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِيَّائِهِمْ لِيُجِبَ الْمُعْتَدِينَ﴾^{١٢٣} ﴿[البقرة]، بل تؤكد ما جاء فيها من أن قتال الكفار ليس بسبب كفرهم، بل بسبب ظلمهم الذي تمثّل في بدئهم القتال، واعتدائهم على المسلمين، وإخراجهم من بيوتهم وبلادهم، وصدومهم عن البيت الحرام.

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^{١٢٤} ﴿[البقرة]، فالفتن تأتي بمعنى العذاب الدائم كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾^{١٢٥} [التوبة: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾^{١٢٦} ﴿[الذاريات]، ثم قال ﷻ بعدها: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾، أي عذابكم، وبهذا أجاز الله ﷻ إطلاق اسم السبب على المسبب.

أما الفتنة في معناها اللغوي، فهي عرض الذهب على النار لاستخلاص الشوائب منه، والفتنة في الآية هي صد النبي ﷺ وأصحابه ^{رضي الله عنهم} عن المسجد الحرام، فالصد عن المسجد الحرام أشد من قتل المسلمين للكفار في الحرم؛ لأن قريشاً تسعى إلى حرمان المسلمين من عبادة الله وطاعته التي خلق من أجلها البشر. لكن الفتنة في الآية التالية: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾^{١٢٧} ﴿[البقرة: ١٩٣] اختلف معناها، فجاءت بمعنى الشرك؛ لأن ما بعدها دلل على معناها.

عندما أباح الله ﷻ القتال في هذه الآيات، كان القتال في الأشهر الحرم منكراً لدى العرب، لكن الله ﷻ أزال ذلك الإنكار بقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مِّمَّنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^{١٢٨} ﴿[البقرة].

لما وصل رسول الله ﷺ إلى الحديبية قاصداً العمرة في العام السادس للهجرة النبوية، صدّه أهل مكة عن المسجد الحرام، ثم صالحوه وعاهدوه على أن يعود في العام المقبل. وفي العام التالي، وفي الشهر نفسه، دخل ﷺ مكة المكرمة معتمراً، فأنزل الله ﷻ هذه الآية مشيراً إلى أن هذا الشهر بذلك الشهر، فكانت عمرة قضاء، وكانت عمرة قصاص.

يقول الحسن البصري: إن الكفار حينما سمعوا أن الله تعالى نهي الرسول ﷺ عن القتال في الأشهر الحرم، أرادوا هم مقاتلته والتحرش به، ظناً منهم أنه لن يقاتلهم، فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ دِينَكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة].

لقد بينت الآية حكم الله في هذه الواقعة، فأسقط في يد قريش، فاستجابوا للحل السلمي وتم صلح الحديبية.

فإذا كان الشهر الحرم، لم يمنع قريشاً من الكفر والقتال فكيف يصبح الشهر الحرم سبباً في منع القتال من شر كفار قريش وفسادهم؟

وعندما اخترقت قريش هذه الحرمات في السنة السادسة من الهجرة، وفق الله ﷺ المسلمين حتى قضوا على زعم المشركين في السنة السابقة، فقال ﷺ: ﴿وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]؛ لأن الحرمة هي ما منع من انتهاكه، والقصاص هو المساواة.

فقتال الكفار ليس على سبيل انتهاك الحرمات بل على سبيل القصاص، فانتهاك حرمت المنتهك لردعه وعقابه، يصبح احتراماً للحرمات لا انتهاكاً لها، وهذا ما يؤكد بسلامة الفتوى التي صدرت ضد الخوارج الذين قاتلوا وأحدثوا فتنه في المسجد الحرام عام ١٤٠٠ للهجرة برئاسة جهيمان فهزموا بإذن الله وجرى عليهم حد الشرع.

استدار العام، وبنغ هلال ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة، وهو الشهر الذي أقر فيه رسول الله ﷺ صلح الحديبية، فأذن للمسلمين بالعمرة وأمر أن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف إلا من مات أو قُتل.

خرج المسلمون عُمَرَاءَ يحملون السلاح والدروع والرماح، كان على السلاح بشير بن سعد رضي الله عنه، وكان على الفرسان محمد بن مسلمة رضي الله عنه، أما ناجية بن جندب الأسلمي رضي الله عنه فكان على هدي الرسول ﷺ، يسوق ستين بدنة.

لقد أحرم ﷺ من باب المسجد النبوي، وعند ذي الحليفة قدم الخيل، وعندما تساءل المسلمون عن حمل السلاح والشرط على خلاف ذلك، قال لهم: (إِنَّا لَا نَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ الْحَرَمَ، وَلَكِنْ تَكُونُ قَرِيبًا مِنَّا، فَإِنْ هَاجَنَا هَيْجٌ مِنَ الْقَوْمِ كَانَ السَّلَاحُ قَرِيبًا مِنَّا).

فزعت قريش لمقدم الرسول ﷺ بالسلاح، فقالوا: ما أحدثنا حدثاً، وإننا على كتابنا ومدتنا، فقيم يغزونا محمد في أصحابه؟

أوفدت قريش مكرز بن حفص، وهو عضو الوفد القرشي في المعاهدة، فقال: يَا مُحَمَّدُ وَاللهَ مَا عُرِفَتْ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا بِالْغَدْرِ، تَدْخُلُ بِالسَّلَاحِ الْحَرَمَ عَلَى قَوْمِكَ، وَقَدْ شَرَطْتَ إِلَّا تَدْخُلَ إِلَّا بِسَلَاكِ الْمَسَافِرِ السُّيُوفُ فِي الْقُرْبِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَدْخُلُهَا إِلَّا كَذَلِكَ (أي بسلاح المسافر). [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٣، ٦٣٤].

فقال مكرز: هو الذي تُعرف به البرُّ والوفاء. [السيرة الحلبية ٢/ ٧٨٠].

وفي بطن يأجج، أودع رسول الله ﷺ السلاح خارج الحرم، وخلف عليه أوس بن خولي الأنصاري، وثلة من الصحابة.

خرج أكابر القوم من مكة بخروج أبي سفيان، فهم لا يطبقون رؤية المسلمين يطوفون حول البيت وهم أعزة، كما لا يريدون أن يسمعوا أصواتهم وهي ترتفع بالتلبية والتوحيد.

خرج عكرمة بن أبي جهل وهو حائق، بينما خرج خالد بن الوليد بخلاف ما خرج عليه عكرمة، لم تكن مشاعر خالد مع الشائنين، بل كان قلبه يطوف بين المسلمين، لكنه كان يخشى أن تقع عينه على عين أخيه الوليد بن الوليد وهو في صفوف المسلمين، فيضعف ويعلم إسلامه.

دخل النبي ﷺ إلى مكة مارًّا بالحجون، وعبد الله بن رواحة ؓ أخذ بزمام القصواء وهو يرتجز قائلاً:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ	خَلُّوا فَكُلَّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ	أَعْرِفُ حَقَّ اللَّهِ فِي قَبُولِهِ
نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ	كَمَا قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ	وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

ولما أراد أن يعترض عمر بن الخطاب ؓ قال رسول الله ﷺ: يا عمر إني أسمع، ثم التفت إلى ابن رواحة ؓ وقال له: «إيه يا بن رواحة! قل: لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده».

ما إن اقترب رسول الله ﷺ من البيت العتيق حتى أطرق رأسه تواضعًا إلى الله، فكادت جبهته تلامس راحلته؛ لأن العز الحقيقي متعلق بالذل إلى الله، استلم الرسول الركن بمحجنه، مضطبعًا بإحرامه، وطاف والمسلمون معه يطوفون.

وقفت قريش على جبل أبي قبيس، وتناثر البعض على بقية الجبال، فقال قائلهم: إن المهاجرين أوهنتهم حمى يثرب، فأطلع الله ﷺ نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال ﷺ: «رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة».

أخذ المسلمون يرملون في طوافهم الثلاثة أشواط الأولى، ليرى المشركون قوتهم، فقال المشركون بعضهم لبعض: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ إنهم لينفرون نفر الظباء.

ولما كان الشوط السابع، وقف سيد البشر ﷺ عند المروة ثم قال: «هذا المنحر وكل فجاج مكة منحرا»، ونحر ﷺ وحلق، وكذلك فعل المسلمون، وأشار إلى بعض الصحابة بالذهاب إلى (بأجج) ليكونوا مكان إخوانهم على السلاح ويأتي إخوانهم ففعلوا.

عاد ﷺ إلى الكعبة ودخلها واعتلى بلال ؓ ظهر الكعبة ورفع الأذان، فقال عكرمة بن أبي جهل: إن الله أكرم أبا الحكم، حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول.

وبقدر ما كان البشر يغمر قلوب المسلمين، بقدر ما كان الحقد يتأجج في نفوس المشركين، وهنا أدرك الطرفان حكمة الرسول ﷺ وعظمة المعاهدة.

خرج ﷺ من الكعبة وأمَّ المسلمين في الصلاة، وأرهف المشركون آذانهم ليستمعوا إلى القرآن نديًا من رسول الله ﷺ.

ضربت لرسول الله ﷺ قبة بالأبطح ليستريح بها، فقصدها بعد الصلاة، جاء المسلمون المستضعفون بمكة وجاء العباس، فالتفت ﷺ للوليد بن الوليد وقال له: أين خالد؟ فقال الوليد: يأت الله به، فقال ﷺ: ما مثله من يجهل الإسلام.

هفا قلب برة بنت الحارث الهلالية إلى النبي ﷺ فهي أخت أسماء بنت عميس الخثعمية زوج جعفر بن أبي طالب ؓ، وهي أخت سلمى بنت عميس زوج حمزة بن عبد المطلب ؓ، وهي أخت أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب ؓ، كانت أرملة وهي في السادسة والعشرين، مات عنها زوجها، فتطلعت نفسها لتكون أمًا للمؤمنين.

حدثت أم الفضل بما تتمناه، ليكون لبني هلال شرف المصاهرة، كما نالت بنو تميم، وبنو عدي، وبنو أمية، وبنو مخزوم، وهوازن، وبنو أسد ذلك الشرف.

حدثت أم الفضل زوجها العباس بذلك، فأفضى العباس إلى رسول الله ﷺ بأمنية برة بنت الحارث الهلالية، فبعث ﷺ جعفر بن أبي طالب ؓ إليها ليخطبها.

ما إن أبلغها جعفر، حتى انطلقت بغيرها إلى رسول الله ﷺ، وعندما وقعت عيناها عليه قالت: البعير وما عليه لله ورسوله.

لقد وهبت نفسها لله ورسوله، فسمها ﷺ ميمونة، وقبل أن يكثر همس المنافقين حول تهافتها، وما كان إلا تهافتًا على الخير، حتى أنزل الله تعالى في محكم كتابه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عَائِيتُ أَجْرُهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَبَاتٍ عَمَلِكَ وَنَبَاتٍ عَنِيتِكَ وَنَبَاتٍ خَلَائِكَ وَنَبَاتٍ خَلَائِكَ النَّبِيِّ هَاجَرَنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ

عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ [الأحزاب].

في تلك القبة جرت مشاهد عجيبة، كان حكيم بن حزام، قد اشترى حلة سيف بن ذي يزن بثلاثمائة دينار من عكاظ فرغب أن يهديها إلى زوج عمته خديجة، طالما أنه في مكة وبينهم هدنة. ولما قدمها إلى رسول الله ﷺ قال له: «لا أقبل هدية من مشرك»، قرر حكيم أن يتخلص منها فباعها، فدرس رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ﷺ فاشتراها، فلبسها رسول الله ﷺ. نظر حكيم إلى رسول الله ﷺ وقد امتلأت عيناه من جمال الرسول ﷺ ومهابته، فلم يتمالك نفسه أن قال:

ما ينظر الحكام بالفصل بعد ما بدا سابق ذو غرة وحجول

خلع الرسول ﷺ حلة سيف بن ذي يزن وكساها أسامة بن زيد بن حارثة ﷺ، فقال حكيم: بخ بخ يا أسامة، عليك حلة ذي يزن! فقال ﷺ لأسامة: «قل له ما يمنعني وأنا خير منه، وأبي خير من أبيه؟». كانت الأيام الثلاثة حافلة بالعبر مشحونة بالعواطف، دقيقة في الأحداث، كان رسول الله ﷺ يتحدث إلى سعد بن عباد، فجاء إليه سهيل بن عمرو ورئيس الفريق القريشي-المفاوض، ومعه أحد الأعضاء هو حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش فرفع حويطب صوته قائلاً: ناشدتك الله والعقد إلا خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث.

غضب سعد بن عباد لفظاظته وقال: كذبت لا أم لك، ليس بأرضك ولا أرض آبائك، والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «يا سعد لا تؤذ قومًا زارونا في رحالنا». التفت ﷺ إلى حويطب وصحبه وقال لهم: «إني نكحت فيكم امرأة، فما ضرَّ بكم إن مكثت حتى أدخل بها، وأضع الطعام فنأكل وتأكلون معنا!»، فرد عليه قائلاً: لا حاجة لنا في طعامك، اخرج عنا من أرضنا، هذه الثلاث قد مضت.

بعد أن أسكت الرسول ﷺ كل من همَّ أن يرد عليه، أمر أبا رافع أن ينادي بالرحيل، لا يُمس بها أحد من المسلمين، وخلف أبا رافع ليأتي له بميمونة حين يمسي.

طاف المسلمون طواف الوداع وانسحبوا بظهورهم حتى لا يلحقوا مكة بأدبارهم تعظيماً لها، والتف السفهاء حول بعير ميمونة يؤذونها بالستهم، وأخذ أبو رافع يشق بها طريقه وسط الجموع، وما سكتوا حتى قال لهم: هذه والله الخيل والسلاح بطن (يأجج) إن أنتم أردتم نقض العهد والمدة، فانفضوا عنه، ثم عاد أبو رافع فأتى بعمارة بنت حمزة بن عبد المطلب ﷺ بعد أن جاءه أمر من النبي ﷺ بذلك. وتمت العمرة.

لقد جاء رسول الله ﷺ إلى مكة منفذاً للشرط الذي اشترطه على قريش فاعتمر هو وأصحابه. كان ﷺ يعلم أن الصلح يقتضي حسن النية، وحسن النية يقتضي تطبيع العلاقات، لكن التطبيع على الطريقة الإسلامية، يمكنه من أداء العبادة كاملة، ويوصله إلى نشر الدعوة دون مساس بالولاء الذي يجب أن لا يُعرف إلا لله ولرسوله والمسلمين.

لقد رفض ﷺ هدية المشرك، وأرضاه بأن ارتداها بعد أن اشتراها مسلم، لقد كان رسول الله ﷺ يسأل الله ﷻ، قائلاً: «اللهم لا تجعل لكافر عليّ يداً فأحبه».

أراد أن يبقى في مكة ليحتفل بالزفاف من ميمونة فيأكل وتأكل قريش، فلا بأس أن يكون الفضل للمسلم، لكن قريشاً رفضت ذلك التطبيع؛ لأن الحقد لا يزال يملأ النفوس.

إن عمرة القضاء كانت تشريعاً سوياً، وأخلاقاً نبوية، ووفاء بالعهد فهي مدرسة مستقلة ذات منهج متكامل فعلى المسلمين أن يراجعوا تراثهم حتى تتكامل شخصيتهم الإسلامية».

[المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٢٢٩-٢٤١].

٧ - فتح القلوب للإسلام:

يقول د/ الغضبان: «عاد المسلمون من الحديبية بنفوس منكسرة، وقلوب مكلومة، أن صُدوا عن المسجد الحرام، وحِيل بينهم وبين العمرة إلى بيت الله الحرام، وعلى طريق العودة تنزل وحى الله تعالى بهذا الفتح المبين رغم عودتهم خائبين، لكنهم عاشوا مع موعود الله ﷻ لهم: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّسُلَ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح].

وشهدوا الفتح القريب في خير والمغانم الكثيرة التي أخذوها، وراحوا ينتظرون بفارغ الصبر أن يأتي العام القابل الذي يفتح فيه المشركون أبواب مكة على مصراعها لدخول المسلمين، ووعد الله تعالى لهم أنهم سيدخلون آمنين لا يخافون، وأصبحت مكة تعيش في قلوبهم وأرواحهم صباح مساء، في انتظار انسلاخ العام حتي يكحلوا أعينهم برؤية بيت الله الحرام، فقد رأوه في المنام كثيراً، وهم يطمحون اليوم أن يروه بعين اليقظة.

وأهل هلال ذي القعدة، وصدرت الأوامر النبوية إلى رجال الحديبية ونسائها جميعاً أن يتأهبوا للعودة جميعاً، ففي أعناقهم قضاء تلك العمرة التي فاتتهم العام الماضي.

لكن الذي يُلفت النظر هو هذا العدد الضخم الذي أُضيف للمسلمين خلال هذا العام، فبعد أن كان العدد في الحديبية ألفاً وأربعمائة أو تزيد قليلاً، نجد عدد الجيش الإسلامي اليوم يبلغ الألفين أو يزيد،

وهذا يعني انضمام ستمائة مسلم جديد إلى الصف الإسلامي الذي كانت حصيلته خلال قرابة عشرين عامًا ألفًا وأربعمائة، بينما يتجاوز في عام واحد ثلث المسلمين أو يزيد.

وهكذا نرى آثار صلح الحديبية في فتح القلوب للإسلام، وتبدد مشاعر الخوف من مخالفة المسلمين أو الانضمام لهذا الدين الجديد.

فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهَا دَخَلَ فِيهَا، وَهَذَا هُوَ الْهَدَفُ الرَّئِيسُ مِنَ الرِّسَالَةِ النَّبَوِيَّةِ إِلَى الْخَلْقِ، أَنْ تَفْتَحَ الْقُلُوبَ الْغُلْفَ، وَالْأَعْيُنَ الْعَمَى، وَالْأَذَانَ الْبَكْمَ إِلَى هَذَا الدِّينِ، وَيَغْمُرَ نَوْرُهُ الْآفَاقَ وَالْأَبْعَادَ.

ولعل أكبر أحداث هذا العام على الإطلاق هو هذه الإضافة الجديدة إلى الرصيد الإسلامي المذخور بقيادة المصطفى ﷺ، بينما نجد بالمقابل أعداد قريش تتناقص، وشهدنا كيف أن قريشًا رَجَتْ رسول الله ﷺ أن يقبل المستضعفين عنده بعد أن حظرت عليهم ذلك بنص ميثاق الحديبية، وذلك حين استطاع أبو بصير رضي الله عنه وأبو جندل والمسلمون معهم أن ينتزعوا هذا الاعتراف من مكة بقوة السلاح، بعد أن أصبحت تجارة مكة مهددة بالبوار عن طريق الساحل». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ٦١-٦٢].

٨ - كيفية استيعاب العناصر الجديدة:

يقول د/ الغضبان: «بقي أهل الحديبية هم القاعدة الصلبة للمستقبل، فقد حضروا جميعًا خير، وحضروا جميعًا عمرة القضية، ولم يتخلف إلا من مات أو استشهد، وكان هؤلاء الأربعمئة والألف هم الرصيد المذخور والركيزة الإسلامية للجيش الإسلامي.

ورغم ارتفاع عدد الجيش إلى الألفين في عمرة القضية، أي بزيادة ثلاثين في المائة على القاعدة الصلبة، فقد أمكن استيعاب هذه العناصر الجديدة، ورفعها إلى المستوى الإسلامي المطلوب، ولم تشهد عمرة القضية ولا مخالفة واحدة من أحد.

وكان على جيل الحديبية أن يستوعب هذا الجيل الرافد ماديًا ومعنويًا، يستوعبه ماديًا فيهيئ له نفقته، كما ذكر حاضروا المدينة من الأعراب: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا لَنَا مِنْ زَادٍ، وَمَا لَنَا مَنْ يُطْعِمُنَا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْ يَتَصَدَّقُوا، وَالْأَيُّكُمْ فِيهِلِكُوا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! بِمِ نَتَصَدَّقُ وَأَحَدُنَا لَا يَجِدُ شَيْئًا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِمَا كَانَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِمَشْقَصِ الْمَشْقَصِ: نَصْلُ السَّهْمِ إِذَا كَانَ طَوِيلًا غَيْرَ عَرِضٍ. النِّهَايَةُ ٢/ ٢٣٠) يُجْعَلُ بِهِ أَحَدُكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وعليهم أن يستوعبوه معنويًا، فيقوموا بتربيتهم التربية المطلوبة، ليتمثلوا الإسلام بهذه السرعة ويرتفعوا إلى المستوى الإسلامي المطلوب». [التربية الجهادية للغضبان ٢/ ٤٥٤-٤٥٥].

٩ - من ثمرات الثبات على العقيدة:

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن أكمل النبي ﷺ وأصحابه استعدادهم تحرك الرسول الأعظم ﷺ بأصحابه من المدينة يضجون بالتلبية والتكبير والتهليل.

فكان مظهرًا يهز المشاعر، ويستقطب ذكريات الماضي، فتعج بها النفوس المؤمنة في اعتزاز مشوب بلذة النصر الرائع (الرائع جدًا)، الذي هو حصيلة الثبات على العقيدة الحقّة، والصبر أمام الأعاصير الهوج التي هبت - أيام الاستضعاف - على النفوس المؤمنة، عندما كان أصحابها في مكة قبل الهجرة، قلة قليلة يتعرضون لضروب من الإرهاب والترجيع والقتل - أحيانًا - تحت وطأة التعذيب الوحشي الممجى، فيصمدون رغم ذلك صمود الرواسي أمام أعتى العواصف.

فيا للثمر البانح الخصب يجنيه الصامدون وراء متاريس العقيدة الحقّة الصلبة لمواجهة تيارات البلايا والمحن.

فها هم طريدو الأمس الذين تعرضوا للظلم والاضطهاد والتعذيب - وهم قلة قليلة - على أيدي كثرة غاشمة كافرة متغترسة، ها هم الذين خرجوا - قبل سبع سنوات مستخفين خائفين - تاركين مكة فرارًا بدينهم، وخوفًا من بطش الوثنية وفتك الشرك، ها هم يتحركون اليوم من مركز القوة، في اعتزاز المؤمن وثقة المسلم؛ ليدخلوا مكة مرفوعة رؤوسهم، دون أن يجرأ أحد من أعدائهم وجلادهم بالأمس أن يفكر - مجرد تفكير - في اعتراض سبيلهم، فضلًا عن الاعتداء عليه، كما يفعل بالأمس وقبل سبع سنوات».

[غزوة مؤتة لباشميل ٩٤-٩٥].

١٠ - الوفاء بالعهد:

يقول د/ أبو فارس: «إن الأعداء والخصوم على ما هم فيه من الحقد والكره لرسول الله ﷺ قد أقروا بهذه السجية وهذا الخلق، لقد أقروا بذلك نتيجة تعايش معه قبل بعثته ﷺ، وتعامل طويل بعد البعثة، وعراك شديد وصراع عنيف دام بعد الهجرة إلى المدينة المنورة وإقامة الدولة الإسلامية.

تأمل معي قولهم للرسول ﷺ: يَا مُحَمَّدُ! وَاللَّهِ مَا عُرِفْتَ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا بِالْغَدْرِ.

أقول: لقد كان عند هؤلاء بقية من خلق أن يعترف الرجل لعدوه بصفات حميدة، ومن هذا القبيل ما أخبر به أبو سفيان - وهو على كفره - هرقل ملك الروم من أخلاق الرسول ﷺ فشهد له بالصدق، والبعد عن الكذب، وأقر أنهم ما جربوا عليه كذبة واحدة.

إن الرجولة تقتضي أن يعترف الرجل لخصمه بما هو عليه من خصال حميدة، ولكننا نعيش في زمان لا يكتفي الإنسان بالتجاوز عن ذكر الحسنات لخصمه، بل يفترى عليه، ويقلب الحقائق ويزيفها، وإن

القلب ليتفطر حزناً حين يرى المسلمين في خصوماتهم يبلغون مبلغاً لا يكاد الإنسان يتصوره، ويركبون مركباً صعباً جداً في منازعاتهم، يتعدى كل القيم والموازين الشرعية، ينكر كل طرف أي فضل للطرف الآخر، ويتجاوز إلى قلب الحقائق وتشويهها، كل ذلك عائد إلى عدم الحياء من الله، وقلة محاسبة النفوس، وفي الحديث: «إِنَّ مِمَّا أَذْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأَوَّلَى إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ [فَأَفْعَلْ] مَا شِئْتَ» [البخاري في الأدب (٦١٢٠)، وفي أحاديث الأنبياء (٣٤٨٣، ٣٤٨٤)، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٩)، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٣)، وأحمد في المسند ٢٨/٣١٨، ٣٢٥، ٣٣٢ رقم ١٧٠٩٨، ١٧٠٩٩، ١٧١٠٧، ٣٣/٣٧ رقم ٢٢٣٤٥...].

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٧٥-٢٧٦].

١١ - التلبية شعار المحرّمين:

يقول د/ أبو فارس: «هذه التلبية الجماعية التي تعج أصوات المسلمين بها، والتي لم تنقطع منذ أن أحرّموا واستمرت حتى دخلوا مكة، وبعد دخولها، ماذا تعني؟ وما مغزاها؟

إنها تعلن التوحيد وترفع شعاره.

إنها تعني إبطال الشرك وإسقاط رايته.

إنها تعلن الحمد والثناء على الله الذي مكّنه من أداء هذا النسك.

إن هذا الشعار يذكّر المسلمين بنعم الله الكثيرة التي توجب الشكر عليهم، إنهم يشكرون الله على أن هداهم للإيمان، ووفقههم بأن يسرّ لهم الأمن والأمان وهم سائرون في طريقهم إلى البيت العتيق، وله الشكر على ما أقدرهم عليه، وما هم فيه من الخشوع والسداد والرشاد». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٧٧].

١٢ - ألا تستبذ بالدعاة نزوات العواطف:

يقول د/ أبو فارس: «لقد لفت نظري، واسترعى انتباهي، طواف رسول الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ، وصلاته في ظل الكعبة وحولها أصنام كثيرة وبداخلها صور الشرك المختلفة، أتى اتجه وفي أي مكان جلس وجد الأصنام أمامه وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، كيف لا؟ إنها مئات الأصنام وفي كل ناحية.

ومع هذا كله لم تذكر لنا كتب السيرة أو السنة النبوية الشريفة أن رسول الله ﷺ أو أحداً من أصحابه رضي الله عنهم قد مدوا أيديهم إلى صنم جهراً أو سراً لرحزته عن مكانه قيد أنملة، فضلاً عن كسره وتحطيمه، على حين أننا نعلم أن دعوته قامت على التوحيد ومحاربة الشرك والوثنية، ولاقى ما لاقى في سبيل إثبات التوحيد وإبطال الشرك.

لقد قام هذا التساؤل في نفسي عن الحكمة من هذا الصبر وعدم التعرض لهذه الأصنام في ذلك الوقت؟

إنه مما لا شك فيه أن الرسول ﷺ ملتزم ببنود الصلح، ومن ثمَّ فليس له أن يتصرف بشيء مما في البيت أو حول الكعبة؛ لأنها لغاية الآن تحت قبضة المشركين.

ولكنني أحسب - والله ﷻ أعلم - أن هناك حِكْمَةً من وراء ذلك، ولعل الحكمة من وراء ذلك فيما نحسب - والله ﷻ أعلم - أنه لا بد من الصبر والاستمرار في طريق التغيير حتى تُحطَّم الأصنام في الوقت المناسب، وأن هذا الوقت الذي طاف به المسلمون لم يكن هو الوقت المناسب لتحطيم هذه الأصنام. إن تحطيم الأصنام الحقيقي الذي ينبغي أن يركَّز عليه هو إقناع الناس بأن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع، ومن ثم لا تستحق العبادة والتكريم، بل تستحق الكسر والتحطيم.

ولقد جاء الوقت المناسب لتحطيم هذه الأصنام وتطهير البيت الحرام منها، يوم أن دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحًا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فبنذوا عبادة الأصنام من قلوبهم وعقولهم ونفوسهم، فحُطِّمت بعد ذلك دون جهد جهيد أو عناء شديد، لقد قَلَّ المتاجرون بها أو انعدموا، فليس هناك مبرر يستدعي وجودها.

أقول: إن الدعاة إلى الله ﷻ في عصرنا هذا، وفي كل عصر ومصر يستطيعون أن يستفيدوا من سيرة النبي ﷺ وتخطيطه في إبطال عبادة الأصنام دروسًا كثيرة بالغة الأهمية.

إن الدعاة إلى الله العزيز الحميد قد يرون ما لا يرضون، ويسمعون ما لا يحبون، ويشاهدون من وسائل الانحراف والجاهلية في السلوك والاعتقاد ما تقشعر لهوله الأبدان، وتشيب لهوله الولدان، ومع هذا فعليهم أن يعملوا بإخلاص وتجرد، وعلى الدوام على تغيير الأنظمة الجاهلية.

ولكن عليهم - وهم يعملون - أن يحذروا التسرع والانفعال، عليهم أن يفكروا كثيرًا، وألا تستبد بهم نزوات العواطف، وتهيمن عليهم عوامل الهوى والانتقام، عليهم ألا يستعجلوا إلى قطف الثمرة قبل نضجها، فإن المرء إذا استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

عليهم أن يعملوا وفق طريق واضح، مرسوم المعالم والخطوات، وله من الوسائل والأساليب ما يناسب هذه الخطوات، وعليهم أن يدركوا أن التخطيط العميق الشامل والتنفيذ الدقيق الكامل والعمل المتواصل في هذه المراحل هو الموصل إلى الهدف المرسوم والمروم.

عليهم أن يلجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأن يعملوا بصمت وهدوء وروية بطريقة مرضية، وعليهم أن يتحلوا بالصبر، حتى يُسْقَطُوا الأصنام الحجرية والشجرية والبشرية، ﴿وَيَقُولُوا مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ﴿٥١﴾ [الإسراء].

إن طريق التغيير طويل، إنه طريق الجهاد بالنفس والمال والوقت والجهد والراحة، ألا فليعمل العاملون المجاهدون المخلصون، وفقَّ الله الجميع لما يحبه ويرضاه، ورزقنا الإخلاص جميعاً في القول والعمل، وكتب لكلامنا القبول، والأثر المحمود في قلوب الناس ونفوسهم، إنه نعم المولى ونعم النصير، وبالإجابة جدير». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٧٨-٢٨٠].

١٣ - سلامة القائد مهمة:

يقول د/ أبو فارس: «إن سلامة القائد تُدخل في النفوس السكينة، وتُسكب في القلوب العزائم العالية، والمعنويات القوية؛ لأنه الرأس المدبر والعقل المفكر للجيش، وفي هذا الوقت ذاته إنَّ تعرُّض حياته للخطر له أثر في النفوس والقلوب والعزائم، وهذا الأثر سلبي، لا يخفى هذا على كل ذي بصر وبصيرة.

لهذا كان المسلمون في عمرة القضاء يحرصون حرصاً شديداً على سلامة الرسول ﷺ، فكانوا يحرسونه حراسة شديدة، كان ألفان من الرجال الأشاوس والأبطال الأكارم يلتفون حول رسول الله ﷺ وهو يطوف، وهو يسعى، فلا يخلو الحرم، ولا تخلو مكة من إنسان حاقده عليه - وما أكثر الحاقدين - أن يستغل وجوده وهو يطوف فيوجه إليه سهماً مسموماً، لكن أتى لهذا السهم أو مائة سهم أن تصل إليه وقد التفت حوله هذه السدود البشرية، ولو فكَّر شقي من الأشقياء بالوصول إلى الرسول ﷺ فإن هذه الجماهير تحول دونه ودونه الاقتراب منه فضلاً عن الوصول إليه.

وهم أيضاً بحاجة إلى سلامة القائد حتى يعلمهم أمر دينهم، ويتلقى الوحي من ربهم، ويكمل لهم الدين عن رب العالمين.

وهم الآن يؤدون نسكاً لأول مرة بعد الهجرة، والرسول ﷺ يقوم بالنسك ثم هم يقتدون به بعد ذلك، إنهم بحاجة إلى أن يتعلموا منه الطواف وشروطه وآدابه والسعي وأحكامه وسائر أفعال النسك حتى يطبقوه كما فعله، ثم ينقلوه إلى غيرهم من الناس». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٨٠-٢٨١].

١٤ - استحباب إظهار قوة المسلمين وجلدهم أمام الكافرين:

يقول د/ أبو فارس: «أخذنا هذا من أمر الرسول ﷺ الصحابة رضِيَ عنهم بالاضطباع عند الطواف، والهرولة في الأشواط الثلاثة الأولى، حتى يرى المشركون قوتهم، فيرد ما توهموه من ضعف بالمسلمين قد أشاعوه، ويرد كيدهم إن فكروا باستغلال الضعف الذي توقعوه فيطمعوا بالاعتداء على المسلمين.

ولقد حقق الله ﷻ ما أحب رسول الله ﷺ وما أراد، فلقد زعم المشركون أن المسلمين ضعاف مهزابل، قد أنهكتهم حُمى يثرب، فهم مرضى لا طاقة لهم على الحركة، فكيف طاقتهم على القتال؟

وأشاعوا ذلك، واصطف المشركون لينظروا إلى هؤلاء الضعاف في زعمهم، وإذا بهم أجلد من أهل مكة المقيمين.

نعم إظهار قوة المسلمين مستحبة لأنها تقوي معنويات المسلمين، وتبطل كيد الكافرين».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٨١].

١٥ - إغاضة الكفار والمشركين ومكايدتهم مستحبة:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ هذا الأمر من سنة النبي ﷺ وحرصه على مكايده المشركين في كل موقعة ومناسبة حتى يموتوا بغيظهم».

وفي غزوة أحد نجد الرسول ﷺ يأذن لأبي دجانة سمالك بن خرشة ؓ أن يمشي متبخرًا أمام المشركين لإظهار عزة المؤمن؛ ولأن ذلك يغيظ المشركين، وزيادة في إغاضتهم كان يلبس العصاة الحمراء دون أن ينكر الرسول ﷺ ذلك.

وفي غزوة الحديبية نجد الرسول ﷺ يسوق مع الهدي جل أبي جهل الذي غنمه في بدر؛ ليراه المشركون فيتميزوا غيظًا حين يذكرون مصارع قتلاهم وذل أسراهم.

وها هو ذا ﷺ يأمر المسلمين في عمرة القضاء بإظهار التجلد والهرولة لإغاضتهم ومكايدتهم ورد كيدهم في نحورهم.

ولا غرو أن نسمع ابن قيم الجوزية رحمه الله يقول: (وكان رسول الله ﷺ يكيد المشركين بكل ما يستطيع). [ينظر: زاد المعاد ٣/ ٣٧١].

إنها حرب نفسية يشنها الرسول ﷺ على المشركين، حتى لا تقوم لهم قائمة، ولا يقوى لهم جناح، بل يبقى جناحهم مهبطًا.

إن للحرب النفسية من الآثار ما لا تقدر عليه جيوش جرارة بأسلحتها الثقيلة المتطورة.

هذا ما توصل إليه القادة العسكريون في العصر الحديث، ويعد أن استخدم ذلك الرسول ﷺ بقرون عديدة، وأقوال العسكريين الغربيين كثيرة في هذا المجال ^(١).

(١) وإليك أقوال بعض أهل الاختصاص في هذا المجال:

قال رومل الألماني: (إن القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم).

قال الجنرال ديجول: (لكي تنتصر دولة ما في حرب عليها أن تشن الحرب النفسية قبل أن تتحرك قواتها إلى ميادين القتال، وتظل هذه الحرب تساند القوات حتى تنتهي مهماتها).

قال تشرشل: (كثيرًا ما غيرت الحرب النفسية وجه التاريخ).

هذه الأقوال أخذت من كتاب: اقتباس النظام العسكري في عهد الرسول ﷺ ص ١٤٧.

وأقول أيضًا: إن الشعر الذي كان يقرضه عبد الله بن رواحة رضي الله عنه بين يدي رسول الله ﷺ على مرأى ومسمع من المشركين كان حربًا نفسية شديدة، وفيه إغاطة للمشركون ومكايدتهم؛ لأنهم يكرهون التوحيد، ويكرهون الرسول ﷺ، ولا يريدون الحق، وشعر ابن رواحة رضي الله عنه يُطري بعقيدة التوحيد، ويلتزم بها ويذم مخالفتها، ويثني على رسول الله ﷺ، ويسعى لإظهار الحق، وهم على النقيض مما قاله وعمل له. لقد كان لشعر ابن رواحة رضي الله عنه أثر أشد إيلامًا عليهم من طعنات الرماح، وضربات السيوف، ورمي السهام.

وزيادة في المكايدة يأمر رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أن يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، نَصَرَهُ عَبْدُهُ، وَأَعَزَّ جُنْدُهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»، ويكرر المسلمون هذه العبارات معه بشكل جماعي، والمشركون يسمعون، لا شك أن هذه العبارات قد حرّكت في أنفسهم شعور الخيبة والخسارة والألم حين يسمعون «نَصَرَهُ عَبْدُهُ، وَأَعَزَّ جُنْدُهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»، وقرّيش قيادة الأحزاب».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٨١-٢٨٣].

ويقول د/ الوكيل: «أقام الرسول ﷺ بمكة ثلاث أيام حسب شروط الاتفاق، وأخلّى لهم أهل مكة البلد الأمين، وتجوّل فيه أصحاب الرسول ﷺ من الأنصار والمهاجرين فشفوا أنفسهم، ومتّعوا أنفسهم برؤية الكعبة المشرفة، وقد حرص الرسول ﷺ على أن يظهر لهم كل ما يغنيهم، ويفتت أكبادهم، حرص على أن يظهر لهم قوة المسلمين فأمرهم بالهرولة في الطواف، وحرص على أن يعلن كلمة التوحيد فأذن بلال رضي الله عنه فوق الكعبة، وحرص على إظهار فرحه وغبطة أصحابه، فأعلن زواجه ﷺ من ميمونة بنت الحارث.

وأمن في إغاثتهم وطلب من أهل مكة أن يقيم بها فوق الثلاث ليوم ويطعمهم من وليمة عرسه، فلم تطق قريش صبرًا على كل هذا، فأرسلت إليه، إنه قد انقضى أجلك، فاخرج عنا، فقال لهم ﷺ: «وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكَتُمُونِي فَأَعَرَسْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، وَصَنَعْنَا لَكُمْ طَعَامًا فَحَضَرْتُمُوهُ»، قَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِك، فَأَخْرَجَ عَنَّا». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ٢٣٢].

١٦ - الحفاظ على سمعة المسلمين المعنوية والمادية:

يقول د/ الحميدي: «في تصرف النبي ﷺ الذي واجه به دعايات الأعداء المغرضة حينها وصفوا المسلمين بالضعف، حيث أمر النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بأن يجروا مسرعين في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، وقال في ذلك: «رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا أَرَاهُمْ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً».

وهذا التصرف الحكيم يبين لنا أهمية الحفاظ على سمعة المسلمين المعنوية والمادية؛ لأن شعور الأعداء الثابت بقوة المسلمين يجعلهم يعيشون دائمًا في رُعب من المسلمين، فإذا فكروا في غزوهم ترددوا في ذلك كثيرًا، وإذا عزموا وغزوهم ضعفوا أمامهم ولم يشتبوا عند لقاءهم.

وقد أراد زعماء الأعداء أن يتهزوا هذه الفرصة ليرسّخوا في أذهان أتباعهم ضعف المسلمين فقوّت عليهم رسول الله ﷺ هذه الفرصة حينما أمر أصحابه رضي الله عنهم بسرعة السير في الطواف).

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٨٦/٧].

١٧ - التكافؤ والتوازن في العرض:

يقول د/ الغضبان: «وحتى لا تُفسّر مكة لين رسول الله ﷺ بالضعف يوم يعرض البقاء في مكة وأن يولم لأهلها بعرض بين ظهرانيهم، لم ينس ﷺ إبراز مظاهر القوة، ومن أجل هذا قال لصحبه: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأًا أَرَاهُمْ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً» وأمرهم أن يهرولوا أثناء طوافهم لتحطيم مقولة قريش: (إنه يقدم غدا قوم قد وهنتهم الحمى ولقوا فيها شدة).

ولم يكتف ﷺ بذلك بل أباح لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه أن ينشد ضمن إطار عرض القوة:

خَلَوْا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ [تَأْوِيلِهِ]
ضَرْبًا يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

وَقَالَ لِعُمَرَ رضي الله عنه: «خَلَّ عَنْهُ يَا عُمَرُ! [فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَلَامُهُ] فَلَهِيَ [فَلَهُو] أَسْرَعُ فِيهِمْ [أَشَدُّ عَلَيْهِمْ] مِنْ نَضْحِ [وَفَعِ] التَّبَلِ».

[الترمذي في الأدب (٢٨٤٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٣، ٢٨٩٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

إنه التكافؤ والتوازن في العرض، للموادعة والقوة بوقت واحد، بحيث تبقى نفوس أهل مكة يسيطر عليها الخوف والذعر، ولكن دونما مساس بالعهد والميثاق، ووفاء كامل بالتزاماته وإشعارهم أنه قادر على النقص والنكث، والوفاء بالبنود ليس عن عجز ولا عن ضعف، ولكنه عن مبدأ ودين وعقيدة.

إنها التربية للخصم والصادق، والتربية للعدو والخليف، والتربية للمسلمين وخصومهم على سواء، وهكذا يكون ظهور هذا الدين وهذه الرسالة، وهكذا يكون استعلاؤه، وذلك بتطبيق مبادئه وليس بسحق خصومه، بجلاء هذه القيم، ورؤية التطبيق العملي له؛ ليربح أنصارًا جددًا وجنودًا جددًا، لا ليبعد أعداء، ويحرق الأخضر واليابس فيهم فيهلك الحرث والنسل». [التربية الجهادية للغضبان ٤٦٠/٢].

١٨ - جواز قول الشعر في الحرم:

يقول د/ أبو فارس: «فقد كان ابن رواحة رضي الله عنه يرتجز الأبيات من الشعر، وهو يقود ناقة الرسول ﷺ والرسول ﷺ يركبها، فلم ينكر عليه، بل أقره على ذلك.

وكذلك يجوز قول الشعر في أي مسجد؛ لأنه إذا جاز للمسلم أن يقول الشعر في المسجد الحرام، وفي ظل الكعبة، وهي أكثر بقعة في الأرض مقدسة فمن باب أولى أن يقرض الشعر في غيرها.

وينبغي أن ننبه هنا إلى أن الشعر الذي يجوز قرضه في المساجد هو الشعر الملتزم بأحكام الإسلام وأخلاق النبوة، ليس فيه فحش القول، ولا بذاءة اللسان، ولا ميوعة ولا تخنث.
[غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٨٣].

١٩ - جواز الذكر الجماعي:

يقول د/ أبو فارس: «فقد قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وقال الناس معه: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، نَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»، حدث هذا والنبي ﷺ بين ظهرانيهم، فأقرهم ولم ينكر عليهم. ويؤيد هذا قول الرسول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةٌ يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ، تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ» [البخاري في الدعوات (٦٤٠٨)].
[غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٨٣-٢٨٤].

٢٠ - الأذان يغيظ الكافرين:

يقول د/ أبو فارس: «نعم إن الكافر إذا سمع الأذان لا يطيق سماعه، وهذا ما حدث مع قادة قريش: صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وخالد بن أسيد. والسؤال الذي يطرح نفسه على بساط البحث: لم كره هؤلاء الأذان؟ نعم إن الأذان صرخة التوحيد المدوية، وقوة العقيدة المعبرة عن أصالتها وإنسانيتها وحبها للخير للناس. والأذان يؤكد ما اعترض عليه المشركون من أن يكتبوا في صلح الحديبية: محمد رسول الله، وإذا بهذه العبارة تشق كبد السماء، وتقرع آذان الألوفا من الرجال والنساء والصبيان من أهل مكة، كان ذلك في الحرم، وعلى ظهر الكعبة، والمشركون خارج الحرم. والأذان ثورة اجتماعية إصلاحية تقود البشرية إلى النجاح والفلاح والفوز، وربما طرقت أسماع بعض المشركين الذين حُجب عنهم نور الدعوة بفعل الإرهاب والاستبداد، فدعتهم للتدبر في الأمر. لهذه الأسباب كرهت قريش وزعمائها خاصة أن يُرفع الأذان من على ظهر الكعبة بهذا الصوت الندي الذي يرقق القلوب ويحيي النفوس. لقد خشي هؤلاء أن يتأثر بهذه الكلمات الرجال والنساء والصبيان، فتضايقوا كثيرًا وطالبوا محمدًا ﷺ بالرحيل». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٨٤].

٢١ - إشعار العدو بعزة الإسلام واستعلائه:

يقول د/ الغضبان: «وهي هي الحرب النفسية بين الفريقين، ومكة تريد أن تُشعر محمد ﷺ أنها لا تعباً به، فلم تتجمع لمواجهته بعد أن أطمأنت إلى أنه لن يدخل الحرم بالسلاح، وهو مثل بقية العرب الذين

يأوون إلى البيت فيؤدون نسكهم ويمضون، لكن مخبرات النبي ﷺ وعميق نظرتة، تدرك ما وراء هذه المظاهر، صحيح أن قريشاً لم تتجمع حول البيت، وتحقق بمحمد ﷺ لكن نظرة إلى الأفق، تبين أن قريشاً قد تجمعت في رؤوس الجبال تود أن تشهد هؤلاء الوافدين الجدد على أرض العرب، وكيف يكبر عددهم، ويضخم تجمعهم، وتزداد قوتهم وشكيمتهم، وقد أدرك المسلمون جميعاً بحسهم الأمني العالي أن قريشاً سوف لا تأبه بهم بحجة حمى يثرب التي أوهنتهم وأضعفتهم، ومن أجل ذلك مرت هذه العملية في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهم على الطريق، وسواء ذلك للعرب جميعاً أو لقريش خاصة «لَمَّا نَزَلَ مَرَّ الظَّهْرَانِ فِي عُمَرَتِهِ بَلَغَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ قُرَيْشًا تَقُولُ: مَا يَتَّبَعُونَهُ (يقومون) مِنْ الْعَجْفِ (الهزال والضعف الحاصل بالجوع والمرض)».

فكيف بلغ هذا الأمر رسول الله ﷺ؟ لا شك أنه قد بلغه من عيونه المباشرة في قريش، تسمع منهم ما يدور في مجالسهم، وانتشر هذا الخبر في الجيش الإسلامي «فَقَالَ أَصْحَابُهُ: لَوْ أَنْتَحَرْنَا مِنْ ظَهْرِنَا، فَأَكَلْنَا مِنْ لَحْمِهِ، وَحَسَوْنَا (شرينا) مِنْ مَرَقِهِ، أَصْبَحْنَا غَدًا حِينَ نَدْخُلُ عَلَى الْقَوْمِ وَبِنَا جَمَامَةً (بقية من قوة)».

إنه الجيش الذي مر عليه قرابة عشرة أيام وهو ماضٍ في هذه الصحراء المحرقة، يتوق إلى وجبة دسمة من اللحم والشحم يتناولها؛ ليكون أقوى له على مواجهة العدو، ولكن الإبل التي معه محدودة وموزعة بين الهدى الذي يسوقونه إلى الحرم للذبح، وبين الإبل المعدة للركوب في الذهاب والإياب، وحيث لا يجوز ذبح الهدى قبل أداء النسك، فالأمر الطبيعي إذن أن ينحر من الظهر ليتقوى بها الجيش، وهذا ليس أمراً سهلاً، فحتى يتم إطعام هذا الجيش وليوم واحد لابد من ذبح قرابة عشرين بدنة لتطعم هؤلاء الألفين وجبة واحدة، وذلك قياساً على ما قدره رسول الله ﷺ من عدد المشركين في بدر، «فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمْ الْقَوْمُ؟»، قَالَا: كَثِيرٌ، قَالَ: «مَا عَدْتُمُ؟»، قَالَا: لَا نَدْرِي، قَالَ: «كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟»، قَالَا: يَوْمًا تِسْعًا، وَيَوْمًا عَشْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقَوْمُ فِيمَا بَيْنَ التَّسْعِمَاتِ وَالْأَلْفِ».

[السيرة النبوية لابن هشام ١/٦١٦].

وحين تبتعت شهوات البطون على اللحم والشحم، فما هو الذي يصدها عنه؟ وقد لا تألف بعدها زاد التمر، والسويق وغيره.

ولو أصبح الطعام اليومي هو الإبل، فهذا يعني أن الظهر سوف يفنى، ويعجز كثير من المسلمين عن العودة إلى المدينة، حين فقدوا دواب ركوبهم، والتخطيط الحربي لا يتناسب معه أبداً أن يبطر الجيش في البداية، ثم لا يجد بعدها قوتاً يأكله، ولا ظهر يركبه، ولا بد للحرب من اقتصاد يناسبها؛ ولهذا رفض رسول الله ﷺ هذا الحل مع قناعته بضرورة قوة المسلمين أمام عدوهم، «قَالَ: «لَا تَفْعَلُوا، وَلَكِنْ اجْمَعُوا لِي مِنْ أَرْوَادِكُمْ»، فَجَمَعُوا لَهُ، وَبَسَطُوا الْأَنْطَاعَ، فَأَكَلُوا حَتَّى تَوَلَّوْا، وَحَتَّى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي جَرَابِهِ».

وكانت بركة النبي ﷺ بهذا الزاد الذي فاض، وتزود منه كل مسلم بما يملأ جرابه، وهي واحدة من المعجزات التي كانت ترافق النبي ﷺ، والمسلمون معه، ليشهدوا معية الله معهم في كل لحظة وأنهم مسندون بعون الله ورعايته، وأنهم فئة خاصة من دون الناس ذات صلة وثيقة بالله ﷻ، وكأنها يعيشون معه ليل نهار، ولا يغيب عن قلوبهم لحظة واحدة.

المرحلة الثانية: وذلك حين تحرك الجيش قاصداً مكة، فقد اختار رسول الله ﷺ أن يدخل مكة راكباً على ناقته القصواء، والمسلمون محذقون به، وقد توشحوا سيوفهم، لكن هذا المنظر لا يكفي لاستجاشة أهل مكة جميعاً، فلا يبلغهم إلا صوت مشي الإبل، ولا قعقة في السلاح، وقد لا يلتفت لوصولهم أحد، وحين أطل رسول الله ﷺ على مكة، حبس الهدي في ذي طوى، ثم مضى إلى الثنية التي تطلعه على الحجون، ارتفع هدير عبد الله بن رواحة ؓ، وهو أخذ بزمام القصواء ناقة النبي ﷺ، وهو يقول:

خَلَّوْا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ [تَأْوِيلِهِ]
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فلا بد أن تسمع قريش لهجة الحرب من الفدائيين المسلمين، يدعونهم إلى فتح الطريق أمام كتائب الإيمان التي سبق وجربها الأعداء من الكفار، حين كان النزال في الحرب، وما يوم بدر منهم ببعيد، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿فَاصْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ﴿١٣﴾ [الأنفال].

لكن هذا القتال كله ليس من أجل القتال والسيطرة وإظهار القوة، إنه قتال المستضعفين في الأرض الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، قتال الأسود التي تود أن تسترد عربنها الذي أغتصب منها، وما هي الآن تدخل هذا العرين بعد أن أدت الثمن غالباً من الأرواح والدماء والجراح، وعلى الكفار أن يخلوا سبيل المؤمنين أمام بيت الله الحرام، وبلد الله الحرام، والهدف بعد هذا كله هو سيادة كتاب الله تعالى، وسيادة شريعته، فما كان القتل ابتداءً إلا في سبيل الله:

قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ بِأَنَّ خَيْرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ
نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ كَمَا قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ

[كما أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري. فتح الباري ٧/ ٥٠١].

وها هو يدعوهم بعد تلك المعارك الضارية على الله ورسوله:

خَلَّوْا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ أَنَا الشَّهِيدُ أَنَّهُ رَسُولُهُ
قَدْ نَزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ فِي صُحُفٍ تُنْتَلَى عَلَى رَسُولِهِ
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ أَعْرِفُ حَقَّ اللَّهِ فِي قَبُولِهِ

وعمر رضي الله عنه يرى الشعر في الحرم وهو مكان العبادة والتنسك، وكاد القوم أن يصلوا إلى المسجد الحرام، فقال لابن رواحة رضي الله عنه: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ يَبْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي حَرَمِ اللَّهِ تَقُولُ [هَذَا] الشَّعْرُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «خَلَّ عَنْهُ يَا عُمَرُ! [فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَلَامُهُ] فَلَيْهِ [فَلَهُوَ] أَسْرَعُ فِيهِمْ [أَشَدُّ عَلَيْهِمْ] مِنْ نَضْحِ [وَفَعِ] النَّبْلِ».

فهي الحرب النفسية التي تفوق الحرب العسكرية، وما هذا الشعر الذي يرمي به ابن رواحة رضي الله عنه إلا أشد من النبل عليهم كما قال ﷺ، حتى ولو كان الشعر في حرم الله تعالى، وبين يدي رسول الله ﷺ، فهو عند العرب أشد مضاء من السيف وآلم وقعاً من النبل.

ثم كان النشيد الجماعي بعد ذلك تجاوبت به أرجاء مكة وجنابتها: «يَا ابْنَ رَوَاحَةَ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، نَصْرَ عَبْدِهِ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»، فقالها ابْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه، فقالها النَّاسُ كَمَا قَالَ.

[الطبقات لابن سعد ٢/١١٤].

وهي تعيد إلى الأذهان هزيمة الأحزاب في الخندق، وكيف نصر الله عبده محمد ﷺ بقوة من عنده وحده ﷻ، لا بقوة المؤمنين، ولا بسلاحهم.

فهو عرض حي لتاريخ دام بين الفريقين، انتهى بأن آوت مكة إلى بيوتها تاركة الزحف الإسلامي تحت راية التوحيد يخترق مكة في بيوتها وأزقتها وشعابها، هو تحديد مرحلة جديدة من التعامل بين الفريقين، وانتصار حاسم لعقيدة التوحيد في قلب مكة، حيث تفتح أبواب الحرم أمامها، دون أي اعتراض. المرحلة الثالثة: وكانت في قلب هذه الحرب النفسية في داخل المسجد الحرام وحول الكعبة المشرفة، والمشركون على رؤوس الجبال، وكلهم يتلمظ حقداً على هؤلاء المسلمين، ويمني نفسه الأمانى أنهم ضعاف مهازيل لا بد أن ينتهوا في يوم من الأيام، وبحركة عظيمة نبوية غزا هذه القلوب الواجفة وحطمها للمرة الثالثة، بعد رجز بن رواحة، وبعد توحيد الجيش كله.

(فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ اضْطَبَعَ بِرِدَائِهِ، وَأَخْرَجَ عَصَدَهُ الْبُنْمَى، ثُمَّ قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا أَرَاهُمْ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً»، وفي رواية: «أَرَوْهُمْ مَا يَكْرَهُونَ»، وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ، وَيَمْسُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ؛ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ جَلْدَهُمْ، ثُمَّ اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، وَخَرَجَ يُهْرُولُ وَيُهْرُولُ أَصْحَابُهُ مَعَهُ).

فالمشركون وقد تجمعوا على جبل قعيقعان، فلا يرون من طرف الركنين أحداً، إنما يرون من جهة الحجر؛ ولهذا كان الرمل قائماً في جميع الجهات إلا جهة الركنين، حيث يمشون مطمئنين هناك.

وتحقق الهدف كاملاً من التنفيذ الدقيق للمهمة (وَخَرَجَ يُهْرُولُ وَيُهْرُولُ أَصْحَابُهُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا وَارَاهُ الْبَيْتُ مِنْهُمْ، وَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ الْبَيْانِيَّ، مَشَى حَتَّى يَسْتَلِمَ الرُّكْنَ الْأَسْوَدَ، ثُمَّ هَرَوْلَ كَذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ، وَمَشَى سَائِرَهَا).

قال ابن عباس: (وَلَمْ يَمْنَعُهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِبْقَاءَ عَلَيْهِمْ).

فلو فعل ذلك لسقط بعضهم إعياءً ولفات المصلحة من ذلك، وكان أثر هذه العملية الاستعراضية أمام المشركين أن راحوا يهزؤون من أنفسهم قائلين وقد أكل قلبهم الحقد: (هَؤُلَاءِ أَجْلَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا)، (مَا يَرْضُونَ بِالْمُثْنِيِّ، إِنْهُمْ لَيَنْقُرُونَ نَقْرًا: وثب) (نَقَرَ الطَّبَّاءُ). (وَكَانَ ﷺ يَكِيدُهُمْ بِكُلِّ مَا اسْتَطَاعَ).

حتى في العبادة، وفي مواجهة المشركين، وفيما يتقرب به الناسك إلى ربه، لابد من إشعار العدو بعزة المسلم وقوته واستعلائه، وليس هذا من باب الرياء في شيء، فهو يريد ﷺ لهذا العدو أن يستسلم لله ﷻ، ولا يستعلي بقوته وبطشه وكبريائه، وينضم للإسلام دون إراقة دم، فهو الرحمة المهداة للبشرية كلها وللعالمين بأسرهم». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ٦٦ - ٧٠].

٢٢ - النصر العظيم:

يقول أ/ باشميل: «وأي نصر ألد وأعظم للطريد الذي أكره - في ظل الإرهاب الدموي القاتل - على ترك وطنه الأول ومسقط رأسه، من أن يعود إلى هذا الوطن مرفوع الرأس عزيز الجانب، يتجول بين منازل أعدائه الألداء الذين طاردوه بالأمس في عناد ووحشية وقسوة لقطع رأسه، يتجول بين منازلهم دون أن يجروا على التفكير - مجرد التفكير - في اعتراض سبيله فضلاً عن التفكير في مسه بأي أذى، بعد أن كانت لهم - قبل سبع سنوات - القدرة الكاملة على قتله لو تمكنوا من العثور عليه وهو يغادر مكة محبطاً بذلك مؤامراتهم التي حاكوها في دار الندوة، والتي كانت تستهدف حياته لئلا يلجأ إلى أنصاره الأبطال في المدينة، والذين هم اليوم - يوم عمرة القضية - وكل أيام الصراع الذي خاضه ضد الشرك والوثنية العمود الفقري لقواته المسلحة التي يعتمد عليها لكسب المعارك.

فما أشدها وألذها ثمار النصر التي يجنيها الصابرون المؤمنون الصامدون في سبيل الله.

حقاً لقد كان يوماً تاريخياً خالداً، ذلك اليوم الأغر الذي دخل فيه محمد ﷺ وأصحابه مكة، وموطن الروعة هنا هو أن محمداً ﷺ يدخل اليوم مكة غير هيّاب ولا وجل، يدخلها في ألفين من أصحابه على كره من قريش الكفر، وبعد غيبة قهرية دامت أكثر من سبع سنوات، بذلت فيها قريش كل إمكاناتها المادية والبشرية للقضاء على النبي ﷺ وإطفاء نور دعوته.

وخاضت بقواتها المسلحة أعنف المعارك مستهدفة تحطيم الكيان الإسلامي واقتلاع جذور عقيدة التوحيد من نفوس المؤمنين.

ولكن الفشل كان نصيبها في كل محاولاتها - سواء على الصعيد العسكري أم السياسي.

وما قبول قريش بدخول النبي ﷺ وأصحابه مكة معتمرين على تلك الصورة المذلة لكبرياء الوثنية، واضطرارها إلى اللجوء إلى رؤوس الجبال والاعتصام بها طيلة الأيام الثلاثة التي أقامها المسلمون بمكة، إلا المسار قبل الأخير في نعش الوثنية التي كان دخول النبي ﷺ في عشرة آلاف من أصحابه مكة فاتحين - بعد ثمانية أشهر فقط من تاريخ هذه العمرة - هو المسار الأخير في نعش هذه الوثنية حيث - بتحرير الجيش النبوي لمكة - أهيل التراب - نهائياً - على خرافة الشرك والشركاء التي ظلت تتحكم في العقول بمكة حول الكعبة أكثر من أربعة آلاف سنة». [غزوة مؤتة لباشميل ١٠٢-١٠٣].

٢٣ - يوم حاسم في تاريخ الإسلام:

يقول أ/ باشميل: «إن يوم دخول النبي ﷺ وأصحابه الكرام مكة لعمرة القضاء هو بحق يوم حاسم في تاريخ الإسلام؛ لأنه يوم انتصف فيه المسلمون من المشركين الذين ظلوا طيلة أكثر من سبع سنوات يصرون على حرمان المسلمين - دون سائر العرب - من الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة بغياً وعدواناً.

سلوك المسلمين الذي أدهش قريش: وزاد من روعة ذلك اليوم الأغر في تاريخ الإسلام، وأثار أكثر من سؤال في نفوس العقلاء من قريش، ذلك السلوك المدهش الرفيع الذي بدا على أصحاب محمد ﷺ، والمتمثل في ذلك النظام الرائع الذي كان عليه هؤلاء الأصحاب، وتلك الوحدة المتناسكة المكيئة التي انتظم عقدها في سلك التوحيد، فلم يكن بينهم وهم يحيطون بنبيهم العظيم ﷺ سائرين في اتجاه المسجد الحرام، أي أثر لفوضى الوثنية وعنجهية الجاهلية وخفة واستخفاف القبلية التي عرف بها العرب قبل أن يكرمهم الله بالإسلام.

لقد أحال الدين الحنيف الذي اعتقدوه فوضاهم إلى نظام وانضباط، وشتاتهم إلى وحدة، وتباغضهم إلى تسامح وتآخي، فها هم يسرون خلف نبيهم العظيم ﷺ، وكأنهم أسرة واحدة، لا بغضاء ولا شحناء، ولا حقد ولا ضغينة، بل محبة وإخاء، وتعاضد وصفاء.

إن من يوازن بين ماضي أصحاب محمد ﷺ يوم أن كانوا مشركين وبين حاضرهم بعد أن أصبحوا مسلمين، لا يكاد يصدق أنهم هم الذين كانت تحكمهم العدوات والبغضاء والمشاحنات، تصدر تفكيراتهم عن جاهلية وحشية رعناء.. «ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً وأن يبغي بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهة أن تأكل من طعامه» من كلام المغيرة بن شعبة لقائد الفرس رسم.

[البداية والنهاية لابن كثير ٤٣/٧].

اندهاش القرشيين: وعلى تلك الهيئة من السكينة والوقار والضبط والانظام، واصل الموكب النبوي تحركه من الحجون منحدرًا نحو المسجد لأداء مناسك العمرة والإقامة في مكة الحبيبة إلى قلوب المسلمين ثلاثة أيام كما تنص على ذلك بنود صلح الحديبية التاريخي.

وبينما كان سادات مكة على تلك الدهشة التي انعقدت لها ألسنتهم لما رأوا من انقلاب عظيم في سلوك أصحاب محمد ﷺ تحول كامل، من أقصى الانحراف والانحطاط، إلى أعلى درجات السمو والاستقامة وحسن السلوك.

وبينما سادات قريش مندهشون هكذا يكادون يتهمون أبصارهم فيما تراه من حال المسلمين إذ بجبال مكة تهتز - وكأنها تشارك المسلمين فرحتهم بدخول مكة على ذلك النحو من العزة والأمن والاطمئنان - فما كادت أعين المسلمين تقع على بيت الله المعظم - الذي حُرِّموا النظر إليه ست سنوات كاملة - حتى دوت أصواتهم (لييك اللهم لييك. لييك لا شريك لك لييك. إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك).

فكادت عقول أساطين الشرك تزيغ لمنظر المسلمين الرائع ذاك، حتى لقد خيّل لسادات مكة لشدة الاندهاش أن الجبال التي لجأوا إليها - لئلا يروا محمدًا ﷺ وأصحابه ﷺ - تليي مع المسلمين. وواصل الموكب النبوي تحركه نحو المسجد وسادات مكة ينظرون من مخابثهم في جبال مكة - المطلة على المسجد - بعيون تكاد تقفز من محاجرها لشدة غليان الحقد في تلك القلوب التي لم يكن الإسلام قد لامسها وطهرها، من رجس الشرك وندس الوثنية». [غزوة مؤتة لباشميل ١٠٣-١٠٥].

٢٤ - عمرة القضاء أول انتصار معنوي للمسلمين:

يقول أ/ باشميل: «لقد كان قيام النبي ﷺ بأداء مناسك العمرة على تلك الصورة المهيبة التي دخل بها النبي ﷺ وأصحابه مكة، التي لا تزال حتى تلك السنة تحت سلطان المشركين، كان أداء النبي ﷺ وأصحابه العمرة في تلك الفترة وعلى تلك الصورة، أول نصر معنوي عظيم، تسجله الدعوة الإسلامية على باطل المشركين الذين ظلوا يحاربونها بكل إمكاناتهم المادية والمعنوية والإعلامية طوال عشرين عامًا، فقد كان أحد من المسلمين عقب هجرتهم من مكة لا يستطيع مجرد الاقتراب من هذه المدينة المقدسة؛ لأن ذلك يعني قتله أو حبسه وتعذيبه حتى الموت.

ولكن ها هو محمد ﷺ يجمع أنف كبرياء الشرك فيدخل مكة - رغم أنوف أساطين الوثنية - في ألفين من أصحابه متقلدين سيوفهم وعلى أتم استعداد لقطع يد، بل رأس أي إنسان يفكر في أن يمد يدًا بأي أذى إلى نبيهم الحبيب ﷺ الذي ما كانت قريش الكفر تتصور أنه - وهو الذي خرج من مكة خائفًا يترقب

وحيداً ليس معه سوى صاحبه الوفي الصادق الصِّدِّيق ﷺ - سيدخل مكة مرة أخرى، وفي هذه الهيئة العظيمة المهيبة، يحيطه ألفان من رجال أعطوا العهد على أن يبذلوا أرواحهم رخيصة للذود عنه والدفاع عن دعوته». [غزوة مؤتة لباشميل ١٠٥].

٢٥ - قد تُحْدِثُ الدَّعْوَةُ بِالْأَعْمَالِ، مَا لَا تُحْدِثُهُ الدَّعْوَةُ بِالْأَقْوَالِ:

يقول د/ فيض الله: «ربما كانت هذه العمرة المباركة فاتحة انتصار الإسلام، والبشرى بالفتح الأعظم، على أنها لم تكن غزوة، لكنها كانت نُسْكَاً وطاعة، أحدثت صدى ضخماً في أوساط قريش، وأحدث تحولاً في القلوب، وتغييراً في أفكار المشركين، وجرت إلى الصف المسلم ثلاثة من كبار المشركين؛ هم: خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعثمان بن طلحة حارس الكعبة نفسها ﷺ، ومهدت السبيل أمام الآخرين من المشركين للدخول في الإسلام، متخذة من هؤلاء الثلاثة البارزين أسوة وقدوة.

ولا شك أن الرسول ﷺ لم يقيم بأي نشاط إيجابي قولي في الدعوة أثناء عمرته هذه، فما نقلت إلينا كتب السيرة التي بين أيدينا شيئاً من ذلك، وكل ما فعله في تلك الثلاثة الأيام نُسْكٌ صحيح، وعبادة مخلص، وطاعة مثالية، وتلاوة خاشعة، وصلة بالله، وبر بالأصحاب، في شيء كثير من لين الجانب، وحسن الخلق، واللفظ الحاني، والتودد الرحيب.

غير أن هذا السلوك المحمدي الأصيل الطبعي، هو الذي فتح أعين المشركين على حقائق هذا الدين، وتصوراته العملية، ومبادئه الواقعية، وقَدَّمْ ناهجها التطبيقية، مما أوحى إلى قريش أن تتوقف عن غيها السادر، وضلالها القديم، وتنتظر في هذا الجديد الحي المائل الذي يَرُدُّ إلى العقول تفكيرها، وإلى النفوس صفاءها؛ وإلى الضمير يقظته...

وكذلك كان، فبهدوء العبادة، وصدق التعامل، وفطرة التحرك، اهتدى ثلاثة كبار من قريش وأعلنوا إسلامهم في صراحة، وحرية، وتصميم، وربما بعث بعضهم بما يسد من عوز المسلمين، ويشد من عزيمتهم.

واسمع إلى هذه الرواية، التي تصور لك مبلغ ثبات خالد ﷺ في إيمانه، على أنه حديث عهد به:

قالوا: إنه بعث إلى النبي ﷺ بأفراس، وبعث إليه باعناقه الإسلام، وعرفانه به، واطمئنائه إليه...

نعم، هذا خالد ﷺ! خالد الذي انتزع النصر من المسلمين يوم أُحُد، خالد الذي رجع بالمشركين إلى الرماة فسحقهم بسنابك خيله، وانقضَّ بمن معه على المسلمين المشغولين بالغنائم، وفتك بهم فتكاً ذريعاً، وأنزل بهم مُرَّ القتال، خالد، رأس أكبر معركة هزت المسلمين، وَمَتَّوْا فيها بالفشل الغائر، والهزيمة المنكرة.

خالد هذا... يعلن بعد عمرة القضاء إسلامه، وشرَّفه بامتزاجه في الصف المسلم...

وبلغ أبا سفيان إسلامُ خالد ﷺ، فبعث في طلبه وسأله: أحقُّ ما بلغني عنك؟ أجاب خالد: نعم إنه لحق، قال أبو سفيان: وقد استشاط غضباً وغيظاً: «واللات والعزى! لو أعلم أن الذي تقول حقٌّ، لبدأت بك قبل محمد» قال خالد: «فوالله إنه لحق، على رغم من رغم» فاندفع أبو سفيان في غضبه نحوه، فحجزه عنه عكرمة، وكان حاضراً، وقال: «مهلاً يا أبا سفيان، فوالله لقد خفتُ للذي خفتَ أن أقول مثل ما قال خالد، وأكون على دينه، أنتم تقتلون خالدًا على رأيٍ رآه، وقريش كلها تبايعت عليه! والله لقد خفت أن لا يُحوَّلَ الحوُلُ، حتى يتَّبَعَه أهلُ مكة كلهم».

وخرج خالد ﷺ من مكة، مهاجراً إلى المدينة، لينضم إلى صفوف المسلمين. إنه بإسلام خالد ﷺ، ودينك الكبيرين البارزين، وآخرين كثيرين بعد هذه العمرة، كان بمثابة التمهيد إلى ظهور الإسلام، والإعلام القاطع المبشِّر بالفتح القريب الأعظم، فتح مكة». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٣٢٧-٣٢٩].

٢٦ - تأثر المشركين بواقع المسلمين المشرف:

يقول أ/ باشميل: «إن الذين قُدِّرَ لهم من القرشيين وغير القرشيين من المشركين أن يختلطوا بالمسلمين في الحديبية (مثل عروة بن مسعود سيد ثقيف، وبدليل بن ورقاء سيد خزاعة، وسهيل بن عمرو العامري رئيس الوفد القرشي في مفاوضات الحديبية التاريخية) إن اطلاعهم على حقيقة سلوك المسلمين المُشْرِق وواقعهم المُشَرَّف قد نسخ من أذهانهم الصورة المشوهة التي كانت الدعاية الوثنية في مكة ترسمها للنبي ﷺ وأصحابه ﷺ؛ مما كان سبباً في فتح قلوب هؤلاء الزعماء والسادة للإسلام، فإن أثر وجود المسلمين في مكة في عمرة القضاء والمظهر الرائع الذي كانوا عليه في السلوك المُشَرَّف والانضباط والتقيد بأوامر الدين الجديد، الذي جعل منهم أسرة واحدة يحس كل فرد فيها بإحساس الفرد الآخر، بعد أن كانوا شيعاً متقاتلين وفتات متنازعين لا يلتقون إلا على جداول من دماء تسيل منهم بغياً وعدواناً وبطراً ورياءً - أثر واقع المسلمين وظهورهم في عمرة القضاء بذلك المظهر العجيب - كان في نفوس القرشيين - سادة وعامة - أعظم بكثير.

فقد كان ما لمسهُ القرشيون من تغير جذري في حياة أصحاب محمد ﷺ ارتفع بهم نحو السمو والكمال وجعل منهم مجتمعاً فاضلاً، لم تشهد جزيرة العرب مثل نبلة واستقامته واتحاده وتأخيه، كان ذلك من أعظم الأسباب التي أفسحت الطريق لنور الإسلام ليخترق حجب ظلام الجهل والجاهلية ليصل إلى قلوب سادات مكة هؤلاء فيحوّلهم من كفرة مشركين إلى أخصيار مؤمنين وأبطال عُرِّموا بميامين يحمون بيضة الإسلام ويندفعون برايته مرفوعة فاتحين خارج الجزيرة العربية، فيضيفون بقوة إيمانهم وصدق عزائمهم

أقاليم عدة إمبراطوريات إلى خريطة دولة الإسلام، مثل خالد بن الوليد، وصفوان ابن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وخالد بن أسيد، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

إنه يمكن القول: إن واقع المسلمين الألفين الذين زاروا مكة في عمرة القضاء (عام سبع من الهجرة) قد قَسَمَ مشركي مكة فريقين: فريق امتلأت نفسه خوفاً ورعباً من المسلمين وَقَرَّ في نفسه بأن هؤلاء المسلمين لا يمكن لأحد الوقوف في وجههم، وهذا نوع من النصر بالرعب الذي جاء في الحديث النبوي.

وفريق أدخل الله في نفسه الميل نحو الإسلام - اقتناعاً بأنه دين الحق القمين بالاتباع - فأصبح - بعد عمرة القضاء - لديه الاستعداد الكامل لأن يدخل في هذا الدين.

وكل الذي شعر به الفريقان جاء نتيجة ما لاحظوه ولمسوه في المسلمين من انقلاب في السلوك، تحوّل بهم من الشر إلى الخير في كل شيء، وأحال فوضاهم إلى ضبط وانتظام، وذلّتهم إلى عزة واعتزاز، وفُرقتهم إلى وحدة واتحاد وتباغضهم إلى محبة وتآخ. [غزوة مؤتة لباشميل ١١١-١١٢].

ويقول ل/ خطاب: «أثرت عمرة القضاء في معنويات قريش تأثيراً كبيراً.

وقف كثير من قريش عند دار الندوة بمكة، كما عسكر آخرون فوق الجبال والهضاب المحيطة بها ليشاهدوا دخول الرسول ﷺ وأصحابه مكة والبيت الحرام وسعيهم بين الصفا والمروة.

فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: «رَحِمَ اللهُ أَمْرًا أَرَأَهُمُ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً» ثم استلم الركن وأخذ يهرول ويهرول أصحابه معه حتى واره البيت عن قريش. والتطواف بهذه السرعة إظهار لقوة المسلمين وتكذيب لإشاعات الضعف التي زعمتها قريش للناس.

فهرول وهرول أصحابه حين سعوا بين الصفا والمروة.

ونحر الرسول ﷺ وأصحابه الهدي عند المروة، ثم بقي بمكة ثلاثة أيام وعاد بعدها إلى المدينة، وهو لا يشك بتأثير ما رآته قريش من قوة المسلمين، ومن ضبطهم وإطاعتهم للرسول ﷺ، ومن تعظيمهم للبيت الحرام في معنويات قريش، فلم يكذب يترك مكة حتى وقف خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول في جمع من قريش قائلاً: (لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر، وأن كلامه من كلام رب العالمين، فحق على كل ذي لب أن يتبعه).

وسمع أبو سفيان بن حرب بما كان من قول خالد بن الوليد رضي الله عنه، فبعث في طلبه وسأله عن صحة ما سمع عنه، فأكد له خالد رضي الله عنه صحته، فاندفع أبو سفيان إلى خالد رضي الله عنه في غضبه، فحجز عنه عكرمة بن أبي

جهل وكان حاضرًا وقال: (مهلاً يا أبا سفيان! فوالله خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه، أنتم تقتلون خالدًا على رأي رآه، وهذه قريش كلها تابعت عليه، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم).

وأسلم من بعد خالد عمرو بن العاص وحارس الكعبة نفسها عثمان بن طلحة رضي الله عنه، بل ظهر الإسلام في كل بيت من قريش سرًا وعلانية.

إنَّ عمرة القضاء فتحت أبواب قلوب أهل مكة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكة نفسها بعد حين.

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ٣١٤-٣١٥].

ويقول أ/ العقاد: «وكان الفتح الذي بصر به عيانًا من لم يره يوم الحديبية بنور البصيرة، وأسلم من الضعفاء والأقوياء مَنْ كان عصيًا على الإسلام: فريق منهم بهرهم وفاء النبي ﷺ بعهد مع استطاعة نقضه، وفريق منهم راعهم سمت الدين ورحم الإسلام فيما بين المسلمين، وجمال ما بينهم وبين نبيهم ﷺ من طاعة وتمكين، وفريق منهم علموا أن العاقبة للإسلام فجنحوا إلى طريق السلامة والسلام.

وحسبك أن عمرة القضاء هذه قد جمعت في آثارها من أسباب الإقناع بالدعوة المحمدية، ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنه، وهما في راحة الخلق والعقل مثلاً متكافئان، وإن كانا لا يتشابهان». [عقريه محمد ﷺ للعقاد ٨٥-٨٦].

٢٧ - الغزو النفسى لأهل مكة:

يقول د/ الغضبان: «لقد ساق رسول الله ﷺ الهدي والسلاح أمامه.

أما الهدي، فالعمرة عمرة قضاء ومن أجل ذلك لم يسقه من لم يكن من أهل الحديبية.

وأما السلاح فهو إجراء احتياطي تحسبًا لكل محاولات الغدر والنكث التي يمكن أن تقع من أهل مكة، أو من القبائل العربية الممتدة على الطريق.

وأصبح أهل مكة منذ الحديبية في وضع نفسي لا يُحسدون عليه، فقد انهزموا معنويًا ودب بهم اليأس أن يكونوا قادرين على مواجهة الرسول ﷺ، ورسخ في ذهن قياداتهم أن محمدًا ﷺ لا يُغلب.

فعمر بن العاص رضي الله عنه غادر مكة بعد الخندق قائلًا: (كَمْ أَوْضِعُ؟) (أوضع البعير راكبه: إذا حمله على سرعة السير. النهاية ٢١٦/٤) وَاللَّهِ لَيُظْهِرَنَّ مُحَمَّدٌ عَلَى قُرَيْشٍ، فَخَلَفْتُ مَالِي بِالرَّهْطِ وَأَقْلُتُ - يَعْنِي مِنَ النَّاسِ - فَلَمْ أَحْضِرِ الْحَدِيثِيَّةَ وَلَا صَلَحَهَا. [الغازي للواقدي ٢/٧٤٢].

وخالد بن الوليد رضي الله عنه يُغزى من أعماقه منذ الحديبية: (لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ بِي مِنَ الْخَيْرِ مَا أَرَادَ، قَذَفَ فِي قَلْبِي حُبَّ الْإِسْلَامِ، وَحَضَرَ بِي رُشْدِي، وَقُلْتُ: قَدْ شَهِدْتُ هَذِهِ الْمَوَاطِنَ كُلَّهَا عَلَى مُحَمَّدٍ، فَلَيْسَ مَوْطِنٌ أَشْهَدُهُ إِلَّا أَنْصَرِفُ وَأَنَا أَرَى فِي نَفْسِي أَنِّي مَوْضِعٌ فِي غَيْرِ شَيْءٍ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا سَيُظْهِرُ، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى

الْحَدِيثِيَّةِ خَرَجْتُ فِي خَيْلٍ مِنَ الْمَشْرِكِينَ فَلَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ بَعْضُفَانِ، فَقُمْتُ بِإِزَائِهِ وَتَعَرَّضْتُ لَهُ، فَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ الظُّهْرَ آمِنًا مِنَّا، فَهَمَمْنَا أَنْ نَغْيِرَ عَلَيْهِ، ثُمَّ لَمْ يُعْزِمْنَا لَنَا - وَكَانَتْ فِيهِ خَيْرَةٌ - فَاطَّلَعَ عَلَيَّ مَا فِي أَنْفُسِنَا مِنَ الْهُمُومِ، فَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْعَصْرِ صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَوَقَعَ ذَلِكَ مِنِّي مَوْقِعًا، وَقُلْتُ: الرَّجُلُ مَتَّوْعٌ. [المغازي للواقدي ٧/٢٧٤٦].

وأبو سفيان بن حرب القائد العام، كان في تجارته أثناء الحديبية، ومضى في تجارته كذلك بعدها، والتقى بقيصر ملك الروم، وخرج بانطباع من عنده حين سمعه يقول: «... فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمْتُ أَنِّي أَخْلَصْتُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ (تجشم: تكلف) لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَعَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ».

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَقَرَعَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثْرَ عِنْدَهُ الصَّخْبُ، وَازْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: «لَقَدْ أَمَرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَلَمَّا زِلْتُ مَوْقِفًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَذْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ». [البخاري في بدء الوحي (٧)].

وحويطب بن عبد العزى يقول لمركز بن حفص: (مَا رَأَيْتُ قَوْمًا قَطُّ أَشَدَّ حُبًّا لِمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ لِحَمْدِهِ، وَبَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَمَا إِنِّي أَقُولُ لَكَ: لَا تَأْخُذْ مِنْ مُحَمَّدٍ نَصَفًا أَبَدًا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ حَتَّى يَدْخُلَهَا عَنُودٌ). [المغازي للواقدي ٢/٦٠٨].

وكان هو جواب مركز نفسه: (أَنَا أَرَى ذَلِكَ) وكان هذا في الحديبية.

وسهيل بن عمرو، وهو يرى الأمور كلها تخرج من بين يديه، حتى ولديه هم مع محمد ﷺ.

اللهم إلا شخصيتين بقيا على عنادهما وطموحهما أن يواجها رسول الله ﷺ وهما: عكرمة ابن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وقد رأينا صفوان بن أمية يدخل المراهنة على هزيمة محمد ﷺ في خيبر، لكن الرأي العام المكي قد سئم من الحرب ومل منها فأصبحا غير قادرين على تمثيل مكة تمثيلاً حقيقياً.

ومن هذا المعنى نشهد فرع مكة من حمل الرسول ﷺ السلاح، وطريقة الخطاب التي اختلفت عن لهجة الحديبية: (يَا مُحَمَّدُ! وَاللَّهِ مَا عُرِفْتَ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا بِالْعَدْرِ تَدْخُلُ بِالسَّلَاحِ الْحَرَمَ عَلَى قَوْمِكَ، وَقَدْ شَرَطْتَ إِلَّا تَدْخُلَ إِلَّا بِسِلَاحِ الْمَسَافِرِ: السُّيُوفِ فِي الْقُرْبِ!).

ونشهد كذلك فرحهم يوم سمعوا الجواب: (لَا نَدْخُلُهَا إِلَّا كَذَلِكَ).

حيث رجع مركز سريعاً إلى أصحابه يقول: (إِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَدْخُلُ بِسِلَاحٍ، وَهُوَ عَلَى الشَّرْطِ الَّذِي شَرَطَ لَكُمْ).

ونشهد كذلك صعودهم إلى الجبل غيظاً وتفادياً لأي مواجهة مع الرسول ﷺ.

لقد سقطت مكة حُكمًا بعد الحديبية، والقضية قضية زمن فقط حتى تُفتح، وبعد نصر خيبر، وبعد ثورة أبي بصير ومن معه انتهى كل أمل لدى قريش بالمواجهة ولم يعد بيدها ورقة تراهن فيها على ذلك». [الترية الجهادية للغضبان ٢/ ٤٥٥-٤٥٧].

ويقول د/ عويس: «ولم يلبث العام الثامن أن حل.. فحمل معه دلالات وانعطافات كبرى في مسيرة الدعوة الجديدة التي يقودها النبي ﷺ».

وكان أبرز هذه الظواهر عمرة القضاء، التي كسرت حدة الغرور القرشي، وحطمت نفسياتهم، وأطلعتهم على قوة المسلمين الجديدة، ودفعت رجالًا كبارًا في قريش إلى الدخول في الإسلام كخالد بن الوليد، وعمر بن العاص وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم!! [في ظلال الرسول ﷺ لعويس ١٥٦].

٢٨ - عمرة القضاء وأثرها الإعلامي:

يقول د/ حجازي: «اتجه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم من المدينة المنورة باتجاه مكة المكرمة في موكب مهيب يشق طريقه عبر القرى والوادي، وكان كلما مر الموكب النبوي بمنازل قوم من الذين يسكنون على جانبي الطريق الواصل بين المدينة ومكة المكرمة، كان هؤلاء الأعراب يخرجون ليشاهدوا تلك المسيرة الضخمة التي لم يعتادوا على رؤيتها من قبل، فقد شاهد هؤلاء الناس في تلك المناطق ذلك المظهر الإعلامي المعبر عن الأهداف النبيلة للدين الإسلامي العظيم، حيث شاهدوا المسلمين وهم في زيهم الموحد من الأحرام وهم يرفعون أصواتهم بالتلبية ويسوقون هُديهم في علاماته وقلائده في مشهد إعلامي لم تشهد المنطقة له مثيلاً».

حقاً إنها صورة إعلامية رائعة ومعبرة لها وقع هائل في النفوس وتعكس مفهومًا إعلاميًا خاصًا عن هذا الدين الجديد، وعن مبادئ هذا الدين الذي يدعو إلى الفضيلة والعدل والوفاء بالعهد واحترام المقدسات والالتزام الكامل بمبدأ التوحيد للخالق ﷻ، الأمر الذي أوجد عند الناس قدرًا كبيرًا من الأحاسيس والمشاعر التي تقرهم ذاتيًا وعاطفيًا من الإسلام والمسلمين، ذلك مما أكسب الإعلام الإسلامي نجاحًا رائعًا بين عرب الجزيرة العربية.

والجدير بالذكر أن أخبار هذه الأحداث وصدى هذا التعاطف مع الإسلام والمسلمين لم يقتصر وقعه على تلك المنطقة من الجزيرة العربية فحسب، ولكن أخباره انتشرت لتشمل معظم المناطق الأخرى من أنحاء هذه الجزيرة التي أصبح الإسلام والمسلمون حديث الساعة فيها، وقد نتج عن ذلك التعاطف أن الناس أخذوا يشكون بادعاءات قريش وافتراءاتها التي كانت تبثها في المنطقة ضد المسلمين، وبهذه النتيجة فإننا نستطيع القول بأن التأثير الذي أحدثته هذه الرحلة كان له وقع كبير في نفوس عرب الجزيرة العربية بشكل عام.

يقول د/ محيي الدين عبد الحلیم: «إن لكل وسيلة تأثيرها الخاص في نوعيات معينة من الجماهير قد لا تؤثر في نوعيات أخرى من الجماهير، إلا أنه إذا اجتمعت الصورة والصوت في وسيلة واحدة كان لذلك وقع في النفوس يفوق استخدام إحداها فقط بدرجة كبيرة».

[الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية ص ٤٠ - مكتبة الخانجي - القاهرة].

ولا شك أن نجاح هذه العمليات الإعلامية يكمن في المقدرة على إبراز الحقائق الإعلامية وإظهارها للناس بشكل يستهوي نفوسهم ويعبر عن اتجاههم ويحرك عواطفهم ومشاعرهم، ويشد انتباههم إلى ذلك الحدث مما يساعد على استمالتهم إليه بصورة واقعية ومؤثرة، ومن ثم كسب تأييدهم وقبولهم له، وإن ذلك من شأنه أن يوجه أنظار الناس تجاه ذلك الحدث وأن يكون لديهم رأياً مناسباً فيه.

ولا شك أن هذا الكسب الإعلامي لا يأتي إلا بعد أن يقتنع الناس بصدق الحقائق التي يتبينها للناس عن طريق العرض الفني للوسائل الإعلامية الهادفة.

يقول د/ إبراهيم إمام: «الإعلام هو تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة، التي تساعد على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع، أو مشكلة من المشكلات، بحيث يعبر هذا الرأي تعبيراً موضوعياً عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم».

[الإعلامي الإسلام ص ٢٧ - مكتبة الأنجلو المصرية].

لقد علمت قريش بأخبار هذه الرحلة، وبأن رسول الله ﷺ قادم الآن إلى مكة المكرمة، يرافقه أصحابه الكرام وهم يحملون كامل أسلحتهم مما يتعارض وبنود معاهدة الحديبية التي تنص على أن لا يحمل المسلمون معهم أي سلاح أثناء قدومهم إلى مكة ما عدا السيوف بالقرب، فقد ذكر الواقدي في مغازيه قال: «فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَلْبِي، وَالْمُسْلِمُونَ يُلْبُونَ، وَمَضَى مُحَمَّدٌ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ بِالْحَيْلِ إِلَى مَرِّ الظَّهْرَانِ، فَيَجِدُ بِهَا نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، فَسَأَلُوا مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ﷺ فَقَالَ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ يُضْبِحُ هَذَا الْمَنْزِلَ عَدَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَرَأُوا سِلَاحًا كَثِيرًا مَعَ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ، فَخَرَجُوا سِرَاعًا حَتَّى أَتَوْا قُرَيْشًا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالَّذِي رَأَوْا مِنَ الْحَيْلِ وَالسَّلَاحِ، فَفَرَعَتْ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَحَدُنَا حَدَّثَنَا، وَنَحْنُ عَلَى كِتَابَتِنَا وَمُدَّتِنَا، فَنِمُّ يَغْزُونَا مُحَمَّدٌ فِي أَصْحَابِهِ؟ وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّ الظَّهْرَانِ، وَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّلَاحَ إِلَى بَطْنِ يَاجْجَ حَيْثُ يَنْظُرُ إِلَى أَنْصَابِ الْحَرَمِ (الاعلام على حدوده)، وَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ مَكْرَزَ بْنَ حَفْصِ بْنِ الْأَخْنَفِ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى لَقَوْهُ بِبَطْنِ يَاجْجَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ وَالْهَذِي وَالسَّلَاحُ قَدْ تَلَا حَقْوًا، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! وَاللَّهِ مَا عَرَفْتُ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا بِالْغَدْرِ، تَدْخُلُ بِالسَّلَاحِ الْحَرَمَ عَلَى قَوْمِكَ، وَقَدْ شَرَطْتَ إِلَّا تَدْخُلَ إِلَّا بِسِلَاحِ الْمُسَافِرِ: السُّيُوفِ فِي الْقُرْبِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَدْخُلُهَا إِلَّا كَذَلِكَ»، ثُمَّ رَجَعَ سَرِيعًا بِأَصْحَابِهِ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَدْخُلُ بِسِلَاحٍ، وَهُوَ عَلَى الشَّرْطِ الَّذِي شَرَطَ لَكُمْ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٤].

والجدير بالذكر أن رسول الله ﷺ كان قد حمل السلاح للحيلة والحذر من غدر قريش، وقد وضعه في مكان قريب من مكة تحت الحراسة بحيث يستطيع الوصول إليه بسرعة عند الحاجة. كان مظهرًا إعلاميًا رائعًا عندما بدأ الموكب النبوي الكريم يقترب من بيوت مكة المكرمة وأبنيتها شاقًا طريقه باتجاه الكعبة المشرفة وهم في مظهرهم المهيّب، وأصواتهم تشق عنان السماء بالتلبية، فقد ذكرت معظم كتب السير والمغازي أن قسماً من أهالي مكة خرج إلى رؤوس الجبال لينظر إلى المسلمين من الأماكن العالية، والقسم الأكبر وقف عند دار الندوة المجاورة للكعبة المشرفة آنذاك، ليشاهدوا رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ أثناء دخولهم مكة المكرمة وبيت الله الحرام. [ينظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٥٤/٢ - دار الفكر - بيروت، والروض الأنف للسهيلى ٨/٧ - دار الكتب الحديثة - القاهرة].

هذا وقد قصد الرسول ﷺ بهذه الطريقة التي فعلها عند دخوله المسجد الحرام، وهي الاضطباع، والهرولة، ورفع الأصوات بالتلبية، أن يرهب قريشاً، وأن يظهر لها قوة المسلمين وعزيمتهم وتمسكهم بدينهم ومناعة جبهتهم.

وهذا الأسلوب من أساليب الحرب النفسية، كان رسول الله ﷺ عادة يستخدمه في مثل تلك المواقف للتأثير على نفسية أعدائه وإرهابهم، وإدخال الرعب في نفوسهم حتى لا يفكروا بالاعتداء أو الغدر بالمسلمين، فقد ذكر العقاد في وصفه لحماس المسلمين آنذاك قوله: «وأوشك عبد الله بن رواحة ﷺ وقد هزته النخوة أن يصيح في قريش صيحة الحرب، فنهاه عمر ﷺ، وأمره النبي ﷺ أن ينادي ولا يزيد: «لا إله إلا الله وحده، نصر عبده وأعز جنده، وخذل الأحزاب وحده»، فرفع ابن رواحة ﷺ بها صوته للجمهور، وتلاه المسلمون يرددونها وتهتز بها جنبات الوادي القريب، وكان الفتح الذي بصر به عياناً من لم يره يوم الحديبية بنور البصيرة، وأسلم من الضعفاء والأقوياء من كان عصياً على الإسلام: فريقٌ منهم بهرهم وفاء النبي ﷺ بعهدته مع استطاعته نقضه، وفريقٌ منهم راعهم عظمة الإسلام، وتراحم المسلمون فيما بينهم، وجمال ما بينهم وبين نبيهم من طاعة وتمكين، وفريقٌ منهم علموا أن العاقبة للإسلام فجنحوا إلى طريق السلامة والسلام، وحسبك أن عمرة القضاء هذه قد جمعت في آثارها من أسباب الاقتناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمر بن العاص ﷺ، وهم في رجاحة العقل والخلق مثلاًن متكافئان يحتذي بهما». [عبقريه محمد ﷺ ص ٦٩-٧٠ - دار الإسلام - القاهرة].

لقد كان بحق منظراً إعلامياً رائعاً يأخذ بالألباب ويؤثر في النفوس عندما دخل النبي ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ وأخذوا يطوفون في البيت ويعظمون الكعبة المشرفة، وقريش ترقبهم وتنظر إليهم من كل مكان من مكة المكرمة، مما يفند كذب وأباطيل سادات قريش وأكابر مجرميها في كذبهم على الإسلام ونبي

الإسلام؛ بعد أن تبين للناس جميعًا في ذلك الموقف صدق الرسالة المحمدية، وأن محمدًا ﷺ هو نبي مرسل من عند الله ﷻ بالهدى ودين الحق، الأمر الذي جعل القلوب تتحول إلى الحقيقة وإن كانت الألسن لم تجرؤ أن تنطق بها كبرًا وعنادًا.

ما أعظم هذا الموقف الإعلامي الرائع الذي انتصر فيه الحق على الباطل، وبان لكل ذي عقل من أهل مكة وغيرهم من الناس أن رسول الله ﷺ لم يكن كما وصفته قريش، وأن الدين الإسلامي هو دين الحق الذي جاء من عند الله ﷻ.

ولا شك أن هذا الموقف الإعلامي الرائع قد تجلّى عن إظهار أصالة الإسلام العظيمة باحترامه للمقدسات والمحافظة على صلة الرحم وروح العطف والتسامح وحب الخير، ما ملأ به قلوب الناس محبة واحترامًا وإجلالًا؛ لهذا فقد أقبل الناس على هذا الدين يتيمنون إليه وقد أحس كل واحد من قريش وغيرها بأن لديه ميلاً فطرياً للانتماء إلى الإسلام؛ لأن الإسلام هو دين الفطرة، ولما يتحلّى به هذا الدين من صفات الخير والمحبة والكمال.

وما أشبه هذا الموقف الإعلامي الرائع الذي انتصر فيه الحق على الباطل، بموقف موسى ﷺ عندما نصره الله ﷻ على فرعون أمام جموع الناس الذين احتشدوا يوم الزينة، ليشاهدوا المناظرة بين نبي الله موسى ﷺ من جهة وبين فرعون وسحرته من جهة أخرى، وكما جاءت أحداث هذه القصة في القرآن الكريم، فقد قال فرعون لسيدنا موسى ﷺ: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (طه)، فاختار موسى ﷺ يوم الزينة ليكون موعدًا لهذه المناظرة، ويوم الزينة هو يوم عيدهم الذي يجتمع الناس فيه لا يتخلف منهم أحد لا في زمان ولا في مكان.

قال الشهيد سيد قطب: «واختار موسى ﷺ الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة، يأخذ فيه الناس في مصر زينتهم، ويتجمعون في الميادين والأمكنة المكشوفة» ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضَعْفَى﴾ (طه)، وطلب أن يجتمع الناس ضحى؛ ليكون المكان مكشوفًا والوقت ضاحيًا، فقابل التحدي بمثله وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدّها تجمعًا في يوم العيد، لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت، ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر، ولا في المساء حيث يمنعه الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية...!!». [في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٠].

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه المناظرة في هذه الآيات الكريبات: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ (١٥) ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (١٦) ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (١٧) ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (١٨) ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ

أَنِّي ۖ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةَ سُجَّدًا قَالُوا أَمَّا رَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ۖ قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَا تُقَطِّعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّبُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۖ ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ ﴿٧٧﴾ إِنَّمَا آمَنَ بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ أَبْقَى ۖ ﴿٧٨﴾ [طه].

ما أشبه موقف خالد بن الوليد من أبي سفيان بعد أن رأى الحق المبين واضحا أمام عينيه بموقف السحرة من فرعون، وما أعظم هذا الموقف الإعلامي الرائع على المشاهدين، فهذا خالد بن الوليد المخزومي، بطل مكة المشهور، وحامل اللواء وقائد الفرسان أثناء المعارك، ينجلي أمامه الموقف ليعلم أن الإسلام هو دين الله الحق الذي أرسل الله به محمدا ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله ويهديهم إلى صراط مستقيم، وأن كل ما قالته قريش وافترت به على الإسلام ونبي الإسلام إنما هو محض افتراءات كاذبة، وهذا محمد ﷺ ومعه المسلمون يدخلون مكة بحب واحترام، ويطوفون بالبيت الحرام بشوق وحنين، معظمين له بأحسن ما يكون التعظيم، ومحافظين على العهد الذي بينهم وبين قريش بأحسن ما تكون المحافظة. إن هذا الدين هو دين الله الذي هو حق على كل ذي لب أن يتبعه.

ويمضي خالد بن الوليد ليقول قولته أمام قائد مكة وزعيمها أبي سفيان بن حرب، لا يبالي بما يقوله من الحق ويؤيده بذلك صديقه عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه، ويقف أبو سفيان مشدوها لهذا التحول الكبير، ويهدد خالداً بالقتل تماماً كما فعل فرعون مع السحرة عندما آمنوا بالله الواحد القهار، بعد أن رأوا الآيات بأم أعينهم واضحة جلية، ولم يأبها بتهديدات فرعون، وانجلي الموقف عن إظهار الحق وخزي فرعون وجنوده أمام جموع الناس المحتشدة يوم الزينة، تماماً كما انجلي الموقف بالنسبة لأهل مكة وغيرهم من الناس الذين احتشدوا فوق الجبال، وعلى مداخل مكة المكرمة؛ ليشاهدوا المسلمين أثناء دخولهم مكة المكرمة وتعظيمهم لبيت الله الحرام، مما جعل الناس بعد ذلك يدخلون في دين الله أفواجا.

إنهما لموقفان رائعان ومتشابهان، انتصر فيهما الحق على الباطل أمام تلك الحشود الضخمة من الناس، يقول الأستاذ الركابي: «إن سجود السحرة وإيمانهم بالله من نتائج البلاغ المبين، الذي نجح فيه موسى عليه السلام، واختار موسى عليه السلام أن يكون هذا الصراع في حشد من الناس أو في تجمع إعلامي عام: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَىٰ﴾ ۖ ﴿٧٩﴾».

ولقد كان تأثير هذه العمرة على قريش وعلى عرب الجزيرة تأثيراً بالغاً؛ لأنها تحمل في مضمونها مهمة إعلامية عظيمة، فقد كان العرب في قريش والجزيرة العربية قبل هذه العمرة لا يعرفون شيئاً له قيمة إعلامية عن هذا الدين، ولا عن الغاية التي من أجلها ظهر هذا الرسول ﷺ بهذا الدين، فهو لم يظهر

ليُحدث الشقاق بين الناس كما زعمت قريش، وكما بثت دعاياتها السيئة، ألوانًا مختلفة من الافتراءات والأباطيل ضد الإسلام والمسلمين، ولكن الله سبحانه بعثه لغايات كريمة وأهداف نبيلة، وهي إصلاح هذه الدنيا بعد أن فسدت واستحال إصلاحها إلا عن طريق هذا الدين وتعاليمه السمحة».

[في النظرية الإسلامية للإعلام - أ/ زين العابدين الركابي - مجلة المسلم المعاصر - العدد العاشر ص ٤٥].

[منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٣١٠-٣١٩ باختصار].

٢٩ - عمرة القضاء كانت نقطة تحول كاملة للعرب:

يقول د/ الغضبان: «كانت عمرة القضاء على قصرها بالنسبة للعرب جميعًا نقطة تحول كاملة، فقد دخل محمد ﷺ وصحبه ﷺ مكة آمنًا لا يخاف، وخرج بطواعيته واختياره، ولو شاء أن يقيم لأقام، وليس لدى قريش قوة تحول بينه وبين ذلك، لقد رأى العرب معنى هذا الدين، ومفهوم هذا الرسول، وعظمة هذه الرسالة، وانتهت قريش بمبادئها وسلطانها وتحديها، وانهارت كل الحواجز بين الناس وبين الإسلام، فقد انتهت قوة قريش، وانتهت قوة محمد ﷺ فليس أمامهم إلا الإسلام الذي يتجسد بهؤلاء المسلمين، وتكون له ولهم الدينونة في الأرض، بشهادات قياداتهم وجنودهم.

وفُتحت الأرض العربية أمام هذا الدين: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢٨) [الفتح].

وبرزت هذه الظاهرة، وبدا هذا الظهور في أعظم تجسيد له، يوم صعد بلال ﷺ على ظهر الكعبة ليعلن من فوق أقدس مكان عند العرب كلمة التوحيد الخالصة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

ويعلن انتصار هذا الدين: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، ودعوة الناس لهذا الدين، دعوة خالصة: حي على الصلاة، حي على الفلاح.

ويجتز قادة الشرك غيظهم وحقدهم، وهم يسمعون هذه النداءات:

فَقَالَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ: لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ أَبَا الْحَكَمِ حَيْثُ لَمْ يَسْمَعْ هَذَا الْعَبْدُ يَقُولُ مَا يَقُولُ!

وَقَالَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ أَبِي قَتْلَ أَنْ يَرَىٰ هَذَا!

وَقَالَ خَالِدُ بْنُ أُسَيْدٍ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَاتَ أَبِي وَلَمْ يَشْهَدْ هَذَا الْيَوْمَ حِينَ يَقُومُ بِلَالُ بْنُ أُمٍّ بِإِلَالٍ يَنْهَقُ

فَوْقَ الْكَعْبَةِ!

وَأَمَّا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو وَرَجَالُ مَعَهُ فَحِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ غَطُّوا وُجُوهَهُمْ.

وهكذا نرى أن احتجاج مكة انتهى بالتحسر والندم، بينما لا ننسى يوم قاموا لعبد الله بن مسعود ﷺ

يضر به حتى يُعشى عليه؛ لأنه نطق بين ظهرانيهم بما نُزل على محمد ﷺ.

لا ننسى يوم قاموا يقتلون رسول الله ﷺ، ويطؤون على عنقه الشريف؛ لأنه قام يصلي ويسجد بين ظهرانيهم، ويُلقون على رأسه وظهره معيَّ البعير، ويتأيلون من الضحك.

أما اليوم فهم يغطون وجوههم، وهم يرون بلاً ﷺ العبد الأسود ويرتفع فوق الكعبة، عز آبائهم وأجدادهم، ليعلن كلمة التوحيد ويدعوهم إليها». [التربية الجهادية للغضبان ٢/ ٤٦١-٤٦٢].

ويقول د/ الوكيل: «ورأى المشركون قوة المسلمين فتبددت من رؤوسهم خرافة الضعف الذي أصابهم، وشاهدوا التفاهم حول نبيهم، فاعتقدوا أنهم لن يُسلموه أبداً، ولمسوا وحدة صفهم فتأكدوا أنهم جماعة متماسكة لا يُسلم بعضهم بعضاً، يبر غنيهم فقيرهم، ويعين قويهم ضعيفهم، ويعطف صحيحهم على مريضهم، ورأوا رسولهم بينهم واحداً منهم، عندئذ رأوا الحق الذي لا يغيب عن ذي لب.

وغادر المسلمون مكة وقد تركوا في نفوس الناس هناك انطباعاً لا يُمحى، وبقدر كراهية المعاندين من المشركين للرسول ﷺ ودينه، بقدر ما أدرك العقلاء منهم أن رسول الله ﷺ على الحق، وأن ما جاء به هو الحق، وأنهم يجب عليهم أن يؤمنوا به، ويتبعوه، ويدخلوا في دين الله ﷻ».

[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ٢٣٢].

٣٠- قد يبقى الحكم الشرعي، بعد انتفاء حكمته:

يقول د/ فيض الله: «قد ذكرنا أن قريشاً أرجفت بالمسلمين، وقالت فيما بينها: إن محمداً وأصحابه في عُسرةٍ وجَهدٍ وشِدَّةٍ، وإنهم أنهكتهم حمى يثرب، فاضطجع النبي بردائه، وأبرز عضده اليمنى؛ ليريم ضخامة كراديسه، وقال: يرحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة، وأنه هرول بعد استلام الركن، وهرول معه أصحابه، ليريم قوتهم القوية، وعزيمتهم الماضية، ونشاطهم الثر، ومَشَوْا بين الركنين.

وكذلك كان، فلما رأت قريش تلك الأجسام الفتية، والهرولة المطلقة، والتوثب الدائب، همس بعضهم يقول لبعض: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا...

وقد ثبت في السنة أن النبي ﷺ هرول في الطواف ثلاث مرات، فكانت الهرولة سنة مشروعة، في نصف الطواف الأول، مع أنه زالت الحكمة والباعث عليه، وهو الظهور بمظهر القوة أمام الأعداء، فبقي الحكم، وإن انتفت حكمته؛ تعبدًا وتذكيرًا بمبدأ المشروعية». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٣٢٩].

٣١- لا يخلف الله ﷻ وعده:

يقول د/ فيض الله: «تعتبر عمرة القضاء تحقيقاً لوعده النبي ﷺ أصحابه ﷺ بدخول مكة، وطوافهم بالبيت.

وقد رأينا كيف استبدت الدهشة بعمر ﷺ بعد صلح الحديبية، وسأل الصديق ﷺ، ثم سأل النبي ﷺ، عن وعده الصحابة بإتيان البيت، والطواف به، ثم موافقته على العودة بدون ذلك كله؟ وكيف أجابه النبي ﷺ كما ذكر الرواة قائلًا: أفأخبرت أنك تأتيه عامك هذا؟ قال: لا، قال: فإنك آتبه ومطوف به.

فجاءت عمرة القضاء تنجيًّا لذلك الوعد، بفضل الله، ونوّه القرآن بذلك التصديق، وأشار إلى ما كان في طيها مما لم يعلمه الصحابة، وكان الله به عليًّا، وما ضمته من الفتح القريب، والنصر الظاهر؛ فهذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾ [الفتح].

هذا! وكم للنبي ﷺ من إعلانات وإخبارات، حار فيها الصحابة، وجاءت الأحداث محققة مصدقة كل ما أنبأ به؛ فتلک من معجزاته ﷺ. [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٣٢٩-٣٣٠].

٣٢ - ألا يدخل اليأس قلوب الدعاة:

يقول د/ فيض الله: «لم يكن لليأس محل في قلب النبي الكبير؛ حتى في أكلح الظروف، وأحرج المواقف، وأكثر ما يكون من صلف قريش وحقد ها وكبريائها ومُحَدِّثِها.

ففي العهد المكي، درسنا موقفه من قومه لما ردوه وهزؤوا منه، فخنقوه مرةً بالثوب، ومرة قذفوه بسلا الجزور، ومرة اضطروه إلى الخروج إلى الطائف، ولم يكن أهله بأقل ردًّا له من قريش وسخريةً منه، وعبثًا به، ولقد رَمَوْهُ بالحجارة، وأجأوه إلى الهروب في الظهيرة حتى حرقت قدميه الحجارة، وأدمتها الأشواك، ودعا دعاء ثقيف المعروف، فأرسل إليه ربه ﷻ مَلَكُ الجبال، وقال له: إِنْ أَمَرْتَنِي أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِينَ فَعَلْتُ، فقال ﷻ: بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبدُ اللهُ تَعَالَى وَلَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا. الثقة بالله تملأ جوانب قلبه، وتشرق له الآمال، من خلال الظلمات المدهمة.

وفي المدينة، كابد في مأساة أُحُدٍ، وعانى من المنافقين، ولقي الكثير المؤلم من خيانات اليهود. وفي الحديبية اضطره المشركون إلى العودة دونما أداء النسك، فصبر واستمسك، حتى لات مستمسك، وها هم أولاء اليوم يتقيدون بحرفية المعاهدة، وبالثلاثة الأيام، ويخاطبونه بهذه الغلظة الجافة القاسية: انقضى أجلك فاخرج عنا، كأن لم تكن ولادته بمكة، ولا مكة موطنه، وبيت الله لهم وحدهم، ولا حق له فيه بعد ثلاث.

ومع ذلك، لم ييأس من انفتاح المغلقين، ولين المتحجرين، اسمع إلى قوله اللطيف الرقيق؛ بعد هذا كله، وفوق هذا كله، وعلاوة على أفاعيل الماضي السحيق الذي تناساه في ذات الله، وفي سبيل الدعوة إلى الله، ومن أجل هدايتهم، وطمعًا في تفاهم أولى وأكثر...

أَلَيْ سَمِعَكَ الرَّهِيْفَ، إِلَى النُّبُوَّةِ الْعَظِيْمَةِ الْمُتَطَامِنَةِ الرَّفِيْقَةِ الرَّفِيْقَةِ، كَيْفَ تَقُولُ: «وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكْتُمُوْنِي فَأَعْرَسْتُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ، وَصَنَعْنَا لَكُمْ طَعَامًا فَحَضَرْتُمُوْهُ»!

هل يخسرون من تركه، فبيني بفتاة منهم تزوجها، فأكرمهم وأكرمها، بيني بها في حماهم، ويصنع لهم طعاماً، فيحضرونه، ويتناولونه، كأن لم يكن بينهم ماضٍ، ويعفو الله عما سلف، كل هذا تأليفاً للقلوب، وتقريباً بينها، وإدناءً لها، ورغبة في السلام الدائم.

هذا كلام الداعية الواثق الواله في دعوته، المشغول بها عن نفسه، وعن كل شيء، كلام الداعية الآمل الراجي، الذي لم يعرف اليأس، ولم يجد اليأس إلى نفسه سبيلاً، الداعية المطمئن إلى نجاح دعوته، بإذن ربه.

أفليس لنا في هذا الصمود المتفائل، درس وعبرة...!!

أوليس لنا في استبعاد اليأس القاتل، أسوة وعظة!!

بلى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

اللهم أعنا على أنفسنا بتكيب اليأس عنها، وثبتنا على الحق قولاً وفعلًا مهما يكن من الأمر، واجعلنا من الصابرين الصامدين المحتسبين في الدعوة إليك، يا رب العالمين!.

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٣٣٠-٣٣١].

٣٣ - السماحة وحسن الخلق:

يقول د/ أبو فارس: «ورغم ما كان عليه المشركون من سوء الخلق، وقلة أدب، بل وانعدامه في تعاملهم مع الرسول ﷺ وفي مخاطبتهم له، وإلحاحهم عليه بالخروج من البيت، وقد ضاقوا به ذرعاً، وقالوا له عبارة قاسية لا تتناسب مع رسول كريم عزيز: أخرج عنا.

أقول: رغم كل هذا لم يفعل النبي ﷺ انفعالاً يرد عليهم بمثل أسلوبهم، ولكنه تجاوز كل ما يصدر منهم، وأراد أن يقابل الإساءة بالإحسان، فقال لهم: «وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكَتُمُونِي فَأَعْرِسْتُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ (يريد إعراسه بزواج ميمونة عليها السلام)، فَصَنَعْتُ لَكُمْ طَعَامًا؟».

ولكن هذا اللطف، وهذا الأدب الجم لم يؤثر فيهم، بل جعلهم يستمرون في صلفهم وغرورهم، فقالوا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِكَ، أَخْرَجْنَا عَنْكَ! نَنْشُدُكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ وَالْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا خَرَجْتَ مِنْ أَرْضِنَا، فَهَذِهِ الثَّلَاثُ قَدْ مَضَتْ!». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٨٤-٢٨٥].

٣٤ - جبر القلوب الكسيرة:

يقول د/ الغضبان: «صحيح أن مكة حُكِّمًا قد سقطت قبل الفتح، لكن منشأ هذا الأمر ليس هو لين قريش أو صفاء قلبها على رسول الله ﷺ، أو حرصها على السلام برضاها، أبداً، فالقلوب لا تزال تتر حقدًا على رسول الله ﷺ، وفي كل بيت من مكة مقتلة وثأر، والغيط يأكل القلوب في المراوضة والصلح، ولكنه العجز واليأس أمام القدر المحتوم عليهم.

وعندما لاحت فرصة يمكن أن تجبر القلوب الكسيرة، وتستل الأحقاد الدفينة، عرضها الرسول ﷺ على قريش، في محاولة لكسر هذه الأقفال الجاسية فلم يلق أدنى استجابة لذلك...
كان هذا يوم جاء سهيل وحويطب ليقولا لرسول الله ﷺ: قَدْ انْقَضَى أَجْلُكَ، فَأَخْرَجْنَا عَنْكَ النَّبِيَّ ﷺ: «وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكَتُمُونِي فَأَعْرَسْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، فَصَنَعْتُ لَكُمْ طَعَامًا؟» فَقَالَا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِكَ، أَخْرَجْنَا عَنْكَ نَشْدُكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ وَالْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا خَرَجْتَ مِنْ أَرْضِنَا، فَهَذِهِ الثَّلَاثُ قَدْ مَضَتْ!

هذا الجفاء والغلظة التي واجه بها سهيل وحويطب رسول الله ﷺ، حدا بسعد بن عبادة ﷺ أن يثور لهذا الأسلوب الفج ويقول لسهيل: (كَذَبْتَ لَا أُمَّ لَكَ، لَيْسَتْ بِأَرْضِكَ وَلَا أَرْضِ أَبِيكَ، وَاللَّهِ لَا يَبْرَحُ مِنْهَا إِلَّا طَائِعًا رَاضِيًا).

وكان يمكن لهذا الشجار أن يأخذ مداه لو كان لدى الطرفين رغبة في المواجهة، ولكن المؤمنين ملتزمون بتوجيهات نبيهم ﷺ، وسيد الخلق ﷺ يرفض استغلال المبررات لفرض الأمر الواقع، فأجاب سعدًا ﷺ الجواب الذي يعترف لقريش بحقها في الإخراج حسب المعاهدة: «يَا سَعْدُ! لَا تُؤْذِ قَوْمًا زَارُونَا فِي رِحَالِنَا».

وأصدر نداءه: «لَا يُمَسِّسَنَّ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». [التربية الجهادية للغضب ٢/ ٤٥٨-٤٥٩].

ويقول د/ الغضبان أيضًا: «وبعد هذه التربية الجماعية التي تمت لقبائل الإيمان كلها والتي توجهت إلى عمرة الحديبية، جاء دور تربية الأعداء، تربية قيادات مكة، الذين كانوا ينتظرون وأيديهم على قلوبهم أن يمكث محمد ﷺ في مكة، وسلاحه وفرسانه على أبوابها، ويستعمل سياسة الأمر الواقع، خاصة ومكة بلده وأرضه هُجْرَ منها، فما الذي يدعوه إلى الخروج، وكان رعب مكة من هذا الأمر أكبر من رعبها من دخول مكة بالسلاح، فلما انتهى اليوم الثالث (فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الظُّهْرِ يَوْمَ الرَّابِعِ أَتَى سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَحَوَيْطَبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى - وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ - فَقَالَ: قَدْ انْقَضَى أَجْلُكَ، فَأَخْرَجْنَا عَنْكَ).

وذلك في جفاء بالغ واستعلاء حاق، فأراد رسول الله ﷺ أن يلين هذه القلوب الجاسية، وفتت تلك الأحقاد في قلوب الأعداء قائلاً لهم: «وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكَتُمُونِي فَأَعْرَسْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، فَصَنَعْتُ لَكُمْ طَعَامًا؟».

والأصل في العربي ذي المروءة أن يتزلزل لمثل هذا الأسلوب ويلين، لكن الحقد على الإسلام وأهله كان أكبر من ذلك، فقال: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِكَ، أَخْرَجْنَا عَنْكَ!

إنه رد للحسنة بالسيئة، وهم يعرفون في أعماقهم أن هذا الرد نقيصة في عالم الرجال، لكنها بما يعانيان من خوف من احتلال مكة، أصرا على هذا الموقف الغليظ الجافي وتابعاً كلامهما الممتزج بين الرجاء والإصرار: (نَسْتُدْكُ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ وَالْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا خَرَجْتَ مِنْ أَرْضِنَا، فَهَذِهِ الثَّلَاثُ قَدْ مَضَتْ!).

ورأى سعد بن عبادَةَ ﷺ أن صلف قريش وكبرياءها لم يتغير فيه شيء، وهو المشحون بالغيط منها، (فَغَضِبَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ ﷺ لَمَّا رَأَى مِنْ غِلْظَةِ كَلَامِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِسُهَيْلٍ: كَذَبْتَ لَا أُمَّ لَكَ، لَيْسَتْ بِأَرْضِكَ وَلَا أَرْضِ أَبِيكَ، وَاللَّهِ لَا يَبْرُحُ مِنْهَا إِلَّا طَائِعًا رَاضِيًا).

وتعني هذه الكلمة من سيد الخزرج لدى سهيل وحويطب المعني الكبير الذي يخافانه، وكاد يسقط في أيديهما أن المؤامرة قد وقعت، واحتلت مكة وخسرا الجولة... لكن النبي المصطفى ﷺ الذي كان يريد أن يربي الأمم، ويربي الأعداء، ليس همّة انتصاراً عاجلاً، وهزيمة ساحقة لعدو، إنما همّة أن يربح قلب هذا العدو، ويربي أمته عملياً على الوفاء بالعهد، حين يكون الوفاء قمة الخسارة المادية الظاهرة، وحين يكون الوفاء بالعهد يلتزم التخلي عن أقدس أرض للمسلمين، وأحب أرض لله، وأحب أرض إليهم، والمعارك أمامهم قادمة، والأرض سوف تُفتح كلها أمامهم، ومثل هذا الموقف هو الذي سيكون القدوة فيما بعد للأجيال، وبامتداد الآماد واتساع الآفاق.

وتبقى قضية العقيدة وقضية هذا الدين هي المحور، وليس الاعتداد بالقوة، والثناء على البطولة، وتحقيق الانتصارات هو الهدف، إن الجليل الذي رنت إليه البشرية لا بد أن يكون صياغة جديدة أعلى وأرقى من صياغة البشرية كلها في تاريخها السابق واللاحق بهذا الجليل، وفي كلمة واحدة، ربّى بها سعد بن عبادَةَ ﷺ صاحب الحلة المعروف، وأكبر أنصاره في الجيش، وربّى بها سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى في أسلوب حكيم عظيم، راعى به مشاريع سعد، وعلم هذين السيدين الجاهلين أصول التعامل، وأصول التخاطب، وأصول الحياة كلها، وقال: «يَا سَعْدُ! لَا تُؤْذِ قَوْمًا زَارُونَا فِي رِحَالِنَا»، وأسكت الرجلان عن سعد، فلماذا يتكلمان بعد كلام رسول الله ﷺ، ولو لم يكن سعد بن عبادَةَ ﷺ عريقاً في تربيته، وفي تكوينه وجنديته، لانشق بأكبر أنصاره عن رسول الله ﷺ كما فعل عبد الله بن أبي قبله، وحارب الإسلام وأهله، وصمم على احتلال مكة، وسبي نساءها وقتل رجالها بعد أن أفنت مكة زهرة شباب يثرب، وأعظم رجالاتها.

وشعر سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى أنها صغيران صغيران أمام قمة البشرية محمد ﷺ، حين راح يتألفهما أن يتزوج في مكة، ويدعو كبار أهلها إلى وليمته، وتقع الألفة محل البغضاء والفُرقة، وكيف كان الجفاء والغلظة عندهما، وكان بإمكان سعد بن عبادَةَ ﷺ أن يحرق بها مكة، ويقيم فيها مجزة

يتحدث بها التاريخ، وكيف كف النبي ﷺ هذا الأسد عن هذه المهمة ونادى معلناً في جيشه: «لَا يُمَسِّسَنَّ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

ولم يكد سهيل وحويطب يصدقان فعلاً أن محمداً وقومه سوف يخرجون من مكة، وقلوبهم متحرقة شوقاً إليها ومجبول حبها بدمائهم ونفوسهم، ولكنها العقيدة، فوق عاطفة الأهل، وعاطفة الوطن، وعاطفة المصلحة، وكل عواطف الدنيا تخضع لمبادئ العقيدة، وحدودها.

[التربية الجماعية للغضبان ١ / ٧٢-٧٣].

٣٥ - بيان حكم مَنْ أَحْصَرَ عَنِ الْعُمْرَةِ:

قال ابن القيم: «اختلف الفقهاء في ذلك على أربعة أقوال:

أحدها: أَنَّ مَنْ أَحْصَرَ عَنِ الْعُمْرَةِ يَلْزَمُهُ الْهَدْيُ وَالْقَضَاءُ، وَهَذَا إِحْدَى الرِّوَايَاتِ عَنْ أَحْمَدَ بَلَّ أَشْهَرُهَا عَنْهُ.

وَالثَّانِي: لَا قَضَاءَ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ الْهَدْيُ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ، وَمَالِكٍ فِي ظَاهِرِ مَذْهَبِهِ، وَرِوَايَةُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ أَحْمَدَ.

وَالثَّلَاثُ: يَلْزَمُهُ الْقَضَاءُ، وَلَا هَدْيَ عَلَيْهِ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ.

وَالرَّابِعُ: لَا قَضَاءَ عَلَيْهِ، وَلَا هَدْيَ، وَهُوَ إِحْدَى الرِّوَايَاتِ عَنْ أَحْمَدَ.

فَمَنْ أَوْجَبَ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ وَالْهَدْيَ احْتَجَّ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ نَحَرُوا الْهَدْيَ حِينَ صَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَضَوْا مِنْ قَابِلٍ، قَالُوا: وَالْعُمْرَةُ تَلْزَمُ بِالشَّرْعِ فِيهَا، وَلَا يَسْقُطُ الْوُجُوبُ إِلَّا بِفِعْلِهَا، وَنَحَرَ الْهَدْيَ لِأَجْلِ التَّحَلُّلِ قَبْلَ تَمَامِهَا، وَقَالُوا: وَظَاهِرُ الْآيَةِ يُوجِبُ الْهَدْيَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وَمَنْ لَمْ يُوجِبْهُمَا، قَالُوا: لَمْ يَأْمُرِ النَّبِيُّ ﷺ الَّذِينَ أَحْصَرُوا مَعَهُ بِالْقَضَاءِ وَلَا أَحَدًا مِنْهُمْ، وَلَا وَقَفَ الْحِلُّ عَلَى نَحْرِهِمْ الْهَدْيَ، بَلْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَخْلُقُوا رُؤُوسَهُمْ، وَأَمَرَ مَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ أَنْ يَنْحَرَ هَدْيَهُ.

وَمَنْ أَوْجَبَ الْهَدْيَ دُونَ الْقَضَاءِ احْتَجَّ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

وَمَنْ أَوْجَبَ الْقَضَاءَ دُونَ الْهَدْيِ، احْتَجَّ بِأَنَّ الْعُمْرَةَ تَلْزَمُ بِالشَّرْعِ، فَإِذَا أُحْصِرَ جَازَ لَهُ تَأْخِيرُهَا لِعُذْرِ الْإِحْصَارِ، فَإِذَا زَالَ الْحُضْرُ أَتَى بِهَا بِالْوُجُوبِ السَّابِقِ، وَلَا يُوجِبُ تَحَلُّلُ التَّحَلُّلِ بَيْنَ الْإِحْرَامِ بِهَا أَوَّلًا، وَبَيْنَ فِعْلِهَا فِي وَقْتِ الْإِمْكَانِ شَيْئًا، وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ يَرُدُّ هَذَا الْقَوْلَ، وَيُوجِبُ الْهَدْيَ دُونَ الْقَضَاءِ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ الْهَدْيَ هُوَ جَمِيعُ مَا عَلَى الْمُحْصَرِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ يُكْتَفَى بِهِ مِنْهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[زاد المعاد لابن القيم ٣ / ٣٧٨-٣٧٩].

٣٦ - الحراسة عبادة لا تقل عن الطواف:

يقول د/ أبو فارس: «إن الحرس الذين أمرهم رسول الله ﷺ أن يبقوا عند السلاح، وأن يراقبوا الموقف بدقة وتحفز، ولا تغفل أعينهم لحظة واحدة عن كيد المشركين وتحركاتهم، هؤلاء لم يقلوا ثواباً عن أولئك الذين يطوفون بالبيت الحرام، ويصلون في مقام إبراهيم عليه السلام».

إن هذه العيون التي باتت تحرس في سبيل الله قد حرم الله عليها النار، قال رسول الله ﷺ: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

[الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٩)، وَقَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي الْبَابِ عَنْ عُثْمَانَ وَآبِي رَجَاءَةَ، وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ شُعَيْبِ بْنِ رَزِيْقٍ. وصححه الشيخ الألباني].

إن هؤلاء لم يزهّدوا بالطواف بالبيت العتيق والشرب من زمزم، إنهم كانوا تواقين لكل هذا، ولكنهم رضوا بهذا الشرف الذي كلّفهم به رسول الله ﷺ.

وما هدف الحراسة إلا توفير الأمن والأمان لإخوانهم الطوافين والقائمين والعاكفين والركع السجود، ومن يدرى فلعل لهم من الأجر الجميل والثواب الجزيل مثل ما لإخوانهم الطائفين.

إن الرسول ﷺ يتعامل مع نفوس يدرك حقيقة شوقها لبيت الله العتيق، وما جاءت للمرة الثانية وقطعت هذه المسافة الشاسعة إلا لتتال هذا الشرف، وتبل هذا الظمأ، فتطوف مع الطائفين وتسعى مع الساعين، فليلب لهم ما خرجوا من أجله، بأن يرسل من يقوم بمهمتهم ممن طاف وسعى مكانهم ويأتي هؤلاء ليؤدوا النسك، إنه منهج النبوة في التربية، ومراعاة النفوس، والعمل على إسعادها، وتلبية مطالبها من أجل إصلاحها». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٧٦-٢٧٧].

٣٧ - طريقة التفقد جيدة:

يقول د/ أبو فارس: «كيف استطاع الرسول ﷺ أن يجمع ألفي رجل ولا يتأخر واحد منهم، إن الذي يقرأ النص بدقة يجد أن الرسول ﷺ قد اعتمد طريقة في التفقد، وهي تقسيم المسلمين إلى فئات، وعلى كل فئة أمير، وكل أمير يتفقد مجموعته ويتم عليها، فإن كانت ناقصة بحث عن الغائب حتى يعود وينضم إلى فئته، وهكذا، وبعد أن تمت كل فئة وسار الجميع وغادروا مكة، هذا ما فهمناه من عبارة: وَتَنَامُ النَّاسُ». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٨٥].

٣٨ - رعاية القائد لشؤون الأفراد:

يقول د/ الغضبان: «لقد كانت عظمة المصطفى ﷺ أن يرعى شأن كل فرد في أمته، كأننا ليس هم إلا هو، وذاك صاحبه من الرعيل الأول أبو رهم بن عبد العزى يموت، فيخلف ميمونة بن الحارث أرملة عند العباس بن عبد المطلب زوج أختها، وتبقى ميمونة في ذاكرته ﷺ، كما بقيت لأرملة أبي سلمة - أم

سلمة - وأرملة عبد الله بن جحش - أم حبيبة - وأرملة عبدة بن الحارث - زينب بنت خزيمة - وقد وفَّاهم جميعاً حقهم، وكان لا بد أن يوفي حق صاحبه أبي رهم ابن عبد العزى، الذي مات على الإسلام وفي الإسلام، وكانت المناسبة لذلك هو وفود رسول الله ﷺ إلى مكة، فخطبها النبي ﷺ كما قال ابن سعد عن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى مكة عام القضية، بعث أوس بن خولي وأبا رافع إلى العباس، فزوجه بميمونة، فأضلا بعيريهما، فأقاما أياماً بيطن رابغ، حتى أدركهما رسول الله ﷺ بقُديد، وقد ضما بعيريهما، فسارا معه، حتى قدم مكة، فأرسل إلى العباس، فذكر ذلك له، وجعلت ميمونة أمرها إلى النبي ﷺ ^(١)، كذا قال، وصوابه: إلى العباس رضي الله عنه، فخطبها إلى النبي ﷺ فزوجها إياه).

[سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٣٨].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَكَانَتْ جَعَلَتْ أَمْرَهَا إِلَى أُخْتِهَا أُمِّ الْفَضْلِ، وَكَانَتْ أُمُّ الْفَضْلِ تَحْتَ الْعَبَّاسِ رضي الله عنه، فَجَعَلَتْ أُمُّ الْفَضْلِ أَمْرَهَا إِلَى الْعَبَّاسِ رضي الله عنه، فَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، وَأَصْدَقَهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ مِائَةِ دِرْهَمٍ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٢].

فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَلَفَ أَبُو رَافِعٍ مَوْلَاهُ عَلَى مَيْمُونَةَ، حَتَّى أَتَاهَا بِهَا بِسَرَفٍ (موقع على بضعة أميال من مكة)، فَبَنَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُنَالِكَ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي ذِي الْحِجَّةِ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٢].

إنها وافد جديد ينضم إلى بيت النبوة بعد الوافدين الجديدين قبل عام ونصف، أم حبيبة بنت أبي سفيان، وصفيّة بنت حيي.

ولكن رسول الله ﷺ يرضى حق صاحبه من جهة، ويصاهر بني هلال بن عامر بن صعصعة أكبر فروع قبيلة بني عامر في محاولة لتأليف قلوبهم على الإسلام، ويجبر هذا الحاضر الكسير المقيم في مكة، دون أن يكون له بيت يؤويه إلا الضيافة عند أختها أم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها، وبذلك يشمل فضل النبوة، هذا البيت، وهذه العشيرة، وهذا القلب المتجه لله أن يفرّج كربته، لكن هذا الحُلم كان أكبر بكثير من أحلامها رضي الله عنها أن تكون زوجاً لسيد هذا الوجود رضي الله عنه سيد ولد آدم، ويكرمها حيث يقيم الجيش، فيبنى بها ويمضي بها إلى المدينة، إنها إحدى الأخوات الأربع المؤمنات، التي قال عنهن رسول الله ﷺ: «الْأَخَوَاتُ [الْأَرْبَعُ] الْمُؤْمِنَاتُ: مَيْمُونَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ، وَأُمُّ الْفَضْلِ امْرَأَةُ الْعَبَّاسِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ امْرَأَةُ جَعْفَرٍ،

(١) تشير بعض الروايات إلى أن ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كما في رواية ابن أبي حاتم: (تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة... وامرأتين من بني هلال بن عامر، ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وزينب أم المساكين...). ينظر: تفسير ابن كثير في سورة الأحزاب ٥/ ٤٨٢.

وَأَمْرًا حَزْمَةً (سَلَمَى) هِيَ أَخُتْنُهَا لِأُمِّهَا». [جمع الزوائد للهيتمي في المناقب ٩/ ٤٢١ رقم ١٥٤١٩، وقال الهيتمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٤/ ١٣٢، ٣٠٢ رقم ٣٦٠، ٧٦٧] بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح. ورواه ابن سعد بسند جيد كما ذكر ابن حجر في الإصابة في ترجمة ميمونة رضي الله عنها ٤/ ٨/ ١٩٢]. [التريية الجماعية للغضبان ١/ ٧٤-٧٥].

٣٩- بَيَانُ خَطَأٍ مَنْ قَالَ تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ مَيْمُونَةَ رضي الله عنها وَهُوَ مُحْرِمٌ:

قال ابن القيم: «وَأَمَّا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَ مَيْمُونَةَ وَهُوَ مُحْرِمٌ، وَبَنَى بِهَا وَهُوَ حَلَالٌ» [البخاري في المغازي (٤٢٥٨)، ومسلم في النكاح (١٤١٠)، وأبو داود (١٨٤٤)، والترمذي (٨٤٢)، والنسائي (٢٨٣٧)]، فَوَيْلٌ أَسْتَدْرَكَ عَلَيْهِ، وَعُدَّ مِنْ وَهْمِهِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: وَوَهْمُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وَإِنْ كَانَتْ خَالَتُهُ، مَا تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا بَعْدَ مَا حَلَّ، ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ. [قال الأرناؤوط: أثر سعيد بن المسيب ليس في البخاري، وإنما هو عند أبي داود (١٨٤٥) والبيهقي].

وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ الْأَصَمِّ عَنْ مَيْمُونَةَ: «تَزَوَّجَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ حَلَالَانِ بِسَرِّفٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[مسلم (١٤١١)، وأبو داود (١٨٤٣)، وابن ماجه (١٩٦٤)، وأحمد (٣٣٣-٣٣٥).]
وَقَالَ أَبُو رَافِعٍ رضي الله عنه: «تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَيْمُونَةَ، وَهُوَ حَلَالٌ، وَبَنَى بِهَا وَهُوَ حَلَالٌ، وَكُنْتُ الرَّسُولَ بَيْنَهُمَا» صَحَّ ذَلِكَ عَنْهُ. [أخرجه أحمد ٦/ ٣٩٣، والترمذي (٨٤١) من حديث حماد بن زيد عن مطر الوراق عن ربيعة عن سليمان بن يسار عن أبي رافع رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن، ولا نعلم أحداً أسنده غير حماد بن زيد عن مطر الوراق، ومطر الوراق لا يحتج بحديثه، وقد رواه مالك، وهو أضعف منه عن سليمان بن يسار مرسلاً، على أن أبا عمر بن عبد البر أعلاه بالانقطاع بين سليمان بن يسار وأبي رافع رضي الله عنه].

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ يَزْعُمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَكَحَ مَيْمُونَةَ، وَهُوَ مُحْرِمٌ، وَإِنَّمَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ، وَكَانَ الْحِلُّ وَالنَّكَاحُ جَمِيعًا، فَشَبَّهَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ تَزَوَّجَهَا قَبْلَ أَنْ يُحْرِمَ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ وَكَلٌّ فِي الْعَقْدِ عَلَيْهَا قَبْلَ إِحْرَامِهِ، وَأَظُنُّ الشَّافِعِيَّ ذَكَرَ ذَلِكَ قَوْلًا، فَالْأَقْوَالُ ثَلَاثَةٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَزَوَّجَهَا بَعْدَ حِلِّهِ مِنَ الْعُمَرَةِ، وَهُوَ قَوْلُ مَيْمُونَةَ نَفْسِهَا، وَقَوْلُ السَّفِيرِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ أَبُو رَافِعٍ رضي الله عنه، وَقَوْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَجُمْهُورِ أَهْلِ النَّقْلِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ تَزَوَّجَهَا وَهُوَ مُحْرِمٌ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [ينظر: الفتح ٩/ ١٤٣، فقد جاء فيه: أن حديث ابن عباس جاء مثله صحيحاً عن عائشة وأبي هريرة...، وَأَهْلُ الْكُوفَةِ وَجَمَاعَةٌ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ تَزَوَّجَهَا قَبْلَ أَنْ يُحْرِمَ.

وَقَدْ حُمِلَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ تَزَوَّجَهَا، وَهُوَ مُحْرِمٌ، عَلَى أَنَّهُ تَزَوَّجَهَا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، لَا فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، قَالُوا: وَيُقَالُ: أَحْرَمَ الرَّجُلُ: إِذَا عَقَدَ الْإِحْرَامَ، وَأَحْرَمَ: إِذَا دَخَلَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَإِنْ كَانَ حَلَالًا، بِدَلِيلِ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

فَقَتَلُوا ابْنَ عَفَّانَ الْخَلِيفَةَ مُحَرِّمًا وَرِعًا، فَلَمْ أَرِ مِثْلَهُ مَقْتُولًا

وَأَمَّا قَتْلُوهُ فِي الْمَدِينَةِ حَلَالًا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ. [وإلى هذا التأويل جنح ابن حبان، فجزم به في صحيحه]. وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَنْكِحُ الْمُحْرِمُ، وَلَا يَنْكِحُ، وَلَا يَخْطُبُ» [مسلم (١٤٠٩)، والترمذي (٨٤٠)، وأبو داود (١٨٤١)، والنسائي (٢٨٤٢)، وابن ماجه (١٩٦٦)]، وَلَوْ قُدِّرَ تَعَارُضُ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ هَاهُنَا، لَوَجِبَ تَقْدِيمُ الْقَوْلِ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ مُوَافِقٌ لِلْبَرَاءَةِ الْأَصْلِيَّةِ، وَالْقَوْلُ نَاقِلٌ عَنْهَا، فَيَكُونُ رَافِعًا لِحُكْمِ الْبَرَاءَةِ الْأَصْلِيَّةِ، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِقَاعِدَةِ الْأَحْكَامِ، وَلَوْ قُدِّمَ الْفِعْلُ، لَكَانَ رَافِعًا لِمُوجِبِ الْقَوْلِ، وَالْقَوْلُ رَافِعٌ لِمُوجِبِ الْبَرَاءَةِ الْأَصْلِيَّةِ، فَيَلْزِمُ تَغْيِيرُ الْحُكْمِ مَرَّتَيْنِ، وَهُوَ خِلَافٌ قَاعِدَةِ الْأَحْكَامِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٧٢-٢٧٤].

٤٠ - يجوز عقد النكاح للمُحْرَمِ:

يقول د/ فيض الله: «هذه مسألة فقهية مشهورة بين الفقهاء، ومع ذلك كانت محل خلاف بينهم: ومع اتفاقهم على تحريم الوطء ودواعيه، اختلفوا في النكاح: ومذهب الحنفية جواز عقد النكاح والخطبة، استدلالاً بخطبة ميمونة وزواجها، وقد كان النبي ﷺ معتمراً عمره القضاء.

ومذهب الجمهور عدم الجواز، وصرح النووي من الشافعية وابن قدامة من الحنبلية بالبطلان، وصرح المالكية بفسخ النكاح بعد البناء وقبله، ولعلهم ذهبوا إلى أن نكاح ميمونة كان بعد التحلل. وبعض الذين كتبوا في فقه السيرة من الشافعية الملتزمين، أطلقوا القول بجواز عقد النكاح حال الإحرام بحج أو عمرة، استدلالاً بنكاح ميمونة أثناء إحرامه في مكة؛ وإنما المُحَرَّم مباشرة النساء أثناء ذلك، وهذا غير سليم عند الجمهور، إلا الحنفية، والكاتب من الشافعية الملتزمين». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٣٣١].

٤١ - لا يشترط في المولى على النفس أن يكون ذا رحم:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من زواج الرسول ﷺ بميمونة أن المولى على النفس بالنسبة للزواج لا يشترط فيه أن يكون ذا رحم من المرأة التي يزوجه، فهذا هو ذا العباس رضي الله عنه يزوج ميمونة لرسول الله ﷺ وليس بذی رحم محرم منها، والرسول ﷺ يقره على هذا ولا ينكره، فكان هذا سنة تقريرية من سنن أبي القاسم رضي الله عنه. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٨٧].

٤٢ - التنافس على فعل الخير:

يقول د/ الحميدي: «في الخبر الأخير بيان اختصاص علي بن أبي طالب وجعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة رضي الله عنهم في بنت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهم أجمعين، وهو مثل من التنافس على فعل الخير،

فكل واحد منهم يريد أن يكفلها لينال بذلك أجر كفالة اليتيم، وكل واحد منهم أحلّ بما يسوّغ أحقيته في ذلك، فعلي وجعفر ابنا عمها ولكن يزيد جعفر في كون خالتها زوجته، ويحتج علي أيضًا بكونه سبق إلى أخذها، وزيد يذكر أنها ابنة أخيه، وكان النبي ﷺ قد آخى بينه وبين حمزة ؓ، ولكن النبي ﷺ في حكمه بينهم قد نظر إلى مصلحة البنت، ففضى بها لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم، ثم إنه ﷺ من كمال خلقه وعظمة مشاعره أراد أن يُطيب قلوب هؤلاء الصفوة الذين تنافسوا على الخير فذكر منقبة لكل واحد منهم حيث قال لعلي ؓ: (أنت مني وأنا منك)، وقال لجعفر ؓ: (أشبهت خلقي وخلقي)، وقال لزيد ؓ: (أنت أخونا ومولانا)، فما أعدله ﷺ حاكمًا وما أعظمه مربيًا!!.

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ٨٦-٨٧].

٤٣ - المؤاخاة بين حمزة وزيد ؓ :

قال ابن القيم: «وَقَوْلُ زَيْدٍ: ابْنَةُ أَخِي، يُرِيدُ الْإِخَاءَ الَّذِي عَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَمْزَةَ ؓ لَمَّا وَآخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنَّهُ وَآخَى بَيْنَ أَصْحَابِهِ مَرَّتَيْنِ، فَوَآخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ قَبْلَ الْهَجْرَةِ عَلَى الْحَقِّ وَالْمَوَاسَاةِ، وَآخَى بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَبَيْنَ حَمْزَةَ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَبَيْنَ عُثْمَانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَبَيْنَ الزُّبَيْرِ وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَبَيْنَ عُيَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ وَبِلَالٍ، وَبَيْنَ مُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ وَسَعْدِ ابْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَبَيْنَ أَبِي عُيَيْدَةَ وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ، وَبَيْنَ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ وَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ؓ. وَالْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ: آخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي دَارِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ بَعْدَ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ.»

[زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٧٧-٣٧٨].

٤٤ - صاحب القلب الكبير والعقل الواسع ﷺ يحكم في قضية ابنة حمزة ؓ :

يقول د/ أبو شهبه: «وإن لنا هنا لوقفة عند هذه القضية الشائكة، فكل من الثلاثة أدلى بحجته، وعلي وجعفر ؓ تربطهما بالنبي ﷺ صلة القرابة الوثيقة، وهما بالنسبة للبنت أبناء عمومة، وزيد ؓ تربطه بالنبي ﷺ علاقة تربية ومحبة، بهما أثر النبي ﷺ على أهله حتى تبناه النبي ﷺ، ثم أبطل ذلك الإسلام فيما أبطل، قضية محيرة حقًا، ولكن القلب الكبير والعقل الواسع قضى فيها خير ما يكون القضاء، فزيد ؓ مهما نال من شرف الأخوة وحققها لحمزة ؓ فهو دون علي وجعفر ؓ في استحقاق ابنة حمزة ؓ، وقد يرى بعض بني هاشم في تربيتها في بيت مولى لهم ما يخل بمنزلتهم في قریش، أو ترى البنت الهاشمية في ذلك غضاضة عليها، فبقي التفاضل بين علي وجعفر ؓ، كلاهما من بني هاشم، وكلاهما ابن عم لها، كلاهما من السابقين الأولين من المهاجرين ومنزلتها في الإسلام معروفة، فليكن التفاضل بما وراء ذلك، فمن ثم قضى بها لجعفر ؓ؛ لأن خالتها عنده والخالة كما قال الصادق المصدوق بمنزلة الأم.

وقد يبدو بادئ الرأي أن علياً عليه السلام كان أولى بها؛ لأنه ابن عم، وزوجه بنت عم لها، ولكن كيف؟ وابنة العم مهما بلغت من الكرم والتسامح والراعية لن تكون كالحالة، وربما ترى في وجود ابنة العم معها - وهي من تحل لزوجها - منافساً لها، فلا تعجب إذا كان صاحب القلب المضيء، والنظر الرحيب، قد قضى - بهذا القضاء العادل الحكيم، فقضى بها لجعفر عليه السلام، أو إن شئت الدقة فقل لخالتها التي عنده: أساء بنت عميس، وهي من هي ديناً وخلقاً وتضحية في سبيل الله ورسوله.

ولا يخف على العارف بالنفوس البشرية وما يدب فيها من الخواطر والهواجس ما عسى أن يداخل نفوسهم من ألم أو خواطر لفوات ما كانت تحب وتهوى، أو هوان وضعف منزلة، فيطيب خاطر الثلاثة بهذه الأوصاف المشرفة الموزونة عادل دقيق، لا يمكن أن يكون إلا ممن أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً، وبهذا جمع النبي ﷺ بين جلال الحق العادل وجمال تطيب خاطر.

[السيرة النبوية لأبي شعبة ٢/ ٣٧٩-٣٨٠].

ويقول د/ الغضبان: «وإذا كانت ميمونة رضي الله عنها قد أقرت عينها بصحبة المصطفى ﷺ وزواجها منه، فإن ابنة أختها سلمى بنت عميس، وهي عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، لم تطق أبداً أن تبقى أسيرة في مكة... بعد أن رأت الحبيب المصطفى ﷺ يخرج منها. (فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَبَعَثَهُمْ ابْنَهُ هَمْرَةَ ﷺ: يَا عَمُّ! يَا عَمُّ! فَتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فَأَخَذَ يَبْدِيهَا، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: دُونَكَ ابْنَةُ عَمَلِكِ).

[البخاري في الصلح (٢٦٩٩)، ومسنند أحمد ٣٠/ ٥٩٤، ١٨٦٣٥، ١٨٦٣٦، والدارمي في السير (٢٥٠٧)].

والرواية الثانية تؤكد استئذان علي عليه السلام النبي ﷺ في أخذها معه كما روى ابن عباس رضي الله عنهما: قَالَ: إِنَّ عُمَارَةَ بِنْتَ هَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - وَأُمُّهَا سَلْمَى بِنْتُ عُمَيْسٍ - كَانَتْ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلَّمَ عَلِيَّ ﷺ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: عَلَامَ تَتْرُكُ بِنْتَ عَمَّنَا يَتِيمَةً بَيْنَ ظَهْرِي الْمُشْرِكِينَ؟ فَلَمْ يَنْهَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إِخْرَاجِهَا، فَخَرَجَ بِهَا. [الغازي للواقدي ٢/ ٧٣٨].

وابنة الشهيد حمزة بن عبد المطلب عليه السلام، لا عجب أن يتخاصم في رعايتها سادة المسلمين وقادتهم: زيد بن حارثة، وعلي بن أبي طالب، وأخوه جعفر بن أبي طالب عليه السلام، وأهل كل واحد من هؤلاء السادة العظام بحجته.

(قال علي عليه السلام: أنا أخذتها وهي ابنة عمي) فهو الذي اهتم بها، واستأذن من أجلها، وجاء بها إلى مكة، فمن أين أتته هذه المنافسة من هذين الحبيين على رعايتها.

(وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي) فإذا استوى جعفر وعلي رضي الله عنهما في القرابة من ابنة حمزة، وفاق علي عليه السلام جعفرًا عليه السلام في إحضارها، فقد فاق جعفر أخاه علياً في أن خالة عمارة أساء بنت عميس هي زوج جعفر، فهذا أرفق بقلبها، واهداً لنفسها أن تترى وتنمو في بيت خالتها.

ثم أهل زيد عليه السلام بدلوله قائلًا: (وقال زيد: ابنة أخي) إذ أخي رسول الله عليه السلام بين زيد بن حارثة وحمة بن عبد المطلب عليه السلام، وانطلاقًا من هذا الحب وهذا الوفاء، كان لابد من حَكَم يفصل بينهم، فاختاروا رسول الله عليه السلام ليفض هذه المنازعة العجيبة في التاريخ، المنازعة على الرعاية والتربية لابنة الشهيد حمزة عليه السلام. وقبل أن يحكم رسول الله عليه السلام لأحد هؤلاء الثلاثة العظام وجدها فرصة سانحة أن يعرف الجيل المؤمن بهؤلاء القادة الكبار الثلاثة، وخاصة وقد جاء وافدون جدد أربوا على الخمسمائة، وكانوا في الجيش الإسلامي لا يعرفون الفضل السابق لهؤلاء القادة، وحتى تطيب نفوس هؤلاء القادة العظام رضا بالحكم قال عليه السلام: «أَنَا أَحْكُم بَيْنَكُمْ: أَمَا أَنْتَ يَا زَيْدُ فَمَوَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَمَا أَنْتَ يَا عَلِيُّ فَأَخِي وَصَاحِبِي، وَأَمَا أَنْتَ يَا جَعْفَرُ فَتَشْبِهُ خَلْقِي وَخُلُقِي، وَأَنْتَ يَا جَعْفَرُ أَحَقُّ بِهَا، تَحْتَكُ خَالَتُهَا، وَلَا تُنْكِحُ الْمَرْأَةَ عَلَى خَالَتِهَا، وَلَا عَلَى عَمَّتِهَا»، فَقَضَى بِهَا لِجَعْفَرٍ عليه السلام. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٩].

وفي رواية البخاري: فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ عليه السلام خَالَتِهَا، وَقَالَ: «الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ».

[البخاري في الصلح (٢٦٩٩)، ومسند أحمد ٣٠/ ٥٩٤ رقم ١٨٦٣٥، ١٨٦٣٦، والدارمي في السير (٢٥٠٧)].
إنها مناسبة رأها رسول الله عليه السلام ليعرف هؤلاء القادة بفضلهم، ويعرف الأمة بفضلهم كذلك، وتعرف الأجيال القادمة فيما بعد بفضلهم، وإلا فالحكم لا يحتاج إلى مثل هذا القول، ودعوة هؤلاء القادة، أن يعرف كل واحد منهم فضل أخيه وصاحبه.

ونعود لابنة حمزة عليه السلام وقد وطئت ثرى المدينة، لقد كان لها هم عظيم، وهي تعرف أنها بنت أسد الله ورسوله، تريد أن تعرف قبر أبيها وتزوره، ويكفيها شعورًا بعظمة أبيها، ما كانت تحسه من حقد عليه في صفوف المشركين.

ومضت إلى قبر أبيها العظيم، وعرف شاعر الإسلام العظيم أن عمارة بنت حمزة جاءت تبحث عن قبر أبيها حمزة عليه السلام، وهو الذي كان يوم أُحُد كأنها هو الشهيد الوحيد للمسلمين، فقد بكت الأنصار عليه جميعًا قبل بكائها على قتلاها، ولعل ذاكرة عمارة (أو أمانة) تعي شيئًا من هذا، (فطفقت أمامه حين قدمت المدينة تسأل عن قبر أبيها ومصرعه فبلغ ذلك حسنًا عليه السلام فقال يرثي حمزة عليه السلام):

تَسَائِلُ عَنْ قَرْمِ هِجَانٍ سَمِيدٍ لَدَى الْبَاسِ مِغْوَارِ الصَّبَاحِ جَسُورِ^(١)
أَخِي ثِقَةٍ يَهْتَزُّ لِلْعُرْفِ وَالنَّدَى بَعِيدِ الْمَدَى فِي النَّائِيَاتِ صَبُورِ

(١) القرم والمقرم: السيد المعظم. السמיד: قيل: الشجاع، وقيل: الكريم السيد الموطأ الإكاف الجميل الجسم. البأس: الشدة في الحرب. مغوار: كثير الغارات على أعدائه، ومغوار الصباح: أي مغوار في الصباح. شرح ديوان حسان للبرقوقي ١٨٦.

فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الشَّهَادَةَ رَاحَةٌ
فَإِنَّ أَبَاكَ الْخَيْرَ حَمْزَةً فَاعْلَمِي
دَعَاهُ إِلَهُ الْخَلْقِ ذُو الْعَرْشِ دَعْوَةً
فَذَلِكَ مَا كُنَّا نُرْجِيهِ وَنَرْجِيهِ
فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا
عَلَى أَسَدِ اللَّهِ الَّذِي كَانَ مِدْرَهَا
وَرِضْوَانُ رَبِّ يَا أَمَامَ غُصُورٍ^(١)
وَزِيرُ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرٌ وَزِيرٍ
إِلَى جَنَّةٍ يَرْضَى بِهَا وَشُرُورٍ
لِحَمْزَةِ يَوْمِ الْحَشْرِ خَيْرٌ مَصِيرٍ
وَلَا بَكِيٍّ فِي مَحْضَرِي وَمَسِيرِي
يَذُودُ عَنِ الْإِسْلَامِ كُلَّ كُفُورٍ

[الإصابة ١٣/٨، وديوان حسان بن ثابت ١/١٣٢].

لقد وجدها فرصة سانحة ليعيد ذكرى حمزة الشهيد ﷺ بمناسبة سؤال ابنة حمزة عن قبر أبيها، حيث رأت عظيم مقامه في المدينة، من خلال تفاعل أهلها وسرورهم ببنت الشهيد العظيم، وينظر علي ﷺ إلى ابنة عمه الشهيد العظيم، فلا يرى أهلاً لزواجها إلا من سيد الخلق محمد ﷺ.

عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا لَكَ تَنَوَّقَ فِي فُرَيْشٍ وَتَدَعُنَا، قَالَ: «وَعِنْدَكَ أَحَدٌ [وَعِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟]»، قُلْتُ: نَعَمْ، بِنْتُ [ابْنَةٍ] حَمْزَةً، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا لَا تَحِلُّ لِي، إِنَّمَا [هِيَ] ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ». [مسلم في الرضاع (١٤٤٦)، والنسائي في النكاح (٣٣٠٤)، ومسنَد أحمد عن علي ﷺ رقم ٩١٦، ٦٢١، ١٠٤١، ١١٠٢، ١٣٦١].

فهل كانت بنت حمزة ﷺ تدرك ذلك، فنادته: يا عم، يا عم، ولم تناده: يا ابن عم، أو أنه هو أدم الصغار مع الكبار حيث ينادونهم بالعمومة، أو الخفولة بغض النظر عن طبيعة القرابة - الله أعلم بذلك. وهكذا انضم وافدان جديدان إلى المجتمع الإسلامي الجديد الذي قلَّ انتساب النساء إليه، فأصبحن نماذج معدودة أمثال اللاتي هاجرن بدينهن هرباً من مكة ومن الفتنة فيها، وكان هذان الوافدان الجديدان هما: ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ، وابنة أختها عمارة، أو أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب وبنت سلمى بنت عميس زوجه. [التربية الجماعية للغضبان ١/ ٧٥-٧٧].

٤٥ - أحكام شرعية من قصة ابنة حمزة ﷺ:

قال ابن القيم: «وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنَ الْفِقْهِ: أَنَّ الْحَالَةَ مُقَدِّمَةٌ فِي الْحَضَانَةِ عَلَى سَائِرِ الْأَقَارِبِ بَعْدَ الْأَبَوَيْنِ.

وَأَنَّ تَزْوُجَ الْحَاضِنَةِ بِقَرِيبٍ مِنَ الطِّفْلِ لَا يُسْقِطُ حَضَانَتَهَا. نَصَّ أَحْمَدُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ عَلَى أَنَّ تَزْوُجَهَا لَا يُسْقِطُ حَضَانَتَهَا فِي الْجَارِيَةِ خَاصَّةً، وَاحْتِجَّ بِقِصَّةِ بِنْتِ حَمْزَةَ هَذِهِ، وَلَمَّا كَانَ ابْنُ الْعَمِّ

لَيْسَ مُحَرَّمًا لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَجْنَبِيِّ فِي ذَلِكَ، وَقَالَ: تَزَوُّجُ الْحَاضِنَةِ لَا يُسْقِطُ حَصَانَتَهَا لِلْجَارِيَةِ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَا يَكُونُ تَزَوُّجُهَا مُسْقِطًا لِحَصَانَتِهَا بِحَالٍ ذَكَرًا كَانَ الْوَلَدُ أَوْ أُثْنَى.

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي سُقُوطِ الْحَصَانَةِ بِالنِّكَاحِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: تَسْقُطُ بِهِ ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُثْنَى، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَبِي حَنِيفَةَ، وَأَحْمَدَ فِي إِحْدَى الرُّوَايَاتِ عَنْهُ.

وَالثَّانِي: لَا تَسْقُطُ بِحَالٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَابْنِ حَزْمٍ.

وَالثَّلَاثُ: إِنْ كَانَ الطِّفْلُ بَنَاتًا، لَمْ تَسْقُطِ الْحَصَانَةُ، وَإِنْ كَانَ ذَكَرًا سَقَطَتْ، وَهَذِهِ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ مُهَنَّاتٍ: إِذَا تَزَوَّجَتْ الْأُمُّ وَابْنُهَا صَغِيرٌ أَخَذَ مِنْهَا، قِيلَ لَهُ: وَالْجَارِيَةُ مِثْلُ الصَّبِيِّ؟ قَالَ: لَا، الْجَارِيَةُ تَكُونُ مَعَهَا إِلَى سَبْعِ سِنِينَ، وَحَكَى ابْنُ أَبِي مُوسَى رِوَايَةَ أُخْرَى عَنْهُ: أَنَّهَا أَحَقُّ بِالْبَيْتِ وَإِنْ تَزَوَّجَتْ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ.

وَالرَّابِعُ: أَنَّهَا إِذَا تَزَوَّجَتْ بِنَسَبٍ مِنَ الطِّفْلِ، لَمْ تَسْقُطِ حَصَانَتُهَا، وَإِنْ تَزَوَّجَتْ بِأَجْنَبِيٍّ سَقَطَتْ، ثُمَّ اخْتَلَفَ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ يَكْفِي كَوْنُهُ نَسَبًا فَقَطْ، مُحَرَّمًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحَرَّمٍ، وَهَذَا ظَاهِرُ كَلَامِ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَإِطْلَاقِهِمْ.

الثَّانِي: أَنَّهُ يُشْتَرَطُ كَوْنُهُ مَعَ ذَلِكَ ذَا رَجَمٍ مُحَرَّمٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَنَفِيَّةِ.

الثَّلَاثُ: أَنَّهُ يُشْتَرَطُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الطِّفْلِ وَلَادَةٌ، بَأَنْ يَكُونَ جَدًّا لِلطِّفْلِ، وَهَذَا قَوْلُ بَعْضِ أَصْحَابِ أَحْمَدَ، وَمَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ.

وَفِي الْفِصَّةِ حُجَّةٌ لِمَنْ قَدَّمَ الْحَالَةَ عَلَى الْعَمَّةِ، وَقَرَابَةِ الْأُمِّ عَلَى قَرَابَةِ الْأَبِ، فَإِنَّهُ قَضَى بِهَا لِحَالَتِهَا، وَقَدْ كَانَتْ صَفِيَّةُ عَمَّتُهَا مَوْجُودَةً إِذْ ذَاكَ، وَهَذَا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ، وَمَالِكٍ، وَأَبِي حَنِيفَةَ، وَأَحْمَدَ فِي إِحْدَى الرُّوَايَتَيْنِ عَنْهُ.

وَعَنْهُ رِوَايَةٌ ثَانِيَةٌ: أَنَّ الْعَمَّةَ مُقَدَّمَةٌ عَلَى الْحَالَةِ - وَهِيَ اخْتِيَارُ سَيْخِنَا (ابن تيمية) -.

وَكَذَلِكَ نِسَاءُ الْأَبِ يُقَدَّمْنَ عَلَى نِسَاءِ الْأُمِّ؛ لِأَنَّ الْوِلَايَةَ عَلَى الطِّفْلِ فِي الْأَصْلِ لِلْأَبِ، وَإِنَّمَا قُدِّمَتْ عَلَيْهِ الْأُمُّ لِمَصْلَحَةِ الطِّفْلِ وَكَمَالِ تَرْبِيَّتِهِ، وَشَفَقَتِهَا وَحُنُوهَا، وَالْإِنَاثُ أَقْوَمُ بِذَلِكَ مِنَ الرِّجَالِ، فَإِذَا صَارَ الْأُمُّ إِلَى النِّسَاءِ فَقَطْ، أَوْ الرِّجَالِ فَقَطْ، كَانَتْ قَرَابَةُ الْأَبِ أَوْلَى مِنْ قَرَابَةِ الْأُمِّ، كَمَا يَكُونُ الْأَبُ أَوْلَى مِنْ كُلِّ ذَكَرٍ سِوَاهُ، وَهَذَا قَوِيٌّ جِدًّا.

وَيُجَابُ عَنْ تَقْدِيمِ حَالَةِ ابْنَةِ حَمْرَةَ عَلَى عَمَّتِهَا بِأَنَّ الْعَمَّةَ لَمْ تَطْلُبِ الْحَصَانَةَ، وَالْحَصَانَةُ حَقٌّ لَهَا يُقْضَى لَهَا بِهِ بِطَلَبِهِ، بِخِلَافِ الْحَالَةِ، فَإِنَّ جَعْفَرًا عليه السلام كَانَ نَائِبًا عَنْهَا فِي طَلَبِ الْحَصَانَةِ؛ وَلِهَذَا قَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لَهَا فِي عَمِيَّتِهَا.

وَأَيْضًا فَكَمَا أَنَّ لِقَرَابَةِ الطِّفْلِ أَنْ يَمْنَعَ الْحَاضِنَةَ مِنْ حَضَانَةِ الطِّفْلِ إِذَا تَزَوَّجَتْ، فَلِلزَّوْجِ أَنْ يَمْنَعَهَا مِنْ أَخْذِهِ وَتَقَرُّغِهَا لَهُ، فَإِذَا رَضِيَ الزَّوْجُ بِأَخْذِهِ حَيْثُ لَا تَسْقُطُ حَضَانَتُهَا لِقَرَابَتِهِ، أَوْ لِكُونِ الطِّفْلِ أُنْثَى عَلَى رِوَايَةٍ، مُكِّنَتْ مِنْ أَخْذِهِ وَإِنْ لَمْ يَرْضَ، فَالْحَقُّ لَهُ وَالزَّوْجُ هَا هُنَا قَدْ رَضِيَ وَخَاصَمَ فِي الْقِصَّةِ، وَصِفِيَّةٌ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا طَلَبٌ.

وَأَيْضًا فَبِإِنْ الْعَمَّ لَهُ حَضَانَةُ الْجَارِيَةِ الَّتِي لَا تُشْتَهَى فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ، بَلْ وَإِنْ كَانَتْ تُشْتَهَى، فَلَهُ حَضَانَتُهَا أَيْضًا، وَتُسَلِّمُ إِلَى امْرَأَةٍ ثِقَةٍ يُخْتَارُهَا هُوَ، أَوْ إِلَى مُحَرِّمِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمُخْتَارُ لِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ عَصَبَاتِهَا، وَهُوَ أَوْلَى مِنَ الْأَجَانِبِ وَالْحَاكِمِ، وَهَذِهِ إِنْ كَانَتْ طِفْلاً فَلَا إِشْكَالَ، وَإِنْ كَانَتْ مِمَّنْ يُشْتَهَى، فَقَدْ سَلِّمَتْ إِلَى خَالَتِهَا، فَهِيَ وَزَوْجُهَا مِنْ أَهْلِ الْحَضَانَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٧٥-٣٧٧].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «إن هذه القصة أفادت أحكاماً في الحضانة وفي الولاية على النفس، وفي ولاية التزويج في الحضانة، فقد أثبت أن الحضانة لا بد في أن تمسك الحضانة عند ذي رحم محرم، وجعفر ﷺ كان ذا رحم، وكان محرماً لها؛ لأنها ابنة أخيه رضاعاً وامرأته خالته، ولا يتزوجها على خالتها.

وأفادت أن الولي على النفس بالنسبة للزواج لا يشترط أن يكون ذا رحم محرم، فإن النبي ﷺ تزوجها، وهو غاصب ليس ذا رحم محرم منها.

وأثبت أن الأولياء إذا كانوا في مرتبة واحدة زوج أفضلهم، فكان جعفر وعلي، ورسول الله ﷺ أولاد عم، فزوج النبي ﷺ.

ودل الخبر على أن الولي العاصب الأقرب إذا غاب قام في الولاية من يليه في القرب، والولي الأقرب هو العباس ﷺ، وكان قد أسلم، وهو عمها، والباقي أولاد عمها، فهو أقرب منهم جميعاً، ولكنه كان غائباً، فيتولى التزويج من يليه، فتولى أفضل من يليه». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٩٤٧].

٤٦ - مَا يَسْتَفَادُ مِنْ هَجْرَةِ بِنْتِ حَمْزَةَ ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «والذي يقرأ قصة هجرة بنت حمزة ﷺ مع الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة يستفيد منها دروساً وأموراً وأحكاماً، أهمها:

١- الخالة بمنزلة الأم.

٢- الخالة تُقدم على غيرها في الحضانة إذا لم يوجد الأبوان.

٣- تزكية رسول الله ﷺ لجعفر بن أبي طالب ﷺ، ووصفه له بقوله: أشبهت خلقي وخلقي.

ولنا أن نسأل ماذا كان خلق الرسول ﷺ حتى نعلم خلق جعفر بن أبي طالب ﷺ؟

والجواب عند عائشة - رضي الله تعالى عنها - حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ: «كَانَ خُلُقُهُ

الْقُرْآنَ، يَرْضَى لِرِضَا، وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ». [هذه رواية أبي الدرداء ﷺ أخرجه البيهقي في الدلائل ١/ ٣٠٩، وعزاها

الشوكاني في فتح القدير ٥/ ٢٧٠ إلى ابن المنذر، وابن مردويه، وذكرها ابن كثير في شتات الرسول ﷺ ١/ ٧٤، عن يعقوب بن سفيان بسنده إلى أبي الدرداء ؓ. ينظر: أخلاق النبي ﷺ للحداد ١/ ٧٧ هامش ٥].

ويشهد لرسولنا رب العزة ﷻ بمتانة خلقه، وعظيم صفاته الخلقية بقوله ﷻ مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم].

٤- منقبة علي ؓ: تأمل قوله ﷺ: أنت مني وأنا منك، والمعنى أنت مني وأنا منك في النسب والصهر والسابقة والمحبة.

٥- منقبة زيد بن حارثة ؓ: يقول له الرسول ﷺ: أنت أخونا ومولانا، تأمل هذه العبارة يقول الرسول ﷺ لخادمه أنت أخونا؛ لأنه كان أخاً لحمزة بن عبد المطلب ؓ، فقد آخى الرسول ﷺ بينهما، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ما على الأخ الشقيق من واجبات، والواجب هنا أن يكون ولياً على بنت حمزة ؓ.

٦- الخالة تُقدم على العمه في الحضانة: لقد حكم النبي ﷺ إلى زوجة جعفر بالحضانة وعمتها صفية بنت عبد المطلب حية موجودة.

٧- زواج المرأة لا يُسقط حقها في الحضانة: فقد حكم الرسول ﷺ بالحضانة لخالة بنت حمزة وهي متزوجة من جعفر بن أبي طالب ؓ.

٨- لا بد من موافقة الزوج على حضانة زوجته لابنة أختها؛ لأن الزوجة محتسبة لمصلحته ومنفعته، والحضانة قد تفوت هذه المصلحة جزئياً، فلا بد من استئذانه، ونلاحظ هنا أن جعفر ابن أبي طالب ؓ قد طالب بحضانة بنت عمه حمزة لخالتها وهي زوجة له، فدل على رضاه بذلك.

٩- هجرة بنت حمزة ؓ تدل على أن النساء لم يدخلن في الاتفاقية، ومن ثم فلا تُرد إلى مكة؛ ولذا نرى قريشاً لم تعترض على أخذ الرسول ﷺ لها. [قلت: إن هذا الشرط في صلح الحديبية قد ألغته قريش نفسها بعد حادثة أبي بصير ؓ].

١٠- إن الطفل إذا رضع مع عمه يصبح أخاً له في الرضاعة، وتصبح بناته بنات أخيه في الرضاعة، فيحرم عليه نكاحهن.

ومن الجدير بالذكر أن حمزة بن عبد المطلب ؓ ورسول الله ﷺ قد رضعا من ثوية، فأصبحا أخوين». [ينظر: عمدة القاري ١٧/ ٢٦٥]. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٨٥-٢٨٧].

٤٧- الأمانة والوفاء عند المسلمين:

يقول ل/ خطاب: «حرص المسلمون على الوفاء بعهودهم كل الحرص، ولم يحاولون بتاتاً أن ينتهزوا الفرص السانحة للقضاء على خصومهم حرصاً على الوفاء بتلك العهود.

كان بإمكان المسلمين احتلال مكة في أيام عمرة القضاء والبقاء فيها، وفعلًا أراد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أن يقذف في وجه قريش بصيحة الحرب، فصَّده عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصَّده الرسول ﷺ.

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ٣١٥].

ويقول د/ الغضبان: «ويا لعظمة الوفاء، فقريش منهارة وهي عاجزة عن المواجهة، والسلاح قريب يمكن إحضاره، والرسول ﷺ في قلب مكة، ومكة بلده وأهله، وقد أُخرج منها ظلمًا وعدوانًا، وأذن له ﷺ بقتال الذين أخرجوه من دياره وماله والمسلمين معه، ومع هذا كله فلم ينزل ﷺ في بيته، ولم يظله سقف في عمرة القضاء، إنما (ضُربت له قبة من أديم بالأبطح، فكان هناك حتى خرج منها)، وكذلك فعل المهاجرون جميعًا، فلم يؤوهم سقف، ولم يذهبوا إلى بيوتهم ليستلموها، إنما جاؤوا معتمرين ثلاثة أيام، وصدر لهم الأمر بالعودة قبل المساء، فما أسسى بمكة منهم أحد.

تُرى لو كان هذا الأمر في جيش من جيوش الدنيا، من الذي يضبط هذه القلوب المواردة، ويضبط هذه النفوس المشتعلة أن تذهب إلى أهلها، فتشعل معركة مع كل معتد أثيم احتل داره، وتقع مقتلة في كل بيت لهؤلاء الكفار الذين احتلوا الديار؟

ولكن الذي يحرك هذا الجيش كله هو انتصار هذا الدين، وليس انتصار هذه النفوس على خصومها، وليست قصة الثأر والانتقام والأرض، وإن كان هذا الدافع لا يُنكر لكنه مرجوح بالدافع الأعلى في سبيل الله، وحين يتعارض لدى المؤمنين مع إيمانهم، فيسقط من حسابهم بدون شك؛ ولهذا مع الأوامر النبوية بالتحرك كان الجميع خارج مكة». [التربية الجهادية للغضبان ٤٥٩/٢ - ٤٦٠].

٤٨ - يقظة الصف الإسلامي:

يقول د/ الغضبان: «بقي علينا أن نشير إلى نقطتين تعرضان نفسية المشركين تجاه رسول الله ﷺ، وتدلان على الوعي واليقظة في الصف الإسلامي:

الأولى: هي حرص القاعدة الصلبة على قائدها ألا يمسه أذى أو سوء من سفهاء القوم، وكما قال ابن أبي أوفى رضي الله عنه: لَمَّا اعْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرَنَاهُ مِنْ غِلْمَانِ الْمُشْرِكِينَ وَمِنْهُمْ، أَنْ يُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

[البخاري في المغازي (٤٢٥٥)].

فكانوا حوله جدارًا بشريًا صلبًا، يحول دون أي هجوم مباغت.

الثانية: أنهم فعلوا ذلك حين رأوا ثغرة ضعف حيث أراد أبو رافع أن يخرج بميمونة زوج النبي ﷺ، (فَخَرَجَ بِمَيْمُونَةٍ وَمَنْ مَعَهَا، فَلَقُوا عَنَاءً مِنْ سَفَهَاءِ الْمُشْرِكِينَ، آذَوْا بِالسِّتْرِ النَّبِيِّ ﷺ) (عرف أبو رافع رضي الله عنه كيف يقابلهم بالإرهاب المناسب قائلاً: «مَا شِئْتُمْ! هَذِهِ وَاللَّهِ الْخَيْلُ وَالسَّلَاحُ بِيْطْنٍ يَأْجِجُ! وَإِذَا الْخَيْلُ قَدْ قَرَبَتْ فَوَقَفَتْ لَنَا هُنَالِكَ وَالسَّلَاحُ».

فقد تعلّم من المدرسة النبوية كيف يواجه الأحداث المفاجئة، ويريه من نفسه قوة، تدفعهم إلى الكف عن الأذى، فكان التلميذ الأمين في هذه المدرسة، وهو المولى الذي ضربه أبو لهب من قبل حتى كاد أن يقضي عليه بعد بدر، وهو اليوم يتحدى طواغيت مكة ويخرج بميمونة ومن معها من مكة، مهذّبًا بالسلاح والخيل تغزوها». [التربية الجماعية للغضب ١/ ٧٧].

٤٩ - بروز القادة الثلاثة في مكة: سهيل وحويطب ومكرز:

يقول د/ الغضباني: «ونلاحظ أمرًا مهمًّا برز في الحديبية وفي عمرة القضاء، هذا الأمر هو:

كيف برز القادة الثلاثة: سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص على الساحة يوم الحديبية، وهم الذين يسألون ويفاوضون في عمرة القضاء، ولم يبرز لهم ذكر خلال السنوات الست الماضية حتى ولا خلال المرحلة المكية، اللهم إلا سهيل بن عمرو والذي كاد يرد اسمه أحيانًا بين أعيان مكة وملئها؟

ونسأل كذلك: لم لم يبرم المفاوضة قادة المواجهة أنفسهم أبو سفيان بن حرب، عكرمة بن أبي جهل، صفوان بن أمية، خالد بن الوليد. وأمثالهم؟

وبالتعمق في الإجابة نجد أن قادة المواجهة جميعًا هم من صلب قريش وصميمها، من فرع كعب بن لؤي هذا الفرع الذي انتشر حتى بلغ أغلبية أهل مكة قوة وشكيمة وعدداً وعدة، أما فرع عامر بن لؤي فقد انتهى فرعاً واحداً فقط من عشرة فروع، وبقي بنو عامر بن لؤي أدنى نسباً وأدنى مركزاً وقوة وشكيمة من بني كعب بن لؤي، ومن أجل ذلك تذكر كتب السيرة أن رسول الله ﷺ عندما أراد دخول مكة بعد عودته من الطائف بعث ممن بعث لهم ليدخل في جوارهم إلى سهيل بن عمرو ﷺ، فأجابه: (إن بني عامر لا تجير على بني كعب). [السيرة الحلبية ٢/ ٦٢].

فمن لا يجرون على ذلك؛ لأن المجير لا بد أن يكون من مستوى من يجير عليه في العرف الجاهلي، ولن يتمكن بنو عامر من مواجهة بني كعب بن لؤي، وإن كانوا يوم الحديبية خرجوا جميعاً لصنده كما يقول بديل بن ورقاء (جِنَّاتِكَ مِنْ عِنْدِ قَوْمِكَ، كَعْبُ بْنُ لُؤَيٍّ وَعَامِرُ بْنُ لُؤَيٍّ، قَدْ اسْتَنْفَرُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ)، وحتى تندفع عامر بن لؤي للمواجهة مع كعب بن لؤي، أسندوا أمر مكة كلها إلى قيادة ثلاثية، وذلك أثناء غياب أبي سفيان بن حرب عن مكة الذي انتهت إليه قيادة قريش، كما يروي الواقدي: (فَاجْتَمَعُوا أَمْرَهُمْ وَجَعَلُوهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ ذَوِي رَأْيِهِمْ - صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، وَسَهْلُ بْنُ عَمْرِو، وَعَكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ - فَقَالَ صَفْوَانُ: مَا كُنَّا لِنَقْطَعَ أَمْرًا حَتَّى نُسْأِرَ رُكْمُ، نَرَى أَنْ نُقَدِّمَ مَا تَنِي فَارِسٍ إِلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ، وَنَسْتَعْمِلَ عَلَيْهَا رَجُلًا جَلَدًا، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: نِعَمَ مَا رَأَيْتَ، فَقَدَّمُوا عَلَى خَيْلِهِمْ عَكْرَمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ -

وَيُقَالُ: خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - وَاسْتَنْفَرْتُ قُرَيْشَ مَنْ أَطَاعَهَا مِنَ الْأَحَابِيشِ، وَأَجْلَبْتُ ثَقِيفَ مَعَهُمْ، وَقَدَّمُوا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي الْحَيْلِ). [المغازي للواقدي ٢/ ٥٧٩].

فإذا كان سهيل قد برز من قبل واليوم، فإن حويطب ومكرز لم يكن لهما شأن يُذكر بين الزعامات في مكة.

وإذا كان عكرمة وخالد وصفوان هم أعدى العدو، فالموت أهون عليهم من أن يُذلوا أمام محمد ويصالحوه ويقبلوا دخوله مكة عليهم، فليقم في أمر الصلح الدرجة الثانية في مكة، شخصيات بني عامر بن لؤي، وهم سهيل وحويطب ومكرز، أما إن كان من مواجهة ولا بد فهؤلاء الثلاثة: عكرمة وخالد وصفوان، هم الذين سيواجهون. وفعلاً، فما تصدى لمحمد ﷺ ومواجهته يوم فتح مكة إلا عكرمة وصفوان وسهيل، أما خالد ﷺ فقد قذف الله تعالى الإسلام في قلبه، وكان هو الذي يواجه رفاق دربه الطويل، ويتنصر عليهم باسم الإسلام.

فحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو ينتهي نسبهم إلى عامر بن لؤي، ومنذ أن رأى رسول الله ﷺ سهيلاً على رأس القادمين قال: «قد أرادت قريش الصلح حين بعثت بهذا». [سبل الهدي والرشاد ٥/ ٨٥]. [التربية الجهادية للغضبان ٢/ ٤٥٧-٤٥٨].

الفصل الثامن

سرية الأخرم بن أبي العوجاء السلمي ﷺ

إلى بني سليم

ذو الحجة ٥٧هـ / أبريل (نيسان) ٦٢٩م / برمودة ٣٤٥ قبطي

المبحث الأول

عرض سرية الأخرم بن أبي العوجاء السلمي ﷺ إلى بني سليم

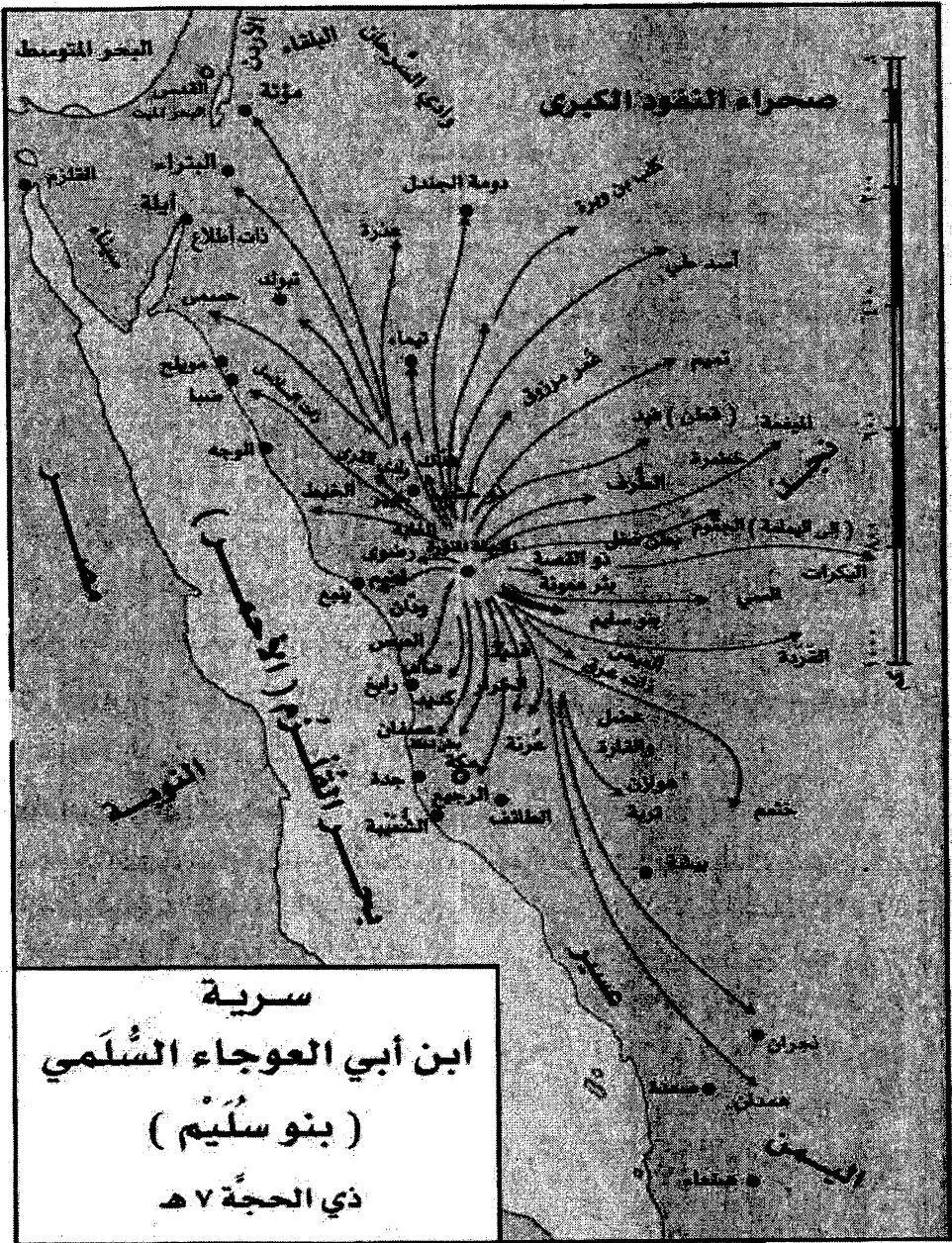
أحداث السرية:

قال الواقدي: «حدثني محمد بن الزهري، قال: لما رجع رسول الله ﷺ من عمرة القضاء سنة سبع - رجع في ذي الحجة سنة سبع - بعث ابن أبي العوجاء السلمي ﷺ في خمسين رجلاً، فخرج إلى بني سليم، وكان عين لبني سليم معه، فلما فصل من المدينة خرج العين إلى قومه فحذروهم وأخبرهم، فجمعوا جمعاً كثيراً، وجاءهم ابن أبي العوجاء ﷺ والقوم معدون له، فلما رآهم أصحاب رسول الله ﷺ ورأوا جمعهم دعوهم إلى الإسلام، فرشقوهم بالنبل ولم يسمعوا قوهم، وقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتكم إليه، فرأوهم ساعة، وجعلت الأمداد (الأعوان والأنصار) تأتي حتى أخذوا بهم من كل ناحية، فقاتل القوم قتالاً شديداً حتى قتل عامتهم، وأصيب صاحبهم ابن أبي العوجاء ﷺ جريحاً مع القتلى، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ [في أول يوم من صفر سنة ثمان] [زيادة من دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٤١-٣٤٢، والبداء والنهاية لابن كثير ٦/ ٣٩٧ لرواية الواقدي]. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٤١].

مصادر ومراجع الدراسة:

- ١ - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مزيات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ٢/ ٦٧٥ - ٦٧٦، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٧٤١، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/ ١١٥، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/ ٢٦، دلائل النبوة للبيهقي (٥٨هـ) ٤/ ٣٤١-٣٤٢، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤١٤، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٤٦٩، البداء والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٣٩٧، إمتاع الأسع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٣٣٥، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ٢١٥-٢١٦، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٩٥.
- ب - كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٥٣٥.
- ج - كتب الغزوات والسرايا: السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١١٦ - ١١٧.

خَرَائِطُ سَرِيَّةِ الْأَخْرَمِ بْنِ أَبِي الْعَوْجَاءِ السُّلَمِيِّ   إِلَى بَنِي سُلَيْمٍ



المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من

سرية ابن أبي العوجاء السلمي ﷺ إلى بني سليم

١ - جواز القتال في الأشهر الحرم:

وهذا الحكم دلت عليه سرية ابن أبي العوجاء ﷺ حيث إنها كانت في شهر ذي الحجة، وهو من الأشهر الحرم.

وقد سبق تفصيل الحديث في هذا الدرس في سرية عبد الله بن جحش ﷺ إلى نخلة.

٢ - استغلال الظروف للدعوة إلى الله ﷻ:

يقول د/ الغضبان: «نحن في تطور جديد للدعوة بعد عمرة القضية، والأصل أن سليماً وهي من القبائل المجورة للمدينة، الأصل فيها أن يلين جاسيها إلى الإسلام بعد أن شهدت استسلام قريش ودخول محمد ﷺ مكة، منيعاً بقومه وأصحابه، ولكون هذه القبيلة ذات وزن معنوي ومادي، وهي من حلفاء قريش ابتداء، وبين يدي رسول الله ﷺ صحابي ومسلم جديد من بني سليم هو الأخرم بن أبي العوجاء ﷺ فأراد أن يغزو بني سليم بهذا الدين، وأن يكون ابن سليم ابن أبي العوجاء، الخبير بالأرض والقوم والناس، وبُعث معه خمسون من المسلمين ليفتحوا هذا الباب المغلق، في محاولة لنشر الإسلام في هذا الصَّفْع.

وتشير رواية الواقدي إلى أنهم أدوا المهمة بنجاح تام، ووصلوا إلى سليم، ودعواهم إلى الله ﷻ وهذه هي المهمة الدعوية للسرية، غير أن عيناً لسليم كان في الصف الإسلامي، ومضى عائداً إلى قومه فحذرهم ووقعت المجزرة الجديدة التي تشير رواية خليفة بن خياط إلى أنهم قُتلوا جميعاً (أن ابن أبي العوجاء السلمي أصيب هو وأصحابه وقتلوا جميعاً). [تاريخ خليفة بن خياط ٤٨/١]. وقد رجح اللواء الركن محمود شيت خطاب الرواية الثانية لانقطاع أخبار ابن أبي العوجاء نهائياً بعد هذه السرية].

وعادت إلينا ثانية روائع بئر معونة التي قُتلت فيها سليم من المسلمين سبعين شهيداً، وهم سرية القراء، وهؤلاء خمسون ينضمون إلى قافلة الشهداء، وما جرى لشهداء بئر معونة لم يشن رسول الله ﷺ عن الدعوة في هؤلاء القوم، ولا يجوز أن تتوقف الدعوة خوفاً من الاستشهاد، وحين تحين الظروف المناسبة لا بد من الاستفادة منها؛ لأن الدعوة إلى الله ﷻ هي المهمة الأصيلية للمسلمين في الأرض، وليس القتل والضرب إلا وسيلة للتحرير وفتح الآفاق أمام دعوة الله ﷻ في الأرض، وكانت هذه السنة السابعة للهجرة، وقد حلت في ثناياها خمسين شهيداً من شهداء الدعوة، بعد استضافة خمسمائة شخصية إسلامية جديدة، وهذه هي طبيعة الدعوات.

(يَنَالُ مِنَّا وَتَنَالُ مِنَّهُ) والعاقبة للمتقين، وسنشهد بعد هذا الثمن العظيم الذي قدمه ابن أبي العوجاء وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما هو النصر الضخم الهائل الذي تحقق بدماء هؤلاء الشهداء فيما بعد).

[التربية الجماعية للغضبان ١/ ٧٨-٧٩].

٣- مهمة السَّريَّة واستشهاد الأبطال:

يقول ل/ خطاب: «ويبدو أنَّ هذه السرية كانت من السرايا الدعوية، فرفض بنو سُليْم قبولها، وتكاثروا على المسلمين، فأصبحت القوات غير متكافئتين، وكان التفوق عدَدًا وعدَدًا مع المشركين على المسلمين، كما أنَّ المشركين كانوا في بلادهم، يستندون على قاعدتهم، بينما كان المسلمون بعيدين عن قاعدتهم، وكانت خطوط مواصلاتهم طويلة، مما سهَّل تموين المشركين وصعب تموين المسلمين.

وهذا التفوق الكبير الذي كان مع المشركين، أدَّى إلى اندحار المسلمين دون أن يقصَّروا في أداء واجبهم، فما ضعفوا ولا استكانوا ولا استسلموا، بل قاتلوا قتال الأبطال حتى تساقطوا جميعًا شهداء في ساحة الجهاد، كما أنَّ العين الذي كان للمشركين بين المسلمين، نقل أخبار المسلمين إلى المشركين، وكشف نيات المسلمين للمشركين مبكرًا، فأعان المشركين على إحراز النصر من جهة، وأدى إلى هزيمة المسلمين من جهة أخرى، وكان من الصعب أن يُحوَّل المسلمون دون تسرُّب العيون إلى المدينة، فقد كان أولئك العيون يتظاهرون بالإسلام ويختلطون بالمجتمع الإسلامي، فمن الصعب الكشف عنهم في تلك الظروف والأحوال السائدة حينذاك.

وكان ابن أبي العَوْجَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسوة لرجاله في القتال حتى الرمق الأخير، فلم يبق عليه عتب ولا لوم، وحسبه أنَّه استشهد دفاعًا عن عقيدته ولم يتخلَّ عنها خوفًا على روحه، فمات مئة الأبطال.

[قادة النبي ﷺ لخطاب ٤٠٣-٤٠٤].

الفصل التاسع

سريّة غالب بن عبد الله اللّيثيّ ﷺ إلى الكديد

صفر ٥٨هـ / يونيه ٦٢٩ م / بؤنه ٣٤٥ قبطي

المبحث الأول

عرض سريّة غالب بن عبد الله اللّيثيّ ﷺ إلى الكديد

التعريف بالكديد:

يقول د/ بريك: «ورد ذكرها في الصحيح في قصة فتح مكة - شرفها الله - وفيها: «صام رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ الكديد الماء الذي بين قديد وعسفان أظفر». [ابن حجر، فتح ٣/٨].

وقال البكري: موضع بين مكة والمدينة بين منزلتي أمج وعسفان، وهو ماء عين جارية عليها نخل كثير لابن محرز المكي. [معجم ما استعجم - كتاب الكاف والذال].
وقال الحموي: هو موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة.

[معجم البلدان - باب الكاف والذال وما يليهما].

وقال البلادي: والكديد يعرف اليوم باسم (الحمض)، أرض بين عسفان وخليص على (٩٠) ميلاً من مكة على الجادة العظمى إلى المدينة، وسمي الحمض لكثرة نبات العصلاء فيها، وهي أرض تزرع عثرياً يسقيها وادي غران، وأهلها زبيد من حرب. [معجم معالم السيرة النبوية ٢٦٣].
[السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ٢٦٢-٢٦٣].

تاريخ السرية:

يقول د/ بريك: «اختلف أهل المغازي في تاريخ خروج هذه السرية، وقد ذكر ابن عبد البر فيما نقله عن ابن حجر كلاماً يوحى بإجماع أهل السير على وقوعها في سنة خمس من الهجرة.
[ينظر: الإصابة ٣/١٨٤].

ولكن بالرجوع إلى روايات أهل المغازي التي بين أيدينا لم أجد أحداً منهم ذكرها في حوادث السنة الخامسة سوى ابن خياط الذي ذكرها في سرايا السنة الخامسة، علماً بأنه ساق روايته بسنده عن ابن إسحاق، والذي لم يحدد لها تاريخاً في رواياته الأخرى. [ابن خياط، تاريخ ٨٧].

أما الواقدي وتلميذه ابن سعد ومن تابعهما فقد أرّخا لها في السنة الثامنة في شهر صفر منها.

[المغازي ٢/٧٥٠، والطبقات ٢/١٢٤]. [السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ٢٦٣].

سبب السرية:

يقول أ/ باشميل: «كانت قبائل الساحل الغربي (ما عدى غفار) في حالة حرب مع النبي ﷺ، وكان بنو الملوح قوة كبيرة، يخشى المسلمون أن تُحدِّثهم أنفسهم بشن الغارة على المسلمين، أو الاعتداء عليهم في أية منطقة؛ لهذا قرر النبي ﷺ - كما هي طريقته في إخضاع القبائل الوثنية وتأديبها - أن ينقل المعركة إلى ديار بني الملوح.

فكوّن كتيبة من أصحابه وأسند قيادتها إلى غالب بن عبد الله ﷺ الذي كان قد قاد عدة حملات تأديبية ناجحة ضد الأعراب الوثنيين في العهد النبوي». [غزوة مؤتة لباشميل ١٥٦-١٥٧].

ويقول د/ بريك: «نتيجة للتحركات المشبوهة والمعادية من الأعراب المحيطين بالمدينة، فضلاً عن قطعهم الطريق أمام الدعاة المسلمين، فقد قام رسول الله ﷺ بحملة واسعة ومكثفة لتأديب هؤلاء الأعراب، قاد خلالها عدة غزوات، وبعث أصحابه في سرايا تعرضية^(١) تأديبية، كان منها سرية بقيادة غالب بن عبد الله الليثي ﷺ، وقوة بضعة عشر رجلاً^(٢)، إلى بني الملوح^(٣)، القاطنين في منطقة الكديد الواقعة بين عسفان وقديد^(٤).

وكانت مهمتها بناء على الأوامر الصادرة لهم من القيادة العليا هي مباغته بني الملوح بشن غارة مفاجئة ومركزة عليهم». [السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ٢٦٢-٢٦٣].

(١) التعرض: هو التوجه بصورة عامة إلى طلب الخصم بقصد ملاقاته ومقاتلته وتدميره في ساحات القتال. العقيد/ محمد صفا، الحرب (٢١).

(٢) يقول د/ بريك: «روى ذلك الواقدي بسنده عن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: كنت معهم، وكنا بضعة عشر رجلاً ٧٥٢/٢، وتابعه كاتبه ابن سعد، طبقات ١٢٥/٢. وإن كان قد ساق روايته بسند عن ابن إسحاق الذي لم يذكر هذا الكلام في روايته عند كل من رَوَوْا عنه عدا ابن سعد.

وقد أغرب ابن كثير ﷺ فذكر أن عددهم كان مائة وثلاثين رجلاً بناء على ما ذكره الواقدي في روايته. ابن كثير، بداية ٢٢٣/٣. قال الصالحى: والواقدي ذكر ذلك في سرية لغالب ﷺ غيرها. الصالحى، سبل ٢١٨/٦.

قلت: هي سريته إلى بني عبد ثعلبة، وعوال، كما ذكر الواقدي نفسه، فلعن ابن كثير خلط بينهما. والله أعلم». السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ٢٦٢.

(٣) بنو الملوح: قال الواقدي: هم بنو ليث. مغازي (٢/ ٧٥٠) وتابعه ابن سعد رغم نقله لرواية ابن إسحاق الذي لم يذكر ذلك. طبقات (٢/ ١٢٤) وذكر ابن الكلبي: أنهم من بني يعمر. السرايا والبعوث لبريك ٢٦٢.

(٤) قديد: قرية جامعة، مذكورة في رسم الفرع، وفي رسم العقيق، وهي كثيرة المياه والبساتين، وسميت قديداً لتقصد السيول بها، وهو واد فحل من أودية الحجاز التهامية يأخذ أعلى مساقط مياهه من حرة «ذرة» فيسمى أعلاه ستارة، وأسفله قديداً، يقطعه الطريق من مكة إلى المدينة على نحو من (١٢٠) كيلوا متراً ثم يصب في البحر عند القضيمة، فيه عيون، وقرى كثيرة لحرب وبني سليم. ينظر: البكري، معجم ٣/ ١٠٥٤، والبلاذلي، معجم ٢٤٩. السرايا والبعوث لبريك ٢٦٣.

اعتقلوه تحفظاً، وهو مسلم:

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ مَكِيثٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَالِبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْكَلْبِيِّ - كَلْبَ لَيْثٍ - [فِي سَرِيَّةٍ] إِلَى بَنِي مُلَوِّحٍ [الْمُلَوِّحِ] بِالْكَدِيدِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُغَيِّرَ [يُسْتَوْا] (يشن: يفرق من كل وجه) الْغَارَةَ عَلَيْهِمْ، فَخَرَجَ فَكُنْتُ فِي سَرِيَّتِهِ [وَكُنْتُ فِيهِمْ]، فَمَضَيْنَا [فَخَرَجْنَا] حَتَّى إِذَا كُنَّا بِقُدَيْدٍ [بِالْكَدِيدِ] لَقِينَا بِهِ الْحَارِثَ بْنَ مَالِكٍ، وَهُوَ ابْنُ الْبَرِصَاءِ اللَّثِيئِ، فَأَخَذَنَا، فَقَالَ: إِنَّمَا جِئْتُ لِأُسْلِمَ [أُرِيدُ الْإِسْلَامَ]، وَإِنَّمَا خَرَجْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ غَالِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه: إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا جِئْتَ مُسْلِمًا [إِنْ تَكُنْ مُسْلِمًا] فَلَنْ يَصْرَكَ رِبَاطُ [رِبَاطُنَا] يَوْمَ وَلَيْلَةٍ، وَإِنْ كُنْتَ [تَكُنْ] عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ اسْتَوْفْنَا [نَسْتَوْثِقُ] مِنْكَ، قَالَ: فَأَوْثَقَهُ رِبَاطًا [فَشَدَدْنَاهُ وَنَاقًا]، ثُمَّ خَلَّفَ عَلَيْهِ رَجُلًا أَسْوَدَ كَانَ مَعَنَا، فَقَالَ: امْكُثْ مَعَهُ حَتَّى نَمُرَّ عَلَيْكَ، فَإِنْ نَازَعَكَ فَاجْتَرَّ رَأْسَهُ. [أَبُو دَاوُدَ فِي الْجِهَادِ (٢٦٧٨)، وَمُسْنَدُ أَحْمَدَ ٢٥/١٦٩-١٧١ رَقْمَ ١٥٨٤٤، وَقَالَ الشَّيْخَانِ الْأَبْنَانِ وَالْأَرْنَؤُوطُ: إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ].

أحداث السرية:

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ مَكِيثٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: ثُمَّ مَضَيْنَا حَتَّى أَتَيْنَا بَطْنَ الْكَدِيدِ، فَتَرَلْنَا عُشَيْشِيَّةَ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَبَعَثَنِي أَصْحَابِي فِي رِبِيَّتِهِ، فَعَمَدْتُ إِلَى تَلٍّ يُطْلَعُنِي عَلَى الْحَاضِرِ ^(١)، فَأَنْبَطَحْتُ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ الْمَغْرِبَ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَظَرَّ فَرَأَى مُنْبَطِحًا عَلَى التَّلِّ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى عَلَى هَذَا التَّلِّ سَوَادًا مَا رَأَيْتُهُ أَوَّلَ النَّهَارِ، فَاَنْظُرِي لَا تَكُونِ الْكِلاِبُ اجْتَرَّتْ بَعْضُ أَوْعِيَتِكَ، قَالَ: فَظَرْتُ، فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ مَا أَفْقَدُ شَيْئًا، قَالَ: فَتَأَوَّلْنِي قَوْسِي وَسَهْمَيْنِ مِنْ كِنَانَتِي، قَالَ: فَنَاقَلْتُهُ، فَرَمَانِي بِسَهْمٍ فَوَضَعُهُ فِي جَنْبِي، قَالَ: فَتَرَعْتُهُ فَوَضَعْتُهُ، وَلَمْ أَتَحَرَّكْ، ثُمَّ رَمَانِي بِآخَرِ فَوَضَعُهُ فِي رَأْسِ مَنْكِبِي فَتَرَعْتُهُ فَوَضَعْتُهُ، وَلَمْ أَتَحَرَّكْ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: وَاللَّهِ لَقَدْ خَالَطَهُ سَهْمَايَ، وَلَوْ كَانَ دَابَّةً لَتَحَرَّكَ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَأَبْغِي سَهْمِي فَخُذِيهِمَا، لَا تَمْتَضِعْهُمَا عَلَى الْكِلاِبِ، قَالَ: وَأَمَهْلُنَاهُمَا حَتَّى رَاحَتْ رَائِحَتُهُمْ، حَتَّى إِذَا اخْتَلَبُوا وَعَطْنُوا أَوْ سَكَنُوا، وَكَذَبَتْ عَمَّةٌ مِنَ اللَّيْلِ، سَنَّا عَلَيْهِمُ الْغَارَةَ، فَفَقَلْنَا مَنْ قَتَلْنَا مِنْهُمْ، وَاسْتَقْنَا النَّعْمَ، فَتَوَجَّهْنَا قَافِلِينَ، وَخَرَجَ صَرِيخُ الْقَوْمِ إِلَى قَوْمِهِمْ مُغَوَّنًا، وَخَرَجْنَا سِرَاعًا، حَتَّى نَمُرَّ بِالْحَارِثِ بْنِ الْبَرِصَاءِ وَصَاحِبِهِ، فَاَنْطَلَقْنَا بِهِ مَعَنَا، وَأَتَانَا صَرِيخُ النَّاسِ، فَجَاءَنَا مَا لَا قِيلَ لَنَا بِهِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ إِلَّا بَطْنُ الْوَادِي، أَقْبَلَ سَيْلٌ حَالٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ شَاءَ، مَا رَأَيْنَا قَبْلَ ذَلِكَ مَطَرًا وَلَا حَالًا، فَجَاءَ

(١) الحاضر: القوم النزول على ماء يقيمون به، ولا يرحلون عنه. ويقال للمناهل المحاضر، للاجتماع والحضور عليها. قال الخطابي: ربما جعلوا الحاضر اسمًا للمكان المحضور. يقال: نزلنا حاضر بني فلان، فهو فاعل بمعنى مفعول، ابن الأثير: نهاية - باب الحاء مع الضاد.

بِمَا لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَقُومَ عَلَيْهِ، فَلَقَدْ رَأَيْنَاهُمْ وَفَوْقًا يَنْظُرُونَ إِلَيْنَا مَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ، وَنَحْنُ نُحَوِّزُهَا سِرَاعًا حَتَّى أَسْنَدْنَاهَا فِي الْمَشَلِّ (ثنية مشرفة على قديد. معجم ما استعجم ص ٥٦٠)، ثُمَّ حَذَرْنَاهَا عَنَّا فَأَعْجَزْنَا الْقَوْمَ بِمَا فِي أَيْدِينَا. [مسند أحمد ٢٥/١٦٩-١٧١ رقم ١٥٨٤٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: [إسناده ضعيف].

وروى الطبراني بسنده عن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَالِبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْكَلْبِيِّ [اللَّيْثِي] كَلْبَ عَوْفِ بْنِ لَيْثٍ، فِي سَرِيَّةٍ كُنْتُ فِيهِمْ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَشْنَ الْعَارَةَ عَلَى بَنِي الْمُلُوحِ بِالْكَدِيدِ، قَالَ: فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِقَدِيدٍ لَقِينَا الْحَارِثَ بْنَ بَرْصَاءَ [الْبَرْصَاءِ] اللَّيْثِيَّ فَأَخَذَنَا، قَالَ: إِنَّمَا جِئْتُ لَأُسْلِمَ [أُرِيدُ الْإِسْلَامَ]، إِنَّمَا خَرَجْتُ أُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قُلْنَا إِنْ تَكُنْ مُسْلِمًا [إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْإِسْلَامَ] فَلَنْ يَضُرَّكَ رِبَاطُ لَيْلَةٍ، وَإِنْ تَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ فَسَنُوثِي [نَسْتَوْثِي] مِنْكَ، فَأَوْثَقْنَاهُ رِبَاطًا [فَشَدَدْنَاهُ وَثَاقًا]، ثُمَّ خَلَقْنَا عَلَيْهِ رُؤُوسًا [رَجُلًا] لَنَا أَسْوَدَ كَانَ مَعَنَا [يُقَالُ لَهُ سُوَيْدُ بْنُ صَخِرٍ]، فَقُلْنَا لَهُ: إِنْ نَارَكَ فَاحْتَرَّ رَأْسُهُ، ثُمَّ [سَرْنَا حَتَّى] أَتَيْنَا الْكَدِيدَ مَعَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ [عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ]، وَكُنَّا [فَكَمْنَا] فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْوَادِي، وَبَعَيْنِي أَصْحَابِي رَيْثَةً (هو العين والطليلة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه. النهاية لابن الأثير) هُمْ، [فَخَرَجْتُ فَأَتَيْتُ] إِلَى تَلٍّ مُشْرِفٍ عَلَى الْحَاضِرِ (القوم المقيمون بمحلهم) [يُطْلَعُنِي عَلَيْهِمْ]، قَالَ: فَأَسْنَدْتُ فِيهِ حَتَّى إِذَا كُنْتُ عَلَى ظَهْرِهِ وَنَظَرْتُ إِلَى الْقَوْمِ انْبَطَحْتُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَعَلِّيهِ أَنْظُرُ إِذْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ خِبَائِهِ، فَقَالَ لَامَرَأَتِهِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى [عَلَى هَذَا التَّلِّ] سَوَادًا مَا رَأَيْتُهُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ [صَدَرَ يَوْمِي هَذَا]، فَأَنْظُرِي فِي أَوْعَيْتِكَ لَا يَكُونُ الْكِلَابُ اجْتَرَّتْ بَعْضَهَا [أَخَذْتُ مِنْهَا سَيْئًا]، فَتَظَرْتُ، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا أَفْقِدُ مِنْ أَوْعَيْتِي سَيْئًا، قَالَ: أَعْطِينِي قَوْيِي [وَتَبْلِي!]، فَأَعْطَتْهُ قَوْسًا وَسَهْمَيْنِ مَعَهَا، قَالَ: فَرَمَى بِسَهْمٍ، فَوَاللَّهِ مَا أَخْطَأَ [بِهِ] جَنْبِي، قَالَ: فَانْتَرَعْتُهُ [فَوَضَعْتُهُ] وَتَبْتُ [مَكَانِي]، قَالَ: ثُمَّ رَمَى بِالْآخِرِ فَوَضَعَهُ فِي مَنْكِبِي [فَخَالَطَنِي بِهِ أَيْضًا]، فَانْتَرَعْتُهُ [فَأَخَذْتُهُ فَوَضَعْتُهُ] وَتَبْتُ [مَكَانِي]، فَقَالَ لَامَرَأَتِهِ: [وَاللَّهِ] لَوْ كَانَتْ زَائِلَةً (في ابن سعد: «ريثة»). [الطبقات ٢/٩٠]، والزائلة: كل شيء من الحيوان يزول عن مكانه ولا يستقر. النهاية ٢/١٣٥) [كَانَ زَائِلَةً] لَقَدْ تَحَرَّكَ [لِتَحَرَّكَ] بَعْدُ، لَقَدْ خَالَطَهُ سَهْمَايَ [لَا أَبَا لَكَ!]، فَإِذَا أَنْتِ أَصْبَحْتَ فَابْتِغِيهَا [فَاتَّبِعِيهَا] فَخُذِيهَا، لَا تُضَيِّعُهَا [تَضَعُهَا] الْكِلَابُ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ [خِبَاءَهُ] حَتَّى إِذَا رَاحَتْ رَائِحَةُ النَّاسِ مِنْ إِبِلِهِمْ وَغَنَمِهِمْ قَدْ اخْتَلَبُوا وَغَطُّوا [وَعَطُّوا] (عطنت الإبل إذا سقيت وبركت عند الحياض لتعاد إلى الشرب مرة أخرى. النهاية ٣/١٠٧) وَأَطْمَأْنَنُوا [وَهَدُّوا] شَنَّتْنَا عَلَيْهِمُ الْعَارَةَ، فَقَتَلْنَا [الْمَقَاتِلَةَ] وَسَبَيْنَا الدَّرِيَّةَ، وَاسْتَقْنَا الْغَنَمَ [وَالشَّاءَ]، ثُمَّ وَجَّهْنَاهَا [فَخَرَجْنَا نَحْدُرُهَا قَبْلَ الْمَدِينَةِ]، وَخَرَجَ صَرِيخُ الْقَوْمِ فِي قَوْمِهِمْ، فَجَاءَهُمُ الدَّهْمُ فَجَاؤُوا فِي طَلَبِنَا حَتَّى مَرَرْنَا بِابْنِ الْبَرْصَاءِ فَأَنْطَلَقْنَا بِهِ مَعَنَا وَبَصَاحِينَا الَّذِي خَلَقْنَاهُ [فَاخْتَمَلْنَاهُ وَاحْتَمَلْنَا صَاحِبِنَا]، قَالَ: فَأَذَرَكْنَا الْقَوْمَ [فَجَاءَنَا مَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ (أي لا طاقة)] حَتَّى نَظَرْنَا إِلَيْهِمْ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ إِلَّا الْوَادِي عَلَى

نَاحِيَّتِهِ مُوجَّهِينَ وَمِنْ نَاحِيَّةِ الْأُخْرَى فِي طَلَبِنَا إِذْ جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنْ حَيْثُ شَاءَ [فَجَاءَ اللَّهُ الْوَادِي مِنْ حَيْثُ شَاءَ بِبَاءٍ مَلَأَ جَنَبَيْهِ، وَأَيَّمُ اللَّهِ]، مَا رَأَيْنَا قَبْلَ ذَلِكَ [سَحَابًا وَلَا] مَطَرًا مَا يَقْدُرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيزَهُ [فَجَاءَ بِهَا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَجُوزَهُ]، لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ وَفَوْقًا يَنْظُرُونَ إِلَيْنَا وَنَحْنُ نَحْدُوها (نسوقها، حدا الإبل: زجرها وساقها) [وَقَدْ أَسْنَدْنَا فِي الْمُسَلَّلِ وَفُتْنَاهُمْ]، مَا يَقْدُرُ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْنَا [فَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى طَلَبِنَا]، حَتَّى إِذَا عَرَجْنَاها مَا أَنْسَى قَوْلَ رَاجِزٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَحْدُوها فِي أَغْصَانِهَا [رَجَزَ أَمِيرَنَا غَالِبٌ عليه السلام]:

أَبَى أَبُو الْفَاسِمِ أَنْ تَعَزِّيَ^(١) وَذَاكَ قَوْلُ صَادِقٍ لَمْ يَكْذِبِ
فِي خَطَلٍ^(٢) نَبَاتُهُ مَغْلُولِبٍ^(٣) صُفْرُ أَعَالِيهِ كَلَوْنِ الْمُنْهَبِ

[جمع الزوائد ٦/ ٢٩٩-٣٠٠ كتاب المغازي باب في سرية إلى ابن الملوح رقم ١٠٣٤٣، وقال الهيثمي: قلت: عند أبي داود طرف من أوله، رواه أحمد والطبراني [المعجم الكبير ٢/ ١٧٨-١٧٩ رقم ١٧٢٦]، ورجاله ثقات فقد صرح ابن إسحاق بالسماع في رواية الطبراني. المغازي للواقدي ٢/ ٧٥٠-٧٥٢، وما بين المعكوفين زيادة منه].
وأكمل الواقدي: «ثُمَّ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ.

فَحَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عُقْبَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَمْزَةَ بْنِ عَمْرِو الْأَسْلَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ مَعَهُمْ وَكُنَّا بَضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، شِعَارُنَا: أَمْتُ! أَمْتُ!». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٥٢].

مصادر ومراجع الدراسة:

أ - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٧٥٠-٧٥٢، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/ ١١٦-١١٧، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/ ٢٧-٢٨، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٢٩٨-٢٩٩، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤١٢-٤١٣، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٤٤٩-٤٥١، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٣٦٢-٣٦٣، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٣٦٢-٣٦٤، إمتاع الأسع للمقرئزي (٨٤٥هـ) ١/ ٣٣٦-٣٣٧، سبل الهدى والرشاد للصالح (٩٤٢هـ) ٦/ ٢١٧-٢٢٠، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٩٥-١٩٦.

ب - كتب السيرة الحديثة: صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٦٧-٣٦٨، السيرة النبوية لرزق الله ٥٣٧-٥٣٨.

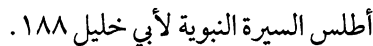
ج - كتب الغزوات والسرائي: غزوة مؤتة لباشمیل ١٥٦-١٥٨، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١٢٠-١٢١، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ٢٦١-٢٦٧، مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ٢٠١-٢٠٩.

(١) في الواقدي: تَعَزَّى: معناه تقيمي، يقال تعزيت الإبل في المرعى إذا أقامت فيه. شرح أبي ذر ص ٤٥٠.

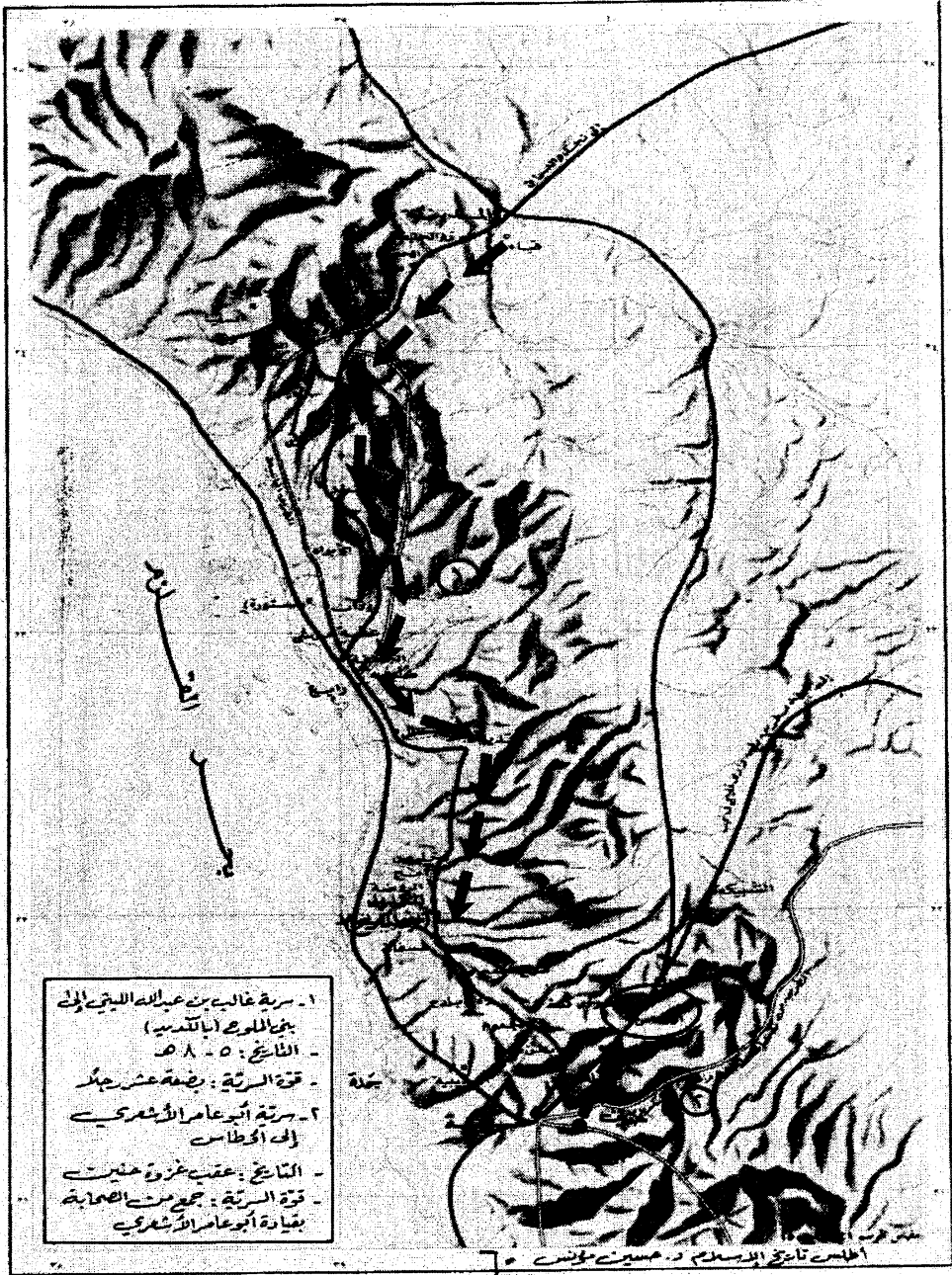
(٢) في الواقدي: خَضَلٍ: النبات الأخضر المبتل. شرح أبي ذر ص ٤٥٠.

(٣) المغلولب: الكثير الذي يغلب على الماشية حين ترعاه. شرح أبي ذر ص ٤٥١.

(1)

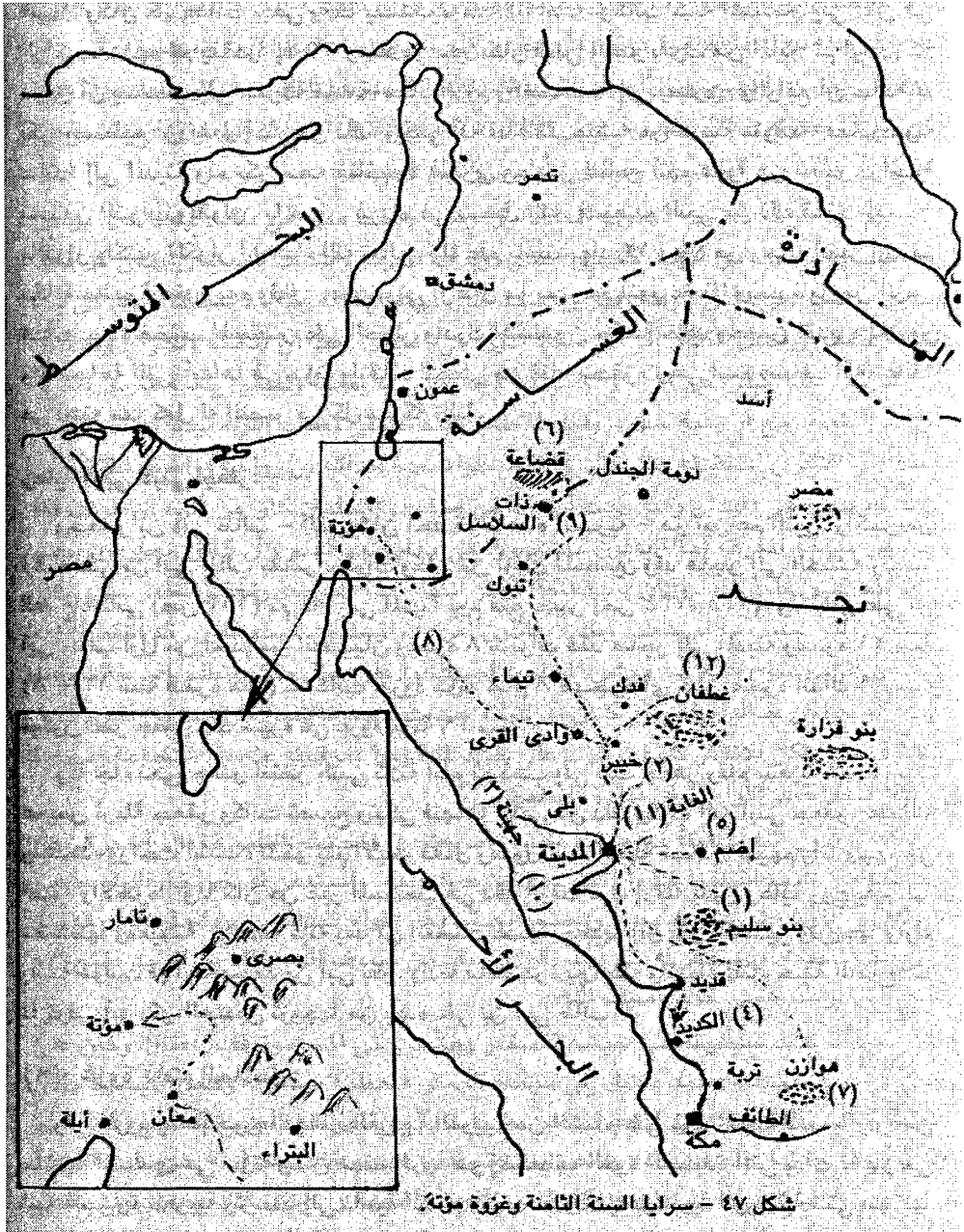


(٢)



السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك - الملحق.

(٣)



خاتم الأنبياء محمد   للبدراوي ٧٥٤.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من

سَرِيَّةِ غَالِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيِّ ﷺ إِلَى الْكَدِيدِ

١ - اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب:

يقول د/ الغضبان: «في صفر سنة ثمان، وفي الشهر الذي أسلمت فيه قيادات مكة، كان بعث غالب بن عبد الله الكناني الليثي ﷺ إلى بني الملوح بالكديد، ونشير إلى أن هذا القائد هو من قبيلة بني الملوح؛ إذ ينتهون جميعاً إلى عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر، لكن غالباً ﷺ من فرع كلب بن عوف، أما بنو الملوح فمن فرع المشراخ بن عوف؛ ولهذا أوكل إليه قيادة هذه السرية، فهو أعرف بقومه وأدرى بهم وبأرضهم، وسبق لغالب ﷺ سرايا وفق فيها وحقق انتصارات عظيمة، وقد نقل لنا خبر السرية عن جندب بن مكيث الجهني ﷺ.

ونشير إلى أن بني ليث بن كنانة هم فرع من بكر التي حالفت قريشاً ضد رسول الله ﷺ.

[التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٠٥].

٢ - أهمية المباغطة:

يقول د/ بريك: «وكانت مهمتها بناء على الأوامر الصادرة لهم من القيادة العليا هي مباغطة بني الملوح بشن غارة مفاجئة ومركزة عليهم، وكانت تلك هي الإستراتيجية التي اتبعها رسول الله ﷺ في غزواته، وسراياه ضد الأعراب، استطاع من خلالها تحقيق النصر عليهم، وذلك يدل على ذكائه وشدة معرفته بأحوال الأعراب ونفسياتهم، فهم أشداء إذا استعدوا للقتال، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم، أما بمباغتهم فتسهل السيطرة عليهم وإرعابهم». [السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ٢٦٣].

ويقول ل/ خطاب: «لقد استطاع غالب ﷺ بحذره ويقظته واستطلاع، الحصول على المعلومات الكافية عن عدوه، فباغتهم بالهجوم الليلي مباغطة كاملة بالأسلوب، إذا لم يكن المشركون يتوقعون هجوماً ليلياً عليهم، كما باغتهم بالزمان، إذ لم يكن المشركون يتوقعون الهجوم عليهم ليلاً، بل اطمأنوا وأمنوا، كما استطاع غالب ﷺ بسرعة الحركة من الابتعاد عن المشركين والخلاص من مطاردتهم له، فأدى غالب ﷺ واجبه في هذه السرية أداءً رائعاً حقاً وحقق أهدافه كافة منها». [قادة النبي ﷺ لخطاب ٣٩١-٣٩٢].

٣ - تقديم صاحب السمات القيادية المتعددة:

يقول ل/ خطاب: «أما السمات القيادية لغالب ﷺ فواضحة كل الوضوح؛ لأنه قاد ثلاث سرايا من سرايا النبي ﷺ في حياته المباركة، كما قاد مقدمة المسلمين في غزوة فتح مكة، فلما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، استمر على نشاطه في الجهاد، فكان من أصحاب الأيام في حرب العراق وفارس.

ولعل من تلك السمات الحذر واليقظة، فلم يصدّق الأسير الذي ادّعى الإسلام وأنّه في طريقه إلى النبي ﷺ لإعلان إسلامه، بل شدّ وثاقه وجعل عليه حارساً مزوداً بأوامر واضحة جليّة، أن يحزّ رأسه إذا حاول الهروب من الأسر، حتى يحوّل دون اتصال هذا الأسير بقومه وكشف نيات المسلمين مبكراً، مما يؤدي إلى استعداد المشركين للقاء المسلمين.

وكان الأسير من بني ليث، وغالب ﷺ من بني ليث أيضاً، ولكنه لم يُراعِ ابن عمّه كما كان يفعل في أيام الجاهلية، بل عامله كأَيِّ عدوّ آخر بصرف النظر عن قرابته، مما يدلّ على تغلغل تعاليم الإسلام فيه من جهة، واجتثاث عنعنات الجاهلية وتقاليدها من جذورها في نفسه من جهة أخرى. ومن دلائل يقظته وحذره، إرساله الربايا الاستطلاعية؛ ليستطيع إعداد خطته على هدى وبينه وبشكل يؤدي إلى النصر.

وكان يحزّز رجاله على القتال، ويحثهم على الجهاد، ويؤاخي بين أصحابه؛ ليكون التعاون وثيقاً بينهم قبل المعركة وفي أثنائهم وبعدها، كما يأمر بالطاعة المطلقة والالتزام بتنفيذ أوامره نصّاً وروحاً، والابتعاد عن الخلاف والفتنة، إذ لا نصّر مع الخلاف ولا هزيمة مع الطاعة. وقد كان قائداً تعرّضياً، يطبّق مبدأ المباغته، بالزمان فيتعرّض بوقت لا يتوقّعه العدو، والمكان باتجاه لا يتوقّعه العدو، وبالأسلوب في التعرض السريع الخاطف والانسحاب السريع الخاطف، قبل أن يعود إلى العدو رشده الذي فقدّه جرّاء المباغته.

ويبدو أنّ من سماته القيادية، سرعة الحركة: التقدم بسرعة إلى ساحة المعركة، والانسحاب بسرعة مع الغنائم، فكأنه أحد رواد الحرب الخاطفة التي بحاجة إلى قابلية الحركة وسرعتها. وكان من القادة الذين يطبّقون مبدأ: إدامة المعنويات، فكان من أهدافه رفع معنويات رجاله من جهة، وهدم معنويات أعدائه من جهة أخرى.

وكان سريع القرار صائبه، يثق برجاله ويثقون به، ويبادلهم حبّاً بحب، يعرف مزايا أصحابه وخواصهم ويكلّف كل واحد منهم ما يناسب كفايته من واجبات، له شخصية قوية نافذة، يتحمل المسؤولية كاملة ولا يتهرب منها ولا يلقبها على عواتق الآخرين، يتمتّع بمزّة سبق النظر ومحسب لكلّ أمرٍ حسابه ويعدّله ما ينبغي لمعالجته وحسمه بسرعة قبل فوات الأوان، له قابلية بدنية جيدة، وماضٍ ناصع مجيد.

ولعلّ من أبرز سماته القيادية، شجاعته الشخصية الفائقة، فلما أُصيبت سرية بشير بن سعد ﷺ، أعد النبي ﷺ الزبير بن العوّام ﷺ، وهو من هو شجاعة وإقداماً؛ لتأديب بني مُرّة الذين أصابوا تلك السرية

وألحقوا بها أفدح الأضرار بالأرواح، ولكن النبي ﷺ أثر غالب بن عبد الله ﷺ للقيام بمهمة تأديب بني مِرة، وهذا دليل على أنه كان له في ميزان الشجاعة والإقدام وزن ثَقِيل.

لقد كان غالب ﷺ من قادة النبي ﷺ المتميّزين. [قادة النبي ﷺ لخطاب ٣٩٨-٣٩٩].

٤ - الحِيطة والحدن:

يقول د/ أبو فارس: «إن هذا الدين يقرر أن المؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ، ليس خَبًّا ولا الخُب يُخدعه، ولقد حدث في سرية مضت إلى قائد السرية واسمه غالب بن عبد الله الليثي ﷺ قد لقي الحارث بن البرصاء الليثي في الطريق فأخبره بأنه ما أخرجه إلا الإسلام، وهذا خبر يحتمل الصدق ويحتمل غير ذلك، ويترتب على ذلك خدعة قد تضر بالمسلمين، وأمام هذين الاحتمالين فقد احتاط الأمير فأمسك بالحارث وشد وثاقه ووضع عليه حارسًا حتى تنتهي السرية ثم يتحقق من الأمر». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٥].

٥ - الحزم في العلاج:

يقول د/ أبو فارس: «يؤخذ هذا من أمر قائد السرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ للرجل الذي وضعه حارسًا على الحارث بن البرصاء، وأمره بوضوح أن يحز رأس الحارث إن قاوم أو حاول الهرب، قال ذلك على مسمع الحارث نفسه». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٦].

٦ - أهمية اتخاذ العيون:

وفي إرسال الطلائع للتجسس على أخبار الأعداء دليل على أهمية اتخاذ العيون أخذًا بالأسباب في المحافظة على أرواحهم والإيقاع بالعدو، وأخذ على حين غرة ما دامت قد بلغت الدعوة، وأخذ في تهديد أمن المسلمين. [السيرة النبوية لرزق الله ٥٣٨].

٧ - دقة الملاحظة ودقة التسديد في إصابة الهدف:

يقول د/ أبو فارس: «أخذ هذا من تصرف الأعرابي حينما رأى سوادًا على رأس التلة لم يكن ليراه من قبل، وتوقع أن يكون هذا السواد هو طليعة الجيش الإسلامي، فرماه بسهمين، أصاب المسلم في جبهته وكفه.

ويؤخذ من هذا أيضًا معرفة الأعرابي الدقيقة بالمنطقة التي يقيم فيها، وأن أي جسم غريب يظهر له من خلال تفقد المنطقة وتفحصها». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٦].

٨ - أهمية المهمة الاستطلاعية:

يقول د/ الغضبان: «وليس بين أيدينا ما يشير إلى سبب هذه الغزوة، لكن الذي عندنا هو تفصيلات المعركة كما نقلها جندب ﷺ خاصة في المهمة التي كُلف بها وهو أن يكون في طليعة القوم، حيث اختار المكان المناسب في رأس الجبل الذي يطل على الحاضر، ويشهد كل تحركات العدو، وكيف كان جندبًا في

قمة الانضباط وقمة الخبرة، فقد انبطح على بطنه بحيث يستطيع أن يرى كل شيء ولا يرى، وكانت المفاجأة التي واجهته هو ذلك الأعراي الذي رأى سواده ولم يتأكد من شخصه هل هو إنسان أم دابة أم شيء ما وقع على الجبل.

وينقل لنا الحديث مفصلاً بين الأعراي وزوجته، إذ توقعه ابتداءً أن يكون كلباً، فطلب من زوجته أن تتأكد من أمتعتها ألا تكون الكلاب قد أخذت شيئاً منها، ولا شك أنه كان رامياً ماهراً، كما وصفه جندب رضي الله عنه، فقد رمى السهم الأول، وأصاب بين عيني جندب رضي الله عنه، وراح الدم ينزف نهراً، لكنه خشي إن تحرك أن يكشف فتفشل مهمته التي جاء من أجلها وهي تعرّفه على وضع القوم وعودته إلى الجيش يمدّه بما لديه من معلومات، واكتفى أن يتزع السهم من جبينه أو من جنبه، ثم كان السهم الثاني الذي غرز في منكبه، واكتفى بأن رماه، وترك الدم يتدفق منه وهو منبطح على الأرض لا يدي حراكاً بحيث أوهم العدو أنه لا طلب له، ولا عدو، وعرض نفسه للموت، حفاظاً على نجاح مهمته، حيث يحدّثنا بعدها عن الانقضااض على العدو، وأخذ الغنائم وقتل مَنْ قُتِل منهم.

وكان درساً تربوياً عظيماً في الفداء والتفاني لحسن تنفيذ المهمة، وحسن أدائها لكل جندي يُكَلَّف بمهمة الاستطلاع المناسب بحيث يُخفي مهمته عن العدو بأكبر قدر من السريّة والكتمان، ويحقق أكبر قدر من المعلومات عن العدو تُقدّم لقيادة الجيش المسلم.

ونلاحظ أن الجيش قد يُباد كله نتيجة فشل المهمة الاستطلاعية، فسرية كعب بن عمير الغفاري رضي الله عنه قد استشهد جميع أفرادها، لوجود عين من العدو كشفت تحركاتهم، فدفعت العدو للانقضااض عليهم حيث قاتلوا أشد القتال، واستبسّلوا أشد الاستبسال، وخاصة عندما تكون المهمة في قلب أرض العدو، وبأعداد قليلة لا تثير الانتباه، وتكون مكلفة بتنفيذ عملية داخل أرض العدو.

ولو أن جندباً رضي الله عنه تحرك، وتغلغل من الألم الشديد، أو وقف أو هرب لانكشف أمره وأمر الجيش من ورائه». [التربة الجماعية للغضبان ١/ ١٠٥-١٠٦].

٩ - حسن اختيار موقع الطليعة:

يقول د/ أبو فارس: «ويلوح لنا أن نزول جندب بن مكيث الجهني رضي الله عنه طليعة الجيش الإسلامي على رأس التل ليس مناسباً؛ ذلك لأن رأس التل موقع لا يصلح للاختباء عليه، فهو على خط الأفق، والسير والوقوف في خط الأفق يسهل كشفه وملاحظته في أي ساعة من ليل أو نهار.

وكان الأولى في نظرنا أن يتمركز في بطن التل وليس على رأسه، ولو حدث هذا لما لاحظته الأعراي ولم يتعرّض لما تعرّض إليه». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٦].

١٠ - قوة الإيمان والطاقات الكامنة:

يقول د/ بريك: «لقد أثبتت هذه السرية القوة، والجلد، ورباطة الجأش، والشجاعة النادرة، والتحكم في الأعصاب، والأحاسيس، التي كان يتحلى بها جند الحق والإيمان، وطلائع الجهاد الإسلامي، إن الروعة لم تكن تتجلى في قوة وجلد ذلك الجندي الشجاع المؤمن جندب بن مكيث ؓ فحسب، بل في رباطة الجأش العظيمة التي تميّز بها وهو يواجه سهمين قوين من رام قنّاص ماهر، استقرا في جسمه وخالطاه، ومع ذلك ثبت كالطود (الجل) ولم يتزعزع، وكأنه قطعة من التل الذي كان منبطحاً عليه، حتى إن الأعرابي تراجع عن شكه واثقاً أن ما رماه لم يكن كائنًا حيًّا، فلو كان كذلك لتحرك من مكانه على الأقل كما ذكر لزوجته.

ولم يعلم ذلك الأعرابي أن الإيمان إذا تمكن من قلب الإنسان، فإنه يسمو به في روحانية عجيبة، وشفافية نادرة تسيطران عليه فتملكان عليه حسّه وأحاسيسه.

إن قوة الإيمان تحرك في الجسم البشري قواه وطاقاته الكامنة، وتنفق فيه قوة عجيبة من التحكم والسيطرة والتحمل.

وذلك ما كان عليه أصحاب النبي ﷺ الأشداء على الكفر والكافرين، وهذه القصة إحدى الشواهد القوية على ذلك». [السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ٢٦٦].

ويقول د/ الحميدي: «فيما قام به جندب بن مكيث الجهني ؓ في مهمة الاستطلاع لأصحابه، فحافظ محافظة تامة على الاستخفاء حتى أدى مهمته بنجاح.

ونقف قليلاً لتأمل هذا الموقف الرائع الذي تجلت فيه مظاهر الفداء والتضحية، حيث قدّم هذا الصحابي الجليل مصلحة الجماعة على مصلحته الفردية، فقد تحمّل وقّع السهام في جسده وهو صابر محتسب مع وجود الاحتمال القوي لذهاب نفسه في أحد هذه السهام فيما لو أصاب مقتلاً، تحمّل ذلك كله من أجل أن لا يدلّ بتحركه على وجود جماعته، الأمر الذي يؤدي غالباً إلى فشل ما قصدوا إليه حيث سيأخذ الأعداء احتياطهم الكامل، ولربما فاجأوا المسلمين على غرة فأوقعوا بهم، فتحمل الأذى ساعة من أجل هذه المصالح الكبيرة، وهذا نموذج عال لا تبلغه الإنسانية غالباً بغير الإسلام، بينما هو موفر بكثرة لدى المسلمين وخاصة في عصر الرقي الديني كما في عصر الصحابة ؓ.

وإننا إذا بحثنا عن السبب الدافع لهذه التضحية البالغة وإذابة الشخصية الفردية في روح الجماعة نجد أن ذلك مترکز في الوزن الصحيح والتقويم الدقيق لمنزلة الدنيا ومنزلة الآخرة، فكلما عظمت الحياة الدنيا

في عين الإنسان كان ميّالاً إلى الأنانية واعتبار الذات، وتفاوتت درجات ذلك بمقدار اهتمام الإنسان الدنيوي، وكلما عظمت الآخرة في عين الإنسان كان أقرب إلى اعتبار الجماعة وتناسي المنافع الذاتية». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ٩٩-١٠٠].

١١ - وقوع كرامات الأولياء:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر عبرة للمعتبرين، فلقد أنقذ الله تعالى أولياءه المؤمنين المجاهدين في سبيله من هلاك متوقع حيث تجمع الأعداء عليهم وأتوهم بجمع لا طاقة لهم به، فأجرى الله ﷻ السيل في الوادي بشكل مفاجئ حيث لا مطر حولهم ولا أي حال من مقدمات المطر، وبسرعة تمنع الأعداء من تجاوزه إليهم، فأصبح الأعداء ينظرون إلى المسلمين وأموالهم بأيدهم وهم عاجزون عن الوصول إليهم. فهل يبقى بعد هذا لدى أي عاقل متبصر في الأمور أدنى شك في أن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين بنصره وتأييده، وضد أعدائه الكافرين بيعث جنوده التي لم يتوقعوها ولم يحسبوا لها حساباً؟!». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٠٠-١٠١].

ولقد أثبت الله تعالى معيته لأوليائه المؤمنين وأثبتها رسول الله ﷺ في آيات وأحاديث كثيرة، وإذا كان بعض المتشككين والحياري لا يتأثرون بسماع هذه الأخبار فما جوابهم عن مثل هذه الواقعة التي تجلت فيها منة الله تعالى على عباده المؤمنين، وتنزلت نعمته على أعدائه الكافرين؟!». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٠٠-١٠١].

ويقول د/ بريك: «وقد تحققت في السرية بعض الكرامات التي يجعلها الله ﷻ لأوليائه الصالحين عندما يكونون في حاجة ماسة للعون الإلهي، فيمدّهم بهذه الكرامات لنصرهم على أعدائهم وحمائهم ممن يريد الشر بهم، وهذا الأمر ليس قاعدة، وإنما يظهرها الله في بعض الأحيان لتكون عبرة وعظة وتثبيتاً للمؤمنين إلى جانب مهمتها الأساسية.

إن هذه المكرمة مع الفارق الكبير تشبه المعجزة التي أجزاها الله ﷻ على يد نبيه موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَمَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿١١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَاطُورٍ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ وَأَزَلَفْنَا لِمُؤْمِنِي الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء].

وقد تكررت مثل هذه الكرامات لبعض الصحابة مثل العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، الذي جاز بجنده مياه الخليج العربي إلى جزيرة دارين، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، الذي جاز هو وجيشه نهر دجلة إلى المدائن ففتحوها بإذن الله، إن هذه الكرامات هي من جنود الجبار ﷻ، يرسلها في الوقت المناسب لتكون نصراً وتثبيتاً للمؤمنين، وخذلاناً للكافرين وما يعلم جنود ربك إلا هو.

[السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ٢٦٧]

الفصل العاشر

سريّة كعب بن عمير رضي الله عنه إلى ذات أطلاح
ربيع الأول ٨هـ / يولييه ٦٢٩ م / أبيب ٣٤٥ قبضي
المبحث الأول
عرض سريّة كعب بن عمير رضي الله عنه إلى ذات أطلاح

التعريف بذات أطلاح:

يقول د/ بريك: قال ياقوت: «أطلاح - بالحاء المهملة - موضع من وراء ذات القرى إلى المدينة».

[معجم البلدان ١/ ٢١٨].

وقال البكري: «من أرض الشام». [معجم ما استعجم ٣/ ٨٩٣].

وقال ابن سعد: «وهي وراء وادي القرى». [الطبقات ٢/ ١٢٧].

وقال الواقدي: «ذات أطلاح من أرض الشام». [المغازي ٢/ ٧٥٢].

وذكر موسى بن عقبة، عن ابن شهاب، وأبي الأسود، عن عروة قالوا: «ذات أطلاح من البلقاء».

[ينظر: الإصابة لابن حجر ٣/ ٣٠١].

وأخرج البيهقي، عن موسى بن عقبة، وعن ابن شهاب، وعن عروة قالوا: «ذات أباطح من البلقاء».

[الدلائل ٥/ ٤٦٢ - ٤٦٤].

قال البلادي - تعليقا على قولهم -: «ذات أطلاح من أرض الشام»: «كذا قال: «من أرض الشام»، وكان الأقدمون يرحمهم الله يلجأون إلى مثل هذا التحديد الواسع إذا غمّ عليهم المكان، وكانت أرض الشام عندهم ما تجاوز تيماء شمالاً، - أي على بعد نيّف وستمئة - كيل شمال المدينة، وهي باتّفاق الجغرافيين من أرض الحجاز لا من أرض الشام، حيث عدّ بعضهم معان من الحجاز، ولم أجد من يعرف ذات أطلاح اليوم». [معجم المعالم الجغرافية في السيرة ٣١].

قلت: كأنّ البلادي لم يطلّع على رواية عروة، والزهري، موسى بن عقبة عند البيهقي، وعند ابن حجر، حيث حددوا مكانها بالبلقاء، والبلقاء كما هو معروف عند الجغرافيين والبلدانيين، ومنهم البلادي نفسه^(١)، أنّها من أرض الشام.

(١) يقول البلادي في (العجم ٤٩): البلقاء، إقليم من أرض الشام في المملكة الأردنية الهاشمية، وهو الإقليم الذي تتوسطه مدينة عمان عاصمة الأردن، ومن أشهر مدن هذا الإقليم: عمان، والسّلت ومادبا والزرقاء والرصيفة، يتّصل به في الجنوب إقليم الشراة الذي قاعدته معان، وفي الشمال إقليم حوران.

قال أحمد عادل كمال: «ذات أطلّاح موقع بأطراف الشام من وراء وادي القرى لم نستطع تحديد مكانه بدقّة على الخريطة، غير أنه بلا ريب كان في نواحي مؤتة كما يُفهم من الأحداث». [الطريق إلى دمشق ١٤٤].

قلت: وهو كذلك، حيث ذكر بعض المؤرخين أنّ هذه السرية كانت من الأسباب المباشرة لغزوة مؤتة، ورُبّما كان المكان الذي التقى به أصحاب السرية بجمع قضاة، وكانت عنده تلك الملحمة التي راح ضحيتها أولئك الدعاة الأبرار، أقول ربّما كان المكان غير مأهول قديماً، أو ربّما تغيّر اسمه مع الزمن، فأصبح لا يُعرّف بالاسم القديم. والله تعالى أعلم». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢١٩-٢٢٠].

تاريخ السرية:

يقول د/ بريك: «أزّخها الواقدي، وابن سعد، بشهر ربيع الأوّل سنة ثمانٍ من الهجرة».

[المغازي ٧٥٢/٢، الطبقات ١٢٧/٢].

وتبعهما في ذلك نقلاً عنهما كُلٌّ من: «ابن سيد الناس، والذهبي، والشامي».

[عيون الأثر ١٩٧/٣، تاريخ - قسم المغازي ٤٧٧، سبل ٢٢٧/٦].

وذكرها الطبري نقلاً عن الواقدي في أحداث السنة الثامنة، ولكن دون تحديد الشهر».

[تاريخ الطبري ٢٩/٣].

وذكرها ابن كثير - أيضاً - عن الواقدي دون تحديد تاريخها، ولكنّه ذكرها قبل غزوة مؤتة مباشرة».

[البداية والنهاية ٤/ ٢٤٠ - ٢٤١].

أمّا البلاذري، والقسطلاني، فتبعوا الواقدي، وابن سعد، ولكن دون الإشارة إلى مصدر معلوماتها [أنساب الأشراف ٣٨٠، المواهب اللدنية ١/ ٥٤٨]، وإن كانت في الغالب نقلاً عنهما. والله تعالى أعلم.

ولم يذكر عروة، والزهرى، وموسى بن عقبة، وابن إسحاق لها تاريخاً، كونهم ذكروها عرضاً في سياق أخبار السرايا والبعوث، وربّما ابن إسحاق بعد غزوة مؤتة مباشرةً.

[ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٦٢١/٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٦٨].

وشدّد خليفة بن خياط من بين أهل المغازي، فذكرها ضمن السرايا والبعوث التي كانت في سنة ستٍ من الهجرة. [تاريخ ٧٩]. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢٢١-٢٢٢].

سبب السرية:

يقول أ/ باشميل: «وفي ربيع الأول من سنة ثمان للهجرة بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير مع أربعة عشر رجلاً من أصحابه إلى ناحية الشمال خلف وادي القرى، ولم يذكر أحد من المؤرخين السبب الذي اقتضى بعث هذا العدد القليل إلى مسافة أكثر من ستمائة ميل (حيث وصلت هذه البعثة إلى ذات أطلّاح من أرض الشام خارج جزيرة العرب).

والذي يغلب على الظن أن كعب بن عمير وأصحابه  ، كانوا بعثة سلمية مهمتها التبشير بالإسلام، كُلف رجالها بارتياذ الأراضي الشامية.

فقد ذكر المؤرخون أن كعب بن عمير   تحرك بأصحابه من المدينة حتى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام، وهناك وجدوا جمعاً من الناس - لم يحدد المؤرخون هويتهم ويظهر أنهم من الغساسنة المتنصرين - وكانوا كثيرًا، فاعتدوا على أصحاب النبي   فدافع الأصحاب عن أنفسهم وقتلوا القوم أشد قتال، ولكن جميع الصحابة الأربعة عشر استشهدوا، ما عدا واحدًا منهم جريح نجا بنفسه أثناء الليل، وتحامل على نفسه حتى أتى المدينة فأخبر النبي  ، وقد كان الذين اعتدوا على كعب بن عمير وأصحابه   كلهم من الفرسان جاؤوا إليهم وأخذوهم على حين غرّة، وكان ابن عمير   قد جاء يدعوهم إلى الإسلام، فكان جوابهم على الدعوة أن أمطروه وأصحابه وأبلاً من سهامهم هاجوهم حتى أبادوهم». [غزوة مؤتة لباشميل ١٥٨-١٥٩].

ويقول د/ بريك: «قال الحلبي: «لم أقف على السبب الذي اقتضى البعث إلى ذلك المحل».

[السيرة ٣/١٩٨].

قلت: لم تُصَرِّح الروايات التي نقلت خبر هذه السرية بالسبب الذي من أجله أرسلت إلى تلك المنطقة التي تقع في عمق المناطق الخاضعة لنفوذ القبائل الحليفة والمالية للروم من قضاة وغيرها. ولكن يمكن أن نستشف السبب من خلال بعض أحداثها: فمثلاً ما ورد في الروايات حول قوّة السرية، وأنها كانت بقوّة خمسة عشر رجلاً فقط، يثير لدينا تساؤلاً مفاده: كيف تكون سرية قتالية مبعوثة إلى تلك المناطق البعيدة عن قاعدة المسلمين، ومناطق نفوذهم بقوّة خمسة عشر رجلاً فقط؟! إلا إذا كانت لغرض آخر غير القتال، إذاً ما هو ذلك الغرض؟.

قال في الخبر: «فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيرًا، فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم... إلخ».

[ينظر: المغازي للواقدي ٢/٧٥٣، الطبقات لابن سعد ٢/١٢٧].

فقلوه: «دعوهم إلى الإسلام»، يعطينا دلالة قوية أن السرية كانت عبارة عن بعثة دعوية لأهل تلك المنطقة، وربما يقول قائل: إن من سنة القتال في الإسلام أن تكون الدعوة قبل القتال، وذلك اعتراض وجيه يمكن أن نُسلّم به، لولا القرينة التي ذكرناها سابقاً، وهي عدم التسليم بفرضية بعث النبي   سرية قتالية إلى ذلك العمق من أراضي العدو بهذه القوّة الضئيلة جدًّا؛ لأن ذلك يعد مغامرة عسكرية غير محسوبة، وهو الأمر الذي لم نعهده من الرسول  ، وهو القائد العسكري المَحَنَك الذي كانت خطواته العسكرية ضد أعدائه على اختلاف نوعياتهم محسوبة بدقة، ومنظمة ومُحَطَّط لها تخطيطاً مسبقاً  .

إذا كانت البعثة دعوية بحتة، ولكن الأعراب الذين كانت تمتلئ قلوبهم غلاً وحِقْداً ضد المسلمين، لم يكونوا ليدعوا هذه الفرصة بالبطش والفتك بالمسلمين تفلت من أيديهم، فاستفزُّوهم وألجأوهم للقتال، دفاعاً عن أنفسهم، ليكون في ذلك ذريعة للفتك بهم وهم قِلَّةٌ، وَحَدَّثَ مَا حَدَّثَ، والله تعالى أعلم».

يقول أحمد عادل كمال: «ولم يكن بَعَثَ كعب وأصحابه للغزو، وإنما كان للدعوة، وقُبِلَ الدُّعَاةُ بالسيف والنبل حتى اسْتَشْهِدُوا». [الطريق إلى دمشق ١٤٥]. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢٢٣-٢٢٤].

أحداث السرية:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَعْبَ بْنَ عُمَيْرٍ الْغِفَارِيَّ ﷺ فِي خَمْسَةِ عَشَرَ رَجُلًا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى ذَاتِ أَطْلَاحٍ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، فَوَجَدُوا جَمْعًا مِنْ جَمْعِهِمْ كَثِيرًا (وكانوا من قضاة، ورأسهم رجل يُقال له: «سدوس»). من رواية الواقدي عند الطبري. تاريخ ٢٩/٣، فَدَعَوْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَشَقُوهُمْ بِالنَّبْلِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ قَاتَلُوهُمْ أَشَدَّ الْقِتَالِ حَتَّى قُتِلُوا، فَأَقْلَتَ مِنْهُمْ رَجُلٌ جَرِيحٌ فِي الْقَتْلِ، فَلَمَّا بَرَدَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ تَحَامَلَ (تكلف ما لا يطيق) حَتَّى أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ بِالْبُعْثِ إِلَيْهِمْ، فَبَلَغَهُ أَنَّهُمْ قَدْ سَارُوا إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ فَتَرَكَهُمْ.

حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ الْحَارِثِ بْنِ الْفَضْلِ قَالَ: كَانَ كَعْبٌ ﷺ يَكْمُنُ النَّهَارَ وَيَسِيرُ اللَّيْلَ حَتَّى دَنَا مِنْهُمْ، فَرَأَهُ عَيْنٌ هُمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِقِلَّةِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاؤُوا عَلَى الْحَبُولِ فَقَتَلُوهُمْ».

[المغازي للواقدي ٢/٧٥٢-٧٥٣].

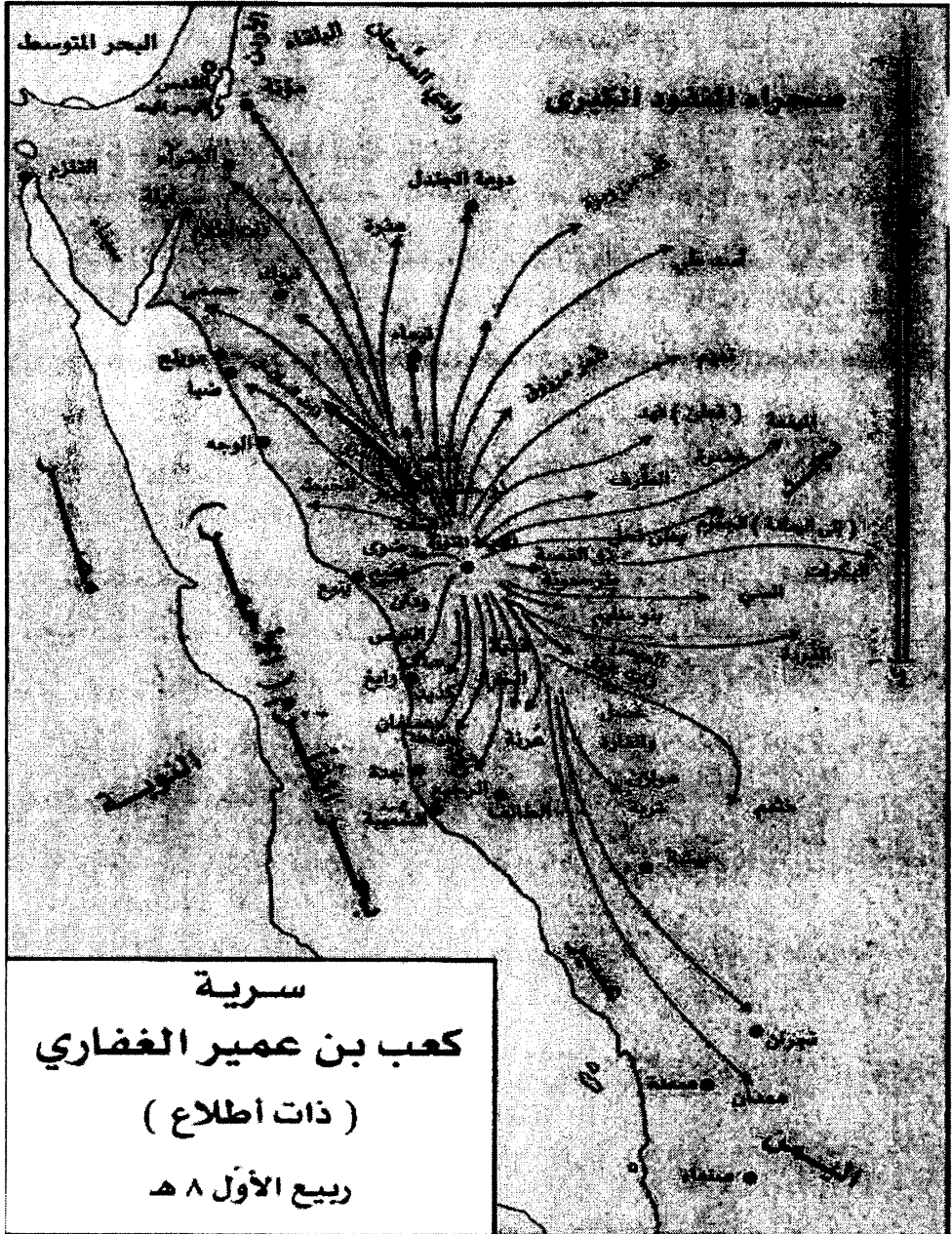
مصادر ومراجع الدراسة:

أ - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ٦٧٧/٢، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/٧٥٢-٧٥٣، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/١١٩، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢٩/٣، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/٣٥٧، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/٤١٩، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/٤٧٧، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/٤١١، إمتاع الأسع للمقرئزي (٨٤٥هـ) ١/٣٣٦، سبل الهدى والرشاد للصالح (٩٤٢هـ) ٦/٢٢٧، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٣/١٩٨.

ب - كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٥٣٩-٥٤٠.

ج - كتب الغزوات والسرايا: غزوة مؤتة لباشميل ١٥٨-١٥٩، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١٢٢ - ١٢٣، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢١٧-٢٢٩.

خرائط سريّة كعب بن عمير ؓ إلى ذات أطلاق



المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من

سَرِيَّةِ كَعْبِ بْنِ عُمَيْرٍ ﷺ إِلَى ذَاتِ أَطْلَاحِ

١ - إثارة الشهادة على الحياة:

يقول ل/ خطاب: «لقد حاول كعب ﷺ أن يياغت قضاة، فكمّن نهارًا، وسار ليلاً، فأدّى الذي عليه من واجب الكتان لمباغته عدوّه، وتحقيق هدفه بالمباغته، ولكن أحد عيون قضاة رأى سرية كعب ﷺ واكتشف أنّها قليلة العدد بعيدة المدد، فأنذر قومه بالذي رآه واكتشفه، فتكاثر العدد على السرية القليلة، التي استماتت في القتال، حتى استشهد أفرادها وعلى رأسهم قائدها.

وكان من الصّعب أن يحول كعب ﷺ بين أحد عيون قضاة، وبين الذي حدث، في بيء شاسعة، وسط مجتمع يتشابه أفراد لغه وشكلاً وثنياً، في ظروف غير اعتيادية هي ظروف الحرب بين المسلمين من جهة والمشرّكين من جهة أخرى، فاستطاعت الفئة المتفوّقة عدداً وعدداً، أن تبيد الفئة القليلة؛ لأنّ الصراع كان بين فئتين غير متكافئتين؛ ولأنّ التفوق العددي وبالسلّاح والخيّل كان إلى جانب العدو؛ ولأنّ العدو كان يقاتل في بلده مستنداً على قاعدته، بينما كان يقاتل المسلمون بعيداً عن المدينة قاعدتهم، فكانت المزايا العسكرية كلها تقريباً إلى جانب المشرّكين، فانتصروا على المسلمون الذين اعتمدوا المباغته لإحراز النصر، ففقدوا تلك المباغته بانكشاف أمرهم في نيتهم وفي عدّهم، فلم يبق أمامهم إلا أن ينالوا الشهادة، إذ خسروا إحدى الحُسنيين: النصر، فلم يبق أمامهم إلا إحدى الحسنين التي لا تقل أهمية عن الأولى: الشهادة. فضحّوا بأرواحهم جميعاً دفاعاً عن عقيدتهم، وآثروا الشهادة على الحياة».

[قادة النبي ﷺ لخطاب ٤٢٠-٤٢١].

٢ - حقد الوثنية على الإسلام وأهله:

يقول د/ بريك: «لقد كشفت هذه السرية عمّا تحبّه الوثنية من غِلٍّ وحقدٍ دفينٍ على الإسلام وأهله، غِلٌّ عصف بكلّ المبادئ، وحقدٍ ألغى القيم الإنسانية.

فهؤلاء قوم هداة جاؤوا لنشر الخير والسلام بين مَنْ قتلوهم، فكان جزاؤهم الغدر بهم، وقتلهم جميعاً بلا هوادة ولا رحمة». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشالية لبريك ٢٢٧].

٣ - استمرارية الدعوة إلى الله رغم الصعاب:

يقول د/ بريك: «وقد يقول القائل: إذا كان الأمر كذلك، فلم لم يتوقّف النبي ﷺ عن دعوة الأعراب إلى الإسلام، طالما أنّهم لا يحترمون القيم والمبادئ، ولا يمكن الوثوق بهم؟.

قلنا: الدعوة إلى الله لا يمكن أن تقف في أرضٍ ما، أو تتعثر بسبب ما يعترض طريقها من بعض الحوادث التي تعيق تقدمها.

وهناك حقيقة يجب ألا تغيب عن أذهاننا، وهي أن طريق الدعوة إلى الله تعالى منذ بدأت حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لم يكن في يومٍ من الأيام مفروشا بالورود، فكان لابد من تقديم التضحيات في طريقها الطويل الشاق.

وقد وضح النبي ﷺ هذه الحقيقة للصحابة رضي الله عنهم حاثا إياهم على الصبر والتحمل، وتقديم التضحيات، وذلك منذ فترة مبكرة جداً، وبالتحديد في مكة حينما أثقلت قريش من وطئتها على المسلمين المستضعفين في مكة، فجاءوا يستنجدون بالنبي ﷺ.

قَالَ خَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِّ ؓ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ؟ فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهَهُ، فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَيْمُسُطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَضْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمُنْشَارُ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَثْنَيْنِ، مَا يَضْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَكَيْتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّابِئُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضَرِ مَوْتٍ مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

[البخاري في المناقب (٣٣٤٣، ٣٨٥٢)، ومواضع أخرى، وأبو داود في الجهاد (٢٢٧٨)، وأحمد رقم ٢٠١٤٨].

وقد عرف الصحابة رضي الله عنهم فيما بعد هذا الأمر، وفقهوه جيداً؛ لذلك نجدهم كانوا يتسابقون للانخراط في البعثات الدعوية كما في الرجيع، وبئر معونة، وغيرها من البعثات والسرايا النبوية التي كانت أهدافها جميعاً نشر الدعوة إلى الله ﷻ، وذلك دون خوف أو وجلٍ من العواقب التي كانوا يتوقعونها، بل كانوا يتحرقون لملاقاتها باندفاع أدهش الأعداء قبل الأصدقاء، مما كان له أكبر الأثر في نجاح مسيرة الدعوة وانتشارها بسرعة مذهلة فاقت كل التوقعات، وصدق الله القائل في محكم كتابه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ١﴾ [الصف].

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشبالية لبريك ٢٢٧-٢٢٨].

٤ - ضخامة التضحيات الجسام لسلفنا الصالح رضي الله عنهم :

يقول د/ بريك: «وهكذا فقد بينت هذه السرية مقدار ضخامة التضحيات الجسام التي كان يُقدّمها سلفنا الصالح رضي الله عنهم في سبيل نشر الدعوة إلى الله ﷻ، تلك التضحيات العظيمة التي تكررت في أكثر من مناسبة، وعلى أكثر من موقع، فبالأمس فقدت الدعوة فرساناً لها أبراراً في الرجيع، وبئر معونة، واليوم في ذات أطلاق، وغداً في مكان آخر... وهكذا دواليك دون أن تتوقف الدعوة، إذ لابد من تبليغ الدعوة إلى الله ﷻ منها كانت التضحيات». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشبالية لبريك ٢٢٩].

ويقول د/ رزق الله: «في هذه السرية درس بليغ للناس عما كان يقع للصحابة المجاهدين في سبيل الدعوة الإسلامية، وقد تكرر مثل هذه الحادثة كثيرًا كما هو واضح من سردنا لأحداث هذه السرايا الصغيرة». [السيرة النبوية لرزق الله ٥٤٠].

الفصل الحادي عشر

سرية شجاع بن وهب رضي الله عنه

إلى السبي من أرض بني عامر من ناحية ركة

ربيع الأول ٨هـ / يولييه ٦٢٩ م / أبيب ٣٤٥ قبطي

المبحث الأول

عرض سرية شجاع بن وهب رضي الله عنه

إلى السبي من أرض بني عامر من ناحية ركة

أحداث السرية:

يقول أ/ باشميل: «هي دورية قتال قام بها شجاع بن وهب رضي الله عنه إلى هوازن، وكانت قبائل هوازن من أقوى القبائل التي ظلت في الحجاز ذات شوكة، تتربص بالمسلمين الدوائر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم بين الحين والحين يجس نبضها ويحاول إرهابها وشن الغارة عليها داخل أراضيها؛ لئلا تطمع في المسلمين أو تظن بهم الضعف.

فرغم بُعد ديار هوازن عن المدينة حيث تقع في المثلث الواقع بين الطائف ونجد ومكة، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يبعث بالسرايا تجوب خلال ديار هوازن، هذه التي خاضت فيما بعد ضد المسلمين أعنف معركة حربية شهدها العهد النبوي، وهي معركة حنين، التي التقى فيها اثنتا عشر ألفاً من المسلمين بعشرين ألفاً من هوازن. ففي ربيع الأول من سنة ثمان، بعث الرسول صلى الله عليه وسلم بسرية قوامها أربعة وعشرون رجلاً، بقيادة شجاع بن وهب رضي الله عنه إلى ديار بني عامر بهوازن شرقي الطائف، وأمره بأن يطأ أرضهم في غارة حربية. فصعد القائد شجاع رضي الله عنه، وتحرك برجاله، فصار يكمن النهار ويسير الليل، زيادة في الكتمان، وذلك أسلوب يتبعه كل قادة السرايا والدوريات الحربية في العهد النبوي ليضمنوا مباغته العدو؛ لأن المباغته في العُرف العسكري (في كل زمان ومكان) تكون من أهم أسباب النجاح في تحقيق الأهداف».

[غزوة مؤتة لباشميل ١٥٥].

قال الواقدي: «حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فَرَوَةَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم شُجَاعَ بْنَ وَهَبٍ رضي الله عنه فِي أَرْبَعَةِ وَعِشْرِينَ رَجُلًا إِلَى جَمْعٍ مِنْ هَوَازِنَ بِالسَّيِّ (وزاد ابن سعد: بالسبي ناحية ركة من وراء المعدن، وهي من المدينة على خمس ليال. الطبقات ١١٨/٢)، وَأَمَرَهُ أَنْ يُغِيرَ عَلَيْهِمْ، فَخَرَجَ، فَكَانَ يَسِيرُ اللَّيْلَ وَيَكْمُنُ النَّهَارَ، حَتَّى صَبَحَهُمْ وَهُمْ غَارُونَ (أي: غافلون)، وَقَدْ أَوْعَرَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَبْلَ ذَلِكَ أَلَّا يُمِغِنُوا فِي الطَّلَبِ (أمعن في طلب العدو: بالغ وأبعد)، فَأَصَابُوا نَعْمًا كَثِيرًا وَشَاءَ،

فَاسْتَأْذَنُوا ذَلِكَ كُلَّهُ حَتَّى قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، وَافْتَسَمُوا الْغَنِيمَةَ، وَكَانَتْ سِهَامُهُمْ خَمْسَةَ عَشَرَ بَعِيرًا كُلُّ رَجُلٍ، وَعَدَلُوا الْبَعِيرَ بِعَشْرَةٍ مِنَ الْغَنَمِ، وَغَابَتِ السَّرِيَّةُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً.

قَالَ ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ: فَحَدَّثْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ عُثْمَانَ فَقَالَ: كَانُوا قَدْ أَصَابُوا فِي الْحَاضِرِ نِسْوَةً فَاسْتَأْذَنُوا، وَكَانَتْ فِيهِنَّ جَارِيَةٌ وَضَيْئَةٌ، فَقَدِمُوا بِهَا الْمَدِينَةَ، ثُمَّ قَدِمَ وَفَدَهُمْ مُسْلِمِينَ، فَلَمَّا قَدِمُوا كَلَّمُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي السَّبْيِ فَكَلَّمَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم شُجَاعًا وَأَصْحَابَهُ فِي رَدِّهِمْ فَسَلَّمُوهُمْ وَرَدُّوهُمْ إِلَى أَصْحَابِهِمْ.

قَالَ ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ: فَأَخْبَرْتُ شَيْخًا مِنَ الْأَنْصَارِ بِذَلِكَ، فَقَالَ: أَمَّا الْجَارِيَةُ الْوَضِيئَةُ فَكَانَ شُجَاعُ ابْنِ وَهْبٍ رضي الله عنه قَدْ أَخَذَهَا لِنَفْسِهِ بِثَمَنِ فَأَصَابَهَا، فَلَمَّا قَدِمَ الْوَفْدَ خَيَّرَهَا، فَأَخْتَارَتِ الْمَقَامَ عِنْدَ شُجَاعِ بْنِ وَهْبٍ رضي الله عنه، فَلَقَدْ قُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ وَهِيَ عِنْدَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهَا وَلَدٌ. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٥٣-٧٥٤].

وقال ابن كثير: «وقد تكون هذه السرية هي المذكورة فيما رواه الشافعي عَنْ مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم سَرِيَّةً قَبْلَ نَجْدٍ، فَكُنْتُ فِيهَا [فَغَنِمْنَا إِبِلًا كَثِيرَةً]، فَبَلَغَتْ سِهَامُنَا [أَحَدَ عَشَرَ أَوْ اثْنَيْ عَشَرَ بَعِيرًا، وَنُفِلْنَا بَعِيرًا بَعِيرًا]، وَنُفِلُوا سِوَى ذَلِكَ بَعِيرًا فَلَمْ يُعَيِّرُهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم [فَرَجَعْنَا بِثَلَاثَةِ عَشَرَ بَعِيرًا] [البخاري في المغازي (٤٣٣٨)]، وفي فرض الخمس (٣١٣٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٩)، ومسنند أحمد ٢١٥/٩ رقم ٥٢٨٨، ١٠/١٥٠، ٤٨٣ رقم ٥٩١٩، ٦٤٥٤. [البداية والنهاية ٦/ ٤١٠].

وروى أبو داود بسنده عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَرِيَّةً إِلَى نَجْدٍ، فَخَرَجْتُ مَعَهَا، فَأَصَبْنَا نَعْمًا كَثِيرًا، فَقَلْنَا أَمِيرَنَا بَعِيرًا بَعِيرًا لِكُلِّ إِنْسَانٍ، ثُمَّ قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَسَمَ بَيْنَنَا غَنِيمَتَنَا، فَأَصَابَ كُلُّ رَجُلٍ مِّنَّا اثْنَيْ عَشَرَ بَعِيرًا بَعْدَ الْخُمْسِ، وَمَا حَاسَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِالَّذِي أَعْطَانَا صَاحِبُنَا، وَلَا عَابَ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا صَنَعَ، فَكَانَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِّنَّا ثَلَاثَةُ عَشَرَ بَعِيرًا بِنْفَلِهِ.

[أبو داود في الجهاد (٢٧٤٣)]، وقال الشيخ الألباني: ضعيف.

مصادر ومراجع الدراسة:

أ - كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٨٦٥.

ب - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٧٥٣-٧٥٤، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/ ١١٨، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٢٩، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٣٥٣-٣٥٤، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٤٧٦-٤٧٧، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٤٠٩-٤١٠، إمتاع الأسعالم للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٣٣٦-٣٣٧، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ٢٢٥-٢٢٦، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٩٨.

ج - كتب السيرة الحديثية: السيرة النبوية لرزق الله (٥٤٠-٥٤١هـ).

د - كتب الغزوات والسرايا: غزوة مؤتة لباشميل (١٥٥-١٥٦هـ)، فقه السرايا للعيسوي (١٧٣-١٧٤هـ).

خرائط سرية شجاع بن وهب رضي الله عنه

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من

سرية شجاع بن وهب رضي الله عنه إلى السبي

١ - قيادة شجاع بن وهب الأسدي رضي الله عنه:

يقول د/ الغضبان: «ونقف قليلاً عند قيادة شجاع بن وهب الأسدي رضي الله عنه، فهو من المهاجرين الأولين ومن حلفاء بني أمية مع عبد الله بن جحش رضي الله عنه وغيره، ولأول مرة يقود هذه السرية إلى ديار بني عامر، وكان أحد الرسل الستة الذين بعثهم رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء قبل تكليفه بهذه المهمة، فقد أرسله رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني أو إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر كما في رواية الطبراني، وأدى المهمة بنجاح، وعاد إلى المدينة، كما أدى مهمته بنجاح في ديار بني عامر وعاد إلى المدينة، وسرى بعد ذلك أثر هذه السرية من خلال تحرك أكبر زعماء بني عامر للإسلام على أثر هذه السرية وهو علقمة بن علاثة، والذي كان يتربص الأحداث ليتخذ الموقف المناسب، كما سنرى أثر سرية الشهداء في بني سليم كذلك حيث تكون الأشهر القادمة من الأشهر الحاسمة في التاريخ الإسلامي، من حيث إقبال الناس على الإسلام». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٠٩-١١٠].

٢ - المباغطة بالزمان والأسلوب:

يقول ل/ خطاب: «على الرغم من تفوق بني هوازن بالعدَد والعدَد على سرية شجاع رضي الله عنه تفوقاً ساحقاً، إلا أن شجاعاً رضي الله عنه استطاع مباغطة عدوه، بالزمان الذي لم يكونوا يتوقعون أن يهاجموا فيه، وبالأسلوب الذي كان سريعاً صاعقاً، فشل بذلك إرادة العدو على القتال، وشلَّ بذلك تفكيره الصائب، وتركه يتخبط في فوضى الارتباك والتردد، وبذلك استطاع أن يكبده خسائره فادحة بالأرواح والأموال والسبي، في وقت خاطف قصير جداً.

والمباغطة، أهمُّ مبدأ من مبادئ الحرب كما هو معروف». [قادة النبي ﷺ لخطاب ٤١٤].

٣ - الحرص على تطبيق المبادئ الحربية:

يقول ل/ خطاب: «ولم يقتصر شجاع رضي الله عنه على تطبيق مبدأ المباغطة، بل طبق أكثر مبادئ الحرب الأخرى وأهمها، فقد طبق مبدأ اختيار المقصد وإدامته، وكان مقصده حسب نص أمر النبي ﷺ الذي أصدره إليه، هو الغارة على بني هوازن، فنفذ شجاع هذا المقصد الواضح الجلي، وأمر رجاله ألا يطاردوا العدو، حتى لا يتورط رجاله في مواقف ليست في الحسبان وليست في صالحهم.

كما طبق مبدأ: التعرُّض، وكان قائداً تعرّضياً من الدرجة الأولى، بعيداً عن اتخاذ أسلوب الدفاع في عملياته القتالية.

وقد طبّق مبدأ: الأمن، فلم يستطع العدو أن يباغت سريته قبل القتال وفي أثنائه وبعده، واستطاع هو أن يباغت عدوّه في الزمان والأسلوب كما ذكرنا.

وطبّق مبدأ: الاقتصاد بالمجهود، فأمر بعدم مطاردة العدو، حتى لا يُبذّر في قوّاته أو يتكبّد خسائر في الأرواح دون مسوّغ.

وطبّق مبدأ: الأمور الإدارية، فأمن لرجاله كلّ ما يحتاجون إليه من مواد إدارية، بموجب خطة إدارية بسيطة مرنة، قابلة للتطبيق بسهولة ويُسر، خلّوها من التعقيد.

وطبّق مبدأ: إدامة المعنويات، تطبيقاً رائعاً حقاً، وما كان الهدف من سريته، إلا لإدامة معنويات رجالها بخاصة والمسلمين بعامّة، وإضعاف معنويات بني هوازن بخاصة والمشرّكين بعامّة.

[قادة النبي ﷺ لخطاب ٤١٤-٤١٥].

٤ - تحقيق السرية لأهدافها:

يقول د/ الحميدي: «هذه السرية تضاف إلى السرايا السابقة التي يقصد منها إرهاب قبيلة هوازن حتى لا تجتمع لحرب المسلمين، وقد نجح أصحاب هذه السرية في الاستخفاء مع طول الطريق، وتجاوزوا مناطق تحت سلطان الأعداء، حتى ظفروا ببغيتهم فأوقعوا بالأعداء، وتم المقصود من إرسال هذه السرية». [التاريخ الإسلامي للحميدي ١٠٢/٧].

٥ - جواز النفل من أمير السرية إلى بعض الجند أو كلهم:

سبق تفصيله في سرية زيد ثم أبي بكر رضي الله عنهما إلى بني فزارة بوادي القرى رجب / رمضان ٦هـ. وقال الإمام ابن حجر: النفل زيادة يُزادها الغازي على نصيبه من الغنيمة، ومنه نفل الصلاة وهو ما عدا الفرض.

واختلف الرواة في القسم والتفيل هل كانا جميعاً من أمير ذلك الجيش أو من النبي ﷺ أو أحدهما من أحدهما، فرواية ابن إسحاق صريحة أن التفيل كان من الأمير والقسم من النبي ﷺ، وظاهر رواية الليث عن نافع عند مسلم أن ذلك صدر من أمير الجيش، وأن النبي ﷺ كان مقرراً لذلك، مُجِزاً له لأنه قال فيه «وَلَمْ يُعْزِزْهُ النَّبِيُّ ﷺ». وفي رواية عبد الله بن عمر عنه أيضاً «وَنَفَلْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعِيرًا بَعِيرًا؛ وَهَذَا يُمَكِّنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى التَّقْرِيرِ فَتَجْمَعُ الرُّوَايَاتُ».

قال النووي: معناه أن أمير السرية نفلهم فأجازه النبي ﷺ فجازت نسبته لكلّ منهما.

وفي الحديث أن الجيش إذا انفرد منه قطعة فعنمو سبيّاً كانت الغنيمة للجميع.

قال ابن عبد البر: لا يختلّف الفقهاء في ذلك، أي إذا خرج الجيش جميعه ثم انفردت منه قطعة. انتهى.

وَلَيْسَ الْمَرَادُ الْجَيْشَ الْقَاعِدَ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ لَا يُسَارِكُ الْجَيْشَ الْخَارِجَ إِلَى بِلَادِ الْعَدُوِّ، بَلْ قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعَيْدِ: إِنَّ الْحَدِيثَ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْمُتَقَطِّعَ مِنَ الْجَيْشِ عَنِ الْجَيْشِ الَّذِي فِيهِ الْإِمَامُ يَنْفَرُ بِمَا يَغْنُمُهُ، قَالَ: وَإِنَّمَا قَالُوا بِمُشَارَكَةِ الْجَيْشِ هُمْ إِذَا كَانُوا قَرِيبًا مِنْهُمْ يَلْحَقُهُمْ عَوْنُهُ وَعَوْنُهُ لَوْ احْتَأَجُّوا. انْتَهَى. وَهَذَا الْقَيْدُ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: لِلْإِمَامِ أَنْ يُنْقَلَ السَّرِيَّةُ جَمِيعَ مَا غَنِمَتْهُ دُونَ بَقِيَّةِ الْجَيْشِ مُطْلَقًا، وَقِيلَ إِنَّهُ انْفَرَدَ بِذَلِكَ.

وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ التَّنْفِيلِ، وَمَعْنَاهُ تَخْصِصُ مَنْ لَهُ أَثَرٌ فِي الْحَرْبِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَالِ، لَكِنَّهُ خَصَّه عَمَرُو ابْنُ شُعَيْبٍ بِالنَّبِيِّ ﷺ دُونَ مَنْ بَعْدَهُ، نَعَمْ وَكَرِهَ مَالِكٌ أَنْ يَكُونَ بِسَرِّطٍ مِنْ أَمِيرِ الْجَيْشِ كَأَنْ يُحَرِّصَ عَلَى الْقِتَالِ وَيَعِدَّ بِأَنْ يُنْقَلَ الرَّبْعُ إِلَى الثَّلَاثِ قَبْلَ الْقِسْمِ، وَاعْتَلَّ بِأَنَّ الْقِتَالَ حَيْثُ يَكُونُ لِلدُّنْيَا، قَالَ: فَلَا يَجُوزُ مِثْلُ هَذَا. انْتَهَى.

وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى مَشْرُوعِيَّتِهِ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَلْ هُوَ مِنْ أَصْلِ الْغَنِيمَةِ أَوْ مِنَ الْخُمْسِ أَوْ مِنْ خُمْسِ الْخُمْسِ أَوْ مِمَّا عَدَا الْخُمْسَ عَلَى أَقْوَالٍ، وَالثَّلَاثَةُ الْأَوَّلُ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ، وَالْأَصَحُّ عِنْدَهُمْ أَنَّهَا مِنْ خُمْسِ الْخُمْسِ، وَنَقَلَهُ مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ مَالِكٍ، وَهُوَ شَادٌّ عِنْدَهُمْ.

قَالَ ابْنُ بَطَالٍ: وَحَدِيثُ الْبَابِ يُرَدُّ عَلَى هَذَا لِأَنَّهُمْ نَقَلُوا نِصْفَ السُّدُسِ وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ خُمْسِ الْخُمْسِ وَهَذَا وَاضِحٌ، وَقَدْ زَادَهُ ابْنُ الْمُنِيرِ إِضْاحًا فَقَالَ: لَوْ قَرَضْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا مِائَةً لَكَانَ قَدْ حَصَلَ لَهُمْ أَلْفٌ وَمِائَتَا بَعِيرٍ وَيَكُونُ الْخُمْسُ مِنَ الْأَصْلِ ثَلَاثِمِائَةٍ بَعِيرٍ وَخُمْسُهَا سِتُونَ، وَقَدْ نَطَقَ الْحَدِيثُ بِأَنَّهُمْ نَقَلُوا بَعِيرًا بَعِيرًا فَتَكُونُ جُمْلَةً مَا نَقَلُوا مِائَةً بَعِيرٍ، وَإِذَا كَانَ خُمْسُ الْخُمْسِ سِتِينَ لَمْ يَفِ كُلُّهُ بِبَعِيرٍ بَعِيرٍ لِكُلِّ مِنَ الْمِائَةِ، وَهَكَذَا كَيْفَمَا قَرَضْتَ الْعَدَدَ. قَالَ: وَقَدْ أُلْجَأَ هَذَا الْإِلْزَامُ بَعْضُهُمْ فَادَّعَى أَنَّ جَمِيعَ مَا حَصَلَ لِلْغَانِمِينَ كَانَ اثْنَيْ عَشَرَ بَعِيرًا فَقِيلَ لَهُ فَيَكُونُ خُمْسُهَا ثَلَاثَةَ أَبْعَرَةٍ فَيَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ السَّرِيَّةُ كُلُّهَا ثَلَاثَةَ رِجَالٍ كَذَا قِيلَ.

قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ: وَهُوَ سَهْوٌ عَلَى التَّفْرِيعِ الْمَذْكُورِ، بَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَقَلُّ مِنْ رَجُلٍ بِنَاءً عَلَى أَنَّ النَّقْلَ مِنْ خُمْسِ الْخُمْسِ.

وَقَالَ ابْنُ التَّيْنِ: قَدْ انفصل مَنْ قَالَ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ بِأَنَّ النَّقْلَ مِنْ خُمْسِ الْخُمْسِ بِأَوْجُهُ: مِنْهَا أَنَّ الْغَنِيمَةَ لَمْ تَكُنْ كُلُّهَا أَبْعَرَةً بَلْ كَانَ فِيهَا أَصْنَافٌ أُخْرَى، فَيَكُونُ التَّنْفِيلُ وَقَعَ مِنْ بَعْضِ الْأَصْنَافِ دُونَ بَعْضٍ.

ثَانِيهَا: أَنْ يَكُونَ نَقْلُهُمْ مِنْ سَهْمِهِ مِنْ هَذِهِ الْغَزَاةِ وَغَيْرِهَا فَضَمَّ هَذَا إِلَى هَذَا؛ فَلِذَلِكَ زَادَتْ الْعِدَّةُ.

ثالثها: أَنْ يَكُونَ نَقْلَ بَعْضِ الْجَيْشِ دُونَ بَعْضٍ.

قَالَ: وَظَاهِرُ السِّيَاقِ يَرُدُّ هَذِهِ الْإِحْتِمَالَاتِ.

قَالَ: وَقَدْ جَاءَ أَتَمُّهُمْ كَانُوا عَشْرَةً، وَأَتَمُّهُمْ غَنِمُوا مِائَةً وَخَمْسِينَ بَعِيرًا فَخَرَجَ مِنْهَا الْخُمْسُ وَهُوَ ثَلَاثُونَ وَقَسَمَ عَلَيْهِمُ الْبَقِيَّةَ فَحَصَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ اثْنَا عَشَرَ بَعِيرًا ثُمَّ نَقَلُوا بَعِيرًا بَعِيرًا فَعَلَى هَذَا فَقَدْ نَقَلُوا ثُلُثَ الْخُمْسِ.

قُلْتُ: إِنْ ثَبَتَ هَذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ رَدٌّ لِإِحْتِمَالِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الَّذِينَ نَقَلُوا سِتَّةً مِنَ الْعَشْرَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ وَأَحْمَدُ وَأَبُو ثَوْرٍ وَغَيْرُهُمْ: النَّقْلُ مِنْ أَصْلِ الْغَنِيمَةِ.

وَقَالَ مَالِكٌ وَطَائِفَةٌ: لَا نَقْلَ إِلَّا مِنَ الْخُمْسِ.

وَقَالَ الْحَظَّابِيُّ: أَكْثَرُ مَا رُوِيَ مِنَ الْأَخْبَارِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّقْلَ مِنْ أَصْلِ الْغَنِيمَةِ.

وَالَّذِي يَقْرُبُ مِنْ حَدِيثِ الْبَابِ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْخُمْسِ لِأَنَّهُ أَضَافَ الْإِثْنَيْ عَشَرَ إِلَى سَهْمَانِهِمْ، فَكَانَتْ أَشَارَ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ قَدْ تَقَرَّرَ لَهُمْ اسْتِحْقَاقُهُ مِنَ الْأَخْمَاسِ الْأَرْبَعَةِ الْمَوْزَعَةِ عَلَيْهِمْ فَيَقْبَى لِلنَّقْلِ مِنَ الْخُمْسِ.

قُلْتُ: وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي حَدِيثِ الْبَابِ مِنْ طَرِيقِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: «بَلَغَنِي عَنْ إِبْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: نَقَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً بَعَثَهَا قَبْلَ نَجْدٍ مِنْ إِبِلٍ جَاؤُوا بِهَا نَقَلًا سَوَى نَصِيهِمْ مِنَ الْمَغْنَمِ» لَمْ يَسْقُ مُسْلِمٌ لَفْظَهُ وَسَاقَهُ الطَّحَاوِيُّ، وَيُؤَيِّدُهُ أَيْضًا مَا رَوَاهُ مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ رَبِّهِ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا لِي بِمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِلَّا الْخُمْسُ، وَهُوَ مُرْدُودٌ عَلَيْكُمْ»، وَصَلَهُ النَّسَائِيُّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ حَسَنٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا سَوَى الْخُمْسِ لِلْمَقَاتِلَةِ.

وَرَوَى مَالِكٌ أَيْضًا عَنْ أَبِي الزِّنَادِ أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ قَالَ: «كَانَ النَّاسُ يُعْطَوْنَ النَّقْلَ مِنَ الْخُمْسِ».

قُلْتُ: وَظَاهِرُهُ اتِّفَاقُ الصَّحَابَةِ عَلَى ذَلِكَ.

وَقَالَ إِبْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: إِنْ أَرَادَ الْإِمَامُ تَفْصِيلَ بَعْضِ الْجَيْشِ لِمَعْنَى فِيهِ فَذَلِكَ مِنَ الْخُمْسِ لَا مِنْ رَأْسِ الْغَنِيمَةِ، وَإِنْ انْفَرَدَتْ قِطْعَةٌ فَأَرَادَ أَنْ يُنْقَلَهَا مِمَّا غَنِمَتْ دُونَ سَائِرِ الْجَيْشِ فَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ الْخُمْسِ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَزِيدَ عَلَى الثَّلَاثِ انْتَهَى. وَهَذَا الشَّرْطُ قَالَ بِهِ الْجُمْهُورُ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: لَا يَتَحَدَّدُ، بَلْ هُوَ رَاجِعٌ إِلَى مَا يَرَاهُ الْإِمَامُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، وَيَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ

الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﷺ [الأنفال: ١]، فَقَوَّضَ إِلَيْهِ أَمْرَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: لَا يُنْقَلُ مِنْ أَوَّلِ الْغَنِيمَةِ، وَلَا يُنْقَلُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً. وَخَالَفَهُ الْجُمْهُورُ.

وَحَدِيثُ الْبَابِ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ يَدُلُّ لِمَا قَالُوا وَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى تَعْيِينِ قِسْمَةِ أَعْيَانِ الْغَنِيمَةِ لَا أَثْمَانَهَا، وَفِيهِ نَظَرٌ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ وَقَعَ ذَلِكَ اتِّفَاقًا أَوْ بَيَانًا لِلْجَوَازِ.

وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ فِيهِ أَقْوَالٌ ثَلَاثُهَا التَّخْيِيرُ، وَفِيهِ أَنَّ أَمِيرَ الْجَيْشِ إِذَا فَعَلَ مَصْلَحَةً لَمْ يَنْقُضْهَا الْإِمَامُ.

[فتح الباري في فرض الخمس (٣١٣٤)].

٦ - أثر أخلاق المسلمين في غيرهم:

يقول د/ رزق الله: «وكان في السبي جارية وضيئة اختارت المقام مع شجاع بن وهب رضي الله عنه.

وفي قصة هذه الجارية دليل على مدى أثر أخلاق المسلمين في غيرهم، حتى ولو كان هذا الغير هم من

حاربوهم وأرادوا القضاء عليهم». [السيرة النبوية لرزق الله ٥٤٠].

الفصل الثاني عشر

سريّة زيد بن حارثة ﷺ إلى مدين

(٩٩٩)

المبحث الأول

عرض سريّة زيد بن حارثة ﷺ إلى مدين

التعريف بمدين:

يقول د/ بريك: «مَدِينُ: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وفتح الياء المثناة من تحت، وآخره نون، بلد بالشام معلوم، يَلْقَاءُ غَزَّةَ، وهو المذكور في كتاب الله تعالى. [ورد ذكر مَدِين في عشرة مواضع من القرآن الكريم: (الأعراف ٨٥، التوبة ٧٠، هود ٨٤، ٩٥، طه ٤٠، الحج ٤٤، القصص ٢٢، ٢٣، ٤٥، العنكبوت ٣٦)].

وقال الحازمي: بين وادي القرى والشام.

وقيل: مَدِين تجاه تبوك يَنُ الْمَدِينَةَ والشام على ست مراحل، وبها استقى موسى ﷺ لبنات شعيب، وبها بئر قد بُنِيَ عليها بيت.

قال أبو زيد: مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك، وبها البئر التي استقى منها موسى ﷺ لسائمة شعيب قال: ورأيت هذه البئر مغطاة قد بُنِيَ عليها بيت، وماء أهلها من عين تجري.

وقال محمد بن سهل الأحول: ومَدِين من أعراض المدينة أيضًا مثل فذك والفرع ورهاط.

وقيل: مَدِين هي كفر منده من أعمال طبرية، وعندها أيضًا البئر والصخرة.

ومَدِين: منازل جذام، وشعيب النَّبِيُّ ﷺ، المبعوث إلى أهل مَدِين أحد بني وائل بن جذام، وقال النَّبِيُّ ﷺ: لو فد جذام: (مرحبًا بقوم شعيب وأصهار موسى). [معجم ما استعجم للبكري ١٢٠١/٤].

فهي مدينة قوم شعيب، سُمِّيَتْ بِمَدِين بن إبراهيم ﷺ.

وقيل: مَدِين اسم القبيلة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدِينَ أَخَاهُ رُشَيْبًا﴾ [هود: ٨٤].

قال البلادي: أمّا موقع مَدِين فهو بلا خلاف غرب تبوك، بينها وبين خليج العقبة، فإذا كان المقصود مدينة شعيب فهي تُعرَف اليوم باسم البدع، وتقع على (٢٢٠) كيلًا من تبوك، يصل بينهما طريق معبد، أمّا إذا كان المقصود ديار القبيلة فإنَّ الموقع والحدود تتأثر بسعة انتشار تلك القبيلة وتقلُّصها، فإذا ثبت أنَّهم من جذام كانت تمتد من ساحل البحر إلى قُرب تبوك، ثُمَّ تدخل في الشراة شمالًا، وتقرب من ضبة جنوبًا.

وإذا طَبَقْنَا نظرية الحدود الجغرافية التي تشمل مسمى واحدًا في الغالب، نستطيع القول بأنَّ أرض مدين مُحدَّد من الشرق بسراة حسمى، ومن الغرب بالبحر، ومن الشمال حقل أو العقبة، أمّا من الجنوب فلا تتجاوز ضبة أو دونها، والبدع قرية تتوسط أرض خالية من العمران، فأقرب قرية تبعد عنها قرابة

ستين كيلاً، وهي - أيضاً - تتوسط وادي عفال الخالي من الزراعة والحياة إلا من هذه القرية، وهي ذات زراعة لا بأس بها على آبار ضخ، وفيها سكان وحوانيت ومقاهٍ، وسكانها الحويطات، وجُلُّهم من المساعيد.

وهذا البلد يسميه الباحثون المحدثون «مَدِين» بينما عَرَفَهُ الرَّحَّالُونَ الحُجَّاجَ كالجزيري، وابن عبد السلام الدرعي باسم «مغائر شعيب».

ومغائر شعيب: جمع مغارة، وهي الغار العميق في الجبل، وهي مغائر في صفراء شعيب التي تظلل البدع من الغرب، وفي هذه الصفراء من الميل الشمالي مكان يُقال إنه مُصَلَّى شعيب ﷺ، والإجماع من زمن متقدِّم على أنَّ هذه مغائر شعيب، وأنَّ البلد هو بلد شعيب سواء كان اسمه مدين أو الأيكة، فقد مرَّ الرَّحَّالُونَ من حُجَّاجِ مصر من هنا منذ بداية القرن التاسع أو قبلها، فذكروا أنَّ الاسم هو مغائر شعيب وأنَّها مَدِين.

ويقول المساعيد - أهل هذه الديار -: إن اسم البدع ناتج عن أنَّ هذه الأرض قد دُثِّرَتْ، ثُمَّ بُدِعَتْ فيها آبار ومزارع، فَسُمِّيَتْ بذلك. [ينظر: معجم ما استعجم للبكري ٤/ ١٢٠١، ومعجم البلدان للحموي ٥/ ٧٧ - ٧٨، ورحلات في بلاد العرب، في شمال الحجاز والأردن للبلادي ١٢٣، ١٣١، ١٣٨].

قلت: هذا تعريف شامل بِمَدِينِ الذي سُمِّيَتْ به هذه السرية، ولكن هناك إشارات وردت في روايات الخبر تشير إلى أنَّ المكان الذي توجَّهَتْ إليه السرية هو مكان آخر، ربما يكون قريباً من مَدِين.

ففي رواية مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ فِي سَنَنِهِ قَالَ: (بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى مَدِينَةِ مَقَنَا - قَالَ سَعِيدٌ: مَقَنَا هِيَ مَدِينُ -). [أخرجه سعيد بن منصور في السنن ٢/ ٢٩١ باب تفريق السي بين الوالد وولده والقرابات رقم ٢٦٦١ من حديث ابن إسحاق، وبه أخرجه ابن سعد نحوه (الطبقات، الجزء المتمم لتابعي المدينة ٤٥٢)]. وقال عنه ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢١٤: سنده منقطع. قلت: كذلك فيه عنعنة ابن إسحاق، وهو مدلس، ولعلَّ سبب الانقطاع هو أن فاطمة بنت الحسين لم تدرك النَّبِيَّ ﷺ.

وفي رواية ابن هشام بسنده عن فاطمة بنت الحسين بن علي قالت: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ نَحْوَ مَدِينِ، وَمَعَهُ ضَمِيرَةٌ مَوْلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، وَأَخٌ لَهُ». قالت: «فَأَصَابَ سَبِيًّا مِنْ أَهْلِ مِثْنَاءَ، وَهِيَ السَّاحِلُ، وَفِيهَا جُمَاعُ (الجماع) مِنَ الْأَصْدَادِ، وَيَكُونُ تَارَةً لِلْمَجْتَمِعِينَ، وَتَارَةً لِلْمُفْتَرِقِينَ. وَأَرَادَ بِهِ هُنَا جَمَاعَاتُ مِنَ النَّاسِ مِثْلَطَيْنِ) مِنَ النَّاسِ». [رواه ابن هشام (سيرة ٢/ ٦٣٥) مُعَلِّقًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ حَسَنِ].

هذا ولم أجد في المعاجم الجغرافية مدينة باسم مِثْنَاءَ، وَأَظْنُهَا. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ - تصحيف مقنا، لِعِدَّةِ

قرائن:

١- لا توجد مدينة أو قرية في المنطقة باسم مِثْنَاءَ.

٢- مشابهة لفظ (ميناء) للفظ (مقنا) خاصّةً وأنه ورد في بعض الروايات (ميناً) بغير همز.

[ينظر: تاريخ الخميس للديار بكرى ١٥/٢].

٣- ورد في الرواية أنّها مكان ساحلي، وبلدة مقنا تقع على الساحل.

٤- ورد في الرواية أنّها كان فيها جُماع من الناس، أي جماعات من الناس مختلطين، ومن عادة المناطق الساحلية أن يكون سكانها من جماعاتٍ شتّى، وقد ورد في بعض الروايات أنّ سكان مقنا كانوا خليطاً من العرب بني حبيبة، ومن اليهود. والله تعالى أعلم.

[ينظر: فتوح البلدان للبلاذري ٨٠، معجم البلدان للحموي ١٧٨/٥، الروض المعمار للحميري ٥٢٦].

وقال ياقوت: مقنا قُرب أيلة، صالحهم النَّبِيُّ ﷺ على ربع عروكهم، والعروك خشب يُصطاد عليه. (العروك: خشبة تُلقَى في البحر يركبون عليها فيُلْقُون شباكهم يصيدون السمك. ينظر: الطبقات لابن سعد ١/٢٧٧).

وقال الواقدي: صالحهم على عروكهم وربع ثمارهم، وكانوا يهوداً.

وقال البلاذري: وكانت مقنا بلدة عامرة عندما غزا رسول الله ﷺ تبوك، وكان أهلها بني حبيبة، فصالحهم وأدخلهم في ذِمّة المسلمين، وسكانها اليوم بنو عقبة والفوائد، وهي وادٍ من نواحي البدع، يسيل من الصفر الواقعة غرب البدع، فيصب في خليج العقبة من الشرق، وعند مصبه قرية مقنا المشهورة بنخلها وزراعتها، وتقع غرب البدع عند الدرجة (٢٨/٢٥) شمالاً، (٤٤/٤٥) شرقاً تقريباً، وتبعد عن البدع بما يقرب من (٣٧) كيلاً، وتوجد حولها آثار وبقايا مباني قديمة»

[ينظر: المغازي للواقدي ١٠٣٢/٣، معجم البلدان للحموي ١٧٨/٥، ورحلات في بلاد العرب، في شمال الحجاز والأردن للبلاذري ١٤٠]. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٩٧-١٠١].

راوي الخبر وسياقه:

يقول د/ بريك: «روى ابن هشام خبر السرية على أنه من زياداته على سيرة ابن إسحاق فقال: «ومّا لم يذكره ابن إسحاق من بعوث رسول الله ﷺ وسراياه، سيرة زيد بن حارثة إلى مدين». ذكر ذلك عبد الله بن حسن بن حسن، عن أمّه فاطمة بنت الحسين بن علي عليهم رضوان الله: «أن رسول الله ﷺ بعث زيد بن حارثة ﷺ نحو مدين»... الحديث.

قلت: ولعلّ ابن هشام - رحمه الله تعالى - وهم في عدم نسبة الحديث إلى ابن إسحاق، أو لعلّ الحديث سقط من رواية البكائي، وهي الرواية التي هدّ بها ابن هشام من سيرة ابن إسحاق، ولم يطلّع ابن هشام على روايات الحديث الأخرى، فالحديث أخرجه سعيد بن منصور من طريق «أبي شهاب» عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن الحسن، عن أمّه فاطمة بنت حسين، قالت: «بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى مدينة مقنا...» الحديث.

وأخرجه ابن سعد كذلك من طريق «أبي شهاب» به نحوه.

وعزاه لابن إسحاق كُلُّ من: ابن سيد الناس، والشامي، وتابعهما في ذلك الحلبي.

[عيون الأثر ٢/ ١٤٣، سبل الهدى ٦/ ١٥٣، السيرة ٣/ ١٨٥].

أما سياق الخبر ففيه اختلاف جوهري بين رواية سعيد، وابن سعد، ورواية ابن هشام، ففي رواية ابن هشام، ذكر أَنَّ ضَمِيرَةَ وأخاه كانا من جنود السرية، بينما وقع في روايتي سعيد، وابن سعد أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ  ، أصاب ضَمِيرَةَ فيمن أصاب من السَّيِّ، ووقع مثل ذلك في روايات أُخَر، منها ما هو متابع، ومنها ما هو شاهد لروايتي سعيد، وابن سعد، وهي بالتأكيد أقوى سنداً من رواية ابن هشام.

فقد أخرج عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي الْمَصْنَفِ، من طريق الثَّوْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ، عَنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ حُسَيْنٍ، «أَنَّ النَّبِيَّ   بَعَثَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ   فِي سَرِيَّةٍ، فَأَصَابَ سَبِيًّا، فَجَاءَ بِهِمْ»... ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ: «فَاحْتَاجَ إِلَى ظَهْرِ (الظهر: المراد به الراحلة، يُكْنَى به عنها لأنه هو المقصود بالاستعمال منها)، فَبَاعَ غُلَامًا مِنْهُمْ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ فَرَأَاهَا النَّبِيُّ   تَبْكِي، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: احْتَجْتُ إِلَى بَعْضِ الظَّهْرِ، فَبِعْتُ ابْنَهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ  : «ارْجِعْ فَرُدَّهُ أَوْ اشْتَرِهِ» قَالَ: فَوَهَبَهُ بَعْدَ ذَلِكَ لِعَلِيِّ  ، قَالَ: فَكَانَ خَازِنًا لَهُ قَالَ: وَوَلَدَ لَهُ». [المصنف لعبد الرزاق الصنعاني ٨/ ٣٠٧ رقم ١٥٣١٦، وسنده منقطع؛ لأن فاطمة لم تسمع من النبي  ].

أما الشاهد، كما ذكر ابن حجر [الإصابة ٢/ ٢١٤]، فقد أخرجه البخاري في تاريخه من طريق ابن أبي ذئبٍ عَنْ حُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ضَمِيرَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ضَمِيرَةَ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ   مَرَّ بِأُمِّ ضَمِيرَةَ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكِ؟»، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِي، فَأَرْسَلَ إِلَى الَّذِي عِنْدَهُ ضَمِيرَةَ فَأَتَانِي مِنْهُ بِبَكْرٍ (البكر: بالفتح، ولد الناقة، والفتى منها)»^(١).

(١) أخرجه البخاري (التاريخ الكبير ٢/ ٣٨٨ - ٣٨٩ رقم ٢٨٧٣)، وعزاه إليه ابن حجر (إصابة ٢/ ٢١٤) وقال:

«رويناه بعلو في الأول من حديث المخلص، قال ابن صاعد: غريب تفرد به ابن وهب عن ابن أبي ذئب. قلت: ذكر ابن منده أَنَّ زَيْدَ بْنَ الْحَبَابِ تابع ابن أبي ذئب فرواه عن حسين أيضًا، وأخرجه ابن منده من طريق وَرَادٍ».

قلت: والحديث مداره على الحسين بن عبد الله بن ضَمِيرَةَ، وهو متروك الحديث، كما مرَّ، ولكنَّ الحديث جاء من طُرُق، فقد أخرج أبو داود (كتاب الجهاد، باب في التفريق بين السبي، حديث رقم ٢٦٧٩) من حديث ميمون ابن أبي شبيب، عن علي   «أنه فرَّق بين جارية وولدها، فنهاه النبي   عن ذلك، وردَّ البيع».

وأخرجه الحاكم (مستدرک ٢/ ١٣٦) بسنده عن ميمون به مثله، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي في التلخيص.

قلت: ولكنَّ أبا داود قد أعلَّ الحديث بالانقطاع، بأنَّ ميمون لم يدرك عليًّا. انظر: عون المعبود ٧/ ٣٦٣.

كما أخرج الحاكم من حديث شعبة عن الحكم، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن علي   قال: «أمرني رسول الله   أن أبيع أخوين من السبي فبعتهما، ثُمَّ أتيت رسول الله   فأخبرته ببيعهما، فقال: فرَّقَ بينهما؟ قلت: نعم. قال: ==

وأخرجه ابن عبد البر من طريق ابن وهب به نحوه».

[الاستيعاب، هامش الإصابة ٢/ ٢١٤، وقال فيه: «ما يُتيكك، أجنة أنت أم عارية؟»].

فكُلُّ هذه الروايات الأقوى سندًا من رواية ابن هشام، ذكرت أن ضميرة كان من سبي تلك السرية، ولم يكن من جنودها، فلعل ابن هشام - رحمه الله تعالى - وهم في ذلك أيضًا. والله تعالى أعلم.

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٠٢-١٠٦].

تاريخ السرية:

يقول د/ بريك: «لم تُحدّد الروايات التي ساقّت خبر السرية تاريخًا محددًا لها بما فيها رواية ابن هشام في السيرة، حيث ذكرها ابن هشام في آخر كتاب المغازي مشيرًا إلى أنّها من زياداته على سيرة ابن إسحاق، وذكرها بعد سرية عمرو بن أمية الضمري إلى أبي سفيان». [السيرة ٤/ ٦٣٥].

وخبر السرية كما لاحظنا قد تفرّد به ابن إسحاق من بين أهل المغازي ولكن لم يذكر لها تاريخًا. ولكنه يمكن أن نستنبط لها تاريخًا تقريبًا من خلال سير أحداث السرية النبوية المباركة، حيث يمكننا الجزم بأنّ هذه السرية كانت قبل غزوة مؤتة بلا شك، وذلك في فترة هدنة الحديبية، وهي الفترة التي زاد فيها نشاط السرايا والبعوث النبوية في المنطقة الشمالية من الجزيرة.

إذ أنّ قائد السرية زيد بن حارثة ﷺ، كان من قادة مؤتة الذين استشهدوا بها؛ لأجل ذلك قدّمها هنا في باب السرايا والبعوث النبوية الشمالية قبل مؤتة. والله تعالى أعلم. [غزوة مؤتة لبريك ١٠٧].

سير الأحداث:

يقول د/ بريك: «قبل معركة مؤتة الشهيرة، بعث رسول الله ﷺ حبه ومولاه زيد بن حارثة ﷺ إلى منطقة مدين، وبالتحديد إلى بلدة مقنا على ساحل البحر الأحمر، في سرية لم تذكر الروايات قوتها.

== فارتجعها، ثمّ بعثها ولا تفرّق بينهما». قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه. ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/ ١٣٦).

وهذا الحديث بهذا اللفظ أخرجه الترمذي (أبواب البيوع، باب ما جاء في كراهية أن يفرق بين الأخوين، أو بين الوالدة وولدها في البيع، حديث رقم ١٣٠٢) من حديث ميمون، عن علي، وقال: هذا حديث حسن غريب. وذكر الشوكاني (نيل الأوطار ٥/ ١٦٢) الحديثين عن علي ﷺ ثمّ قال: وحديث علي الأول رجال إسناده ثقات كما قال الحافظ، وقد صحّحه ابن خزيمة، وابن الجارود، وابن حبان، والحاكم، والطبراني، وابن القطان. وحديثه الثاني هو من رواية ميمون بن أبي شبيب عنه، وقد علّاه أبو داود بالانقطاع بينهما. وأخرجه الحاكم وصحّح إسناده، ورجّحه البيهقي لشواهد.

قلت (غريب): جاء في كتاب: تخريج الأحاديث المرفوعة المسندة في كتاب التاريخ الكبير للبخاري - د/ محمد بن عبيد: إسناده ضعيف جدًا. وينظر تعليقه عليه في ج ٢ ص ٩٩٢-٩٩٣ رقم ٧٨٣.

واستطاع زيد   التوغل في تلك المنطقة البعيدة عن قاعدة المسلمين، ومناطق نفوذهم، ونجح   في الإغارة عليهم.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ حُسَيْنٍ قَالَتْ: (بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ   زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ   إِلَى مَدِينَةِ مَقْنَا - قَالَ سَعِيدٌ: مَقْنَا هِيَ مَدِينُ - فَأَصَابَ مِنْهُمْ سَبَايَا، مِنْهُمْ ضُمَيْرَةُ مَوْلَى عَلِيٍّ   (وَأَخُوهُ، وَأُمُّهُ، وَأَبُوهُ، فَجَاءَ بِهِمْ زَيْدٌ   إِلَى رَسُولِ اللَّهِ  )، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ   بِبَيْعِهِمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ يَبْكُونَ، فَقَالَ لَهُمْ: «مَا يَبْكُونَ؟»، قَالُوا: قَرَقْنَا بَيْنَهُمْ وَهُمْ إِخْوَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ  : «لَا تُفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ، بَيْعُوهُمْ جَمِيعًا». [أخرجه سعيد بن منصور في السنن ٢/ ٢٩١ باب تفريق السبي بين الوالد وولده والقرابات رقم ٢٦٦١ من حديث ابن إسحاق، وبه أخرجه ابن سعد نحوه (طبقات، الجزء المتمم لتابعي المدينة ٤٥٢). وقال عنه ابن حجر (الإصابة ٢/ ٢١٤): سنده منقطع].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَسَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ   إِلَى مَدِينِ، ذَكَرَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَسَنِ بْنِ حَسَنِ عَنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ ابْنَةِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ - عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللَّهِ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ   بَعَثَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ   نَحْوَ مَدِينِ، وَمَعَهُ ضُمَيْرَةُ مَوْلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ   وَأَخٌ لَهُ.

قَالَتْ: فَأَصَابَ سَبَايَا مِنْ أَهْلِ مِينَاءَ، وَهِيَ السَّوَّاحِلُ، وَفِيهَا جُمَاعٌ مِنَ النَّاسِ فَبِيعُوا، فَفُرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ   وَهُمْ يَبْكُونَ، فَقَالَ: «مَا لَهُمْ؟»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فُرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ  : «لَا تَبِيعُوهُمْ إِلَّا جَمِيعًا».

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَرَادَ الْأُمّهَاتِ وَالْأَوْلَادَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣٥].

وَعَنْ حُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ضُمَيْرَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ضُمَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ   مَرَّ بِأُمِّ ضُمَيْرَةَ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: «مَا يَبْكُكِ أَجَائِعُ أَنْتِ أَمْ عَارِيَةٌ أَنْتِ؟»، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فُرِّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ  : «لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا»، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى الَّذِي عِنْدَهُ ضُمَيْرَةَ فَدَعَاهُ فَأَتَانَاهُ مِنْهُ بِبَكْرَةٍ.

[السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٢١٣ كتاب السير باب التفريق بين المرأة وولدها رقم ١٨٣١١].

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنِ الثَّوْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ، عَنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ حُسَيْنٍ، «أَنَّ النَّبِيَّ   بَعَثَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ   فِي سَرِيَّةٍ، فَأَصَابَ سَبَايَا، فَجَاءَ بِهِمْ، فَاحْتَاجَ إِلَى ظَهَرٍ (الظهر: المراد به الراحلة، يُكْنَى به عنها لأنه هو المقصود بالاستعمال منها)، فَبَاعَ غُلَامًا مِنْهُمْ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ فَرَأَاهَا النَّبِيُّ   تَبْكِي، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: احْتَاجْتُ إِلَى بَعْضِ الظَّهَرِ، فَبِعْتُ ابْنَهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ  : «ارْجِعْ فَرَدَّهُ أَوْ اشْتَرِهِ» قَالَ: قَوْلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ لِعَلِّي  ، قَالَ: فَكَانَ خَازِنًا لَهُ قَالَ: وَوَلَدَ لَهُ».

[المصنف لعبد الرزاق الصنعاني ٨/ ٣٠٧ باب هل يفرق بين الأقارب في البيع؟ وهل يجبر على بيع عبد إن كرهه؟ رقم

١٥٣١٦، وسنده منقطع؛ لأن فاطمة لم تسمع من النبي  ].

هذا وقد أخرج ابن سعد، وابن منده، والبغوي حديث حسين بن عبد الله بن ضميرة حول الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ إلى ضميرة.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُوَيْسٍ الْمَدَنِيُّ، حَدَّثَنِي حُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ضَمِيرَةَ، أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي كَتَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي ضَمِيرَةَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي ضَمِيرَةَ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، إِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الْعَرَبِ، وَكَانُوا مِمَّنْ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ فَأَعْتَقَهُمْ، ثُمَّ خَيْرَ أَبَا ضَمِيرَةَ إِنْ أَحَبَّ أَنْ يُلْحَقَ بِقَوْمِهِ فَقَدْ أَذِنَ لَهُ، وَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْكُثَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَكُونُوا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَاخْتَارَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ، فَلَا يَعْزِضُ لَهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَمَنْ لَقِيَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلْيُسْتَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا»، وَكَتَبَ أَبُو بْنُ كَعْبٍ. [الطبقات الكبرى (الكبير) لابن سعد ١٠٣/٥ رقم ٥٩٦٨، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢٩٣/٤، والسيرة النبوية لابن كثير ٦٣٥/٤، والبداية والنهاية لابن كثير ط هجر ٢٧٦/٨. وقال د/ بريك: «عزاه ابن حجر (إصابة ٢/٢١٤) إلى ابن سعد، وابن منده، والبغوي، وقال: «أخرجه ابن منده من طريق وراد، قال ابن أبي ذئب: أقرأني حسين كتاباً فيه: مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي ضَمِيرَةَ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْتَقَهُمْ. قلت: وللحديث شاهد عند ابن إسحاق بسند منقطع، وقد تابع ابن أبي ذئب أيضاً إسماعيل بن أبي أويس، أخرجه محمد بن سعد، وأورده البغوي عنه عن إسماعيل بن أبي أويس، أخبرني حسين بن عبد الله بن ضميرة بن أبي ضميرة، أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى ضَمِيرَةَ فَذَكَرَهُ كَمَا تَقَدَّمَ». قلت: الحديث مداره على الحسين بن عبد الله بن ضميرة، وهو ضعيف، متروك الحديث، كما تقدّم. والله تعالى أعلم.]. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٠٨-١٠٩].

مصادر ومراجع الدراسة:

- أ - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتعذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٦٣٥/٢، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٤٣١/٢، سبل الهدى والرشاد للصالحى (٩٤٢هـ) ١٥٣/٦.
- ب - كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٥٤١.
- ج - كتب الغزوات والسرايا: غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٩٥-١٠٩.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من

سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى مدين

١ - جواز الاستيلاء على أموال الحربيين:

سبق تفصيلها في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ١ هـ.

٢ - لا يُفَرَّقُ فِي السَّبْيِ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا:

قال ابن القيم: «وَكَانَ ﷺ يَمْنَعُ التَّفْرِيقَ فِي السَّبْيِ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا، وَيَقُولُ: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا، فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

[الترمذي في السير (١٥٦٦)، وقال أبو عيسى: وفي الباب عن علي ﷺ، وهذا حديث حسن غريب، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، كرهوا التفريق بين السبي بين الوالدة وولدها، وبين الولد والوالد، وبين الأخوة. ومسند أحمد ٤٨٦/٣٨ رقم ٢٣٤٩٩، وقال الشيخان الألباني والأرنؤوط: حسن].

وَكَانَ يُؤْتَى بِالسَّبْيِ فَيُعْطَى أَهْلَ الْبَيْتِ جَمِيعًا كَرَاهِيَةً أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَهُمْ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/١١٤].

وقد سبق تفصيله في سرية زيد ثم أبي بكر ﷺ إلى بني فزارة بوادي القرى رجب / رمضان ٦ هـ.

الفصل الثالث عشر

تعقيب على السرايا بين خيبر ومؤتة

١ - مهمة هذه السرايا وأغراضها:

يقول د/ العيساوي: «إن مهمة هذه السرايا تختلف في مضمونها ونتائجها والأسباب التي خرجت من أجلها عن السرايا السابقة، فمن خلال الدراسة المتفحصية لهذه السرايا نجد العديد من أمرائها من الأنصار، مثل: السرية التي خرجت إلى الحرقة بقيادة غالب الليثي رضي الله عنه، والسرية التي خرجت إلى بني الملوح بالكديد، وسرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى الجناح، سرية الأخرم رضي الله عنه إلى بني سليم، وسرية شجاع بن وهب رضي الله عنه إلى السي، وسرية كعب بن عمير رضي الله عنه... إلخ.

في حين أن السرايا السابقة، كان معظم أمرائها من المهاجرين في الغالب.

كما أن هذه السرايا لم تكن لغرض الدورية والاستطلاع فحسب، أو لغرض التعرض لأموال قریش وتجارها القادمة أو الذهاب إلى مكة، وإنما أصبح لها أكثر من غرض ويحركها أكثر من هدف.

فأصبح من أهدافها نشر الدعوة الإسلامية، وبسط سلطان الدولة الناشئة على أرجاء الجزيرة العربية. كما أصبح من أهدافها العمل على تحقيق عالمية الدعوة الإسلامية، وتطبيق المنهج الشمولي للإسلام، وهذا ما برهن عنه الاصطدام المسلح مع القبائل المختلفة، واللقاء الدامي مع الروم في غزوة مؤتة، حيث إن الإسلام خرج من محيط الجزيرة العربية إلى محيط الدعوة العالمية.

والدارس لهذه السرايا يجد أنها خرجت لمسافات طويلة عن المدينة المنورة، واستغرق ذلك وقتاً طويلاً، وذلك لبعد المسافة التي قطعتها هذه السرايا من أجل الوصول إلى أهدافها المرسومة والتي كان التحرك من أجل تحقيقها.

فبعد المسافة المقطوعة، والفترة الزمنية المستغرقة، والاصطدام المسلح الدامي الذي حصل من خلال اللقاء بين المجاهدين في السرايا وأعدائهم والغنائم التي حصل عليها المجاهدون من أسرى وسبايا وأموال - كل هذه بمجموعها أفرزت لنا عدداً كبيراً من المسائل الفقهية والتي تفخر بها كتب المسلمين من سيرة وحديث وفقه - ودونها علماء الأمة بمداد من ذهب على صفحات من نور وأصبحت مفخرة للأمة تتناقلها الأجيال خلفاً عن سلف كما تروي للعالم المعجزة الخالدة التي أرسى قواعدها رسول الله ﷺ، وساهم في إكمال بنائها صحابته الكرام، أعني بها الحضارة الإسلامية التي بدد نورها كل ظلام، وقضى عدلها على كل جور، فكانت بحق فريدة في مبادئها وشموليتها، ولن تشهد البشرية مثلاً، ولن تعيش سعيدة وتخلص من مشاكلها إلا إذا عادت إلى كنفها وعملت على تطبيق تعاليمها.

إن الحضارة الإسلامية التي أتحدث عنها، لم تأت وليدة الصدفة وإنما كانت وليدة منهج إلهي دقيق محكم التطبيق، كُتب بدقة من بدايته إلى الكمال، حتى نتج عنه الدستور الإسلامي المتكامل الذي ساهمت جميع الأمة بتكاملته، وتحملت هذه السرايا القسط الأكبر من ذلك.

وإذا كان الغرب يفاخر بتاريخه الحديث وأنه كُتب بدماء أبنائه في الحرب العالمية الأولى والثانية، وحروب التحرير في المستعمرات، فالأجدد بنا نحن أبناء الأمة الإسلامية، أن نفخر بتاريخنا وما احتوى عليه من عبر وعظات وعلوم ومعارف في شتى المجالات الدينية والدنيوية، وأن نفخر بالأبطال الذين صنعوا التاريخ، ونكتب سيرهم على صفحات القلوب ونجعلها جزءاً من حياتنا اليومية ن مسترشدين بها في تربية الجيل وبناء الحاضر وضمان المستقبل، ومن الوفاء لهم، أن تكون سيرتهم حقيقة شاخصة قائمة، في قلم الكاتب، ولسان الخطيب، ومحاضرة الأستاذ، ووجدان الشاعر، وقرينة الفيلسوف، وريشة الفنان، وساحة الجندي، ومصنع العامل، وحقل الفلاح.

كيف لا وتاريخنا قد كُتب بدمائهم، حيث سالت رخيصة من جل الإسلام الغالي، فأرسوا قواعد الشرع وبينوا أحكامه». [فقه السرايا للعيساوي ١٨٩-١٩١].

٢ - الهدف الأمني:

يقول د/ أبو فارس: «كان رسول الله ﷺ يحرص كل الحرص على توطيد الأمن في ربوع الدولة الإسلامية، وأن يشعر كل فرد من رعاياها بالأمن والأمان والسلم والسلام.

لقد كان لتلك القبائل تفكيرات شريرة طامعة، قد ملأ الحقد قلوبها وأخذت تفكر في تقويض أركان الدولة الفتية، وبدأت تجمع الجموع على ذلك.

إن الرسول ﷺ علم المسلمين أن الدفاع عن دولتهم فرض من فرائض الإسلام، فما عليهم إلا أن يتصدوا لكل من تُسَوِّل له نفسه النِّيل من دولتهم، وعلمهم في هذه السرايا والغزوات أيضاً أن الدفاع لا يقتصر على صد العدوان إذا وقع، ودحر العدو إذا اقترب، بل يتعدى ذلك إلى غزو العدو في عقر داره، ومطاردة فلوله، وتوجيه ضربات قاصمة تقصم ظهره حتى لا يكون قادراً على مجرد التفكير بالاعتداء، بل تُقعده عن الحركة والانتشار.

وما كانت هذه السرايا إلا تطبيقاً لهذا التدبير الناجح الذي لم يمكن قبيلة واحدة من مهاجمة المدينة أو أطرافها». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٩٩].

٣ - الهدف الدعوي:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان من أهداف بعض هذه السرايا في فترة الهدنة نشر الإسلام بين الناس، فعلى الرغم من فجور هذه القبائل، وحقدتها على الإسلام وأهلها، وحشودها للاعتداء على المسلمين،

وتأليب بعضها بعضاً على ذلك، فقد كان أمير السرية يعرض عليهم الإسلام قبل القتال ويحضهم عليه، ولكنهم كانوا يقابلون ذلك بالإعراض والحدود والعلو والاستكبار». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٩٩].

٤ - اتخاذ الإدلاء:

يقول د/ أبو فارس: «يلاحظ القارئ الكريم أن المسلمين في أكثر من سرية كانوا يتخذون الإدلاء، يرشدونهم إلى الطريق الآمنة ليسلكوها، وإلى أقصرها مع سلامتها، ليصلوا إلى هدفهم بسرعة. سرية عمر رضي الله عنه اتخذت رجلاً من بني هلال يدلّه على الطريق، وسرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى الميعة بنجد اتخذت مولى رسول الله ﷺ دليلاً، وسرية بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه قد خرج معها حسيل بن نورية رضي الله عنه دليلاً، يدهم على الطريق، ويرشدهم إلى أماكن عدوهم وبعدهم عنها. واتخاذ الأدلاء أمر تحرص عليه الجيوش العسكرية الحديثة، ويتأكد هذا إذا كانت تسير على أرض تجهل طرقها وتضاريسها وأماكن تجمع العدو عليها، وما لم يتوافر لها الأدلاء يرشدونها إلى طرق آمنة تسير فيها، وإلا فإن حياة الجنود في خطر، ومن أجل ذلك فإنها تنفق الأموال الطائلة في سبيل توفير الأدلاء من أهل البلاد أو أهل الخبرة في هذا المجال؛ ذلك لأن سلامة السير أولى خطوات النصر، إذ يتجنب الجيش المقاتل مفاجآت تُربكه وتُضعف معنوياته». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٠].

٥ - السرية في التحرك:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان رسول الله ﷺ يأمر قادة السرايا بأن يكمنوا في النهار وأن يسيروا في الليل إلى هدفهم، وهذا أسلوب ناجح جداً في التحرك العسكري؛ ذلك لأن الليل - كما هو معلوم - يتيح للجيش حرية الحركة، فهو يستر السائرين ويلف بظلامه المدلّجين، وفي الوقت ذاته فإن مراقبة العدو تُضعف، فقد أنك التعب جسمه طيلة نهاره، ويغالبه النعاس في ليله. أقول: إنه ينبغي على الأمير الناجح أن يجنّب قواته التعرض لأي هجوم مفاجئ من الأعداء، وأن يبذل كل ما في وسعه من أجل ذلك.

وإن تعليمات النبي ﷺ وأوامره العسكرية لقادة الأمراء قد ضمنت لهم المحافظة على أمن قواتهم المتحرّكة». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٠-٢٠١].

٦ - المغامرة والجرأة والشجاعة:

يقول د/ الحميدي: «في خروج هذه السرايا الصغيرة إلى هذه المناطق البعيدة مغامرة جريئة، خصوصاً وأنهم سيمرون في مناطق ما تزال تحت سلطان أعدائهم، وإن مجرد الإقدام على غزو هذه المناطق البعيدة يعتبر تضحية كبيرة وشجاعة عالية، ولقد شُرفت هاتان السريتان بقيادة خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبي

بكر وعمر رضي الله عنهما، وحصل في سرية أبي بكر رضي الله عنه قتال ظفر فيه المسلمون، أما في سرية عمر رضي الله عنه فلم يحصل قتال، حيث هرب الأعداء من ديارهم، وهذه نتيجة كافية في إرهاب العدو، وقد كانت هوازن أظهرت العداء للمسلمين إلى أن تم القضاء على تجمعهم الكبير في حنين كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ٧٥-٧٦].

٧- الانضباط التنظيمي والعسكري:

يقول د/ أبو فارس: «إن الانضباط العسكري الذي نعينه هو أن يقوم المكلف بما كُلف به على وجه الدقة دون زيادة أو نقصان، وألا يقع تحت تأثير من يُغريه ويُزَيِّن له فعل شيء لم يُكَلَّف القيام به.

تأمل موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سرية التي سار بها إلى عجز هوازن بترية فهربوا منه ولم يجرؤوا على نزاله، فانصرف راجعاً إلى المدينة فقال له دليله من بني هلال: هل لك في جمع آخر تركته من خثعم؟ فقال عمر رضي الله عنه: لم يأمرني رسول الله ﷺ بهم، إنما أمرني أن أعمد لقتال هوازن بترية.

وظهر هذا جلياً في موقف جندب بن مكث الجهني رضي الله عنه طليعة سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى بني الملوح بالكديد، وقد كمن على رأس التلة ليستطلع أخبار العدو ولا حظ رجل من المشركين سواداً على رأس التلة (وكان سواد جندب رضي الله عنه في الليل) فظن أنه طليعة المسلمين، فأراد أن يتأكد من ذلك فرماه بسهمين، فأصاب السهم الأول جندب في جنبه فزعه وثبت ولم يتحرك، وأصاب السهم الثاني جندب في منكبه ولم يتحرك، وتحمل الآلام ولم يُحدث شيئاً، كان بوسعه أن يطلق سهماً يدافع عن نفسه، ويقتل ذلك المشرك، الذي رام قتله، وأصاب جنبه ومنكبه، لكنه كان يعلم أن هذا لا ينبغي لأنه جاء لمهمة غير هذه المهمة، لقد جاء ليستطلع أخبار العدو، ومن ثم الإغارة عليهم على حين غرة بعد أن يسكنوا ويهجعوا.

ونحسب - والله أعلم - أن اشتباك طليعة المسلمين مع هذا الرجل، ومن ثم مع قومه في ذلك الوقت يترتب عليه استفار عدد كبير من المشركين لا قِل للمسلمين بملاقاتهم، وقد يؤدي هذا إلى كارثة تحل بالمسلمين». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠١-٢٠٢].

٨- مباغطة العدو:

يقول د/ أبو فارس: «وبالإضافة إلى تخفي المسلمين وتسترهم في مسير نحو عدوهم كانوا يختارون وقتاً يكون فيه العدو مسترخياً ونائماً أو غير مستعد للنزال والقتال، ويوجهون له الضربة الموجهة التي تُفقد صوابه.

لقد كان المسلمون يختارون وقت الصبح ليغيروا على أعدائهم، وعدوهم في هذا الوقت قد أنهكه السهر، فأكب نائماً في نهاية الليل، وكان وقت الصبح يغط غطاءً شديداً في نومه، لا يشعر بحركة.

وأحسب - والله أعلم - أن اختيار الهجوم وقت الصبح حتى يتأكدوا من إسلام القوم أو عدمه، فإن كانوا مسلمين أذنوا للصلاة وإلا فلا زالوا على شركهم». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٢].

٩ - صبر المسلمين وثباتهم في القتال:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان العدد القليل من المسلمين في بعض السرايا يواجه أعداداً هائلة من الأعداء يحيطون بهم من كل حذب وصوب، ومع هذا يثبتون ولا يتراجعون ويقاتلون حتى يسقطوا جميعاً صرعى في سبيل الله لا يخطر ببال أحدهم الفرار أو الاستسلام؛ ذلك لأن المسلم الذي يخرج في السرايا لا يبغي إلا إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة، فإن استشهد كان الذي أراد». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٣].

١٠ - جانب ذو مغزى تربوي في هذه السرايا:

يقول د/ الغضبان: «بقي أن ندرك جانباً ذا مغزى تربوي في هذه السرايا، هو استشهاد سرية كعب بن عمير الغفاري ؓ ونجاة سرية غالب ؓ، فكلتاهما متقاربتان في العدد، وكان بالإمكان أن يستشهد رجال سرية غالب ؓ جميعاً لولا أن بعث الله السيل من حيث لا يحتسبون، فيحول بين سرية غالب ؓ والموت، بينما لم يهأ ذلك لغزوة كعب ؓ».

(وَخَرَجَ صَرِيخُ الْقَوْمِ فِي قَوْمِهِمْ، فَجَاءَنَا مَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ، وَنَظَرُوا إِلَيْنَا وَبَيْنَهُمُ الْوَادِي وَهُمْ مُوجِّهُونَ إِلَيْنَا، فَجَاءَ اللَّهُ الْوَادِي مِنْ حَيْثُ شَاءَ بَاءً مَلَأَ جَنْبِيهِ، وَأَيَّمُ اللَّهُ مَا رَأَيْنَا قَبْلَ ذَلِكَ سَحَابًا وَلَا مَطَرًا، فَجَاءَ بِنَا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَجُوزَهُ، فَلَقَدْ رَأَيْنَهُمْ وَفُوقًا يَنْظُرُونَ إِلَيْنَا وَقَدْ أَسْنَدْنَا فِي الْمُسَلَّلِ وَفُتْنَاهُمْ، فَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى طَلَبِنَا). [المغازي للواقدي ٢/ ٧٥٢].

وساق الله الشهداء لسرية كعب ؓ، وساق الله الماء لسرية غالب ؓ، وكلاهما من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكليهما إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

ونجى الله تعالى سرية شجاع بن وهب الأسدي ؓ حيث أغاروا على هوازن في السي ناحية ركة، ونفذوا التعليمات الموجهة إليهم في كمون النهار ومسير الليل، ولم يفجأهم عين يراهم فيبلغ عامر هناك بعددهم، فاستطاعوا أن يستاقوا النعم والشاء، وقدموا المدينة ولم يمعنوا في الطلب.

وهذه السرايا الثلاث ليست مهمتها المواجهة والحرب بمقدار ما كانت مهمتها بث الرعب والخوف في قلب العدو أن يد محمد ﷺ تصل إلى الشمال في ذات أطلاح، وإلى الشرق في السي والركبة، وإلى الجنوب في الكديد، وأن المنطقة كلها منطقة حرب، تدعو القبائل إلى أن تراجع موقفها، وتسالم المسلمين.

إن إشعار العدو بالقوة هو الذي يجعله يراجع موقفه، ويتعامل من جديد مع الساحة، وصحيح أن النصوص لا تنقل لنا تسارع هذه القبائل للإسلام، لكن ما نفاجأ به من الأعداد في الجيوش الإسلامية

تبين لنا ذلك، فإذا كان العدد قد ارتفع إلى ألفين في عمرة القضية خلال العام السابع، بعد أن كان جنود الحديبية ألف وخمسمائة، فهذا نحن نفاجاً بسرية مؤتة، وذلك بعد مضي أربعة أشهر من السنة الثامنة في ارتفاع العدد إلى ثلاثة آلاف مقاتل، فمن أين جاءت هذه الألف الجديدة، وخلال النصف الأول من السنة الثامنة، فلقد زاد العدد ضعفين في ستة أشهر، عن زيادة الخمسمائة في عام واحد، وهذا يعني أن هذه السرية قد أعطت مفعولها، وأن مهمتها أن تلفت النظر إلى القوة الإسلامية، كما أن من مهمتها الدعوة، وقد شهدنا سريتين فقدت كل منهما أفرادها وهم يدعون إلى الإسلام، سرية ابن أبي العوجاء السلمي رضي الله عنه في بني سليم والتي تربوا على خمسين شهيداً، وسرية كعب بن عمير الغفاري رضي الله عنه والتي تربوا على خمسة عشر شهيداً، وقد دعوا القوم إلى الإسلام فأبوا ثم قتلوا أفراد السرية جميعاً».

[التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٠٨-١٠٩].

١١ - الضريبة الاقتصادية لا تقل أثراً عن الضريبة العسكرية:

يقول د/ أبو فارس: «ذلك لأن المال عصب الحياة، وقوة القدرة الاقتصادية في بلد ما تؤدي إلى القوة العسكرية؛ ذلك لأن المال يُشترى به السلاح والعتاد، وبالمال يُنفق على الجنود وعلى أبنائهم ومن يعولون. إنه مما لا يختلف فيه اثنان - ولا يتطع فيه كبشان كما يقولون - أن هناك صلة وثيقة بين الناحية الاقتصادية والناحية العسكرية، وضعف البلاد اقتصادياً يؤدي إلى ضعفها عسكرياً».

ولهذا الاتصال الوثيق كان الرسول ﷺ يبعث السرايا لتوجيه ضربات الاقتصادية والعسكرية معاً حتى لا تقوم للعدو قائمة، ويخرج من الحرب منهوك القوى، خائر العزيمة».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٦-٢٠٧].

١٢ - حكم الإغارة على من بلغتهم الدعوة:

يقول د/ العيساوي: «دلت سرية غالب ابن عبد الله الليثي رضي الله عنه، إلى بني الملوحة، وسرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى الجنب، وسرية الأخرم رضي الله عنه إلى بني سليم، على جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة الإسلامية من غير إنذار بالإغارة».

وفي هذه المسألة ثلاثة مذاهب:

أحدها: يجب الإنذار مطلقاً، قاله مالك وغيره، وهذا ضعيف.

الثاني: لا يجب مطلقاً، وهذا أضعف منه أو باطل.

الثالث: يجب إن لم تبلغهم الدعوة، ولا يجب إن بلغتهم، لكن يستحب، وهذا هو الصحيح، وبه قال نافع مولى ابن عمر والحسن البصري والثوري والليث والشافعي وأبو ثور وابن المنذر والجمهور، قال ابن المنذر: وهو قول أكثر أهل العلم وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على معناه.

فمنها الإغارة على بني المصطلق، وقتل كعب بن الأشرف، وقتل ابن أبي الحقيق [مسلم بشرح النووي ١١/٣٦]. [فقه السرايا للعيسوي ٢٠٠-٢٠١].

١٣ - الابتلاء بالمحن وتربية الأمة الإسلامية:

يقول أ/ وجددي: «لعل بعض الناظرين في السيرة المحمدية يلاحظون أنه كما فيها شؤون لا يمكن تعليلها إلا بافتراض وجود تأييد إلهي عظيم لأحداث حصولها مناقضة للسنن الاجتماعية والنفسية المعروفة، فيها شؤون أخرى يبدو عليها طاقة القدرة الإنسانية، ويجري عليها ما يجري على سائر الشؤون البشرية من النجاح أحياناً، ومن القصور والضعف والخيبة أحياناً أخرى، كما حدث لسرية بشير بن سعد الأنصاري ﷺ التي قُتل فيها أكثر جنودها، وسرية كعب بن عمير الغفاري ﷺ التي قُتل جميع آحاديها إلا قائدهم، وغزوة مؤتة التي قُتل فيها ثلاثة قواد، وكان قصارى رابعهم أن عاد بمن بقي من الجيش دون أن يجني أية فائدة، وسرية أبي عبيدة عامر بن الجراح ﷺ التي جاع فيها الجنود واضطروا لأكل ورق الشجر حتى تقرحت أشداقهم، ولم يجدوا القوم الذين ذهبوا لقتالهم.

يلاحظ بعض الناظرين كل هذا ويقولون: أليس لو كان محمد نبياً لكان أوحى إليه ما سيصيب أصحابه من هذه المحن فلا يعرضهم لها، حتى لا تُحدث اضطراباً في جماعته، أو شكاً في نبوته؟ ونحن لدحض هذه الشبهة نقول: أراد الله ﷻ أن يجعل للعالم كافة مثلاً أعلى للدين، فأوحى الإسلام، وأراد أن يقيم له أمه تدين به وتتدب لنشره، ففضى أن تكون تلك الأمة ذات كيان عالمي لا تقوم على الجنسية، والضرورات المادية على مثال سائر الأمم، ولكن تتألف حول المبادئ الخلقية، والأصول الحكمية، فكانت هي الأمة الإسلامية.

فأما الدين فقد تولى الله وحيه جملة وتفصيلاً، وأما الأمة فلا يمكن أن تجعل كل حركاتها وسكناتها صادرة عن الوحي؛ لأن الوحي متى أنقطع بوفاة النبي المرسل، تجد الأمة نفسها قاصرة على الاستقلال بنفسها؛ لأنها لن تعتمد على قواها الذاتية قط، ولم تكتسب بمجادة الحوادث، والوقوع في المآزم ما يري في نفسها عناصر الرشد، ويستكمل لها ميزات النضج؛ لذلك ألقى الله حبلها على غاربها لفتح نفسها، بمحض جهودها الذاتية، وقواها المعنوية، مكاناً تحت الشمس.

و من أصول علم التربية أن الطفل لكي يستكمل صفات الرجولة، ويشب صالحاً لمكافحة حوادث الحياة وجوانحها، يجب أن لا يحاط، بعد أن يشب ويترعرع، بكثير من العناية، خشية أن يُصاب بجرح في يده، أو بشجة في رأسه، أو بكدمة في جسمه، ولكن يجب أن يُعرض لذلك في حد محدود ليتعود تحمل الآلام، ومكابدة العوائق.

فكل ما تصادفه في الناحية الاجتماعية من السيرة المحمدية أحياناً من الفشل في المحاولات، والخطأ في التقدير، والتعرض للهزائم، يجب رده إلى الأصل الذي ذكرناه، وهو لا يصح أن يكون مثار شبهة على

النبوة، ولا مصدر شك في الرسالة، ولو كان يصح لتأثر به قبل غيرهم أولئك الذين ابتلوا به، وكيف يتأثرون به، وقد أخبروا به قبل أن يصيهم، قال الله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُنْزِلُوا آيَاتِنَا وَلَهُمْ يُغْنِي عَنْهُمْ كِتَابُكَ وَقَوْلُكَ بَلَاءٌ لِقَوْمٍ يُخَالِفُونَ﴾ [٢٠] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢١﴾ [العنكبوت]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٩﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦٠﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخُونَ﴾ [البقرة].

فالذين دخلوا في الإسلام في أول عهده، قبلوه على أنه دين تمحيص وابتلاء، لإبلاغ إنسانيتهم إلى أوجها الأعلى من الكمال، بتعرضهم لعوامل التطهير والاستصفاء، وقد وفوا بعهدهم، فاستحقوا أن يكونوا في الرعي الأول من خدام الإنسانية، وكوفؤوا بأن مكّن الله لهم ما لم يمكنه لغيرهم في الأرض». [السيرة المحمدية لوجدي ٢٦٢-٢٦٤].

١٤ - من نتائج سرايا رسول الله ﷺ في الشمال:

يقول د/ الصلابي: «اتجهت حملات المسلمين العسكرية بعد صلح الحديبية نحو الشمال، وأصبح غرب الجزيرة وجنوبها الغربي حيث تقبع مكة آمنة في ظلال الصلح [ينظر: المجتمع المدني للعمري ص ١٧٠]، وحقت سرايا رسول الله ﷺ أهدافها ومقاصدها في شمال الجزيرة، فوصلت إلى حدود الروم، فأمنت حدود الدولة الإسلامية، وبسطت هيبتها وأفشلت محاولات الإغارة على المدينة، وبذلك حققت سياسية النبي ﷺ في حركة السرايا هدفين عظيمين هما:

(١) تأمين حماية الدين الإسلامي في الداخل.

(٢) حمايته في الخارج. [الإعلام في صدر الإسلام-د/ عبد اللطيف حمزة ص ١٧٣].

وما من شك أن المتبوع لأحداث السيرة النبوية الشريفة والمطلع على تفاصيلها ودقائقها بإمعان يجد بحق أن صلح الحديبية هو من أهم المكاسب السياسية، والعسكرية، والإعلامية، بل هو حصيله كسب لأعظم معركة دارت بين الإسلام والوثنية في العهد النبوي، من حيث النتائج الإيجابية التي رسخت دعائم الإسلام، من جهة، وصدّعت بفعلها قواعد الشرك والوثنية من جهة أخرى، وما حدث في خيبر من فتوح، وفي مؤتة من نصر، وفي ذات السلاسل من توسيع هيبة الدولة الإسلامية إلا نتائج تابعة لصلح الحديبية [ينظر: منهج الإعلام الإسلامي-د/ سليم حجازي ص ٣٣٧]، وبسبب القدرة الفائقة في تعامل النبي ﷺ مع سنن الله في المجتمعات والشعوب، وبناء الدول. [السيرة النبوية للصلابي ٤٤٥/٢].

الباب الثاني

غزوة مؤتة

جمادى الأولى ٨ هـ / سبتمبر ٦٢٩ م / توت ٣٤٦ قبطني

الفصل الأول: عرض غزوة مؤتة

الفصل الثاني: الدروس والعبر المستفادة من

غزوة مؤتة

الفصل الأول

عرض غزوة مؤتة

المبحث الأول

اسم المعركة، وموقعها، وتاريخها

اسم المعركة:

يقول د/ بريك: «اختلف الرواة والإخباريون والمؤرخون، ومن نقل عنهم من المتأخرين ممن كتب عن مؤتة في هذه المعركة العظيمة: هل هي غزوة، أو سرية؟ فبينما وردت تسميتها في بعض الروايات بغزوة جيش الأمراء [قال الزرقاني (شرح ٢/ ٢٦٧)]: وفي بعض الروايات تسميتها غزوة جيش الأمراء، وذلك لكثرة جيش المسلمين فيها، وما لاقوه من الحرب الشديدة مع الكفار. قلت: وردت هذه التسمية في رواية أبي قتادة رضي الله عنه التي أخرجها أحمد، وغيره، وسوف يتم تحريجها لاحقاً إن شاء الله تعالى، كما عتوّن ابن خلدون للمعركة بذلك في تاريخه ٢/ ٤٥٥، أطلق عليها بعضهم وقعة مؤتة [ينظر: ابن خياط: تاريخ ٨٦، الذهبي: العبر ١/ ٩]، فيما ترددّ آخرون بين كونها غزوة أو سرية [قال البنا (الفتح الرباني ٢١/ ١٣٦)]: باب ما جاء في سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى مؤتة، من أرض الشام، في جهادى الأولى سنة ثمان، ويقال لها غزوة مؤتة. وعتوّن لها ابن كثير (البداية ٤/ ٢٤١) بغزوة مؤتة، ثم قال: وهي سرية زيد بن حارثة... إلخ، على أن أكثر أهل المغازي والسير [ينظر: ابن هشام: سيرة ٢/ ٣٧٣، الواقدي: مغازي ٢/ ٧٥٥، الطبري: تاريخ ٣/ ٣٦، ابن عبد البر: درر ٢٢٢، أبو نعيم: دلائل ٢/ ٥٢٨، البيهقي: دلائل ٤/ ٣٥٨، ابن الأثير: الكامل ٢/ ٢٣٤، ابن سيد الناس: عيون ٢/ ١٩٨، ابن حزم: جوامع ٢٢٠، السهيلي: الروض ٧/ ٣١، ابن القيم: زاد ٢/ ١٥٥، الأشعر السباني: بهجة ١/ ٣٩٠]، ومن تبعهم من المحدثين [ينظر: ابن أبي شيبه: المصنف ١٤/ ٥١٢، البخاري: الصحيح ٥/ ٨٦، الهيثمي: مجمع ٦/ ١٥٦]، جزموا بأنها غزوة.

ربما لأن الجيش الذي شارك فيها أكبر بكثير من العدد المتعارف عليه في مصطلح السرية [ينظر: ابن الأثير: النهاية ٢/ ٢٦٣، بريك أبو مabile: السرايا والبعوث حول المدينة ومكة ٤٤]، أو لأن بعض شهود العيان من الصحابة الذين شاركوا فيها سموها بذلك. [وقع ذلك في حديث عوف بن مالك الأشجعي عند مسلم (الصحيح ٤/ ٢٤)، وعند أبي داود (السنن ٣/ ١٦٣)، وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها عند الحاكم (المستدرک ٣/ ٤٥)].

ورود في بعض الروايات تسميتها بالسرية [ينظر: ابن سعد: طبقات ٢/ ١٢٨، البلاذري: أنساب ١/ ٣٨٠]، وجزم بذلك الحلبي. [قال الحلبي (سيرة ٢/ ٧٩٣): والحق أنها ليست من الغزوات، بل من السرايا؛ لأنه ﷺ لم يكن فيها].

قلت: وتسميتها بالوقعة، أو جيش الأمراء، يُعد خروجاً من النزاع، وحلاً وسطاً، إذ أن تسميتها بالغزوة مخالف لاصطلاح أهل السير والمغازي، واللغة في ذلك؛ لأنه لم يحضرها النبي ﷺ، كذلك تسميتها بالسرية لا يتفق مع اصطلاحهم في العدد المتعارف عليه فيها [ينظر: ابن الأثير: النهاية ٢/ ٣٦٣]،

الثعالبي: فقه اللغة ٢١٩-٢٢٠، يحيى بن علي الخطيب: كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت ٥٠، ابن حجر: فتح ٥٦/٨، اللسان والقاموس، مادة (سرا). والله تعالى أعلم». [غزوة مؤتة لبريك ٢٣٥-٢٣٦].

موقع المعركة:

يقول د/ بريك: «قال ابن حجر: مؤتة - بضم الميم وسكون الواو بغير همز لأكثر الرواة - وبه جزم المبرد [قال مغلطي (الزهر الباسم: الجزء الثاني والعشرين ص ٢٢) قال ابن قرقول: «أكثر الرواة لا يهزونها، وفي أمالي الأخصش: قال أبو العباس المبرد: لا يهزم مؤتة. وفي الكتاب الوافي، والجامع: يهزم ولا يهزم]، ومنهم من همزها، وبه جزم ثعلب، والجوهري، وابن فارس، وحكى صاحب الوافي الوجهين، وأمّا الموتة التي ورد الاستعاذة منها وفُسِّرَت بالجنون فهي بغير همز. [فتح الباري ٧/ ٥١٠-٥١١].

وقال في الروض: مؤتة - مهموزة الواو - قرية من أرض البلقاء بالشام، وأمّا الموتة - بلا همز - ف ضربٌ من الجنون، وفي الحديث: «أنه ﷺ كان يقول في صلاته أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفته»، وفسّره الراوي فقال: نفثه الشعر، ونفخه الكبر، وهمزه الموتة. [السهلي: الروض ٧/ ٣١].

وقال ابن حجر: «قال ابن إسحاق: هي بالقرب من البلقاء، وقال غيره: هي على مرحلتين من بيت المقدس». [فتح الباري ٧/ ٥١١].

وقال ابن سعد: «هي بأدنى البلقاء، والبلقاء دون دمشق». [الطبقات ٢/ ١٢٨].

وقال البرهان: «موضع معروف عند الكرك». [الحلي: سيرة ٢/ ٧٩٣].

وقال ياقوت: ومؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام وميل موته من مشارف الشام، وبها كانت تُطبع السيوف وإليها تُنسب المشرفية من السيوف. [معجم البلدان ٥/ ٢٢٠].

قال الشامي: مَشَارِف: بفتح الجيم وبالشين المعجمة المخففة وبعد الألف راء مكسورة ثم فاء، وظاهر كلام ابن إسحاق أنها غير مؤتة. قال ابن إسحاق: في أثناء حديثه عن المعركة (ابن هشام: سيرة ٤/ ٣٧٧): فَمَضَى النَّاسُ، حَتَّى إِذَا كَانُوا يَتَخَوَّمُونَ الْبُلْقَاءَ لَفَيْتَهُمْ بِجُوعٍ هَرَقَلَ مِنَ الرُّومِ وَالْعَرَبِ، بِقَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الْبُلْقَاءِ يُقَالُ لَهَا مَشَارِفُ، ثُمَّ دَنَا الْعَدُوُّ، وَأَنْحَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا مُؤْتَةُ، فَالْتَقَى النَّاسُ عِنْدَهَا].

وقال في الزهر: وليس كذلك بل هما اسمان على مكان واحد. [قلت: قول ياقوت: قبل مؤتة من مشارف الشام، وبها كانت تُطبع السيوف، حلّ الإشكال، فهو يوضح أن اسم المكان العلم (مؤتة)؛ ولأنه مكان مشرف مرتفع دُعي بأحد مشارف الشام. والله تعالى أعلم].

وقال المبرد: المشرفية سيوف نسبت إلى المشارف من أرض الشام، وهو الموضع الملقب بمؤتة الذي قُتل به جعفر بن أبي طالب ﷺ. [سبل الهدى والرشاد ٦/ ٢٥٧].

قال ابن السكيت في تفسير قول كثير:

إذا الناس ساموكم من الأمر خُطّة لها خُطمة فيها السهام المثلّم
أبى الله للشُّمّ الأنوف كأنهم صَوَارِمٌ يجلوها بمؤتة صيقل

قال المهلبى: مآب وأفرج مدينتا الشراة على اثني عشر ميلاً من أذرح ضيعة تعرف بمؤتة بها قبر جعفر بن أبي طالب عليه السلام... [معجم البلدان ٥/ ٢٢٠].

ومؤتة اليوم بلدة أردنية معروفة تقع على بُعد اثني عشر ميلاً جنوب الكرك، إذا سِرَتْ من معان إلى عَمَّان كانت مؤتة على يسارك إذا كنت في منتصف المسافة، ويبلغ عدد سكانها (حسب تعداد عام ١٤٠٦هـ) حوالي ستة آلاف نسمة.

وقربها مكان يُدعى المزار، فيه قبور القادة الثلاثة الذين استشهدوا بمؤتة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

والمزار بلدة عامرة، وقد بلغ تعداد سكانها (حسب إحصائية عام ١٩٧٩م) ٤١٤٨ نسمة، وبلدة المزار لا يتعدى عمرها مائتي سنة، وكان أهلها عرباً يتجولون مع أنعامهم، ثم يعودون إلى أرضها حيث يخلدون إلى مضاربهم، ومن ثم لم يعرفوا الاستقرار إلا منذ خمسة وسبعين عاماً تقريباً.

[تجربة مؤتة - د/ علي العتوم ٧٣].

ومؤتة من قرى مدينة الكرك في جنوب البلقاء، وتبعد الكرك قرابة مائة وخمسة عشر ميلاً جنوب عَمَّان مع ميل إلى الغرب، يمر بها طريق يصل العقبة بعَمَّان ولا يمر بمعان، والمسافة بين المدينة النبوية ومؤتة حوالي مائة وألف كيلو متر تقريباً.

والבלقاء: إقليم من أرض الشام في المملكة الأردنية الهاشمية، وهو الإقليم الذي تتوسطه مدينة عَمَّان عاصمة الأردن، ومن أشهر مدن هذا الإقليم: عَمَّان، والسلط، ومادبا، والزرقا، والرصيفة، ويتصل به في الجنوب إقليم الشراة الذي قاعدته معان، وفي الشمال إقليم حوران، ويشرف إقليم البلقاء على الغور الأردني غرباً، ويتصل ببادية الشام وصحراء العرب شرقاً ومنطقته جبلية عالية.

هذا وقد اختلف في تحديد المكان الذي وقعت فيه المعركة، ففي رواية ابن إسحاق: «فَمَضَى النَّاسُ، حَتَّى إِذَا كَانُوا يَتَخَوَّمُ الْبَلْقَاءَ لَقِيَتْهُمْ جُمُوعٌ هَرَقَلْ مِنَ الرُّومِ وَالْعَرَبِ، بِقَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الْبَلْقَاءِ يُقَالُ لَهَا مَسَارِفٌ، ثُمَّ دَنَا الْعَدُوُّ، وَأَنْحَاَزَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا مُؤْتَةُ، فَالْتَقَى النَّاسُ عِنْدَهَا».

[ذكره ابن هشام (السيرة ٤/ ٣٧٧) عن ابن إسحاق الذي ذكره بلا سند، فهو معضل، ولكن أخرجه الطبري (تاريخ ٣٨-٣٩) بسنده عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، أنه حَدَّثَ عن زيد بن أرقم، وفيه عن ابن إسحاق، وهو مدلس، وفيه جهالة شيخ عبد الله].

وفي رواية الزهري وموسى بن عقبة: «فَانْطَلَقُوا حَتَّى لَقُوا ابْنَ أَبِي سَبْرَةَ الْغَسَّانِيَّ بِمُؤْتَةٍ، وَبِهَا جُمُوعٌ مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ وَالرُّومِ، وَبِهَا تَنُوحٌ وَبَهْرَاءٌ، فَأَعْلَقَ ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ دُونَ الْمُسْلِمِينَ الْحِصْنَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ

خَرَجُوا، فَالْتَقُوا عَلَى زَرْعٍ أَخْضَرَ».

[مجمع الزوائد في المغازي والسير ٦/ ٢٣٥ رقم ١٠٢٢٢، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [الجزء المفقود] ورجاله ثقات. قال د/ بريك: وبنفس السياق واللفظ أخرجه البيهقي (دلائل ٤/ ٣٦٤-٣٦٥) بسنده من حديث إسماعيل ابن إبراهيم بن عقبة، عن عمه موسى بن عقبة، وسنده حسن إلى موسى؛ لأن ابن أبي أويس صدوق، كما ذكر الحافظ (تقريب ١٠٨)، وكذلك أخرجه ابن عساكر: تاريخ دمشق (المجلد الأول ص ٣٩٢-٣٩٣) بسنده عن موسى ابن عقبة نحوه].
وقال ابن سعد في روايته: «فمضوا إلى مؤتة، ووافهم المشركون».

[أخرجه ابن سعد (طبقات ٢/ ١٢٩) عن شيوخي].

وهكذا نجد اتفاقاً بين غالبية أهل المغازي على أن المعركة كانت في مؤتة، وتوضح رواية الزهري وابن عقبة أن القتال كان في منطقة زراعية مُحَصَّنَة، ويوافقهم الواقدي في إشارته إلى أن مقتل أحد قادة المسلمين في المعركة كان بالقرب من كرم عنب. [الواقدي: مغازي ٢/ ٧٦١ في حديثه عن مقتل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قَالَ: ضَرَبَهُ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ فَقَطَعَهُ نِصْفَيْنِ، فَوَقَعَ أَحَدُ نِصْفَيْهِ فِي كَرَمٍ].

ولكن محمد بن عائذ يخالف هذا الإجماع برواية أسندها إلى رجل من بني سلامان (بطن في عذرة بن سعد بن هذيم، منهم بنو معاوية بن سلامان، وهم بالشام. ينظر: ابن حزم: جبهة أنساب العرب ٤٤٧)، عن غير واحد من كبراء قومه، وقال فيها: «فمضى زيد ومن معه حتى لقوا عدوهم بين قريات ثلاثة، بين مؤتة والعمقة»^(١) وزقوقين^(٢)، فصافوهم هنالك، وقال السلاميون: هم إلى زقوقين أقرب». [أخرجه ابن عساكر: تاريخ دمشق (المجلد الأول ص ٣٩٧) بسنده عن ابن عائذ، عن الوليد بن مسلم. وقال عنه ابن حجر (فتح ٧/ ٥١٤): سنده منقطع].

وكان من الممكن أن نحكم على هذه الرواية بالشذوذ لمخالفتها إجماع أهل المغازي، ولكن يشهد لها شعراً رواه ابن إسحاق عن أحد المشاركين في المعركة، يصور فيه مقتل مالك بن زافلة، قائد العرب

(١) لم أعثر على ترجمتها في كتب البلدان القديمة. ويذكر د/ علي العتوم (تجربة مؤتة ٧٢) أنها قرية خربة من قرى بلدة المزار الأردنية، وتبعد عنها نصف كيلو متر باتجاه الجنوب الشرقي.

(٢) هكذا وردت هنا بالزاي، وفي شعر قتادة الذي رواه ابن إسحاق (زقوقين) بالراء المهملة.

قال أبو ذر شارح السيرة (٤/ ٣٥): زقوقين: اسم موضع، ويُروى (كرموقين) بالفاء في الثاني.

هذا وقد ذكر د/ علي العتوم (تجربة مؤتة ٤٤، ١٤٤) أن ذلك خطأ طباعياً، وأنه يقصد (زقوقين) كما ذكر عن بعضهم أنه يرى أن قرية (زقوقين) القديمة قد تحوّرت اسمها إلى قرية (راكين) الحديثة، التي تبعد بضعة عشر كيلاً إلى الشمال من بلدة الكرك، وتبعد أكثر من عشرين كيلاً إلى الشمال من مؤتة.

قلت: هذا افتراض مبني على تحوّرت اسم القرية، وبما أن لفظ (راكين) قريب من (زقوقين)، افترض أنها ربما تكون هي، ولكن يبقى الأمر محتملاً قد يُبعد بُعد المسافة بينها وبين مؤتة؛ لأنه ذكر في الرواية أن المعركة كانت بين (قريات ثلاثة: مؤتة والعمقة وزقوقين)، وبما أن العمقة تبعد نصف كيل عن قرية المزار، فأعتقد أن (زقوقين) تبعد نفس البعد أو قريب منه، وربما تكون هي الجعفرية التي يذكر د/ علي العتوم (ص ٧٢) أنها تبعد عنها نصف كيل إلى الشمال، أو الطور، وهي قرية خربة ليست بعيدة عن المزار، وهي من قرى مؤتة، كما ذكر ابن شداد في الأعلام الخطيرة ص ٢٧٧.

المتنصرة في المعركة فيقول: «وَقَدْ كَانَ قُطْبَةُ بْنُ قَتَادَةَ الْعُذْرِيُّ ﷺ الَّذِي كَانَ عَلَى مَيْمَنَةِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ حَمَلَ عَلَى مَالِكِ بْنِ زَافَلَةَ فَفَتَلَهُ، فَقَالَ قُطْبَةُ بْنُ قَتَادَةَ ﷺ:

طَعَنْتُ ابْنَ زَافَلَةَ بْنِ الْإِرَا شِ بِرُمُحٍ مَضَى فِيهِ ثُمَّ أَنْحَطَمَ
ضَرَبْتُ عَلَى جِيدِهِ ضَرْبَةً فَمَالَ كَمَا مَالَ غُصْنُ السَّلَمِ
وَسُقْنَا نِسَاءَ بَنِي عَمِّهِ غَدَاةَ رُقُوقِينَ سَوَوْقَ النَّعَمِ

[ذكره ابن هشام (سيرة ٤ / ٣٨١) عن ابن إسحاق الذي ساقه بلا سند، فهو معضل].

فرواية ابن عائد السابقة، والشعر الذي رواه ابن إسحاق عن قطبة، يشير إلى أن المعركة وقعت في قرية رقوقين.

وهكذا فإنه نتيجة هذا الخلاف لم يستطع أحد الجزم بالمكان الصحيح الذي حدثت فيه المعركة، حتى الذين زاروا المنطقة ووقفوا على موقعه. [ينظر: د/ علي العتوم - تجربة مؤتة ٥٤].

وقد حاول بعض الباحثين المعاصرين الجمع بين الروایتين، حيث يرى عبد الله السنور أن المسلمين بعد أن دحروا الروم في مؤتة، لحقوا بفلولهم، بعد أن تفرقوا في الوديان المحيطة بقرية مؤتة إلى بلدة راكين التي يرى أنها تحريف عن رقوقين القديمة» [د/ العتوم - تجربة مؤتة ١٤١، نقلاً عن عبد الله السنور (أضواء على نتيجة مؤتة، الرأي الأردنية، السنة الثامنة في ١٣ / ٣ / ١٩٨٢ م، ص ١٠). قلت: مستنده في ذلك: هو رأيه في نتيجة المعركة، وهو رأي مرجوح كما سنبينه في حينه إن شاء الله. والله ﷻ أعلم]. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشالية لبريك ٢٣٧ - ٢٤٤].

تاريخ الغزوة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَأَقَامَ بِهَا بَقِيَّةَ ذِي الْحِجَّةِ، وَوَلَّى تِلْكَ الْحُجَّةَ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُحَرَّمِ وَصَفَرًا، وَشَهْرَيْ رَبِيعٍ، وَبَعَثَ فِي جُمَادَى الْأُولَى بَعَثَهُ إِلَى الشَّامِ الَّذِينَ أُصِيبُوا بِمُوتَةٍ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٧٣]. ويقول د/ بريك: «يُكَادُ يَتَّفَقُ أَهْلُ الْمَغَازِي، وَأَهْلُ الْحَدِيثِ - يَمُنُّ رَوَى مِنْهُمْ أَحْدَاثَ وَقَعَةِ مُوتَةٍ - عَلَى أَنَّ تَارِيخَ الْوَقْعَةِ كَانَ فِي جُمَادَى الْأُولَى مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ مَهَاجِرِ النَّبِيِّ ﷺ»^(١).

(١) ذكر ذلك عروة بن الزبير في روايته عن المعركة. [ينظر: ابن هشام: سيرة ٤ / ٣٧٣، الطبري: تاريخ ٣ / ٣٦، البيهقي: دلائل ٤ / ٣٥٨، ابن حجر: فتح ٧ / ٥١١)، والزهرري في روايته التي أخرجه الميثمي (مجمع ٦ / ١٦٠) وعزاها للطبراني، وأخرجه الواقدي. [ينظر: الشامي: سبل ٦ / ٢٢٨)، وموسى بن عقبة (ينظر: البيهقي: دلائل ٤ / ٣٦٤ - ٣٦٥)، وابن إسحاق (ينظر: ابن هشام: سيرة ٤ / ٣٧٣، الطبري: تاريخ ٣ / ٣٦). وذكره الواقدي (مغازي ١ / ٦) مجملًا مع تواريخ الغزوات والسرايا، وابن سعد (طبقات ٢ / ١٢٨). وذكره بقية أهل المغازي نقلاً عنهم (ينظر: ابن سيد الناس: عيون ٢ / ١٩٨، القسطلاني: المواهب ١ / ٥٤٩، ابن حزم: جوامع ٢٢٠، ابن القيم: زاد ٣ / ٣٨١، العامري: بهجة المحافل ١ / ٣٩٠، الحلبي: سيرة ٣ / ٧٨٦). وذكره من المحدثين: أحمد بن حنبل (ينظر: البنا: الفتح الرباني ٢١ / ١٣٦).

هذا وقد نقل ابن حجر (فتح ٧ / ٥١١) اتفاق أهل المغازي على ذلك، ما عدا خليفة بن خياط، حيث قال: (وَفِي «مَغَازِي أَبِي الْأَسْوَدِ» عَنْ عُرْوَةَ «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجَيْشَ إِلَى مُوتَةٍ فِي جُمَادَى مِنْ سَنَةِ ثَمَانٍ» وَكَذَا قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَمُوسَى ==

ويختلف معهم ابن عبد البر بجعلها في جمادى الثانية من نفس السنة. [ابن عبد البر: حرر ٢٢٢].
 بينما وردت عن خليفة بن خياط في ذلك روايتان، خالف في إحداها أهل المغازي بجعلها في السنة
 السابعة^(١)، ووافقهم في الرواية الثانية. [ينظر: تاريخ خليفة ٨٦-٨٧].
 وقد احتجَّ ابن حجر على الترمذي - الذي ذكر أنَّ مؤتة كانت قبل عمرة القضاء^(٢) - مستغرباً ذهول
 الترمذي عن بعض الأحداث التي تتعارض مع ذلك^(٣). [غزوة مؤتة لبريك ٢٥٣-٢٥٤].

- == ابن عُقْبَةَ وَغَيْرُهُمَا مَنْ أَهْلُ الْمَغَازِي لَا يَحْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ، إِلَّا مَا ذَكَرَ خَلِيفَةُ فِي تَارِيخِهِ أَنَّهَا كَانَتْ سَنَةَ سَبْعٍ. [قال
 د/العواجي: «والذي في تاريخ خليفة ٨٦-٨٧ ص ٤٠ ط دار الكتب العلمية» أنها في سنة ثمان في جمادى الأولى»
 مرويات الزهري في المغازي للعواجي ٢/ ٦٨٥].
- (١) ذكر ابن حجر (فتح ٥١١/٧) وتابعه الزرقاني (شرح ٢/ ٢٦٨)، والشامي (سبل ٦/ ٢٢٨): «أنَّ خليفة بن خياط
 ذكر في تاريخه أنَّها كانت سنة سبع، ولم أجد ذلك في كتاب التاريخ، وإنَّما وجدته في كتاب الطبقات له (في ترجمة عبد
 الله بن رواحة ٩٣) فلعلَّ ابن حجر ومتابعيه يقصدون ذلك. والله تعالى أعلم».
- (٢) ذكر ذلك الترمذي (سنن ٤/ ٢١٧، كتاب الأدب، باب إنشاد الشعر) حيث قال بعد إيراد حديث أنس رضي الله عنه: «أنَّ
 النَّبِيَّ ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء، وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول: خلوا بني الكُفَّار عن سبيله
 اليوم نضربكم على تنزيله... إلخ الحديث».
- قال: «وروي في غير هذا الحديث: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء، وكعب بن مالك بين يديه. وهذا أصح
 عند بعض أهل الحديث؛ لأنَّ عبد الله بن رواحة قُتِلَ يوم مؤتة، وإنَّما عمرة القضاء بعد ذلك».
- (٣) قال الحافظ (فتح ٥٠٢/٧): «وهو ذهول شديد، وغلط مردود، وما أدري كيف وقع الترمذي في ذلك مع وفور
 معرفته، ومع أنَّ في قصَّة عمرة القضاء اختصام جعفر وأخيه علي، وزيد بن حارثة في بنت حمزة، وجعفر قُتِلَ هو
 وزيد، وابن رواحة في موطن واحد، وكيف يخفى عليه - أعني الترمذي - مثل هذا؟! ثُمَّ وجدت عن بعضهم أنَّ الذي
 عند الترمذي من حديث أنس: أنَّ ذلك كان في فتح مكة، فإن كان كذلك اتجه اعتراضه، لكن الموجود بخط
 الكروخي راوي الترمذي ما تقدَّم، والله أعلم». وقال الشامي (سبل ٥/ ٣٠٠) أيضًا: وكذلك رأيت في عدَّة نسخ من
 جامع الترمذي.
- قلت: الترمذي - رحمه الله تعالى - لم يعترض من نفسه، وإنَّما أورد اعتراض بعض أهل الحديث على الرواية فهو بذلك
 يعتبر ناقلًا لا معترضًا - سيِّئًا وأنه وُجِدَ في بعض مخطوطات السُّنَنِ (٢/ ٤٩/٢): قيل: «إنَّ عمرة القضاء كانت في
 سنة سبع، وكانت مؤتة في سنة ثمان، والله أعلم وأحكم».
- وربَّما أنَّ الحافظ - رحمه الله تعالى - احتجَّ على عدم تعليق الترمذي على ذلك مع ما عُرِفَ عنه من العقلية الناقدة. والله
 تعالى أعلم.

المبحث الثاني

أسباب الغزوة، وحشد القوات الإسلامية

الامتداد الطبيعي للجزيرة العربية:

يقول أ/ باشميل: «كانت فلسطين والبلقاء امتداداً طبيعياً لجزيرة العرب، وكانت منطقة الأردن - بصفة خاصة - هي التي تتاخم الحدود الطبيعية لجزيرة العرب من الناحية الشمالية، وكانت الأردن - مثل فلسطين ولبنان - تُسمى في ذلك العهد (بالشام) ضمن ممتلكات الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطا). وعندما فكّر النبي ﷺ في الاتصال بملوك وأمراء الشرق الأوسط، لدعوتهم إلى الإسلام ونفذ هذه الفكرة كان على رأس هؤلاء الملوك (الملك هرقل ملك القسطنطينية) الذي وصله كتاب النبي ﷺ وهو مقيم بمدينة القدس التي حج إليها على قدميه شكراً لله على انتصاره الذي حققه على جيوش الفرس التي هزمها في المعارك التي دارت بين الفريقين في تلك الفترة.

الكومنولث البيزنطي:

وكان من بين الملوك المرتبطين بتاج بيزنطا داخل ما يُسمى بلغة اليوم (الكومنولث) أحد ملوك الغساسنة العظام هو الحارث بن أبي شمر الغساني، الذي كان مقره الجولان («بفتح الجيم» قال ياقوت: جبل في الشام ناحية حوران.. وكان موطن ملوك الغساسنة المرتبطين بالإمبراطورية البيزنطية)، وكان هذا الملك العربي المنتصر يحكم - باسم الرومان - منطقة الجولان وبصرى وكل المناطق الممتدة جنوباً حتى حدود جزيرة العرب.

وكان لدى الحارث بن أبي شمر قسط كبير من الاستقلال، كما أن لديه قواتاً حربية من العرب الغساسنة المنتصرين قدّرها بعض المؤرخين بمائة ألف مقاتل.

وكان هؤلاء العرب المنتصرون محاربين ممتازين - كعرب - وزادهم ميزة أن ارتباطهم بتاج الإمبراطورية البيزنطية أكسبهم الشيء الكثير من الفنون والتنظيمات العسكرية التي يتقنها ويمتاز بها جيش الإمبراطورية الذي ظل عدة قرون يتنازع السيادة على العالم مع جيوش الإمبراطورية الفارسية العريقة هي الأخرى في السيادة والملك وذات المهارة الفائقة في القتال.

اغتيال رسول النبي ﷺ إلى ملك بصرى والجولان:

وكان النبي ﷺ قد بعث إلى ملك بصرى والجولان والحارث بن أبي شمر الغساني، بعث إليه أحد أصحابه بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، وهو الحارث بن عمير الأزدي ؓ، فاجتاز حدود الشام، وعند قرية (مؤتة) بالبلقاء التقى به شر حبيل بن عمرو الغساني أحد الأمراء العاملين للملك الحارث ابن أبي

شمر، فقال شر حيل لرَسُولِ النبي ﷺ: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، فأوثقه شر حيل رباطاً ثم ضرب عنقه صبراً.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي رِبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَارِثَ بْنَ عُمَيْرٍ الْأَزْدِيَّ، ثُمَّ أَحَدَ بَنِي هَبٍ، إِلَى مَلِكِ بَصْرَى بِكِتَابٍ، فَلَمَّا نَزَلَ مُؤَتَةَ عَرَضَ لَهُ (تصدى له ومنعه من الذهاب) شَرْحِبِيلُ بْنُ عَمْرِو الْعَسَانِيِّ، فَقَالَ: أَتَيْنَ تُرَيْدُ؟ قَالَ: الشَّامُ، قَالَ: لَعَلَّكَ مِنْ رُسُلِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَنَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ، فَأَمَرَهُ بِهْ فَأُوثِقَ رِبَاطًا، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَضْرَبَ عُنُقَهُ صَبْرًا، وَلَمْ يَقْتُلْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَسُولٌ غَيْرُهُ، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرَ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٥٥].

اغتيال ١٥ من الصحابة على يد المرتزقة العرب في الشام:

يضاف إلى ذلك أن جنوداً من العرب المنتصرة التابعين للكومنولث البيزنطي، قد اعتدوا على بعثة سلمية دخلت أرض الشام تدعو العرب إلى الإسلام، فقتلوا جميع أفرادها غدراً في ذات الطلح، وكانت المنطقة التي قتل فيها الصحابة (وعددهم أربعة عشر) تقع جنوب الشام في البلقاء من الأردن ضمن ممتلكات التاج البيزنطي، وهي منطقة يحكمها الحارث بن أبي شمر الغساني باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

ويظهر أن كل هذه الاعتداءات الغادرة على أصحاب النبي ﷺ - بالإضافة إلى تهديد ملك غسان المنتصر الحارث بن أبي شمر - المسلمين بالغزو حيث روي عنه أنه قال - بعد أن قتل رجال استخباراته صاحب النبي ﷺ ورسوله إلى الملك الحارث: إني سائر إليه (أي النبي ﷺ)، يظهر أن كل الاعتداءات والتهديدات بغزو الجزيرة واحتلال المدينة من قِبَل جيوش الإمبراطورية الرومانية - على يد عميلها الحارث بن أبي شمر - قد كان السبب الأكبر في غزوة (مؤتة).

فهذه الأعمال العدوانية إن سكت عليها المسلمون قد تمنح وزارة الحربية في القسطنطينية مزيداً من الجراءة على اجتياز حدود الجزيرة العربية لاحتلال عاصمة الإسلام (المدينة)، لا سيما وأن القلق أخذ - بصورة جدية - يساور المتعصبين من بطارقة وقادة الإمبراطورية الرومانية على أثر الموقف الإيجابي الذي وقفه الملك (هرقل) من الكتاب الذي وجهه النبي ﷺ إلى هذا الإمبراطور يدعوه فيه وشعبه إلى الدخول في الإسلام.

فقد كانت تصرفات ملوك العرب المنتصرة المرتبطين بالتاج البيزنطي في جنوب وأواسط الشام وتصرفات أركان الإمبراطورية من الرومان - تشم منها رائحة العزم على القيام بغزو كاسح لاحتلال المدينة والجزيرة كلها، وجعلها إقليمًا جديدًا تابعًا للقسطنطينية، لا سيما وأن الجيش الروماني كان - إذ ذاك -

يعيش نشوة انتصاره الساحق على جيوش الإمبراطورية الفارسية التي استعاد منها «بقيادة الإمبراطور هرقل» كل ما كان الفرس قد اغتصبوه من ممتلكات إمبراطورية بيزنطا.

القرار الخطير:

لذلك - والله أعلم - رأى النبي ﷺ أن لابد من تجريد حملة عسكرية كبيرة تطأ أرض الشام غازية لتأديب أولئك الغادرين من العرب المنتصرة الدائرين ضمن فلك «الكومنولث البيزنطي» وليثبت المسلمون «عملياً» للسلادة الرومان أنفسهم أن جزيرة العرب أمنع وأحصن من أن يفكر هؤلاء الرومان أو أعوانهم من الغساسنة في اجتياز حدودها.

ولتحقيق هذا الغرض استنفر النبي ﷺ ثلاثة آلاف من خيرة أصحابه للحرب، ولم يبين الغرض من هذا الحشد والاستنفار حتى خرج الجيش من المدينة وعسكر بالجرف على بعد عدة أميال من المدينة، وهناك أخبر الجيش وقادته بأن عليهم أن يجتازوا حدود الجزيرة ويطؤوا أرض الشام ويقاتلوا فيها أعداء الإسلام الذين غدروا بأصحابه». [غزوة مؤتة لباشميل ١٦٢-١٦٥].

عدد الجيش، وتولية القيادة:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث زيداً، وجعفرًا، وعبد الله بن رواحة، فدفع الراية إلى زيد رضي الله عنه. [مجمع الزوائد في المغازي والسير ٢٣٠/٦ رقم ١٠٢١٧، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً إلى مؤتة، فاستعمل زيداً، فإن قُتل زيد فجعفر، فإن قُتل جعفر فابن رواحة. [مجمع الزوائد في المغازي والسير ٢٢٩/٦ رقم ١٠٢١٥، وقال الهيثمي: رواه أحمد في أثناء حديث طويل، وفيه الحجاج بن أرطاة وهو مدلس، وبقية رجاله رجال الصحيح].

قال ابن إسحاق: «حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير قال: بعث رسول الله ﷺ بعثة إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقال: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٧٣].

قال الواقدي: «وندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجرف، ولم يبين رسول الله ﷺ الأمر، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر جلس وجلس أصحابه، وجاء النعمان بن فنجس اليهودي، فوقف على رسول الله ﷺ مع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قُتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً، فليجعلوه عليهم».

فقال النعمان بن فنجس: أبا القاسم، إن كنت نبياً فسميت من سميت قليلاً أو كثيراً أصيبوا جميعاً، إن الأنبياء في بني إسرائيل إذا استعملوا الرجل على القوم، ثم قالوا: إن أصيب فلان فلو سمي مائة أصيبوا

جميعاً، ثُمَّ جَعَلَ الْيَهُودِيُّ يَقُولُ لِرَزِيدِ بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه: اْعْهَدْ! فَلَا تَرْجِعْ إِلَى مُحَمَّدٍ أَبَدًا إِنْ كَانَ نَبِيًّا، فَقَالَ رَزِيدٌ رضي الله عنه: فَأَشْهَدُ أَنَّهُ نَبِيٌّ صَادِقٌ بَارٌّ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٥٦].

ويقول د/ بريك: «ندب رسول الله ﷺ الناس إلى مؤتة» كما يذكر الواقدي، وابن سعد [أخرجه الواقدي (مغازي ٢/ ٧٥٥)، وأخرجه ابن سعد]، فاستجاب له حوالي ثلاثة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم، وذلك حسب ما ذكره بعض أهل المغازي. [ذكر ذلك عروة (ينظر: ابن هشام: سيرة ٤/ ٣٧٣، الطبري: تاريخ ٣/ ٣٦، البيهقي: دلائل ٤/ ٣٥٨) وذكره ابن سعد (طبقات ٢/ ١٢٨)].

وهو أكبر جيش إسلامي يتم حشده حتى ذلك الوقت، فإن جيش المسلمين في الحديبية، ثم في خيبر - وهما الغزوتان اللتان سبقتا مؤتة - لم يتجاوز حاجز الألفين [ينظر: عوض الشهري: مرويَات غزوة خيبر ٢٠٦- ٢٠٨، والحكمي: مرويَات غزوة الحديبية ٥١]، مما دَلَّ على نجاح صلح الحديبية عملياً، وأنَّ قوة المسلمين في تنامي وتزايد مستمر.

بل إنَّ بعض الروايات ذكرت أنه تمَّ حشد ستة آلاف من المهاجرين والأنصار. [أخرجه ابن عساكر: تاريخ دمشق (المجلدة الأولى ص ٣٩٠) عن محمد بن عائذ، الذي رواه بسندٍ منقطع، كما أن في متنه شذوذاً، فالمحفوظ عن أهل المغازي أنَّهم كانوا ثلاثة آلاف. والله تعالى أعلم]. وفي الجرف^(١)، عسكر الجيش الإسلامي كالعادة، وكان القائد الأعلى رسول الله ﷺ قد أصدر أوامره الشريفة بإسناد قيادة الجيش لمولاه وجبَّه زيد بن حارثة رضي الله عنه.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤَتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رضي الله عنه، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ». قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلِ، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بَضْعًا وَتِسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمِيَةٍ. [البخاري في المغازي (٤٢٦١)].

وفي مرسل عروة عند البيهقي: «فإن أُصيب فليرتض المسلمون رجلاً، فليجعلوه عليهم». [أخرجه البيهقي (الدلائل ٤/ ٣٥٩) بسنده من طريق يونس بن بكير، عن ابن إسحاق حدثنا محمد بن جعفر ابن الزبير، عن عروة بن الزبير. قلت: سنده حسن إلى عروة، ولكنه مرسل، وقد تفرد يونس بن بكير بهذه العبارة من بين الرواة عن ابن إسحاق، وقد ذكر نحوه الواقدي (المغازي ٢/ ٧٥٦)، وابن سعد (الطبقات ٢/ ١٢٨) عن شيوخه].

(١) الجُرف - بالضم ثمَّ السكون - ما تحجَّرفه السيول فأكلته من الأرض، وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة، به كانت أموال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولأهل المدينة. وقيل: سُمِّيَ الجُرف، لأنَّ بُعَا مَرَّ به، فقال: هذا جرف الأرض، وكان يُسَمَّى: العرض، وكان الجرف في عهد النَّبِيِّ ﷺ بمثابة معسكر للجيش النبوي. والجُرف اليوم من أحياء المدينة الشَّالية الكبيرة، يمتد من مزارع العيون شرقاً، حتَّى طريق المدينة تبوك غرباً. ينظر: ياقوت: معجم ١/ ١٢٨، السهمودي: وفاة ٤/ ١١٧٥.

قال أبو قتادة رضي الله عنه: «فوثب جعفر رضي الله عنه، فقال: «يا رسول الله، ما كنت أرهب أن تستعمل عليّ زيداً، فقال: «امض فإنك لا تدري أي ذلك خير». [أخرجه أبو داود (ينظر: عون المعبود، حديث ٤٣٤)، وأحمد (المسند ٣٧٦-٣٧٧)، والنسائي (السنن الكبرى ٩٦/٥)، وابن حبان (ينظر: الإحسان في ترتيب صحيح بن حبان، حديث ٧٠٠٨)، والبيهقي (الدلائل ٣٧٦/٢)، والطبري (التاريخ ٤٠/٣)، كلهم من طرق عن خالد بن سمير عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة رضي الله عنه. قال الهيثمي (المجمع ١٥٦/٦): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير خالد بن سمير وهو ثقة». قلت: قال الحافظ: هو صدوق بهم قليلاً. (التقريب ص ١٨٨)، إذا فالإسناد حسن إن شاء الله تعالى].

ويبدو أن بعض الصحابة رضي الله عنهم قد تكلم في إمرة زيد رضي الله عنه وتقديمه على غيره فوضّح لهم رسول الله ﷺ مكانة زيد رضي الله عنه وأحقّيته بالإمارة، وأنه من أحبّ الناس إليه، فسمعوا وأطاعوا.

[ينظر: البخاري (الصحيح ٢١٣/٤)، وبنص ابن حجر (فتح ٨٧/٧) على أن ذلك كان في مؤتة]. وتجدر الإشارة أنه لأول مرة في تاريخ غزوات النبي ﷺ وسراياه يتم تولية أمراء بالترتيب، «وما ولى النبي ﷺ قبل وقعة مؤتة ولا ولى بعدها ثلاثة قادة أو قائدين على سرية واحدة، ولكن بعد نظره ﷺ وتقديره لأهمية هذه السرية وخطورتها هو الذي جعله يولي ثلاثة قادة على سرية واحدة، مرة واحدة فقط في حياته العسكرية كلها». [القادة الشهداء لخطاب ١١٤-١١٥].

وربما كان ذلك احتياطاً منه ﷺ لما كان متوقعاً أن تحفّ الأخطار هذه الحملة لوجهتها البعيدة، ولعدم وقوع احتكاك سابق بمناطق تخضع لنفوذ دولة قوية كالإمبراطورية البيزنطية التي كانت قبائل الشام وأطرافها موالية لها سياسياً. [السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٤٦٧/٢].

ومن السدّاجة أن يتبادر إلى الأذهان أنه ﷺ كان يعلم مسبقاً المصير الذي كان ينتظر أعزّ أصحابه [ذكر الواقدي في روايته (مغازي ٧٥٥-٧٥٧) أن يهودياً يُدعى النعمان بن فنحص قال للنبي ﷺ - وهو يعهد لأمرأه الجيش بالقيادة -: «أبا القاسم، إن كنت نبياً فسميت من سميت قليلاً أو كثيراً أصيبوا جميعاً»... الخ. وقد تفرد الواقدي بهذه الرواية، والواقدي ضعيف متروك عند المحدثين، خاصة إذا انفرد]، فلم يُعرف عنه أبداً أنه ساق أتباعه إلى حتوفهم، أو رمى بهم في عمليات ينتحرون فيها، كل ما هنالك أن كثرة مشاغله منعه من قيادة الجيش بنفسه.

[دراسة في السيرة - عماد الدين خليل ٢٩٥].

وبما أن الجيش لم يكن تحت قيادة النبي ﷺ، فقد جرت العادة أن يكون الانخراط فيه تطوعياً حسب الاستطاعة، وذلك وفق التعليمات النبوية الكريمة، درءاً منه ﷺ للمشقة الحاصلة للمجاهدين وأسرهم، وإذا لم يكن الأمر نفيراً عاماً كان ﷺ يأمرهم بالتناوب في الخروج للجهاد، فكان يقول: «لِيَخْرُجْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ رَجُلٌ»، ثُمَّ قَالَ لِلْقَاعِدِ: «أَيُّكُمْ خَلَفَ الْخَارِجَ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ بِخَيْرٍ كَانَ لَهُ مِثْلُ نِصْفِ أَجْرِ الْخَارِجِ». [مسلم في الإمارة (١٨٩٦)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٠)، وأحمد ١٨١-١٨٢ رقم ١١١١٠].

بل كان يُحْضُّ على تخلف البعض لرعاية أسر المجاهدين، وأنَّ مَنْ يقوم بذلك له مثل أجر المجاهد والغازي». [أخرج البخاري (فتح الباري ٦/ ٤٩)، ومسلم (الصحيح ٣/ ١٥٠٣)، عن زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَّفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَخِيرٌ فَقَدْ غَزَا»].

وكان ﷺ، بأبي هو وأُمِّي، يعتذر عن الخروج على رأس بعض السرايا والبعوث حتى لا يشق على المسلمين.

أخرج مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِي يَدِهِ لَوْ لَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَجْهِلُهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً فَيَتَبِعُونِي، وَلَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَقْعُدُوا بَعْدِي». [مسلم في الإمامة (١٨٧٦)].

وهكذا فقد خلت قائمة الجيش من كبار الصحابة أمثال أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبي عبيدة رضي الله عنه، وغيرهم، بينما كان من المشاركين غير القادة الثلاثة: «عبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وأبو قتادة، وخالد بن الوليد، وعوف بن مالك، وجابر بن عبد الله، وثابت بن أقرم، وأبو موسى الأشعري، وواقد بن عبد الله التميمي، وأبو سلمة بن هشام، وعقيل بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن سمرة، ويعلى بن منية، وأبو اليسر، وغيرهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين (ترددت هذه الأسماء في الروايات التي تحدّثت عن المعركة في المصادر المختلفة. كما ذكر ابن الأثير (أسد الغابة ٤/ ٣٣١)، وابن حجر (إصابة ٣/ ٥٥) في ترجمة عُبَيْدَةَ بن عائشة المري: أنه كان مِمَّنْ شارك في مؤتة، وذلك نقلًا عن ابن ماکولا)، وكان معهم بعض المسلمين من اليمن من أمداد حمير. (أمداد حمير: قال في النهاية (٤/ ٣٠٨): الأمداد: جمع مدد، وهم الأعوان والأنصار الذين كانوا يمدّدون المسلمين في الجهاد. قلت: وربّما كان أولئك من الذين استنفرهم النَّبِيُّ ﷺ للحديبية، أو لخير، أو كانوا من بقايا الوفود الذين قرّروا البقاء في المدينة بجوار النَّبِيِّ ﷺ، حيث لم تذكر الروايات في جميع المصادر أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ استنفر القبائل لغزوة مؤتة. والله تعالى أعلم).

ويذكر ابن سعد أَنَّ رسول الله ﷺ عقد لهم: «لواء أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة [طبقات ابن سعد ٢/ ١٢٩]، فتجهّز الناس، وتهيأوا للخروج». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢٥٩-٢٦٨].

تحرك الجيش يوم الجمعة، وفضل الجهاد:

كان تحرك الجيش إلى «مؤتة» يوم الجمعة قبل الصلاة، وبعد مرابطة الجيش في ضواحي المدينة بالجرف، تخلف عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في المدينة ليصلي الجمعة مع النبي ﷺ، فنبهه النبي ﷺ إلى أن الجهاد في سبيل الله أفضل شيء يقوم به المسلم.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَى مُؤَتَّةَ، فَاسْتَعْمَلَ زَيْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرُ فَأَبْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَتَخَلَّفَ ابْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَجَمَعَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَهُ فَقَالَ: «مَا خَلَّفَكَ؟»، قَالَ: أَجْمَعُ مَعَكَ، قَالَ ﷺ: «لَعْدُوَّةٌ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

[مسند أحمد ١٦٢/٤ رقم ٢٣١٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سَرِيَّةٍ، فَوَافَقَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، قَالَ: فَقَدِمَ [فَعَدَا] أَصْحَابَهُ، وَقَالَ: أَتَخَلَّفَ فَأَصِلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْجُمُعَةَ، ثُمَّ أَلْحَقَهُمْ، قَالَ: فَلَمَّا [صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ] رَأَاهُ ﷺ قَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَعْدُوَ مَعَ أَصْحَابِكَ؟»، قَالَ: فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَصِلِّيَ مَعَكَ الْجُمُعَةَ، ثُمَّ أَلْحَقَهُمْ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ [بِجَمِيعًا] مَا أَذْرَكْتُ [فَضْلًا] عَدُوَّتَهُمْ». [مسند أحمد ٣/ ٤٣١-٤٣٢ رقم ١٩٦٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف، ورواه الترمذي كتاب أبواب الجمعة باب ما جاء في السفر يوم الجمعة رقم ٥٢٧، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد. وينظر: صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٨٩-٣٩٠].

بُكَاءُ ابْنِ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَخَافَةَ النَّارِ وَشِعْرُهُ لِلرَّسُولِ ﷺ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَتَجَهَّزَ النَّاسُ ثُمَّ تَهَيَّؤُوا لِلْخُرُوجِ، وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ، فَلَمَّا حَضَرَ خُرُوجَهُمْ وَدَّعَ النَّاسُ أُمَرَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَسَلَّمُوا عَلَيْهِمْ.

فَلَمَّا وَدَّعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ وَدَّعَ مِنْ أُمَرَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَكَى، فَقَالُوا: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ؟ فَقَالَ: أَمَّا وَاللَّهِ مَا بِي حُبُّ الدُّنْيَا وَلَا صَبَابَةٌ (رقة الشوق وحرارته، وهي بالرفع تقديره: ولا لي صباية) بِكُمْ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﻛَآءِذْ يُذَكَّرُ فِيهَا النَّارُ: ﴿وَلَنْ مَسْكُورًا إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧١) [مريم]، فَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ لِي بِالصَّدْرِ (اسم من قولك: صدرت عن البلد، أي رجعت) بَعْدَ الْوُرُودِ (الورود: في الآية (مريم ٧١) الحضور والموافاة من غير دخول أو الدخول، والعرب تطلق الورد على هذين المعنيين)، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: صَحِبَكُمْ اللَّهُ، وَدَفَعَ عَنْكُمْ، وَرَدَّكُمْ إِلَيْنَا صَالِحِينَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْعٍ تَقْذِفُ الزَّبْدَا (١)
أَوْ طَعْنَةً يَدِّي حَرَّانَ مُجْهِزَةً بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبْدَا (٢)
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَّتِي أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ عَازٍ وَقَدْ رَشَدَا (٣)

(١) ذات فرغ: يعني ذات سعة. الزبد: رغوة الدم. (شرح السيرة للخشني ٣٥٤).

(٢) رجل حرَّان: عطشان، أي متعطش للقتل. مجهزة: سريعة القتل. الأحشاء: جمع حشا وهو ما في البطن.

(٣) الجلدت: القبر.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ تَهَيَّؤُوا لِلْخُرُوجِ، فَأَتَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَوَدَّعَهُ ثُمَّ قَالَ:

فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ تَثَبَّيْتُ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا
إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً اللَّهُ يُعَلِّمُ أَنِّي ثَابِتُ الْبَصَرِ ^(١)
أَنْتَ الرَّسُولُ فَمَنْ يُحَرِّمُ نَوَافِلَهُ وَالْوَجْهَ مِنْهُ فَقَدْ أَرَزَى بِهِ الْقَدْرَ ^(٢)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالشَّعْرِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ:

أَنْتَ الرَّسُولُ فَمَنْ يُحَرِّمُ نَوَافِلَهُ وَالْوَجْهَ مِنْهُ فَقَدْ أَرَزَى بِهِ الْقَدْرَ
فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ فِي الْمُرْسَلِينَ وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا
إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً فِرَاسَةً خَالَفَتْ فِيكَ الَّذِي نَظَرُوا

يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ، وَهَذِهِ الْأَبْيَاتُ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ خَرَجَ الْقَوْمُ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا وَدَّعَهُمْ وَانْصَرَفَ عَنْهُمْ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه:

خَلَفَ السَّلَامُ ^(٣) عَلَى امْرِئٍ وَدَّعْتُهُ فِي النَّخْلِ خَيْرٌ مُشِيعٍ وَخَلِيلٍ

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٣-٣٧٤] ^(٤).

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَلَمَّا أَجْمَعُوا الْمَسِيرَ، وَقَدْ عَقَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَهُمُ اللَّوَاءَ، وَدَفَعَهُ إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه - لِوَاءً أَبْيَضَ - مَشَى النَّاسُ إِلَى أَمْرَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُودِّعُونَهُمْ، وَيَدْعُونَ لَهُمْ، وَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يُودِّعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالْمُسْلِمُونَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ، فَلَمَّا سَارُوا مِنْ مُعَسَّكِرِهِمْ نَادَى الْمُسْلِمُونَ: دَفَعَ اللَّهُ عَنْكُمْ، وَرَدَّكُمْ صَالِحِينَ غَانِمِينَ.

قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه عِنْدَ ذَلِكَ:

(١) نافلة: هبة من الله وعطية منه، والنوافل العطايا والمواهب.

(٢) أَرَزَى بِهِ الْقَدْرَ: أَي قَصَرَ بِهِ.

(٣) خلف السلام: دعاء منه للنبي ﷺ بالسلامة.

(٤) يقول د/ بريك: «هذا الخبر من رواية عروة عند البيهقي (الدلائل ٤/ ٣٥٩)، كما أخرج حادثة بكاء عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وسببها: أبو نعيم في (الحلية ١/ ١١٨) من طريق محمد بن فليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب الزهري أيضًا». غزوة مؤتة لبريك ٢٧٢.

قلت: هذا جزء من حديث طويل في: مجمع الزوائد ٦/ ٢٣١-٢٣٣ كتاب المغازي والسير باب غزوة مؤتة رقم ١٠٢٢٠، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [الجزء المفقود] ورجاله ثقات إلى عروة.

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْعٍ تَقْذِفُ الرَّبْدَا

وَهِيَ آيَاتٌ أَتَشَدِّدُ بِهَا شُعَيْبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٥٦-٧٥٧].

الوصايا التي تزود بها الجيش، وتوديعه:

وخرج معهم رسول الله ﷺ حتى بلغ ثنية الوداع^(١)، وهناك أوصاهم.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ رَافِعِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا»، أَوْ قَالَ: «أَغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، لَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَذْغُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثٍ، فَأَيُّهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَاكْفُفْ عَنْهُمْ، أَدْعُهُمْ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَاكْفُفْ عَنْهُمْ، ثُمَّ أَدْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي النَّفْيِ وَلَا فِي الْقِسْمَةِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ أَبَوْا فَأَذْغُهُمْ إِلَى عِطَاءِ الْجَزْيَةِ، فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَاكْفُفْ عَنْهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِينَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِنْ أَتَتْ حَاصِرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَسْتَرْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تَسْتَرْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَذَرِي أَتَصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا، وَإِنْ حَاصِرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ فَأَرَادُوكَ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةً (الذمة: الأمانة) الله وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، فَلَا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَبِيكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخْفَرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ آبَائِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَخْفَرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ».

حَدَّثَنِي أَبُو صَفْوَانَ عَنْ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مُسَيِّعًا لِأَهْلِ مُؤْتَةٍ، حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ، فَوَقَفَ وَوَقَفُوا حَوْلَهُ فَقَالَ: «أَغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ، فَقَاتِلُوا عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ بِالشَّامِ، وَتَسْجِدُونَ فِيهَا رِجَالًا فِي الصَّوَامِعِ (جمع صومعة، وهي مكان عبادة الرهبان من النصارى) مُعْتَزِلِينَ لِلنَّاسِ، فَلَا تَعَرَّضُوا لَهُمْ، وَتَسْجِدُونَ آخِرِينَ لِلشَّيْطَانِ، فِي رُؤُوسِهِمْ مَفَاحِصَ (جمع مفحص، والمفحص مفعول من الفحص، ومفحص القطاة موضعها الذي تجثم فيه وتبيض، أي أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها. النهاية ٣/ ١٨٥)، فَأَقْلَعُوا هَاهُنَا [فَأَقْلَعُوا هَاهُنَا] (الهامة: رأس كل شيء). والمعنى: اضربوا

(١) ثَنِيَّةُ الْوَدَاعِ - بفتح الواو - وهي اسم من التوديع، وهي ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد الشام، واختلف في سبب تسميتها بذلك، والأشهر والصحيح أنه اسم جاهلي قديم سُمِّيَ لتوديع المسافرين، وكان اسمها قديمًا ثنية الركاب، وكانت هذه الثنية بين مسجد الراهبة، وقبر النفس الزكية جوار سلع، وقد هُدمَت اليوم وأزيلت بكاملها مع المسجد، وأقيم مكانها مدخل نفق المناخة من جهة الشمال. (العباسي: عمدة الأخبار ٢٨٣).

رؤوسهم بالسيوف، وَلَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَغِيرًا مُرْضِعًا (أي: الصغير الضعيف)، وَلَا كَبِيرًا [وَلَا] فَانِيًا، لَا تُغْرِقَنَّ [تُغْرِقَنَّ] (أي: لا تقطعن. والعزق: القطع) [نَحْلًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا، وَلَا تَهْدِمُوا بَيْتًا]. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٥٧-٧٥٨] (١).

ابن رواحة رضي الله عنه يطلب الوصايا من رسول الله ﷺ:

كان القائد الثالث عبد الله بن رواحة رضي الله عنه من الزهاد العابدين وكان مع ذلك شاعراً مجيداً.
قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ عِمَارَةَ بْنُ غَزِيَّةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ قَالَ: لَمَّا وَدَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ رضي الله عنه قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مُرْنِي بِشَيْءٍ أَحْفَظُهُ عَنْكَ، قَالَ: «إِنَّكَ قَادِمٌ عَدَاً بَلَدًا، السُّجُودُ بِهِ قَلِيلٌ فَكَثِّرِ السُّجُودَ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ رضي الله عنه: زِدْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ ﷺ: «أَذْكُرُ اللَّهَ فَإِنَّهُ عَوْنٌ لَكَ عَلَى مَا تَطْلُبُ»، فَقَامَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى إِذَا مَضَى ذَاهِبًا رَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ وَتُرَّيْحُ الْوُتَرِ، قَالَ ﷺ: «يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، مَا عَجَزْتَ فَلَا تَعْجِزَنَّ، إِنَّ أَسَأْتَ عَشْرًا أَنْ تُحْسِنَ وَاحِدَةً»، فَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه: لَا أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٥٨].

هجاء ابن رواحة رضي الله عنه المشركين:

عَنِ الْهَيْثَمِ بْنِ أَبِي سِنَانٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه [وَهُوَ يَقْصُصُ] فِي قِصَصِهِ [وَهُوَ] يَذْكُرُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَخَاكُمْ لَا يَقُولُ الرَّفَثَ»، يَعْنِي بِذَاكَ [بِذَلِكَ] عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، قَالَ:

فِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعٌ
أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعٌ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِالْكَافِرِينَ [بِالْمُشْرِكِينَ] الْمَضَاجِعُ

[البخاري في الأدب (٦١٥١)، وفي التهجد (١١٥٥)].

(١) يقول د/ بريك: «أخرجه ابن عساكر (تاريخ دمشق: المجلدة الأولى ص ٣٩١) من حديث ابن عائذ بسنده عن

العطاف بن خالد المخزومي، وعن العطاف بن خالد، عن واقد بن محمد بن زيد.

كما رواه الواقدي (مغازي ٢/ ٧٥٨) من طريق العطاف، عن خالد بن يزيد.

وقال ابن عساكر تعليقاً على الخبرين: هذان إسنادان مرسلان، والمحفوظ أن هذه وصية أبي بكر رضي الله عنه.

قلت: وإن كان الخبران مرسلين، فإنهما يتعاضدان فيما بينهما بالتابعة، وإن كان الخبر الثالث من طريق الواقدي، لكنه تابع فيه الثقات، ولا يمنع أن تشابه وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وصية صاحبه ومعلمه الأول رسول الله ﷺ، فالصديق رضي الله عنه تلميذ نجيب من مدرسة المصطفى ﷺ.

وقد أورد هاتين الوصيتين - وصية الرسول ﷺ، ووصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه - ابن الأثير (النهاية ٣/ ٤١٥) في موضع واحد، مما يدل على كونها حديثين متشابهين كما ذكرنا. كما يشهد للخبرين السابقين الأحاديث الصحيحة في وصايا النبي ﷺ للسرابة التي يعث بها لقتال من كفر بالله. والله تعالى أعلم. غزوة مؤتة لبريك ٢٧٠.

المبحث الثالث

حشد القوات الرومانية وحلفائها من القبائل المنتصرة

جواسيس الرومان في المدينة يبلغونهم نبأ الغزو:

يقول أ/ باشميل: «وكان قادة الجيش يحاولون (كما هي طريقة الرسول ﷺ) الكتمان وأخذ الأعداء في الشام على حين غرة، ولكن يظهر أن الطابور الخامس من اليهود والمنافقين في المدينة، قد طيروا خبر حشد المسلمين وتحركهم نحو الشام ليأخذوا حذرهم.

استخبارات الرومان في شمال الجزيرة:

وكان شرحبيل بن عمرو الأزدي عاملاً للرومان على مناطق الشام الجنوبية المتاخمة للجزيرة العربية، فكان أول من تلقى من جواسيس الرومان في المدينة أنباء تحركات الجيش النبوي، فبعث إلى الرومان من يخبرهم خبر تحرك المسلمين نحو الشام، ثم أخذ في حشد الجيوش من القبائل الموالية للرومان في جنوب الشام وفي الوقت نفسه بعث أخاه سدوس طليعة مع بعض رجاله، يستكشفون له خبر الجيش الإسلامي. أما جيش الإسلام فقد واصل تحركه حتى نزل وادي القرى فاستراح به أياماً، ثم واصل تحركه نحو الشمال.

مقتل أخي قائد الأعداء:

وقد التقت طلائع الاستكشاف في الجيش الإسلامي بسدوس وفصيلة استخباراته فاشتبكت معهم داخل الجزيرة وهم يقومون بالتجسس على ما يظهر، فتمكن المسلمون من قتل سدوس أخي القائد العميل للرومان (شرحبيل بن عمرو الذي أعدم رسول النبي ﷺ).

فخاف شرحبيل خوفاً شديداً - بعد مقتل أخيه - وتحصن، ثم طلب النجدة من القيادة الرومانية العليا التي كانت موجودة مع الإمبراطور (هرقل) في بيت المقدس، فسارعت هذه القيادة إلى نجدة شرحبيل بن عمرو بقوات كثيفة جداً». [غزوة مؤتة لباشميل ١٧١-١٧٢].

الخلاف في عددهم:

يقول د/ بريك: «تحركت القوات الإسلامية من المدينة صوب الشام في مسير اقترابي حذر. ويذكر الواقدي أنهم نزلوا وادي القرى في طريقهم إلى الشام، وأقاموا أياماً [الواقدي: مغازي ٢/ ٧٦٠]، ولكن أنباء حركتهم وصلت إلى الروم قبل وصول المسلمين إليهم [خطاب: الرسول القائد ﷺ ٣٠٥، ٣٠٧]، فنذروا وجمعوا لهم جموعاً كثيرة من الروم وحلفائهم من القبائل العربية الشامية المنتصرة.

هذا وقد اختلفت الروايات فيهم، وفي عدَّتهم، ففي مرسل عروة: «ذكر أنَّهم كانوا مائة ألف من الروم: «وانضم إليهم من لحم^(١)، وجذام، والقين^(٢)، وبَهْرَاء^(٣)، وبِلَجٍّ، مائة ألف منهم».

[ذكره ابن هشام (سيرة ٤/ ٣٧٥) من حديث ابن إسحاق عنه، وسنده حسن إلى عروة].

وتابعه في ذلك ابن إسحاق في رواية يونس عنه [ذكر ذلك ابن كثير (البداية ٤/ ٢٤٢-٢٤٣)، وابن الأثير (ابن الأثير: الكامل ٢/ ٢٣٥)، والطبري، والبيهقي، كلاهما بسنديهما إليه (الطبري: تاريخ ٣/ ٣٧، البيهقي: دلائل ٤/ ٣٦٠)، وتابعه من المتأخرين كُلٌّ من: «ابن عبد البر، وابن سيد الناس، وابن القيم، وابن كثير، وابن حزم، والعامري، والحلي، والذهبي». [ينظر: (ابن عبد البر: درر ٢٢٢، ابن سيد الناس: عيون ٢/ ١٩٨، ابن القيم: زاد ٣/ ٣٨١، ابن كثير: البداية ٤/ ٢٤٣، ابن حزم: جوامع ٢٢٠، العامري: بهجة ١/ ٣٩٠، الحلي: سيرة ٢/ ٧٨٦، الذهبي: تاريخ، قسم المغازي ٤٨١)].

وذكر السهيلي حكاية عن ابن إسحاق: «أنَّهم كانوا خمسين ومائة ألف». [السهيلي: الروض ٧/ ٤١].

بينما يذكر الواقدي في روايته: «أنَّهم كانوا مائة ألف من القبائل العربية المنتصرة». [المغازي ٢/ ٧٦٠].

وتابعه القسطلاني، إلا أنَّه ذكر أنَّهم كانوا مائة ألف من المشركين [القسطلاني: مواهب ١/ ٥٤٩]، وكذلك المسعودي، إلا أنَّه ذكر أنَّهم جموع الروم». [المسعودي: التنبيه والإشراف ٢٦٥].

وكان هنالك اضطراب في رواية ابن سعد حيث ذكر أولاً أنَّ شرحبيل بن عمرو الغساني جمع أكثر من مائة ألف، ثُمَّ يعود فيذكر: «أنَّ هرقل قد نزل مابًا من أرض البلقاء في مائة ألف من بهراء... إلخ».

ووردت أقوال أخرى حكاها بعض أهل المغازي، دون نسبتها إلى قائلها، حيث قال السهيلي: وقيل: «كان العدو مائتي ألف من الروم، وخمسين ألفًا من العرب، ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين». [السهيلي: الروض الأنف ٧/ ٤١]، ونقل ذلك الحلي أيضًا». [الحلي: سيرة ٢/ ٧٨٧].

وقال الزرقاني، والشامي: «كانوا أكثر من مائتي ألف».

[ينظر: الزرقاني: شرح ٢/ ٢٧١، الشامي: سبل ٦/ ٢٥١].

وقال ابن حجر: «قيل: أكثر من مائة ألف». [ابن حجر: فتح ٧/ ٥١٣].

(١) لَحْم - بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة - وهم من بني كهلان بن سبأ، وكان لهم مُلْك بالحيرة، ثُمَّ كان لبقاياهم مُلْك بأشيلية، ومن لحم بني الدار، ومنهم تميم الداري الصحابي. القلقشندي: قلائد الجمان ٦٩.

(٢) بنو القين: قبيلة كبيرة من قضاة، ينسبون إلى القين بن جسر، وهم ابن التين، فقال: بنو القين قبيلة من تميم. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٤٢٤، ابن حجر: فتح ٨/ ٧٤.

(٣) بَهْرَاء - بفتح الباء الموحدة، وسكون الهاء، وفتح الراء المهملة - وهم بنو بهراء بن الحافي بن قضاة، والنسبة إليهم بَهْرَائِي، ومنهم جماعة من الصحابة منهم المقداد بن الأسود رضي الله عنه، وكان بينهم وبين اللخمين ملوك الحيرة حروب. القلقشندي: قلائد الجمان ٤٩.

ولم تُحدّد روايات الزهري، وموسى بن عقبة، ومحمد بن عائذ العدد، وإنّما ذكرت أنّهم جموع كثيرة من الروم، ونصارى العرب من قضاة، وتنوخ، وبهراء، وغيرهم من نصارى العرب». ووقع مثل ذلك في رواية أبي قتادة رضي الله عنه.

ويصفهم خليفة بن خياط بأنّهم جموع هرقل دونها تحديد.

ويرى العقّاد صعوبة جمع تلك الجيوش الجرّارة وتسييرها في مثل تلك السرعة، ويرجّح أنّ «هرقل إنّما كان في جموعه هنالك في زيارة الشكر التي نذر الله أن يؤدّيها إذا هو ظفر بالفرس، وردّ منهم صليب الكنيسة الكبرى الذي حملوه معهم يوم أنّ فتحوا بيت المقدس، وربّما كان هرقل قد بارح بيت المقدس في ذلك الحين، وتخلّفت جيوش ركابه لأداء هذه الفريضة معه أو القيام بمراسم الحفاوة في تلك الزيارة التاريخية». [العقاد: عبقرية خالد بن الوليد رضي الله عنه ٥٢-٥٣].

وذلك استنتاجٌ مبنيٌّ على رواياتٍ ضعيفة، فقد ذكرت المصادر أنّ هرقل كان في الشام قبل مؤتة بخمسة أشهر على الأقل، حينما استقبل دحية الكلبي رضي الله عنه سفير رسول الله صلى الله عليه وآله إليه، ثمّ من بعده أبا سفيان ابن حرب ومن معه الذين سألهم عن النّبِيِّ صلى الله عليه وآله أسئلةً دقيقةً وشخصيّةً، وقد أظهر هرقل حينها احتراماً بالغاً للنّبِيِّ صلى الله عليه وآله، بل وصدّق به، ولكنّه لم يُسلم خوفاً على ملكه، وكان ذلك بعد الحديبية، كما ذكر أبو سفيان راوي الخبر. [ينظر: البخاري: الصحيح ٥/١، وينظر: أحمد عادل: الطريق إلى دمشق ١٣٠-١٣١، ١٤٨].

وذهب دويدار أبعد من ذلك حينما أكد على أنّ الروايات تكاد تجمع على تلك الأعداد الضخمة التي استقبل بها الرومان المسلمين في مؤتة. [دويدار: صور من حياة الرسول صلى الله عليه وآله ٥١٧].

وتلك مبالغة لا تقل عن مبالغة بعض الروايات التي ذكرناها في تحديدها لعدد جيش الروم وحلفائهم في مؤتة.

ولا ريب أنّ المبالغات التي أعقبت هذه المعركة، كثّرت من عدد العدو وجعلته يبلغ هذا الرقم الخيالي [عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ٢٩٦]، وإن كان بمستطاع القبائل العربية الضاربة في المنطقة أن تؤلّف مع الجيش الروماني قوةً ضخمة، ولكنّ الأمر لم يكن على تلك الدرجة البالغة من الخطورة، «فإنّ الحملة الإسلامية كانت مكوّنة من ثلاثة آلاف، وأنّ أنباء مسيرها كانت معروفة، فلا يمكن أن يوجه إليها الروم مثل هذا العدد الحاشد من الجيوش، على أنّ هذه الأعداد الضخمة لم تستخدمها بيزنطة في قتالها مع الفرس». [الشريف: مكة والمدينة ٥٣٤].

فقد ذكرت المصادر أنّ جيش هرقل الذي أعاد به كرامة الإمبراطورية البيزنطية عندما هزم جيوش كسرى، حتى استطاع دخول المدائن، كان لا يزيد عدده عن سبعين ألفاً. [ينظر: الطبري: تاريخ ١٨٣/٢، الكندي: فتوح مصر ٣٥، ابن عساکر: تاريخ دمشق: ١/٥٣١، أحمد عادل كمال: الطريق إلى دمشق ٣٩].

«ولم يستخدم الروم هذه الأعداد، إلا فيما بعد عندما اشتبكوا مع الدولة الإسلامية اشتباكاً حقيقياً خطيراً». [الشريف: مكة والمدينة ٥٣٤].

لذلك فإنه من الأصوب الأخذ بروايات الزُّهري، وابن عقبة، وابن عائذ، التي لم تُحدّد القوّات بعددٍ معيّن، وإنّما ذكرت أنّهم جموع كثيرة «وكلُّ ما يمكن تصوُّره أنّ قوّة العدو كانت أكبر من قوّة المسلمين، أو أنّها كانت أضعافها». [الشريف: مكة والمدينة ٥٣٤].

ويعتقد الجنرال أكرم أنّها زُبياً كانت تتراوح بين عشرة آلاف، وخمسة عشر ألفاً.

[الجنرال أكرم: سيف الله خالد بن الوليد ١٠٥].

إنّ التحديد الذي ورد في بعض الروايات التي ذكرناها بتلك الأعداد الضخمة، ربّما كان اجتهداً من بعض الرواة والإخباريين، أو حتى بعض شهود العيان الذين ربّما نقل عنهم عروّة وغيره من المؤرّخين. كما لم تزودنا المصادر البيزنطية بمعلوماتٍ وافرة عن الأحداث التي كانت بين بيزنطة والمسلمين، بما في ذلك أحداث معركة مؤتة، فنستطيع من خلالها معرفة عدد الجيش البيزنطي والحلفاء فيها، حيث كان الاعتماد على المصادر الإسلامية في ذلك، والتي نادراً ما تخطئ في وصف الأحداث، لاعتمادها على الإسناد الذي يصل في كثيرٍ من الأحيان إلى شهود العيان، أو حتّى المشاركين في تلك الأحداث، وتلك عملية دقيقة ومرتبّة لم يُسبّق المسلمون فيها أبداً، بل لم تعرفها أمة من الأمم على الإطلاق، غير الأمة الإسلامية.

ولكن حتّى شهود العيان والمشاركون في صميم الأحداث لا يستطيعون في بعض الأحيان التعرّف بدقة على عدد جند العدو. (في غزوة بدر العظمى ابتكر النبي ﷺ طريقة ذكية عرّف من خلالها عدد جيش قريش، حيث سأل الأسرى الذي أمسك بهم المسلمون: كم ينحرون؟ قالوا: يوماً عشرة، ويوماً تسعة. قال القوم: ما بين الألف والتسعمائة. أخرجه أحمد: المسند ١٩٣/٢، والواقدي: مغازي ٥٣/١. وينظر: (العلمي: مرويّات غزوة بدر ٩٩).

بل يعتمدون أحياناً على الحدس والتخمين في إحصاءاتهم لجيوش الأعداء، لأنّه لم تكن هنالك إحصاءات دقيقة معلومة عن عدد الجند والجيوش، كما هو الحال اليوم. (بل إنّ الكثير من دول العالم اليوم لا تُعطي إحصاءات دقيقة وصحيحة لجيوشها لاعتبارات أمنية).

وربّما أنّ بعض شهود معركة مؤتة من المسلمين شاهدوا تلك الكثافة العدديّة والعُدديّة من الجند الروماني المجهّز بأحدث الأسلحة والعتاد، فهاهم ذلك المنظر الذي لم يتعوّدوه من قبل، فقدّروا عددهم اجتهداً، ذلك التقدير الضخم.

روى الواقدي بسنده «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهدت مؤتة، فلمّا رأينا المُشركين رأينا ما لا قبل لنا به من العُدّة والسّلاح والكُراع (يعني الخيل) والدّيباج والحريّر والدّهَب، فبرّق بصري، فقال لي ثابّت بُن

أَقْرَمَ ﷺ: يَا أَبَا هَرِيرَةَ مَا لَكَ؟ كَأَنَّكَ تَرَى جُمُوعًا كَثِيرَةً؟! قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: تَشْهَدُنَا بِبَدْرٍ؟ إِنَّا لَمْ نُنْصَرْ بِالْكَثَرَةِ!»، [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٠].

ومهما قيل في مبالغة الذين سجّلوا تعداد الروم وحلفائهم، فإنّ الحقيقة تبقى واضحة للدارسين بأنّ الروم وحلفاءهم كانوا أضعاف تعداد المسلمين، كما أنّهم يقاتلون في بلادهم دفاعاً عنها، بينما يقاتل المسلمون بعيداً عن قاعدتهم الرئيسة المدينة، وبذلك تكون المزايا العسكرية في التفوّق العدديّ والعُدديّ، وفي قرب قواعد الروم إلى قوّاتهم المقاتلة، هذه المزايا مع الروم على المسلمين بلا مرأى.

[خطّاب: القادة الشهداء ١٨٠]. «غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢٧٥-٢٨٢».

الخلاف في قاداتهم:

وكما اختلفوا في عددهم، اختلفوا أيضاً في قوّادهم.

ففي رواية عروة - وهي الرواية الأكثر شهرة بين روايات أهل المغازي في هذه الغزوة - يذكر أنّ الروم كانوا بقيادة ملكهم هرقل، والحلفاء من القبائل العربية المنتصرة، كانوا بقيادة رجلٍ من بلي، ثمّ أخذ أراشة يُقال له: «مالك بن زافلة».

أمّا رواية الواقدي فيشوبها بعض الاضطراب، حيث ذكر أنّ الذي حشد الجموع رجلٌ من الأزد، يُقال له: «شرحبيل بن عمرو» (شرحبيل بن عمرو هذا هو أحد أمراء هرقل على الشام، وهو الذي قتل الحارث بن عمير الأزدي ﷺ رسول رسول الله ﷺ، فكان ذلك سبب وقعة مؤتة، كما ذكر الواقدي ومتابعيه)، وأنه قدّم الطلائع أمامه بقيادة أخيه سدوس، فقتله المسلمون، فخاف شرحبيل وتحصّن (أي دخل موضعاً حصيناً لا يوصل إلى جوفه)، وبعث أخاً له آخر، يُقال له: وبر بن عمرو، ثمّ يذكر بعد ذلك أنّ هرقل نزل مآب، من أرض البلقاء في بهراء، ووائل، ويكر، ولخم، وجذام، في مائة ألف، عليهم رجل من بلي، يُقال له: «مالك».

[المغازي ٢/ ٧٦٠].

وتابعه في ذلك تلميذه ابن سعد، كما مرّ في المبحث السابق. ويذكر الزهري، وموسى بن عقبة في روايتهم أنّه كان عليهم ابن أبي سبرة الغساني. (أعتقد - والله تعالى أعلم - أنّ ذلك تصحيف (ابن أبي شمر الغساني) ملك بصرى والجولان، واسمه الحارث ابن جبلة، حيث لم تذكر المصادر الأخرى أنّ هنالك حاكم آخر في المنطقة اسمه (ابن أبي سبرة)، كما أنّ مشاركة ابن أبي شمر في الأحداث من حيث أنّه هو الذي هدّد بالمسير إلى المسلمين حينما وصله كتاب النبيّ ﷺ، ترجّح ما ذكرناه. والله تعالى أعلم).

أمّا ابن عائد فلم تحدّد روايته اسم القائد. [أخرجه ابن عساكر (تاريخ دمشق، المجلدة الأولى ص ٣٩٦) من حديث ابن عائد عن الوليد بن مسلم، ولكنه منقطع].

وكان للمسعودي رأي آخر، حيث يذكر أنّ هرقل أنفذ الجيوش للقاء المسلمين من مكان إقامته في أنطاكية، وكان على الروم تياذوقس البطريق (البطريق: رتبة عسكرية بيزنطية تُمثّل أمير الجيش عند المسلمين في

ذلك الوقت. وهي تساوي رتبة لواء في الجيوش العربية الحديثة. ينظر: (مجلة الأزهر، رقم ٤٣، الجزء السابع، ص ٦٤٤)، وعلى متنصرة العرب من غسان وقضاة وغيرهم شر حبييل بن عمرو الغساني».

[المسعودي: التنبيه والإشراف ٢٦٥].

ويؤكد بروكلمان ما ذهب إليه المسعودي، مُصَحِّحًا اسم القائد البيزنطي وأنه (ثيودورس).

[ينظر: عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ٢٩٦، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ٥٩. وثيودورس: هو أخو الإمبراطور هرقل، وقد قُتل في معركة اليرموك على يد المسلمين (الطبري: تاريخ ٤٠١/٣)].

وأعتقد أن ما ذهب إليه المسعودي، وأكد بروكلمان من قيادة ثيودورس أخيه الإمبراطور هرقل لجيوش الحلفاء في مؤتة هو الأصوب؛ لأنه لم يرد ذكر هرقل في أحداث المعركة رغم شهرته ومعرفته المسلمين له جيدًا، فلو كان هو القائد فعلاً لما أغفلت المصادر الإسلامية - ومنها التي ذكرت قيادته لجيوش الروم - أخباره في ميدان المعركة وأحداثها.

كما أن القول بقيادته للمعركة يتعارض مع ما هو مألوف في نظام الحكم في بيزنطة في ذلك الحين، حيث لم يسبق لإمبراطور بيزنطي قاد جيشاً إلا مرتين: «الأولى حينما قاد الإمبراطور موريس حملة لمحاربة الآفار، والثانية حينما قاد هرقل نفسه الجيش البيزنطي في محاولة منه لاسترداد هيبة الإمبراطورية البيزنطية التي فقدت حينما دحرت القوات الفارسية القوات الرومانية في معركة فحل الفاصلة - التي ورد ذكرها في القرآن (في الآيتين ٢-٣ من سورة الروم) - ثُمَّ خَرَبَتْ بَيْتَ الْمَقْدَسِ، وَاحْتَلَّتْ شَطْرًا كَبِيرًا مِنْ أَرْضِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ، حَتَّى أَحْدَقَتْ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَقَدْ قُوِّلَ كُلٌّ مِنَ الْإِمْبَرَاطُورِيِّينَ بِمَقَاوِمَةٍ عَنِيفَةٍ وَمَعَارِضَةٍ شَدِيدَةٍ مِنْ مُسْتَشَارِيهَا حِينَ قَرَّرَا قِيَادَةَ جَيْشِهَا آنَذَاكَ».

[ذكر ذلك (الباز، العربي: الدولة البيزنطية ١٢٤) نقلاً عن: ٩٠ Ostrogarowski. G. History of Byzantine State].

والأهم من ذلك كله هو أن هرقل، بعد أن وصله كتاب النبي ﷺ بعد الحديبية، وعرف صدق نبوءته ﷺ، أصبح غير متحمس للقاء المسلمين في ميادين القتال، لمعرفته التامة بأنهم سيظهرون على غيرهم من الأمم بما فيهم الرومان (في حديث أبي سفيان الذي أخرجه البخاري (الصحيح ٥/١) قال هرقل: (فإن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضع قدمي هاتين... إلخ)، عَرَفَ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ كُتُبِ النَّصَارَى، الَّتِي بَشَّرَتْ بِنَبِيِّ الْإِسْلَامِ أَحْمَدَ ﷺ [ينظر: سورة الصف، الآية: ٦]، وَمِنْ خِلَالِ الْمُنْجِمِينَ الَّذِينَ حَذَرُوهُ مِنْ أَمَةِ الْخِتَانِ الَّتِي سَتَسْلُبُ مَلَكَهُ مِنْهُ.

وهكذا، فإنه في معارك أخرى جرت بعد ذلك بين المسلمين والبيزنطيين، لم يتولَّ هرقل قيادة أي معركة منها، حتى المعارك الحاسمة الضخمة، كاليرموك مثلاً، والتي تُعدُّ من حيث حشد القوَّات فيها من قِبَلِ الطَرَفَيْنِ، والاستعدادات المبكرة لها، واستشعار الروم وملكهم بخطر المسلمين المستفحل عليهم (بدليل أن هرقل ودَّع بعد المعركة سوربة الوداع الأخير)، وما كان سياتر على نتائج في حال ظفر أو هزيمة أيٍّ من الفريقين، أكبر بكثير من مؤتة. والله تعالى أعلم». [غزوة مؤتة لبريك ٢٨٣-٢٨٦].

المبحث الرابع

أحداث الطريق إلى مؤتة

تشاور المسلمين في معان^(١) :

يقول أ/ باشميل: «أما الجيش الإسلامي فقد واصل التحرك من وادي القرى فاجتاز حدود الجزيرة عند تبوك وتوغل في أراضي الشام حتى وصل بلدة» معان «من إقليم البلقاء في الأردن، وهناك تلقى القائد العام زيد بن حارثة تقريراً من استخباراته العسكرية التي كان قد بعث بها إلى أرض العدو للحصول على المعلومات اللازمة، وفي هذا التقرير رأى أن الرومان يتحركون في مائتي ألف مقاتل تسندهم عشرات الآلاف من سلاح الفرسان، وأن مكان تجمعهم هو منطقة مأب.

وعند الإحاطة بهذا التقرير الخطير قفز أمام القائد العام سؤال: (هل يمكن لثلاثة آلاف مقاتل أن يصمدوا ويثبتوا في وجه مائتي ألف مقاتل، فضلاً عن أن يهزموهم ويتغلبوا عليهم).

ولم يتسرع القائد العام المسؤول عن هذا الجيش الصغير في الإجابة على هذا السؤال، بل - لسمع الإجابة القاطعة على هذا السؤال الخطير - دعا جميع أمراء الجيش وقادة الكتائب ورؤساء القبائل إلى اجتماع عاجل لمبحث هذا التطور الخطير الذي لم يكن متظراً.

المجلس العسكري في معان:

وفي هذا المجلس العسكري الذي حضره كل قادة الجيش عرض القائد العام كامل التفاصيل التي نقلها إليه جهاز استخباراته العسكرية عن مدى قوة العدو ومكان تجمعهم، وطلب منهم في هذا المجلس أن يتخذوا قراراً حاسماً لمواجهة الموقف الخطير، فالرومان ومن تابعهم من المرتزقة قد احتشدوا في جيش لجب جرار قوامه مائتا ألف مقاتل، بينما جيش الإسلام لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل.

اختلاف قادة الجيش في معان:

وأثناء اجتماع قادة الجيش الإسلامي لمبحث الموقف انقسم القادة إلى قسمين: قسم يرى التريث وعدم مصادمة الرومان حتى يُشعروا النبي ﷺ بحقيقة الوضع الحرج الذي يواجهونه ويطلبوا منه المدد، ويستأذنه في مصادمة هذه الجيوش الهائلة؛ لأن هذا الفريق يرى أن اشتباك

(١) معان - بالفتح، وآخره نون - وهي مدينة في أطراف الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء، وهي عاصمة إقليم الشراة، ومفترق طرق. ومعان اليوم إحدى مدن الأردن المزدهرة، ويبلغ عدد سكانها حوالي خمسة وعشرين ألف نسمة، وجدير بالذكر أن معان تبعد عن المدينة المنورة حوالي (٨١٠) كيلاً، وعن مؤتة حوالي (١٥٠) كيلاً. (ينظر: البكري: معجم ٤/ ١١٧٢ - ١٢٤١، الحموي: معجم ٥/ ١٣٥، البلاوي: معجم ٣٠٠، رحلات في بلاد العرب ١٤٧، علي العتوم: تجربة مؤتة ٢٨ نقلاً عن الدستور الأردنية ١٠/ ٩/ ١٩٨٤ م ص ٧).

ثلاثة آلاف في معركة حاسمة مع مائتي ألف مقاتل يمثل أخطر مغامرة في تاريخ الحروب؛ ولهذا رأى الثاني والترث حتى يأتي القول الفصل من النبي والقائد الأعلى للجيش في المدينة. أما الفريق الثاني فقد كان يرى المضي والإسراع بمصادمة العدو أيًا كانت النتائج، أليس كلا الأمرين (النصر أو الشهادة) فوزًا للمسلم المجاهد في سبيل الله؟ فلتكن المصادمة إذًا، فالفوز مضمون حسب مقاييس مفهوم الجهاد عند المسلمين.

وكان النائب الثاني للقائد العام (عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه) على رأس الفريق من القادة المتحمسين للصدام الفوري مع العدو دون استطلاع رأي القيادة العليا في المدينة أو حتى انتظار المدد منها. لأن هذا الفريق يرى أن الرومان وحلفاءهم ومرزقتهم - وقد أصبحوا على مقربة منهم - لن يتركوا المسلمين حتى يتصلوا بالمدينة، بل سيهاجمونهم بأسرع ما يمكن، لا سيما وأن الجيش الإسلامي قد أصبح متوغلاً مسافة أكثر من خمسين ميلاً داخل الشام، التي يعتبرها الرومان إحدى ممتلكات إمبراطوريتهم العظيمة التي ترى نفسها أقوى دولة في العالم.

وكان المنطق - من الناحية العسكرية - إلى جانب الفريق الثاني؛ لأن جيش الإسلام - وقد أصبح على مسافة قريبة من مكان تجمع الجيوش الرومانية - يحتم عليه الظرف العسكري الخطير القائم بأحد أمرين لا ثالث لهما:

إما التراجع والعودة إلى جزيرة العرب دون أن يلقي المسلمون عدوهم، وهذا ما لا يمكن فعله أبداً؛ لأنه ليس في تعليمات القائد الأعلى النبي ﷺ شيء يمكن الاستناد إليه لتبرير هذا التراجع.

وإما الصدام الفوري مع الرومان الذين إن لم يسارع المسلمون إلى مصادمتهم سيقومون هم بالهجوم على المسلمين حيث توقفوا في مدينة معان. [غزوة مؤتة لباشميل ١٧٣-١٧٥].

تَخَوُّفُ النَّاسِ مِنْ لِقَاءِ هِرَقْلَ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ مَضَوْا حَتَّى نَزَلُوا مَعَانَ، مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، فَبَلَغَ النَّاسُ أَنَّ هِرَقْلَ قَدْ نَزَلَ مَابَ^(١)، مِنْ أَرْضِ الْبَلْقَاءِ، فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ، وَأَنْصَمَ إِلَيْهِمْ مِنْ لَحْمٍ وَجُدَامٍ وَالْقَيْنِ وَبَهْرَاءٍ وَبِلِيٍّ مِائَةُ أَلْفٍ مِنْهُمْ، عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ بِلِيٍّ ثُمَّ أَحَدُ إِرَاشَةَ، يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ بْنُ زَافَلَةَ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ (أي بأمر

(١) مآب - بعد الهزمة المفتوحة ألف، وباء موحدة - وهي مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء، افتتحها أبو عبيدة رضي الله عنه في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه سنة ثلاث عشرة، وجاء في تقويم البلدان: أن مآب مدينة قديمة قد بادت، وصارت قرية تُسَمَّى الربة، وهي من معاملة الكرك على أقل من نصف مرحلة إلى الشمال منها، وهي اليوم قرية صغيرة حيّة من محافظة الكرك. ينظر: الحموي: معجم ٣١/٥، الملك المؤيد: تقويم البلدان ٤٧، علي العتوم: تجربة مؤتة ٣٩. غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشبالية لبريك ٢٩١.

جموعهم المتفوقة عليهم فواقاً ساحقاً) أقاموا على معانٍ ليلتين يُفكِّرون في أمرهم، وقالوا: نكتبُ إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمددنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٥].

وقال الواقدي: «ومضى المسلمون من المدينة، فسمع العدو بمسيرهم عليهم قبل أن يتجهوا إلى مقتل الحارث بن عمير رضي الله عنه، فلما فصل المسلمون من المدينة سمع العدو بمسيرهم، فجمعوا الجموع، وقام فيهم رجل من الأزد يقال له شر حيل بالناس، وقدم الطلائع أمامه، وقد نزل المسلمون وادي القرى وأقاموا أياماً، وبعث أخاه سدوس وقتل سدوس، وخاف شر حيل بن عمرو فتحصن، وبعث أخاه يقال له وبر بن عمرو، فسار المسلمون حتى نزلوا أرض معانٍ من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل ماب من أرض البلقاء في بهراء ووائل ويكر ولحم وجذام في مائة ألف، عليهم رجل من بني يقال له مالك، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا ليلتين لينظروا في أمرهم، وقالوا: نكتبُ إلى رسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فإما يزدنا وإما يزيدنا رجالاً». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٠].

يقول د/ بريك: «ويذكر الوليد بن مسلم أن بعض المسلمين نصح زيداً رضي الله عنه بالانصراف، مكتفياً بما حققه من مكاسب معنوية، قائلاً له: «قد وطئت البلاد، وأخفت أهلها، فانصرف، فإنه لا يعدل العافية شيء، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه ساكت، فسأله زيد رضي الله عنه رأيه فقال: إننا لم نسر إلى هذه البلاد ونحن نريد الغنائم، ولكننا خرجنا نريد لقاءهم، ولسنا نقاتلهم بعدد ولا عُدَّة، فالرأي المسير إليهم».

[أخرجه ابن عساکر - تاريخ دمشق ٢/ ١٥، من رواية ابن عائذ عن الوليد بن مسلم، ولكنه منقطع].

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢٩٢].

تشجيع ابن رواحة رضي الله عنه الناس على القتال:

قال ابن إسحاق: فشجع الناس عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وقال: يا قوم، والله إن النبي تكررهم، للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإما هي إحدى الحسينين: إما ظهور، وإما شهادة.

قال: فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة، فمضى الناس. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٥].

قال الواقدي: «فبينما الناس على ذلك من أمرهم جاءهم ابن رواحة رضي الله عنه فشحجهم، ثم قال: والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيول إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، انطلقوا، والله لقد رأينا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، وإما هي إحدى الحسينين: إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبينا، وليس لوعده خلف، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان.

فَشَجَعَ النَّاسُ عَلَى مِثْلِ قَوْلِ ابْنِ رَوَاحَةَ عليه السلام. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٠].

يقول د/ بريك: «وَقَبِلَ زَيْدٌ عليه السلام رَأْيَهُ وَسَارَ إِلَيْهِمْ.

»لقد حَرَّضَ عبد الله بن رواحة المسلمين على القتال لأغراضٍ عقديَّة، فكان تحريضه خطأً بالنسبة للمقاييس المادية، ولكنه كان عين الصَّواب بالنسبة للجهاد والحرب العادلة التي كان يخوضها المسلمون حينذاك». [القادة الشهداء لخطاب ١٨٢-١٨٣].

حماسة ابن رواحة عليه السلام وتغنييه الشهادة:

ولكي نعرف مدى اندفاع عبد الله بن رواحة عليه السلام وحماسه لخوض حرب عقائدية إيمانية هدفها إعلاء كلمة الله تعالى، وإعزاز دينه، وأقصى ما يتمناه فيها هو نيل شرف الشهادة، وبذل روحه رخيصة في سبيل الله تعالى، فلنستمع إلى ما يحدثنا به زيد بن أرقم عليه السلام، وكان من المشاركين في مؤتة.

[غزوة مؤتة والسرابة والبعوث الشمالية لبريك ٢٩٤].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ مَضَى النَّاسُ فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ عليه السلام قَالَ: كُنْتُ يَتِيمًا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ عليه السلام فِي حَجْرِهِ، فَخَرَجَ بِي فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ مُرْدِفِي عَلَى حَقِيْبَةٍ (الحقيبة: ما يجعله الراكب وراءه) رَحْلِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَيَسِيرُ لَيْلَةً إِذْ سَمِعْتُهُ وَهُوَ يُنْشِدُ آيَاتَهُ هَذِهِ:

إِذَا أَدْبَتْنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي	مَسِيرَةَ أَرْبَعِ بَعْدَ الْحِسَاءِ ^(١)
فَشَأْنُكَ أَنْعَمَ وَخَلَاكَ ذَمٌّ	وَلَا أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي ^(٢)
وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ وَعَادُرُونِي	بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهِي الثَّوَاءِ ^(٣)
وَرَدَّكَ كُلُّ ذِي نَسَبٍ قَرِيبٍ	إِلَى الرَّحْمَنِ مُنْقَطِعِ الْإِحْوَاءِ
هُنَالِكَ لَا أَبْالِي طَلْعَ بَعْلِ	وَلَا نَخْلٍ أَسَافِلُهَا رِوَاءِ ^(٤)

فَلَمَّا سَمِعْتُهُنَّ مِنْهُ بَكَيْتُ، قَالَ: فَحَقَّقَنِي بِالْذَّرَّةِ (خففتني: أي ضربني. والذرة: السوط)، وَقَالَ: مَا عَلَيْكَ يَا لُكْعُ (اللُكْع: اللثيم) أَنْ يَرْزُقَنِي اللَّهُ شَهَادَةً وَتَرْجِعَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ الرَّحْلِ! (شعبتا الرحل: طرفاه المقدَّم والمؤخَّر).

قَالَ: ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ عليه السلام فِي بَعْضِ سَفَرِهِ ذَلِكَ وَهُوَ يَرْجُو:

- (١) الحساء: جمع حسي، وهو ماء يغور في الرمل حتى يجد صخرًا، فإذا بُحِثَ عنه وُجِدَ، يريد مكانًا فيه الحساء.
- (٢) فشانك أنعم: يريد ألا يكلفها سفرًا بعد ذلك، وغنا نعم مطلقة، لعزمه على الموت في سبيل الله تعالى. ولا أرجع: هو مجزوم على الدعاء، دعا على نفسه أن يُستشهد ولا يرجع إلى أهله.
- (٣) الثَّوَاء: نوى بالمكان ثواء إذا أطال الإقامة به أو نزل فيه. القاموس المحيط ٤/ ٣١٠.
- (٤) البعل: الذي يشرب بعروقه من الأرض. ورواء (بكسر الهمزة): صفة النخل.

يَا زَيْدُ زَيْدَ الْبِعْمَلَاتِ الذَّبَلِ تَطَاوَلَ اللَّيْلُ هُدَيْتَ فَاَنْزِلِ^(١)

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَكَانَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ ۖ يَقُولُ: كُنْتُ فِي حَجْرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ۖ فَلَمْ أَرِ وَالِي يَتِيمٍ كَانَ خَيْرًا مِنْهُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي وَجْهِهِ إِلَى مُؤَتَةَ، وَصَبَّ بِي وَصَبَّتُ بِهِ، فَكَانَ يُرِدُّنِي خَلْفَ رَحْلِهِ، فَقَالَ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بَيْنَ شُعْبَتَيْ الرَّحْلِ وَهُوَ يَتَمَثَّلُ آيَاتٍ شِعْرِي:

إِذَا بَلَغْتَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي مَسَافَةً أَرْبَعَ بَعْدَ الْحِسَاءِ
فَرَاذُكَ أَنْعَمَ وَخَلَاكَ دَمٌّ وَلَا أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي وَرَأْسِي
وَأَبَ الْمُسْلِمُونَ وَعَادِرُونِي بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهَى النَّوَاءِ
هُنَالِكَ لَا أَبَالِي طَلَعَ نَخْلٍ وَلَا نَخْلٍ أَسَافِلُهَا رِوَاءِ

فَلَمَّا سَمِعْتُ هَذِهِ الْآيَاتَ بَكَيْتُ، فَخَفَفَنِي بِيَدِهِ، وَقَالَ: مَا يَضُرُّكَ يَا لُكْعُ! أَنْ يَرْزُقَنِي اللَّهُ الشَّهَادَةَ، فَأَسْتَرِيحَ مِنَ الدُّنْيَا وَنَصَبِهَا وَهُمُومِهَا وَأَحْزَانِهَا وَأَحْدَانِهَا، وَيَرْجِعُ بَيْنَ شُعْبَتَيْ الرَّحْلِ، ثُمَّ نَزَلَ نَزْلَةً مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وَعَاقِبَهُمَا دُعَاءٌ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا غُلَامُ، فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ، قَالَ: هِيَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ الشَّهَادَةُ». [المغازي للواقدي ٧٥٩/٢].

الحماسة الشاعرية لابن رواحة ۞:

وكما اندفع عبد الله بن رواحة ۞ بفورة حماس إيبانية زخمة، اندفع - أيضًا - بفورة حماس شاعرية رائعة، راح يُصَوِّرُ فيها مقام المسلمين في معان، ثُمَّ انطلقهم بقوة وحماس إيباني نحو عدوهم المتربص في مآب.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ۞ فِي مُحَبِّسِهِمْ ذَلِكَ:

جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَجْبٍ وَفَرَعٍ تُغَرُّ مِنَ الْحَشِيشِ لَهَا الْعُكُومُ^(٢)

(١) البعلمات: جمع بعملة، وهي الناقة السريعة. والذبل: التي أضعفها السير، فقلَّ لحمها.

ذكره ابن هشام (سيرة ٣٧٦-٣٧٧) من حديث ابن إسحاق، حدَّثني عبد الله بن أبي بكر أنه حَدَّثَ عن زيد بن أرقم وسنده فيه مبهم. وقد أخرج ابن عساكر (تاريخ دمشق، عبد الله بن جابر، وعبد الله بن زيد ص ٣٤٨) بسنده عن الزهري بعضه. وأخرج البعض الآخر بسنده عن ابن إسحاق موصولاً ومختصراً، إلى زيد، وسنده حسن. مجمع الزوائد ٦/ ٢٣٢-٢٣٣ كتاب المغازي والسير باب غزوة مؤتة رقم ١٠٢٢٠، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [في الجزء المفقود]، ورجاله ثقات إلى عروة.

(٢) أجأ: أحد جبلي طيب، والآخر: سلمى. فرع: اسم موضع من وراء القرك، وقال ياقوت: «الفرع: أطول جبل بأجأ وأوسطه» وظاهر أن هذا هو المراد هنا. تغر: تطعم شيئاً بعد شيئاً. العكوم: جمع عكم، وهو الجنب.

حَذَوْنَاهَا مِنَ الصَّوَانِ سَبْتًا أَزَلَّ كَأَنَّ صَفْحَتَهُ أَدِيمٌ^(١)
 أَقَامَتْ لَيْلَتَيْنِ عَلَى مَعَانٍ فَأَغْقَبَ بَعْدَ فَرْتَمَتَا جُجُومٍ^(٢)
 فَرَحْنَا وَالْجِيَادُ مُسَوَّمَاتٌ نَنَفَسُ فِي مَتَاخِرِهَا السَّمُومُ^(٣)
 فَلَا وَآبِي مَابَ لِنَأْتِيَنَهَا وَإِنْ كَانَتْ بِهَا عَرَبٌ وَرُومٌ^(٤)
 فَعَبَانَا أَعْيَتْهَا فَجَاءَتْ عَوَاسٍ وَالْغُبَارُهَا بَرِيمٌ^(٥)
 بِذِي لَجَبٍ كَأَنَّ الْبَيْضَ فِيهِ إِذَا بَرَزْتَ قَوَانِسُهَا النَّجُومُ^(٦)
 فَرَاضِيَةُ الْمَعِيشَةِ طَلَّقَتْهَا أَسْتَهَا فَتَنَكَّحُ أَوْ تَيْيَمُ^(٧)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: «وَيُرْوَى: جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَجَامٍ قُرَحٍ»^(٧)، وَقَوْلُهُ «فَعَبَانَا أَعْيَتْهَا» عَنْ غَيْرِ ابْنِ إِسْحَاقَ.
 [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٥-٣٧٦].

اتفاق أركان الجيش على مصادمة الرومان:

يقول أبو بشميل: «وبعد نقاش وبحث ومداولة بين هيئة أركان حرب الجيش استمرت في معان يومين كاملين، مالت الأكثرية من هيئة أركان حرب الأركان إلى الأخذ بالرأي الداعي إلى الصدام الفوري دونما الرجوع إلى المدينة لتلقي التعليمات منها من جديد.

(١) قال أبو ذر: «حذوناها: جعلنا لها حذاء، وهو النعل. الصوان: حجارة ملمس، واحدها صوانة. السبت: النعال التي تُصنع من الجلود المدبوغة. أزل: أي أملس صفحته ظاهرة. والأديم: الجلد». وقال السهيلي: «أي: حذوناها نعالاً من حديد، جعله سبباً لها مجازاً. وصوان من الصون أي: يصون خوافرها، أو أخفافها، إن أراد الإبل فهو فعال من الصون، فقد كانوا يجذونها السريع، وهو جلد يصون أخفافها، وأظهر من هذا أن يكون أراد بالصوان: يبيس الأرض، أي: لا سبت له إلا ذلك».

(٢) الفترة: الضعف والسكون. الجموم: استراحة الفرس، والمراد به هنا: اجتئاع القوة والنشاط بعد الراحة.

(٣) مسومات: أي مراسلات. السموم: الريح الحارة.

(٤) البريم في الأصل: خيطان مختلطان أحمر وأبيض، تشدهما المرأة على وسطها أو عضدها، وكل ما فيه لونان مختلطان فهو بريم أيضاً، يريد ما علاها من الغبار، فخالط لونه لونها، والدمع المختلط بالأثمد، وهو أقرب لمعنى البيت، أي أن دموع الخيل اختلطت بالتراب فصارت كالبريم.

(٥) ذي لجب: أي جيش. اللجب: اختلاط الأصوات وكثرتها. البيض: ما يوضع على الرأس من الحديد. القوانس: جمع قونس، وهو أعلى البيضة.

(٦) تميم: تبقى دون زوج، يقال: آمت المرأة إذا لم تتزوج.

(٧) قرح: هو موضع كان بوادي القرى من صدره، فغلب عليه اسم العُلا لأنه أعلى الوادي، وكان سوفاً مشهورة في الجاهلية، وهو اليوم مدينة العُلا. (البلادي: معجم المعالم ٢٥٠، ومرداد: مدائن صالح ٦٤). غزوة مؤتة لبريك ٢٩٦.

وكان لموقف النائب الثاني للقائد العام «عبد الله بن رواحة الأنصاري ؓ» الأثر الأكبر في اتخاذ هيئة أركان الجيش قرارًا حاسمًا إجماعيًا بمصادمة الجيوش الرومانية صدامًا فوريًا ودونها أي تردد. فعلى الرغم مما في دعوة القائد عبد الله بن رواحة ؓ من مغامرة خطيرة فقد أثرت كلماته البليغة في نفوس الجيش وأثارت حماسهم، فوافق جميع الأمراء والقادة قائلين: صدقت. وهكذا أجمعوا على الأخذ بالرأي القائل بمصادمة الجيوش الرومانية مهما كانت النتائج. وعقب هذا القرار الذي اتخذته هيئة أركان حرب الجيش الإسلامي في «معان» أصدر القائد العام زيد بن حارثة ؓ أوامره إلى فرق الجيش وكتائبه بالتحرك لملاقاة الرومان والعرب المنتصرة في البلقاء من أرض الشام.

وفي الوقت نفسه كان الرومان والعرب المنتصرة يتحركون بقواتهم الهائلة لملاقاة المسلمين ومهاجمتهم بقيادة القائد تيودور أخي الإمبراطور». [غزوة مؤتة لباشميل ١٧٥، ١٧٦].

التحرُّشات العدائية التي تعرَّض لها المسلمون في طريقهم إلى مؤتة:

يقول د/ بريك: «ومضى زيد ؓ بالجيش، فسار بهم في مناطق تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية، فكان من الطبيعي أن تعرَّضوا لبعض التحرُّشات العدائية من أهل تلك البلاد الذين كانوا يدينون بولائهم سياسيًا، وعقائديًا، للدولة البيزنطية، وإن كانت بينهم خلافات مذهبية متأصلة (كان نصارى الشام يعاقبة، ونساطرة، وهم يخالفون مذهب الدولة البيزنطية الملكاني)، ولكنهم اتَّحدوا ضد المسلمين.

فيذكر ابن عائد بسندٍ منقطعٍ ساقه إلى بعض أهل تلك المنطقة من بني سلامان أن زيد بن حارثة ؓ سار بالمسلمين: (على جبال بين الشراة والبلقاء، على ريفها وعمارتها، فمر بقرية من قرى الجبال، يُقال لها: أكثب (لم أجد لها ترجمة في كتب البلدان)، فشَدَّ أهلها على ساقه (الساقه: مؤخرة الجيش) المسلمين فأصابوهم بجراحة، وقتلوا رجلًا من المسلمين، فبلغ ذلك جماعة الجيش، فاستأذنوا زيد بن حارثة ؓ في الرجعة إليهم والانتقام منهم، فقال زيد: لا أرى ذلك؛ لأنَّ عدوَّكم أمامكم قد جمعوا لكم، ودنوا منكم، فأكره أن تغلُّوا حدَّكم ونشاطكم (أي: تضيِّعوا نشاطكم وقوَّتكم) بقتال غيرهم، ثُمَّ لا آمن أن يجمعوا لكم فيكونوا من ورائكم، فتكونوا بين عسكرين). [أخرجه ابن عساكر (تاريخ دمشق، المجلدة الأولى ص ٣٩٦) من حديث ابن عائد عن الوليد بن مسلم، ولكنه منقطع].

لقد كان رأي زيد ؓ: المضي قُدُمًا، وعدم استنزاف قوة المسلمين في قتالٍ قد يُعيق تقدُّمهم نحو عدوهم، وربَّما كان ذلك سببًا لوقوع المسلمين بين فكيِّ كَماشة.

وقد مرَّ بنا سابقًا في روايتي الواقدي، وابن سعد، تلك التحرُّشات العدائية التي قام بها شرحبيل بن عمرو الغساني - الذي جمع جموع العرب المنتصرة - وذلك بإرساله الطلائع لتعيق تقدم المسلمين، ولكن محاولاته باءت بالفشل الذريع، حيث قُتل المسلمون أخاه سدوس، قائد الطليعة الأولى، مما أثار الدُّعْر والهلع في قلب شرحبيل، فتحصَّن". [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢٩٨-٢٩٩].

المبحث الخامس

وصف المعركة

تحصن المسلمين في مؤتة:

يقول أ/ باشميل: «لا شك أن قائد جيش المسلمين زيد بن حارثة رضي الله عنه وهيئة أركان حربه - بعد أن بلغهم عدد الجيش الروماني ومسانديه من العرب المنتصرة - وقد وضعوا في حسابهم - وهم يرسمون الخطة للمعركة - أسلوب التطويق الذي قد يلجأ إليه القائد الروماني (تيودور) ليسهل عليه القضاء على المسلمين إما بإبادتهم أو إجبارهم على الاستسلام.

وفي حساب المقاييس الحربية العادية المجردة ليس من الصعب - بل من أيسر الإجراءات - على مائتي ألف مقاتل مجهزة أحسن تجهيز ومسلحة أحسن تسليح، أن تقوم بتطويق ثلاثة آلاف وإبادتها عن آخرها، أو إجبارها على الاستسلام، ذلك منطق عسكري لا غبار عليه، وذلك دونما شك هو الذي على أساسه يكون القائد الروماني (تيودور) قد وضع خطته للمعركة التي ما كان يتصور أنها ستدوم أكثر من ساعة أو بعض ساعة - يتم فيها لجيشه العرمرم اللجب (مائتي ألف مقاتل) أن يمحو من الوجود جيش المسلمين الصغير جداً (ثلاثة آلاف مقاتل).

ولا أعتقد أن أحداً يستطيع مناقشة القائد الروماني (تيودور) عندما يقرر - سلفاً - أن الفناء الكامل لجيش الإسلام في اللقاء أو الاستسلام حتى آخر جندي على قيد الحياة هو النتيجة الحتمية للمعركة التي غامر قادة الجيش الإسلامي «وكلمة مغامرة هنا تستوفي كل معانيها» عندما قرروا خوضها، بعد علمهم - مفصلاً - بحقيقة أعداد جيش الرومان الهائلة الغامرة.

ففي الجيش الروماني ومن يسانده من عرب (الكومنولث البيزنطي) أعني العرب المنتصرة، ما لا يقل عن خمسين ألف فارس، يتبعهم مائة وخمسون ألف مقاتل من المشاة، كلهم غائص في الحديد يتسربلون أحسن الدروع ويعتمرون أجود الخوذات، فالجيش الروماني من مختلف الأجناس كان - حتى يوم معركة مؤتة - من أحسن وأكمل جيوش العالم دربة وتسليحاً.

ولكي يجنب القائد الإسلامي زيد بن حارثة رضي الله عنه جيشه الصغير خطر التطويق وقطع الرجعة أثناء القتال، انحاز إلى قرية لها «مؤتة» وعسكر فيها لتكون حائلاً بين الرومان وبين ما يهدفون إليه من اتباع أسلوب التطويق، وقد تحصن جيش المسلمين في قرية مؤتة». [غزوة مؤتة لباشميل ١٨٠-١٨١].

تعبئة المسلمين:

يقول د/ بريك: «تحرّك المسلمون نحو جيوش الروم، وحلفائهم من القبائل، فحصل التماس الأوّل في تخوم البلقاء» ولكن المسلمين رأوا أنّ منطقة قرية مؤتة، بين الكرك^(١) والطفيلة^(٢)، أنسب لقبول المعركة فيها، وذلك لوجود العوارض الطبيعية التي يستطيعون التحصّن بها، نظرًا لقلّة قوتهم بالنسبة إلى الأعداء». [خطّاب: الرسول القائد ﷺ ٣٠٧، وينظر: ابن هشام: سيرة ٣٧٧/٤].

فما «من شكّ أنّ قوة العدو كانت أضخم كثيرًا من قوة الجيش الإسلامي، وإن لم تبلغ العدد الذي ذكره الإخباريون، وكان التكافؤ منعقدًا بين القوتين من حيث العدد، ومن حيث عدّة الحرب». [الشريف: مكة والمدينة ٥٣٥].

وفي مؤتة تعبأ المسلمون، ونظّموا صفوفهم.

قال ابن إسحاق: «فَمَضَى النَّاسُ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِتُخُومِ الْبَلْقَاءِ لَقِيَتْهُمْ جُمُوعٌ هَرَقَلْ مِنَ الرُّومِ وَالْعَرَبِ، بِقَرْيَةٍ مِنْ قَرَى الْبَلْقَاءِ يُقَالُ لَهَا مَسَارِفٌ، ثُمَّ دَنَا الْعَدُوُّ، وَأَنْحَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا مُؤَتَّةٌ، فَالْتَقَى النَّاسُ عِنْدَهَا، فَتَعَبَّأَ لَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، فَجَعَلُوا عَلَى مِثْمَتِهِمْ رَجُلًا مِنْ بَنِي عُذْرَةَ، يُقَالُ لَهُ: قُطْبَةُ بْنُ قَتَادَةَ ﷺ^(٣)، وَعَلَى مِيسَرَتِهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: عُبَادَةُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ».

قال ابن هشام: وَيُقَالُ: عُبَادَةُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ (ولم أعر على ترجمته). [السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٧/٢].

وقد لاحظ المسلمون تفوّق الروم وحلفائهم عليهم، ولكنهم لم يكتروا بذلك.

[خطّاب: الرسول القائد ﷺ ٣٠٧]. [غزوة مؤتة والسرّايا والبعوث الشمالية لبريك ٣٠٣-٣٠٤].

وبعد الانحياز إلى قرية «مؤتة» والتحصن فيها، قام زيد بن حارثة ﷺ «القائد العام» بتعبئة جيشه أحسن تعبئة.

(١) الكرك: بفتح أوّله وثانيه، وهي مدينة تاريخية تقوم على مجموعة من الجبال التي يتخلّلها وادٍ عميق، وفيها القلعة الحصينة المشهورة، وهي على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلاّ من جهة الرّض، وكان الصليبيون احتلّوها فأخافوا الحجاج المارّين بهذا الطريق، وقد هاجمها صلاح الدّين حتّى قُتِلَتْ صُلْحًا عام ٥٨٤ هـ، وهي اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية. ينظر: ياقوت: معجم ٤/٤٥٣، البلادي: رحلات ١٥١-١٨٥، لانكستر هاردنج: آثار الأردن ١٢٩-١٣٠.

(٢) الطفيلة: بلدة رائعة الجمال بساتينها ومناظرها الخلّابة، تبعد خمسين كيلًا عن مؤتة، ولها طريق يذهب جنوبًا إلى أذرح، فمعان، وطريق يذهب شمالًا إلى مؤتة، فالكرك. علي العتوم: تجربة مؤتة ٨٥، البلادي: رحلات ١٥١.

(٣) قطبة بن قتادة العذري ﷺ. ذكره ابن إسحاق فيمن شهد مؤتة، وأنشد له فيها شعراء، وجوّز ابن الأثير أن يكون هو قطبة بن قتادة السدوسي، وفيه بُعِدَ (ابن حجر: إصابه ٢٣٨/٣).

حراجة موقف المسلمين بمؤتة:

يقول أ/ باشميل: «أما جيوش الرومان والعرب المنتصرة والمرترقة الإغريق فقد أخذت تتدفق على (مؤتة) حيث يتحصن الجيش الإسلامي، أخذت تتدفق في زهو وخيلاء وغرور، وكأنها أمواج بحر متلاطم، وجيش الإسلام الصغير المرباط في (مؤتة) كأنه جزيرة صغيرة مهددة بالغرق في محيط ذلك البحر المتلاطم من الكتائب الرومانية ومسانديها من غير الرومان. حقًا لقد كانت الحالة - بالنسبة للمسلمين - حالة مخيفة مفزعة تثير الخوف والرعب وتزيغ العقول والأبصار.

ولقد عبّر أبو هريرة رضي الله عنه - وكان ممن حضروا معركة مؤتة - عبّر عن هذه الحقيقة المفزعة كما روى الواقدي بسنده «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: شَهِدْتُ مُؤْتَةَ، فَلَمَّا رَأَيْنَا الْمُشْرِكِينَ رَأَيْنَا مَا لَا قَبْلَ لَنَا بِهِ مِنَ الْعَدَدِ وَالسَّلَاحِ وَالْكَرَاعِ وَالْدِّيَابِجِ وَالْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ، فَبَرَقَ بَصَرِي، فَقَالَ لِي ثَابِتُ بْنُ أَقْرَمَ رضي الله عنه: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا لَكَ؟ كَأَنَّكَ تَرَى جُوعًا كَثِيرًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ لَمْ تَشْهَدْ نَابِذَرٍ؟ إِنَّا لَمْ نُنْصَرْ بِالْكَثْرَةِ!». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٠].

ولا لوم على أبي هريرة رضي الله عنه - كبر - أن يصل به الخوف إلى تلك الدرجة من الذهول، إن الإنسان عندما يقيس الموقف في «مؤتة» بالمقاييس العسكرية التقليدية، يأخذ العجب منه كل مأخذ: كيف يتورط ثلاثة آلاف مقاتل في مصادمة مائتي ألف مقاتل يفوقونهم في كل شيء مادي؟

لقد كان على كل جندي مسلم أن يقاتل في (مؤتة) سبعين من جنود الجيش الروماني.

لقد كان بوسع قادة الجيش الإسلامي الصغير أن يعودوا بالجيش إلى المدينة عندما تلقوا وهم في (معان) تقارير استخباراتهم العسكرية عن الحشود الرومانية الهائلة تلك، ولو عادوا أدراجهم لما كان عليهم من لوم، ولكنهم - مع استطاعتهم التراجع دونما قتال - قرروا الاصطدام بالجيش الروماني، فزحفوا حتى اصطدموا به.

أكبر مغامرة حربية في التاريخ:

حقًا إنها لأكبر مغامرة حربية في التاريخ «دونما جدال» تلك التي أقدم عليها قادة الجيش الإسلامي الصغير في «مؤتة».

ففي القوانين والأعراف العسكرية بين الأمم الأخرى يعتبر ما أقدم عليه قادة الجيش النبوي في «مؤتة» بالشام - ضربًا من الانتحار، تعاقب عليه القوانين العسكرية.

فلو أقدم على ما أقدم عليه زيد بن حارثة رضي الله عنه وهيئة أركان حربه المسؤولون في «مؤتة» قائد عسكري في جيش نظامي في هذا العصر لُقِّدَ للمحاكمة العسكرية بتهمة تعريض جنوده لموت محقق، فثلاثة آلاف

مقاتل لا تسمح القوانين العسكرية لمن يقودهم أن يواجه بهم مائتي ألف مقاتل، مع قدرته على تجنب هذه المواجهة.

ولكن الحال يختلف بالنسبة للمسلمين «ونعني المسلمين الذين ينطلقون في قتالهم من منطلق مفهوم الجهاد في الإسلام» وهو المفهوم الذي على أساسه دخل القادة «زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله رواحة رضي الله عنه» معركة مؤتة، وخاضوا أتونها بثلاثة آلاف مقاتل ضد مائتي ألف مقاتل.

فالموت في سبيل الله هو غاية ما يتمنى المسلم الصادق؛ لأنه موقن أن موته في سبيل الله سينتقل به إلى حياة في الدار الآخرة حيث الخلود في النعيم الذي لا يمكن وصفه أو تصويره.

ومن هذا المنطلق كانت دعوة عبد الله بن رواحة الذي حث قادة الجيش وشجعهم حينما ترددوا في «معان» على مصادمة الجيش الروماني رغم تفوقه الساحق حينما أشار إلى أن موتهم مجاهدين في سبيل الله إنما يعني الالتحاق بإخوانهم الشهداء في جنات النعيم، وهذا غاية ما يتمنى المسلم فلماذا الخوف والتردد إذن؟

نشوب المعركة الطاحنة:

كان القادة الثلاثة لجيش الإسلام (زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه) في الصف الأول وفي القلب، وذلك هو الأسلوب المتبع عند المسلمين لخوض المعارك، القائد العام وهيئة أركان حربه - دائماً - يكونون في القلب في الصف الأول في مواجهة العدو.

لقد كانت معركة «مؤتة» معركة رهيبة، وكان إقدام المسلمين على خوضها مع ذلك التفاوت العظيم، هو - كما قلنا - مخاطرة عظيمة لم يشهد التاريخ مثلها.

وقد دفع المسلمون الثمن غالياً - دونما شك - لهذه المخاطرة، تمثل هذا الثمن الغالي - بصورة رئيسة - في مصرع قادة الجيش الرئيسيين الثلاثة الواحد بعد الآخر، وبأسلوب تمثلت فيه أرقى معاني البطولة واسترخاض الأرواح في سبيل الله.

لقد صمد المسلمون في معركة مؤتة صموداً هو أروع ما يصنع الإيمان الصادق، وعلى المرء إذا أراد أن يتبين حقيقة هذا الصمود والفداء، عليه أن يتصور ثلاثة آلاف مقاتل وهم يصارعون مائتي ألف مقاتل تتدفق كتابهم الغائصة في الحديد كما تتدفق أمواج البحر الهادر، وليس هناك من يواجهها على مشارف قرية «مؤتة» سوى ثلاثة آلاف مقاتل، أكثرهم حاسر من الدروع.

كانت النتيجة مضمونة وهي النصر للرومان ولكن:

لقد كانت نتيجة الصدام في (مؤتة) مضمونة للرومان وهي النصر الساحق بإبادة الجيش الإسلامي إبادة كاملة، وذلك حسب المقاييس والمفاهيم العسكرية العادية.

فثلاثة آلاف مقاتل - مهما كان المستوى الذي هم عليه من الشجاعة وقوة البأس والصبر عند اللقاء - لا يمكنهم الصمود في وجه مائتي ألف مقاتل يفوقونهم - مع هذا العدد الغامر - في كثرة العتاد وجودة التسليح، بل - حسب هذه المقاييس والمفاهيم - لا يمكنهم الإفلات من قبضة الجيش الروماني الذي لديه فقط من سلاح الفرسان حوالي خمسين ألف فارس.

ولكن الإيمان وصحة العقيدة والاستبسال في سبيل الله يعكس المفاهيم ويقلب المقاييس التقليدية للحروب، فهو يثبت كل مرة أن كثرة العدد ووفرة السلاح - وحتى الإلمام الكامل بالعلوم العسكرية، التكنولوجيا (حجة المهزومين أمام شراذم اليهود في حزيران الأسود) - ليس هو الذي يكفل النصر المؤزر الساحق، وأن عدم توفر كل ذلك للمقاتلين ليس هو - دائماً - الذي يصنع الهزائم، وإنما عدم توفر كل ذلك النصر ويحققه، أو يصنع الصمود الذي يحول دون الهزائم الماحقة - ساعة التفاوت الهائل في كل شيء - إنما هو الإيمان، الإيمان بالله تعالى واستشراب القلوب عقيدة القرآن الوضاعة المشرقة، لا عقيدة ملوكس ولينين الهدامة المظلمة.

إن روعة المقاومة الإسلامية في معركة «مؤتة» التاريخية، والتي يسرت للمسلمين انسحاباً منظماً مشرفاً بعد ذلك الصدام الهائل المروع، انسحاباً يمثل في واقعه أعلى درجات الانتصار، بالنسبة لظروف المعركة الصعبة، حيث كانت قوات العدو فيها تفوق قوات المسلمين سبعين ضعفاً.

روعة صمود العقيدة الإسلامية في مشارف قرية (مؤتة) تفرض علينا ونحن نئن حتى الآن تحت وطأة عار هزيمة حزيران الفاضحة - أن نلقي نظرة على المعركتين، معركة مؤتة، ومعركة الأيام الستة، ونقوم بالمقارنة العادلة الصحيحة، وعندها يتبين لنا الدليل الحي الصارخ القاطع على بطلان الادعاءات السخيفة الممجوجة القائلة: إن انتصار إسرائيل على العرب وإلحاقها بهم مجتمعين تلك الهزيمة المدمرة إنما يعود سببه إلى تفوق إسرائيل التكنولوجي، وإلى تمسك العرب ببقايا الأيديولوجية الغيبية (التعاليم الإسلامية) (فيما يلي من هذا الكتاب (وفي الحديث عن معركة مؤتة) سنسهب إن شاء الله في الحديث لتفنيد هذه الادعاءات الانهزامية السخيفة. باشميل).

مصراع قادة الجيش الإسلامي الثلاثة:

لقد تدفق الجيش الروماني كالبحر الهاجج يريد أن يطوى بأواجه الهائلة قرية مؤتة الصغيرة مع من فيها من عسكر المسلمين، وكان ذلك حسب مقتضى العادة أمراً ميسوراً بالنسبة لكثرة جيوش الرومان وقلة عسكر الإسلام.

لولا أن الذين كانوا يقفون على مشارف قرية (مؤتة) هم من أصحاب محمد ﷺ الذين - لفهمهم الصحيح لمعنى الجهاد في سبيل الله - يتحولون إلى أعاصير في هجائهم، وإلى جبال رواسي في دفاعهم.

معركة مؤتة تستمر سبعة أيام:

فبدلاً من أن يُجهز الجيش الروماني على المسلمين خلال عدة ساعات - كما كان قادته يتوقعون - قوبل الرومان بما أذهلهم وكاد يزيغ عقولهم من مقاومة الجيش الإسلامي الصغير الذي لاقى أعداءه وقاتلهم قتالاً مريئاً ضارياً، جعل المعركة الطاحنة تستمر سبعة أيام كاملة. [السيرة الحلبية ١٩٢/٢].

وهو أمر ما كان قادة الجيش الروماني يتصورون أنه سيحدث، إذ حددوا وقتاً للمعركة لا يزيد على بعض ساعات خلالها إما تتم إبادة الجيش الإسلامي، وإما أن يقع كل رجاله أسرى في يد الجيش الروماني.. ولم لا؟ أليس جحافل الرومان الزاحفة تبلغ مائتي ألف مقاتل وعساكر الإسلام المدافعة التي لا تريد على ثلاثة آلاف مقاتل؟.. بلى.

ولكن المواجهة التي واجه بها المسلمون الحشود الرومانية الهائلة الزاحفة، ما كان قادة الجيش الروماني - وهم يضعون خطة المعركة - يتوقعون أنها ستكون على هذا المستوى من الصمود والثبات والشراسة والضراوة.

فقد ثبت المسلمون على مشارف (مؤتة) وقاتلوا أعداءهم قتالاً شرساً مريئاً ضارياً، أوقفوا به تقدم الجيش الروماني الزاحف.

فاتحدم القتال وقام المسلمون - على قلتهم - بهجوم معاكس أتوا فيه بالعجائب، فصرعوا عدة مئات من أفراد الجيش الروماني وأتباعه، بعد أن خالطوهم في هجمات صاعقة.

وكان الذي يقود المسلمين ويتقدم صفوفهم القائد الأول (زيد بن حارثة ؓ) فلقى الرومان وأعوانهم، من المسلمين الأهل، حتى أن بعض الرومان - مع كثرتهم الهائلة - بدأ يركن إلى الفرار، لهول ما لاقى من عسكر الإسلام.

غير أن عامة الجيش الروماني ظلوا يقاتلون بشدة وعنف محاولين - عبثاً - اقتحام مواقع المسلمين في (مؤتة) لتطويقهم تمهيداً لإبادتهم.

ولكن الرومان في كل محاولة يبوؤون بالفشل، ويفقدون مزيداً من القتل، حيث ظل المسلمون صامدين، والحرب سجال بينهم وبين الرومان.

ولا أدل على ضراوة المعركة واستبسال المسلمين فيها من أن هذه المعركة استمرت سبعة أيام يتجالد فيها الفريقان طوال النهار، حتى يحجز بينهم ظلام الليل فيكفوا عن القتال.

وللمنصف أن يتصور أية بطولة كان عليها المسلمون.

والمنصف سيدرك أي مستوى رفيع من الشجاعة والبطولة والتضحية والفداء والإيمان العميق كان عليه المسلمون عندما يعلم أنهم - وهم ثلاثة آلاف محارب - استمروا يخوضون المعركة بصبر وشجاعة

طوال سبعة أيام ضد جيش قوامه مائتا ألف مقاتل، دون أن يتمكن هذا الجيش من تسجيل أي نصر يذكر على المسلمين.

متى وكيف استشهد القادة الثلاثة؟

لقد ذكر بعض المؤرخين أن معركة مؤتة استمرت سبعة أيام. [السيرة الحلبية ١٩٢/٢].

وفي اليوم السادس استشهد القادة الثلاثة (زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة عليهم السلام)، الذين باستشهادهم تحوّل ميزان القتال لصالح الرومان وكادوا أن يبيدوا القوات الإسلامية بالفعل، لولا أن أنقذها الله بأن تولى المحارب المخزومي الشهير خالد بن الوليد رضي الله عنه قيادة الجيش بعد استشهاد قادته الثلاثة الأبرار.

فاستخدم ما لديه من مهارة قيادية وسياسة عسكرية لإنقاذ الجيش الإسلامي، فجمع شتاته بعد أن انفرط عقده لموت قادته الثلاثة، ثم اتبع أسلوبًا موفقًا به سحب الجيش من مؤتة بعد أن أنزل بالرومان خسائر فادحة. [غزوة مؤتة لباشميل ١٨٢-١٩٠].

استشهد زيد بن حارثة رضي الله عنه:

فقد أجمعت المصادر التاريخية على أن أول من استشهد منهم زيد بن حارثة رضي الله عنه القائد العام الذي كان يتقدم الصفوف وفي يده علم الجيش (وهو علم أبيض أعطاه له الرسول صلى الله عليه وسلم عند استعراضه الجيش في ضواحي المدينة قبل تحركه).

فقد ظل القائد زيد رضي الله عنه يقاتل الرومان - قائدًا للجيش - طوال خمسة أيام، وفي اليوم السادس احتدم القتال وزاد الرومان من ضغطهم على المسلمين في (مؤتة) فصمد في وجههم وقتلهم أشد قتال حتى مزقته رماحهم وهو مقبل كالأسد المصور.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «ثُمَّ اتَّقَى النَّاسُ وَاقْتَلَوْا، فَقَاتَلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه بِرَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى شَاطَ (يُقَال: شَاطَ الرَّجُلُ إِذْ سَالَ دَمُهُ فَمَاتَ) فِي رِمَاحِ الْقَوْمِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٨/٢].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي بُكَيْرُ بْنُ مَسَارٍ، عَنْ ابْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ وَابْنِ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ غَزِيَّةَ، أَخَذَهُمَا يَزِيدُ عَلَى الْآخَرِ فِي الْحَدِيثِ قَالَ: لَمَّا اتَّقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ، وَكَانَ الْأَمْرَاءُ يَوْمَئِذٍ يُقَاتِلُونَ عَلَى أَرْجُلِهِمْ، أَخَذَ اللَّوَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه، فَقَاتَلَ النَّاسَ مَعَهُ، وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى صُفُوفِهِمْ، فَقُتِلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه.

قَالَ ابْنُ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ أَخْبَرَنِي مَنْ حَضَرَ يَوْمَئِذٍ قَالَ: لَا، مَا قُتِلَ إِلَّا طَعْنًا بِالرَّمْحِ».

[المغازي للواقدي ٧٦١/٢].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ [فَاسْتَقْبَلْتَنِي] فَرَأَيْتُ جَارِيَةً حَسَنَاءَ [شَابَّةً]، فَأَعْجَبَنِي حُسْنُهَا، فَقُلْتُ: لِمَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ: لِرَزِيدِ بْنِ حَارِثَةَ».

[ذكره صاحب كنز العمال بأرقام: ٣٣٣٠٢، ٣٣٢٩٩ ونسبه إلى (الروائي، والضياء في المختارة، وابن عساكر)، وقال الذهبي: إسناده حسن، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة برقم: ١٨٥٩].

إِمَارَةُ جَعْفَرٍ رضي الله عنه وَاسْتِشْهَادِهِ:

وكما هي تعليمات الرسول الأعظم والقائد الأعلى للجيش ﷺ، كان جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مكلِّفًا بأن يخلف زيد بن حارثة رضي الله عنه في قيادة الجيش إذا ما استشهد زيد رضي الله عنه.

ولذلك كان جعفر رضي الله عنه ملازمًا أثناء القتال للقائد العام زيد بن حارثة رضي الله عنه استعدادًا لتولي منصب القائد العام إذا ما أُصيب زيد رضي الله عنه أثناء القتال.

وفعلًا، فعندما استشهد القائد زيد رضي الله عنه بعد أن شاط في رماح العدو، سارع جعفر رضي الله عنه واستلم علم الجيش من يد زيد رضي الله عنه قبل أن يقع على الأرض، وبهذا تولى تلقائيًا مسؤولية القائد العام للجيش فقاد المسلمون وقاتل الرومان قتالًا ضارياً حتى أذهلهم.

وكان جعفر رضي الله عنه يقاتل على فرس له شقراء فاقتحمت به أتون المعركة المضطرم وعلم الجيش في يده، والمسلمون خلفه يقاتلون بضراوة واستماتة.

وعندما تسلم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه القيادة أقحم فرسه وسط حشود الرومان فصار يدفع كتائبهم أمامه - ومن ورائه جموع المسلمين - كما تدفع الريح القوية أمامها بالورق اليابس.

ولكن كثرة الزحام وشدة الالتحام في المعركة جعل فرس القائد جعفر رضي الله عنه عاجزة عن الحركة كما يجب، فاقتحم جعفر رضي الله عنه عنها ثم عقرها، توطئاً لنفسه على الموت وليقفل عليها باب الطمع في الهرب - فكان أول من عقر في الإسلام أثناء القتال - وبعد أن ترجّل جعفر رضي الله عنه عن فرسه أحاط به الرومان فقاتلهم قتالاً شديداً وراية الرسول ﷺ في يده.

ثم تمكن أحد فرسان الرومان من قطع يد جعفر رضي الله عنه التي يحمل به اللواء فحمله باليد الأخرى، فحمل عليه أحد الرومان فقطع اليد الثانية، وكان الهدف أن يقع علم الجيش الإسلامي فتعم المسلمين الهزيمة.

ولكن القائد الشاب جعفر رضي الله عنه أظهر بطولة فذة لا مثيل لها، فبعد أن فقد كلتا يديه - وحفاظاً على اللواء من أن يقع على الأرض - احتضنه مكباً عليه؛ ليظل مرفوعاً فلا يقع أرضاً، فتتهار لوقوعه معنويات المحاربين المسلمين، فبقاء اللواء منصوباً ساعة القتال له أثره النفسي الفعال في نفوس المحاربين من حيث الثبات والصمود.

ورغم استبسال جعفر عليه السلام وثباته هذا، فقد انتهى صموده الرائع بأن سقط شهيداً بعد أن اعتورته سيوف الرومان وهو يحتضن اللواء في إصرار وتصميم حتى صعدت روحه الطاهرة ليأخذ مكانه بين الصديقين والشهداء.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ عليه السلام فَقَاتَلَ بِهَا، حَتَّى إِذَا أَحْمَهُ الْقِتَالُ افْتَحَمَ عَنْ فَرَسٍ لَهُ شَقْرَاءُ، فَعَقَرَهَا (العقر: هو هنا ضرب قوائم الدابة وهي قائمة بالسيف لئلا يظفر بها العدو)، ثُمَّ قَاتَلَ الْقَوْمَ حَتَّى قُتِلَ. فَكَانَ جَعْفَرٌ أَوَّلَ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَقَرَ فِي الْإِسْلَامِ.

وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي الَّذِي أَرْضَعَنِي، وَكَانَ أَحَدَ بَنِي مُرَّةَ بْنِ عَوْفٍ، وَكَانَ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ [الغزاة] - غَزْوَةُ [غزاة] مُؤْتَةً - قَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى جَعْفَرٍ عليه السلام حِينَ افْتَحَمَ عَنْ فَرَسٍ لَهُ (أي: رمى نفسه عنها) شَقْرَاءُ، ثُمَّ عَقَرَهَا، ثُمَّ قَاتَلَ [الْقَوْمَ] حَتَّى قُتِلَ، وَهُوَ يَقُولُ:

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَأَقْرَبُهَا طَيِّبَةً وَبَارِدًا شَرَابُهَا
وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا

عَلَيَّ إِذْ لَاقَيْتُهَا ضَرَبْتُهَا

[السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٨/٢. وأبو داود في الجهاد (٢٥٧٣) دون ذكر الشعر، قَالَ أَبُو دَاوُدَ: هَذَا الْحَدِيثُ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ. وقال الشيخ الألباني: حسن. وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. السيرة النبوية ٣/ ٣٢٩].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «ثُمَّ أَخَذَهُ جَعْفَرٌ عليه السلام فَتَزَلَّ عَنْ فَرَسٍ لَهُ شَقْرَاءُ فَعَرَقَبَهَا (قطع عرقوبها، وعرقوب الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها. الصحاح، ص ١٨٠)، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ.

وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: ضَرَبَهُ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ فَقَطَعَهُ نِصْفَيْنِ، فَوَقَعَ أَحَدُ نِصْفَيْهِ فِي كَرَمٍ، فَوُجِدَ فِي نِصْفِهِ ثَلَاثُونَ أَوْ بَضْعٌ وَثَلَاثُونَ جُرْحًا.

وَحَدَّثَنِي أَبُو مَعْشَرٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: وَجِدَ مِمَّا قُتِلَ مِنْ بَدَنِ جَعْفَرٍ عليه السلام مَا بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ ضَرْبَةً بِسَيْفٍ أَوْ طَعْنَةٍ بِرُمْحٍ.

وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ صَالِحٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: وَجِدَ فِي بَدَنِ جَعْفَرٍ عليه السلام أَكْثَرَ مِنْ سِتِّينَ جُرْحًا، وَوُجِدَ بِهِ طَعْنَةٌ قَدْ أَفْقَذَتْهُ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦١].

وَعَنْ نَافِعٍ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنه أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى جَعْفَرٍ عليه السلام يَوْمَئِذٍ وَهُوَ قَتِيلٌ، فَعَدَدْتُ بِهِ خَمْسِينَ بَيْنَ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ، لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ فِي دُبُرِهِ، يَعْنِي فِي ظَهْرِهِ. [البخاري في المغازي (٤٢٦٠)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ».

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلِ، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بَضْعًا وَتَسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمِيَةٍ. [البخاري في المغازي (٤٢٦١)].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَحَدَّثَنِي مَنْ أَثْبَتَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَخَذَ اللَّوَاءَ بِيَمِينِهِ فَقَطَعَتْ، فَأَخَذَهُ بِشِمَالِهِ فَقَطَعَتْ، فَاحْتَضَنَهُ بِعَصَدِيهِ حَتَّى قُتِلَ ﷺ، وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَأَنَابَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ جَنَاحَيْنِ فِي الْجَنَّةِ يَطِيرُ بِهِمَا حَيْثُ شَاءَ.

وَيُقَالُ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الرُّومِ ضَرَبَهُ يَوْمَئِذٍ ضَرْبَةً، فَقَطَعَهُ بِنِصْفَيْنِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٨/٢].

وَعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: أُرِيَهُمُ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوْمِ، فَرَأَى جَعْفَرًا مَلَكًا ذَا جَنَاحَيْنِ مُضَرَّجًا بِالْذَّمَاءِ، وَزَيْدًا مُقَابِلَهُ عَلَى السَّرِيرِ، وَابْنُ رَوَاحَةَ جَالِسٌ مَعَهُمْ كَأَنَّهُمَا مُعْرِضَانِ عَنْهُ. [مجمع الزوائد في المناقب ٤٤٤/٩ رقم ١٥٤٩٩، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٠٧/٢ رقم ١٤٦٨]، مرسلًا بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح. ومصنف ابن أبي شيبة ٢٠٩/٤ رقم ١٩٣٦٥، ٣٨١/٦ رقم ٣٢٢٠٠، ٤١٤/٧ رقم ٣٦٩٧٥].

وَعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، قَالَ: أُرِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ، أَصْحَابَ مُؤْتَةَ، فَرَأَى جَعْفَرًا مَلَكًا ذَا جَنَاحَيْنِ، مُضَرَّجَيْنِ بِالْذَّمَاءِ، يَعْنِي مَضْبُوعَيْنِ. [المعجم الكبير للطبراني ١٠٨/٢ رقم ١٤٧٣].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، مَلَكًا يَطِيرُ فِي الْجَنَّةِ، ذَا جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا، حَيْثُ يَشَاءُ، مَقْصُوصَةً قَوَادِمُهُ بِالْذَّمَاءِ». [مجمع الزوائد ٤٤٣/٩ رقم ١٥٤٩٦، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٠٧/٢ رقم ١٤٦٧، ١١/٣٩٦ رقم ١٢١١٢] بإسنادين، وأحدهما حسن].

وَقَالَ أَبُو الْيَسْرِ الْأَنْصَارِيُّ ﷺ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَتَاهُ أَبُو عَامِرٍ الْأَشْعَرِيُّ ﷺ، فَقَالَ: بَعْنِي فِي كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ أَتَيْتُ مُؤْتَةَ، فَلَمَّا صَفَّ الْقَوْمُ رَكِبَ جَعْفَرُ ﷺ فَرَسَهُ وَلَبَسَ الدَّرْعَ وَأَخَذَ اللَّوَاءَ وَمَشَى حَتَّى أَتَى الْقَوْمَ، ثُمَّ نَادَى: مَنْ يَبْلُغُ هَذِهِ صَاحِبَهَا؟، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا، فَبَعَثَ بِهَا، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَضَرَبَ بِسَيْفِهِ حَتَّى قُتِلَ، فَتَحَدَّرَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دُمُوعًا، فَصَلَّى بِنَا الظُّهْرَ، ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُكَلِّمْنَا، ثُمَّ أُقِيمَتِ الْعَصْرُ فَخَرَجَ فَصَلَّى، ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُكَلِّمْنَا، فَفَعَلَ كَذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فَدَخَلَ وَلَا يُكَلِّمُنَا، وَكَانَ إِذَا صَلَّى أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا فِي الْمَجْرَى فِي السَّاعَةِ الَّتِي كَانَ يَخْرُجُ فِيهَا، وَأَنَا وَأَبُو عَامِرٍ الْأَشْعَرِيُّ جُلُوسٌ فَجَلَسَ بَيْنَنَا وَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ رُؤْيَا رَأَيْتُمَا؟ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ جَعْفَرًا ذَا جَنَاحَيْنِ مُضَرَّجَيْنِ بِالْذَّمَاءِ، وَزَيْدًا مُقَابِلَهُ، وَابْنُ رَوَاحَةَ مَعَهُمْ كَأَنَّهُ يُعْرِضُ عَنْهُمْ، وَسَأَخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، إِنَّ جَعْفَرًا حِينَ تَقَدَّمَ فَرَأَى الْقَتْلَ لَمْ يَصْرِفْ وَجْهَهُ، وَزَيْدٌ كَذَلِكَ، وَابْنُ رَوَاحَةَ صَرَفَ وَجْهَهُ».

[مجمع الزوائد في المغازي والسير ٢٣٦/٦ رقم ١٠٢٢٤، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٦٧/١٩ رقم ٣٧٨]، وفيه ثابت بن دينار أبو حزة، وهو ضعيف].

وَعَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ الْكَلَاعِيِّ، حَدَّثَنِي أَبُو أَمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ، فَأَخَذَا بِضَبْعِي، فَأَتَانِي بِجَبَلٍ وَعَرَا، فَقَالَا لِي: اصْعَدْ. فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَطِيقُ. فَقَالَا:

إِنَّا سَنَسْهَلُهُ لَكَ، فَصَعِدْتُ حَتَّى كُنْتُ فِي سَوَاءِ الْجَبَلِ، إِذَا أَنَا بِأَصْوَاتٍ شَدِيدَةٍ، قُلْتُ: مَا هَذِهِ الْأَصْوَاتُ؟ قَالُوا: هَذَا هُوَ عَوَاءُ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ بِي، فَإِذَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيهِمْ، مُشَقَّقَةً أَشَدَّ أَقْفَهُمْ، نَسِيلُ أَشَدَّ أَقْفَهُمْ دَمًا، فَقُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ نَحْلَةِ صَوْمِهِمْ، ثُمَّ انْطَلَقًا بِي، فَإِذَا بِقَوْمٍ أَشَدَّ شَيْءٍ انْتِفَاحًا، وَأَكْتَنَهُ رِيحًا، وَأَسْوَيْهِ مَنْظَرًا، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الزَّائُونَ وَالزَّوَانِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ بِي، فَإِذَا أَنَا بِنِسَاءٍ تَنْهَشُ ثَدْيَهُنَّ الْحَيَاتُ، فَقُلْتُ: مَا بَالُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ اللَّوَاتِي يَمْنَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ أَلْبَانَهُنَّ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ بِي فَإِذَا بِغِلْمَانٍ يَلْعَبُونَ بَيْنَ مَهْرَيْنِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرَارِي الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ شَرَفَ لِي شَرَفٌ فَإِذَا أَنَا بِثَلَاثَةِ نَفَرٍ يَمْشُونَ مِنْ خَمْرِ هُمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، ثُمَّ شَرَفَ لِي شَرَفٌ آخَرُ، فَإِذَا أَنَا بِثَلَاثَةِ نَفَرٍ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَنْتَظِرُونَكَ».

[المستدرک علی الصحیحین فی الطلاق ۲/ ۲۲۸ رقم ۲۸۳۷، وقال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَقَدْ اخْتَجَّ الْبُخَارِيُّ بِجَمِيعِ رَوَاتِهِ غَيْرِ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ، وَقَدْ اخْتَجَّ بِهِ مُسْلِمٌ»، ووافقه الذهبي. وصحيح ابن خزيمة ۳/ ۲۳۷ رقم ۱۹۸۶، وقال د/ الأعظمي: إسناده صحيح].

وَعَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّ أَبَا أُمَامَةَ الْبَاهِلِيَّ رضي الله عنه حَدَّثَهُ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ، فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا هِيَ حَقٌّ فَأَعْقِلُوهَا، أَنَا بِي رَجُلٌ فَأَخَذَ بِيَدِي، فَاسْتَبْعَنِي حَتَّى أَتَى بِي جَبَلًا وَغَرَا طَوِيلًا، فَقَالَ لِي: ازْفَ، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ، فَقَالَ: إِنِّي سَأَسْهَلُهُ لَكَ، فَجَعَلْتُ كُلَّمَا رَقِيتُ قَدَمِي وَضَعْتُهَا عَلَى دَرَجَةٍ حَتَّى اسْتَوَيْنَا عَلَى سَوَاءِ الْجَبَلِ فَأَنْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ مُشَقَّقَةً أَشَدَّ أَقْفَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَعْمَلُونَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ مُسَمَّرَةً أَعْيُنُهُمْ وَأَذَانُهُمْ، فَقُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرُونَ أَعْيُنَهُمْ مَا لَا يَرُونَ، وَيَسْمَعُونَ أَذَانَهُمْ مَا لَا يَسْمَعُونَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِنِسَاءٍ مُعَلَّقَاتٍ بِعَرَاقِيهِنَّ، مُصَوِّبَةً رُؤُوسَهُنَّ، تَنْهَشُ ثَدَاهُنَّ الْحَيَاتُ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَمْنَعُونَ أَوْلَادَهُنَّ مِنَ أَلْبَانِهِنَّ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ مُعَلَّقَاتٍ بِعَرَاقِيهِنَّ مُصَوِّبَةً رُؤُوسَهُنَّ يَلْحَسْنَ مِنْ مَاءٍ قَلِيلٍ وَحَمًا، فَقُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُفْطِرُونَ قَبْلَ نَحْلَةِ صَوْمِهِمْ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا فَإِذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ أَفْبَحَ شَيْءٍ مَنْظَرًا، وَأَقْبَحِهِ لُبُوسًا، وَأَكْتَنَهُ رِيحًا كَأَنَّمَا رِيحُهُمُ الْمَرَايِضُ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الزَّائُونَ وَالزَّوَانِي، ثُمَّ انْطَلَقْنَا فَإِذَا نَحْنُ بِمَوْتَى أَشَدَّ شَيْءٍ انْتِفَاحًا، وَأَكْتَنَهُ رِيحًا، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ مَوْتَى الْكُفَّارِ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا وَإِذَا نَحْنُ نَرَى دُخَانًا، وَنَسْمَعُ عَوَاءً، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذِهِ جَهَنَّمُ فَدَعَهَا، ثُمَّ انْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ نِيَامَ تَحْتَ ظِلَالِ الشَّجَرِ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: مَوْتَى الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِغِلْمَانٍ، وَجَوَارٍ يَلْعَبُونَ بَيْنَ مَهْرَيْنِ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: ذُرِّيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ أَحْسَنَ شَيْءٍ وَجْهًا، وَأَحْسَنِهِ

لُبُوسًا، وَأَطْيَبِهِ رِيحًا كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْقَرَّاطِيسُ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا فَإِذَا نَحْنُ بِثَلَاثَةِ نَفَرٍ يَشْرِبُونَ حَمْرًا لَهُمْ، وَيَتَغَنَّوْنَ، فَقُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: ذَلِكَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَجَعْفَرُ، وَابْنُ رَوَاحَةَ، فَمِلْتُ قِبَلَهُمْ، فَقَالُوا: قَدْ نَالَكَ، قَدْ نَالَكَ، قَالَ: ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: ذَاكَ أَبُوكَ إِبرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ». [مجمع الزوائد ١/ ٢٤٦ رقم ٢٤٠، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير [١٨٢/ ١٨٤-١٨٤، برقم ٧٦٦٦، ٧٦٦٧، ومسند الشاميين ١/ ٣٢٨ رقم ٥٧٧، ١٤٧/ ٣ رقم ١٩٦٦]، ورجاله رجال الصحيح. ينظر: السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٤٩٠-٤٩١، صحيح السيرة للعلي ٣٩٦، والسيرة النبوية للصوياني ٣/ ٣٤٢].

وَعَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثُلُوا لِي فِي الْجَنَّةِ فِي خِيَمَةٍ مِنْ دُرَّةٍ [دُرٍّ]، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى سَرِيرٍ، فَرَأَيْتُ زَيْدًا، وَابْنَ رَوَاحَةَ [فِي] أَعْنَاقِهِمَا صُدُودًا، وَأَمَّا جَعْفَرُ، فَهُوَ مُسْتَقِيمٌ لَيْسَ فِيهِ صُدُودٌ، قَالَ: فَسَأَلْتُ، أَوْ قَالَ: قِيلَ لِي: إِنَّهُمَا حِينَ غَشِيَهُمَا الْمَوْتُ، كَانَتْهُمَا أَعْرَضًا، أَوْ كَانَتْهُمَا صَدًا بِوُجُوهِهِمَا، وَأَمَّا جَعْفَرُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ»، قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ ابْنُ رَوَاحَةَ ﷺ:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهُ بِطَاعَةٍ مِنْكَ لِتُكَرِّهَنَّهُ
فَطَالَمَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً قَالَ جَعْفَرُ: مَا أَطْيَبَ رِيحَ الْجَنَّةِ

[مجمع الزوائد في المغازي والسير ٦/ ٢٣٥ رقم ١٠٢٢٣، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٣/ ١٨٣ رقم ٤٣١]، وفيه علي بن زيد وحديثه حسن، وبقي رجاله رجال الصحيح إلا أنه مرسل. مصنف عبد الرزاق ٥/ ٢٦٦ رقم ٩٥٦٢].
وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتَلَ جَعْفَرٌ دَاخِلَهُ مِنْ ذَلِكَ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَجَعْفَرٍ جَنَاحَيْنِ مُضَرَّ جَيْنِ بِالدَّمِ يَطِيرُ بِهِمَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ.
[المستدرک علی الصحیحین فی المغازی والسرائیا ٣/ ٤٢ رقم ٤٣٤٨، وقال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ لَهُ طَرُقٌ، عَنِ الْبَرَاءِ وَلَمْ يُجَرِّجَاهُ، وَقَالَ الذَّهَبِيُّ: كُلُّهَا ضَعِيفَةٌ عَنِ الْبَرَاءِ].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَرِيبَةٌ مِنْهُ، إِذْ رَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَسْمَاءُ، هَذَا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مَعَ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا، مُرُّوا فَسَلِّمُوا عَلَيْنَا، فَرَدَدْتُ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ، وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ لَقِيَ الْمُسْرِكِينَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَأَصْبْتُ فِي جَسَدِي مِنْ مَقَادِيمي ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ يَنْ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ، ثُمَّ أَخَذْتُ اللَّوَاءَ بِيَدِي الْيُمْنَى فَقَطَعْتُ، ثُمَّ أَخَذْتُهُ بِالْيَدِ الْيُسْرَى فَقَطَعْتُ، فَعَوَّضَنِي اللَّهُ مِنْ يَدَيَّ جَنَاحَيْنِ أَطِيرُ بِهِمَا مَعَ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فِي الْجَنَّةِ، أَنْزَلَ مِنْهَا حَبِثٌ شَيْئًا، وَأَكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا مَا شِئْتُ».

فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: هَبْنِيَا لَجَعْفَرٍ مَا رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَلَّا يُصَدِّقَنِي النَّاسُ، فَاصْعِدِ الْمُنْبَرَ، فَأُخْبِرْ بِهِ النَّاسَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَصَعِدَ الْمُنْبَرُ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي

طَالِبٍ مَرَّ مَعَ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، لَهُ جَنَاحَانِ، عَوَّضَهُ اللَّهُ مِنْ يَدَيْهِ، يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَأَخْبَرَهُمْ كَيْفَ كَانَ أَمْرُهُ حَيْثُ لَقِيَ الْمُشْرِكِينَ، فَاسْتَبَانَ لِلنَّاسِ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَنَّ جَعْفَرَ لَقِيَهُمْ، فَسَمَّى جَعْفَرَ الطَّيَّارَ فِي الْجَنَّةِ. [مجمع الزوائد ٩/ ٤٤٣ رقم ١٥٤٩٥، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط ٧/ ٨٧-٨٨ رقم ٦٩٣٦]، وفيه سعدان بن الوليد ولم أعرفه، وبقيته رجاله ثقات].

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِفَاطِمَةَ رضي الله عنها: «نَبِيْنَا خَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ وَهُوَ أَبُوكَ، وَشَهِيدُنَا خَيْرُ الشُّهَدَاءِ وَهُوَ عَمُّ أَبِيكَ حَمْزَةُ، وَمَنَا مَنْ لَهُ جَنَاحَانِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ يَشَاءُ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ أَبِيكَ جَعْفَرٌ، وَمَنَا سَبْطَا هَذِهِ الْأُمَّةِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَهُمَا ابْنَاكَ، وَمَنَا الْمُهْدِيُّ».

[مجمع الزوائد ٩/ ٢٦١ رقم ١٤٩٦٨، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير ١/ ٧٥ رقم ٩٤]، وفيه قيس بن الربيع وهو ضعيف وقد وثق وبقيته رجاله ثقات].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا جَاءَ نَعْيُ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رضي الله عنها فَوَضَعَ عَبْدُ اللَّهِ وَ مُحَمَّدًا ابْنَيْ جَعْفَرٍ عَلَى فَخْذِهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ جَبْرِيلَ أَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَشْهَدَ جَعْفَرَ، وَأَنَّ لَهُ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْجَنَّةِ» ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرَ فِي وَلَدِهِ».

[مجمع الزوائد ٩/ ٤٤٤ رقم ١٥٤٩٧، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١١/ ٣٦٢ رقم ١٢٠٢٠] وفيه عمر بن هارون وهو ضعيف وقد وثق وبقيته رجاله ثقات].

إِمَارَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه وَاسْتِشْهَادُهُ:

وَاسْتَمَرَ الْقِتَالُ بِضِرَاوَةٍ وَعُنفٍ فِي مَوْتَةٍ، وَكَمَا هُوَ التَّرْتِيبُ الَّذِي وَضَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَتَنَابُوبِ الْقَادَةِ الثَّلَاثَةِ فِي الْمَعْرَكَةِ سَارِعَ الْقَائِدُ الثَّلَاثُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه، بَعْدَ مَصْرَعِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه إِلَى تَسْلَمِ مَسْؤُولِيَةِ قِيَادَةِ الْجَيْشِ، فَحَمَلَ اللِّوَاءَ، كَقَائِدِ عَامٍ لِلْجَيْشِ، فَخَاضَ بِالْمُسْلِمِينَ الْمَعْرَكَةَ.

وَالْعَجِيبُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ رضي الله عنه الَّذِي كَانَ فِي (مَعَانَ) صَاحِبَ الدَّعْوَةِ إِلَى مَصَادِمَةِ الرُّومَانِ عِنْدَمَا بَدَأَ بَعْضُ التَّرَدُّدِ عَلَى بَعْضِ الْقَادَةِ لِكثْرَةِ الْحُشُودِ الرُّومَانِيَةِ الْهَائِلَةِ، عَبْدُ اللَّهِ هَذَا، قَدْ أَدْرَكَهُ شَيْءٌ مِنَ الضَّعْفِ الْبَشَرِيِّ، عِنْدَمَا جَاءَ دَوْرُهُ فِي تَسْلَمِ قِيَادَةِ الْجَيْشِ، عَقِبَ مَصْرَعِ الْقَائِدِ الثَّانِي جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، فَقَدْ تَرَدَّدَ بَعْدَ أَنْ حَمَلَ الرَّايَةَ، وَتَقَدَّمَ بِفَرَسِهِ، إِلَّا أَنَّهُ تَغَلَّبَ عَلَى هَذَا التَّرَدُّدِ، فَتَقَدَّمَ وَقَادَ الْجَيْشَ، وَقَاتَلَ بِهِ حَتَّى اسْتَشْهَدَ.

تَمَنَّى الشَّهَادَةَ فَأَعْطِيَهَا:

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه قَدْ تَمَنَّى أَنْ يَرْزُقَهُ اللَّهُ الشَّهَادَةَ، وَهُوَ فِي الطَّرِيقِ إِلَى مَوْتَةٍ، كَمَا جَاءَ فِي شِعْرِهِ الَّذِي رَوَاهُ لَنَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ رضي الله عنه فِيمَا سَبَقَ.

كَيْفَ اسْتَبَسَلَ ابْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: حَضَرْتُ حَرْبًا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه: يَا نَفْسِ!

أَلَا أَرَأَيْكَ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ ^(١) أَخْلَفُ بِاللَّهِ لَتَنَزِّلَنَّهُ طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرَهِنَّهُ

[ابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

ويصف ابن إسحاق مضاء عزيمة ابن رواحة رضي الله عنه بعد التردد الذي حدث له فيقول: «حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي الَّذِي أَرْضَعَنِي، وَكَانَ أَحَدَ بَنِي مُرَّةَ بْنِ عَوْفٍ، وَكَانَ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ غَزْوَةَ مُؤْتَةَ، قَالَ: وَاللَّهِ! لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى جَعْفَرٍ حِينَ افْتَحَمَ عَنْ فَرَسٍ لَهُ شُقْرَاءُ، ثُمَّ عَقَرَهَا، ثُمَّ قَاتَلَ الْقَوْمَ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمَّا قُتِلَ جَعْفَرٌ رضي الله عنه أَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه الرَّايَةَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ بِهَا، وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ، فَبَجَلَ يَسْتَنْزِلُ نَفْسَهُ، وَيَتَرَدَّدُ بَعْضُ التَّرَدُّدِ، ثُمَّ قَالَ:

أَفَسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنَزِّلَنَّهُ لَتَنَزِّلَنَّهُ طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرَهِنَّهُ
مَالِي أَرَأَيْكَ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ إِنِ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّنَّةَ ^(٢)
لَطَالَمَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّةٍ ^(٣)

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه أَيضًا:

يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي مَمُوتِي هَذَا جِهَادُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَّيْتَ
وَمَا تَمَيَّنْتَ فَقَدْ أُعْطِيتَ إِن تَفْعَلِي فِعْلَهَا هُدَيْتِ

يُرِيدُ صَاحِبِيهِ: زَيْدًا وَجَعْفَرًا رضي الله عنهما، ثُمَّ نَزَلَ، فَلَمَّا نَزَلَ أَتَاهُ ابْنُ عَمِّ لَهُ بِعَظْمٍ [بِعَرَقٍ] مِنْ لَحْمٍ، فَقَالَ: اشْدُدْ [شُدَّ] بِهَذَا صُلْبُكَ، فَإِنَّكَ قَدْ لَقِيتَ [فِي] أَيَّامِكَ هَذِهِ مَا قَدْ لَقِيتَ، فَأَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ فَانْتَهَشَ [ثُمَّ] انْتَهَسَ [مِنْهُ نَهْشَةً [نَهْسَةً]، ثُمَّ سَمِعَ الْحُطْمَةَ فِي نَاحِيَةِ النَّاسِ، فَقَالَ: وَأَنْتِ فِي الدُّنْيَا! ثُمَّ أَلْقَاهَا [أَلْقَاهَا] مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ فَتَقَدَّمَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ. [مجمع الزوائد في المغازي والسير ٦/ ٢٣٤-٢٣٥ رقم ١٠٢٢١، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٣/ ١٨٢، رقم ٤٢٩، ١٤/ ٣٨٣ رقم ١٥٠١٣]، ورجاله ثقات. السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٩/ ٢. وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة ص ٤٣٠].

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ ابْنَ رَوَاحَةَ رضي الله عنه، قَالَ قَبْلَ أَنْ يُخْرَجُوا قَبْلَ مُؤْتَةَ: «يَا وَيْحَ نَفْسِي مَا جَئْتُ لَهَا إِنْ لَمْ أَشُدَّ شِدَّةَ تُنَجِّنِي مِنَ النَّارِ»، فَلَمَّا اتَّفَقُوا أَخَذَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه الرَّايَةَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه وَأَبِي الْفَرَسِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: تَعْلَمُ أَنَّهَا

(١) تكرهين الجنة: أي سبها، وهو القتال.

(٢) أجلب الناس: أصاحوا. الرنة: بفتح الراء وبالنون المشددة: الصوت بحزن.

(٣) النطفة: الشيء السير جدًا من الماء. الشنة: بفتح الشين المعجمة والنون المشددة: السقاء البالي فيوشك أن يهراق النطفة وينخرق السقاء، ضرب ذلك مثلاً له لنفسه في جسده.

الْفَرَسُ الَّتِي قُتِلَ عَلَيْهَا الرَّجُلُ، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَيْهَا قَالَ: أَيُّهَا الْقَوْمُ إِنِّي مُبَغِّ لِنَفْسِي فَأَبْتَغُوا لِأَنْفُسِكُمْ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَتَى بِهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه، فَلَمَّا رَكِبَهَا حَادَ حَيْدَةً فَقَالَ:

أَفَسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهُ كَارِهَةً أَوْ لَتَطَاوَعَنَّهُ

مَالِي أَرَاكَ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ

قَالَ سَعِيدٌ: ثُمَّ نَزَلَ فَأَلْبَجَأَ ظَهْرَهُ إِلَى جِدَارٍ فَأَصَابَتْ إِيصَبٌ مِنْ أَصَابِعِهِ فَقَالَ:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِيصَبٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ

يَا نَفْسُ لَا بُدَّ مِنْ أَجَلٍ مَوْفُوتٍ يَا نَفْسُ إِنْ لَمْ تُقْتَلِي تَمُوتِي

ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَأَخَذَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رضي الله عنه الرَّايَةَ، فَلَمَّا أَذْبَرَ بِهَا قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِنِّي لَأَرَى نُحَاغَ رَجُلٍ يُقَاتِلُ الْيَوْمَ، فَقَالَ خَالِدٌ: لَيْسَ هَذَا يَوْمَ سَبَابٍ، ثُمَّ رَجَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى حَامِيَةٍ وَمَعَهُمْ وَاقدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ رضي الله عنه، وَكَانَ مِنْ أَرْمَى النَّاسِ، وَقَدْ كَبُرَ، وَقَالَ: ارْفُغُونِي عَلَى تُرْسٍ، فَرَفَعُوهُ، فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَيَّ مَوَاقِعَ نَيْلٍ، فَإِنْ رَضِيتُمْ، أَخْبِرُونِي، فَرَمَى الْمُسْرِكِينَ حَتَّى رَدَّهُمُ اللَّهُ.

قَالَ ابْنُ أَبِي هِلَالٍ: وَأَخْبَرَنِي نَافِعُ أَنَّ ابْنَ عَمَرَ رضي الله عنه أَخْبَرَهُ أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى جَعْفَرِ يَوْمَئِذٍ، وَهُوَ قُتِلَ قَالَ: «فَعَدَدْتُ بِهِ خَمْسِينَ بَيْنَ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ، لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ فِي دُبُرِهِ».

قَالَ سَعِيدٌ: وَبَلَغَنِي أَنَّهُمْ دَفَنُوا يَوْمَئِذٍ زَيْدًا، وَجَعْفَرًا، وَابْنَ رَوَاحَةَ رضي الله عنه فِي حُفْرَةٍ وَاحِدَةٍ.

[سنن سعيد بن منصور ٢/٣٤٦ رقم ٢٨٣٥].

وَعَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: أَعْغَمِي (مَرَضٌ وَحَصَلْ لَهُ الْإِغْمَاءُ مِنْ شِدَّةِ الْمَرَضِ) عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه، فَجَعَلْتُ أُخْتَهُ عَمْرَةً تَبْكِي. وَاجْبِلَاهُ (مَنْ صَبَغَ النَّدْبَةَ، وَهِيَ تَعْدَادُ مُحَاسِنِ الْمَيِّتِ)، وَكَادَا، وَكَادَا، تُعَدُّ عَلَيْهِ (تَذَكَّرَ مُحَاسِنَهُ أَثْنَاءَ الْبَكَاءِ، وَمِثْلُ هَذَا مِنْهُي عَنْهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ: يَا مَنْ كَانَ سِنْدُنَا وَمُعْتَمِدُنَا، وَالسِّنْدُ وَالْمُعْتَمَدُ هُوَ اللَّهُ تعالى؛ لِذَلِكَ قِيلَ لَهُ: أَنْتَ؟ وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْقَاتِلَ هُمُ الْمَلَائِكَةُ)، فَقَالَ حِينَ أَفَاقَ: مَا قُلْتُ شَيْئًا إِلَّا قِيلَ لِي: أَنْتَ كَذَلِكَ (اسْتِفْهَامُ إِنْكَارِي، أَيِ لَمْ يَقُولُوا هَذَا وَأَنْتَ لَسْتَ كَذَلِكَ؟)، فَلَمَّا مَاتَ لَمْ تَبْكِ عَلَيْهِ.

[البخاري في المغازي (٤٢٦٧، ٤٢٦٨)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أُمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعْنَا الْوَاعِيَةَ (هُوَ الصُّرَاخُ عَلَى الْمَيِّتِ وَنَغِيهِ، وَلَا يُبْنَى مِنْهُ فِعْلٌ. النِّهَايَةُ ٢٠٧/٥)، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَذْهَبْ فَانْظُرْ مَا هَذَا؟» قَالَ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ مَاتَ، قَالَ: «لَمْ يَمُتْ»، فَأَفَاقَ، وَكَانَ أَعْغَمِي عَلَيْهِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَأْتِيهِ، فَتَلَقَّاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْغَمِي عَلَيَّ فَصَاحَتِ النِّسَاءُ: وَاعِزَّاهُ!! وَاجْبِلَاهُ!! فَقَالَ مَلِكٌ مَعَهُ مُرْزَبَةُ (الْمُرْزَبَةُ - بِالْتَخْفِيفِ -: الْمِطْرَقَةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي تَكُونُ لِلْحُدَّادِ. النِّهَايَةُ ٢/٢١٩) فَجَعَلَهَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، فَقَالَ: كَمَا يَقُولُ هُوَ لَا يَقُولُ؟ قُلْتُ:

لَا، فَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، صَرَّيْنِي بِهَا. [مجمع الزوائد في الجناز ٣/ ١٠٢ رقم ٤٠٢٦، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ١٣/ ٤١٤ رقم ١٤٢٥٢]، والأعمش لم يسمع من عبد الله بن عمرو، ومحمد بن جابر الحنفي فيه كلام. كذا قال الهيثمي، وبين الأعمش وابن عمرو هنا: أبو صالح].

وعن إمارة واستشهاد القادة الثلاثة روى الطبراني بسنده عن ابن شهاب، قَالَ: «ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَيْشًا إِلَى مُؤْتَةَ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ، فَإِنْ أُصِيبَ، فَجَعَفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَمِيرُهُمْ، فَإِنْ أُصِيبَ جَعَفَرُ ﷺ، فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ﷺ أَمِيرُهُمْ، فَاَنْطَلَقُوا حَتَّى لَقُوا ابْنَ أَبِي سَبْرَةَ الْعَسَائِيَّ بِمُؤْتَةَ، وَبِهَا جُمُوعٌ مِنَ نَصَارَى الْعَرَبِ وَالرُّومِ، وَبِهَا تَنُوحٌ وَبَهْرَاءُ، فَأَغْلَقَ ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ دُونَ الْمُسْلِمِينَ الْحِصْنَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ خَرَجُوا، فَالْتَقُوا عَلَى زَرْعٍ أَخْضَرَ، فَاقْتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، وَأَخَذَ اللَّوَاءُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ، فَقُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَهُ جَعَفَرُ ﷺ، فَقُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَهُ ابْنُ رَوَاحَةَ ﷺ، فَقُتِلَ، ثُمَّ اصْطَلَحَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ أُمَرَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ﷺ، فَهَزَمَ اللَّهُ الْعَدُوَّ، وَأَظْهَرَ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعَثَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي جُمَادَى الْأُولَى».

[مجمع الزوائد في المغازي والسير ٦/ ٢٣٥ رقم ١٠٢٢٢، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٣/ ١٨٤ رقم ٤٣٢، ١٤/ ٣٨٨ رقم ١٥٠١٦]، ورجاله ثقات. قال د/ بريك: وبنفس السياق واللفظ أخرجه البيهقي (دلائل ٤/ ٣٦٤-٣٦٥) بسنده من حديث إسماعيل ابن إبراهيم بن عقبة، عن عمه موسى بن عقبة، وسنده حسن إلى موسى؛ لأن ابن أبي أويس صدوق، كما ذكر الحافظ (تقريب ١٠٨)، وكذلك أخرجه ابن عساكر: تاريخ دمشق (المجلدة الأولى ص ٣٩٢-٣٩٣) بسنده عن موسى ابن عقبة نحوه].

مصرع قائد العرب المنتصرة:

وكان الرومان قد عانوا الأهوال من المسلمين أثناء الأيام الستة، فقد أصاب المسلمون منهم ومن أتباعهم العرب المنتصرة، مقتلة عظيمة، وكان من قتل الجيش الروماني القائد العام لقوات العرب المنتصرة.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَقَدْ كَانَ قُطْبَةُ بْنُ قَتَادَةَ الْعُدْرِيُّ ﷺ الَّذِي كَانَ عَلَى مَيْمَنَةِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ حَمَلَ عَلَى مَالِكِ بْنِ رَافِلَةَ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ قُطْبَةُ بْنُ قَتَادَةَ ﷺ:

طَعَنْتُ ابْنَ رَافِلَةَ بْنِ الْإِرَا	شِ بِرُمَحٍ مَضَى فِيهِ ثُمَّ انْحَطَمَ
صَرَبْتُ عَلَى جِيدِهِ صَرْبَةً	فَمَا لَ كَمَا مَالَ غُصْنُ السَّلَمِ
وَسُقْنَا نِسَاءَ بَنِي عَمِّهِ	عِدَاةَ رُقُوقِينَ سَوَاقِ النَّعَمِ

قَالَ ابْنُ هِشَامَ: قَوْلُهُ «ابْنُ الْإِرَاشِ» عَنْ غَيْرِ ابْنِ إِسْحَاقَ.

وَالْبَيْتُ الثَّالِثُ عَنْ خَلَادِ بْنِ قُرَّةَ، وَيُقَالُ مَالِكُ بْنُ رَافِلَةَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٨١-٣٨٢].

اشتعال المعركة بين الجيشين:

يقول د/ بريك: «هذا وقد أشعلت الحملات والاختراقات البطولية التي قام بها القادة الثلاثة في العمق داخل صفوف العدو - رغم تفوقه العددي والعُددي - أشعلت حماس المسلمين جميعًا، واشتعل القتال على طول الجبهة، وأبدى المسلمون من صنوف البطولات الجماعية، والفردية، أسوة بقوادهم ما أذهل الروم وحلفاءهم.

فهذا عبد الله بن رواحة رضي الله عنه - كما يذكر الأوزاعي في رواية - وفي مجلس من مجالس الأنصار في المدينة، ومعهم نفر منهم، حين نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُومٍ ۝٤﴾ [الصف]، يعاهدون الله - تبارك وتعالى - على الجهاد في سبيله حتى الموت، فلما أخذ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الراية، فصاح بأولئك النفر الذين حضروا ذلك المجلس، فتلا عليهم الآية وقال لهم: إِنَّ مَا كُتِمَ عَاهِدْتُمْ اللَّهَ عَلَيْهِ قَدْ جَاءَ مُصَدِّقُهُ، اصدقوا الله بصدقكم، فجاءوا يَجْبُونَ (الجبب - محرّكة - ضرب من العدو، أو كالرمل، أو أن ينقل الفرس أيامه جميعًا، وأيا سره جميعًا، أو أن يراوح بين يديه، والسرعة خب خبًا وخبييًا وخبيًا) كأنهم بقر نُزِعَتْ من تحتها أولادها، فتقدّموا بين يديه، فلما شدّ على الروم شدوا معه حتى شدّخوا (الشدخ: الكسر في كل شيء رطب أو يابس، وقيل: هو التهشيم. وقال الليث: الشدخ كسرك الشيء الأجوف، كالرأس ونحوه. وفي الحديث: فشدخوه بالحجارة جميعًا^(١)).

وهذا عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، أحد شهود العيان والمشاركين في مؤتة، يُحدِّثنا عن إحدى تلك البطولات فيما رواه أبو داود، فيقول: «خَرَجْتُ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه فِي غَزْوَةِ مُؤَتَةَ، فَرَأَفَنِي مَدَدِي (الأمداد: جمع مدد، وهم الأعوان والأنصار الذين كانوا يمدون المسلمين في الجهاد. النهاية ٣٠٨/٤) مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُ سَيْفِهِ، نَحَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جُزُورًا (الجزور: البعير، أو الناقة المجزورة، أي المنحورة)، فَسَأَلَهُ

(١) أخرجه ابن عساكر: تاريخ (عبد الله بن جابر - عبد الله بن زيد ص ٣٥١-٣٥٢) من حديث ابن عائذ بسند صحيح عن الأوزاعي، لكنّه منقطع، الأوزاعي من السابعة، والمجلس الذي ورد ذكره في الحديث أخرجه ابن عساكر (تاريخ ٣١٤-٣١٥) من طريق ابن المبارك، عن ابن جريج، عن مجاهد قال: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَقْعَلُونَ ۝٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُومٍ ۝٤﴾ [الصف: ٢-٤]، نزلت في نفرٍ من الأنصار منهم عبد الله بن رواحة، قالوا في مجلسٍ من المجالس: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله ﷻ لعملنا به حتى نموت. قال ابن رواحة: لا أزال حبيسًا في سبيل الله ﷻ حتى أموت، فُقِتِلَ شهيدًا رحمه الله. وأخرجه ابن المبارك في (الجهاد: ١٦) به نحوه، وسنده فيه عنعن ابن جريج، وهو ثقة لكنّه كان يدلس.

كما أخرجه الطبري (تفسير ٨٤/٢٨) بسنده عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد نحوه، وفيه أيضًا عنعن ابن أبي نجيح، وهو ثقة ربّا دلس.

الْمَدَدِيُّ طَائِفَةٌ مِنْ جِلْدِهِ (أي قطعة من جلده)، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَّخَذَهُ كَهَيْئَةِ الدَّرَقِ (جمع درقة وهى الترس من جلود ليس فيه خشب ولا عصب)، وَمَضَيْنَا فَلَقِينَا جُمُوعَ الرُّومِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أَشْقَرٌ عَلَيْهِ سَرَجٌ مُذَهَّبٌ وَسِلَاحٌ مُذَهَّبٌ، فَجَعَلَ الرُّومِيُّ يُعْرِي (كناية عن المبالغة في القتل) بِالْمُسْلِمِينَ، فَقَعَدَ لَهُ الْمَدَدِيُّ خَلْفَ صَخْرَةٍ، فَمَرَّ بِهِ الرُّومِيُّ فَعَرَقَ فَرَسَهُ (قطع قوائمها. وعرق فرسه: أي قطع عرقوبه، وهو عصب غليظ في رجل الدابة بمنزلة الركبة في يدها) فَحَرَّ (أي سقط من علو)، وَعَلَاهُ فَقَتَلَهُ وَحَازَ فَرَسَهُ وَسِلَاحَهُ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ بَعَثَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ۞ فَأَخَذَ مِنَ السَّلْبِ.

قَالَ عَوْفٌ ۞: فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: يَا خَالِدُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِالسَّلْبِ لِلْقَاتِلِ، قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي اسْتَكْثَرْتُهُ، قُلْتُ: لَتَرُدَّنَّهُ عَلَيْهِ أَوْ لَأَعْرِفَنَّكَهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَبَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ.

قَالَ عَوْفٌ ۞: فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّةَ الْمَدَدِيِّ، وَمَا فَعَلَ خَالِدٌ ۞، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «يَا خَالِدُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَكْثَرْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا خَالِدُ، رُدَّ عَلَيْهِ مَا أَخَذْتَ مِنْهُ».

قَالَ عَوْفٌ ۞: فَقُلْتُ لَهُ: دُونَكَ يَا خَالِدُ! أَلَمْ أَفِ لَكَ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا ذَلِكَ؟»، فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا خَالِدُ، لَا تَرُدَّ عَلَيْهِ، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أُمْرَائِي، لَكُمْ صِفْوَةٌ أَمْرِهِمْ وَعَلَيْهِمْ كَدْرُهُ». [أبو داود في الجهاد (٢٧١٩)، ومسنند أحمد ٣٩/ ٤٢٤-٤٢٥ رقم ٢٣٩٩٧، وقال الشيخان الألباني والأرنؤوط: إسناده صحيح].

وفي لفظ مسلم: عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ ۞ قَالَ: قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ حِمِيرٍ رَجُلًا مِنَ الْعَدُوِّ، فَأَرَادَ سَلْبَهُ، فَمَنَعَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ۞، وَكَانَ وَالِيًا عَلَيْهِمْ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ ۞ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لِحَالِدٍ ۞: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ سَلْبَهُ؟»، قَالَ: اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «اذْفَعْهُ إِلَيْهِ»، فَمَرَّ خَالِدٌ بِعَوْفٍ، فَجَرَّ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَعْصَبَ فَقَالَ: «لَا تُعْطِيَهُ يَا خَالِدُ، لَا تُعْطِيَهُ يَا خَالِدُ، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أُمْرَائِي، إِنَّمَا مِثْلُكُمْ وَمِثْلُهُمْ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَرْعَى إِبِلًا أَوْ غَنَمًا فَرَعَاهَا، ثُمَّ تَحَيَّرَ سَفِيهَا فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا، فَشَرَعَتْ فِيهِ، فَتَرَبَّتْ صِفْوَةٌ وَتَرَكْتَ كَدْرَهُ، فَصَفْوَةٌ لَكُمْ وَكَدْرُهُ عَلَيْهِمْ». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٥٣)].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيُّ ۞: لَقِينَاهُمْ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قُضَاعَةَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ، فَصَافُونَا فَجَعَلَ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ يَسْلُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَيُعْرِي بِهِمْ عَلَى فَرَسٍ أَشْقَرٍ، عَلَيْهِ سِلَاحٌ مُذَهَّبٌ وَلِحَامٌ مُذَهَّبٌ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ فِي نَفْسِي: مَنْ هَذَا؟ وَقَدْ رَافَقَنِي رَجُلٌ مِنْ أُمْدَادٍ (جمع مدد، وهم الأعوان والأنصار الذين كانوا يمدون المسلمين في الجهاد. النهاية ٣٠٨/ ٤) حِمِيرٍ، فَكَانَ مَعَنَا فِي مَسِيرِنَا ذَلِكَ لَيْسَ مَعَهُ سَيْفٌ، إِذْ نَحَرَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ جُزُورًا، فَسَأَلَهُ الْمَدَدِيُّ طَائِفَةً مِنْ جِلْدِهِ، وَهَبَهُ لَهُ فَبَسَطَهُ فِي

الشَّمْسِ وَأَوْتَدَ عَلَى أَطْرَافِهِ أَوْتَادًا، فَلَمَّا جَفَّ اتَّخَذَ مِنْهُ مِقْبِضًا وَجَعَلَهُ دَرَقَةً، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْمَدْدِيَّ مَا يَفْعَلُ ذَلِكَ الرُّومِيُّ بِالْمُسْلِمِينَ كَمَنْ لَهُ خَلْفَ صَخْرَةٍ، فَلَمَّا مَرَّ بِهِ خَرَجَ عَلَيْهِ فَعَرَقَبَ قَرْسُهُ، فَقَعَدَ الْقَرْسُ عَلَى رِجْلَيْهِ وَخَرَّ عَنْهُ الْعِلْجُ (الرجل من كفار العجم. الصحاح ص ٣٣٠)، وَشَدَّ عَلَيْهِ فَعَلَاهُ بِسَيْفِهِ فَقَتَلَهُ».

[المغازي للواقدي ٧٦٨/٢].

ويتصدى عقيل بن أبي طالب ﷺ لرجل آخر فيقتله بعد مبارزة بالسيف. [ذكره الطبراني في المعجم الأوسط ١/ ٢٦٥-٢٦٦ من حديث جابر بن عبد الله، وقال عنه الهيثمي: فيه عبد الله بن محمد بن عقيل، وهو حسن الحديث، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات. قلت: قال عنه ابن حجر: (تقريب ٣٢١): صدوق، في حديثه لين].

ولكن، ومع تلك البطولات التي أبدتها المسلمون قُوَادًا وأفرادًا، إلا أنه بمقتل عبد الله بن رواحة ﷺ، آخر قائد مُعَيَّن في المعركة، انفرط عقد المسلمين و«صار المسلمون لا قائد لهم يحفظ نظامهم».

[سيف الله خالد بن الوليد ﷺ - أبو زيد شلبي ٦٣].

«وأصبح الموقف الآن خطيرًا، ومن الممكن أن يتحوّل بسهولة إلى ما هو أسوأ، ويؤدي إلى هزيمة تامة للمسلمين». [سيف الله خالد بن الوليد ﷺ - الجنرال أكرم ١٠٥]. [غزوة مؤتة لبريك ٣١٩-٣٢٢].

انهزام الجيش الإسلامي في المعركة:

وكان الجيش الإسلامي - على قلة عدده - قد ظل رجاله ثابتون يصارعون الرومان وحلفاءهم طوال ستة أيام، دون أن يبدو عليهم الوهن أو الاضطراب، غير أن مصرع القادة الثلاثة وبقاء الجيش دونما قائد رجّح كفة الرومان، وحدث بعض الخلل والاضطراب في صفوف المسلمين الذي اختلطوا (بعد مصرع ابن رواحة ﷺ) بالرومان، وأخذ بعض المسلمين ينهزم، لا سيما بعد أن سقط لواء الجيش أرضًا بعد مصرع القائد الثالث، لقد هزموا هزيمة منكرة.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي نَافِعُ بْنُ ثَابِتٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبَّادٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي مُرَّةَ كَانَ فِي الْجَيْشِ، قِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ إِنَّ خَالِدًا انْتَهَزَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ ذَلِكَ، لَمَّا قُتِلَ ابْنُ رَوَاحَةَ ﷺ نَظَرْتُ إِلَى اللَّوَاءِ قَدْ سَقَطَ، وَاخْتَلَطَ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ، فَتَنَظَّرْتُ إِلَى اللَّوَاءِ فِي يَدِ خَالِدٍ ﷺ مُنْهَزِمًا، وَاتَّبَعْنَاهُ فَكَانَتْ الْهَرِيمَةُ».

حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ ابْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي نَفَرٌ مِنْ قَوْمِي حَضَرُوا يَوْمَئِذٍ قَالُوا: لَمَّا أَخَذَ اللَّوَاءُ انْكَشَفَ بِالنَّاسِ فَكَانَتْ الْهَرِيمَةُ، وَقُتِلَ الْمُسْلِمُونَ، وَاتَّبَعَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَجَعَلَ قُطْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ﷺ يَصِيحُ: يَا قَوْمُ يُقْتَلُ الرَّجُلُ مُقْبِلًا أَحْسَنَ أَنْ يُقْتَلَ مُدْبِرًا، يَصِيحُ بِأَصْحَابِهِ، فَمَا يَتُوبُ إِلَيْهِ أَحَدٌ، هِيَ الْهَرِيمَةُ، وَتَتَّبِعُونَ صَاحِبَ الرَّايَةِ مُنْهَزِمًا».

[المغازي للواقدي ٧٦٢-٧٦٣].

ثابت بن أقرم رضي الله عنه ينقذ الموقف:

ويدرك ثابت بن أقرم رضي الله عنه خطورة الموقف، فيحاول تدارك الأمر، ويحتوي خطورته قبل تفاقمه. قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا قُتِلَ ابْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه انْهَرَمَ الْمُسْلِمُونَ أَسْوَأَ هَزِيمَةٍ رَأَيْتُهَا قَطُّ فِي كُلِّ وَجْهِ، ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ تَرَجَعُوا، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: ثَابِتُ بْنُ أَقْرَمَ رضي الله عنه، فَأَخَذَ اللَّوَاءَ وَجَعَلَ يَصِيحُ بِالْأَنْصَارِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَتَوَبُّونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَهُمْ قَلِيلٌ، وَهُوَ يَقُولُ: إِلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ، فَاجْتَمِعُوا إِلَيْهِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٤].

وهكذا أنقذ ثابت بن أقرم رضي الله عنه الموقف حين رفع اللواء.

خالد بن الوليد رضي الله عنه يتولى قيادة الجيش في مؤتة:

عَنْ أَبِي الْيُسْرِ بْنِ عَمْرِو الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: أَنَا دَفَعْتُ الرَّيَاةَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه، وَأُصِيبَ، فَدَفَعْتُهَا إِلَى ثَابِتِ بْنِ أَقْرَمَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، فَدَفَعَهَا إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ: لِمَ تَدْفَعُهَا إِلَيَّ؟ قَالَ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِالْقِتَالِ مِنِّي. [مجمع الزوائد في المغازي والسير ٦/ ٢٣١ رقم ١٠٢١٩، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط ٢/ ١٧٩ رقم ١٦٤٥]، وفيه أبو حمزة الثمالي وهو ضعيف.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «تَمَّ اخْتِذَ الرَّيَاةَ ثَابِتُ بْنُ أَقْرَمَ رضي الله عنه أَخُو بَنِي الْعَجْلَانِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! اضْطَلِّحُوا عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ (أي يحمل اللواء ويتحمل مسؤولية قيادة الجيش)، قَالُوا: أَنْتَ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَاعِلٍ، فَاصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه، فَلَمَّا أَخَذَ الرَّيَاةَ دَافَعَ الْقَوْمَ، وَحَاشَى بِهِمْ، ثُمَّ انْحَارَ وَانْحِرَ عَنْهُ، حَتَّى انْصَرَفَ بِالنَّاسِ». [مجمع الزوائد في المغازي والسير ٦/ ٢٣٤-٢٣٥ رقم ١٠٢٢١، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الجزء المفقود، ورجاله ثقات. السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٩-٣٨٠. وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالَ: فَتَنَظَرُ ثَابِتٌ رضي الله عنه إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه فَقَالَ: خُذِ اللَّوَاءَ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ فَقَالَ: لَا أَخْذُهُ أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ، أَنْتَ رَجُلٌ لَكَ سِنٌّ، وَقَدْ شَهِدْتَ بَدْرًا، قَالَ ثَابِتٌ رضي الله عنه: خُذْهُ أَيُّهَا الرَّجُلُ! فَوَاللَّهِ مَا أَخَذْتُهُ إِلَّا لَكَ، فَأَخَذَهُ خَالِدٌ، فَحَمَلَهُ سَاعَةً، وَجَعَلَ الْمُسْرِكُونَ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِ، فَتَبَّتْ حَتَّى تَكَرَّكَ (تَكَرَّكَ الرجل في أمره: أي تردد. الصحاح ص ٨٠٥) الْمُسْرِكُونَ، وَحَمَلَ بِأَصْحَابِهِ فَفَضَّ جَمْعًا مِنْ جَمْعِهِمْ، ثُمَّ دَهَمَهُ مِنْهُمْ بَسْرٌ كَثِيرٌ، فَأَنْحَاسَ الْمُسْلِمُونَ فَأَنْكَشَفُوا رَاجِعِينَ.

حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ مَضْعَبٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ قَالَ: لَمَّا أَخَذَ اللَّوَاءُ ثَابِتُ بْنُ أَقْرَمَ رضي الله عنه، فَاصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه، قَالَ ثَابِتٌ: اضْطَلِّحْتُمْ عَلَى خَالِدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَأَخَذَهُ خَالِدٌ رضي الله عنه فَأَنْكَشَفَ بِالنَّاسِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٣، ٧٦٤].

لقد كان الموقف لا يحتمل النقاش، فقد بلغ الدرجة القصوى من الخطورة بعد مصرع القادة الثلاثة.

والباحث العسكري الخبير هو الذي يستطيع تقييم الخطر الداهم الذي أحاق - يوم ذاك - بثلاثة آلاف مقاتل فقدوا كل قادة جيشهم، في الوقت الذي يصارعون فيه مائتي ألف مقاتل من أعدائهم الرومان وأتباعهم.

لقد أصبح همُّ وجوه الجيش وزعماء القبائل فيه - بعد أن فقد قاداته الثلاثة - وبدت علائم الفوضى والاضطراب على بعض صفوفه - أصبح همهم النجاة بهذا الجيش الصغير الذي رغم استبساله وشراسته في القتال، قادة وجنودًا، كاد يفقد تنظيمه كليًا.

ولم يكن هناك في الجند من تتجه الأنظار إليه لإنقاذ الموقف سوى المحارب الشهير خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي لم يمضِ على دخوله في الإسلام سوى ثلاثة أشهر فقط.

وأيد وجوه الجيش وزعماء القبائل فيه فكرة تولي خالد بن الوليد رضي الله عنه القيادة وحثوه على ذلك؛ لإنقاذ الموقف المتدهور الذي بات يهدد أفراد الجيش بالإبادة.

ولم يسع المحارب البطل والقائد الفذ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلا أن يستجيبَ لرغبة وجوه الجيش ويحققها، فقبل أن يحتمل مسؤولية القيادة، فحمل اللواء من ثابت بن أقرم رضي الله عنه، فأصبح قائدًا عامًا للجيش.

لقد كان اختيار خالد بن الوليد رضي الله عنه قائدًا للجيش - في تلك الساعات الحرجة - اختيارًا موفقًا؛ لأن خالدًا رضي الله عنه - بالإضافة إلى كونه محاربًا ممتازًا شجاعًا لا يُشق له غبار - كان قمة في السياسة العسكرية والمهارة القيادية في حالتي الهجوم والدفاع، وقد أثبت ذلك عمليًا، وخاصة بعد أن دان بالإسلام وقاد الجيوش في أعنف المعارك؛ مما جعله في مقدمة عظماء قادة العالم، ولقد أنقذ الجيش الإسلامي في مؤتة من التدمير، بعد الهزيمة المنكرة التي نزلت به عقب مصرع قاداته الثلاثة.

فقد أعاد خالد رضي الله عنه - أولًا - للجيش التنظيم الذي فقده، ثم أعاد بمهارته إلى هذا الجيش ثقته بنفسه، وبعد ذلك شن به هجومًا معاكسًا على الرومان، حتى زلزل صفوفهم، ثم - وبمهارة فائقة - تمكن من الانسحاب بهذا الجيش الصغير انسحابًا عظيمًا يُعتبر في عُرف الخبراء العسكريين أعظم انتصار؛ ولهذا لَقَّبَ الرسول ﷺ خالدًا رضي الله عنه سيف الله بعد أن نجح في إنقاذ الجيش. [غزوة مؤتة لباشميل ١٩٧-٢٠٠].

قَالَ الْوَائِدِيُّ: «حَدَّثَنِي عَطَافُ بْنُ خَالِدٍ قَالَ: لَمَّا قُتِلَ ابْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه مَسَاءً بَاتَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رضي الله عنه، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدًا، وَقَدْ جَعَلَ مُقَدِّمَتَهُ سَاقَتَهُ، وَسَاقَتَهُ مُقَدِّمَتَهُ، وَمِمَّسَّتُهُ مِيسَرَتَهُ، وَمِيسَرَتَهُ مِمَّسَّتَهُ، فَأَنْكَرُوا مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ رَأْيَانِهِمْ وَهَيَأَتِهِمْ، وَقَالُوا: قَدْ جَاءَهُمْ مَدَدٌ! فَرَعَبُوا، فَأَنْكَشَفُوا مُنْهَزِمِينَ، فَقَتَلُوا مَقْتَلَةً لَمْ يُقْتَلْهَا قَوْمٌ.

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْفَضْلِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا أَخَذَ خَالِدٌ ﷺ الرَّيَّةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الآنَ حِمَى الْوُطَيْسِ». (أي: الآن اشتدت الحرب. القاموس المحيط ٢/ ٢٥٧. وقال ابن الأثير: الوطيس التنور، وقيل هو الضراب في الحرب، وقيل هو الوطء الذي يطس الناس، أي: يدقهم. وقال الأصمعي: هو حجارة مدورة إذا حُميت لم يقدر أحد يطؤها. النهاية ٤/ ٢٣٤).

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَالْأَوَّلُ أَثْبَتُ عِنْدَنَا، أَنَّ خَالِدًا ﷺ انْهَرَمَ بِالنَّاسِ. قَالَ ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ: بَلَغَتِ الدَّمَاءُ بَيْنَ الْحَيْلِ مَوْضِعَ الْأَشَاعِرِ (أشارع الناقة: جوانب حياتها. الصحاح ص ٦٩٨) مِنَ الْحَافِرِ (الحافر هنا: الدابة. النهاية ١/ ٢٣٩).

وَالْوُطَيْسُ أَيْضًا ذَاكَ، وَإِذَا حِمَى ذَلِكَ الْمَوْضِعُ مِنَ الدَّابَّةِ كَانَ أَشَدَّ لِعَدُوِّهَا. حَدَّثَنِي دَاوُدُ بْنُ سِنَانٍ قَالَ: سَمِعْتُ ثَعْلَبَةَ بْنَ أَبِي مَالِكٍ يَقُولُ: انْكَشَفَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ﷺ يَوْمَئِذٍ حَتَّى عَيَّرُوا بِالْفَرَارِ، وَتَشَاءَمَ النَّاسُ بِهِ. [الغزاة للواقدي ٢/ ٧٦٤].

صعوبة المهمة الملقاة على عاتق خالد ﷺ في مؤتة:

يقول أ/ باشميل: «لقد كانت معركة مؤتة أول معركة يشترك فيها خالد بن الوليد (مسلمًا)، كما أنه لأول مرة في حياته يتولى منصب القائد العام لجيش إسلامي.

كانت حالة الجند الإسلامي - عندما تولى خالد القيادة بمؤتة - حالة سيئة بمعنى هذه الكلمة. فقد تمزقوا تمزقًا شديدًا حتى تبعثروا في أرجاء الميدان في حالة من الفوضى هي الهزيمة بعينها، بل إنها أشنع هزيمة تنزل بجيش إسلامي في العهد النبوي.

وصف هذه الحقيقة ابن سعد في طبقاته الكبرى (٢/ ١٢١) بقوله - يصف حالة الجيش الإسلامي بعد مصرع قادته الثلاثة -: «.. ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة ﷺ وطاعن حتى قُتل، ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى لم أر اثنين جميعًا..». والكلام هنا لشاهد عيان هو أبو عامر ﷺ.

ومن هنا كانت المهمة التي أُلقيت على عاتق القائد الجديد (خالد بن الوليد ﷺ) مهمة على غاية من الصعوبة والتعقيد.

فقد تولى قيادة جيش أنهكه القتال الشديد الضاري طوال أيام، فكان - وهو ثلاثة آلاف فقط - يجالذ - طيلة هذه الأيام الستة - جيشًا قوامه مائتا ألف مقاتل.

ومع ذلك، فقد هذا الجيش الصغير الباسل قادته الثلاثة الواحد بعد الآخر، فانفرط عقده، وفقد تنظيمه، وكان في حالة اضطراب شديد وارتباك خطير، جعلاه مهينًا لأن يُدمر تدميرًا كاملاً، أو يقع بكامله أسيرًا في قبضة الرومان وأحلافهم من العرب المرتزقة من غير المسلمين.

وهذه الحالة التي وصل إليها الجيش الإسلامي في (مؤتة) لا يُلام عليها، فرغم زخم الإيمان وثبات اليقين والبسالة النادرة التي قاتل بها الجيش الصغير، فإن للطاقة البشرية حدودًا. وإذا نظرنا إلى ظروف معركة مؤتة - وخاصة بعد فقد الجيش الإسلامي قاداته الثلاثة، ومُضي ستة أيام عليه وهو يقاتل ذلك القتال الضاري - لوجدنا أن استمراره إلى ما نهاية في التصدي لمائتي ألف مقاتل ومجالدتها هو فوق طاقة البشر.

وليس بوسع أي خبير عسكري منصف يُلم بتفاصيل وظروف معركة مؤتة لا يسعه إلا أن يعترف بأن ثبات المسلمين في وجه الرومان كل هذه الأيام هو أرقى مراتب النصر والغلبة مهما قيل عن اضطرابهم ومحاولة بعضهم الانهزام.

خالد بن الوليد وخطة الانسحاب الرائع:

قام القائد خالد بن الوليد ﷺ أثناء الليل بتبديل كُليّ في الميمنة والميسرة والقلب من جيشه، فجعل رجال ميمنة الجيش مكان رجال الميسرة، كما جعل رجال الميسرة مكان رجال الميمنة، أثناء التعبئة للمواجهة في اليوم السابع، كما استبدل رجال القلب في الصفوف بآخرين، وهدفه من ذلك أن يُدخل عمليًا في نفوس قيادة الرومان الاعتقاد أن جيشًا جديدًا وعسكريًا لم يسبق لهم أن اشتركوا في القتال قد جاؤوا مددًا للمسلمين من المدينة.

نجاح خطة التضليل أنقذت المسلمين في مؤتة:

هذه هي خطة الإيهام والتضليل التي رسمها ونفذها القائد الفذ المحنك خالد بن الوليد ﷺ فأنقذ بها جيش الإسلام من فناء يكاد يكون محققًا. [وأذكر أن المارشال روميل القائد الألماني الشهير قد طبق - في حرب الصحراء الليبية - خطة الإيهام والتضليل التي رسمها ونفذها خالد بن الوليد ﷺ في (مؤتة) فأنقذ روميل بتطبيق (خطة خالد) مجموعة كبيرة من القوات الألمانية التي كان الجيش الإنكليزي يهددها إما بالسحق وإما بإجبارها على التسليم «اقرأ كتاب عيون التاريخ العالمي ج ٤ الحديث الخاص بمعارك صحراء ليبيا». باشميل]. فما كاد يطلع الصباح حتى وجد الرومان أنفسهم أمام جيش جديد، فأنكروا من المسلمين ما كانوا يعرفونه طوال أيام القتال الستة.

فقد وجد الرومان قادة وجنودًا أنفسهم - أثناء تقابل الصفوف في اليوم السابع - أمام قادة وجنود وهيئات ورايات غير القادة والجنود والرايات والهيئات التي كانوا يواجهونها في الصفوف الأولى ميسرة وميمنة وقلب أثناء القتال في الأيام الستة الماضية.

وبينما كانت الأسئلة تلح على قادة الجيش الروماني: ما إذا كان هذا الذي يرون يعني أن جيش الإسلام قد تلقى أثناء الليل مددًا كبيرًا من المدينة، إذا بغبار يسد الأفق من بعيد ناحية الجزيرة خلف ظهر الجيش الإسلامي أثارت هذا الغبار سنابك خيل تركض بأقصى سرعة.

وما هي إلا برهة وجيزة حتى دوت أرجاء (مؤتة) بأصوات التهليل والتكبير منبعثة من بين ثنايا ذلك الغبار الذي حجب الأفق، ثم انشق هذا الغبار عن كتائب من الفرسان تتبع إحداها الأخرى في تنسيق وإحكام راکضة نحو المسلمين في (مؤتة) قد رجفت الأرض رجفًا لوقع حوافر خيلها المنطلقة بأقصى سرعة وأصوات فرسانها تصم آذان الرومان بالتهليل والتكبير؛ ولإدخال مزيد من الرعب في قلوب الرومان اهتز معسكر المسلمين المواجه للرومان في (مؤتة) بالتكبير والتهليل، كل ذلك تم بتخطيط محكم من القائد المحنك المظفر خالد بن الوليد رضي الله عنه.

وكان ذلك آخر حلقة في الخطة الرائعة التي أحكمها القائد خالد رضي الله عنه لتضليل قادة الجيش الروماني وإيهامهم بأن مددًا عظيمًا قد تلقاه المسلمون في (مؤتة) من المدينة.

فقد أيقن قادة الجيش الروماني أن كل ما رأوه من تغير شامل في رجال القوات الإسلامية في الميمنة والميسرة والقلب وتدفق هذه الكتائب التي رأوا غبار وقع سنابك خيلها يحجب الأفق منذ الصباح الباكر خلف خطوط المسلمين، إنما هو مدد كبير يمثل جيش عظيم من المدينة لمساندة المسلمين ليستمروا في خوض المعركة في مؤتة حتى النصر.

خالد رضي الله عنه يهاجم الرومان ويلحق بهم أعظم الخسائر ثم ينسحب:

ونتيجة هذا الاعتقاد الذي أوجده لدى القادة الرومانيين نجاح خطة التضليل البارة التي نفذها خالد بن الوليد رضي الله عنه، دب الفزع والرعب إلى نفوس الرومان وسادهم الهرج والمرج ولسان حالهم يقول: إذا كان ثلاثة آلاف مقاتل من هؤلاء المسلمين قد فعلوا كل هذه الأفاعيل بالرومان وحلفائهم، وظلوا يجالدون مائتي ألف مقاتل طوال ستة أيام، مُتزلزين بهم أفدح الخسائر فماذا عسى أن يصنعوا بهم إذاً بعد أن وصل إليهم هذا المدد الكبير من المدينة؟

وأدرك خالد رضي الله عنه - بحاسة القائد الماهر المحنك - ما أصاب الرومان وحلفاءهم من خوف ورعب وارتباك؛ نتيجة نجاح خدعته الحربية البارة المحكمة، فاغتنمها فرصة، فأمر في الحال بالهجوم على خطوط الرومان وبأسلوب عام صاعق كاسح فتم له ما أراد.

فقد مالت كل صفوف جيش الإسلام على خطوط الرومان الأمامية، فتملك الرعب نفوسهم، ثم تضعضعت صفوفهم، فركبهم المسلمون وأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة، كانت بكل معاني الكلمة (مذبحة) كما سبق وصف الواقدي لها.

ويقول ابن سعد في روايته عن أبي عامر رضي الله عنه: «فأخذ خالد رضي الله عنه اللواء، ثم حمل على القوم فهزمهم أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شأوا». [الطبقات ٢/ ١٢١].

تسعة أسياف تتكسر في يد خالد بمؤتة:

واستمر خالد يطارد الرومان بكل قواته حتى أئخنوخهم، وكان القتال قتالاً ضارياً خاضه المسلمون - بعد هزيمتهم - بحق وغيظ، وكان الرومان في تراجعهم - أمام هجوم خالد المضاد - يقاتلون بشراسة، ولا أدل على عنف المعركة التي انتصر فيها خالد ﷺ على الرومان - والفضل الأول للخدعة البارعة - من أن القائد خالدًا ﷺ تكسرت في يد تسعة سيوف بعد أن تولى قيادة الجيش وشن هجومه المضاد المفاجئ على الرومان.

عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ﷺ يَقُولُ: لَقَدْ انْقَطَعَتْ [دُقٌّ] فِي يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ [وَصَبْرَتْ] فِي يَدِي إِلَّا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ. [البخاري في المغازي (٤٢٦٥، ٤٢٦٦)].

تنفيذ خطة الانسحاب إلى المدينة:

ولما كان هدف القائد خالد ﷺ من كل الأعمال والخدع الحربية التي لجأ إليها هو أن يؤمن لجيش الإسلام انسحاباً منظماً من مؤتة، اغتنم فرصة ارتباك الجيوش الرومانية واضطرابها واعتقادها أن المسلمين قد تلقوا نجدة من المدينة، فأصدر أمره إلى قادة الفرق والكتائب في جيش الإسلام بالارتداد بالجيش نحو الجنوب على تعبئة وانتظام، كما هو متفق عليه بينه وبين هيئة أركان حربه عند وضع الخطة لهذا الانسحاب في الليل.

فأخذ الجيش الإسلامي يغادر ميدان المعركة في مؤتة منسحباً بكل هدوء وضبط وانتظام ويقظة. وأشرف القائد خالد ﷺ نفسه على عملية الانسحاب، فكان يجول بفرسه بين الكتائب والفرق المنسحبة ليظل النظام سائداً أثناء الانسحاب، ولتظل روح الجند والقادة ومعنوياتهم عالية، فلا يدركهم الخوف فيسودهم الاضطراب والفوضى.

فتمت عملية الانسحاب من (مؤتة) كما قدّر ويريد القائد البطل خالد ﷺ، تمت على أدق نظام ودونما أية خسارة.

يقول د/ بريك: «ثم بدأ خالد بن الوليد ﷺ بعد ذلك عملية الانسحاب الشاملة من ميدان المعركة، عندما قامت مؤخره المسلمين بقتال التعويق لإحباط مطاردة العدو للمسلمين، وإنقاذ القسم الأكبر من قوات المسلمين من التطويق». [خطاب: الرسول القائد ﷺ ٣٠٨].

وانتشرت المؤخرة على جبهة واسعة، واستطاع خالد ﷺ قطع التماس القريب مع العدو، ولكنه لم يكن بعيداً عن مدى النبال، وكان تراجع المسلمين تحت حماية وابلٍ من سهام النبال الذين كان على رأسهم النبال الإسلامي المشهور «واقد بن عبد الله التميمي» (واقد بن عبد الله بن عبد مناف التميمي، حليف بني عدي بن كعب، ذكره موسى وابن إسحاق فيمن شهد بدرًا، وكان واقد هو الذي قتل ابن الحضرمي في نخلة، وكانت بنو يربوع

تفتخر بذلك. قال ابن أبي حاتم: مات واقد في أول خلافة عمر رضي الله عنه. إصابة ٢٢٨/٣، وكان من أرمى الناس، وقد كبر وقال: ارفعوني على ترس (الترس: الدرق، وتُتخذ من الحديد أو المعدن، ويستخدمها المحارب في ميدان المعركة كوقاية من ضربات العدو)، فرفعه، فقال: انظروا إلى مواقع نبلي، فإن رضىتم أخبروني، فرمى المشركين حتى ردهم الله. [أخرجه سعيد بن منصور (السنن ٢/٢٩٧-٢٩٨) بسند صحيح عن سعيد بن أبي هلال، الذي رواه بلاغاً، وهو منقطع، سعيد بن أبي هلال لم يدرك الواقعة].

وعندما تراجع المشركون «جمع خالد رضي الله عنه قواته، وقطع التماس مع العدو، وانسحب مع قواته بعيداً إلى الخلف، وأصبح الجيشان يواجهان بعضهما خارج مدى النبال، وكان كلاهما يلتمس الراحة وإعادة التنظيم». [سيف الله للجنرال أكرم ١٠٦-١٠٧].

ويذكر صاحب حقائق الأنوار أن خالدًا رضي الله عنه «قاتل قتالاً شديداً، ودافع عن المسلمين حتى انحاز بهم إلى جبل». [حقائق الأنوار لبحرق ٣٤٤].

وكانت تلك فرصة للمسلمين لدفن شهدائهم في المعركة، قال سعيد بن أبي هلال: «بلغني أنهم دفنوا يومئذ زيداً، وجعفرًا، وابن رواحة في حفرة واحدة». [سعيد بن منصور (السنن ٢/٢٩٧-٢٩٨). السابق].

كما تم تقسيم أسلاب القتلى من العدو على مقاتليهم، إلا أن خالدًا رضي الله عنه استكثر سلب الرومي الذي قتله المددي كما سبق بيانه.

وهكذا استطاع خالد بن الوليد رضي الله عنه، بتوفيق من الله تعالى، ثم بحنكته وتدييره أن يحتفظ بتوازن المعركة حتى الليل.

لقد كان لسان حال الروم: «إذا كان المسلمون على قتلهم، قد فعلوا ما فعلوا بالأمس، فكيف وهم اليوم قد جاؤوهم المدد، وازداد العدد؟!

لقد أحجم الروم عن الهجوم، وكذلك لم يهاجمهم خالد رضي الله عنه، فقد كان يرد أن يخرج من المعركة غير المتكافئة بجيشه سليماً، ويرعب العدو حتى لا يلاحقه في تراجعه، فلما اطمأن إلى نجاح خطته تراجع بقواته، وبُعد بها حتى صار في مأمن». [الشريف: مكة والمدينة ٥٣٧]. [غزوة مؤتة لبريك ٣٢٧-٣٢٩].

قيادة الرومان تأمر بعدم تعقب المسلمين في انسحابهم:

يقول أ/ باشميل: «فالجيش الروماني الذي يمكن أن يقوم بلاحقة المسلمين ومطاردتهم أثناء انسحابهم، قد وقف - رغم كثرة الهائلة - شبه مشلول يسوده الذهول عقب الأهوال التي لقيها على أيدي المسلمين في الهجوم الكاسح المضاد الذي قام به خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد نجاح حيلته العسكرية وخدعته الحربية البارعة.

فمع ما أنزله المسلمون في هجومهم المضاد من خسائر فادحة بين صفوف الجيش الروماني كان قادة هذا الجيش لا يزالون يعتقدون أن ما حدث من المسلمين من قتال شرس وهجوم كاسح في المرة الأخيرة،

إنما هو نتيجة تلقيهم نجدات عظيمة من المدينة؛ ولهذا أصدر القادة الرومان إلى كافة قادة الكتائب والفرق في جيشهم بأن لا يتعقب أحد المسلمين في انسحابهم.

وقد فسر أحد الباحثين من المؤرخين إحجام الرومان عن مطاردة المسلمين المنسحبين مع قدرة الرومان الكاملة - من الناحية البشرية - على مطاردة المسلمين وإنزال أكبر خسارة ممكنة بهم أثناء انسحابهم حيث يوجد لدى الرومان وحلفائهم من سلاح المطاردة (سلاح الفرسان) ما لا يقل عن خمسين ألف فارس، فسر ذلك بأنه إما راجع إلى أن القيادة الرومانية العليا تعتقد أن الانسحاب الذي قام به خالد بن الوليد ﷺ وجيشه في ذروة انتصاره في المعركة، إنما هو مكيدة حربية يدبرها القائد لإيقاع الجيش الروماني - إذا ما تتبع المنسحبين المسلمين - في كمائن قد أعدها مقدمًا، ولا أحد يجيد الكمائن وإحكامها مثل العرب، فأحجمت القيادة الرومانية لذلك عن تعقب المسلمين في انسحابهم رغم قلة عددهم ورغم كونهم يتحركون في انسحابهم داخل أراض رومانية، بل ورغم أن الرومان يعرفون أن المسلمين سيقطعون (أثناء انسحابهم) مسافة ستمائة ميل، مزروعة كلها بأناس وثنيين أو عرب متنصرة يتاصبون الإسلام والمسلمين العداوة والخصومة.

وإما أن إحجام الرومان عن المطاردة راجع إلى أن الرومان - كما أشار الأستاذ محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد ﷺ - قد فرحوا وكانوا مسرورين لانسحاب المسلمين من ميدان المعركة التي لم يستطع الرومان أن يُسجّلوا على المسلمين النصر الذي كانوا يأملون الحصول عليه رغم كثرتهم الغامرة الهائلة ورغم قلة المسلمين القليلة، بل لقد أنزل هؤلاء المسلمون بالرومان خسارة كبيرة قبل أن يصل إليهم هذا المدد - الذي توهم الرومان أنه قد وصلهم فعلاً - لهذا أحجم الرومان عن ملاحقة المسلمين وكان سرورهم عظيمًا بانسحابهم.

وعلى أي حال فقد نجح القائد خالد ﷺ في انسحابه بجيش الإسلام انسحابًا سليماً منظماً أنجاه به من أخطار مدمرة كانت ستحق به، بل إنها لمحيقة به لولا أن وفق الله وجوه الجيش وقادة الكتائب فأسندوا قيادته إلى هذا القائد البطل المحنك خالد بن الوليد ﷺ. [غزوة مؤتة لباشميل ٢٠٨-٢١٠].

النبي ﷺ يصف المعركة قبل عودة الجيش:

وذكر المؤرخون وأصحاب السير والحديث أن الله تعالى كشف لرسوله ﷺ المسافة الفاصلة بين المدينة ومكان المعركة في (مؤتة) حتى صار ينظر عيانًا إلى ما حدث هناك من قتال ضارٍ عنيف، ويشهد مصرع القادة الثلاثة وتولي خالد بن الوليد القيادة، ولقبه لأول مرة بسيف الله، وهذا من المعجزات التي أكرم الله بها نبيه ﷺ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ»، وَإِنْ عَيْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَتَذَرِفَانِ، «ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ غَيْرِ امْرَأَةٍ، فَفُتِحَ لَهُ». [البخاري في الجناز (١٢٤٦)].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَنْ [مِنْ] غَيْرِ امْرَأَةٍ فَفُتِحَ لَهُ [فَفُتِحَ اللَّهُ عَلَيْهِ]»، وَقَالَ: «مَا يَسُرُّنَا [يَسُرُّنِي] أَنَّهُمْ عِنْدَنَا»، قَالَ أَيُّوبُ: أَوْ قَالَ: «مَا يَسُرُّهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا» [وَقَالَ: وَعَيْنَاهُ وَإِنْ عَيْنِي] تَذَرِفَانِ.

[البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٨، ٣٠٦٣)، ومسند أحمد ١٩/١٦٧، ٢١٢ رقم ١٢١١٤، ١٢١٧٢].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ رضي الله عنه لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ [يَجِيء] خَبَرُهُمْ، فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ»، [فَنَعَاهُمْ] وَعَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ، «حَتَّى أَخَذَ [الرَّايَةَ] سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

[البخاري في المناقب (٣٧٥٧، ٣٦٣٠)، وفي المغازي (٤٢٦٢)، والنسائي في الجناز (١٨٧٨)].

وَعَنْ خَالِدِ بْنِ سُمْيَرٍ قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَبَاحٍ [الأنصاري]، وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ تُفَقِّهُهُ، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي حِوَاءِ شَرِيكَ بْنِ الْأَعْوَرِ الشَّارِعِ عَلَى الْمَرْبِدِ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو قَتَادَةَ [الأنصاري] رضي الله عنه فَارْسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَيْشَ الْأَمْرَاءِ، وَقَالَ: «عَلَيْكُمْ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَإِنْ أُصِيبَ زَيْدٌ فَجَعْفَرُ [بْنُ أَبِي طَالِبٍ]، فَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرُ، فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ [الأنصاري]»، فَوُتِبَ جَعْفَرٌ رضي الله عنه فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَأُمِّي مَا كُنْتُ أَزْهَبُ أَنْ تَسْتَعْمَلَ عَلَيَّ زَيْدًا! قَالَ: «امْضُوا [امْضُوا] فَإِنَّكَ لَا تَذَرِي أَيْ ذَلِكَ خَيْرٌ».

قَالَ: فَانْطَلَقَ الْجَيْشُ، فَلَبِثُوا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَعِدَ الْمِنْبَرَ وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَابَ خَيْرٌ [خَيْرٌ] أَوْ نَابَ خَيْرٌ [خَيْرٌ] - شَكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ - أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ جَيْشِكُمْ هَذَا الْغَازِي؟! إِيَّاهُمْ انْطَلَقُوا حَتَّى لَقُوا الْعَدُوَّ، فَأُصِيبَ زَيْدٌ شَهِيدًا، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ»، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ النَّاسُ، «ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَشَدَّ عَلَى الْقَوْمِ، حَتَّى قُتِلَ شَهِيدًا، أَشْهَدُ لَهُ بِالشَّهَادَةِ، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ، ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَأَتَيْتَ قَدَمِيهِ حَتَّى أُصِيبَ شَهِيدًا، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ، ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْأَمْرَاءِ هُوَ أَمَرَ نَفْسَهُ»، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُصْبُعِيهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ هُوَ [إِنَّهُ] سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِكَ فَانْصُرْهُ - وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مَرَّةً: فَانْتَصِرْ بِهِ»، فَيَوْمَئِذٍ سُمِّيَ خَالِدٌ سَيْفَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «انْفِرُوا فَأَمْدُوا إِخْوَانَكُمْ وَلَا يَتَخَلَّفَنَّ أَحَدٌ»، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي حَرِّ شَدِيدٍ مُشَاءَةً وَرُكْبَانًا.

[مسنند أحمد ٣٧/٢٤٤-٢٤٦، ٢٥٧-٢٥٨ رقم ٢٢٥٥١، ٢٢٥٦٦، وقال الشيخ الأرنؤوط: صحيح لغيره، وهذا

إسناد جيد من أجل خالد بن سمير، وجميع الزوائد في المغازي والسير ٦/٢٢٩-٢٣٠ رقم ١٠٢١٦، وقال الهيثمي: رواه

أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير خالد بن سمير وهو ثقة. ورواه مختصراً: الدارمي في السير (٢٤٤٨)، وقال الشيخ الداراني: إسناده صحيح.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَيْشًا اسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه وَقَالَ: «إِن قُتِلَ زَيْدٌ - أَوْ اسْتُشْهِدَ - فَأَمِيرُكُمْ جَعْفَرٌ، فَإِنْ قُتِلَ أَوْ اسْتُشْهِدَ فَأَمِيرُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ»، فَلقُوا الْعَدُوَّ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرٌ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَأَتَى خَبَرُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَخَرَجَ إِلَى النَّاسِ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ لَقُوا الْعَدُوَّ، وَإِنَّ زَيْدًا أَخَذَ الرَّايَةَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ - أَوْ اسْتُشْهِدَ - ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ بَعْدَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ - أَوْ اسْتُشْهِدَ - ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ - أَوْ اسْتُشْهِدَ - ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَمْهَلَ».

ثُمَّ أَمْهَلَ آلَ جَعْفَرٍ ثَلَاثًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ، ثُمَّ أَنَاهُمْ فَقَالَ: «لَا تَبْكُوا عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ، ادْعُوا إِلَى ابْنِي أَخِي»، قَالَ: فَجِيءَ بِنَا كَانَا أَفْرُخٌ، فَقَالَ: «ادْعُوا إِلَى الْخَلَّاقِ»، فَجِيءَ بِالْخَلَّاقِ، فَحَلَقَ رُؤُوسَنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا مُحَمَّدٌ فَنَسِيَهُ عَمَّنَا أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَنَسِيَهُ خَلْقِي وَخُلُقِي»، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَأَشَاهَا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ»، قَالَهُمَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

قَالَ: فَجَاءَتْ أُمُّنَا، فَذَكَرَتْ لَهُ يَتَمَنَّا، وَجَعَلَتْ تُفْرِحُ لَهُ (هو من أفرحه: إذا غمه وأزال عنه الفرح)، فَقَالَ: «الْعَيْلَةُ تَحَايِرْنَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا وَلِيَّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟!». [مسند أحمد ٣/ ٢٧٨-٢٧٩ رقم ١٧٥٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، مجمع الزوائد في المغازي والسير ٦/ ٢٣٠ رقم ١٠٢١٨، وقال الهيثمي: قلت: روى أبو داود وغيره بعضه، رواه أحمد والطبراني [المعجم الكبير ٢/ ١٠٥ رقم ١٤٦١، ١٣/ ٧٩ رقم ١٩٤، ١٤/ ١٥٠ رقم ١٤٧٧]، ورجالها رجال الصحيح. والأحاديث المختارة للمقدسي ٩/ ١٦٢-١٦٤ رقم ١٣٧-١٤٠، والسنن الكبرى للنسائي في السير ٨/ ١٨ رقم ٨٥٥٠، ورواه مختصراً: أبو داود في الترجل (٤١٩٢)، والنسائي في الزينة (٥٢٢٧)].

وَقَالَ أَبُو الْيَسْرِ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَتَاهُ أَبُو عَامِرٍ الْأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه، فَقَالَ: بَعْثَنِي فِي كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ أَتَيْتُ مُؤْتَةً، فَلَمَّا صَفَّ الْقَوْمُ رَكِبَ جَعْفَرٌ رضي الله عنه فَرَسَهُ، وَلَبَسَ الدَّرْعَ، وَأَخَذَ اللَّوَاءَ، حَتَّى أَتَى الْقَوْمَ، ثُمَّ نَادَى: مَنْ يُبْلَغُ هَذِهِ صَاحِبَهَا؟، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا، فَبَعَثَ بِهَا، ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَضَرَبَ بِسَيْفِهِ حَتَّى قُتِلَ، فَتَحَدَّرَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دُمُوعًا، فَصَلَّى بِنَا الظُّهْرَ، ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُكَلِّمْنَا، ثُمَّ أُقِيمَتِ الْعَصْرُ فَخَرَجَ فَصَلَّى، ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُكَلِّمْنَا، فَفَعَلَ كَذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، فَدَخَلَ وَلَمْ يُكَلِّمْنَا، وَكَانَ إِذَا صَلَّى أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا فِي الْفَجْرِ فِي السَّاعَةِ الَّتِي كَانَ يُخْرُجُ فِيهَا، وَأَنَا وَأَبُو عَامِرٍ الْأَشْعَرِيُّ جُلُوسٌ، فَجَلَسَ بَيْنَنَا، وَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ رُؤْيَا رَأَيْتُهَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَرَأَيْتُ جَعْفَرًا ذَا جَنَاحَيْنِ مُضَرَّجَيْنِ بِالْدمَاءِ، وَزَيْدٌ مُقَابِلَهُ، وَابْنُ رَوَاحَةَ مَعَهُمْ، كَأَنَّهُ يُعْرِضُ عَنْهُمْ، وَسَأَخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، إِنَّ جَعْفَرًا

حِينَ تَقْدَمَ فَرَأَى الْقَتْلَ لَمْ يَصْرِفْ وَجْهَهُ، وَزَيْدٌ كَذَلِكَ، وَإِبْنُ رَوَاحَةَ صَرَفَ وَجْهَهُ».

[مجمع الزوائد في المغازي والسير ٦/ ٢٣٥-٢٣٦ رقم ١٠٢٢٤، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٩/ ١٦٧-١٦٨ رقم ٣٧٨] وفيه ثابت بن دينار أبو حمزة وهو ضعيف].

وعن موسى بن عقبة قال: قَدِمَ يَعْلَى بْنُ أُمَيَّةَ   عَلَى رَسُولِ اللَّهِ   بِحَبْرٍ أَهْلِ مُؤَتَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ  : «إِنْ شِئْتَ فَأَخْبِرْنِي وَإِنْ شِئْتَ أَخْبَرْتُكَ»، قَالَ: أَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: فَأَخْبَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ   خَبَرَهُمْ كُلَّهُ، وَوَصَفَهُ لَهُمْ، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا تَرَكْتُ مِنْ حَدِيثِهِمْ حَرْفًا لَمْ تَذْكُرْهُ، وَإِنَّ أَمْرَهُمْ لَكُمْ ذَكَرْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ  : «إِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - رَفَعَ لِي الْأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مُعْتَرِكِهِمْ».

[دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٦٥].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَلَمَّا أُصِيبَ الْقَوْمُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ   فِيمَا بَلَغَنِي: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى قُتِلَ شَهِيدًا، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرُ، فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى قُتِلَ شَهِيدًا»، قَالَ: ثُمَّ صَمَتَ رَسُولُ اللَّهِ   حَتَّى تَغَيَّرَتْ وَجْوهُ الْأَنْصَارِ، وَظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ   بَعْضُ مَا يَكْرَهُونَ، ثُمَّ قَالَ: «ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى قُتِلَ شَهِيدًا»، ثُمَّ قَالَ: «لَقَدْ رُفِعُوا إِلَيَّ فِي الْجَنَّةِ، فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، عَلَى سُرُرٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَرَأَيْتُ فِي سَرِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ اِزْوَارًا عَنْ سَرِيرِي صَاحِبِيهِ، فَقُلْتُ: عَمَّ هَذَا؟ [بِمَ هَذَا؟]، فَقِيلَ لِي: مَضِيًا، وَتَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ بِبَعْضِ التَّرَدُّدِ ثُمَّ مَضَى». [مجمع الزوائد في المغازي والسير ٦/ ٢٣٤-٢٣٥ رقم ١٠٢٢١، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [في الجزء المفقود]، ورجاله ثقات. السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٨٠].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ عَمَارَةَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، زَادَ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ فِي الْحَدِيثِ قَالَا: لَمَّا اتَّقَى النَّاسُ بِمُؤَتَةَ جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ   عَلَى الْمِنْبَرِ، وَكُشِفَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّامِ، فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى مُعْتَرِكِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ  : «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَجَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَحَبَّبَ إِلَيْهِ الْحَيَاةَ، وَكَرِهَ إِلَيْهِ الْمَوْتَ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ الدُّنْيَا»، فَقَالَ: «الآنَ حِينَ أُسْتُحْكَمُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، تُحِبُّ إِلَيَّ الدُّنْيَا، فَمَضَى قَدَمًا حَتَّى أُسْتَشْهِدَ»، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ   وَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لَهُ، فَقَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ يَسْعَى، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ  ، فَجَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَمَنَّاهُ الْحَيَاةَ وَكَرِهَ إِلَيْهِ الْمَوْتَ، وَمَنَّاهُ الدُّنْيَا، فَقَالَ: الآنَ حِينَ أُسْتُحْكَمُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ تُكْنِي الدُّنْيَا، ثُمَّ مَضَى قَدَمًا حَتَّى أُسْتَشْهِدَ»، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ   وَدَعَا لَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَهُوَ يَطِيرُ فِي الْجَنَّةِ بِجَنَاحَيْنِ مِنْ يَاقُوتٍ، حَيْثُ يُشَاءُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ بَعْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَاسْتَشْهِدَ وَدَخَلَ الْجَنَّةَ مُعْتَرِضًا».

فَسَقَى ذَلِكَ عَلَى الْأَنْصَارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ  : «أَصَابَةُ الْجِرَاحِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا اعْتَزَّضُهُ؟ قَالَ: «لَمَّا أَصَابَتْهُ الْجِرَاحُ نَكَلَ، فَعَاتَبَ نَفْسَهُ فَشَجَّعَ، فَاسْتَشْهِدَ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ»، فَسَرَّيَ عَنْ قَوْمِهِ.

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جَعْفَرًا مَلِكًا يَطِيرُ فِي الْجَنَّةِ تَذْمَى قَادِمَتَاهُ، وَرَأَيْتُ زَيْدًا دُونَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ زَيْدًا دُونَ جَعْفَرٍ، فَأَتَى جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: إِنَّ زَيْدًا لَيْسَ بِدُونَ جَعْفَرٍ، وَلَكِنَّا فَضَّلْنَا جَعْفَرًا لِقَرَابَتِهِ مِنْكَ».

حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ الْمُقْبَرِيِّ، عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ الْفَرَسَانِ أَبُو قَتَادَةَ، وَخَيْرُ الرَّجَالَةِ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ». [المغازي للواقدي ٢ / ٦٧١-٦٧٢].

النبي ﷺ يشيد ببطولة خالد رضي الله عنه:

ويذكر المؤرخون أن النبي ﷺ - وهو يخبر أصحابه في المدينة بعد أن كشف الله له مكان المعركة بمؤتة - أكد لهم أن ميزان المعركة تحول لصالح المسلمين بعد أن هُزموا بعد مقتل قادتهم الثلاثة، وكان هذا التحول بعد أن تولى خالد بن الوليد رضي الله عنه القيادة، فقد روى الواقدي عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْفَضْلِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا أَخَذَ خَالِدُ اللَّهِ الرَّايَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الآن حَمِي الْوُطَيْسُ». [المغازي للواقدي ٢ / ٧٦٤].

كناية عن عودة المسلمين إلى القتال واشتداد القتال بينهم وبين الرومان.

تحرك النبي ﷺ بالمسلمين سريعاً لإمداد أهل مؤتة:

يقول د/ بريك: «كان الروم وحلفاؤهم قد أحجموا عن مطاردة المسلمين نتيجة تلك المناورة الذكية التي قام بها خالد بن الوليد رضي الله عنه في ميدان المعركة، ولكن الذي زادهم إحجاماً ورعباً، تلك المناورة الأذكى من مبتكر المناورات الذكية الذي سَمَّى: «الحرب خدعة» [حديث صحيح. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما. ينظر: (فتح الباري ٦ / ١٥٨). قال النووي (صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ / ٤٥): «وأنفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز»]. القائد الأعلى للقوات الإسلامية، رسول الله ﷺ، الذي ما أن وصله الخبر مباشرة عن أحداث المعركة بواسطة الوحي الإلهي، حتى أمر المسلمين في المدينة - بعد أن قصَّ عليهم الخبر - كما أسلفنا - بالتحرك سريعاً لإمداد المسلمين في مؤتة، حيث قال - كما في حديث أبي قتادة رضي الله عنه السابق: «انْفِرُوا فَأَمِدُّوا إِخْوَانَكُمْ وَلَا يَتَحَلَّفَنَّ أَحَدٌ»، فَفَرَّ النَّاسُ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ مُشَاءً وَرُكْبَانًا».

وإذا كان خبر تحرك المسلمين سابقاً من المدينة نحو مؤتة، قد وصل إلى مسامع الروم وحلفائهم بسرعة فائقة، مكنتهم من الاستعداد لهم، ذلك الاستعداد الجيد، فإن الخبر بمسير رسول الله ﷺ بالمسلمين من المدينة سريعاً لإمداد إخوانهم في مؤتة، ربما يكون قد وصل إلى مسامع الروم وحلفائهم أسرع مما كان متصوراً في ذلك الوقت.

نظراً للتأييد الإلهي للنبي ﷺ بتلك المعجزة النبوية التي خصه الله بها دون غيره من الأنبياء، وهي

النصر بالرعب مسيرة شهر. [قال ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ». البخاري في التيمم (٣٣٥)، وفي الصلاة (٤٣٨)، وفي الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢). وفي لفظ لأحمد: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَيَزَعِبُ مِنِّي الْعَدُوُّ عَنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ». أحمد عن أبي ذر الغفاري ؓ رقم ٢٠٧٩٢. وفي لفظ لمسلم: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ». مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)].

والمسافة بين المدينة وبيت المقدس كانت تساوي مسيرة شهر في ذلك الوقت، فإذا علمنا أن مؤتة كانت للمدينة أقرب من بيت المقدس، فإنه لا بد أن يكون الرعب قد دخل قلوب الروم وحلفائهم منذ اللحظة التي تحرك فيها النبي ﷺ مع المسلمين من المدينة، فأثروا السلامة، مكتفين بها حققوه في بداية المعركة، وتجنبوا المغامرة الخطرة في تعقب المسلمين، خوفاً من الاصطدام بالمدد النبوي المتحرك سريعاً من المدينة صوب منطقة العمليات في مؤتة.

ولم توضح الرواية، ما حدث بعد ذلك، وإن كان ابن أبي شيبه، قد زاد في روايته للخبر أحداثاً تفرد بها حول سير النبي ﷺ بالمسلمين، ولكنها قد تكون مدرجة من حديث آخر. [ينظر: المصنف ٥١٢/١٤-٥١٦].
الشاهد أن تلك الحركة من رسول الله ﷺ قد تكون (مناورة تكتيكية) لإرهاب الأعداء وإدخال الرعب في قلوبهم، وقد أدت مهمتها على الوجه المطلوب. والله تعالى أعلم». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٣٣٥-٣٣٧].

المبحث السادس

عودة الجيش الإسلامي إلى المدينة

كَاهِنَةٌ حَدَسٍ وَإِنذَارُهَا قَوْمَهَا:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَقَدْ كَانَتْ كَاهِنَةٌ مِنْ حَدَسٍ حِينَ سَمِعَتْ بِجَيْشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلًا، قَدْ قَالَتْ لِقَوْمِهَا مِنْ حَدَسٍ (قبيلة من لخم، ولخم قبيلة من اليمن) - وَقَوْمُهَا بَطْنٌ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو غَنَمٍ -: أَنْذِرْكُمْ قَوْمًا خُزْرًا (جمع أخزر، وهو الذي ينظر بمؤخرة عينه نظر المتكبر)، يَنْظُرُونَ شَرًّا (الشر: نظر العداءة)، وَيَقُودُونَ الْخَيْلَ تَتَرَى (متابعة شيئًا بعد شيئًا)، وَيُهِرِيقُونَ دَمًا عَكْرًا (العكر: المتعكر، يريد دمًا مختلطًا)، فَأَخَذُوا بِقَوْلِهَا، وَاعْتَرَلُوا مِنْ بَيْنِ لَحْمٍ؟ فَلَمْ تَزَلْ بَعْدُ أَتَرَى (أثرى: من الثروة، وهي الكثرة، أي: أكثر مالا وعدداً) حَدَسٍ. وَكَانَ الَّذِينَ صَلَّوْا الْحَرْبَ يَوْمَئِذٍ بَنُو نَعْلَبَةَ بَطْنٌ مِنْ حَدَسٍ، فَلَمْ يَزَالُوا قَلِيلًا بَعْدُ. فَلَمَّا انْصَرَفَ خَالِدٌ بِالنَّاسِ أَقْبَلَ بِهِمْ قَافِلًا». [السيرة النبوية لابن هشام ٣٨٢/٢].

الرد على التحرشات السابقة على المعركة:

قال ابن عائد: قال الوليد: وأما السلامي فإنه أخبرني عن غير واحد أن خالدًا ﷺ لما أخذ الراية قاتلهم قتالاً شديداً، ثم انحاز الفريقان كلٌّ عن كلِّ قافلاً عن غير هزيمة، ففعل المسلمون على طريقهم التي أبدوا منها، حتى مروا بتلك القرية والحصن الذين كانوا شدوا على ساقاتهم، وقتلوا رجلاً منهم، فحاصروهم في حصنهم حتى فتحه الله عليهم عنوة، فقتل خالد بن الوليد ﷺ مقاتلتهم في نقيع إلى جانب حصنهم صبراً، فيها سُمِّيَ ذلك النقيع نقيع الدم إلى اليوم، فهدموا حصنهم هدمًا لم يعمر بعده إلى اليوم. [تاريخ دمشق لابن عساكر ١٦/٢].

يقول د/ بريك: «وبذلك استطاع سيف الله خالد ﷺ بث الرعب في قلوب حلفاء الروم، وأعوانهم من العرب المنتصرة، الذين يمر المسلمون في طريق عودتهم عبر أراضيهم، فلم تذكر الروايات أنهم تعرضوا للمسلمين بأي أدى كما فعلوا بالأمس». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشالية لبريك ٣٣٠].

جزع الصحابة ﷺ على شهداء مؤتة:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: لَمَّا اسْتَدَّ جَزَعُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَنْ قُتِلَ يَوْمَ مُؤْتَةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْدِرِكَنَّ الدَّجَالُ قَوْمًا مِثْلَكُمْ أَوْ خَيْرًا مِنْكُمْ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - وَلَنْ يَخْزِيَ اللَّهُ أُمَّةً، أَنَا أَوَّلُهَا، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ آخِرُهَا». [المستدرک على الصحيحين في المغازي والسرايا ٤٣/٣ رقم ٤٣٥١، وقال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُجَرَّجَاهُ، وَقَالَ الذَّهَبِيُّ: ذَا مَرْسَلٍ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنْكَرٍ، وَقَالَ الشَّيْخُ الصَّوْبَانِيُّ: سَنَدُهُ صَحِيحٌ. الصَّحِيحُ مِنْ أَحَادِيثِ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ص ٤٣٦].

المظاهرة في المدينة ضد الجيش:

واصل القائد خالد بن الوليد ﷺ انسحابه بالجيش من مؤتة في الشام حتى وصل المدينة دون أن يتعرض لأي مكروه.

وكانت أنباء معركة (مؤتة) في الشام قد وصلت مشوشة إلى المدينة، وشاعت شائعات فيها تقول: إن عسكر الإسلام في (مؤتة) قد فروا، وانهزموا.

والفرار - منذ أن شرع الله الجهاد للمسلمين في سبيله - خلة مرذولة قبحها القرآن، وما سبق للمسلمين أن فر أحد منهم من ميدان المعركة.

ولهذا فإن ما أشيع من أن المسلمين قد فروا من الرومان وانهزموا دون أن يقوموا بما يجب القيام به من الثبات والتضحية، قد أحدث استياء عامًا بين الجماهير في المدينة.

لذلك لم يكد خالد ﷺ يصل بجيشه إلى ضواحي المدينة (بالجرف) حتى اصطدام بمظاهرة كبيرة تندد بالجيش، وكان المتظاهرون يصيحون بالجيش: يا فرار! فررتم في سبيل الله، ويحثون في وجوه الجند والقادة التراب.

وكان الرسول العظيم ﷺ يدافع عن موقف الجيش ويحاول تهدئة المتظاهرين ويقول: ليسوا بفرار ولكنهم كرار إن شاء الله.

وكانت حقائق البطولات النادرة التي تفوق الوصف والتي قام بها جيش الإسلام في مؤتة قد وصلت النبي ﷺ في تقارير صحيحة كما هي (قدم هذه التقارير الصحيحة إلى النبي ﷺ أحد رجال استخباراته وهو رجل يقال له «أبو عامر» ينظر: طبقات ابن سعد الكبرى ٢/ ١٩٢)؛ ولهذا انبرى ﷺ يرد على المتظاهرين في المدينة مدافعاً عن جيشه الباسل وقائده البطل خالد بن الوليد ﷺ، الذي بدعائه العسكري - كما تقدم - أنزل في هجوم صاعق بالرومان في مؤتة أفدح الخسائر ثم انسحب بالجيش انسحاباً منظماً نال عليه الإعجاب والتقدير من الرسول الأعظم ﷺ، بل ولا يزال حتى هذه اللحظة محل إعجاب القادة العسكريين في العالم الذي يعرفون تفاصيل خدعة خالد ﷺ الحربية التي بها نفذ خطة الانسحاب وأنقذ الجيش من فناء محقق.

ومع أن الحقيقة خلاف ما أشيع عن جيش الإسلام في مؤتة فقد ظل أهل المدينة حانقين على الجيش يؤنبون كل من لاقوه من أفرادهم، حتى المرأة كانت لا تفتح الباب لزوجها منهم وتذكره بأنه من الذين فروا وفضلوا الحياة على الاستشهاد في سبيل الله.

أما كبار القادة من وجوه أصحاب الرسول ﷺ الذين حضروا مؤتة فكانوا يلزامون بيوتهم خوفاً من أن يسمعوهم ما يكرهون مما يُعَيِّرهم به أهل المدينة، الذين أصروا على أن جيش مؤتة قد فر وهرب، حتى اضطر النبي ﷺ إلى أن يبعث إليهم رجلاً رجلاً.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: لَمَّا دَنَوْا مِنْ حَوْلِ الْمَدِينَةِ تَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ، قَالَ: وَلَقِيَهُمُ الصَّبِيَّانُ يَسْتَدُونَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلٌ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى دَابَّةٍ، فَقَالَ: «خُذُوا الصَّبِيَّانِ فَاحْمِلُوهُمَا، وَأَعْطُونِي ابْنَ جَعْفَرٍ»، فَأَتَى عَبْدَ اللَّهِ فَأَخَذَهُ فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

قَالَ: وَجَعَلَ النَّاسُ يَخْتُونُ عَلَى الْجَنَاشِ التُّرَابَ وَيَقُولُونَ: يَا فُرَارُ! فَرَزْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسُوا بِالْفُرَارِ وَلَكِنَّهُمْ الْكُرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ بَعْضِ آلِ الْحَارِثِ ابْنِ هِشَامٍ: وَهُمْ أَخْوَالُهُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ لَامْرَأَةٍ سَلَمَةَ بْنِ هِشَامٍ ابْنِ الْعَاصِ بْنِ الْمُعِيرَةِ: مَا لِي لَا أَرَى سَلَمَةَ يَحْضُرُ الصَّلَاةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَ الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ، كُلَّمَا خَرَجَ صَاحَ بِهِ النَّاسُ: يَا فُرَارُ! فَرَزْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى قَعَدَ فِي بَيْتِهِ فَمَا يَخْرُجُ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٨٢-٣٨٣].

وَقَالَ الْوَائِدِيُّ: «حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ إِلْيَاسَ عَنْ صَالِحِ بْنِ أَبِي حَسَّانَ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ حُنَيْنٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: أَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ﷺ بِالنَّاسِ مِنْهُمْ مَا، فَلَمَّا سَمِعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِجَيْشِ مُؤتَةَ قَادِمِينَ تَلَقَّوهُمْ بِالْجُرْفِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَخْتُونُ فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ وَيَقُولُونَ: يَا فُرَارُ! أَفَرَزْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسُوا بِفُرَارٍ، وَلَكِنَّهُمْ كُرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ!».

حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ إِلْيَاسَ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدَةَ يَقُولُ: مَا لَقِيَ جَيْشُ بُعْثُوا مَعَنَا مَا لَقِيَ أَصْحَابُ مُؤتَةَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، لَقِيَهُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بِالسَّيْرِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ إِلَى بَيْتِهِ وَأَهْلِهِ فَيَدُقُّ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَيَأْبُونَ أَنْ يَفْتَحُوهُ لَهُ، يَقُولُونَ: أَلَا تَقَدَّمْتَ مَعَ أَصْحَابِكَ؟ فَأَمَّا مَنْ كَانَ كَبِيرًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ فِي بَيْتِهِ اسْتَحْيَاءً، حَتَّى جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رَجُلًا رَجُلًا، يَقُولُ: «أَنْتُمْ الْكُرَارُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ!».

حَدَّثَنِي مُصْعَبُ بْنُ ثَابِتٍ، عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: كَانَ فِي ذَلِكَ الْبُعْثِ سَلَمَةُ بْنُ هِشَامٍ ابْنِ الْمُعِيرَةِ ﷺ فَدَخَلَتْ أُمُّ سَلَمَةَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: مَا لِي لَا أَرَى سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ؟ أَشَتَكِي شَيْئًا؟ قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: لَا وَاللَّهِ وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ

الخُرُوجَ، إِذَا خَرَجَ صَاحِبَا بَيْهَ وَيَأْصَحَابِهِ: «يَا قُرَارُ أَقْرَزْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟»، حَتَّى قَعَدَ فِي الْبَيْتِ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ أُمُّ سَلَمَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَلْ هُمْ الْكُرَارُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَلْيُخْرِجْ!» فَخَرَجَ. حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ إِلْيَاسَ عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ ﷺ قَالَ: كُنَّا نَخْرُجُ وَنَسْمَعُ مَا نَكْرَهُ مِنَ النَّاسِ، لَقَدْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ عَمٍّ لِي كَلَامٌ فَقَالَ: إِلَّا فِرَارَكَ يَوْمَ مُؤَتَةَ! فَمَا دَرَيْتُ أَيَّ شَيْءٍ أَقُولُ لَهُ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٤-٧٦٥].

أثر مقتل جعفر على رسول الله ﷺ:

يقول أ/ باشميل: «كان جعفر بن أبي طالب ﷺ ابن عم الرسول ﷺ، وكان شاباً ذا أخلاق رفيعة، وأريحية متناهية، وصاحب كرم ونفس عالية، وكان من السابقين الأولين في الإسلام، وهو الذي أسلم على يده النجاشي أصحمة إمبراطور الحبشة، وكانت له هناك مواقف محمودة، بها نافع عن الإسلام، وشرح وأجلى وجهة نظره السليمة لملك الحبشة وأركان دولته؛ مما كان له أكبر الأثر في حماية المهاجرين المسلمين اللاجئين إلى إمبراطور الحبشة من اضطهاد مشركي مكة الذين لحقوا بالمسلمين، وحاول وفد ظالم منهم التأثير على إمبراطور الحبشة كي يُسلمهم إليهم ليعودوا بهم إلى مكة ليضطهدوهم ويفتنوهم عن دينهم».

ولكن جعفرًا ﷺ - وكان رئيس اللاجئين المهاجرين عند ملك الحبشة أصحمة - وقف بما أعطاه الله ﷻ من رجاحة عقل واتقاد ذهن واستنارة بصيرة وقُدرة على الكلام المؤثر والإقناع، لا أن يحبط محاولة المشركين القرشيين الإجرامية التي تستهدف إعادة المسلمين إلى جو الشرك الخائق الذي يسيطر على مكة يوم أن كان المشركون في عنفوان جبروتهم، بل استطاع أن يقنع ملك الحبشة (النجاشي) أن يدخل في الإسلام، ويعلن ذلك رغم معارضة مجلس الكنائس في مملكته، ورغم محاولة أركان دولته القيام بثورة مسلحة لإسقاطه بعد أن أعلن إسلامه. (تمكن النجاشي من القضاء على هذه الثورة وظل «بتأييد من الله» ملكاً مسلماً على شعب مسيحي حتى توفاه الله في العهد النبوي، فصلى عليه النبي ﷺ في المدينة صلاة الغائب).

وقد كان النقاش الذي دار في قاعة العرش بمملكة النجاشي، في الحبشة بين جعفر والنجاشي ورسول قريش الذين جاؤوا يطالبون النجاشي بتسليم المسلمين لهم، كان هذا النقاش مثيراً للغاية دلّ على فطنة وذكاء وإيمان راسخ وجرأة منطق، يتمتع بها جعفر بن أبي طالب ﷺ الذي غلب بالحجة والمنطق والحق باطل وفد المشركين في بلاط النجاشي، حتى بلغ التأثير من كلام جعفر بالنجاشي إلى أن يأمر بطرد وفد المشركين، ويعلن حمايته للمهاجرين المسلمين في بلاده، بل وإلى أن يدخل في الإسلام، بعد أن عرف من حديث جعفر بن أبي طالب ﷺ أن ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ هو ما جاء به نبي الله عيسى ﷺ من مشكاة واحدة. [ينظر: تفاصيل هذه القصة الشائقة في سيرة ابن هشام ٣٥٦/١ وما بعدها].

وقد سجل جعفر بن أبي طالب ﷺ تلك الانتصارات للإسلام على الشرك والمشركين، وتمكن بحكمته وقوة إيمانه وقدرته على الإقناع من إدخال الإسلام إلى قلب ملك الحبشة نفسه فأسلم على يده [ينظر: الوثائق السياسية ص ٧٥-٧٨]، تمكن جعفر ﷺ من تسجيل وتحقيق كل ذلك وهو دون الثلاثين من عمره.

محبة النبي ﷺ الشديدة لجعفر ﷺ:

وكان النبي ﷺ يحب جعفرًا حبًّا شديدًا؛ لما فيه من خصال قلَّ أن توجد في غيره: قوة الإيمان، وحسن الخلق، وطيب العشرة، ونقاء الضمير، والشجاعة الفائقة، والكرم العظيم، حتى قيل إنه ليس أحد أقرب إلى أخلاق رسول الله ﷺ من ابن عمه جعفر ﷺ، بل إنها لحقيقة أكدها الرسول ﷺ بقوله يخاطب جعفرًا ﷺ (وكان معه في عمرة القضاء): «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي».

[البخاري في الصلح (٢٦٩٩)، ومسنند أحمد ٣٠/٥٩٤ رقم ١٨٦٣٥، ١٨٦٣٦، والدارمي في السير (٢٥٠٧)].

ولم يقم النبي ﷺ لأحد جاء من سفر إلا لجعفر بن أبي طالب ﷺ، الذي قام له عند عودته بالمهاجرين من الحبشة، وقَبَّلَ ما بين عينيه، وحجل (مشى على رجل واحدة). والعرب يفعلون ذلك تعبيرًا عن الفرح فرحًا بقدومه، وهذا يدل على علو منزلة جعفر ومكانته العالية في نفس النبي ﷺ.

وبعض الصحابة يرون أن جعفر بن أبي طالب ﷺ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، فَعَنَ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: مَا اخْتَدَى (انتعل ولبس حذاء في قدميه) النَّعَالَ، وَلَا اَتَنَعَلَ وَلَا رَكِبَ الْمَطَايَا (جمع مطية وهي الدابة التي يركب مطاها أي ظهرها، أو هي التي تمط في سيرها أي تمد)، وَلَا رَكِبَ الْكُورَ (الرحل وهو ما يوضع على ظهر البعير ليركب عليه كالسرج للفرس) بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَفْضَلُ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ [يَعْنِي فِي الْجُودِ وَالْكَرَمِ]. [الترمذي في المناقب (٣٧٦٤)، وَقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ. قال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد موقوف. ومسنند أحمد ١٥/٢٠٦ رقم ٩٣٥٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري].

حزن الرسول ﷺ وبكاؤه لموت جعفر ﷺ:

وقد حزن رسول الله ﷺ على ابن عمه جعفر ﷺ حزنًا شديدًا، فقد تأثر لمقتله إلى حد أن صار يذرف الدموع حزنًا عليه، وذهب بنفسه إلى بيت جعفر لمواساة أهله وأبنائه وكانوا أطفالًا صغارًا.

عَنْ أُمِّ جَعْفَرٍ بِنْتِ مُحَمَّدٍ بِنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ جَدَّتِهَا أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا أُصِيبَ جَعْفَرٌ وَأَصْحَابُهُ دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ دَبَعْتُ أَرْبَعِينَ مَبِيئَةً، وَعَجَنْتُ عَجِينِي، وَغَسَلْتُ بَنِيَّ وَدَهَشْتُهُمْ وَنَطَقْتُهُمْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اِئْتِنِي بِنِي جَعْفَرٍ»، قَالَتْ: فَأَتَيْتُهُ بِهِمْ، فَشَمَّهُمْ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي، مَا يُبْكِيكَ؟ أَبْلَغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، أُصِيبُوا هَذَا الْيَوْمَ».

قَالَتْ: فَقُمْتُ أَصِيحُ، وَاجْتَمَعَ إِلَيَّ النِّسَاءُ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ: «لَا تُغْفِلُوا آلَ جَعْفَرٍ مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا، فَإِنَّهُمْ قَدْ شُغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ».

[مسند أحمد ٢٥/٤٥ رقم ٢٧٠٨٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف لجهالة أم عيسى الجزار. مجمع الزوائد في المغازي والسير ٦/٢٣٦-٢٣٧ رقم ١٠٢٢٥، وقال الهيثمي: قلت: روى ابن ماجه بعضه. رواه أحمد وفيه امرأته لم أجد من وثقهما ولا جرحهما، وبقيته رجاله ثقات. والمعجم الكبير للطبراني ١٤٣/٢٤ رقم ٣٨٠].

عَنْ أُمِّ عَوْنِ ابْنَةِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ جَدَّتِهَا أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رضي الله عنها، قَالَتْ: لَمَّا أُصِيبَ جَعْفَرُ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ: «إِنَّ آلَ جَعْفَرٍ قَدْ شُغِلُوا بِشَأْنٍ مِثْلِهِمْ، فَاصْنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا». قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَمَا زَالَتْ سُنَّةٌ حَتَّى كَانَ حَدِيثًا، فَتَرَكَ.

[ابن ماجه في الجنايز (١٦١)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَعِيَ جَعْفَرُ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا فَقَدْ آتَاهُمْ أَمْرٌ يَشْغُلُهُمْ».

[المستدرک علی الصحیحین فی الجنايز ١/٥٢٧ رقم ١٣٧٧، وقال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَأَمْرٌ جَاءَ].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا قُتِلَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا فَقَدْ آتَاهُمْ مَا يَشْغُلُهُمْ». [الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي ٤/٤٧١ ترجمة رقم ٨٣٨، وقال الشيخ الصوياني: حسن بما قبله (حديث ابن ماجه). الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٤٣٢].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ أُمِّ عَيْسَى الْخَزَاعِيَّةِ، عَنْ أُمِّ جَعْفَرٍ بِنْتِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ جَدَّتِهَا أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ، قَالَتْ: لَمَّا أُصِيبَ جَعْفَرُ رضي الله عنه وَأَصْحَابُهُ رضي الله عنهم دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ دَبَعْتُ أَرْبَعِينَ مَنًّا - قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُرْوَى أَرْبَعِينَ مَنِيَّةً - وَعَجَنْتُ عَجِينِي، وَغَسَلْتُ بَنِيَّ وَدَهَنْتُهُمْ وَنَظَفْتُهُمْ، قَالَتْ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَيْتَنِي بِنَبِيٍّ جَعْفَرٍ؟»، قَالَتْ: فَأَتَيْتُهُ بِهِمْ، فَتَسَمَّمْتُهُمْ، وَدَرَقْتُ عَيْنَاهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا يُنْكِيكَ؟ أَبْلَغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَصْبِيُوا هَذَا الْيَوْمَ»، قَالَتْ: فَقُمْتُ أَصِيحُ، وَاجْتَمَعَتْ إِلَيَّ النِّسَاءُ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ: «لَا تُغْفِلُوا آلَ جَعْفَرٍ مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا، فَإِنَّهُمْ قَدْ شُغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٨٠-٣٨١].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ أَبِي الرَّجَالِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ حَزْمٍ عَنْ أُمِّ عَيْسَى بْنِ الْخَزَارِ عَنْ أُمِّ جَعْفَرٍ بِنْتِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ جَدَّتِهَا أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ، قَالَتْ: أَصْبَحْتُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أُصِيبَ فِيهِ جَعْفَرُ وَأَصْحَابُهُ، فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَدْ هَيَّأْتُ أَرْبَعِينَ مَنًّا (المن: الذي يوزن به، وهو الرطل. شرح أبي ذر ص ٣٥٦) مِنْ أَذْمِ (الأدم: ما يؤكل مع الخبز أي شيء كان. النهاية ١/٢١) وَعَجَنْتُ عَجِينِي، وَأَخَذْتُ

بَنِي فَعَسَلْتُ وَجُوهَهُمْ وَدَهَنْتُهُمْ؟ فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَسْمَاءُ، أَيْنَ بَنُو جَعْفَرٍ؟»، فَجِئْتُ بِهِمْ إِلَيْهِ فَصَمَّمَهُمْ وَشَمَّمَهُمْ، ثُمَّ ذَرَفْتُ عَيْنَاهُ فَبَكَى، فَقُلْتُ: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ! لَعَلَّكَ بَلَغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ شَيْءٌ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، قُتِلَ الْيَوْمَ»، قَالَتْ: فَقُمْتُ أَصْبَحُ، وَاجْتَمَعَ إِلَيَّ النِّسَاءُ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا أَسْمَاءُ لَا تَقُولِي هُجْرًا (الهجر: الإفحاش في المنطق. الصحاح ص ٨٥١)، وَلَا تَضْرِبِي صَدْرًا»، قَالَتْ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى دَخَلَ عَلَى ابْنَتَيْهِ فَاطِمَةَ وَهَي تَقُولُ: وَاعْمَاهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى مِثْلِ جَعْفَرٍ فَلْتَبْكِي الْبَاكِئَةَ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اصْنَعُوا لِأَلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا، فَقَدْ شُغِلُوا عَنْ أَنْفُسِهِمِ الْيَوْمَ».

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي يَعْلَى، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ يَقُولُ: أَنَا أَحْفَظُ حِينَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أُمِّي فَنَعَى لَهَا أَبِي، فَأَنْظَرُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَمْسَحُ عَلَى رَأْسِي وَرَأْسِ أَخِي، وَعَيْنَاهُ مُتَرَاقَانِ الدَّمُوعَ حَتَّى تَقْطُرَ لَحِيَّتَهُ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّ جَعْفَرًا قَدْ قَدِمَ إِلَى أَحْسَنِ الثَّوَابِ، فَأَخْلَفَهُ فِي ذُرِّيَّتِهِ بِأَحْسَنِ مَا خَلَفْتَ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ فِي ذُرِّيَّتِهِ»، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَسْمَاءُ أَلَا أَبْشُرُكَ؟»، قَالَتْ: بَلَى، يَا أَبَا أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: «فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ لِجَعْفَرٍ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ!»، قَالَتْ: يَا أَبَايَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَأَعْلِمِ النَّاسَ ذَلِكَ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَخَذَ بِيَدِي، يَمْسَحُ بِيَدِهِ رَأْسِي، حَتَّى رَفَعَنِي عَلَى الْمِنْبَرِ، وَأَجْلَسَنِي أَمَامَهُ عَلَى الدَّرَجَةِ السُّفْلَى، وَالْحُزْنَ يُعْرِفُ عَلَيْهِ، فَتَكَلَّمَ فَقَالَ: «إِنَّ الْمَرْءَ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ وَابْنُ عَمِّهِ، أَلَا إِنَّ جَعْفَرًا قَدْ أُسْتُشِهَدَ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ»، ثُمَّ نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ بَيْتَهُ وَأَدْخَلَنِي، وَأَمَرَ بِطَعَامٍ فَصَنِعَ لِأَهْلِي، وَأَرْسَلَ إِلَيَّ أَخِي فَتَغَدَّيْنَا عِنْدَهُ وَاللَّهُ غَدَاءٌ طَيِّبًا مُبَارَكًا، عَمِدَتْ سَلْمَى خَادِمَتُهُ إِلَى شَعِيرٍ فَطَحَّتْهُ، ثُمَّ نَسَفَتْهُ، ثُمَّ أَنْصَجَتْهُ وَأَدَمَّتْهُ بَزَيْتٍ، وَجَعَلَتْ عَلَيْهِ فُلْفُلًا، فَتَغَدَّيْتُ أَنَا وَأَخِي مَعَهُ، فَأَكْمَنَّا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي بَيْتِهِ، نُدُورُ مَعَهُ كُلَّمَا صَارَ فِي إِحْدَى بُيُوتِ نِسَائِهِ، ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى بَيْتِنَا، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أُسَاوِمُ بِشَاءِ أَخِي، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي صَفْقَتِهِ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَمَا بَعْتُ شَيْئًا وَلَا اشْتَرَيْتُ شَيْئًا إِلَّا بِوَرَكٍ فِيهِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٦-٧٦٧].

نهى النبي ﷺ عن النواح:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ قَتْلُ ابْنِ حَارِثَةَ وَجَعْفَرٍ وَابْنِ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، جَلَسَ [رَسُولُ اللَّهِ ﷺ] [فِي الْمَسْجِدِ] يُعْرِفُ فِيهِ الْحُزْنَ، وَأَنَا أَنْظُرُ [أَطْلُعُ] مِنْ صَائِرِ الْبَابِ - [تَعْنِي مِنْ] شَقِّ الْبَابِ - فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: [أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ!] إِنَّ نِسَاءَ جَعْفَرٍ، وَذَكَرَ بَكَاءَهُنَّ، فَأَمَرَهُ أَنْ [يَذْهَبَ] فَيَنْهَاهُنَّ، فَذْهَبَ [الرَّجُلُ] ثُمَّ أَتَاهُ [أَتَى] [الثَّانِيَةَ] فَقَالَ: قَدْ نَهَيْتُهُنَّ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يُطِيعْنَهُ، فَقَالَ: «انْهَيْهِنَّ»، قَالَ: فَأَمَرَ أَيْضًا فَذْهَبَ، ثُمَّ أَتَى [فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ]، قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ غَلَبَتْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَرَعَمَتْ أَنَّهُ قَالَ: «فَاخْتُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ»، فَقُلْتُ: أَرَعَمَ اللَّهُ أَفْكَ! [فَوَاللَّهِ] لَمْ [مَا أَنْتَ] [تَفْعَلْ] مَا أَمَرَكَ [مَا قَالَ لَكَ] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ تَتْرُكْ [وَمَا تَرَكْتُ] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَنَاءِ [الْعَمِي]. [البخاري في الجنايز: (١٢٩٩)، (١٣٠٥)، وفي المغازي (٤٢٦٣)، ومسلم في الجنايز (٩٣٥)، وأبو داود في الجنايز (٣١٢٢)، ومسند أحمد ٤٠/ ٣٦٣ رقم ٢٤٣١٣].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: لَمَّا أَتَى نَعْيُ جَعْفَرٍ ﷺ عَرَفْنَا فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْحُزْنَ، قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ النِّسَاءَ عَتَيْنَا وَفَتَنَنَّا؟ قَالَ: «فَارْجِعْ إِلَيْهِنَّ فَأَسْكِنْتِهِنَّ»، قَالَتْ: فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ - قَالَ: تَقُولُ وَرُبَّمَا ضَرَّ التَّكْلُفُ أَهْلَهُ - قَالَتْ: قَالَ: «فَاذْهَبْ فَأَسْكِنْتِهِنَّ، فَإِنْ أَبَيْنَ فَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ»، قَالَتْ: وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَبْعَدَكَ اللَّهُ! فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُ نَفْسَكَ، وَمَا أَنْتَ بِمُطِيعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: وَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣٨١/٢].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ أَبِي عَاتِكَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا قَدِمَ نَعْيُ جَعْفَرٍ ﷺ عَرَفْنَا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْحُزْنَ، قَالَتْ: قَدِيمًا مَا ضَرَّ النَّاسَ التَّكْلُفُ (كثرة السؤال والبحث عن الأشياء الغامضة التي لا يجب البحث عنها. النهاية ٣١/٤)، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ النِّسَاءَ قَدْ عَتَيْنَا بِمَا يَبْكِينَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَارْجِعْ إِلَيْهِنَّ فَأَسْكِنْتِهِنَّ، فَإِنْ أَبَيْنَ فَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ»، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَبْعَدَكَ اللَّهُ! مَا تَرَكْتُ نَفْسَكَ، وَمَا أَنْتَ بِمُطِيعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ عَمْرَةَ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَنَا أَطْلِعُ مِنْ صَبْرِ (شق) الْبَابِ فَاسْمَعُ هَذَا». [المغازي للواقدي ٧٦٧-٧٦٨].

مواصلة النبي ﷺ للمصاحبة ولأهل جعفر ﷺ:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: لَمَّا جَاءَ نَعْيُ جَعْفَرٍ ﷺ [حِينَ قُتِلَ] قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اصْنَعُوا لِأَهْلِ [لِأَلِ] جَعْفَرٍ طَعَامًا فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ [أَنَّهُمْ أَمَرُوا] مَا يَشْغَلُهُمْ».

[الترمذي في الجنائز (٩٩٨)، وَقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَقَدْ كَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَسْتَحِبُّ أَنْ يُوجَّهَ إِلَى أَهْلِ الْمَيِّتِ شَيْءٌ لِيُشْغِلَهُمْ بِالْمُصِيبَةِ. وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ. وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْجَنَائِزِ (٣١٣٢)، وَابْنُ مَاجَةَ فِي الْجَنَائِزِ (١٦١٠)، وَمُسْنَدُ أَحْمَد ٢٨٠/٣ رقم ١٧٥١، وَقَالَ الشَّيْخَانُ الْأَبَانِيُّ وَالْأَرْنَؤُوطُ: إِسْنَادُهُ حَسَنٌ].

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نَعِيرٍ، قَالَ: لَمَّا اشْتَدَّ حُزْنُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى مَنْ أُصِيبَ مَعَ زَيْدٍ ﷺ يَوْمَ مُؤْتَةَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَكْزُرْكَ الْمَسِيحُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَقْوَامٌ إِنَّهُمْ لِمِثْلِكُمْ، أَوْ خَيْرٌ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلَوْ يُخْزِي اللَّهُ أُمَّةً أَنَا أَوَّلُهَا، وَالْمَسِيحُ أَخْرُهَا». [المصنف لابن أبي شيبة تح عوامة ٢٥٧/١٣ رقم ١٩٦٩٠، ١٩٤/٢٠ رقم ٣٨١٢٦، وَقَالَ الشَّيْخُ عُوَامَةُ: رَجَالُهُ ثِقَاتٌ، وَلَا شَيْءَ فِيهِ يَنْزِلُهُ عَنِ الصَّحَّةِ إِلَّا أَنَّهُ مَرْسَلٌ...].

وَعَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قُتِلَ يَوْمَ مُؤْتَةَ بِالْبَلْقَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ بِأَفْضَلِ مَا خَلَفْتَ عَبْدًا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ». [المصنف لابن أبي شيبة ١٧٧/١٧، ٥١٣/٢٠ رقم ٣٨١٢٣، ٣٢٨٦٩، وَقَالَ الشَّيْخُ عُوَامَةُ: وَهَذَا مَرْسَلٌ، وَرَجَالُهُ ثِقَاتٌ].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَتَّمُ وَعُبَيْدُ اللَّهِ ابْنِي عَبَّاسٍ، وَنَحْنُ صَبِيَانُ نَلْعَبُ، إِذْ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَاتِيهِ، فَقَالَ: «ارْزُقُوا [اِحْمِلُوا] هَذَا إِلَيَّ»، قَالَ: فَحَمَلَنِي [فَجَعَلَنِي] أُمَامَةً، وَقَالَ لِقَتْمٍ: «ارْزُقُوا [اِحْمِلُوا] هَذَا إِلَيَّ»، فَجَعَلَهُ وَرَاءَهُ، وَكَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ أَحَبَّ إِلَى عَبَّاسٍ مِنْ قَتْمٍ، فَلَمَّا اسْتَحَى مِنْ عَمِّهِ أَنْ حَمَلَ قَتْمٌ وَتَرَكَهُ، قَالَ: ثُمَّ مَسَحَ عَلَى رَأْسِي ثَلَاثًا، وَقَالَ كُلَّمَا مَسَحَ: «اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي وَلَدِهِ»، قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ: مَا فَعَلَ قَتْمٌ؟ قَالَ: اسْتَشْهَدَ، قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِالْخَيْرِ وَرَسُولُهُ بِالْخَيْرِ، قَالَ: أَجَلُ.

[مسند أحمد ٣/ ٢٨٤-٢٨٥ رقم ١٧٦٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده حسن، والمستدرک علی الصحيحین في الجنائز ٥٢٨/١ رقم ١٣٧٨، ومجمع الزوائد ٩/ ٤٦٦ رقم ١٥٥٣٩، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات، والسنن الكبرى للنسائي في عمل اليوم والليلة ٩/ ٣٩١، ٣٩٣ رقم ١٠٨٣٨، ١٠٨٤٥، والسنن الكبرى للبيهقي في الجنائز ٩٩/٤ رقم ٧٠٩٣، ومسند الحارث ٢/ ٩١٨ رقم ١٠٠٧، والأحاديث المختارة للمقدسي ٩/ ١٦٩ رقم ١٤٦، ١٤٧].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَسَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ عَلَى رَأْسِي قَالَ: - أَظَنُّهُ قَالَ ثَلَاثًا - فَلَمَّا مَسَحَ قَالَ: «اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي وَلَدِهِ»، قَدْ أَتَى جَعْفَرُ بْنُ خَالِدٍ بِشَيْتَيْنِ عَرِيْزَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَسَحَ رَأْسَ الْيَتِيمِ، وَالْآخَرُ تَقَدُّ أَهْلِ الْمُصِيبَةِ بِمَا يَتَمَوَّتُونَ لَيْلَتَهُمْ «وَقَفْنَا اللَّهُ لِاسْتِعْمَالِهِ عَنْهُ»

[المستدرک علی الصحيحین في الجنائز ٥٢٨/١ رقم ١٣٧٩].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمْهَلَ آلَ جَعْفَرٍ ثَلَاثًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَالَ: «لَا تَبْكُوا أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ»، ثُمَّ قَالَ: «إِبْنُونِي بَنِي أَخِي»، فَجِيءَ بِنَا كَانَا أَفْرَاحَ، فَأَمَرَ بِحَلْقِ رُؤُوسِنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا مُحَمَّدٌ فَشَبِّهِهُ عَمَّنَا أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَشَبِّهِهُ خَلْفِي وَخُلْفِي»، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ، اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ». [السنن الكبرى للنسائي في المناقب ٧/ ٣١٥ رقم ٨١٠٤].

وَعَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعْدٍ مَوْلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: لَمَّا أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ، أَمْهَلَ آلَ جَعْفَرٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَالَ: «أَخْرِجُوا إِلَيَّ وَلَدَ أَخِي» قَالَ: فَأَخْرِجَ ثَلَاثَةً كَانَتْهُمْ أَفْرَاحَ، فَأَخْرِجَ عَبْدُ اللَّهِ وَعَوْنٌ، وَمُحَمَّدٌ، فَدَعَا الْخُلَاقَ فَحَلَقَ رُؤُوسَهُمْ، وَقَالَ: «أَمَّا عَوْنٌ، فَاشْبِهْ خَلْفِي وَخُلْفِي، وَأَمَّا مُحَمَّدٌ فَاشْبِهْ عَمَّنَا أَبَا طَالِبٍ»، وَأَخَذَ بِيَدِ عَبْدِ اللَّهِ فَأَشَاهَا وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ»، قَالَ: وَجَعَلَتْ أُمُّهُمْ تُفْرِحُ لَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعَيْلَةُ وَأَنَا وَلِيُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟» [مسند أبي داود الطيالسي ٢/ ٢٨٧ رقم ١٠٢٩].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَسَحَ بِرَأْسِهِ ثَلَاثًا، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ [وَلَدِهِ]».

[المعجم الكبير للطبراني ١٣/ ٨٣ رقم ٢٠٦، ١٤/ ١٦٠ رقم ١٤٧٨٩، والأحاديث المختارة للمقدسي ٩/ ١٦٨ رقم

وَأَخْرَجَ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فِي نَوَادِرِ الْأُصُولِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: بَعَثَنِي خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رضي الله عنه بِشِيرًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ مُؤْتَةَ، فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «عَلَى رِسْلِكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، أَخَذَ اللَّوَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، رَحِمَ اللَّهُ زَيْدًا، ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ جَعْفَرُ، فَقَاتَلَ فَقُتِلَ، رَحِمَ اللَّهُ جَعْفَرًا، ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَقَاتَلَ فَقُتِلَ، رَحِمَ اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ، ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ خَالِدٌ، فَفَتَحَ اللَّهُ خَالِدًا، فَخَالِدٌ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ»، فَبَكَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ حَوْلُهُ، فَقَالَ ﷺ: «مَا يُبْكِيكُمْ؟»، قَالُوا: وَمَا لَنَا لَا نَبْكِي، وَقَدْ قُتِلَ خِيَارُنَا وَأَشْرَافُنَا وَأَهْلُ الْفَضْلِ مِنَّا، فَقَالَ ﷺ: «لَا تَبْكُوا، فَإِنَّمَا مِثْلُ أُمَّتِي مِثْلُ حَدِيقَةٍ قَامَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا فَاجْتَنَّتْ رَوَاكِيهَا (أَيَ أَبَارِهَا)، وَهِيَ أَمْسَاكِهَا، وَحَلَقَ سَعْفُهَا (أَيَ: قَصَّ سَعْفَ نَخْلِهَا، وَالسَّعْفُ مِنَ النَّخْلِ بِمَثَابَةِ الْوَرَقِ مِنَ الشَّجَرِ)، فَأَطْعَمَتْ عَامًّا فَوْجًا، ثُمَّ عَامًّا فَوْجًا، ثُمَّ عَامًّا فَوْجًا، فَلَعَلَّ آخِرَهَا طَعْمًا يَكُونُ أَجُودَهَا فِتْنُونًا (هُوَ الْعَذْقُ الَّذِي فِيهِ الرُّطْبُ)، وَأَطْوَلُهَا شُمْرَاخًا (هُوَ الْغَضُّ مِنْ أَغْصَانِ الْعَذْقِ)، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لِيَجِدَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ فِي أُمَّتِي خَلْفًا مِنْ حَوَارِيهِ».

[الدر المنثور للسيوطي ٥/ ١٢٤-١٢٥ سورة النساء الآية ١٥٩].

بكاء النبي ﷺ لرؤية أسامة بن زيد رضي الله عنه:

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: جَاءَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنه بَعْدَ قَتْلِ أَبِيهِ، فَقَامَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ مِنَ الْعَدُوِّ، فَقَامَ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ لَهُ: «أَلَا قِي مِنْكَ الْيَوْمَ مَا لَقِيتَهُ مِنْكَ أَمْسٍ؟».

[المطالب العالية لابن حجر في السيرة والمغازي ١٧/ ٤٤٨ رقم ٤٢٩٦، وقال ابن حجر: هذا صورته مرسل، فإن كان قيس سمعه من أسامة، فهو صحيح على شرط الشيخين. وقال محققه: رجاله ثقات، وصورته مرسل].

أنفال المسلمين من مؤتة:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ ابْنِ عَقِيلٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: أُصِيبَ بِهَا نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ بَعْضَ أَمْنِيَةِ الْمُشْرِكِينَ، فَكَانَ مِمَّا غَنِمُوا خَاتَمًا جَاءَ بِهِ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: قَتَلْتُ صَاحِبَهُ يَوْمَئِذٍ! فَتَفَلَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِيَّاهُ».

حَدَّثَنِي بُكَيْرُ بْنُ مَسَارٍ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ غَزِيَّةَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: حَضَرْتُ مُؤْتَةَ، فَبَارَزْتُ رَجُلًا يَوْمَئِذٍ فَأَصَبْتُهُ، وَعَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ بَيْضَةٌ لَهُ فِيهَا يَافُوتَةٌ، فَلَمْ يَكُنْ هَمِّي إِلَّا الْيَافُوتَةَ فَأَخَذْتُهَا، فَلَمَّا انْكَشَفْنَا وَانْتَهَرْنَا رَجَعْتُ بِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَتَيْتُ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَتَقَلَّبْتُهَا فَبِعْتُهَا زَمَنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَأَشْرَيْتُ بِهَا حَدِيقَةً نَخْلٍ بَيْنِي خَطْمَةً. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٨، ٧٦٩].

شَهَادَةُ مُؤْتَةٍ:

عَنْ عُرْوَةَ، فِي تَسْمِيَةِ مَنْ قُتِلَ يَوْمَ مُؤْتَةٍ: زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ۞.

عَنْ عُرْوَةَ، فِي تَسْمِيَةِ مَنْ قُتِلَ يَوْمَ مُؤْتَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: الْحَارِثُ بْنُ النُّعْمَانِ بْنِ يَسَافٍ بْنِ نَضْلَةَ بْنِ عَبْدِ عَوْفٍ بْنِ غَنَمٍ ۞.

عَنْ عُرْوَةَ، فِي تَسْمِيَةِ مَنْ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ مُؤْتَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ مِنَ الْأَنْصَارِ، ثُمَّ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، ثُمَّ مِنْ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ: سُرَاقَةُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَطِيَّةَ بْنِ خَنْسَاءَ ۞.

[مجمع الزوائد في المغازي والسير ٢٣٧/٦ رقم ١٠٢٢٦، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٨٤/٥ رقم ٤٦٥٤، ٣١١/٣ رقم ٣٣٩٦، ١٦١/٧ رقم ٦٦٠٦] وفيه ابن لهيعة وهو حسن الحديث وفيه ضعف].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَهَذِهِ تَسْمِيَةُ مَنْ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ مُؤْتَةٍ:

مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ: جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ۞، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ۞.

وَمِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ كَعْبٍ: مَسْعُودُ بْنُ الْأَسْوَدِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ نَضْلَةَ.

[وَمِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤْيٍ، ثُمَّ] مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ حَسَلٍ [حَسَلٍ]: وَهَبُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ.

وَمِنْ الْأَنْصَارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْحَزْرَجِ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَعَبَادُ [عَبَادَةَ] بْنُ قَيْسٍ.

وَمِنْ بَنِي غَنَمٍ مِنْ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ: الْحَارِثُ بْنُ النُّعْمَانِ بْنِ أَسَافٍ [يَسَافٍ] بْنِ نَضْلَةَ بْنِ عَبْدِ

[عَمْرِو] بْنِ عَوْفٍ بْنِ غَنَمٍ [بَنِي مَالِكٍ].

وَمِنْ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ سُرَاقَةُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَطِيَّةَ بْنِ خَنْسَاءَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبِمَنْ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ مُؤْتَةٍ، فِيمَا ذَكَرَ ابْنُ شِهَابٍ:

مِنْ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ: أَبُو كُلَيْبٍ وَجَابِرٌ، ابْنَا عَمْرِو بْنِ زَيْدِ بْنِ عَوْفٍ بْنِ مَبْدُولٍ وَهُمَا لِأَبٍ وَأُمٍّ.

وَمِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ أَفْصَى: عَمْرُو وَعَامِرٌ، ابْنَا سَعْدِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبَّادِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عَامِرِ بْنِ تَعْلَبَةَ بْنِ

مَالِكِ بْنِ أَفْصَى.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: أَبُو كِلَابٍ وَجَابِرٌ ابْنَا عَمْرٍو.

[السيرة النبوية لابن هشام ٣٨٨-٣٨٩، المغازي للواقدي ٧/٢٦٩].

ويقول د/ بريك: «وزاد موسى بن عقبة [أخرجه ابن عساكر (تاريخ، السيرة النبوية، المجلدة الأولى ص ٣٩٢)]،

وابن سعد [ذكره الشامي (سبل ٦/٢٤٥) نقلاً عنه]، وابن الكلبي [ذكره الشامي (سبل ٦/٢٤٥) وعزاه إليه]، والزيبر

بن بكار [ذكره الشامي (سبل ٦/٢٤٥) نقلاً عنه]: هبار بن سفيان بن عبد الأسد المخزومي. [قال الشامي (سبل

٦/٢٤٥): وقال عروة، وابن شهاب الزهري، وابن إسحاق، وابن سعد: استشهد بأجنادين. وقال سيف بن عمر: استشهد

بالرموك. وقال ابن عبد البر (الاستيعاب، هامش الإصابة ٣/٦٠٩) قيل: «إنه قُتِلَ يَوْمَ مُؤْتَةٍ، وقال الحسن بن عثمان: وقال

الواقدي أيضًا: إنه استشهد يوم أجنادين، وهو عندي أشبه، لأنه لم يذكره ابن عقبة فيمن قُتل يوم مؤتة». قلت: ولكن في الرواية التي أخرجها ابن عساكر عن موسى بن عقبة، ذكره فيمن استشهد بمؤتة، فليتأمل ذلك. والله تعالى أعلم.

وزاد موسى بن عقبة أيضًا: عبد الله بن الربيع الأنصاري.

ومن بني رزيق: معاذ بن ماعص.

وقال الشامي: ووقع في نسخة من مغازي موسى بن عقبة: أن الذي استشهد بمؤتة، أخاه عبّاد.

[هذه النسخة هي التي نقل منها ابن عساكر].

وزاد ابن سعد، والعدوي، وابن جرير الطبري [ذكره الطبري في كتاب الصحابة له، وهو مفقود]: زيد بن

عبيد بن المعلّى الأنصاري. [ذكر ذلك عنهم الشامي (سبل ٦ / ٢٤٤)].

وزاد ابن إسحاق، كما في الإصابة، وجزم به في الزّهر [قال مغلطاي (الزهر الباسم: الجزء الثاني والعشرين، ص

٢٧): قيل: «إن اسمه كان قبل الإسلام الحكم، فسماه رسول الله ﷺ لما أسلم: عبد الله». وينظر: مصعب الزبيري: نسب

قريش ١٧٤]: عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية. [ينظر: (ابن حجر: إصابة ١ / ٣٤٤، ٢ / ٣١٩، ومغلطاي: الزهر

الباسم، الجزء الثاني والعشرين، ص ٢٧)].

وزاد البلاذري، والكلبي: الهوبجة بن بجير بن عامر بن سفيان بن أسيد بن زائدة بن حصين، الضبي.

[ينظر: (البلاذري: أنساب: اللوحة ٢ / ٤١٤ / أ، والكلبي: جهرة النسب ٢٩٦) وفيه: يقال: إن جسده فُقد].

«أما العدو فلا توجد معلومات عن مقدار خسارته، ولكنها لا شك كانت جسيمة، لأن كل قائد من

قادة المسلمين الذين تولّوا القيادة قبل خالد ﷺ كانوا شجاعاً، ومقاتلاً بارعاً، كما أن السيوف التي كُسرت

بيد خالد ﷺ لا شك أنها كُسرت في أجساد الأعداء». [سيف الله لأكرم ١٠٧].

«فماذا ترى قد قُتل بهذه الأسلاف كلها، دع غيره من الأبطال الشجعان من حملة القرآن».

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشهابية لبريك ٣٣٩-٣٤١].

المبحث السابع

ما قيل من الشعر في غزوة مؤتة

شِعْرُ قَيْسٍ ۞ فِي الْاِعْتِدَارِ عَنْ تَقَهُّرِ خَالِدٍ ۞:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ قَالَ فِيهَا كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ وَأَمْرِ خَالِدٍ ۞ وَمُخَاشَاتِهِ (المخاشاة: المحاجة، وهي مفاعلة من الخشية؛ لأنه خشي على المسلمين لقلة عددهم، ومن رواه حاش بهم، معناه انحاز بهم). بِالنَّاسِ وَأَنْصَرَفِهِ بِهِمْ قَيْسُ بْنُ الْمُسَخَّرِ الْيَعْمَرِيُّ، يَعْتَذِرُ بِمَا صَنَعَ يَوْمَئِذٍ وَصَنَعَ النَّاسُ:

فَوَاللَّهِ لَا تَنْفَكُ نَفْسِي تَلُومُنِي عَلَى مَوْفِقِي وَالْخَيْلُ قَابِعَةٌ قُبُلُ^(١)
وَقَفْتُ بِهَا لَا مُسْتَجِيرًا فَنَافِذًا وَلَا مَانِعًا مَنْ كَانَ حُمَّ لَهُ الْقَتْلُ^(٢)
عَلَى أَنِّي آسَيْتُ نَفْسِي بِخَالِدٍ أَلَا خَالِدٌ فِي الْقَوْمِ لَيْسَ لَهُ مِثْلُ^(٣)
وَجَاشَتْ إِلَيَّ النَّفْسُ مِنْ نَحْوِ جَعْفَرٍ بِمُؤْتَةٍ إِذْ لَا يَنْفَعُ النَّابِلَ النَّبْلُ^(٤)
وَضَمَّ إِلَيْنَا حِجْزَتَيْهِمْ كُلَّيْهَا مُهَاجِرَةٌ لَا مُشْرِكُونَ وَلَا عُزْلُ^(٥)

فَبَيَّنَ قَيْسٌ ۞ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ فِي شِعْرِهِ، أَنَّ الْقَوْمَ حَاجَزُوا وَكَرِهُوا الْمَوْتَ، وَحَقَّقَ أَنْحِيَازَ خَالِدٍ بِمَنْ مَعَهُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فَأَمَّا الزُّهْرِيُّ فَقَالَ فِيهَا بَلَّغْنَا عَنْهُ: أَمَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ۞، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ حَتَّى قَفَلَ إِلَى النَّبِيِّ ۞.

شِعْرُ حَسَّانَ ۞ فِي بُكَاءِ شُهَدَاءِ مُؤْتَةٍ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ بِمَا بُكِيَ بِهِ أَصْحَابُ مُؤْتَةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلُ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ۞:

تَأَوَّبَنِي لَيْلٌ يَيْثُرُ بَ أَعْسَرُ وَهُمْ إِذَا مَا نَوَّمَ النَّاسُ مُسْهَرُ^(٦)
لِذِكْرِ حَيِّبٍ هَيَّجَتْ لِي عَبْرَةً سَفُوحًا وَأَسْبَابُ الْبُكَاءِ التَّذَكُّرُ^(٧)

(١) قال أبو ذر: قابعة: منقبضة، ومن رواها باهز (قائعة) فمعناها: واثبة، يقال: فأع الفحل على الناقة: إذا وثب عليها، ومن رواه (ناثئة) بالنون، فمعناها: رافعة رؤوسها. قُبُلُ: جمع أقبل وقبلاء، وهو الذي يميل عينه في النظر إلى جهة العين الأخرى.

(٢) حم له القتل: أي قُدِّر.

(٣) آسيت نفسي بخالد: اقتديت به، من الإسوة، وهي القدوة.

(٤) جاشت: ارتفعت. النابل: صاحب النبل.

(٥) حِجْزَتَيْهِمْ: ناحيتهم، يقال: بعد حجرة: أي ناحية. عُزْلُ: جمع أعزل وهو الذي لا سلاح معه.

(٦) تأوَّبني: عاودني ورجع إليّ. أعسر: عسير. مسهر: مانع من النوم.

(٧) سفوح: سائلة غزيرة.

بَلَى، إِنَّ فَقْدَانَ الْحَبِيبِ بَلِيَّةٌ
رَأَيْتُ خِيَارَ الْمُؤْمِنِينَ تَوَارَدُوا
فَلَا يُعِيدَنَّ اللَّهُ قَتْلِي تَتَابَعُوا
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ حِينَ تَتَابَعُوا
غَدَاةً مَضَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ
أَعَزُّ كَضَوْءِ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
فَطَاعَنَ حَتَّى مَالَ غَيْرِ مُوسَدٍ
فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشْهِدِينَ ثَوَابُهُ
وَكُنَّا نَرَى فِي جَعْفَرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ
فَمَا زَالَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
هُمْ جَبَلُ الْإِسْلَامِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُمْ
بِهَالِيلٍ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمِّهِ
وَحَزْمَةٌ وَالْعَبَّاسُ مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ
بِهِمْ تُفْرَجُ اللَّأْوَاءُ فِي كُلِّ مَأْرِقٍ
هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ أَنْزَلَ حُكْمَهُ

شِعْرُ كَعْبٍ رضي الله عنه فِي بُكَاءِ شُهَدَاءِ مُؤْتَةَ: وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه:

(١) شعوب: قال أبو ذر: من رواه بضم الشين، فهو جمع شعب، وهي القبيلة، وقيل: هو أكثر من القبيلة، ومن رواه بفتح الشين، فهو اسم للمنية، من قولك: شعبت الشيء: إذا فرقته. خلفاً: أي من يأتي بعد، ورواية الشطر الأخير في ديوانه: شعوب وقد خلقت فيمن يؤخر.

(٢) تخطر: تختال وتهتز.

(٣) ميمون النقية: مسعود الجد. أزه: أبيض.

(٤) أبي: عزيز الجانب. سيم: كلف وحمل. المجسر: المقدام الجسور.

(٥) المعترك: موضع الحرب.

(٦) الرضام: صخور عظام يوضع بعضها فوق بعض. الطود: الجبل.

(٧) البهاليل: جمع البهلول، وهو السيد الوضيء الوجه مع طول.

(٨) اللأواء: الشدة. العاس: المظلم.

- نَامَ الْعُمُونُ وَدَمَعُ عَيْنِكَ يَهْمُلُ
فِي لَيْلَةٍ وَرَدْتُ عَلَيَّ هُمُومُهَا
وَأَعْتَادَنِي حُزْنٌ فَبِتُّ كَأَنَّنِي بِنَاتٍ
وَكَاثِمًا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالْحَسَى
وَجَدًّا عَلَى النَّفَرِ الَّذِينَ تَتَابَعُوا
صَلَّى إِلَهِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ فِتْيَةٍ
صَبَرُوا بِمُوتِهِ لِلإِلَهِ نَفْسُهُمْ
فَمَضَوْا أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ كَانَهُمْ
إِذْ يَهْتَدُونَ بِجَعْفَرٍ وَلَوَائِهِ
حَتَّى تَفَرَّجَتِ الصُّفُوفُ وَجَعْفَرُ
فَتَغَيَّرَ الْقَمَرُ الْمُبِيرُ لِفَقْدِهِ
قَرْمٌ عَلَا بُيُوتُهُ مِنْ هَاشِمٍ
قَوْمٌ بِهِمْ عَصَمَ إِلَهِ عِبَادُهُ
- سَحَا كَمَا وَكَفَ الطَّبَابُ الْمُخْضَلُ^(١)
طَوْرًا أَحْنُ وَتَارَةً أَمْلَمُ^(٢)
نَعَشٍ وَالسَّيْمَاكِ مُوَكَّلُ^(٣)
مِمَّا تَأَوَّبَنِي شَهَابٌ مُدْخَلُ^(٤)
يَوْمَ مَا بِمُوتِهِ أَسْنَدُوا أَلَمْ يُنْقَلُوا
وَسَقَى عِظَامَهُمُ الْغَيَامُ الْمُسِيلُ^(٥)
حَذَرَ الرَّدَى وَخَافَةً أَنْ يَنْكَلُوا^(٦)
فُنُقُّ عَلَى نَهْنِ الْحَدِيدِ الْمَرْقَلُ^(٧)
فُلْدَامٌ أَوْلَهُمْ فَـنِعَمَ الْأَوَّلُ
حَيْثُ التَّقَى وَعَثُ الصُّفُوفِ مُجْدَلُ^(٨)
وَالشَّمْسُ قَدْ كَسَفَتْ وَكَادَتْ تَأْفُلُ^(٩)
فَرَعًا أَشَمَّ وَسُودْدًا مَا يُنْقَلُ^(١٠)
وَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ

(١) همل الدمع: سال. سحًا: صبا. وكف: قطر. الطباب: جمع طبابة وهي سير في أسفل القرية بين الخريزتين في المزايدة. المخضل: السائل الندى.

(٢) أحن: من الحنين، وفي رواية أحن: صوت يخرج من الأنف عند البكاء. أملم: أثقل متبرما بمضجعي.

(٣) بنات نعش نوعان: الكبرى وهي سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي، والصغرى سبعة كواكب قرب بنات نعش الكبرى. السالك: هما سالكان، نجمان نيران أحدهما في الشمال ويعرف «بالرامح» والثاني في الجنوب ويعرف «بالأعزل». والمعنى أنه من طول سهره بات يرمى النجوم.

(٤) المدخل: النافذ إلى الداخل.

(٥) المسيل: المطر.

(٦) صبروا نفوسهم: حبسوها على ما يريدون. ينكلوا: يرجعوا هائنين لعدوهم.

(٧) الفئق: جمع فئيق، وهو الفحل المكرم الذي لا يُركب. المرفل: الذي تنجر أطرافه على الأرض، يريد أن دروعهم سايغة.

(٨) وعث الصفوف: اختلاطها والتحامها حتى يصعب الخلاص من بينها، تشبيهاً بالوعث، وهي الرمل الذي تغيب فيه الأرجل، ويصعب السير فيه. مجدل: مطروح على الجدالة، وهي الأرض.

(٩) تأفل: تغيب.

(١٠) قرم: سيد.

فَضَلُّوا الْمَعَاشِرَ عِزَّةً وَتَكَرَّمَا وَتَعَمَّدَتْ أَخْلَامُهُمْ مَنْ يَجْهَلُ ^(١)
لَا يُطْلِقُونَ إِلَى السَّفَاءِ حُبَاهُمْ وَيُرى خَطِيئَتَهُمْ بِحَقِّ يَفْصِلُ ^(٢)
بِيضُ الْوُجُوهِ تُرى بُطُونُ أَكْفِهِمْ تَنْدَى إِذَا اعْتَذَرَ الزَّمَانُ الْمُجِىلُ ^(٣)
وَبَدَنِهِمْ رَضِيَ إِلَٰهٌ لِحَلْقِهِ وَبَجَدَهُمْ نَصَرَ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ

شِعْرُ حَسَّانَ ۞ فِي بُكَاءِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ۞ :
وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ۞ يَبْكِي جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ۞ :

وَلَقَدْ بَكَيْتُ وَعَزَّ مَهْلِكُ جَعْفَرٍ حَبَّ النَّبِيِّ عَلَى الرِّبَّةِ كُلِّهَا
وَلَقَدْ جَزَعْتُ وَقُلْتُ حِينَ نُعِيتَ لِي مَنْ لِلْجِلَادِ لَدَى الْعُقَابِ وَظَلُّهَا ^(٤)
بِالْبَيْضِ حِينَ تُسَلُّ مِنْ أَغْمَادِهَا ضَرْبًا وَإِنْ هَالِ الرِّمَاحِ وَعَلَّهَا ^(٥)
بَعْدَ ابْنِ فَاطِمَةَ الْمُبَارَكِ جَعْفَرٍ خَيْرِ الرِّبَّةِ كُلِّهَا وَأَجَلُّهَا ^(٦)
رُزْءًا وَأَكْرَمَهَا جَمِيعًا مَخْتَدًا وَأَعَزَّهَا مُتَظَلِّمًا وَأَزَلَّهَا ^(٧)
لِلْحَقِّ حِينَ يَنْوُبُ غَيْرَ تَنْحُلٍ كَذِبًا، وَأَنْدَاهَا يَدًا وَأَقْلُّهَا ^(٨)
فُحْشًا، وَأَكْثَرَهَا إِذَا مَا يُجْتَدَى فَضْلًا، وَأَبْذَلَهَا نَدَى، وَأَبْلَّهَا ^(٩)
بِالْعُرْفِ غَيْرَ مُحَمَّدٍ لَا مِثْلُهُ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الرِّبَّةِ كُلِّهَا

شِعْرُ حَسَّانَ ۞ فِي بُكَاءِ ابْنِ حَارِثَةَ وَابْنِ رَوَاحَةَ ۞ :

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ۞ فِي يَوْمِ مُؤَتَةَ يَبْكِي زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ۞ :
عَيْنِ جُودِي بِدَمْعِكَ الْمَنْزُورِ وَادْكُرِّي فِي الرَّحَاءِ أَهْلَ الْقُبُورِ ^(١٠)
وَادْكُرِّي مُؤَتَةَ وَمَا كَانَ فِيهَا يَوْمَ رَاحُوا فِي وَقْعَةِ التَّغْوِيرِ ^(١١)

(١) تغمدت من يجهل: سترت جهل الجاهلين.

(٢) إطلاق الحبوقة: كناية عن النهضة للنجدة.

(٣) الممحِل: الشديد القحط.

(٤) العقاب: اسم راية من رايات الرسول ﷺ.

(٥) الإنهال: الشرب الأول. عليها: شربها الثاني.

(٦) فاطمة: هي فاطمة بنت أسد بن هاشم، أم جعفر ﷺ.

(٧) المختد: الأصل.

(٨) التنحل: الكذب.

(٩) الاجتداء: طلب المعروف والعطية.

(١٠) المنزور: القليل، يريد أنه بكى حتى قلَّ دمه، فهو يأمر عينه أن تجود بذلك القليل على ما هو عليه..

(١١) التغوير: الإسراع إلى الفرار.

حِينَ رَاحُوا وَغَادَرُوا نَمَّ زَيْدًا نِعَمَ مَا أَوَى الضَّرِيكَ وَالْمَأْسُورِ^(١)
 حَبَّ خَيْرَ الْأَنَامِ طَرًّا جَمِيعًا سَيِّدَ النَّاسِ حُبُّهُ فِي الصُّدُورِ
 ذَاكُمْ أَتَمُّدَ الَّذِي لَا سِوَاهُ ذَاكَ حُزْنِي لَهُ مَعَا وَشُرُورِي
 إِنَّ زَيْدًا قَدْ كَانَ مِنَّا بِأَمْرِ لَيْسَ أَمْرَ الْمَكْذَبِ الْمَغْرُورِ
 ثُمَّ جُودِي لِلْخَزْرَجِيِّ بِدَمْعٍ سَيِّدًا كَانَ ثُمَّ غَيْرَ نَزُورِ^(٢)
 قَدْ أَتَانَا مِنْ قَتْلِهِمْ مَا كَفَانَا فَبِحُزْنٍ نَبِيتُ غَيْرَ سُورِ

وَقَالَ شَاعِرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ مُؤْتَةَ:

كَفَى حَزَنًا إِنِّي رَجَعْتُ وَجَعْفَرُ وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فِي رَمْسٍ أَقْبَرُ
 قَضَوْا نَحْبَهُمْ لَمَّا مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ وَخُلِفْتُ لِلْبَلَوَى مَعَ الْمُتَغَيْرِ^(٣)
 ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ قَدْ مَضَوْا فَتَقَدَّمُوا إِلَى وَرْدٍ مَكْرُورٍ مِنَ الْمَوْتِ أَحْمَرِ

مصادر ومراجع الدراسة:

أ - كتب السنة: جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٨/ ٣٤٩-٣٥٥، مجمع الزوائد للهيتمي (٨٠٧هـ) ٦/ ٢٢٩-٢٣٧، المطالب العالية لابن حجر (٨٥٢هـ) ١٧/ ٤٤٨، كنز العمال للهندي ١٠/ ٣٨٥-٣٨٧، الفتح الرباني للبنا ٢١/ ١٣٦-١٣٨، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٨٦٦-٨٧٥، الجامع الصحيح للوداعي (١٤٢٢هـ) ٣/ ٢٧٧-٢٧٩.

ب - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مزيات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ٢/ ٦٨١-٦٨٦، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٣٧٣-٣٨٩، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٧٥٥-٧٦٩، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/ ١١٩-١٢١، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/ ٣٦-٤٢، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٣٥٨-٣٧٥، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٢٧٥-٢٨٦، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٤٧٩-٤٩٩، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٣٨١-٣٨٥، تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧١هـ) ٢/ ٥-٢١، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٤١٢-٤٦٧، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٣٣٧-٣٤٤، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ٢٢٨-٢٦١، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٢/ ٧٨٦-٧٩٣.

ج - كتب السيرة الحديثة: فقه السيرة للغزالي ٣٧٨-٣٨٣، السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٦٧-٤٧٠، صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٨٨-٣٩٧، السيرة النبوية لرزق الله ٥٤٣-٥٤٩، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٤٢٧-٤٤٠.

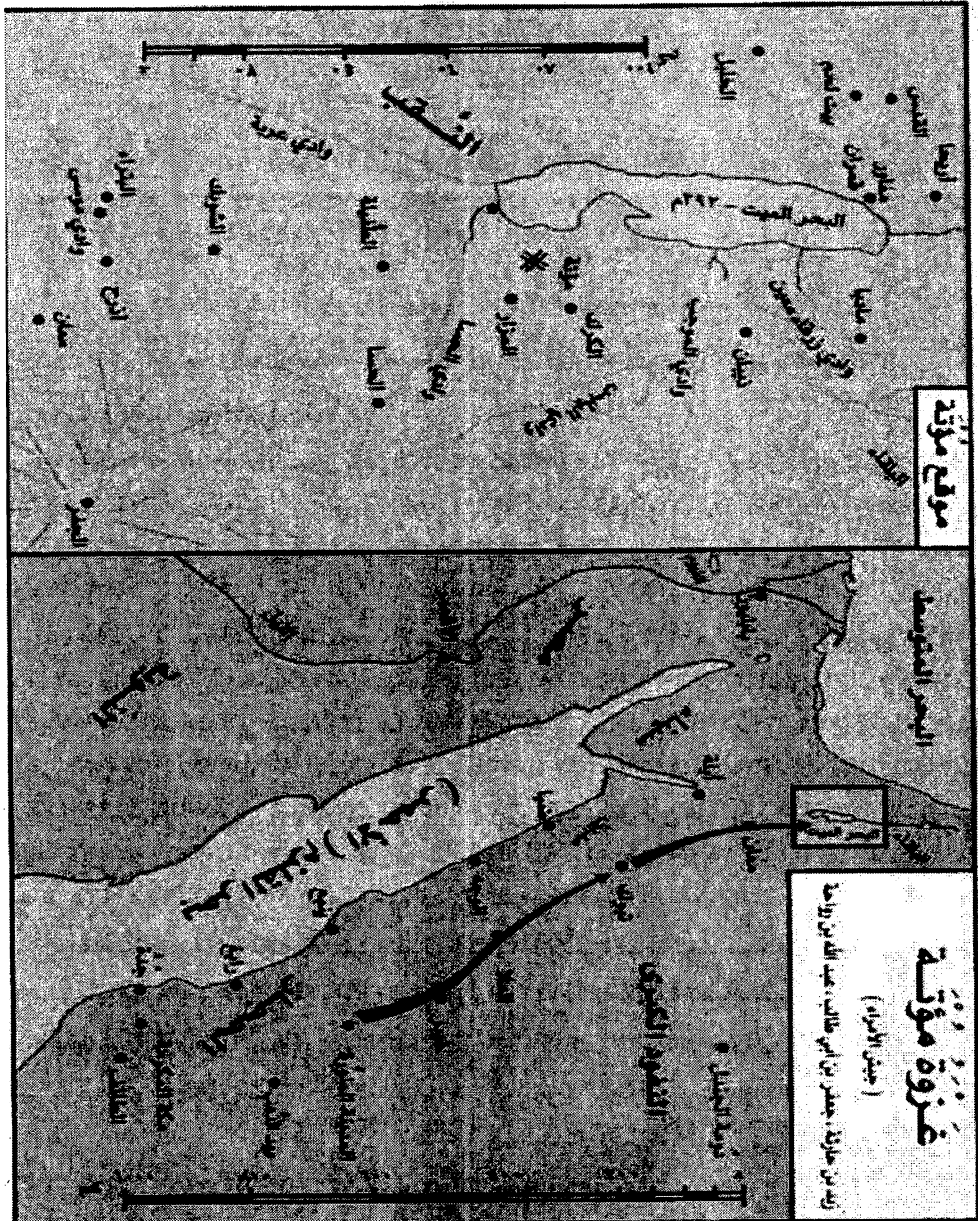
د - كتب الغزوات والسرايا: غزوة مؤتة لباشمیل ١٦١-٢١٩، غزوة مؤتة لأبي خليل، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٢٣١-٣٨٠، مزيات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ٢١٠-٢٥٧.

(١) الضريك: الفقير السوء الحال.

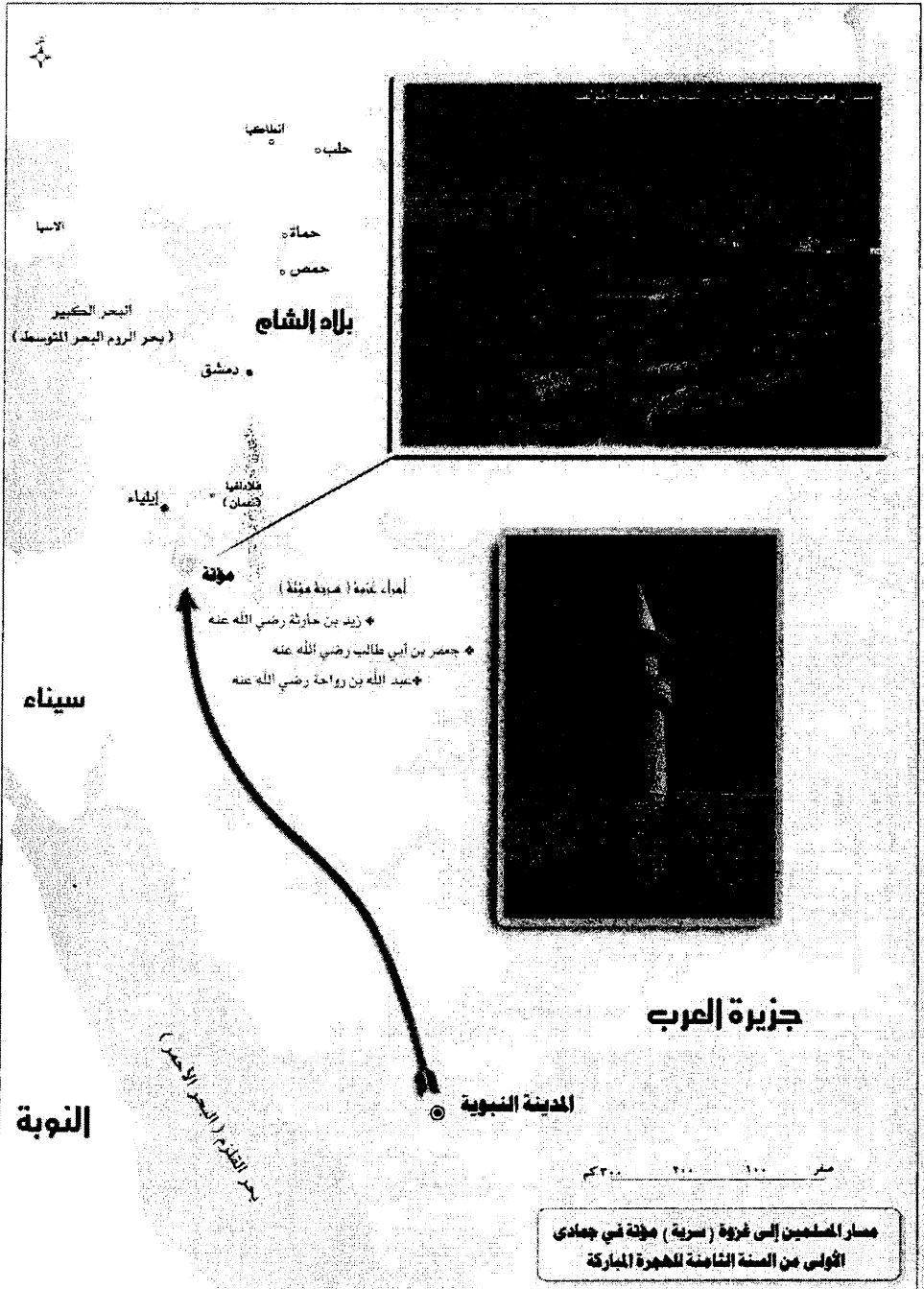
(٢) الخزرجي: هو عبد الله بن رواحة ؓ. النزور: القليل العطاء.

(٣) المتغير: الباقي.

المبحث الثامن خرائط غزوة مؤتة (١)



(٢)



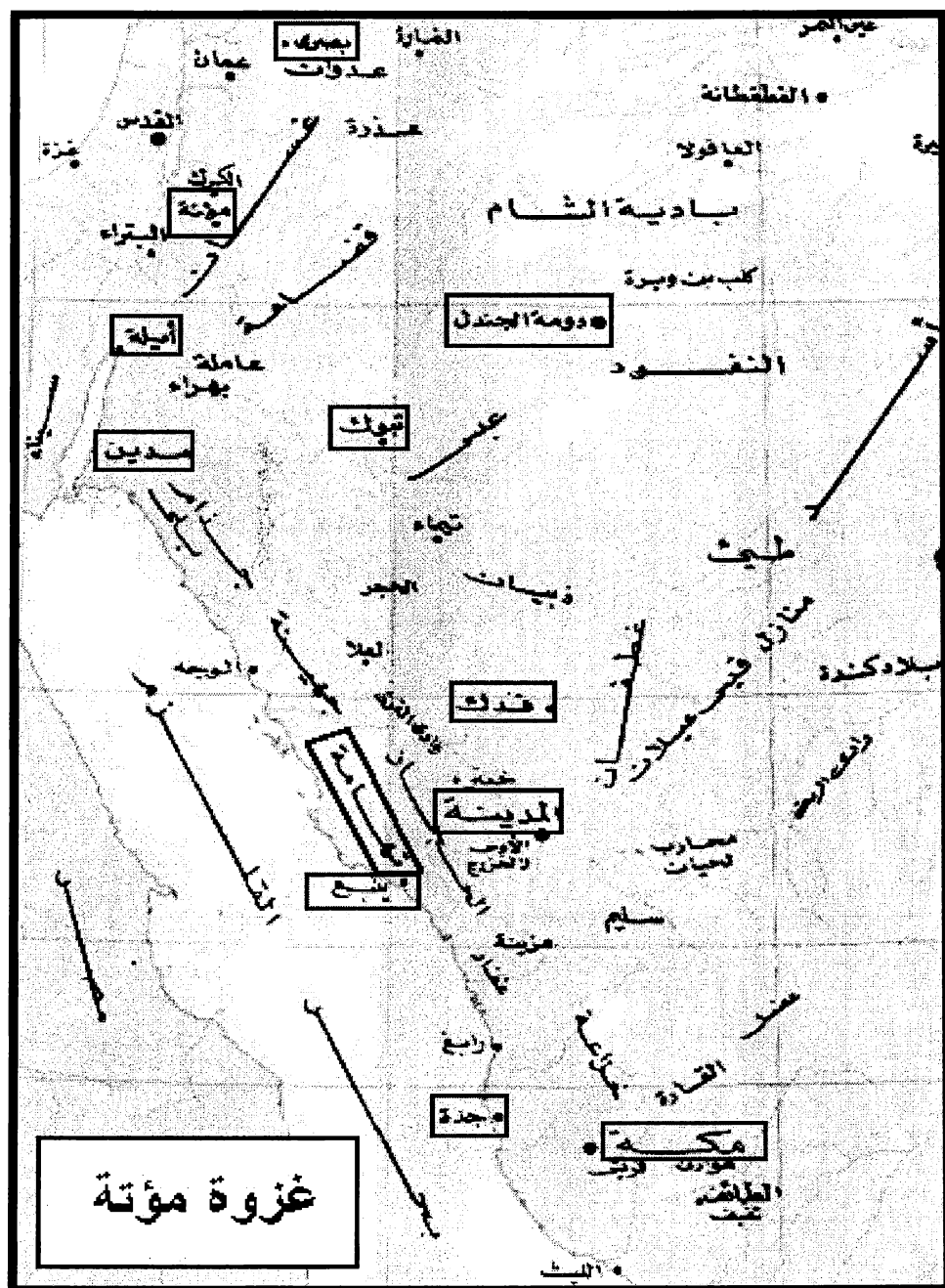
الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ١٩٥.

This map illustrates the Roman military campaign into the Levant and Egypt. The Roman army's path is marked with arrows, starting from the Mediterranean coast, passing through the Negev Desert (صحراء النضوة), and entering Egypt. Key locations labeled include Jerusalem (القدس), Damascus (دمشق), and Alexandria (الإسكندرية). The map also shows the Roman Empire's borders (حدود الإمبراطورية الرومانية) and the Roman army's path (الطريق التي سلكها الجيش الروماني).

The map is titled "غزوة مؤتة" (Battle of Mu'tah) and includes a scale bar (0-100 km) and a north arrow (الشمال).

حدائق الأنوار لبحرق ٥٤٨.

(3)



[illegible]

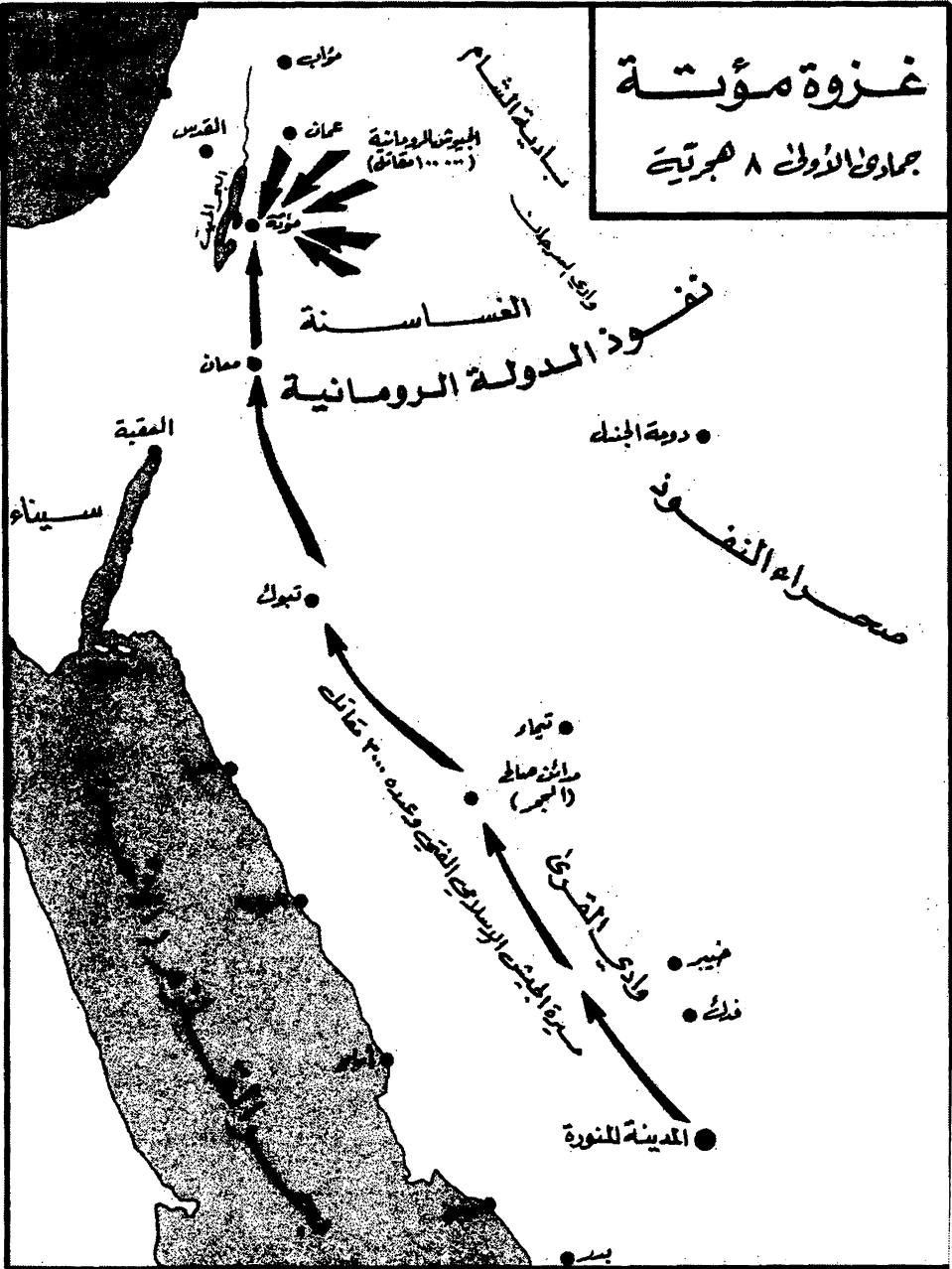
غزوة مؤتة لأبي خلیل ۲۱.

This is a detailed historical map of Egypt and its surroundings. At the top, it is titled 'المحرم المتوسط' (The Mediterranean Sea). The Nile River is depicted as a central feature, flowing from the south towards the sea. Major cities are marked with dots and labeled: 'البحرية' (Alexandria) near the coast, 'القاهرة' (Cairo) further inland, and 'إسكندرية' (Alexandria) on the western delta. Other labels include 'الساحل' (Coast), 'البحر الأحمر' (Red Sea), 'مصر' (Egypt), 'بلاد النوبة' (Nubia), and 'شمال' (North). A compass rose in the upper left corner points North ('الشمال') and South ('جنوب'). A scale bar at the bottom right indicates distances in 'أميال' (Miles) and 'كلمة' (Kilometers).

خط کبریٰ جمیع اللہ ملاوس المدینۃ المنورۃ الاسلامیۃ

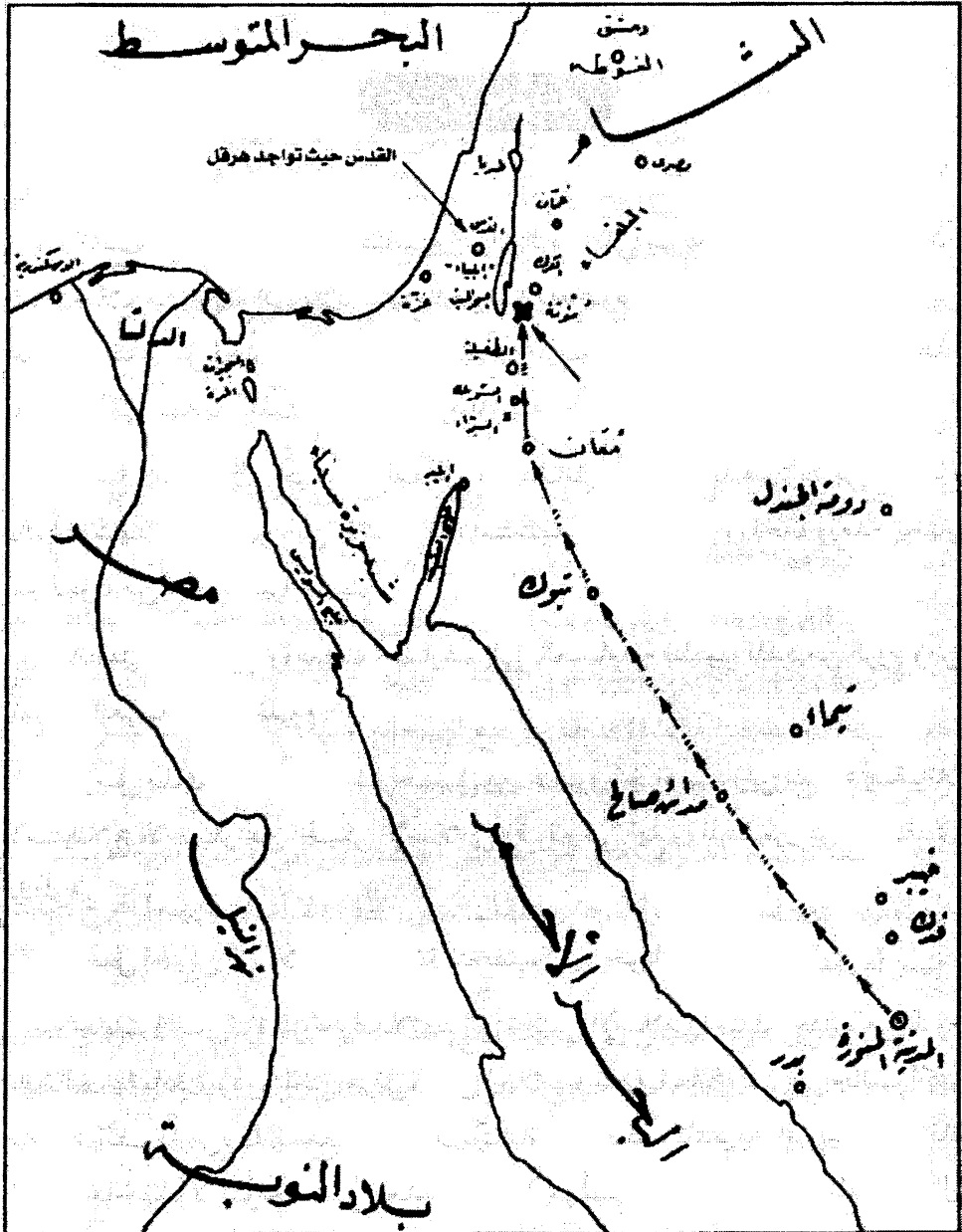
غزوة مؤتة لأبي خليل ١٠٩.

غزوة مؤتة
جمادى الأولى ٨ هجرية



السيرة النبوية للندوي ٤٣٤.

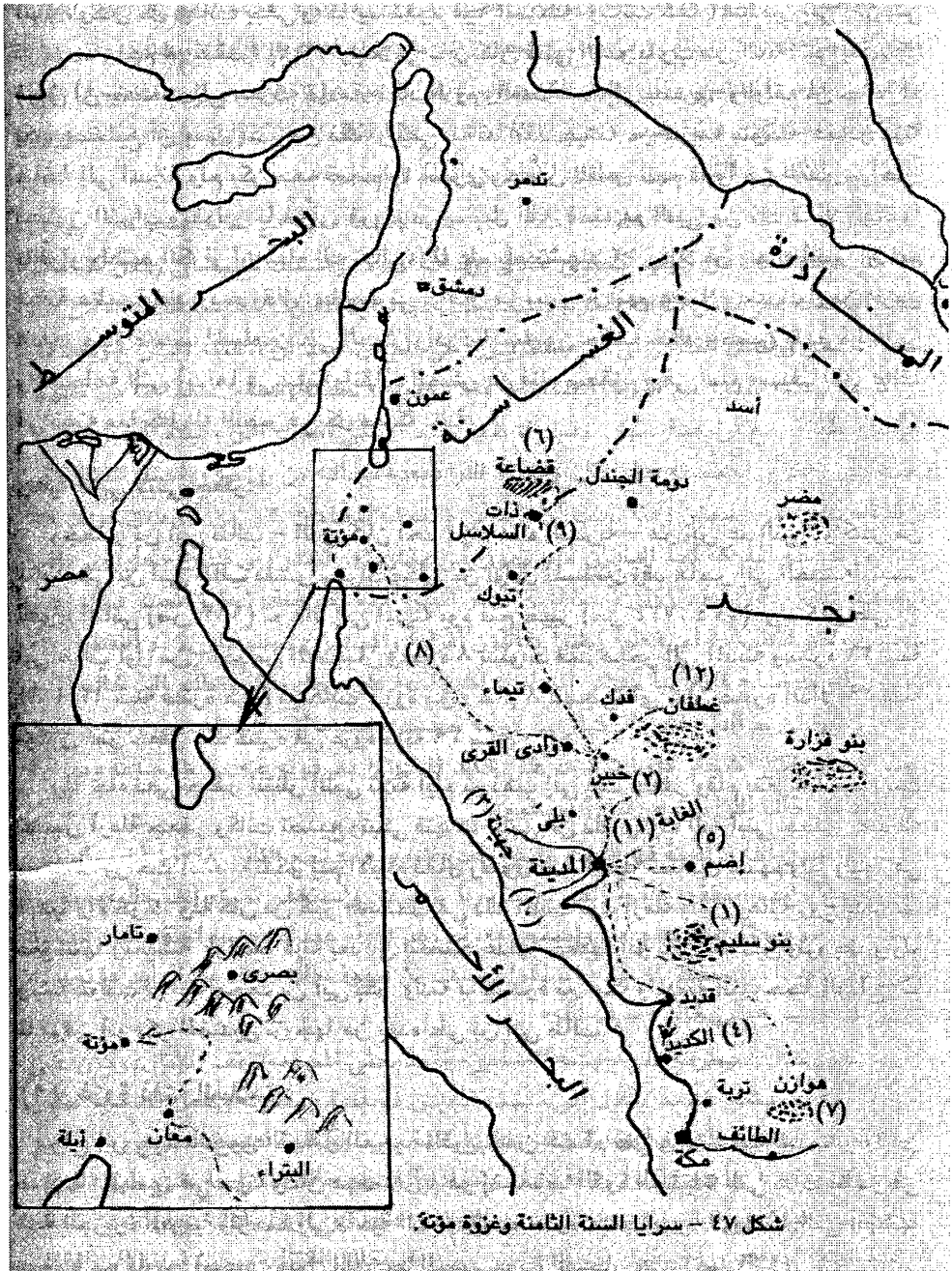
(٨)



خريطة غزوة مؤتة

كبرى المعارك لمربي ٤٨.

(٩)



خاتم الأنبياء محمد ﷺ للبدراوي ٧٥٤.

الفصل الثاني

الدروس والعبر المستفادة من غزوة مؤتة

المبحث الأول

الدروس العقائدية

١ - ميزان التفاضل في الإسلام:

يقول د/ الزيد: «في تولية الرسول ﷺ لزيد بن حارثة ﷺ قيادة الجيش وهو من الموالى مع أن في الجيش ابن عم رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب ﷺ وفيه أيضاً عبد الله بن عمر ﷺ، وعبد الله بن رواحة ﷺ وغيرهم يدلنا هذا على عدم اعتبار القبلية أو القومية في ميزان التفاضل كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات].

فاختيار القائد يخضع لمصلحة المسلمين لا لقبلية أو قومية، وينظر إلى تقاة في نفسه لا إلى آبائه وأجداده ونسبه». [فقه السيرة للزيد ٥٨٢].

٢ - لا مفاضلة بين الصحابة ﷺ:

يقول د/ بريك: «قال أبو قتادة ﷺ: «فوئب جعفر ﷺ، فقال: يا رسول الله ما كنت أُرهب أن تستعمل عليّ زيدا، فقال: «امض فإنك لا تدري أي ذلك خير». [أخرجه أبو داود (ينظر: عون المعبود، حديث ٤٣٤)، وأحمد (المسند ٣٧٦-٣٧٧)، والنسائي (السنن الكبرى ٩٦/٥)، وابن حبان (ينظر: الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، حديث ٧٠٠٨)، والبيهقي (الدلائل ٣٧٦/٢)، والطبري (التاريخ ٤٠/٣)، كلهم من طرق عن خالد بن سمير عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة ﷺ. قال الهيثمي (المجمع ١٥٦/٦): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير خالد بن سمير وهو ثقة». قلت: قال الحافظ: هو صدوق يهيم قليلاً. (التقريب ص ١٨٨)، إذاً فالإسناد حسن إن شاء الله تعالى.

ويبدو أن بعض الصحابة ﷺ قد تكلم في إمرة زيد ﷺ وتقديمه على غيره، فوضّح لهم رسول الله ﷺ مكانة زيد ﷺ وأحقّيته بالإمارة، وأنه من أحبّ الناس إليه، فسمعوا وأطاعوا.

[ينظر: البخاري (الصحيح ٢١٣/٤)، وبنصّ ابن حجر (فتح ٨٧/٧) على أن ذلك كان في مؤتة].

ولكن يبدو أن رواية الشيعة لم يرق لهم ذلك، ولم يقتنعوا به، وأخذوا كعادتهم يتلاعبون بالروايات، يُقدّمون ويُؤخّرون حسب أهوائهم، ويفاضلون بين الصحابة ﷺ وفق ميولهم ونزعاتهم، ويظهر ذلك جلياً هنا من خلال محاولاتهم الخط من قدر زيد ﷺ، وتقدير جعفر ﷺ - باعتباره من آل البيت - حتى في سياق الواقعة. [ينظر: حديث ثابت بن دينار (رافضي، ضعيف) عند الطبراني (معجم ١٦٧/١٩)، وحديث علي بن زيد التيمي (قال عنه ابن عدي: كان يغالي في التشيع) عند عبد الرزاق (مصنف ٢٦٦/٥). ينظر: يعقوبي (تاريخ ٥٤/٢)، وقد ضاهوا بذلك المستشرقين، إذ يقول أحدهم (إدوارد جيون: اضمحلال الإمبراطورية ٧٥)، متحدثاً عن جيش مؤتة: «وقد بلغت دقة النظام، وشدة الحماس في هذا الدين الصّاعد، أن أبطل الزعماء عملوا دون تردّد كجنود تحت إمرة رجل كان مولى للنبيّ»].

ومكانة زيد بن حارثة ﷺ عظيمة في الإسلام لا تؤثر فيها تلك المحاولات الفاشلة، ويكفي في فضله ومكانته ذكر الباري عز وجل لاسمه صريحاً في القرآن، يُتلى في المحارب، ويوت الله ﷻ إلى يوم القيامة. [وذلك في الآية ٣٧، من سورة الأحزاب].

كما صحَّ عن الصَّديقة بنت الصَّديق رضي الله عنها أنها قالت: «ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في جيش قط، إلا أمره عليهم، ولو بقي بعده لاستخلفه». [أخرجه النسائي (السنن الكبرى ٥/٥٢) وقال عنه ابن كثير (البداية ٤/٢٥٤): إسناده جيد على شرط الشيخين، وهو غريب].

ذلك هو مبلغ تقدير النبي ﷺ لكفاءة زيد ﷺ القيادية، وثقته الكاملة به، وهو تقدير عظيم، وثقة بالغة، واعتماد هائل استحقَّه زيد ﷺ بمزايه القيادية أولاً وقبل كل شيء، فما كان النبي ﷺ يولي ثقته الكاملة إلا لمن يستحقها بجداره، وقد لمسنا شجاعة زيد في الغزوات التي شهدناها مع النبي ﷺ، وفي سراياه التي قادها، ولسنا شجاعته في الواجبات الأخرى التي ألقاها على عاتقه النبي ﷺ في استصحاب بناته وزوجته في الهجرة، في وسطٍ يُعجُّ بالأعداء والحاquدين والموتورين من المشركين.

لقد قضى الإسلام مع ما قضى عليه من تقاليد الجاهلية، على الأنفة من تأمير من لم تُقدِّمه السن، والاستمسك بِعَرَى التَّفَاضُلِ بالأنساب والأحساب والعشائر والقبائل.. إِنَّ التَّفَاضُلَ في الإسلام يخضع للتقوى وصالح الأعمال، بالإضافة إلى الكفايات المناسبة للعمل المناسب، وقد رفعت مزايا زيد ﷺ القيادية، وإيانه الراسخ العميق إلى الإمارة. [القادة الشهداء في مؤتة لخطَّاب ٦٠-٦٤].

كما أنَّ مكانة جعفر ﷺ وفضله لا تحتاج إلى كل ذلك التهويل، ومحاولة لِيَّ النُّصوص، واختراع فضائل له لكونه من آل بيت النبي ﷺ، فالعواطف الزائدة، والمحبة لآل البيت لا تجعلنا نعطيهم قدراً أكبر مما جعله الله تبارك وتعالى، ورسوله ﷺ لهم، ويكفي جعفرًا ﷺ فخراً ومكانةً أنه ابن عمِّ المصطفى ﷺ، وقد قال له النبي ﷺ: «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي» [أخرجه البخاري (الصحيح ٤/٢٠٩)]، «وحسبه بذلك دليلاً على أنه كان على خُلُقٍ عظيم». [القادة الشهداء لخطَّاب ١٢١].

ولمَّا قَدِمَ ﷺ في جماعة من المسلمين من أرض الحبشة بأثر فتح خيبر، التزمه رسول الله ﷺ وقَبِلَ ما بين عينيه واعتنقه، وقال: «وَاللَّهِ مَا أَذْرِي بِأَيِّهَا أَنَا أَسْرُ: أَبْقِدُومِ جَعْفَرٍ، أَمْ بِفَتْحِ خَيْرٍ؟!».

[أخرجه ابن سعد (طبقات ٤/٣٥) عن الشعبي، وهو مرسل].

وكان ﷺ أحد السابقين الأولين، وكان أحد أصحاب المهجرتين.

[أخرجه البخاري (الصحيح ٧/٤٨٤-٤٨٥)].

وقد وصفته زوجته أسماء بنت عميس رضي الله عنها بقولها: «ما رأيت شاباً من العرب خيراً من جعفر».

[أخرجه ابن سعد: الطبقات ٤/٤١. من حديث زكريا بن أبي زائدة. عن العمار، وسنده رجاله ثقات، لكنه منقطع].

وقال عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «كان خير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب، وكان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إنه إن كان ليخرج لنا العكة (زق صغير للسمن. وجمعه عكاك) التي ليس فيها شيء فنشققها ونلحق ما فيها» [أخرجه البخاري (الصحیح ٢/٢٠٩)]. [غزوة مؤتة لبريك ٢٦٠-٢٦٥].

٣- الاستعانة بالله من أهم أسباب النصر والتوفيق في قتال العدو:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما أرشد إليه النبي ﷺ أمراء الجيش إليه في خطابه لهم. إن المسلم المجاهد بحاجة إلى عون الله ونصره وتأييده، وعليه أن يستغيث بالله ويرفع أكف الضراعة إلى الله ﷻ طالباً عونه وتوفيقه.

والاستعانة بالله والاستغاثة به تُسكب في قلب المجاهد الأنس والأمان والاطمئنان كما تبث الأمل في النفوس، فهو مصدر القوة والمنعة والعزة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨) [المنافقون]. [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٣٦].

٤- حرب عقائدية:

يقول د/ العتوم: «إن حرب مؤتة، وخيوطها السابقة واللاحقة، لتنبؤ جميعها بأنها هي ومثيلاتها مما حدث في صدر الإسلام، حرب عقائدية تقوم تارة بين معسكرين: أحدهما مؤمن - مهما كان مدى إيمانه وصدقه - وثانيهما مشرك، وتارة أخرى بين معسكرين: أحدهما مؤمن في إيمانه دُخُنْ وانحرف، وثانيهما مؤمن سليم الإيمان مستقيمه.

إن تغلب الفرس على الروم في أوائل القرن السابع الميلادي، حَزَّ في نفوس المسلمين، بينما أثلج صدور المشركين، حتى راحوا يغايظونهم بذلك ويتحدونهم قائلين لهم: «إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم». [ابن كثير، تفسيره (الجلي) ٣/ ٤٢٤، ٤٢٢ على الترتيب].

إنها حرب دينية تقف فيها الأرواح قبل الأجساد، جنوداً مجنده، ولكل وجهة هو موليها، أصحاب الأديان الأرضية إخوة مع بعضهم بعضاً، وأصحاب الأديان السماوية كذلك يقفون معاً في خندق واحد ضمن هذا الإطار، ولو إلى حين.

وانطلاقاً من هذا المبدأ راح أبو بكر رضي الله عنه يراهن مشركي قريش على انتصار الروم من بعد انهزامهم، وكان مقدار الرهن عالياً، بلغ مائة ناقة، وما ذلك إلا لإيمانه الوطيد بوعد الله الذي لا يتخلف إيماناً لم يكن يدور مثله أو قريب منه في أذهان الروم بما فيهم إمبراطورهم هرقل، مع أن المصلحة مصلحتهم؛ ذلك لأنهم يتعاملون بالماديات أكثر من تعاملهم بالغيبات، ولا سيما أن الإمبراطورية في هذا الوقت كانت في

حال لا تُحسد عليها، وما ألطف تعليق الأستاذ أحمد عادل كمال على هذا الموقف بقوله: «كان إيمان أبي بكر ﷺ بالقرآن أكبر من أمل هرقل باسترداد الموقف، وما نحسب أن هرقل كان على استعداد يومذاك أن يراهن بنقاة واحدة على ما راهن عليه أبو بكر ﷺ، إذ لم يكن باقياً لبيزنطة سوى اليونان، وقليل من أرض إيطاليا، وعدد قليل من الثغور الآسيوية، وسواحل أفريقيا، وعاصمة مُحاصرة في يأس ورعب، ثم أتى أمر الله ﷻ [هرقل في مواجهة عمر، مجلة العربي عدد (٢٦٢) ص ١٠٦] فانتصر الروم على الفرس، ومن ثم انتصر المسلمون عليهم جميعاً؛ لأن الأمر الله من قبل ومن بعد، والعاقبة للمتقين.

وفي مؤتة بالذات، تجلّت هذه الرابطة أشد تجلّ، إذ وقف المسلمون بقبائلهم المختلفة، وأجناسهم المتعددة، صفّاً واحداً يقاتلون تحت لواء التوحيد، ووقف الروم وبجانبهم عرب الشام صفّاً واحداً تحت لواء النصرانية، يقاتلون أبناء عمومتهم من عرب الجزيرة المسلمين، تجمع هؤلاء وهؤلاء عقيدة، بغض النظر عن صلاح هذه وفساد تلك، وما تمسّس الحارث بن أبي شمر الغساني، ملك الجولان، وتابعه أو تابع قيصر شربيل بن عمرو الغساني، إذ قتل هذا رسول الله ﷺ، ورمى ذلك بكتابه أرضاً، وهدد وتوعد بغزو المدينة، إلا إرضاء لابن دينهم قيصر الروم، وإثباتاً لصدق ولائهم له ولمعتقده، صحيح أن المصالح الشخصية للغساسنة من محافظة على الملك، وعلى الرواتب التي كانت تُدفع لهم بسخاء من قبل الروم [ينظر في هذا: تاريخ الجنس العربي لمحمد عزة دروزة ٥/ ٣٩٤]، كانت من أسباب هذا التجهّم الشديد للدعوة الإسلامية والاعتداء على موفديها، ولكن الرابطة الدينية لا يمكن أن تكون ثانوية في هذا الشأن، بل كانت هي الإطار العام الذي يجمع هذه الجيوش الجرارة التي رابطت في مؤتة لتحارب جيش التوحيد، وهو ما يُقرّ به كُتّاب الغرب وهم يتحدثون عن هذه المعركة، فهذا جييون يعلق على موقف خالد ﷺ في المعركة بقوله: «وقاومت بسالته المسيحيين وردتهم على أعقابهم، على الرغم من أنهم كانوا أكثر عدداً [اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ص ٧٥]، إنها الحرب بين المسيحية والإسلام، كما شهد شاهد من أهلها».

إن الذي كان يُحرّك هذه الحروب بين المعسكرين: الإسلامي والروماني، هو الرغبة الأكيدة في نشر العقيدة من جانب المعسكر الأول، والإصرار الشديد على الدفاع عنها من جانب المعسكر الثاني، ولولا ذلك لما تابع رسول الله ﷺ، وخلفاؤه ﷺ من بعده، بعث حملاتهم إلى هذه الديار وغيرها، متمثلة في غزوة تبوك، وسرية أسامة، والجيوش الأربعة زمن أبي بكر ﷺ، ووقوف الروم والعرب المنتصرة هناك إلى آخر رَمَق، جنباً إلى جنب ضد جيوش المسلمين حتى اضطرت هذه الجيوش هرقل وأشياعه كملك غسان جبلة بن الأيهم أن يلقوا السلاح عن يديهم صاغرون، إذ لم يعد له فائدة أمام هذه الجيوش الموحدة التي كانت قدراً من قدر الله لا يقف لها شيء.

وإزاء هذا المفهوم البدهي، أجدني أنظر باستنكار إلى قولة الدكتور محمد حسين هيكل وهو يعلق على ازورار سرير عبد الله ﷺ عن سريري صاحبيه: زيد وجعفر في الجنة بعد استشهادهم في مؤتة، وأن ذلك كان لضعفٍ في مُتجهه حيث يقول: «أترى إلى هذه العبرة والموعظة الحسنة؟ فإنها معناها أن المؤمن لا يجوز له أن يتردد أو يخاف الموت في سبيل الله، بل يجب عليه كلما مضى في أمر أن يؤمن بأنه لله والوطن».

[حياة محمد ﷺ ص ٤٠٧].

وأقول: لو كان المسلمون وهم يخرجون من قواعدهم في جيوش الفتح قد استصحبوا مثل هذه النية المشتركة، كما فتحوا مزجر الكلب حول هذه القواعد، ثم إن هذه الأوطان التي فتحوها لم تكن لهم أصلاً، إنها فتحوها باسم الله وعلى بركة الله.

إنه التحليل المدخول الذي يستحقه الدكتور هيكل متأثراً بالدعوات الوطنية الباهتة التي كانت سائدة آنذاك، وبالدعايات الاستشراقية الخبيثة التي كان يوسد لها حينئذ في المدارس والمعاهد والجامعات.

[تجربة مؤتة للعوام ٢٥٦-٢٥٩].

ويقول الشيخ القرني: «إن جانب العبرة في هذه الغزوة يتجلى في استهانة المسلمين بعدوهم، وفي أن العدد والعُدَّة لا تغنيان شيئاً بدون الإيمان، ولقد نصر الله جنوده بإيمانهم، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

ولم يكن الحافظ للمسلمين في معاركهم والدافع لهم إلا طلب الشهادة في سبيل الله أو النصر الذي يكفل رفع كلمة الله عالية في الآفاق، لم تكن الغنائم تهم المسلمين بعد أن أخذوا في ذلك دروساً قاسية في أحد.

فإن جاءت مع النصر فهذا رزق ساقه الله إليهم وهو حق أفاءه الله عليهم». [هدي السيرة للقرني ٢٠٠].

٥ - جيش العقيدة والمبادئ السامية:

يقول د/ الغضبان: «وإذا كان جيش العقيدة بهذه الروح المعنوية العالية فهو جيش المبادئ التي بقيت معلماً للبشرية خلال تاريخها الطويل حتى صحت البشرية اليوم ووضعت مبادئ في أصول الحرب، لم ترتفع بعد إلى المستوى الإسلامي، فوصية النبي ﷺ للجيش المعدل لمقابلة أمم الأرض توضح أن الهدف الأعظم فيه هي نشر هذه العقيدة، وإبلاغ هذا الدين على يد هذه العصبة المؤمنة التي هيأها الله تعالى لذلك «أَدْعُهُمْ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنْ فَعَلُوا فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَاكْتَفِفْ عَنْهُمْ»، ليس الأمر طمعاً في مال أو أرض أو جاه إنها دعوة الناس إلى الدخول في دين الله.

وحين يُحال بين دين الله فلا أقل من ألا يُحال بينهم وبين شريعة الله، والخضوع لهذه الشريعة من خلال الجزية كاف لإنهاء الحرب والكف عن الدماء، وما لم يكن هذا ولا ذاك، فمن يُحارب شرعة الله تعالى

يُحَارِبُ، ولا يجوز لجيش المبادئ أن يخالف المبادئ التي انطلق لتحقيقها والدعوة إليها، ومن أجل ذلك نهى رسول الله ﷺ هذا الجيش عن الإخلال بهذه المبادئ كما جاء في وصيته لجيش مؤتة.

فهؤلاء الذين نشدوا السلامة وهجروا الحرب كالوليد والمرأة والشيخ الفاني والمتبتل للعبادة، ليس هم الإسلام القضاء عليهم بل هو يحارب من أجلهم، ويقاوم الذين يشرون أسياهم ورماحهم في وجه هذه العقيدة وهذه الشريعة، ويحولون بين الناس وبين دين الله وشرعته، ولا يقتل من المدنيين إلا دعة البغي والانهلال «وَسَجَّحُوا آخِرِينَ لِلشَّيْطَانِ، فِي رُؤُوسِهِمْ مَفَاحِصَ (مفاحص: جمع مفحص، والمفحص مفعول من الفحص، ومفحص القطاة موضعها الذي تحثم فيه وتبيض، أي أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطاة مفاحصها. النهاية ٣/ ١٨٥)، فَأَقْلَعُوها [فَأَقْلَعُوا هَامَهُمْ] (الهامة: رأس كل شيء، والمعنى: اضربوا رؤوسهم بالسيف) [بِالسُّيُوفِ]».

وهؤلاء الذين انطلقوا في الأرض وابتعثهم الله ليُخرجوا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ليسوا أوصياء على البشرية حين تستجيب لهم البشرية، ولا يعني براءتهم من الخطأ، وأنهم الناطقون باسم الله، بل هم بشر ممن خلق، ومن أجل هذا يدعوه رسول الله ﷺ إلى أن ينزلوا الناس على ذمهم لا على ذمة الله ورسوله، وبذلك يكون الخطأ عليهم لا على هذا الدين الذي مضوا يدعون إليه، ويدعوه إلى أن ينزلوا الناس على حكمهم لا على حكم الله ورسوله «فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا». وبذلك يلتصق الخطأ بالإنسان لا بعقيدته، بالقائد لا بدينه.

وهكذا نرى أن هذا الجيش المسلم هو كتيبة دعاة حضرت إلى أرض الشام لتتابع رسالة المسلم الشهيد الذي قضى نحبه وهو يبلغ رسالة رسول رب العالمين».

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/ ١٠٠-١٠١].

٦ - الباعث على التضحية حب الشهادة:

يقول د/ أبو فارس: «إن الصبر والثبات والتضحية التي تجلت في كل واحد من الأمراء الثلاثة وسائر الجند كان مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين والرغبة في أن يتخذ من أوليائه وأصفيائه شهداء حيث يكونون من أهل الجنة، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تأمل شعر ابن رواحة ؓ وهو يقول:

طَيِّبَةً وَبَارِدًا مَرَاهِمَا

يَا حَبِذَا الْجَنَّةُ وَأَقْرَبَهَا

وتأمل قول ابن رواحة ؓ وهو يخاطب نفسه:

إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّثَّةَ^(١) مَالِي أَرَاكَ تَكْرَهِيَنِ الْجَنَّةَ

وقوله ﷺ وهو يودع رسول الله ﷺ:

لِكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةَ ذَاتِ فَرْعٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا^(٢)
أَوْ طَعْنَةً يَبْدِي حَرَّانَ مُجْهِزَةً بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكِدَا^(٣)
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدِّي أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَارٍ وَقَدْ رَشَدَا^(٤)

والباعث أيضًا على الثبات وعدم الفرار من العدو أنه تعلم أن الفرار من وجه العدو في القتال يستوجب غضب الله وسخطه في الدنيا والنار وجميعهما في الآخرة قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحَقًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۝٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدُ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَسَّ الْمَصِيرُ ۝٦﴾ [الأُنْفَال]. [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٥].

٧- النصر بيد الله ﷻ:

يقول د/ الحميدي: «روى الواقدي بسنده» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: شَهِدْتُ مُؤْتَةً، فَلَمَّا رَأَيْنَا الْمُسْرِكِينَ رَأَيْنَا مَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ مِنَ الْعَدَدِ وَالسَّلَاحِ وَالْكَرَاعِ (يعني الخيل) وَالذَّبَابِ وَالْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ، فَرِيقٌ بَصْرِي، فَقَالَ لِي ثَابِتُ بْنُ أَقْرَمَ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا لَكَ؟ كَأَنَّكَ تَرَى جُمُوعًا كَثِيرَةً؟ قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: تَشْهَدُنَا بِبَدْرِ؟ إِنَّا لَمْ نُنْصَرْ بِالْكَثَرَةِ!». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٠].

وهكذا كان ثابت بن أقرم ﷺ ثابت الجأش لم يتأثر بكثرة الروم ليقينه بأن النصر ليس بكثرة الجيش وإنما بتأييد الله ونصره، وذلك مترتب على تحقيق أسباب النصر التي منها وأهمها التوكل على الله تعالى وحده ومنها الصبر، وطاعة القائد، واتفاق الكلمة». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٢٣].

٨- إيمان في الذروة:

يقول أ/ فتح الباب: «يا للموقف البطولي الرائع الذي وقفه القادة الثلاثة في أشد الظروف حرجًا وأقساها على احتمال البشرية، ها هو ذا شرحبيل والي هرقل إمبراطور الروم على الشام يستعين بمن حوله من القبائل أعداء الإسلام، وها هو ذا هرقل يستجيب له فيمده بجيوش من الإغريق ومن العرب، وتذهب بعض الروايات إلى أبعد من ذلك فتقول: إن هرقل نفسه تقدم بجيوشه حتى نزل مأب من أرض

(١) أجلب الناس: أصاحوا. الرثة: يفتح الراء وبالنون المشددة: الصوت يحزن.

(٢) ذات فرغ: يعني ذات سعة. الزبد: رغوة الدم. شرح السيرة للخشنى ٣٥٤.

(٣) رجل حرّان، عطشان، أي متعطش للقتل. مجهزة: سريعة القتل. الأحشاء: جمع حشا وهو ما في البطن.

(٤) الجلد: القبر.

البلقاء على رأس مائة ألف من الروم، كما انضم إليه مائة ألف آخر من لخم وجذام وغيرهما، ويقال إن تيودور أخا هرقل هو الذي كان على رأس هذه الجيوش لا هرقل نفسه، وينفذ إلى أسماعهم صوت من بينهم يقول: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعددنا، فإذا أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فمضي له.

وكاد الرأي العام يسير في هذا الاتجاه لولا أن تقدم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وكان إلى جانب شهامته وفروسيته شاعراً، فقال في نبرات قاطعة: (يَا قَوْمَ، وَاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَكْرَهُونَ، لَلَّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ الشَّهَادَةَ، وَمَا تُقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدْوٍ وَلَا قُوَّةَ وَلَا كَثْرَةٍ، مَا تُقَاتِلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ، فَانْطَلِقُوا، فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ: إِمَّا ظُهُورٌ، وَإِمَّا شَهَادَةٌ).

وسرى صوته كالتيار في نفوس المؤمنين فقال الناس: فوالله صدق ابن رواحة، ومضوا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية يقال لها: مشارف، فلما دنا العدو انحاز المسلمون إلى قرية مؤتة لأنهم رأوها خيراً من مشارف لتحصنهم بها.

وفي مؤتة التقى الفريقان وكانت المعركة بين جيشين غير متكافئين في العدة والعتاد، ولكنه الإيمان الصادق العميق قوة لا تعادلها قوة العدد والسلاح، والروح المعنوية الشائخة تتهاوى أمامها الحواجز والعقبات وتقصر المسافات، وتتضاءل المنافع الذاتية، ويصبح الفداء قيمة كبرى في ذاتها لا تعدلها إلا قيمة الإيمان.

لقد انطلق زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى ساحة الحرب على رأس جيشه وقد حمل راية الرسول ﷺ لا يتهيب المخاطر ولا يرهب الموت حين لم يكن من الموت بد، وظل يضرب ويضرب والرماح تنوشه من كل جانب حتى هوى صريعاً، وسلك مسلك الشهداء الأبرار في عليين.

وما أسرع ما تلقى منه الراية جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مقتحماً صفوف الأعداء وقد طوقوا الجيش الإسلامي بجموعهم الحاشدة، ضارباً بالسيف في أعناقهم حتى قطعت يمينه، فتناول الراية بيسراه فقطعت، فاحتواها بين عضديه حتى خر صريعاً.

وأخذ القائد الثالث عبد الله بن رواحة رضي الله عنه مكانه على رأس الجيش وقد اشتد الكرب وعظم البلاء،

فجعل عبد الله ﷺ يتردد بعض التردد، ثم قال وقد عقد عزمه على التضحية:

أَفَسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهُ	لَتَنْزِلَنَّهُ طَائِعَةً أَوْ لَتَكْرَهَنَّهُ
مَالِي أَرَأَيْكَ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ	إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّثَّةَ
لَطَالَمَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً	هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّةَ

ثم شرع سيفه مقاتلاً في سبيل الله حتى قُتل.

تلك هي أعظم مراتب البطولة التي تبلغها النفس الإنسانية إيماناً بالهدف وتصميماً على بلوغه، ولو كان الثمن هو الحياة نفسها، ذلك أن البطل إذ يضحي بنفسه إنما يعلم أن هذا هو السبيل لحياة الجماعة التي لا وجود له بدونها، والانتصار للمبدأ الحق الذي يحمل رايته، والذي لا قوام للجماعة بدونه، ولما كانت الحياة عزيزة على النفس والحفاظ على البقاء غريزة مركوزة في أعماق الإنسان، فقد جعل الله النفس البشرية طيعة في تلبية الحوافز المادية والمعنوية؛ لكي ترجح في الميزان عند الضرورة كفة غريزة البقاء، فلا عجب إذاً أن تقوم الأديان جميعها على فكرة الخلود حفزاً للفرد على إثارة الجماعة على نفسه.

إن تضحيته لن تذهب هباءً فليسوف تستمر حياة الجماعة بفضل هذه التضحية، وليسوف يجني هو ثمار ما عمل، إذ يكون مصيره الخلود في الفردوس، وأنعم به من جزاء يستحق التضحية أعظم التضحية، وإلى هذا المعنى ترمز نهاية الأرجوزة التي أنشدها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إذ يذكر نفسه بالجزء العظيم الذي ينتظره إذا قُتل في المعركة حفزاً لها على الإقدام واطراح التردد.

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٥٧-١٦٠].

٩ - الإسلام يصنع البطولات:

يقول د/ أبو شهبة: «قد أبلى البطل خالد رضي الله عنه وأصحابه الأبطال رضي الله عنهم بلاءً حسناً في هذا اليوم، وبفضل ثباتهم وشجاعتهم تبدلت هزيمتهم نصراً، وأي نصر يُرجى أكثر من صمود جيش تعداده ثلاثة آلاف أمام جيش تعداده مائتا ألف، وانسحابهم وهم موفورو العدد محفوظو الكرامة، وإنه لشيء نادر في تاريخ الحروب أن يقف جندي واحد أمام سبعين من الجنود المدججين بالسلاح، ولكنه الإيمان الذي يُصير من الجبناء شجعاناً، ومن الشجعان أبطالاً، ولعل مما يثير العجب أن جميع من استشهد من المسلمين في مؤتة ثمانية وقيل اثنا عشر». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٤٢٨-٤٢٩].

ويقول د/ العتوم: «أجل إذا كنا نقرأ في تاريخ العرب عن بطولات وصلت إلى درجة الأعاجيب، فلم يكن ذلك إلا بعد أن دخلوا في الإسلام، فصنع منهم أمة قائدة فاتحة مرشدة، تُجابه بقليلها المؤمن، في كل شيء كثير أعدائها الباطل فتمحقه فإذا هو زاهق.

فأئى كان للعرب أن يخرجوا من جزيرتهم هذا الخروج الخيّر الفاتح، بغير الإسلام ومتى كان لهم أن يتغلب ثلاثة آلاف منهم على مائتي ألف من العدو بعيداً عن قاعدتهم، مستهينين بجَمْعِهِ الحاشد، فيجوسون خلال دياره، وينالون منه أشدّ بُئِل، وتقع منهم في وسط هذه الديار بطولات عَزَّ على التاريخ البشري أن يسمع بمثلها، فجعفر رضي الله عنه ينزل عن حصانه كما لم ير له مقدماً لشدة تشابك الصفوف، فيعقره حتى لا يستفيد منه العدو، ويقاقل مدافعاً عن البيرق (الراية) حتى تُقطع يده ورجلاه، ويُقدَّ نصفين، فلا يُسلم حتى يُسلم الروح.

وهذا الموقف مُشابه لموقف سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه في معركة اليمامة، إذ أُعطي اللواء ليحميه فدافع عنه دفاع الأسد، حتى قُطعت يمينه، فأخذه بيساره فُقطعت، فاعتنقته وهو يقرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿وَكَايْنِ مِنْ نَجِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فلما صُرع قال لأصحابه: «ما فعل أبو حذيفة (مولاه)؟ قيل: قُتل، قال: فما فعل فلان؟ لرجل سمّاه، قيل: قُتل، فأضجعوني بينهما». [ابن الأثير، أسد الغابة ٣٠٨/٢ ترجمة رقم ١٨٢٩].

وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه لما استلم اللواء، جاهد جهاد الموت، ولم يكن يرى أمامه إلا الجنة تتوق نفسه إليها، جاذباً في الخروج من هذه الدنيا، بعد أن يبلي البلاء الحسن في خدمة الإسلام، وكبح جماح أعداء الله، وتمرُّ عليه الأيام لا يذوق فيها - وهو منشغل بالجهاد - شيئاً فيأتيه ابن عمٍّ له بعرق فيه شيء من اللحم، وبعد أن ينهس منه شيئاً، يتذكر أنه يثاقل إلى الأرض بهذه النهسات التي قد تؤخره عن ولوج الفردائس، فيرمي باللحم جانباً، وهو يقول: أهكذا تفعل وأنت في الدنيا، ثم يقتحم فيقاتل حتى يُقتل شهيداً رضي الله عنه. وهكذا الموقف يذكّرنا كذلك بموقف عمير بن الحُمام الأنصاري رضي الله عنه في معركة بدر، إذ سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يقاتل أحد في هذا اليوم، فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا دخل الجنة»، وكان عمير رضي الله عنه واقفاً في الصف بيده تمرات، يأكلهن، فسمع ذلك فقال: بخ، بخ (بخ: اسم فعل مضارع بمعنى أمدح)، ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، وألقى التمرات من يده وأخذ السيف فقاتل القوم وهو يقول:

رَكُضًا إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادٍ
إِلَّا التَّقَى وَعَمَلُ الْمَعَادِ

ثم حَمَل، فلم يزل يقاتل حتى قُتل شهيداً رضي الله عنه. [المصدر السابق ٢٩٠/٤، ٢٩١].

إنها مدرسة واحدة، هي مدرسة الإسلام التي تخرّج فيها جعفر وعبد الله وسالم وعمير رضي الله عنهم وغيرهم وغيرهم، فالمرضع واحدة، والحليب، والهدف واحد، ومن هنا كانت البضاعة متشابهة جودة وإتقاناً، وصدق الله العظيم: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرٍ يُجْزِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (١٠) ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١) ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٢) [الصف].

وكذلك كانت مؤتة إحدى مصانع البطولة الإسلامية، عندما كان الإسلام يحكم الحياة والأحياء، بطولة تحدّت فيها دولة ناشئة، ذات موارد قليلة أكبر دولة في العالم آنذاك، وصمدت لها بكل جرأة وإقدام، وثبتت لحربها ستة أيام، انفصلت فيها في السابع وقد لقتتها درساً قاسياً في مغبة الاعتداء على كرامتها ولو يقتل رجل واحد من أفرادها، ومن هنا جاز لنا أن نطلق عليها حرب الأيام الستة التي تذكّرنا بالأيام الستة في حرب سنة سبع وستين، ولكن أين هذه من هذه؟! وأين من أيام الله، أيام الناس؟!.

[تجربة مؤتة للعتوم ٢٦١-٢٦٤].

ويقول د/ البوطي: «أهم ما يثير الدهشة في هذه الغزوة تلك النسبة الكبيرة من الفرق بين عدد المسلمين فيها وعدد مقاتليهم من الروم والمشرّكين العرب! لقد رأيت أن عدد المشرّكين ومن معهم من الروم قد بلغ مائتي ألف مقاتل! وذلك على ما رواه ابن إسحاق وابن سعد وعامة كُتّاب السيرة على حين أن عدد المسلمين لم يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل، ومعنى ذلك أن عدد المشرّكين والروم قد بلغوا ما لا يقل عن خمسين ضعف من عدد المسلمين!

وهى نسبة إذا ما تصورتها تجعل رقعة الجيش الإسلامي أمام حشود الروم والمشرّكين أشبه ما تكون بساقية ماء صغيرة بالنسبة إلى بحر خضم مائج، هذا إلى ما كان قد جهز به جيش الأعداء من العدة والذخيرة والسلاح ومظاهر الأبهة والبذخ، على حين أن المسلمين كانوا يعانون من ذلك القلة والفقر! ومكان الدهشة في الأمر أن تجد المسلمين بعد هذا كله - وهم سرّية ليس فيها رسول الله ﷺ - مقبلين غير مدبرين، لا يقيمون لكل هذه الحشود الهائلة أمامهم وزناً، مع أنها - فيما يبدو ويظهر - لو التفت من حولهم وطوّقتهم من جهاتهم لانقلبوا إلى ما يشبه نواة صغيرة في جوف قطعة أرض سوداء! ثم إن مكان الدهشة بعد ذلك أن يصمد المسلمون لقتال هذا اليم المتلاطم، يُقتل أميرهم الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، وهم يقتحمون أبواب الشهادة في نشوة بالغة وإقبال عجيب، حتى يدخل الرعب الإلهي في أفئدة كثير من المشرّكين، دون أن يكون له سبب ظاهر، فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير، وتُقتل منهم خلائق لا تكاد تُحصى!

ولكن الدهشة كلها تزول، والعجب ينتهي، إذا تذكّرنا ما يفعله الإيمان بالله والاعتماد عليه، واليقين بوعده.

بل إن المدّش بالنسبة للمسلمين - إذا كانوا مسلمين - أن لا يكونوا كذلك، والعجيب فيهم حقاً أن يكونوا مسلمين ثم يكون لأرقام العدد والعدة حساب مع ذلك في أفكارهم، إلى جانب ما وعد الله به من نصر وتأييد، أو جنة ونعيم خالدين!... فالمسلمون كما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لا يُقاتلون بعدد ولا قوة ولا كثرة، وإنما يقاتلون بهذا الدين الذي أكرمهم الله به». [فقه السيرة للبوطي ٢٧٣-٢٧٤].

ويقول د/ بريك: «إن تقدّم المسلمين لملاقاة عدوّهم المتفوّق عليهم في العدد والعتاد، لأمرٌ يثير الدهشة فعلاً، وهو إن دلّ على شيء فإنها يدل على ما كان يتمتّع به أولئك القوم من إيمانٍ عظيم وقويّ، ذلك الإيمان الذي جعلهم يستصغرون معه عدوّهم، وتنقلب معه موازين المعركة، فأصبح وقوداً أشعل نار الشجاعة والإقدام في نفوسهم، وأوقد الحماس في قلوبهم، وأيقظ كوامن قواهم البشرية المكنونة.

نعم! لقد كان الإيمان المتَّقد في جوانح أولئك القوم يجعلهم أناساً آخرين، فتراهم يطيطرون في ساحات الوغى إلى الموت طيراناً، وينقضُّون على أعدائهم، وكأنهم عقبان تُلاحق فرائسها، كيف لا؟! وهم يتحسَّسون الجنة ونعيمها، وكأنهم يرونها أمامهم رأي العين، فيندفعون إليها جارين أمامهم سدود الأعداء، جاعلين منها طُرُقاً مُمهَّدة للدخول إليها.

لقد تملت هذه الحقيقة واضحة العيان في قتال القادة الثلاثة واندفاعهم بالمسلمين صوب أعدائهم في العمق، حتى أصبحت قصص استشهادهم صوراً رائعة للبطولة، يمكن أن يؤلَّف في كلِّ واحدةٍ منها كتابٌ مستقل.

إنهم فعلاً لا يقاتلون الناس بعددٍ ولا عدَّة، كما ذكر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه القائد الثالث، وإنها يقاتلون بتأييد الله تعالى لهم، ووعدته إياهم بالنصر والتمكين، وسواء قُتلوا أم غلبوا، فهم في كلا الحالين فائزون برضا الله تعالى عنهم، وموعودون بالأجر العظيم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤-٣٧٣). [غزوة مؤتة والسررايا والبعوث الشمالية لبريك ٣٧٣-٣٧٤].

١٠ - المقاييس الإيمانية الجديدة:

يقول أ/ الشامي: «لم يفاجأ الجيش بجيوش العدو، فقد توقعوا في معان، يناقشون مشكلة كثره جيش العدو... ومع ذلك تابعوا طريقهم رغم أن جميع المقاييس المادية لا توافقه على سلوكهم ذاك، ولكنهم دخلوا المعركة بمقاييس إيمانية، لماذا يراجعون وهم خرجوا يطلبون الشهادة... إن التي تفرون منها هي التي خرجتهم تطلبون.

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ يَتِيماً لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه فِي حَجْرِهِ، فَخَرَجَ بِي فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ مُرِدِّفِي عَلَى حَقِيْبَةِ رَحْلِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَيَسِيرُ لَيْلَةً إِذْ سَمِعْتُهُ وَهُوَ يُنْشِدُ آيَاتَهُ هَذِهِ (منها):

وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ وَعَادُرُونِي بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهِي الثَّوَاءِ^(١)

فَلَمَّا سَمِعْتُهُنَّ مِنْهُ بَكَيْتُ، قَالَ: فَخَفَقَنِي بِالْذَّرَّةِ (خفقتني: أي ضربني. والذرة: السوط)، وَقَالَ: مَا عَلَيْكَ يَا لُكْعُ (اللكع: اللثيم) أَنْ يَرْزُقَنِي اللَّهُ شَهَادَةً وَتَرْجَعَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ الرَّحْلِ! [السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٧/٢].

ودارت المعركة وقد انعدمت فيها مقومات التكافؤ، اللهم إلا من الإيمان الذي تجسم يومئذ إذا به هو جند الإسلام، وإذا به هو اللغة الوحيدة التي تكلمت يومها.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي غَزْوَةِ مُؤَتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رضي الله عنه، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعَفَرُ، وَإِنْ قُتِلَ جَعَفَرُ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ رضي الله عنه: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ

الغزوة، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ؑ، فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلِ، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بَضْعًا وَتَسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمِيَةٍ. [البخاري في المغازي (٤٢٦١)].

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ؑ يَقُولُ: لَقَدْ انْقَطَعَتْ [دُقٌّ] فِي يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةِ تِسْعَةِ أَشْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ [وَصَبْرَتْ] فِي يَدِي إِلَّا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ. [البخاري في المغازي (٤٢٦٥، ٤٢٦٦)].

وقد أحرز جيش الإسلام أكثر من انتصار في هذه المعركة، إن مجرد دخول المعركة بهذا الوضع هو انتصار لا مثيل له، وإن الثبات فيها انتصار آخر». [من معين السيرة للشامي ٤٠٥].

ويقول د/ الحميدي: «موقف عظيم لأولئك الصحابة حيث عزموا على القتال لما شجعهم ابن رواحة ؑ وذكرهم بمطلب عزيز لديهم جميعاً، وهو الشهادة في سبيل الله تعالى، وقد لاح لهم موطن من مواطنها حيث يفوقهم الأعداء عدداً بأكثر من ست وستين مرة، وحينما تذكروا هذا المطلب الكريم الذي حدده لهم عبد الله بن رواحة ؑ بقوله: «فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ: إِمَّا ظُهُورٌ، وَإِمَّا شَهَادَةٌ» انطلقوا جميعاً ولم يتخلف منهم أحد عن الاستجابة، وهذا دليل واضح على قوة إيمانهم وصدق عزائمهم إذ إن في واقعهم مع الأعداء غير المتكافئ ما يسوغ تراجعهم عن قتالهم، ولو كان الجيش يضم مستويات متباعدة في الإيمان لوقع الخلاف بينهم، فبمثل هؤلاء الأماجد الكرام تُغزى الأمم وتفتح الممالك.

وإن هذا المعنى الكريم الذي دعا عبد الله بن رواحة ؑ المسلمين إليه هو ما أوصى الله تعالى به المؤمنين أن يخاطبوا به المنافقين المخذلين عن الجهاد في سبيل الله تعالى حيث يقول: ﴿قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]، يعني هل تنتظرون بنا أيها المنافقون في خروجنا لقتال الأعداء من النتائج إلا أن نظفر بإحدى النتيجةين اللتين كل واحدة منهما هي حُسن النتائج في مجالي الحياة والموت؟! فإما حياة عزيزة بالنصر على الأعداء، وإما موت كريم بالظفر بالشهادة، وكلاهما خير وسعادة.

في هذا الخبر شعور رائع لعبد الله بن رواحة ؑ، ففي الأبيات الأولى يحمس المسلمين ويحثهم على الإقدام على جهاد الأعداء ويبين فيها استعدادهم للحرب، وفي الأبيات الأخيرة يتغنى بالشهادة في سبيل الله تعالى، ولا شك أن الذي يدخل المعركة وهو يتمنى الشهادة ستكون طاقته القتالية مضاعفة.

ثم صار يتمنى الشهادة في قصيدته المذكورة، وفيها تقوية للمؤمنين ورفع لمشاعر من لم يرتفع منهم إلى هذا المستوى». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١١٥-١١٦].

ويقول د/ الصلابي: «إن التأمل بعمق في غزوة مؤتة يساعدنا في معالجة الهزيمة النفسية والروحية التي تمر بها الأمة، وإقامة الحجة على القائلين بأن سبب هزيمتنا النفوق التكنولوجي لدى الأعداء.

لقد سجل ابن كثير رأيه في هذه المعركة وقال: (...) هذا عظيم جداً أن يقاتل جيشان متعاديان في الدين، أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف

مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد رضي الله عنه وحده يقول: لَقَدْ انْقَطَعَتْ [دُقٌّ] فِي يَدَيَّ يَوْمَ مُؤَتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ [وَصَبْرَتْ] فِي يَدَيَّ إِلَّا صَفِيحَةٌ يَكْنِيَّةٌ، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن، وقد تحكموا في عبدة الصليبان عليهم لعائن الرحمن في ذلك الزمان وفي كل أوان... [ينظر: البداية والنهاية ٤/ ٢٥٩].

[السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٤٣٩ - ٤٤٠].

١١ - العقيدة الإسلامية وأبطالها محل التمسك والاقتداء:

يقول أ/ باشميل: «إن معركة مؤتة - على ما أصاب المسلمين فيها من كرب وبلاء، وعلى ما تعرضوا له فيها من أخطار، وأقدموا عليه من مجازفة بلغت في عُرف هذا العصر حد الانتحار، تحمل أروع صور الصمود والتضحية والثبات، وفيها الدروس كل الدروس عن معاني العقيدة الحقيقية الصحيحة، ومعطياتها السخية، ودفقاتها الزاخرة بروافد الإيمان التي تجعل من حاملها إعصاراً يزلزل الشوامخ، وجبلاً هزأ بأعنى الأعاصير.

فالتمسك بالعقيدة - عقيدة الإسلام - وعلى ذلك المستوى الذي بلغه أبطال مؤتة، هو الذي به يستطيع المسلمون - عرباً كانوا أم غير عرب - استعادة الحقوق المسلوبة، والحفاظ على الكرامات المعرّضة للهدر والضياع.

فكم هو جدير بأصحاب الأيديولوجيات المستوردة إلى الشرق لجعلها منطلقاً لاسترجاع ثالث الحرمين وما ضاع من حقوق المسلمين في فلسطين وغير فلسطين، كم هو جدير بهم أن يدرسوا الأيديولوجية التي من فوق أرضها الصلبة ثبت ثلاثة آلاف مقاتل سبعة أيام يصارعون جيشاً قوامه مائتا ألف مقاتل، فأبدوا من ضروب الشجاعة والبذل والتضحية والفداء، ما يجعل الذي يتغنى به الماركسيون من بطولات عصابات تشي غيفاراً وهوشي منه وماوتسي تونج صفراً من اليسار في حساب البطولات.

إن تاريخ أمنا العربية التي هي جزء من أمتنا الإسلامية الكبرى طافح بأعمال البطولات الخالدة التي يجب أن تكون معقد اعتزازنا عند الافتخار، ومرجع دراستنا عندما يجيء دور الاقتداء والاتعاض والاعتبار، فنحن مستغنون كل الاستغناء عن التغني بأبجاد غيرنا، والتأسي والاقتداء برجال لا يمتون إلينا ولا إلى تاريخنا بأية صلة.

وكم هو رائع - بل وعظيم - أن يظن لمثل هذه الحقيقة ويدعو للتمسك بها أمثال (اللواء الركن مصطفى طلاس) فيقول - معقّباً في غير ارتياح على احتفال بعض بني قومه بالعيد المئوي لزعيم الشيوعية العالمية فلاديمير لينين -: «في التاريخ أمثلة تدل دلالة قاطعة على أن ما من أمة تعرضت أراضيها للغزو

الأجنبي والاحتلال، إلا هبت تنشد ماضيها وتبحث عما فيه من أمجاد، لعلها تجد ما يبعث الحياة في حاضرها، فتبرهن على أصالتها ودورها في الحضارة الإنسانية.

وحسب معلوماتي التاريخية ليس ثمة أمة داهمها الغزو كما ذكرت، واحتُلت أجزاء من أراضيها احتلالاً استيطانيّاً، بل وربما هُددت بالسحق والإبادة والتشريد، ثم انبرت تفاخر بتاريخ غير تاريخها وتحتفل بقيادة غير قادتها، وهي إن فعلت ذلك، إذن كان مثلها (مثل القرعاء، تنباهي وتفاخر بشعر جارتها).

أقول هذا عندما رأيت الصور والملصقات تغص بها الشوارع في دمشق العربية، لرجل لا يمت إلى تاريخنا بصلة غير صلة الإنسانية، مع تقديري العميق لمناقبه الفذة، قررت أن أكتب شيئاً مهماً كان قليلاً في ذكرى الرسول العربي ﷺ. [الرسول العربي وفن الحرب ص ١٥ من مقدمة مؤلفه اللواء الركن مصطفى طلاس].

حقاً إنه ليس أحد أحق بالثناء من أمة تتجاهل تاريخها الزاخر بالأمجاد والبطولات والطاقم بذكرى الأبطال الخالدين، ثم تدلج في ظلام المبادئ الهدامة المستوردة باحثة عن نفايات البشر وشُذاذ الآفاق والسفاحين الملحدين لتجعل منهم مثلها الأعلى في النضال وقودتها المثلى في التربية والسلوك.

إن نتيجة مثل هذا التصرف، لن تكون إلا كما كانت، الاندحار يتلوهُ الاندحار، والهزيمة تتلوها الهزيمة، حتى تعود أمة محمد ﷺ إلى الانتهاال من منبع الإسلام الصافي الشافي الذي انتهل منه أبطال معركة (مؤتة) فسجّلوا من الانتصارات في العهد النبوي وما تلاه من عهود زاهرة، ما حشى فم التاريخ بذكرهم العاطرة، التي ظلت وستظل إلى الأبد أنشودة الدهر المفضلة التي يُتغنى بها..

إلى الإسلام من جديد أيها المسلمون عرباً كنتم أم غير عرب إلى حقيقة الإسلام المتمثلة في التمسك به قولاً وعملاً، لا إلى القشور التي لا تعدو الانتساب إلى هذا الدين الخالد فحسب، إلى الإسلام الحقيقي إن كنتم تتوقون حقاً إلى أن يكون الله معكم لينصركم على أعدائكم، وإلا فلا تلوموا إلا أنفسكم، فلا عزة لكم ولا نصر بغير الإسلام. وتذكروا دائماً الفاروق عمر رضي الله عنه باني دولة الإسلام العظمى: «من طلب العزة بغير الإسلام أذله الله». [غزوة مؤتة لباشمیل ١١-١٣].

١٢ - ذو الجناحين ﷺ في الجنة:

يقول د/ بريك: «أحاديث الجناحين كثيرة، منها الصحيح، والحسن، والضعيف، وهي بمجموعها تدلُّ وتؤكد صحّة الخبر:

(١) أخرج البخاري (الصحيح ٨٧/٥) عَنْ عَامِرٍ قَالَ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِذَا حَيًّا [سَلَّمَ عَلَى] ابْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ ذِي الْجَنَاحَيْنِ. [البخاري في المغازي (٤٢٦٤)، وفي فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣٧٠٩). قال ابن حجر (فتح الباري ٧/٧٦): كأنه يشير إلى حديث عبد الله بن جعفر].

(٢) قال لي رسول الله ﷺ: «هَيِّئَا لَكَ أَبُوكَ يَطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ». [أخرجه الطبراني بإسناد حسن].

(٣) وأخرج الطبراني، كما في (مجمع الزوائد ٩/ ٢٧٣) بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما حديثاً طويلاً عن المعركة، قال في آخره: «ذَا جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا حَيْثُ شَاءَ، مُحْضُوبَةٌ قَوَادِمُهُ بِالْأَدْمَاءِ».

[قال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين وأحدهما حسن].

(٤) وأخرج ابن سعد (الطبقات ٤/ ٣٩) بسنده من حديث حماد بن زيد، عن عبد الله بن المختار قال: قال رسول الله ﷺ: «مَرَّ بِي جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ اللَّيْلَةَ فِي مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَهُ جَنَاحَانِ».

[وقد وصله الحاكم بإسناده عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، فذكر نحوه. وقال الحاكم (المستدرک ٣/ ٢٣٤): هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي في التلخيص. وابن حجر (فتح الباري ٧/ ٧٦)].

(٥) وأخرج ابن سعد أيضاً (الطبقات ٤/ ٣٩) بسنده عن الحسن البصري أنه قال: «إِنَّ جَعْفَرَ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ...».

[وسنده إلى الحسن لا بأس به، إلا أنه مرسل. أخرجه ابن سعد (الطبقات ٤/ ٣٩) من حديث حسين بن عبد الله بن ضمير، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فذكر مثله مرفوعاً. وحسين كذبه مالك وغيره].

(٦) وأخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جَعْفَرَ يَطِيرُ فِي الْجَنَّةِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ».^(١)

(٧) وأخرج الطبراني (المعجم ٢/ ١٠٧)، والحاكم (المستدرک ٣/ ٢٣١) بسنديهما من طريق زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «دَخَلَتْ الْبَارِحَةُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا جَعْفَرًا يَطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ».^(٢)

(١) تحفة الأحوذى، مناقب جعفر بن أبي طالب، حديث رقم ٣٨٥٢. قال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث أبي هريرة، لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن جعفر، وقد ضعف يحيى بن معين وغيره عبد الله بن جعفر، وهو والد علي بن المديني. وأخرجه الحاكم (المستدرک ٣/ ٢٣١) بسنده من طريق علي بن عبد الله بن جعفر المديني به نحوه، إلا أنه قال فيه: «مَلَكًا يَطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ بِجَنَاحَيْنِ». وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: المديني وإ. وقال ابن حجر (فتح الباري ٧/ ٧٦) في إسناده ضعف. وصححه الألباني في ثلاثة مواضع (الأحاديث الصحيحة ١٢٢٦، ومشكاة المصابيح ٦١٥٣، وصحيح سنن الترمذي ٢٩٦٣).

قلت: والصحيح أنه ضعيف لضعف عبد الله بن المديني، كما ذكر الذهبي، وابن حجر. والله تعالى أعلم.

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال مصطفى عبد القادر عطا (حاشية المستدرک ٣/ ٢٣١) حذفه الذهبي من التلخيص لضعف سلمة بن وهرام. قال أحمد: روى منكر أخشى أن يكون ضعيفاً. وقال أبو داود: ضعيف.

قلت: ولكن ابن حجر (التقريب ٢٤٨) قال عنه: صدوق، وقال في التهذيب ٢/ ٣٨٤: وثقه أبو زرعة، وابن معين. وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس بروايات الأحاديث التي يروها عنه غير زمعة. انتهى.

ولكن في إسناده زمعة بن صالح، قال عنه ابن حجر (التقريب ٢١٧): ضعيف، وحديثه عند مسلم مقرون.

(٨) وأخرج ابن عساكر: بسنده من طريق عمر بن هارون البلخي، عن عبد الملك بن عيسى الثقفي، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لَمَّا جاء نعي جعفر بن أبي طالب دخل النَّبِيُّ ﷺ على أسماء بنت عيسى، فوضع عبد الله ومحمَّد ابني جعفر على فخذه، ثُمَّ قال: «إِنَّ جبريل أخبرني أَنَّ الله ﷻ استشهد جعفرًا، وَإِنَّ له جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة...»^(١).

(٩) وقال السيوطي (الخصائص ٧٤): أخرج الدارقطني في غرائب مالك عن ابن عمر قال: «كُنَّا مع رسول الله ﷺ فرفع رأسه إلى السماء فقال: «وعلَّيكُم السلام ورحمة الله وبركاته»، فقال الناس: يا رسول الله ما هذا؟ قال: «مَرَّ بي جعفر بن أبي طالب في ملاٍّ من الملائكة فسَلَّمَ عليَّ».

[قال عنه ابن حجر (الإصابة ١/ ٢٣٨): ضعيف].

(١٠) وأخرج ابن سعد (الطبقات ٤/ ٣٩) بسنده عن إسماعيل بن أبي خالد، عن رجلٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لقد رأيته في الجنة - يعني جعفرًا - له جناحان مضر جان بالدماء مصبوغُ القوادم». [قلت: سنده ضعيف لجهالة الراوي عن النَّبِيِّ ﷺ، ولا تقطع السند إسماعيل بن أبي خالد من الرابعة. والله تعالى أعلم].

(١١) وأخرج ابن سعد أيضًا (الطبقات ٤/ ٣٩) من حديث حسين بن عبد الله بن ضميرة، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لجعفر بن أبي طالب جناحين يطير بهما في الجنة مع الملائكة». [قلت: سنده ضعيف، حسين بن عبد الله بن ضميرة، كَذَّبَه مالك وغيره، و لجهالة أبيه. والله تعالى أعلم].

(١٢) كما أخرج الطبري (التاريخ ٣/ ٤١) بسنده من طريق ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر قال: لَمَّا أُتِيَ رسول الله ﷺ مصاب جعفر رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «قد مرَّ جعفر البارحة في نفرٍ من الملائكة له جناحان مختضب القوادم بالدم، يريدون بيشة أرضًا باليمن». [قلت: سنده ضعيف لعنعة ابن إسحاق، وإرساله، عبد الله بن أبي بكر، من الخامسة، كما أَنَّ في متنه نكارة. والله تعالى أعلم].

[غزوة مؤتة والسرابة والبعوث الشبالية لبريك ٣٠٩-٣١٢].

١٣ - المعنى المقصود لجناحي جعفر رضي الله عنه:

يقول د/ بريك: «وفي حديث الجناحين اللذين أثناهما الله ﷻ جعفرًا رضي الله عنه عنه بدلًا من يديه اللتين قُطِعَتَا، اختلف في معنى الجناحين، أهما على الحقيقة أم لا؟».

قال ابن حجر: روى النسفي عن البخاري أنه يقال لكل ذي ناحيتين جناحان، وأنه أشار إلى أن الجناحين في هذه القصة ليسا على ظاهرهما. [فتح الباري ٧/ ٥١٥].

(١) تاريخ دمشق (عبد الله بن جابر - عبد الله بن زيد ص ٢٧)، وأخرجه الطبراني كما ذكر الهيثمي (المجمع ٩/ ٣٧٣)

وقال عنه: فيه عمر بن هارون، وهو ضعيف، وقد وُثِّقَ، وبقيّة رجاله ثقات.

قلت: عمر بن هارون قال عنه ابن حجر (تقريب ٤١٧): متروك.

وقال السهيلي: «وَمَا يَنْبَغِي الْوُقُوفُ عَلَيْهِ فِي مَعْنَى الْجُنَاحِينَ أَنَّهُمَا لَيْسَا كَمَا يَسْبِقُ إِلَى الْوَهْمِ عَلَى مِثْلِ جُنَاحِي الطَّائِرِ وَرِيشِهِ؛ لِأَنَّ الصُّورَةَ الْآدَمِيَّةَ أَشْرَفَ الصُّوَرِ وَأَكْمَلُهَا، وَفِي قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» [البخاري في الاستئذان (٦٢٢٧)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦١٢)]، تَشْرِيفٌ لَهُ عَظِيمٌ، وَحَاشَا لِلَّهِ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ، وَلَكِنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ صِفَةِ مَلَكِيَّةٍ، وَقُوَّةٍ رُوحَانِيَّةٍ، أُعْطِيَهَا جَعْفَرٌ ﷺ كَمَا أُعْطِيَهَا الْمَلَائِكَةُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى ﷺ: ﴿وَأَضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢].

فَعَبَّرَ عَنِ الْعَضْدِ بِالْجُنَاحِ تَوْسَعًا، وَلَيْسَ ثَمَّ طَيْرَانٌ، فَكَيْفَ بِمَنْ أُعْطِيَ الْقُوَّةَ عَلَى الطَّيْرَانِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ أَخْلَقَ إِذَا أَنْ يُوَصَّفَ بِالْجُنَاحِ مَعَ كَمَالِ الصُّورَةِ الْآدَمِيَّةِ، وَتَمَامِ الْجَوَارِحِ الْبَشَرِيَّةِ، وَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي أَجْنَحَةِ الْمَلَائِكَةِ: «لَيْسَتْ كَمَا يَتَوَهَّمُ مِنْ أَجْنَحَةِ الطَّيْرِ، وَلَكِنَّهَا صِفَاتٌ مَلَكِيَّةٌ لَا تَفْهَمُ إِلَّا بِالْمَعَانِيَةِ، وَاحْتِجُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَّلُ أَجْنَحَةٍ مَثْنً وَثُلُثَ وَرُبْعٌ﴾ [فاطر: ١]، فَكَيْفَ تَكُونُ كَأَجْنَحَةِ الطَّيْرِ عَلَى هَذَا، وَلَمْ يَرِ طَائِرٌ لَهُ ثَلَاثَةُ أَجْنَحَةٍ وَلَا أَرْبَعَةٍ، فَكَيْفَ بَسْتَمَاةُ جُنَاحٍ كَمَا فِي صِفَةِ جَبْرِيلَ ﷺ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا صِفَاتٌ لَا تَنْضَبُطُ كَيْفِيَّتُهَا لِلْفِكْرِ، وَلَا وَرْدٌ - أَيْضًا - فِي بَيَانِهَا خَبْرٌ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا الْإِيمَانَ بِهَا، وَلَا يَفِيدُنَا عِلْمًا بِإِعْمَالِ الْفِكْرِ فِي كَيْفِيَّتِهَا، وَكُلُّ أَمْرٍ قَرِيبٌ مِنْ مَعَانِيَةِ ذَلِكَ». [الروض الأنف ٧/ ٣٨-٣٩].

قال ابن حجر: «هذا الذي جزم به في مقام المنع، والذي نقله عن العلماء، ليس صريحًا في الدلالة لما ادعاه، ولا مانع من الحمل على الظاهر إلا من جهة ما ذكره من المعهود، وهو من قياس الغائب على الشاهد، وهو ضعيف، وكون الصورة البشرية أشرف الصور لا يمنع من حمل الخبر على ظاهره، لأن الصورة باقية، وقد روى البيهقي في الدلائل من مرسل عاصم ابن عمر بن قتادة: «أن جناحي جعفر من ياقوت، وجاء في جناحي جبريل أنهما من لؤلؤ، أخرجه ابن منده في ترجمة ورقة» [فتح الباري ٧/ ١٦٥].

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشهابية لبريك ٣٦٣-٣٦٤].

١٤ - كيف انتصرت العقيدة في مؤتة:

يقول أ/ باشميل: «لقد كانت هناك أعظم الدروس التي يمكن - بل يجب - استخلاصها مما حدث من الصحابة في معركة (مؤتة) بالشام، فحرب الأيام الستة التي خاضها (بكل ضراوة وعنف واستبسال) ثلاثة آلاف مسلم ضد مائتي ألف من الرومان وأتباعهم الذين يفوقونهم (من الناحية البشرية) سبعين ضعفًا، ويتفوقون عليهم في التكنولوجيا (العلوم العسكرية) وحسن التسليح ووفرته بما لا جدال فيه لدى أي من المؤرخين (مسلمين كانوا أم غير مسلمين)، هذه الحرب التي ثبت وقاوت واستبسال فيها المسلمون على ذلك النحو البطولي، ترك درسًا خالداً لا يزال حيًّا، ويجب أن يتلقاه الجندي المسلم في كل مراحل تدريبه العسكري وتثقيفه الحربي، وهو أن العقيدة السليمة المكيمة التي تربط بين الإنسان وربه، وتجعله على صلة صحيحة صادقة بربه، غاية ما يتمنى الاستشهاد في سبيله تعالى، يُشترط تمرکزها في نفس كل محارب مسلم قبل كل شيء.

لأن تغلغل العقيدة الإسلامية الصحيحة في النفس قد أعطت - عملياً - النتائج الإيجابية الرائعة المدهشة إلى درجة تقرب من المعجزة.

فلولا تغلغل هذه العقيدة في أعماق الرجال الذين خاضوا معركة مؤتة ضد الرومان، لما فكروا في البقاء لحظة داخل الأراضي الرومانية (في البلقاء)، فضلاً عن تفكيرهم في مواصلة الزحف والاصطدام بالجيش الروماني، بعد أن أفادت تقارير استخباراتهم أن قوات هذا الجيش تتفوق عليهم في العدد سبعين ضعفاً.

إنه بالرغم من ضرورة الاهتمام بالأعداد المادي من رجال وخيل وسلاح لخوض المعارك كما حث على ذلك القرآن الكريم: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فقد أثبت أبطال (مؤتة) المسلمون من أصحاب محمد أن القوة المادية ليست كل شيء في كسب النصر أو الحيلولة دون التعرض للهزائم الساحقة، وإنما الشرط الأساسي لكسب النصر، أو الصمود والثبات لمنع وقوع الهزائم الساحقة المدمرة، هو توفر العقيدة السليمة الصادقة وتغلغلها في قلب الإنسان المسلم. -
لقد كان كل شيء مادي يوحى على نحو لا يقبل النقاش على أن الهزيمة الساحقة المدمرة تتكون من نصيب الجيش الإسلامي في مؤتة.

فمن وجهة النظر العسكرية، وحسب المقاييس والموازن الحربية العادية التي بها يتم تقييم الموقف الحربي ويعطى بها - مقدماً - ما يشبه الحساب الذي لا يخطئ، كان النصر مضموناً للرومان على المسلمين كنتيجة حتمية لتفوقهم الهائل الساحق على المسلمين في كل شيء.

فجيش الإسلام - حسب هذه الموازن والمقاييس العسكرية - مقضيٌّ - عليه في (مؤتة) على أيدي الرومان إما بالموت وإما بالوقوع في الأسر.

وهذا تقدير لا يمكن لأي خبير عسكري أن يطعن في صحته من وجهة النظر العسكرية العادية التي عبّرها يضع القادة الخطط ويتظرون النتائج للمعارك.

فثلاثة آلاف مقاتل، مهما بلغوا من الشجاعة وقوة البأس وشدة المراس والصبر على الحرب، لا يمكنهم - حسب المقاييس العادية الطبيعية - الصمود ساعة واحدة في وجه مائتي ألف مقاتل، بل لا يمكنهم النجاة من أن يُقتلوا أو يقعوا جميعهم أسرى في أيدي تلك القوات الكثيفة الغامرة الهائلة التي كانت تحيطهم كما يحيط البحر الهادر نقطة من اليابسة صغيرة.

ذلك هو التقدير الصحيح والمفهوم الذي لا غبار على صحته وسلامته لدى من ينظرون إلى المعارك على أنها قتال بين فريقين، هم من طينة واحدة (طينة البشر)، تكون فيها - عادة - الغلبة والنصر للأكثر عدداً، والأجود تسليحاً، والأحسن تدريباً، والأكثر علماً بفنون الحرب، وكل هذه العناصر المطلوب

توفرها لكسب النصر الساحق كانت متوفرة لدى قيادة الجيش الروماني الذي تصادم مع جيش الإسلام في مؤتة.

ولكن جيش الإسلام الصغير في (مؤتة) قلب موازين النظريات العسكرية التقليدية التي تقول: إنه - لكي تضمن القيادة النصر - يجب إعداد المحارب إعداداً مادياً كاملاً من حيث التسليح والتدريب والإلمام بالعلوم العسكرية وفنونها (تكنولوجياً) والتفوق في العدة والعدد.

فقد أثبت الصمود الرائع - الذي أبداه المسلمون في معركة مؤتة والذي يمكن - نظراً لعدم التكافؤ بين القوتين المتحاربتين - وصفه بأنه أعلى نموذج للنصر المؤزر، أثبت أن التفوق في القوة المادية، بل وحتى العلوم والفنون العسكرية ليس هو كل شيء لكسب المعارك.

وإنما العامل الأساسي والأول لكسب النصر وتحقيق الأهداف في المعارك هو العقيدة الصحيحة السليمة، وهذا هو الذي أثبتته عملياً وخلدته في سجل التاريخ - كحقيقة واقعة - أحداث معركة مؤتة التاريخية، فمتانة العقيدة ورسوخها في نفوس الجيش الإسلامي، قد أبطلت عامل التفوق الهائل لدى الجيش الروماني في معركة (مؤتة).

إذ جعلت العقيدة الإسلامي - لا القوة الحربية لدى المسلمين - الجيش الروماني يبدو وكأنه مصاب بالشلل.

وإلا فما هو التفسير لصمود ثلاثة آلاف مقاتل في وجه مائتي ألف مقاتل سبعة أيام متوالية ثبت المسلمون خلالها، وظلوا يقاتلون الرومان فيها قتالاً شرساً ضارياً، مُوقِّفين تقدمهم ومُنزِلين بهم أفدح الخسائر.

وعندما استشهد آخر قائد من قادة الجيش الإسلامي الثلاثة، ورجحت كفة الجيش الروماني وبدا وكأنه قد كسب المعركة نهائياً، وأن إبادة هذا الجيش الصغير أصبحت أمراً مفروغاً منه، إذا بالقائد الجديد لهذا الجيش يعيد تنظيمه - في تلك الساعات الحاسمة - من جديد ويشن به هجوماً كاسحاً يُشيع الفوضى والهلع والارتباك في صفوف الجيش الروماني، ثم ينسحب بسلام وانتظام دون أن يخسر رجلاً واحداً، ودون أن يجزأ الجيش الروماني على تعقبه وملاحقته أثناء انسحابه، مع علم قيادة الجيش الروماني أن الجيش الإسلامي الصغير المنسحب تفصله عن عاصمته التي قرر الانسحاب إليها مسافة لا تقل عن ستمائة ميل، مزروعة كلها بعناصر معادية للجيش المسلم، الأمر الذي يجعل - حسب المقاييس العسكرية العادية - من السهل على الجيش الروماني تعقب الجيش الإسلامي المنسحب وتزيقه وإبادته.

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، بل بدلاً من أن تفكر قيادة الجيش الروماني في مطاردة الجيش الإسلامي المنسحب ومهاجمته وهو ينسحب، كان سرورها عظيماً بانسحابه من الميدان؛ لأنها عانت منه خلال الأيام

السته في مؤتة ما نسخ من أذهانها كل مفاهيمها عن المحارب العربي بعد أن أصبح مسلماً، له عقيدة يرى الاستشهاد في سبيل نصرتها غاية ما يتمنى، فما هو السر في كل هذا الذي حدث مما يمكن اعتباره من الخوارق للعادة؟

إن الباحث العسكري الخبير المنصف - وهو يضع أحداث معركة مؤتة في المختبر للتحليل - لن يجد أية صعوبة - بعد ظهور عدم التكافؤ بين الجيشين المتصادمين في مؤتة على النحو الذي فصلنا - لن يجد أية صعوبة في إصدار حكمه القاطع بأن ما حققه الجيش الإسلامي الصغير من انتصارات بصموده ذلك الذي بلغ ما يقرب الإعجاز، إنما كان يرجع إلى عامل واحد، هو عامل العقيدة، عقيدة الإسلام التي رسخت في قلب كل جندي من جنود ذلك الجيش المسلم الصغير.

والتي كانت الإيجابية الرئيسة لرسوخ هذه العقيدة هو حرص كل واحد من هؤلاء الجنود على الموت في سبيل الله أكثر من حرصه على الحياة، هذه الإيجابية الرائعة التي عبّر عنها أصدق تعبير القائد الثالث في هذه المعركة التاريخية الخالدة بقوله: (يَا قَوْمُ، وَاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَكْرَهُونَ، لِلَّيْنِ خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ الشَّهَادَةَ، وَمَا تُقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدَدٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا كَثَرَةٍ، مَا نَقَاتِلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ، فَأَنْطَلِقُوا، فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ: إِمَّا ظُهُورٌ، وَإِمَّا شَهَادَةٌ)، وذلك عندما تردّد بعض الصحابة رضي الله عنهم - بمدينة معان - في مصادمة الرومان عندما بلغهم العدد الهائل الذين هم فيه.

إذن فالعامل الرئيس في الانتصارات الرائعة التي حققها المسلمون في معركة (مؤتة) التاريخية الخالدة إنما هو العقيدة الإسلامية الراسخة التي أبطلت فعاليتها العظيمة عامل التفوق المادي والعلمي الساحق لدى الجيش الروماني، وجعلت هذا التفوق - في ميزان النتائج - يبدو وكأنه صفر من اليسار في علم الحساب.

وعامل العقيدة الإسلامية الصادقة وتغلغلها ورسوخها في نفس المحارب المسلم لم يكن في معركة (مؤتة) وحدها العامل الرئيس الأول في إبطال عامل التفوق المادي الساحق الذي يواجهه المحارب المسلم في العهود التي كانت عزة الإسلام فيها هي السائدة الغالبة المنتصرة.

بل لقد كان المحاربون المسلمون دائماً في تلك العهود يتفوق عليهم أعداؤهم في العدد والعدة وكل مستلزمات النصر المادية والفنية، ولكن النصر الساحق دائماً يكون للمسلمين على أعدائهم في كل تلك المعارك.

هذه حقيقة واقعة ناصعة شهدتها معارك: بدر، وأحد، والأحزاب، وخيبر، وحنين، واليامة، وبزاخة (بضم أوله وفتح ثانيه: ماء لبني أسد بن خزيمة بنجد دارت فيه معركة فاصلة بين جيوش الخلافة بقيادة خالد بن

الوليد ﷺ وبين قوات المرتدين بقيادة طليحة بن خويلد الأسدي)، واليرموك، والقادسية، ونهاوند (بفتح أوله وثانيه وسكون ثالثه: مدينة عظيمة في فارس فتحها النعمان بن مقرن المازني ﷺ، ثم استشهد في معركة فتحها، ومعركتها حاسمة تشبه معركة القادسية، واستشهد فيها أيضًا عمرو بن معدي كرب الزبيدي وطليحة بن خويلد الأسدي وكلا الرجلين ارتدا عن الإسلام ثم تاب وجاهد في سبيل الله حتى استشهد)، وجبل الطارق، وزلاقة (بفتح الزاي وتشديد اللام: موضع في شمال الأندلس قرب الحدود الفرنسية، دارت فيها معركة طاحنة بين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين البربري حاكم مراكش وعرب الأندلس من جهة وبين الملك الأذفونش من جهة أخرى، وقد انتصر فيها المسلمون بعد قتال مرعب وبعد أن انهزمت بعض طلائعهم أمام النصاري وقد جرح في هذه المعركة الملك الأذفونش. ثم مات - بعد ذلك - متأثرًا بجراحه)، وحنطين (بكسر - أوله وثانيه مع التشديد: موضع في فلسطين بين عكا وطبرية: وعلى بعد ثمانية أميال من بحيرة طبرية، موضع له تاريخ خالد، حيث دارت فيه المعركة الحاسمة بين جيوش صلاح الدين وبين ملوك الصليبيين وأنزل بهم تلك الهزيمة المنكرة التي مكنته من استعادة فلسطين كلها وطرده الصليبيين منها، بعد أن حررت بيت المقدس منهم)، والقسطنطينية (مدينة عظيمة تقع على خليج البوسفور كانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (الروم الشرقية) فتحها السلطان محمد الفاتح التركي سنة ٨٥٧هـ / ١٤٣٥م وهو في الحادية والعشرين من عمره بعد معركة رهيبة اشترك فيها ربع مليون جندي تركي قاموا عليها بالهجوم عن طريق البحر فاقتحموها)، وذات الصواري (معركة بحرية هائلة دارت في مياه البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم سابقًا) بالقرب من الشواطئ التونسية ما بين الأسطول الإسلامي المؤلف من حوالي ثلاثمائة سفينة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وما بين الأسطول الروماني المؤلف من حوالي ألف سفينة بقيادة قسطنطين بن هرقل. وقد انتصر - المسلمون في هذه المعركة بعد قتال رهيب تماسك فيه الفريقان بالشعور واستخدموا الخناجر بدل السيوف، حتى احمرت مياه البحر من الدماء، وقد فر قائد الأسطول الروماني قسطنطين منهزمًا على سفينة القيادة إلى صقلية وهناك مات متأثرًا بجراحه وقيل: اغتاله نصاري صقلية حنقًا عليه لانهزامه أمام المسلمين).

فالانتصارات العظيمة في تلك المعارك الحاسمة وأمثالها، والتي مكنت الإسلام وجعلت المسلمين - فترة من الزمن - أعز أمة في الأرض، لم يكن العامل في تحقيقها عامل التفوق المادي بكثرة العدد والعدة، ولا عامل التفوق (التكنولوجي) بإجادة العلوم والفنون العسكرية، كلا، فعامل التفوق في كل هذه الأمور المادية والعلمية والفنية هو في جانب أعداء الإسلام، وإنما العامل الرئيس والأول في تحقيقها هو عقيدة الإسلام المكيبة الصادقة الراسخة، التي بصلابتها ورسوخها في القلوب المؤمنة، غير المسلمون - خلال تسعين سنة - مجرى التاريخ كله، إذ طوى خلالها جند الإسلام - على قلتهم وكثرة أعدائهم - بساط ثلاث إمبراطوريات كانت جميعها تتنازع سيادة العالم كله.

وبعد فإن المحارب المسلم - عربياً كان أو غير عربي - لا سبيل له يصل به إلى تحقيق الانتصارات الحاسمة على عدوه إلا بالتزام عقيدة الإسلام وعلى المستوى الذي التزم به رجال (مؤتة) واليامة واليرموك والقادسية». [غزوة مؤتة لباشميل ٢٥٠-٢٥٥].

١٥ - إثبات صدق النبي ﷺ:

يقول د/ البوطي: «لقد رأيت أن النبي ﷺ نعى لأصحابه زيداً وجعفرًا وابن رواحة رضي الله عنه وعيناه تذرفان، ويئن رسول الله ﷺ وبينهم مسافات بعيدة، وهذا يدل على أن الله تعالى قد زوى لرسوله ﷺ الأرض فأصبح يرى من شأن المسلمين الذين يقاتلون على مشارف الشام ما حدث أصحابه به، وهي من جملة الخوارق الكثيرة التي أكرم الله بها حبيبه ﷺ».

كما يدل هذا الحديث نفسه على مدى شفقتة على أصحابه، فلم يكن شيئاً قليلاً أن يبكي رسول الله ﷺ وهو واقف في أصحابه يحادثهم عن خبر هؤلاء الشهداء، وأنت خير أن بكاءه ﷺ لا يتنافى مع الرضى بقضاء الله تعالى وقدره، فإن العين لتدمع والقلب ليحزن - كما قال الرسول ﷺ - وتلك رقة طبيعية ورحمة فطر الله الإنسان عليهما». [فقه السيرة للبوطي ٢٧٥].

ويقول الشيخ القرني: «وحين نعى النبي ﷺ أصحابه كان ينعاهم وهو يراهم في مكانه بالمدينة، بينما هم على حدود الشام، ذلك أن الله قد زوى له الأرض في زمان لا يعرف ما تعرفه العصور الحديثة من أجهزة تنقل الأخبار والمريثات، ولئن نقلتها الآن فهي لا تنقلها بالدقة التي أخبر بها النبي ﷺ، وهذا من معجزاته الخارقة، ولقد كشف الله بصيرة أصحابه من بعده فأكرمهم ببعض ما أكرمه الله به، كما حدث من عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين رأى وهو يخطب على المنبر بالمدينة قائده سارية بن زنيمة رضي الله عنه يوشك أن يحيط به عدوه، فصاح به عمر رضي الله عنه قائلاً: يا سارية، الجبل الجبل».

وسمع سارية رضي الله عنه النداء فتنبه فانتصر، وكان ذلك في أثناء فتح المسلمين لمدينتي: فسا ودراجرد في بلاد فارس». [هدي السيرة للقرني ٢٠١].

ويقول د/ أبو خليل: «واعتر (موير) الرواية التي ذكر فيها أن رسول الله ﷺ أخبر بها حدث في ساحة القتال قبل أن يصله الخبر خرافة؛ لأن الخبر كان قد وصل رسول الله ﷺ من أول رسول أرسله خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى المدينة، وعلى ذلك فليست هناك معجزة كما يقول المسلمون».

[محمد رسول الله ﷺ لمحمد رضا ص ٢٩٩].

ولكن (موير) لم يعلق شيئاً على معجزة رسول الله ﷺ التي تنبأ فيها بإصابة زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه قبل أن يذهبوا إلى الحرب، وقد أصيبوا جميعاً بالترتيب كما ذكر.

فكان عليه - للأمانة التاريخية - وهو مؤرخ، أن يدلي برأيه صريحاً في هذه المسألة، لا أن يذكرها بلا تعليق، ويغض الطرف عنها، والحقيقة أنه لما رأى أن هذه المعجزة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار لم يشأ أن يقرها ويعترف بها.

وغاب عن موير أن رسول الله ﷺ لما جمع المسلمين وأخبرهم خبر الجيش، لم يصل إليه رسول خالد بن الوليد ﷺ إلا بعد أيام، وهي مدة تراجع خالد ﷺ ووصول يعلي بن أمية ﷺ إلى المدينة من مؤتة، وهي مدة تحتاج على الأقل أسبوعاً!!!. [غزوة مؤتة لأبي خليل ١٢٠-١٢١].

ويقول د/ الغضبان: «وما لنا وأقوال الصحابة إذا كان رسول الله ﷺ سيد ولد آدم والذي أقر به عينه بأن أشهده المعركة يصفها لنا ﷺ بقوله: «ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

ولسنا بحاجة بعد كلام رسول الله ﷺ لكلام أحد قط، فقد كانت الدعوة النبوية الخالصة الضاربة إلى الله تعالى: «اللَّهُمَّ هُوَ [إِنَّهُ] سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِكَ فَأَنْصُرْهُ - وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مَرَّةً: فَأَنْتَصِرُ بِهِ» كما في الرواية الصحيحة.

واستجاب الله دعوة نبيه: (فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ).

وكانت الكرامة لأولياء الله، والمعجزة لرسول الله ﷺ.

فهو سيف الله، ومن يقف لسيف الله في الأرض! وحقق الله تعالى معجزته بهذا السيف، فقد أطلق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ هذا اللقب على خالد بن الوليد ﷺ، ولا عجب لو تجمعت قوى الأرض كلها أن تقف في وجهه لهزمها، إن عصا موسى المعجزة لقت ما يأفك الكفار كله، وأراد الله تعالى أن يحقق نصره بعبد من عباده الذي كان أشدهم حرباً على الله ورسوله ليأخذ بعد أربعة أشهر أرفع أوسمة التاريخ من رسول رب العالمين ﷺ: «سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ»، «اللَّهُمَّ هُوَ [إِنَّهُ] سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِكَ».

حتى أصبحت الكلمة مثار رعب في الأرض كلها، حتى ليسأل جَرَجَةَ قائد الروم خالداً ﷺ بعد سبعة أعوام في ساحة المعركة: (يَا خَالِدُ أَصْدِقْنِي وَلَا تُكَذِّبْنِي، فَإِنَّ الْحَرَّ لَا يَكْذِبُ، وَلَا تُخَادِعُنِي فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يُخَادِعُ الْمُسْتَرْسِلَ بِاللَّهِ، هَلْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّكُمْ سَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ فَأَعْطَاكُمْ، فَلَا تُسَلُّهُ عَلَى قَوْمٍ إِلَّا هَزَمْتَهُمْ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فِيمَ سُمِّيَ سَيْفَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ ﷻ بَعَثَ فِيْنَا نَبِيَّهُ ﷺ، فَدَعَانَا، فَفَرَرْنَا عَنْهُ، وَنَأَيْنَا عَنْهُ جَمِيعًا، ثُمَّ إِنَّ بَعْضَنَا صَدَقَهُ وَتَابَعَهُ، وَبَعْضُنَا بَاعَدَهُ وَكَذَّبَهُ، فَكُنْتُ فِيمَنْ كَذَّبَهُ وَبَاعَدَهُ وَقَاتَلَهُ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ بِقُلُوبِنَا وَنَوَاصِينَا، فَهَدَانَا بِهِ، فَتَابَعْنَاهُ، فَقَالَ: أَنْتَ سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ سَلَّهُ اللَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ! وَدَعَا لِي بِالْغَنَاصِ، فَسُمِّيَ سَيْفَ اللَّهِ بِذَلِكَ، فَأَنَا مِنْ أَشَدِّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ).

وعندما عقد له الصَّدِيقُ ﷺ على قتال أهل الردة قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نِعْمَ عَبْدُ اللَّهِ وَأَخُو الْعَشِيرَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، سَلَّهُ اللَّهُ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ».

[مجمع الزوائد في المناقب ٩/ ٥٨٠ رقم ١٥٨٧٥، وقال الهيثمي: رواه أحمد [مسند أحمد ١/ ٢١٦ رقم ٤٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح بشواهده، وهذا إسناد ضعيف]، والطبراني بنحوه، ورجالها ثقات].

إن العقل لا يستوعب حسب السنن البشرية أن يتمكن ثلاثة آلاف من الانتصار على مائتي ألف إلا أن تكون معجزة ربانية، والإعجاز قد وقع كما في الصحيح عن النبي ﷺ، بل وقع الإعجاز قبل هذا أن رفع الله تعالى ساحة المعركة لعبده ورسوله ﷺ كأنها ينظر إليها، وأخبر المسلمين عنها قبل وصول أخبارها كما في الروايات الصحيحة المتعددة، وأهمها ما في البخاري عن أنسٍ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعَفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ ﷺ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ [يَجِيءُ] خَبَرُهُمْ، فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ»، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، «حَتَّى أَخَذَ [الرَّايَةَ] سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ». [البخاري في المناقب (٣٧٥٧، ٣٦٣٠)، وفي المغازي (٤٢٦٢)، والنسائي في الجنائز (١٨٧٨)].

وعند محمد بن عمر: لَمَّا أَلْتَقَى النَّاسُ بِمُؤْتَةِ جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَكُشِفَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّامِ، فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى مُعْتَرِكِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَجَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَحَبَّبَ إِلَيْهِ الْحَيَاةَ، وَكَرَهُ إِلَيْهِ الْمَوْتَ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ الدُّنْيَا»، فَقَالَ: «الآنَ حِينَ أُسْتَحْكَمُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، مُحِبُّبٌ إِلَيَّ الدُّنْيَا، فَمَضَى قَدَمًا حَتَّى أُسْتَشْهَدَ»، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لَهُ، فَقَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ يَسْعَى، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، فَجَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَمَنَّهُ الْحَيَاةَ وَكَرَهُ إِلَيْهِ الْمَوْتَ، وَمَنَّهُ الدُّنْيَا، فَقَالَ: الْآنَ حِينَ أُسْتَحْكَمُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مُتَّبِعِي الدُّنْيَا، ثُمَّ مَضَى قَدَمًا حَتَّى أُسْتَشْهَدَ»، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدَعَا لَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَهُوَ يَطِيرُ فِي الْجَنَّةِ بِجَنَاحَيْنِ مِنْ يَأْقُوتٍ، حَيْثُ يُشَاءُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ بَعْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَاسْتَشْهَدَ وَدَخَلَ الْجَنَّةَ مُعْتَرِضًا».

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْأَنْصَارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَصَابَهُ الْجِرَاحُ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا اغْتَرِاضُهُ؟ قَالَ: «لَمَّا أَصَابَتْهُ الْجِرَاحُ نَكَلَ، فَعَاتَبَ نَفْسَهُ فَشَجَّعَ، فَاسْتَشْهَدَ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ». فَسَرِّيَ عَنْ قَوْمِهِ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٢].

ونشهد هنا الأمراء الثلاثة، حيث دخل أحدهم الجنة سعيًا، وثنانهم طيرانًا، وثالثهم معترضًا، كما أطلعتنا هذه الرواية على أن تباطؤ ابن رواحة ﷺ إنما كان عندما أنختته الجراح، وكان لهذا التلكؤ أثر في أن يكون سريره في الجنة أدنى من سرير صاحبيه، أو أن في سريريه ازورارًا عن سرير صاحبيه، فالشهادة كُتبت لهم جميعًا، لكن المستوى النفسي لهم كانت الدرجات على ضوئه.

ويبدو جانب من الإعجاز الرباني كذلك في رواية البيهقي عن ابن عقبة - رحمه الله تعالى - قال: (قَدِمَ يَعْلَى بْنُ أُمَيَّةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِخَيْرِ أَهْلِ مُؤَتَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ شِئْتَ فَأَخْبِرْنِي وَإِنْ شِئْتَ أَخْبَرْتُكَ»، قَالَ: أَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: فَأَخْبَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَهُمْ كُلُّهُ، وَوَصَفَهُ لَهُمْ، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا تَرَكْتُ مِنْ حَدِيثِهِمْ حَرْفًا لَمْ تَذْكُرْهُ، وَإِنْ أَمَرَهُمْ لَكَمَا ذَكَرْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - رَفَعَ لِي الْأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مُعْتَرِكِهِمْ».) [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٦٥].

كما نشهد جانب الإعجاز في عدد الشهداء في هذه المعركة الرهيبة، ففي بدر وقد كان عدد المشركين ألفاً وعدد المؤمنين ثلاثمائة ونيفا استشهد اثنا عشر شهيداً، وهنا بين ثلاثة آلاف من المسلمين ومائتي ألف من المشركين لم تذكر الرواية أسماء شهداء إلا اثني عشر شهيداً على أقل تقدير، وعشرين شهيداً على أكبر تقدير، وهذا ما حدا بالحافظ ابن كثير رحمه الله أن يقول: «فالمجموع على القولين اثنا عشر رجلاً، وهذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين أحدهما - وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله - عدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة عدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قُتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد وحده يقول: لقد اندقت في يدي يومئذ تسعة أسياف، وما صبرت في يدي إلا صحيفة بيانية، فماذا يا ترى قد قُتل بهذه الأسياف كلها؟ دع غيره من الأبطال الشجعان من حملة القرآن وقد تحكّموا في عبدة الصلبان - عليهم لعائن الرحمن - في ذلك الزمان وفي كل أوان، وهذا مما يدخل في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا فِتْنَةً لَكُمْ فَتَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرِجُوا الْكَافِرَ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران].

[البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٢٥٩ ط دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية].

[التربية الجماعية للغضب ١/ ١٥٥-١٥٧].

المبحث الثاني

الدروس التربوية والأخلاقية

١ - أسباب غزوة مؤتة:

يقول أ/ باشميل: «كان الرسول ﷺ وحتى السنة الخامسة من الهجرة، منهمكًا في الانشغال في الداخل بأعداء رئيسين ثلاثة، هم:

(أ) قريش جنوب المدينة.

(ب) غطفان ومن لف لفها من قبائل نجد الخطيرة شرقي المدينة.

(ج) يهود خيبر شمالي شرقي المدينة.

غير أنه ﷺ عقب انتصاره السوقي التاريخي في معركة الصمود الحاسمة، معركة الأحزاب (الخنديق) على ذلك الثلاثي المتحالف، شَعَرَ، وشعر أيضًا أعداؤه أن الإسلام أخذت جذوره تضرب بعيدًا في الأعماق داخل الجزيرة العربية، وكان الخوف والرعب منه قد أخذ ينوش قلوب أعدائه بمختلف فئاتهم. فأمّن جانب غطفان، أخطر أعدائه، وذلك بعد أن أنهكهم بالحملات العسكرية السريعة التي كان يجردها عليهم، وكانت خاتمة المطاف في خضد شوكتهم وإعطائهم درسًا عمليًا بأن المسلمين أقوى مما يتصور أولئك الأعراب الأقوياء المحاربون الأشداء، هي فشلهم في عملية الأحزاب العسكرية الشهيرة التي كانت غطفان فيها العمود الفقري.. ستة آلاف منهم كانوا في قوة الأحزاب البالغ عددها عشرة آلاف حشدوا اليهود بُغية إنهاء الوجود الإسلامي في السنة الخامسة للهجرة.

ففي السنة السادسة من الهجرة شعر المسلمون بأن قوتهم الذاتية - بعد اجتياز محنة الأحزاب الرهيبة - قادرة على الصمود والتصدي عسكريًا لأية قوة في الجزيرة، تريد النيل منهم، ومنعهم أي حق يستحقون مباشرته.

وكانوا - منذ هاجر النبي ﷺ إلى المدينة - محرومين من زيارة البيت في مكة بسبب الحظر المتعسف الذي فرضته قريش - عندما كانت في مركز القوة - على المسلمين ومنعتهم بموجبه من دخول مكة حتى وإن كانوا معتمرين أو حجاجًا.

ففي هذه السنة تحرك من المدينة ألف وأربعمائة من المسلمين تحت قيادة الرسول الأعظم ﷺ متجهين جنوبًا نحو مكة بقصد العمرة (زيارة البيت العتيق)، فصدّهم المشركون عند حدود الحرم ومنعواهم من دخوله، فجرت بين الفريقين مراسلات ومفاوضات أدت في النهاية - بعد مشادات كادت تؤدي إلى حرب شاملة - أدت إلى ذلك الصلح التاريخي المسمى (صلح الحديبية).

كان من أهم مكاسب المسلمين في هذا الصلح، اعتراف قريش بالمسلمين كأمة ذات كيان، وإنهاء حالة الحرب بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنين، وتسليم مشركي مكة بحق المسلمين في زيارة البيت والقيام بنسك العمرة رغم بقاء مكة تحت سيطرة الوثنية.

من الناحية السياسية استفاد الرسول ﷺ من صلح الحديبية بأن أمن جانب قريش فترة من الزمن، استطاع فيها أن ينجز أعمالاً جساماً، كان القيام بها ذا أثر فعال في تثبيت كيان الإسلام، وتدعيم مركز المسلمين، أهم هذه الأعمال:

(١) التفريغ ليهود خيبر الذين كانوا مع المسلمين في حالة حرب.. أنهى الرسول ﷺ وجودهم في أوائل السنة السابعة للهجرة بعد معارك عنيفة استمرت حوالي شهرين.

(٢) الاتصال بملوك وأمراء الشرق الأوسط لإسماعهم صوت الإسلام ودعوتهم إلى الدخول فيه، وإلغات نظرهم إلى قيام أمة جديدة ذات خطر وكيان تسمى أمة الإسلام.

(٣) التفريغ للجار الخطر (الرومان) وإلقاء درس حربي عملي عليهم بأن اجتاز جند الإسلام - ولأول مرة - حدود الشام، وقاتلوا الرومان على أرضهم حيث نشبت في الشام معركة (مؤتة) الحاسمة.

هكذا حدثت معركة مؤتة في فترة الصلح القائم بين المسلمين وبين قريش، وذلك قبل أن ينقض القرشيون وحلفاؤهم هذا الصلح.

كانت الهدنة فرصة - كما قلنا - بالنسبة للمسلمين لابد من الاستفادة منها، فقد قرر النبي الحكيم والقائد السياسي والعسكري المحنك - وقد تراءت في الأفق أطماع الإمبراطورية الرومانية في المسلمين والسيطرة على جزيرة العرب، وصار عملاؤهم العرب المنتصرة يقتلون أصحاب النبي ﷺ غدرًا وبالجملة - رأى أن يبعث بقوة حربية من خيرة أصحابه هي أكبر قوة استطاع حشدها حتى ذلك الوقت منذ ظهور الإسلام، رأى أن يبعث بهذه القوة الحربية إلى مشارف الشام لتتوغل داخل ذلك البلد الذي يُعتبر بعضًا من ممتلكات الدولة البيزنطية، ويطأها غازيًا؛ لإعطاء الرومان وعملائهم المنتصرة من العرب درسًا حربيًا قاسيًا يشطب من أذهانهم جميعًا ما رسخ فيها مما ألفوه عن المقاتل العربي قبل أن يدين بالإسلام، والذي كان - بصورة رئيسة - إنما يقاتل كزأ وفرًا وفي حركات خاطفة بغية السلب والنهب فقط، ثم ينسحب سواء كسب أم خسر.

إنه أسلوب بدائي في القتال لا يتناسب وأساليب اللجيونات والتفوق التكنولوجي الذي يمتاز بها الجيش الروماني.

كان الرومان وعملاؤهم العرب المنتصرة ينطلقون في معاملتهم المسلمين من هذه النظرة الخاطئة، وعلى أساس هذه النظرة الخاطئة، قتلوا - غدرًا أو غيلة - خمسة عشر من فضلاء الدعاة المسلمين من

أصحاب النبي ﷺ في مكان يقال له ذات أطلاح داخل الشام، قتلوهم، وهم في مهمة سلمية إنسانية، هدفها نشر الإسلام بالحسنى وطريق الإقناع، فكان ذلك من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى نشوب معركة (مؤتة) الفاصلة، والتي استشهد فيها قادة الجيش الإسلامي الثلاثة، وتعرض الجيش النبوي الصغير فيها لمحنة قاسية لم يخلصه منها إلا مهارة القائد الفذ المحنك خالد بن الوليد ؓ الذي يشترك ولأول مرة جندياً ثم قائداً في جيش إسلامي». [غزوة مؤتة لباشميل ٦-٩].

ويقول د/ شاكر: «كانت نظرة الروم الذين يسيطرون على بلاد الشام ومصر وسواحل إفريقية الشمالية كلها إضافة إلى بلاد الأناضول وغيرها إلى العرب نظرة ازدراء واحتقار، يسمعون بغارات بعضهم على بعض في سبيل السلب والنهب وأخذ شيء من الغنائم من العدو في سبيل الرزق، ويعلمون فقر جزيرتهم وجدبها، وإذا جاءتهم سنوات عجاف انطلقوا إلى أطرافها يُغيرون، وكثيراً ما كان الروم يكلون إلى عملائهم الغساسنة رد تلك الغارات دون الحاجة إلى شغل أنفسهم بها أو التفكير بأمرها، وعندما انطلقت الدعوة الإسلامية لم تتغير نظرتهم بادئ ذي بدء، فلما طُرد اليهود من المدينة ووصل بعضهم إلى بلاد الشام، ثم وصلت كتبهم إلى الملوك والأمراء، فأمن من آمن، وخاف على ملكه من خاف ومنهم هرقل ملكهم بالذات، وعاملهم على مصر، ولولا الخوف على الملك والمصالح لغدت دولتهم تتبع المدينة عاصمة المسلمين، فحققت لذلك المتعصبون من أتباع الكنيسة، وكادت قلوبهم تتميز من الغيظ، فأوغروا صدور عملائهم الغساسنة، وأوعزوا إليهم أن يقضوا على أي أثر يصل إلى جهاتهم من قبل المسلمين؛ ولهذا فقد قتل الغساسنة دعاة المسلمين الأربعة عشر رجلاً مع كعب بن عمير ؓ، وقتل شرحبيل بن عمرو الغساني أحد أمراء الملك الغساني الحارث بن أبي شمر رسول النبي ﷺ الحارث بن عمير الأزدي ؓ عندما التقى به في مؤتة، وسأله عن قصده، فقال الشام، فقال: لعلك من رسل محمد؛ قال: نعم، أنا رسول رسول الله محمد ﷺ، فأمر به فقيّد، ثم قتله صبراً.

هذا إضافة إلى تهديد الملك الغساني الحارث بن أبي شمر بغزو الجزيرة واحتلال المدينة؛ لهذا كله أراد رسول الله ﷺ أن يعطي الروم وعملاءهم الغساسنة معاً صورة حقيقية عن المسلمين بأنهم لم يغزوا للغنائم، ولم يقاتلوا للأسلاب وإنما للدعوة إلى الله، وأن قوتهم إنما هي تختلف عن قوة القبائل البدوية المتنقلة التي في ذهن الروم، وأن قتال العقيدة ليس كقتال الكرّ والفرّ، وليس كالقتال من أجل التراب والديار والمنازل والأملك أو الأعشاب والمياه». [التاريخ الإسلامي لشاكر ٢/ ٣٣٢-٣٣٣].

٢ - مناقشة أسباب الغزوة:

يقول د/ بريك: «ينفرد الواقدي بذكر السبب المباشر لهذه الغزوة، وهو أن شرحبيل بن عمرو الغساني قتل صبراً الحارث بن عمير الأزدي ؓ (الحارث بن عمير الأزدي، ثُمَّ اللّٰهِي - بكسر اللام، وسكون الهاء.

روى الواقدي عن عمرو بن الحكم قال: «بعثه رسول الله ﷺ إلى ملك بصرى بكتابه، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً، وضرب عنقه... الخ. وذكره ابن شاهين من طريق محمد بن يزيد، عن رجاله بغير هذه القصة». ابن حجر: إصابه ١/ ٢٨٦ الذي أرسله الرسول ﷺ إلى ملك بصرى بكتابه، وكانت الرسل لا تقتل، فغضب رسول الله ﷺ، وأرسل الجيش إلى مؤتة، والواقدي ضعيف لا يُعتمد عليه وبخاصة إذا انفرد بالخبر. [السيرة النبوية الصحيحة للعمرى ٢/ ٤٦٧].

وقد تبعه في ذكر ذلك نقلاً عنه كل من: ابن سعد [الطبقات ٢/ ١٢٨]، وابن سيد الناس [عيون الأثر ٢/ ١٩٨]، والقسطلاني [المواهب ١/ ٥٤٩]، وابن القيم [زاد المعاد ٣/ ٣٨١]، والذهبي [تاريخ الإسلام، قسم المغازي ٤٧٩]. هذا وقد وقع تصحيف في رواية الذهبي في اسم أحد رواة الخبر، وهو شيخ ابن سعد، حيث ورد اسمه عنده محمد بن عثمان، مما يوهم بصحة الخبر، بينما هو في الحقيقة محمد بن عمر الواقدي شيخ ابن سعد المعروف، كما ورد في أصل الخبر في [الطبقات ٤/ ٣٤٣]، وذكره ابن حجر بصيغة التمريض. [فتح الباري ٧/ ٥١١].

وقد اعتمد معظم المؤرخين المعاصرين هذه الرواية جازمين أنها هي سبب وقعة مؤتة [ينظر: باشميل: غزوة مؤتة ٢٥٢، خطّاب: الرسول القائد ﷺ ٣٠٤-٣٠٥، وخالد بن الوليد ٧٠، ياسين سويد: معارك خالد بن الوليد ١٦٧-١٦٨، الجترال أكرم: خالد بن الوليد ١٠٣، أبو زيد شلبي: سيف الله خالد ٦٢، دويدار: صور من حياة الرسول ﷺ ٥١٦-٥١٥، عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ٢٩٤، الغزالي: فقه السيرة ٣٦٥، البوطي: فقه السيرة ٣٥٠، الشريف: مكة والمدينة ٥٣٣، أبو زهرة: خاتم النبیین ﷺ ٢/ ١١٣٩]، ومع أن بعضاً منهم [ينظر: باشميل: غزوة مؤتة ٢٥٣، ياسين سويد: معارك خالد ١٦٨، أحمد عادل كمال: الطريق إلى دمشق ١٤٥] ذكر لها سبباً آخر، وهي النتيجة التي آلت إليها سرية ذات أطلاح، بينما يستند بعضهم على رواية أخرى ضعيفة [أخرجها الطبري (تاريخ ٢/ ٦٥٢) عن الواقدي]، مفادها أن صاحب مدينة بصرى (من أعمال دمشق، وهي قصبه كورة حوران، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، وهي في منتصف المسافة بين عمان ودمشق، وبصرى اليوم آثار قرب مدينة درعة التي احتلت محلها، حتى ظن بعض الناس أنها هي، وبصرى، ودرعة، داخل حدود الجمهورية السورية على أكيال من حدود المملكة الأردنية الهاشمية. ينظر: ياقوت: معجم ١/ ٤٤١، البلادي: معجم ٤٣ - ٤٤) رفض ما جاء في رسالة النبي ﷺ له، وهدّد بالمسير إلى المسلمين بجيوشه وغزوهم في عقر دارهم «فتهديده بالمسير إلى المسلمين يقتضي ردّاً على مستوى التحدي، فكانت غزوة مؤتة». [ينظر: منير الغضبان: فقه السيرة ٥٤٤].

ويذكر أبو زهرة، عن شيخ الإسلام ابن تيمية، أنه ذكر في رسالة القتال: أن النبي ﷺ ما بعث إلى حرب الروم في مؤتة إلا بعد أن قتل الوالي الروماني من أسلم في الشام. [خاتم النبیین ﷺ ٢/ ١١٣٩].

«والحق أن البحث عن الأسباب المباشرة لغزو القبائل العربية في أطراف الشام لا يؤثر على تفسير الأحداث كثيراً؛ لأنّ تشريع الجهاد يقتضي الاستمرار في إخضاع القبائل العربية وتوسيع رقعة الدولة

الإسلامية بصرف النظر عن الأسباب المباشرة، فكان لابد من إخضاع الدويلات العربية النصرانية الموالية للروم، وبالتالي سبق الروم في التحرك في المنطقة قبل قيامهم بعمل ضد الدولة الإسلامية الفتية.

[أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٦٧].

فهذه الغزوة كما يقول ابن كثير رحمته كانت إرهاباً لما بعدها من غزو الروم، وإرهاباً لأعداء الله ورسوله ﷺ. [الفصول في سيرة الرسول ﷺ ١٩٥].

فقد كانت غزوة مؤتة، مقدمة تبوك، وما كان بعد وفاة النبي ﷺ من فتح الشام.

[هيكل: حياة محمد ﷺ ٤١١].

ويرى بعض المستشرقين ومن سار في فلكهم من القوميين العرب، أن مؤتة كانت لإشعار العرب المنتصرة في الشام بقوة المسلمين، قوة تحفزهم على الانضمام إليهم بدافع العروبة، بما يوحد العرب جميعاً، وضمهم إلى الدولة العربية، وإدخالهم في نطاقها.

كما أن زوال ما كان لبيزنطة من الهيبة في نفوس العرب، هيأ الفرصة لقيام الوحدة بينهم، ثم مهاجمة الممتلكات البيزنطية فيما بعد. [ينظر: العربي: الدولة البيزنطية ١١٩، الشريف: مكة والمدينة ٥٣٣، ونقله العربي عن:

[١٩٥ Vasiliev, A, The Byzantin, Empire: P:

وتلك استنتاجات بُنيت على أساس الفكر القومي الذي ساد الكتابات العربية وغيرها في الستينات، ذلك الفكر الذي أطلق شرارته الأولى أعداء الأمة الإسلامية منذ نهاية القرن الأول الهجري، وما زالوا يُعَدُّونه ويتلقفونه خَلَفًا عن سَلَفٍ.

ولقد كان هذا الفكر العقيم ولا زال معول هدم لتفتت وحدة الأمة الإسلامية، تلك الوحدة العظيمة التي كان الجهاد لإعلاء كلمة الله ﷻ في الأرض، ونصرة الحق، والقضاء على الظلم والظالمين، هو الوقود الذي يؤججها ويحافظ عليها متماسكة قوية، وهو الأمر الذي فطن له أعداء الأمة فسارعوا إلى ترويع مثل هذه الأفكار المنحرفة لإبعاد المسلمين عن مصادر عزهم ومجدهم.

وما كانت غزوة مؤتة إلا استجابة لنداء الباري ﷻ لقتال أهل الكتاب وإخضاعهم لسلطان المسلمين، إماماً بالدخول في الإسلام، أو أداء الجزية عن يد وهم صاغرون، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٩١) [التوبة]؛ لأنه أتضح بما لا يدع مجالاً للشك، من خلال الأحداث أنهم كانوا حبر عترة في وجه نشر الدعوة الإسلامية، وأنهم شكّلوا بقواهم السياسية والعسكرية، تهديداً للمسلمين، وفتنةً لأتباعهم، جرّدتهم من الحرية الكاملة في اعتناق ما يحبون، وأتباع ما

يريدون، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣٣) [التوبة].

والعرب المنتصرة في الشام كانوا جزءاً لا يتجزأ من تلك القوى المعادية للإسلام، بدليل مشاركتهم الفعالة في جيش الحلفاء في مؤتة ضد المسلمين، وكأنهم يريدون إظهار استعدادهم وجاهزيتهم للقضاء على قوة المسلمين المتنامية في الجزيرة العربية، وهذا يفسر ذلك العدد الكبير من المتطوعين من القبائل العربية المنتصرة في جيش الروم في مؤتة، بل إن بعض الروايات أشارت إلى أن الذين حاربوا المسلمين في مؤتة هم القبائل العربية النصرانية فقط، وربما شاركهم بعض الروم. [ذكر ذلك الزهري، ينظر: الهيثمي، مجمع ١٦٠ / ٦، وذكره موسى بن عقبة، ينظر: البيهقي: دلائل ٣٦٤-٣٦٥].

فكيف يقال بعد ذلك أن مؤتة حُفِزَت على قيام الوحدة العربية بين المسلمين والقبائل العربية المنتصرة في الشام؟!». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشبالية لبريك ٢٤٧-٢٥٢].

٣- جيش الشباب والتربية النبوية:

يقول د/ الغضبان: «والملاحظ أن جنود هذا الجيش ومعظمهم من الشباب الذين دخلوا في الإسلام حديثاً، فلم يُذكر به من قادة المهاجرين والأنصار أحد، والأعلام المعروفون فيه هم قاداته الثلاثة، وعبد الله بن عمر رضي الله عنه الذي لم يبلغ العشرين من العمر بعد، وثابت بن أقرم رضي الله عنه البدري الذي سلم الراية لخالد بن الوليد رضي الله عنه، وخالد بن الوليد رضي الله عنه الذي مر على إسلامه قرابة ثلاثة أشهر، حتى إن البطليين اللذين كانا على ميمنة المسلمين وميسرتهم، لم تعرف عنهم كتب التراجم إلا أنهما كانا يقودان ميمنة المسلمين وميسرتهم، وأبو هريرة الدوسي رضي الله عنه الذي انضم إلى الإسلام منذ خيبر أي منذ سنة ونصف، ولو تابعنا كل جزئيات المعركة وتفصيلها لم يبرز بين أعيننا إلا هذه الأسماء.

ويمكن القول: إن جيش مؤتة جيش من شباب الإسلام الذي دخل جديداً في هذا الدين، وهذه ظاهرة كذلك لم تكن معروفة من قبل، بل كان شيوخ المهاجرين والأنصار وشبابهم يشاركون فيها، ولو كانت السرية لمئات عدة لا لثلاثة آلاف.

لكننا حين نراجع سجل الشهداء في مؤتة، وكانوا اثني عشر شهيداً، نجد ثمانية منهم من أهل بدر على الأخذ بكل الروايات وهم: وهب بن سعد بن أبي سرح، عباد بن قيس، الحارث بن النعمان، سراقه بن عمرو، سويد بن عمرو، زيد بن عبيد، عبد الله بن الربيع، معاذ بن معاص.

وجميعهم من الأنصار أو حلفائهم إلا أولهم وهب بن سعد بن أبي سرح الفهري القرشي رضي الله عنه، وبإضافة خزيمة بن ثابت رضي الله عنه والأمراء الثلاثة رضي الله عنهم، يرتفع الرعيل الأول الذي حفظنا أسماءهم في مؤتة

إلى اثني عشر،، استشهد منهم أحد عشر، وادخر الله ﷺ خزيمة ﷺ فيما بعد، ولو بحثنا عنهم في كتب التراجم لم نشهد أكثر من أنهم شهدوا بدرًا واستشهدوا بمؤتة. [سبل الهدى للصالحى ٦/ ٢٤٤، ٢٤٥، أما الذين لم يستشهدوا وذكروا من أهل بدر: ثابت بن أقرم، وخزيمة بن ثابت، وأبو اليسر الأنصاري].

هذه النماذج الصامته من الرعيل الأول التي ذُكرت؛ لأنها استشهدت وعُرفت بشهادتها قد يكون لها أمثال حضرت مؤتة، ولم تُعرف، أصبحت تمثل مجتمع القدوة بالنسبة للجيل الجديد، وغدا هذا الجيل بآلافه، غنيًا بالنماذج القيادية التي تربيته في المعركة وخارج المعركة، تعلمه الإسلام، وتعلمه الثبات، وتعلمه الخلق الإسلامي العظيم، وانتقلت مهمة التربية بعد هذا التضخم في العدد إلى خريجي مدرسة النبوة في كل مكان، وفي كل ساحة وفي كل قبيلة، مثل الأعلام الخالدة التي يرنو إليها الجيل الجديد بالتعظيم والافتداء والتأسي. [التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٣٠-١٣١].

٤ - ما يستفاد من وصايا النبي ﷺ:

يقول د/ أبو فارس في هذه الفوائد:

(١) يحسن القائد أن يزود جنده بالتوجيهات العسكرية و النصائح الأخلاقية، ويبين لهم الآداب العسكرية في القتال، ويحضهم على الالتزام بها، كما فعل رسول الله ﷺ في وصاياه للسرّايا وبخاصة سرية مؤتة.

(٢) تقوى الله ومحافته رأس الحكمة وعامل من عوامل النصر ينبغي على الجيش الإسلامي أن يراعيها وأن يتخلق بها، وينبغي على المربين أن يعمقوها في نفوس الناس وبخاصة نفوس المجاهدين. وكما أن التقوى عامل من عوامل النصر، فإن المعاصي عامل من عوامل الهزيمة؛ لأن المعاصي تُغضب الرب وتقسي القلب وتبطئ العمل، ولا غرو إذاً أن نسمع قول عمر ﷺ في وصية من وصاياه للجيش الإسلامي: إنها تغلبون على عدوكم بطاعتكم لله ومعصيتهم له، فإن عصيتهم فقد تساوتهم في المعصية والغلبة للأقوى.

ولو أتقى الله ﷻ قادتنا وحكامنا في حروبهم مع أعدائنا من يهود و صليبيين لكان النصر حليفنا في هذه الحروب، ولكن تقوى الله كانت بعيدة عنهم كل البعد، قد غيَّبوها من حياتهم العامة والخاصة، بل شجعوا المعاصي ونشروها في كل مكان، وفي جميع وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة وتلفاز، واعتبروها أمراً هاماً من أمور الحضارة والرقى والتقدم.

(٣) رضوان الله ﷻ غاية القتال في الإسلام: إن المجاهد المسلم ينبغي أن يكون هدفه من جهاده وقتاله لأعدائه هو رضوان الله ﷻ، ليرفع رايته ويحقق ألوهيته، فلا يقاتل لمغنم ولا يقاتل رياءً وطلباً للجاه والسمعة، ولا يقاتل حمية، فإن هذه الأمور ليست في سبيل الله وتحرم صاحبها من الأجر.

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَعْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانَهُ، (وفي رواية: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حِمَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً) فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ؟ قَالَ ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِيَكُونَ كَلِمَةً اللَّهُ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

[البخاري في العلم (١٢٣)، وفي الجهاد والسير (٢٨١٠)، وفي فرض الخمس (٣١٢٦)، وفي التوحيد (٧٤٥٨)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، وأحمد عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١٨٩٩٩، ١٩٠٩٩، ١٩١٣٤، ١٩٢٤٠، ١٩٢٤١)].

نعم ينبغي أن يكون الجهاد الحق مبراً من حظوظ النفس وعجبها وغرورها ومن حب الجاه والتشوق للزعامة والوجاهة والرياسة.

ومن الجدير بالذكر أن الإنسان إذا عاش هذه الغاية لا يظلم أحداً ولا يسفك دم أحد ظلماً، ولا يغدر ولا يخون، ولا يستولي على أموال المعاهدين بالباطل؛ لأن هذه الأمور كلها تتنافى مع الغاية التي يقاتل من أجلها وهي رضوان الله، بل إن هذه الأمور تسخط الله وتستوجب عقوبته.

(٤) الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها خيانة وحرام: يؤخذ من نهي الرسول ﷺ المقاتلين عنها، والأصل في النهي يفيد الحرمة ما لم ترد قرينة تصرفه إلى غير ذلك، بل جاءت النصوص الأخرى تؤكد حرمة ذلك، أما نهي الرسول ﷺ فقد جاء في قوله: «لا تغلوا».

وأما التأكيد على حرمة الغلول فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَمِلَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران].

ولقد أخبر رسول الله ﷺ عن مصير الذي غل فأخذ شيئاً من الغنائم بأنه يشتمل بها في نار جهنم.

(٥) الغدر حرام: هذا خلق إسلامي نبيل، ومبدأ إسلامي ثابت، لا يحل لمسلم أن يغدر بغيره حتى

ولو كان عدواً؛ لأن الغدر خيانة، والإسلام يحرم ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [الأنفال].

وفي علاقة المسلمين مع عدوهم قد يبدؤ لبعض المسلمين أن الغدر بالعدو يحقق نصراً ومصلحة فيدفعه ذلك إلى الغدر، وهذا وهم خاطئ، وتصرف حرام لأن النبي ﷺ نهى عن الغدر فقال: «ولا تغدروا»، وعد الغدر من صفات المنافقين فقال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِيَ خَسَنَ». [البخاري في الإيمان (٣٣)، وفي الشهادات (٢٦٨٢)، وفي الوصايا (٢٧٤٩)، وفي الأدب (٦٠٩٥)، ومسلم في الإيمان (٥٩)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣١)، وأحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رقم ٨٤٧٠].

وفي رواية: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا، أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ، حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

[البخاري في المظالم (٢٤٥٩)].

وينبغي أن يكون واضحاً هنا أن الخدعة في الحرب غير الغدر، فإن الغدر أن تعاهده على وقف القتال - مثلاً - فترة من الزمن، وتغدر به فتفاجئه بالقتال وهو مطمئن للعهد الذي بينك وبينه، أما الخدعة فتكون عند إعلان حالة العداء والحرب فإن الإسلام يشرع للمسلم بل ويستحب له أن يخدع عدوه كأن يستدرجه لضربه، أو أن يفاجئه في زمان لا يتوقعه، أو يحشد له حشداً لا يقبل له به، أو يستخدم وسيلة لا يعرفها ولم يعد نفسه لمواجهتها، فهذا كله يقع تحت قول الرسول ﷺ: «الْحَرْبُ خَدْعَةٌ».

[البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٩، ١٧٤٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣٦)، والترمذي في الجهاد (١٦٧٥)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٣٣، ٢٨٣٤)، وأحمد عن علي رضي الله عنه رقم ١٠٣٧، وعن أبي هريرة رضي الله عنه رقم ٨٠٥٠، ٢٧٣٧٠، وعن أنس رضي الله عنه رقم ١٢٩٢٨، ١٢٩٢٩، وعن جابر رضي الله عنه رقم ١٣٨٩٦، ١٣٧٦٥، وعن كعب بن مالك رضي الله عنه رقم ٢٦٦٣٤، وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها رقم ٢٧٠٥٠].

(٦) المثلة بالقتل ممنوعة شرعاً: أخذ هذا من نهي النبي ﷺ في وصاياه التي ذكرناها سابقاً، فقد عدَّ النبي ﷺ ذلك خروجاً عن اللياقة والأدب، وحذَّر منه، ونهى عنه.

(٧) لا يجوز قتل الأطفال والنساء ورجال الدين والمدنيين الذين لا يُشاركون في القتال: أما إذا شارك بعضهم في القتال برأي أو بجهد فإنه يُقتل ولو كان رجل دين أو امرأة أو شيخاً، فإن النبي ﷺ أمر بقتل امرأة يهودية شاركت في القتال، كما أقر قتل دريد بن الصمة في غزوة حنين، وقد كان شيخاً هرباً لا يستوي على ظهر ناقته قد بلغ من العمر مائة وستين سنة؛ لأنه شارك برأيه في القتال في أكثر من موطن في هذه الغزوة.

(٨) المحاربون مخيرون بين الإسلام والجزية والقتال: هذا ما نص عليه رسول الله ﷺ في وصاياه، ويؤخذ من هذا أن الإسلام حريص على هداية الناس وتقديم الخير لهم لا على جباية أموالهم وسفك دمائهم، فإن أبوا ذلك فلا يُجبرون على اعتناق الإسلام، بل يقرهم الإسلام على البقاء على دينهم وإن كان باطلاً محرماً، وأن يعيشوا في المجتمع الإسلامي ويحدد لهم حقوقاً ويوجب عليهم واجبات، فإن أبوا ذلك أيضاً فهم أعداء مناوئون لابد من كسر شوكتهم وتحضيدها حتى لا يكونوا خطراً على الدولة الإسلامية.

(٩) الهجرة إلى دار الإسلام واجبة: أخذ هذا مما تقدم في وصايا النبي ﷺ، والحق أن الذي يضمن بنفسه وماله على المجتمع الإسلامي فلا يهاجر إليه ليس له حقوق التي يتمتع بها من هاجر إلي المجتمع الإسلامي وأسهم في بنائه بنفسه وماله وجهده، وهذا يتفق مع منطق العدل في الشرع.

إن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى طاقات المسلمين المالية والمعنوية والإعلامية وغيرها، والمسلمون مدعوون أينما كانوا لبناء هذا المجتمع وتقويته حتى يكون قادراً على الوقوف في وجه أعدائه الطامعين،

وهذا أمر واجب؛ لأن نصرة المسلمين واجبة، وخذلانهم حرام، وفي الوقت ذاته إن المسلم حين يعيش في المجتمع الإسلامي تتوفر له الحرية في عباداته وتحركه وتنقله وعمله ونشاطه الدعوي والتربوي، أما حين يعيش في مجتمع معادٍ فإنه سيتعرض لكثير من المضايقات منها أنه سيخضع لهذا النظام الكافر الذي يطبق قوانين الكفر ويربي الناس عليه، ويشيع كثيرًا من العادات القبيحة في المجتمع، مما يجعل المسلم وأبناء المسلم ليسوا في منأى عن هذه العادات والتأثير بها، فيدفع في كل يوم يعيش فيه في المجتمع الجاهلي ضريبة من ماله، وضريبة من دمه، وضريبة من جهده، يرسخ بنيانه ويُعَلِّي أركانها.

ولهذا عد الله - تبارك وتعالى - القادرين على الهجرة من دار الإسلام ولم يهاجروا إلى المجتمع الإسلامي ظالمين يستحقون العقوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكُفْرَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَ كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَوْفَ نَنصُرُهُمْ وَنَخْلِعُهُمْ خَلْعًا يَوْمَ يُثَبِّتُ اللَّهُ أَسْوَاقَ الْأَلْجَاءِ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَبْقَوْا وَلَكِنْ لَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ بَالِيَهُمْ لِخِيَانِهِمْ وَمَا وَاعَدُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ لَبِيدٌ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُكَذِّبُ اللَّهَ فَإِنْ عَصَيْتُمْ يُعَذِّبْكُمْ بِمَا أَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾ [النساء: ١٧].

(١٠) من آداب القتال في الإسلام: من آداب القتال في الإسلام، عدم الاعتداء على المزروعات بالإتلاف لغير حاجه أو ضرورة قتالية؛ ذلك لأن ضرورة القتال قد تستدعي شيئاً من هذا، والضرورة تُقدَّر بقدرها، وقد أمر رسول الله ﷺ بقطع بعض أشجار النخيل لبني النضير لجبرهم على الاستسلام فيقطعوا الأمل من المقاومة، فلم يكن الهدف هو إتلاف النخيل بقدر ما هو إرغام العدو على إنهاء القتال والاستسلام.

ومن آداب القتال أيضاً، عدم الاعتداء على المباني بالهدم وغيره إلا إذا دعت ضرورة القتال ذلك، أما بدون ضرورة فلا يُقبل من مقاتل شيء من هذا؛ لأن هؤلاء المقاتلين سيكونون بعد قليل من رعايا الدولة الإسلامية التي يجب عليها أن توفر لهم المسكن والملبس والمأكل، فإذا هدمت بيوتهم لغير ضرورة القتال، فقد كلفنا الخزينة في الدولة الإسلامية أموالاً باهظة وقد كنا في غنى عن ذلك لو أحسنّا التصرف.

[الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٣٧-٤١].

٥ - الخوف من عذاب الله ﷻ:

يقول د/ أبو فارس: «تأمل معي موقف الأمير الأنصاري عبد الله بن رواحة ﷺ، كيف تأثر عند سماع آية من كتاب الله تتحدث عن النار وجحيمها؟ فذرفت عيناه الدموع الغزيرة، وهذا يدل على رقة قلب ابن رواحة ﷺ وشفافية روحه، ومدى تأثره عند سماع القرآن أو تلاوته، وهذه خصلة من أفضل الخصال

الحميدة التي يتجلى بها العارفون لربهم، وهى خصلة تحمي صاحبها من النار وتحرّم على جسمه شدة فيحها وتدخله الجنة حيث فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

إن العين التي تدمع من خشية الله وخشية عذابه لا تمسها النار، كما جاء في الحديث: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

[الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٩)، وَقَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي الْبَابِ عَنْ عُثْمَانَ وَأَبِي رَجَاءَةَ، وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ شُعَيْبِ بْنِ رُزَيْقٍ. وصححه الشيخ الألباني].

وابن رواحة ؓ بكت عيناه وسهرتا في سبيل الله ﷻ. [الصراع مع الصليبين لأبي فارس ٤٩].

ويقول د/ الحميدي: «في بكاء ابن رواحة ؓ عند وداعه للنبي ﷺ موقف من مواقف الخوف والخشية يدل على قوة تمثل الحياة الآخرة في فكر ابن رواحة ؓ وحضور قلبه مع أهوالها.

وقد ورد في معنى الآية ما رواه ابن أبي حاتم والطبري من حديث عبد الله بن مسعود ؓ قال: يَرُدُّ الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمرُّ مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مرّاً رجل نوره على موضع إبهامي قدميه، يمر فيتكفأ به الصراط، والصراط دَخُضْ مَزَلَةٌ، عليه حَسَكٌ كحسك القتاد (شجر صلب له شوكة كالإبر. القاموس المحيط)، حافاته ملائكة معهم كلاليب من نار يخطفون بها الناس. [تفسير ابن كثير ٣/ ١٤١].

وقوله: «فمنهم من يمرُّ مثل البرق» إلخ هو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَتَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مریم]، [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١١٠-١١١].

٦ - الشهادة طريق النجاة من عذاب الآخرة:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما صرح به عبد الله بن رواحة ؓ في سفره في حضرة النبي ﷺ وأقره عليه، ليس هذا فحسب، بل قد نطقت الأحاديث الصحيحة الصريحة به، فالشهيد يُغفر له عند نزول أول دفقة من دمه، ويشفع في سبعين رجلاً من أهله، ويلقى من التكريم والحفاوة ورفع المنزلة ما يغبطه عليه كثير من الناس، بل الشهيد نفسه يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليقاتل ويُقتل عدة مرات لما يرى وينال من الدرجات العلا في الجنة.

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ ؓ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران]، فَقَالَ: أَمَّا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: «أَرْوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، لَهَا فَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطْلَعُ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطْلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَسْتَهْوُونَ [تَسْتَرِيدُونَ] شَيْئًا [فَأَرِيدُكُمْ]، قَالُوا: أَيْ شَيْءٍ نَسْتَهْيِي [رَبَّنَا وَمَا

نَسْتَرِيدُ] وَتَحْنُ نَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُثْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتُلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ ثُرَكُوا.

وفي رواية عن ابن مسعود رضي الله عنه مثله وَزَادَ فِيهِ: «وَتُقَرَّئُ نَبِيَّتَا السَّلَامِ، وَتُخْبِرُهُ عَنَّا أَنَّا قَدْ رَضِينَا وَرَضِي عَنَّا». [مسلم في الإمامة (١٨٨٧)، والترمذي في التفسير (٣٠١١)].

وفوق هذا فإن الله يكرم الشهيد بأن يُشَفِّعَهُ في سبعين من أهل بيته من المسلمين». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٥٠، وقد سبق تفصيله في مبحث الشهداء من الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة أُحُد].

٧ - جواز الثناء على أهل الفضل ومدحهم:

يقول د/ أبو فارس: «يُستنبط هذا من مدح عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ والثناء العاطر عليه، كان ذلك في حضرة الرسول ﷺ فلم ينكر عليه، بل أقره على ذلك. وأريد أن أستدرك هنا فأقول: ليس هذا الجواز على إطلاقه، بل هو مُقيد بعدم بعث العجب والغرور في نفس الممدوح، وعليه، فلو علم المادح أن مدحه يبعث في نفس الممدوح العجب والغرور فإنه يَحْرُمُ عليه مدحه والثناء عليه في وجهه؛ لأن ذلك سبب في طغيانه وتكبره، وهو بمثابة قطع عنقه وإهلاكه. ومن هنا زجر رسول الله ﷺ المادحين الذين يبعثون العجب في نفس من يمدحونه، وأمر بأن نحثو في وجوه المادحين التراب، زجراً لهم وردعاً.

أما رسول الله ﷺ فليس مظنة التهمة، فهو المعصوم المتواضع المبرأ من هذه النقائص فيستحب لجميع الناس أن يمدحونه، بل مَدْحُهُ والثناء عليه من أحب الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى الله الخالق سبحانه». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٥٠-٥١].

٨ - الانشغال بالجهاد والسير إلى الغزو أفضل من الصلاة مع الرسول ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «إنه ما من شك أن الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ لها فضل، والصلاة خلف رسول الله ﷺ لها فضل آخر، وثواب عظيم، ولكن هذين الفضلين لا يعدلان السير في الغزو. لقد أنكر رسول الله ﷺ على عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أن يتأخر عن الجيش ولو لصلاة الجمعة خلف رسول الله ﷺ وفي مسجده النبوي، بل صرح بصريح العبارة أن ذلك لا يعدل في ثوابه السير مع الجيش فقال له: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ [بِجَمِيعٍ] مَا أَذْرَكْتُ [فَضْلَ] عَدُوِّهِمْ».

[مسند أحمد ٣/ ٤٣١-٤٣٢ رقم ١٩٦٦، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف، ورواه الترمذي كتاب أبواب الجمعة باب ما جاء في السفر يوم الجمعة رقم ٥٢٧، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد. وينظر: صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٨٩-٣٩٠].

وهذا فهمناه من أن إنفاق ما في الأرض من مال في سبيل الله له ثواب جزيل يفوق الصلاة في المسجد النبوي، وعلى جلالة هذا الثواب فإنه لا يعدل السير خطوات مع الجيش الإسلامي، فيكون السير إلى الغزو أفضل من الصلاة مع رسول الله ﷺ وفي مسجده». [الصراع مع الصليبين لأبي فارس ٥١].

٩ - وقصة مع القادة الثلاثة:

يقول د/ الغضبان: «فهذا زيد بن حارثة ﷺ قائد الجيوش، وقائد السرايا التسعة الذي جاب الأرض العربية كلها شرقها ومغربها، ها هو الآن يعد للمهمة الجديدة، لقيادة هذه السرية خارج الجزيرة، وقد يلقي الروم إضافة إلى العرب خارج الجزيرة، وهو حبيب رسول الله ﷺ، وقرة عينه الذي رباه منذ صغره، وأخذ من رحيق النبوة ما أخذ خلال ثلاثين عامًا أو تزيد قبل البعثة و بعد البعثة.

وتشرف - قبل إلغاء التبني في الإسلام - أن يكون زيد بن محمد ﷺ، ولرفع هالة القداسة عن كل إنسان، ينظر الناس إليه بعدها أنه ابن سيد ولد آدم، جاء إلغاء التبني فيما جاء من أسباب أخرى كما يقول ﷺ: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٠﴾ [الأحزاب]، وما ألغيت هذه المأثرة حتى فاز بأنه الصحابي الوحيد الذي ذكر باسمه في القرآن الكريم، وبقي يحمل لقب مولى رسول الله ﷺ وحبّه، وأعلن رسول الله ﷺ صلاحيته للإمرة بقوله: «وَأَيُّمُ اللَّهِ! إِنْ كَانَ لِلإِمَارَةِ لَخَلِيفًا، وَإِنْ ابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ لَخَلِيفٌ لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسُ إِلَيَّ...» [الغازي للواقدي ١١٩/٣]، فإذا نتحدث عنه بعد أن زكاه سيد الخلق ﷺ هذه الترقية.

إنه القائد الصامت الذي لا تعرف عنه شيئًا إلا أنه رجل المهمات الصعبة، حتى إن جعفر بن أبي طالب ﷺ ابن عم رسول الله ﷺ، والذي عاش أميرًا طيلة حياته في الحبشة، وهو أشبه الناس خلقًا وخلُقًا برسول الله ﷺ جعله رسول الله ﷺ القائد الثاني بعد زيد بن حارثة ﷺ، حتى لم يتمالك نفسه أن قال حين أعلنت الإمرة: (بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما كنت أهرب أن تستعمل عليّ زيدًا) وهو الهاشمي المطلبى، وأميره مولى رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ - كما ورد في الصحيح: «أمض فإنك لا تدري أي ذلك خير».

وجعفر ﷺ يستلم الإمرة ولم يخض حربًا واحدة طيلة حياته، لقد أمضى عمره داعية إلى الله ﷻ في الحبشة، وحضر بعد فتح خيبر، ولم نقرأ أنه كُلف بقيادة سرية معينة أو شارك في حرب، وكل الذي نعرفه أنه كان مع رسول الله ﷺ في عمرة القضية حين اختلف مع أميره زيد وأخيه علي ﷺ في رعاية عمارة بنت حمزة ﷺ، وفاز بأعلى لقب عنده: «أما جعفر فيشبه خلقي وخلقي»، وهذا اللقب لا بد له من ثمن و ثمن فادح، هو أن يكون القائد الشهيد في المعركة في تحوم اللقاء، ومن أقصى الجنوب في الحبشة داعية إلى الله إلى أقصى الشمال في الشام مجاهدًا في سبيل الله.

لقد اختار رسول الله ﷺ قرة عينه زيدًا وجعفرًا عليه السلام لهذه المعركة الهائلة لقيادة ثلاثة آلاف من المسلمين، وهما اللذان تربيا على عينه، وليس لهما ثالثًا إلا علي عليه السلام الذي لم يدع معركة إلا شارك في شرف حضورها، وأصبح علمًا في المعالم لا يُشَقُّ له غبار.

وجعفر عليه السلام أكبر من علي عليه السلام بعشر سنين، وبلغ من حب رسول الله ﷺ وسروره به أنه وجد رؤيته تعادل فتح خيبر: «وَاللَّهِ مَا أَذْرِي بِأَيِّهَا أَنَا أَسْرُ: أَبْقُدُومَ جَعْفَرٍ، أَمْ بِفَتْحِ خَيْبَرَ؟!»، ومع كل هذا الحب وهذا السرور فلم يحتفظ عليه السلام بجعفر عليه السلام عنده من عُيُونِ الْحُسَّادِ، ويبقى ينظر إليه بكرة وعشيًا، إنما يبعثه لأخطر حرب يمكن أن يخوضها المسلمون إلى اليوم.

وثالث القادة عبد الله بن رواحة عليه السلام، فهو ثالث شعراء الرسول ﷺ، ولم تعفه هذه المهمة الإعلامية الخطيرة من مهمته في الإمرة الصعبة إلى الشام، وهو أحد النقباء الإثني عشر، ولم تعفه هذه المسؤولية السياسية من قيادة جيش مؤتة، وهو الذي حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

وسنمضي مع كل خفقات قلبه ووجيب فؤاده فيما بعد، لكننا نقف مع هذا اليهودي نعيم بن فنحص الذي حضر التكليف: «زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَمِيرُ النَّاسِ، فَإِنْ قُتِلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرُ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَإِنْ أُصِيبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَلْيَرْتَضِ الْمُسْلِمُونَ بَيْنَهُمْ رَجُلًا، فَلْيَجْعَلُوهُ عَلَيْهِمْ». [المغازي للواقدي ٢/٧٥٦].

لقد أكد هذا اليهودي - حسب علمه في الكتاب - أن هؤلاء الثلاثة يُستشهدون فيما يعلمه من سنة الأنبياء من قبل، وقد عرض الأمور بصورة فيها شيء من الوقاحة، (إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا)، ورسول الله ﷺ لم يطرده من المجلس، وسمع الأمراء الثلاثة قوله، وصمت رسول الله ﷺ، ولو كان كذبًا لسفّه رسول الله ﷺ رأيه، وأدرك الأمراء أنهم ماضون لمصارعهم، فما غيّر هذا من قلوبهم حتى إن زيدًا عليه السلام يقول: (فَأُشْهِدُ أَنَّهُ نَبِيٌّ صَادِقٌ بَارٌّ).

وراح المسلمون يودعون الأمراء قائلين: صَحِبَكُمُ اللَّهُ، وَدَفَعَ عَنْكُمُ، وَرَدَّكُمْ إِلَيْنَا صَالِحِينَ.

فكان جواب ابن رواحة عليه السلام:

لَكَيْتَنِي أَسْأَلَ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْعٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا ^(١)
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيِ حَرَّانٍ مُجْهِزَةً بِخَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبَدَا ^(٢)

(١) ذات فرغ: يعني ذات سعة. الزبد: رغوة الدم. شرح السيرة للبخاري ٣٥٤.

(٢) رجل حرّان: عطشان، أي متعطّش للقتل. مجهزة: سريعة القتل. الأحشاء: جمع حشا وهو ما في البطن.

حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَّتِي أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا^(١)

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٤].

فهو لا يشارك في رغبتهم بعودته إليهم غائماً، بل يحلم بالشهادة في مسيره هذا، من خلال ضربة واسعة يسيل دمها كالزبد، أو طعنة برمح تلهب الأحشاء وتُجهز عليه، تقذف الأحشاء والكبد، حتى يعلم الجيل اللاحق ما فعله الجيل السابق، وما قدمه من تضحيات ودماء لنصر هذا الدين، ويعلمون أن الرشد الحقيقي هو في تقديم الأرواح والمهج في سبيل الله.

وحين جرت دموعه على خديه تراءى لمن حوله انفعاله من الغربة، ولوعة الفراق للأهل والزوج والولد الحبيب، فكان لا بد أن يبين في مثل هذه اللحظات المؤثرة أسباب تأثره وبكائه على فراق الأعبة؛ لينقلنا إلى دنيا غير دنيانا، وعالم غير عالمنا، هو عالم اليوم الآخر الذي يعيشه ابن راحة ﷺ.

«أَمَّا وَاللَّهِ مَا بِي حُبُّ الدُّنْيَا وَلَا صَبَابَةٌ» (بفتح الصاد المهملة: رقة الشوق وحرارته، وهي بالرفع تقديره: ولا لي صباية) بِكُمْ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ يَذْكُرُ فِيهَا النَّارَ: ﴿وَلَنْ مَنَكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧١) [مريم]، فَلَسْتُ أَذْرِي كَيْفَ لِي بِالصَّدْرِ (بفتح الصاد والذال المهملتين وبالراء، اسم من قولك صدرت عن البلد أي رجعت) بَعْدَ الْوُرُودِ (الورود: في الآية (مريم ٧١) الحضور والموافاة من غير دخول أو الدخول، والعرب تطلق الورد على هذين المعنيين).

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٣-٣٧٤].

إنه وهو الأمير لهذه الأمة لابد أن يرقى بمشاعرها إلى مستوى الحلم بالشهادة، وإلى مستوى الإشفاق من لقاء الله، والخوف من عذابه.

لكن أين نشهد عواطفه التي تحتلج بين ضلوعه؟ نشهدا في فراق الحبيب المصطفى ﷺ، وكيف سيمضي بعيداً عنه؟ وكيف سيمضي شهيداً إلى ربه؟ فيفوته متابعة الجهاد مع المصطفى الحبيب ﷺ فراح ينشد:

فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ تَثَبَّتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا
إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً اللَّهُ يُعَلِّمُ أَنِّي ثَابِتُ الْبَصَرِ^(٢)
أَنْتَ الرَّسُولُ فَمَنْ يُحَرِّمُ نَوَافِلَهُ وَالْوَجْهَ مِنْهُ فَقَدْ أُرْزَى بِهِ الْقَدَرُ^(٣)

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٤].

(١) الجدل: القبر.

(٢) نافلة: هبة من الله وعطية منه، والنوافل العطايا والمواهب.

(٣) أُرْزَى به القدر: أي قصر به.

لقد تركها كلمة لنا للأجيال القادمة والقرون المتلاحقة، وقد ظمأت قلوبنا إلى رؤيا الحبيب المصطفى ﷺ، ولكننا لم نُحرم نوافله وعطاياه التي نعيش إلى اليوم في نعيمها، وما هذا الحديث عن مؤتة وشهادتها وأمرائها إلا من هذه النوافل والعطايا، وما هذا الإسلام الذي نحيا له ونموت من أجله، وهذه السيرة الزكية الطاهرة إلا من نوافله ﷺ، وإن نحن حُرّمنا رؤية وجهه في الدنيا فرجوا الله تعالى أن لا نُحرمها في الآخرة، والكافرون الذين حُرّموا نوافله، وحُرّموا وجهه، قد أزرى بهم القدر، فهم أصغر وأحقّر شأنًا في هذه الحياة من الذباب، وإذا كان تفاعلنا مع هذه الأبيات بعد خمسة عشر قرنًا بهذا التفاعل، فكيف بذلك الجيل الظامئ للشهادة، وهو يسمع هذه الأناشيد الخالدة تبعي قوته، وتمده بالخير الحية في قلبه.

وما هو عبد الله بن راحة ﷺ بين الأخذ والعطاء، إنه يعطي، وهو يفجر مشاعره الحرّى نحو حبيبه ﷺ وهو يأخذ مددًا يكفيه، فيتخلف عن الجيش المكلف بقيادته من أجل صلاة الجمعة يُجمّعها مع رسول الله ﷺ، وكان درسًا من أقسى الدروس في حياته التي بقي منها أيام يتلقاها، فالجيش الذي نفّذ المهمة، ومضى للمعركة خير منه، وقد جلس يحضر الجمعة مع رسول الله ﷺ، وإن كان لا شيء أعظم من الاقتداء بالمصطفى ﷺ في صلاة الجمعة، وسامع خطبه ومواعظه، لكن هذا لغير المكلفين بالجهاد، أما الذين اختاروا الجهاد وسبقوا ابن راحة ﷺ بغدوة واحدة، فقد جاء الجواب بعد قوله:

- أَرَدْتُ أَنْ أَصِلَ مَعَكَ الْجُمُعَةَ، ثُمَّ أَحَقَّهُمْ؟ وهيئات هيئات فقد سبق.

- «لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ [جَمِيعًا] مَا أَذْرَكْتُ [فَضْلًا] غَدَوَتِهِمْ».

فقد فاتته اللحاق بهذه الغدوة التي سبق فيها وتخلف عن أجورهم.

و«الْغَدَوَةُ أَوْ رَوْحَةٌ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

ولغدوة في سبيل الله خير من رؤية رسول الله ﷺ، والصلاة خلفه، والاقتداء به، ولا مقارنة، فهي خير من الدنيا - كل الدنيا - وما فيها، ولو كان فيها مسجد المصطفى والصلاة خلفه، واستماع مواعظه، فالغدوة أو الروحة تفوق هذا كله.

ومضي ليلحق جسدًا بجيشه الذي اختير أميرًا له وينقل لهذا الجيش هذا الحديث، فيشعر القوم أن ما هم عليه أفضل من كل شيء، وأفضل من التخلف لسماع الموعظة، والجمعة مع رسول الله ﷺ، وأنهم سبقوا أميرهم بأجورهم بعد أن فاته غدوة معهم.

إنه النور ينطلق فيغمر هذا الركب ويضيء له دربه في تيه الصحراء التي سيقطعها متحرقة أقدامه، مصهورة أجساده، لا يقطع كيلاً أو كيلين، بل يقطع تحت هذا اللظى، وفي قلب هذا اللهب ما ينوف عن ألف وخمسةائة كيلو متر، مجاهدًا في سبيل الله.

إنها السَّريَّة الأشق، السَّريَّة الأبعد مدى، السَّريَّة الأضخم مواجهة، السَّريَّة الأكثر هونًا وخطرًا وتضحية - إلى مؤتة، لماذا؟ للثأر لمصرع الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه، نقطع هذه الفيا في والقفار، لقد قطعناها بالسيارات المكيفة والماء المبرد، وطعام اللحم والدسم، واحتجنا أن نستجم أيامًا من وعثائها، فكيف بهذا الجيش يقطعها في شهر أو أكثر، ماشيًا على أقدامه زاده التمر، وتكييفه الشمس المحرقة، وظله النار المتوهجة، لكن في قلبه العامر بالإيمان الماضي إلى هدفه، ما يُنسيه كل مشاق حياته.

ولئن غنى ابن رواحة رضي الله عنه للمسلمين بحلم الضربة ذات الفرغ، والطعنة المجهزة بيدي حران، فلا بد أن تعود ظلال الشهادة ثانية إلى أحلامه، فيخاطب ربيه زيد بن أرقم رضي الله عنه، حيث لا ثالث لهما في نجوى الحبيب إلى الحبيب:

إِذَا أَذْبَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعِ بَعْدَ الْحِسَاءِ
فَشَأْنُكَ أَنْعَمَ وَخَلَّكَ دَمٌ وَلَا أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي

[السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٨/٢].

فكل هذه النعم، والخلو من الذم منوط بالشهادة كذلك، حيث لا رجوع بعدها إلى الأهل، فلا بد أن يبيل ثرى الشام من اليوم النجيع الطاهر من يثرب، وتبقى العلامة العلامة: ﴿وَعَلَّمَنِي وَيَلْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل].

وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ وَغَادَرُونِي بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهَى النَّوَاءِ

وانقطعت الأنساب كلها إلا نسب الرحمن، وثيق العرى الذي يربط أحباب الله تعالى بخالقهم وقد تقطعت الأغيار، وزالت الحجب:

وَرَدَّكَ كُلُّ ذِي نَسَبٍ قَرِيبٍ إِلَى الرَّحْمَنِ مُنْقَطِعِ الْإِحْءَاءِ

فهؤلاء هم الشهداء الذين اختارهم الله تعالى من خلقه، عندها لا هم، ولا وصَب، ولا عَمَلٌ بحرث ولا زرع ولا ضرع، إنما الخلود مع الله تعالى في جناته، وتنتهي هموم الدنيا وأوصابها وغمومها.

هُنَالِكَ لَا أَبْأَلِي طَلْعَ بَعْلِ وَلَا نَحْلٍ أَسَافِلُهَا رِوَاءِ

وكان الأمر عند زيد بن أرقم رضي الله عنه قد تجسَّد أمامه واقفًا حيًّا، فلم يحس إلا بدموعه وقد طفرت من عينيه، فقد عاد بين شعبي الرحل وحيدًا دون ابن رواحة الذي يعيش في كنفه، وجاءه الجواب مع انهيار دموعه: (مَا عَلَيْكَ يَا لُكْعُ! أَنْ يَرْزُقَنِي اللَّهُ شَهَادَةً وَتَرْجِعَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ الرَّحْلِ!).

وَأَنْ الْأَوَانَ لِيَعْرِسَ الرِّكْبَ، وترتاح الإبل من جهدها العنيف فناده شاعرنا الشهيد رضي الله عنه:

يَا زَيْدُ زَيْدَ الْيَعْمَلَاتِ الذُّبُلِ تَطَاوَلَ اللَّيْلُ هُدَيْتَ فَأَنْزِلِ

ومن الأحلام الوردية إلى الواقع الرهيب فها هم في مشارف، وعند حدود مؤتة، ويا لهول ما يرون، انتهى التغني بالأحلام أمام الكتائب مثل الجبال من العرب والروم تجمعت لإفناء هذه الآلاف الثلاثة. وأين جمع الأحزاب وقريظة من هذا الجمع؟ فما الأحزاب وقريظة إلا قطرة في بحر هذا العدو، وإذا كان جمع الأحزاب وقريظة قال الله تعالى عنه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب].

وهذا العدو الذي أمامهم ليس عشرة آلاف، إنما عشرين ضعفًا لذلك الجيش إنه مائتي ألف مقاتل من العرب والروم، يقابلها ثلاثة آلاف أغلبهم من الشباب الجديد حديثي الإسلام، فعلام يعتمد هؤلاء، وأمامهم تلك المئات المؤلفة.

وخلا القادة لبعضهم، أيقتلون ها هنا جميعًا، ويُدفنون بحيث لا يدري بهم أحد، أم يتجنبوا المعركة ريثما يتمكنوا من التغلّت من قبضة هذا العدو، أم يدعون الأمر لرسول الله ﷺ يجدد لهم المصير المطلوب، لقد خاضوا حربًا قبل هذه، ولم يلقوا مثل يوم الأحزاب ويوم بني قريظة، وأما الآن، فعلام يقيسون هذا اللقاء؟ على أي حرب، وأي غزوة، وأية سرية؟

(قَبْلَ الْغَزَايِ النَّاسُ أَنَّ هِرْقَلَ قَدْ نَزَلَ مَابَ، مِنْ أَرْضِ الْبَلَقَاءِ، فِي مَائَةِ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ، وَأَنْصَمَ إِلَيْهِمْ مِنْ لَحْمٍ وَجُدَامٍ وَالْفَيْنِ وَبَهْرَاءٍ وَبَلِيٍّ مَائَةً أَلْفٍ مِنْهُمْ)، وَمَنْ لَهُوْلَاءِ، لَقَدْ عَايَنُوهُمْ الْآنَ، وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْخَبَرِ.

القادة الثلاثة مع أمثالهم من أولي الرؤى عليهم أن يتخذوا القرار المصيري لهذه الآلاف الثلاثة، لقد تبلبل أمرهم حتى ليمضوا الليلتين يفكرون في أمرهم، والبصير بالعواقب لا بد أن يُعد للأمر عدته، ووقف البلبل الغريد عبد الله بن رواحة ؓ الذي غنى للشهادة والجهاد ما غنى طيلة حياته، والذي أبى أن يعيش إلى حلمه، وأبى أن يتعامل مع واقعه، إنه في الأرض وجناحه يرفرفان في الجنة، فقال نثرًا هزّ المشاعر والعقول معًا: (يَا قَوْمُ! وَاللَّهِ إِنَّ النَّبِيَّ تَكْرَهُونَ، لَلَّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ الشَّهَادَةَ)، فإذا تحققت الأحلام تهربون منها، (وَمَا تَقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدَدٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا كَثَرَةٍ، مَا تَقَاتِلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ)، فهم شهداء هذا الدين أحياء وميتين (فَانْطَلِقُوا، فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ: إِمَّا ظُهُورٌ، وَإِمَّا شَهَادَةٌ)، وليست بِشَرِّ المنزلتين.

ورجح رأي الشاعر الحالم على رأي البصير القائم، واندفعت هذه الجموع كلها، وقد رأت الشهادة في عينها وما بينها وبين الجنة وبين الجنة إلا أن يقتلهم هؤلاء، وطغى حماس الشباب على لغة العقل، ومن

ورائه من يؤجج لهيبه ويغذي وقوده، عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، أحد الأمراء الثلاثة، ولم يعد مجالاً للنقاش، فقد مضى السيل بالناس إلى الشهادة.

إن في القوم خالد بن الوليد رضي الله عنه، وهل يجروء على الكلام بين يدي من هو أسبق سابقاً، وأعرق فضلاً منه، وهو يستحي أن يفوه بكلمة واحدة قد تُفسَّر بأنها تخذيل للقوم عن المواجهة، وهو ابن الحرب وجزيلها المحك وعشيقها المرجب، فالصراع مع العدو مهنته، وهذا جعفر رضي الله عنه بجواره، ماذا يقول ولم يخض من قبل حرباً واحدة مع رسول الله ﷺ؟ أيتكلم، والمهاجرون والأنصار والسابقون يُقررون برأي بن رواحة رضي الله عنه، وزيد بن حارثة رضي الله عنه صاحب القرار المصيري مثل خالد بن الوليد رضي الله عنه عراقية في الحرب وحنكة في المواجهة لا يرى خطأ في الرأي مثل هذه المواجهة، فهو في النهاية صاحب القرار الأول وليس الأخير؟ فالشهادة هي أقرب متناول، ولم يبعث بهم رسول الله ﷺ إلا وهو عارف بمن يواجهون ومن يصارعون، ولا ندري إن اختلفت الآراء، لكن جيش الشباب الذي طغى عليه الحماس، وجدَّ في رأي ابن رواحة رضي الله عنه ما يغذي شهوته للقتال، وصنوته في الموت ولقاء الكفار، وهذه فرصة خالد بن الوليد رضي الله عنه أن يُكفِّر عن كل صده عن سبيل الله بالشهادة، فهذا أول لقاء له مع أعداء الله.

ومضى الناس يقولون: قَدْ وَاللَّهِ صَدَقَ ابْنُ رَوَاحَةَ.

والملاحظ أن هذه الروح قد سادت لدى الجيش كله، ففي رواية الواقدي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: شَهِدْتُ مَوْتَهُ، فَلَمَّا رَأَيْنَا الْمُشْرِكِينَ رَأَيْنَا مَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ مِنَ الْعَدَدِ وَالسَّلَاحِ وَالْكُرَاعِ وَالِدِّيَاكِ وَالْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ، فَبَرَقَ بَصَرِي، فَقَالَ لِي ثَابِتُ بْنُ أَقْرَمَ رضي الله عنه: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا لَكَ؟ كَأَنَّكَ تَرَى جُمُوعًا كَثِيرَةً! قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: تَشْهَدُنَا بِبَدْرٍ؟ إِنَّا لَمْ نُنْصَرْ بِالْكَثْرَةِ! [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٠].

وأبو هريرة رضي الله عنه يشهد أول معركة مع المسلمين، فقد حضر بعد خيبر إلى المدينة، ولم يرد اسمه في سرية من السرايا التي كانت بعد خيبر، وعمرة القضاء لم يكن فيها قتال، وثابت بن أقرم رضي الله عنه شهد بدرًا والمشاهد كلها وشهد مؤتة، فهو ربيب الحرب وابنها، فقدَّم خبرته لأبي هريرة رضي الله عنه الوافد الجديد بأن المسلمين لا يقاتلون عدوهم بالعدد والكثرة، ولم يُنصروا مرة لأنهم أكثر من عدوهم، وبدر شاهد على ذلك، لكن في المنطق البشري، لا يعقل أن تتم هذه المواجهة بين جيشين بهذه الأعداد، ويخرج سالمًا من المسلمين، وقد شهدنا بعض السرايا كسرية كعب بن عمير الغفاري رضي الله عنه وسرية ابن أبي العوجاء الأسلمي رضي الله عنه، وسرية بثر معونة، وسرية الرجيع أن المسلمين قُتلوا جميعًا واستشهدوا، وهذا شرف كبير لهم، إذ أنهم قاتلوا حتى آخر قطرة من دمائهم.

لكن العناية الربانية مع هذه السرية، التي تريد لها كما أرادت لبدر، أن توقع على يديها نصرًا مؤزرًا يرهب العدو الذي يطمع في غزو المدينة كل لحظة، وكما كانت بدر أول لقاء مع المشركين العرب، فقد

كانت مؤتة أول لقاء مع الروم، وكما أن اللقاء مع العدو في بدر، كان قَدَرًا ربانيًّا، فإن اللقاء مع الروم كان قَدَرًا ربانيًّا كذلك.

ولاشك أن هناك معجزة لرسول الله ﷺ فيها كان المسلمون ستارًا لقدر الله ﷻ، فلم يحدث أن نُقلت المعركة وأرضها لرسول الله ﷺ في سرية من سراياه إلا هذه المعركة؛ ولهذا كثيرًا ما يعنون المؤرخون لمؤتة بـ: غزوة مؤتة، علمًا أن رسول الله ﷺ لم يحضرها، لكن رفعها له كأنها حضرها.

وتسمية خالد بن الوليد رضي الله عنه بسيف الله في هذه المعركة لم تَرِدْ لأحد إلا له، وسيف الله تعالى لا يُقهر. ولكن الجديد مع هذه العصبة المسلمة هو أن هذا النصر تحقق بالجهد البشري دون بروز جند الله من الملائكة أو الريح أو شيء آخر، اللهم إلا إذا كان إلقاء الرعب في قلب العدو من الله تعالى هو الإضافة الجديدة». [التربية الجماعية للغضب ١/ ١٣١-١٣٩].

١٠ - حَمَلُ الرَايَةِ رَجُولَةً وَشَجَاعَةً:

يقول د/ أبو فارس: «لأن سهام الأعداء تتوجه إلى حامل الراية وتتركز هجماتهم عليه، وهو بدوره يتصدى لهذه الهجمات ويصر على الثبات وهذا قمة التضحية والثبات والرجولة».

[الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٦].

«ومن المعلوم أن اللواء يحمله اعتياديًّا أشجع الشجعان؛ لأن الدفاع عنه وإبقاءه مرفوعًا دون أن يهوي إلى الأرض أو يُعْفَر بالتراب، لا يتم إلا لشجعان مشهود لهم بالشجاعة والإقدام والثبات، وقوة الأعصاب، والألمعية والذكاء». [قادة النبي ﷺ لخطاب ٥٨].

١١ - شجاعة زيد بن حارثة رضي الله عنه:

ويقول د/ بريك: «وبدأ هجوم المسلمين باندفاع قائدهم زيد بن حارثة رضي الله عنه بلواء رسول الله ﷺ نحو صفوف العدو «فحارب مستقتلاً مستميتاً حتى مَزَقَتْهُ رماح العدو» [خطاب: الرسول القائد ﷺ ٣٠٧]، وذلك وفق وصف رواية عروة: «حتى شاط في رماح القوم».

إنَّ ذلك الوصف يدل على قوة اندفاع زيد رضي الله عنه واستماتته في القتال، مع عدم اكترائه بقوة العدو، وكثافته العَدَدِيَّة والعُدَدِيَّة، وهو أمر يدل على فرط شجاعته وجراته واستماتته بالموت ما دام في سبيل الله ﷻ.

وكلمة «شاط» (أصل الإشاط: الإحراق، أي كأنه احترق برماح الأعداء من شدة تمزيقها له، وكأنهم حنقوا عليه نتيجة الحملات الشرسة والقوية التي كان يحمل بها عليهم في العُمُق) تعطي عمقاً بعيداً عن مدى شراسة الحملات التي قام بها ذلك البطل المغوار في العمق داخل صفوف العدو، وما تمزيق جسده الطاهر برماحهم إلا نتيجة حتمية لتلك الجرأة العظيمة التي كان يتمتع بها، ويحمل بها على العدو، معطيًا من نفسه القدوة الصالحة لجنده، وما ذلك إلا لأجل نفسه، وقوة رباطة جأشه.

نعم! لَمَّا كانت نفس زيد بن حارثة الكلبي ﷺ حَبَّ رسول الله ﷺ كبيرةً تَوَاقَّةً للمعالي، دَفَعَ جسده الطاهر الزكي الثَّمَنَ غَالِيًا في أحضان رماح العدو وحراهم» (يذكر ابن دريد (الاشتقاق ٥٥١) أن الذي باشر قتل زيد ﷺ، هو مالك بن رافلة قائد العرب المنتصرة. ولم أر أحدًا قال به غيره. والله تعالى أعلم).

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٣٠٥-٣٠٦].

١٢ - شجاعة جعفر بن أبي طالب ﷺ:

ويقول د/ أبو فارس: «ويُفهم من النصوص أن جعفر ﷺ كان على جانب عظيم من الشجاعة، فهو يُقبل على القتال ولا يُدبر، يكر ولا يفر؛ ذلك لأن كل إصاباته التي بلغت بضعة وتسعين كانت في صدره، ولم يكن شيئًا منها في ظهره أي وهو فار، بل كان مواجهًا للعدو يطعن ويجالد، ويتلقى الطعن والرمي دون أن تلين له قناة أو تنهون له عزيمة». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٦]

ويقول د/ بريك: «وما كاد يسقط القائد البطل ابن حارثة ﷺ شهيدًا في سبيل الله تعالى، حتَّى تَلَقَّف منه اللواء، ومن ثَمَّ خلفه في القيادة - حسب أمر القائد الأعلى رسول الله ﷺ - بطل آخر شاب من آل بيت النَّبِيِّ ﷺ موئل البطولات، وأركان الشجاعة، ولا غَرْوَ في ذلك، فهو جعفر بن أبي طالب ﷺ، ابن عم رسول الله ﷺ بطل الأبطال، وقائد الشجعان.

وتقدَّم البطل الشاب بفِرسه يصول ويجول براية رسول الله ﷺ، حتَّى إذا ما ألحمه القتال، ترجَّل عن فرسه، كما يذكر أحد شهود العيان: «وَالله لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى جَعْفَرٍ ﷺ حِينَ اقْتَحَمَ عَنْ فَرَسٍ لَهُ شَقْرَاءُ، ثُمَّ عَقَرَهَا، ثُمَّ قَاتَلَ [الْقَوْمَ] حَتَّى قُتِلَ»، راجلاً، وهو يرتجز:

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتَرِبْهَا طَيِّبَةً وَيَارِدَا شَرَابِهَا
وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَبْدَاهَا كَافِرَةٌ بَعِيدَةُ أَنْسَابِهَا

عَلَى إِذْ لَاقَيْتُهَا ضَرَبْتُهَا

ثُمَّ اندفع يقاتل بشجاعة نادرة، وجرأة لا مثيل لها، ورباطة جأش عظيمة، والضربات تنهال عليه من كُلِّ جانبٍ ما بين طعنة رمح، وضربة سيف، ورمية نبل، دون أن تننيه عن الاستمرار، أو تعيق تقدمه بلواء رسول الله ﷺ الذي كان يمثل رمزًا عظيمًا للمسلمين في معاركهم؛ لأجل ذلك كان تركيز العدو على إسقاطها شديدًا، فلمَّا أعباهم البطل جعفر ﷺ بقوة تماسكه، ورباطة جأشه العظيمة، ورأوا أنَّ الضربات على جسده لم ترده إلَّا إِمْعَانًا وتقدُّمًا نحو صفوفهم، عندها حَوَّلُوا ضرباتهم إلى اليد العظيمة التي كانت تمسك اللواء بقوة، وتقاتل به بلا هوادة، فقطعوها، وظنَّ الأعداء أنَّها النهاية، وأنَّ اللواء سوف يسقط، فتسقط معه معنويات المسلمين، ولكنَّ القائد العظيم تلقَّفه: «بشاله، فِقْطِعْتَ، فاحتضنه

بعضديه»^(١)، ولكن «ورغم استبسال جعفر وثباته هذا، فقد انتهى صموده الرائع بأن سقط شهيداً بعد أن اعتورته سيوف الرومان، وهو يحتضن اللواء في إصرارٍ وتصميمٍ، حتى صعدت روحه الطاهرة، ليأخذ مكانه بين الصّديقين والشّهداء». [غزوة مؤتة لباشميل ٢٩٦].

بل بين الملائكة: «فقد صحَّ أن الله قد عوّضه من يديه جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة، ويأكل من ثمارها حيث شاء، فلذلك سُمّي الطيّار في الجنّة». [أخرجه الحاكم (المستدرک ٢٣٢/٣) من حديث سعدان بن الوليد، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس، وسكت عنه. وأخرجه الطبراني في الأوسط، كما ذكر (الهيثمي: مجمع ٢٧٣/٩) وقال الهيثمي: وفيه سعدان لبن الوليد لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات].

«ويكون أوّل من حاز على لقب طيّار في التاريخ الإسلامي، ويتفرّد به دون النّاس أجمعين» [فقه السيرة للغضبان ٥٤٨]، ولكنه في ذات الوقت ليس طيّاراً عادياً، أو حتى رائد فضاء، بل طيّاراً في الجنّة مع الملائكة المقرّين، يطير مع جبريل، وميكائيل، وقد ميّزه الله ﷻ عن الملائكة بأن جعل جناحيه مضرّجين، مخضوبّة قوادمه بالدماء، وذلك علامة على أنّهما وسام شرف علوي مُنِحَ له مكان يديه اللتين ضحّى بهما بإصرارٍ في سبيل الله تعالى، وهو يقاوم بقوة وعنادٍ عجيبين ألاّ تسقط راية رسول الله ﷺ أرضاً.

نعم! سقط القائد الشاب شهيداً، وفي جسده بضعٌ وتسعون ما بين طعنة ورمية، منها: «خمسون بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره، يعني في ظهره».

وفي ذلك «بيان فرط شجاعته وقدامه». [ابن حجر فتح ٥١٢/٧]. [غزوة مؤتة لبريك ٣٠٦-٣٠٩، ٣١٣].

١٣ - كرم وجود جعفر بن أبي طالب ﷺ:

يقول أ/ الصوياني: «هذه هي أجواء المدينة وتلك هي همومها، أما على أرض مؤتة فاليتم له طعم آخر، الأيتام هناك لم يعودوا صغاراً، وعندما يكون اليتيم رجلاً فصفات الفقيد أعظم من أن تحيط بها جدران المنزل والقلوب، على أرض مؤتة شعر ببعض المساكين بيتهم مريّر، وأبو هريرة ﷺ أكثر من عانى ووصف وباح فقال: مَا احْتَدَى (انتعل ولبس حذاء في قدميه) النَّعَالَ، وَلَا انْتَعَلَ وَلَا رَكِبَ الْمَطَايَا (جمع مطية وهي الدابة التي يركب مطاها أي ظهرها، أو هي التي تمتط في سيرها أي غدّ)، وَلَا رَكِبَ الْكُورَ (الرحل وهو ما يوضع على ظهر

(١) ذكره ابن هشام (السيرة ٣٧٨/٤) رواية عن مبهم، ولكن له شاهد، أخرجه الحاكم (المستدرک ٢٣٢/٣) من حديث عطاء، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنها، وقال فيه حكاية عن جعفر ﷺ: «ثُمَّ أَخَذْتُ اللَّوَاءَ بِيَدِي الْيُمْنَى فَقُطِعَتْ، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِي الْيُسْرَى فَقُطِعَتْ... الخ. وقد سكت عنه الحاكم، والذهبي، وأخرجه الطبراني كما في (المجمع للهيثمي ٢٧٣/٩) وقال عنه الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين، وأحدهما حسن. وقال عنه ابن حجر (فتح الباري ٧/٧): إسناده جيد. وقال ابن كثير (البداية ٢٤٦/٤): ومما يشهد لما ذكره ابن هشام من قطع يمينه وهي مُمسكة باللواء، ثُمَّ شَالَهُ، ما رواه البخاري: ثنا محمد بن أبي بكر ثنا عمر ابن علي، عن إسحاق بن أبي خلائد، عن عامر قال: «كان ابن عمر إذا حيّا ابن جعفر قال: السّلام عليك يا ابن ذي الجناحين».

البعير ليركب عليه كالسرج للفرس) بَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَفْضَلَ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ [يَعْنِي فِي الْجُودِ وَالْكَرَمِ]. [الترمذي في المناقب (٣٧٦٤)، وَقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ. قَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِي: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ مَوْقُوفٌ. وَمُسْنَدُ أَحْمَدَ ٢٠٦/١٥ رَقْمَ ٩٣٥٣، وَقَالَ الشَّيْخُ الْأَرْنَؤُوطُ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ].

قال أبو هريرة ؓ ذلك مأخوذاً بسلوك جعفر ؓ وكرمه تجاهه وتجاه غيره من المساكين، وهو سلوك يرتقي إلى مستوى الإسلام، أبو هريرة المسكين الذي نحت الجوع على وجهه لغة لا يقرأها إلا جعفر والنبي ﷺ يبكي على جعفر الممدد أمامه، يبكي على الجود الممدد على أرض مؤنة، يبكي على يديه اللتين طالما قدمتا له وأعطته وواسته، وكأنهما انفصلتا عن جسده لتقديم المزيد من العطاء، يتحدث أبو هريرة عن تلك اللغة التي يعرف تفاصيلها حبيبها محمد وجعفر فيقول: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَخِرُّ (لَأَسْقُطُ) فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ ؓ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، فَيَجِيءُ الْجَائِي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي (خَشِيَةَ أَنْ أَصِيبَ أَحَدًا بِأَذَى عَلَى ظَنِّهِ)، وَيَرَى أَنِّي مَجْنُونٌ، وَمَا يَمِي مِنْ جُنُونٍ مَا يَمِي إِلَّا الْجُوعُ».

[البخاري في الاختصاص بالكتاب والسنة (٧٣٢٤)].

ويقول ؓ: «اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَيْدِي (أَلْصَقُ بَطْنِي بِالْأَرْضِ) عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ (أَرْبُطُ وَفَائِدَةُ شَدِّ الْحَجَرِ الْمُسَاعَدَةُ عَلَى الْإِعْتِدَالِ وَالْقِيَامِ) الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمْ (أَيِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ؓ) الَّذِي يُخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ، فَسَأَلَتْهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلَتْهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ، فَسَأَلَتْهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلَتْهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي أَبُو الْقَاسِمِ ؓ، فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَانِي، وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي - وَمَا فِي وَجْهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرٍ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْحَقُّ» وَمَضَى - فَتَبِعْتُهُ، فَدَخَلَ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلَ، فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: «مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟» قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةٌ، قَالَ: «أَبَا هُرَيْرٍ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْحَقُّ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي»، قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ، لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلِ وَلَا مَالٍ وَلَا عَلَى أَحَدٍ، إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا، فَسَأَلَنِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ: وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ، كُنْتُ أَحَقُّ أَنَا أَنْ أَصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا، فَإِذَا جَاءَ أَمْرِي، فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بُدٌّ، فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ، فَأَقْبَلُوا، فَاسْتَأْذَنُوا، فَأَذِنَ لَهُمْ، وَأَخَذُوا بِمَجَالِسِهِمْ مِنَ الْبَيْتِ، قَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرٍ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «خُذْ فَأَعْطِهِمْ»، قَالَ: فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوْى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوْى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوَى الْقَوْمُ كُلَّهُمْ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ، فَقَالَ: «أَبَا هُرَيْرٍ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا

رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ»، قُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفْعُدْ فَأَشْرَبْ»، فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ، فَقَالَ: «أَشْرَبْ»، فَشَرِبْتُ، فَمَا زَالَ يَتَوَلَّى: «أَشْرَبْ» حَتَّى قُلْتُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا، قَالَ: «فَارِنِي» فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ، فَحَمِدَ اللَّهُ وَسَمَّى وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ. [البخاري في الرقاق (٦٤٥٢)].

أبو بكر ﷺ الذي تصدق بكل ماله على المساكين، وعمر ﷺ الذي تصدق بنصف ماله على أمثال أبي هريرة ﷺ، لم يقرأ ما خلف سؤال أبي هريرة من أين، لكن النبي ﷺ قرأه.

أما جعفر فللحديث عنه عند أبي هريرة مذاق مميز، إنه يدافع عن نفسه وعن كثرة رواياته لحديث النبي ﷺ فيحمله الحديث إلى بيت جعفر حيث تندفق الرحمة والكرم فيقول: «إِنَّ النَّاسَ، كَانُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبَوِ هُرَيْرَةَ (أي في روايته للحديث)، وَإِنِّي كُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَيْعِ بَطْنِي (أي رضيت بشيع بطني ولم أطلب زيادة على ذلك فتهاي لي من سماع حديثه ما لم يتهاى لغيري) حَتَّى لَا أَكُلَ الْخَمِيرَ (الخبز الذي خمر وجعل في عجينه الخميرة، ويروى (الخبيز) وهو الخبز المأدوم) وَلَا أَلْبَسُ الْحَبِيرَ (الجديد والحسن أو ما كان موسى وخططاً من الثياب)، وَلَا يَخْدُمُنِي فُلَانٌ وَلَا فُلَانَةٌ (ليس لي خادم من ذكر أو أنثى وإنما أخدم نفسي)، وَكُنْتُ أُلْصِقُ بَطْنِي بِالْحَصْبَاءِ (بالأرض لتتكسر شدة الجوع) مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَسْتَقْرِئَ الرَّجُلَ الْآيَةَ (أقول له أريد أن أقرأ آية كذا)، هِيَ مَعِيَ (أحفظها)، كَيْ يَنْقَلِبَ (يرجع) بِي فَيُطْعِمَنِي، وَكَانَ أَخِيرَ النَّاسِ لِلْمُسْكِينِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، كَانَ يَنْقَلِبُ بِنَا فَيُطْعِمُنَا مَا كَانَ فِي بَيْتِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ لَيُخْرِجُ إِلَيْنَا الْعُكَّةَ (وعاء من جلد يجعل فيه السمن وغيره) الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، فَتَشْقُّهَا فَلَنَلْعُقُ مَا فِيهَا». [البخاري في المناقب (٣٧٠٨)].

جعفر القادم من الغربة والفقر ينجز في عام واحد فقط أضعاف ما ينجزه البعض في أعمارهم الطويلة والعريضة، الإنسان موقف وجعفر أكثر من موقف». [السيرة النبوية للصوياني ٣/ ٣٣٦-٣٣٨].

١٤ - حول روايات تردد ابن رواحة ﷺ:

يقول أ/ دويدار: «وتختلف الروايات في موقف ابن رواحة ﷺ حين أخذ الراية بعد جعفر ﷺ»، ثم ذكر روايتي ابن إسحاق والواقدي، ثم قال: «ولم يذكر البيهقي ولا موسى بن عقبة - فيما نقل عنها ابن كثير - شيئاً عن هذا التردد، كذلك لم يذكره المقرئ في إمتاع الأسعاع، ولا ابن سعد في الطبقات الكبرى. وعبد الله بن رواحة ﷺ - فيما يقول ابن إسحاق وغيره - كان هو الذي شجع المسلمين ودفعهم إلى الإقدام حين ترددوا في قتال الروم، وهو الذي ذكر عنه ابن إسحاق أنه رمى قطعة اللحم من فمه حين رأى المعركة تدور، واستكثر على نفسه أن يبقى لحظة في الدنيا وهو بعيد عن المعركة، أفلا يكون من التناقض أن يكون رجل هذه روحه وهذا يقينه، يدخل المعركة وهو متردد خائف؟ ثم أفلا يكون من التناقض أن يُشجّع الناس على ملاقات الروم، ثم يجيئ هو عن ملاقاتهم؟ وأين كان ابن رواحة ﷺ منذ

بدأت المعركة بين المسلمين والروم؟ ألم يكن يقاتل فيها كجندي من جنود المسلمين؟ فهل من الطبيعي أن يكون مقدامًا شجاعًا وهو جندي، ثم يكون مترددًا خائفًا وهو قائد؟!

يخيل إليّ أن ابن إسحاق رحمته الله أخذ الرواية على علامتها، فرواها دون أن يعيد فيها النظر، ولو أنه نظر فيها نظرة لبان له أن هناك تناقضًا واضحًا بين أولها وآخرها، وأن مواقف ابن رواحة رحمته الله قبل المعركة وفي خلالها يناقض بعضها بعضًا.

كما يخيل إليّ أن الشعر الذي نُسب إلى ابن رواحة رحمته الله هو الذي أُملي على الرواة هذه الرواية، ولكن هذا الشعر - وإن كان في ظاهره يُشعر بالتردد - هو في حقيقته محاورة بين الشاعر ونفسه، تحمل كل معاني التشجيع للنفس عند الإقدام على الموت، حتى تُقدم وهي مطمئنة إلى أن الموت في هذا الموقف خير من الحياة، وإلا فقد روى الواقدي عن رسول الله ﷺ أن زيدًا وجعفرًا رحمتهما الله عرض لكل واحد منهما الشيطان حين أخذ الراية، فحبَّب إليه الحياة وكرَّه إليه الموت ومناه الدنيا، فسخر كلاهما من الشيطان، وقال له: (الآن حين أُستَحَكَمَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ تُمَيِّنِي الدُّنْيَا؟، ثُمَّ مَضَى قِدْمًا حَتَّى اسْتُشْهِدَ)، فإذا جاز لنا أن نأخذ بظاهر القول، جاز لنا أن نقول بأن زيدًا وجعفرًا رحمتهما الله ترددا ثم أقدما، كما تردد ابن رواحة رحمته الله ثم أقدم.

أما ما رواه ابن إسحاق من أن رسول الله ﷺ قال - وهو على المنبر ينعي أمراءه إلى أصحابه -: (لَقَدْ رُفِعُوا إِلَيَّ فِي الْجَنَّةِ، فِيمَا بَرَى النَّائِمُ، عَلَى سُرُرٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَرَأَيْتُ فِي سَرِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ أَرْوَرًا عَنْ سَرِيرِي صَاحِبِيهِ، فَقُلْتُ: عَمَّ هَذَا؟ [بِمَ هَذَا؟]، فَقِيلَ لِي: مَضِيًّا، وَتَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ بَعْضَ التَّرَدُّدِ ثُمَّ مَضَى)، فقد ضعفه ابن كثير وقال: (إن ابن إسحاق ذكره منقطع السند)، ثم عارضه بالحديث السابق الذي رواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

على أن ابن إسحاق روى في أخبار هذه الغزوة خبرًا يدل على أن ابن رواحة رحمته الله خرج من المدينة، وهو لا يتمنى شيئًا كما يتمنى قتله في سبيل الله ﷻ تدل على حسن بلائه، وصدق جهاده في الله ﷻ، فقد ذكر ابن إسحاق أن الجيش حين تحرك للمسير، وقف المسلمون يودعونه ويقولون: صَحِبَكُمُ اللَّهُ، وَدَفَعَ عَنْكُمُ، وَرَدَّكُمْ إِلَيْنَا صَالِحِينَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رحمته الله:

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةَ ذَاتِ فَرْعٍ تَقْدِفُ الرَّبْدَا
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيَّ حَرَّانَ مُجْهِزَةً بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكِدَا
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَّتِي أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَارٍ وَقَدْ رَشَدَا

فكيف يُوصف رجل هذه روحه بالتردد، في الوقت الذي تسنح الفرصة فيه لتحقيق أمنيته الغالية، وطلبته التي كان يروجها ويدعو الله ﷻ بها جاهدًا؟

أعتقد أن ابن رواحة رضي الله عنه قد ظلم بهذه الرواية ظلمًا ينبغي أن يُزاح عنه، وأن يحتفظ له التاريخ بحقه كاملاً، كرجل جاهد في الله مخلصاً، وأقبل على الموت في سبيله مقداماً غير هيباب، مطمئناً غير جازع، وعند الله في ذلك الجزاء». [صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٥٢٠-٥٢٢].

ويضيف د/ أبو خليل إلى هذا بقوله: «إنَّ تردُّد ابن رواحة رضي الله عنه - إن ثبت في الأحاديث - ليس تردُّد الجبان الذي كره الموت، ولا تردُّد الذي بخل بنفسه من أن تُقتل في سبيل الله ﷻ، إنه تردُّد مَنْ أراد أن يوصي بشيء ما قبل استشهاده المحقَّق الذي هو ماثل بين ناظره، أو لعله أراد أن يختار من يقود الجيش من بعده، إنها لحظات أراد أن يوصي خلالها بشيء ما!

صحيح أن زيداً رضي الله عنه لم يتردد لحظة، فهو يعلم أن الجيش له أميره من بعده، إنه جعفر رضي الله عنه.

وصحيح أن جعفر رضي الله عنه لم يتردد لحظة، فهو يعلم أن الجيش له من يقوده من بعده، إنه ابن رواحة رضي الله عنه.

وتردد ابن رواحة رضي الله عنه لحظة ليختار للجيش أميراً من بعده، أما هو، فيقيناً «فَاتَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ: إِمَّا ظُهُورٌ، وَإِمَّا شَهَادَةٌ» فتذكَّر قول رسول الله ﷺ: «فَإِنْ أُصِيبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ فَلْيَرْتَضِ الْمُسْلِمُونَ بَيْنَهُمْ رَجُلًا، فَلْيَجْعَلُوهُ عَلَيْهِمْ» فتقدم فأكرمه الله بالشهادة.

إن تردُّد ابن رواحة رضي الله عنه لم يؤخره درجة أو منزلة أو مقاماً عن صاحبيه، إن الأمر كله (ازورار في سريره) فقط، إنه ميل بسيط لا يُذكر في مثل منزلة الأمراء الثلاثة، فلازورار لغة العوج أو الميل فقط، (لسان العرب ٤/ ٣٣٤)، وهذا العوج أو الميل سببه هذا التوقف، ليعلم المسلمون كافة دقة الحساب، وحساسية الموازين: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشُنَاكَ لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ۖ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ [الزلزلة].

أما تردُّد الجبان المُحْجَم عن الموت، أو تردُّد مَنْ يبخل بنفسه عن الشهادة، ليست عقوبته اعوجاج في سريره، بل عقوبته نقصان منزلته ودرجته عن منزلة ودرجة صاحبيه». [غزوة مؤتة لأبي خليل ١٤٥-١٤٦].

ويقول د/ أبو شهبه: «ويا لها من عبرة!! فإذا كان بعض التردد من الشجاع المغوار ابن رواحة رضي الله عنه قد جعله في منزلة دون صاحبيه، فما بالك بمن ينكص على عقبيه مؤثراً الحياة على الشهادة، طمعاً في جاه أو مال أو عرض من أعراض الحياة؟! إن مثله لا يُقام له عند الله وزن وإن عرض عند سواد الناس جاهه، ويذَّ مال قارون ماله». [السيرة النبوية لأبي شهبه ٢/ ٤٢٩].

ويقول د/ بريك: «وينفي بعض المعاصرين رواية تردُّد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، كونها تتعارض مع موقفه قبل ذلك من تشجيعه للمسلمين لملاقاة الروم، وتحرقه للشهادة في سبيل الله.

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٥٢١-٥٢٣].

بينما يربط بعضهم هذا الموقف بما عُرِفَ من تقلبات نفسية الشُّعراء وحساسيتهم.

[دراسة في السيرة لعبد الدين خليل ٢٩٧].

بينما ما حدث من عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لا يعدو كونه أمراً طبيعياً، وموقفاً من مواقف ضعف النفس البشرية يعترها أوقات الشدة والأزمات، وهو بالتالي لا يُدَلَّل على خَوَرِ عبد الله رضي الله عنه وجُبْنِه، كما يفهمه البعض من ظاهر الرواية، فذلك أمرٌ مفروغٌ منه، فعبد الله بن رواحة رضي الله عنه مشهودٌ له بالشجاعة، والجرأة، ورباطة الجأش، وليس اختيار النبي صلى الله عليه وسلم - وهو الخير في أصحابه - له قائداً من قواد هذه الموقعة العظيمة التي كانت في عمق الأراضي الخاضعة لنفوذ الدولة البيزنطية، وبعيداً عن قاعدة المسلمين، وانتدابه له سابقاً في أقوى سراياه وبعوثه، وأصعبها مهمة وجرأة، وهي سرايا المغاوير، إلا دليلاً من الأدلة القاطعة على ذلك.

والصحابه رضي الله عنهم، وإن كانوا مشهورين بالشجاعة والجرأة وحُب الموت في سبيل الله تعالى، فهم في النهاية ليسوا ملائكة، بل بشر يعترهم الخوف والضعف في مواطنهما، بل ربّما مغادرة ميدان المعركة، كما حدث من بعضهم في بعض المواقع، وقد سَوَّغ لهم الشرع التحيُّز إلى فئة، وعدم الاستقتال.

إنَّ ما حدث من عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أمرٌ طبعي يمكن أن يحدث لكلِّ إنسان في مثل تلك الظروف الصعبة والمواقف المحرجة.

ولكن معالجة الموقف بمثل تلك القوة، والشجاعة، ورباطة الجأش، لا تحدث من كُلِّ إنسان، فما قام به عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، لا يقوم به إلا رجال أبطال مؤمنون أمثاله، ولو كان غير ذلك لأُطْلِقَ لنفسه العنان، ولما استطاع مصابرتها والتغلب على فلتاتها.

وكان يمكن أن يمر ذلك الموقف دون أن يحس به أحد من الناس، ولكن رجلاً شجاعاً، شاعراً، مؤمناً، مرهف الحس، صادقاً مع نفسه، كعبد الله بن رواحة رضي الله عنه، لا يمكن أن يدعه يمر عليه هكذا بسهولة، دون أن يَصُوِّرَ أحاسيسه تجاهه تصويراً صادقاً قوياً، ويُعَبِّرَ عن خلجات نفسه نحوه تعبيراً دقيقاً رائعاً بصوتٍ عالٍ مرتفع، استطاع معه شهود العيان، ومن ثَمَّ الرواة تسجيله بمداد العزة والكرامة، لتطلع عليه الأجيال الإسلامية تلو الأجيال، فتعتبر، ولعلَّه أراد ذلك فعلاً.

وبالإضافة إلى ما ذكرناه، فإنَّ سند الرواية التي نقلت الخبر، ساقه ابن إسحاق بطريق حسن إلى شاهد عيان، شارك في المعركة، وقد يعتضد بالمتابعات إلى درجة أعلى، كما أنه لم يصح حديث السرير الذي ذكره ابن إسحاق بلاغاً بلا سند: ودُكِرَ فيه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أنَّ منزلة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه دون منزلة

صاحبيه في الجنة نتيجة تردده». (١)

وقد حكم عليه ابن كثير رحمه الله بالانقطاع، وعارضه بحديث الصحيح. [ابن كثير: البداية ٤ / ٢٤٥].
كما أن الأحاديث الأخرى الماثلة، جاءت من طرق واهية لا يُعتمدُ بها (٢).

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٣١٥-٣١٨].

ويقول د/ العتوم: «ما بال عبد الله رضي الله عنه يتأخر سريره في الجنة عن سرير صاحبيه: زيد وجعفر؟! لأنه أقل إيماناً منهما، أم أقل تجربة وبلاء؟! أما الإيمان فقد كان سباقاً إليه قويه رضي الله عنه، وفي أيام المحنة والشدة، إذ كان ممن بايع رسول الله ﷺ بيعة العقبة، وهي بيعة الحرب، وكان فيها أحد نقباء قومه الخزرج، وهو الذي كان يقول للرجل من أصحابه حينما يلقاه: تعال نؤ من ساعة، يقصد بذلك تعميق الإيمان والتبتل وحلق الذكر والصفاء، وعندما شكاه أحدهم - وهو يدعوه لذلك - إلى رسول الله ﷺ قال: «يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ

(١) قال د/ بريك: أخرجه الهيثمي (مجمع ١٥٩/٦-١٦٠) وعزاه للطبراني من حديث ابن إسحاق، وقال عنه: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

قلت: أدخل هذا الحديث في حديث عبّاد بن عبد الله بن الزبير، الذي رواه عن أبيه الذي أرضعه من بني مرة. والدليل على ذلك أن ابن إسحاق روى هذا الحديث بلائاً، ووقع ذلك في السيرة عند ابن هشام (٤ / ٣٨٠)، وعند البيهقي (دلائل ٢ / ٣٦٨)، وعند ابن عساكر: تاريخ (عبد الله بن جابر، عبد الله بن زيد ص ٣٤٩).

(٢) أخرج عبد الرزاق (المصنّف ٥ / ٢٦٦) عن ابن عينة، عن ابن جدعان، عن ابن المسيب قال: قال النبي ﷺ: «مُثِّلُوا لِي فِي الْجَنَّةِ فِي خِيَمَةٍ مِنْ دُرٍّ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى سَرِيرٍ، فَرَأَيْتُ زَيْدًا، وَابْنَ رَوَاحَةَ فِي أَعْنَاقِهِمَا صُدُودًا، وَأَمَّا جَعْفَرٌ فَمُسْتَقِيمٌ لَيْسَ فِيهِ صُدُودٌ... الخ».

قلت: سنده ضعيف آفته ابن جدعان علي بن زيد التيمي، ضعّفوه. وذكر ابن أبي حاتم، والعجلي أنه يتشيع. وقال ابن عدي: كان يغالي في التشيع. وذكر حمّاد بن زيد أنه كان يقلب الحديث.

قلت: وهذه الرواية التي ذكرها تفوح منها رائحة التشيع بقوة. والله تعالى أعلم.

كما أخرج الطبراني (معجم ١٦٧/١٩-١٦٨) من طريق ثابت بن دينار، عن أبي اليسر، حديث أبي عامر الأشعري الذي ذكر فيه عن رسول الله ﷺ قال: «دخلت الجنة فرأيت جعفرًا ذا جناحين مضرّجين بالدماء، وزيد مقابله، وابن رواحة معهما، كأنه يعرض عنهما، وسأخبركم عن ذلك، إن جعفرًا حين تقدّم فرأى القتل لم يصرف وجهه، وزيد كذلك، وابن رواحة صرف وجهه».

قال الهيثمي (مجمع ٦ / ١٦١): فيه ثابت بن دينار، أبو حمزة، وهو ضعيف. وقال عنه ابن حجر (تقريب ١٣٢): رافضي ضعيف.

قلت: ويظهر التشيع في روايته بذكره حديث جعفر رضي الله عنه فقط من بين أمراء الواقعة في بداية حديثه عنها. والله تعالى أعلم.

رَوَاحَةً! إِنَّهُ يُحِبُّ الْمَجَالِسَ الَّتِي تُبَاهَى بِهَا الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»^(١).

أما البلاء والجهاد فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه ﷺ، كان أول خارج إلى الغزو وآخر قافل منه، وكان يصلي الصلاة لوقتها. [ابن عساكر، تاريخ دمشق، ص ٣٥٧ ترجمة عبد الله بن رواحة ﷺ].
ولقد شهد مع رسول الله ﷺ مشاهدته كلها [ابن الأثير، أسد الغابة ٣/ ٢٣٥]، حتى استشهد بمؤتة رضي الله عنه وأرضاه.

وفي مؤتة - على الطريق إليها، وفي معمعتها - كان ابن رواحة ﷺ مثلاً للمسلم المؤمن والزاهد التقى والمجاهد المقدام الذي يرى الدنيا لا تُساوي جناح بعوضه أمام جنة عرضها السموات والأرض، يستخف بجموع العدو الكثيفة أمام تصميم الإيمان الراسخ في قلبه وقلوب صحبه، يبكي وهو يودّع في معسكر الجرف، وعندما يُسأل عن سبب بكائه، يُفصح بأنه لا تعلقاً بالدنيا، ولكن خوفاً من الآخرة، إذ لا يدري أيجوز الصراط أم لا؟ وهو تواضع يدل على إيمان عميق، وعندما يدعو المسلمون له ولصحبه بالعودة سالمين، يقول: ولكنني أسأل الله المغفرة والموت في سبيله، وفي الطريق إلى مؤتة يُمضي أكثر لياليه متمماً يدعو الله أن يرزقه الشهادة، وينزل ليلة يصلي بعض الركعات حتى يخفق قلبه بالتيقن منها، فيعود إلى ربيبه زيد بن أرقم ﷺ يخبره بذلك، وقد ملأت الفرحة جوانحه، وفي معان إذ استكثر المسلمون جند الروم، شجعهم على المضي قائلاً بلسان المؤمن الواثق بعقيدته والمتيقن من نصر ربه: «إِنَّا لَا نَقَاتِلُ النَّاسَ بِكَثْرَةِ عَدَدٍ وَلَكِنْ نَقَاتِلُهُمْ بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ، وَفِي أَتُونُ مُؤْتَةَ، وَالْحَرْبُ تَضْرُسُ الْأَبْطَالُ، يَزْهَدُ فِي الطَّعَامِ الزَّهِيدُ يَقِيمُ بِهِ صُلْبُهُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَاقَ مِنْ قَبْلِ زَادًا مِنْذُ لَيَالٍ ثَلَاثَ، مُسَابِقَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَقْتَحِمُ الْغِمَرَاتِ، يَرَى فِي الدَّمِ النَّازِفِ مِنْهُ وَقَدْ خَرَقَتْهُ الرِّمَاحُ طَبِيبًا يَخْضِبُ بِهِ وَجْهَهُ شَارَةً عَلَى صَدْقِ الْإِيمَانِ، وَرَغْبَةٍ فِي لِقَاءِ اللَّهِ».

هذا هو عبد الله رضي الله عنه وأرضاه، فما باله يسبقه إلى الجنة صاحبه؟! أحقيقة أنه تردد لما تسلم الراية عن خوض المعركة؟! وكيف يتردد - إن تردد - وله كل هذه الفضائل المسماة، وقد دعا له بالثبات في القتال رسول الله ﷺ؟! أكانت تلك الشائعة عن حديث تُسبب إلى رسول الله ﷺ، أو كان هذا الحديث صحيحاً؟ أم عن أراجازه التي كان يحض بها نفسه على القتال؟!

(١) ابن كثير، السيرة النبوية ٣/ ٤٨٧. وقد روى هذه الأثر الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ﷺ إِذَا لَقِيَ الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقُولُ: تَعَالَي تَوْفِيقُ رَبِّنَا سَاعَةً، فَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِرَجُلٍ، فَغَضِبَ الرَّجُلُ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَا تَرَى إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ يُرْعَبُ عَنْ إِيَابِنَاكَ إِلَى إِيَابِنَا سَاعَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ رَوَاحَةَ! إِنَّهُ يُحِبُّ الْمَجَالِسَ الَّتِي تُبَاهَى بِهَا الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ». مسند أحمد ٢١/ ٣٠٩ رقم ١٣٧٩٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف، عبارة بن زاذان وزيد بن عبد الله النميري متكلم فيهما وقد تفردا بهذا الحديث بهذه السياقة ولم يتابعهما عليه أحد. وقال الهيثمي: إسناده حسن. مجمع الزوائد ١٠/ ٧٥ في الأذكار (١٦٧٦٥).

أما الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ في هذا الشأن، فيعلق عليه الشيخ ناصر الدين الألباني، عالم الحديث في بلاد الشام، بقوله: «رواه (ابن اسحق) بلاغاً، كما في سيرة ابن هشام (١/١٥٨-١٥٩) وغيرها، فهو ضعيف الإسناد». [الغزالي، فقه السيرة ص ٢٩٩].

وإذا كان الأمر كذلك، فلعل شائعة التردد، سببها أراجيزه التي خاطب بها نفسه لَمَّا استلم الراية من بعد جعفر رضي الله عنه يحثها على النزال من مثل قوله:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ لَتَنْزِلَنَّ طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرِهَنَّ
مَا لِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّثَّةَ

وقوله:

يَا نَفْسُ إِيَّا تَقْتُلِي مَكُونِي هَذَا جِهَادُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَّيْتَ
وَمَا تَمَكَّنْتَ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ

وقد يكون هذا الاستنزال حثاً للنفس على القتال ابتداءً لا عن تردد أو نكوص، وهذا من عادة الفرسان في حومات النضال، كما ورد على لسان قطري بن الفجاءة زعيم الأزارقة من الخوارج، وهو من أشجع الأبطال، وأبلاهم في المعارك:

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاً مِّنَ الْأَبْطَالِ وَنَحَكَ لَنْ تُرَاعِي ^(١)
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَمْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا تَبَلُّ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلَا تُؤَبِّبُ الْبَقَاءَ بِشَوْبِ عِزٍّ فَيُطَوَّى عَنْ أَخِي الْخَنْعِ الْبِرَاعِ ^(٢)
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ فَدَاعِيَهُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُعْتَبِطُ بِسَأَمٍ وَيَهْرَمَ وَتُسَلِّمُهُ الْمُنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ ^(٣)
وَمَا لِلْمَرءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَنَاعِ

[وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/ ٩٤].

فهو دعوة لها إلى الاستبسال في ساحات القتال في وقت قد تُحْدِثُ هذه النفس صاحبها بالخلود إلى الراحة، وترك العراك، والنفس من شأنها أمانة بالسوء في أي جسم كانت، ولكن القلب هو الميزان، فقد يستجيب لأوامرها وقد يخيبها، ولا يكون ذلك إلا بفضل الله ورحمته.

(١) شعاعاً: فرقاً من لقاء الأبطال. تراعي: تخافي.

(٢) أخو الخنع: الذليل. البراع هنا: الجبان.

(٣) يعتبط: يُقتل شاباً. المنون: الموت.

فهذا يوسف عليه السلام وهو نبي مرسل استعان بالله على نفسه من إغواء نسوة مصر فقال: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف].

وأخلص من هذا إلى القول بأن الضعف المنسوب إلى عبد الله عليه السلام عن ترده في نزول المعركة، غير مقطوع به؛ لضعف الحديث من ناحية، ولكون هذا الاستئزال عادة من عادات المقاتلين، بل تذكيراً وتشجيعاً، وهي التي قد تتأقل عن ركوب المخاطر أحياناً.

ولكنني لا أريد أن أنتهي من هذه النقطة، قبل أن أشير إلى ما فيها من حكمة يجب التقاطها، وهي أن التردد مُحبط للعمل من ناحية، وقاتل للشخصية من ناحية أخرى؛ لأنه قد يدل على تشكك في صحة الأمر المطلوب إنفاذه؛ ولهذا اشترط الله سبحانه لتمام الإيمان أن لا يُلبس بظلم، أو يدخله ارتياب، حيث قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُسْتَدُونَ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات]؛ ولذا فعلى المسلم وهو ينهض لعمل من الأعمال المشروعة أن تكون نيته فيه خالصة لله من جهة، وأن يتكل عليه وحده في انجازه من جهة أخرى، وأن يكون إيمانه بصحته راسخاً رسوخ الرواسي لا تشوبه أدنى شائبة من تردد أو ارتياب من جهة ثالثة.

ورحم الله عبد الله بن رواحة: مبايعاً وفياً، ومؤمناً ثابتاً، وجندياً مخلصاً، وقائداً باسلاً، شهد المواطن كلها مع رسول الله عليه السلام، فأبلى فيها أحسن البلاء، حتى استشهد بمؤتة على خير حال». [تجربة مؤتة للعتوم ٢٦٤-٢٦٧].

١٥ - احذر نفسك ولا تتبعها هواها:

يقول د/ أبو فارس: «النفس الإنسانية تميل إلى الدعة والراحة والتخفف من الأعباء، وتكره القتال؛ لأن فيه تعرضاً لها للهلاك قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]؛ ولذلك قد تسول النفس لصاحبها في الشدائد والظروف الحالكة بالتراجع والهروب من نزال العدو في ساحة الوغى، فعليه أن يكبح جماحها، وأن يتمرد عليها، وأن يرغمها على ركوب ما تكره من الأهوال.

وفي موقف الصحابي الجليل والقائد الفذ عبد الله بن رواحة الأنصاري عليه السلام درس لكل مسلم، كيف تصدى لهذا الوسواس وألزم نفسه الثبات والتصدي لقتال العدو، ولم يتبع نفسه هواها حينما ترددت في حمل الراية، فكانت الشهادة وكان النعيم المقيم». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٧].

١٦ - استشهاد القادة الثلاثة ﷺ :

يقول د/ الغضبان: «قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «ثُمَّ التَقَى النَّاسُ وَاقْتُلُوا، فَقَاتَلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ بِرَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى شَاطَ (شاط الرجل إذ سال دمه فمات) فِي رِمَاحِ الْقَوْمِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٨].

إن زيد بن حارثة ﷺ حُبُّ رسول الله ﷺ، وأكبر قواده، والذي قاد تسعة معارك قبل مؤتة، ولم يُعرف في تاريخ الصحابة من أُوكل له مثل هذه الإمرة غيره، وها هو الآن بين يدي مائتي ألف من الروم والعرب يحمل الراية المحمدية، ويقاثل بيد، ويحمل الراية في يد، وليس بين أيدينا شيء عن هذا القتال، فكل ما ذُكر عنه أنه شاط في رماح القوم، إنه بمثابة ابن المصطفى ﷺ، يسقط شهيداً في أرض الشام وبيارك ترى مؤتة بدمه الزكي.

ثم جاء دور جعفر بن أبي طالب ﷺ، شبيه رسول الله ﷺ خُلُقًا وَخُلُقًا، وهو الذي لم يخض معركة قط، ومع هذا فهو يقاتل ببساطة منقطعة النظر، وهو يقاتل على فرسه، لم يشنه مقتل أخيه زيد ﷺ أو يلن من قناته، ورأى أن القتال على الفرس لا يشفي صدره، ولا يروي غليله، وإذا ترك فرسه، فقد يأخذها عدوه ويقاثل عليها، إنه وهو يتقبل الطعنات في صدره وظهره مشغول عنها مشغول بالوسيلة التي يلتحم فيها مع العدو أكثر، والتمعت الفكرة في ذهنه، وسرعان ما نفذها، اقتحم عن فرسه، وعقر فرسه حتى لا يستفيد منها العدو، فيصبح الهدف الرئيس لأبطال الروم والعرب، يريدون أن يجهزوا عليه لتسقط الراية، ويتفرق المسلمون، وهو ماض في شوق عارم إلى الجنة، لا يكاد يصدق متى يرى أجله فيرى عرس أمانيه، ضربات السيف وطعنات الرماح لا تكاد ترتفع الأولى إلا والثانية تنقض عليه بجوارها، وهو يقاتل ويزود عن الراية، ويزغد:

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَائِهَا طَيِّبَةً وَبَارِدًا شَرَابِهَا
وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابِهَا كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابِهَا

عَلَيَّ إِذْ لَا قِيَّتُهَا ضَرَابِهَا

إنه واثق بقدر الله - ولو كانت الأسنة والسيوف تحتوشه من كل جانب - بأن الروم قد دنا عذابها، كما دنت الجنة إليه فصارت قاب قوسين أو أدنى، فما هو إلا أن يسلم الروح، لكن عليه قبل أن يُسلمها أن يحيا كل لحظة في سبيل الله، فهو حامل راية الإسلام في قلب بلاد الكفر، فقطعت يمينه، فتناول الراية بشماله ليحافظ عليها، ولا يضره الرماح التي تغرز في صدره والسيوف التي تنهش في جسده، هذا لا يعنيه بمقدار ما يعنيه أن يحافظ على راية حبه محمد ﷺ الذي ائتمنه عليها، فهذا هو مفهوم الإمرة في الإسلام،

ليست الإمرة الأريكة الوثيرة، والقصر المنيف والخدم والحشم، فالإمرة عند رسول الله ﷺ تعني إمرة التسابق إلى الموت والقيادة إلى الجنة، وتقطع يده الثانية والدم يشخب من كل جزء من جسده، فهل يُسقط الراية؟ أبداً، فينقلها إلى عضديه، ويُسلم جسده ساحة رمي وطعن يتسلل بها العدو، فالذي يعنيه هو أن يحتضن الراية لآخر قطرة من دمه، ولآخر لحظة من روحه،، ويكاد يُجِن العدو من هذا الأمير الذي اقتحم عن فرسه ليرمي نفسه في أتون الخطر، ويشارك عشرات الأبطال في الثأر من هذا الرمز الخالد حتى يسقط مضرّجاً بدمه وقد أوفى الذمة ورعى العهد، وكما تقول بعض الروايات: إن الحقد عليه بلغ أن شقّ نصفين وهو يضرب ويطعن حتى بعد استشهاده، وتصبح جثته بين الأرجل المشابكة، فيسرع المسلمون إلى أميرهم المفدى، شبيه رسول الله ﷺ، يأخذون جثته بعيداً عن ساحة المعركة وملحمة الموت، ولا ينسى عبد الله بن عمر ؓ أن ينقل إلى أجيال التاريخ كلها صورة هذا البطل، فيأتي ليعد الطعن والرمي في جسده، ويقول كلمته التي حفظها وعاء الزمن فنقلها لنا عنه نافع أن ابن عمر أخبره: أنه وقف على جعفر ؓ وهو قتل (فَعَدَدْتُ بِهِ خَمْسِينَ بَيْنَ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ، لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ فِي دُبُرِهِ، يَعْنِي فِي ظَهْرِهِ).

ولم يكتف ابن عمر ؓ بذلك، وخشي أن يسائله التاريخ عن إتمام شهادته، فمضى إلى ظهره يعد طعنات العدو فيه وهو بين طعن القنا وحقق البنود، فيتمم لنا شهادته قائلاً: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْعَزْوَةِ، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ؓ، فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلِ، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بَضْعًا وَتَسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمِيَّةٍ. [البخاري في المغازي (٤٢٦١)].

ويرز الأمير الثالث عبد الله بن رواحة ؓ، الذي كان يتغنى بالموت في سبيل الله إلى ساحة الموت، ويأخذ الراية، وهذه هي سدة الإمارة التي يعتليها، إنها نجيع أحمر زكي طاهر، جرح يتفجر، ويد تقطع، ورأس يُجَز، وهذا هو أوان الطعنة التي حلم بها في المدينة:

أَوْ طَعْنَةً بِيَدِي حَرَّانَ مُجْهِزَةً وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْعٍ تَقْذِفُ الزَّبْدَا

فله الآن أكبر من أحلامه بكثير، له طعنات وضربات تتناوب سراعاً فلا يكاد يقدر على عدهن.

إن الكفر كله قد برز للإيمان كله، ولن تُحل القضية بطعنة واحدة وانتهى الأمر، أو بضربة واحدة وانتهى الأمر، قد يكون هذا لغير الأمير، أما أمير القوم، أما حامل الراية فهو الهدف من الأبطال جميعاً؛ لأن إسقاط الراية يعني إنهاء المعركة.

والحديث عن الموت شيء، ومعانيته شيء آخر، كما قال الله تعالى للمؤمنين في أحد: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ أَلْمُوتَ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ (آل عمران).

وها هو يقدم على فرسه، ويرى الموت الزؤام في منظره الرعيب أمامه، فتحجم به فرسه، فيطلق لها العنان دون أن يجبرها على الاقتحام، ويحتد الصراع في داخله بين نداء الجنة تهتف به، والحوار العين

يدعونه، وبين الحياة وطعمها ولذتها تدعوه أن يحجم، وهو الشاعر المبدع، فيحاور ذلك النداء من أعماقه الذي يدعوه إلى البقاء حرصاً على الحياة قائلاً:

أَفَسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهُ لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتَكْرَهِنَّهُ
إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّثَّةَ مَالِي أَرَاكَ تَكْرَهِيَنَّ الْجَنَّةَ

إنه يخرج عن ذاته ويتحدث عن نفسه بموضوعية كاملة، ويتهمها بالكذب، فكيف تدعي من قبل حب الجنة، وهي اليوم تكرهها وتخافها، إن خوف الموت هو خوف عقابه، وإن كراهية الموت الذي فطر الله النفس عليها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

ومن أنت أيتها النفس؟

قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّةٍ

وهو يُقسم عليها أن تنزل للنزال والصراع والموت، ويقاقل، ويستمر أوار المعركة، وهو في قلبها. ترى هل كان مخطئاً يوم دفع الجيش كله للشهادة في سبيل الله، وقال لهم: (وَاللَّهِ إِنَّ النَّبِيَّ تَكْرَهُونَ، لَلَّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ الشَّهَادَةَ)، وعليه الآن وهو القائد المسؤول عن أرواح إخوانه جميعاً أن يُجنب الجيش الإسلامي مصرعه على يد العدو.

هل هذا هو الحل الأمثل، لكن رفيقي دربه قد استشهدا أمامه، فلن يكون هو صاحب الرأي الأصوب، إنه يعلم أنها حيلة بارعة من نفسه عليه لتهرب من الموت، فسد عليها المهرب قائلاً:

يَا نَفْسُ إِلَّا تَقْتُلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيَتْ
وَمَا تَمْنَيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فَعَلَهُمَا هُدَيْتِ

فقد حسم الأمر معها، وأعلمها أن طريقة سلفيه زيد وجعفر عليه السلام هي الحل الأمثل وهو القتل في سبيل الله، فالهداية في اتباع أمرهما، والشقاوة في الإعراض عن سبيلهما، وهذه هي الشهادة قد سيقنت له وما تمنيت فقد أعطيت.

وبينا كان يأخذ عِرْقاً من لحم يشد به صلبه سمع صوتاً فسأل عنه، ف قيل له: صوت الحطمة، ارتطام السيوف ببعضها، فقال: وأنت في الدنيا، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل، وصدق ما عاهد الله عليه، فقد كان أحد النقباء الاثني عشر الذين بايعوا يوم العقبة، ونفذ المقولة المشهورة: فما لنا يارسول الله، إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقبل ولا نستقبل.

لقد كان هؤلاء الأمراء الثلاثة من الرعيل الأول الذي تلقى التربية النبوية منذ فجر الإسلام، وتقدّم أمام الجيش الإسلامي نحو الموت ببسالة منقطعة النظير، لكن استشهاد القادة الثلاثة وسقوط الراية من يد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه تعني نهاية المعركة.

(ووقع اللواء من يده فاختلط المسلمون والمشركون وانهزم بعض الناس).

وفي رواية أبي عامر عند ابن سعد: (أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لما قُتل انهزم الناس أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى لم أر اثنين جميعاً)، وكان يمكن أن يُباد الجيش كله إلا من يلوذ بالفرار، لكن الرجال الأبطال في ساعات المحن هم الذين يُغيّرون وجه التاريخ، فتقدم أحد أبناء الرعيل الأول ثابت بن أقرم البلوي رضي الله عنه حليف الأنصار من الصفوة المختارة من بدر، تقدم إلى اللواء، وهو يعلم أنه يأتي لينقذ أمة.

(ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه، ثم قال: إلي أيها الناس).

[سبل الهدى والرشاد ٦/٢٣٧].

لقد برز قائد جديد، وحمل الراية بعد ابن رواحة رضي الله عنه، وهو مَنْ هو سابقة وفضلاً، وبعد أن بلغت الهزيمة حدّاً أن لم يعد يرى أبو عامر رضي الله عنه اثنين قط مع بعضهما، إذ عاد الناس فاستجابوا للنداء: (فاجتمع إليه الناس حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد). [سبل الهدى والرشاد ٦/٢٣٧].

وفي رواية أخرى أن بدرياً أنصاريّاً آخر هو الذي سعى باللواء ودفعه إلى ثابت بن أقرم رضي الله عنه كما روى الطبراني عن أبي اليسر رضي الله عنه قال: أَنَا دَفَعْتُ الرَّايَةَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه، وَأُصِيبَ، فَدَفَعْتُهَا إِلَى ثَابِتِ بْنِ أَقْرَمِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، فَدَفَعَهَا إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه.

هذان البدریان ومعهما آخر الشهداء عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لا تزال روح بدر تسري في دمائهم، وهم يحضون الناس على الصبر والثبات والجهاد، فأبو اليسر رضي الله عنه هو الذي أسر العباس رضي الله عنه، وقال له رسول الله ﷺ: أعانك عليه ملك كريم، وأبو اليسر رضي الله عنه قصير القامة، لكن عزمه عزم الأسود.

وثابت بن أقرم رضي الله عنه هو الذي نظر إلى أبي هريرة رضي الله عنه وهو يردد من الخوف أمام هذه المئات من الآلاف فقال له: (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا لَكَ؟ كَأَنَّكَ تَرَى جُوعًا كَثِيرَةً؟) قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: تَشْهَدُنَا بِبَدْرٍ؟ إِنَّا لَمْ نُنْصَرْ بِالْكَثْرَةِ!، ولكن ثبات ثابت رضي الله عنه وبطولته لا يغني هذا أكثر من أن يقتل الجيش كله مُقبلاً غير مُدبر، والأمر يحتاج إلى قائد عسكري فذ، يضع الخطة المناسبة لإنقاذ الجيش، ويُغيّر الواقع الأليم الذي كاد يقضي عليه.

كان هناك عين ترنو إلى هذه الراية، عين مسلم لم يمر على إسلامه أربعة أشهر بعد، لكنه غارق في همومه، فهو يقاتل ببسالة يود أن يمسح صفحة عمره التي أمضاها في الصد عن سبيل الله، وهو يعلم أن

الإسلام يُحِبُّ ما قبله، لكن يود أن يبدأ صفحة ناصعة مجلية في الجهاد في سبيل الله، وهذه أول أيامه فيها، هذه أول معركة يخوضها في سبيل الله بعد إسلامه، وهي من أعنف المعارك وأشدّها هولاً مع أعداء من العرب والروم لم تشهد أمة العرب مثيلاً لها من قبل، وهو سعيد أنه يقاتل بصمت بعيداً عن الأنظار، وسعيد كذلك أن رأى ثابت بن أقرم رضي الله عنه يحمل الراية من جديد، ويجدد العزيمة، ويعيد الانضباط إلى الجيش بعد أن تبعثر حتى لم يعد اثنين مع بعضهما، إنه سعيد بهذه المبادرة، وعاد إلى ذاكرته يوم أُحْد الذي كان شبيهاً بهذا اليوم، حيث كان فاراً مع جيشه حين التَفَّتْ فرأى جبل الرماة قد فرغ من الحماة، وتذكّر يوم سقطت راية قريش، فرفعها علقمة الحارثية ليتجمع الناس حولها من جديد، بعد أن فَرَّ الناس وأصبح النساء رهن الأسر لا يوجد دون أخذهن قليل ولا كثير، وتذكّر كيف التف حول الجيش المسلم من ظهره، وأوقع به ضربته الهائلة، وغيرَ مصير المعركة.

لكنه يكاد يَشْرُق من الألم، أهنأك كانت البطولة في قتال محمد وصحبه الذين يقاتل اليوم معهم تحت راية الإسلام، ثم يعيد نظره بالقائد الجديد، وماهي إلا لحظات حتى يرى الراية تندفع إليه مع صوت صارخ: خذها يا خالد، كانت مفاجأة صاعقة، إنه آخر الركب إسلاماً، أهنكذا يستلم اللواء، فيصبح بمصاف زيد وجعفر وابن رواحة رضي الله عنهم، قال: لا آخذه منك أنت أحق به.

قال الأنصاري: ما أخذته إلا لك.

وكرر خالد: أنت أفضل مني.

قال ثابت: أنت أعلم بالقتال مني.

وارتفعت صيحات من كل جانب: خذها يا خالد، خذها يا خالد.

واصطالح الناس على خالد بن الوليد رضي الله عنه.

هنكذا وصّاهم رسول الله ﷺ إذا قُتِلَ الأمراء الثلاثة فليصطلحوا على رجل منهم، والجميع يشهدون بكفاءة خالد رضي الله عنه العالية في القتال، وهو الذي أذاقهم من قبل مرارة المحنة، وهو اليوم أحدهم، فلتكن الراية له، وهكذا وجد نفسه في لحظة مسؤولاً عن الإسلام كله، وعن جيش الإسلام في هذه الأرض النائية في أرض الشام، وأمام جحافل الشرك من العرب والروم.

وانتهى وقت الأخذ والرد، والأمر أمر لحظات حاسمة تغير مجرى التاريخ، والمطلوب منه اليوم أن يغيّر هذا المجرى مجرى ألف عام وأكثر، والعرب على قتال الروم، تأتي جيوشهم أو جيوش الفرس لتُنْصَرَ قبيلة على أخرى، وتحكم أرضاً وتقيم دولة، والعرب الغساسنة عملاء وأجراء الروم بلباس الملوك يصارعون اللخمين المناذرة عملاء وأجراء الفرس بثياب الملوك، والمطلوب من خالد رضي الله عنه اليوم أن يغيّر مجرى التاريخ كله، بهذا اللواء الذي حمّله لواء الإسلام.

وكان خالد رضي الله عنه أهلاً لذلك كله، هذه الطاقات الكامنة التي جاء دور تفجير عبقريتها في مواجهة العدو.

وكانت عين الله ترى هذا القائد الجديد، وكان قلب رسول الله ﷺ على أحر من الجمر، يود أن يسمع أخبار هذه المعركة الضخمة الفاصلة، فأكبر جيش إسلامي قبل اليوم كان ألفي شخص، والمسلمون اليوم في الصراع مع الروم أربعة آلاف من الروافد الجديدة للإسلام.

واقترب الليل وهدأ الجو، وتفرغ خالد بن الوليد رضي الله عنه لوضع خطة الهجوم المعاكسة بعد أن صبر وثبت أمام عنف الهجوم الكافر، وعلى قول عطف بن خالد: (لَمَّا قُتِلَ ابْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه مَسَاءً بَاتَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رضي الله عنه، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا، وَقَدْ جَعَلَ مُقَدِّمَتَهُ سَاقَتَهُ، وَسَاقَتَهُ مُقَدِّمَتَهُ، وَمَيْمَنَتَهُ مَيْسَرَتَهُ، وَمَيْسَرَتَهُ مَيْمَنَتَهُ، فَأَنْكَرُوا مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ رَأْيَانِهِمْ وَهَيَأَتِهِمْ، وَقَالُوا: قَدْ جَاءَهُمْ مَدَدٌ! فَرَعَبُوا، فَأَنْكَشَفُوا مُنْهَزِمِينَ، فَقَتَلُوا مَقْتَلَةً لَمْ يُقْتَلْهَا قَوْمٌ).

لقد كانت هذه هي الخطوة الأولى لتغيير مسار المعركة، وحققت الخطة أهدافها مباشرة، لكن استغلال الظروف ذو أهمية بالغة، فقد رافق هذا التغيير قتال على أعلى مستوى من الكفاءة قاده الأمير الجديد خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقد أبرز عبقريته التخطيطية وكفاءته التنفيذية، حدثنا عنها بقوله: لَقَدْ انْقَطَعَتْ [دُقٌّ] فِي يَدَيَّ يَوْمَ مُؤْتَةِ تِسْعَةِ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ [وَصَبْرَتْ] فِي يَدَيَّ إِلَّا صَفِيحَةٌ بَيَانِيَّةٌ. [البخاري في المغازي (٤٢٦٥، ٤٢٦٦)]. وماذا كان يفعل في هذه الأسياف التي تُقطع في يده، كم قُطَّ فيها من الرقاب، وكم بتر فيها من السواعد والأرجل، وكم طعن فيها من الصدور والأجساد؟ والرواية للبخاري.

وكما يقول ابن كثير: (فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن).

فهو قتال ضار عبَّرَ عنه القَرَّاب في تاريخه عن برذع بن زيد قال: اقتتل المسلمون مع المشركين سبعة أيام، فمهما فر من العدو، فالعدو عدده يملأ السهل والجبل.

وكانت الخطوة الجبارة الثانية، هي خطة قتل قائد المشركين.

فقد قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَقَدْ كَانَ قُطْبَةُ بْنُ قَتَادَةَ الْعُذْرِيُّ رضي الله عنه الَّذِي كَانَ عَلَى مَيْمَنَةِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ حَمَلَ عَلَى مَالِكِ بْنِ زَافَلَةَ - وَهُوَ أَمِيرُ أَعْرَابِ النَّصَارَى - فَقَتَلَهُ، فَقَالَ قُطْبَةُ بْنُ قَتَادَةَ رضي الله عنه:

طَعَنْتُ ابْنَ زَافَلَةَ بْنَ الْإِرَا	شِ بِرُمَحٍ مَضَى فِيهِ ثُمَّ انْحَطَمَ
ضَرَبْتُ عَلَى جِيدِهِ ضَرْبَةً	فَمَا لَ كَمَا مَالَ عُضْنُ السَّلَمِ
وَسُقْنَا نِسَاءً بَنِي عَمِّهِ	عَدَاةَ رُقُوقِينَ سَوَاقِ النَّعَمِ

وكما فعل مقتل ابن رواحة رضي الله عنه في الصف الإسلامي، حيث لم يبق اثنان مع بعضهما، كذلك فعل مقتل قائد جيش العدو مالك بن زافلة، فهزموا شر هزيمة قط، وانتهت الهزيمة بأن ساقوا نساء بني عمه سبائاً إلى المدينة، وكما في رواية موسى بن عقبة في سند رجاله ثقات في قوله: (فرعوا وانكشفوا منهزمين، قال: فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم)، وفي رواية أبي عامر عند ابن سعد (أن خالدًا لما حمل اللواء حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيها قط حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شأوا) [الإصابة في تمييز الصحابة كما أخرجه أبو زرعة الدمشقي ١/ ٩٩]. [التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٤٨-١٥٥].

١٧ - الوقوف على أروع البطولات لأمرء مؤتة للاقتداء بهم:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر صور من الشجاعة والبطولة، فقد غامر القائد الأول زيد بن حارثة بنفسه حتى هلك بين رماح الأعداء بعدما بذل جهداً كبيراً في جهادهم. وأظهر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه شجاعة فائقة حينما عقر فرسه تحدياً للأعداء، وإيداناً بالثبات أمامهم مهما تكن الظروف والأحوال.

وفي شدوه بالجنة ونعيمها في شعره دليل على تمثل مشاهد الحياة الآخرة في أذهان ذلكم الجيل الرباني، وكونه ربط ذلك بتهديد الكفار عند اللقاء بالتصميم على القتال شاهد على أثر الإيمان بالآخرة في سلوك هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم في السلم والحرب، فإن الذي يندفع إلى إزهاق نفسه من أجل الظفر بنعيم الجنة سيدفع ما هو أهون من ذلك من أجلها.

ولقد وردت أحاديث تدل على قوة احتمال جعفر رضي الله عنه وصبره على القتال، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤَتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رضي الله عنه، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلِ، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بَضْعًا وَتَسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمِيَةٍ. [البخاري في المغازي (٤٢٦)].

فأي قوة كان يتمتع بها هذا الصحابي الجليل؟ وما هذا الصبر الحديدي الذي تغلب به على آلام أكثر من تسعين جرحاً في جسده قبل أن ينحر صريعاً؟ وإذا كانت هذه السهام هي التي أصابته فكم هي السهام التي اتقاها أو طاشت عنه؟!

لا شك أنه مثل رائع لعظماء الرجال، وأنه بصبره العظيم قد جعل من نفسه قدوة عالية لأفراد جيشه. وإنني لأعجب من جعفر رضي الله عنه وقوة احتماله ومقدرته على خوض مثل هذه المعركة العنيفة مع أنه قضى أكثر من عشرة أعوام في الحبشة في حياة هادئة، وقبل ذلك عاش في مكة ولم يكن فيها قتال، ثم يتحمل تسعين إصابة قبل أن ينحر صريعاً مع جهد القتال!

ولكن إذا تذكرنا أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يُكثرون من الصلاة وخاصة صلاة الليل علمنا أن الصلاة تمنحهم قسطاً كبيراً من الرياضة البدنية، إلى جانب اهتمامهم بالرمية وركوب الخيل وغير ذلك من فنون القتال.

أما القائد الثالث وهو عبد الله بن رواحة رضي الله عنه فإنه أخذ الراية وتقدم بها، وقد جاء في الرواية أنه جعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد.

إنه حينما تردد بعض الشيء وألح على نفسه لتُقدم على تحمل القيادة لم يكن قبل ذلك بمعزل عن القتال، بل كان يقاتل كجندي من المسلمين، فلما آلت إليه مسؤولية قيادة هذا الجيش وهو يصارع الأهوال حصل منه ما حصل من بعض التردد، خصوصاً وأن القائد الذي يحمل الراية يكون مستهدفاً من قبل الأعداء، وتُرَكِّز عليه الهجمات القوية، وإنَّ تردده هذا وإن كان سيراً مع استعداداته للشهادة وتمنيهِ إياها منذ أن كان في المدينة وحثه أصحابه على دخول هذه المعركة ليدلنا على ضراوة هذه المعركة وشدة وطئها على المسلمين لضآلة عددهم إلى جانب عدد الأعداء.

وإن في هذه الأبيات الشعرية التي صدرت من هذا الصحابي الجليل قبيل استشهاده لبرة عظيمة ومثلاً عالياً في محاسبة النفس وتعنيفها على التكاثر والتخاذل عن الوصول إلى معالي الأمور، فهو يقسم على نفسه أن تنزل طائعة أو مكرهة إلى ساحة المعترك الدامي، ويُذَكِّرُها بأن التردد في ذلك يعتبر عزوفاً عن طلب الجنة، كما يُذَكِّرُها بماضيها المطمئن حيث عاشت طويلاً في دعة وسكينة فها عليها لو صبرت لحظات في مواجهة الأهوال التي يعقبها السعادة الدائمة، ولا ينسى تذكيرها بأنها لم تكن شيئاً مذكوراً في بداية خلقها.

ثم يعود في البيتين الأخيرين إلى تذكير نفسه بأنها لا مفر لها من الموت، فليكن الموت بالشهادة التي طالما تمنّاها قبل ذلك، إلى أن أقدم رضي الله عنه فقال ما تمنى من ذلك». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١١٩-١٢٢].

ويقول أ/ فتح الباب: «لقد ضرب هؤلاء القادة الشهداء الثلاثة المثل العليا في الاستشهاد من أجل تحقيق الخير والحرية والسعادة للإنسان، وإن المرء ليقف وقفة الإجلال والتقديس حيال هذه البطولات الخارقة التي ترتفع بسمو الغرض وروعة الفداء فوق الطاقة البشرية لا يشوبها شائبة من ضعف أو تردد، ولا تسبى لبها مسرات العيش أو أطايبه، حتى هذه الهنات التي بدرت من القائد الشهيد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إذ تردد بعض التردد قبل اقتحام الموقعة لم تسلم من النقد، وقد كان النقد أسلوباً للعمل انتهجه الرسول ﷺ وعلمه خلفائه وللمسلمين عامة فاتبعوه من بعده تداركاً للأخطاء، وقضاء على الانحرافات من جذورها، فحين علم النبي ﷺ باستشهاد القادة الثلاثة كان على زيد وجعفر أكبر أسى وقال: «لَقَدْ

رَفَعُوا إِلَيَّ فِي الْحَجَّةِ، فِيمَا بَرَى النَّائِمُ، عَلَى سُرُرٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَرَأَيْتُ فِي سَرِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ أَرْوَارًا عَنْ سَرِيرِي صَاحِبِيهِ، فَقُلْتُ: عَمَّ هَذَا؟ [بِمَ هَذَا؟]، فَقِيلَ لِي: مَضِيًّا، وَتَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ بَعْضَ التَّرَدُّدِ ثُمَّ مَضَى.

[جمع الزوائد في المغازي والسير ٢٣٤-٢٣٥ رقم ١٠٢٢١، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [في الجزء المفقود]، ورجاله ثقات. السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٨٠].

والحكمة التي توخاها الرسول ﷺ في إعلام صحابته بهذه الرؤيا هي الحث على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، والنهي عن الخوف والتردد في أخرج المواقف وأشد الأزمات، فالإبقاء على الحياة في هوان وذل إهدار لقيمتها وتحقير لصاحبها، والحياة زائلة، ومن ثم فإن الخوف من الموت هو شر من الموت نفسه؛ ولهذا استقرت هذه التعاليم الإسلامية في نفوس المسلمين عبر الأجيال المتعاقبة، وتمثلتها أفئدتهم فانعكست على سلوكهم، وتغنى بها الشعراء، كما أشاد بها الكتاب والحكماء، ومن ذلك قول شاعر العربية أبو الطيب المتنبي:

وَمُرَادُ النَّفُوسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ	تَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ تَتَفَانَى
غَيْرَ أَنَّ الْفَتَى يُلَاقِي الْمَنَايَا	كَالْحَاتٍ وَلَا يُلَاقِي الْهُوَانَا
وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيٍّ	لَعَدَدْنَا أَضَلَّنَا الشُّجْعَانَا
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ	فَمَنْ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا
كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَنِّ	نَفْسٍ سَهْلٍ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٦٠-١٦١].

١٨ - فضل أمراء معركة مؤتة الثلاثة رحمهم الله:

يقول أ/ باشمیل: «لقد كان الأمراء الذين استشهدوا في معركة مؤتة من أبرز وأشرف وجوه أصحاب الرسول ﷺ، اثنان منهم من المهاجرين، وهما جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة وواحد من الأنصار وهو عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وكلهم من السابقين الأولين في الإسلام. أما زيد بن حارثة رضي الله عنه فقد كان يُسمى (حبُّ رسول الله ﷺ) ويكفيه فضلاً وفخراً أنه نشأ وتلقى تربيته منذ الطفولة في أحضان النبوة، حيث كان مولى لرسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله، وعندما بعثه بالرسالة كان من أول الذين آمنوا به.

وكان زيد رضي الله عنه محارباً ممتازاً لذلك تولى قيادة عدة سرايا محاربة المشركين داخل الجزيرة.

أما جعفر رضي الله عنه فقد ذكرنا تاريخه ونبذة عن حياته بشيء من الإسهاب كما تقدم، إلا أن جعفر رضي الله عنه، لم يتمكن من أن يشارك في شرف النضال الحربي ضد المشركين؛ لكونه غائباً فيما وراء البحار أميراً على المهاجرين يرعى شؤونهم في الحبشة منذ أوائل ظهور الإسلام حتى معركة خيبر؛ ولهذا فإن معركة مؤتة التي استشهد فيها هي أول عمل حربي يشارك فيه.

أما عبد الله بن رواحة رضي الله عنه فقد كان من سادات الأنصار (الخزرج)، وكان من السابقين الأولين في الإسلام، شهد بيعة العقبة التاريخية، وكان فيها أحد النقباء الأنصار الاثني عشر الذين انتخبهم قومهم ليتعهدوا باسمهم لرسول الله ﷺ بتنفيذ ما جاء في اتفاقية بيعة العقبة، وكان شاعرًا من فحول الشعراء المشهورين، وهو كزيميله (زيد وجعفر) من المقطوع لهم بدخول الجنة». [غزوة مؤتة لباشميل ٢١٦-٢١٧].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد أعطى أمراء الجيش للأجيال المسلمة عبر العصور المختلفة دروسًا في الصبر والشجاعة والثبات والإقدام والتضحية والبذل والفداء.

فزيد بن حارثة رضي الله عنه لم تلن له قناة ولم تن له عزيمة، ولقد أحاط به جنود الأعداء من كل جانب بل ثبت كالطور الأشم يجالدهم بسيفه ويطاعنهم برمحهم حتى مزقت رماحهم جسده وتفجر دمه يسيل على رماحهم.

وأما جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فيحمل اللواء بيمينه فتضرب وتبتر فيتحامل على آلامه ويتناول اللواء بشماله فتقطع، فيجعل اللواء بين عضيه حتى يمزق جسده، ويجد المسلمون في جسده تسعين إصابة ليس من بينها إصابة واحدة في ظهره بل كلها مواجهة.

وأما عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه فلم يتراجع وقد رأى بألم عينه ما حدث لأخويه في الإمارة فتقدم يقاتل حتى استشهد». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٤-٦٥].

ويقول د/ الغضبان: «ولا نستطيع ونحن نتحدث عن مؤتة إلا الوقوف عند أبطالها الكبار.

فلقد كان زيد رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ومن أخص خاصته، فلقد كان حب رسول الله ﷺ له حبًا مشهورًا عند الصحابة جميعًا فيطلقون على ابنه أسامة الحب ابن الحب، وهو أول مولى على الأرض أشرق بقلبه بنور الإسلام، والمهمات الصعبة كانت عليه، فهو المكلف بعد بدر بإحضار أهل رسول الله ﷺ من قلب مكة، وحين يحرق الخطر في أشد أهواله، فليكن رجل المهمات الصعبة على رأسه، وحين يُقدّم رسول الله ﷺ لهذه المخاطرة أحب الناس إليه، لا يضمن الناس بمهجهم وأرواحهم بين يدي رسول الله ﷺ.

وكان الرجل الثاني... طرازًا رفيعًا من الرجال.

إنه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي شهدناه داعية إلى الله ﷻ في الحبشة، ورئيس الجالية الإسلامية فيها، وأكرمه الله تعالى أن تُسلم الملوك على يديه، فهو الذي أوضح الإسلام للنجاشي، فاعتقه، ولم نشهده إطلاقًا مقاتلاً في معركة، إنه سفير فوق العادة لفترة خمسة عشر عامًا خلت في أرض الغربة لسانًا ووطنًا ودينًا، إذا به اليوم قائد معركة.

وليس في الإسلام ذلك الخط الفاصل بين السياسي والجندي والقائد، فكل مسلم هو جندي في المعركة مهما علت مرتبته واختلفت وظيفته، ولا ننسى أنه لم يمر على انضمام جعفر رضي الله عنه للصف الإسلامي

في المدينة السنة، أو تزيد قليلاً عن ذلك، فقد وصل خيبر بعد الفتح، وكانت خيبر في ربيع الأول لسنة سبع وكانت مؤتة لجهادي الأولى سنة ثمان.

عام واحد فقط، مع رسول الله ﷺ نفسه برؤية حبيبه جعفر ﷺ، ويكفي أن نعرف مبلغ حب رسول الله ﷺ لجعفر ﷺ، بعد غربة خمسة عشر عاماً عنه، إن رؤيته له كانت تعادل هزيمة اليهود فقال ﷺ: «وَاللَّهِ مَا أَدْرِي بِأَيِّمَا أَنَا أَسْرُ: أَبِقُدُومِ جَعْفَرٍ، أَمْ بِفَتْحِ خَيْبَرَ؟!»، وعلى شدة هذا الحب، وعلى طول تلك الغربة، عندما لاحت بوارق الصدام مع الروم فكان الرجل الثاني لذلك جعفر بن أبي طالب ﷺ، وكان الدرس العملي الأضخم أن يكون المولى زيد بن حارثة ﷺ أميراً على جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي ﷺ.

وقد شهدنا جعفر ﷺ يمضي من أرض الغربة إلى أرض الغربة فيسلخ قرابة نصف عمره فيها، وحين يحين القتال، وهو لم يخض معركة من قبل قط، يبدي من ضروب البسالة والقوة والمقاومة ما تتصاغر أمامه الصناديد الأبطال، يأخذ الراية بيمينه فتقطع، ثم يأخذها بشماله فتقطع، ثم يأخذها بعضديه، ثم يسقط شهيداً وقد أفضى إلى ربه وقد انشق نصفين، فلم يجد إخوانه المؤمنون حرجاً أن ينظروا إلى عدد طعناته ورمياته فكانت تسعين ما بين ضربة سيف وطعنة رمح.

وكان لا بد لأنصار الله ورسوله من أن يشاركوا في هذا الشرف العظيم على مستوى القيادة، فكان الأمير الثالث هو شاعر الإسلام العظيم عبد الله بن رواحة ﷺ.

وأن تكون قيادة الجيش بين مولى وسفير وشاعر، ليؤكد أن طاقات الإسلام كلها في خدمة المعركة، وأن وقودها في حالة الخطر هو كل شباب الإسلام.

وحافظ ثابت بن أقرم الأنصاري ﷺ بعد عبد الله بن رواحة الأنصاري ﷺ على الراية حتى دفعها في صدر خالد بن الوليد ﷺ. [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/ ١٠١-١٠٢].

١٩ - مكانة الأمراء الثلاثة في الجنة:

عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّ أَبَا أُمَامَةَ الْبَاهِلِيَّ ﷺ حَدَّثَهُ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ، فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا هِيَ حَقٌّ فَأَعْلَمُوهَا، أَنَا بِي رَجُلٌ فَأَخَذَ بِيَدِي، فَاسْتَبْعَنِي حَتَّى أَتَى بِي جَبَلًا وَغَرًّا طَوِيلًا، فَقَالَ لِي: أَزَقُّهُ، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ، فَقَالَ: إِنِّي سَأَسْأَلُهُ لَكَ، فَجَعَلْتُ كُلَّمَا رَقِيتُ قَدَمِي وَضَعْتُهَا عَلَى دَرَجَةٍ حَتَّى اسْتَوَيْنَا عَلَى سَوَاءِ الْجَبَلِ فَاَنْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ مُشَقَّقَةٍ أَشَدَّاهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ مُسَمَّرَةٍ أَغْيَنَهُمْ وَأَآدَاهُمْ، فَقُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرَوْنَ أَعْيَنَهُمْ مَا لَا يَرَوْنَ، وَيُسْمِعُونَ آذَانَهُمْ مَا لَا يَسْمَعُونَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِنِسَاءٍ مُعَلَّقَاتٍ بِعَرَاقِيهِنَّ، مُصَوِّبَةً رُؤُوسَهُنَّ، نَنْهَسْنَ ثُدَاهُنَّ الْحَيَاتِ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَمْنَعُونَ أَوْلَادَهُنَّ مِنَ الْبَلَاغِ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ مُعَلَّقَاتٍ

بِعَرِاقِيهِنَّ مَصُوبَةً رُؤُوسُهُنَّ يَلْحَسْنَ مِنْ مَاءٍ قَلِيلٍ وَحَمًا، فَقُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُفْطِرُونَ قَبْلَ نَجَلَةِ صَوْمِهِمْ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا فَإِذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ أَفْبَحَ شَيْءٍ مَنْظَرًا، وَأَفْبَحَ لُبُوسًا، وَأَنْتَبَهَ رِيحًا كَأَنَّهَا رِيحُهُمُ الْمَرَا حِيضُ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الرَّا نُونَ وَالزُّنَاةُ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا فَإِذَا نَحْنُ بِمَوْتَى أَشَدَّ شَيْءٍ انْتِفَاحًا، وَأَنْتَبَهَ رِيحًا، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ مَوْتَى الْكُفَّارِ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا وَإِذَا نَحْنُ نَرَى دُخَانًا، وَنَسْمَعُ غَوَاءً، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذِهِ جَهَنَّمُ فَدَعَهَا، ثُمَّ انْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ يَنَامُ تَحْتَ ظِلَالِ الشَّجَرِ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: مَوْتَى الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِغِلَاقٍ، وَجَوَارٍ يَلْعَبُونَ بَيْنَ نَهْرَيْنِ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: دُرِّيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ أَحْسَنَ شَيْءٍ وَجْهًا، وَأَحْسَنَ لُبُوسًا، وَأَطْيَبَ رِيحًا كَأَنَّ وَجُوهَهُمُ الْقَرَارِطِيسُ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا فَإِذَا نَحْنُ بِثَلَاثَةِ نَفَرٍ يَشْرَبُونَ خَمْرًا لَهْمًا، وَيَتَغَنَّوْنَ، فَقُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: ذَلِكَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَجَعْفَرُ، وَابْنُ رَوَاحَةَ، فَمِلْتُ قِبَلَهُمْ، فَقَالُوا: قَدْ نَالَكَ، قَدْ نَالَكَ، قَالَ: ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: ذَاكَ أَبُوكَ إِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ]. [مجمع الزوائد ١/ ٢٤٦ رقم ٢٤٠، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير [٨/ ١٨٢-١٨٤]، برقم ٧٦٦٦، ٧٦٦٧، ومسند الشاميين ١/ ٣٢٨ رقم ٥٧٧، ١٤٧/ ٣ رقم ١٩٦٦]، ورجاله رجال الصحيح. ينظر: السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٤٩٠-٤٩١، صحيح السيرة للعلي ٣٩٦، والسيرة النبوية للصوياني ٣/ ٣٤٢].

وَعَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُوا لِي فِي الْجَنَّةِ فِي خِيَمَةٍ مِنْ دُرَّةٍ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى سَرِيرٍ، فَرَأَيْتُ زَيْدًا، وَابْنَ رَوَاحَةَ أَعْنَاقُهُمَا صُدُودًا، وَأَمَّا جَعْفَرُ، فَهُوَ مُسَقِّمٌ لَيْسَ فِيهِ صُدُودٌ، قَالَ: فَسَأَلْتُ، أَوْ قَالَ: قِيلَ لِي: إِنَّهُمَا حِينَ غَشِيَهُمَا الْمَوْتُ، كَانَتْهُمَا أَعْرَضًا، أَوْ كَانَتْهُمَا صَدًا بِوُجُوهِهِمَا، وَأَمَّا جَعْفَرُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ». قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ ابْنُ رَوَاحَةَ ﷺ:

أَفْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهُ
بَطَاعَةً مِنْكَ لِتُكْرِهَنَّه
فَطَامًا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً
جَعْفَرُ! مَا أَطْيَبَ رِيحَ الْجَنَّةِ

[مجمع الزوائد في المغازي والسير ٦/ ٢٣٥ رقم ١٠٢٢٣، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه علي بن زيد وحديثه حسن وبقية رجاله رجال الصحيح إلا أنه مرسل].

وعن بريدة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ [فَاسْتَقْبَلْتَنِي] فَرَأَيْتُ جَارِيَةً حَسَنَاءَ [شَابَةً]، فَأَعْجَبَنِي حُسْنُهَا، فَقُلْتُ: لِمَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ: لِرَزِيدِ بْنِ حَارِثَةَ».

[ذكره صاحب كنز العمال بأرقام: ٣٣٣٠٢، ٣٣٢٩٩ ونسبه إلى (الرويانى، والضياء فى المختارة، وابن عساكر)، وقال الذهبي: إسناده حسن، وصححه الشيخ الألبانى فى الصحيحة برقم: ١٨٥٩].

٢٠ - التواضع:

يقول د/ أبو فارس: «إن ثابت بن أقرم ؓ حينما استلم الراية بعد استشهاد عبد الله بن رواحة ؓ وطلب من الناس أن يختاروا أميراً عليهم، وأشار بعضهم بأن يكون ثابت الأمير، لم يقبل ذلك لا لضعف فيه، فهو الرجل المقاتل الشجاع الذي خاض مع الرسول ﷺ غزوات كثيرة وفي مقدمتها غزوة بدر الكبرى التي كتب الله لأهلها المغفرة لبلائهم الحسن في قتال عدوهم.

والتواضع يقتضي أن يقف الإنسان عنده وحده وكفائه ولا يتجاوز ذلك، ولقد رأى ثابت بن أقرم ؓ أن هناك من هو أكفأ منه وهو خالد بن الوليد ؓ فألى على نفسه أن يتقدم عليه، وفي هذا من إنكار الذات وتفضيل مصلحة المسلمين العامة على أي أمر فردي أو مجد شخصي». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٨]. ويقول د/ أبو خليل: «وهذا خلق إسلامي رفيع عظيم، أن يتنازل العالم إلى الأعلم والحسن إلى الأحسن، والجيد إلى الأجود، والتنازل هنا لتحقيق مصلحة عامة، هي فوق المآرب الشخصية، وأسمى من حظ النفس وحبها الإمارة، وهذا لا يكون إلا من رجال تعمق الإيثار في نفوسهم، وسكن الإسلام الصحيح في قلوبهم». [غزوة مؤتة لأبي خليل ١١٦].

٢١ - شجاعة ابن أقرم وابن الوليد ؓ:

يقول د/ بريك: «وثابت ؓ أبي القيادة، لا نُكُوصًا (نكص عن الأمر نُكُوصًا، ونُكُصًا ومنكُصًا: تكأأ عنه وأحجم) عن الموت، بل شعورًا بوجود الأكفأ منه في الجماعة، وحملانه الراية خشية أن تسقط من آيات الجراءة في هذا الموقف العصيب». [الغزالي: فقه السيرة ٣٦٨].

«ولقد كان خالد ؓ عند ظن أصحابه، لمعت عبقريته القتالية في لحظة الامتحان الخطير هذه، فجعل هدفه أن ينسحب بالمسلمين». [خليل: دراسة في السيرة ٢٩٨].

فقد «كانت المهمة الأساس المنوطة بخالد ؓ في تلك الساعة العصبية من القتال أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعي، فبعد أن قدر الموقف واحتمالاته المختلفة قدرًا دقيقًا، ودرس ظروف المعركة درسًا وافيًا، وتوقع نتائجها، اقتنع بأن الانسحاب بأقل خسارة ممكنة هو الحل الأفضل».

[ياسين سويد: معارك خالد بن الوليد ١٧١].

ولأنَّ «قتال الانسحاب شاق مرهق، وبخاصة وأنَّ خالدًا ؓ لا يريد إشعار الروم بهذه الخطوة» [الغزالي: فقه السيرة ٣٦٩]، «لاحتمال انقلاب الانسحاب إلى هزيمة، والهزيمة كارثة تؤدي إلى خسائر فادحة بالمنهزمين». [خطاب: الرسول القائد ﷺ ٣٠٨].

من أجل ذلك رأى القائد الذكي المحنك، أنه حتى يؤمن انسحابه من ميدان المعركة بقوة وانتظام، وبأقل خسائر، لا بد أن يستخدم أسلوب (الهجوم أفضل وسيلة للدفاع) فبدأ في «تحقيق هدفه، بأن رسم

خطة سعى فيها إلى إيهام العدو أن المسلمين لا زالوا في أماكنهم يقاثلون، فدفع مقدمتهم إلى مناوشة العدو». [خليل: دراسة في السيرة ٢٩٩].

بينما تحرك بقية الجيش، وأعاد تنظيم قواته، وألف مؤخرة قوية لحماية الانسحاب من ميدان المعركة. «لقد كان خالد رضي الله عنه قائداً ماهراً، محرّكاً للجيش لا نظير له، ألهم القيادة إلهاماً، فهو يستعين في مواقفها بكل ما عرفت الحرب من فن يستخدمه على السليقة (يعني على الفطرة والطبيعة)، وعلى البصيرة المهمة، فدار بالجيش دورة ضم بها صفوفه، ثم قاتل به في غير اندفاع، ومع ذلك في غير تراجع، وكان بذاته قدوة للمسلمين». [الشريف: مكة والمدينة ٥٣٦].

يقول رضي الله عنه واصفاً قوة الانسحاب الذي نفذه مع المسلمين، وشدة القتال، وضراوته في أثناء الانسحاب، نتيجة ضغط العدو عليهم: «لَقَدْ انْقَطَعَتْ [دُقٌّ] فِي يَدِي يَوْمَ مَوْتَةِ تِسْعَةِ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ [وَصَبْرَتْ] فِي يَدِي إِلَّا صَفِيحَةٌ يَكَانِيَّةٌ». [البخاري في المغازي ٤٢٦٥، ٤٢٦٦].

ولما رأى المسلمون ما يصنعه خالد بن الوليد رضي الله عنه ازدادت حميتهم للقتال، واشتعل حماسهم، فهاجموا بعنف على طول الجبهة، فالمثل الذي ضربه خالد رضي الله عنه لهم قد أثار الحمية والشجاعة في صفوف المسلمين، وازدادت المعركة عنفاً [الجنرال أكرم: سيف الله ١٠٦]، لدرجة أن رسول الله ﷺ وهو يصف أحداث المعركة قال للصحابة رضي الله عنهم في المدينة: «الآن حَمِي الوَطِيسُ (الضراب في الحرب، ولم يُسمع هذا الكلام من أحد قبل النبي ﷺ)، وهو من فصيح الكلام عبّر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق».

[أخرجه ابن عساكر (تاريخ ٥/ ٥٤٤) من رواية ابن عائد بسنده عن العطاء بن خالد، وهو منقطع].

نعم لقد حمي وطيس المعركة بين الطرفين، حتى إن المسلمين نسوا ما أصابهم بفقدان قادتهم الثلاثة في بداية المعركة». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشبالية لبريك ٣٢٤-٣٢٦].

ويقول أ/ فتح الباب: «لقد استشهد القادة الثلاثة الذين أسند إليهم الرسول ﷺ إمارة الجيش واحداً بعد الآخر والمعركة ما زالت دائرة حامية الوطيس، ولا بد من قائد يرأس جيش المسلمين ويحكم تدبير الخطط، ويضم الصفوف، ويشحذ العزائم، إنه خالد بن الوليد رضي الله عنه القائد الحربي الشجاع والمحرك للجيش والذي يندر مثيله، وذلك أنه ما أن قُتل ابن رواحة رضي الله عنه حتى أخذ الراية ثابت بن أقرم رضي الله عنه أحد بني العجلان فقال: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! اضْطَلِعُوا عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ، قَالُوا: أَنْتَ، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، فَاصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه، فأخذ الراية على الرغم مما شاهد من تفرق صفوف المسلمين وتضعف قوتهم المعنوية، يحفزهم إيمانه الصادق العميق بالدعوة ورغبته في أن يظهره الله على الناس فخوراً به معتزاً ببنيه بأذًى من نفسه وما خلعه الله عليه من مواهب في سبيل الذود عن حياض الإسلام».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٦١-١٦٢].

ويقول د/ أبو فارس: «استلام خالد بن الوليد ﷺ الراية يدل على شجاعته؛ لأن الذي سبق خالدًا ﷺ قد استشهدوا جميعًا، وباستلامه الراية وأخذه إياها متوقع أن يصيبه ما أصاب الأمراء الثلاثة، ومع هذا لا يأبه لما يحدث له من أذى أو قتل، إنه الإقدام والشجاعة». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٩].

ويقول الشيخ القرني: «وفي هذه الغزوة دليل على فضل خالد بن الوليد ﷺ الذي لقّبه النبي ﷺ بسيف الله، ولقد ظل خالد ﷺ سيفًا سله الله على الكفر حتى حقق للإسلام انتصاراته الرائعة المشهودة». [هدي السيرة للقرني ٢٠٠-٢٠١].

ويقول د/ البوطي: «وحدث نعيه ﷺ هؤلاء الشهداء الثلاثة يسجل فضلًا خاصًا لخالد بن الوليد ﷺ، فقد قال لهم في آخر حديثه: «حَتَّى أَخَذَ [الرَّايَةَ] سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»، وتلك أول وقعة يحضرها خالد ﷺ في صف المسلمين، إذ لم يكن قد مضى على إسلامه إلا مدة يسيرة، ومن هنا تعلم أن الرسول ﷺ هو الذي سجّل لقب سيف الله لخالد ﷺ.

ولقد أبلّى خالد ﷺ في هذه الغزوة بلاءً رائعًا، روى البخاري عنه ﷺ قال: «لَقَدْ انْقَطَعَتْ [دُقٌّ] فِي يَدِي يَوْمَ مُؤَتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ [وَصَبْرَتْ] فِي يَدِي إِلَّا صَفِيحَةٌ بِمَآئِنَةٍ».

قال ابن حجر: وهذا الحديث يدل على أن المسلمين قد قتلوا من المشركين كثيرًا.

هذا، وأما سبب قول الناس للمسلمين بعد رجوعهم إلى المدينة: يا فرار، فررتم في سبيل الله، فهو أنهم لم يتبعوا الروم ومن معهم في هزيمتهم، وتركوا الأرض التي قاتلوا فيها كما هي ولم يكن ذلك شأنهم في الغزوات السابقة، واكتفى خالد ﷺ بذلك فكرّ عائداً إلى المدينة، ولكنه كما رأيت تدبيراً حكيماً من خالد بن الوليد ﷺ حفظاً للمسلمين وهيبتهم التي انطبعت في أفئدة الروم؛ ولذلك رد النبي ﷺ عليهم قائلاً: «لَيْسُوا بِالْفُرَارِ وَلَكِنَّهُمْ الْكِرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى». [فقه السيرة للبوطي ٢٧٥].

«لقد ذهب خالد ﷺ إلى معركة مؤتة جندياً بسيطاً، ولكنه عاد منها إلى المدينة قائداً منتخباً، أمره رجاله وأمرته كفايته، ومن يومها أصبح قائداً من قادة المسلمين، قدّمته كفايته الممتازة، ورسوخ عقيدته أيضاً على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ﷺ». [قادة فتح العراق والجزيرة لخطاب ١٧٦].

ويقول د/ الحميدي: «أما ما تشتمل عليه أخبار آخر المعركة من المواقف فإن خبر عطف بن خالد الذي أخرجه الواقيدي يبين براعة خالد بن الوليد ﷺ الحربية حيث جعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمته ميسرته، وميسرته ميمته، فأوهم العدو أن المسلمين قد تلقوا مدداً جديداً وأصبحت كل طائفة من الأعداء ترى وجوهاً غير الذي رأتها بالأمس، وهذا مثل من أمثلة عبقرية القيادة، فلقد كان لحظته هذه - بعد توفيق الله تعالى - أبعد الأثر في إثارة الرعب لدى الأعداء وإصابتهم بالفشل، حتى وقع ما يشبه خوارق العادات من انتصار جيش صغير على جيش ضخم يفوقه في العدد بأكثر من ست وستين مرة.

ولقد بذل خالد رضي الله عنه جهداً عظيماً في تلك المعركة، وقد صور هذا الجهد بقوله: «لَقَدْ انْقَطَعَتْ [دُقٌّ] فِي يَدِي يَوْمَ مُوتَةِ تِسْعَةِ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ [وَصَبَرْتُ] فِي يَدِي إِلَّا صَفِيحَةٌ بَيَانَةٌ».

وهذا يدل على ضراوة هذه المعركة، والجهد الكبير الذي بذله الصحابة رضي الله عنهم فيها.

وقد أثنى النبي ﷺ على خالد بقوله: «حَتَّى أَخَذَ [الرَّايَةَ] سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»، وهذا يدل على شجاعته الفائقة، وإخلاصه التام وتجرده من حظ النفس ﷺ.

[التاريخ الإسلامي للحميدي ١٢٧/٧-١٢٨].

٢٢ - سيف الله:

يقول أ/ الشامي: «حَتَّى أَخَذَ [الرَّايَةَ] سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» كان هذا قول رسول الله ﷺ في المدينة، وعرف الناس فيما بعد أن أخذ الراية هو خالد بن الوليد رضي الله عنه، وحمل هذا الوسام ولم يمض على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر.

وخالد بن الوليد رضي الله عنه في هذه المعركة هو الخبرة العسكرية والبطولة النادرة - التي عرفها الناس - وقد خالطها الإيمان، فلم يعد خوض المارك في نظره مجرد مخاطرة بحياة وإنما انتصار دعوة.

إن خالدًا رضي الله عنه وهو يخوض هذه المعركة جندياً ما كان عليه إلا أن ينفذ أوامر القيادة، ولا شك أنه كان فعّالاً، لا سيما وأنها المرة الأولى التي يحمل فيها سيفه ليدافع عن عقيدة، وأنها المرة الأولى التي تحقق فيها فوق رأسه راية لا إله إلا الله.

ولما آل الأمر إليه قائداً فُكِّرَ بعقلية أخرى، إنها عقلية المسؤولية، إن هذا الجيش الذي يقوده الآن هو عدة الإسلام، ولئن فني فتلك خسارة لا تُعوَّض، وهداه الله إلى تلك الخطة السليمة، إذ رتب الجيش ترتيباً عسكرياً فكانت الساقة المقدمة وأعطيت الأوامر للجنود بالقتال والتراجع، وهكذا حتى انحاز وانحيز عنه، فتراجع من قبله، وتراجع العدو عنه، وبهذا لم يحمل جيش المسلمين عار الهزيمة، وعاد بجيشه والكرامة موفورة وبهذا فتح الله عليهم، وعرف الروم أن للمسلمين جيشاً لا يسكت على ضيم، وتحقق الغرض الذي من أجله عقد رسول الله ﷺ ذلك اللواء.

[من معين السيرة للشامي ٤٠٦، وينظر للتفصيل: مسائل العقيدة المستنبطة من غزوة مؤتة لدويدار ١٢٦-١٣٥].

٢٣ - حب النبي ﷺ لصحابته رضي الله عنهم:

يقول الشيخ القرني: «وحيث نعى النبي ﷺ الشهداء الثلاثة كانت عيناه تذرفان دليلاً على حبه الشديد لأصحابه وإشفاقه عليهم وضنه بهم، ولولا أن الشهادة مغنم عظيم كان يتمناه لنفسه، ما رغب في أن يفارقوه، ولكنه الدين والجهاد في سبيله وكلمة الله التي يجب أن تتجاوب بها الآفاق مهما بُذل في سبيل ذلك من دماء». [هدي السيرة للقرني ٢٠١].

٢٤ - رحمة الرسول ﷺ:

يقول أ/ فتح الباب: «ويسجل التاريخ موقفاً آخر من مواقف الرسول ﷺ الخالدة في هذه الغزوة، إنه موقف الرحمة من الناس جميعاً من أنصاره ومن المستضعفين من أعدائه على السواء، ولا غرو فهو نبي الرحمة والداعي إلى دين العطف والتسامح.

لقد خرج الرسول ﷺ مودعاً جنوده حتى بلغ مشارف المدينة، وقد سار المسلمون في ركبته داعين معه لجيشهم: **صَحَبَكُمُ اللَّهُ، وَدَفَعَ عَنْكُمُ، وَرَدَّكُمْ إِلَيْنَا صَالِحِينَ.** وليس ثمة حافز لرفع الروح المعنوية أكبر ولا أعمق من هذه المسيرة.

وفي الطريق أوصى النبي ﷺ رجاله ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان، وألا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار.

يا لعظمة محمد في مروءته وسماحته ورحمته إنه ليعلم أن الحرب هي الحرب فيما تصيب الناس جميعاً من ولايات تشمل المحاربين، ولا يسلم منها غير المحاربين، ولكنه ﷺ يعمل على التخفيف من هذه الولايات وقصرها على جناة هذه الحرب من أعداء الإسلام حتى لا يصطلي بنارها الضعاف منهم؛ لأن رسالته هي الضرب على أيدي الظالمين وتحرير البشرية كلها منهم، أما الأبرياء من القوم فهم في حماه آمنون، وبرحمته مستظلون.

ذلك موقفه ﷺ في التفريق بين المحاربين والمدنيين من أعدائه في المعاملة، إنه شديد على الكفار رحيم بنسائهم وأطفالهم والعاجزين منهم.

أما موقفه من المسلمين فهو موقف البطل من وطنه وأهله ودًا ورحمة وإيثارًا، فما كاد خالد ﷺ ومن معه يلوحون في مشارف المدينة حتى استقبلهم المسلمون يتقدمهم الرسول ﷺ، وطلب النبي فأتي بابن القائد الشهيد جعفر ﷺ، فأخذه وحمله بين يديه». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٦٣-١٦٤].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد وصف الله رسوله ﷺ بالرحمة فقال: **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** (١١٨) [التوبة]، ومن صور هذه الرحمة ما ظهر منه في سرية مؤتة، إذ زرفت عيناه دموعاً وهو ينعي الشهداء، وتجلت الرحمة وهو يتشمم أبناء جعفر ﷺ ودموعه تنهمر على خديه». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٧-٦٨].

٢٥ - مواساة القائد لجنوده:

يقول أ/ فتح الباب: «لقد أصاب نفس الرسول ﷺ من ألم منذ علم بمقتل زيد وجعفر، وحزن على هذين الصحابين الجليلين، فقد ذهب ﷺ إلى منزل الشهيد جعفر بن أبي طالب ﷺ ودخل على زوجته

أسماء بنت عميس، وكانت قد عجنت عجنتها وغسلت بنيتها ودهنتهم ونظفتهم فقال لها: اتيني بني جعفر، فلما أتته بهم تشممهم وذرفت عيناه بالدمع، قالت أسماء في لهف وقد أدركت ما أصابها: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم أصيبوا هذا اليوم، وازدادت عيناه بالدمع تنهائاً، فقامت أسماء تصيح حتى اجتمع النساء إليها.

أما الرسول ﷺ فخرج إلى أهله فقال: «لَا تُغْفِلُوا آلَ جَعْفَرٍ مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا، فَإِنَّهُمْ قَدْ شُغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٨٠-٣٨١].

ورأى ابنة مولاه زيد ؓ قادمة فربت على كتفيها وبكى، وأظهر بعضهم دهشة لبكاء الرسول ﷺ على من استشهد فقال ما معناه: إنها هي عبرات الصديق بفقد صديقه.

إن بكاء النبي ﷺ المستشهدين من رجاله في غزوة مؤتة هو أعلى مراتب السمو التي تبلغها النفس البشرية في معترك الخطوب والأحداث، إنه موقف الرحمة والحنان والحب، حب الصديق لصديقه وحزنه لغيابه.

إن عظمة القائد المرسل ﷺ تبدو في مجاهدته أعداء الله، وفي مواساته لجنود الله.

إن صلابته في قتال العدو لا تؤثر في لينة ورحمته برجاله، ولقد أصَّل الرسول ﷺ هذه القيم الروحية في نفوس المسلمين فاعتنقوها». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٦٦-١٦٧].

ويقول د/ بريك: «كانت مواساة النبي ﷺ لأسر شهداء مؤتة، وراعيته وعطفه على أبنائهم، لفئة أبوية حانية عطوفة من أب رحيم عطوف مشفق، لا يأل جهداً في التخفيف عن معاناة أولئك وغيرهم من أفراد المجتمع الإسلامي بأسره.

كيف لا! وهو الذي كان يفيض حناناً، وشفقةً، ورحمةً.

كيف لا! وهو الذي كانت حياته ﷺ بأبي هو وأمي تكريساً لهذه الحقيقة.

ألم يصفه الباري ﷻ بذلك في القرآن بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكفى بالقرآن دليلاً وشاهداً».

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشالبيه لبريك ٣٧٧-٣٧٨].

٢٦- إظهار الفرح والسرور بقدوم الغائب:

يقول د/ الغضباني: «قبل وصول الجيش إلى المدينة كانت آثار المحنة ظاهرة في بيت النبوة، كما روى أبو عامر عند ابن سعد: (فاتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فشق ذلك عليه، فصلى الظهر ثم دخل، وكان إذا صلى الظهر قام فركع ركعتين، ثم أقبل بوجهه على القوم، فشق ذلك على الناس، ثم صلى العصر، ففعل

مثل ذلك، ثم صلى المغرب، ففعل مثل ذلك، ثم صلى العتمة، ففعل مثل ذلك، حتى إذا كان صلاة الصبح دخل المسجد، ثم تبسم، وكان تلك الساعة لا يقوم إليه إنسان من ناحية المسجد حتى يصلي الغداة، فقال له القوم حين تبسم: يا نبي الله بأنفسنا أنت! ما يعلم إلا الله ما كان بنا من الوجد منذ رأينا منك الذي رأينا! قال رسول الله ﷺ: «كان الذي رأيتم مني أنه أحزنني قتل أصحابي حتى رأيتمهم في الجنة إخوانا على سرر متقابلين، ورأيت في بعضهم إعراضاً كأنه كره السيف، ورأيت جعفرًا مَلَكًا ذا جناحين مُضَرَّجًا بالدماء مصبوغ القوادم». [الطبقات لابن سعد ١٢١/٢].

فقد بقي ﷺ طيلة النهار والليل كله، وقد انتابه الحزن، فلا يستطيع أن يتكلم مع أصحابه حين جاءه نبأ استشهادهم، لكن سُرِّي عنه عندما رآهم في الجنة إخواناً على سرر متقابلين، فاطمأن إلى أنهم لم ينشوا ولم يتخاذلوا، وأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقضوا نحبهم في هذه السرية، لقد تحوّل الحزن ابتساماً، وابتسمت المدينة كلها لبسمته ﷺ، فقد غدا شخصه محور حياة المسلمين في المدينة، أحبَّ إليهم من أبنائهم وأولادهم ونسائهم وأنفسهم، وكما قالوا عندما وجدوا حزنه، ولا يجروون على سؤاله ما لم يفتحهم: (بأنفسنا أنت! ما يعلم إلا الله ما كان بنا من الوجد منذ رأينا منك الذي رأينا!).

وعندما افتر ثغر النبي ﷺ عن بسمة حانية وجبت قلوب المؤمنين فرحاً فسألوه عن سبب حزنه وسبب ابتسامته فأجابهم:

ويبقى لجعفر ؓ عند رسول الله ﷺ خطوة خاصة، فقلبه يتقد شوقاً إليه وحزناً عليه.

لقد أمضى في الغربة قرابة خمسة عشر عاماً بعيداً عن أهله وعشيرته، مهاجرًا في سبيل الله يقود الجالية الإسلامية هناك، ويهزم عمرو بن العاص أمام النجاشي، ويكون نائب الرسول ﷺ في هذه العاصمة الثانية، وعندما جاء بأمر رسول الله ﷺ بعد هذه الأعوام الطويلة لقيه في خيبر وقد فتحها الله عليه.

فبلغ من سروره بلقائه ما بلغ من سروره بفتح خيبر على المسلمين: «مَا أَدْرِي بِأَيِّهَا أَنَا أُسْرُ: بِفَتْحِ خَيْبَرٍ، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ؟». [السيرة النبوية لابن هشام ٣٥٩/٢].

وكان مما يزيد حب جعفر ؓ في قلب النبي ﷺ أنه كان صورته وظله خَلْقًا وَخُلُقًا: «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي».

وسنة واحدة في المدينة فقط ليكون بعدها على رأس الجيش نحو الشام، من الحبشة إلى الشام، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، ولم يكن يضيره أن يُقتل جعفر ؓ بمقدار ما كان يضيره أن يطمئن عليه وعلى إخوانه الأمراء والجيش المجاهد في سبيل الله على ثغور الشام، وأقر الله تعالى عين نبيه بأحبابه الثلاثة، فأراه إياهم في الجنة إخواناً على سرر متقابلين، ورأى حبيب جعفر طياراً في الجنة مصبوغ القوادم في الدنم، أبدله الله تعالى بينه اللتين قطعتا في سبيل الله، بجناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء، ومع الفجر

كان رسول الله ﷺ يدخل على بيت جعفر، ويرى بنه الصغار، ويرى زوجه أسماء رضي الله عنها وقد أهت عجبتها، ونظفت أولادها، وطيبتهم ودهنتهم، وتصف لنا أسماء تلك الزيارة قائلة: (دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَي يَوْمَ أُصِيبَ جَعْفَرٌ ﷺ - وَقَدْ ذَبَعْتُ أَرْبَعِينَ مَنًا، وَعَجَنْتُ عَجِينِي، وَغَسَلْتُ بَنِيَّ وَدَهَنْتُهُمْ وَنَظَفْتُهُمْ، قَالَتْ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّبِعْنِي بَنِيَّ جَعْفَرٌ؟»، قَالَتْ: فَأَتَيْتُهُ بِهِمْ، فَتَشَمَّمْتُهُمْ، وَذَرَفْتُ عَيْنَاهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي مَا يُبْكِيكَ؟ أَلْبَلَّغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَصْبِرُوا هَذَا الْيَوْمَ»، قَالَتْ: فَكُنْتُ أَصْبِحُ، وَاجْتَمَعَت إِلَيَّ النِّسَاءُ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ: «لَا تُغْفِلُوا آلَ جَعْفَرٍ مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا، فَإِنَّهُمْ قَدْ شَغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٨٠-٣٨١].

أما عبد الله بن جعفر الصبي اليتيم، فيلقي لنا ظلالاً جديدة على تلك الزيارة، نشهدها بقوله: (أَنَا أَحْفَظُ حِينَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أُمِّي فَفَعَى لَهَا أَبِي، فَأَنْظَرُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَمْسَحُ عَلَى رَأْسِي وَرَأْسِ أَخِي، وَعَيْنَاهُ تَهْرَاقَانِ الدُّمُوعَ حَتَّى تَقَطُرَ لَحِيَّتُهُ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّ جَعْفَرًا قَدْ قَدِمَ إِلَى أَحْسَنِ الثَّوَابِ، فَأَخْلَفُهُ فِي ذُرِّيَّتِهِ بِأَحْسَنِ مَا خَلَفْتَ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ فِي ذُرِّيَّتِهِ». [الغازي للواقدي ٢ / ٧٦٦-٧٦٧].

هذا النبي الباكي ﷺ، الذي يعيش هموم هؤلاء اليتامى البائسين، وهذه الأرملة المفجوعة لا ينسى أن يقول لها كما يحدثنا ابنها عبد الله: ثُمَّ قَالَ: «يَا أَسْمَاءُ أَلَا أُبَشِّرُكَ؟»، قَالَتْ: بَلَى، بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: «فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ لَجَعْفَرٍ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ!».

وأشرقت نفس أسماء بالنور ورجت الحبيب المصطفى قائلة: فَأَعْلِمَ النَّاسَ ذَلِكَ، وَقَامَ ﷺ إِلَى الْمَنْبَرِ وَمَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ﷺ الَّذِي يَتَابِعُ حَدِيثَهُ لَنَا قَائِلًا: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَخَذَ بِيَدِي، يَمْسَحُ بِيَدِهِ رَأْسِي، حَتَّى رَفَعَى عَلَى الْمَنْبَرِ، وَأَجْلَسَنِي أَمَامَهُ عَلَى الدَّرَجَةِ السُّفْلَى، وَالْحُزْنُ يُعْرِفُ عَلَيْهِ، فَتَكَلَّمَ فَقَالَ: «إِنَّ الْمَرْءَ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ وَابْنٍ عَمِّهِ، أَلَا إِنَّ جَعْفَرًا قَدْ أُسْتُشْهِدَ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ».

وطيب نفس أسماء بذلك، أن غدت زوجة الطيار الشهيد جعفر بشهادة رسول الله ﷺ، وينقل لنا العبقري اليتيم تمة الصورة كأنها نحيها هناك:

ثُمَّ نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ بَيْتَهُ وَأَذْخَلَنِي، وَأَمَرَ بِطَعَامٍ فَصْنِعَ لِأَهْلِي، وَأَرْسَلَ إِلَى أَخِي فَتَعَدَّيْنَا عِنْدَهُ وَاللَّهُ غَدَاءٌ طَيِّبًا مُبَارَكًا، عِمَدَتُ سَلَمَى خَادِمَتُهُ إِلَى شَعِيرِ فُطْحَتَّتُهُ، ثُمَّ نَسَفْتُهُ، ثُمَّ أَنْصَجْتُهُ وَأَدَمْتُهُ بَرِيَّتٍ، وَجَعَلْتُ عَلَيْهِ فُلْفُلًا، فَتَعَدَّيْتُ أَنَا وَأَخِي مَعَهُ، فَأَقَمْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي بَيْتِهِ، نَدُورُ مَعَهُ كُلَّمَا صَارَ فِي إِحْدَى مِثْبُوتِ نِسَائِهِ، ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى بَيْتِنَا، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَسَاوِمُ بِشَاةٍ أَخِي لِي، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي صَفْقَتِهِ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَمَا بَعْتُ شَيْئًا وَلَا اشْتَرَيْتُ شَيْئًا إِلَّا بُورِكَ فِيهِ». [الغازي للواقدي ٢ / ٧٦٦-٧٦٧].

هذا يوم نعي له الأمراء الثلاثة، أما يوم جاء الجيش، واشتد الصبيان يستقبلون آباءهم إخوانهم، كان رسول الله ﷺ يبحث عن ولدي جعفر ﷺ: لَمَّا دَنَوْا مِنْ حَوْلِ الْمَدِينَةِ تَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ،

قَالَ: وَلَقِيَهُمُ الصَّبِيَّانُ يَشْتَدُونَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلٌ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى دَابَّةٍ، فَقَالَ: «خُذُوا الصَّبِيَّانِ فَاحْمِلُوهُم، وَأَعْطُونِي ابْنَ جَعْفَرٍ»، فَأَتَى بِعَبْدِ اللَّهِ فَأَخَذَهُ فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

قَالَ: وَجَعَلَ النَّاسُ يُخْشَوْنَ عَلَى الْجَيْشِ التُّرَابَ وَيَقُولُونَ: يَا فَرَارُ! فَرَزْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسُوا بِالْفَرَارِ وَلَكِنَّهُمْ الْكُرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٨٢].

وتحولت المدينة كلها إلى آل جعفر بن أبي طالب ﷺ، كما تحولت يوم أحد إلى آل حمزة ﷺ، ولم يعد بين يدي رسول الله ﷺ بعد عبدة وحمزة وجعفر إلا علي بن أبي طالب ﷺ.

[التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٦٤-١٦٧].

٢٧ - زيد ﷺ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

يقول د/ الغضبان: «ونبحث عن زيد بن حارثة ﷺ الأسد المصور، فينقذنا الذهبي بخبر واحد عنه في هذه المناسبة بعد استشهاد، يرويه بسنده عن خالد بن سلمة المخزومي قال: لما جاء مصاب زيد وأصحابه أتى رسول الله ﷺ منزله بعد ذلك، فلقينته بنت زيد، فأجهشت بالبكاء في وجهه، فلما رآها رسول الله ﷺ بكى حتى انتحب، فقيل: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «شوق الحبيب إلى الحبيب».

[سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ٢٣٠، وقال المحقق: رجاله ثقات، لكنه منقطع].

وزيد ﷺ من خاصة المصطفى ﷺ، وبفقدانه فقد ركنًا من أركانه، وأحب الناس إليه لا يقل عن جعفر ﷺ حبًا وثقة، تصف لنا عائشة ﷺ اثنين من مواقفه، ويصف ابن عمر ﷺ الصورة الثالثة:

(١) عن عائشة ﷺ قالت: أتانا زيد بن حارثة، فقام إليه رسول الله ﷺ يجر ثوبه، فقبل وجهه، وكانت أم قرفة جهزت أربعين راكبًا من ولدها وولد ولدها إلى رسول الله ﷺ ليقاتلوه، فأرسل إليهم زيدًا فقتلهم وقتلها، وأرسل بدرعها إلى النبي ﷺ فنصبه بالمدينة بين رحمين».

[سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ٢٢٨، وقال الذهبي: رواه المحامي عن عبد الله بن شبيب، عنه، وروى عنه الترمذي، عن البخاري، عن إبراهيم هذا وحسنه، وقال المحقق: إسناده ضعيف لضعف إبراهيم بن يحيى، وأبيه، ولعنعة ابن إسحاق، وقد ذكره صاحب الكنز برقم (٣٠٢٦٠).

(٢) وائل بن داود، عن البهي، عن عائشة ﷺ: ما بعث رسول الله ﷺ زيدًا في جيش قط إلا أمره عليهم، ولو بقي بعده استخلفه. أخرجه النسائي. [سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ٢٢٨، وقال المحقق: أخرجه أحمد ٦/ ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٥٤، ٢١٨، وابن سعد في «الطبقات» ٣/ ١/ ٣١، وأبو بكر ابن أبي شيبة كما في «أسد الغابة» ٢/ ٢٨٣ ثلاثهم من طريق: محمد بن عبيد الطنافسي، عن وائل ابن داود، عن البهي، عن عائشة، وهذا سند حسن].

فلم يذكر تاريخ السيرة رجلاً فائداً كُلَّفَ بسرّايا كما ذكر ذلك عن زيد عليه السلام، لكن الأهم من ذلك رأي عائشة عليها السلام أنه لو بقي حياً لاستخلفه، ودلّ هذا على مقامه عند الحبيب المصطفى عليه السلام، الذي يجيش في البكاء عليه ويقول: «شوق الحبيب إلى الحبيب».

(٣) وعرف المسلمون قدر زيد عليه السلام عند رسول الله ﷺ، ينقل لنا هذا العرض عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: فَرَضَ عمر لأسامة بن زيد رضي الله عنهما أكثر مما فرض لي، فكَلَّمْتُهُ في ذلك، فقال: (إنه كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك، وإن أباه كان أحب إلى رسول الله ﷺ، من أبيك).

[سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ٢٢٩، وقال المحقق: ذكره الحافظ في «الإصابة» ٤ / ٥٠ وقال: صحيح]. وفي الحديث المرسل الذي رواه أبو ميسرة قال: لما بلغ رسول الله ﷺ قتل زيد، وجعفر، وابن رواحة، قام عليه السلام، فذكر شأنهم، فبدأ يزيد، فقال: «اللهم اغفر لزيد، اللهم اغفر لزيد، ثلاثاً، اللهم اغفر لجعفر وعبد الله بن رواحة» [سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ٢٢٩، وقال المحقق: أخرجه ابن سعد ٣/ ١ / ٣١ ورجاله ثقات إلا أنه مرسل]. [التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٧١-١٧٢].

٢٨ - ابن رواحة رضي الله عنه الشاعر الشهيد:

يقول د/ الغضبان: «أما عبد الله بن رواحة رضي الله عنه النقيب الأنصاري العظيم، فقد خاض معركتين في آن واحد:

المعركة الأولى: معركة الشعر، حيث حدّث رسول الله ﷺ عن انتصاره فيها، قائلاً لعمر رضي الله عنه: «خَلَّ عَنْهُ يَا عُمَرُ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَلَمُهُ» فَلَهِيَ [فَلَهَوْ] أَسْرَعُ فِيهِمْ [أَشَدُّ عَلَيْهِمْ] مِنْ نَضْحِ [وَقَعِ] النَّبْلِ». [الترمذي في الأدب (٢٨٤٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٣، ٢٨٩٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح]. ثم خاض معركة السيف حتى دخل الجنة معترضاً، وبقي شعره مدداً للأجيال كلها في التشويق إلى الجنة والتحبب بالشهادة». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٧٢].

٢٩ - خالد رضي الله عنه والإعداد القَدَرِي:

يقول د/ الغضبان: «هؤلاء هم الأمراء الثلاثة الذي اصطفاهم الله تعالى شهداء إليه، بينما كان القدر يُعدّ خالدًا رضي الله عنه للمستقبل القادم، فقد كانت هذه هي الصفحة الأولى في تاريخه الذي حدثنا عنه فيما بعد: (قاتلت الروم، وقاتلت العرب، وقاتلت الفرس، فلم أجد أشد من قتال الفرس...).

لكن ذكرى مؤتة الصفحة الأولى بقيت خالدة في ذهنه، لم ينسها أبداً، إذ أتم حديثه بقوله: وكُسرت في يدي تسعة أسياف في مؤتة ولم تثبت إلا صفيحة يمانية». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٧٢-١٧٣].

٣٠- استقبال الجيش في المدينة:

يقول د/ الغضبان: «مما لا شك فيه أن فريقاً من الجيش الإسلامي في مؤتة قد فر عائداً إلى المدينة قبل انتهاء الحرب، ومن هؤلاء عبد الله بن عمر رضي الله عنه الذي وصف جو المدينة المعبأ بالعزيمة أطفالاً وشيئاً وشباباً من خلال هذا النص الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: (كُنْتُ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً، وَكُنْتُ فِيْمْ مَنْ حَاصٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا لَقِينَا الْعَدُوَّ فِي أَوَّلِ (غَادِيَّةٍ) فَأَرَدْنَا أَنْ نَرْكَبَ الْبَحْرَ، فَقُلْنَا: كَيْفَ نَصْنَعُ وَقَدْ فَرَرْنَا مِنَ الرَّحْفِ؟ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ (قُتِلْنَا)، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فِي نَفَرٍ لَيْلًا فَاخْتَفَيْنَا).

[سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢٤٦/٦. قلت: وفي هذا النص تنبيهان: الأول كلمة (غادية) والصواب (عادية)، وكلمة (قُتِلْنَا) وهذه من زيادة محقق السبل من البداية، وأظنها تحريف لكلمة (فبتنا) التي سترد في الروايات التي أثبتتها، وقد أثبت هذه الرواية لما كان من تعليق د/ الغضبان على كلمة (قُتِلْنَا). وأثبت بقية الروايات لزيادة التوضيح].

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنه حَدَّثَهُ: أَنَّهُ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً (حاص: جال جولة يطلب الفرار. الحيص: الفرار)، فَكُنْتُ فِيْمْ مَنْ حَاصٍ، قَالَ: فَلَمَّا بَرَرْنَا قُلْنَا: كَيْفَ نَصْنَعُ وَقَدْ فَرَرْنَا مِنَ الرَّحْفِ وَبُونَا بِالْغَضْبِ (باء بالغضب: رجع به)، فَقُلْنَا: نَدْخُلُ الْمَدِينَةَ فَتَسْتَبُ فِيهَا وَنَذْهَبُ وَلَا يَرَانَا أَحَدٌ، قَالَ: فَدَخَلْنَا فَقُلْنَا: لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ كَانَتْ لَنَا تَوْبَةٌ أَقْمْنَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ دَهَبْنَا، قَالَ: فَجَلَسْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ، فَقُلْنَا: نَحْنُ الْفَرَارُونَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: «لَا بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ» (العكارون: العائدون إلى القتال)، قَالَ: فَدَنَوْنَا فَقَبَّلْنَا يَدَهُ، فَقَالَ: «أَنَا فِيْكُمْ الْمُسْلِمِينَ».

[أبو داود في الجهاد (٢٦٤٧)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].
وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً، وَكُنْتُ فِيْمْ مَنْ حَاصٍ، فَقُلْنَا: كَيْفَ نَصْنَعُ وَقَدْ فَرَرْنَا مِنَ الرَّحْفِ وَبُونَا بِالْغَضْبِ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ فَبِتْنَا، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ تَوْبَةٌ وَإِلَّا دَهَبْنَا، فَاتَيْنَاهُ قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَخَرَجَ فَقَالَ: «مَنِ الْقَوْمُ؟»، قَالَ: فَقُلْنَا: نَحْنُ الْفَرَارُونَ، قَالَ: «لَا، بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ، أَنَا فِيْكُمْ وَأَنَا فِيْكُمْ الْمُسْلِمِينَ»، قَالَ: فَاتَيْنَاهُ حَتَّى قَبَّلْنَا يَدَهُ.

[مسند أحمد ٩/ ٢٨١-٢٨٢ رقم ٥٣٨٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف].
وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاخْتَفَيْنَا بِهَا، وَقُلْنَا: هَلَكْنَا، ثُمَّ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَحْنُ الْفَرَارُونَ، قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ وَأَنَا فِيْكُمْ». [الترمذي في الجهاد (١٧١٦)، قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زَيْدٍ. وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَلَمَّا لَقِينَا الْعَدُوَّ انْمَهَرْنَا فِي أَوَّلِ عَادِيَةٍ (العادية: خيل تعدو للغارة أي تشد وتقبل، ويقال للرجالة أيضًا عادية)، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فِي نَفَرٍ لَيْلًا فَاخْتَفَيْنَا، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ خَرَجْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاعْتَدَرْنَا إِلَيْهِ، فَخَرَجْنَا، فَلَمَّا لَقِينَاهُ قُلْنَا: نَحْنُ الْفَرَارُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ وَأَنَا فَتْكُكُمْ»، قَالَ أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ: «وَأَنَا فَتْنُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ».

[مسند أحمد ١٠/١٣٥ رقم ٥٨٩٥، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَلَقِينَا الْعَدُوَّ، فَجَاصَ (جاص في القتال: إذا فر، وأصل الجيـص: الميل عن الشيء) الْمُسْلِمُونَ جِيصَةً، فَكُنْتُ فِيْمَنْ جَاصَ، قُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا نَدْخُلُ الْمَدِينَةَ، وَقَدْ بُوْنَا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ثُمَّ قُلْنَا: نَدْخُلُهَا فَنَمْتَارُ مِنْهَا، فَدَخَلْنَا فَلَقِينَا النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ خَارِجٌ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقُلْنَا: نَحْنُ الْفَرَارُونَ، فَقَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ»، فَقُلْنَا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَرَدْنَا أَنْ لَا نَدْخُلَ الْمَدِينَةَ، وَأَنْ تَرْكَبَ الْبَحْرَ، قَالَ: «فَلَا تَفْعَلُوا، فَإِنِّي فَتْنُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ».

[السنن الكبرى للبيهقي ٩/١٣٠-١٣١ في السير (١٨٠٨٢، ١٨٠٨٣)]

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا فِي سَرِيَّةٍ، فَفَرَرْنَا، فَأَرَدْنَا أَنْ تَرْكَبَ الْبَحْرَ، ثُمَّ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَحْنُ الْفَرَارُونَ، فَقَالَ: «لَا بَلْ أَنْتُمْ أَوْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ».

[مسند أحمد ٩/٤٢١ رقم ٥٥٩١، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف].

أَلَا مَا أَرَدَ هَذِهِ الْبَيْتَةُ الَّتِي تَتَأَجَّجُ حَمَاسًا وَحَيَوِيَّةً، حَيْثُ يَقْدِرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَدْ كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الصَّبِيَّانِ قَبْلَ خَمْسِ سَنِينَ، يَقَابِلُ الْمُنْهَزِمِينَ بِالْحِجَارَةِ، وَقَدْ تَصَلَّ الْعَمَلِيَّةُ إِلَى مَقْتَلِهِ وَمَنْ مَعَهُ. ولفظ عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يوحي أنه فرقة ضئيلة من الجيش، حيث فُكِّرَتْ بِرُكُوبِ الْبَحْرِ، وَالْبَحْرُ لَا يَتَسَعُ آنَذَاكَ لِأَكْثَرِ مِنْ بَضْعَةِ عَشْرِ رَجُلًا، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ يَخَافُ أَنْ يُقْتَلَ مِنْ جَاهِلِينَ وَأَطْفَالِ الْأُمَّةِ، فَمَا كَانَتْ مِنْهُ إِلَّا أَنْ اخْتَبَأَ مَعَ إِخْوَانِهِ فِي بَيْتِهِمْ، حَتَّى لَا يَقْفُوا فِي وَجْهِ هَذِهِ الْعَاصِفَةِ: (ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ تَوْبَةٌ وَإِلَّا ذَهَبْنَا، فَأَتَيْنَاهُ قَبْلَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ، فَخَرَجَ فَقَالَ: «مَنْ الْقَوْمُ؟»، قَالَ: فَقُلْنَا: نَحْنُ الْفَرَارُونَ، قَالَ: «لَا، بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ، أَنَا فَتْكُكُمْ، وَأَنَا فَتْنَةُ الْمُسْلِمِينَ»، قَالَ: فَأَتَيْنَاهُ حَتَّى قَبَلْنَا يَدَهُ).

إِنَّ الْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ لَا يَكْفِي أَنَّهُ مِنَ الْكِبَائِرِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنَّا فِي الدُّنْيَا قَدْ يَقُودُ إِلَى الْقَتْلِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ١٥﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَوْلٍ أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ [الأنفال].

والمنفذ الوحيد لتبرير الفرار أو قبوله هو التحيز لفئة أو التحرف لقتال، فكان رسول الله ﷺ هو فئتهم، وفئة كل مسلم.

وقد نقلت لنا هذه الحادثة المستوى العالي للأمة التي أصبحت ترفض فكرة الفرار من الزحف إلى حد القتل، وهي الصورة التي نقلها لنا سلمة بن هشام بن المغيرة رضي الله عنه من طرف آخر.

روى ابنُ إسحاق - بسنده - عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ لِمَرْأَةٍ سَلَمَةَ بِنِ هِشَامِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ الْمُغِيرَةِ: مَالِي لَا أَرَى سَلَمَةَ يَحْضُرُ الصَّلَاةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَ الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ، كُلَّمَا خَرَجَ صَاحَ بِهِ النَّاسُ: يَا قُرَازُ! قَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى قَعَدَ فِي بَيْتِهِ فَمَا يَخْرُجُ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٨٢-٣٨٣].

لقد اختبأ عبد الله بن عمر ومن معه رضي الله عنهم، كما اختبأ سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة رضي الله عنهم، وسلمة بن عم خالد رضي الله عنه، والأصل أن يبقى بجوار قائده خالد رضي الله عنه، ولكنه في ظاهر الأمر قد فر منذ الجولة الأولى وبعد استشهاد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، حيث لم يكن رجالان قد بقيا مع بعضهما البعض، هذه المرة، وكان قبل استلام الراية من ثابت رضي الله عنه، ثم خالد رضي الله عنه، وعمر رضي الله عنه ببطولته لا يتمكن من حماية ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنه من القتل لفراره، وسلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة المخزومي رضي الله عنه لا تحميه قبيلته من السنة الناس، خاصة وقد تركوا إخوانهم في مؤتة.

والجانب العظيم الذي نشهده من هذه الحادثة هو هذه الأسرة التي تُسمى المدينة، فأم سلمة رضي الله عنها تعرف تخلف سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة رضي الله عنه عن صلاة الجماعة، وتسأل زوجها عن سبب تخلفه، ورغم اتساع المدينة والزيادة الهائلة في سكانها الذين يفدون إليها من أصقاع الجزيرة العربية تلاحظ أم سلمة رضي الله عنها هذه الملاحظة في تخلف واحد من الآلاف التي تقصد المسجد المبارك، ولكن الإشكال الذي بقي عندنا هو رواية ابن إسحاق عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: لَمَّا دَنَوْا مِنْ حَوْلِ الْمَدِينَةِ تَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ، قَالَ: وَلَقِيَهُمُ الصَّبِيَّانُ يَسْتَدُونَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلٌ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى دَابَّةٍ... قَالَ: وَجَعَلَ النَّاسُ يَخْتُونُ عَلَى الْجَيْشِ التُّرَابَ وَيَقُولُونَ: يَا قُرَازُ! قَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسُوا بِالْفَرَارِ وَلَكِنَّهُمْ الْكِرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٨٢].

فإذا كان الناس قد سمعوا رسول الله ﷺ يتحدث عن الفتح الذي تم على يدي خالد رضي الله عنه كما في صحيح البخاري، فكيف يسمونهم بالفرار، لكن لعل الفئة الأولى التي قدمت وتحدثت عن المائتي ألف من العرب والروم تقابل ثلاثة آلاف من المسلمين لم يتصوروا أن يعود أحد منهم حياً أو أن يتصرفوا على هذه الجموع الهائلة، فكانت عودتهم سالمين، وقد قُتل قادتهم، جعلت هذا الجو المكفهر ضدهم حتى ليحثوا الناس التراب عليهم يعيرونهم بالفرار، وجواب رسول الله ﷺ لهم: «لَيْسُوا بِالْفَرَارِ وَلَكِنَّهُمْ الْكِرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى».

ويمكن القول إن المعركة مرت بثلاث مراحل؛ ليتمكن الجمع فيها بين الأقوال المتعددة:

المرحلة الأولى: وهي التي قاتل فيها المسلمون ببسالة حتى سقط عبد الله بن رواحة رضي الله عنه شهيداً، وأصبح المسلمون بلا قائد، وفرّ أكثرهم حتى لا تجد اثنين مع بعضهما، وبلغ بعضهم المدينة في فراره، والذي كان منهم ابن عمر رضي الله عنهما.

المرحلة الثانية: حيث أعاد قادة المسلمين النداء، فعادوا والتقوا، وسلّموا القيادة واللواء لخالد رضي الله عنه، وقام بخبطته المبتكرة العبقريّة في تبديل مواقع الجيش حتى خاض مع الصباح حرباً عنيفة استمرت أياماً على بعض الروايات، وثبت المسلمون فيها وصدّقوا ما عاهدوا الله عليه، وانكسرت بيد خالد رضي الله عنه تسعة أسياف، وقُتل قائد جيش العدو مالك بن زافله، فراجع القوم وهُزموا شر هزيمة بعد سقوط قائدهم قتيلاً في المعركة، وأخذ المسلمون سبايا وغنائم بعد هذه الجولة.

المرحلة الثالثة: وجد خالد رضي الله عنه الفرصة سانحة لإنهاء المواجهة بعد هذه الهزيمة، فلم يتبع أثر القوم، ولم ينتظر حتى يعيد الصدام ثانية، بل مضى بالمسلمين إلى المدينة وقد خلفوا وراءهم اثني عشر شهيداً فقط، وهو الذي قد ذكره ابن إسحاق عن عروة بقوله: (فَاضْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه، فَلَمَّا أَخَذَ الرَّايَةَ دَافَعَ الْقَوْمَ، وَحَاشَى بِهِمْ، ثُمَّ انْحَازَ وَأَنْجِزَ عَنْهُ، حَتَّى انْصَرَفَ بِالنَّاسِ).

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٩-٣٨٠].

وحديث الفتح وهزيمة المشركين إنما كانت بعد التحام القتال الثاني، وثبات المسلمين وصبرهم حتى انكسرت بيد خالد رضي الله عنه الأسياف التسعة، وحاز المسلمون الغنائم، وقتلوا الأبطال، وقتلوا كبش الكتيبة عندهم مالك بن زافله، وانهمز الجيش شر هزيمة.

وابن إسحاق نفسه يسوق نصّاً يتحدث به عن أثر الرعب في صف المشركين، يقول فيه: «وَقَدْ كَانَتْ كَاهِنَةٌ مِنْ حَدَسٍ حِينَ سَمِعَتْ بِجَيْشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلًا، قَدْ قَالَتْ لِقَوْمِهَا مِنْ حَدَسٍ (قبيلة من لخم، ولخم قبيلة من اليمن) - وَقَوْمُهَا بَطْنٌ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو غَنَمٍ -: أَنْذِرْكُمْ قَوْمًا خُزُرًا (جمع أخزر، وهو الذي ينظر بمؤخرة عينه نظر التكبر)، يَنْظُرُونَ شَرًّا (الشزر: نظر العداوة)، وَيَقُودُونَ الْخَيْلَ تَتْرَى (متابعة شيئاً بعد شيئاً)، وَهُمْ يَقُونَ دَمًا عَكْرًا (العكر: المتعكر، يريد دمًا مختلطاً)، فَأَخَذُوا بِقَوْلِهَا، وَاعْتَرَلُوا مِنْ بَيْنِ لَحْمٍ؟ فَلَمْ تَزَلْ بَعْدُ أَتْرَى (أتري: من الثروة، وهي الكثرة، أي: أكثر مالاً وعدداً) حَدَسٍ.

وَكَانَ الَّذِينَ صَلَّوْا الْحَرْبَ يَوْمَئِذٍ بَنُو ثَعْلَبَةَ بَطْنٌ مِنْ حَدَسٍ، فَلَمْ يَزَالُوا قَلِيلًا بَعْدُ.

فَلَمَّا انْصَرَفَ خَالِدٌ رضي الله عنه بِالنَّاسِ أَقْبَلَ بِهِمْ قَافِلًا». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٨٢].

وينقل ابن هشام عن الزهري قوله: (فَأَمَّا الزُّهْرِيُّ فَقَالَ فِيمَا بَلَّغْنَا عَنْهُ: أَمَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ خَالِدَ بْنَ

الْوَلِيدِ رضي الله عنه، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ حَتَّى قَلَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ). [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٨٣].

[التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٦١-١٦٤].

٣١ - دفاع النبي ﷺ عن جيش مؤتة:

يقول د/ بريك: «لقد صمد المسلمون في معركة مؤتة صمودًا هو أروع ما يصنع الإيذان الصادق، وقد دفع المسلمون الثمن غاليًا دونما شك، تمثل هذا الثمن الغالي بصورة رئيسة في مصرع قادة الجيش الرئيسين الثلاثة، الواحد بعد الآخر، وبأسلوب تمثلت فيه أرقى معاني البطولة، واسترخاض الأرواح في سبيل الله». [باشميل: غزوة مؤتة ٢٨٦-٢٨٧].

وهذا رسول الله ﷺ يصف بطولتهم، واسترخاضهم أرواحهم في سبيل الله، ومدى غبطتهم وسرورهم بمصيرهم بما «رأوا من فضل الشهادة» [ابن حجر: فتح ٥١٣/٧] بقوله: «مَا يَسْرُهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا». «إن روعة المقاومة الإسلامية في معركة مؤتة التاريخية، والتي يسرت للمسلمين انسحابًا منظمًا مشرفًا بعد ذلك الصدام الهائل، انسحابًا يمثل في واقعه أعلى درجات الانتصار بالنسبة لظروف المعركة الصعبة». [باشميل: غزوة مؤتة ٢٨٨].

وتكفي هنا شهادة رسول الله ﷺ الذي وصف ذلك الانسحاب القوي بالفتح والدلالة التي تعلق على الريب في هذه المعركة.

«إن شجاعة المسلمين وبسالتهم بلغنا حدًا كبيرًا، وقد أكسبهم هذا الروح العالي إقدامًا حقر أمامهم كبرياء الأمم التي عاشت مع التاريخ دهرًا تصول وتجول لا يوقفها شيء».

إن الاستهتار بالخطر، والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم، بل هي قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال، فأصبحت الأمة كلها أمة كفاح غالي عزيز، وحسبك أن جيش مؤتة لما عاد إلى المدينة قابله الصبيان بصيحات الاستنكار، يقولون: يا قُرَار، فررت في سبيل الله؟! إن أولئك الصغار الأغرار يرون انسحاب خالد ومن معه فرارًا يُقابل بحشو التراب.

أي جيل قوي نابه هذا الجيل الذي صنعه الإيذان بالحق؟! أي نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام؟! من آباؤهم؟! من أمهاتهم؟! كيف كان الآباء يُربون؟! وكيف كانت الأمهات يُدُلن؟! إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس». [الغزالي: فقه السيرة ٣٦٩].

«وحيث ترتفع الوتيرة الإيمانية لدى الفتیان الناشئين في الجيل الإسلامي إلى هذا المستوى، فلا شك أن هذا التغيير هو الكفيل بتغيير حال المسلمين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]».

[منير غضبان: فقه السيرة ٥٤٨].

وتعير أهل مؤتة بالفرار لم يكن من الصبيان وحدهم، بل تعداهم إلى بقية الناس ممن لم يخرج، وبقي في المدينة مع رسول الله ﷺ، فقد «استنكر المسلمون على الجيش أن يعود من غير أن يتنصر، وعيروا رجاله حتى أخرجوا بعضهم». [الشريف: مكة والمدينة ٥٣٧].

أخرج الحاكم بسند صحيح عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت لأمّرة سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة: مالي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين؟ قالت: والله ما يستطيع أن يخرج، كلما خرج صاح به الناس: يا قرا! فررتم في سبيل الله، حتى قعد في بيته فما يخرج، وكان في غزوة مؤتة مع خالد بن الوليد.^(١)

وفي اللحظة المناسبة، يتدخل القائد البصير المحنك الذي يدرك معنى النصر الحقيقي، ويدرك ظروف وملابسات معركة مؤتة، وما أبداه المسلمون فيها من بسالة، وبطولات حقيقية أذهلت أعداءهم. ويدرك ما قام به خالد والمسلمون من تنظيم انسحاب رائع ومنظم، يتدخل رسول الله ﷺ بقوة ليرد عن الجيش البطل الشجاع، ويرد على تعيير أهل المدينة لهم بالفرار قائلاً: «لَيْسُوا بِالْفَرَارِ وَلَكِنَّهُمْ الْكِرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى»، ويأمر سلمة ﷺ وغيره ممن تخرج من تعيير المسلمين بالخروج إلى الصلاة دون حرج، ودون وجل، فهم أبطال كرار على العدو إن شاء الله تعالى، وليسوا قرا.

وحتى يرسخ هذه الحقيقة في نفوس الجميع، اجتمع رسول الله ﷺ مع الجيش وقائده البطل خالد بن الوليد ﷺ، فقام عوف بن مالك الأشجعي ﷺ، فقص على النبي ﷺ: «قصة المددي، وما فعل خالد، فقال رسول الله ﷺ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ سَلْبَهُ؟»، قَالَ: اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ!، قَالَ: «ادْفَعْهُ إِلَيْهِ»، فَمَرَّ خَالِدٌ بِعُوفٍ، فَجَزَّ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْجَزْتَ لَكَ مَا ذَكَرْتَ لَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتُغْضِبَ، فَقَالَ: «لَا تُعْطِيَهُ يَا خَالِدُ! لَا تُعْطِيَهُ يَا خَالِدُ! هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أَمْرًا، إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَرْعَى إِبِلًا أَوْ غَنَمًا فَرَعَاهَا، ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقِيهَا فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا، فَشَرَبَتْ فِيهِ، فَشَرِبَتْ صَفْوُهُ وَتَرَكْتَ كَدْرَهُ، فَصَفْوُهُ لَكُمْ وَكَدْرُهُ عَلَيْهِمْ». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٥٣)].

وهكذا دافع النبي ﷺ عن خالد ﷺ وأصحابه ﷺ، وكرمهم في أكثر من مناسبة.

[غزوة مؤتة والسررايا والبعوث الشمالية لبريك ٣٤٩-٣٥٣].

ويقول أ/ فتح الباب: «إن المسلمين لا يرضون عن عودة جنودهم منسحبين، وكان أملهم أن يتلقوهم غازين فاتحين لبلاد المشركين، فيحثون على الجيش التراب تعبيراً عن عدم رضاهم قائلين: (يا فرار فررتم في سبيل الله).

(١) أخرجه الحاكم (المستدرک ٣/ ٤٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وذكره ابن هشام (سيرة ٤/ ٣٨٢-٣٨٣) من حديث ابن إسحاق بسنده، عن بعض آل الحارث بن هشام، عن أم سلمة ^{رضي الله عنها}، وسنده فيه مبهم.

وقد وضح الواقدي (مغازي ٢/ ٧٦٥) في روايته ذلك المبهم، وهو أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهو فقيه، ثقة، يروي عن أم سلمة. (تقريب ٦٢٣).

وإن للمسلمين لعذر في قولهم هذا، فهم لا يرضون بغير النصر بديلاً، ولا يرون الغزو إلا جهاداً في سبيل إعلاء الحق ونشر الدعوة، ولكنهم لا يعلمون حقيقة الأمر فما انسحب جنودهم ضعفاً ولا خوراً، ولكنها خطة حكيمة دبرها القائد المحنك خالد رضي الله عنه فأطاعوه إذعائاً لمبادئ الإسلام التي تدعوا إلى طاعة الله ورسوله وأولي الأمر، ولو رأى خالد رضي الله عنه أن يهجموا ويقتحموا صفوف الأعداء لبذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل هذا السبيل.

وهنا يتجلى موقف آخر من مواقف النبوة الخالدة إذ يقول رسول الله ﷺ: «لَيْسُوا بِالْفَرَارِ وَلَكِنَّهُمْ الْكِرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى»، فيهدأ المسلمون وتطمئن قلوب الجند العائدين لهذا التقدير الكريم الذي أسبغته عليهم رسول الله ﷺ، وهذه الرحمة التي شملتهم، وليس أجل من هذا التصرف الحكيم ولا أبلغ دافعاً لهم على الفداء فيما يؤمرون به من غزو في المستقبل، ومع ذلك فإن قوة الإيمان في نفوس المسلمين تجعلهم لا يغفرون للعائدين انسحابهم حتى كان سلمة بن هشام رضي الله عنه لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من كل من رآه: يا فرار فررتم في سبيل الله، ولكن الله يحقق ما وعد الرسول ﷺ المسلمين وما بشرهم به من أنهم الكرار إذ يظهر بعد ذلك من حضر منهم مؤتة من البطولات ما تقر به أعين المؤمنين، كما يسجل القائد خالد رضي الله عنه أعظم الصفحات في تاريخ الحروب الإسلامية العادلة، فتزول سُبَّة الفرار التي ألصقت بالجيش ويتحقق وعد الرسول ﷺ بأنهم الكرار لا الفرار.

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٦٤-١٦٥].

٣٢ - التقدير والإكرام والإعجاب لبسالة الجنود:

يقول د/ بريك: «لقد كان التقدير والإعجاب والإكرام الذي حظي به أهل مؤتة من القائد الأعلى رسول الله ﷺ من العوامل التي جعلت جيش المسلمين من أنجح جيوش العالم في ذلك الوقت، وأعظمها وأرفعها معنوية.

فحين يُقدَّر القائد الجهد المبذول، ويعطيه حقه من التقدير والإعجاب، بل ويُصَحَّح ردود الفعل الخاطئة التي كانت لدى بعضهم تجاه الجيش، لا شك أن ذلك يعطي أفرادها الراحة النفسية التامة، بل ويدفعهم إلى مزيد من البذل، ومزيد من العطاء بلا حدود، ومواصلة المشوار بلا تردد.

لقد كان المصطفى ﷺ وسيظل للأبد، من أنجح القادة العالميين على الإطلاق، وستظل مكافأته المعنوية سنوية عظيمة، والتي كانت عبارة عن أوسمة رفيعة المستوى والشأن، على صدور حاملها غير مسبوق، ولا ملحوقه بإذن الله تبارك وتعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه نلاحظ تأكيد الشارع ﷺ على مراعاة حرمة الأمير، والقائد، والإمام ومكانته بين الناس وترك التناول عليه، وأن ذلك ممّا يفسد القلوب، ويؤدي بالتالي إلى

التنازع المؤدي للفشل، وفيه من الخس والحض والتأكد على السمع والطاعة لولة الأمر مهما كانوا ومهما فعلوا ما لم يأمرُوا بمعصية.

وأهم يستحقون هذا الأمر لكونهم يكابدون مشقة التصدي للأمر الخاصة بالرعية من السهر على راحتهم، والدفاع عنهم، يقول النووي: «ومعنى الحديث، أنَّ الرعية يأخذون صفو الأمور، فصلهم أعطياتهم بغير نكد، وتبتلى الولة بمقاساة الأمور، وجمع الأموال على وجوهها، وصرفها في وجوهها، وحفظ الرعية، والشفقة عليهم، والذب عنهم، وإنصاف بعضهم من بعض، ثم متى وقع علة أو عتب في بعض ذلك توجه على الأمراء دون الناس».

لقد كان المصطفى ﷺ دائماً وأبداً حريصاً على أمته، رؤوفاً بهم، وفي تحذيره إياهم من منازعة أهل الأمر ومخالفتهم، فيه من المصلحة العامة للأمة ما لا يخفى إلا على المكابر المعاند، أو الجاهل المغرور، لأن ذلك مما يوقع الفتن المهلكة التي تهلك الحرث والنسل، وتكون وبألاً على الأمة، تُدَمِّر اقتصادها، وتعصف بمجتمعاته الآمنة، ويذهب ضحيتها الأبرياء». [غزوة مؤتة والسررايا والبعوث الشمالية لبريك ٣٧٦-٣٧٧].

٣٣ - مثل أعلى للاستحياء:

«ومع منافحة الرسول ﷺ عن أصحاب مؤتة قد اعتزل بعض المسلمين في بيته خشية سماع هذه الكلمة الثقيلة على أسمع المؤمنين الشجعان: «يا فرار». [السيرة النبوية لأبي شعبة ٤٢٩/٢].

٣٤ - دروس أخرى:

يقول د/ فيض الله: «قد اشتملت هذه الغزوة على دروس وأحكام، نذكرها باختصار:

١- المؤمن عزيز كريم، لابد أن يثار لعزته وكرامته، كلما مُسَّت بسوء، وليس من خصال المؤمن الرضا بالذل والهوان.

٢- ينبغي أن يكون للمسلمين راية تميزهم عن كل أمة، يحترمونها ويكبرونها؛ لأنها رمز عقيدتهم، ولا أدل على ذلك من تنقيل جعفر ﷺ الراية من يمينه إلى يساره ثم إلى ذراعيه... إثر كل طعنة.

٣ - المسلمون دعاة سلم حتى في حروبهم، فهم لا يُقاتلون إلا من قاتلهم، ويكفون عن الرهبان والصبيان والنساء، ولا يُفسدون الزروع، ولا يخربون البيوت، ولا يُجَتُّون الشجر... وصدق الذين قالوا من المستشرقين: ما عرف التاريخ فاتحاً مثلهم.

٤ - المؤمن يعرف قدره، وقدر غيره، فلا يتخطاه إذا كان ذلك أولى وأقدر منه... فقد اعتذر عن تسلُّم الراية وقال: اصطلحوا، ما أنا بفاعل.

والمسلمون شُغِلُوا بالتجاوز، وفُتِنُوا بالتعدي، فلم يعرفوا أقدارهم، ولا أقدار الآخرين... لكل منهم كل شيء، وليس لغيره شيء... مات الحق فيهم، وهم يعلمون، فكيف بالإيثار؟

٥ - عندما تدق المواقف، وتشتد الهزائر، يتجرد المسلم عن كل صلاته بالدنيا... ذلك البدرى عمير بن الحمام رضي الله عنه يُلقي التمرات، ليقذف بنفسه في ساحة الموت، وهذا المؤتوي يلقي بقطعة اللحم، ليتعجل الشهادة في سبيل الله...

٦ - إن شجاعة المسلمين، وبطولات هؤلاء الأمراء، بلغت القمة، التي لا تتناول إليها أمة...

٧ - إن التربية المحمدية، صنعت من الأطفال الصغار، رجالاً وأبطالاً، يرون العودة من المعركة دون شهادة في سبيل الله، فراراً من سبيل الله، لا يُكافؤون عليه إلا بحشو التراب في وجوههم...

فأين أطفالنا المستهترون المتسكعون في الشوارع، من هذه النماذج الرفيعة من الرجولة الفذة المبكرة؟ إن ذلك لن يكون إلا بالتربية الإسلامية الجادة، القائمة على أساس الإيمان والقرآن.

٨ - البر باليتامى، وعولهم وكفالتهم من سنن الإسلام وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ رضي الله عنه (ابن الشهيد الثاني في مؤتة) قَالَ: ... ثُمَّ أَمَهَلَ آلَ جَعْفَرٍ ثَلَاثًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَالَ: «لَا تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ، ادْعُوا لِي ابْنِي أَخِي» (أولاد جعفر ابن عمه، وسماه أخاه تكريماً وتعظيماً للرحم، وهو أخوة الدين).

قال عبد الله: فَجِيءَ بِنَا كَانَا أَفْرُخَ (صغار جداً كزغب الطير)، فَقَالَ: «ادْعُوا إِلَيَّ الْحَلَّاقَ»، فَجِيءَ بِالْحَلَّاقِ، فَحَلَقَ رُؤُوسَنَا، ثُمَّ قَالَ (بعد الحلق للتودد والتلطف): «أَمَّا مُحَمَّدٌ - ابن جعفر الشهيد رضي الله عنه - فَشَبِيهُ عَمَّنَا أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَشَبِيهُ خَلْفِي وَخَلْفِي»، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَأَشَاهَا (رفعها)، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ» (في كل ما يعمل به ويعقده من بيعات)، قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

قَالَ: فَجَاءَتْ أُمُّنَا، فَذَكَرَتْ لَهُ يَتَمَنَّا، وَجَعَلَتْ تُفْرِحُ لَهُ، فَقَالَ: «الْعَيْلَةُ تَحْفَافِينَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا وَلِيَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟!». [مسند أحمد ٣/ ٢٧٨-٢٧٩ رقم ١٧٥٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، مجمع الزوائد ٦/ ٢٣٠ كتاب المغازي والسير باب غزوة مؤتة رقم ١٠٢١٨، وقال الهيثمي: قلت: روى أبو داود وغيره بعضه، رواه أحمد والطبراني ورجاهما رجال الصحيح].

صلى الله عليك، يا يتيماً، وهو ملاذ اليتامى، وملجأ الأرامل، وركن المستضعفين، وسلم تسليماً كثيراً، فهذا من تنفيذ قوله: «مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلْيُورَثْهُ [فَلَا هِلَهْ]، وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا [دِينًا أَوْ ضَيَاعًا] فَلْيَنْتِ [فَلَيْتِي وَعَلِيَّ]».

[البخاري في الاستقراض (٢٣٩٨)، وفي الفرائض (٦٧٦٣)، ومسلم في الجمعة (٨٦٧)، وفي الفرائض (١٦١٩)، وأبو داود في الخراج والفيء والإمارة (٢٩٥٤، ٢٩٥٥)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٠)، والنسائي في صلاة العيدين (١٥٧٨)، وابن ماجه افتتاح الكتاب في الإيمان وفصائل الصحابة والعلم (٤٥)، وفي الصدقات (٢٤١٦)، وفي الفرائض (٢٧٣٨)، ومسند أحمد ١٣/ ٢٥٠ رقم ٧٨٦١ ومواضع أخرى كثيرة].

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٣٥٥-٣٥٨].

المبحث الثالث

الدروس الفقهية

١ - الجهاد فرض عين إذا اعتدي على حرمة المسلمين:

يقول د/ عتوم: «الجهاد في الشريعة الإسلامية مفروض على المسلمين ابتداء لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]؛ ولقوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسُهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ». [مسلم في الإمارة (١٩١٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٠٢)، والنسائي في الجهاد (٣٠٩٦)، ومسند أحمد ٤٥٣/١٤ رقم ٨٨٦٥].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن فرضيته تتعين أكثر إذا اعتدى العدو على حرمة المسلمين، واستنفر الإمام الرعية لضربه وتأديبه، ومن هنا كان معنى استنفره ﷺ المسلمين، لحرب الروم في غزوة مؤتة، انتصاراً لمقتل الحارث بن عمير رضي الله عنه رسول الله ﷺ إلى الغساسنة يبلغهم دعوة الله، وهو عين ما فعله ﷺ في حربه ليهود بني قينقاع الذين قتلوا مسلماً لدفاعه عن عرض امرأة مسلمة كانوا أرادوها على الفاحشة [ابن هشام، السيرة النبوية ٤٨/٢]، انتصاراً لمقتل ذلك المسلم الغيور، وهو ما فعله المعتصم بالله فيما بعد، إذ ساق جيشاً عرمرماً لقتال الروم انتصاراً لامرأة مسلمة كانت قد استغاثت به على بُعد، إثر اعتداء أحد علوج الروم عليها، حيث دمر قاعدتهم عمورية، وأخذ بثأر المسلمين أخذ اقتدار وغلبة. [الطبري، تاريخه ٥٥/٩ وما بعدها].

وفي الفقه الإسلامي إجماع على هذا الحكم في المذاهب الأربعة: الحنفية، والشافعية، والمالكية، والحنبلية. ففي كتاب: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر على المذهب الحنفي جاء القول بأن الجهاد هو: «قتل الكفار المرتدين والباغين، بدءاً من فرض كفاية، يعني يفرض علينا أن نبداهم بالقتال بعد بلوغ الدعوة، وإن لم يقاتلونا، فيجب على الإمام أن يبعث سرية إلى دار الحرب كل سنة مرة أو مرتين، وعلى الرعية إعانتته». وفي متن المنهاج للإمام النووي الشافعي: «أن الجهاد كان في عهد رسول الله ﷺ فرض كفاية، وقيل: فرض عين، وأما بعده فللكفار حالان: أحدهما، يكونون ببلادهم ففرض كفاية، إذا فعله من فيهم الكفاية من المسلمين، سقط الحرج عن الباقيين، والثاني: يدخلون بلدة لنا فيلزم أهلها الدفع بالممكن، وإن أمكن تأهب لقتال وجب الممكن حتى على فقير وولد ومدين وعبد بلا إذن».

وفي بلغة السالك لأقرب المسالك في مذهب الإمام مالك، أن: «الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله تعالى كل سنة، فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقي، ويتعين (أي يصير فرض عين كالصلاة والصوم) بتعيين الإمام».

وفي المغني لابن قدامة الحنبلي قال: (الجهاد فرض على الكفاية، إذا قام به قوم سقط عن الباقيين ويتعين في ثلاثة مواضع:

- ١- إذا التقى الزحفان وتقاتل الصفان، حرم من حضر الانصراف، ويتعين عليه المقام.
 - ٢- إذا نزل الكفار بلدة، تعين على أهلها قتالهم ودفعهم.
 - ٣- إذا استنفر الإمام قومًا لزمهم النفير، وأقل ما يفعل مرة كل عام.
- ومن أوضح الأمثلة على وجوب النفرة لنصرة المعتدى عليهم من المسلمين، تلك العبارة الفقهية المشهورة والمجمع عليها وهي: أنه إذا سُبيت امرأة بالمشرك وجب على كل أهل المغرب النهوض لتخليصها والعكس بالعكس.
- وهكذا تُجمع المذاهب أن الجهاد فرض على كل حال سواء أكان كفاية تقوم به مجموعة من المسلمين، أو عينًا يلزم به جميعهم، وإلا فهم آثمون.
- وسواء أكانت له أسباب أم لم تكن، إذ هو ماض إلى يوم القيامة، إحقاقًا للحق، وإبطالًا للباطل.
- غير أنه يصبح على أكثر إلزامية، وأقوى مشروعية عندما يرفض الكفار الدعوة ويعتدون على المسلمين، ويستنفر الإمام الرعية لقتالهم.
- وهل كان الروم في حادثة مؤتة إلا بُغاة معتدين، رفضوا دعوة الحق، وزادوا إجرامًا بأن قتلوا حاملها الأعزل غريبًا في أرضهم في الوقت الذي كانت فيه الأعراف تُحرم قتل الرسل. وهل استنفر الرسول ﷺ لقتالهم، إلا لهذه الأسباب؟!». [تجربة مؤتة لعنوم ٢٣١-٢٣٣].

٢ - أهمية الإمرة:

يقول د/ عتوم: «لا بد للناس حتى تستقيم أمورهم من إمام يرعى مصالحهم، ويوقد مسيرتهم، ويفصل في قضاياهم، وهو أمر طبيعي، إذ لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم، ولقد جاء في كتاب الله جل وعلا: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد]، وفي حديث رسول الله ﷺ: «إِذَا خَرَجَ [كَانَ] ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ».

[أبو داود في الجهاد (٢٦٠٨، ٢٦٠٩)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الشيخ الألباني - صحيح الجامع الصغير ٥٠٠، ٧٦٣. الحديث (٣) من باب (١٦٧) في استحباب طلب الرفقة من رياض الصالحين].

وإذا كان التأخير في السفر واجبًا، فهو فيما هو أهم منه أوجب.

ومن هذا بعث الجيوش.

وفي غزوة مؤتة ما إن تجمع المسلمون في الجرف، لما نذبههم ﷺ لحرب الروم، حتى عيّن عليهم الأمراء: زيدًا وجعفرًا وعبد الله بن مسعود، ولعله أدرك ﷺ خطورة هذه الحرب، وتوقع إمكانية استحرار القتل في الجيش الإسلامي، فلم يكتف بتعيين قائد واحد عليهم، بل عيّن ثلاثة دفعة واحدة على أن يخلف أحدهم الآخر في حال سقوطه.

ولقد علق ابن حجر رحمته على هذا التأمير الثلاثي بقوله: «وفيه جواز تعليق الإمارة بشرط، وتولية عدة أمراء بالترتيب، وقد اختلف هل تنعقد الولاية الثانية في الحال أو لا؟ والذي يظهر أنها في الحال تنعقد، ولكن بشرط الترتيب، وقيل: تنعقد للأول فقط، وأما الثاني فبطريق الاختيار، واختيار الإمام مقدم على غيره لأنه أعرف بالمصلحة العامة». [فتح الباري (سلفية) ٧/ ٥٣١].

وأنا أميل إلى الرأي الأول.

ومن الأحكام المستفادة من هذه الغزوة في شأن الإمارة: أن المسلمين لا يجوز أن يبقوا دون أمير، فإذا غاب الأمير المعين لسبب من الأسباب، فلا بد من الاستخلاف، وهذا ما فعلوه في هذه الغزوة، إذ تفادى الأمراء الذين عينهم الرسول ﷺ، فقاموا بتأثير خالد بن الوليد رضي الله عنه عليهم، ولم يكن رسول الله ﷺ قد عينه، ولكنه أشار عليهم أن يرتضوا من بينهم من يروونه صالحاً لهذا الأمر فيما إذا قُتل القواد الثلاثة المعينون أصلاً.

قال ابن حجر تعليقاً على تأمير المسلمين لخالد رضي الله عنه: «وفيه جواز التأثر في الحرب بغير تأمير، قال الطحاوي: هذا أصل يؤخذ منه، أن على المسلمين أن يقدموا رجلاً إذا غاب الإمام يقوم مقامه إلى أن يحضر. وفيه جواز الاجتهاد في حياة النبي ﷺ». [فتح الباري ٧/ ٥٣١].

ومن الأحكام المتعلقة بهذا الشأن كذلك: أن المسلم يجب أن يتعد عن طلب الإمارة؛ لأنها، وإن كانت حلوة المذاق، مرة العاقبة، وهي أمانة ثقيلة قل من يقوم بحقها، ولا سيما إذ كان غير مهياً لحملها؛ ولذلك منعها رسول الله ﷺ أبا ذر رضي الله عنه قائلاً له: «يَا أَبَا ذَرٍّ! إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَآدَى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا». [مسلم في الإمارة (١٨٢٥)].

ويتعين هذا المنع على من يستشرف لها، فقد قال ﷺ: «إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ». [البخاري في الأحكام (٧١٤٩)، ومسلم في الإمارة (١٧٣٣)، واللفظ له].

ذلك أن من يتطلع إليه يضع في ذهنه جلب المنافع إلى نفسه بسببه، ولو تعارض ذلك مع المصلحة العامة، وعندها لن يكون قادراً على القيام بعمله على الوجه المطلوب؛ ولذا قال ﷺ لعبد الرحمن بن سمرّة بن جندب رضي الله عنه: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنِ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكُنْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا...».

[البخاري في كفارات الأيمان (٦٧٢٢) ومواضع أخرى، ومسلم في الإمارة (١٦٥٢)].

غير أن العلماء قالوا: يجوز للرجل أن يطلب الإمارة إذا ما رأى أنه أصلح لها من غيره، وبه تُحفظ وبغيره تفسد، وقد استنبطوا ذلك من قول يوسف عليه السلام لملك مصر: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي

حَفِيفٌ عَلَيْهِمُ ﴿٥٥﴾ [يوسف]، وعلّق ابن كثير على ذلك بقوله: «مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك، إذا جهل أمره للحاجة.. وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأل أن يجعله على خزائن الأرض وهي الأهراء التي يُجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]» [تفسير ابن كثير (الجلي) ٤٨٢/٢].

ينظر الآيتين: (٥٥، ٥٦) من سورة يوسف. [تجربة مؤتة لعنوم ٢٣٤-٢٣٦].

ويقول د/ البوطي: «دلت توصية النبي ﷺ على أنه يجوز للخليفة أو رئيس المسلمين أن يعلق إمارة أحد الناس بشرط وأن يولي المسلمين عدة أمراء بالترتيب، كما فعل الرسول ﷺ في تولية زيد ثم جعفر ثم عبد الله بن رواحه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال العلماء: والصحيح أنه إذا أمر الخليفة بذلك فإن ولاية الكل تنعقد بوقت واحد في الحال، ولكنها لا تنفذ إلا مرتبة. [فتح الباري ٣٦١/٧].

ودلت توصية الرسول ﷺ أيضًا على مشروعية اجتهد المسلمين في اختيار أميرهم إذا غاب أميرهم، أو وكل إليهم الخليفة اختيار من يرون، وقال الطحاوي: هذا أصل يؤخذ منه أن على المسلمين أن يقدموا رجلًا إذا غاب الإمام يقوم مقامه إلى أن يحضر، كما دلت التوصية على مشروعية اجتهد المسلمين في حياة النبي ﷺ. [فقه السيرة للبوطي ٢٧٤-٢٧٥].

ويقول د/ بريك: «قال ابن حجر: «وفي الحديث جواز تعليق الإمارة بشرط». [فتح الباري ٥١٣/٧]. وقال العامري، في التوشيح: «يؤخذ منه جواز ولاية الوظائف تعليقًا، وهو دليل قويٌّ جدًّا».

[بهجة المحافل ١/ ٣٩٠-٣٩١، وينظر: البغوي: شرح السنة ٥/١١].

وقال ابن حجر: «وفيه جواز تولية عدة أمراء بالترتيب، وقد اختلف: أتنعقد الولاية الثانية في الحال أم لا؟ والذي يظهر أنها في الحال تنعقد، ولكن بشرط الترتيب، وقيل: تنعقد للأول فقط، وأما الثاني فبطريق الاختيار، واختيار الإمام مقدم على غيره لأنه أعرف بالمصلحة العامة». [فتح الباري ٥١٣/٧].

وفيه جواز التأثر في الحرب بغير تأمير، قال البيهقي: «وفيه دلالة على أن الناس إذا لم يكن عليهم أمير، ولا خليفة أمير، فقام بإمارتهم مَنْ هو صالح للإمارة، وانقادوا له، انعقدت ولايته».

[السنن الكبرى ٨/ ١٥٤].

وذكر البغوي -نقلًا عن الخطابي: «أنَّ خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تأمَّر عليهم بعد ما أصيب الأمراء، من غير تأمير من النبي ﷺ لكان الضرورة، وذلك أنه نظر فإذا هو في ثغر مخوف لم يأمن فيه ضياع المسلمين، فأخذ الراية، وتولى أمر المسلمين، ورضيه رسول الله ﷺ، فصار هذا أصلًا في كل أمر حدث مما سبيله أن يتولاه

الأئمة، ولم يشهدوه، وخيف عليه الضياع، إن القيام به واجبٌ على من شاهده من جماعة المسلمين، وإن لم يتقدّم منهم في ذلك، وكذلك إن وقع ذلك في واحدٍ خاصٍّ، نحو أن يموت رجلٌ بفلاة، فإنّ على من شاهده حفظ ماله وإيصاله إلى أهله، وإن لم يوص به، كما يجب تكفينه وتجهيزه؛ لأنّ أمر الدّين على التّعاون والتّناصح» [شرح السنة ٥/١١، فتح الباري ٥١٣/٧]. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشّالية لبريك ٣٦٠-٣٦١].

٣- التوديع:

يقول د/ عتوم: «يُسن التوديع للمسافر في المصالح المختلفة كالتيجارة والحج والعلم والغزو والسياحة وغيرها، وقد يكون من المسافر للمقيم أو العكس.

ويبدو أن الأول أكثر سُنيّة، وإن كان الثاني أكثر وقوعاً. [فتح الباري (سلفية) ٦/١١٥].

وفي المواهب اللدنية للزرقاني أن الخروج إلى خارج البلد مع المسافر أصل. [ينظر: ج ٢ ص ٢٦٩]. ولعل في ذلك تأنيساً له وتشجيعاً وإكراماً وتطميناً.

وهو المعروف عند الناس بالتشيع، وقد كان من دأبه ﷺ أن يودّع المسافرين ويزودهم بنصائحه ووصاياه الشريفة، فلما استأذنه عمر رضي الله عنه في العمرة، وأذن قال له ﷺ: «لَا تَنْسَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ [أَشْرِكُنَا يَا أَخِي فِي دُعَائِكَ]»، فَقَالَ (عمر رضي الله عنه): كَلِمَةً مَا يُسِّرُنِي أَنْ لِي بِهَا الدُّنْيَا.

[أبو داود في الصلاة (١٤٩٨)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

ويتجلى هذا الجانب من وصاياه ﷺ وفي وداعه للجيش الغازیة، ومن هذا القبيل ما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه بقوله: (بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْثٍ، وَقَالَ لَنَا: «إِنْ لَقِيتُمْ فَلَانًا وَفَلَانًا - لِرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ سَتَاهُمَا - فَحَرِّقُوهُمَا بِالنَّارِ»، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْنَاهُ نَوْدَعُهُ حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ، فَقَالَ: «إِنِّي كُنْتُ أَمُرُّكُمْ أَنْ تَحْرَقُوا فَلَانًا وَفَلَانًا بِالنَّارِ، وَإِنَّ النَّارَ لَا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ أَخَذْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا».

[أبو داود في سجود القرآن (١٤٩٨)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٤)، ومسنند أحمد ٣٢٦/١ رقم ١٩٥، وقال الشيخان الألباني والأرنؤوط: إسناده ضعيف. رياض الصالحين باب (٩٦) في وداع الصّاحب الحديث الثاني].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ الْخَطْمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَوْدِعَ الْجَيْشَ قَالَ: «أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكُمْ وَأَمَانَتَكُمْ وَخَوَاتِيمَ أَعْمَالِكُمْ». [أبو داود في الجهاد (٢٦٠١)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وفي غزوة مؤتة لما تهبّ المجاهدون للانطلاق لأرض الروم من معسكر الجرف، ودّع الناس أمراء رسول الله ﷺ، ودعوا لهم: «صَحِبْكُمْ اللَّهُ، وَدَفَعْ عَنْكُمْ، وَرَدَّكُمْ إِلَيْنَا صَالِحِينَ»، فبكى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وتفكر أنّي له أن يجتاز الصراط إلى رضوان الله، بعمله الذي يستزده؛ ولذلك ما إن سمع دعاء المسلمين له ولإخوانه بالعودة حتى انطلق يشدو: لكنني أسأل الله الموت في سبيله شهيداً.

ويذكر الواقدي أنه لما ودّع رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في غزوة مؤتة، طلب منه عبد الله رضي الله عنه أن يزوده بنصائح يحفظها عنه، فقال له: «إِنَّكَ قَادِمٌ غَدًا بَلَدًا، السُّجُودُ بِهِ قَلِيلٌ فَأَكْثِرِ السُّجُودَ»، قَالَ عَبْدُ

الله ﷺ: زِدْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ ﷺ: «أَذْكُرُ اللَّهَ فَإِنَّهُ عَوْنٌ لَكَ عَلَى مَا تَطْلُبُ»، فَقَامَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى إِذَا مَضَى ذَاهِبًا رَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوَثَرَ، قَالَ ﷺ: «يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، مَا عَجَزْتَ فَلَا تَعْجِزَنَّ، إِنَّ أَسَاَتَ عَشْرًا أَنْ تُحْسِنَ وَاحِدَةً»، فَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ ﷺ: لَا أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٥٨].

وفي السيرة النبوية أن المسلمين لما تهيؤوا للخروج إلى مؤتة، أتى عبد الله بن رواحة ﷺ رسول الله ﷺ فودعه ثم أنشده قوله:

أَنْتَ الرَّسُولُ فَمَنْ يُحَرِّمُ نَوَافِلَهُ وَالْوَجْهَ مِنْهُ فَقَدْ أَرَزَى بِهِ الْقَدَرُ
فَتَبَّتْ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ فِي الْمُرْسَلِينَ وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا
إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً فِرَاسَةً خَالَفَتْ فِيكَ الَّذِي نَظَرُوا

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٤].

فقال رسول الله ﷺ: وأنت فتبتك الله يا ابن رواحة. [السهيلي، الروض الأنف ٤/ ٨١].

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم، قال عبد الله بن رواحة:

خَلَفَ السَّلَامَ عَلَى امْرِئٍ وَدَعْتُهُ فِي النَّخْلِ خَيْرٌ مُشِيعٍ وَخَلِيلٍ

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٤].

ومن دعواته ﷺ للمسافر، إذا ما أتى يودعه ويستدعيه ربه له، قوله لمسافر: «زَوَّدَكَ اللَّهُ التَّقْوَى، فَلَمَّا قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: غَفَرَ ذَنْبَكَ، فَلَمَّا كَرَّرَ الاستزادة، قَالَ: وَيَسِّرْ ذَلِكَ الْخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ» [رياض الصالحين باب (٩٦) في وداع صاحب حديث رقم (٥)]. [تجربة مؤتة لعنوم ٢٣٦-٢٣٨].

ويقول د/ أبو فارس: «استنبطنا من هدي رسول الله ﷺ وهدي أصحابه ﷺ في هذه السرية، فقد خرج وأصحابه يودعون جيش مؤتة.

ويلوح لي أن وراء ذلك حكمة أو أكثر، ولقد انقذ في روعي أن هذا الوداع له أثره الفعال في نفوس الغزاة، إذ يقوي عزائمهم، ويشحذ همهم أن يودعهم القائد الملهم محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ، إنه ما من شك أن وداع الرسول ﷺ قد شحنتهم شحنة إيمانية، ورفع معنوياتهم القتالية.

وهذا الشعب الذي اجتمع يودعهم ويتمنى من قلبه النصر المؤزر لهم، قد ترك في نفوسهم أثراً كبيراً، فهم الذين يؤملون عليهم الثأر لكرامة سفير رسول الله ﷺ، ويؤملون عليهم الحفاظ على هيبة الدولة الإسلامية، وهم يرقبون ويتربصون ساعة عودتهم وهم مكللون بأكاليل النصر.

وحين يستشعر الجند هذا ينطلقون باندفاع وإصرار لقتال الأعداء ويثبتون في ساحات الوغى؛ ليحققوا آمال الأمة فيهم». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٤٧].

٤ - استحباب الدعاء للمجاهدين:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما فعله شعب المدينة وأقره رسول الله ﷺ فقد علمت أنهم دعوا لهم الله بالصلاح والنصر.

والدعاء للمجاهدين من أفضل المساعدات القوية المؤثرة التي يقدمها غير المقاتلين للمجاهدين، إذ الدعاء سلاح من أقوى الأسلحة، وعامل من عوامل النصر على العدو، لا سيما وقد ندب الله إليه في وقت الرخاء والشدة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَنَتِي لَعَنَتُهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة].

وفي دعاء الشعب للمجاهدين فائدة أخرى، هذه الفائدة تتلخص في أن هذا الشعب يعيش قضية المجاهدين ويتضامن معهم ويتعاطف، فيشاركهم المشاعر، ويعبر عن هذا التعارف والتراحم والتعاطف برفع أكف الضراعة إلى الله جلّت قدرته، وعزت عظمته، بالدعاء الحار بأن ينصر إخوانهم المجاهدين وأن يردهم سالمين غانمين مأجورين.

ومما يجدر ذكره أن المسلمين في هذه الأيام يغفلون عن هذا السلاح الخطير، فلا يكثر من الدعاء لإخوانهم المجاهدين، ولا يلحدون في الدعاء أثناء الليل وأطراف النهار في السر والعلن، والأصل دوام الدعاء واستمراره مع الإخلاص من الداعين، والله ﷻ يستجيب لدعاء الصالحين، ويسر لعباده المجاهدين من أسباب النصر ما لا يخطر ببال واحد منهم ولا من غيرهم.

وفي هذا المقام أذكر أخي القارئ بالدعاء للمجاهدين في فلسطين، والمجاهدين في أفغانستان، والمجاهدين في كل مكان على وجه المعمورة، كما أذكر بالدعاء للدعاة أن يشرح الله صدورهم للحق، وأن يعينهم على حمله والثبات عليه». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٤٧-٤٨].

٥ - يُشرع قول الشعر والاستماع إليه:

يقول د/ أبو فارس: «فقد قرض الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة ؓ الشعر بحضرة رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه الرسول ﷺ، إن الشعر المنهي عنه هو الشعر الذي قيل فيه وأصحابه: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ [الفرقان] أَلَرَأَيْتُمْ فِي كُلِّ نَادٍ بِهَيْمُونَ» [الشعراء].

أما الشعر إذا كان رسالة خير، نبيل المقصد والغاية، فهو ممدوح وأهله كذلك، وفي هذا النوع من الشعراء قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَىٰ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء].

وما شعر ابن رواحة ؓ إلا من هذا القبيل، نبيل المقصد والغاية مملوء بحكمة ونصحاء وإرشادًا.

ونلمح من شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه رثاء نفسه وهذا لا بأس به، وفي الوقت ذاته نجد شعره دعوة صريحة لكل الناس أن يسلكوا طريق الجهاد، طريق الشهادة، وهذا هو طريق الهداية.
تأمل قوله رضي الله عنه:

حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدِّثِي أُرْشِدَهُ اللَّهُ مِنْ غَايٍ وَقَدْ رَشَدَا

[الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٤٨-٤٩].

٦ - جواز تمني الشهادة:

يقول د/ أبو فارس: «ففي الأبيات التي نطق بها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يظهر واضحا وجلليا تمني عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الشهادة، وهذا ليس من قبيل تمنى الموت المنهي عنه، فالأخير نابع من ضيق في النفس وسأمة في الحياة، ومَلَل من الظروف، ولهذا نهى الإسلام عنه فقال رسول الله ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ مِنْ ضَرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَأَعْلًا فَلْيُقِلِّ: اللَّهُمَّ أَحْنِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي». [البخاري في المرضى (٥٦٧١)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٨٠)، وأبو داود في الجنائز (٣١٠٨)، والترمذي في الجنائز (٩٧٠)، والنسائي في الجنائز (١٨٢٠)، ومسنند أحمد ٧٣/١٩ رقم ١٢٠١٥، ٢١/٢٠٠ رقم ١٣٥٧٩].

وأما طلب الشهادة فممدوح شرعا، كما تمنّاها ابن رواحة رضي الله عنه في الشعر الذي أنشده في حضرة رسول الله ﷺ. [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٤٩].

٧ - جواز عقرب الدابة لئلا ينتفع بها العدو:

يقول د/ أبو فارس: «أخذ هذا الحكم من فعل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وإقرار الرسول ﷺ لهذا الفعل بعد بلوغه إياه إذ لم ينكره.

ويؤخذ من هذا أيضًا: جواز تدمير السلاح وسائر المعدات الحربية والحصون إن تأكد أن العدو سيستولي عليها ويستفيد منها في حربه ضد المسلمين». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٥-٦٦].

يقول د/ بريك: «أما عقرب جعفر رضي الله عنه لفرسه، فاختلف في حكمه، فقد علق أبو داود على حديث عقرب جعفر رضي الله عنه لفرسه في المعركة بقوله: «ليس هذا الحديث بالقوي، وقد جاء نهي كثير من أصحاب رسول الله ﷺ عن تعذيب البهائم وقتلها عبثًا». [السُنَن ٣/٦٢-٦٣].

قال السهيلي: «وأما عقرب جعفر فرسه، ولم يعب ذلك عليه أحد، فدلّ على جواز ذلك إذا خيف أن يأخذها العدو، فيقاتل عليها المسلمين، فلم يدخل هذا في باب النهي عن تعذيب البهائم وقتلها».

[الروض الأنف ٧/٣٦-٣٧].

وقال الشامي: «واختلف العلماء في الفرس يعقره صاحبه لئلا يظفر به العدو، فرخص فيه مالك، وكره ذلك الأوزاعي، والشافعي واحتج الشافعي بحديث النبي ﷺ: «مَا مِنْ إِنْسَانٍ قَتَلَ عُصْفُورًا فَمَا

فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا إِلَّا سَأَلَهُ اللَّهُ ﷻ عَنْهَا» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ: «يَذْبَحُهَا، فَيَأْكُلُهَا، وَلَا يَقْطَعُ رَأْسَهَا بِرُمِي بِهَا». [النسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٩)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

واحتج بنبيه ﷺ عن قتل الحيوان إلا لمأكله، قال: وأما أن يعقر الفرس من المشركين فله ذلك، لأن ذلك أمر يجد به السبيل إلى قتل مَنْ أمر بقتله. [سبل الهندي والرشاد ٦/٢٤٩].

وقال ابن كثير: «وقد استدل من جواز قتل الحيوان خشية أن ينتفع به العدو - كما يقول أبو حنيفة - في الأغنام إذا لم تتبع في السير، ويُخشى من حقوق العدو وانتفاعهم بها أنها تُذبح وتحرق ليُحال بينهم وبين ذلك. والله أعلم». [البداية والنهاية ٤/٢٤٤].

وقال ابن قدامة: «ويقوى عندي أن ما عجز المسلمون عن سياقه وأخذه، إن كان مما يستعين به الكُفَّار في القتال، كالخيل، جاز عقره وإتلافه، لأنه مما يحرم إيصاله إلى الكُفَّار بالبيع، فتركه لهم بغير عَوْضٍ أولى بالتحريم، وإن كان مما يصلح للأكل فالمسلمين ذبحه والأكل منه مع الحاجة وعدمها، وما عدا هذين القسمين لا يجوز إتلافه؛ لأنه مجرد إفساد وإتلاف، وقد نهى النبي ﷺ عن ذبح الحيوان لغير مأكله».

[المغني ١٣/١٤٦]. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشبالية لبريك ٣٦٢-٣٦٤].

ويقول أ/ باشميل: «قلت: لا غبار على شرعية ووجاهة صنيع الشهيد جعفر ﷺ حين عقر فرسه بعد أن أحاط به العدو؛ لأنه الخيل في ذلك العصر أهم سلاح حربي، وهو بمثابة سلاح المدرعات في هذا العصر، فجعفر قد عقر فرسه لثلاث يتنفع به العدو، وفي العصر نرى أن من أهم التعليمات للمحاربين أن يتلفوا أي سلاح في أيديهم يكونون غير قادرين على استخدامه، يخشون أن ينتفع به العدو».

[غزوة مؤتة لباشميل ١٩٤].

ويقول د/ عتوم: «إن الحرب مع العدو تعني أن تستعد له على كل مستوى مادي ومعنوي، وتمنع عنه جميع أسباب القوة، وتباغته في الهجوم وتخدعه عن نفسه، وتحوّل دون انتفاعه بمصادر السلاح الذاتي أو المكتسب».

ومثال الحيلولة بين العدو وانتفاعه من مصادر القوة، ما فعله المسلمون يوم بدر بمشورة الحباب بن المنذر ﷺ من إفساد المياه أمام المشركين بدفنها وطمسها [ابن هشام، السيرة النبوية (الخلي) ١/ ٦٢٠]، بحيث لم يبق منها إلا ما كان بيد المسلمين.

ومن هذا القبيل ما حصل في مؤتة من عقر جعفر ﷺ لفرسه عندما تضايق به المقدم، إذا نزل يصارع القوم بسيفه ويطاعن برمح، وكان هذا التصرف منه حيلولة بين الروم وبين اتخاذهم من جواده سلاحاً يحاربون به المسلمين.

وقد كان جعفر في هذا أول من نحر جواده في المعركة.

ولقد صور أحمد محرم هذا التصرف منه على هذا الاعتبار الذي سقته آنفاً، فقال:

وَأَنْتَ يَا جَعْفَرُ الْمَأْمُولُ مَشْهُدُهُ خُذِ اللَّوَاءَ وَجَاوِزْ غَايَةَ الْأَمَلِ
هَذَا جَوَاذُكَ مَا حَالَتْ سَجِيَّتُهُ وَلَا ارْتَضَى بِوَفَاءِ الْحَرِّ مِنْ بَدَلٍ
عَقَرْتَهُ وَرَكِبْتَ الْأَرْضَ تَمَتُّعُهُ مَوَاطِنَ السُّوءِ مِنْ ضَنٍّْ وَمِنْ بَخَلٍ^(١)
أَكْرَمْتَهُ وَحَرَمْتَ الْقَوْمَ نَجْدَتُهُ فَضُنْتُ نَفْسَكَ عَنْ لَوْمٍ وَعَنْ عَدَلٍ^(٢)

ولقد كان سكوت رسول الله ﷺ على هذا العمل من جعفر رضي الله عنه، نوعاً من الإقرار به، دل على مشروعيته.

قال ابن كثير معلقاً على عقر جعفر رضي الله عنه فرسه في المعركة: «وهذا الحديث قد رواه أبو داود من حديث أبي إسحاق، ولم يذكر الشعر [أبو داود في الجهاد (٢٥٧٣)]، وقال الشيخ الألباني: حسن»، وقد استدل به مَنْ جَوَّزَ قتل الحيوان خشية أن يَنْتَفِعَ به العدو، كما يقول أبو حنيفة في الأغنام إذا لم تَتَّبِعْ في السَّيْرِ، ويُخْشَى من لحوق العدو وانتفاعهم بها، أنها تُذْبِح وتُحْرَق؛ ليحال بينهم وبين ذلك. [البداية والنهاية ٦/ ٤٢٠-٤٢١].

وقال السهيلي: ولم يُنْكَر أحد على جعفر رضي الله عنه، فدل على جوازه إذا خِيف أخذ العدو له، ولا يدخل ذلك في النهي عن قتل الحيوان عبثاً.

غير أن السهيلي في الروض الأنف أورد عن أبي داود حُكماً في هذا الحديث قد يحدش الاعتماد عليه في تجويز هذا التصرف، وهو قوله عنه: «ليس بالقوى، وقد جاء فيه نهي كثير عن أصحاب النبي ﷺ». [الروض الأنف ٤/ ٤٦١].

ولست أدري ما العلة التي اعتمدها أبو داود لتضعيف الحديث، وقد رواه بالسند عن شاهد عيان في المعركة، وكيف نهى عنه كثير من أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يرد عنه ﷺ نهي عن ذلك؟! وقوله: نهى عنه كثير من أصحاب رسول الله ﷺ، يدل على أن بعضهم جَوَّزه، أما أنا فلا أظن إلا أنه جائز. والله أعلم.

وهناك مسألة قريبة من هذا الأمر، يكثر طرحها في هذا العصر، وهي: هل يجوز لمسلم وقع في المعركة أسيراً بيد العدو، أن يَقْتُل نفسه مخافة أن ييُوح له بأسرار الجيش - تحت ضغط التعذيب والإرهاب - وخاصة إذا كان ممن يحتقب في ذهنه أو في وثائقه، معلومات خطيرة عن هذا الجيش؟! ولقد ترددت أجوبة متباينة في هذا الخصوص لا أظنها تقوى على الإفتاء بهذا العمل اعتماداً على دليل صحيح.

(١) عقره: نحره.

(٢) عدل: ملامة.

وفي رأيي أن مثل هذا العمل مهما كانت الادعاءات المقدّمة بين يديه نوع من الانتحار الذي هو أشد أوضاع الانهزام النفسي.

وهو محرم شرعاً لقوله ﷺ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء].

ومصير فاعله النار بنص حديث رسول الله ﷺ وهو قوله: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فُسُمُهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ [يَتَوَجَّأُ] بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا». [البخاري في الطب (٥٧٧٨)، ومسلم في الإيمان (١٠٩)].

وإذا كان لا بد من الموت فليكن بيد الأعداء ليموت شهيداً، لا بيده فيموت هالِكاً يتردد في نار جهنم، ثم ليصبر على عذاب العدو وأذاه ويحتسبه عند الله الذي لن تضيع عنده أجور الصالحات، ومن ثم فسيجعل الله له من بعد عسر يسراً، ومن بعد ضيق فرجاً، ومن كل هم مخرجاً.

[تجربة مؤنة لعوم ٢٣٨-٢٤٠].

٨ - جواز الصيام في الحرب:

يقول د/ عتوم: «ورد في بعض أخبار غزوة مؤتة أن جعفر بن أبي طالب ﷺ، كان صائماً أثناء القتال، ففي السيرة الحلبية أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أتاه آخر النهار وهو مستلق، فعرض عليه الماء، فقال: إني صائم، فضعه في ترسي عند رأسي، فإن عشت حتى تغرب الشمس، أفطرت، قال ابن عمر: فمات صائماً قبل غروب الشمس شهيداً. [ينظر: السيرة الحلبية ٦٩/٣].

وإذا صح هذا الخبر - فما حكم الصيام في الحرب، علماً بأنني أرجح أن الصيام - هنا إن صح - هو صيام تطوع لا صيام فريضة؛ لأن المسلمين خرجوا للمؤتة في جمادى الأولى، وبينهم وبين رمضان ما يقرب من شهرين ونصف، ولا أظن رمضان قد أظلمهم في تلك الواقعة؟

إن السفر في رمضان من مَرَخَصَاتِ الإفطار، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فإذا كان السفر للقتال في سبيل الله، فالرخصة تصبح أكثر قوة من ذي قبل.

وقد رَخَّصَ ﷺ في إفطار رمضان للمجاهدين، وذلك في فتح مكة، جاء في السيرة لابن هشام (٤٠٠/٢) أنه (خَرَجَ لِعَشْرِ مَضِينَ مِنْ رَمَضَانَ، فَصَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَصَامَ النَّاسُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْكُدَيْدِ، بَيْنَ عُشْفَانَ وَأَمَجٍ أَفْطَرَ).

ولكن هل إفطاره ﷺ مُلْزَمٌ للناس؟ وما حكم من يستمر على صومه، وخاصة إذا وجد في نفسه قوة على ذلك؟

إذا كانت المسألة مسألة ترخيص، دون أن يعزم رسول الله ﷺ على المسلمين، فالأمر سواء: الإفطار والصيام، لأنها كما قال ﷺ: «هِيَ رُحْصَةٌ مِنَ اللَّهِ، فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُومَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ». [مسلم في الصيام (١١٢١)، والنسائي في الصيام (٢٣٠٣). ينظر في هذا المعنى: سنن ابن ماجه ١/ ٥٣١].

أما إذا عزم عليهم في ذلك فيتعين إفطارهم، وإلا كانوا عصاة لمخالفتهم لأمره، كما جاء الحديث في ذلك عند مسلم والنسائي والترمذي.

وقد عرض ابن القيم رحمه الله للمسألة، وقرر أنها للجواز، وإن تقوى هذا الجواز في حال الحرب، قال: «وَسَافَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ، فَصَامَ وَأَفْطَرَ، وَخَيَّرَ الصَّحَابَةَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ.

وَكَانَ يَأْمُرُهُمْ بِالْفِطْرِ إِذَا دَنَوْا مِنْ عَدُوِّهِمْ لِيَتَّقَوْا عَلَى قِتَالِهِ.

فَلَوْ اتَّفَقَ مِثْلُ هَذَا فِي الْحَضَرِ وَكَانَ فِي الْفِطْرِ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ فَهَلْ لَهُمُ الْفِطْرُ؟

فِيهِ قَوْلَانِ أَصَحُّهُمَا دَلِيلًا: أَنَّ لَهُمْ ذَلِكَ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَبِهِ أَفْتَى الْعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ لَمَّا لَقُوا الْعَدُوَّ بِظَاهِرِ دِمَشْقَ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْفِطْرَ لِذَلِكَ أَوَّلَى مِنَ الْفِطْرِ لِمُجَرِّدِ السَّفَرِ، بَلْ إِبَاحَةُ الْفِطْرِ لِلْمُسَافِرِ تَنْبِيْهُ عَلَى إِبَاحَتِهِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، فَإِنَّهَا أَحَقُّ بِجَوَازِهِ؛ لِأَنَّ الْقُوَّةَ هُنَاكَ تَخْتَصُّ بِالْمُسَافِرِ وَالْقُوَّةَ هُنَا لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ؛ وَلِأَنَّ مَشَقَّةَ الْجِهَادِ أَعْظَمُ مِنْ مَشَقَّةِ السَّفَرِ، وَلِأَنَّ الْمَصْلَحَةَ الْحَاصِلَةَ بِالْفِطْرِ لِلْمُجَاهِدِ أَعْظَمُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ بِفِطْرِ الْمُسَافِرِ؛ وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وَالْفِطْرُ عِنْدَ اللَّقَاءِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ فَسَّرَ الْقُوَّةَ بِالرَّمِي، وَهُوَ لَا يَتِمُّ وَلَا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودُهُ إِلَّا بِمَا يَقْوِي وَيُعِينُ عَلَيْهِ مِنَ الْفِطْرِ وَالْغَذَاءِ؛ وَلِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِلصَّحَابَةِ لَمَّا دَنَوْا مِنْ عَدُوِّهِمْ: «إِنَّكُمْ قَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ»، وَكَانَتْ رُحْصَةً، ثُمَّ نَزَلُوا مِنْزِلًا آخَرَ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ مُصْبِحُو عَدُوِّكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ، فَأَفْطِرُوا»، فَكَانَتْ عَزْمَةً [فَأَفْطَرْنَا] [مسلم في الصيام (١١٢٠)، وأبو داود في الصوم (٢٤٠٦)]، فَعَلَلْ بِدُنُوِّهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَاحْتِيَاجِهِمْ إِلَى الْقُوَّةِ الَّتِي يَلْقُونَ بِهَا الْعَدُوَّ، وَهَذَا سَبَبٌ آخَرُ غَيْرُ السَّفَرِ، وَالسَّفَرُ مُسْتَقِيلٌ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ فِي تَعْلِيلِهِ، وَلَا أَشَارَ إِلَيْهِ، فَالتَّعْلِيلُ بِهِ اعْتِبَارًا لِمَا أَلْغَاهُ الشَّارِعُ فِي هَذَا الْفِطْرِ الْخَاصِّ، وَإِلْغَاءُ وَصْفِ الْقُوَّةِ الَّتِي يَقَاوِمُ بِهَا الْعَدُوَّ، وَاعْتِبَارُ السَّفَرِ الْمُجَرَّدِ إِلْغَاءً لِمَا اعْتَبَرَهُ الشَّارِعُ وَعَلَّلَ بِهِ.

وَبِالْجُمْلَةِ: فَتَنْبِيْهُ الشَّارِعِ وَحِكْمَتُهُ يَقْتَضِي أَنَّ الْفِطْرَ لِأَجْلِ الْجِهَادِ أَوَّلَى مِنْهُ لِمُجَرِّدِ السَّفَرِ، فَكَيْفَ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى الْعِلَّةِ وَبَنَى عَلَيْهَا وَصَرَّحَ بِحُكْمِهَا، وَعَزَمَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَفْطِرُوا لِأَجْلِهَا.

وَيَذُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ عَيْسَى بْنُ يُونُسَ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «إِنَّهُ يَوْمٌ قِتَالٍ فَأَفْطِرُوا» [قال الشيخ الأرناؤوط: «رجاله ثقات»]، وَتَابَعَهُ سَعِيدُ بْنُ الرَّبِيعِ عَنْ شُعْبَةَ.

فَعَلَّلَ بِالْقِتَالِ، وَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ بِالْفِطْرِ بِحَرْفِ الْفَاءِ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَفْهَمُ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ أَنَّ الْفِطْرَ لِأَجْلِ الْقِتَالِ.

وَأَمَّا إِذَا تَجَرَّدَ السَّفَرُ عَنِ الْجِهَادِ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي الْفِطْرِ: هِيَ رُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ، فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُومَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ. [زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٥٢-٥٤].

وأخلص من ذلك بأن المسألة سواء في ذلك صوم الفريضة أم النافلة مسألة جواز، إلا إذا كان فيها عزيمة من رسول الله ﷺ فيتعين عندها الإفطار. [تجربة مؤنة لعنوم ٢٤٠-٢٤٢].

٩ - انعقاد الإمارة في الحرب لمن نَصَّبَ نفسه أميراً في حالة الضرورة:

يقول د/ الرشيد: «يُعد تولي إمارة الجيش من حق الإمام، فإن كان هناك ما يمنعه من مباشرة هذه الولاية فله أن يعيّن من يراه كفوّاً لتولي هذا المنصب.

ولا يجوز لأي شخص أن ينصّب نفسه قائداً لأي جيش إلا بإذن الإمام ما لم تكن هناك ضرورة تمنع من استئذان الإمام في هذا الأمر.

وقد تولى خالد رضي الله عنه إمرة الجيش مؤتة بعد مقتل أمرائه الثلاثة، وكان ذلك من غير تأمير النبي ﷺ له، بدليل ما ثبت في صحيح البخاري: «ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ غَيْرِ إِمْرَةٍ»، وفي رواية غيره: «وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْأُمَرَاءِ هُوَ أَمْرَ نَفْسِهِ»، وفي هذا دليل على نفوذ إمارة مَنْ أَمَرَ نفسه على جيش إذا وجدت ضرورة تمنعه من مراجعة إمامه.

قال ابن المنير رحمته الله: (إن من تعين لولاية وتعدرت مراجعة الإمام أن الولاية تثبت لذلك المعين شرعاً، وتجب طاعته حكماً). [فتح الباري ٦/ ١٨٠].

ولكن بشرط أن يتفق الحاضرون على ترشيحه لهذا المنصب لئلا يحدث من جرّاء الاختلاف عليه شقاق ونزاع يؤدي إلى اختلاف الكلمة.

قال ابن حجر رحمته الله: (ولا يخفى أن محله ما إذا اتفق الحاضرون عليه). [فتح الباري ٦/ ١٨٠].

قال ابن قدامة رحمته الله: (فإن بعث الإمام جيشاً وأمر عليهم أميراً فقتل أو مات فللجيش أن يؤمروا أحدهم كما فعل أصحاب النبي ﷺ في جيش مؤتة لَمَّا قُتِلَ أَمْرَاؤُهُمُ الَّذِينَ أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَمَرُوا عَلَيْهِمُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ رضي الله عنه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فرضي أمرهم وصوّب رأيهم). [المغنى لابن قدامة ٩/ ٢٠٣].

ونفوذ حكم القائد في مثل هذه الحالة يدخل تحت قاعدة: (إذا ضاق الأمر اتسع) [ينظر هذه القاعدة في: الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٨٣، والأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٨٤، والفقه الإسلامي في ثوبه الجديد (المدخل الفقهي العام، فقرة ٩٩٤/٢): للشيخ مصطفى أحمد الزرقاء، ط العاشرة، دار الفكر، بيروت، لبنان]، فإذا زالت تلك الضرورة فإن هذا الحكم يعود إلى أصله، فيجب الرجوع إلى الإمام في ذلك». [القيادة العسكرية للرشد ٥٤٨-٥٤٩].

١٠ - جواز وضع الألقاب للأبطال:

يقول د/ العيساوي: «ويمكن الاستدلال على جواز وضع الإلقاب للأبطال، حيث أطلق رسول الله ﷺ لقب سيف الله على خالد ؓ». [فقه السرايا للعيساوي ٢٠٧].

١١ - في أدب التعامل مع القائد:

يقول د/ الغضبان: «لقد رأينا الأدب العالي الأول لدى ثابت بن أقرم البديري الأنصاري ؓ الذي سلم الراية لخالد بن الوليد ؓ قائلاً له: (خُذِ الْمَوَاءَ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ! فَقَالَ: لَا أَخُذُهُ أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ، أَنْتَ رَجُلٌ لَكَ سِنَّ، وَقَدْ شَهِدْتَ بَدْرًا، قَالَ ثَابِتٌ ؓ: خُذْ أَهْمًا الرَّجُلُ! فَوَاللَّهِ مَا أَخَذْتُهُ إِلَّا لَكَ). [المغازي للواقدي ٧٦٤/٢].

والتزم المسلمون على جميع مستوياتهم السمع والطاعة للمسلم ابن الثلاثة شهور في إسلامه لعراقته وخبرته القتالية العظمى.

وتشهد صورة أخرى ينقلها لنا عوف بن مالك الأشجعي ؓ، وهو مثل خالد ؓ جديد العهد بالإسلام، إذ أسلم في خيبر، فعراقته في الإسلام لا تزيد على سنة على خالد ؓ، وروعة الحادثة أن يرويه عوف ؓ وهو المتهم فيها، لكنه يعلم أن الأمانة لا بد أن تؤدَّى لتتعلم الأجيال كلها من ذلك الجليل الفريد في التاريخ.

يحدثنا عوف ابتداءً عن بعض النماذج الفريدة التي جاءت من اليمن لتتصر دين الله: (خَرَجْتُ مَعَ زَيْدِ ابْنِ حَارِثَةَ ؓ فِي غَزْوَةِ مُؤَتَةَ، فَرَأَقَنِي مَدَيِّي مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ لَيْسَ مَعَهُ عِزُّ سَيْفِهِ، فَخَرَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جُرُورًا، فَسَأَلَهُ الْمَدَيِّي طَائِفَةً مِنْ جَلِيدِهِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَاتَّخَذَهُ كَهَيْئَةِ الدَّرَقِ، وَمَضَيْنَا فَلَقِينَا جُحُوشَ الرُّومِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أَشَقَرٌ عَلَيْهِ سَرَجٌ مُذْهَبٌ وَسِلَاحٌ مُذْهَبٌ، فَجَعَلَ الرُّومِيُّ يُغَرِّي بِالْمُسْلِمِينَ، فَقَعَدَ لَهُ الْمَدَيِّي خَلْفَ صَخْرَةٍ، فَمَرَّ بِهِ الرُّومِيُّ فَعَرَقَبَ فَرَسَهُ فُخْرًا، وَعَلَاهُ فَقَتَلَهُ وَحَارَ فَرَسَهُ وَسِلَاحَهُ).

هذه هي الجولة الأولى للمسلم اليمني الذي جاء من اليمن لا يملك إلا سيفه، وكان ترسه قطعة جلد من أخرق، وهذه حياته وثروته التي يملكها في هذه الدنيا، وينظر إلى ذلك الفارسي الذي تبرق الدنيا عنده بسلاحه المذهب، وسرجه المذهب، وهو يغزو المسلمين، ويفتك بهم، ويصفه الواقدي في روايته: (فَجَعَلَ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ يُسَلُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَيُغَرِّي بِهِمْ عَلَى فَرَسٍ أَشَقَرٍ).

كما نشهد الوصف الطريف لصناعة ترسه الجلدي (إِذْ نَحَرَ رَجُلٌ مِّنَ الْقَوْمِ جُرُورًا، فَسَأَلَهُ الْمَدْدِيُّ طَائِفَةً مِّنْ جِلْدِهِ، وَهَبَهُ لَهُ فَبَسَطَهُ فِي الشَّمْسِ وَأَوْتَدَ عَلَى أَطْرَافِهِ أَوْتَادًا، فَلَمَّا جَفَّ اتَّخَذَ مِنْهُ مِقْبِصًا وَجَعَلَهُ دَرَقَةً).
وتقدم لنا رواية الواقدي الوصف الثالث والأخير لمشهد قتل البطل الرومي: (فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْمَدْدِيُّ مَا يَفْعَلُ ذَلِكَ الرُّومِيُّ بِالْمُسْلِمِينَ كَمَنْ لَهُ خَلْفَ صَخْرَةٍ، فَلَمَّا مَرَّ بِهِ خَرَجَ عَلَيْهِ فَعَرَقَبَ فَرْسَهُ، فَقَعَدَ الْفَرَسُ عَلَى رِجْلَيْهِ وَخَرَّ عَنْهُ الْعِلْجُ، وَشَدَّ عَلَيْهِ فَعَلَاهُ بِسَيْفِهِ فَقَتَلَهُ). [المغازي للواقدي ٧٦٨/٢].

وتأتي الجولة الثانية التي يرويها لنا عوف رضي الله عنه: (فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ ﷻ لِلْمُسْلِمِينَ بَعَثَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رضي الله عنه فَأَخَذَ مِنَ السَّلْبِ).

قَالَ عَوْفٌ رضي الله عنه: فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: يَا خَالِدُ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِالسَّلْبِ لِلْقَاتِلِ، قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي اسْتَكْثَرْتُهُ، قُلْتُ: لَتَرُدَّنَّهُ عَلَيْهِ أَوْ لَأَعْرِفَنَّكَهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَبَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ.

قَالَ عَوْفٌ رضي الله عنه: فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّةَ الْمَدْدِيِّ، وَهَذَا فَعَلَ خَالِدٌ رضي الله عنه، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «يَا خَالِدُ! مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اسْتَكْثَرْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «يَا خَالِدُ! رُدَّ عَلَيْهِ مَا أَخَذْتَ مِنْهُ».

إلى هنا والأمر طبيعي، فقد أخطأ خالد القائد العام رضي الله عنه في أخذ شيء من سلب المقتول ولو كان سرجاً من ذهب وسلاحاً من ذهب، فهو حق محفوظ للأبطال الذين يجندلون أبطال المشركين كما يقول رضي الله عنه: «مَنْ قَتَلَ قِتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلْبُهُ» [البخاري في فرض الخمس (٣١٤٢)، وفي المغازي (٤٣٢٢)]، وفي الأحكام (٧١٧٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥١)، وأبو داود في الجهاد (٢٧١٧)، والترمذي في السير (١٥٦٦٢)، ومالك في الجهاد (٩٩٠)، وقام خالد رضي الله عنه لتنفيذ الأمر النبوي.

عنصر جديد دخل على الساحة وهو عنصر نفسي يحمل الرغبة في التشفي والاستعلاء، يحدثنا عنه عوف رضي الله عنه: (قَالَ عَوْفٌ رضي الله عنه: فَقُلْتُ لَهُ: دُونَكَ يَا خَالِدُ! أَلَمْ أَفِ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «وَمَا ذَلِكَ؟»، فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا خَالِدُ! لَا تَرُدَّ عَلَيْهِ...»). [أبو داود في الجهاد (٢٧١٩)، مسند أحمد ٣٩/٢٤-٤٢٥ رقم ٢٣٩٩٧، وقال الشيخان الألباني والأرنؤوط: إسناده صحيح].

وفي رواية مسلم: فَمَرَّ خَالِدٌ بِعَوْفٍ، فَجَرَّ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَعْظَبَ فَقَالَ: «لَا تُعْطِيهِ يَا خَالِدُ! لَا تُعْطِيهِ يَا خَالِدُ!».

[مسلم في الجهاد والسير (١٧٥٣)].

وعندما غدا الأمر تحدياً وتشفيّاً رفض رسول الله ﷺ إعادة بقية السلب للقاتل، أو إعادته له كله كما في رواية مسلم؛ لأن هذه الروح لا تتفق وجو الحب العبق الندي في الصف الإسلامي، إن فكرة التحدي

للقائد ولو كانت بالحق يرفضها الإسلام كما رأينا بغضب رسول الله ﷺ لذلك، وأسلوب إحقاق الحق عن طريق الإذلال والتشفي والتصغير أسلوب يأباه الإسلام ورسول الإسلام ﷺ، فلقد تقرر الحق قبل إعلان الاستعلاء النفسي، والمربي الأعظم ﷺ رأى أن هذا الاستعلاء على القائد المسلم ولو بالحق ثغرة يمكن أن تُضَيِّع هبة السلطان، والهدف الذي كان السلطان من أجله.

وأردف ﷺ الحكم العام الخالد: «هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أَمْرًا، إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتُرِعِيَ إِبِلًا أَوْ غَنَمًا فَرَعَاهَا، ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقِيهَا فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا، فَشَرَعَتْ فِيهِ، فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ وَتَرَكَتْ كَدْرَهُ، فَصَفْوُهُ لَكُمْ وَكَدْرُهُ عَلَيْهِمْ». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٥٣)].

لقد حدد الرسول ﷺ مهمة القائد هو أن يحقق الهناء والرغد لرعيته، يخطط لتحقيق هذا الرغد مثل ذلك الراعي الذي رعى إبله وتَحَيَّنَ سَقِيهَا، وليست مهمة القائد في الإسلام أن يبطر ويرغد ويميت شعبه، وتأتي هذه الإبل فتشرب الصفو الطيب، وتدع الكدر القذر.

«فَصَفْوُهُ لَكُمْ وَكَدْرُهُ عَلَيْهِمْ». فالتعاب الناشئة عن هذه السقاية يُسأل عنها الأمراء، وهو نوع من الرحمة العالية بالذين يقومون بتنفيذ شريعة الله، ويسهرون على هذه الرعاية، فالعانة التي يعانونها صعبة جدًا، وقد لا يصلون إلى الحق ويصيبونه فيذكرون برفق، ويُصحون بصدق.

أما التشهير مع الحاكم المسلم الصادق فمرفوض، وقد أوقف ﷺ هذا الحق [سبق توضيح الإمام النووي رحمه الله لاستشكال هذا الحديث]؛ لأنه رافقه تحد وجر رداء وتشف يأباه الإسلام مع أنه لا ذنب لمن حُرِمَ هذا الحق إلا تحدي غيره لقائده.

إنه درس عظيم بليغ نضعه بين يدي شبابنا المتحمس المندفع الذي يريد أن يذل الأمير لتحقيق مطالب مشروعة، وهو يحاسب على الصغير والقطمير دون أن يعذر مسؤولاً أو يقلل عثرة أمير، مع أن الذي يقوم بتطبيق الشريعة يجد أمامه الصعوبات الجمة العظيمة، والحديث عن الإسلام شيء، والقيام على تطبيقه شيء آخر، فلا بد أن تسود روح الأخوة بين الحاكم والمحكوم، وروح التفاهم والود بين الفريقين، ويتعاونوا على هذا التطبيق كما رأينا من خلال هذا النص العظيم.

وهذا الحق في السِّلَب ثابت، والمنع طارئ، وهذه الرغبة في الحصول عليه لا تتنافى وطهر الإيمان والزهد في الدنيا؛ لأن الذي يُعَرِّض نفسه للموت أو القتل حين يقدم على مبارزة أبطال المشركين وآسادهم لا يعتبر طمعاً منه أن يحرص على سلبه، وهذا خزيمة بن ثابت رضي الله عنه البدر العظيم يحدثنا عن نفسه قائلاً: (حَضَرْتُ مُؤْتَةَ، فَبَارَزْتُ رَجُلًا يَوْمَئِذٍ فَأَصَبْتُهُ، وَعَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ بَيْضَةٌ لَهُ فِيهَا يَاقُوتَةٌ، فَلَمْ يَكُنْ هَمِّي إِلَّا الْيَاقُوتَةَ فَأَخَذْتُهَا، فَلَمَّا انْكَشَفْنَا وَانْهَرْنَا رَجَعْتُ بِهَا الْمَدِينَةَ، فَأَتَيْتُ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَتَقَلَّبْنَاهَا، فَبِعْتُهَا زَمَنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ بِإِيَّاهُ دِينَارٍ، فَأَشْرَيْتُ بِهَا حَدِيقَةً نَحْلٍ بَنِي خَطْمَةَ).

إن التعامل مع النفس البشرية تعامل واقعي، ويجب ألا نتصور أن هذه النفوس ملائكة لا تحب ولا تكره ولا ترغب ولا تأنف، إنها بشر من البشر تقاتل وترغب الثواب وترغب بالغنيمة، ولم يعتبر الإسلام هذه الرغبة منقصة أو مثلبة في الرجل، إنه يقاتل في سبيل الله، ويُعرض نفسه للموت في سبيل الله، لكنه قد أوقف حياته على هذا الجهاد، فكيف تستقيم حياته، وينشئ أسرته إذا لم يأخذ حقه من الغنيمة، ولمعرفة رسول الله ﷺ بالنفس البشرية جعل السلب للقاتل تشجيعاً للمجاهدين كي يكسروا شوكة أعدائهم، ويفلوا بأسهم، لكن أن تكون الغنيمة هي الغاية، والقتال للغنيمة فهو المرفوض.

عن أبي موسى ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذكر، والرجل يُقاتل ليرى مكانه، (وفي رواية: الرجل يُقاتل حية، ويُقاتل شجاعة، ويُقاتل رياءً) فمن في سبيل الله ﷻ قال ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِيَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». [البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد، وسبق تحريجه التفصيلي في الدروس التربوية].

وقد ربط رسول الله ﷺ بين الجهاد في سبيل الله وبين نيل الأجر والغنيمة في أحاديث عدة منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «تَكْفَلُ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ، بَأَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُزَجَّعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرِ أَوْ غَنِيمَةٍ». [البخاري في فرض الخمس (٣١٢٣)، وفي التوحيد (٧٤٥٨)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦)، ومالك الجهاد (٩٧٤)].

وحتى نرى أثر الغنيمة في الحياة الواقعية نجد أن هذه الياقوتة قد باعها خزيمة ﷺ زمن عمر ﷺ فاشترى بها حديقة نخل، وبهذه الطريقة يكسب ويعف نفسه، ويعف ولده، ويكرم ضيفه، ويعمل ورثته أغنياء خيراً من أن يسألوا الناس ويتكففوهم أعطوهم أو منعوهم.

ولا ننسى أن خزيمة بن ثابت ﷺ هو الذي انفرد من بين هذه الأمة كلها بلقب ذي الشهادتين، فشهادته بشهادة رجلين، وهو من أصدق الصحابة على الإطلاق. [التربية الجماعية للغضب (١٥٧/١-١٦١)].

١٢ - جواز الاجتهاد في حياة النبي ﷺ:

يقول د/ القرشي: «استدل العلماء من تأمير الصحابة خالد بن الوليد ﷺ إلى جواز الاجتهاد في حياة النبي ﷺ. [فتح الباري ٦٢٨/٧، عمدة القاري ٣٥٩/١٧، فقه السيرة للبوطي ٢٦١].»

وقد اختلف أهل الأصول [ينظر: الأحكام للإمام الآمدي ١٧٥/٤، والأحكام للإمام ابن حزم ٦٩٨/٥، والمحصول للإمام الرازي ١٨/٦] في هذه المسألة على ثلاثة أراء:

الأول: يجوز الاجتهاد في زمنه ﷺ بحضرته وفي غير حضرته.

الرأي الثاني: لا يجوز بحال.

الرأي الثالث: لا يجوز بحضرته ﷺ، ويجوز في غير حضرته. [المنهاج شرح مسلم ٣٢٩].

الرأي الراجح: هو جواز الاجتهاد في زمنه ﷺ بحضرته وفي غير حضرته، ولكن هذا في أمور وأحكام جزئية، لا في أحكام عامة وشرائع كلية. [زاد المعاد ج ٢ / ١٦٠].

وقد حدث هذا على عهده في أمور كثيرة، منها: اجتهاد عمرو بن العاص ﷺ في التيمم [ينظر سرية ذات السلاسل في الباب التالي من هذا الكتاب]، وأبي عبيدة بن الجراح ﷺ في أكل ميتة البحر في سرية سيف البحر (الخطب) [رجب ٦هـ في مجموعة غزوة الأحزاب]، وغير ذلك. [مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ٢٣٧-٢٣٨].

١٣ - سلب القتيل لقاتله:

يقول د/ بريك: «وفي حديث المددي، وقصته مع خالد ﷺ، من الفقه، كما ذكر الخطابي: «أنَّ الفَرَسَ مِنَ السَّلْبِ، وَأَنَّ السَّلْبَ قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا؛ فَإِنَّهُ لِلْقَاتِلِ لَا يُحْمَسُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ أَمَرَ خَالِدًا ﷺ بِرَدِّهِ عَلَيْهِ مَعَ اسْتِكْثَارِهِ إِيَّاهُ، وَإِنَّمَا كَانَ رَدُّهُ إِلَى خَالِدٍ ﷺ بَعْدَ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ بِإِعْطَائِهِ الْقَاتِلَ نَوْعًا مِنَ النِّكَيرِ عَلَى عَوْفٍ [في شرح السنن ٣/ ١٦٤: «نَوْعًا مِنَ التَّكْبُرِ عَلَى مَعْرُوفٍ» وَهُوَ لَا يَسْتَقِيمُ مَعَ السِّيَاقِ. وَالتَّصْحِيحُ مِنْ شَرْحِ السَّنَةِ لِلْبَغَوِيِّ ١١/ ٣]، وَرَدَّعَا لَهُ وَزَجَّرَا لثَلَاثٍ يَتَجَرَّأُ النَّاسُ عَلَى الْأَثْمَةِ، وَلَثَلًا يَتَسَرَّعُونَ إِلَى الْوَقِيعَةِ فِيهِمْ، وَكَانَ خَالِدٌ مُجْتَهِدًا فِي صَنْعِهِ ذَلِكَ، إِذْ كَانَ قَدْ اسْتَكْثَرَ السَّلْبَ، فَأَمَضَى لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اجْتِهَادَهُ لِمَا رَأَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ خَطَاةً فِي الرَّأْيِ الْأَوَّلِ، وَالْأَمْرُ الْخَاصُّ مَغْمُورًا بِالْعَامِ، وَالْيَسِيرُ مِنَ الضَّرَرِّ مُحْتَمَلٌ لِلْكَثِيرِ مِنَ النِّفْعِ وَالصَّلَاحِ، وَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ عَوَّضَ الْمَدْدِيَّ مِنَ الْخُمْسِ الَّذِي هُوَ لَهُ، وَتَرَضَّى خَالِدًا ﷺ بِالصَّفْحِ عَنْهُ، وَتَسْلِيمِ الْحُكْمِ لَهُ فِي السَّلْبِ». [الخطابي: شرح سنن أبي داود، حاشية ٣/ ١٦٤، وينظر: البغوي: شرح السنة ٣/ ١١].

وقال النووي: «وهذا الحديث قد يستشكل من حيث إنَّ القاتل قد استحقَّ السلب، فكيف منعه إِيَّاهُ؟!، ويجب عنه بوجهين:

أحدهما: لعلَّه أعطاه بعد ذلك للقاتل، وإِنَّمَا أَخْرَجَهُ تَعْزِيرًا لَهُ، وَلِعَوْفِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ؛ لكونها أطلقا أَلَسْتَهُمَا فِي خَالِدٍ ﷺ، وَانْتَهَكََا حَرَمَةَ الْوَالِي وَمِنْ وَلَّاهُ.

الوجه الثاني: لعله استطاب قلب صاحبه فتركه صاحبه باختياره، وجعله للمسلمين، وكان المقصود بذلك استطابة قلب خالد ﷺ للمصلحة في إكرام الأمراء. [النووي على مسلم ١٢/ ٦٤].

وفي الحديث - أيضًا - دليلٌ على أَنَّ نسخ الشيء قبل الفعل جائز، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُ بِإِمْسَاكِهِ، قَبْلَ أَنْ يَرُدَّهُ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ نَسْخٌ لِحُكْمِهِ الْأَوَّلِ، ذَكَرَهُ الْخَطَّابِيُّ. [حاشية سنن أبي داود ٣/ ١٦٤]. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٣٦٥-٣٦٦، وينظر: مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ٢٤٨-٢٥٣، وقد سبق تفصيله في الدروس المستفادة من غزوة بدر الكبرى، المرحلة الثالثة، المبحث التاسع: الدروس المستفادة من قضية الأنفال].

١٤ - حكم الضرار في المعارك:

وقد سبق تفصيله في الدروس المستفادة من غزوة بدر الكبرى، المرحلة الثالثة، المبحث الثاني: الدروس الفقهية، وينظر: مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ٢٥٤-٢٥٧].

١٥ - البكاء على الميت:

يقول د/ بريك: «في حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، وقوله: «ثُمَّ أَهْل آل جعفر ثلاثًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَالَ: «لَا تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ».

قال ابن كثير: وهذا يقتضي أنه ﷺ أَرخص لهم في البكاء ثلاثة أيام، ثُمَّ نهاهم عنه بعدها.

[البداية والنهاية ٤/ ٢٥٢].

قلت: كانت الرخصة في البكاء العادي، وليس النياحة المنهي عنها ابتداءً». [غزوة مؤتة لبريك ٣٧٠].

وتحت عنوان «جواز البكاء على الميت، والنهي عن القدر الزائد عليه من صياح أو نياحة» يقول د/ القرشي: «استدل العلماء من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: لَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَتَلَ ابْنِ حَارِثَةَ وَجَعَفَرُ وَابْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنهما، جَلَسَ [رَسُولُ اللَّهِ ﷺ] فِي الْمَسْجِدِ يُعْرِفُ فِيهِ الْحَزْنَ، وَأَنَا أَنْظُرُ [أُطْلِعُ] مِنْ صَائِرِ الْبَابِ - [تُعْنِي مِنْ] سَقِّ الْبَابِ - فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: [أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ!] إِنْ نِسَاءَ جَعْفَرٍ، وَذَكَرَ بُكَاءَهُنَّ، فَأَمَرَهُ أَنْ [يَذْهَبَ] فَيَنْهَاهُنَّ، فَذَهَبَ [الرَّجُلُ] ثُمَّ أَتَاهُ [أَتَى] الثَّانِيَةَ [فَقَالَ: قَدْ نَهَيْتُهُنَّ، وَذَكَرَ أَنَّهُ] لَمْ يُطِغْنَهُ، فَقَالَ: [اْمُتْنَهُنَّ]، قَالَ: فَأَمَرَ أَيْضًا فَذَهَبَ، ثُمَّ أَتَى [فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ غَلَبْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَرَعَمْتَ أَنَّهُ قَالَ: [فَاحْتُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ]، فَقُلْتُ: أَرَعَمَ اللَّهُ أَنْفَكَ! [فَوَاللَّهِ] لَمْ [مَأْتَتْ] تَفْعَلْ مَا أَمَرَكَ [مَمَا قَالَ لَكَ] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ تَتْرَكَ [وَمَا تَرَكْتَ] رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَنَاءِ [الْعِي]». [البخاري في الجنائز ١٢٩٩، ١٣٠٥]، وفي المغازي (٤٢٦٣)، ومسلم في الجنائز (٩٣٥)، وأبو داود في الجنائز (٣١٢٢)، ومسند أحمد ٤٠/ ٣٦٣ رقم ٢٤٣١٣].

على جواز البكاء على الميت، والنهي عن القدر الزائد عليه من صياح أو نياحة. [فتح الباري ٧/ ٦٣٠].

وقد اختلف العلماء في البكاء على الميت على رأيين:

الأول: يكره البكاء على الميت، وهذا قول عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما، وغيرهما.

[الجامع الكبير للإمام الترمذي ٢/ ٣١٥].

دليلهم: حديث النبي ﷺ: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ الْحَيِّ عَلَيْهِ [أَهْلِهِ عَلَيْهِ]».

[البخاري في الجنائز ١٢٩٠، ١٢٩٢)، ومسلم في الجنائز (٩٢٧)].

وكان عمر رضي الله عنه يضرب فيه بالعصا ويرمي بالحجارة ويخشي بالتراب. [الجامع الصحيح ١/ ٣٥].

الثاني: جواز البكاء على الميت إذا لم يكن معه ندب ولا نياحة، وهو رأي جمهور العلماء، قال الإمام النووي: أجمع العلماء على اختلاف مذاهبهم أن المراد بالبكاء الذي يُعَذَّبُ المَيِّتُ عليه هو البكاء بصوت ونياحة، لا بمجرد دمع العين. [المهاج شرح مسلم ص ١٠١٢].

قال الإمام الشافعي: وأرخص في البكاء بلا ندب ولا نياحة لما في التَّوْح من تجديد الحزن ومنع الصبر وعظيم الإثم. [الحاوي الكبير ٦/٣].

قال الإمام أحمد: والبكاء غير مكروه إذا لم يكن معه ندب ولا نياحة. [المغني ٤٠٩/٢].

وقال صاحب القوانين الفقهية: تحرم النياحة، ولطم الخدود، وشق الجيوب، بخلاف البكاء للرحمة، ولا يعذب الميت ببكاء أهله عليه، إلا إذا أوصى بذلك. [القوانين الفقهية ص ١٩٨].

دليلهم: استدل الجمهور على قولهم بأدلة عدة منها:

حديث أنسٍ رضي الله عنه، قَالَ: شَهِدْنَا بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ عَلَى الْقَبْرِ، فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْمَعَانِ... [البخاري في الجنائز (١٣٤٢)].

وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قَالَ: اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه شَكْوَى لَهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةِ أَهْلِهِ [فِي غَشِيَةٍ]، فَقَالَ: «قَدْ قَضَى؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَبَكَى النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمَ بَكَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بَكَوْا، فَقَالَ: «أَلَا تَسْمَعُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ بِرَحْمٍ، وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذِّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»، وَكَانَ عُمَرُ رضي الله عنه: «يَضْرِبُ فِيهِ بِالْعَصَا، وَيَرْمِي بِالْحِجَارَةِ، وَيَحْنِي بِالتُّرَابِ». [البخاري في الجنائز (١٣٠٤)، ومسلم في الجنائز (٩٢٤)].

وحديث نعي جعفر وزيد وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه المتقدم.

وأجابوا على أهل الرأي الأول: بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧].

وقول أبي هريرة رضي الله عنه: والله لئن انطلق رجل مجاهد في سبيل الله فاستشهد، فعمدت امرأته سفهاً وجهلاً فبكت عليه، أيعذب هذا الشهيد بذنب هذه السفهية؟ [فتح الباري ١٨٨/٣].

وحديث السيدة عائشة رضي الله عنها، قَالَتْ: رَحِمَ اللَّهُ عُمَرَ، وَاللَّهِ مَا حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُعَذِّبُ الْمُؤْمِنَ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَزِيدُ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»، وَقَالَتْ: حَسْبُكُمْ الْقُرْآنُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧].

[البخاري في الجنائز (١٢٨٨)، ومسلم في الجنائز (٩٢٩)].

وقد جمع كثير من أهل العلم بين حديثي عمر وعائشة رضي الله عنهما بضروب من الجمع:

أولها: من كان النوح من ستنه كما قال الإمام البخاري.

ثانيها: إذا أوصى أهله بذلك، وبه قال المزني، وإبراهيم الحربي، وآخرون من الشافعية.

قال أبو الليث السمرقندي: إنه قول عامة أهل العلم، ونقله النووي عن الجمهور.

ثالثها: يقع ذلك أيضًا لمن أهمل نهي أهله عن ذلك، وهو قول داود وطائفة. [فتح الباري ٣/١٨٩].

الرأي الرابع: أن مجرد البكاء بدمع العين بلا صوت ولا نياحة أمر مباح، أما البكاء المصحوب بالصوت والنياحة فلا خلاف أنه حرام باتفاق، أما البكاء الذي يُعذَّب عليه الميت هو: من وصى بأن يُبكي عليه ويُتأخَّر بعد موته، فنذت وصيته، فهذا يعذب ببكاء أهله عليه ونوحهم؛ لأنه بسببه ومنسوب إليه، أما من بكى عليه أهله ونأخو من غير وصية منه فلا يعذب لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧]؛ لأن هذه كانت عادة العرب، فخرج الحديث مطلقًا حملاً على ما كان معتاداً لهم. [صحيح مسلم ٢/٦٣٨، المنهاج ٥٩٨، النهر الفائق ١/٤٠٤].

[مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ٢٤٢-٢٤٧].

١٦ - جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفى:

يقول د/ أبو فارس: «أخذ هذا من فعل أسماء بنت عميس رضي الله عنها حينما نعى النبي ﷺ زوجها ومن معه، فبكت وصاحت، فلم ينكر عليها النبي ﷺ ولم ينهها عن ذلك، ولو كان ممنوعاً لنهاها عن ذلك، والبكاء الذي نهى عنه الإسلام هو ما كان سائداً عند أهل الجاهلية من النواح واللطم وشق الجيوب، والتبرم بقضاء الله وقدره، وما إلى ذلك مما يكون سبباً في معصية الخالق سبحانه».

[الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٨].

١٧ - حكم نعي المتوفى:

تحت عنوان «سنن الوفاة وأحكامها» يقول د/ العتوم: «وأعني بها التعاليم الإسلامية المتبعة في حالة الموت من: نعي، ودفن، وتحزن، وتعزية، إذ أن للإسلام في هذه الأمور أحكامه الواضحة التي تتميز عما في غيره من الملل والنحل من عادات وتقاليد.

ولقد أصيب المسلمون في غزوة مؤتة بقتل بعض ساداتهم، فكيف تلقوا أخبار استشهادهم، وما الذي شرعه رسولهم ﷺ لهم فيهم، وفي أمثالهم من تصرفات كيلا يضلوا فيكونوا من الجاهلين؟

- بيان حكم نعي المتوفى: النعي هو الإخبار بالموت، وهو مصدر نعى بمعنى من باب (فتح)، وهو

أمر مسنون في الإسلام، يُقصد به تذكير الناس بالموت، ولفتهم لتصرم الدنيا والتهيؤ للآخرة.

وأما ما جاء عن ابن القيم رحمته الله من أنه ﷺ كان من هديه ترك نعي الميت، بل كان ينهى عنه ويقول: هو من عمل الجاهلية، وأن حذيفة رضي الله عنه كره أن يُعلم به أهله الناس إذا مات، وقال: أخاف أن يكون من النعي [زاد المعاد ١/١٤٦]، فمحمول على النعي الذي كانت الجاهلية تفعله، إذ كان من عاداتهم إذا مات منهم

شريف أن يبعثوا راكبًا إلى القبائل يقول: نعاء فلانًا، أي: هلكت العرب بمهلكه، ويصحب ذلك ضجيج وبكاء. [السيد سابق، فقه السنة ١/ ١٥٠٥].

ولا فقد استحبَّ العلماء إعلام أهل الميت وأصدقاءه، وأهل الصلاح بموته ليكون لهم أجر المشاركة في تجهيزه، لما رواه الجماعة عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَعَى [لِلنَّاسِ] النَجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَخَرَجَ [بِهِمْ] إِلَى الْمُصَلَّى، فَصَفَّ بِهِمْ، وَكَبَّرَ أَرْبَعًا [أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ]، [فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ»]. [البخاري في الجنازات (١٢٤٥، ١٣١٨، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٣٣)، وفي مناقب الأنصار رحمته الله (٣٨٨١، ٣٨٨٠)، ومسلم في الجنازات (٩٥١)، وأبو داود في الجنازات (٣٢٠٤)، والنسائي في الجنازات (١٩٨٠، ١٩٧١)].

وقد فعل الأمر نفسه ﷺ بالنسبة لشهداء مؤتة، وقد نعى إلى المسلمين زيدًا وجعفرًا وعبد الله رحمته الله حال موتهم فقال: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى قُتِلَ شَهِيدًا، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ، فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى قُتِلَ شَهِيدًا، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى قُتِلَ شَهِيدًا». [ابن هشام، السيرة النبوية ٢/ ٣٨٠].

وإذا كان النعي مسنونًا في الإسلام فيجب أن يلتزم فيه بالحدود الشرعية، فلا يُستكثر منه، بقصد المفاخرة والمباهاة كالذي يُشاهد على صفحات الجرائد والمجلات من تعبئة صفحات بأكملها للإعلام بوفاة شخص، وعلى مدى أيام عدة حيث يتناسب ذلك تناسبًا طرديًا مع جاهه وكثرة ماله وعدد أهله، بغض النظر عن دينه وتقواه، إذ من الدواهي التي ظهرت مؤخرًا بين المسلمين أن يُترحم على الفاسق ويُستغفر للكافر، وتُقام أحفال التآيين للخنوة أعداء الأمة والوطن، والأدهى من ذلك أن يُكتب في نعي أمثال هؤلاء في الصحف أنهم قضا ما قضا من حياتهم في أعمال البر والتقوى، وقد يكون الحال أنهم قضوها في حنايا الحانات وفي أحضان الغانيات!! . [تجربة مؤتة لعنوم ٢٤٢-٢٤٤].

ويقول د/ بريك: «ويستفاد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا، وَجَعْفَرًا، وَابْنَ رَوَاحَةَ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْخَبَرُ... الحديث، جواز الإعلام بموت الميت، ولا يكون ذلك من النعي المنهي عنه، قال ابن المرباط: النعي الذي هو إعلام الناس بموت قريبهم مباح، وإن كان فيه إدخال الكرب والمصائب على أهله، لكن في تلك المفسدة مصالح جمة لما يترتب على معرفة ذلك من المبادرة لشهود جنازته، وتهيئة أمره، والصلاة عليه، والدعاء له، والاستغفار، وتنفيذ وصاياه وما يترتب على ذلك من الأحكام.

وأما نعي الجاهلية: فقال سعيد بن منصور: أخبرنا ابن علية، عن ابن عون قال: قلت لإبراهيم: أكانوا يكرهون النعي؟ قال: نعم. قال ابن عون: كانوا إذا توفي الرجل ركب رجل دابة، ثُمَّ صاح في الناس: «أنعى فلانًا»، وبه إلى ابن عون قال: قال ابن سيرين: لا أعلم بأسا أن يؤذن الرجل صديقه وحميمه.

وحاصله أن محض الإعلام بذلك لا يُكره، فإن زاد على ذلك فلا، وقد كان بعض السلف يُشدد في ذلك حتى: كان حذيفة إذا مات له الميت يقول: لا تؤذنوا به أحدًا، إني أخاف أن يكون نعيًا، إني سمعت

رسول الله ﷺ بأدنى هاتين ينهى عن النعي». أخرجه الترمذي، وابن ماجه بإسناد حسن.

قال ابن العربي: يؤخذ من مجموع الأحاديث ثلاث حالات:

الأولى: إعلام الأهل والأصحاب وأهل الصلاح، فهذا سنة.

الثانية: دعوة الحفل للمفاخرة، فهذه تكره.

الثالثة: الإعلام بنوع آخر كالنياحة ونحو ذلك فهذا يجرم. [فتح الباري ٣/ ١١٦-١١٧، ٧/ ٥١٣].

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٣٦٧-٣٦٨].

ويقول د/ القرشي: «استدل العلماء من قول أنس رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ [يَحْيَى] خَبَرُهُمْ، فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّأْيَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ»، [فَتَعَاهُمْ] وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ ...

[البخاري في المناقب (٣٧٥٧، ٣٦٣٠)، وفي المغازي (٤٢٦٢)، والنسائي في الجنائز (١٨٧٨)].

على جواز الإعلام بموت الميت ولا يكون ذلك من النعي المنهي عنه.

[فتح الباري ٧/ ٦٢٨، عمدة القاري ١٧/ ٣٥٩].

والنعي: لغة: يقال: نَعَى الْمَيِّتَ نَعْيًا نَعِيًّا، إِذَا أَدَاعَ مَوْتَهُ، وَأُخْبِرَ بِهِ، وَإِذَا نَذَبَهُ.

[النهاية ٥/ ٨٥، الفائق ٤/ ٤، الجامع ٥/ ٣٤٢].

واصطلاحًا: هو الطواف في الأسواق ونحوها والمناداة: إن فلانًا مات.

[الموسوعة الفقهية الميسرة ٢/ ١٨٩١، القاموس الفقهي ٣٥٦، معجم لغة الفقهاء ٤٨٣، نيل الأوطار ٥/ ١٠١].

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على رأيين:

الأول: يكره النعي، وهو أن يبعث مناديًا ينادي في الناس إن فلانًا قد مات ليشهدوا جنازته.

وهذا رأي الإمام أحمد [المغني ٢/ ٤٣]، والنووي [المجموع ٥/ ٢١٥]، والترمذي [الجامع الكبير ٢/ ٣٠٢]،

ومن الصحابة حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود وأصحابه علقمة، والربيع بن

خيثم، وعمر بن شريك. [المغني ٢/ ٤٣١، المجموع ٥/ ٢١٥].

ودليلهم: حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالنَّعْيَ، فَإِنَّ النَّعْيَ مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَالنَّعْيُ: أَذَانٌ بِالْمَيِّتِ، وَفِي الْبَابِ عَنْ حُذَيْفَةَ. [الترمذي في أبواب الجنائز (٩٨٤، ٩٨٥)]. وقال أبو عيسى: «حَدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ حَدِيثَ غَرِيبٍ»، وَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ النَّعْيَ، وَالنَّعْيُ عِنْدَهُمْ: أَنْ يُنَادَى فِي النَّاسِ أَنَّ فُلَانًا مَاتَ لِيَشْهَدُوا جَنَازَتَهُ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: لَا بَأْسَ أَنْ يُعْلِمَ أَهْلُ قَرَابَتِهِ وَإِخْوَانَهُ، وَرَوَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَا بَأْسَ بِأَنْ يُعْلِمَ الرَّجُلُ قَرَابَتَهُ». وقال الشيخ الألباني: ضعيف.

وحديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «إِذَا مِتُّ فَلَا تُؤْذِنُوا بِي، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ نَعْيًا، فَإِنِّي سَمِعْتُ

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْهَى عَنِ النَّعْيِ». [الترمذي في الجنائز (٩٨٦)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

الثاني: جواز الإعلام بموت الميت، وبه قال أكثر أهل العلم: لا بأس أن يعلم بالرجل إخوانه ومعارفه وذوو الفضل من غير نداء.

وهذا قول الإمام أبي حنيفة [الاختيار لتعليب المختار ٣٠٣/١، الهداية شرح بداية المبتدي ١٤٨/٢، رد المختار على الدر المختار ٨٣/٣]، والشافعي، ومالك [المجموع ٢١٥/٥، الحاوي ٥/٣، نيل الأوطار ١٠٠/٥]، ومن الصحابة أبي هريرة، وابن عمرو، ومن التابعين ابن سيرين. [المغني ٤٣١/٢، الجامع الكبير ٣٠٢/٢]. وأدلتهم: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: نَعَى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّجَاشِيَّ صَاحِبَ الْحَبْشَةِ، يَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ».

[البخاري في الجنائز (١٣٢٧)، وفي مناقب الأنصار رضي الله عنه (٣٨٨٠)، ومسلم في الجنائز (٩٥١)]. وحديث نعي جعفر وزيد وعبد الله بن راحة رضي الله عنه المتقدم. وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا أَسْوَدَ أَوْ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَ يَقُمُ الْمَسْجِدَ قِمَاتٍ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْهُ، فَقَالُوا: مَاتَ، قَالَ: «أَفَلَا كُتِّمَ أَذْنُومِي بِهِ دُلُونِي عَلَى قَبْرِهِ - أَوْ قَالَ: قَبْرِهَا»، فَأَتَى قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا. [البخاري في الصلاة (٤٥٨)، ومسلم في الجنائز (٩٥٦)]. وأجابوا على أدلة الفريق الأول بقولهم: أن النهي إنما هو عن نعي الجاهلية، ولا يُرد عليه قول حذيفة رضي الله عنه لأنه لم يقل: إن الإعلام بمجرده نعي، وإنما قال: أخاف أن يكون نعيًا، وكأنه خشي أن يتولد من الإعلام زيادة مؤدية إلى نعي الجاهلية. [المجموع ٢١٥/٥].

ورد أصحاب الفريق الأول عن هذه الأدلة بقولهم: إن نعي النجاشي وغيره ممن سبق أنه لم يكن نعيًا، وإنما كان مجرد إخبار بموته، فسمي نعيًا لشبهه به في كونه إعلامًا. [المجموع ٢١٥/٥].

قال ابن العربي: يؤخذ من مجموع الأحاديث ثلاث حالات:

الأولى: إعلام الأهل والأصحاب وأهل الصلاح فهذا سنة.

الثانية: الدعوة للمفاخرة بالكثرة فهذا مكروه.

الثالثة: الإعلام بنوع آخر كالنباحة ونحو ذلك فهذا محرم.

[المجموع ٢١٥/٥، نيل الأوطار ١٠٣/٥، فتح الباري ١٤٤/٣].

وهذا ما أميل إليه. [مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ٢٣٨-٢٤٢].

١٨ - فضل تلقّي المصيبة بالصبر:

يقول د/ العتوم: «المصيبة هي: ما يفدح الإنسان في نفسه أو أهله أو ماله.

ولا شك أن وقعها أليم، وهي قضاء لا يُرد؛ ولذا يجمل بالإنسان التحلي معها بالصبر، وأحسن الصبر

ما كان عند الصدمة الأولى، كما قال رضي الله عنه. [رياض الصالحين، الباب الثالث (الصبر) الحديث السابع].

ويسن للمسلم عند المصيبة أن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ لورود الأحاديث الصحيحة الكثيرة في فضل الاسترجاع، فقد جاء في صحيح مسلم بسنده عن ابن سَفِينَةَ يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَمِعَ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللَّهُمَّ أَجْزِنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ [وَأَخْلَفَ] لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»، قَالَتْ: فَلَمَّا تَوَقَّيْتُ أَبُو سَلَمَةَ ﷺ، قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وفي رواية: [قُلْتُ: مَنْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: ثُمَّ عَزَمَ اللَّهُ ﷻ لِي فَقُلْتُهَا: اللَّهُمَّ أَجْزِنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، قَالَتْ: فَتَرَوُجْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ].

[مسلم في الجنائز (٩١٨)، ومسنند أحمد ٤٤/٢٤٧ رقم ٢٦٦٣٥].

ولقد كان خبر استشهاد القادة الثلاثة فاجعاً للمسلمين، تصرّفوا إزاءه حسب ما يمليه عليهم دينهم، فهذا هو سيدهم رسول الله ﷺ يذرف العبرات عليهم، ويقول معبراً عن فداحة نَحْطِهِ بزيد وجعفر خاصة: (أخوأي ومؤنساي ومحمدثاي) [ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢/٥٤٦]، ويأمر زوجة جعفر ﷺ بالذات أن تسلب عليه، وفي رواية أن تسلي عنه ثلاث ليال، ومن بعدها تصنع ما تشاء.

ومعنى التسلب المبالغة في الإحداد، ومعنى التسلي التصبر، أما صنعها بعد هذه الأيام ما تشاء، فهو أن تفعل ما يفعله المعتدات على أزواجهن من الإحداد المعتاد [ابن كثير، السيرة النبوية ٣/٤٧٧]، وهو أربعة أشهر وعشر، فقد جاء في الحديث عن زَيْنَبَ ابْنَةِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَتْ: لَمَّا جَاءَ نَعْيُ أَبِي سُفْيَانَ مِنَ الشَّامِ دَعَتْ أُمَّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِصُفْرَةٍ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، فَمَسَحَتْ عَارِضِيهَا (العارضان: جانبا الوجه وشفحتا الخدين) وَدَرَاغِيهَا، وَقَالَتْ: إِنِّي كُنْتُ عَنْ هَذَا لَعْنِيَّةً، لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحْدَ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ، فَإِنَّمَا تُحْدُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا».

[البخاري في الجنائز (١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢)، وفي الطلاق (٥٣٣٤، ٥٣٣٥، ٥٣٤٥)، ومسلم في الطلاق (١٤٨٦، ١٤٨٧، ١٤٩٠، ١٤٩١)، وكذلك رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد وغيرهم].

والإحداد ترك ما تترين به المرأة من الحلي والكحل والحري والطيب والخضاب، وإنما وجب عليها ذلك مدة العدة من أجل الوفاء للزوج ومراعاة حقه.

[السيد سابق، فقه السنة ١/٥٠٧ وينظر في الحديث: رياض الصالحين ١/٣٥٤].

وأما تفسير بعضهم للتسلب الذي أذن به ﷺ لزوجة جعفر ﷺ بثلاثة أيام بالمبالغة في البكاء وشق الثياب، فلا يصح إذ أنه ﷺ نهى عن مثل هذا وعده من أعمال الجاهلية فقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْحُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ». [البخاري في الجنائز (١٢٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٠٣)].

أجل لقد أذن ﷺ بالبكاء على المتوفى وحَزَنَ أَنْ لَمْ يُيَكَّ عليه، كما هو الشأن مع عمه حمزة ؓ، إذ قال لما سمع النساء يبكين على قتلاهم غير حمزة ؓ: «ولكنَّ حمزة لا بواكي له» [ابن هشام، السيرة النبوية ٩٩/٢]، غير أنه لم يسمح بأن يُرافق البكاء كلامٌ فاحش أو تصرف شائن، فقد قال لأسماء بنت عميس زوجة جعفر ؓ وهي تبكي عليه: «يا أسماء لا تقولي هجرًا ولا تضري خدًا» [السيرة الحلبية ٣/٦٨]؛ ذلك لأنَّ الله لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ، وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذِّبُ بِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» [البخاري في الجنائز (١٣٠٤)، ومسلم في الجنائز (٩٢٤)]؛ ولقوله ﷺ: «مَنْ نَيْحَ عَلَيْهِ يُعَذِّبُ بِمَا نَيْحَ عَلَيْهِ»، وفي لفظ: «الْمَيِّتُ يُعَذِّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نَيْحَ عَلَيْهِ» [البخاري في الجنائز (١٢٩١) و (١٢٩٢)، ومسلم في الجنائز (٩٢٧)]، ورواه أيضًا الترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم؛ ولهذا لم يعترض عمر ؓ لما سمع أن نساء بني مخزوم اجتمعن في دار يبكين على خالد ؓ إثر موته قاتلاً: (ما عليهن أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نفع أو لقلعة). [ابن الأثير: أسد الغابة، المجلد الثاني ترجمة خالد بن الوليد ؓ. والنفع: رفع الصوت، والقلعة: الحلبة، واللقلق: اللسان].

ولعلَّ تَصَبُّرَ أسماء بنت عميس ؓ والتزامها بتوجيهات الرسول ﷺ في هذا الشأن - ومنها - بدهياً - استرجاعها بعد سماعها بموت جعفر ؓ ما كافأها الله بها أن أخلفها عنه خيراً منه أبا بكر الصديق ؓ حيث ولدت منه محمداً، وبعد موته علي بن أبي طالب ؓ إذ استولدها يحيى رضي الله عنهم أجمعين. [المصدر السابق ج ٧، ترجمة أسماء بنت عميس].

وهي التوجيهات نفسها التي أشار بها ﷺ على أم سلمة ؓ بعد موت أبي سلمة ؓ فكان لها من الخير ما كان. [تجربة مؤتة للعتوم ٢٤٤-٢٤٦].

ويقول د/ بريك: «وفي حديث عائشة ؓ الذي ذكرت فيه ظهور الحزن على رسول الله ﷺ حينما عرف بمصاب أصحابه في مؤتة من الفوائد:

بيان ما هو الأولى بالمصاب من الهيئات، ومشروعية الانتصاب للعزاء على هيئته، وملازمة الوقار والتثبت.

ويؤخذ منه أيضاً: أنَّ ظهور الحزن على المصاب إذا أصيب بمصيبة لا يخرج عنه كونه صابراً راضياً إذا كان قلبه مطمئناً، بل قد يُقال: إنَّ مَنْ كَانَ يَنْزَعُ بِالْمَصِيبَةِ وَيَعَالِجُ نَفْسَهُ عَلَى الرِّضَا وَالصَّبْرِ أَرْفَعَ مَرْتَبَةً مِمَّنْ لَا يَبَالِي بِوُقُوعِ الْمَصِيبَةِ أَصْلاً، أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الطبري» [فتح الباري ٧/٥١٤-٥١٥].

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشالية لبريك ٣٦٧-٣٦٨].

١٩ - المواساة في الوفاة:

يقول د/ العتوم: «المواساة في الوفاة، أن تخلط المصابين بنفسك وأن تشاركهم في آلامهم: بالكلمة والبشة والطعمة والدعاء لهم ولمن فقدوا بالخير.

(١) الحزن على الفقيد: وأول المواساة الشعور بالمصاب مع أصحابه والتحزن على فقيدهم، ومن هذا القبيل هنا أن رسول الله ﷺ لما سمع بوفاة جعفر ﷺ عرف الحزن في وجهه، فبكى وبكت معه ابنته فاطمة رضي الله عنها قائلة: (واعمّاه) [ابن الأثير، أسد الغابة ج ١ (جعفر بن أبي طالب) ص ٣٤١]، فلما سمعها ﷺ أقرها لحزنه عليه وقال: (على مثل جعفر فلتبك البواكي). [ابن الأثير، أسد الغابة (جعفر بن أبي طالب) ١/ ٣٤١].

وكان من دعائه فيها بعد عندما يوجهه علياً ﷺ لوجهة معينة قوله: (اللهم إنك أئكلتني عبدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وجعفر يوم مؤتة، وهذا علي فلا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين) [الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٥٦٦]، وكثيراً ما كان يذكر المسلمين بأهل بيته ومنهم آل جعفر، فيقول كما روى زيد بن أرقم رضي الله عنه: (أذكركم الله في أهل بيتي، وعندما سئل زيد عن أهل بيته قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس) [رواه مسلم، رياض الصالحين باب (٤٣) - إكرام أهل بيت رسول الله] الحديث الأول [رضي الله عنهم جميعاً].

(٢) التعزية: ومن ألوان المواساة: التعزية، وهي محاولة التخفيف عن المنكوبين بتذكيرهم بأن الموت كأس لا بد أن تدور على الجميع، وأن الصبر أجمل بالحر من الشكوى، إذ أجره على ذلك عظيم، ولفت أنظارهم إلى مصائب الآخرين عليها تهوّن عليهم ما هم فيه.

ومن العبارات المسنونة في هذا الشأن أن يقول المعزي لصاحب المصيبة: أعظم الله أجرك، أي أجزل الله مثوبتك على حسن تصبرك، فيقول المعزي: آمين، أجرك الله، أي أثابك على سعيك إلينا لتخفيف مصابنا، ويحسن بالمعزي أن يذكر بالآخرة، وأن الأمر أولاً وأخيراً بيد الله.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إنا إننا لي قبض فأتينا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن الله ما أخذ وله ما أعطى، وكل عندة بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب»، فأرسلت إليه تفسيم عليه كيأتيها، فقام معه سعد بن عباد ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتعفع، قال حسبه أنه قال: كأنها شن، ففاضت عنها، فقال سعد رضي الله عنه: يا رسول الله! ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرّحماء».

[البخاري في الجنائز (١٢٨٤) ومواضع أخرى، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد. رياض الصالحين، باب الصبر حديث رقم (٥).]

وجدير بالذكر أن للمعزي أجراً عظيماً على صنيعه لما رواه ابن ماجه والبيهقي أن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه الله سبحانه من حلل الكرامة يوم القيامة».

[ابن ماجه في الجنائز (١٦٠١)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وُستحب التعزية لمدة ثلاثة أيام، إلا إذا كان المعزّي والمعزّي غائبين فلا بأس بها بعد الثلاثة، ولا يُسن أن يجلس لها في مأتم لأن ذلك يجدد الحزن، وتُندب مرة واحدة للمعزّي.

[ينظر: فقه السنة لسيد سابق ١/ ٥٦٢ وما بعدها].

ولم يؤثر عن رسول الله ﷺ في حادثة استشهاد جعفر رضي الله عنه أنه قال لأهله شيئاً من أمثال عبارات التعزية السابقة؛ لأن مصابه مصابهم، بل هو أشد، فالتعزية في الأصل له، وهي هنا بضرب الأسوة بنفسه للمسلمين في التصرف حيال هذا المصاب، إنما كان من تعزيته لأهل جعفر رضي الله عنه أن أذن لزوجته بالبكاء الخالي من ألفاظ الجاهلية وأفعالها، وطلب منها أن تأتيه بأولاد جعفر رضي الله عنه: عبد الله، ومحمد، وعون، فأجلسهم جميعاً في حجره (حُضنه) وضمهم إليه ومسح على رؤوسهم [اليقوي، تاريخه ١/ ٥٥]، وتولى أمرهم [ابن كثير، سيرته ٣/ ٤٧٦]، ودعا لهم ولوالديهم: «اللَّهُمَّ إِنَّ جَعْفَرًا قَدْ قَدِمَ إِلَى أَحْسَنِ الثَّوَابِ، فَأَخْلَفُهُ فِي دُرِّيَّتِهِ بِأَحْسَنِ مَا خَلَفْتُ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ فِي دُرِّيَّتِهِ». [الواقدي: المغازي ٢/ ٧٦٧].

وخص عبد الله بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي صَفْقَتِهِ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَمَا بَعْتُ شَيْئًا وَلَا اشْتَرَيْتُ شَيْئًا إِلَّا بُورِكَ فِيهِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٧].

(٣) صُنِعَ الطَّعَامُ لِأَهْلِ الْمَتَوَفَى: ومن ضروب المواساة كذلك صُنِعَ الطَّعَامُ لِأَهْلِ الْمَتَوَفَى، وهي سنة ابتدأت باستشهاد جعفر رضي الله عنه حيث قال ﷺ: «إِذَا ذَاكَ: (اصْنَعُوا لِأَلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا، فَقَدْ شَغِلُوا عَنْ أَنْفُسِهِمُ الْيَوْمَ)» [الواقدي، المغازي ٢/ ٧٦٧]، فصنعت فاطمة رضي الله عنها لعياله طعاماً لمدة ثلاثة أيام، فصارت تلك سنة في بني هاشم [اليقوي، تاريخه ١/ ٥٦]، وأول ما عُمل في دين الإسلام من هذا القبيل. [ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢/ ٢٣٨].

وتسميه العرب الوضيعة، كما تُسمى طعام العرس الوليمة، وطعام القادم من السفر النقيعة، وطعام البناء الوكيرة. [السهيلي، الروض الأنف ٤/ ٨١].

وقد «استحب الشارع هذا العمل؛ لأنه من البر والتقرب لأهل الخير والجران.

قال الشافعي: وأحب لقراءة الميت أن يعملوا لأهل الميت في يومهم وليتهم طعاماً يشبعهم، فإنه سنة وفعل أهل الخير.

واستحب العلماء الإلحاح عليهم ليأكلوا، لئلا يضعفوا بتركه استحياء أو لفرط جزع.

وقالوا: لا يجوز اتخاذ الطعام للنساء، إذا كن يُنَحْن؛ لأنه إعانة لهن على معصية.

واتفق الأئمة على كراهة صُنْعِ أَهْلِ الْمَيِّتِ طَعَامًا لِلنَّاسِ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ زِيَادَةِ الْمَصِيبَةِ عَلَيْهِمْ وَشُغْلًا لَهُمْ إِلَى شُغْلِهِمْ، وتشبيهاً بصنع أهل الجاهلية، لحديث جرير قال: كنا نعد الاجتماع إلى أهل

الميت وصنيعة الطعام بعد دفنه من النياحة، وذهب بعض العلماء إلى التحريم». [سيد سابق، فقه السنة ٥٠٨/١]. [تجربة مؤنة للعتوم ٢٤٩-٢٤٦].

ويقول د/ بريك: «وفي حديث أمر النبي ﷺ بصنع طعام لآل جعفر، فيه نذب تهيئة طعام لأهل الميت، والإلحاح عليهم في أكله لئلا يضعفوا بتركه». [ينظر: العامري: بهجة ٣٩٠-٣٩١].

قال السهيلي: «وهذا أصل في طعام التعزية، وتسميه العرب الوضيعة». [الروض ٤٢/٧].
 قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، يَقُولُ: لَقَدْ أَدْرَكْتُ النَّاسَ بِالْمَدِينَةِ إِذَا مَاتَ هُمْ مَيِّتٌ تَكَلَّفَ حَيْرَانُهُمْ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ طَعَامُهُمْ، فَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ قَدْ خَبِرُوا خُبْرًا صَغَارًا، وَصَنَعُوا لَحْمًا، فَجُعِلَ فِي جَفَنَةٍ، ثُمَّ يَأْتُونَ بِهِ أَهْلَ الْمَيِّتِ، وَهُمْ يَكُونُونَ عَلَى مَيِّتِهِمْ، مُسْتَعْلِينَ، فَيَأْكُلُونَهُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَهْلِهِ حِينَ أُصِيبَ جَعْفَرٌ: «لَا تَغْفُلُوا هُمْ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا يَوْمَهُمْ هَذَا»، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ تَرَكُوا ذَلِكَ. [البيهقي: دلائل ٣٧٠/٤].

قلت: وقد كانت هذه العادة، وهي صُنع الخبز الصغار لأهل الميت موجودة في بعض المدن والقرى، أخبرني بذلك الوالد - رحمه الله تعالى - كما ذكر لي بعض الأخوة المصريين أنها ما زالت في معظم قرى مصر». والله تعالى أعلم. [قلت: هي ما زالت - بفضل الله - في قرى مصر. غريب].

قال ابن الهمام في فتح القدير شرح الهداية: «يُستحب لجيران أهل الميت والأقرباء الأبعد تهيئة طعام لهم يشبعهم ليلتهم ويومهم، ويكره اتخاذ الضيافة من أهل الميت؛ لأنه شرع في السرور لا في الشرور، وهي بدعة مستقبحة». انتهى.

ويؤيده حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «كُنَّا نَرَى الْجَمَاعَةَ إِلَى أَهْلِ الْمَيِّتِ وَصَنَعَهُ الطَّعَامَ مِنَ النِّيَاحَةِ». أخرجه ابن ماجه، وبُوبَ له باب ما جاء في النهي عن الاجتماع إلى أهل الميت وصنعة الطعام. وهذا الحديث سنده صحيح ورجاله على شرط مسلم، قاله السندي.

قال - أيضًا -: قوله: «كُنَّا نَرَى» هذا بمنزلة رواية إجماع الصحابة أو تقرير من النبي ﷺ، وعلى الثاني فحكمه الرفع، وعلى التقديرين فهو حُجَّة.

وبالجملة فهذا عكس الوارد، إذ الوارد أن يصنع الناس الطعام لأهل الميت، فاجتماع الناس في بيتهم حتى يتكلمون لأجلهم الطعام قلب لذلك، وقد ذكر كثير من الفقهاء أن الضيافة لأهل الميت قلب للمعقول. [قلت د/ بريك]: انقلب هذا المعقول اليوم انقلاباً جذرياً، فأصبح الناس يقومون بإجراءات في المآتم أشبه ما تكون بالأفراح السعيدة، فمَنْزِلُ الْمَيِّتِ صار يُزَيَّنُ بمصابيح الكهرباء، وتُفْرَشُ الأرض بأنواع الزل والمفارش، وتوضع الكراسي والصوانات خارج المنزل لاستقبال وفود المُعْزِينَ، وتُصْنَعُ الولائم ليل نهار لمدة ثلاثة أيام، ويكلف أهل الميت ضيافة الوافدين والوافدات للعزاء، والمقيمين من الأقارب والأصدقاء، والجيران، وقد وصل بهم الأمر إلى التفاخر في مراسم المآتم، والاحتفال بها في صالات الأفراح». [فاله المستعان].

لأن الضيافة حقاً أن تكون للسرور لا الحزن» [عون المعبود، شرح سنن أبي داود ٨/ ٤٠٦-٤٠٧].

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشبالية لبريك ٣٦٨-٣٧٠].

ويقول د/ أبو فارس: «ويستحب صنع الطعام لأهل الميت: أخذنا هذا من نذب الرسول ﷺ الناس أن يصنعوا طعاماً لآل جعفر، وهذا يحقق أكثر من أمر: إنه مواساة لأهل الميت وتخفيف مصابهم، وفي الوقت ذاته هو تكافل بين المسلمين، فأهل الميت ينشغلون بميتهم سواء كان بالتجهيز لدفنه أو بالحزن عليه، إذ يجدون من يُقدّم لهم العون في هذا الظرف الطارئ».

أقول: إن ما يحدث في بعض بلاد المسلمين اليوم من تكليف أهل الميت بصنع الطعام للقادمين، والانشغال عن ميتهم، أمر قبيح ينبغي الإقلاع عنه، وهجره، إذ أن أهل الميت في وضع نفسي يستدعي أن يساعدهم الناس فيه، وأن يخدّموهم ويقدموا لهم يد العون، ويواسوهم، وليسوا في وضع يمكنهم من صنع الطعام وإطعامهم للناس». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٨].

٢٠ - جواز رثاء الميت:

يقول د/ بريك: «أمّا بالنسبة للمراثي (جمع مرثية، وهي عدّ محاسن الميت نظماً ونثراً) التي قيلت في أهل مؤتة، فيؤخذ منه جواز رثاء الميت، وقد رثت فاطمة ؓ أباهما ﷺ، ورثاه غيرها، وفعله كثيرٌ من الصحابة ؓ، وغيرهم من العلماء - رحمهم الله - وما ورد من النهي عنها محمول على ما يظهر فيه تبرم أو على فعله مع الاجتماع له، أو على الإكثار، أو على ما يجحد الحزن. [العامري: بهجة المحافل ١/ ٣٩٥].

قلت: وما يدل على جوازه أيضاً هو فعل الصحابة ؓ له في حياة النبي ﷺ، حيث رثى الشعراء من الصحابة أمثال حسان بن ثابت ؓ، وغيره شهداء بدر، وأُحِد، وغيرهما من الغزوات والسرايا دون اعتراض من النبي ﷺ، ممّا يعدّ تقريراً لذلك. والله تعالى أعلم». [غزوة مؤتة لبريك ٣٧٠-٣٧١].

٢١ - القبر والقبور:

يقول د/ العتوم: «القبر مصدر، قَبَرَ الرجل يقبُرُه ويقبُرُه، إذا دفنه، وولي ذلك منه، وأقبره الله جعله ذا قبر. [ينظر تفسير سورة (عبس) في تفسير ابن كثير ٤/ ٤٧٢، والقاموس المحيط مادة (القبر)].

وهو من سنن الإسلام، وأول من فعله ابن آدم ﷺ الذي قتل أخاه، فلم يدر كيف يدفنه، فبعث الله إليه غراباً يعلمه ذلك. [ينظر الآيات ٢٧-٣١ من سورة المائدة].

وهو نوع من إكرام الإسلام للإنسان.

وما يدل عليه أن من السنة دفن الموتى ولو كانوا كفاراً، وهو ما فعله رسول الله ﷺ في قتلى بدر من المشركين إذ ألقاهم في القليب ليستريحهم. [ابن هشام، السيرة النبوية ٢/ ٦٣٨].

والقبور: جمع قبر وهو المكان الذي يُدفن فيه الميت.

وإذا كان من السنة دفن الموتى، فمن السنة أيضًا عدم نقلهم من متوفاهم، وعدم زخرفة قبورهم، واتخاذها مزارات للتعظيم والسؤال.

وفي معركة مؤتة دُفن شهداء المسلمين هناك، وهم - وإن لم يُدفنوا، كما يرجح حيث قُتلوا بالضبط، إذا ابتعد عنهم ميدان القتال قرابة كيلومتر ونصف إلى أرض المزار اليوم؛ لإخفائهم عن عيون الروم كما يظن - لم يُنقلوا إلى المدينة المنورة. [حمود العابدي، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن ص ٢٦١].

ولست أدري المصدر الذي اعتمد عليه كل من الأستاذين الكريمين: محمد حسين هيكل، وعبد الحميد جودة السحار [ينظر: حياة محمد ﷺ هيكل ص ٤٠٩ ومجلة حضارة الإسلام عدد (٣) سنة (١٤) ص (٦٠) مقالة: (السيرة النبوية للسحار، تعليق منير الغضبان)]، في أن المسلمين رجعوا بجثة جعفر ﷺ إلى المدينة حيث دُفنت فيها، في حين أن هديه ﷺ أن يدفن القتلى حيث ماتوا، ففي غزوة أُحُد لما علم أن بعض المسلمين احتملوا قتلاهم إلى المدينة ودفنهم فيها، نهى عن ذلك وقال: ادفنهم حيث صرعوا [ابن هشام، السيرة النبوية (الحلبي) ٩٨/١]، ولذا دفن حمزة ﷺ هناك، وهو مَنْ هو قُرْبًا إلى قلب رسول الله ﷺ، ومؤتة حدثت بعد خمس سنوات من أُحُد، فالالتزام فيها بتعاليم الإسلام في هذا الأمر بعد هذه المدة مسلّمة لا شية فيها. ومن أوضح الأدلة على أن شهداء مؤتة لم يُحملوا إلى المدينة قول كعب بن مالك ﷺ يرثيهم:

وَكَاثَمًا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالْحَشَى مِمَّا تَأَوَّنِي شَهَابٌ مُدْخَلٌ
وَجَدًّا عَلَى النَّفَرِ الَّذِينَ تَتَابَعُوا يَوْمًا بِمُؤْتَةَ أُسْنِدُوا لَمْ يُنْقَلُوا

[ابن هشام، السيرة النبوية (الحلبي) ٣٨٥ / ٢].

غير أن الفقهاء أجازوا النقل لضرورة ماسة، كأن يخاف على الميت أن يغرقه البحر أو يأكله السبع، أو دُفن بغير غُسل، أو إلى غير القبلة، أو لحق القبر سيلٌ أو ندوة، شرط أن لا ينفجر جسمه ولا يكسر عظمه. [السيد سابق، فقه السنة ٥٦١ / ١].

ويُذكر أن شهداء مؤتة الثلاثة دفنوا - حيث دفنوا - في قبر واحد. [ابن حجر، فتح الباري ٥١١ / ٧].

وهو أمر جائز في الإسلام، فقد جاء في سيرة ابن هشام أنه ﷺ دفن حمزة بن عبد المطلب ﷺ وابن أخته أميمة بنت عبد المطلب، عبد الله بن جحش ﷺ في قبر واحد. [ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٩٧ / ١]. وكان يقول للمسلمين وهم يدفنون في أُحُد موتاهم: «أَنْظَرُوا أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ، فَاجْعَلُوهُ أَمَامَ أَصْحَابِهِ فِي الْقَبْرِ، وَكَانُوا يَدْفِنُونَ الْإِثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ فِي الْقَبْرِ الْوَاحِدِ». [ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٩٨ / ١].

غير أنني أجد في نفسي ميلاً لمخالفة هذا الرأي القائل بدفن قواد مؤتة في قبر واحد، لكون قبورهم - كما هو مُشاهد - متفرقة ومعروفة منذ زمان، وقد وُجد في مدافن بعضهم - لما كانت مطموسة - شواهد تدل على مكان قبره كعبد الله بن رواحة رضي الله عنه مثلاً، هذا ويظن أنه لم يكن بالمسلمين ضيق آنذاك حتى يلجأوا إلى هذا الدفن الجماعي، ولا سيما أنني أرجح، أن نقلهم إلى هذا المكان من ساحة المعركة وفّر للمسلمين قسطاً من الأمن من مهاجمة العدو، ومن يأمن ويجد فسحة في الوقت والجهد والمكان يدفن دفناً فردياً لا جماعياً.

ومما يتعلق بهذه المسألة، بناء القبور على الموتى، فالإسلام ينفر من رفعها، وتخصيصها وإسراجها، والتوجه إليها وسؤال أصحابها، وعمل المساجد عليها، إذ كل هذه بدع تجب محاربتها ومنكرات تتحتم إزالتها.

كما تكره زيارة النساء لها ووطؤها والجلوس عليها.

قال ابن القيم: «وَلَمْ يَكُنْ مِنْ هَذِهِ تَعْلِيَةُ الْقُبُورِ وَلَا بِنَاؤُهَا بِأَجْرٍ، وَلَا بِحَجَرٍ وَلَبِنٍ وَلَا تَشْيِيدُهَا، وَلَا تَطْيِينُهَا، وَلَا بِنَاءَ الْقَبَابِ عَلَيْهَا، فَكُلُّ هَذَا بِدْعَةٌ مَكْرُوهَةٌ، مُخَالِفَةٌ لِهَدْيِهِ ﷺ، وَقَدْ بَعَثَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه إِلَى الْيَمَنِ أَلَا يَدْعُ تِمَثَالًا إِلَّا طَمَسَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّاهُ، فَسُتِيَ ﷺ تَسْوِيَةُ هَذِهِ الْقُبُورِ الْمُشْرِفَةِ كُلِّهَا، وَهِيَ أَنْ يُحْصَصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ.

وَكَانَتْ قُبُورُ أَصْحَابِهِ لَا مُشْرِفَةً، وَلَا لَاطِنَةً، وَهَكَذَا كَانَ قَبْرُهُ الْكَرِيمِ ﷺ، وَقَبْرُ صَاحِبِيهِ رضي الله عنهم، فَقَبْرُهُ ﷺ مُسْتَمَّ مَبْطُوحٌ بِطَحَاءِ الْعَرَصَةِ الْحُمْرَاءِ لَا مَبْنِيٍّ وَلَا مُطَيَّنٍّ، وَهَكَذَا كَانَ قَبْرُ صَاحِبِيهِ رضي الله عنهم.

وَكَانَ يُعْلَمُ قَبْرُ مَنْ يُرِيدُ تَعَرَّفَ قَبْرَهُ بِصَخْرَةٍ.

وَهِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ، وَإِقَادِ الشُّرُجِ عَلَيْهَا، وَاشْتِدَائِهَا فِي ذَلِكَ حَتَّى لَعَنَ فَاعِلُهُ، وَهِيَ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَى الْقُبُورِ، وَهِيَ أُمْتُهُ أَنْ يَتَّخِذُوا قَبْرَهُ عِيدًا، وَلَعَنَ زَوَارِبَ الْقُبُورِ.

وَكَانَ هَدْيُهُ ﷺ أَنْ لَا تِهَانَ الْقُبُورُ وَتُوطَأَ، وَأَلَّا يُجْلَسَ عَلَيْهَا، وَتُكْتَأَ عَلَيْهَا، وَلَا تُعْظَمَ بِحَيْثُ تُتَّخَذُ مَسَاجِدَ فَيُصَلَّى عِنْدَهَا وَإِلَيْهَا، وَتُتَّخَذَ أَعْيَادًا وَأَوْثَانًا. [زاد المعاد لابن القيم ١/ ٥٢٤-٥٢٦].

أما حالنا اليوم مع القبور، ويا للأسف فالعمل المخالف لهدْيِهِ ﷺ كما ورد في الأسطر السابقة، من تشييدها بالحجارة والإسمنت، وتسويرها بالحديد، وتغطيتها بالمخمل الثمين، والتفنن في الكتابة عليها، وقد يكون بالذهب أو بباطه، وبناء المساجد عليها، وقصدها للتبرك بها وسؤال أصحابها.

ولعل في كلمات سيد سابق التالية وهو لا يتكلم من فراغ أو عن سماع إنما عن مشاهدة وعيان، فيها التصوير الدقيق للحال التي تردى إليها المسلمون في تعاملهم مع القبور وأهلها: «وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها مفاسد يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة فيها كاعتقاد الكفار في الأصنام، وعظموا ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودرء الضرر، فجعلوها مقصدًا لطلب قضاء الحوائج،

وملجأ لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم، وشَدُّوا إليها الرحال وتمسحوا بها، واستغاثوا.

وبالجملة لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

[فقه السنة ١/٥٤٩].

وماذا كان يفعل بقبور شهداء مؤتة العظام وما يزال، غير ما فيه خروج على المسنون في هذه القضية؟! وقد يكون هذا مما يُتباهى به، أو يعد من الخدمة لدين الله، وما هو منها في شيء.

إن خدمة الإسلام في هؤلاء الكرام وفي غيرهم، هو التأسى بهم في استعلاء إيمانهم، واستخفافهم بالآلام في سبيل نشر الإسلام، ورفضهم للالتقاء مع الكفار في منتصف الطريق على حساب العقيدة والأهل والوطن.

ويبقى شأن المسلم بعد ذلك مع القبور أن يزورها للعظة والاعتبار، ويقف أمامها خاشعاً لأمر الله، يناجي أصحابها بما ناجاهم به محمد بن عبد الله ﷺ، بقوله: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ، أَنْتُمْ سَلَفُنَا وَنَحْنُ بِالْآثَرِ». [الترمذي في الجنائز (١٠٥٣)]، قال أبو عيسى: حديث ابن عباس حديث حسن غريب، وأبو كدينة اسمه يحيى ابن المهلب وأبو ظبيان اسمه حصين بن جندب، وقال الشيخ الألباني: ضعيف. رياض الصالحين باب (٦٦) استحباب زيارة القبور. ينظر الحديثين: (١، ٤).

وليس وراء ذلك حبة خردل من عمل صالح». [تجربة مؤتة للعتوم ٢٤٩-٢٥٣].

المبحث الرابع

الدروس السياسية

١ - دقة التوقيت ويُعد النظر:

يقول أ/ فتح الباب: «أول ما يسترعي نظر المتأمل في أنباء تلك الموقعة وظروفها هو احتمال القدرات القيادية التي وهبها الله النبي العربي ﷺ، فالقرار الذي اتخذته الرسول ﷺ بالغزو تجتمع فيه دقة التوقيت ويُعد النظر وسلامة البصيرة والهمم والرحمة.

أما دقة التوقيت فتنبثق من اختيار القائد المرسل ﷺ أكثر الأوقات مناسبة للغزو وتوافقاً مع الهدف منها، فالهدف البعيد هو توسيع دائرة انتشار الدعوة الإسلامية حتى تتجاوز حدود الجزيرة العربية وتصل إلى كل مكان على الأرض؛ لأنها دعوة لتحرير الإنسانية بأسرها، وقد اجتمعت ظروف معينة لم تكن لتغيب عن القائد الأعظم ﷺ الذي أنزل الله عليه الوحي من لدنه، فكان أن استخدم هذه الظروف لصالح الإسلام.

ذلك أنه لم يكن قد مضى على هدنة الحديبية غير عام وبعض عام ولم يكن قد جاء ما يوجب نقضه، ومن ثم طرح النبي ﷺ فكرة التعجيل بفتح مكة فضلاً عن أنه كان يعلم أن الزمن في صف الدعوة فلتكن إذن وجهته في نشر الإسلام أرضاً أخرى، ولتكن هذه الأرض هي الشام والبلاد المجاورة شمالاً للجزيرة العربية بوصفها المنفذ الأول لطريق انتشار الإسلام بعد أن أمن الجنوب بعهد مع قريش، وإذعان عامل اليمن للدعوة، ومع ذلك فلم يكن النبي ﷺ ليقدم على شن الحرب في غير ضرورة من دفاع أو عقاب على عدوان». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٥٣-١٥٤].

٢ - بداية المعارك بين المسلمين والروم:

يقول أ/ يونس: «لقد أراد المسلمون أن يقيموا حواراً بينهم وبين جيرانهم بالرسائل، فأحرق أولئك الجيران وحلفاؤهم هذه الرسائل، ورفضوا مبدأ الحوار بالكلمة، واختاروا طريق السيف لحوار المسلمين ومجادلتهم». [الاستخبارات في غزوات الرسول ﷺ ليونس ١٥٦].

ويقول د/ السباعي: «في غزوة مؤتة كان أول لقاء بين المسلمين والروم، ولولا أن العرب الغساسنة قتلوا رسول رسول الله ﷺ إلى أمير بصرى، لكان من الممكن أن لا يقع الصدام، ولكن قتل رسوله ﷺ إلى أمير بصرى يعتبر عملاً عدائياً في جميع الشرائع، ويدل على عدم حسن الجوار، وعلى تثبيت الشر من هؤلاء عمال الروم وصنائعهم؛ ولذلك رأى رسول الله ﷺ إرسال جيش مؤتة ليكون فيه إنذار لهم ولسادتهم الروم بقوة الدولة الجديدة واستعدادها للدفاع عن نفسها حتى لا يفكروا بالعدوان عليها، ولما

وصل المسلمون إلى مؤتة وجدوا جموعاً من الروم ومن العرب المنتصرة الخاضعة لحكمهم قدّرها المؤرخون ببائتي ألف، وكان أخو هرقل قد قاد الجيش وعسكر في «مآب» قرب عمّان اليوم، مما يؤكد ما توقعه الرسول ﷺ منهم في تصميمهم على مناجزة الدولة الجديدة والقضاء عليها توجّساً من قيام دولة عربية مستقلة داخل الجزيرة العربية تكون نذيراً بانتهاء استعمارهم لبلادهم واستعبادهم لعربها القاطنين على حدودها مما يلي الحجاز، وهكذا بدأت المعارك بين المسلمين والروم». [السيرة النبوية للسباعي ١١٣-١١٤].

ويقول أ/ الشامي: «ما كان لرسول الله ﷺ أن يسكت على قتل رسوله؛ لما في ذلك من انتهاك لأعراف عامة واستهانة بالمرسل، وكان الإعلان عن تشكيل الجيش الذي اعتبر حتى ذاك الوقت أكبر جيش للمسلمين، وإن تعيين الأمراء الثلاثة يدل على اهتمامه ﷺ بتلك المعركة، كما يدل على توقعه لحدوث بعض ما وقع».

كان ﷺ يعتمد في حروبه على عنصر المفاجأة للعدو، والذي يبدو أن المنافقين كانوا عاملاً سلبياً في إبطال هذا العنصر إذ وصلت الأخبار إلى الروم وجيش المسلمين لم يتحرك من المدينة بعد. لم تكن مهمة هذا الجيش هي اللقاء مع جيوش الدولة الرومانية - وهو ما حدث بالفعل - وإنما كانت مهمة تأديبية للمنطقة التي قُتل فيها رسول رسول الله ﷺ. [من معين السيرة للشامي ٤٠٣-٤٠٤].

٣ - إعزاز الإسلام ودولته:

يقول د/ الحميدي: «تبين لنا رواية الواقدي أن سبب بعث سرية مؤتة ما جرى من أحد زعماء الغساسنة من إقدامه على قتل رسول رسول الله ﷺ بهذه الصورة الشنيعة حيث ربطه ثم ضرب عنقه صبراً، وتبين الرواية أن هذا الأمر اشتد على رسول الله ﷺ فندب الناس لغزو أهل الشام. فهذه السرية تقع ضمن دائرة الغزوات والسرائيا التي قصد بها النبي ﷺ إعزاز الإسلام ودولته والانتقام من الأعداء الذين انتهكوا حرمة دولة الإسلام فاعتدوا على رجالها. وإنه لموقف كبير أن يبعث النبي ﷺ ثلاثة آلاف مجاهد في قتل رجل من رجال دولة الإسلام، وهذا يعني عزة المسلم وكرامته في دار الإسلام». [التاريخ الإسلامي للحميدي ١٠٨/٧].

ويقول د/ عويس: «وحمل هذا العام الثامن - عام عمرة القضاء - مغزى كبيراً، تجسّد في غزوة مؤتة، التي تُعتبر - على الرغم من نتائجها الظاهرية - انطلاقة جديدة طموحة، إذ كانت أول عمل كبير للوقوف في وجه عملاء الروم في الشام، هؤلاء الذين يكيدون للإسلام أكثر من كيد ساداتهم البيزنطيين، حتى لقد استهانوا بكل الأعراف الدولية، وقتلوا مبعوث رسول الله ﷺ «الحارث بن عمير الأزدي»...»

كما تواطؤوا على قتل أربعة عشر آخرين عند ذات أطلّاح، على حدود الشام مع الحجاز.

ومع أن جيش المسلمين الذي لا يزيد على ثلاثة آلاف قد ووجه بمائة ألف أو يزيد، إلا أن الاستبسال النادر العجيب لهذه القلة المؤمنة، ولقاداتها الثلاثة الشهداء: زيد بن حارثة، وجعفر ابن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، «هذا الاستبسال، مضافاً إلى ذكاء وحصافة خالد بن الوليد رضي الله عنه، قد حال دون إبادة الجيش.

وجعل من نتيجة المعركة نصراً معنوياً، وقتلوا من أعدائهم أضعافاً مضاعفة.

«ولا تعد خسائر المسلمين الضئيلة في مؤتة شيئاً يُذكر بجانب الفائدة العسكرية التي أفادها الاطلاع على خصائص قوات الروم، وتنظيمها، وتسليحها، وأساليب قتالها».

[د/ عماد الدين خليل - دراسة في السيرة ص ٢٩٩].

ولم تستطع القبائل العربية أن تخفي إعجابها بهذه القلة المؤمنة المستبسلة، وقد أعلن أحد زعماء القبائل الموالية للروم إعجابه، وإسلامه، وهو «فروة بن عمرو الجذامي»، وقبض عليه الروم بتهمة الخيانة، وحوكم، ولم يقبل أن يرجع عن إسلامه حتى أُعدم، وكان لهذا أثره في انتشار الإسلام بين هذه القبائل، فدخل في الإسلام ألوف من قبائل سليم وأشجع وغطفان وعبس وذبيان وفزارة.

[د/ أحمد إبراهيم الشريف - دولة الرسول ﷺ في المدينة ٢٧١].

ولم يمض شهر واحد على معركة مؤتة، حتى خرج عمرو بن العاص رضي الله عنه بجيش صغير، نُقِصَ في سرعة على الأطراف الشمالية للجزيرة، ويُقَصُّ على أفراد - مضاجع الذين وقفوا - يداً واحدة - في مؤتة ضد المسلمين حتى غطى - بانتصاراته الأخيرة - على بعض ما كان من أصداء مؤتة، وأشعر العرب الموالية للروم بأن هزيمة المسلمين في معركة لا تعني أبداً انحسار دولتهم في أرض الشمال.

[د/ عماد الدين خليل - دراسة في السيرة ص ٣٠٠ بتصرف]. [في ظلال الرسول ﷺ لعويس ١٥٦-١٥٧].

٤ - لا إسلام بلا جهاد:

يقول د/ العتوم: «مَثَلُ الجهاد في الإسلام مثل الرأس من الجسد، فمن أبطل فريضة الجهاد حَكَمَ على الإسلام بالموت، إذ كيف يُعقل أن يعيش جسم بلا رأس، وهَبْ أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، لم يقيم بأعماله الجهادية داخل الجزيرة وخارجها، وهَبْ أنه لم يرد اعتداءات الروم على رسوله في مؤتة، ومن ثم على أطراف الحدود في تبوك، وهَبْ أن خلفاء لم يقوموا بهذه الفريضة، فماذا تكون النتيجة؟! أو يكون هناك إسلام ودولة، وفتوحات وحضارة عالمية؟! إنها ولا شك الانكماش والاندحار والنهاية الحتمية بلا أدنى أثر يُذكر في واقع الأرض!

إن جيش مؤتة بقلة عدده نسبياً أثبت للعالم كله، أن الإسلام لا يُهادن الكفر، وأن المسلمين قومٌ لا يخشون إلا الله، وأن العدد عندهم ليس نقطة الفصل في القضية، إنها هي الكرامة يثار لها، والعقيدة يثار من

أجلها مهما قلّت الإمكانيات، وشحت الموارد، إن استشهاد اثني عشر رجلاً من هذا الجيش - وعلى رأسهم القواد الثلاثة - خارج حدودهم، وبعيداً عن موطنهم، ليجعل من «الأجيال المؤمنة حتى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله ومن عليها كلما مرت على أجدادهم وزارات مقاماتهم للاعتبار والادكار، تدعو لهم بالرحمة، وتسأل الله لهم المغفرة». [مواقف من مؤتة، مجلة هدى الإسلام، المجلد (٢٦) العدد الخامس ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م، ص ٤١٨ بقلم رئيس التحرير].

وتشدد مع شوقي وهي تقف أمام هذه الأحداث خاشعة الطرف - إكباراً لأصحابها :-

بِلَادٍ مَاتَ فَنِيَّتُهَا لِيَتَحَيَا وَزَالُوا دُونَ قَوْمِهِمْ لِيَنْقُوا
وَحَرَّرَتِ الشُّعُوبُ عَلَى قَنَاهَا فَكَيْفَ عَلَى قَنَاهَا تُسَرَّقُ

وَلَا يَبْنِي الْمَالِكُ كَالضَّحَايَا وَلَا يُذْنِي الْحَقُوقُ وَلَا يُحِقُّ
فَقِي الْقَتْلَى لِأَجْيَالٍ حَيَاةٍ وَفِي الْأَسْرَى فِدَى لَهُمُ وَعَتَقُ
وَلِلْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَابٌ بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

[الشوقيات (مطبعة الاستقامة) ٢/ ٧٥-٧٦].

إن تعطيل فريضة الجهاد في أي زمن من الأزمان، وتحت أي اعتبار من الاعتبارات ما هو إلا خيانة عظمى لله ولرسوله وللمؤمنين، لا يبرأ منها متولي كبرها إلا بفتح باب الجهاد على مصراعيه لأبناء الأمة، تقارع أعداء الله الذين سلبوا الأرض، وانتهكوا العرض، وأهانوا العقيدة؛ ذلك لأن الجهاد لا يعدله شيء حتى الصوم والصلاة، إذ أن الصوم والصلاة والحج والزكاة بمعناها العادي لا تُردُّ أوطاناً، ولا تحمي أدياناً، بينما الجهاد في حدوده الإسلامية يحافظ على الحمى، ويطرد عنه الأوباش؛ ولهذا لما أراد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه - كما جاء في بعض المصادر - أن يتخلف عن جيش مؤتة ليصلي الجمعة مع رسول الله ﷺ، ومن ثم يلتحق بالركب أنكر عليه هذا بشدة وقال له: «لَعْدَوْةٌ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

[مسند أحمد ٤/ ١٦٢ رقم ٢٣١٧، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف].

إن الجهاد مفروض على هذه الأمة، حتى ولو لم تُردّه، إذ أن الأمم الأخرى لن تتركها تعيش وشأنها، يشهد بذلك الهجمات البربرية عليها ووطناً وعقيدة ولغة قديماً وحديثاً، من زخوف التتار المتوحشين، وحملات الصليبيين الحاقدين في العصور الوسطى، إلى هجمات المستعمرين الشرسة في العصر الحديث، والتي تعاونت فيها الصليبية والصهيونية والإلحاد على تمزيق ديار هذه الأمة وتشثيت شملها.

وإن كثرة القلاع الإسلامية المشاهدة في هذه المنطقة بالذات، والتي أنشئت في مختلف العصور هنا وهناك، لتثبت صدق هذه النظرة، وهي أن الحرب على هذه الأمة ستبقى تُشن على الدوام حتى يقضي

الله أمراً كان مفعولاً، ولن يجدينا التناوم عن الخطر المحقق، إلا كما يجدي الغافل عن سلاحه غفلته وقد دامه العدو.

لقد حذر رسول الله ﷺ هذه الأمة من الركون إلى الدعة وإلقاء السلاح والميل إلى الانزواء بحجة الترهّب أو الهيام على الوجه بحجة السياحة والتفكير فقال: «لِكُلِّ نَبِيٍّ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ». [مسند أحمد عن أنس بن مالك ﷺ رقم ١٣٨٠٧ وضعفه الشيخ الأرناؤوط، والشيخ الألباني في ضعيف الجامع الصغير رقم ٤٧٣٩. وقد ورد: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ: أَوْصِنِي، فَقَالَ: سَأَلْتُ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِكَ، «أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ». أخرجه أحمد عن أبي سعيد ﷺ رقم ١١٧٧٤ وضعفه الشيخ الأرناؤوط، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم ٢٥٤٣ والسلسلة الصحيحة رقم ٥٥٥].

وقال عند الاستأذنه رجل في السياحة: «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى». [أبوداود في الجهاد (٢٤٨٦) وحسنه الشيخ الألباني، والحاكم في المستدرک في الجهاد (٢٣٩٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد].

ومن هنا كان أشد ما يضر بهذه الأمة في هذا الشأن، أن تتخضع بتمويهات أعدائها من أن هذه العصور لم يعد يناسبها الجهاد، فهو أسلوب القدماء غير المتحضرين ولا المتمدنين، أو تستنيم إلى أحاديث عن الجهاد موضوعة من مثل قولهم: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر).^(١)

يعنون بالأول جهاد العدو، وبالثاني الكدح على العيال، وهو حديث مشهور على الألسنة من وُضع إبراهيم بن عتبة، وقال العراقي مُخْرِجُ أَحَادِيثِ الْإِحْيَاءِ: رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر.

وخيّر لنا أن نعلم - ولا سيما في هذه الظروف التي تعيشها أمتنا - فضيلة الجهاد وقيمة الاستشهاد، لقوله ﷺ: «لَا يُلَاحِظُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ». [الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٣)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في الجهاد (٣١٠٨)، وقال الشيخ الألباني عنهما: صحيح].

(١) ينظر لتفصيل الرد على هذه المقولة: مشاريع الأسواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام (في الجهاد وفضائله) - للإمام أبي زكريا أحمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي ثم الدمياطي المشهور بابن النحاس (ت ٨١٤هـ) - تحقيق ودراسة د/ إدريس محمد علي ود/ محمد خالد إسطنبولي ص ٢٩-٣٤ ط ٣ دار البشائر الإسلامية - بيروت ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

وينظر في محاولات التحريف في مفاهيم الجهاد في سبيل الله: مفهومات يجب تصحيحها حول: التوكل على الله، والجهاد في سبيل الله، ووجوه النصر - الشيخ عبد الرحمن حسن حَبَّكَة الميداني - المكتبة المكية، مكة المكرمة، ومؤسسة الريان - بيروت ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م - ٢٣١ ص. غريب.

وقوله ﷺ: «مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، إِلَّا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ». [البخاري في الجهاد (٢٨١٧)].

فإذا لم نفعل ذلك ونعمل بتوجيهه، فإن ألسنة النار المتوقدة بل والمتوقحة ستأتي - لا سمح الله - على البيت ومُوجداته، ونحن ما زلنا نغط في سبات عميق». [تجربة مؤنة للعتوم ٢٥٣-٢٥٦].

٥ - حرب لا بد منها:

يقول أ/ فتح الباب: «إن نفرًا من الأعراب قد عمدوا إلى اتخاذ المركب الوعر فقتلوا أصحاب محمد ﷺ الذين أرسلهم على حدود الشام للدعوة إلى الإسلام، فكان قراره الحاسم بتجريد حملة حربية لتأديهم ردعًا لهم وعبرة لغيرهم ممن قد تسوّل لهم أنفسهم أمر الاعتداء على المسلمين وبثًا للعزة والقوة في نفوس المؤمنين؛ لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولا يتردد القائد الأعظم ﷺ في اتخاذ هذا القرار الرادع بل بصدره مدبرًا له كل عوامل النجاح في التنفيذ ضمانًا لتحقيق الهدف وسعيًا إليه من أقوم السبل، لقد أدرك القائد المبعوث من عند الله ﷺ أن سكوته على العدوان من شأنه أن يطمع فيه المعتدون وغيرهم من الخصوم، وأن الدعوة الإسلامية وهي ما تزال بعد في نشأتها الأولى لن يُقدّر لها الذبوع إلا إذا ظهر أنصارها أمام أعدائها بمظهر الأقوياء الذين لا يساومون ولا يلينون، وأن تحمّل المسلمين لمزيد من التضحيات خلال تلك المرحلة خير من الانتظار الذي يطوي مخاطر شديدة على الدعوة ويحقق مكاسب للأعداء في المدى البعيد، فالمبادرة وأخذ المشرّكين على غِرّة قبل أن ينظموا صفوفهم ويعقدوا الأحلاف مع أعداء الإسلام، وإرهابهم بما أعد لهم من قوة ومن رباط الخيل هي الخطة الحكيمة التي ينبغي اتخاذها.

ولقد حان الوقت المناسب لذلك بعد أن بدت منهم بوادر الغدر وسوء الطوية، ولقد كان طبيعيًا حيال هذه الظروف أن تتخذ هذه التعبئة الروحية شكل الإعداد للجهاد، فجهز النبي ﷺ جيشًا قوامه ثلاثة آلاف جندي من المسلمين، ولم يكتف بالاضطلاع بمسؤوليته في اختيار القائد، بل وضع في اعتباره احتمالات المستقبل حتى لا تحدث مفاجآت لم تكن في الحسبان فيتعرض الجيش للاضطراب؛ مما يؤثر على سلامة الخطة الموضوعية، فعين ثلاثة من المسلمين لإمارة الجند يلي الواحد منهم الآخر بالترتيب كلما استشهد سابقه؛ اتقاء للتنازع حول الإمارة وما قد يحجره من انقسام في صفوف الجبهة لا يؤمن معه النصر على الأعداء». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٥٤-١٥٥].

ويقول د/ أبو خليل: «لماذا سَيّر رسول الله ﷺ هذا الجيش، وهو يعلم أنه سيستشهد فيه زيد وجعفر وعبد الله ﷺ؟

إن استشهاد الأمراء الثلاثة شرف كبير لهم أولاً.

وإرسال الجيش أمر لا بد منه ثانيًا، لا بد لإعلام الأعراب والروم على حد سواء، أن الإسلام حريص على ألا تُتقص هيئته في أية ناحية، فالكسوت عن قتل رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي عليه

على يد شر حبيل بن عمرو الغساني قبول بتناول ستكون أصداءه سيئة بسمعة المسلمين، وقبول بانتهاك حرمة الإسلام بشخص سفيره الحارث عليه السلام، ستكون عواقبه حرجة حساسة، فسيشعر من خلال ذلك - الأعراب والروم - أن الإسلام يمكن التَّيْل منه بسهولة دون عقاب.

لما سبق فإن إرسال جيش الأمراء إرسال يعيد إلى الإسلام هيئته، يشعر من خلاله الأعراب الذين وصفهم الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَكْرِضُ بِكُودَ الْأَوَائِرِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٨]، مَنْ كان منهم في جزيرة العرب، وَمَنْ كان منهم تحت نفوذ الروم، أن الإسلام قوة لا يُستهان بها، ولا يمكن التناول عليها.

إن قرار رسول الله صلى الله عليه وسلم بإرسال جيش الأمراء إلى مؤتة حيث قُتل الحارث بن عمير الأزدي عليه السلام، إرسال جيش لتأديب مُعْتَدٍ، وغسل لما لحق بالمسلمين من مهانة في شخص سفيرها. وأمام هذا الواقع لا بد من التضحية، ولا تَنْهَضُ أُمَّةٌ ولا تَسْرُدُ، ولا يَنْتَشِرُ «بِذْءٌ» ولا يُتَنَدَّتْ إِلَّا بِتَضَحِيَّاتٍ، وبخاصة وأن النتائج المحققة أعظم من التضحية، فمن استشهد أكرمه الله بمجد الشهادة، وبكرامة قربته مع الأنبياء والصّديقين، وَمَنْ عاش، عاد بعزة وكرامة وهيبة الجانب».

[غزوة مؤتة لأبي خليل ١٣٥-١٣٧].

ويقول د/ الغضبان: «لقد كان قَدْرُ هذا الجيل أن يواجه أُمم الأرض بهذا الدين، وها نحن الآن أمام منعطف جديد في تاريخ الإسلام هو الصدام المباشر مع الروم، ويحسن أن لا يغيب عن البال أن السبب لهذه المعركة هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدي عليه السلام بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شر حبيل بن عمرو الغساني، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قِبَل قيصر، فأوثقه رباطاً ثم قدّمه فضرب عنقه. [الرحيق المختوم ٤٣٥].

فالمعركة إذاً نتجت عن الدعوة.

ومقتل فرد مسلم يعني عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حرباً ضرورياً مع المعتدين، ولعل هذا المعنى لا يغيب عن أذهان بعض الدعاة الذين يرون أن بالإمكان تجنب المعركة مع العدو إذا سلمنا وعرضنا عليه فكرنا فحسب.

إن الصدام مع أعداء الله أمر لا مفر منه، لكن تحديد وقت الصدام وإمكانيته يعود إلى قيادة الجماعة المسلمة.

الفقه النبوي يعني أن مقتل جندي مسلم - وهو رسول إلى العدو - إشعال معركة ضارية، وقد فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين:

الأولى: يوم الحديبية حين بلغه أن عثمان رضي الله عنه قد قُتل، وأخذ البيعة من جيشه على الموت وهذه المرة الثانية.

فلا بد إذن من توطين الحركة الإسلامية نفسها على المواجهة، وهو تأكيد من جهة ثانية، على أهمية الفرد المسلم عند قيادته، وأن الجيش كله مستعد أن يخوض معركة للثأر له.

لكن الملاحظ أن هذا الأمر مرتبط بإمكانيات الجماعة المسلمة على ذلك، ففي حالات الضعف كان كل ما يملكه رسول الله ﷺ أن يقول: صبراً أكل يأسر فإن موعدكم الجنة، أو يدفعهم إلى الذهاب إلى النجاشي الذي لا يُظلم عنده أحد، حتى والمسلمون دولة، قد تكون الدولة المسلمة عاجزة عن الثأر لشهادتها، فمأساة بئر معونة والتي ذهب ضحيتها سبعون من خيار المسلمين لم يتمكن رسول الله ﷺ من الثأر لهم إلا بعد لأي.

لكن المعنى الأساسي يبقى ثابتاً في التحام الصف المسلم، وقيمة الجندي فيه أنه حين تكون الظروف مواتية، فلا يجوز أن يذهب دم الشهيد هدرًا، ولا بد أن يثار له.

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٩٦-٩٧].

٦ - الفتح المبين في الحديبية:

يقول د/ الغضبان: «ونقف أمام هذا العدد الضخم الذي تحرك للقاء الروم، فلم يتحرك جيش خارج المدينة أكثر من ألف وخمسمائة مقاتل، وأكبر جيش حشده المسلمون داخل المدينة هو جيش الخندق وكان قوامه ثلاثة آلاف مجاهد، وها هو الجيش الإسلامي يتحرك اليوم مغادرًا المدينة إلى الشام بثلاثة آلاف مجاهد، وهنا نشير إلى الفتح المبين في الحديبية، حيث تضاعف عدد الجيش الإسلامي بعد الحديبية بسنة ونصف على التقريب، وبدأت تظهر أسماء جديد لم تكن تُعرف من قبل، فقائد يمينه المسلمين في مؤتة قطبة بن قنادة ؓ وهو من بني، وهذا معنى مهم إذ القبائل التي تواجه المسلمين فيهم تجمع كبير من هذه القبيلة. ونضيف في الحديث عن هذا الحشد إلى شعور الرسول ﷺ بخطورة المواجهة مع دولة عظمى، فلن يصلح لهذه المواجهة عدة مئات.

ويؤكد هذا المعنى كذلك تعيين الأمراء الثلاثة فلم يسبق لرسول الله ﷺ خلال المراحل السابقة أن عين أكثر من أمير على الجيش، لكنه كان يعلم ﷺ بما أوحى الله تعالى إليه أن الأمراء يلقون مصرعهم في هذه المعركة.

ولقد أدرك اليهود هذا المعنى حيث قال أحدهم ما قال.

وقد يقول قائل كان بإمكان رسول الله ﷺ تجنب هذه المواجهة مع العرب الغساسنة في الشام، لكن الصورة المقابلة كذلك إن قُتل هذا الرسول ولم يثار له فقد يدفع عرب الشام مع الروم إلى غزو المدينة، وكثيراً ما يكون المهجوم وسيلة ضخمة من وسائل الدفاع عن النفس.

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٩٧/٣].

٧ - تدريب القيادات على القيادة:

يقول د/ أبو فارس: «يلاحظ أن الرسول ﷺ على رغبته في الجهاد وقاتل أعدائه لم يقد هذه المعركة وإنما اختار غيره ليقودها، فما الحكمة من وراء ذلك؟
ويبدو أن هناك أكثر من حكمة من وراء ذلك:

فالوقت غير مناسب لأن يهجر رسول الله ﷺ حاضرة الدولة الإسلامية ويقطع تلك المسافة الشاسعة؛ ذلك لأن القوى المعادية في الجزيرة العربية و بخاصة في مكة وما حولها كقريش وهوازن وثقيف لا تزال تقطر قلوبها حقداً عليه، وتربص به وبمن آمن معه الدوائر، وترجو أن تصيب غرة من المسلمين ومنه، وفي خروجه ﷺ من المدينة و سفره الطويل إلى مؤتة باعث يستهوي هؤلاء أن يغدروا بالمسلمين ويهاجموا المدينة في غياب قائدها وخروج جُل أهلها منها، وإذا كان الوقت في غاية الحرج فالأولى أن يبقى رسول الله ﷺ القائد الرائد وثلة من المؤمنين حوله تحسباً لوقوع أي أمر مفاجئ، هو أقدر الناس على حله و علاجه.

ولعل الرسول ﷺ أراد من هذه الحملة أن يحبس نبض أعدائه، أن يعرف مدى رد فعلهم وقدرتهم وكفاءتهم في القتال، فكانت السرية بدونه تؤدي هذا الغرض وتحققه دون أن يقودها رسول الله ﷺ ولم يرد رسول الله ﷺ أن تكون معركة حاسمة فاصلة بينه وبينهم إذ لم يأت الوقت المناسب لذلك.

ومن الحكمة أيضاً أن الرسول ﷺ القائد الفذ والإداري الناجح أراد أن يُوجد القيادات البديلة وأن يدرّبها على القيادة تدريباً مستقلاً، تقود المعارك في غيابه، فتخطط وتنفذ وتواجه المشكلات المفاجئة وتفكر في إيجاد الحلول لها دون وصاية، أو اعتماد على تخطيطه، فإن الرسول ﷺ سيفارقهم يوماً من الأيام، ويبقوا هم من بعده يُسيرون دفة الحكم، ويقودون الجيوش ويواجهون الأعداء في معارك طاحنة، فلا بد - والحالة هذه - أن ينالوا في حياته من التهيئة والإعداد والدربة على القيادة حتى يستفيدوا من توجيهاته وإرشاداته بعد أن يزاولوا القيادة وتصدر عنهم اجتهاداتهم العسكرية والقيادية في جو من الحرية والاستقلالية.

ولقد استطاع الرسول ﷺ بهذه الوسيلة أن يترك أكفأ القيادات العسكرية والإدارية والمالية والسياسية والاجتماعية.

وما يجدر ذكره أن كثيراً من المسؤولين في البلاد الإسلامية سواء كانوا حكاماً أو مسؤولين للحركات الإسلامية لا يعيرون انتباهاً ولا اهتماماً لتهيئة القيادات والكفاءات التي ستخلفهم، إذ يصر كثير من الحكّام أن تكون مقاليد الأمور كلها بيده ولا يفسح المجال لغيره بجانبه لتنمو مواهبه في الحكم والإدارة والساسة، فيجتهد في ذلك، حتى وإن خالف الحاكم في اجتهاده.

ومن الحق أن نقول: إن بعض العاملين في الحركات الإسلامية والذين يتصدرون العمل على وجه الخصوص تطفئ شخصياتهم على العمل وتهمين عليه، بحيث يتصور المسؤول أنه كل شيء، فيظهر نفسه ولا يجب أن يظهر بجانبه أحد، بل يحاول بعضهم أن يبنوا مجده على أشلاء الآخرين والإساءة إليهم، بالنقد والتجريح ومن ثم الإحباط الذي يقتل الإبداع عندهم، ومن ثم يخسر العمل الإسلامي طاقات وكفاءات لو استغلت لقطع شوطاً بعيداً في تحقيق أهدافه التي ينشدها وينادي بها».

[الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٣٠-٣٢].

٨ - مصلحة الدعوة والوطن أولاً وأخيراً:

يقول د/ عمارة: «صورة للتخطيط العلمي، وتوزيع المسؤولية وتحديداتها، كما يرسمها رسول الله ﷺ حين أمر زيد بن حارثة ﷺ أولاً، ثم ثنى بابن عمه جعفر ﷺ، وأخيراً بجيء دور ابن رواحة ﷺ. ولا يجيء هذا الترتيب جزافاً، فلا بد أن يكون نتيجة تجربة سابقة اقتضته، وعلى كل فليست القرابة، أو المنفعة أحد الأسباب حين يجد الجد وتدق طبول الحرب.

بل الرأي والمكيدة التي تتخطى هذه العوامل، لتضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

ولو اقتضى الأمر أن يكون أحب الناس إليك في مواجهة الأعداء، ولو اقتضى الأمر أيضاً أن يكون واحد من عامة الشعب أميراً على ابن عم الحاكم..

فمصلحة الدعوة والوطن أولاً، وأخيراً». [تأملات في السيرة النبوية لعامة ٢٥٥-٢٥٦].

ويقول د/ أبو فارس: «نلاحظ أن جعفر بن أبي طالب ﷺ قد اعترض على تقديم زيد بن حارثة ﷺ وأن النبي ﷺ لم يتجاوب مع اعتراضه ولم يستجب له، ولم يرجع عن اختياره، بل أصر عليه قائلاً لجعفر ﷺ: «امض فإنك لا تدري أي ذلك خير».

والذي انقذ في روعي وفي نفسي أن تقديم النبي ﷺ لزيد بن حارثة ﷺ يدل على أن اعتبار عنصر الكفاءة أقوى العناصر في تقديم الناس للإمامة واختيارهم لها، كما يدل على أن زيد بن حارثة ﷺ أجدر بالإمامة وقيادة الجيش من جعفر بن أبي طالب ﷺ؛ لخبرته في فنون القتال وقيادته الناجحة لسرايا عديدة، بل إن السيرة تخبرنا أنه قلما يخرج زيد بن حارثة ﷺ إلا ويختاره الرسول ﷺ أميراً عليها.

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: غزوت مع النبي ﷺ سبع غزوات وغزوت مع زيد بن حارثة ﷺ سبع غزوات يؤمّره الرسول ﷺ علينا. [ينظر: شرح المواهب ٢/ ٢٦٨، قال: رواه أبو مسلم الكحي والإسماعيلي وأبو نعيم والطبراني بهذا اللفظ، وهو في الصحيح بإبهام عدد غزوه مع زيد].

قال الحافظ ابن حجر: وقد تبعت ما ذكره أهل المغازي من سرايا زيد فبلغت سبعا كما قال سلمة: أولها في جهاد الآخرة سنة خمسة قبل نجد في مائة راكب، والثانية في ربيع الآخرة سنة ستة إلى بني سليم،

والثالثة في جمادى الأولى منها في مائة وسبعين يلقي عيرًا لقريش، والرابعة في جمادى الآخرة منها إلى بني ثعلبة، والخامسة إلى مسمى في خمسمائة إلى جذام بطريق الشام كانوا قطعوا الطريق على دحية وهو راجع من عند هرقل، والسادسة إلى وادي القرى، والسابعة إلى ناس من بني فزارة، وكان خرج قبلها في تجارة فخرج عليه ناس منهم فضر به، وأخذوا ما معه فجهزه إليهم فأوقع بهم. [شرح المواهب ٢/ ٢٦٨].

ولقد شهد له الرسول ﷺ بجدارته للإمارة وأقسم على ذلك، فقد قطع الرسول ﷺ بعثًا وأمر عليهم أسامة بن زيد رضي الله عنه وفي ذلك البعث أبو بكر وعمر، فكان أناس من الناس طعنوا في ذلك لتأمر رسول الله ﷺ أسامة رضي الله عنه عليهم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثًا وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنه فَطَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِمَارَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْ تَطْعُنُوا فِي إِمَارَتِهِ، فَقَدْ كُتِمَ تَطْعُنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّمَا اللَّهُ إِنْ كَانَ لَخَلِيفًا لِلْإِمَارَةِ وَإِنْ كَانَ لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسُ إِلَيَّ وَإِنَّ هَذَا لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسُ إِلَيَّ بَعْدَهُ [فَأَوْصِيَكُمْ بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ صَالِحِيكُمْ]». [البخاري في فضائل الصحابة رضي الله عنه (٣٧٣٠)، وفي المغازي (٤٤٦٩)، وفي الأبيان والنذور (٦٦٢٧)، وفي الأحكام (٧١٨٧)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنه (٢٤٢٦)....].

ويؤخذ من ذلك أيضًا: أنه ليس كل اعتراض يكون صحيحًا، فقد يقوم الظن في ذهن صاحبه على رجحانه وصحته وفي واقع الحال يكون غير ذلك.

إن الذي يلفت النظر ويجلب الانتباه رغبة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في ألا يتقدم عليه زيد بن حارثة رضي الله عنه فما تفسير ذلك؟

أقول: إن اعتراض جعفر رضي الله عنه على زيد رضي الله عنه ورغبته ألا يتقدم عليه، ويفهم من هذا رغبة جعفر رضي الله عنه أن يكون الأمير الأول للسرية، ليس الباعث على ذلك تشوقًا للإمارة المُطغية، ولا حبًا للمسؤولية الفارغة، والزعامة الجوفاء، بل كان حريصًا - كما أثبتت أحداث المعركة - أن يتولى النكاية في العدو والإتخان فيهم، وكان حريصًا على نيل الشهادة، لقد كان رضي الله عنه قاب قوسين أو أدنى من الموت، بل الموت أقرب إليه من شرك نعله». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٣٤-٣٥].

٩ - تقديم القيادة الشابة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد لمح النبي ﷺ بفراسته نضوج جعفر رضي الله عنه ورجولته وتوافر مؤهلات القيادة فيه، وهو في ريعان شبابه، وباكورة عمره، فلا غرو أن يؤمّر على المسلمين في الحبشة، وأن يسعد المسلمون بإماراته وهو ابن عشرين سنة، فقد قام بالإمارة خير قيام، بعرض عقيدتهم وفكرتهم دون خوف أو وجل، وبقول الاعتقاد الحق في عيسى عليه السلام، وإن كان يخالف اعتقاد أهل الحبشة الذين قابله ومن معه

من المسلمين في بلادهم، ويبيدي حججه الدامغة والبراهين الساطعة على صحة ما يقول، وهو يواجه أحد دهاة العرب ذلكم هو عمرو بن العاص، فيعود حسيراً خالي الوفاضين، راضياً من الغنيمة بالإياب خائباً فاشلاً.

ولا غرو إذاً أن نجد النبي ﷺ يختاره بعد عودته من الحبشة بعام ليكون أحد الأمراء الثلاثة في وقعة مؤتة، ويولي بلاءً حسناً كما علمت وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٦].

١٠ - الأخذ بمبدأ الشورى:

يقول د/ أبو فارس: «إن الإسلام يرفض الاستبداد بكل أنواعه، ويوجب العدل من الحاكم والطاعة من الرعية، والشورى من الحاكم والمحكوم، إنه يربي أتباعه على الشورى والالتزام بها حتى تصبح خلقاً اجتماعياً لا يفارق أهله في حياتهم مهما كانت الظروف والأحوال.

ولقد علمنا الرسول ﷺ كيف تكون الشورى، وكيف تُمارس الشورى في مواطن كثيرة من غزواته وسيرته ﷺ، وفي هذه السرية نجد هذا الدرس بيئاً في نفوس أصحابه وأتباعه في غيابه، إذ وقفوا يتشاورون في الموقف العسكري بعد بلوغهم حشود النصارى الصليبيين الضخمة».

[الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٥٢-٥٣].

ويقول د/ الحميدي: «توقف القادة لمدة يومين لإجراء المشورة مع أهل الرأي من المسلمين، والشورى بين القادة وأهل الرأي هي المنهج السديد الذي طبقه رسول الله ﷺ وعلمه أصحابه، فالقائد في الإسلام لا يستبد بالرأي وحده بل يحب عليه أن يستشير أهل الرأي والخبرة.

وقد رجع الجميع بعد هذه المشورة إلى رأي عبد الله بن رواحة ؓ الذي يقضي بالإقدام على قتال الأعداء وإن كان عددهم كبيراً.

وإذا نظرنا إلى عدد المسلمين الذي لا يزيد عن ثلاثة آلاف وإلى عدد الكفار الذي يبلغ مائتي ألف تبين لنا أن الأعداء ضعف المسلمين بأكثر من ست وستين مرة؛ ولهذا فإن الذين رأوا التوقف والكتابة لرسول الله ﷺ معذرون لبُعد النسبة بين الجيشين، وأن الدخول في حرب كهذه قد يُعتبر مجازفة تضر بسمعة المسلمين». [التاريخ الإسلامي للحميدي ١١٥/٧].

ويقول د/ أبو فارس: «وتنصيب خالد ؓ على إمارة الجيش كان بناء على الشورى، ولقد نال موافقة الأغلبية الساحقة للجيش، تأمل قول الراوي: فاصططح الناس على خالد ؓ، أقول: وأبو سليمان لها، فهو القائد المحنك المجرب المقدم، شهد له رسول الله ﷺ بذلك، وشهد له العدو والصديق بالكفاءة والإدارة في فنون الحرب والقتال». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٩].

١١ - من فقه القيادة:

يقول أ/ الشامي: «لابد من وقفة أمام ثابت بن أقرم العجلاني رضي الله عنه، إنه أخذ اللواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه آخر الأمراء، وذلك أداءً منه للواجب؛ لأن وقوع الراية معناه هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً، وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل.... فاصطلح الناس على خالد رضي الله عنه.

وفي رواية أن ثابتاً رضي الله عنه مشى باللواء إلى خالد رضي الله عنه فقال: لا أخذه منك، أنت أحق به، فقال: والله ما أخذته إلا لك.

إن مضمون كلا الروایتين واحد، أن ثابتاً رضي الله عنه - وهو من أهل بدر - رفع الراية ريثما يأخذها من هو أهل لها.

إنه لم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا، ذلك أنه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولى العمل من ليس له بأهل، فإن الفساد متوقع، والعمل حينما يكون لله تعالى، لا يكون فيه أثر لحب الشهرة، أو حظ للنفس.

إن ثابتاً لم يكن عاجزاً عن قيادة المسلمين - وهو من حضر بدرًا - ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه، حتى ولو لم يمض على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ إن الغاية هي السعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن والطريقة الأمثل.

إنه درس تطبيقي في ميادين العمل لتعاليم الرسول الكريم ﷺ. [من معين السيرة للشامي ٤٠٦-٤٠٧]. ويقول د/ الصلابي: «إن كثيراً ممن يتزعمون قيادة الدعوة الإسلامية اليوم يضعون العراقيل أمام الطاقات الجديدة، والقدرات الفذة خوفاً على مكانتهم القيادية، وامتنيازاتهم الشخصية، وأطماعهم الدنيوية، فعلى أولئك القادة أن يتعظوا من هذا الدرس البليغ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

[السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٤٣٧].

ويقول د/ الحميدي: «فهذا الموقف يُذكر لثابت بن أقرم رضي الله عنه حينما جمع المسلمين أولاً، ثم حينما أعطى القوس باريها، فأعطى الراية أبا سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولم يحتفظ بالراية له لكونه شهد بدرًا وله سمعة عند قومه من الأنصار، وهذا دليل على تجرده من حظ النفس وإخلاصه لدينه، فقد اختار أعظم الموجودين خبرة بالحرب وأقواهم على القيادة وإن كان من غير قومه». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٢٤].

١٢ - احترام القادة:

تعقيباً على قصة عوف بن مالك والمددي وموقف خالد رضي الله عنه من سلبه يقول أ/ الشامي: «إن التصرف النبوي الشريف الذي ورد ذكره في هذا الحديث يبين في غاية من الدقة كيف ينبغي أن تُقاس الأمور وتُوزن الأعمال».

إنه ﷺ حينما سمع القصة من عوف بن مالك ؓ، أمر خالدًا ؓ أن يعيد الحق لصاحبه وفقًا للسُنن النبوي الشريف، وكان أمرًا عاديًّا أن تُعاد الأمور إلى نصابها.

ولكن عوف بن مالك ؓ حينما تصدى لخالد ؓ - بعدها - يعرفه أنه قد نال منه، وأن كلمته علت كلمة خالد ؓ، ظهر لرسول الله ﷺ أمر آخر لم يكن يظنه، وهو أن الدافع لعوف ؓ لم يكن إقامة الحق، وإنما عامل نفسي آخر هو التقليل من شأن خالد ؓ، وعندها كان للرسول الكريم ﷺ أمر آخر.

إنه درس في إخلاص العمل لله أولاً، فإرادة الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا ينبغي أن تشوب الدافع إليه أية شائبة من الترفع على الآخرين، أو أي عامل نفسي آخر... فإذا دخلته العوامل الأخرى فَقَدْ قِيمَتَهُ عند الله تعالى حيث الأعمال بالنيات.

والأمر الثاني، وهو ما أغضب الرسول ﷺ أن يُستهان بالقادة، ويقولها ﷺ صريحة: (هل أنتم تاركون لي أمرائي)، إن أمة لا تُقدَّر رجالها ولا تحترمهم لا يقوم فيها نظام.

إن عوفًا ؓ أقدم إسلامًا من خالد ؓ، وهذا لا يعني الترفع عليه، ولقد رأينا أبا بكر وعمر ؓ تحت إمرة عمرو بن العاص ؓ في ذات السلاسل ولما يمض على إسلامه عام واحد، وهما من هُما في الإسلام. إنها التربية الحقة التي استطاعت بناء هذه الأمة بناءً سليمًا، وما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسان في مكانه وأن يُحترم ويُقدَّر، بمقدار ما يقدِّم لهذا الدين، ويبقى الجميع بعد ذلك في الإطار العام الذي وصف الله به المؤمنين: ﴿أَذَلُّوْا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزُّوْا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وبعد أليس في الحديث وسام آخر يُضاف إلى خالد ؓ، حيث عُد من أمراء الرسول ﷺ، تلك سنته ﷺ في تقدير الرجال. [من معين السيرة للشامي ٤٠٨-٤٠٩].

ويقول د/ الحميدي: «فهذا موقف عظيم من رسول الله ﷺ في حماية القادة والأمراء من أن يتعرضوا للإهانة بسبب الأخطاء التي قد تقع منهم، فهم بشر معرضون للخطأ، فينبغي السعي في إصلاح خطئهم من غير تنقص ولا إهانة، فخالد ؓ حينما منع ذلك المجاهد سلبه لم يقصد الإساءة إليه، وإنما اجتهد فغلب جانب المصلحة العامة، حيث استكثر ذلك السلب على فرد واحد، ورأى أنه إذا دخل في الغنيمة العامة نفع عددًا أكبر من المجاهدين، ولم يكن يعلم أن الحكم الشرعي في ذلك يقضي للقاتل بسلب المقتول وإن كان كبيرًا.

وعوف بن مالك ؓ أدى مهمته في الإنكار على خالد ؓ، ثم في رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ حينما لم يقبل خالد ؓ قوله، وكان المفترض أن تكون مهمته قد انتهت بذلك؛ لأنه - والحال هذه - قد دخل في أمر من أمور الإصلاح، وقد تم الإصلاح على يده، ولكنه تجاوز هذه المهمة حيث حوّل القضية من قضية

إصلاحية إلى قضية شخصية، فأظهر شيئاً من التشفي من خالد رضي الله عنه، ولم يقره النبي ﷺ على ذلك، بل أنكر عليه إنكاراً شديداً ويّين حق الولاة على جنودهم.

وكون النبي ﷺ أمر خالدًا رضي الله عنه بعدم رد السلب على صاحبه لا يعني أن حق ذلك المجاهد قد ضاع؛ لأنه لا يمكن أن يأخذ رسول الله ﷺ إنساناً بجريرة غيره، فلا بد أن ذلك المجاهد قد حصل منه الرضى، إما بتعويض عن ذلك السلب أو بتنازل منه أو غير ذلك فيما لم يذكر تفصيله في الخبر».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٢٩-١٣٠].

١٣ - حرية التعبير عن الرأي:

يقول أ/ باشميل: «وقد كانت هذه المظاهرات التي قام بها أهل المدينة احتجاجاً (على ما ظنوه فراراً وهرباً قام به جيش الرسول ﷺ المبعوث إلى الشام) - أول مظاهرة يقوم بها المسلمون في تاريخ الإسلام. ومن الجدير بالذكر أن الرسول ﷺ والقائد الأعلى للجيش لم يحاول التعرض للمتظاهرين، ولم يأمر بتفريقهم بالقوة عندما تجمعوا بالجرف خارج المدينة يحثون التراب في وجوه الجيش ويهتفون ضده هتافات معادية، بل كل ما فعله الرسول ﷺ أنه كان يرد على المتظاهرين مزاعمهم، وينفي عن جيشه تهمة الفرار والجبن.

أما المتظاهرون فقد تركهم ﷺ يعبرون عن مشاعرهم بكامل الحرية، حتى انجلت لهم الحقيقة على مدى الأيام، واتضح لهم أن جيش الإسلام في مؤتة - وخاصة بعد تسلم خالد رضي الله عنه قيادته - قام ببطولات لا يمكن لأي جيش هو في حجم صغره أن يقوم بها». [غزوة مؤتة لباشميل ٢١٢].

١٤ - استشراف آفاق المستقبل:

يقول الشيخ القرني: «كانت هذه الغزوة أول مواجهة حاسمة بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى، فهي تجربة عملية لما ينتظر المسلمين في مستقبلهم من تبليغ دعوة ربهم عبر الآفاق، ولما سيبتلون به من جهاد صادق في ذلك له جزاؤه العظيم في الدنيا والآخرة، هي خبرة اكتسبها المسلمون تفيدهم في قتالهم وتوقفهم على طريقة غيرهم في الحروب ومدى استعداداتهم، واكتساب الخبرة ليس شيئاً هيناً بل هو إضافة قوية يُعمل حسابها عند إحصاء ثمار النصر». [هدي السيرة للقرني ٢٠١].

ويقول د/ العمري: «ولا شك أن المسلمين أفادوا دروساً وخبرات عظيمة من هذا اللقاء الأول مع الروم في مستقبل حركاتهم الجهادية معهم، حيث تعرفوا على قوتهم وعددهم وأساليب قتالهم وخططهم وطبيعة الأرض التي يقاثلون عليها». [السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٧٠].

١٥ - خرافة التفوق التكنولوجي:

يقول أ/ باشميل: «لقد أبطل أصحاب محمد ﷺ من خلال أحداث معركة مؤتة التاريخية الخالدة خرافة التفوق التكنولوجي - حجة المهزومين أمام شرادم اليهود في معركة حزيران الفاضحة - أن الرومان لم يفشلوا في معركة (مؤتة) من قلة في العدد أو تأخر في العلوم والفنون العسكرية (تكنولوجياً). كما أن المسلمين - في هذه المعركة - لم يحققوا ذلك الانتصار التاريخي العظيم بسبب تفوقهم على الرومان في شيء من هذه الأمور.

بل لقد كان كل شيء هناك عكسًا، كما مر تفصيله أكثر من مرة، ومع ذلك فقد حقق المسلمون في (مؤتة) كل الأهداف التي جاؤوا لها من المدينة، في حين فشل الرومان فشلًا ذريعًا، وهو حسب الموازين العسكرية أشنع أنواع الانهزام.

فقد صمد المسلمون في (مؤتة) في وجه قوات تفوقهم من ناحية العدد سبعين ضعفًا، وتفوق عليهم في العلوم والفنون العسكرية (تكنولوجياً) تفوقًا ساحقًا، هذا ما لا سبيل إلى إنكاره، فالعرب في ذلك العصر لا يكادون يتقنون واحدًا في المائة مما يتقنه الرومان من العلوم والفنون العسكرية، بالإضافة إلى تفوق الرومان الساحق في وفرة السلاح وجودته.

ومع ذلك فقد كان النصر والفتح للمسلمين والفشل والاندحار للرومان وأتباعهم، أي أن القلة المسلمة القليلة تغلبت على الكثرة الهائلة من أعدائها الذين يتفوقون عليها تفوقًا ساحقًا في السلاح والعلوم والفنون العسكرية، وغادرت ميدان المعركة - بعد تحقيقها الأهداف - تاركة عدوها - المتفوق عليها في كل شيء - في حالة فشل وفوضى واضطراب هو عين الهزيمة الساحقة، يلحق جراحه قانعًا من الغنيمة بالإياب، لم يستطع أن ينال من هذه القلة المسلمة شيئًا رغم انسحابها وتراجعها إلى بلادها البعيدة. لذا انهزم العرب وانتصر اليهود في حزيران (يونيو)؟ أما في حرب (حزيران الأسود) فقد حدث

العكس إذ هُزمت القلة القليلة الفاجرة الداعرة الكافرة الكثرة الهائلة المنتسبة إلى الإسلام.

فالعرب كانوا في معركة حزيران - مع كثرتهم الهائلة - أكثر عتادًا وأقوى وأجود سلاحًا من اليهود بصفة عامة.

هذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها، حتى وإن حاول البعض إنكارها، تبريرًا للهزيمة الفاضحة المخجلة. إذن فالعرب لم يهزموا في حرب حزيران من قلة في عدد الرجال أو نقص في العتاد، أو ضعف في السلاح.

فعندما توزن الأمور - في حرب حزيران - بالموازين العسكرية العادية التقليدية، تبدو النتيجة الحتمية - حسب هذه الموازين - أن النصر الساحق سيكون حليف العرب ضد اليهود؛ لأن كل مقومات النصر

المادية المطلوب توفرها لتحقيق النصر متوفرة لدى العرب، تفوق ساحق على اليهود في الدبابات وبقية الآليات والأساطيل البحرية والطائرات وكل أنواع الأسلحة.

فلماذا إذن - مع تلك - نزلت تلك الهزيمة الفاضحة بالعرب؟!

الجواب سهل وبسيط هو الخواء العقائدي، فالعرب دخلوا المعركة وهم في حالة انسلاخ يكاد يكون كلياً عن العقيدة الإسلامية الصادقة الراسخة، التي يصنع المتمسكون بها في قتالهم ما يُشبه المعجزات، والتي كان تغلغلها في النفوس وتمكنها من القلوب المؤمنة يسد كل نقص مادي أو علمي أو فني يعاني منه المحاربون المسلمون في ساحات الجهاد، كما حدث في (مؤتة) واليرموك والقادسية وأمثالها.

تُرى لو كان شيء من ذلك الإيثار الذي كان يعمر قلب زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وجنودهم رضي الله عنهم الذين خاضوا معركة الأيام الستة في مشارف (مؤتة) قد لامس قلوب الرجال الذين قادوا آلاف الدبابات والطائرات، وجثوا خلف آلاف المدافع والصواريخ في البر والبحر في حرب الأيام الستة من حزيران الأسود، فهل يمكن للقلة القليلة من اليهود أن تنتصر علينا، أو حتى يبقى لها وجود اليوم على أرض المسرى والمعراج؟؟

كلا، والله، وألف كلا.

فغياب العقيدة الإسلامية عن قلوب المحاربين العرب، وترك هذه القلوب، إما خاوية فارغة من هذه العقيدة السليمة المكيئة الراسخة، وإما تلوّث هذه القلوب بعقائد وشعارات فاسدة مستوردة هي من عجن وطبخ اليهود أنفسهم - شعارات وعقائد ماركس ولينين - هو السبب الأول في التعجيل بتلك الهزيمة الفاضحة المدمرة التي نزلت بنا.

فلعل العرب عامة والمسؤولين عن هزيمة حزيران خاصة، يدركون هذه الحقيقة ويسلمون بها ويدعون المكابرة والمغالطة في الاعتراف بها، فيرجعون إلى ربهم، محققين هذا الرجوع الصادق، بتمسكهم بعقيدة الإسلام تمسكاً صحيحاً مكيئاً ثابتاً بحيث تكون هذه العقيدة منطلقهم الوحيد في كل ما يقولون أو يفعلون، وهنا يكونون مسلمين ومؤمنين حقاً، مضموناً لهم النصر على أعدائهم، والذي ضمنه الله تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧﴾ [الروم]. [غزوة مؤتة لباشميل ٢٥٦-٢٥٨].

١٦ - أثر مؤتة في الروم وحلفائهم:

يقول د/ الوكيل: «لم تكن غزوة مؤتة سوى حملة تأديبية شنها الجيش الإسلامي انتقاماً لرجل من رجالات الدولة اعتدى عليه عملاء الروم من العرب.

ولقد واجه الروم مع حلفائهم من العرب جيش المسلمين بأقصى ما يمكن أن يواجهوا به عدوًّا، ومع ذلك وقف المسلمون للروم، وصمدوا أمام جحافلهم الهادرة، وخاضوا معهم المعركة إلى نهايتها؛ لأنهم

وإن كانوا قليلي العدد لا يُقاتلون بكثرة، وإن كانوا ضعفاء لا يحاربون بقوة، وإنما يحاربون بهذا الدين الذي أكرمهم الله به، كما ذكرهم ابن روضة رحمته.

وكان لهذه المواجهة والتصميم على منازلة الروم مع كل هذه الظروف آثار بعيدة المدى في نفس الروم؛ لأنهم كانوا لا يتصورون قط أن العرب يجرؤون على الدخول معهم في معركة عسكرية، وأنى لهم ذلك وهم الضعفاء الفقراء؟

لم يكن الروم يعلمون أن الإسلام قد صنع من هذه الأمة الجاهلة علماء فقهوا معنى الحياة، فلم تعد في حسابهم شيئاً مهماً يستمسكون به إلا بالقدر الذي يمكنهم من خدمة عقيدتهم، وبعد ذلك فهم في حسابهم عرض فانٍ، وهي آخر شيء يتطلعون إليه؛ لأن حياتهم الحقيقية ليست هي هذه الحياة. ولم يعلم الروم أن الإسلام قد وهب هؤلاء الفقراء عقيدة أغتتهم عن متاع هذه الحياة، وعلمتهم أن السعادة الحقيقية في أن يبذل الإنسان روحه في سبيل تلك العقيدة.

ولعل الروم وهم يجمعون هذا العدد الضخم، ويحشدون هذه الحشود المخيفة ضد ثلاثة آلاف من المسلمين كانوا يبغون من وراء ذلك إرهاب المسلمين حتى لا يعودوا إلى مثل هذه المحاولة، ولعلهم جمعوا هذه الجموع الحاشدة خوفاً من المسلمين فقد شاعت أنباء عن انتصارهم في كل المعارك التي خاضوها، وعلى كل حال فإن الروم قد فشلوا سواء كان ذلك في محاولة الإرهاب أم في محاولة إزالة الخوف من المسلمين؛ بل قد زاد خوفهم من المسلمين لما رأوه منهم من الاستبسال والإقدام بصورة لم يتوقعوها، ولما تلقوه على يد هذه القلة من الدروس التي جعلتهم يحسبون لملاقاة المسلمين ألف حساب.

وتحطم الطاغوت الرومي، وتحطمت معه تلك القوات الهائلة على صخرة ذلك الصمود الذي لم يعرفه الروم من العرب قبل ذلك، ولم تكن هزيمة الروم تلك المرة في جيوشها أو في احتلال بلادها، ولكنها كانت هزيمة نفسية حطمت كل المعاني التي كان يعيش عليها ذلك الجيش الذي حقق انتصارات ضخمة على جيوش الفرس الجرارة منذ عهد قريب، لقد انتصرت جيوش الروم على الفرس انتصارات ساحقة، وظل يزحف حتى هدد المدائن عاصمة فارس في السنة السابعة من الهجرة، كما انتصر على الصقالبة، واسترد سوريا ومصر من يد الفرس بعد أن استولوا عليها بضع سنين.

[تاريخ الإسلام - د/ حسن إبراهيم ١/ ١٦٥].

لم يدر بخلد قادة هذا الجيش الذي حقق كل هذه الانتصارات أن يأتي جيش من العرب وعدده ثلاثة آلاف جندي ليهدد إمبراطورية حققت ذلك النصر العظيم على أكبر دولة في ذلك التاريخ، ولكن الذي حصل هو ما لم يدر بخلداهم، فقد هاجم الجيش الإسلامي الإمبراطورية المنتصرة وصمد لهذا العدد الهائل، وأنزل به خسائر فادحة في المعدات والرجال. [السيرة لدحلان ٢/ ٢٧٥].

وتحطمت معنويات الروم تحت ضغط هذا الزحف غير المتوقع، فخافوا المسلمين، وتمنوا أن ينصرفوا عنهم؛ ولهذا لما خطط خالد رضي الله عنه للانسحاب لم تجرؤ جيوشهم على مطاردته، بل سُرّوا لهذا الانسحاب. [حياة محمد صلى الله عليه وسلم لهيكل ص ٤٠٨].

وأيقن الروم ومن تبعهم أنهم لا قبل لهم بجيش المسلمين، ولا طاقة لهم بمنزلته، فإن ثلاثة آلاف منهم، قد فعلوا بهم الأفاعيل، فكيف إذا جاؤوهم بعدد أكثر ومعدات أوفر؟ وحقت الحملة أهدافها، فلم يعد في استطاعة الروم أن يعتدوا على أحد من المسلمين، سواء كان سفيراً، أو داعياً يقوم بنشر الدعوة». [تأملات في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للوكيل ٢٤١].

ويقول د/ الوكيل أيضاً: «تركت غزوة مؤتة آثاراً عظيمة بالنسبة للمسلمين، كما تركت آثاراً خطيرة أيضاً، وكانت تلك الآثار حاسمة بالنسبة لموقف الروم من جهة، وللقبائل المتاخمة للشام من جهة ثانية، ولأهل مكة من جهة ثالثة، فأما من جهة الروم فقد كانت من أهم العوامل التي قضت على غطرتهم، وأفهمتهم حقيقة وضعهم بالنسبة لتلك الدولة الناشئة التي لم يمضي عليها أكثر من ثماني سنوات، ومع ذلك لم يعد هناك خوف عليها من جهة الروم، بل إن جيوش المسلمين هي التي أصبحت تفكر تفكيراً جدياً في غزوهم وإذلالهم إذا لم يدخلوا في الإسلام، وكانت نتيجة ذلك غزوة تبوك في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم فتح الشام في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأما من جهة القبائل المتاخمة لبلاد الشام، والتي كانت ترهب دولة الروم فإنها بعد هذه الغزوة، بدأت تنظر إلى المسلمين نظرة تقدير وإعجاب، فأكبرت شجاعتهم وصمودهم، وانمحي من عقولهم ونفوسهم أسطورة الإمبراطورية العظمى، وبدأ زعماء هذه القبائل يفكرون في الدخول في الإسلام، ذلك الدين الذي ظهر أثره واضحاً في نفوس العرب وتصرفاتهم، حتى أصبحوا لا يخشون دولة الروم، وراحوا يواجهون جيوشها في شجاعة لم يعرفها العرب من قبل.

وقد دخل فروة بن عمرو الجذامي رضي الله عنه في الإسلام - وهو عامل قيصر على معان - وبرغم تهديد القيصر له، وبرغم إغرائه بالوعود السخية بعد أن فشل التهديد، فإن فروه قد رفض العودة إلى الكفر وفضل الموت على التراجع عن هذا الدين، فقبض عليه بتهمة الخيانة، وقُتل. [حياة محمد صلى الله عليه وسلم لهيكل ٤١١-٤١٢].

كان لموقف فروة رضي الله عنه هذا أثر كبير في نفوس القبائل العربية، حيث تحركت فيها النخوة والعصية، ولعل هذه القبائل قد أدركت أن من الخير لها أن تنحاز إلى جانب إخوانهم العرب بدلاً من أن يظلوا خاضعين لسلطة غريبة يشعرون في جوارها بالوحشة، ويحسون بالإهانة من خلال تصرفاتها، ولماذا يظلون في هذا الوضع المزري، وهم قد وجدوا في كف أبناء عمومهم ما يغنيهم عن حياة الذل في كف الغرباء؟

ونتيجة لهذا التفكير دخلت قبائل كثيرة في الإسلام عصبية في أول الأمر، ثم لم تلبث أن حرك الإسلام مشاعرها، واستقرت عقيدته في قلوبها، فاعتنقته عقيدة تدافع عنها، وآمنت به نظامًا يحقق لها آمالها، فدخلت أسلم برئاسة عباس بن مرداس رضي الله عنه في الإسلام، كما دخلت أشجع وغطفان وعلى رأسهما عيينة بن حصن رضي الله عنه، كذلك أقبلت عبس وذبيان. [حياة محمد صلى الله عليه وسلم هيكمل ٤١٢].

وانتشر الإسلام في شمال الجزيرة، وفي القبائل المتاخمة للشام والعراق، واستتب الأمر للمسلمين». [تأملات في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للوكيل ٢٤٥-٢٤٦].

ويقول أ/ السحار: «ترك انسحاب الجيش من مؤتة أثرًا مختلفًا عند الروم وحلفائهم من القبائل المستنصرة وعند المسلمين وعند قريش وحلفائها.

أما الروم فقد سرهم انسحاب المسلمين عائدتين، فقد ذاقوا بأس القلة القليلة التي واجهتهم، وعانوا مدى صلابتها حتى أنهم عجزوا عن دحرها وتكبدوا ما هالهم من الخسائر عند لقاءها، ورأى قائد الروم أن استمرار القتال مع استبسال المسلمين وصمودهم سيؤدي إلى وصول المدد إليهم وإلى إطالة أمد الحرب، وربما أدى إلى اتساع نطاقهم، فقاد القبائل العربية المستنصرة حلفاء الروم قد جاھروا بإعجابهم الشديد ببسالة المسلمين وشجاعتهم، وربما دفعهم الإعجاب فغلبت عليهم العصبية العربية فانحازوا إلى المسلمين. وما كانت مخاوف قادة الروم على غير أساس، فقد رأت القبائل العربية المتاخمة للشام كيف أن ثلاثة آلاف من بني جلدتهم قد وقفوا نداء لجيش هرقل الجرار وحلفائه جميعًا، ورأوا شدة بأسهم في الحرب وصبرهم عند لقاء أعدائهم، فأعجبوا بالمسلمين أشد الإعجاب، وكان من ذلك أن أعلن فروة بن عمرو الجذامي رضي الله عنه إسلامه، وكان فروة رضي الله عنه قائدًا لفرقة من جيش الروم، فسجنه هرقل واتهمه بالخيانة، ثم عرض عليه أن يفرج عنه وأن يعيده إلى مركز القيادة التي كان فيه إن هو عاد إلى النصرانية، لكن الرجل أبى ذلك وأصر على إياته ولم يفلح معه وعد ولا وعيد، فأمر به هرقل وضربت عنقه.

وكان من ذلك أيضًا أن ازداد الإسلام انتشارًا بين قبائل نجد المتاخمة للعراق والشام، حيث كان نفوذ الروم في ذروته، وذهب بعض عرب الشمال وعرب الشام الذين اشتركوا في الحرب إلى أحد عمال هرقل المكلفين لدفع رواتب الجيش فصاح في وجوههم: انسحبوا.. فالإمبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده إلا بمشقة وليس لديه لذلك ما يوزعه على كلابه.

فانصرفوا عنه وعن حلفهم مع الدولة البيزنطية المضطربة الأحوال، فإذا كان الروم ينظرون إلى حلفائهم من العرب المستنصرة الذين يدينون بدينهم على أنهم تبع بل كلاب لهم فلا عجب أن يتجه الكثيرون من هؤلاء إلى الدين الجديد الذي يسوي بين الناس، ويحفظ حقوق الإنسان، ويصون عليه

كرامته؛ لذلك دخل في الإسلام ألوف من سليم علي رأسهم العباس بن مرداس رضي الله عنه، ومن أشجع وغطفان الذين كانوا حلفاء لليهود من قبل، ومن عبس ومن ذبيان ومن فزارة. وبذلك كانت مؤتة سبباً في استتباب الأمر في شمال المدينة على حدود الشام، وفي ازدياد الإسلام عزة ومنعة، وكانت فتحاً مبيناً مهد لغزوة تبوك، ثم لفتح الشام وهزيمة إمبراطورية الروم». [تحت ظلال السيوف للسحار ٣٩٠-٣٩٢].

١٧ - أثر مؤتة في المسلمين:

يقول أ/ السحار: «أما أثر مؤتة بين المسلمين فقد كان مختلفاً تماماً، فقد صاحوا في وجوه العائدين من تخوم الشام دون أن ينتصروا على جيش هرقل حتى أن بعض رجال الجيش لزم بيته فلم يخرج كيلا يؤذيه صبية المسلمين وفتيانهم بتهمة الفرار. وأما قریش فقد ظنت أن مؤتة هزيمة قضت على المسلمين فتقضت صلح الحديبية، فتتابعت الأحداث، وكان أن سار رسول الله ﷺ إليهم ففتح مكة. لقد كانت مؤتة فتحاً للمسلمين في الشمال وفي الجنوب، وستبقى إلى الأبد رمزاً للصمود والبطولة والفداء.

وسيقى لواء رسول الله ﷺ الذي رُفع على جيش المسلمين بمؤتة رمزاً للراية الإسلامية التي يقاتل دونها الأبطال ويتتابع سقوطهم لتبقى عالية خفاقة. وستبقى كلمات رسول الله ﷺ عن أصحابه قادة مؤتة الذين أيدوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل إليه تدوي في ضمير الكون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، شاهدة على منزلة المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فاشترى سبحانه منهم أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة: لقد رُفعوا إلى الجنة على سرر من ذهب.

سلام على رهبان الليل وفرسان النهار.
سلام على زيد بن حارثة رضي الله عنه (حب) رسول الله ﷺ أمير السرايا، ومن أنزل الله فيه قرآناً باسمه من فوق سبع سماوات.

سلام على جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الطيار ذي الجناحين، زهرة شباب بني هاشم، وأشبه الناس برسول الله ﷺ خلقاً وخلُقاً.

سلام على عبد الله بن رواحة رضي الله عنه نقيب الخزرج وفارس المسلمين وشاعر رسول الله ﷺ.
سلام على الذين سبقوا بالإيمان وجاهدوا في الله حق جهاده حتى انتهى بهم الطريق إلى مؤتة ليصيبوا اللجنة تحت ظلال السيوف». [تحت ظلال السيوف للسحار ٣٩٢-٣٩٣].

١٨ - أثر مؤتة في نفوس المكيين:

يقول د/ الوكيل: «وكما كان لغزوة مؤتة الأثر الكبير في قبائل الشمال كان لها أثر مضاد في نفوس المكيين، فقد ظنوا أن انسحاب المسلمين في مؤتة هزيمة قضت على نفوذهم، وحطمت قوتهم، وبدأوا يُفكرون في نقض العهد الذي أبرم في يوم الحديبية وماذا عليهم إذا فعلوا؟ إن غزوة مؤتة في نظر قريش أوهنت قوة المسلمين، وخضدت شوكتهم، فماذا عسى أن يكون لو عادت الأمور بين قريش والمسلمين كما كانت قبل الصلح؟ وما الذي يحدث لو شنت قريش حرباً على المسلمين، وهم لا يزالون في ضعفهم، وقبل أن يستردوا قوتهم، ويلتقطوا أنفاسهم. وترغم الثورة ضد المعاهدة جماعة من سادات قريش، وبذلوا جهدهم في نقضها لئلاّ لهم فرصة الانقضاض على المسلمين من جديد، وبخاصة وأنهم لم يجنوا من وراء المعاهدة شيئاً مما كانوا يؤملون. لقد كانوا يعتقدون أن عودة المسلمين بغير عمرة سيصغرهم في أعين العرب ولم يحصل ما توقعوا، وحسبوا أن ردّ مَنْ أسلم إليهم سيضعف المسلمين فكان وبألاً عليهم حتى طلبوا من المسلمين أن يتنازلوا عن هذا الشرط ويقبلوا مَنْ جاءهم منهم مسلماً، وتوقعوا أن يكون وضع الحرب بين الطرفين فرصة يجددون فيها نشاطهم، فوجدوا أنه فرصة للمسلمين لا لهم، فلماذا إذن تبقى هذه المعاهدة؟ لهذا سعى هؤلاء القوم جاهدين، وحرّضوا بكراً على أخذ ثأرهم القديم من خزاعة، وأمدوهم بالسلاح، وحاربوا معهم بالليل خفية.

واضطرت خزاعة إلى الاستنجاد بحلفائها المسلمين، واستجاب المسلمون، فقد كانت فرصة ينبغي أن تُنتهز، وكانت نتيجة ذلك فتح مكة المكرمة». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ٢٤٦].

١٩ - أثر مؤتة في الجزيرة العربية:

يقول د/ الغضبان: «إن الجزيرة العربية كلها كانت تتماوج بأخبار هذا الجيش، والقيادات العربية التي تربص بالإسلام كان الحديث عنه شغله الشاغل، فكيف يلتقي جيش محمد ﷺ بثلاثة آلاف مقاتل أمام بحر خضم من جيوش الشرك بمائتي ألف مقاتل، فيقتل قائد جيش العدو، ويسوق النساء سبايا، ولا يخسر إلا اثني عشر شهيداً فقط، وعلى رأسه خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي كان قبل أشهر أعظم القادة ضد محمد ﷺ. وبغض النظر عن قناعات رجال الجزيرة العربية بالنجاح أو الإخفاق أو الفتح، لكن عظمة التحدي، ومقارعة الروم في أرضهم ثأراً لشهيد سقط على يد أحد أمراء الغساسنة، وعودة الجيش كله سالماً، واستعداد أعظم القادة فيه للموت، أمر حقق أكبر نصر معنوي للإسلام حتى هذا اليوم، وكانت هذه المعركة توطئة لفتح مكة، وتمهيداً لرفع هؤلاء الثلاثة الآلاف إلى عشرة آلاف مقاتل بعد ثلاثة أشهر من تاريخه، أي إلى ارتفاع عدد الجيش الإسلامي إثر هذه المعركة إلى ثلاثة أضعاف ونيف عنه في مؤتة.

لقد عاد هؤلاء الثلاثة آلاف، وانبثوا في قبائلهم يتحدثون فيها عن قصص البطولة والنصر وعن مقارعة ومنازلة بني الأصفر، وعن هز كيان ملوك العرب الغساسنة، وعن اقتحام هؤلاء القادة الثلاثة ساحة الموت غير عابئين بالحياة، وراحت أشعار ابن رواحة رضي الله عنه وشوقه للجنة، وشوقه للشهادة والموت، ودفعه الجيش كله لذلك، حين تلكأ الجيش قليلاً ليناقد الموقف.

لقد سمع أبطال العرب وقادته عن معارك كثيرة، وأيام مشهورة، ولكن فيما بينهم، وكانت وقعة ذي قار بينهم وبين فضائل من جيوش الفرس، وكانوا يتغنون ببطولاتهم فيها وانتصاراتهم فيها، لكن مؤتة اليوم قد أنست كل الأيام، وكل الأبطال، وكل الأجداد.

أولاً يكفي أن يكون هذا القائد الضخم خالد بن الوليد رضي الله عنه هو هو العدو الأول، هو الذي أصبح اسمه منذ هذه المعركة سيف الله، وهو الذي عاد بالجيش باثني عشر شهيداً فقط، وقد زلزل كيان الروم وغزاهم في عقر دارهم.

والتربية الجماعية التي تمت في هذه الدروة التدريبية السريعة، دورة المبتدئين، كانت أعنف دورات التاريخ الإسلامي، فإلى الصدام المباشر مع الروم، والحرب المستعرة مع العرب، والحرص الهائل على الموت، فلا بد إذن لهذه الجزيرة أن تعلن استسلامها أمام القائد الجديد سيد البشرية محمد صلى الله عليه وسلم، وانتهى عهد الخوف من جلاد بني الأصفر، أو الخوف من سيوفهم، والهجوم منهم على ثغور الإسلام.

كما يفعل الجندي الواحد في قبيلته أو بطنه أو فخذه وهو يتحدث عن انتصارات الإسلام عموماً، وانتصاراته خاصة في مؤتة، لقد كان قصارى أحلام العربي في البادية العربية أن يفد على قيصر أو كسرى ويتحدث عن مراثيه هناك، وينال بعض الهدايا منه، إلى وقت يفض جموع جيوشه، ويقتل أكبر قواده، ويسوق سبايا منه، إنها نقلة هائلة ضخمة وتطور كبير جداً على الساحة العربية، وتعبئة معنوية ضخمة لاستقبال الإسلام، والتهيؤ للدخول فيه، بدأت التطورات الهامة السريعة تتجاوز المرحلة الفردية، وتتجاوز مرحلة الأشخاص لتنتقل القبائل برمتها إلى المواقع الإسلامية.

وهكذا نشهد في هذا العام ارتفاع الأعداد من المئات إلى الألوف، على رأسهم هذا الرعيل الأول من جيل بدر والحديبية، يمضي في عملية التربية، والإعداد السريع للمعركة، والمعارك القادمة الفاصلة، بحيث تفتح مكة أبوابها للقادم الإسلامي دون قتال. [التربية الجماعية للغضب ١/ ١٧٣-١٧٤].

٢٠ - ثمرات غزوة مؤتة:

يقول د/ بريك: «كانت معركة مؤتة استطلاعية أفادت المسلمين كثيراً في معرفة خواص قوات الروم، وأساليب قتالها، وخواص حلفائها من القبائل، وأساليب قتالهم وقوتهم، فأفادوا من هذه المعلومات في

قتالهم بعد ذلك ضد الروم، ولا تعد خسائر المسلمين الطفيفة شيئاً يُذكر بجانب الفائدة العسكرية التي أفادت من الاطلاع على خواص قوات الروم وحلفائها، وتنظيمها، وتسليحها، وأساليب قتالها، مما سترى أثره في المعارك التي خاضها المسلمون فيما بعد». [خطاب: الرسول القائد ﷺ ٣٠٩].

«وإذا كانت الأمور بنتائجها، والأعمال بخواتيمها، فقد كفى المسلمين ظهوراً على عدوهم، أنهم تركوا في نفوسهم أثراً من الرهبة، جعلهم يجمعون عن قتالهم، وينكلون عن متابعتهم».

[دويدار: صور ٥٢٧].

«ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها غزوة مؤتة فإن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى، فبينما رأى الروم تلك الغزوة غارة من الغارات التي اعتاد البدو شنّها بين حين وآخر، كانت سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى مؤتة في الحقيقة غزوة من نوع آخر، لم تقدر إمبراطورية الروم أهميتها، فهي حرب منظّمة كانت لها مهمة جديدة خاصة، جعلت المسلمين يتطلعون جيّداً إلى فتح أرض الشام».

[خطاب وعبد العزيز زايد: دروس من السيرة النبوية ١٠٥-١٠٦].

وحقيقةً - كما ذكر ابن كثير رحمه الله - قد كانت مؤتة إرهاباً لما بعدها من غزو الروم، وإرهاباً لأعداء الله ورسوله. [ابن كثير: الفصول في سيرة الرسول ﷺ ١٩٥]. «غزوة مؤتة والسرّايا والبعوث الشّهابية لبريك ٣٧٩».

ويقول د/ العتوم: «لقد كانت غزوة مؤتة بمثابة شجرة طيبة غرسها المسلمون في أرض الشام، فأينعت أحسن إيناع وأثمرت أحسن الثمار، وكانت ذات أكل طيب، وإن أصاب المسلمين - على طريق غرسها - أذى وبلاء، ولكن متى كان العسل يُنال دون لسع نحله وإيذائه، كما قال المتنبي:

تُرِيدِينَ إِذْرَاكَ الْمَعَالِي رَحِيصَةً وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ

[ديوانه، شرح العكبري، تحقيق مصطفى السقا وزميله ٢٩٠/٣].

ولقد كان جنى هذه الغزوة على نوعين: عاجل وآجل، وكلاهما كان خيراً على الإسلام والمسلمين، ولتتمل هذا الجنى الزاهي على هذه النخلة الباسقة.

(أ) غسل النفوس من انهزامية متوهمة: لقد انتصر المسلمون في هذه الغزوة على أنفسهم، وعلى ما قد توسّس به إليهم، من أن الجيش الروماني جيش (إرمادا) لا يُقهر، وأن الدولة الرومانية (بُعْبُع) لا يجرأ على الاقتراب من حدوده، أو المساس بجنابه، وأن أشباحاً من القوى الخفية ترابط على هذه الحدود لتحوّل بين أي تحرّك أجنبي وأيه محاولة اجتياز الأسلاك الشائكة والألغام المزروعة على طول هذه الحدود.

وإنني وإن كنت لا أستجيز الخور على النفوس المسلمة، لا أجزى في الوقت نفسه نفي الاستثناء المطلق في هذه الناحية، فقد يكون في الصف الإسلامي من ليس على المستوى المطلوب، أو قد يكون في خارجه من يستشرف للدخول فيه، ولكن تحول دون ذلك حوائل من التخوف وهو أكثر ما ينطبق على المجموعات

العربية من القبائل الضاربة في طول الجزيرة وعرضها، ومن هنا كانت هذه الغزوة بمنزلة نهر جار غسل العرب: مسلمين وغير مسلمين نفوسهم فيه، فتخلصت من أدرانها المتولدة من تهيب هذه الدولة العالمية العظمى؛ ولذلك لم يكن لهؤلاء جميعاً مَنْ آمَنَ وَمَنْ لم يؤمن: «قبل هذا أن ينتفوا مما وقر في نفوسهم دفعة، فيخرجوا من الملمات التي انطوت عليها مشاعرهم، وهي لا تزول إلا بظاهرة يُختبر فيها ثباتهم، ويُمتحن بها إيمانهم، وتكشف لهم الستار عن نفوسهم، وتضيء لهم جوانب القوة في دخائلهم، ويتجدد فيها بناء شخصياتهم، فكان أن ازدادوا يقيناً بما وعدهم ربهم، أن يستخلفهم في الأرض».

[محمد زكي ييوضون، موكب النور في سيرة الرسول ﷺ ص ٢٨٣].

ومن هنا كانت غزوة مؤتة انتصاراً في الواقع بعد أن كانت انتصاراً في أغوار النفس.

(ب) **الشعور بالأمن والطمأنينة:** كان من دوافع هذه الغزوة الرئيسة، الاقتصاص من قتلة الحارث بن عمير ﷺ مبلغ دعوة رسول الله ﷺ لأمر بصري الشام، وإنه لأمر يدعو إلى الفخر والاعتزاز حقاً، إن يساق أكبر جيش في دولة ناشئة للثأر لكرامة شخص فيها، ولتصور الشعور الذي يتتاب مجتمعا ما، عندما تنهال عليه الضربات، وهو يرى حرمانه تُنتهك كل يوم، دون أن يملك من أمره شيئاً، إلا أن يتلقى بيده هذه الضربات كما تتلقى الخوالب!! وعندها سيشعر كل فرد فيه إنه غير آمن على نفسه أو على ماله أو على أهله أو على فكره، وبالتالي فلن يُتَظَر منه سوى الخنوع والاستكانة، غير أن رسول الله ﷺ الذي أتى محرراً للشعوب من مضطهديها، وأرضع أصحابه لبان الحرية والإباء من قلبه ولسانه وفعله على مدى عقدين من الزمان ما كان له حاشاء - أن يسكت على ضيم يصيب أحداً من أفراد أمته، ومن أولى تعاليم دينه أن حرمة المؤمن أعظم - عند الله - من حرمة الكعبة، وأن من عادى الله ولياً فقد آذنه بالحرب؛ ولذا بعث ﷺ هذا الجيش اللجب لاسترداد كرامة شخص من أبنائه، ولو كلفه ذلك الاصطدام بأعظم جيش في العالم يغزوه في أرضه، ومن هنا يوقن المطلع على الأحداث أن كل عضو من أعضاء التنظيم الإسلامي، بات يشعر - بعد هذه الغزوة - بالأمن والطمأنينة، ويمتلئ شملاً وإباءً؛ لأنه يعلم أن قائده وجيشه وجميع إمكانيات أمته مُسَخَّرَة لحفظ حقوقه، فهو في هذا التنظيم ذو كرامة وعزة، وليس كماً مهملاً.

(ج) **خضد شوكة القبائل الشمالية:** أكثر ما لقي دعاة المسلمين من الأذى كان من قبائل شمالي الجزيرة العربية، على الحدود الرومية الجنوبية، أمثال: بهراء، والقين، وجذام، وعذرة، وقضاعة، وبلي.

ولقد رأينا أن قبيلة جذام هي أكثر هذه القبائل اعتداءً على رسل رسول الله ﷺ إلى تلك الأطراف، كما رأينا أن رأس العرب المنتصرة الذين كانوا يشكلون نصف جيش الروم في مؤتة، كان من قبيلة بلي، وهو مالك بن زافلة.

ويبدو أن الروم - بعد مؤتة - لما أصيبوا به فيها، قد أوعزوا إلى أوليائهم من هذه القبائل أن يتحرشوا بالدولة الإسلامية، أو أن بعض هذه القبائل لما نُكبت به هي الأخرى، في مؤتة تحركت ذاتياً، فأرادت أن تتأثر لنفسها من المسلمين وذلك بمناوشة أطرافهم، ومهما يكن من شيء فإن رسول الله ﷺ لما سمع بهذا التحرك نذب المسلمين مع عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى هذه القبائل، فلما وصل إلى ذات السلاسل وهو ماء لجذام عسكر هناك، بعد أن أتاه مدد من المدينة بقيادة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه حيث تجمع له خمسمائة محارب، والشاهد في هذا الحديث أن هذه القبائل، ولا سيما التي قُتل عميدها في مؤتة، قد أخذت درساً بليغاً من تلك الغزوة بعد أن عجمت عود المسلمين فوجدتهم أعظم مكسراً؛ ولذلك ما أن سمعوا بقدمهم حتى خنسوا، فقد وطئ عمرو رضي الله عنه أرضهم ودوخهم، وكان كلما انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان به جمع فلما سمعوا به تفرقوا، حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلي وعذرة واليقين، ولقي في آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير منهم، فاقتتلوا ساعة وتراموا بالنبل، وحمل المسلمون عليهم فهزموهم، وقهر عمرو رضي الله عنه ما هنالك، وأقام أياماً لا يسمع لهم بجمع ولا بمكان صاروا إليه، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم، فينحرون ويأكلون ولم يكن أكثر من ذلك. [ابن كثير، السيرة النبوية ٥١٦/٣ بشيء من التصرف].

ومن هنا كانت سرية ذات السلاسل - في رأي كثير من الدارسين - ثمرة من ثمرات غزوة مؤتة، ومؤشراً من مؤشرات انتصار المسلمين فيها.

(د) فتح مكة: لم يكن بين غزوة مؤتة وفتح مكة سوى ثلاثة أشهر ونيف، إذ أقام رسول الله ﷺ بعد مؤتة جمادى الآخرة ورجباً، ثم استعد في رمضان للخروج إلى مكة منتصراً لحلفائه بني خزاعة الذين اعتدى عليهم بنو بكر حلفاء قريش ناقضين بذلك عهد الحديبية الذي وقعه معهم في العام السادس للهجرة، فاستحقوا إعلان حالة الحرب عليهم.

وفي اجتهادي - هنا كذلك - أن مسير المسلمين إلى مكة بعد ثلاثة أشهر من معركة مؤتة، عازمين على فتحها يقودون جيشاً يزيد على جيش مؤتة بسبعة آلاف محارب، ولحرب أعظم القبائل العربية وتحطيم الشرك في عاصمته، لدليل قوي على رفعة معنويات المسلمين: قمة وقاعدة، بعد تلك الغزوة التي صالوا فيها المارد الروماني المتعجرف، وكسروا شوكته، وبالتالي فهي ثمرة أخرى من ثمار شجرة مؤتة الوارفة الظلال، الدانية الجنى، ومما يقوي هذا المذهب، أن كثيراً من القبائل العربية حول المدينة، قد أعطت بأيديها للمسلمين بعد غزوة مؤتة إعجاباً بشجاعتهم وثباتهم على الحق، فأسلمت: سليم، وأشجع، وغطفان، وعبس، وذيبيان، وفزارة، ومزينة، وهي من أشرس القبائل العربية وأعتاها [ينظر في ذلك: صور من حياة الرسول ﷺ: للأستاذ أمين دويدار ص ٥٢٧، وكذلك: الرحيق المختوم للشيخ صفي الرحمن المباركفوري ص ٤٤١]،

بحيث كان في جيش المسلمين عام الفتح من سليم سبعمائة، ومن بني غفار أربعمائة، ومن أسلم مثلهم، ومن مزينة ألف وثلاثة نفر. [ابن هشام، السيرة النبوية ٢/ ٤٢١].

وفتح مكة بعد غزوة مؤتة إعلان للعالم كله عربًا وعجمًا، أهل كتاب أو أهل أوثان، أن الإسلام لا يُهادن الشرك أيًا كان، فهو لا يرضى بغير التوحيد منهاج حياة تسير عليه أمور الناس، فبعد أن كبت الله الفُرس، إخوان قريش في الوثنية يادالته منهم للرومان، ساروا لهؤلاء لما اعتدوا على رسل البيان الإسلامي فقمعوهم، وعادوا يقمعون الشرك في قريش لما نقضوا العهود شأنهم في ذلك شأن الروم عندما يجهون الحق سواء بسواء، وهم بعد قليل سيستولون على ممالك الفُرس موالي قريش في المعتقد، والمسألة بعدُ مسألة زمن وتدرج في المخطط المرسوم.

(هـ) أول فتوح بلاد الشام: إذا كانت الثمار السابقة، ثمارًا عاجلة أو قريبة، فإن هذه الثمرة متراخية أو بعيدة نسبيًا؛ ذلك لأنها مفتاح لآفاق أرحب في تاريخ الدولة الإسلامية، فمؤتة في الحقيقة كسرت الباب المغلق بين الروم والمسلمين، وجزأت هؤلاء على اقتحام حصون كانت مستعصية عليهم، ودخلوا منها من ثمّ لفتح الشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس وصقلية والقسطنطينية، وما زالت تغريهم بفتح المزيد من حصون الدولة الرومانية الحديثة، بعد أن يتغلبوا على مشكلاتهم الحاضرة، وينهضوا من كبوتهم الراهنة وعلى الله قصد السبيل.

ولا خلاف أن المتبع لتحركات الجيش الإسلامي في الشمال يدرك أن غزوة تبوك ثمرة أولية من ثمار سرية مؤتة في هذا الباب، وكذلك بعث أسامة رضي الله عنه.

ويظهر أن رسول الله ﷺ حسب مخططه الذي كان يكشف منه للمسلمين في كل حين جانبًا حسبما تُملّيه الظروف، كان دائم التفكير بفتح بلاد الشام، وإجلاء القوات الأجنبية عنها؛ لتأمين حدوده الشمالية من ناحية؛ ولجعل هذه البلاد، العتبة التي يضع عليها قدميه للدخول إلى الأقطار الأخرى في الشرق والغرب. ويظهر أن الروم كذلك - بعد مؤتة - بدأوا يتيقظون جيدًا لخطر الدولة الإسلامية المجاورة، ويعدون لها شوكة حادة لا تفتأ تُدمي جنوبهم، فهم يفكرون جدًّا بإزالتها أو التحرش بها على الأقل؛ ليشبثوا لها أنهم هناك على الدوام.

وجريًا على هذه السياسة من الطرفين، ومن الروم ابتداءً راحوا يحشدون بعض تجمعاتهم العسكرية في منطقة تبوك، وقد كانت من بلاد الشام آنذاك، وتبعد اليوم عن المدينة حوالي ستائة كيلو مترًا، ولعل هذه التجمعات كانت مُشكّلة من أمراء تلك المنطقة من العرب المنتصرة كأيلة (العقبة) وجرباء وأذرح؛ ولذلك ما أن سمع رسول الله ﷺ بهذه التحشيدات حتى ندب المسلمين للنهوض إليهم، خارجًا على

عادته العسكرية في كل غزواته، إذ كان يعتمد إلى التورية، أما الآن فقد أبان عن وجهته، ليضع المسلمين أمام مسؤولياتهم، فعدوهم شرس، ولعله يعد اليوم لتجمع أكثر من مؤتة لما ناله فيها من جروح عميقة، ثم إن المسافة بعيدة، والوقت قِظ، والعام جدد.

ومن هنا سُمي هذا الجيش بجيش العسرة، وسار رسول الله ﷺ قاصداً تبوك حتى إذا وصل إليها، وجاس خلال الديار لم ير كيداً، ويبدو أن الروم وأولياءهم لما أوقعتهم في قلوبهم غزوة مؤتة لم يجسروا على مواجهة المسلمين بعدها، إلا في اليرموك لما أيقنوا أن المسلمين عازمون - عن تخطيط - على احتلال القدس ودمشق اليوم، وربما القسطنطينية غداً، وروما بعد غد.

وعلاوة على ذلك فإن عمال الروم في المناطق التي ذكرت وهي التي ناوت المسلمين بالأمس في مؤتة، وقبلها إذ كانت تتعرض لدعاتهم فقتلهم أو تنهب ما معهم، أتوا رسول الله ﷺ مدعين طالين السلم، مؤدين الجزية، فتقبلها منهم وصالحهم وكتب لصاحب العقبة كتاباً هذا نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم: هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليُحَنَّ بن رُوْبَةٍ وأهل أيلة، سُنُّهُمْ وَسَيَّارَاتُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ: لَهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ، وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَهْلِ الْيَمَنِ، وَأَهْلِ الْبَحْرِ، فَمَنْ أَحْدَثَ مِنْهُمْ حَدَثًا، فَإِنَّهُ لَا يَحُولُ مَالَهُ دُونَ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ طِيبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النَّاسِ، وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ أَنْ يَمْنَعُوا مَاءَ يَرْدُونَهُ وَلَا طَرِيقًا يَرِيدُونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ).

[ابن هشام، السيرة النبوية (الحلي) ٢/ ٥٢٥، ٥٢٦، وينظر غزوة تبوك في المصدر نفسه ص ٥١٥ وما بعدها].

إنه كتاب يجعل زمام الأمر بيد المسلمين، وأن كل مَنْ يخرج منهم على هذه المعاهدة مُهْدَرُ الدَّمِ والمَالِ. ويلفت النظر فيها قرن رسول الله ﷺ، بين اليمن والشام وما بينهما من البحر الأحمر، وهذا يعني أنه ﷺ كان يضع في حسابه أن تؤول كل هذه المناطق - إن لم تكن قد آلت فعلاً - إلى حظيرة الدولة الإسلامية، إن عاجلاً أو آجلاً.

أما بعث أسامة بن زيد فلعله ألصق بمؤتة أو بفتح بلاد الشام من تبوك؛ ذلك لأن رسول الله ﷺ أراد منه - كما يرى بعضهم - أن يكون ثاراً لزيد بن حارثة ﷺ يقوم به ابنه أسامة بن زيد، ولذلك أمره أن يأتي البلاد التي كانت قريبة من المنطقة التي استشهد فيها والده، ثم إنه بعث أوغل في بلاد الشام أكثر من تبوك، وهو يدل بلا شك على أن رسول الله ﷺ كان مصمماً على فتح هذه البلاد، وما أعجله عنه إلا الموت، وكان هذا البعث آخر سراياه ﷺ.

فبعد أن رجع من حجة الوداع في العام العاشر للهجرة، وأقام في المدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفرًا، ضربه على الناس إلى الشام وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة ﷺ، وأمره أن يوطئ الخيل

تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهَّز الناس، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون [المصدر السابق نفسه ص ٦٠٦]، وسار الجيش حتى إذا وصل إلى الجرف [ابن كثير، السيرة النبوية ٤/ ٤٤١]، معسكر المسلمين الدائم إلى مناطق الشمال، توقف لاستعداد مرض الموت برسول الله ﷺ، وكان آخر ما سمع منه في هذا المرض: أن امضوا بعث أسامة [تاريخ الطبري ٣/ ١٨٦]، فأمضاه صاحبه وخليفته وألصق الناس به، وأفهمهم عنه، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، والذي أتم هو نفسه فتح بلاد الشام، إذ كان أول عمل قام به بعد قمع فتنة الردّة تسيير الجيوش لفتح هذه البلاد، ومنها الفيلق الذي استولى على مدينة الكرك بالقرب من مؤتة صلحاً، وبذلك مهدت الطريق لجيش عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يتقدم لاحتلال فلسطين بعد موقعة (الغمر) في وادي العربة. [مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الأول، القسم الأول ص ٣٢٦].

وهكذا كانت غزوة مؤتة: «إرهاصاً لما بعدها من غزو الروم، وإرهاصاً لأعداء الله ورسوله» [ابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ ص ١٧٣]، وكانت تمثل أول معارك فتوح الشام [إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والבלقاء ٤/ ١٨٨]، ولقد كانت اختباراً للمسلمين، عودتهم على الحروب المنظمة لمواجهة الروم [الأردن في التاريخ الإسلامي، مطبوعات وزارة الإعلام ص ٣٨]، وأثبتت أن المسلمين فيها «لم يكونوا مجرد غزاة، بل كانوا ينفذون مخططاً بعيد المدى» [مونتجري وات، محمد ﷺ في المدينة، تعريب شعبان بركات ص ٧٩]، ألا وهو الاستيلاء على بلاد الشام برمتها ومنازلة الدولة الرومانية في كل أقاليمها لتدين - هي وغيرها بالتالي - بدين الحق، دين الإسلام، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونََ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] وإنني لأرى في قول هرقل - وهو يستمع إلى أجوبة أبي سفيان على أسئلته عن رسول الله ﷺ في بيت المقدس: «لئن كنت صدقتني عنه ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه» [تاريخ الطبري ٢/ ٦٤٨]، وفي قول رسول الله ﷺ عن المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني لما سمع بأنه رمى بكتابه إلى الأرض: باد ملكه [تاريخ الطبري ٢/ ٦٥٢]، وهما حدثان كانا من متعلقات وقعة مؤتة: إشارتين على طريق فتوح الشام؛ ذلك لأن أبا سفيان صدق هرقل في صفته لرسول الله ﷺ، فنزع المسلمون أرض الشام من تحت قدميه، وكان أول الغيث مؤتة، ثم باد ملك المنذر ومن هو أكبر من المنذر فألت الشام حينها إلى مملكة الإسلام، وإنني لأرى كذلك كأن في هذه الآية من سورة الروم، يخاطب بها الله سبحانه رسوله الكريم ﷺ بقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخَفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٩٠]، بشارة بالفتوح العظيمة عليه في كل الأصقاع ولا سيما الشام؛ لأن الآية تتحدث عن الروم الذين كانوا يسيطرون على هذه البقاع المقدسة.

وجدير بالذكر أن من الآثار التي خلفتها معركة مؤتة في التاريخ العالمي، أنها فتحت عهداً جديداً من الصراع المريع بين الإسلام والنصرانية، لم يهدأ أواره حتى الآن؛ ذلك لأنه نزاع بين حضارتين على امتلاك

مواقع السيادة، ودفاع عن مصير ووجود، وهي تعني أن المسلمين بعد أن فرغوا من معسكر اليهودية في الجزيرة، شرعوا يحاولون تصفية حساباتهم مع النصرانية التي لن تقف - طبعاً - مكتوفة الأيدي أمام المد الإسلامي الذي يُطالب بإعادة النظر في كثير من معتقدات النصارى وتقاليدهم، ولا سيما أن كثيراً من علماء النصرانية نظروا إلى الإسلام نظرتهم إلى مذهب نصراني عقدي منشق عن المذاهب الأصلية، يهدف إلى السيطرة والتسلط، ويطمح بالتملك والكسب ليس غير^١. [تجربة مؤنة للعتوم ١٥٠-١٥٨].

٢١ - الإسلام الدعوة العالمية العظمى:

لقد كان للتخطيط السياسي والنشاط العسكري الذي مارسه الرسول القائد ﷺ نتائج وآثار عظيمة، في مسيرة الدعوة الإسلامية، وقوة الدولة، وامتداد أفق الإنسان المسلم النفسي والمعنوي وتطُّعه الكبير نحو آفاق وأبعاد جديدة؛ فقد أفلحت الخطّة النبويّة في صلح الحديبية بتجميد عدوان قريش، كما أفلح بتحقيق النصر على قوة اليهود العسكرية ومؤامراتهم الدنيئة، وبذا أخرج أكبر قوتين في مكة والمدينة من دائرة الصراع ليتفرَّغ لمجاهدة القوى الكبرى خارج الجزيرة ولتتحرك الدولة والدعوة الإسلامية كقوتين عالميتين وانطلاقة بشرية كبرى؛ ولتحقيق ذلك بادر إلى غزو الروم في جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة، وبعد أن اتخذ قراره التاريخي هذا جهّز جيشاً بقيادة زيد بن حارثة ﷺ وكان تعداد الجيش ثلاثة آلاف مقاتل. ثم اتخذ اجراء احتياطياً يُبنى عن رؤية الرسول ﷺ لمستقبل المعركة، فعين زيد بن حارثة ﷺ، وعين جعفرًا ﷺ بدلاً عن زيد إن أصيب، وعين عبد الله بن رواحة ﷺ بدلاً لجعفر ﷺ إن أصيب أيضاً، وسار الجيش يحمل راية الإسلام ويتحدّى غرور هرقل الروم وكبرياء الإمبراطورية، رغم التفوق العسكري ويُعد المسافة المُرهِق وتأخر وسائل النقل، لقد أعدَّ هرقل جيشاً كثيفاً قوامه مائة ألف مقاتل من الروم ومائة ألف أخرى من المستعربة، وسار جيش محمد ﷺ ونزل معان، وتدارس القادة الموقف العسكري بعد أن توفرت لديهم معلومات عن عدد الجيش واستعداده، فقال بعضهم: نكتب إلى رسول الله ﷺ لنُعلمه بالموقف واختلال الموازنة العسكرية وننتظر أوامره.

وكما كان للدراسة والتقويم الميداني دوره في تحديد الموقف، كان للتربية المعنوية والإيمانية دورها في صنع القرار وتحديد الموقف في ساعة العسرة، لقد تجسّد ذلك واضحاً في عبارات عبد الله بن رواحة ﷺ التي قال فيها: يَا قَوْمَ، وَاللهِ إِنَّ الَّتِي تَكْرَهُونَ، لِلَّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ الشَّهَادَةَ، وَمَا نَقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدَدٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا كَثَرَةٍ، مَا نَقَاتِلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللهُ بِهِ، فَانْطَلِقُوا، فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ: إِمَّا ظُهُورٌ، وَإِمَّا شَهَادَةٌ.

قَالَ: فَقَالَ النَّاسُ: قَدْ وَاللهِ صَدَقَ ابْنُ رَوَاحَةَ. فَمَضَى النَّاسُ.

وبدأت المعركة والتقى الجيشان في قرية مؤتة واستشهد القوّاد الثلاثة، ثمّ انسحب الجيش وعاد إلى المدينة.

لقد حقّقت هذه الغزوة نقلة نفسية، ودرسًا معنويًا في تحديّ القوى العظمى، ونقل الإسلام ودولته إلى مستوى التحديّ الكبير، وتأكيد الثقة بالله سبحانه وبقوّة المؤمنين وإصرارهم على اكتساح الطواغيت مهما تكن قوتهم؛ ليتصاغر الآخرون أمام قوتهم ولتتجه الأنظار إلى الدعوة الإلهية الرائدة فيقوى معسكر الإيمان.

٢٢ - دسائس المستشرقين:

يقول د/ العتوم: «المستشرقون قوم من أمم الشرق أو الغرب اتجهوا لدراسة حضارتنا من جوانبها الفكرية واللغوية والتاريخية؛ ولكونهم غرباء عنا في الجوانب التي ذكرت، وأنهم نشأوا في ظروف مشبوهة، هي ظروف استعمار دُولهم لبلادنا، فإن آراءهم في حضارتنا كانت - وما تزال - مدخولة، وقد انخدع بهم نفر من أبناء جلدتنا فسلكوا مسالكهم، ورددوا أفكارهم.

فمن أفكارهم التي يقصدون بها إلى الدس والتشويه، أن الإسلام عند كثير من علماء لاهوتهم، ما هو إلا مجرد انحراف عن المسيحية [جلوب، إمبراطورية العرب ص ٢١]، أي أنه مذهب منه مذاهبها، قصد به صاحبه محمد بن عبد الله - على زعمهم - التميز الشخصي عن أبناء نحلته، وبناء المجلد الذاتي، له ولقومه، وليس دينًا مستقلًا موحى به إليه من الله، ناسخًا للديانات قبله، يُقصد به خير العالمين.

ومما له صلة قريبة بأحداث مؤتة - من هذه الأفكار - أن تحدي المسلمين للدولتين العظمتين: فارس والروم، وما حققوه عليهما من انتصارات باهرة، لا يُعزى - عندهم إلى قدرتهم الذاتية، بقدر ما يُعزى إلى إنهاكهما بالحروب التي وقعت بينهما، وهم وإن لم يصرحوا بذلك، إلا أنه يُقرأ من خلال سطورهم، يقول جلوب في هذا الصدد: «نشبت حرب طاحنة بين الإمبراطوريتين في عام ٦٠٢م دامت ستًا وعشرين سنة، وعندما عُقد الصلح أخيرًا بينهما في عام ٦٢٨م، كان الإجهاد والخراب والإفلاس قد لحق بالدولتين».

[جلوب، إمبراطورية العرب ص ٢٣].

وفي هذا الوقت بالذات أو قبله بسنة وقعت معركة مؤتة الشهيرة التي لم تكن عنده سوى غارة عربية صدها الروم. [ينظر في ذلك: الخريطة رقم (٣) في كتابه السابق ص ٣٦].

يعني على نمط تلك الغارات القبليّة في الجاهلية التي يُقصد بها إلى السلب والنهب بدافع الجوع ليس إلا!

وفيما تقدّم بحُسّ لقدرات المسلمين من جهة، ولز لغاياتهم من جهة أخرى.

وهناك لمز آخر يتصل بالقيادة، إذ يرى بعض هؤلاء أن انضواء جعفر عليه السلام تحت لواء زيد عليه السلام، نوع من الطاعة العمياء، أو الحماسة المتهورّة، يقول جيبون في هذا الشأن - بحُث عميق - متحدثًا عن جيش مؤتة

وترتيب القيادة فيه: «وقد بلغت دقة النظام أو شدة الحماس في هذا الدين الصاعد، أن أنبل الزعماء عملوا دون تردد كجنود تحت إمرة رجل كان مولى للنبي». [اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ص ٧٥].
وأقول ليست المسألة مسألة نبالة أو احتكار زعامة في قوم يجري - على رأي الانجليز - في عروقهم الدم الأزرق، إنما المسألة مسألة كفاية وقُدرة، وهي بالتالي تكليف لا تشريف؛ ولهذا ارتضى خالد عليه السلام أميرًا لهذا الجيش بعد أن تساقط قواده شهداء في ميدان المعركة، علمًا بأنه لم يمر على إسلامه حتى ذاك الوقت سوى شهرين [ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٠١/٧]، ولقد أُوثر بهذه الإمارة لكونه أكفأ لها من غيره في هذا الموقف.

ودسياسة أخرى لجييون في هذا الموضوع في حديثه عن نعي رسول الله ﷺ لأصحابه الذين استشهدوا في مؤتة، حديثًا يُفهم منه أنه ﷺ كان يتظاهر بوصفهم بالمتصيرين بينما يخفي في الحقيقة حُزنًا مبررًا على قتلهم، يحاول أن يداريه عن أعين الناس، مما يشير إلى هزيمتهم في تلك الحرب، يقول: «وضع محمد ﷺ وهو على المنبر في نشوة النبوة، أكاليل الغار على رؤوس الشهداء الذين أنعم الله عليهم، ولكنه كان إذا ما خلا إلى نفسه، أظهر المشاعر البشرية العادية، وفاجأ أحد أتباعه ذات مرة وهو يبكي ابنة زيد عليه السلام، فسأله وقد استولى عليه الدهش: ماذا أرى؟! ورد النبي ﷺ: إنك ترى صديقًا يبكي فقد أعظم أصحابه وفاء». [اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ص ٧٦].

وثالثة لجييون نفسه، تسميته لرسول الله ﷺ بالملك واتهامه له - كذب - بالجن عن ملاقة قيصر الروم في غزوة تبوك - بعد سنة من غزوة مؤتة، يقول: «وبعد فتح مكة تظاهر ملك العرب، بأنه يريد أن يعرقل استعداد هرقل للحرب، فأعلن الحرب علانية على الروم، (وعندما وصل إلى تبوك) رفض أن يتابع السير بعد ذلك المكان، وقد أعلن أنه مقتنع بالنوايا السلمية للإمبراطور، والأرجح أنه خشي الحشود الحربية التي أعدها له إمبراطور المشرق». [المصدر السابق ص ٧٧].

وأقول: إن الصفة الأولى لمحمد ﷺ، كما وصفه ربه أنه نبي مرسل، ولقد عرض عليه الملك في بداية الدعوة فرفضه بإصرار، وعندما وصف أبو سفيان ما آل إليه أمره ﷺ عام الفتح من عظمة - وهو يخاطب عمه العباس - بالملك وقد أصبح عظيمًا، قال له العباس: إنها النبوة يا أبا سفيان!! قال هذا: هي كذلك إذن! إن محمدًا ﷺ ليست هذه الألقاب من سماته؛ لأنه لا يريد الدنيا وزخرفها، وهو ﷺ أرفع من أن يكون زعيم طائفة أو قوم أو شعب، إنما هو قائد أمة وهادي بشرية.

وإذا كان ﷺ قد قاد جيشًا يبلغ عشرة آلاف مجاهد، يتحدى به دولة الروم، حيث وصل إلى حدودهم بعيدًا عن قاعدته العسكرية ما ينيف على سبعمائة كيلومتر، وجاس خلال ديارهم في تبوك وغيرها، ولم ير أية قوة لهم في تلك الديار، ومن ثم وقع معاهدة مع ملك أيلة كانت بنودها كلها لصالحه، فأين هي قوة الروم،

وأين هي كبرياؤهم، بل أين هو إمبراطور المشرق الذي ديست حدوده، وأذل أمراؤه دون أن يحرك ساكناً؟! في وقت كان من المفروض فيه أن التحدي يولد عنده التحدي، والهجوم يولد الهجوم المعاكس. إن الأمر في اجتهادي أن هذا الإمبراطور ذاقها صفعة قاسية، ولقَّنه درساً مريئاً في مؤتة لم ينس آثاره الأليمة بعد؛ ولذا جبن هو عن لقاء محمد ﷺ، لا محمد - حاشاه - عن لقاءه، هذه هي الحقيقة، ولكن المستشرقين - ومنهم جيون - يريدونها عوجاء معكوسة، لانعكاس المفاهيم في نفوسهم، وصدق الشاعر إذ يقول:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُّرِّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرّاً بِهِ الْمَاءُ الزُّلَالَا

[المتنبي، ديوانه بشرح العكبري، تحقيق مصطفى السقا وزميلي ٢٢/٣].

ومن نحنا نحو المستشرقين في النحت في أثلة هذه الأمة، وتشويه تاريخها - لغرض في نفسه - بعض من يواطننا، ويتكلم بلساننا من أمثال جرجي زيدان الذي تعرَّض لغزوة مؤتة بطريقة غير لائقة، فانحط بها من عليائها، وسَلَخها عن عظمتها، إذ جعلها - شأنه في كل رواياته - جزئية في قصة غرامية هي (فتاة غسان)؟ [ينظر في كتابه المذكور (غزوة مؤتة ص ٢٣-٨٢)، وكذلك: (وقعة مؤتة ص ١٧٠-١٧٣)] ووصف المسلمين الذين حاربوا فيها بالبدواة والبذاذة في كل شيء: سلاحهم، ولباسهم، وسلوكهم، وحرص في كل صفحات روايته على عدم تسميتهم باسمهم الحقيقي: (المسلمين)، بل ساءهم: الحجازيين، وأهل الحجاز، وقريش [المصدر السابق (٧٨، ٧٩، ١٧٠-١٧٣)، (٨٠) على الترتيب]، وأنهم ما قدموا إلى مؤتة، إلا حتى يلقنوا الروم والعرب هناك درساً قاسياً لمن لا يخضع لسلطانهم، كما لقنوا ذلك لعرب الحجاز واليمن ممن أبوا الإسلام [المصدر السابق (٧٨، ٧٩، ١٧٠-١٧٣)، (٨٠) على الترتيب]، وكأنهم لا يهمهم غير السفح والقتل لمن لم يرتض الإسلام ديناً، وفحوى هذا الكلام، أن المسلمين لم يعرفوا وسيلة لنشر دينهم إلا السيف.

وأجدي وأنا أقرأ ما سطره جرجي في هذا الشأن أنشد تلقائياً ما قاله الحكيم العربي القديم:

إِنَّ بَنِي رَمْلُونِي بِالْدِّمِ شَشْنَةً أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ.

[تجربة مؤتة للعتوم ٢٧٠-٢٧٤].

المبحث الخامس الدروس العسكرية

١ - أهمية التورية والتمويه:

يقول د/ عتوم: «التورية والتمويه أسلوبان من الأساليب المرمعة في القواعد العسكرية قديماً وحديثاً بهدف كسب أكبر قدر من الانتصار بأقل نسبة من الخسائر، وذلك بإيهام العدو بعدم الاستعداد للقتال، أو عدم الرغبة فيه، أو بالقصد إلى غير الجهة التي يرباط فيها.

وهو ما كان يتبعه الرسول ﷺ في حروبه مع أعدائه:

ففي فتح مكة لما علم بنقض قريش للعهد، ونصرها حليفها بكرة على حليفته خزاعة نادى في المسلمين بالتهويل للجهاد وأمر أهله أن يجهزوه، ولكنه لم يعلمهم بالجهة التي يريد، حتى إن أبا بكر ﷺ دخل على ابنته عائشة زوج رسول الله ﷺ وسألها: أين ترين رسول الله ﷺ يريد؟ قالت: لا والله ما أدري.

وبعد أن توجه المسلمون نحو مكة، دعا ﷺ ربه أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى ييغتها في بلادها. [ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٩٧].

هذا ولم يفصح رسول الله ﷺ عن وجهته في الحرب في كل مغازيه إلا في تبوك لأهميتها من جهة، ولقسوة الظروف من جهة أخرى، وهو ما أكده كعب بن مالك ﷺ بقوله: «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدداً كثيراً، فجلاً للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد». [رياض الصالحين، باب التوبة الباب الثاني، الحديث التاسع].

وفي غزوة مؤتة اتبع الخطة العامة نفسها التي كانت يتبعها في كل غزواته وهي التورية والإيهام، فلما جاءه الخبر بمقتل الحارث بن عمير ﷺ اشتد عليه ذلك، فأخبر الناس به، وندبهم للخروج فخرجوا مسرعين وعسكروا بالجرف دون أن يبين ﷺ الأمر [الواقدي، المغازي ٢/ ٧٥٦]، وقد علل رسول الله ﷺ مثل هذه الأساليب - وغيرها - المتبعة في الأمر، بأن الحرب خدعة.

ولا عليك أن تسلك - بعد معالنة عدوك بالحرب ونبذك إليه على سواء - أي أسلوب يحقق لك تغلبك عليه، ومن هنا كان الكذب عليه مباحاً في الحرب، ودليله ما أقر عليه رسول الله ﷺ نعيم بن مسعود الغطفاني ﷺ في غزوة الخندق من الإفساد بين معسكر الأحزاب: قريش وحلفائهم الناقضين للعهد من بني قريظة، إذا لما عرّض نعيم ﷺ خدماته على رسول الله ﷺ في هذا الشأن، قال له: يا نعيم إنك رجل واحد، فخذل عنا القوم ما استطعت، فإن الحرب خدعة، وقد أغنى نعيم ﷺ بهذا الأسلوب غناء جيش

بأكمله، فكان لخطته مع ما أصاب الله به الأحزاب من سوء نفوس وسوء ظروف، الدور الأكبر في هزيمتهم وردهم على أعقابهم خاسرين. [ابن هشام، السيرة النبوية (الجلي) ٢/ ٢٢٩-٢٣١].

إن من دلالة صلاح الأمة، وانضباط أمورها أن تأخذ بالسريّة والكتمان في مخططاتها، وأن تُحكم هذه القاعدة فلا يَقطر منها إلى أعدائها شيء، فإذا ما كانت الأخرى فاعلم أنها مشتتة القوى، منفرة التركيب، لا تفرق بين العدو والصديق، وبذلك يكون هدف النجاح منها على مرمى العيون، وما من شك أن سبب ذلك هو ضعف معتقدها، وغمومة غايتها، وموالاتها لأعدائها والاستعانة بهم في تدبير أمورها.

وإن واقعنا اليوم يشير إلى هذه الحال التي وصفتُ، فلا بريّة ولا أسرار، ولا انضباط ولا ارتباط، وقد نبرم أموراً ونحسب أنها مكتومة، وإذ بها تتسرب للعدو، بل وإذ بنا نعلنها على الملأ، ففي سنة ١٩٦٧ م، بينما كانت بعض إذاعاتنا على الهواء - غفلة أو تغافلاً - تُخبر عن المراحل التي وصلت إليها بعض الجيوش متجهة إلى الأرض المحتلة، كان العدو وقبل أيام من نشوب الحرب ييثر على شاشة تلفازه - تمويهاً وخداعاً - صوراً لجنوده وهم يأخذون إجازاتٍهم للنزهة والتفسيح، ويلتقط لبعضهم صوراً - مرتبة - وهم يستحمون على ساحل البحر كأن الحرب لا تعنيهم في شيء، وبعد عدة أيام إذ بقطاعاتهم العسكرية المدججة بالسلاح تفاجؤنا بهجمات الصاعقة التي كان من نتائجها ما لا يخفي على أحد. [تجربة مؤتة لعنوم ٢٥٩-٢٦١].

٢ - الحكمة في تعدد قادة السرية بالتوالي:

يقول د/ أبو فارس: «يلاحظ في هذه السرية أن النبي ﷺ قد اختار أكثر من أمير لهذه السرية على غير عادته، ونلمح من وراء ذلك أمراً ذلك هو أن الرسول ﷺ كان يتوقع قتالاً شرساً، وحشوداً ضخمة من النصارى الصليبيين، وهذا ما كان فعلاً فقد استشهد الأمراء الثلاثة.

وما يدل على أن القتال سيكون شرساً وعنيفاً أن الرسول ﷺ قد حشد أكبر عدد ممكن من المقاتلين إذ لم يسبق له أن أعد جيشاً غازياً لأعدائه أكثر من عدد جيش مؤتة.

لقد تحقق ما كانت القيادة تتوقعه من مقاومة شديدة، وحشود كبيرة، فدفعت إلى المعركة خيرة رجالها وأكفأ قياداتها ومقاتليها». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٣٢].

ويقول أ/ فتح الباب: «لم يكنف القائد العظيم ﷺ بتعين أمير أو أميرين على الجيش في تلك الغزوة بل سار شوطاً بعيداً في الأخذ بالحيلة درءاً لعوامل الخطر وإيثار السلامة.

وإذا لاحظنا أن غزوة مؤتة كانت من أوائل الغزوات في تاريخ الإسلام أدر كنا مبلغ سلامة بصيرة النبي العربي ﷺ وبُعد نظره وما ينطوي عليه كل ذلك من إرساء تقاليد جديدة لفن الحرب وإدارة المعارك تنفع المسلمين بعد وفاته ﷺ.

فالقائد من الجيش بمثابة الرأس من الجسد لا قيام له بدونها، فليكن هناك أكثر من بديل يتولى الأمر عند الحاجة ويسد الفراغ، وهذا ما يُطلق عليه في علم الإدارة الحديثة خلق صف ثاني من القادة حتى يصبح العمل لا الشخص هو أساس تحقيق الأهداف.

ولقد صدق تفكير رسول الله ﷺ فتأكدت بالدليل العملي العبرة من هذا التقليد واستقر في نفوس المسلمين كقاعدة ينبغي الالتزام بها كلما جدت ظروف مماثلة.

كذلك فقد ثبت بالتجربة حسن اختيار القائد العظيم لقادة جيشه إذ كان إقدامهم واقتحامهم صفوف الأعداء حتى استشهد الواحد تلو الآخر دليلاً ما أروعته من دليل على شجاعتهم النادرة، وفدائيتهم المنقطعة النظير.

وحسن الاختيار هو أحد عناصر الكفاية التي ينبغي توافرها في القائد المكلف بغزوة مؤتة يبلغ فيها الأعداء أضعاف جنوده عددًا، فلا سبيل إلى مقاتلتهم إلا بشحذ الروح المعنوية وتعبئة النفوس بمعاني الإيثار والتضحية والفداء حتى يصبح الواحد منهم كفئاً لقتال العشرات، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٥٥-١٥٧].

٣- تقديم القائد لأقربائه عند الشدائد لا المغانم:

يقول د/ أبو فارس: «في اختيار الأمراء ثلاثة دروس في غاية الأهمية، وهي أن القائد لا يضمن بنفسه وأقاربه وأصدقائه عن الصدام بأعدائه، والتعرض للمخاطر من طعن وقتل وجرح.

إن على القائد حتى يكون قدوة لجنوده أن يتقدم الناس وأن يتقدم أقرباؤه كذلك في المعامع والمعارك ويبدلون دماءهم سخية في سبيل أهدافهم النبيلة وغاياتهم السامية، فإذا رأى الناس هذا من القائد وأقاربه انطلقوا إلى القتال بحماس ولاقوا أعدائهم بصبر وثبات، وإذا رأوا من القائد وحاشيته وأقاربه انهياراً وجنباً وتراجعاً فإنهم سيكونون أكثر انهياراً وتقاعساً وتراجعاً وانهزاماً.

ولهذا نجد النبي ﷺ في قيادته للغزوات يكون أقرب الناس إلى العدو، ويختار أقاربه وأصدقاءه لأصعب المهام، ففي غزوة بدر اختار عمه حمزة بن عبد المطلب ؓ، وابن عمه علي بن أبي طالب ؓ، وابن عمه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ؓ ليارزوا قادة الشرك ويصرعوهم.

وفي هذه السرية اختار الأمير الأول زيد بن حارثة ؓ، وهو حب رسول الله ﷺ نشأ في حجره وتربى على يديه، وكان حُب الرسول ﷺ له شديداً، وحبه لرسول الله ﷺ عظيماً، أثره على والده وعشيرته وأقاربه، حتى دُعي عند الناس بزيد بن محمد لتبني الرسول ﷺ له قبل أن ينزل الحكم في التبني فدُعي بعد ذلك بزيد بن حارثة.

وأما الأمير الثاني فهو جعفر بن أبي طالب ؓ ابن عم رسول الله ﷺ وسفيره إلى النجاشي ملك الحبشة وممثل المسلمين فيها وأميرهم مدة خمسة عشرة عامًا، وحين قَدِمَ على رسول الله ﷺ فرح لمقدمه في خير وقال: «وَاللَّهِ مَا أَذْرِي بِأَيِّهَا أَنَا أَسْرُ: أَبْقُدُومِ جَعْفَرٍ، أَمْ يَفْتَحِ خَيْرٌ؟»!

وأما الأمير الثالث فهو عبد الله بن رواحة الأنصاري ؓ المدافع عن رسول الله ﷺ، والقائد لناقة الرسول ﷺ في عمرة القضاء، ومندوب رسول الله ﷺ إلى خيبر ليخرص ثمارها فيقرر حقوق المسلمين وحقوق اليهود، ويعدل ويرفع عن تفاهة اليهود.

هؤلاء الذين اختارهم رسول الله ﷺ أمراء هم أجباء أقرباء لا لمغنم إنما لمغرم، فهؤلاء ستوجه لهم السهام من كل مقاتل من مقاتلي الأعداء، وأول مَنْ يتعرض للقتل من الجيش، وهكذا كان، فقد استشهد هؤلاء جميعًا، وكان في ثباتهم واستشهادهم قدوة لإخوانهم المقاتلين في الثبات والتحمل والصبر والجِلاد والجهد.

وإذا كان لنا من كلمة نقولها هنا: إن على الحكام والقادة والأمراء إذا أرادوا أن تحبهم شعوبهم وأن تندفع معهم لتحقيق أهدافهم في تحرير البلاد والعباد أن يتقدموا الصفوف، وألا يعيشوا في أبراجهم العاجية في حياة من الترف والسرف والمخيلة وشعوبهم تعيش في وادٍ آخر، حيث العنت والمشقة والجوع والعري والظنك، إن هذه الشعوب ستحقد عليهم وتتمنى زوالهم، بل تنتظر اليوم الذي تتخلص منهم فيه، وسيكون عندها يوم سعادة وهناء واستقرار.

وعلى قادة الحركات الإسلامية أيضًا أن يكونوا قدوة لأتباعهم، يتقدمون الصفوف في القتال، ويتقدمون الصفوف في الابتلاءات والمحن، ويثبتون أمام المغريات وفي وجه الشدائد والملمات، فإن في ثباتهم ثباتًا للجنود، وفي انهيارهم انهيارًا للجنود، عليهم ألا يرضوا بأنفسهم وأبنائهم وأقربائهم عن المخاطر ويقدموا أبناء الناس إليها، عليهم أن يتلقوا بصدورهم وصدور أبنائهم كل مكروه قبل غيرهم، فإن فعلوا ذلك كان لزامًا على من يسير معهم أن يسير خلفهم وأن يمنحهم ثقته وحبه وولاءه ونصرتة، وإن هم أحجموا عن ذلك وتقاوسوا وجبنوا وأخلدوا إلى الراحة ورضوا من الغنيمة بالإياب كانوا جديرين بأن يُلفظوا وأن يُهجروا يتخلى أتباعهم عنهم، ويؤسّدوا الأمر إلى من يعيش معهم ولهم ويؤثرهم في المغنم ويفديهم بنفسه وماله وولده في المغرم». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٣٢-٣٤].

٤ - أعدل وأشرف قانون حرب في التاريخ:

يقول أ/ باشميل: «وبعد تعيين القادة على الجيش ألقى النبي ﷺ في الجيش خطابًا تضمن أرقى قانون للحرب العادلة، قانون عجزت - حتى الآن - كل النظم والتشريعات أن تصل إليه من حيث الإنصاف في معاملة الأعداء واجتناب الأعمال اللا إنسانية من التعرّض للنساء والأطفال والعجزة ورجال الدين بأي نوع من أنواع الأذى».

وقفة عند دستور الحرب الرائع: فيا لروعة الإيجاز مع الشمول الكامل، توصيات في الآداب الحربية، ودروس في الشرف العسكري، وأسس راسخة في المعاملة الإنسانية، والرأفة بغير المحاربين من النساء والشيوخ والأطفال، وتربيات عالية شريفة ما سمعت ولا وعت أمة مثلها منذ فجر التاريخ حتى اليوم من غير سيد البشر محمد ﷺ.

إن أرقى الأمم في العهد الحاضر لا تزال في مجال محاولتها الالتزام بقانون الشرف العسكري، لا تزال تحبو حبواً إذا ما قُسنا محاولتها بما وضعه الرسول ﷺ في خطبته هذه من قواعد راسخة لقانون الشرف العسكري الذي بموجبه فرض الإسلام على المحارب المسلم أن يعامل به أعداءه في ظروف الحرب.

تصرف المسلم حجة للإسلام أو عليه: لقد كان تطبيق صحابة محمد ﷺ لهذا الدستور الحربي من أعظم الأسباب التي حَبَّتْ الإسلام إلى نفوس غير المسلمين، فدخلوا فيه طائعين مختارين فرحين مستبشرين؛ لأنهم رأوا حقيقة الإسلام متمثلة في سلوك أولئك الأصحاب الكرام، الذين ربَّاهم القرآن وأدبهم الرسول الكريم ﷺ.

وهكذا فالملتسب إلى الإسلام بسلوكه يستطيع أن يسيء أو يحسن إلى هذا الدين، أمام من لا يعرفه على حقيقته». [غزوة مؤتة لباشميل ١٦٩-١٧١].

ويقول د/ بريك: «لقد كانت التوصيات التي تزوَّد بها جيش مؤتة من القائد الأعلى للقوات الإسلامية ﷺ تُعَدُّ من أعظم وأرقى قوانين حرب الفروسية المشرفة على مدى التاريخ الإنساني قاطبةً، فلم ولن تعرف أمة من الأمم السابقة واللاحقة مثل تلك الآداب الحربية التي كان المسلمون يطبِّقونها في حروبهم ضد أعدائهم، والتي تُعَدُّ بحق وثيقة فعلية تطبيقية لحقوق الإنسان على أرض الواقع، لا على واقع الخبر والورق، وأرفق المنظمات والهيئات، لقد كان الجندي المسلم يسير بانضباط عجيبيٍّ، مطبَّقاً الأوامر والتعليمات الصادرة إليه من رؤسائه بصورة تلقائية عفوية؛ لأنه يعتبر ذلك جزءاً حيويّاً من دينه الذي يسعى ويحرص كلَّ الحرص على تقديم الصورة الصحيحة عنه.

وهكذا كان كلُّ جندي من جنود الإسلام الأوائل عبارة عن قدوة صالحة تمثل الإسلام أصدق تمثيل في كلِّ مكانٍ حلَّ به.

«لقد أدهشت النتائج السريعة الإيجابية لحركة الفتوح الإسلامية جميع المحلّلين على اختلاف مشاربهم ودياناتهم، ولكن المحلّل المُنْصِف ستزول دهشته حتّى عندما يقرأ تلك التعاليم والوصايا النبوية لقوَّاد وجنود السرايا والبعوث، والتي هي نواة حركة الفتوح الإسلامية، وأصبح الذين شاركوا بالأمس في السرايا والبعوث مشاركين اليوم على رأس تلك الجيوش الفاتحة، مقتدين نفس النهج، سائرين على نفس

الطريق الذي رسمه لهم قائد الأمة المصطفى ﷺ، حتى تلك الأوامر والتعاليم النبوية صارت تتكرر على ألسنة الخلفاء، وقادة جيوش الفتح فيما بعد». [السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ص ٥٣].

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٣٧٣-٣٧٤].

ويقول د/ السباعي: «ومن وصايا رسول الله ﷺ للجيش الإسلامي في «غزوة مؤتة» تلمس طابع الرحمة الإنسانية في قتال الإسلام، فهو لا يقتل من لا يقاتل، ولا يُجرب ما يجده في طريقه إلا للضرورة ماسة، وقد التزم أصحابه من بعده والمسلمون في مختلف العصور بعد ذلك هذه الوصايا، فكانت حروبهم أرحم حروب عرفها التاريخ، وكانوا هم محاربون أدمت أخلاقاً، وأشد رحمة من غيرهم وهم مسالمون، والتاريخ قد سجل للمسلمين صفحات بيضاء في هذا الشأن، كما سجل لغيرهم صفحات سوداء، ولا يزال يسجلها حتى اليوم، ومن منا لا يعرف الوحشية التي فتح بها الصليبيون بيت المقدس، والإنسانية الرحيمة التي عامل بها صلاح الدين الفرنجة حين استردها، ومن منا لا يذكر وحشية الأمراء والجنود الصليبيين حين استولوا على بعض العواصم الإسلامية، كطرابلس، والمعرة وغيرهما، مع رحمة الأمراء والجنود المسلمين حين استردوا تلك البلاد من أيدي محتليها الغاصبين.

ونحن اليوم نعيش في عصر النفاق الأوروبي في ادعاء الحضارة والرحمة الإنسانية وحب الخير للشعوب، وهم يجربون البلاد، ويسفكون دماء العزل من الشيوخ والنساء والأطفال، ولقد عشنا - بكل أسف - عصر قيام إسرائيل على أرض فلسطين السليبية، وعلمت الدنيا فظائع اليهود الهمجية الوحشية في دير ياسين، وقيية، وحيفا، ويافا، وعكا، وصفد، وغيرها من المدن والقرى، ومع ذلك فهم يدعون الإنسانية، ويعملون عكسها، ونحن نعمل للإنسانية، ولا نتشدد بها، ذلك أننا شعب نحمل في نفوسنا حقاً أجمل المبادئ الأخلاقية في السلم والحرب، وننفذها براحة ضمير واطمئنان، بينما هم مجردون من هذه المبادئ في داخل نفوسهم، فلا يجدون إلا المناداة بها نفاقاً وتخديراً، نحن شعب نؤمن بالله القوي الرحيم، فلا تكون قوتنا إلا رحمة، وهم شعب يرون من النفاق أن ينكروا علينا وصف الله بالقوة والبطش، زاعمين أنهم ينعونهم بالحب والرحمة، فما كان لعلاقتهم مع الشعوب وحروبهم مع المسلمين ومع أعدائهم من أبناء ملتهم أثر لهذا الحب ولهذه الرحمة، نحن شعب ما كانت حروبنا إلا لخير الإنسانية، فكنا أبر الناس بها، وهم قوم ما كانت حروبهم إلا للغزو والسلب والتسلط والاستعمار، فكانوا أعدى الناس لها.

ومع ذلك فتحن اليوم في حروبنا معهم إنما ندافع عن أرض وحق وكرامة، فلن يجدينا التغني بمبادئنا مع قوم لا يفهمون مبادئ الرحمة والشرف والإنسانية، بل يجب علينا أن نستمر في كفاحنا لهم، متمسكين في معاركنا معهم بمبادئ رسولنا وشريعتنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم، وهو أحكم الحاكمين».

[السيرة النبوية للسباعي ١١٠-١١٢].

ويقول د/ أبو خليل: «وهذه وصية جديرة بأن تتخذ دستوراً لجيوش العالم كله، وأن تنفذ نصّاً وروحاً للحد من شقاء حروب العالم اليوم، التي تدمر البيوت، وتهدم المدن، وتخرب الزروع، بالإضافة إلى البغي والظلم، والتهجير للسكان المدنيين الآمنين من أطفال ونساء وشيوخ ومرضى وجرحى... أما في الإسلام، فإن كانت الحرب لا محالة واقعة، فهي في منتهى الرحمة والإنسانية بحق المدنيين وممتلكاتهم، فلا غدر، ولا قتل أطفال، ولا هدم بيوت، حتى بيوت المحاربين، فضلاً عن بيوت المدنيين المسالمين». [غزوة مؤتة لأبي خليل ٨٦-٨٧].

٥ - أن يتمسك الجند بتقوى الله وطاعته:

يقول عميد/ فرج: «فالرسول القائد ﷺ يوجه نظر قاداته وجنده وهم سائرون إلى لقاء عدو لهم بعيداً عن أرضهم وبلدهم إلى أمر هام، هو أن يعيشوا مع الله كل لحظات حياتهم، فإن تقوى الله نصر وقوة، ورسول الله ﷺ وهو الأسوة والقدوة، كان عند كل لقاء يدعو الله دعاء حاراً، ويناشده العون والنصر؛ ولهذا وجب على الجيش أن يذكر الله دائماً، وأن تظل العلاقة قائمة وطيدة بين العبد وربّه، وخاصة في مواضع الشدة ومواقف الجهد.

والرسول القائد ﷺ يوصي قادة الجيش بالجند، إيماناً منه ﷺ بأن الجند هم عماد المعركة، بهم يكون النصر، وبهم أيضاً تكون الهزيمة، ولا يتحقق النصر إلا بتوافر الثقة بين القيادة والجند، ثقة تجعل القادة حريصين على جندهم، فلا يُحمّلونهم فوق طاقتهم، ولا يكلفونهم بما يزيد عن إمكانياتهم، ولا يتعاملون عليهم... ثقة تتولد من تبادل المشاعر والأحاسيس والعواطف تقوم على المشاركة العملية والمشاركة الوجدانية.

والرسول القائد ﷺ يدعو إلى الغزو باسم الله، والغزو على هذه الصورة تحدده آداب وقواعد وأخلاق وسلوك شرحها رسول الله ﷺ وأوضحها، فلا عدوان على رجل يتعبّد، ولا قتل لامرأة لا حول لها ولا قوة، ولا لصغير لا يملك الدفاع عن نفسه، ولا لشيوخ عجوز ليس له في الحرب جهد يُحاسب عليه، ولا عدوان على زرع أو نخل، لا هدم لبيت؛ لأن الإسلام دين بناء وليس دين تخريب وتدمير، ودين مجادلة بالتي هي أحسن وليس دين إرهاب، ودين إصلاح وليس دين إفساد». [العبرة العسكرية لفرج ٣٨٦-٣٨٧].

٦ - الترابط بين الجبهة الداخلية والقوات المجاهدة:

يقول د/ عمارة: «هي صورة من صور الترابط بين الجبهة الداخلية والقوات المجاهدة، فلم يجهز الجيش نفسه ثم يمضي وحده تاركاً من ورائه النائم، والمتكى، واللاعب، أو المستهتر ليزحف الأسى إلى قلبه إذ يفارق الديار وفي الذهن صورة هؤلاء الكسالى، وناهيك بهذا الوضع سبباً في ضعف المقاومة وفقر

الحماس، لكن الشعب كله بجميع طبقاته يغبر أقدامه في سبيل الله ساعات يترك فيها المخادع المريجة ليدوع الجيش الذاهب؛ ليضم الجميع بين يدي المعركة شعور واحد بالمسؤولية إزاء معركة واحدة. وكأننا الكل مستعد فعلاً للذهاب إلى ساحة النضال لولا ما تتقاضاه المعركة من تنسيق يفرض بقاء البعض هنا حارساً لظهر الجيش المقاتل.

ويبدو هذا التجاوب قوياً حين بكى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ساعة الوداع، إن الكل يتقلون إليه بقلوبهم الباحثة عن سبب للبكاء لدى بطل يجيد صناعة الموت؟! ويكشف البطل عبد الله رضي الله عنه عن طبيعة الجندي العربي المسلم الذي ينفي أن يكون حب الدنيا أو التعلق بها سبباً لبكائه.

لكنه الخوف من الله تعالى ومن ناره التي لا بد أنه واردها مع الواردين، إذن، فهو مستعد لمغارم النضال، وكونه مستعد للنزال أمر مفروغ منه، لكنه فقط تحسس طريقه إلى الله فساوره قلق غامر على هذا المستقبل رغم ما يقدم من نفسه وماله.

ويتجه المؤدعون إلى الله أن يحفظ الجيش، وأن يمدّه بنصر من عنده.

لكن الدعوة تحيي هكذا: **صَجِّكُمُ اللَّهُ، وَدَفَعَ عَنْكُمُ، وَرَدَّكُمْ إِلَيْنَا صَالِحِينَ!** لم يقولوا: وردكم إلينا سالمين.

إنهم بذلك يكشفون عن روح الإسلام التي تشير إلى أهمية الروح المعنوية لدى المقاتل.

فليس المهم أن يعود «سالمًا» لم يمسه سوء، لكن المطلوب أن يعود بنفسه بين جنبيه، أن يعود بها صالحة: إذا حققت النصر لم يطغها النصر، وإذا فاتها لم تذهب النفس حشرات. والنصر أولاً وأخيراً في عودة المقاتلين بنفوسهم مستعدة لجولات أخرى يستدركون ما فاتهم، أما إذا فقد المقاتل نفسه، أي فقد صلاحيتها للنزال، فهذا هو الانكسار بعينه.

على أنه لا معنى للنصر إذا استصحبت النفوس نشوة النصر فأنستهم الاستعداد لكل طارئ. وعلى رغم أن الدعوة تُذكّر بالعودة السالمة، والرجوع بالحياة، إلا أنها لم تحرك نفس المقاتل إلى هذه الحياة، بل إنه استدبر المتاع ليستقبل الآخرة.

متطلعاً إلى رحمة ربه، والشهادة في سبيله، والطعن في سبيله أيضاً، وكأننا كان هذا القتال هو رسالته الحقيقية، وما عدا ذلك فلا يخطر له على بال.

كُتِبَ القتل والقتال علينا، وعلى الغانيات جر الذبول». (تأملات في السيرة النبوية لعامرة ٢٥٦-٢٥٧).

٧- الاهتمام بتموين الجيش الإسلامي، وتسليحه:

يقول د/ بريك: «وَصَحَّتْ رِوَايَةُ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه أَنَّ تَمْوِينَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ يَعْتَمِدُ أحياناً على تبرعات الموسرين من المشاركين فيه، وتلك عادة حسنة للعرب في جاهليتهم [ينظر: ابن كثير:

البداية والنهاية ٢/٣/ ٢٥٩هـ]، زادها الإسلام قوةً وتماسكًا حيث كان الصحابة رضي الله عنهم يتسابقون في الإنفاق في سبيل الله تعالى باعتبار أنه جهاد في سبيل الله بالإضافة إلى مجاهدتهم بأنفسهم، وذلك طاعة لله - تبارك وتعالى - ولرسوله ﷺ، وطلبًا للأجر والثوبة العظيمة من الباري ﷻ.

كما وضحت الرواية كذلك مدى بساطة تسليح المسلمين بالمقارنة مع ما كان عليه الروم وحلفاؤهم من البهرجة والغطرسة والغرور، وتوضح أيضًا مدى بسالة جند الإسلام الأوائل، ومحاولتهم التواءم مع الظروف، وعدم التسليم للنقص الواضح في عدتهم وعتادهم، ولكن حسب إمكانياتهم، كما فعل ذلك المددِيُّ بصنعه درقة له من جلد الجزور.

يقول أبو أمامة رضي الله عنه: «لقد فتح الفتوح قوم ما كانت حلية سيوفهم الذهب والفضة، وإنما كانت حلية سيوفهم العُلَّابي، والآثك (العلابي: الجلود الخام غير المدبوعة. وقيل: العصب تؤخذ رطبة فيشد بها جفون السيف وتلوى عليها فتحف. والآثك: الرصاص. ابن حجر: ٩٦/٦) والحديد» [أخرجه البخاري (ينظر: فتح الباري ٦/ ٩٥)].

[غزوة مؤتة والسررايا والبعوث الشبالية لبريك ٣٧٥-٣٧٦].

٨ - أهمية قوة الاستخبارات:

يقول د/ أبو فارس: «إن هذه الاستخبارات كانت في غاية اليقظة والحذر، ترصد حركات الأعداء وتراقب سيرهم، ولقد استطاعت أن تحصل على معلومات دقيقة تتعلق بتحريك الجيش النصراني الصليبي، وأن تنقل هذه المعلومات للقيادة لتدبر الأمر وتتخذ القرار المناسب وفق المعطيات الجديد والمعلومات الوثيقة.

إن هذه المعلومات تدل على أن وسائل الاستخبارات العسكرية الإسلامية قوية وفعالة ونشطة وشاملة في مراقبة العدو وحشوده». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٥١].

٩ - استخبارات العدو ونشطة:

يقول د/ أبو فارس: «ومن الحق أن يقال أيضًا أن الذي يدرس الأحداث يدرك أيضًا أن استخبارات العدو العسكرية كانت قوية ونشطة، لم تغفل عن مراقبة الجيش الإسلامي وجمع المعلومات عنه، ومن ثم التوصية بأن يحشد له أضعاف أضعاف قوته.

ولو كانت هذه الاستخبارات غير نشطة وغير فاعلة لتمكن الجيش الإسلامي من مفاجأة هؤلاء الأعداء وتوجيه ضربة قوية تهدم أركانهم وتزلزل بنيانهم». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٥١-٥٢].

١٠ - الثقة المتبادلة بين القائد وجنوده:

يقول د/ بريك: «إنَّ تشجيع عبد الله بن رواحة رضي الله عنه المسلمين على قتال الروم وحلفائهم، واستجابة المسلمين لهذا التشجيع، له دلالة لا يمكن أن يختلف فيها اثنان، هي أنه كان يثق ثقةً عاليةً برجاله، وأنَّ

رجالهم كانوا يثقون به ثقةً مُطلقة، والثقة المتبادلة بين القائد ورجاله من أهم مزايا القائد المتميز، ولا يمكن أن يثق الرجال بقائدهم ثقةً مُطلقة عفواً وبدون أسباب، كما أن النبي ﷺ كان لا يولي المراكز القيادية إلا لأشخاص لهم مؤهلات عالية، ومزايا واضحة المعالم، فقد كان ﷺ يحرصُ أعظم الحرص على تولي الرجل المناسب للعمل المناسب، تطبيقاً لتعاليم الإسلام في الولاية، وثقة النبي ﷺ بعبد الله بن رواحة ؓ، وثقة رجال عبد الله بن رواحة ؓ به، أسبابها وحواظها واحدة، وهي تمتع عبد الله بن رواحة ؓ - بالإضافة إلى عمق إيمانه - بمزايا قيادية أهلته لأن يكون أحد قادة النبي ﷺ. [القادة الشهداء لخطاب ١٨٢ - ١٨٣].

ويعتقد بعض المحللين والمنظرين العسكريين، وغيرهم من المؤرخين المعاصرين، أن تشجيع عبد الله بن رواحة ؓ للمسلمين، واندفاعه بهم نحو العدو، رغم تفوقهم العددي، وقرب قواعدهم، كان مغامرة خطيرة، ومجازفة مهلكة، وخطأ عسكرياً فادحاً، وذلك بموجب المقاييس المادية.

[ينظر: خطاب: القادة الشهداء ١٨١، الغزالي: فقه السيرة ٣٦٦، باشميل: غزوة مؤتة ٢٨٤ - ٢٨٥].

ولكن المقاييس المادية تُطبّق على الذين يعتمدون الوسائل المادية وحدها في حروبهم، أمّا الذين يجاربون حرباً عقديّة، جهاداً في سبيل الله، ودفاعاً عن عقيدتهم، وعن حُرّيّة انتشارها، فلا تُطبّق عليهم المقاييس المادية وحدها، التي تُطبّق على غيرهم في حروبٍ استشاريّة أو توسّعيّة من أجل أجدادٍ شخصيّة، وأحقادٍ عنصرية أو طائفية، وعلى ذلك فلا تُطبّق هذه المقاييس المادية على أمثال عبد الله بن رواحة ؓ؛ لأنّهم كانوا يخوضون حرباً عقديّة لا دخل للمادّة فيها من قريب أو بعيد، وإلا فماذا يمكن أن يُقال في غزوة بدر الكبرى الحاسمة، بالنسبة للمقاييس المادية وحدها، وكان تفوق المشركين على المسلمين بنسبة ثلاثة على واحد في الأشخاص، وبنسبة مائة على واحد بالخيّل، والخيّل أنجح سلاح في الحروب القديمة؟!

لقد حرّض عبد الله بن رواحة ؓ المسلمين على القتال لأغراضٍ عقديّة، فكان تحريضه خطأ بالنسبة للمقاييس المادية، ولكنه كان عين الصواب بالنسبة للجهاد والحرب العادلة التي كان يخوضها المسلمون حينذاك. [خطاب: القادة الشهداء ١٨٢ - ١٨٣].

ولكي نعرف مدى اندفاع عبد الله بن رواحة ؓ وحماسه لخوض حرب عقائدية إيمانية هدفها إعلاء كلمة الله ﷻ، وإعزاز دينه، وأقصى ما يتمناه فيها هو نيل شرف الشهادة، وبذل روحه رخيصة في سبيل الله ﷻ، فلنراجع ما حدّثنا به زيد بن أرقم ؓ - وكان من المشاركين في مؤتة - عما كان من أمر ابن رواحة ؓ في مسيره إلى المعركة، كما سبق في عرض الأحداث. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشبالية لبريك ٢٩٣ - ٢٩٤].

١١ - هل الملك هرقل هو الذي قاتل المسلمين في مؤتة؟

يقول أ/ باشميل: «إن الرومان قد حشدوا لمقاتلة المسلمين مائة ألف روماني احتشدوا تحت قيادة الإمبراطور «هرقل نفسه» الذي عسكر هو الآخر في بلدة «مآب»، وبعض المؤرخين يذكرون أن الذي

زحف بالمائة الألف الروماني لملاقاة المسلمين هو تيودور أخو الإمبراطور «هرقل» وهذا أقرب إلى الصواب؛ لأن الملك «هرقل» تدل تصرفاته - منذ جاءه كتاب النبي ﷺ - على أنه لا يرى مقاومة المسلمين، وإنما يرى الدخول في دينهم أو إعطاءهم الجزية، كما جاء ذلك مفصلاً في تاريخ الطبري.
[غزوة مؤتة لباشميل ١٧٣].

١٢ - لماذا كل هذا الحشد الصليبي؟

يقول د/ أبو فارس: «إن مما يلفت النظر حشد هذه الحشود الضخمة من النصارى الصليبيين العرب والنصارى الصليبيين الروم: فلمَ كان ذلك؟ وبم يفسر ذلك؟ أحسب ذلك يعود إلى أسباب منها:

- (١) إن دولة الروم وعملاءها النصارى العرب قد بلغتهم أنباء انتصارات المسلمين في الجزيرة العربية وبخاصة انتصاراتهم على عدو خبيث لثيم، هم يهود بني قينقاع، ويهود بني النضير، ويهود بني قريظة، ويهود خيبر، وهذا يستدعي أن يحسب الروم هؤلاء المسلمين ألف حساب، فهم ليسوا سذجاً وليسوا بسطاء.
- (٢) الروح المعنوية العالية في القتال التي كان يتمتع بها المقاتل المسلم، وفي الوقت ذاته ضعف الروح المعنوية عند المقاتل النصراني، وحتى يتعوض هذا الفارق لابد من حشد الأعداد الضخمة من أصحاب الروح المعنوية الضعيفة، لتتصدى للعدد القليل من أصحاب الروح المعنوية العالية في القتال.
- (٣) لقد رأت قيادة الأعداء أنها فرصة ثمينة أن تنفرد بهذا الجيش القليل وتحشد عشرات أضعافه حتى تسحقه وتبيد خضراءه، فتحطم بذلك معنويات المسلمين، وتقطع آمالهم في غزو العالم الصليبي فيما بعد». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٥٢].

ويقول د/ أبو خليل: «ولكن لماذا هذا الجمع كله؟

أهو الفزع من قوة المسلمين الخارقة، والتي ارتجت لها أرجاء جزيرة العرب؟ والتي لم تستطع قوة جيش الأحزاب مجتمعة أن تنال منها؟! أم هي سمعة المسلمين المنتصرة على حصون اليهود على مناعتها وقوتها؟ تلك الحصون التي لم تثبت أمامهم رغم قلة المسلمين وكثرة اليهود وعددهم ومؤوتهم واستعداداتهم؟ أم هي دعوة رسول الله ﷺ هرقل - وملوك وأمراء عصره - إلى اتباعه، وهرقل في أوج انتصاره، فتصوروا أن قوة لا قبل لهم بها قد جاءت إليهم؟

والجواب المعقول: إن التساؤلات الثلاثة مجتمعة هي السبب في هذا الحشد الضخم الذي سيواجهه

ثلاثة آلاف من المسلمين فقط». [غزوة مؤتة لأبي خليل ١٠٣-١٠٤].

ويقول أ/ الشامي: «ونتساءل لماذا هذه الكثرة في جيش الروم؟

إن أنباء الإسلام لم تعد خافية على أحد وخاصة الأماكن المتاخمة للجزيرة العربية، حتى إن أنباء الرسل إلى الملوك والأمراء قد علمها الناس؛ ولذا لاحظنا قول شرحبيل للحارث: لعلك من رسل محمد؟ كما لم يكن خافياً أن جيش المسلمين يتمتع بالكفاءة العالية.

وإن توجه جيش المسلمين إلى مؤتة يعني إهانة الدولة الرومانية يومئذ وهي الدولة المنتصرة حديثاً على الفرس، والتي لا تزال تعيش نشوة النصر، فلا بد من حشد قوة كثيرة، فكانت طلائع هذا الجيش هي ما جمعه شرحبيل قاتل الحارث ﷺ تزيد على مائة ألف.

وكان على قيصر أن يظهر اهتمامه بهذه الأماكن التابعة له حتى لا تُقْتَطع الواحدة بعد الأخرى، وحتى يشعر عمالها التابعين له باهتمامهم بهم، فيظلوا على ولائهم له، فسير جيشه بقيادة أخيه تيودور لمؤازرة شرحبيل بن عمرو الغساني». [من معين السيرة للشامي ٤٠٤].

١٣ - أهمية قوة الروح المعنوية العالية عند الجنود:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان المسلمون في هذه السرية يتمتعون بروح معنوية عالية في القتال، مع أن عددهم قليل، وعدد عدوهم ضخم جداً، وهذا لم يَفُتْ في عضدهم، فلم تلن لهم قناة، ولم تن لهم عزيمة، فبمجرد سماعهم لقول عبد الله بن رواحة ﷺ الذي ذكَّروهم بالغاية من خروجهم وجهادهم والنتائج المترتبة على ذلك إما النصر وإما الشهادة استجابوا على الفور وتدافعوا للقتال وقالوا: صدق - والله - ابن رواحة». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٥٣].

ويقول د/ الغضبان: «وإذا كانت قوة الجيش تُقاس بمعنوياته، فلن نجد أقوى من هذا الجيش، والأصل أن يكون المسلمون اليوم في هذا الاتجاه عندهم بعض الخوف والتردد فهم يقدمون على حرب في اللقاء على تخوم الروم، واحتمال المواجهة واردة معهم، ولم يسبق لهم رصيد من التجربة في الحرب مع الروم أو الفرس، والدولتان الكبريان آنذاك تتقاسمان الأرض، ومع ذلك فقد كان أحد القادة الثلاث يبكي وقد حضره المسير، ولم يكن سبب بكائه جزعاً من الموت إنما كان خوفاً لما بعد الموت، خوفاً من النار التي يرد عليها الناس جميعاً: ﴿وَلَنَنْكَرُهُ لَأَوَارِدُهَا كَأَنَّا عَلَى رَيْكٍ حَتَمًا مَّقْضِيًّا﴾ (٧) [مريم]، وتصور الناس أن الدعاء بالسلامة هو الذي يثلج الصدر، فقالوا له وإخوانه: صَحِّبْكُمْ اللَّهُ، وَدَفَعَ عَنْكُمْ، وَرَدَّكُمْ إِلَيْنَا صَالِحِينَ، فكان جواب القائد الشاعر ابن رواحة طلب الشهادة في أرض الشام والمغفرة.

هذه نفسية الجيش وقياداته قبل التحرك.

وكانت أزمته الثانية عندما بلغه التجمع الهائل وهو في معان وهو وجود حوالي مائتي ألف من العرب والروم قد تهيؤوا للقاءهم ومضوا يناقشون الأمر وقالوا: نكتب إلى رسول الله فنخبره بعدد عدونا فيما أن

يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، ولم يكن من بين الحلول المطروحة أن يعودوا إلى المدينة، وكل ما يخشونه أن تكون المواجهة مغامرة غير جائزة أن يواجهوا هذا العدد الضخم بقوتهم الضئيلة.

وما أعتقد أن جيشاً في الأرض لا تنهار معنوياته أمام هذه المواجهة وبينهم هذا الفارق في العدد والعدة، ولكن هذا الدين الذي ضرب جذوره في أعماق هذه العصبية المؤمنة، جعل منهم نموذجاً آخر لا يُبارى في التاريخ وجعل لدى الجيش تلك الأرض التي تقبل قول الأمير الشاعر بن رواحة رحمه الله: (يَا قَوْمَ، وَاللَّهِ إِنَّ النَّبِيَّ تَكْرَهُونَ، لِلَّيِّ حَرَجُكُمْ تَطْلُبُونَ الشَّهَادَةَ، وَمَا نُقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدَدٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا كَثَرَةٍ، مَا نُقَاتِلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ، فَانْطَلِقُوا، فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ: إِمَّا ظُهُورٌ، وَإِمَّا شَهَادَةٌ).

وأمكن لهذه الكلمة أن تفعل في الجيش كله فعل السحر، وانطلق الجيش للمواجهة قائلين: قد والله صدق ابن رواحة.

إن فكرة الشهادة والأمل برضوان الله تعالى ودخول الجنة قد أثبت التاريخ عملياً أنها أقوى دافع في هذا الوجود للمواجهة والموت؛ لأن المسلم على يقين أن ما عند الله خير وأبقى للمسلم من كل شيء فلا يتوانى لحظة واحدة عن الإقبال على الموت تغمره السعادة ويجدوه الرضا بقضاء الله وقدره، وكلا الأمرين لا يدري أيهما أحب إليه: النصر والشهادة.

وهذه الروح المعنوية التي رافقت الجيش المسلم في كل معاركه هي التي رجّحت كفته دائماً على عدوه، ودانت له الأرض بسبب ذلك.

وكانت الأزمة الثالثة العنيفة لحظة المواجهة، أو المفروض أن تكون الأزمة، لكن الروح المعنوية العالية - على ما تذكر الروايات - لم تفارق الجيش وهو بعدده الضئيل أمام ذلك الجيش العرمرم، وكانت القيادات من الكفاءة بحيث تتسابق أمام جنودها على الموت، وكأنها هي تتجهز له تجهز العروس لعروسه، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «ثُمَّ اتَّقَى النَّاسُ وَافْتَتَلُوا، فَقَاتَلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رحمه الله بِرَأْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى سَاطَ (يُقَال: سَاطَ الرَّجُلُ إِذَا سَالَ دَمُهُ فَمَاتَ) فِي رِمَاحِ الْقَوْمِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٨].

ومقتل قائد واحد خلال لحظات قليلة كفيل أن يعيد النظر في المواجهة حيث كان الأمير الثاني جعفر بن أبي طالب عليه السلام، لكن شوق الجنة هو الذي حدا بجعفر عليه السلام أن يقتحم عن فرسه الشقراء ويتراقص فرحاً بالجنة وهو يواجه العدو:

يَا جَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتَرِبَهَا طَيِّبَةً وَبَارِدًا شَرَابَهَا
وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابَهَا كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابَهَا
عَلَيَّ إِذْ لَا قِيَتُهَا ضَرَابَهَا

واستشهد القائد الثاني فجرى بعض الفتور في هذه الروح المعنوية عند ابن رواحة رضي الله عنه، وكان الفرق واضحاً بين طلبه الشهادة وهو في المدينة وبين معايتها وهو في مؤتة، لقد كانت الرؤى الشعرية الوجدانية عنده أقوى من الواقع العملي، فراح يبرز خلجات نفسه في هذا الحديث الرائع:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهُ لَتَنْزِلَنَّهُ طَائِعَةً أَوْ لَتُكَرِهَنَّه
مَالِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ إِنَّ أَجْلَبَ النَّاسِ وَشَدُّوا الرِّنَّةَ ^(١)
لَطَالَمَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُظْفَةٌ فِي سَنَّةٍ ^(٢)

ولم يكتف بهذا الحديث النفسي، فراح ينقل حديثاً آخر:

يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْبَلِي تَمُوتِي هَذَا جِهَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَّيْتَ
وَمَا تَمَكَّنْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنَّ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ

ولكن مهما تزعزع القائد إذ كان له من إيمانه ما يعصمه، فلا بد من الثبات بعد ذلك، وهذا ما جرى لدى ابن رواحة رضي الله عنه فقد طغى التدفق الإيماني عليه، وانخرط في القتال حتى قضى شهيداً في سبيل الله. وكانت الأزمة الأخيرة، وهذه الروح المعنوية العالية كفيلاً أن تحطم أي روح مهما سمت، وبعد مقتل الأمراء الثلاثة وانتهاء القيادة من المعركة، لم يعد إلا ذبح هذا الجيش كله، فمن هؤلاء من مضى لائثاً بالفرار إلى المدينة، لكن أكثرية الجيش عادت فتكاملت، وأخذ الراية ثابت بن أقرم رضي الله عنه، وهو يحس بثقل الأمانة. وهكذا استطاع هذا الجيش المسلم أن يواجه ذلك البحر المتلاطم من البشر بتلك الروح المعنوية العالية التي لم يروها التاريخ مثيلاً إلا في المحضن الإسلامي.

والذي نؤكد به حمد الله تعالى أن هذه الروح المعنوية العالية بقيت خلال خمسة عشر قرناً في الأجيال الإسلامية يرثها الجيل بعد الجيل، وما تنبت فئة مؤمنة بالإسلام إلا ووجدت في صفوفها هذه الروح، حتى جيلنا المعاصر.

فلم يعرف تاريخ الحركات السياسية اليوم بطولة نادرة واستبسال منقطع وضحايا في سبيل الهدف كما عرف تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة، وثرى فلسطين وأفغانستان وحماة هي أصدق شاهد على ما نقول. [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٩٧/٣ - ١٠٠].

(١) أجلب الناس: أصاحوا. الرنة: ففتح الراء وبالنون المشددة: الصوت بحزن.

(٢) النظفة: الشيء اليسير جداً من الماء. السنة: ففتح الشين المعجمة والنون المشددة: السقاء البالي فيوشك أن تهراق النظفة وينخرق السقاء، ضرب ذلك مثلاً له لنفسه في جسده.

١٤ - لابد من تعبئة الجيش:

يقول د/ أبو فارس: «فقد كان للجيش مقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة وقادة ثلاثة، ولقد استطاع الجيش الإسلامي على قلته بهذه التعبئة أن يتصدى لمائتي ألف من الجيش المعادي، وأبلى قاداته وأمرأؤه بلاء حسنًا، بل لقد استطاع أن يحطم هجمات الأعداء، يندفع بقوة السهم ليبتطش بالآلاف من مقاتليهم ويذيقهم طعم الردى». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٤].

١٥ - ضرورة توفر الغذاء المناسب للمقاتل:

يقول د/ أبو فارس: «نعم لابد من هذا مهما كانت الظروف، وعلى المقاتل أن يتناول غذاءه على الرغم مما يجده من آلام ومشاهد، قد تجعله يعاف الطعام، إذ الغذاء يقوّي الجسم ويجعله قادرًا على تحمل أعباء القتال، والجسم الضعيف الكليل لا يقوى صاحبه على مصارعة الأبطال في ساحات الوغى، ويكون عاجزًا عن النكاية في العدو.

نأخذ هذا من تناول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه عرق لحم وأكله منه، ومن الجدير بالذكر أن اللحم غني بالمواد البروتينية التي تقيم صلب المقاتل، فلا غرو إذا علمنا أن الجيوش الحديثة تعتبر اللحم شيئًا أساسيًا في المواد التموينية للجيش، وقبل ذلك ما درج عليه المسلمون في جيوشهم من تزويدها باللحم دائمًا». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٧].

١٦ - الارتباط بالدعوة لا بالأشخاص:

يقول د/ أبو فارس: «يلاحظ أن أمراء الجيش: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه قد استشهدوا جميعًا وفي الوقت ذاته لم ينفرط عقد المسلمين، مع أن الغالب في المعارك إذا قُضي على قائد المعركة ضعفت معنويات الجند في القتال، وتقهقروا، ودارت الدائرة عليهم.

وهذا الثبات والإصرار على القتال بعد أن استشهد الأمراء الثلاثة يدل على أن الجند يقاتلون من أجل هدف واضح، ويرتبطون برسالة يعملون على تحقيقها، وأن موت القائد لا يؤثر عندهم؛ لأن كل واحد منهم مكلف بالعمل لتحقيق الهدف أو الموت دونه، ولقد تعلموا أن يتعلقوا بهذا الدين ولا يتعلقون بالأشخاص حتى وإن كانوا قادة أكفاء ومحاربين عظماء». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٤].

١٧ - تأملات في خطة خالد رضي الله عنه:

يقول عميد / فرج: «لقد أثبت خالد رضي الله عنه قدراته كقائد عسكري، وأكدت تكتيكاته في مؤتة أنه رجل حرب من طراز تاريخي لا تزعه الشدائد، ولا يقعه البلاء.

لقد كان موقف خالد رضي الله عنه موقف العالم بشؤون الحرب الخبير بأمورها، القادر على إدارتها، المتفهم لمسؤوليته كقائد أمام قومه وأمام التاريخ.

تولى خالد ﷺ القيادة وقد نالت الحرب أقصى ما تناله من جيش قليل العدد يحارب بعيداً عن مركز قيادته العليا (المدينة)، لا يجد سبيلاً للإمداد والإعاشة، ولا وسيلة لتعويض الخسائر، فخطوط مواصلاته طويلة تمتد من المدينة إلى حدود الشام، ولا تسمح بإمداده أو بتحريك قوات جديدة تشد من أثره في محنته. تولى خالد ﷺ القيادة وجيشه يحارب عدوًّا كثيف العدد ضخمة العدة، يقاتل فوق أرضه، عدته كاملة، إمداده سهل، كل متطلبات الموقف يملكها فهي ملء يديه.

وقدّر خالد ﷺ موقفه، ودرس كافة احتمالات الموقف، ثم انتهى إلى خطة تتميز بالبراعة والإحكام. انتهز فرصة الليل، ولم يكن يقع فيه قتال، فأعاد تنظيم قواته، وغير مواقعها، ورصد من خلف الجيش طائفة تثير الغبار وتكثر الجلبة عند طلوع النهار، فلما جاء الصباح والتقى الفريقان، رأى العدو في كافة قطاعاته وجوهاً جديدة غير التي حاربها بالأمس، ورأى رايات مرفوعة غير التي اعتاد رؤيتها، ورأى الغبار يُثار في منطقة المسلمين، فظن أنهم قد زُودوا بإمدادات جديدة دفعوا بها إلى أرض المعركة. وظل خالد ﷺ يخادع القوم ويغيّر في مواقع قواته، وكان خلال مناوراته هذه، قد أصدر تعليماته بأن ينسحب جزء من كل قطاع أثناء تغيير الواقع، وشغلت كثرة التحركات العدو، فلم يتنبه إلى حركات الانسحاب الجزئية التي تتم في صفوف المسلمين.

هذا الأسلوب يُسمى في حروب اليوم بالتخفيف، وظل خالد ﷺ يناوش الروم سبعة أيام، وقواته تنسحب بالتدريج، وهو في موقعه يخادع الناس، حتى ظنوا أنه يستدرجهم إلى الصحراء المكيدة، فظنوا في مكانهم لا يتبعونه بل يرقبونه من بعيد، ويتنظرون خطوته المقبلة، وهكذا أفلت خالد ﷺ بجيشه، وعاد بقواته وقد فقد الجيش اثني عشر رجلاً. [العبرة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٩٠-٣٩١].

ويقول أ/ فتح الباب: «بأمر خالد ﷺ إلى التصرف بما يكفل صالح المسلمين، فدأور بهم حتى جمع صفوفهم وأخذ في مناوشة العدو دون شن الهجوم الشامل حتى انقضى النهار وغمر الظلام ساحة القتال، فوضعت الحرب أوزارها حتى الصباح، وهكذا أتاح خالد ﷺ لنفسه فرصة للتروي ووضع خطة حكيمة ينهي بها المعركة دون إلحاق خسائر بجيشه بعد أن تأكد من رجحان كفة الأعداء عدة وعتادًا فوزع عددًا كبيرًا من جنوده في خط طويل من مؤخرة جيشه، أحدثوا إذا أسفر الصباح من الجلبة ما أدخل في روع العدو أن مددًا قد جاء المسلمين من عند النبي ﷺ، وفترت عزيمة الروم عن مواصلة القتال لا سيما أنهم أُصيبوا بغرم فادح في اليوم الأول للمعركة إذ لقي كثير منهم مصرعه، وقد كان عدد المسلمين لا يتجاوز ثلاثة آلاف، فكيف إذا جاءهم المدد، وانسحب خالد ﷺ وجنوده عائدين دون أن يتقدم الروم لمقاتلتهم أو يتعقبوهم بعد أن يئسوا من إحراز أي نصر عليهم وسروا من عدم مهاجمة خالد ﷺ لهم».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٦٢-١٦٣].

١٨ - على القائد أن يسلك الأسلوب المناسب للمحافظة على سلامة قواته وأمنها: يقول د/ الرشيد: «يُعد الحرص على سلامة القوات وأمنها أمراً ضرورياً يجب أن تهتم به كل القيادات العسكرية؛ لما يترتب عليه من المصالح العظيمة، وقد اهتمت القيادة العسكرية الإسلامية بهذا المبدأ وأولته عناية خاصة.

ويظهر ذلك عندما رأى خالد بن الوليد رضي الله عنه أن الخطر يهدد جيش المسلمين وأن بقاء هذه الفئة القليلة أمام جيش الروم ذي العدد الكثير يُعد ضرباً من الانتحار الذي لا يرضى به النبي ﷺ، قرر أن ينسحب بهذا الجيش ويعود إلى المدينة، فوضع خطة رائعة لتحقيق هذا الهدف.

[ينظر: غزوة مؤتة ص ٣٨٨، وخالد بن الوليد - أ/ بسام العسلي ص ١٨٠ - ط ٤ دار النفائس ١٤٠١ هـ، وموسوعة فقه عمر بن الخطاب - د/ محمد رواس قلعة جي ص ٢٣٤، ٢٣٥].

وقد أعجب الرسول ﷺ بهذه الخطة العسكرية الناجحة التي أنقذت الجيش الإسلامي من الهلاك في هذا الطرف العصيب الذي تعرض له المسلمون في مؤتة، وأثنى ﷺ على جهود خالد رضي الله عنه، فسماه (سيف الله)، وسمى قتاله (فتحاً).

فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى (نعى: يقال: نعى الميت ينعه نعباً ونعيّاً: إذا ذاع موته وأخبر به، وإذا ندبه، والنعي: هو خبر الموت) زيداً وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ»، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، «حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُبُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ». [البخاري في المناقب (٣٧٥٧، ٣٦٣٠)، وفي المغازي (٤٢٦٢)].

وقد ذكر ابن حجر رحمته الله أن سبب هذه التسمية يرجع إلى أحد وجهين:

الأول: أنه كان هناك قتال بين الجيشين حتى هزم الله العدو وأظهر المسلمين.

الثاني: أن انحياز خالد رضي الله عنه بالمسلمين في حد ذاته يُعد فتحاً حتى رجعوا سالمين من كيد أعدائهم.

[ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٥١٤، والبداء والنهاية ٤/ ٢٥٠].

[القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٥٣٧-٥٣٨].

١٩ - للقائد أن يستعمل من أساليب الخداع ما يرى أن فيه إيهاماً للعدو وإضعافاً لعنوياته:

يقول د/ الرشيد: «يُعد إيهاً العدو وخداعه ذا أثر فعال في سير المعركة ونتائجها، وقد طبّق القادة العسكريون في عهد النبي ﷺ هذا الأمر في السرايا التي يبعثها ﷺ للجهاد في سبيل الله، ومن ذلك ما فعله خالد رضي الله عنه في سرية مؤتة عندما أحس بالخطر الذي يحيط بجيش المسلمين من كل جهة، فانتهاز فرصة

ظلام الليل وتوقف الجيشين عن القتال فوضع خطة حربية بارعة تقوم على الإيهام والخداع، وتتلخص فيما يأتي:

أولاً: أنه أجرى تغييرات في مواقع الجيش.

ثانياً: أنه أمر جنده بإثارة الغبار ودق طبول الحرب أمام الأعداء لإيهامهم أن مدداً ضخماً قد وصل لمساعدة هذا الجيش.

فلما طلعت الشمس والتقى الجيشان رأى العدو وجوهاً جديدة غير التي رآها بالأمس، فظنوا أن مدداً قد انضم إلى جيش المسلمين، فوقع الرعب في قلوبهم، وضعفت معنوياتهم، وآثروا النجاة بأنفسهم.. وقد أنقذت هذه الخطة - بمشيئة الله - الجيش الإسلامي من فناء محقق [ينظر: خالد بن الوليد المخزومي ص ٧١، ٧٢، وقادة فتح العراق والجزيرة ص ٧٩، ٨٠]. [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٥٣٩].

٢٠ - القضايا التعبوية: الانسحاب:

يقول د/ أبو خليل: «استشهد ابن رواحة ﷺ مساءً، فأخذ الراية خالد بن الوليد ﷺ فبات يُحْكَم خطته لتدارك الموقف غير المتوازن، فقام بالأعمال التالية، ليضمن ارتداداً مأموناً لا خسائر فيه:

(١) جعل الخيل طيلة الليل بحركة دائمة تجري بحركة دائرية، مُصدرة أصواتاً، ومثيرة غباراً كثيفاً.
(٢) جعل مقدمة الجيش ساقته، وساقته مقدمته، وميمته ميسرة، وميسرته ميمنة، فأنكر الروم في صباح اليوم التالي ما كانوا يعرفون من رايات المسلمين وهيئتهم، وقالوا: قد جاءهم مدد، فهبطت معنوياتهم ورعبوا رعباً شديداً.

(٣) كما جعل ﷺ طائفة من الجيش يثرون الغبار، ويكثرون الجلبة عند طلوع النهار، ونشر الجند على طول جبهة عريضة، فكادت تملأ الأفق.

(٤) وشكّل مؤخرة قوية لحماية الانسحاب، ولتشبيط مطاردة العدو إن حصل.

(٥) وجعل منذ الصباح هدفه ارتداداً مأمون العواقب، فبدأ بتراجعهِ شيئاً فشيئاً، فظن الروم والعرب أنه يستدرجهم إلى الصحراء.

وتراجع خالد بن الوليد ﷺ بالمسلمين، حتى خلّصهم من الروم والعرب المنتصرة، بعد قتال شديد، قال قيس بن أبي حازم: سمعت خالد بن الوليد ﷺ يقول: لَقَدْ أَنْقَطَعَتْ [دُقٌّ] فِي يَدَيَّ يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ [وَصَبْرَتْ] فِي يَدَيَّ إِلَّا صَفِيحَةٌ (الصفحة: السيف العريض، قال ابن سيده: الصفحة من السيوف العريضة، لسان العرب ١٣/٢) يَمَانِيَّةٌ. [البخاري في المغازي (٤٢٦٥، ٤٢٦٦)].

وورد: «دافع القوم وخاشى (المخاشاة: المحاجزة، وهي مفاعلة من الخشية، لأنه خشي على المسلمين لقلّة عددهم، ومن رواه حاش بهم، معناه انحاز بهم) بهم، ثم انحازوا وانحيز عنهم، حتى انصرف الناس».

لقد استطاع خالد بن الوليد ﷺ تحقيق انسحاب مدروس منظم، مع حماية دقيقة لمؤخرة الجيش، وإلا لانقلب الانسحاب إلى هزيمة منكرة وخسائر كبيرة، وكارثة محتملة، فالارتداد المأمون «أصعب من النصر في بعض المآزق؛ لأن النصر ميسور مع اجتماع العُدّة، واحتمال الشدة فيه، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو في أضعف الموقفين، إلا أن تكون له - للقائد - خبرة القيادة تكافئ الرجحان في قوة العدو الذي يرتد بين يديه». [صور من حياة الرسول ﷺ، ص ٥٢٠. وفي التاريخ الحديث: انسحب الإنكليز أمام جيوش الألمان في موقعة دنكرك، فافتخروا لأنهم استطاعوا الارتداد في الحرب العالمية الثانية، حتى سموه: (الهزيمة المنتصرة)]. [غزوة مؤتة لأبي خليل ١٢١-١٢٣].

ويقول ل/ خطاب: «يعتبر نجاح خالد بن الوليد ﷺ في انسحابه من (مؤتة) تجاه قوات متفوقة على قوته تفوقاً ساحقاً، يعتبر هذا الانسحاب عملاً عسكرياً فذاً.

كما أن أسلوب قتال مؤخرة قوات المسلمين كان رائعاً حقاً: احتلت جبهة واسعة لتجبر العدو على الانفتاح على جبهة واسعة أيضاً، مما يضعف قواته، وأثارت تلك المؤخرة ضجة عظيمة، مما جعل العدو يعتقد بوجود قوات كبيرة للمسلمين جاءت مدداً لهم.

كل ذلك أنفذ قوة القسم الأكبر (القسم الأكبر: تعبير عسكري يقصد به القوة الرئيسة التي تعمل مفاوز الحماية المتقدمة على حمايته من مباغته العدو)، للمسلمين من التطويق، وسهل عليهم عملية الانسحاب». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٣١٣].

ويقول أ/ إبراهيم: «أخذ خالد ﷺ اللواء واندفع يضرب الأعداء ويمزق الصفوف بسيفه البتار، وكان يفكر في الخطة التي يجب أن يتبعها في هذا المأزق الحرج والموقف العصيب.

وهدي إلى الخطة، وكانت الانسحاب المأمون، أو الارتداد بسلام آمين، ثم صمم على التنفيذ. ولا يحسن القارئ أن الارتداد في أمثال هذه المواقف أمر سهل ميسور بل هو أصعب من النصر في بعض المواقف المحرجة، وهناك من كبار القواد العالمين أمثال: هند نبرج الألماني وأحمد مختار باشا مَنْ كان سر شهرتهم وارتقائهم إلى أعلى المناصب وأرقاها إنقاذ جيوشهم من مثل هذا الموقف الحرج والمأزق الضيق الذي لو اختل أقل تدبير فيه لفني الجيش كله.

وفكر خالد ﷺ كيف يكون الارتداد المأمون.

وهنا تبدو العبقرية الحربية وتبرز من مكنها..

ألقي خالد ﷺ في روع الروم أنه سيشند عليهم في الهجوم، وجاهد فعلاً يومها جهاداً قوياً واستمرت المعركة حتى المساء، ثم أوى الروم إلى مضاجعهم يستريحون، ولكن خالدًا ﷺ لم يسترح، بل أخذ يبدل مواقف الجيش تحت ستار الليل، فنقل الميمنة إلى الميسرة، والميسرة إلى الميمنة، وجعل مقدمة الجيش ساقته

وساقته مقدمته، ورصد من خلف الجيش طائفة من الجنود أمرهم أن يثيروا الغبار ويُحدثوا جلبة وصياحًا عند الصباح.

وطلع الفجر، وانتشر الضياء، والتقى الجيشان.

وإذا بكل فرقة من فرق الروم تُلقي أمامها وجوهاً غير الوجوه التي لقيتها من قبل، وأعلامًا غير الأعلام التي شاهدتها في الأيام الماضية ثم إذ بجلبة وصياح يرتفع من بعيد، فظن القوم أن المسلمين قد جاءهم المدد ففت ذلك في عضدهم، وألقى الروم في قلوبهم، وودوا لو يرجعون.

وجاهد في هذا النهار جهادًا مرًا عنيفًا، حتى إنه يصفه فيقول: لقد اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما ثبت في يدي إلا صفيحه يمانية.

وعندما أقبل المساء ابتدأ خالد عليه السلام بالانسحاب وأخذ يتراجع في حيلة وحذر حتى استطاع أن يعود بجيشه إلى المدينة بعد جهاد جبار.

وهكذا كان لخالد عليه السلام الفضل الأكبر في إنقاذ ثلاثة آلاف رجل من المسلمين من بين يدي مائتي ألف رجل من جنود الروم ولولا حكمة خالد عليه السلام في الارتداد، وإدارته دفة المعركة بنفسه لفني الجيش كله، ولكان للتاريخ بعد ذلك غير الذي نراه، ولكن الله سلّم. [خالد بن الوليد عليه السلام لإبراهيم ٣٦-٣٩].

٢١ - الإشادة بالجنود الذين يُظهرون كفاءة عسكرية نادرة لحضر غيرهم على المضي في ذلك:

يقول د/ الرشيد: «عندما عاد جيش مؤتة إلى المدينة لقي المقاتلون عنتًا ومشقة من أهلهم وذوهم، حيث استقبلوهم بعبارات التبكيت (التبكيك: هو التعبير وتقبيح الفعل، مأخوذ من قول العرب: بكت زيدٌ عمرًا تبكيًا، إذا عبره وقبح فعله، وقد يكون التبكيك بلفظ الخبر كما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. فهو إنما قال ذلك تبكيًا وتوبيخًا على عبادتهم للأصنام، ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ١/ ٦٥) والتشهير بقولهم: يا فرارا! أفررت من سبيل الله؟

وذلك لاختلال موازين النصر والهزيمة عند أولئك المستقبلين، فقد ظنوا أن مفهوم الهزيمة يعني الفرار من ميدان المعركة، ولكن الرسول ﷺ وَرَنَ هذه المعركة وقائدها بالميزان الصحيح الذي ينبغي أن تُوزن به المعارك العسكرية وقادتها.

أما ميزانه ﷺ لهذه المعركة فهو مستمد من كتاب الله ﷻ، ولذلك سباهم «الكرارون أو العكارون»، ومعنى ذلك: أنهم متحيزون إلى فئة، وذلك لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ١٥﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُمْ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِّقَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَيْكَ فَنَشَقَّكَ بَاءً يَعْضِبُ مِنْكَ اللَّهُ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَيَسُوسُ الْمَصِيرُ ١٦﴾ [الأنفال].

قال ابن كثير رحمته عند قوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾: (أي: فر من ههنا إلى فتنة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه، فيجوز له ذلك حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة). [تفسير ابن كثير ٢/ ٢٩٣].

وبعد النظر إلى هذه المعركة بالميزان الصحيح فإنه يتبين أن المسلمين لم ينهزموا، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: أن انسحابهم كان إلى مركز القيادة لإعادة ترتيب قواتهم وتنظيم جيش مناسب في العدد والعدة على ضوء إمكانات العدو واحتياجات المعركة للقاء آخر.

ثانياً: أنه كان في استطاعة المسلمين - لو أنهم أرادوا الفرار - أن يتركوا أرض المعركة ليلاً عندما توقف القتال، ولكن إصرارهم على البقاء يؤكد رفضهم للهزيمة.

ثالثاً: أن عدد جيش الروم يفوق عدد جيش المسلمين سبعين مرة تقريباً، ومع وجود هذا الفرق العظيم بين القوتين فقد كان عدد شهداء المسلمين (١٢) اثني عشر رجلاً، بينما قُتل من الروم خلق كثير، كما يقول ذلك العلامة ابن كثير رحمه الله.

أما تقييم الرسول ﷺ لقائد هذه المعركة الذي استطاع بعبقريته العسكرية الفذة أن ينقذ جيش المسلمين من هلاك محقق فهو أمر يدعو إلى العجب، فقد أشاد بكفاءة خالد رضي الله عنه العسكرية التي برزت في هذه الموقف الحرج، فأطلق عليه ذلك اللقب العسكري الرفيع: «سيف الله المسلول»، وهو منسحب من مؤتة على رأس جيش المسلمين، وهذه أول معركة يشترك فيها ﷺ بعد إسلامه بشهرين أو ثلاثة.

وقد حرص ﷺ على ألا يدع هذا الموقف يقضي على المستقبل العسكري لقائد لديه من المواهب والقدرات ما يجعله كفوئاً لتولى قيادة المعارك الحربية الكبرى.

ولقد أتى هذا التشجيع ثماره الطيبة، فقد شهد التاريخ العسكري لخالد بن الوليد رضي الله عنه بالقيادة الحربية المتميزة، حيث وضعت أعماله العسكرية الرائعة في عداد كبار القادة العسكريين في تاريخ الإسلام.

[ينظر: المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية ص ٣١٧، ٣١٨].

وينبغي أن يستفيد كل القادة العسكريين - على اختلاف رُتبهم - من هذا الدرس النبوي البليغ، فيشيدوا بكفاءة كل من أظهر بسالة عسكرية، من مرؤوسيه، ففي ذلك تحقيق مصلحتين عظيمتين:

الأولى: تشجيع هذا الرجل الذي ظهرت كفاءته؛ حتى يكون ذلك حافزاً له على العطاء المتواصل في الجانب العسكري.

الثانية: شحذ همم الآخرين إلى التفكير المثمر الذي يعود على جيوش المسلمين بالعزة والمنعة.

[القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٥٤٥-٥٤٧].

٢٢ - احترام القائد من أهم عوامل النصر:

يقول د/ أبو خليل: «إن القاتل استحق السلب، ويجوز أنه أخذه فيها بعد، وإنما أخره تأديباً لعوف ﷺ حين أطلق لسانه في خالد ﷺ، وانتهك حرمة، وتطییماً لقلب خالد بن الوليد ﷺ بعد تجرؤ عوف ﷺ عليه، مع ما في تأخير دفعه من إكرام الأمير، والطلب منه باحترام وتأدب». [غزوة مؤتة لأبي خليل ١٤٠].

٢٣ - روح القتال في ضمير أمتنا:

يقول د/ عمارة: «إذا كان لكل أمة تاريخ تستعيده وتتغنى بذكره، فإن لنا نحن المسلمين تاريخاً حافلاً بمعاني التضحية، والعدل والصبر.

هذه الفضائل التي استصحبها أمتنا في كفاحها الطويل ضد الباطل، فدوّخت في حالتها النصر والهزيمة معاً: إذا لم تستكمل عدتها يوماً فلم تكسب الجولة، كان معها الصبر يربط على قلوبها، والثقة بالنفس التي تمسك الإرادة أن تذوب في غمرة اليأس.

ثم عادت من تجربتها على وعي كامل بما تلقت من دروس تُعدها للنزال من جديد، وإذا جاءها نصر الله والفتح، وجدت في طبيعتها فضيلة العدل الذي يستقيم به وجودها، فلم يُطغها النصر، كما لم تمتها الهزيمة.

أي أن انتصارها يكون وسيلة لا غاية: وسيلة تعبد الطريق إلى أعماق النفوس التي يرونها ما تراه من عدل لم تسمع عنه من قبل، فتدخل في دين ظلمه حُساده فحاولوا تشويه طبيعته التي تتألق اليوم.

وهذا بعض ما يشير إليه قول الحق سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر].

وفي مجال التطبيق نرى في غزوة مؤتة شاهداً يبين كيف استطاع المسلمون في مدة وجيزة أن يُحوّلوا الهزيمة إلى نصر، حين فتحو مكة، ولم يكونوا في أيام النكسة بأقل روعة منهم، ولقد عاد الجيش من مؤتة منسحباً دون أن يحقق نصراً.

وخرج الشباب منفعلًا يرمي العائدين بالتراب قائلاً: يا فرار! فررتم في سبيل الله، فيقول الرسول ﷺ: «لَيْسُوا بِالْفَرَارِ وَلَكِنَّهُمْ الْكِرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى».

إن الرسول ﷺ - من موقع المسؤولية الأولى - ينفي تهمة الفرار، بل يؤكد للشباب أنهم الكرار أبداً. فحيث عاد الجنود بأنفسهم صالحة لم يقتلها اليأس، رغم فقدان قوّاد الجيش، فهم مستعدون لجولة أخرى يستعيدون ما فاتهم، إذ استمسكهم بمبادئهم وسط المعركة الطحون لون من الانتصار.

ولقد مهّد للنصر المبين حين فتح المسلمون مكة دون مقاومة تُذكر بعد عودتهم من مؤتة بأشهر قليلة، لكن هذا النصر لم يأت عبثاً، بل كان نتيجة لازمة لإصرار المسلمين على موقفهم وقبولهم التحدي إزاء المشركين.

ولقد كان المظنون - أخذًا بظواهر الأشياء - أن يسعى المسلمون إلى الصلح في وقت الهزيمة. وإن تعجب فعجب أن يحدث عكس ذلك تمامًا: جاء بُدِيل بن ورقاء يطلب عون الرسول ﷺ لأن قريشًا نقضت عهده فاعتدت على خزاعة.

وأوفدت قريش «أبا سفيان» إلى الرسول ﷺ فقابل «بُدَيْلًا» في الطريق، وسأله أبو سفيان عما إذا كان قد أخبر محمدًا ﷺ، ولما نفى ذلك لم يسعه إلا أن يذهب إلى مبرك راحلة «بديل» فتحسس روثها، فلما وجد فيه «نوى» المدينة قال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدًا!

وتصوروا معي سيدًا من سادات قريش بذل كبريائه إلى حد يللم ثيابه بين الروث المبعثر بحثًا عن شاهد يؤيد لقاء بديل بمحمد ﷺ؛ لتروا خوف القوم من المسلمين في وقت هم المغلوبون فيه، ذلك بأن قريشًا لتعلم من أمر المسلمين ما يورق ليلها.

وتابع أبو سفيان سيره إلى المدينة للمفاوضات والصلح مع الرسول ﷺ. ودخل على ابنته «أم حبيبة» فرفضت أن يجلس أبوها على فراش رسول الله ﷺ؛ لأنه طاهر لا يجلس عليه مشرك نجس ولو كان أبها!

فلما انتقل إلى الرسول ﷺ وكلمه، لم يتلق منه كلمة واحدة. وكان يكفيه ذلك مُسَوِّغًا للعودة من حيث أتى، لكنه الرعب القاتل يدفعه ليستمّر في محاولات يائسة: ذهب إلى أبي بكر ﷺ يلتمس لديه الشفاعة، ثم يتجه إلى عمر ﷺ ليقول له: أشفع لكم عند رسول الله ﷺ؟! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به!

وتنتهي المحاولة بما يكشف عن الهلع الأخذ بمجامع الرجل حين يطلب من فاطمة بنت الرسول ﷺ أن يتدخل ابنها الصغير «الحسن» ليقوم بدوره في الصلح!؟

فانظر كيف خرج الشباب منفعلين بأحداث تتعلق بمستقبل أمتهم، وكيف استمعوا إلى رأي القائد المؤمن الذي يرى من موقعه رقعة أوسع.

والذي لم يعترض عليهم في موقفهم، لكنه فقط استبعد أن يكون الجيش العائد قد فقد ثقته بالله وبنفسه، أبدًا، لقد عاد بها، فكانه لم يخسر شيئًا.

بل لقد حقق في الواقع نصرًا بصموده وقبوله تحدي الأعداء. وقد صدّقت الأيام ظن الرسول ﷺ، فأسلم أبو سفيان إسلامًا كان بداية لعهد جديد، تفرّد فيه الإسلام بالسيادة على الجزيرة العربية، بفضل هذه الإرادة الصلبة، وبدافع من الثقة المتبادلة بين القائد والجنود، على نحو فوّت على الأعداء غرضهم في تفريق الصف الواحد، والله غالب على أمره.

[تأملات في السيرة النبوية لعامة ٢٥٨-٢٦٠].

٢٤ - تمييز هذه المعركة عن سائر المعارك:

يقول د/ أبو فارس: «هذه المعركة يبدو لي أنها متميزة عن سائر المعارك والسرايا التي خاضها المسلمون، فهي الواقعة الوحيدة التي جاء خبرها من السماء، إذ نعى النبي ﷺ الأمراء الثلاثة قبل أن يصله الخبر من أرض المعركة، بل وحدث المسلمين في المدينة عن أحداثها. وتمتاز أيضًا عن غيرها بأنها الواقعة الوحيدة التي اختار النبي ﷺ لها ثلاثة أمراء على الترتيب: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٦].

ويقول أ/ يونس: «إن معركة مؤتة كانت مفترق الطرق بالنسبة للدعوة الإسلامية. وهي أول معركة يحتك بها السيف الإسلامي بسيف الروم. وكانت أول غزوة خارج حدود الجزيرة العربية. وكانت الامتحان الصعب لصلابة الدعوة وقدرتها على التصدي والتحدي معاً». [الاستخبارات في غزوات الرسول ﷺ ليونس ١٥٥-١٥٦].

٢٥ - أهمية هذه المعركة:

يقول د/ أبو فارس: «يبدو لنا أن هذه المعركة تعتبر من أهم المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين النصارى الصليبيين من العرب والعجم؛ لأنها أول صدام مسلح ذي بال بين الفريقين، وسيكون له من الآثار والنتائج القريبة والبعيدة التي تؤثر في مستقبل الفريقين في هذه المنطقة، فإما أن تتحرر هذه المنطقة من استعمار الرومان الصليبيين وعملائهم العرب أو تبقى تحت نير استعمارها. والدارس لهذه المعركة وآثارها يدرك أنها كانت مقدمة لفتح بلاد الشام وتحريرها من الرومان، إذ تغلبت الفئة المؤمنة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة، وأعطت فكرة عن الروح المعنوية العالية في القتال عند المسلمين، كما أبرزت ضعف الروح المعنوية في القتال عند الجندي الصليبي».

[الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٦٣-٦٤].

«كما أعطت فرصة للمسلمين للتعرف على حقيقة قوات الروم، ومعرفة أساليبهم في القتال». [السيرة النبوية للصلاحي ٢/ ٤٣٤].

ويقول أ/ يونس: «وإذا كان الاستكشاف لطبيعة الأرض التي بها العدو والتعرف على مواقع الأعداء من طبيعة عمل الاستخبارات فإن غزوة مؤتة كانت بمثابة دورية استكشافية أمامية ترسلها الدعوة الإسلامية لاستكشاف مواقع الأعداء خارج حدود الجزيرة العربية، وأفادت المسلمين كثيرًا في معرفة خواص قوات الروم، وأساليب قتالها، فأفادوا من هذه المعلومات في قتالهم بعد ذلك للروم».

[الاستخبارات في غزوات الرسول ﷺ ليونس ١٥٦].

٢٦ - قتلى الفريقين في معركة مؤتة:

يقول أ/ باشميل: «ما لا جدال فيه والذي أجمع عليه المؤرخون هو أن معركة (مؤتة) من أعنف المعارك - بل هي أعنف معركة خاضها المسلمون في العهد النبوي - فقد التقى فيها ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين بمائتي ألف مقاتل ظلوا يروحونهم ويغادونهم القتال طوال ستة أيام كاملة. ولا أدل على عنف المعركة وضراوتها من استشهاد قادة الجيش الإسلامي وأمرائه الثلاثة، ومقتل قائد أعراب النصارى مالك بن زافلة الذي كان يقود مائة ألف منهم.

لقد اندقت في يد قائد الجيش خالد بن الوليد رضي الله عنه - كما ذكر البخاري في صحيحه - تسعة سيوف، وهذا يدل على عنف المعركة وضراوة القتال وأن عدد القتلى بين الفريقين كان كبيراً. كما أن سياق المؤرخين يدل على أن الجيش الإسلامي أنزل بالجيش الروماني وأتباعه من المرتزقة من خليط الأعراب أشنع هزيمة شهدها جيش، وهذا يعني أن قتالاً ضارياً دار سجالاتاً بين الفريقين. كما يدل هذا السياق أيضاً على أن المسلمين نزلت بهم هزيمة في مؤتة لم يعرفوا مثلاً في تاريخهم في تلك الحقبة من الزمن، حتى أنقذ خالد بن الوليد رضي الله عنه الموقف، وبحيلة حربية وخدعة عسكرية بارعة أوقع في صفوف الجيش الروماني خسائر فادحة. وإليك مقاطع من أقوال المؤرخين وأصحاب السير والمغازي التي تدل - ولا بد - على أن خسائر الفريقين في معركة مؤتة كانت كبيرة جداً:

(١) قال ابن سعد: «ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وطاعن حتى قتل، ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى لم أر اثنين جميعاً... فأخذ خالد رضي الله عنه اللواء ثم حمل على القوم، فهزمهم الله تعالى أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا». [الطبقات الكبرى ٢/ ١٢١].

(٢) روى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: سَمِعْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ رضي الله عنه يَقُولُ: لَقَدْ انْقَطَعَتْ [دُقٌّ] فِي يَدَيَّ يَوْمَ مُؤَتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ [وَصَبْرْتُ] فِي يَدَيَّ إِلَّا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ.

[البخاري في المغازي (٤٢٦٥، ٤٢٦٦)].

قال ابن كثير: «وهذا يقتضي أنهم أثنوا فيهم قتلاً، ولو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلص منهم». [البداية والنهاية ٤/ ٢٤٩].

(٣) يصف الواقدي ضراوة معركة مؤتة، بعد أن كشف الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة عن مكانها، وقد أخذ خالد رضي الله عنه الراية وتولى القيادة: «الآن حَيَّيْ الْوَطِيسُ»، وهو تعبير عن عنف القتال وضراوته، وقد عبّر به صلى الله عليه وسلم عن اشتداد الجَلاد في معركة حنين.

(٤) وفي رواية الزهري وموسى بن عقبة: فانطلقوا حتى إذا لقوا ابن أبي سبرة الغساني بمؤتة وبها جموع من نصارى العرب والروم بها تنوخ وبهراء فأغلق ابن أبي سبرة دون المسلمين الحصن ثلاثة أيام، ثم التقوا على زرع أحرر فاقتلوا قتالاً شديداً. [البداية والنهاية ٤/ ٣٤٨].

(٥) روى الواقدي بسنده «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: شَهِدْتُ مُؤْتَةَ، فَلَمَّا رَأَيْنَا الْمُشْرِكِينَ رَأَيْنَا مَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ مِنَ الْعَدُوِّ وَالسَّلَاحِ وَالْكِرَاعِ (يعني الخيل)، وَالذِّيَابِ وَالْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ، فَبَرَقَ بَصَرِي، فَقَالَ لِي ثَابِتُ ابْنُ أَقْرَمَ رضي الله عنه: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! مَا لَكَ؟ كَأَنَّكَ تَرَى جُمُوعًا كَثِيرَةً؟! قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: تَشْهَدُنَا بِبَدْرٍ؟ إِنَّا لَمْ نُنْصَرْ بِالْكَثَرَةِ!». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٠].

فمن ثنايا هذا الحديث يفهم أن المعركة كانت رهيبة ضارية.

(٦) قال المقرئ في إمتاع الأسماع ١/ ٣٨٤: «وسقط اللواء - أي لواء المسلمين - فاختلط المسلمون والمشركون، وانهزم المسلمون أسوأ هزيمة (وقُتلوا)، واتبعهم المشركون، فجعل قطبة بن عامر رضي الله عنه يصيح: يا قوم! يقتل الرجل مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً، فما يثوب إليه أحد، ثم تراجعوا فأخذ اللواء ثابت بن أقرم رضي الله عنه، وصاح: يا للأنصار، فأتاه الناس من كل وجه، وهم قليل، وهو يقول: إِلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ، فلما نظر إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: خذ اللواء يا أبا سليمان؟ فقال: لا آخذه أنت أحق به، أنت رجل لك سن، وقد شهدت بدراً، قال ثابت رضي الله عنه: خذه أيها الرجل، فوالله ما أخذته إلا لك، فأخذه خالد فحمله ساعة، وجعل المشركون يحملون عليه فتبث حتى تكركر (كركره عن الشيء: رده ودفعه وحسبه. فتكركر: ارتد) المشركون، وحمل بأصحابه ففض جمعاً من جمعهم، ثم دهمه منهم بشر كثير فانحاش بالمسلمين».

ثم يقول المقرئ: «ثم انكشفوا - أي الرومان - منهزمين فقتلوا منهم مقتلة لم يقتلها قوم».

[إمتاع الأسماع ص ٣٤٩].

(٧) وقال ابن برهان الدين في السيرة الحلبية: أن خالدًا رضي الله عنه لما أصبح جعل مقدمة الجيش ساقية، وساقته مقدمة، وميمته ميسرة، وميسرته ميمنة، فظن المشركون مجيء مدد للمسلمين فرعبوا وانهزموا، فقتلوا قتلة لم يقتلها قوم، وكانت مدة القتال سبعة أيام.

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ رضي الله عنه يَقُولُ: لَقَدْ انْقَطَعَتْ فِي يَدَيَّ يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ [وَصَبْرَتْ] فِي يَدَيَّ إِلَّا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ. [السيرة الحلبية ٢/ ١٩٢].

هذه المقاطع من أقوال المؤرخين وأصحاب الحديث توحى بأن القتال استمر عنيفاً ضارياً بين الفريقين في مؤتة لمدة سبعة أيام، وأن الحرب كانت خلال هذا القتال العنيف الضاري رهيب سجلاً بين المسلمين والرومان، وأن الضحايا من الفريقين كانت طوال الأيام الستة كثيرة دونما شك.

ثم انهزم المسلمون في اليوم السادس - وبعد مصرع قادتهم وأمرائهم الثلاثة - هزيمة منكرة لم يُصابوا بمثلها في العهد النبوي، فقد مزق الرومان صفوف المسلمين إلى درجة أنه لم يُرَ اثنان من الجند مجتمعين، وكان القتل في المسلمين ذريعاً في تلك الفترة الصعبة.

حتى تولى خالد بن الوليد رضي الله عنه قيادة الجيش، وأعاد تنظيمه، فتغير الموقف وتحول ميزان المعركة لصالح المسلمين، حيث شن بهم خالد رضي الله عنه على الرومان وحلفائهم هجوماً معاكساً صاعقاً، فكشفهم وأنزل بهم هزيمة منكرة جعلت جند الإسلام يركبونهم ويضعون فيهم سيوفهم حيث شاؤوا مما مكنهم من أن يصرعوا عدداً هائلاً من جنودهم، وجعل أصحاب المغازي والسير والحديث يصفون ذلك (كما تقدم) بأنه مقتلة لم يقتلها قوم قط.

هذا هو منطوق المعركة كما ورد في مصادر الحديث والتاريخ، ومفهوم هذا المنطوق، وحسب التقديرات والاستنتاجات في العرف العسكري الذي به عادة تقدر حصائل المعارك، لا بد وأن يكون عدد القتلى من الفريقين قد بلغ المئات؛ لأن معركة تستمر بين عشرات الألوف لمدة سبعة أيام وتلك الضراوة والعنف اللذين أجمع المؤرخين وأصحاب الحديث على أنها كانا طابع المعركة منذ بدايتها حتى نهايتها، لا بد وأن تكون الإصابات عبر مراحلها كثيرة للغاية ليس من المستبعد أن تصل حدود الآلاف لا المئات. عدد قتلى الأعداء في مؤتة؛ وإذا كان المؤرخون لم يذكروا سوى هذا العدد القليل من شهداء المسلمين في المعركة، فإنه لم يأت في جميع المصادر - ضمن قائمة ضحايا هذه المعركة الطاحنة - ذكر لعدد قتلى الرومان وحلفائهم سوى رجلين اثنين هما: مالك بن زافلة قائد قوات العرب المنتصرة. فارس روماني لم يذكر اسمه قتله أحد اليمانيين.

وعدد هؤلاء القتلى الذين ذكرهم المؤرخون - سواء كانوا من المسلمين أو الرومان وحلفائهم - لا يتناسب كما قلنا مع ضراوة المعركة وشدة القتال فيها، الذي استمر - بإجماع المؤرخين - عدة أيام. فمما لا جدال فيه والذي تفرض التسليم به حسابات وتقديرات هذه المعركة الضارية العنيفة التي - باتفاق المؤرخين - نزلت فيها بكل من الفريقين - المسلمين أولاً ثم الرومان وحلفائهم ثانياً - هزيمة لم يشهد مثلاً في تاريخه الحربي في تلك الفترة. [مغازي الواقدي ٢/ ٧٦٤، وطبقات ابن سعد ٢/ ١٢٩-١٣٠، وزاد المعاد ٢/ ٢٧٦-٢٧٧، وإمتاع الأسعاع ١/ ٣٤٨-٣٤٩، والبداية والنهاية ٤/ ٢٤٤ وما بعدها].

وحدثت فيها مقتلة لم يعرف الفريقان لها مثيلاً في تلك الحقبة من الزمن، كما صرح بذلك المؤرخون أنفسهم، الذين صرحوا بأن المسلمين (عقب مصرع قادتهم الثلاثة) هُزموا هزيمة لم يروا مثلاً في تاريخهم، وأن الرومان وحلفاءهم (عقب تولى خالد بن الوليد رضي الله عنه قيادة المسلمين) نزلت بهم هزيمة لم يشهدوا لها مثيلاً، وحدثت فيهم مقتلة لم يحدث في قوم مثلاً قط. [المصادر السابقة].

استدراك وتعقيب: إذن فالذي لا يمكن لأي باحث إلا أن يرجحه هو أن عدد ضحايا هذه المعركة الطاحنة (معركة مؤتة) من الفريقين قد بلغ المئات، واقتصار المؤرخين على ذكر أسماء هذا العدد القليل من القتلى لا ينفي هذه الحقيقة التي لا بد من التسليم بها.

فالمؤرخون الذين تحدّثوا عن هذه المعركة الطاحنة لم ينفوا جسامه الخسائر في هذه المعركة وضخامة عدد القتلى فيها، بل أثبتوا ذلك في الجملة بكل وضوح كما تقدم.

ولكنهم كمؤرخين ثقات أمناء يُقدِّرون مسؤولية ما يكتبون للأجيال التي من بعدهم لم يذكروا إلا ما أوصل الرواة إلى علمهم أسماء هذا العدد الضئيل من القتلى، الذين هم - دوننا شك - أقل عشرات المرات من العدد الحقيقي لضحايا هذه المعركة الطاحنة.

وكما قلنا فإن اقتصار المؤرخين على ذكر هذا العدد القليل من شهداء المسلمين ولأقل منه من قتلى الرومان لا ينفي وجود عدد ضخم من القتلى بين الفريقين لم يتمكن أحد من إحصائهم؛ لذلك اكتفى المؤرخون بالإشارة إلى ضخامة عددهم دونما إعطاء تفصيل بأعدادهم وأسمائهم، كقولهم كما تقدم: فكانت الهزيمة وقتل المسلمون واتبعهم المشركون، وكقولهم: لما تولى خالد انكشفت المشركون منهزمين فقتلوا مقتلة لم يُقتلها قوم قط.

ولكن ما بين أيدينا من مصادر تاريخية لا تذكر من قتلى المسلمين سوى عدد قليل.

ذكر الواقدي أنهم ثمانية فقط، وذكر ابن هشام عن ابن إسحاق أنهم اثنا عشر شهيداً، وحسب رواية الواقدي: أربعة من المهاجرين، وأربعة من الأنصار، وحسب رواية ابن إسحاق: أربعة من المهاجرين، وثنائية من الأنصار، وأسماءهم كالتالي:

من المهاجرين: جعفر بن أبي طالب، زيد بن حارثة، مسعود بن الأسود بن حارثة العدوي، وهب بن سعد بن أبي سرح العامري.

ومن الأنصار: عبد الله بن رواحة من الخزرج، عباد بن قيس من الخزرج، الحارث بن النعمان بن أساف من الأوس، سراقه بن عمرو بن عطية من الخزرج، أبو كليب بن عمرو من الأوس، جابر بن عمرو بن زيد من الأوس، عمرو بن سعد من الأوس، عامر بن سعد من الأوس.

هذه هي الأسماء التي ذكر المؤرخين أن أصحابها استشهدوا من المسلمين، ثمانية فقط على ما قاله الواقدي، واثنا عشر على ما ذكره ابن إسحاق، وبقية المؤرخين لا يخرجون عن نطاق هذا العدد.

وهو عدد لا يتناسب وما وصف به المؤرخون - دوننا استثناء - المعركة من ضراوة وعنف وشدة وطول جِلاَد استمرت سبعة أيام متوالية لا يفصل فيها بين عشرات الألوف من المتحاربين إلا ظلام الليل.

ويمكن أن يبرز هنا سؤال وهو: إن عنف المعركة وضرارتها وعدم تمكن الجيش الإسلامي من البقاء في ساحاتها - بعد انتهائها - وقتاً كافياً يمكنه من إحصاء عدد قتلى الأعداء من الرومان وحلفائهم من العرب غير المسلمين، الذين أكد المؤرخون أنه عدد كان ضخماً للغاية، حيث وصفوا بأن مقتلة حدثت فيهم لم يحدث مثلها قط، فلماذا لم يذكر المؤرخون المسلمون سوى عدد قليل من قتلى المسلمين الذين لا بد وأن يكونوا - تناسباً مع طول المعركة وضرارتها وعنفتها - أكثر بكثير من هذا العدد القليل الذي لم يتجاوز الاثني عشر شهيداً على ما جاء في سيرة ابن هشام، وثمانية شهداء على ما جاء في مغازي الواقدي؟ ويمكن الإجابة على التساؤل بما يلي:

(١) إن اقتصار بعض المؤرخين على ذكر هذا العدد القليل من قتلى المسلمين لا ينفي - بصورة قاطعة - أن يكون عدد الشهداء أكثر بكثير من هذا العدد، فأصحاب السير لا يُسجلون في سجلاتهم إلا ما ثبت لديهم من الأسماء.

(٢) يمكن القول أن جمهرة الجيش الإسلامي في مؤتة هم من أبناء البادية من مختلف القبائل الذين لم يكونوا من سكان المدينة المعروفين، بدليل أن قائد ميمنة المسلمين هو رجل من بني عذرة، وهي قبيلة بدوية لم يترجم له أصحاب معاجم تراجم الصحابة سوى قولهم أنه عباية بن مالك العذري رضي الله عنه.

(٣) يتضح للمتبع لمراحل معركة مؤتة أن قادة وزعماء ووجوه المهاجرين والأنصار وأهل السابقة لم يأت ذكر لأسمائهم بين قادة وجنود جيش الإسلام في مؤتة، إذا استثنينا زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وثابت بن أقرم، وخالد بن الوليد رضي الله عنه الذي لم يمض على إسلامه يوم ذاك سوى ثلاثة أشهر، الأمر الذي يعضد القول: أن جمهرة الجيش الإسلامي هم من أهل البادية من مختلف القبائل الذين عمّر الإسلام قلوبهم حديثاً، فحاضوا تلك المعركة الضارية العنيفة الطويلة بتلك الشجاعة والبسالة المتناهيتين.

(٤) من هنا أمكن القول: إن شهداء كثيرين من مختلف أبناء القبائل (البادية) صُرعوا في هذه المعركة الطاحنة، لم يتمكن أحد من هم مرجع لرواة الحديث والسير والتراجم من التعرف عليهم ومعرفة أسمائهم وإحصاء عددهم، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن المسلمين لم يسيطروا على مكان المعركة - بأية صورة من الصور - بعد انتهائها، يمكنهم من التعرف على كل القتلى وإحصاء عددهم، بل كان همهم الوحيد بعد أن صُرع قادتهم الثلاثة، وبعد أن استمر القتال سبعة أيام أن ينسحبوا ببقية الجيش سليماً من الميدان ودونما خسارة تذكر، وهذا هو الذي حدث بالفعل، فبالخذعة الحربية التي ذكرنا تفصيلها فيما مضى من هذا الكتاب تمكّن خالد بن الوليد رضي الله عنه من أن يسحب الجيش الإسلامي ويخلصه من خطر

الإبادة أو الوقوع في الأسر، فترك الميدان للرومان وحلفائهم، فبقي مكان المعركة تحت سيطرة الرومان وحلفائهم، وهؤلاء - لبقائهم مسيطرين على ساحة الميدان بعد انتهاء المعركة وانسحاب المسلمين الذين انسحب بهم خالد رضي الله عنه على عجل وفي حذر شديد - يستطيعون أن يحصوا بحرية ودقة عدد القتلى من الفريقين، ويسجلوهم في سجلات تاريخهم، ولكن ما بين أيدينا من مصادر التاريخ البيزنطي المترجم - وهو شيء قليل جداً - لم نجد فيه أي ذكر لمعركة مؤتة، بل ولا حتى معركة اليرموك التاريخية الشهيرة.

وقد يكون البيزنطيون أرخوا المعركة مؤتة وذكروا تفاصيلها وأعطوا إحصاءً دقيقاً عن عدد قتلى الفريقين، ولكن هذا التاريخ ضاع كما ضاع العنصر - البيزنطي نفسه، وتلاشى بعد أن اختلط وامتزج بسلالات وشعوب أخرى حتى لم يعد له أي وجود كأمة مستقلة، كما هو الحال بالنسبة للعرب.

أما الشهداء الاثنا عشر فكلهم مشهورون معروفون فهم من الأنصار والمهاجرين ومن أهل المدينة، فعندما افتقدهم أهلهم شاع خبر استشهادهم، وسهل على رواة الحديث وكتاب التاريخ والسير أن يسجلوهم في سجلاتهم، لا سيما وأن قطبي تدوين السيرة النبوية - محمد بن عمر الواقدي، ومحمد بن إسحاق - هما من أهل المدينة.

أما الشهداء من أبناء القبائل من أهل البادية - وهم الأكثرون فيما نظن - فلم يكن - بالتأكيد - لشيوع ذكر استشهادهم ما كان لشيوع ذكر استشهاد أهل المدينة من المهاجرين والأنصار؛ لأن ذويهم متشرون متفرقون في نواحي البادية، فصار من الصعب على المختصين في تدوين السير والمغازي من أهل الحاضرة الحصول على أسمائهم وأعدادهم، وليس هناك ديوان إحصاء للجند في ذلك العهد يُسجل فيه المنحطون في سلك الجيش، ثم إثبات أسماء الذين تم استشهادهم في المعركة حتى يحرص ذوو الشهداء من أهل البادية على تسجيلهم في هذا الديوان، ويسهل بالتالي على كتاب السير والمغازي الحصول على أسمائهم وأعدادهم بصورة دقيقة كاملة.

فما لا شك فيه - إذن - أن هناك جنوداً للإسلام مجهولين كثيرين استشهدوا في معركة مؤتة الطاحنة، كلهم من أبناء القبائل البادية، لم يُعرف عددهم ولم تُعرف أسماؤهم للأسباب التي ذكرنا.

هذا مجرد اجتهاد واستنتاج وتقييم جَعَلنا نبدى استساغتنا للقاعدة الفلسفية التاريخية التي وضعها فيلسوف التاريخ والاجتماع الأول الإمام ابن خلدون والتي أخذنا بها، والقائلة - وكما طبقها الإمام ابن خلدون في مقدمته الشهيرة - أن على المؤرخ الباحث أن لا يجمد على النصوص المتعلقة بالتاريخ، بل عليه أن يُقيِّم الأحداث ويزن الأمور بميزان العقل، ويستخرج الحقائق أيضاً من الواقع التاريخي، والتي قد لا تكون النصوص كافية لإثباتها أو استخراجها كلها من واقع الأحداث التي عنها نتحدث.

واستناداً إلى قاعدة الفيلسوف ابن خلدون التي وضعها لتقييم التاريخ واستخدام العقل - بالإضافة إلى النصوص - للغلبة والاستدراك والاستنتاج، أدى بنا الاجتهاد والاستنتاج والمقارنة والتقييم إلى الاعتقاد بأن عدد القتلى التي ذكرتها النصوص في كتب التاريخ - كحصيلة لمعركة مؤتة الفاصلة الرهيبة - لا تتناسب وضراوة هذه المعركة وعنفها والأعداد الهائلة من المحاربين الذين اشتركوا فيها وظلوا يتجالدون فيها طوال عدة أيام، حسبما ذكره وأجمع عليه كافة المؤرخين وأصحاب المغازي والسير. وعلى العموم فإن هذا القول منا هو مجرد نظر واجتهاد واستنتاج، قد نكون مخطئين فيه، والكمال لله وحده هو حسبنا ونعم الوكيل.

تعقيب ابن كثير على عدد قتلى المسلمين في المعركة: ويمكن القول أن إماماً واحداً من أئمة كُتَّاب التاريخ - هو الإمام ابن كثير صاحب أكبر موسوعة في التاريخ وهي البداية والنهاية - قد عقب على قلة عدد القتلى المسلمين في هذه المعركة الطاحنة، فاستعجب أن يكون عدد القتلى اثنا عشر فقط مع ضراوة المعركة وشدتها وضخامة الأعداد الهائلة من المحاربين الذين اشتركوا فيها لعدة أيام، فقال - بعد أن ذكر أسماء الاثني عشر شهيداً من المسلمين وكأنه قد استقل هذا العدد: (وهذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين، أحدهما - وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله - عدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة، وعدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قُتل من المشركين خلق كثير. هذا خالد رضي الله عنه وحده يقول: لقد اندقت في يدي يومئذ تسعة أسياف وما صبرت في يدي إلا صفيحة بيانية.

فماذا ترى قد قتل - أي خالد رضي الله عنه - بهذه الأسياف كلها؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن، وقد تحكموا في عبدة الصليبان عليهم لعائن الرحمن، في ذلك الزمان وفي كل أوان، وهذا مما يدخل في قوله تعالى: ﴿ذَكَرَ لَكُمْ آيَةً فِي فَتْنَةٍ أَلْقَيْنَا فِيهَا تُفَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْأَعْيُنَ وَاللَّهُ يُوَيْدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [١٦] فِي ذَلِكَ لَعْنَةُ لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٧﴾ [آل عمران].

[البداية والنهاية ٤/ ٢٥٩]. [غزوة مؤتة لباشميل ٢٣٢-٢٤٣].

٢٧ - أهمية الشعر في المعركة كوسيلة إعلامية:

يقول د/ عتوم: «للمعركة جانبان: جانب الشوكة وجانب الكلمة، ولا بد لها منهما معاً. فعندما احتدم النزاع بين العسكرين: الإسلامي في المدينة، والمشرک في مكة على المستويين المذكورين، انتدب رسول الله ﷺ مجموعة من شعراء المسلمين للرد على شعراء المشركين، فكانت أشعار: حسان وكعب وعبد الله رضي الله عنه، على مختلف اتجاهاتها تنزل على هؤلاء في هذا الجانب كالصواعق المحرقة، وتدفع

عن المسلمين قذائف القوم المحمومة؛ ولذا كان هؤلاء الشعراء على ثغرة من ثغر الإسلام لم تؤت من قبلهم.

ولقد كان الشعر عندهم - كما أراد الإسلام - شعراً ملتزماً بعقيدة الأمة، وتطلعاتها وسياساتها، لا شعراً غوغائياً عابثاً لاهياً، ومن هنا نجح أيما نجاح في مهمته حتى قال ﷺ عنه: «حَلَّ عَنْهُ يَا عُمَرُ، [فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَلَامُهُ] فَلَهِيَ [فَلَهُو] أَسْرَعُ فِيهِمْ [أَشَدُّ عَلَيْهِمْ] مِنْ نَضَحِ [وَفْع] النَّبْلِ». [الترمذي في الأدب (٢٨٤٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٣، ٢٨٩٣)].

ولقد رافق الشعر الإسلامي بصفته الملتزمة مغازي المسلمين جميعاً.

وفي معركة مؤتة لم يتخلف هذا السلاح عن مهمته ن إذ سمعنا صوته يتردد في جنبات المعركة وبعدها: تذكيراً من الفرسان لأنفسهم ولإخوانهم في اقتحام غمرات الهيجاء، والطيران إلى الجنة، وتخزناً على من صُرع منهم في ساح القتال، نشرًا لأرج أخلاقه وبلائه، ليتأسى بها غيره ويندفع كما اندفع لقتال أعداء الله.

وقد كان شعراء المسلمين الثلاثة: كعب وحسان وعبد الله ﷺ، حاضرين في هذه الغزوة حضوراً واعياً، ولقد بقي صدى هذه الغزوة يتردد في مسامع الزمان على مدى التاريخ الإسلامي تذكُّراً واعتباراً؛ لأن تاريخ هذه الأمة موصولة حلقاته بعضها ببعض، ومما يدل على ذلك ما رأيته من صورة غزوة مؤتة في أشعار بعض الشعراء المحدثين كأحمد محرم وغيره.

[عقد د/ عتوم الفصل الرابع من كتابه بعنوان: مؤتة المعركة: صداها في الشعر من ص ١٧٣ حتى ص ٢٣٠].

ولقد عاش شعراء أحداث أمتنا في صراعاتها مع أعدائها بمختلف مشاربهم طوال العصور، وكان في كل عهوده ملتزماً كذلك، وبرز فيه عدد من كبار الشعراء كأبي تمام وأبي الطيب وأبي فراس وابن القيسراني ومحمود سامي باشا البارودي، وكان هذا الشعر صادقاً في تصويره لهذا الأحداث صدقاً فنياً وخُلُقياً، بعيداً عن الأسطورة التي كانت طابع الأشعار الملحمية عند الأمم الأخرى ولا سيما اليونان في ملحمتهم: الإلياذة والأوديسة.

وكان قادة هذه الأمة في شتى العصور يهشون للشعر والشعراء، ولا سيما في هذا الجانب، ويكرمون وفاداتهم، ويجزلون أعطياتهم، إلى درجة أنني لا أكون مبالغاً إذا قلت: إنه لم تشجع سلطة الشعر وترعاه كما شجعت السلطة الإسلامية متمثلة برسول الله ﷺ في صدر الإسلام، إذ كان يفسح لهؤلاء الشعراء مكاناً رحباً من صدره أو صدر مسجده، حتى إنه أقام لحسان ﷺ منبراً بجانب منبره لينشد عليه أشعاره في الرد على شعراء المشركين، وكان يقول له: «اهْجُهمْ أَوْ هَاجِهمْ وَجَزِيلُ مَعَكَ».

[البخاري في الخلق (٣٢١٣)، وفي المغازي (٤١٢٣)، وفي الأدب (٦١٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة ﷺ (٢٤٨٦)، ومسند أحمد ٣٠/٦٠٢، ٦٢٣ رقم ١٨٦٥٠، ١٨٦٨٩، ١٨٦٩٠].

وإذا كان أكبر دعاة الالتزامية في الأدب في العصر الحديث الكاتب الفرنسي (جان بول ساتر) زعيم مذهب الوجودية، يحصر الالتزام الفني في النثر، إذ لا يرى في الشعر قدرةً على الإفادة في هذا الجانب؛ لأنه كالجواد الشموس تعسر السيطرة عليه لخدمة مبادئ الشعب وتوجهاته، شأنه في ذلك شأن الفيلسوف اليوناني القديم أفلاطون الذي أخرج الشعراء من جمهوريته؛ لأنهم - في رأيه - غير واقعيين، فإني أقول بأن الإسلام لا ينظر إلى الشعراء ابتداءً هذه النظرة المزدرية، بل يقدر كل شيء بقدره، ولقد حل هذه المشكلة إلى شوهدت نظرة بعض مفكري الغرب إلى الشعراء، برسمه لهم دائرة واضحة محكومة أطرها بمبادئه السامية في الحق والخير والجمال؛ ولذا كانت نظرتهم إليهم أكثر منطقية وواقعية قديمًا وحديثًا من نظرات الآخرين؛ لأن ميزانه أسلم من موازينهم.

صحيح أن تأثير اللسان قد يكون أقل شأنًا من تأثير السنان في المعركة، إذ هذا أكثر حسماً من ذاك كما قال أبو تمام في ملحمة عمورية: (السيف أصدق إنباء من الكتب)، وأن بعض الشعراء هم قوالون لا فعالون كما قال أحدهم لما سمع بتهديد الفرزدق لمربع: (أبشر بطول سلامة يا مربع)، وأن بعضهم يتواضع فلا يعد شعره - في هذا المجال - سوى بضاعة مزجاة كما نلمحه من أبيات أحمد محرم في غزوة مؤتة، إذ يرى أن سلاحه في هذه الناحية قليل، إذا ما قارنه بما بذله أبطال المعركة، يقول مناجيًا نفسه أثناء خطابه لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه في معركة مؤتة:

فَلَمْ أَصِبْ فِيهِ أَمَالِي وَلَمْ أَنْلِ	فَنَعْتُ بِالشَّعْرِ أَغْزُوَ الْمُشْرِكِينَ بِهِ
أَبْقَى وَأَنْفَعُ لِي مِنْ هَذِهِ الطُّوْلِ ^(١)	لَقَطَرَةٌ مِنْ دَمِي فِي اللَّهِ أَبْذُلُهَا
وَلَيْسَ لِي مِنْ عَوَالِيهَا سِوَى الْعَطْلِ ^(٢)	تَقَلَّدَ الْقَوْمُ مِلَّةَ الدَّهْرِ مِنْ شَرَفٍ

صحيح ذلك، ولكن لا بد ما ليس منه بد، فالكلمة تحتاج إلى كلمة والسيف يحتاج إلى السيف، فإن عكس الحال من سوء الاستعمال كما قال أبو الطيب المتنبي:

وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا مُضَرٌّ كَوْضَعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

[ديوانه - شرح العكبري، تحقيق مصطفى السقا وزميله ١/ ٢٨٨].

وهذا أحمد محرم نفسه بعد تواضعه السابق، يعود فيقرر أنه وإن حُرِمَ القتال في ميدان الصيال، إلا أنه يقدم خدمة جلى لبني أمته، جاوز بها - بفضل الله المتعال - الآمال.

(١) الطُّول: القصائد الطوال.

(٢) الغوالي: الجواهر جمع غالية. العطل: الخلو من الزينة.

إِنْ شَاءَ رَبِّي حَبَانِي مِنْ ذَخَائِرِهَا أَغْلَى الْحَلَى وَكَسَانِي أَشْرَفَ الْحَلَلِ^(١)
 الْحَمْدُ لِلَّهِ أَجْرَى النُّورِ مِنْ قَلَمِي هُدًى لِقَوْمِي وَعَافَانِي مِنَ الْخَبَلِ^(٢)
 أُوتِيتُ مَا جَاوَزَ الْأَمَالَ مِنْ أَدَبٍ عَالِي الْجَلَالِ مَصُونٍ غَيْرِ مَبْتَدَلٍ^(٣)

ونحن اليوم، إذ نشهد صراعاً مرّاً بين أمتنا وأعدائها في الشرق والغرب، ونعيش محنة الأندلس الثانية: فلسطين التي احتلها الصهاينة، وهي على مرمى العصا من (مؤتة)، كما نطالب بحشد الجهود للمعركة مادياً ومعنوياً، نطالب في الوقت نفسه بأن ترتفع الكلمة في أدينا العربي، ولا سيما الشعر منه إلى مستوى الفضية، فتكون كلمة صادقة، هادفة ملتزمة، حارة، تخرج من قلب مؤمن يعي أحداث التاريخ، ويفتح عينيه على الواقع، ويغرف في معانيه وألفاظه من تراث أمته ولغتها، ولا يقيّمش أفكاره وتعبيره عن موائد الأمم المعادية، وبذلك يكون شاعر مقاومة حقاً، ينظر إلى فلسطين على أنها بلد مقدّس، لا حبل غسيل منشور فوق سطح عمارة!!

بهذا - وحده - قد نرتفع إلى مستوى الأحداث، ونطمع بالتقدم نحو الأهداف، ونطمح إلى صناعة (مؤتة) جديدة، وإلا فسنبقى في الحضيض نهدي، ونغط في رقاد راقد». [تجربة مؤتة لعنوم ٢٧٤-٢٧٨].

(١) الحلي: الزينة. الحلل: الملابس الفاخرة.

(٢) الخبل: الفساد، وقيل: الغباء.

(٣) الجلال: العظمة. مبتدل: مهان.

المبحث السادس

الدروس الدعوية

١ - إظهار القوة لإرهاب العدو ومن يناصره:

يقول د/ زيدان: «إن إرسال النبي ﷺ ثلاثة آلاف مقاتل إلى خارج المدينة وبعيداً عنها إلى مشارف الشام حيث يحكم الرومان، وحيث توجد كيانات من القبائل العربية المنتصرة والمتعانة، بل والعميلة للرومان وحكامهم في الشام، أقول: إن إرسال النبي ﷺ هذا الجيش لم يكن فقط بسبب قتل مبعوثه من قِبل أحد الحكام العرب على اللقاء ومن أرض الشام من قِبل قيصر الروم، وإنما انضمت إلى هذا السبب أمور أخرى تستدعي إرسال جيش المسلمين إلى تلك النواحي، ومن هذه الأمور إرهاب القبائل العربية الممتدة ما بين حدود الشام والمدينة، والحكام المنصوبين من قبل الرومان، والذين يتربصون بالمسلمين، فكان لابد من إرهاب هؤلاء جميعاً والتحرك نحوهم، وعدم انتظارهم حتى يأتوا إلى غزو المسلمين في عقر دارهم.

ويستفاد من هذا أن لا قرار ولا استقرار للحق وأهله ما دام هناك باطل يتحرك أهله للإجهاز على الحق، والحق الوحيد الخالص هو الإسلام، وهذا ما يُخيف أهل الباطل، ويجاولون ضرب الحق وإخفات صوته بضرب حَمَلَة الحق والداعين إليه.

وهذا الذي أقوله ينطبق على الدول الباطلة الكافرة في نظرتها وتخوفها من الدولة المسلمة؛ ولذلك فهي تتربص بها وتسعى للإجهاز عليها.

كما ينطبق ما قلته على الجماعات المبطلة في نظرتها إلى الجماعة المسلمة وأعضائها من الدعاة العاملين.

كما يشمل ما قلته على الأفراد الكفرة في نظرتهم إلى الأفراد المسلمين.

وعلى هذا فعلى أمير الجماعة المسلمة أن يفقه ما قلته، فلا ينتظر أن يهاجمه الأعداء بل عليه أن يريهم قوته وقوة جماعته؛ ليرهبهم ذلك فلا يفكرون في التحرش بالدعاة وجماعته». [المستفاد لزيدان ٢/ ٣٨٤].

٢ - تأمير أكثر من أمير:

يقول د/ زيدان: «وعلى أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يختار مَنْ يخلفه، ومن يخلف خليفته الأول، وذلك على وجه الحيلة والحذر من حدوث فراغ مفاجئ في قيادة الجماعة لأي سبب كان، مما يُزعزع كيان الجماعة، ويجعل اختيار أمير جديد في حالة فراغ منصب الأمير المفاجئ أمراً صعباً، ونحبذ أن يكون اختيار مَنْ يخلف الأمير الحالي عن طريق مشاورة أهل الحل والعقد.

وكذلك ينبغي لأمر الجماعة عند تكليف جماعة من الدعاة بعمل ما أن يؤمّر عليهم أميراً يخلفه ثان وثالث حسب ترتيب الأمير، ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فقد أُمّر على الجيش الذي أرسله إلى مؤتة ثلاثة أمراء يتولون أمر الجيش بالترتيب الذي أمر به رسول الله ﷺ. [المستفاد لزيدان ٢/ ٣٨٥].

٣ - الدعوة إلى الإسلام هدف من أهداف الجهاد:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان النبي ﷺ يوصي الجيوش التي يرسلها بدعوة الناس إلى الإسلام وتناسي الجرائم التي اقترفوها إن هم أجابوا إلى دعوة التوحيد ودخلوا في الإسلام وافرين. لقد اقترف الملك الغساني النصراني الصليبي وقومه جرائم في حق المسلمين ومنها الاعتداء على حياة سفير رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي ؓ ومع هذا فقد أمرهم رسول الله ﷺ أن يتناسوا آلامهم ويضمدوا جراحهم، ويفضلوا دعوة الناس إلى الإسلام على الانتقام وتأديب المعتدين». [الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ٣٥-٣٦].

٤ - وصية الأمير لمن يؤمّرهم بتقوى الله:

يقول د/ زيدان: «وعلى الأمير أن يوصي من يؤمّرهم على الجماعة التي يكلفها بالقيام بعمل من أعمال الدعوة بتقوى الله، وإخلاص العمل لله، وبالرفق بمن هم تحت إمرته، وأن يعرفهم بما هو مطلوب منهم، وما يحتاجونه للقيام بما كُلفوا به، وما يجب عليهم أو يندب أو يحرم أو يكره أو يباح في قيامهم بما هو مطلوب منهم، وأن يحرص مع جماعته على الوفاق وعدم الاختلاف، وأن يحسن هو وجماعته القيام بدعوة الناس إلى الإسلام، ويجمع بين التبشير والإنذار، وهذا كله يُستفاد من سنة النبي ﷺ في وصايا لمن كان يرسلهم ويؤمّرهم على السرايا والبعوث التي كان يرسلها، من ذلك:

أ - عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ ؓ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْ صَاةٍ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... إلخ». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأبو داود في الجهاد (٢٦١٢، ٢٦١٣)، والترمذي في السير (١٦١٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨)، ومالك في الموطأ كتاب الجهاد باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، والدارمي في السير (٢٤٤٢)، ومسند أحمد عن بريدة الأسلمي ؓ رقم ٢٢٤٦٩، ٢٢٥٢١].

وقال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: (في الحديث فوائد: (ومنها) استجاب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى، والرفق بأتباعهم وتعريفهم ما يحتاجون في غزوهم، وما يجب عليهم وما يحل لهم وما يحرم عليهم وما يكره وما يستحب).

ب - عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ؓ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا».

[مسلم في الجهاد والسير (١٧٣٢)، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٤)، ومسند أحمد ٣٢/ ٣٤٢ رقم ١٩٥٧٢].

وجاء في شرحه للإمام النووي: (جمع في هذا الحديث بين الشيء وضده: التبشير والتنفير، والتيسير والتعسير؛ لأنه قد يفعلها في وقتين، فإن اقتصر على (يسروا) لصدق ذلك على من يسّر مرة أو مرات، وعسّر في معظم الحالات، فإن قال: (ولا تعسروا) انتفى التعسير في جميع وجوهه وهذا هو المطلوب. وفي هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه، وجزيل عطائه، وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة - أي فقط - من غير ضمها إلى التبشير.

وفي الحديث أيضًا تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليه، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ ومن تاب من المعاصي، فهؤلاء كلهم يُتَلَطَّف بهم، ويدرجون في أنواع الطاعة قليلاً قليلاً، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدرج، فمتى يسر على الداخل في الطاعة أو المريد للدخول فيها سهلت عليه، وكانت عاقبته غالباً التزايد منها، ومتى عسرت أو شك أن لا يدخل فيها، وإن دخل أو شك أن لا يدوم أو لا يستحلبها).

فعلى أمير الجماعة المسلمة أن يوصي الدعاة ومن يؤمّره عليهم الأخذ بالرفق في الدعوة وعدم تنفير الناس منها، وأن يجمع بين التبشير والإنذار، وأن يأخذ المدعوين بالتدرج في تحلّهم على الطاعة بأن يأمرهم بالواجبات أولاً، حتى إذا استقاموا عليها ندهم إلى المندوبات، وأن يأمرهم بترك المحرمات، فإذا استقاموا عليها ندهم إلى ترك المكروهات، وأن يترفق بمن أسلم حديثاً أو بمسلم عاصٍ تاب حديثاً، فيأخذ بها قاله الإمام النووي رحمه الله.

ج - عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا، وَتَطَاوَعًا وَلَا تَخْتَلِفًا». [البخاري في الجهاد (٣٠٣٨)، وفي المغازي (٤٣٤١، ٤٣٤٢، ٤٣٤٤)، وفي الأدب (٦١٢٤)، وفي الأحكام (٧١٧٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٣)، ومسند أحمد ٥١٨/٣٢ رقم ١٩٧٤٢].

قال الإمام النووي: وفي هذا الحديث وصية الإمام لولاته وإن كانوا أهل فضل وصلاح كمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما.

وقال ابن حجر العسقلاني: أي توافقا في الحكم ولا تختلفا؛ لأن ذلك يؤدي إلى اختلاف أتباعكم، فيُفضي إلى العداوة ثم المحاربة، والمرجع في الاختلاف إلى ما جاء في الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُمْ فِي شَيْءٍ فَرَءُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء].

وفي الحديث الأمر بالتيسير في الأمور والرفق بالرعية وتحبيب الإيوان إليهم وترك الشدة؛ لثلاث تنفر قلوبهم ولا سيما فيمن كان قريب العهد بالإسلام، أو قارب حدّ التكليف من الأطفال؛ ليتمكن الإيوان من قلبه ويتمرن عليه، وكذلك الإنسان في تدريب نفسه على العمل إذا صدقت إرادته لا يشدد عليها بل يأخذها بالتدرج والتيسير، حتى إذا أنست بحالة وداومت عليها نقلها إلى حالة أخرى.

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣٨٥-٣٨٧].

٥ - أين وصية رسول الله ﷺ بدعوتهم إلى الإسلام؟:

يقول د/ العتوم: «كان من أولى وصاياه ﷺ لقادة هذه الحملة أن يدعوا الناس هناك للإسلام، فإن أجابوهم فإخوانهم في الدين لا قتال ولا خصام، فما الذي حدث لهذه الوصية، وأين غابت، فلم يعد لها ذكر من بين أحداث الواقعة؟! لا مراء أن المسلمين يقدّمون - في سياساتهم الانتشارية - البيان على السنان، ولا شك أن هذه الوصية كانت جد حاضرة في أذهان قادة الحملة وبقية جندها، وهم يتقدمون لأرض مؤتة، وكان بودهم أن يحققوها، وأن لا يكون قتال، ولكن الروم قطعوا عليهم الطريق، فقطعوا على أنفسهم وعلى الناس قنوات الخير، فتمروا وجمعوا جموعهم التي تغطي عين الشمس، وأعجلوا المسلمين عن تنفيذ وصية نبيهم، وعندها لم يجد المسلمون بُدًا من القتال الذي شغل وقتهم وجهدهم وملاً عليهم هدفهم ومطمحهم الكبير وهو الدعوة إلى الله، وهذا وُزِرَ تحمله الدولة الرومانية في ذلك الوقت، ولا سيما هرقل وبطارقه وكهنته.

وهو ما أنذرهم به محمد ﷺ إن رفضوا الإيمان بفحوى رسالته إليهم: فإن أبيت فإن عليك إثمك وإثم الأكارين، أي إثم شعبك.

لقد شغل الروم المسلمين عن تأدية مهمتهم الأولى، كما شغلت فريضة رسول الله ﷺ عن صلاة العصر إثر غزوة الخندق، فدعا عليهم: «سَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ وَيُوتِيَهُمْ أَوْجَافَهُمْ نَارًا» [مسند أحمد ٢/ ٣٠٤ عن علي ؓ رقم ١٠٣٦، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير شير بن شكل فمن رجال مسلم]، وكأني بقول الله ﷻ يُعَالِنُ بِهِ الرُّومَ قَائِمٌ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ حِينَ التَّقْيَا: ﴿فَإِذَنْ مُؤْذِنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ [الأعراف]. [تجربة مؤتة للعتوم ١٧١].

٦ - خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا:

يقول د/ الغضبان: «وإذا كانت الغرابة عندنا أن ينضم جعفر ؓ - وهو من أوائل من أسلم - إلى جيش مؤتة بعد سنة من عودته، لكن الأغرب أن يكون خالد بن الوليد ؓ في هذا الجيش ولما يمض ثلاثة أشهر على انضمامه للصف الإسلامي بعد حرب عشرين عامًا ضد رسول الله ﷺ، فلقد أسلم في صفر ثمان للهجرة، وتحرك لمؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة كذلك، أي أنه أمضى في مدرسة النبوة فقط شهر ربيع الأولى وربع الثانية وبقايا صفر وجمادى، هذه هي كل حياته في الصف الإسلامي، ولو كان في الحركة الإسلامية اليوم لما حَقَّ له أن يُوجَّه أُسْرَةً بله يقود معركة.

لقد مضى خالد ؓ بعزيمة الرجال يريد أن يطوي تلك الصفحة السوداء من حياته ليكتب صفحة جديد من نور تغسل تلك الصورة القاتمة عن ماضيه في الصد عن سبيل الله، ومن أجل ذلك فما أن

لاحت بوراق التعبئة لمؤتة حتى كان من أوائل المنضمين هذا الجيش، ونفسه تتوق إلى اللحظة التي يُشهر فيها سيفه في سبيل الله.

ولكنه قَدَّر الله تعالى الذي ادخر هؤلاء الرجال لهذه الأزمان...

لم يكن يدري ابن الوليد ﷺ أنه سيكون في موقع الاختبار ومنذ اللحظات الأولى، في موضع القيادة العليا في الجيش، والغريب أن الذي اختاره لذلك هو أنصاري بدري، ورضي المسلمون بذلك، وكانت مفاجأة مذهلة لخالد ﷺ، هكذا وبكل هذه البساطة يغدو قائدًا لجيش محمد ﷺ، ويُسلمه القيادة واللواء الأنصاري البدري ثابت بن أقرم ﷺ، بل لم يدع المسلمون له لحظة اعتذار، فهو بطل المرحلة، والجيش الآن على أتون المذبحة الرهيبة بين يدي الروم، لقد دفع إليه اللواء والمسلمون معدون للفناء بسيوف الروم. وظهرت معادن الرجال، وبطولات الرجال، وعبقريات الرجال.

ويا لعظمة هذا الدين.

خالد ﷺ الذي هَمَّ قبل عام ونصف أن يَنْقُضَ على محمد ﷺ في صلاة العصر في الحديبية لينهي هذا الصابئ وجنده - على حد زعمه - يُطْلَبُ منه الآن وبعد أقل من ثلاثة أشهر من إسلامه أن ينقذ جيش محمد ﷺ عليه من المذبحة المحتمة مذبحة الروم.

وخالد ﷺ الذي انقض فعلاً على محمد ﷺ قبل خمس سنوات من الخلف وحطَّم النصر المؤزر الذي حققه المسلمون يُطْلَبُ منه اليوم أن يعيد الكرة، فينقذ الجيش المنهزم المعرض للذبح من الفناء، مع فارق واحد هو أن جيشه الذي استعاد النصر فيه في أُحُد كان أربعة أضعاف جيش محمد ﷺ، بينما يُطلب منه الآن أن يستعيد النصر بجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل على جيش قوامه مائتي ألف، أي يُطلب منه أن يستعيد النصر على جيش يبلغ سبعون ضعفاً من جيشه على التقريب، ومع ذلك، فقد تحقق النصر، وفتح الله تعالى على يديه.

إن روايات السيرة تذكر إنه نجا بالجيش وفرَّ فيه، لكن أصح الروايات، والتي سقنا ثلاث روايات منها في البخاري فقط، تؤكد أن فتح الله تعالى قد تم على يديه، وأما الروم قد هُزموا هزيمة منكرة، بعد أن استعمل حيلته الحرب البارة في فت عضد الروم بتغيير مواقع جيشه.

ويجمع ابن كثير رحمه الله بين روايات السيرة التي تؤكد خروج أطفال المدينة وملاقة الجيش بالحجارة لأنهم فروا من المعركة، وبين روايات البخاري عن رسول الله ﷺ بانتصار المسلمين في أن فصيلة من هذا الجيش - وفيها عبد الله بن عمر ﷺ - قد فرت بعد أن أطبق الموت عليها ونجت بأنفسها إلى المدينة، أما أكثرية الجيش فقد بقيت في أرض المعركة تدود عن حمى الإسلام، واستحق خالد ﷺ في هذه المعركة أرفع

وسام في الجيش الإسلامي، وأعلى رتبة، ولم ينل هذا الوسام أحد بعده ولا أحد قبله، أعلنه ﷺ على المنبر، فقال: «حَتَّى أَخَذَ [الرَّايَةَ] سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»، إنها لقفزة هائلة في الميدان العسكري من جندي عادي مغمور إلى قائد فز يقبله رسول الله ﷺ هذا الوسام، ومضى معه حتى لقي به العرب والفرس والروم، فقال له قائد جيش الروم في اليرموك: هل أنزل الله سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتمهم؟ ولم يُنزل الله تعالى سيفاً من السماء، بل أنبت هذا السيف من صلب الوليد بن المغيرة الذي هجاه الله تعالى في كتابه ونقله بعد عشرين عاماً من قلعة الشرك إلى قلعة الإيمان، فإذا معادن الرجال تبرز صارمة صارخة كما يقول ﷺ: «النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا». [البخاري في الأنبياء (٣٣٨٣)، ومواضع أخرى، ومسلم في فضائل الصحابة (٦٦١٥)، ومواضع أخرى].

وتبدو أهمية هذه السمة في هذه المرحلة في أنها كانت توطئة للفتح الأعظم في مكة، وكانت كذلك تهيئة للقبائل العربية أن تنضم للإسلام، ولا شك أن ارتفاع معنويات المسلمين قد بلغ الذروة بعد غزوة مؤتة، حيث حدثهم رسول الله ﷺ عن الفتح الذي تم على يد خالد بن الوليد ﷺ على المنبر، وقبل وصول الجيش الإسلامي من مؤتة، وعاشت المدينة أفراح النصر وآلام الضحايا في لحظة واحدة، وكان أطفال المدينة من البيضة والوعى ما يضاهون به يقظة ووعي أبطال الأرض، فمع الحبيصة الأولى كانوا يقذفون الفصيل المنهزم بالحجارة ويقولون: أنتم الفرار في سبيل الله، ولم يخفف من وطأة هذا الهجوم إلا قول رسول الله ﷺ لهم: بل أنتم الكرارون إن شاء الله، ومع ذلك فقد عاشوا جواً من الهم والقلق، رغم عذر رسول الله ﷺ لهم، بينما خرج الأطفال أنفسهم يشتمون مع رسول الله ﷺ يستقبلون الجيش المنتصر وعلى رأسه سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ.

والحركة الإسلامية اليوم بحاجة إلى تدبر هذه المعاني العظيمة في هذه المعركة، وتبحث عن أفذاذ الرجال الذين يعدل الواحد منهم الألف بل المائة ألف، والذين غمروا أو حالت الظروف دون بروزهم وظهورهم، وقد يكون بين خصومها الأقوياء من يدخره الله تعالى ليكتب نصره على يديه فما ندري؟ إذ ما الذي يمنع من أن تتكرر تجربة أفلاذ كبد مكة مرة ثانية.

ولعل في رجالها وشبابها المنتشرين في أراضي الغربية في أوروبا وأمريكا من هو مؤهل لمثل هذه المواقع، وما أحوج الدعوة إلى أمثال جعفر الطيار ﷺ، وسيف الله بن الوليد ﷺ.

لقد قال الله تعالى للمؤمنين الغاضبين الحانقين يوم صلح الحديبية: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّزَّغَلُواكُمْ أَنْ تَنْطُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥]، وتحقق موعود الله بالثورة الإسلامية التي قادها أبو بصير ﷺ، وأنقذ الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، وشاء قدر الله تعالى أن تتأجل المعركة كذلك

رغم همهم وغم المسلمين ثم كان الوعد الأخير: ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وأدخل الله في رحمته - بعد الحديبية - هذه النماذج خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم: ﴿لَوْ تَرَى كُفْرًا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

إنها الأقدار: ولعل أقدار الحركة الإسلامية في هذا الجليل حين يبسط النصر وتدهم المحنة ويفدح الخطب أن تكون إرهابات أن يدخل الله في رحمته من يشاء، فيكون منعطفًا في تاريخ الأمة والحركة، وينفذ الله تعالى الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات من برائن الكفر وأيدي الطغاة، فيشاركون في معركة الحق الأبلج، ويكونون الوقود الأساسي لمعارك الإسلام وهم عشرات الألوف.

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/ ١٠٢-١٠٥].

٧ - لا يجوز التماذي في الحزن ولتذكر المحزون نعمة الله عليه:

يقول د/ زيدان: «قد تُصاب جماعة الدعاة بنكبة مثل فقد أميرها أو أحد دعائها أو حبسه أو قتله بغير وجه حق، أو تُبلى بمنعها من نشاطها الدعوي، أو بمصادرة أموالها ونحو ذلك، فهذه أمور تَبْعَثُ الحزن في القلوب، ولا ذم على حزن الجماعة وأفرادها بسبب هذه النكبات والمصائب التي تُصيبها، ولكن تُذَمُّ وتُعاب إذا تبادت في حزنها، وجعلت من أيامها ماتم، ومن نشاطها الدعوي المقدور عليه مناحة وعويلاً...»

وعلى الجماعة ودعائها وسائر أعضائها أن يلحظوا في مصيبتهم نعم الله عليهم في هذه المصائب، يلحظوا منزله الشهادة التي نالها فقيدهم بقتله من قبل أعداء الدعوة، وبأن المصيبة لم تكن في دينهم ولم تُزعزع إيمانهم، وبأن المصيبة مدخل لامتحان الله لهم؛ ليفوزوا بالثواب إن نجحوا في الامتحان، فليجدوا لينجحوا فيه لا أن يبكون وينوحوا، وأن يتذكروا بأنهم ليسوا أحسن حالاً من رسول الله ﷺ إيماناً وقرباً من الله تعالى، ولا أحسن حالاً من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا من المؤمنين أتباع رسل الله الماضين، فكلهم أودوا لإيمانهم، فهذه هي سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وليرددوا قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] مستحضرين معناها في قلوبهم، وليتذكروا قول رسول الله ﷺ حين بلغه استشهاد من أمرهم على الجيش: «مَا يَسُرُّهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا» لما نالوه من عظيم ثواب الله.

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣٨٧-٣٨٨].

٨ - أمير الجماعة كَرَبُّ العائلة لأفراد جماعته:

يقول د/ زيدان: «ويجب أن يكون أمير الجماعة المسلمة - جماعة الدعاة - لأفراد جماعته كَرَبُّ العائلة لأفراد عائلته، فهو ينظر إليهم كأبنائه أو إخوانه، يُشفق عليهم ويرعاهم ويهتم بأمرهم ويحرص على ما ينفعهم، ويُجنبهم الضيق والعنت، ولا يتعسف في استعمال سلطته الشرعية عليهم، ويُجزئه إن نالهم

مكروه، ويُدفع عنهم الشر والضرر، وإذا فَقَدَ أحدهم بموت أو قتل أو استشهاد، أو أصابه مكروه دون القتل كالحبس أو النفي أو الفصل من عمله، أو تضيق الرزق عليه في أي عمل يعمل، كان أمير الجماعة نِعَمَ المواسي والمعين له دون منة أو تضجر، وإذا ترك الداعي وراءه صبية صغارًا يتامى لا مال لهم ولا معيل ولا كافل كان هو المعيل والكافل.

وليتذكر أمير الجماعة قول النبي ﷺ لامرأة جعفر بن أبي طالب ؓ وقد زارها بعد استشهاد جعفر وهي تذكر يتم أولادها: «الْعَيْلَةُ تَخَافِينَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا وَلِيَّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»؟! وقد يكون من المرغوب فيه وضع نظام للتكافل والتضامن بين أفراد الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، وتهئية ما يلزم لتحقيقه من أموال وغيرها». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/٣٨٨].

٩ - مقياس النصر لا يكون دائماً من خلال ظواهر الحوادث:

يقول د/ زيدان: «إن مقياس النصر لا يكون دائماً من خلال ظواهر الحوادث مثل سَحْق قوات العدو واحتلال دياره، وإنما قد يكون من خلال ظواهر أحداث لا تسر عموم المسلمين، وإن كانت هذه الحوادث في جوهرها تحقق نصراً حقيقياً للمسلمين، وإن كان في الآجل وليس في العاجل، ويكفي للتدليل على ما أقول أن أذكر (صلح الحديبية) فإن ظاهره ما كان يوحي بأنه نصر للمسلمين، ولكن في حقيقته نصر مبين للمسلمين، وإن كان في الآجل وعلى غير النمط والأسلوب والكيفية التي رغب فيها المسلمون؛ ولذلك سَمَّى الله تعالى ذلك الصلح (بالفتح) كما جاء في سورة الفتح.

وكذلك انسحاب خالد بن الوليد ؓ، وتخليصه جيش المسلمين من الهلاك، وإبقاؤهم لمعارك قادمة، كان ذلك نصراً حقيقياً للمسلمين، وقد أبصر ذلك رسول الله ﷺ وعبر عنه بكلمته الخالدة: «لَيْسُوا بِالْفَرَارِ وَلَكِنَّهُمْ الْكُرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى».

فعلى الجماعة المسلمة وأميرها والدعاة فيها أن يفقهوا ذلك ولا يحسبوا النصر، نصرهم، يكون بالضرورة على النمط الذي يشتهون: كثرة الأتباع أو شدة الإقبال عليهم، فإن غيث السماء رحمة للعباد، ولكن لا يُشترط أن يبقى على سطح الأرض تراه أعين الناس، فهو رحمة وإن اختفى في باطن الأرض، وإن نصرهم وفوزهم بقدر بذل طاقتهم في عملهم المبرور وبقدر إخلاصهم فيه بأن يفعلوه خالصاً لوجه الله.. ورُبَّ تأخير في الوصول إلى المطلوب خير من التعجل والعجلة في الوصول إليه تتبعه نكسة وتراجع»... [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/٣٨٨-٣٨٩].

المبحث السابع

معركة مؤتة بين النصر والهزيمة

١ - غزوة مؤتة في نظر المستشرقين:

يقول د/ العتوم: «من العجب بعد كل هذه التفصيلات التي تشير إلى الجوانب الإيجابية في غزوة مؤتة، والتي تجعلها أقرب إلى قائمة الغزوات المنتصرة منها إلى قائمة تلك المخفقة، أن تُطَبَّقَ جمهرة المستشرقين على تقرير الخيبة في هذه الغزوة، فهذا مؤلف كتاب: شرقي الأردن East of The Jordan يرى أن الجيش الإسلامي عندما تولى خالد عليه السلام قيادته، كان قد أصبح أشلاء ممزقة، فقادته إلى المدينة ليخلصه بذلك من فناء محقق». [By. Fr Enehoade. Page 185].

وهذا المستشرق هاردنج يرى أن الهزيمة في مؤتة حاقت بالعرب وقتل قادتهم. [آثار الأردن ص ١٣٣]. وهذه دائرة المعارف الإسلامية - ومؤلفوها مستشرقون - تسمي مؤتة بالغزوة غير الموفقة وتصبها بالهزيمة، فقد جاء فيها عند الحديث عن خالد عليه السلام - وبغير قليل من اللمز - ما نصه: «وقد شارك في الوقعة التي باءت بالخيبة، وأفلح بشيء من الجهد في الارتداد إلى المدينة بعد هزيمة المسلمين في مؤتة، فكافأه النبي ﷺ على ذلك بأن خلع عليه لقب سيف الله» [ينظر مادة: (خالد) فيها]، وكأن الرسول ﷺ فعل ذلك لرفع معنوياته، وإلا فهو قائد خائب، ثم كأن الرسول ﷺ لم يُطلق عليه هذا اللقب وهو في قلب المعركة في مؤتة قبل أن يقفل عائداً إلى المدينة، وذلك بوحى من الله كما ذكرت قبلاً.

وجاء فيها عند الحديث عن زيد عليه السلام: «وتوفي زيد في العام الثامن للهجرة في الخامسة والخمسين من عمره تقريباً وهو على رأس غزوة مؤتة غير الموفقة وكان حامل لوائها، وقد حزن عليه محمد ﷺ ودبر أمر الانتقام له». [ينظر مادة: (زيد) فيها].

وهي تشير في قضية الانتقام إلى ما سُرَّ من حملات إسلامية على بلاد الشام فيما بعد ولا سيما سرية ابنه أسامة عليه السلام، وكان المسألة مسألة شخصية وتأثر قبلي كعادة العرب قبل الإسلام!

وهذا القائد البريطاني للجيش العربي (سابقاً) جون جلوب يصف الجيش الإسلامي العائد من أرض مؤتة بالتراجع، وأن هذه الغزوة نكسة له، وحتى يخفف محمد ﷺ من وطأة الحدث على نفوس المسلمين راح - بزعم جلوب - في اليوم التالي لرجوع الجيش يعلن في المسجد أنه رأى شهداء مؤتة في فراديس النعيم على سرر من ذهب. [الفتوحات العربية الكبرى ص ١٣٦].

وكان المسألة مسألة حُلُم وتوهم ومدارة للجراح، وإلا فالسكين بلغت العظم. وفي مكان آخر يتحدث عن خالد عليه السلام في المعركة بشيء كبير من الخبث والمكر، واصفاً نتيجة المعركة بالانكسار، يقول: «وكان خالد بن الوليد عليه السلام وقد تحوّل أخيراً إلى الإسلام يقاتل بين المسلمين، وكان أكثر

خبرة في القيادة العسكرية من زيد وجعفر، وقد يكون أقل تشوقاً إلى الجنة، وعندما تولى القيادة في هذه اللحظة من الانكسار، أفلح في أن يسيطر - لشخصيته القوية الآسرة - على ما تبقي من المسلمين». [المصدر السابق ص ١٣٤، أعتب على المترجم: خيري حماد، أنه لم يتصد لتخليطات جلوب هنا مع أنه في غير هذا الكتاب كثيراً ما يتصدى لأقواله في حين أنها قد لا يكون لها من الخطورة هناك ما لها هنا].

وفي هذا النص ما فيه من الدس، فيه أن جعفرًا ﷺ ورفاقه ﷺ كانوا متهورين لما يزعمون من رغبة في دخول الجنة، أما خالد ﷺ فلم يكن متهوراً مثلهم؛ لأنه كان أقل تشوقاً للجنة، ويُفهم من هذا ضعف إيمانه بالغيب وأنه غير صاحب جرأة، أو غير راغب حقاً بالقتال، أو أنه قدّم عليه من هو أقل منه كفاءة، ربما لقربة أو صداقة، ثم إن رجوعه بالجيش، يعود الفضل فيه إلى شخصيته القوية لا إلى كون الموقف يستدعي ذلك.

وعلى الرغم من أن المستشرق مونجمري وات، يرى أن الروم انهزموا لما تولى خالد ﷺ القيادة، إلا أنه لا يعد هذه الغزوة نجاحاً حقيقياً للمسلمين، إذ لو كانت كذلك، فإن موت قادة الحملة لا يمكن إلا أن يترك تأثيره العكسي في أوساط المجتمع الإسلامي. [محمد في المدينة، تعريب شعبان بركات ص ٨١].

ويلحق بآراء المستشرقين في هذه الغزوة رأى المستغربين التاليين: بولس سلمان، وجرجي زيدان. أما بولس فيرى أن معركة مؤتة أسفرت عن كسر المجاهدين، ونصرة الروم عليهم.

[خمس أعوام في شرقي الأردن ص ٢١٠].

وأما جرجي فيرى كذلك أن العرب لم يفلحوا في هذه الغزوة؛ لأنهم لم يكونوا جربوا من قبل الحروب النظامية. [تاريخ التمدن الإسلامي ص ٤٥، وكثيراً ما يسمي المسلمين بالحجازيين قليلاً ما يطلق عليهم حتى العرب].

وإذا كان المستشرقون ينظرون إلى تاريخنا بشكل عام، نظرة مدخولة، وعلى منوالهم جرجي زيدان وأمثاله الذين يُعرفون بدسهم في هذا التاريخ على الرغم من أنهم يتكلمون بلساننا ويعيشون بيننا، مدفوعين إلى ذلك بتعصب ديني ذميم كما هو معروف، فلست أدري ما الذي يدفع بعض أبناء هذه الأمة إلى التعجل في إلقاء الآراء على منوال هؤلاء الكتاب المغرضين، فيرون مثلهم أن الجيش الإسلامي عاد من مؤتة راضياً من الغنيمة بالإياب [محمد لطفي جمعة، ثورة الإسلام وبطل الأنبياء ص ١٠١٦]، وأنه عاد فلولاً إلى المدينة [رشيد الجميلي، تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة الإسلامية ص ٣٢٤]، وأن حملته هذه لم توفق [مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين: الجزء الأول، القسم الأول ص ٣٢٦]، وكانت للمسلمين هزيمة [إبراهيم أحمد العدوي، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص ٣٧]، بل هزيمة شديدة [عمر فروخ، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ص ٦٩]، على الرغم من أن جُلَّ هؤلاء الكتاب يرون في نتائج هذه الغزوة باعثاً قوياً للمسلمين على فتح الشام، ونشر الإسلام خارج الجزيرة.

وإنني لأرى أن قرارهم بهزيمة المسلمين في هذه الغزوة هو نوع من التأثير بآراء المستشرقين، وإصدار الأحكام دون تروٍّ من ناحية، ثم نوع من عدم النظر إلى هذه الغزوة وواقع المسلمين فيها نظرة موضوعية تأخذ الأمور من جميع جوانبها، وترن الأمور بموازينها الصحيحة، بل وتتنظر للمسألة من زاوية إسلامية من ناحية أخرى.

ثم إنه نوع من التناقض من ناحية ثالثة أن يقرر هؤلاء أن هذه الغزوة كانت هزيمة للمسلمين في الوقت الذي يرون فيها دافعاً لفتح بلاد الشام ونشر الإسلام خارج الجزيرة.

وأقول: كيف يعد جيش المسلمين المنسحب من مؤتة فلولاً وهو بعدده الصغير - نسبياً - يصول جيشاً يفوقه بسبعين مرة، ويصبر معه على هذه الحرب الضروس سبعة أيام، ثم لا يُقتل منه في أكثر التقادير غير بضعة عشر شهيداً؟! ثم هل تُعد هزيمة لجيش أن يُستشهد منه بضعة أفراد، وإن كانوا قادته وكبار، بعد أن يثبتوا هذا الثبات المجيد، ويكافحوا هذا الكفاح الباسل؟! أليس ذلك أقرب أن يُعد في سجل المفاخر والانتصارات من أن يُعد في قائمة الهزائم والخسارات؟! ومن هنا كان حقاً ما يقوله الأستاذ عمر عبيد حسنة، وهو يعلق على هذه الغزوة، أنه إذا أردنا أن نفيذ من أحداث السيرة النبوية في معاركنا الحديثة والمقبلة فلا بد من الالتزام بالأهداف والمقاييس نفسها التي أوضحتها السيرة، وهي أن قتال المسلمين هو في سبيل الله، وأنهم ينتظرون من ورائه إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وأنهم في قتالهم هذا ينفذون أوامر الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، «أما أن ينظر كل فرد إلى الحوادث ويفسرها كما يريد هو من خلال نفسه وعواطفه المبعثرة، ويقدم ذلك للآخرين على أنه دراسة للمشكلة وتحليل لها، فهذا إنما يعيش وقد أحاط به الوهم، يعيش بخداع نفسه ويخدع الآخرين، ولم يقدم علاجاً للمشكلة». [غزوة مؤتة، مجلة حضارة الإسلام، العددان: الثالث والرابع السنة الثامنة، جمادى الأولى والآخرة، ١٣٧٧ هـ ١٩٦٧ م ص ١٠١].

إن موقف المستشرقين من غزوة مؤتة: في تطفيف وزنها، وبخس المسلمين أشياءهم فيها نابع من حقد دفين عليهم وعدم استعداد نفسي عندهم لأن يفهموا أن الأمور في جزيرة العرب إبان ظهور الإسلام، حصل فيها متغيرات هامة، وهي أن هذا المجتمع الجديد، مجتمع متميز، له أهدافه العظمى وطموحاته الكبرى، ولقد عز عليهم - كما عز على أسلافهم - أن تناوش قوة صغيرة تخرج من أرض العرب، جحافلهم الجرارة وتهاجمهم في بلادهم وتُشعرهم بأنهم مصممون على فتح هذه البلاد، وانتزاع قيادتها منهم بعد أن لم يعودوا صالحين لها؛ ولذا ما إن رأوا عدداً من أفراد هذه السرية يُصرع - شهيداً في ميدان القتال، ومن ثم ينسحب جيشهم بعد أن أدى واجبه - حتى راحوا يسمونها هزيمة، ويسمون هذا الجيش المنسحب بقايا وفلولاً!

إن هذا الموقف المَعْتَمَدُ المَعْتَمَدُ عند المستشرقين، يُعِيدُ إلى ذاكرتي ما كان حديثه والذي (٧٥ سنة) منذ سنوات طويلة، من أنه ومجموعة من أبناء لواء جرش في العشرينات من هذا القرن نزلوا إلى قصبة اللواء ليسجّلوا ضباطاً في الجيش العربي آنذاك، وكان الذي قابلهم ليختار منهم العدد المطلوب، ضابط انجليزي كبير لعله (بيك باشا)، وقد ألقى عليهم سؤالاً كتابياً حول معركة مؤتة، ولما سلّم الطلاب إجاباتهم، رأى الضابط من بين هذه الأوراق واحدة عليها إجابة عن معركة اليرموك، فاستدعى صاحبها وأعلمه أنه من الراسين في الامتحان، فقال له الطالب: لقد ظننتُ إنك سألتنا عن اليرموك، ولما لم يصخ الضابط إليه قال له: لم تسألنا عن مؤتة وتنسى اليرموك؟! وكان الطالب فهم من هذا الضابط أنه يريد أن يذكرهم بمعركة هي في عُرْفِ الغربيين هزيمة للمسلمين، وكان الضابط الإنجليزي أراد أن يتعرف إلى نوعية الطُلاب، وكيف ينظرون إلى معركة مؤتة؟ وما مدى الوعي الإسلامي أو السياسي عندهم؟! وهل ما زالت فيهم رائحة الآباء والأجداد؟! ولا سيما أن الأمة حينها كانت تمر بمرحلة تمزق شديد، وضياع مرير: فاليهود يتحفزون لابتلاع فلسطين، والبلاد العربية يتداعى عليها المستعمرون كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، والخلافة الإسلامية سقط عمودها بمكر من اليهودية العالمية والصليبية الدولية، فكان أن أغاظ هذا الضابط أن يجيبه هذا الطالب عن اليرموك التي كانت معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون على الرومان، وكانت نتيجتها قص أجنحة دولتهم في الشام ومصر وشمال أفريقيا، ومن ثم ودّع هرقل على أثرها سورية وداعاً لا لقاء بعده!

وقد يحلو لبعض الدارسين من المستشرقين ومن هم على شاكلتهم - إذا ألجأتهم معطيات البحث، وضغط الحقيقة، في إثبات تغلب المسلمين على الرومان في بلاد الشام وغيرها، أن يبحثوا عن أسباب خارجية كانت وراء هذه الغلبة، وإلا فما كان لهؤلاء إقلّة من الحُفَاة العُراة العالة رعاء الشاء، أن يناوشوا هذه الدولة العملاقة ويقتطعوا منها بعض أطرافها، ومن هذه الأسباب:

- (١) خروج بيزنطة من حرب فارس تعاني أزمة اقتصادية وبشرية، واشتمزازاً من الحرب.
- (٢) استئراء الخلافات الدينية بين القسطنطينية والمقاطعات الشرقية كمصر وسورية ورغبة هذه المقاطعات في الانفصال عن بيزنطة.

- (٣) سوء التنظيم الحكومي في هذه المقاطعات الشرقية، وفوضى الإدارة وفساد الملاكين.
- (٤) عدم تمكن المقاطعات البيزنطية الشرقية: مصر وسورية من الاستفادة من الإصلاحات العسكرية والإدارية التي قام بها هرقل. [ينظر ص ٩٨ من الإمبراطورية البيزنطية للدكتور نبيه عاقل].

ولا شك أن الدولة الرومانية إبان الفتوحات الإسلامية، كانت تعاني من مشكلات عديدة: دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية، غير أن السبب في تغلب المسلمين على الرومان لا يعود - في جوهره - إلى

هذه الأمور؛ ذلك لأن «الأسباب التي قضت على الروم بالهزيمة كائنة ما كانت ليست هي الأسباب التي وضت للعرب بقيادة دولة وانتشار عقيدة؛ لأن استحقاق أناس للزوال لا ينشئ لغيرهم حق الظهور والبقاء». [الروم في أرض الشام ومصر وليا قبيل الفتح الإسلامي وفي أيامه. مجلة (المسلمون) العدد العاشر ص ١٨ للواء محمود شيت خطاب].

إن المسألة في جوهرها تكمن في تغلب عقيدة صحيحة ناشئة على أخرى فاسدة مهترئة، لم تعد تصلح لتأسيس مجتمع وقيادة أمة، وإلا فالرومان في كل القوى المادية كانوا متغلبين على المسلمين بما لا يقاس، ثم إنه ليس صحيحاً - أبداً - أن الرومان سلموا ما بأيديهم بسهولة، بل إنهم دافعوا عن مقدراتهم: الدينية والسياسية بكل ما أتوا من قوة يذمرهم على ذلك رجال الدين والسياسة عندهم على أعلى المستويات، فهذا هرقل نفسه يخاطب أقطاب دولته من أشرف الروم وأهل البلاد في أرض الشام، يستفزهم لقتال المسلمين مهوئاً من شأنهم في أعينهم، قائلاً: «فلما بدلتهم وغيرتم أطمع ذلك فيكم قومًا والله ما كنا نعتد بهم ولا نخاف أن نُبتلى بهم، وقد ساروا إلينا حفاة عراة جياعاً، أخرجهم إلى بلادكم قحط المطر وجذوبة الأرض، وسوء الحال (كذب!!)، فسيروا إليهم فقاتلوهم عن دينكم وعن بلادكم وعن نساءكم وأولادكم، وأنا خارج عنكم ومدكم بالخيول والرجال حاجتكم، وقد أمرت عليكم أمراء فاسمعوا لهم وأطيعوا» [هرقل في مواجهة عمر - أ/ أحمد عادل كمال - مجلة العربي عدد (٢٦٢) ص ١٠٧].

[تجربة مؤتة للعوام ١٥٩-١٦٥].

٢ - الخلاف في نتيجة المعركة:

يقول د/ بريك: «اختلف أهل المغازي حول نتيجة مؤتة اختلافاً كبيراً، وثمره هذا الخلاف ثلاثة أقوال:

القول الأول: إن المسلمين هزموا الروم هزيمة منكرة في مؤتة.

وهذا القول أشار إليه الزهري، فيما رواه عنه الطبراني، ونقله عنه ابن هشام بلاغاً [ابن هشام: سيرة ٣٨٣/٤]، وهو اختيار موسى بن عقبة^(١)، ورواه ابن عائد بسنده عن العطاء بن خالد، ورجَّحه البيهقي^(٢)، وابن كثير^(٣).

(١) ويلاحظ على رواية موسى أنَّها مطابقة تماماً لرواية الزهري، مما يُطغى انطباعاً أنه رواها عنه. والله تعالى أعلم.

(٢) قال البيهقي (دلائل ٣٧٥/٤): قد اختلف أهل المغازي في فرارهم وانحيازهم، منهم من ذهب إلى ذلك، ومنهم من زعم أنَّ المسلمين ظهروا على المشركين وانهزم المشركون، وحديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ: «نُم أخذها خالد ففتح عليه»، يدل على ظهوره عليهم. والله تعالى أعلم بالصواب.

(٣) قال ابن كثير (البداية ٢٤٩-٢٥٠): بعد أن ساق حديث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ: «وهذا يقتضي أنَّهم غنموا منهم وسلبوا من أشرفهم، وقتلوا من أمرائهم، وقد تقدَّم فيما رواه البخاري أنَّ خالدًا ﷺ قال: انددَّت في يدي ==

القول الثاني: إن الروم هم الذين هزموا المسلمين.

وجزم به الواقدي^(١)، وكتبه ابن سعد^(٢).

وقال به طائفة من المستشرقين [ينظر مثلاً ما قاله (لانكستر هاردنج: آثار الأردن ١٣٣، وجان جلوب: الفتوحات العربية ١٣٦)]، ومن تبعهم من المستغربين وغيرهم من بعض الباحثين المعاصرين. [ينظر: بولس سلمان: خمسة أعوام في شرق الأردن ٢١٠، وجورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ٦١، ومحمد لطفي جمعة: ثورة الإسلام ١٠١٦، وإبراهيم العدوي: الإمبراطورية البيزنطية ٣٧، وعمر فروخ: تاريخ صدر الإسلام ٦٩، ورشيد الجميلي: تاريخ العرب في الجاهلية ٣٢٤ نقلاً عن الدكتور العتوم، تجربة مؤتة: ١٥٩-١٦١].

القول الثالث: انسحاب خالد بن الوليد ﷺ بالمسلمين - بعد تولي القيادة - من ميدان المعركة بعد قتال قويٍّ ومرير، ثمَّ إحجام الروم عن مهاجمة المسلمين بعد خطته الإيهامية الذكية بتغييره مراكز الجيش، ومن ثمَّ انسحاب كُلِّ طرف عن الآخر دون قتال.

وهذا القول وردت به رواية حسنة إلى شاهد عيان من المعركة^(٣)، وهو اختيار محمد بن إسحاق^(٤)،

== يوم مؤتة تسعة أسياف وما ثبت في يدي إلا صفحة يمانية. وهذا يقتضي أنَّهم أثنوا فيهم قتلاً، ولو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلص منهم. هذا وحده دليلٌ مستقلٌّ، وقد ذكر ابن إسحاق: أنَّ قطبة بن قتادة العذري - وكان رأس ميمنة المسلمين - حمل على مالك بن زافله، ويقال: رافله، وهو أمير أعراب النصارى فقتله، وقال يفخر بذلك:

طعنت بن رافلة الأراش برمح مضى فيه ثمَّ انحط

فذكر شعره إلى أن قال:

وسقنا نساء بني عمِّه غداة رقوقين سوق النعم

وهذا يؤيد ما نحن فيه، لأنَّ من عادة أمير الجيش إذا قُتِل أن يفرَّ أصحابه، ثمَّ إنه صرَّح في شعره بأنَّهم سبوا من نساءهم. وهذا واضح فيما ذكرناه. والله أعلم.

(١) ذكر الواقدي (مغازي ٢/ ٧٦٣-٧٦٤) خمس روايات تُدلل على هزيمة خالد بالناس. ثمَّ قال - مُعلِّقاً على رواية ذكرها حول اشتداد المعركة حينما أخذ خالد بن الوليد ﷺ الراية -: والأول أثبت عندنا أنَّ خالدًا انهزم بالناس.

قلت: وهذا خلاف ما نقله عنه ابن كثير (البداية ٤/ ٢٤٩) من أنه اختار الرأي الأوَّل. والله تعالى أعلم.

(٢) قال ابن سعد (الطبقات ٢/ ١٢٩) في روايته: «فاصلطح الناس على خالد بن الوليد فأخذ اللواء، وانكشف الناس، فكانت الهزيمة».

(٣) من رواية عبَّاد بن عبد الله، عن أبيه من بني مرة.

(٤) استدللَّ ابن إسحاق على رأيه بشعر أحد شهود المعركة، وهو قيس بن المسحر اليعمري، الذي قال فيه:

وقفت بها مستجيرًا فنافذٌ ولا مانعًا من كان حُمَّ به القتلُ

على أنني آسيت نفسي بخالدٍ ألا خالدٌ في القوم ليس له مثلُ

قال ابن إسحاق: فبيِّن قيس ما اختلف فيه الناس من ذلك في شعره، أنَّ القوم حاجزوا وكرهوا الموت، وحقَّق انحياز

خالد بمن معه. ينظر: ابن هشام: سيرة ٤/ ٣٨٣.

ورواه ابن عائذ بسنده عن رجلٍ من بني سلامان، وابن عبد البر [الدرر ٢٢٣]، وابن حزم [جوامع السيرة ٢٢٢]، وابن سيد الناس [عيون الأثر ٢/ ٢٠١]، ورجَّحه ابن القيم^(١)، واعتمده معظم المؤرِّخين المعاصرين. وهذا القول وسط بين القولين السابقين، وهو الراجح فيما يبدو لي لعدَّة اعتبارات، فهو قول غالبية أهل المغازي كما رأينا.

كما أنَّ القول بهزيمة المسلمين غير صحيح لثلاثة أمور:

أولاً: الروايات في ذلك ضعيفة، فهي عن الواقدي، وتلميذه ابن سعد الذي يُعدُّ في غالب الظن ناقلاً عن شيخه، والواقدي متروك خاصَّةً إذا انفرد.

ورواية أبي موسى التي ذكرها ابن سعد ضعيفة أيضاً.

ثانياً: مخالفة هذه الروايات لرواية الصحيح، وقول النَّبي ﷺ فيه: ففتح الله عليهم.

ثالثاً: قلة قتلى المسلمين في المعركة، وعدم وقوع أسرى منهم في أيدي العدو، وكل ذلك يخالف ما يكون عليه المنهزم عادةً في المعركة.

أيضاً القول بهزيمة الروم وحلفائهم في المعركة، غير صحيح، لثلاثة أسباب:

أولاً: لو أنَّ المسلمين هُزموا الروم وحلفاءهم في مؤتة، لاشتهر ذلك، وذاع صيته، ولتواتر تواتراً يؤمِّن بجانبه الكذب، وبخاصة أنَّها أوَّل مواجهة قتالية بين المسلمين والروم كما كانت بدر أوَّل مواجهة قتالية بين المسلمين والمشرِّكين، وقد تواترت نتيجتها، وذاع صيتها، وبلغ صداها أرجاء الجزيرة العربية.

ثانياً: وقوع عدد كبير من الأسرى في أيدي المسلمين، وذلك ما لم تذكره الروايات.

ثالثاً: طرد الروم وحلفائهم من المناطق التي كانت خاضعة لسلطانهم في منطقة مؤتة، وما حولها، وإخضاعها لنفوذ المسلمين، وذلك لم يحدث، حيث استمر الروم وحلفاؤهم في المنطقة يُشكِّلون تهديداً للمسلمين، بدليل بَعَثَ النَّبي ﷺ سرايا وبعُوث إلى تلك المنطقة بعد مؤتة، ثُمَّ مسيره ﷺ بنفسه على رأس جيش العُسرة إلى تبوك.

إذاً القول الراجح: هو أنَّ سيف الله المسلول، خالد بن الوليد ﷺ، قام «بعملية انسحاب بارعة دلَّت على مهارته الحربية الفائقة». [باشميل: غزوة مؤتة ٢٦١].

ولقد «كانت عملية التراجع والانسحاب التي قام بها خالد بن الوليد في أثناء معركة مؤتة من أكثر العمليات في التاريخ العسكري مهارةً ونجاحاً». [ياسين سويد: معارك خالد بن الوليد ﷺ ١٧١].

(١) قال ابن القيم: «وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ أَنَّ الْهَزِيمَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَالَّذِي فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ الْهَزِيمَةَ كَانَتْ عَلَى الرُّومِ.

وَالصَّحِيحُ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ كُلَّ فِئَةٍ انْحَازَتْ عَنِ الْأُخْرَى. زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٨٣.

«ومثل هذا التدبير من خالد، ليس بالعمل الميسور الذي يستطيعه كُلُّ قائد، بل هو عمل عظيم جسيم يتطلب مهارةً وحزمًا، ورباطة جأش، وثقةً بنصر الله، وكثيرًا ما عرف التاريخ قُودًا عظامًا كان السر في شهرتهم إنجاء جيوشهم من مثل هذا الموقف الحرج الذي لو اختلَّ أقلُّ تدبير فيه لفني الجيش».

[أبو زيد شلبي: خالد بن الوليد ﷺ ٦٤].

ولكن خالد بن الوليد ﷺ كان له قصب السبق في ذلك، فعلى الرغم من ضغط القوات المتحالفة على المسلمين بشدة، وكثرة كاثرة، استطاع ذلك البطل أن ينظم انسحابًا قويًا ناجحًا دون أدنى خسائر تُذكر، مع الإثخان في العدو، وهو أمر يخالف ما جرت به العادة من أنَّ المنسحب هو الذي في الغالب يتكبَّد الخسائر، فلمَّا صار العكس وأفلت خالد ﷺ بجيشه من قبضة العدو رغم تشديدهم الضغط عليهم، اعتبره المصطفى ﷺ فتحًا، بل نصرًا مؤزَّرًا، استحق عليه اللقب الذي قلَّده إياه القائد الأعلى للقوات الإسلامية، وهو الذي شاهد أحداث المعركة عيانًا بواسطة النقل الإلهي.

«ولقد عرف له الرسول ﷺ حسن تدبيره» [أبو زيد شلبي: خالد بن الوليد ﷺ ٦٤]، «ونجاحه في الانسحاب بجيشه بانتظام دونها خسارة تذكر» [باشميل: غزوة مؤتة ٢٦١]، «فلقبه سيف الله وهو وسام لم يمنحه أحد من الصحابة» [أبو زيد شلبي: خالد بن الوليد ﷺ ٦٤]، «بل هو أوَّل وسام يمنح لقائد في تاريخ الإسلام» [باشميل: غزوة مؤتة ٢٦١]، بل في التاريخ البشري عامة، «ولعلَّ الرسول ﷺ كان أسبق من غيره، في تقدير القواد العظام، ولعمري مهما أجاد الإنسان في وصفه ومدحه فلن يصفه بأحسن ولا بأوفى مما وصفه به رسول الله ﷺ». [أبو زيد شلبي: خالد بن الوليد ﷺ ٦٤].

لقد مضى خالد بلقب سيف الله في مؤتة، والذين يدَّعون ذلك كثيرون، أمَّا الذي يملك الشهادة من رسول الله ﷺ وحده في الدنيا هو خالد بن الوليد ﷺ. [منير غضبان: فقه السيرة ٥٤٦].

أخرج الحاكم، وصحَّحه، عن الشعبي، عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تُؤذوا خالدًا، فإنه سيفٌ من سيوفِ الله صَبَّه على الكُفَّار». [المستدرک ٣/٣٣٨].

«إنَّ الجماعة المسلمة بحاجةٌ أن تفقه معادن الرجال، وتضع الرجال في مواضعهم وهي تخوض معركتها مع العدو». [منير غضبان: فقه السيرة ٥٤٦]. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشالية لبريك ٣٤٢-٣٤٨].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «انتهت هذه الغزوة بنجاة الجيش الإسلامي من أن يقع فريسة لجيش الكفر، المتكاثف، وحسب ذلك نصرًا مبيَّنًا، وإن النبي ﷺ أدرك قبلها نتيجة المعركة، فإنه عندما علم أن خالدًا ﷺ تولى القيادة، وحمل الراية قال: «ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ»، وما كانت لتُسمى النتيجة فتحًا لو كانت النهاية أن يرضى الجيش من الغنيمة بالإياب.

ولقد قال بعض كتاب السيرة: إن النتيجة كانت السلامة، ولم تكن نصراً.
ولكننا نقول: إنها كانت نصراً لأسباب:

١- منها أن النبي ﷺ سهاها فتحاً، وسمّى الذين عادوا إلى المدينة المنورة كُرَّارًا.

٢- ومنها أن المسلمين ساقوا غنائم ولم يؤخذ منهم شيء.

٣- ومنها أن قتل المؤمنين كانوا اثني عشر، وقتلهم لا تحصى عدداً، فقتل المسلمين كانوا أقل عدداً، وفيها كان النصر مؤزراً، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا.

ولقد قال في ذلك الحافظ ابن كثير في تاريخه: «هذا عظيم جداً، أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين: أحدهما وهو القلة التي تقاتل في سبيل الله وعدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة، وعدتها مائتا ألف مقاتل من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون، ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر، وقد قُتل من المشركين خلق كثير هذا خالد رضي الله عنه وحده يقول: لقد اندقت في يدي تسعة أسياف في يدي إلا صفحة يمانية، فإذا ترى قد قُتل بهذه الأسياف كلها.

دع غيره من الأبطال الشجعان من حملة القرآن الكريم وقد تحكموا في عبدة الصلبان، عليهم لعنة الرحمن ذلك الزمان وفي كل أوان، وهذا مما يدخل في قول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ اتَّفَقَتْ فَعِظَةُ مَغْلُوبٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ لِيَحْذَرُوا آلَ الْفِتْنَةِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرِيٍّ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران].

وإننا نرى أن هذا يشبه ما قرره الله تعالى من أن عشرين صابرين يغلبوا مائتين، وأن مائة صابرة تغلب ألفاً، وأنه عند قوة الإيمان وقوة الصبر يكون المؤمن الصابر يغلب مائة.

وقد كان ثلاثة آلاف قد غلبوا مائتي ألف، وصدق قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال].

هذا هو الحق.

إن غزوة مؤتة أول غزوة تخرج عن دائرة الجزيرة العربية إلى دائرة أراض تحت سلطان الرومان، فإذا كانت النتائج تكون على هذه الشاكلة، فإن النصر سيكون للحق بإذن الله تعالى، وقد كان، فكانت اليرموك وما بعدها في عهد الراشدين، فكانوا يفرون كما نفر الشاة أمام الأسود.

وإذا كانت بدر أول انتصار في الأرض العربية، فمؤتة أول انتصار مؤزر خارج الجزيرة العربية، وهو ابتداء ليس له انتهاء أو مبتدأ له خبر». [خاتم النبیین ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٩٦١-٩٦٢].

ويقول عميد/ فرج: «ولو نظرنا إلى المعركة بالميزان الصحيح، ومن وجهة النظر الحربية لتبين لنا أن المسلمين لم يخسروا المعركة وإن لم يكن النصر إلى جانبهم.

فخسارة المسلمين في الأرواح قليلة بينما قتل الروم لا يُحصى عددهم؛ لأنهم حاربوا بكل الجهد والعزم، ولم ترهبهم كثرة عدوهم، وقال في ذلك الحافظ ابن كثير «هذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين أحدهما وهو القلة التي تقاتل في سبيل الله وعدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف ومع هذا كله لا يُقتل من المسلمين إلا اثنا عشر وقد قُتل من المشركين خلق كثير».

إن المسلمين قد واجهوا الروم في شجاعة وصدق وإيمان، ولولا روحهم المعنوية وقدراتهم القتالية لانهمزوا وفروا من المعركة بعد أن قُتل القادة الثلاثة، فإن العادة قد جرت على أن ينهزم الجيش بقتل أميره، ولعل هذا هو الذي جعل الروم يركزون هجومهم على الأمراء، وكان في استطاعة المسلمين لو أرادوا الفرار أن يتركوا أرض المعركة ليلاً وقد توقف القتال، ولكن إصرارهم على البقاء يعني رفضهم للهزيمة.

إن المسلمين قد استفادوا فائدة كبرى، ذلك أن تحركهم إلى مؤتة وهو مشوار طويل في صحراء قاحلة ممتدة، كان تدريباً عملياً على التحرك، وقد أفادهم هذا التدريب عند تحركهم إلى تبوك، كما أنهم بمواجهتهم الروم قد مارسوا معهم القتال فعلاً، فعرفوا أسلوبهم وتكتيكهم وأسلحتهم، وهذه المعلومات لها قيمتها؛ لأن الحرب وقتها كانت لا تُعرف إلا بالممارسة، وممارستها مع الروم كانت جادة ومفيدة، ولعلها أفادتهم في اليرموك.

لقد لمست القبائل العربية المتاخمة للشام بسالة المسلمين وشجاعتهم، وأدركوا مدى الإيمان الذي يُقاتلون به، ورأوا بأعينهم كيف يستमितون في القتال، وكيف يطلبون الشهادة، وأدت هذه الصور إلى دخول كثيرين منهم الإسلام...

ودخل في الإسلام كثيرون من بني سليم على رأسهم العباس بن مرداس، وكثيرون من أشجع وغطفان وعبس وذبيان وفزارة، وبذلك اشتد ساعد المسلمين، وقويت شوكتهم في شمال المدينة، حتى بلاد الشام، وبذلك أيضاً ازداد الإسلام قوة وعزة ومنعة». [العبرة العسكرية لفرج ٣٩١-٣٩٢].

ويقول د/ عتوم: «إذا كان بعض الدارسين قد رأى في مؤتة حملة مخففة، بينما رأى آخرون أنها مستوية الأطراف فلا غالب فيها ولا مغلوب [ينظر: العبرة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لمحمد فرج ص ٦٣٠]، وشقت من الأحاديث في بداية هذا الفصل حتى الساعة، ما يرجح وزن المسلمين فيها، فإنني أرى على ضوء ما تقدم، وضوء ما استشهد به من أقوال معتبرة أن مؤتة كانت تجربة ناجحة للمسلمين، وغزوة كتب الله فيها النصر للمؤمنين على المشركين؛ ذلك لأن رجالها، كانوا قلة وكانوا مهاجرين، ومع ذلك نالوا

من العدو منالاً جارحاً، فإذا كان الله ﷻ وضع قاعدة حربية بين المسلمين وعدوهم، قرر فيها أنه يشترط - لتغلبهم عليهم - في الأحوال غير الاعتيادية أن يقابل الواحد منهم، عشرة من جنود العدو، وفي الأحوال الاعتيادية أن يقابل اثنين منهم، وذلك في قوله - جل وعلا -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۝١٥﴾ أَلْفَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ زَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝١٦﴾ [الأنفال]، فإن المسلمين - هنا - قابل الواحد منهم - وبشكل مُجمع عليه - سبعين جندياً من جنود العدو، أو مئة على بعض الآراء، والجندي الذي يصمد لمائة أو سبعين، ويثبت أياماً متوالية لا يتراجع إلا أن يُمر بذلك، لاشك أنه جندي فولاذي، ولا شك يستحق أوسمة النصر وأكاليل الغار تُعلق على صدره، وتزدهي بها هامته.

هذا «وإذا كانت قوة العدو المهاجم أضعاف قوة عدوه، بحيث يكون موقف الدفاع أقوى وأجدى للعدو المهاجم؛ لأن المعتصم والممتنع ببلده يكون كاشفاً لعدوه المهاجم، ومن ثمَّ يستطيع أن يسد له الضربات القوية دون أن ينال عدوه منه شيئاً، وإن كان كثير العدد كثير السلاح، إذ كل شيء يقف معه: طبيعة الأرض، وتضاريسها التي يعرفها أبناءؤها، ويجعلها أعدائها، والصبيان يعاونون الرجال على القتال، والنساء تقوم في المعركة بنشاط فعال، فالجميع يقاتلون على أفواه الأرزقة ومنعطفات الطرق [محمد أبو فارس، غزوة أحد ص ٣٠، ٣١ بشيء من التصرف قليل]، وإذا كان المقاتل حين يرى عدوه قد جاء يعتدي عليه ويؤذيه في نفسه وماله وعرضه، يُقبل على القتال بنفس قوية، وعزيمة صادقة، ويقاوم بكل ما أوتي من قوة؛ لأنه يدافع عن نفسه ووجوده»، كما يقول بعض الدارسين، فإنه على هذا الاعتبار يجب أن يكون المسلمون قد سحقوا في مؤتة سحقاً ذريعاً؛ لأنهم مهاجمون، وفي عُرف الرومان معتدون، وقلة تصاول كثرة مصالوة الهر للنمر، ولكن الذي حدث هو العكس، وهو أن هذه القلة المهاجمة ثبتت للكثرة المدافعة عن أرضها وعرضها؛ لأنها تدافع عن عقيدة صالحة، وتلك تدافع عن عقيدة طالحة.

وحسنٌ في هذا المجال أن نستمع إلى رأي الشيخ الجليل محمد أبو زهرة رحمته، يشبّه مؤتة ببدر في المغزى والأهمية، فيقول: «... وإذا كانت بدر أول انتصار في الأرض العربية، فمؤتة أول انتصار مؤزر خارج الجزيرة العربية، وهو ابتداء ليس له انتهاء أو مبتدأ له خبر». [خاتم النبیین ﷺ ص ١١٤، ١١٥].

أجل لقد رفعت مؤتة لواء الإسلام خفياً في أول صدام بين العرب والروم، كما رفعت بدر هذا اللواء في أول صدام بين العرب المسلمين وأقربائهم من العرب المشركين، فكانت الغلبة لله ولرسوله وللمؤمنين في كليتهما.

وإذا كان الشيخ أبو زهرة يشبه مؤتة ببدر، فإنه يعنُّ لي أن أشبهها بأحد حيناً وببلاط الشهداء حيناً آخر، ففي أحد خرجت قلة تهاجم كثرة، فأصيبت ببدنها ولم تُصب في دينها وأرضها، واكتفى العدو على الرغم من ثقله من المسلمين بالانسحاب من ميدان المعركة؛ لأنه لم يصدّق أن ينجو من هؤلاء المحاربين الذين يأتون ليموتوا لا ليتراجعوا، وفي أعقاب الغزوة أنزل الله عليهم وهم عائدون إلى المدينة ليأسوا جراحهم، قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣) **إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَذَاوِلُهُمَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** (١٤) [آل عمران]، وكأنه يخاطب بهاتين الآيتين جيش مؤتة وهو عائد لتوه من المعركة؛ ليرفع من معنوياته وهو يتحزن لفقد بعض صناديده، وليقفه على حقيقة وزنه، إذ هو كبير كبير ما دام في طريق الله، وأن ما فقدته من رجال إنما هم قُرْطُ يتقدمونه إلى الجنة، فكل جهد يقدمه أفرادهم مرصود لهم عند الله، بينما أي جهد يقدمه أعداؤهم قُرْطُ عليهم ووبال.

أما معركة بلاط الشهداء، فهي تلك المعركة التي وقعت بين جيش المسلمين الخارج من الأندلس بقيادة وإليها عبد الرحمن الغافقي سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م للفتح في فرنسا وبين جيش هذه بقيادة ملكها شارل مارتل، وتقدم الجيش الإسلامي يكتسح ما أمامه من قرى وقوات إفرنجية حتى وصل على بعد مئة كيلو متر من باريس بين مدينتي تور وبواتيه الفرنسيتين حيث وقعت المعركة المأساة، إذ قُتل فيها قائدها وارتد المسلمون إلى الوراء، وأما المشابهة بينهما وبين مؤتة فتمثل في قلة جيش المسلمين وكثرة جيش الأعداء في كليهما ومفاجأة العدو للمسلمين، واستشهاد قواد مؤتة وقائد البلاط، وانتهاء كليهما بنهاية غير حاسمة لصالح المسلمين، واكتفاء الروم بارتداد المسلمين وخوفهم منهم أن يكونوا يدبرون مكيدة لهم، وعد كليهما لقاءً بين الإسلام والنصرانية، وأن الثأر يشكل نقطة أساسية في انطلاقتها: مؤتة للحارث بن عمير، والبلاط للسمح بن مالك.

[محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص ٤١ وما بعدها].

ولقد صَوَّرَ الكُتَّابُ الغربيون هذه المعركة تصويرًا خياليًا، وضخموا أحداثها تضخيمًا حادًا، وصفقوا طويلاً لتراجع المسلمين فيها؛ لأنهم عدوه تخليصًا لبلادهم من سيطرة الإسلام عليها، حتى لقد كتب كتابهم في العصر الحديث يفركون أيديهم فرحًا بهذا التراجع الذي لولاه - كما يقولون - لكنت تسمع اليوم الأساتذة يتحدثون عن محمد ﷺ ودينه على منابر جامعات: باريس ولندن ويون..

ومما يصور هذه المشاعر أو بعضها هذه الأبيات لشاعر إنجليزي يقول فيها، واصفًا الجيش الإسلامي ومطامحه البعيدة:

جَمْعٌ لَا يُحْصَى مِنْ شَامٍ وَبَرْبَرٍ وَعَرَبٍ وَرُومٍ خَوَارِجٍ
 وَفُرسٍ وَقِبطٍ وَتَتَرٍ. عَصْبَةٌ وَاحِدَةٌ
 يَجْمَعُهَا إِيْمَانٌ هَائِمٌ، رَاسِخُ الْفَتْوَةِ
 وَحِمِيَّةٌ مُضْطَرَمَّةٌ، وَأَخُوَّةٌ مَرْوَعَةٌ
 وَلَمْ يَكُ الزَّعْمَاءُ أَقْلٌ ثَقَّةٌ بِالنَّصْرِ، وَقَدْ سَمَحُوا بِطُولِ ظَفْرِ
 يَتِيهُونَ بِتِلْكَ الْقُوَّةِ الْجَارِفَةِ
 الَّتِي أَيقَنُوا أَنَّهُمَا كَمَا انْدَفَعَتْ
 حِينَهَا كَانُوا بِلا مَنَازِعٍ، سَتَنْدَفِعُ ظَافِرَةً إِلَى الْأَمَامِ
 حَتَّى يَصْبَحَ الْغَرْبُ الْمَغْلُوبُ كَالشَّرْقِ
 يَطْأُطِي الرُّأْسَ إِجْلَالًا لِاسْمِ مُحَمَّدٍ
 وَيَنْهَضُ الْحَاجُّ مِنْ أَقْصَايِ الْمُنْجَمِ
 لِيَطَأَ بِأَقْدَامِ الْإِيْمَانِ، الرَّمَالَ الْمَحْرَقَةَ
 الْمُنْشَرَّةَ فَوْقَ صَحْرَاءِ الْعَرَبِ وَأَرْضِي مَكَّةَ الصَّلْدَةِ.

عليه

[محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص ٤١ وما بعدها].

إنه تصوير دقيق لشعور الجيش الإسلامي الفاتح في كل زمان ومكان، وإنها لصورة قريبة من صورة جيش مؤتة في: تركيبته، وطموحه، وأهدافه.

أما أنا، فلست أدري مأتى هذا الشعور الذي يخالط نفسي كلما قرأت عن مؤتة أو تذكرتها، شعور تمتزج فيه الهبة بالجلال، والتحزن بالإعجاب، تمامًا هو نفس ما يعتريني عندما تمر على لساني أو سمعي أو ذاكرتي أحداث معركة بلاط الشهداء تلك، نعم، فإن الحرب في كلتا المعركتين حرب انتحارية، ومغامرة جريئة، وبسالة نادرة، اختلط فيهما الفرح بالحزن، والألم بالأمل، والجراح الراحقة بالمطامح المتوثبة، وخيال اليوم بحقيقة الغد، ولعل ما له علاقة بهذا اللون من الشعور الديني ما استمر يتردد بين المسلمين إلى أزمان متأخرة، بعد وقوع تينك المعركتين من أحاديث هي أقرب إلى التعبير عما يكمن في العقل الباطن إلى ما هو في الحقيقة من: رؤية أشباح المتقاتلين في مؤتة مع كل صباح، وسماع الأذان يجلجل في جنبات بلاط الشهداء، إلى عصورٍ طويلةٍ» [ينظر بالنسبة لمؤتة ما سبق أن قلته، ولبلات الشهداء: كتاب محمد عبد الله عنان السابق:

مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص ٦٠]. [نجربة مؤتة لعنوم ١٦٦-١٧١].

٣- هل انتصر المسلمون في مؤتة أم انهزموا؟

يقول أ/ باشميل: «إن سياق أصحاب المغازي والسير فيه اختلاف - بعض الشيء - في وصف معركة مؤتة والحال التي كان عليها الجيش الإسلامي، فبعضهم يقول: إنهم انهزموا بعد مقتل قادتهم الثلاثة، ومضوا في هزيمتهم حتى المدينة، وبعضهم يقول: إنهم صبروا وقاتلوا قتالاً شرساً ولم يتمكن الرومان من التغلب عليهم، حتى صرع قادتهم الثلاثة، فأصابتهم الهزيمة، وأخذوا في الفرار، إلا أن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنقذ الموقف حين تسلم قيادة الجيش، فأعاد المنهزمين، وقام بتنظيم الجيش من جديد، وشن على الرومان هجوماً مضاداً أزال به صفوفهم، وأشاع الرعب في قلوبهم وأحدث فيهم مقتلة عظيمة، ثم انسحب بالجيش سليماً دونما أي فوضى أو اضطراب، وهذا هو الذي ساء بعض المؤرخين فتحاً..

وهذا الرأي الأخير هو الرأي الصحيح وهو ما شهد به النبي ﷺ في حديث أدلى به من على منبر المسجد في المدينة فقد قال ﷺ - وهو أصدق الصادقين - قال وهو يصف معركة مؤتة لأهل المدينة كما أراها الله: «نَابَ خَيْرٌ [خَيْرٌ] وَثَابَ خَيْرٌ [خَيْرٌ] - شَكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ - أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ جَيْشِكُمْ هَذَا الْغَازِي؟! إِنَّهُمْ انْطَلَقُوا حَتَّى لَقُوا الْعَدُوَّ، فَأُصِيبَ رَيْدٌ شَهِيداً، فَاسْتَغْفَرُوا لَهُ»، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ النَّاسُ، ثُمَّ أَخَذَ اللُّوَاءَ جَعَفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَشَدَّ عَلَى الْقَوْمِ، حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً، أَشْهَدُ لَهُ بِالشَّهَادَةِ، فَاسْتَغْفَرُوا لَهُ، ثُمَّ أَخَذَ اللُّوَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَأَثْبَتَ قَدَمَيْهِ حَتَّى أُصِيبَ شَهِيداً، فَاسْتَغْفَرُوا لَهُ، ثُمَّ أَخَذَ اللُّوَاءَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْأُمَرَاءِ هُوَ أَمَرَ نَفْسَهُ»، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُصْبُعَهُ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ هُوَ [إِنَّهُ] سَيِّفٌ مِنْ سُيُوفِكَ فَأَنْصُرْهُ - وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مَرَّةً: فَانْتَصَرَ بِهِ»، فَيَوْمَئِذٍ سُمِّيَ خَالِدٌ سَيِّفَ اللَّهِ... [مسند أحمد ٣٧/ ٢٤٤-٢٤٦، ٢٥٧-٢٥٨ رقم ٢٢٥٥١، ٢٢٥٦٦، وقال الشيخ الأرنؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد جيد من أجل خالد بن سمير، ومجمع الزوائد في المغازي والسير ٦/ ٢٢٩-٢٣٠ رقم (١٠٢١٦)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير خالد بن سمير وهو ثقة. ورواه مختصراً: الدارمي في السير (٢٤٤٨)، وقال الشيخ أسد: إسناده صحيح].

ما حدث في مؤتة هو فتح للمسلمين بدون شك؛ والواقع أننا إذا نظرنا إلى أصل المهمة التي من أجل تحقيقها بعث النبي ﷺ هذا الجيش إلى الشام، لوجدنا أنها مهمة تأديبية فقط، ولم يكن وارد (إطلاقاً) في تعليمات الرسول ﷺ لقادة هذا الجيش أن يحتلوا أية منطقة من الشام، بل كان الهدف التأديب والانتقام من الغادرين الذين قتلوا (غدرًا) رسول النبي ﷺ المبعوث إلى ملك الغساسنة في الجولان، وغدروا بخمسة عشر من الصحابة قتلهم داخل بلاد الشام، وهم بعثة سلام مهمتهم دعوة الناس إلى الإسلام بالحسنى.

فهي (إذن مهمة تأديب وانتقام) على الجيش أن يقوم بها ثم يعود إلى المدينة، ولكن هذا الجيش الصغير (ثلاثة آلاف مقاتل) فوجئ بما لم يكن في الحسبان، حين وجد نفسه أمام مائتي ألف مقاتل من الرومان

والعرب المنتصرة، ولكن قادة الجيش (مع ذلك) واصلوا تحركهم حتى اصطدموا بالرومان وحلفائهم في (مؤتة) على النحو الذي فصلناه، فقاتلوه سبعة أيام، ورغم قتلهم وكثرة العدو أنزلوا بالعدو، وخاصة بعد تسلم القائد خالد بن الوليد قيادة الجيش خسائر فادحة، وقتلوا ضمن من قتلوا (سدوس) أخا شرحبيل بن عمرو الذي غدر برسول النبي ﷺ الحارث بن عمير ﷺ فقتله (صبراً)، كما قتلوا القائد العام لقوات العرب المنتصرة: مالك بن زافلة. [البداية والنهاية ٤ / ٢٥٠].

كما أن القائد ابن الوليد ﷺ - على أصح الروايات - لم ينسحب بالجيش من (مؤتة) إلى المدينة إلا بعد أن ترك الجيش الروماني في حالة اضطراب وهزيمة.

إذن فالجيش النبوي لم ينهزم ولم يفر من (مؤتة)، وإنما انسحب بعد أن قام بالمهمة التي أوكلها إليه الرسول القائد ﷺ، وذلك الذي صنعه خالد بن الوليد ﷺ هو عين الانتصار والفتح، كما أكد ذلك رسول الله ﷺ كما تقدم.

نصر بعد هزيمة: الواقع الذي لا بد من أن يُسَلَّم به الباحث عقب تحقيقه في مختلف النصوص المتعلقة بمعركة (مؤتة) هو أن جيش الإسلام قاتل ببسالة منقطعة النظير طوال ستة أيام، ولكنه في اليوم السادس أصيب بهزيمة منكرة، وتمزق تمزقاً مرعياً، ولكنه في اليوم نفسه استعاد تنظيمه فتلاحمت صفوفه من جديد، بعد أن تحمل القائد خالد بن الوليد ﷺ مسؤولية قيادته، فأعاد إليه ثقته بنفسه، ثم قاده إلى القتال من جديد حتى جعله في اليوم السابع يُنزل بالرومان وحلفائهم أشنع هزيمة، ويسجل لنفسه أروع انتصار، ساء النبي ﷺ - كما تقدم في رواية البخاري - فتحاً.

يُضاف إلى ذلك ما رواه ابن سعد في طبقاته الكبرى عن صاحب رسول الله ﷺ أبي عامر ﷺ أن المسلمين في (مؤتة) هُزموا أسوأ هزيمة عرفوها في تاريخهم عقب استشهاد قادتهم الثلاثة، ثم هُزموا (بعد ذلك) أعداءهم الرومان وحلفاءهم أشنع هزيمة عرفوها في تاريخهم، حيث ركبهم المسلمون ووضعوا فيهم السيوف حيث شأوا، وذلك بعد أن تولى خالد بن الوليد ﷺ قيادة الجيش.

[ينظر طبقات ابن سعد الكبرى ٢ / ١٣٠].

رأي ابن كثير في هزيمة المسلمين وانتصارهم: ومن المؤرخين الذين اعتبروا ما قام به المسلمون في (مؤتة) هو فتحاً وانتصاراً، الإمام ابن كثير الحجة والقُدوة في التاريخ، وقد أيد رأيه هذا في كتابه (البداية والنهاية) بعدة أدلة فقال: (لما قتل ابن رواحة ﷺ مساءً بات خالد بن الوليد ﷺ، فلما أصبح غداً، وقد جعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمته ميسرته، وميسرته ميمته، فأُنكروا (أي الرومان) ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم (يعني المسلمين)، وقالوا: قد جاءهم مدد، فرعبوا وانكشفوا منهزمين، قال: فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم).

ثم يسند ابن كثير رأيه هذا بقول إمام آخر في التاريخ هو موسى بن عقبة، فيقول: (وهذا يوافق ما ذكره موسى بن عقبة رحمته الله في مغازيه، فإنه قال بعد عمرة الحديبية: ثم صدر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فمكث بها ستة أشهر، ثم إنه بعث جيشاً إلى مؤتة، وأمر عليهم زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقال: إن أصيب فجعفر بن أبي طالب أميرهم، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة أميرهم، فانطلقوا حتى إذا لقوا ابن أبي سبرة الغساني بمؤتة وبها جموع من نصارى العرب والروم، بها تنوخ وبهراء، فأغلق ابن أبي سبرة دون المسلمين الحصن ثلاثة أيام، ثم التقوا على زرع أحمر، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فأخذ اللواء زيد ابن حارثة رضي الله عنه فقتل، ثم أخذه جعفر رضي الله عنه فقتل، ثم أخذه عبد الله بن رواحة رضي الله عنه فقتل، ثم اصططح المسلمون بعد أمراء رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد المخزومي رضي الله عنه، فهزم الله العدو وأظهر المسلمين).

ثم يعلق ابن كثير على كلام موسى بن عقبة فيقول: فهذا السياق فيه فوائد كثيرة ليست عند ابن إسحاق، وفيه مخالفة لما ذكره ابن إسحاق من أن خالداً رضي الله عنه إنما حاش بالقوم حتى تخلصوا من الروم وعرب النصارى فقط.

وموسى بن عقبة والواقدي مصرحان بأنهم هزموا جموع الروم والعرب الذين معهم، وهو ظاهر الحديث المتقدم عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»، ورواه البخاري، وهذا هو الذي رجحه ومال إليه الحافظ البيهقي بعد حكاية القولين لما ذكر من الحديث).

ثم يستطرد ابن كثير فيقول: (قلت: ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق وبين قول الباقيين، وهو أن خالداً رضي الله عنه لما أخذ الراية حاش بالقوم المسلمين حتى خلصهم من أيدي الكافرين من الروم والمستعربة، فلما أصبح وحول الجيش ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة - كما ذكره الواقدي - توهم الروم أن ذلك عن مدد جاء إلى المسلمين، فلما حمل عليهم خالد رضي الله عنه هزموهم بإذن الله. والله أعلم.

وفي موضع آخر يقول ابن كثير معضداً رأيه بأن جيش الإسلام قد انتصر في مؤتة، بعد أن أورد حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه والمددي الذي أخذ خالد رضي الله عنه سلبه: (وهذا يقتضي أنهم غنموا منهم وسلبوا من أشرافهم وقتلوا من أمرائهم، وقد تقدم فيما رواه البخاري أن خالداً رضي الله عنه قال: اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية، وهذا يقتضي أنهم أثنوا فيهم قتلاً، ولو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلص منهم، وهذا وحده دليل مستقل. والله أعلم.

وهذا هو اختيار موسى بن عقبة والواقدي والبيهقي، وحكاه ابن هشام عن الزهري.

قال البيهقي رحمته الله: اختلف أهل المغازي في فرارهم - أي المسلمين - وانحيازهم، فمنهم من ذهب إلى ذلك، ومنهم من زعم أن المسلمين ظهروا على المشركين وأن المشركين انهزموا.

قال: وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه - أي الذي أخرجه البخاري - عن النبي صلى الله عليه وسلم «ثم أخذها - أي الراية - خالد ففتح الله عليه» يدل على ظهورهم عليهم. والله أعلم.

قلت: وقد ذكر ابن إسحاق أن قطبة بن قتادة العذري - وكان رأس ميمنة المسلمين - حمل على مالك بن زافلة، ويقال: رافلة، وهو أمير أعراب النصارى فقتله، وقال يفخر بذلك:

طَعَنْتُ ابْنَ زَافَلَةَ بْنِ الْإِرَا شِ بِرُمَحٍ مَضَى فِيهِ ثُمَّ انْحَطَمَ
ضَرَبْتُ عَلَى جِيدِهِ ضَرْبَةً فَمَالَ كَمَا مَالَ غُصْنُ السَّلَمِ
وَسُقْنَا نِسَاءَ بَنِي عَمِّهِ عَدَاةَ رُقُوقِينَ سَوَوْا النَّعَمَ

وهذا يؤيد ما نحن فيه؛ لأن من عادة أمير الجيش إذا قُتل أن يفر أصحابه، ثم إنه صرح في شعره بأنهم سبوا من نسائهم، وهذا واضح فيما ذكرناه. والله أعلم.

وأما ابن إسحاق فإنه ذهب إلى أنه لم يكن إلا المحاشاة والتخلص من أيدي الروم، وسمى هذا نصراً وفتحاً، أي باعتبار ما كانوا فيه من إحاطة العدو بهم وتكاثرهم وتكاثرهم عليهم، فكان مقتضى العادات أن يصطلحوا بالكلية، فلما تخلصوا منهم وانحازوا عنهم كان هذا غاية المرام في هذا المقام، وهذا محتمل، لكنه خلاف الظاهر من قوله صلى الله عليه وسلم: «فتح الله عليهم»، والمقصود أن ابن إسحاق يستدل على ما ذهب إليه فقال: وقد قال فيما كان من أمر الناس وأمر خالد بن الوليد رضي الله عنه ومحاشاته بالناس وانصرافه بهم قيس بن المحسر اليعمري رضي الله عنه يعتذر مما صنع يومئذ وصنع الناس يقول:

قَوَالَهُ لَا تَنْفُكُ نَفْسِي تَلُومُنِي عَلَى مَوْقِفِي وَالْخَيْلُ قَابِعَةٌ قَبْلُ... إلخ

قال ابن إسحاق: فبين قيس رضي الله عنه ما اختلف فيه الناس من ذلك في شعره أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت، وحقق انحياز خالد رضي الله عنه بمن معه.

قال ابن هشام: وأما الزهري فقال - فيما بلغنا عنه -: أمر المسلمون عليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه ففتح الله عليهم، وكان عليهم حتى رجع إلى المدينة). [البداية والنهاية ٤ / ٢٤٧-٢٥٠].

تحقيق المقام في أن ما قام به خالد في (مؤتة) نصر لا مثيل له: والواقع أن ما فعله جيش الإسلام الصغير في مؤتة، وما قام به القائد الفذ خالد بن الوليد رضي الله عنه من انسحاب منظم بهذا الجيش حتى وصل به المدينة سليماً وعلى تعبئة تامة، بعد قتال ضارٍ عنيف استمر سبعة أيام في (مؤتة)، هو عين البطولة، ويمثل أعلى درجات النصر، هذه حقيقة تؤكد صحتها كل الأعراف والمقاييس العسكرية في كل عصر وزمان. وإلا فماذا يريد الذين يُصرُّون على تسمية ما حدث من جيش الإسلام في (مؤتة) هزيمة وانكساراً وفرازا؟

هل يريدون من هذا الجيش الصغير أن يظل يصارع الرومان حتى يفنى عن آخره جوعاً أو قتلاً بالتقسيط.

إن بقاء الجيش الإسلامي يقاتل الرومان في مؤتة إلى ما لا نهاية بعد استمراره سبعة أيام يقاتلهم فيها بضراوة، يعتبر ضرباً من الانتحار، لا يرضاه النبي ﷺ؛ ولهذا رأينا النبي ﷺ يُثني أعظم الثناء على القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه ويسميه سيف الله؛ لأنه انسحب بالجيش انسحاباً منظماً جنبه ما كان يخشى عليه من إبادة وتمزيق.

أعلى وسام في الدولة تمنحه بريطانيا للقائد الذي نجح في الانسحاب من أدنكرك: وفي القرن العشرين رأينا كيف منحت ملكة بريطانيا القائد الإنكليزي في (فرنسا) أعلى وسام في الدولة؛ لأنه نجح في الانسحاب بالجيش من دانكرك في فرنسا إلى بريطانيا بأقل خسارة ممكنة، انسحب من أمام جيش الألمان الذي هو مساوٍ له في العدد، ولكن الجيش البريطاني كان مُنهكاً في القتال لبُعد خطوط تموينه وعدم وجود من يخلفه ليأخذ شيئاً من الراحة.

فكيف إذن لا يُسمى ما قام به خالد بن الوليد رضي الله عنه حين قام بسحب جيشه على ذلك النحو المشرف، وبذلك الأسلوب البارع أمام سمع وبصر مائتي ألف مقاتل من الأعداء وقفوا مشلولي الحركة لا يُحرِّكون ساكناً ضد هذا الجيش الصغير وهو ينسحب من الميدان، مع أن عدده لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل، كيف لا يُسمى ما قام به خالد بن الوليد رضي الله عنه نصرًا وفتحًا؟

وما أعرف الرسول النبي والمحارب والقائد ﷺ وأبصره بالشؤون العسكرية، وما أقدره على تقدير ظروف وملابسات المعارك، ولقد برهن الرسول الأعظم ﷺ على أنه قمة في المعرفة بأقدار الرجال حين منح القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه لقب (سيف الله)، في الوقت الذي تلقى فيه جمهور المدينة خالدًا رضي الله عنه وجيشه بالحجارة يقذفونهم بها والتراب يحثونه في وجوههم ساعة عودتهم من معركة مؤتة.

إن تصرف الرسول القائد ﷺ إزاء القائد والجيش العائدين من (مؤتة) يدحض كل زعم قائل: إن جيش المسلمين قد فر وانهزم، أو أنه لم يحقق الأهداف التي تحرك من المدينة لتحقيقها.

[غزوة مؤتة لباشميل ٢٤٣-٢٤٩].

٤ - معالم النصر في معركة مؤتة:

يقول د/ العتوم: «ما وزن معركة مؤتة في التاريخين: العربي والأجنبي؟ ما موقعها بين غزوات المسلمين؟ هل حققت أغراضها؟ وبالتالي: هل نجحت أم أخفقت؟ وقبل أن أخوض في حديث النجاح والإخفاق بعرض الآراء المتعددة في هذا الشأن، لابد من الإشارة إلى الهدف الذي خرجت الحملة من أجله، وهل حققته أم وقعت دونه؟!

لقد كان الغرض منها، نصر العقيدة الإسلامية، والثأر لمبعوث رسول الله ﷺ، وتأديب المعتدين من الأعراب، وإشعار الروم بأن المسلمين - وإن كانوا قلة - قادرون على أن يثأروا لكرامتهم، لا تنهيمهم عن ذلك قوة في العالم مهما عظمت، وأنهم مستعدون لضرب عدوهم في عُقر داره، دون أن يسمحوا له بوطء ديارهم ولو قيد شبر واحد، ثم اختبار قوة المسلمين، وقوة عدوهم، وكشف الطريق التي طالما سيسيرونها عليها إليه.

(أ) معالم النصر على الطريق إلى المعركة: إن مجرد استجابة ثلاثة آلاف محارب هم أكبر قوة عسكرية يفرزها المجتمع الإسلامي منذ أن كانت الدولة في المدينة، وتجمعهم في معسكر الجرف على جناح السرعة، وهم يعرفون أنهم يحشدون للاصطدام بأكبر دولة في العالم، هو أول مؤشر إيجابي على طريق النصر هؤلاء القوم، ولو بعد حين، فأول الغيث قطرة ثم ينهمر، والنصر يُكتسب بالدرجة الأولى بالعزيمة وقوة المعنويات، لا بضخامة العدد، وكثرة المعدات.

هذه واحدة وواحدة أخرى ما يحدثننا به التاريخ من أن هذا الجيش لما فصل من الجرف لقيه في وادي القرى خمسون رجلاً من عرب الغساسنة، كان قد بعثهم طليعة لناوشته، شرحبيل بن عمرو الغساني، قاتل الحارث بن عمير رضي الله عنه، بقيادة أخيه سدوس بن عمرو، فما كان من المسلمين إلا أن أوقفوا بهم هزيمة منكرة، كان من آثارها أن قتلوا سدوساً نفسه، رأس هذه الطليعة الأئمة. [المقريزي: إمتاع الأسماع ١/ ٣٤٧].

وواحدة ثالثة أن هذا الجيش المصطفوي، مضى بتصميم لا يعرف الخور يجتاز حدود دولة الروم، على الرغم من كثرة ما فيها من قلاع كانت «تنتشر في هذه المنطقة، تبييناً للحماية أو تعبيراً عن الاحتلال، أو رعاية لطرق التجارة، أو إرساداً لمن أراد الغارة». [شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ٢٦].

وواحدة رابعة من معالم هذا النصر، ذلك الرعب الشديد الذي قذفه الله في قلوب الروم تحوفاً من الجيش الإسلامي مما دفعهم لحشد هذا الجحفل الجرار من عرب وروم، لملاقاته بحيث أعدوا لكل مسلم مائة أو سبعين منهم، أي أنه وقع في قلوبهم أن نسبة نصرهم في هذه المعركة مع هؤلاء المسلمين هي: ١٪ أو ٤، وهي نسبة راسبة في التقديرات العسكرية.

وواحدة خامسة أن المسلمين على الرغم من وقوفهم على هذا العدد الضخم من جنود العدو في معان، إلا أن ذلك لم يفت في عضدهم، بل مضوا قدماً كالسباع الضواري يسمعون ويطيعون لمشورة رجل منهم يذكّرهم بأنهم منصورون ما داموا قد خرجوا في سبيل الله، فهم لا يقاتلون بكثرة عدد أو عدد، ولكن يقاتلون بهذا الدين الذي أكرمهم الله به.

وواحدة سادسة أنهم لما رأوا قوات العدو عياناً في مآب، وما يتدجج به جنده من سلاح لم يرهبهم ذلك، ولم يغيّر من موقفهم شيئاً، بل صمدوا لحربه غير هيايين ولا وجلين يدوي في مسامعهم قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلُظْوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال).

(ب) معالم النصر من المعركة: على الرغم من ضراوة معركة مؤتة، وحقد الرومان المير على المسلمين، وضغطهم الثقيل بقواتهم على مقدمات جيشهم، إلا أنهم أتوا من الأعمال ما يُعد آيات باهرات في سجلات الانتصار الحربي على أي اعتبار، فمن ذلك مصابرتهم، ورباطة جأشهم ولا سيما قوادهم الثلاثة: فهذا زيد رضي الله عنه يغدو جسمه مخرقاً كالغربال من كثرة الطعنات، فتسيل نفسه على حد الطبات، وهو يأبى النكوص على عقبه، وهذا جعفر رضي الله عنه يقتحم حتى لات مقتحم فينزل من على جواده ويعقره حتى لا يستفيد منه العدو، ثم يمضي يقاتل قتالاً انتحارياً، ذاباً عن الراية، فتقطع يداه، ويُقدُّ جسمه نصفين، ويُحرق بدنه هو الآخر، وهذا عبد الله رضي الله عنه يخوض لجج المنايا، وهو يرى صاحبيه قد صُرعاً أمامه فيحرم نفسه لذة الطعام مخافة أن يؤخره ذلك عن لقاء الله، وها هو يُدَلِّكُ بالدم الشاخب من جسمه وجهه غبطةً وسروراً؛ لأنه دُمَّ أهرق في سبيل الله، كل ذلك وهم يستقبلون الطعنات في نحورهم، فما أصدق قول الأول فيهم:

وَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقَطُّرُ الدِّمَاءُ

وهذا ثابت بن أقرم رضي الله عنه يتشل الراية أن تسقط على الأرض فيتسلمها ويتصر في هذه اللحظات على نفسه إذ يؤثر بها أخاه في الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، معللاً ذلك بأنه أقدر منه على القيادة، وإن كان هو أقدم منه سنّاً وإسلاماً.

وما من شك أن الإيثار بالرياسة من أسمى أنواع الإيثار.

وهذا خالد رضي الله عنه يتسلم القيادة في أخرج الظروف، فلا ينكل بل يمضي قدماً بطاعن في لبات الأعداء حتى تندق في يده تسعة سيوف، ولا تثبت فيها إلا واحدة هي العاشرة.

[ابن الديبع الشيباني، حقائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، القسم الثاني ص ٦٥٧].

وللتصور كم قتل رضي الله عنه، وهو لا يخفى بسالة - من العدو وقد كسّر فيه تسعة أسياف من الحديد لا من الخشب أو (الكرتون)؟! ويعلق ابن كثير على ذلك تعليقاً طريفاً فيقول: «فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها، دَعْ غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن، وقد تحكّموا في عبدة الصليب، عليهم لعائن الرحمن، في ذلك الزمان، وفي كل أوان». [السيرة النبوية ٣/ ٤٨٩].

وها هو نفسه رضي الله عنه وقد تسلم الراية يعمل من التدابير الحربية، ما يوهن بها قوى العدو، ويضعف معنوياته، إذ بات يعيد ترتيب الجيش حتى إذا طلع الصباح رأى العدو من المسلمين ما لم يكن يراه، إذ تقدمت وجوه وتأخرت أخرى، وأيمنت وجوه، وأشأمت غيرها، فظن أن مدداً قد جاء لهم، فأسقط في يده، ولم يعد له في الحرب مطمع، هؤلاء الذين يتساقون المنية طواعية واختياراً يطلبون الشهادة ورضوان الله.

بل ها هو قطبة بن قتادة العذري رضي الله عنه قائد ميمنة الجيش يحمل على مالك بن زافلة زعيم متنصرة العرب، فيطيح برأسه، ويسوق نساءه ونساء بني عمه أمامه سوق الأنعام [السيرة النبوية ٢/ ٣٨١]، إلى موضع رقوقين، مما حدا ببعض من تعرض لدراسة هذه الغزوة، أن يُرجَّح انتصار المسلمين فيها على الروم، انتصارًا حاسمًا، وأنهم لحقوا فلولهم بعد أن تفرقوا في الوديان المحيطة بقرية مؤتة، إلى بلدة (راكين) الحالية، والتي يذهب إلى أنهار تحريف عن (رقوقين) القديمة [عبد الله النصور، أضواء على نتيجة معركة مؤتة، الرأي الأردنية سنة (٨) في ١٣/ ٣/ ١٩٨٢ ص ١٠ وفي شرح السيرة النبوية للخشن، رقوقين: اسم موضع ويرى: مرقوفين، وأظنه خطأ طباعيًا إذ يقصد (رقوفين) ج ٢ ص ٣٥٧]، وهي تبعد أكثر من عشرين كيلومترًا إلى الشمال من مؤتة.

وإذا كان يظن أن عدد القتلى من الرومان كثير جدًا هذه المعركة حسبما تشير إليه معطياتها، فإن عدد القتلى من المسلمين لم يتجاوز عند الأقدمين اثني عشر محاربًا، وإذا كنتُ ذهبتُ إلى أنه قد يصل إلى العشرين، فإنه ما زال عددًا قليلًا جدًا، وإنه لمن علائم النصر أن يتقاتل جيشان: جيش عدته أكثر بسبعين ضعفًا على الأقل من جيش آخر ولا يُقتل من هذا إلا ما يُنَبِّفُ على عشرة رجال.

ومن معالم النصر كذلك ومن ساحة القتال أن المسلمين أسروا بعض الأسرى، وغنموا بعض الغنائم، إذ يذكر أن يزيد بن تميم أحد أجداد ديك الجن الحمصي الشاعر أصله من مستعربة مؤتة، وقد أخذه الجيش الإسلامي من جيش هرقل أسيرًا، وأسلم أخيرًا على يدي حبيب بن مسلمة الفهري.

[ينظر ص (٥) من مقدمة ديوان ديك الجن والأصل من أعيان من الشيعة ٣٨/ ٢٩].

ومن الغنائم ما حدثه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «غنم المسلمون في مؤتة بعض أمتعة المشركين، فكان مما غنموا خاتمًا (كذا)، جاء به رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: قتلت صاحبه يومئذ فنقله رسول الله ﷺ إياه». [الواقدي، المغازي ٢/ ٧٦٨].

ومنها كذلك تلك الياقوتة التي غنمها (غزية) بعد أن قتل صاحبها، فأتى بها رسول الله ﷺ فنقلها إياه، فباعها زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمائة دينار، فاشترى بها حديقة نخل من أرض بني خطمة.

[الواقدي، المغازي ٢/ ٧٦٨].

ولا ريب أن مجرد تسلم خالد رضي الله عنه للقيادة في هذا الطرف، كان بمثابة انتصار للمسلمين؛ ذلك لأن القتل استحرَّ بهم، وكادوا ينكشفون، فكان ظهوره فاتحة خير لهم، كما في حديث أبي عامر عن ابن سعد، «أن خالدًا رضي الله عنه لما أخذ اللواء حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤوا» [ينظر: الطبقات ٢/ ١٣٠]، ورد الله المشركين على أعقابهم خاسرين، أو على الأقل انحازوا عنهم [ابن سيد الناس، عيون الأثر ص ١٥٥]، فلم يقوموا بمطاردتهم التي قد تُضعف صفوفهم.

ومما يؤيد هذا الاتجاه في التفسير أن رسول الله ﷺ، بعد أن أعلم بتولي خالد ﷺ القيادة دعا له فقال: «اللَّهُمَّ هُوَ [إِنَّهُ] سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِكَ فَانْصُرْهُ - وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مَرَّةً: فَانْصُرْ بِهِ»، فمن يومئذ سُمي خالد ﷺ سيف الله، وفي موضع آخر أنه قال: أمر المسلمون عليهم خالد بن الوليد ففتح الله عليهم [ابن كثير، السيرة النبوية ٣/ ٤٦٦، ٣٨٣]، وما من ريب كذلك أن على رأس التدابير الحربية التي صنعها خالد ﷺ وكانت معلماً من معالم الانتصار في هذه الغزوة تضاف إلى المعالم الأخرى، خطة الانسحاب.

(ج) الانسحاب المنتصر: رجع خالد ﷺ بالجيش إلى المدينة بعد أن أدرك أنه أدى مهمته التي خرج من أجلها، وهي مهمة محددة الأغراض، وعلم أن بقاءه في أرض العدو قد يعرض جيشه للخطر، وخاصة أنهم لم يكونوا يحملون - في تلك الأثناء - مخططاً تفصيلياً لفتح تلك البلاد والسيطرة عليها، كما هو الشأن فيما حصل من بعد، غير أنه عمل في رجوعه من التدابير ما أوقع الرعب في قلوب الروم، كما أوقعه فيها أثناء هجومه، فكان ذلك دلائل نصر للمسلمين حتى وهم ينسحبون من أرض المعركة.

فقد بدأ خالد ﷺ يتراجع رويداً رويداً وبشكل منظم، وقد نشر مؤخرة جيشه جبهة عريضة، وأتبعها بثلة من الفرسان التي تتحرك ورائها بشكل دائري تثير الغبار وتقرع الطبول [محمود شيت خطاب، الرسول القائد ﷺ ص ٢٠٩]، مما أوهم العدو بقدوم مدد للمسلمين؛ ولذلك خنسوا في أماكنهم ولم يجرؤوا على اللحاق بهم، ولا سيما أن هذا الانسحاب أوقع في نفوسهم تحوفاً من أن المسلمين يقصدون من ورائه جرهم إلى الصحراء، حيث يخططون لمنازلتهم وهو ما لا قبيل لهم به.

[محمد الخضري بك، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص ١٢٩].

وجدير بالذكر أن المسلمين كانوا وهم ينسحبون ما زالوا يتمتعون بمعنويات جد عالية لم تتل منها أحداث الغزوة شيئاً، يدل على ذلك أنهم وهم يتحركون في أرض العدو على مسافة طويلة، وفيها ما فيها من الحاميات، لم يتعرض لهم أحد بسوء، بل لقد حصل العكس، إذ هاجم المسلمون في انسحابهم أحد الحصون الرومانية، وكان من فيه قد تعرضوا للمسلمين أثناء سيرهم إلى مؤتة، فحاصروهم في حصنهم حتى فتحه الله عليهم، وقتلوا من فيه من المقاتلة وهدموه، وعرف ذلك الحصن لكثرة من قتل فيه من العدو بنجيع الدم. [ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (سلفية) ٧/ ٥١٤].

لهذا وصفت انسحاب خالد ﷺ بالمنتصر؛ لأنه انسحاب جاء بعد تأدية الواجب، والرجوع بالجيش سالماً دون أن يتحرق به عدو، بل أوقع في نفوس العدو خوفاً رعباً، إلى جرهم الرغيب الذي أصابهم أثناء المعركة.

ولقد حلا لبعض العسكريين المحدثين أن يقارنوا بين انسحاب المسلمين في مؤتة وانسحاب برطانيا وحلفائها في هذا العصر من معركة (دنكرك) في ٣١/ ٥/ ١٩٤٠ م أمام القوات الألمانية، تاركين معداتهم

على الشاطئ الفرنسي ناجين بسمعتهم العالمية أن تُمس، مما كان له أثر سيئ على سمع تشرشل وزير المستعمرات البريطاني آنذاك، إذ وقف في مجلس العموم البريطاني ينعي مصير هذه الحملة بحزن وأسى عميقين، غير أن القادة والمفكرين السياسيين - على العكس من ذلك - عدّوا هذه الحملة نصراً مؤزراً لبريطانيا وحلفائها إذ حفظت عليهم ماء هيبتهم أمام الرأي العام العالمي، وكذلك بدأت الألقاب الرفيعة وعبارات الثناء تنهال على قواد الحملة وما زالت حتى اليوم، حيث أصبحت هذه القوات المنسحبة - فيما بعد - نواة لحملات جديدة أعدت لغزو القارة الأوروبية وراحت تمر على أماكن انسحابها الأولى وهي ظافرة مرفوعة الرأس. [الزعيم الركن يوسف أحمد كعوش، من أعلام تاريخنا العسكري ص ٣٣].

وأقول: جميلة هذه المقارنة الظاهرية ولكن، أين هذه من تلك؟! فمؤتة كانت حملة فتح، وقافلة خير، ومعركة عقيدة، تريد أن تقف بجانب المظلومين والمستضعفين لإنصافهم من المتجبرين والطغاة، وتعيد الموازين المقلوبة بأيدي الظلمة إلى اتزانها، بينما كانت (دنكر) وغيرها من الحروب العالمية الحديثة كالعلمين، وليننجراد، وواترلو مثلاً، حروباً استعمارية تضيف إلى بلاوي الناس بلاوي جديدة، وتزيد من نزف جراحاتهم الراحقة، وتمكن للطغاة في الأرض يتسلطون على رقاب الضعفاء؛ ولذا كانت إشارة ثاقبة ما انتقد على لسان الدكتور على شلق وهو يقارن بين (واترلو) ومؤتة، وذلك في قوله: (فالمعركة الأخيرة التي خاضها نابليون بونابرت: واطرلو، أظهرت أنه من أبرع قواد المعارك في التاريخ، ولكنه بها انتهى أسيراً إلى (سانت هيلانة)، وغزوة مؤتة شيء أكبر من واطرلو؛ لأنها كانت في سبيل مبدأ سام، وعقيدة نبيلة لا طلباً لمجد، أو حقداً على شعب». [محمد ﷺ ص ٦٥].

غير أنني لست مع الدكتور شلق في أخذه على نابليون انتهائه إلى السجن بعد واطرلو، فليس السجن عيباً للرجال، ولا سيما إذا كانوا أصحاب مبادئ نبيلة يدافعون عنها، وإنها العيب في نابليون وأمثاله من قواد الغرب، أنهم كانوا يرمون من وراء حروبهم إلى السيطرة الاستعمارية، فنابليون نفسه، ما أن قام بالثورة على ملوك فرنسا رافعاً شعاراته المعروفة: حرية، إخاء، مساواة، حتى ساق منذ الأيام الأولى للثورة قواته الاستعمارية على مصر والشام، وصار ملكاً أكثر من ملوك فرنسا، بل جباراً كغيره من جبابرة التاريخ القدامى والمحدثين، إن لم يكن أعنى منهم وأقسى، بينما بقي خالد ﷺ وغيره من قواد المسلمين على الرغم من الفتوحات العظيمة التي انهالت عليهم، أصحاب دعوة كريمة يعيدون الفضل في كل أمر إلى الله، ويتواضعون لخلق الله، فإن أحدٌ خيراً من أحدٍ إلا بالتقوى.

(د) قضية الضُرار: وتلقانا في نهاية حركة الانسحاب هذه صيحة: الفرار التي واجه بها المسلمون

خالدًا ﷺ وجيشه تعبيراً وتأنيباً، فما سببها وما حقيقتها، وما موقف الرسول ﷺ منها؟!

لما سمع المسلمون بَدْثُ الحملة من المدينة، خرجوا إلى الجرف يتلقونها، وهم يصيحون في وجه جندها صيحات الاستنكار، ويحثون في وجوههم التراب قائلين: يا فُرَّار، أفررتُم في سبيل الله؟! ويرى بعض العلماء أن هذه الكلمة لم تثبت من فراغ، وأن المعيرين إنما فعلوا ذلك لأنهم رأوا طائفة من جيش المسلمين فرت من المعركة عائدة إلى المدينة لما رأت من كثرة العدو في مؤتة [ابن كثير، السيرة النبوية ٣/ ٤٦٩]، وما وقع من قتل في صفوف المسلمين، ولا سيما أن بعضهم لم يعتادوا هذا النوع من الحروب، ولم يعانوا أمثال هذه الحشود من قبل، فرجعوا إلى المدينة قبل أن تنتهي المعركة إلى ما انتهت إليه.

ومع أنني لا أستبعد أن يكون بعض المسلمين انكشفوا في هذه المعركة، فتركوا مواقعهم، أو حاولوا ذلك، فإنني لا أرى أن هذه الصيحة كانت تقصد طائفة من الجيش هم الذين فروا - إن كان صحيحاً أنهم فعلوا ذلك - ولا سيما أن بعض المصادر التي تشير إلى هذه الطائفة تذكر منهم عبد الله بن عمر رضي الله عنه [ابن كثير، السيرة النبوية ٣/ ٤٦٩]، وكيف يفر عبد الله رضي الله عنه وهو الذي خرج في أحد - قبل مؤتة بخمس سنوات - مصمماً على القتال على الرغم من أن سنه (القانونية) لم تكن تسمح له بذلك؛ ولذلك رُدَّ عن أحد وأُجيز في الخندق وهو ابن خمسة عشرة سنة [ابن هشام، السيرة النبوية (الجلبي) ٢/ ٦٦]، وكيف يفر عبد الله رضي الله عنه، وهو من أتقى الصحابة، وأورعهم، وأزهدهم، وأرغبهم في الجهاد في سبيل الله؟! بل كيف يجوز هذا عليه وهو الذي ثبت في مؤتة والوطيس يحمي ويشدد، وعنه جاء الخبر بعدد الطعنات التي أحصيت في جسد جعفر الطاهر رضي الله عنه مقبلاً غير مدبر.

وفي اجتهادي أن المعيرين، كانوا يقصدون بهذه الكلمات، الجيش كله، مدفوعين إلى ذلك بحزنهم الشديد على قتل القواد الثلاثة وهم من خيرة الصحابة، ومن أسبقهم إلى الإسلام، وأقربهم إلى قلب رسول الله ﷺ، فكأنهم يقولون لهم، مؤننين: كيف طابت أنفسكم أن تعودوا إلينا وتحلفون وراءكم في أرض العدو: زيداً وجعفرًا وعبد الله رضي الله عنه؟! أو لعلهم كانوا ينكرون عليهم أن يعودوا إلى المدينة دون أن يتبعوا الروم ومن معهم في هزيمتهم وتركوا الأرض التي قاتلوا عليها كما هي، ولم يكن ذلك من شأنهم في الغزوات الأخرى، وكأنهم يقولون لهم: كان الأولى بكم أن تستثمروا هزيمة المشركين إلى آخر حد، فتطردوهم من بلاد الشام، بل وتلاحقوا فلولهم إلى عاصمتهم القسطنطينية!!

إنَّه أمل طموح، لا أستبعد أنه كان وراء هذه الصيحات، وأنه كان يحول في خواطر المسلمين الذين رُبُّوا على أنهم هم الأعلون دائماً ما داموا يستمدون تعاليمهم من السماء، ويستمدداً غيرهم من الأرض، وإنهم لوائقون - في إطار هذه التعاليم - أن القسطنطينية ليست عن مرامهم ببعيدة، فلقد أخبرهم رسولهم الكريم - عليه صلوات الله وسلامه - أنهم سيفتحونها، وروما يوماً، على أنها قبلها، فنعم الجيش جيشها،

ونعم الأمير أميرها. (سألت الشيخ ناصر الدين الألباني أكثر من مرة عن هذا الحديث فأخبرني بصحته من ثمان طرق).

ولعل المسلمين وهم يصيحون في وجوه إخوانهم العائدين من المعركة لم يكونوا يدركون تمامًا أبعاد المخطط الشامل الذي يرسم في ذهن رسول الله ﷺ للمنطقة وللعالم بأجمعه من حولهم، وما يمكن تنفيذه منه الآن، وما يمكن تنفيذه بعد، وأن ما قُطع كافٍ لتغطية المرحلة الأولى، ومن ثم تأتي المراحل التالية، ومن هنا راحوا يستقبلونهم بصيحات: (الفرارون)، وراح يرد عليهم ﷺ: بل هم الكرارون العكارون [أحمد زيني دحلان، السيرة، مجلد (٢) ص ٢٢٨، والعكارون بمعنى: (الفرارون)]، إن شاء الله، وأنه هو ففتحهم، وقد انحازوا إليه، وسيقذف بهم بعد قليل في وجوه الروم حتى يخلعوه من الشام كلها خلع الإصطفائية (الجزرة).

وهو ما حدث بالفعل، فلم تمر على غزوة مؤتة سوى بضع سنوات حتى رأينا المسلمين يحتاجون هذه البلاد يفتحونها بأكملها، ويشاء الله سبحانه أن يستولي خالد ﷺ أول ما يستولي من هذه البلاد على بصرى الشام التي قتل أحد أتباع أميرها، الحارث بن عمير ﷺ الذي كانت بسببه هذه الغزوة.

إنه فرط الثقة بالنفس عند المسلمين، هو الذين دفعهم ليستكروا هذه العودة دون أن تبلغ أقصى ما يُستطاع، إنه دافع عامٌّ ولم يكن دافعاً شخصياً كما يزعم المستشرق الإنجليزي مونجمري وات، وأن المقصود بذلك هو التشجيع على خالد ﷺ، وتفنيد قراره بالعودة الذي اتخذه - بزعم هذا المستشرق - بسبب مدة الغياب بعيداً عن القاعدة، أو ربما لجهله بالأسباب الحقيقية للغزوة، إذ يبدو أن التعليمات التي أعطيت لزيد ﷺ هي من تاريخ لاحق، وأن الرواية التي تقول بأن محمداً عَيْنَ جعفرًا وعبد الله ﷺ لخلافته موضوعه هدفها اتهام خالد ﷺ بأنه تولى القيادة بصورة غير شرعية، بل يمكن أن يعد تضخيم عدد العدو إلى مائة ألف رجل، جزءاً من الدفاع عن خالد ﷺ.

[محمد في المدينة، تعريب شعبان بركات ص ٨٠، ٨١].

لكأنَّ خالدًا ﷺ، لم يكن في جيش مؤتة الذي اجتمع في الجرف يستمع إلى تعليمات رسول الله ﷺ التي يشرح فيها أهداف الغزوة وملابساتها؟!

وكان تعيينه ﷺ للقواد الثلاثة بالترتيب لم يرد به حديث في البخاري؟!

[ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (سلفية) ٧/ ٥١٠].

وكيف يتهم خالد ﷺ بتولي القيادة بصورة غير شرعية، والمسلمون اختاروه بعد استشهاد عبد الله ﷺ، وفي وصية رسول الله ﷺ للجيش تلميح إلى إمارته، وفي حديثه في المدينة تصريح بهذه الإمارة، وقد وردت بذلك النصوص الصحيحة، ولم يضخم عدد الجيش الرومي وجل المصادر تُجمع على أنه أكثر من

مائة ألف؟! ثم ما مناسبة حشر خالد رضي الله عنه مع عدد الجيش، أم أن الأمر لا يعدو الرغبة الكامنة في إثارة الشبهات على أية حال؟! وأن المسألة في الإسلام هي مسألة أشخاص لا مسألة دين ورسالة؟!

ومثل هذا في الافتئات على الحق ما يدعيه المستشرق (موير) من أن الرواية التي تقول بأن الرسول ﷺ أخبر الصحابة وهو في المدينة بما كان يحدث للجيش الإسلامي في مؤتة، قبل أن يصله الخبر، خرافة لأن الخبر كان قد وصل إليه من أول رسول أرسله خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى المدينة، وعلى ذلك فليست هناك معجزة، كما يقول المسلمون. [نقلًا عن كتاب: محمد رسول الله ﷺ للأستاذ محمد رضا ص ٢٩٩].

عجبا: كيف تكون هذه الرواية خرافة وهي مسطورة في صحيح البخاري كذلك؟! ومنصوص فيها على أنه ﷺ: نعى القواد الثلاثة للمسلمين قبل أن يأتيهم خبرهم.

ثم إن ثبوت المعجزات والوحي للرسول أمر مقرر في كل دين، إلا أن يكون دينًا محرفًا!! غير أنه يبدو أن المسألة ليست مسألة علم ومنطق، إنما هي مسألة هوى، وهو ما يُعْمِي عن الحقيقة ويصم، وجرأة على الفتيا أيًا كان الأمر.

وفي الحديث: «أَجْرُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرُكُمْ عَلَى النَّارِ» [الدارمي في المقدمة (١٥٩)]، وقال الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» ٤/ ٢٩٤ رقم ١٨١٤: [ضعيف]، وقد يكون مع هذا المفتي دليل، فكيف إذا لم يكن معه؟! بل كيف إذا كان الدليل ضده؟!

وأخيرًا فإنني أرى في استقبال المسلمين لجيش مؤتة بهذه الصيحات، سواء أكانت عن مبالغة في الحزن، أم مبالغة في الثقة، معلما آخر من معالم الانتصار في هذه الغزوة يُضاف إلى المعالم الأخرى.

[تجربة مؤتة للعتوم ١٣٧-١٤٩].

. (هـ) معنويات عوال: وفي موضع آخر يقول د/ العتوم: «لقد ذهب في الفصل الثالث من هذا البحث وهو تبيين الغزوة وتقويمها، إلى ترجيح كفة النصر بجانب المسلمين، وحدثت هناك ما عدت من هذه المرجحات، وأجدني الساعة أضيف إليها مرجحا قويا يتقل في ميزان الانتصارات، وهو هذه الروح التي استقبل بها المسلمون جيش مؤتة، وهو عائد لتوه من هذه المعركة الراهية.

لقد استقبل أفرادها بالتعنيف، إذ عادوا دون أن يحسموا المعركة مع البغاة، وبلغ من شدة هذا التعنيف أن يُقصد الرجل من أهل مؤتة في بيته فيدق عليه بابه، فلا يفتح خجلا من الطارق الذي يقول له، مؤنبا: أما كان الأجدر بك أن لا تعود هذه العودة غير المرضية، مما يجعل هذا وأمثاله - ولا سيما كبير السن - يقعد في بيته استحياء من مقابلة الناس لكثرة ما عُيِّر به، ولا يجد في نفسه الجرأة على الخروج، إلا بعد أن يبعث إليه رسول الله ﷺ وإلى من على شاكلته من يدعوهم إلى الحضور واحد واهداً، ومن ثم يمسح على

جراحهم الراحفة بكلماته اللطيفة المواسية: «بل أنتم الكارون إن شاء الله» [الواقدي، المغازي ٢ / ٧٦٥]، «فأننا فتتكم التي انحرتم إليها». [السهيلى، الروض الأنف ٤ / ٨١].

ومما يشهد لذلك ما جاء في المغازي للواقدي من قصة سلمة بن هشام بن المغيرة رضي الله عنه.

ومن هذا القبيل ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه مما كان بينه وبين ابن عم له، حيث قال له ابن عمه: إلا فرارك يوم مؤتة! فما درى أي شيء يقول له؟!

هذا ومع أن كل الظواهر المتطورة، كانت تشير إلى رُجحان كفة جيش الروم بكثرة عدده، وجودة سلاحه، ووجوده في أرضه، وكثرة حصونه على طول الطريق التي سلكها جيش المسلمين ذهاباً وإياباً، وأن هذا الجيش مهاجم متحد، مما يثير حفيظة الرومان، ويجعلهم يستमितون في الدفاع عن أرضهم ودينهم وهيتهم المستخف بها، إلا أن الواقع أثبت بكل جدارة استعلاء الجيش الإسلامي على كل هذه الصعوبات، ومقاومته لكل هذه التحديات، وصموده لهذا العسكر الخضرم ستة أيام، وتيَّله من كرامته أعظم قدر، بحيث لم يعد إلا بعد أن قضى وطره، ونفذ مهمته.

أما الفرار، فلم يكن منه فراراً حقاً، ولكنه الطموح الكبير الذي كان يحذو نفوس المسلمين في المدينة، إذ هم يطالبون جيشهم بأن كان عليه أن يفعل أكثر مما فعل.

إنها النفوس الكبيرة، والعزائم الصادقة، والمعنويات العوالي هي التي كانت وراء هذا التصرف من قِبل أهل المدينة وهم يستقبلون جيشهم العائد من أرض العدو على بُعد مئات الأميال خلف حدوده.

وما يزيد في روعة هذا الموقف أن كان معظم جمهوره من الأطفال والنساء الذين يُفترض أصلاً، أن تأخذهم الشفقة على القتلى وفيهم ذوؤهم، فيفرحوا بعودتهم إليهم على أية حال، ويمجنوا الغيابهم عنهم حزناً يُعجز ماقيهم بالدموع الغزار، وقلوبهم بالحسرة والالتئاع على فقد الأهل والأشياء، ولكنها التربية التي جعلت من امرأة من بني دينار من الأنصار، بعد غزوة أُحُد، وهي تسأل عن أنباء المعركة فتخبر بموت أبيها وأخيها وزوجها، فتقول: أنا لا أسألكم عن هؤلاء، ولكنني أسألكم عن رسول الله ﷺ ما فعل الله به؟ فيقولون لها: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، فلما رآته ﷺ انفرجت أساريها وقالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلت [ابن هشام، السيرة النبوية (الجلي) ٢ / ٩٩]، أي صغيرة، وهينة.

وتجعل من امرأة مثل معاذة العدوية زوجة صِلة بن أشيم، عندما تلقت نبأ استشهاد ابنها في إحدى معارك المسلمين مع أعدائهم، وجاءتها النساء مُعزيات قالت لهن: إن آتيتن مهنتات فأهلاً وسهلاً، وإن آتيتن لغير ذلك فارجعن. [ابن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين ص ٢٩٠].

نقرأ عن هذا العجب العجائب، في وقت كان يُرى فيه بعض ذوي الذين يعودون من الحرب لا سالمين ولا غانمين، (يعجُّون) الزغاريد ويطلقون العيارات النارية فرحاً بعودة الغائبين القُرار حقاً لا الكُرَّار!

أما جيل مؤتة، فهو جيل المجتمع المسلم، جيل المعهد القرآني الذي أخذ توجيهاته وتعاليمه أخذ تطبيق وتنفيذ، لا أخذ استماع وإطلاع؛ ولهذا كان هذه الصورة المشرقة الرائعة التي عبّر عنها الكاتب المسلم الشيخ محمد الغزالي بقوله: «أي جيل قوي نابه هذا الجيل الذي صنعه الإيمان بالحق؟! أي نجاح بلغت رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام؟ مَنْ أبائهم؟ مَنْ أمهاتهم؟ كيف كان الآباء يربون؟ وكيف كانت الأمهات يدللن؟

إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرفَ هذه الدروس...». [فقه السيرة ص ٤٠٠].

[تجربة مؤتة للعتوم ٢٦٧-٢٧٠].

ويقول د/ أبو خليل: «اعتبر المؤرخون غزوة مؤتة^(١) نصراً للمسلمين وفتحاً واضحاً لهم، لإحاطة العدو بالمسلمين، وتكاثر الروم والأعراب عليهم، فكان مقتضى العادة والحال هذه، أن يُقتلوا بالكلية. وكانت خسائر الروم أضعاف خسائر المسلمين، مما جعل الهدف من الغزوة محققاً، بالإضافة إلى إطلاع المسلمين على إمكانيات الروم القتالية، ودراسة طبيعة أرضهم ونظمهم في القتال. ويؤيد انتصار المسلمين في مؤتة ما حكاه عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه عن قصة المددي الذي بينت أن القتلى في الروم كثير». [غزوة مؤتة لأبي خليل ١٣٨-١٣٩].

ويقول د/ الوكيل: «لم يكن المقصود من هذه الغزوة احتلال البلقاء، ولا الدخول إلى بلاد الشام، وإنما كان الهدف تأديب أولئك المعتدين الذين خرجوا على حدود اللياقة السياسية، وجاوزوا حدود الأدب في المعاملات الدولية، فقتلوا سفيراً يحمل إليهم رسالة، وفي ذلك خروج على العُرف الدولي لم يُسبقوا إليه. لقد كان بوسعهم أن يردوا السفير إلى بلده، وكان بوسعهم ألا يقبلوا منه الكتاب، ولا يسمحوا له بالدخول إلى بلادهم، كل ذلك من حقهم، ولا يلامون على فعله، أما أن يقتلوا السفير من غير جريرة ويفجعوا الدولة في رجل من رجالها من غير ذنب فذلك ما لا يمكن السكوت عليه مهما كلف من المشقات.

وكانت هذه الغزوة ثمرة لهذا الغدر الفاحش، تأديباً للمعتدي حتى لا تُسوّل له نفسه أن يكرر فعلته مرة أخرى، وحتى يكون فيها عبرة لغيره، وقد حققت تلك الحملة غايتها، وعادت إلى قواعدها دون أن تفقد من رجالها سوى اثني عشر رجلاً. [ابن هشام ٢١/٤، دحلان ٢/٢٧٤].

ويجدر بنا أن نفق هنا طويلاً لتأمل تلك الحقيقة التي تُذهل العقول عند تصورها، إن أي إنسان له أدنى خبرة عسكرية إذا وُجه إليه هذا السؤال: ما نتيجة معركة عسكرية يلتقي فيها جيشان أحدهما مكون

(١) إنها من السرايا، وليست من الغزوات، سبها البخاري غزوة مؤتة لكثرة جيش المسلمين فيها، وإن لم يخرج فيها رسول الله ﷺ، فعرفت عند المؤرخين باسم: (غزوة مؤتة).

من ثلاثة آلاف مقاتل غرباء أنهمكهم السفر، وأضناهم التعب، وقد بعدوا عن قيادتهم قرابة ثمانمائة كيلو متر، والثاني مُكوّن من مائتي ألف، يقاتلون في بلدهم، وبالقرب من مركز قيادتهم وإمداداتهم؟ لا يشك أحد في أن الإجابة ستكون: القضاء على الجيش الأول قضاء لا يُتصور معه إفلات أحد من ثلاثة الآلاف، ولكن هل كانت النتيجة كذلك؟

الحق الذي أثبتته الواقع، ورواه التاريخ كان بخلاف ذلك تمامًا، حيث لم يُقتل من المسلمين في هذه المعركة غير المتكافئة إلا اثنا عشر رجلاً فقط، وإنه لعدد قليل جدًّا إذا نظرنا إلى ضراوة المعركة، واستمرارها سبعة أيام متوالية، وبخاصة إذا علمنا أن عدد قتلى الروم وحلفائها لم يستطع أحد إثباته ولم يذكر أحد من المؤرخين إحصاءه.

إن صمود ثلاثة الآلاف أمام مائتي ألف يُعتبر في لغة الحرب انتصارًا لا يفوقه انتصار، فكيف إذا قتل المسلمون من الروم أعدادًا لا تحصى؟». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ٢٤٠-٢٤١].

٥ - تُقاس الهزيمة والنصر في المعارك بما تحقّقه الأمة من أغراضها:

يقول أ/ دويدار: «وسواء أكان الذي وقع هو ما رواه ابن إسحاق أو ما رواه غيره، فإنه لم يكن من الطبيعي أن يستطيع ثلاثة آلاف أن يهزموا مائتي ألف حتى يستأسروا لهم أو أن يقتلوهم حتى يبيدوهم، ويكفي أنهم استطاعوا مع قلة عددهم أن يقفوا أمام هذا العدد الضخم يومًا أو أكثر من يوم، في قتال طاحن عنيف، ثم يخرجون ولم يُقتل منهم سوى اثني عشر رجلاً.

فلو أن المسلمين خرجوا من المعركة مع هذا ولم يقتلوا من العدو رجلاً واحدًا، لكان هذا نصرًا لهم أي نصر، فكيف وقد جاء في بعض الروايات أنهم قتلوا منهم مقتلة لم يقتلها قوم، وأن المشركين انهزموا أمامهم حتى كانوا يضعون السيوف فيهم حيث شاؤوا؟

وقد يُقال: إن في هذه مبالغة، ولكن الصور التي قدمها المسلمون لقتالهم في هذه الغزوة، تُصدّق هذا الزعم إلى حد كبير؛ فقد قُتل الأمراء الثلاثة تباعا في أول يوم، وكان مقتضى هذا أن يفر المسلمون أو أن ينهزموا، إذ كانت العادة في ذلك الزمان أن يفر الجيش إذا قُتل أميره، ولعل هذا هو الذي جعل العدو يركز هجموه على الأمراء، ولكن المسلمين مع هذا لم يفروا، بل صمدوا وثبتوا لأعدائهم حتى أتى الليل، فانهز الفريقان كل إلى معسكره.

وكان من الممكن أن ينتهز المسلمون هذه الفرصة فيفروا تحت ستار الليل، وهم آمنون أن يلحق العدو بهم، ولكنهم لم يفعلوا، بل أصبحوا غادين إلى القتال في هيئة أرهبت الروم وزلزلتهم، حتى فقدوا ثقتهم بأنفسهم، فتقاعسوا عن مهاجمتهم، واستبشروا بارتدادهم عنهم.. فهذه صورة من صور القتال الجماعي للمسلمين في هذه المعركة.

أما صورة القتال الفردي لكل رجل منهم، فقد قدمها جعفر بن أبي طالب عليه السلام، حين نزل المعركة على فرسه يطاعن الأعداء، فلما ألحمة القتال نزل عن فرسه فعقرها بسيفه، ثم قاتل راجلاً و اللواء يمينه، فلما قُطعت يمينه أخذ اللواء بيساره، فلما قُطعت يساره أخذ اللواء بعضديه حتى قُتل.. وقدمها كذلك خالد بن الوليد عليه السلام حين قال - فيما رواه البخاري عنه -: لَقَدْ انْقَطَعَتْ [دُقٌّ] فِي يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ [وَصَبْرَتْ] فِي يَدِي إِلَّا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن.

وقد تلمح صورة أخرى من صور الإقدام والافتحام على الموت دون مبالاة، في هذا العدد من الطعنات التي وُجهت إلى جعفر عليه السلام، حتى قيل إنها جاوزت التسعين طعنه.. إنها إن دلت على شيء فإنها تدل على مدى استماتة المسلم في سبيل الدفاع عن دينه، وعلى مدى إمعانه في صفوف العدو، غير مكترث بما هو عليه من قوة وكثرة.

كما أن هذا العدد من السيوف التي اندقت في يد خالد عليه السلام، يدل على مدى العنف الذي كانت توجه به طعنات المسلمين إلى صدور المشركين؛ وإلا.. ففيم اندقت إذن هذه السيوف التسعة؟ وصورة أخرى من صور القتال في هذه الغزوة، تلمح فيها الروح التي أقبل بها المسلمون على المعركة، حين نستعيد كلام ابن رواحه عليه السلام وهو يشجع أصحابه على ملاقات الروم، وحين نستعيد كلام ثابت بن أقرم عليه السلام وهو يرد على أبي هريرة عليه السلام شجاعته حين بهرته كثرة الروم وعظمة استعدادهم.

وصورة أخرى كذلك نلمس فيها روح المسلمين العامة، حين نستعرض منظر أهل المدينة وهم يستقبلون الجيش صغاراً وكباراً، يَحْتُون في وجهه التراب ويعيرونه بالفرار، فيصحح لهم الرسول ﷺ هذه الفكرة الخاطئة، ويزن الأمور بميزانها الصحيح ويُقدِّرها الواجب، فيقول: «لَيْسُوا بِالْفَرَّارِ وَلَكِنَّهُمْ الْكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى».

إن هذه الصور وغيرها مما تستأنس به من شواهد المعركة، ترسم لنا الصور العامة التي تركها المسلمون في أذهان أعدائهم يوم مؤتة.

فمن الإسراف والمبالغة في التجني إذن، أن نكلف المسلمين أن يفعلوا فوق ما فعلوا، حتى نقول بأنهم ظهروا على المشركين في هذه الغزوة.

وإذا كانت الأمور بتائجها والأعمال بخواتيمها، فقد كفى المسلمين ظهوراً على عدوهم أنهم تركوا في نفوسهم أثراً من الرهبة، جعلهم يُجْجمون عن قتالهم، وينكلون عن متابعتهم، وأن هذا الأثر كان كافياً لتأمين الحدود من ناحية الشام، فلم يحاول الروم ولا أتباعهم من العرب أن يهاجموا المسلمون بعدها أبداً.

وقد ظل هذا الأثر باقياً حتى يوم (تبوك)، حين ذهب رسول الله ﷺ بأصحابه لملاقاة الروم بعد عام، فلم يستطيعوا مجابهة المسلمين يومئذ، وآثروا السلامة بأنفسهم على أن يلاقوا هذا العدو الكاسر، الذي باع نفسه في سبيل غايته، فهو لا يبالي الموت ولا يهرب النزال مهما بلغت قوة عدوه.

وكما أن هذه الصورة من البسالة تركت في نفوس الروم وأتباعهم هذا الأثر البعيد، فقد تركت في نفوس القبائل الضاربة على أطراف الشام والعراق أثراً قوياً من الإعجاب بالمسلمين، مما جعل كثيراً من بني سليم وأشجع وغطفان وعبس وذبيان وفرازة يدخلون في الإسلام طائعين.

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٥٢٤-٥٢٦].

الباب الثالث

السرايا بين مؤتة وفتح مكة

الفصل الأول: سرية عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى ذات السلاسل

الفصل الثاني: سرية أبي قتادة بن ربعي رضي الله عنه إلى خضرة

الفصل الثالث: سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه إلى بطن

إضم

الفصل الأول

سَرِيَّةُ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ   إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ

جُمَادَى الآخِرَةَ ٨هـ / أكتوبر (تشرين أول) ٦٢٩ م / بابه ٣٤٦ قبطني

المبحث الأول

عرض سَرِيَّةِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ   إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ

مُسَمَّى السَّرِيَّة:

يقول د/ بريك: اختلف أهل المغازي، واللغويون، والبلدانيون، في سبب تسمية السَّرِيَّة، وضبط الاسم.

قال ابن إسحاق في روايته: «حتى إذا كان على ماء بأرض جذام، يقال له: السلسل، وبذلك سُمِّيَتْ تلك الغزوة، غزوة ذات السلاسل»^(١).

وتابعه في ذلك ابن سيد الناس (قال ابن سيد الناس: «سُمِّيَتْ بآء بأرض جذام، يقال لها السلسل». عيون ٢/ ٢٠٤)، والسهيلي (نقلًا عن ابن سيد الناس (عيون ٢/ ٢٠٤)، ولم أجد قول السهيلي في كتابه الروض).

وقيل: السلاسل بسنين مهملتين، الأولى مفتوحة، وجزم به أبو عبيد البكري (لفظ أبي عبيد: ذات السلاسل - بفتح أوله - على لفظ جمع سلسلة، رمل بالبادية. معجم ما استعجم ٣/ ٧٤٤)، وياقوت [معجم البلدان ٣/ ٢٣٣]، وصاحب القاموس (القاموس المحيط، باب اللام، فصل السين)، والثانية مكسورة، اللام مخففة، وقال ابن الأثير: «بضم السين الأولى (قال ابن الأثير: بضم السين الأولى، وكسر الثانية. النهاية ٢/ ٣٨٩)، وقال في زاد المعاد: بضم السين وفتحها لغتان». [ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٨٦].

قال الشامي: «وصاحب القاموس مع اطلاعه لم يحك في الغزوة إلا الفتح (قال الزرقاني مُعَلِّقًا على قول الشامي هكذا: «وقوله: وصاحب القاموس مع سعة اطلاعه لم يحك إلا الفتح. غير قادح، فمن حفظ حجة.

(١) الحديث أخرجه (البيهقي: دلائل ٤/ ٣٩٩-٤٠٠)، عن ابن إسحاق بسندٍ صَرَّحَ فيه بالتحديث عن محمد بن عبد الرحمن التميمي، وثَّقه ابن حبان. (الثقات ٧/ ٤١٣)، وقال عنه البخاري: «كان صَوَامًا قَوَامًا». (التاريخ ١/ ١٠٥)، وقال أبو حاتم: «روى عن عائشة، وعوف بن الحارث، وعروة بن الزبير. وروى عنه ابن إسحاق: سمعت أبي يقول ذلك». (الجرح والتعديل ٧/ ٣١٧). قلت: ولكنه مرسل حيث لم يُصرح محمد التميمي عَمَّنْ حَدَّثَهُ. وذكره ابن هشام (سيرة ٤/ ٦٢٣)، عن ابن إسحاق بلا سند، كما أخرجه الطبري (تاريخ ٣/ ٣٢)، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، وسنده ضعيف، لضعف ابن حميد شيخ الطبري، كما في (التقريب ٤٧٥)، كما أنَّ فيه عنعنة ابن إسحاق، ولإرساله، عبد الله بن أبي بكر لم يدرك الواقعة.

كيف وقد صرح البرهان بأن غير واحد ذكر اللغتين الضم والفتح، وهو المشهور. والمجد وإن اتسع اطلاعه فلم يُحِط باللغة ولم يستوعبها. شرح المواهب ٢/ ٢٧٨)، وعبارته: السلسل، كجعفر وخلخال، الماء العذب أو البارد كالسلاسل بالضم، ثم قال: وتسلسل الماء جرى في حدور، والسلسلة اتّصال الشيء بالشيء، والقطعة الطويلة من السنام، ويكسر، وبالكسر دائر من حديد ونحوه، والسلاسل رمل يتعقّد بعضه على بعض وينقاد، وثوب مسلسل فيه وشيء مخطّط، وغزوة ذات السلاسل. [الشامي: سبل ٦/ ٢٩٦].

وقال ابن حجر: «قيل: سُمِّيَ المكان بذلك لأنه كان به رمل بعضه على بعض كالسلسلة (قال بذلك البكري. معجم ما استعجم ٣/ ٧٤٤)، وضبطها ابن الأثير بالضم، وقال: هو بمعنى السلسال أي: السهل^(١)، وقيل: لأن بها ماء يقال له السلسل (قال ذلك ابن إسحاق، كما مرّ سابقاً)، وقيل: سُمِّيَتْ ذات السلاسل لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا». [ابن حجر: فتح ٧/ ٢٦، ٨/ ٧٤].

قال الحلبي: «ولخالد بن الوليد رضي الله عنه في زمن الصّديق رضي الله عنه غزاة مع أهل فارس، يُقال لها: ذات السلاسل، لكثرة من تسلسل فيها من الشجعان خوف الفرار، فقتلوا عن آخرهم، لأنّ السلاسل منعتهم الهزيمة، وبعث خالد بن الوليد رضي الله عنه بالسلاسل إلى الصّديق رضي الله عنه والله أعلم».

[الحلبي: سيرة ٣/ ١٩٩، ونقل ياقوت (معجم ٣/ ٣٣٣)، عن أبي حاتم بن حبان في كتابه الأنواع، قال: «غزوة السلاسل كانت في أيام معاوية، وغزوة ذات السلاسل كانت في أيام النبي صلى الله عليه وسلم. قلت: ولا أعلم ما هذه السلاسل»].

قلت: ولعلّ سبب تسميتها بذلك أظهر، فإنّ تسلسل الروم والفرس في معاركهم ضدّ المسلمين تكرر في أكثر من معركة، لعلّ أشهرها في التاريخ معركتان فاصلتان في كلّ جانب، ففي الجانب الرومي تذكر الروايات التاريخية أنّه تسلسل عددٌ كبيرٌ منهم في معركة اليرموك الشهيرة الفاصلة، سقطوا جميعاً في هب الياقوصة (هو حافة وادي الرقاد المحيط بالهضبة التي دار عليها القتال، حيث سقط فيه المقترنون بالسلاسل من الروم، فسُمِّيَ بالياقوصة لأنهم وقُصّوا فيه، أي: سقطوا فيه، وهم لا يشعرون لشدة ضغط المسلمين عليهم)، كما تسلسل عددٌ ضخمٌ من الفرس في معركة نهاوند الفاصلة والمسماة بفتح الفتوح - قُتِلُوا جميعاً في ميدان المعركة - وإن كانت الأرقام التي أوردتها الروايات عن عددهم قد يكون فيها نوعٌ من المبالغة (ذكرت الروايات أنهم كانوا حوالي ثلاثون ألف في جانب الفرس، وثمانون ألف في جانب الروم. ينظر: الطبري: تاريخ ٣/ ٤٠٠)، ولكن ذلك يعطينا دلالة واضحة على أنّ تلك كانت عادة متبعة في الجيوش البيزنطية،

(١) قال الشامي: «قال النووي في التهذيب: أظن أن ابن الأثير استنبطه من صحاح الجوهري من غير نقل عنه فيه، ولا دلالة في كلامه. قلت: وعبارة الجوهري: وماء سلسل وسلسال سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه، والسلاسل بالضم مثله، ويقال معنى يتسلسل أنّه إذا جرى أو ضربته الريح يصير كالسلسلة». سبل الهدى والرشاد ٦/ ٢٦٩. وينظر: صحاح الجوهري ٢/ ١٩٩، والنووي على مسلم ١٥/ ١٥٣.

والفارسية (والجيش الذي قابله المسلمون في ذات السلاسل لم يكن من الروم، ولكنه كان من حلفائهم العرب المنتصرة، ولعلّهم أخذوا عادة التسلسل من حلفائهم، أو ربما شاركهم بعض الروم وتسلسلوا، والله تعالى أعلم)، كما توضح بجلاء أنّ أعداء المسلمين في ذلك الوقت كانوا يبحثون جادّين عن وسيلة قويّة تربط جأشهم وتقويّ عزيمتهم في مواجهة المسلمين الشجعان.

في ميادين المعارك الذين كانوا أبطالاً لا يهابون الموت ويسبب تأييد الله ﷻ لهم، ونصره إيّاهم، بالرعب الذي يلقيه في قلوب أعدائهم، ثمّ بتحرّقهم جميعاً في ميادين القتال للشهادة في سبيل الله، وتسابقهم عليها، ولمّا يعرفون من فضلها العظيم^(١). [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشالية لبريك ٣٨٨-٣٩١].

تاريخ السريّة:

يقول د/ بريك: «قال الشامي: «ذكر الجمهور (الجمهور الذي قصدهم الشامي معظمهم ناقل عن ابن سعد، وهم: «الطبري: تاريخ ٣/ ٣١، وابن سيد الناس: عيون ٢/ ٢٠٤، وابن القيم: زاد ٢/ ١٥٧، والقسطلاني: المواهب ١/ ٥٥٤»، وغيرهم)، ومنهم: ابن سعد أنّها كانت في جمادى الآخرة سنة ثمان». [سبل الهدى ٦/ ٢٧٠].

وقال ابن حجر: «وقيل: سنة سبع» (ذكرها ابن خياط ضمن السرايا التي كانت سنة سبع (تاريخ ٨٥)، وذكر الزرقاني أنّ ابن سعد حكى ذلك (شرح المواهب ٢/ ٢٧٨)، ولم أجد هذا القول في الطبقات فلعله من الجزء الساقط من ترجمة عمرو بن العاص عنده، وبه جزم ابن أبي خالد في كتاب: (صحيح التاريخ)، ونقل ابن عساكر الاتفاق على أنّها كانت بعد غزوة مؤتة [تاريخ دمشق (السيرة النبوية، القسم الأول ص ٤٠٢)]، إلا ابن إسحاق فقال: «قبلها». قلت: وهو قضية ما ذكر عن ابن سعد وابن أبي خالد». [فتح الباري ٨/ ٧٤].

قال الشامي: «أمّا قضية ما ذكر عن ابن سعد فغير واضح، فإنّ ابن سعد قال: كانت في جمادى الآخرة سنة ثمان، وذكر في غزوة مؤتة أنّها كانت في جمادى الأولى سنة ثمان، وأما ما نقل ابن إسحاق فالذي في رواية زياد البكائي، تهذيب ابن هشام، عن ابن إسحاق، تأخر غزوة ذات السلاسل عن مؤتة بعدّة غزوات وسرايا، ولم يذكر أنها كانت قبل مؤتة فيحتمل أنه نصّ على ما ذكره ابن عساكر في رواية غير زياد». [سبل ٦/ ٢٧٠].

قلت: ما ورد في رواية زياد البكائي عن ابن إسحاق، عند ابن هشام، لا يُعدّ في التقديم والتأخير؛ لأنه ذكر السريّة في جملة المغازي والسرايا آخر كتاب المغازي [ابن هشام، سيرة: بشرح أبي ذر ٤/ ٣٥٩]، ولم يُسلسلها تاريخاً، كما فعل في بقية المغازي والسرايا الأخر.

(١) أخرج البخاري ومسلم عن أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لِمَا يرى من الكرامة». وفي رواية: «لِمَا يرى من فضل الشهادة». (الصحيح ٦/ ٢٥)، و(مسلم ١٨٧٧).

أما رواية غير زياد التي أشار إليها الشامي فهي رواية يونس بن بكير التي أخرجها كُلُّ من ابن عساكر والبيهقي بسنديهما عنه، فإنه لم يذكر فيها تاريخاً لها [ينظر: البيهقي: دلائل ٣٩٩/٤، وابن عساكر: تاريخ، السيرة النبوية، القسم الأول ص ٤٠٤]. والله تعالى أعلم.

ولم يؤرَّخ لها الواقدي أيضاً، وذلك خلاف عادته، بل ذكرها مباشرة بعد مؤتة. [مغازي ٧٦٩/٢، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب (هامش الإصابة ٥١٠/٢)، في ترجمة عمرو بن العاص أن الواقدي أرَّخ لها بشهر جمادى الآخرة سنة ثمان، فلعله اطلع على نسخة أخرى من المغازي. والله تعالى أعلم]. وقال ابن كثير: «ذكرها الحافظ البيهقي قبل غزوة الفتح». [بداية ٢٧٢/٤، وينظر: الدلائل ٣٩٧/٤]. وذكر الزهري في روايته: «أن البعثين كانا بعد رجوع أهل الحبشة. هذا بالنسبة لأهل المغازي.

أما ما يفهم من الأحاديث التي وردت عن السرية، ففي حديث علي بن رباح، عن عمرو بن العاص   قال فيه: «قلت: يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكنني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله  ...» الحديث (١).

يُفهم منه أنه   بعثه بعد إسلامه مباشرة، قال ابن حجر: «وهذا فيه إشعار بأن بعثه عقب إسلامه، وكان إسلامه في أثناء سنة سبع من الهجرة». [فتح الباري ٧٥/٨].

أما حديث الحارث بن حسان الذي فيه: «خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله  ...» الحديث. إلى أن قال: «فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاصُّ بأهله (أي: تمتلئ بالناس)، وإذا راية سوداء تحفّق، وبلال متقلّد السيف بين يدي رسول الله  ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً...». الحديث (٢).

(١) أخرجه أحمد (المسند، حديث: ١٧٧٣٠)، والبخاري، (الأدب المفرد ص ٩٧)، والحاكم، (المستدرک ٣/٢)، جميعهم من حديث موسى بن علي بن رباح عن أبيه، عن عمرو بن العاص  .

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وقال ابن حجر (فتح الباري ٥٧/٨): رواه أحمد والبخاري في الأدب، وصححه أبو عوانة، وابن حبان، والحاكم، وقال الهيثمي (المجمع ٣٥٣/٩): رجال أحمد رجال الصحيح، وحسن ابن حجر في (الإصابة) سند أحمد.

قلت: لعل ذلك من أجل أن فيه موسى بن علي، قال عنه في (التقريب ص ٥٥٣): صدوق ربما أخطأ. ولكنه وقع مع ذلك من رجال مسلم. فسنده صحيح. كما صححه النقاد من أهل الحديث. والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه أحمد بهذا السياق مطوّلاً في قصة عاد من قصص الأنبياء (المسند ٤٨٢/٣). وأخرجه النسائي (السنن الكبرى ١٨١/٥) مختصراً. كلاهما من طريق أبي المنذر سلام بن سليمان النحوي، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن الحارث بن يزيد البكري  .

فهذا الحديث يُفهم منه أنَّ بعث عمرو بن العاصٍ ؓ كان في أثناء فترة ولاية العلاء بن الحضرمي على البحرين، وكان رسول الله ﷺ قد بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة، كما يذكر ابن إسحاق.
[ابن هشام: سيرة، شرح أبي ذر ٢٩٤/٤].

ويُفهم من قول أبي رافع الطائي - في آخر حديثه الذي أخرجه الطبراني: «فمكثت سنة، ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ اسْتَخْلَفَ...» الحديث: أنَّ تاريخ بعث السرية كان متأخراً جداً. والله تعالى أعلم.

قال الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية، مُعلّقاً على الأقوال التي ذكرت حول إسلام عمرو بن العاصٍ ؓ، ثُمَّ تأميره على ذات السلاسل: «فيكون تأمير عمرو عقب إسلامه بنحو أربعة أشهر على ما صدر به المصنّف [يقصد القسطلاني مُصنّف المواهب اللدنية] فيما مرَّ أنه كان في صفر سنة ثمان، وفي الشامية أن بعثه كان بعد سنة من إسلامه [ينظر: الشامي: سبل ٢٦٢/٦، ٢٧٠]، وهم إنما يأتي على قول الحاكم: أسلم سنة سبع». [شرح المواهب ٢٧٨/٢].

قلت: اختلف أهل العلم في وقت إسلام عمرو بن العاصٍ ؓ، فقيل: إنه أسلم قبل الفتح في صفر سنة ثمان [ينظر: الواقدي: مغازي ٢/٧٤٥، ٧٤٩، ابن عبد البر: الاستيعاب، هامش الإصابة ٢/٥١٠-٥١١، ابن الأثير: أسد الغابة ٤/٢٤٥، الحاكم: المستدرک ٣/٥١٣-٥١٤، ترجمة عمرو بن العاصٍ]، وقيل: بين الحديبية وخيبر [ينظر: ابن حجر: فتح الباري ٨/٧٥، ولم أجد قول الحاكم الذي نقله عنه الواقدي، وأن عمرو أسلم سنة سبع، بل الذي وجدته في ترجمة عمرو عنده أنه أسلم سنة ثمان من الهجرة]، وقيل: بل أسلم قبل ذلك في الحبشة على يدي النجاشي، ولكنه كتم إسلامه حتى وفد على النَّبِيِّ ﷺ قبيل الفتح مع خالد بن الوليد ؓ. [ذكر ذلك الواقدي: مغازي ٢/٧٤٣-٧٤٤، وعزه ابن حجر (إصابة ٢/٣)، للزبير ابن بكار. وذكر أن البغوي أخرجه بسند جيد عن عمرو بن إسحاق أحد التابعين، وأخرجه أحمد (المسند ٤/١٩٨-١٩٩)، والحاكم (المستدرک ٣/٣٣٧، ٥١٤)، والأول سكت عنه الذهبي، والثاني حذفه من التلخيص].

ورجَّح ابن عبد البر، وابن حجر القول الأول. [الاستيعاب بهامش الإصابة ٢/٥١٠، فتح الباري ٧/١٠١].
قلت: وبذلك يترجَّح ما ذكره ابن سعد، وغيره من أن تاريخ السرية كان في جمادى الآخرة سنة ثمان. والله تعالى أعلم.

== قلت: وسنده حسن. لأنَّ فيه عاصم بن بهدلة. صدوق له أوهام. (التقريب ص ٢٨٥). كما أخرجه أحمد (المسند ٣/٤٨١)، وابن ماجه (السنن ٢/٢٠٧)، وابن أبي شيبه (المصنّف ١٢/٥١٢)، جميعهم من طريق أبي بكر بن عياش عن عاصم عن الحارث ؓ.

قلت: وهذا السند صورته منقطع، عاصم بن أبي النجود لم يدرك الحارث فيروي عنه والصحيح: عنه عن أبي وائل عن الحارث، كما ذكر ابن حجر (التهذيب ١/٤٠٧). وكما هو واضح في السند السابق. والله تعالى أعلم.

ويفهم من الأحاديث التي ذكرت أنَّ أصحاب السرية أصابهم برد شديد، وأنَّهم أرادوا إشعال نارٍ لتدفئتهم، ولكنَّ عمرو بن العاص   منعهم من ذلك خوفاً أن يرى العدو قَلَّتْهم، وكذلك الأحاديث التي ذكرت أنَّ القائد عمر بن العاص   أصابته جنابة في إحدى الليالي، ثُمَّ صَلَّى بِأَصْحَابِ السَّريَةِ دون أن يغتسل خوفاً على نفسه من شِدَّةِ البرد. [الاستيعاب بهامش الإصابة ٢/ ٥١٠، فتح الباري ٧/ ١٠١].

كُلُّ ذلك يعطينا دلالة واضحة على أنَّ بعث السرية كان في فصل الشتاء، وشهر جمادى الآخرة الذي ذكره أصحاب المغازي تاريخاً لخروج السرية هو من أشهر فصل الشتاء في الأغلب. والله تعالى أعلم.

[غزوة مؤتة والسررايا والبعوث الشمالية لبريك ٣٩٩-٤٠٥].

مكانها، أو الجهة التي توجَّهت إليها السَّرية:

يقول د/ بريك: «اختلفوا كذلك في مكانها، قال ابن سعد: هي وراء وادي القرى، وبينها وبين المدينة عشرة أيام. [من رواية محمد بن سعد عن شيوخه (الطبقات ٢/ ١٣١)].

وهي أرض بني عذرة، كما ذكر ابن إسحاق [من رواية ابن إسحاق بلا سند. (ابن هشام: سيرة ٤/ ٦٢٣)]، وفي روايته عند البيهقي: ذات السلاسل من أرض بليّ (يفتح الموحدة وكسر اللام الخفيفة بعدها ياء النسب - قبيلة كبيرة من قضاة، يُنسبون إلى بلي بن عمرو بن قضاة، ومن بلي جماعة من الصحابة. فلائد الجمان ٤٥، وفتح الباري ٨/ ٧٤)، وعذرة. [دلائل النبوة ٤/ ٣٩٩-٤٠٠].

وذكر البخاري عن ابن إسحاق، عن يزيد عن عروة قال: هي بلاد بليّ، وعذرة، وبني القين (قبيلة كبيرة أيضاً من قضاة، يُنسبون إلى القين بن جسر، وهم ابن التين فقال: بنو القين قبيلة من تميم. ابن حجر: فتح ٨/ ٧٤). [أخرجه البخاري تعليقاً عن ابن إسحاق. الصحيح ٥/ ١١٣. وفي رواية عروة عند البيهقي من طريق ابن لهيعة قال: بعثه رسول الله   في بلي وهم أحوال العاص بن وائل، وبعثه فيمن يليهم من قضاة. دلائل النبوة ٤/ ٣٩٨].

وكذلك ذكره الواقدي نحوه [الواقدي: مغازي ٢/ ٧٧٠]، ونقل البخاري، والباكري عن ابن أبي خالد في كتابه: (صحيح التاريخ) قال: «هي غزوة لحم وجذام». [الصحيح ٥/ ١١٣، ومعجم ما استعجم ٣/ ٧٤٤، ونقل الديارباكري (الخميس ٢/ ٧٥)، عن بعضهم أنها موضع معروف في الشام في أرض بني عذرة].

أمَّا موسى بن عقبة فيذكر أن: «ذات السلاسل من مشارف الشام في بليّ، وسعد الله (بطن من بطون قبيلة بليّ. (السويدي: سبائك الذهب ٧٨)، ومن يليهم من قضاة». [من مراسيل عروة، وموسى بن عقبة، عند البيهقي. دلائل: ٤/ ٣٩٨].

وشدّ الزهري فذكرهما: «بعثين إلى كلب^(١)، وغسّان^(٢)، وكُفّار العرب الذين كانوا بمشارف الشام». [من مراسيل الزهري، عند (عبد الرزاق: المصنف ٤٥٢/٥). كما أخرجه ابن عساكر: تاريخ دمشق (السيرة النبوية، القسم الأول ص ٤٠٥)، من طريق ابن لهيعة، ومراسيل الزهري ضعيفة، كما ذكر أهل العلم. ينظر: (الذهبي: الموقظة ٢٨)]. وذكر الشعبي أن المسلمين أمروا: «أن يغيروا على بكر^(٣)، فانطلق عمرو، فأغاروا على قضاة؛ لأنّ بكرًا أخواله (ذلك) وهم. فالحفظ من أقوال أهل المغازي أنّ أخواله هم بلّ من قضاة. والله أعلم».

[أخرجه أحمد (المسند ١/١٩٦)، وقال البنا (الفتح الرباني ٢١/١٤٠): «لم أقف عليه لغير الإمام أحمد». وأورده الهيثمي وقال: «رواه أحمد، وهو مرسل، ورجاله رجال الصحيح». قلت: لأن عامر بن شراحيل لم يدرك أبا عبيدة وحكى القصة فأرسلها إرسالاً. وكذا قال محقّق زاد المعاد. وأنّ عامراً لم يدرك عمراً، ففيه انقطاع. كما ذكره ابن سيد الناس (عيون ٢/٢٠٥-٢٠٦)، من حديث عبد الله بن أحمد، عن أبيه به نحوه].

كذلك شدّ الطبراني في روايته عن رافع بن عمرو الطائي، فذكر: «أنّ أهل السّرية نزلوا جبل طيء». [أخرجه الطبراني من حديث طارق بن شهاب، عن رافع (المعجم ٥/٢١)، وقال عنه الهيثمي: «رجاله ثقات». (مجمع ٢٠٢/٥). قلت: غير إبراهيم بن المهاجر، فإنه صدوق، وفي حفظه لين. التّريب ٩٤].

وذكر البلادي أنّه لم يستطع أحد تحديد مكان هذه السّرية، ورجّح أن تكون في بلاد بني عذرة، لقربها من بلان جران العود التي ذكرها في شعره، كما أنّه حدّد ديار بين عذرة وبين وادي القرى «وادي العُلا اليوم (إلى تبوك، إلى تبيا، وتقرب من خير». [معجم معالم السيرة للبلادي ١٥٩].

قلت: وهذه القبائل التي ذكرها أهل المغازي، هي قبائل متجاورة، كونها من بطون من قبيلة واحدة هي قبيلة قضاة، وربما تحالفت هذه القبائل فيما بينها، واجتمعت لمحاربة المسلمين في تلك المنطقة. والله تعالى أعلم. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشّهابية لبريك ٣٩٢-٣٩٦].

(١) هم بنو كلب بن وبرة بن تغلب، من قضاة، وكانوا ينزلون في الجاهلية دومة الجندل وتبوك، وجاء الإسلام والمُلك عليهم لأكيدر، وبقيت كلب في خليق عظيم على الخليج القسطنطيني، ومنهم مسلمون ونصارى. القلقشندي: قلائد الجمان ٤٦-٤٧.

قلت: ولكلب مشاركة قوية في أحداث التاريخ الإسلامي، حيث كانوا من المناصرين الأقوياء للدولة الأموية.

(٢) غسّان: قبيلة كبيرة من الأزد، وهم بنو جفنة، والحارث، وحارثة، ومالك، وكعب، وخارجة، وعوف، وبنو عمرو مزريقاء، وإنّا سُمّوا غسّاناً لما اسم غسّان بين زبيد ورمع، نزلوا عليه عند خروجهم من اليمن فعُرِفُوا به، وكان لهم ملك بالشام، وذلك قبل الإسلام بما يزيد على أربع مائة سنة، وبقي بأيديهم إلى أن كان آخرهم جبلة بن الأيهم في زمن النبي ﷺ، فأسلم ثمّ ارتد بعد ذلك زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وباللقاء طائفة من غسّان، وباليرموك منهم الجُمّ الغفير. وكانوا حلفاء أقوياء للدولة البيزنطية. بتصرف» من (قلائد الجمان ٩٤، ٩٥، ٩٧).

(٣) بكر بن وائل: بطن كبير من ربيعة، يُنسبون إلى بكر بن وائل بن قاسط. وكانت مساكنهم من اليمامة إلى البصرة. وذكر الحمّداني أنّ بلادهم الجزيرة من بلاد حلب. وكان لهم دولة بعراق العجم، وبحمص، وبلادها من أرض الشام قوم منهم. قلائد الجمان ١٣٠-١٣١.

سبب السَّريَّة:

يقول أ/ باشميل: «تعتبر قبيلة (قضاة) ^(١)، وما تفرع منها من بلى وبهراء وبلقين وعذرة من أعظم القبائل العربية المعادية للإسلام والموالية للرومان في العهد النبوي.

وقد رأينا كيف كانت قبائل (قضاة) رأس الحربة في جيش الرومان الذي خاض معركة (مؤتة) ضد المسلمين، وكيف أن المائة ألف من العرب المنتصرة التي حشدها الرومان على مشارف الشام لمحاربة المسلمين، كان قائدها أحد سادات قضاة وهو (مالك بن زافلة) الذي لقي مصرعه في معركة مؤتة وهو يقود العرب المنتصرة..

والظاهر أن قبائل (قضاة) التي تسكن فخائدها المنطقة الواسعة التي تشمل الركن الشمالي الغربي من جزيرة العرب بما في ذلك (ذات السلاسل)، والركن الجنوبي الغربي من الشام ناحية البلقاء، هذه القبائل الظاهر أنها بإيعاز من حلفائها الرومان قد أخذت تحشد الجيوش للهجوم على المدينة، الأمر الذي جعل الرسول ﷺ يجرد - على وجه السرعة - حملة عسكرية كبيرة لضرب هؤلاء الأعراب، وقد جرد الرسول ﷺ هذه الحملة إلى ديار (قضاة) في الشمال، قبل مرور أقل من نصف شهر على معركة مؤتة الحاسمة، فقد كانت غزوة (مؤتة) في شهر جمادي الأولى، وغزوة (ذات السلاسل) في شهر جمادي الآخرة من سنة ثمان للهجرة.

(١) قضاة (بضم القاف): قال في معجم قبائل العرب: شعب عظيم. واختلف النسابون فيه فبعضهم ينسب قضاة إلى حمير فيقول: قضاة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير. وبعضهم ينسب قضاة إلى العدنانيين. فيقول قضاة بن معد بن عدنان. والمشهور أن قضاة من القحطانيين من حمير.. كانت ديار قضاة بالشحر ثم نجران. ثم نزحوا إلى أقصى الشمال الشرقي للجزيرة فانتشروا هناك، فصار لهم ملك تمتد رقعته ما بين الحجاز والعراق والشام وكل سواحل خليج العقبة الشرقية. وامتد ملكهم حتى جبال الكرك داخل الأردن. قال في معجم قبائل العرب: وكانت النصرانية منتشرة بينهم. وقد استعملهم الرومان على بادية العرب هناك. بلى (بفتح الباء وكسر اللام) فخائد عظيم. متفرعة من قضاة. وهم بنو بلى بن عمرو ابن الحافي ابن قضاة. قال في معجم قبائل العرب. مساكنها تقع بين المدينة ووادي القرى. من منقطع دار جهينة إلى حدود جذام بالنبك على شاطئ البحر، ثم لها ميامن البر إلى حد تبوك، ثم إلى جبال الشرا، ثم إلى معان. وقال ابن خلدون: كانت مواطن بلى شمالي جهينة إلى عقبة أيلة على العدو الشرقية (من الخليج) من بحر القلزم (البحر الأحمر) وأجاز منهم أم إلى العدو الغربية وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة. وقال الأستاذ عمر كحالة في كتابه «معجم قبائل العرب»: أما في الإسلام فقد انضمت «بلى» إلى هرقل في غزوة مؤتة وكان معه من المستعربة عدد كبير من لحم وجذام، بلقين، بهراء، وبلى. فبلغ مائة ألف محارب. عليهم رجل من بلى.

من هنا صح القول: إن غزوة (ذات السلاسل) هي امتداد لمعركة مؤتة؛ لأن العناصر التي جرّد الرسول ﷺ حملته لضربها هي نفس العناصر التي حاولت (بمساعدة الرومان) سحق الجيش الإسلامي الصغير في معركة (مؤتة)، كما أن المنطقة التي وصلت الحملة النبوية إليها في تحركها، هي نفس المنطقة التي اجتازها الجيش النبوي إلى (مؤتة) بقيادة زيد بن حارثة ﷺ. [غزوة مؤتة لباشميل ٢١٧-٢١٩].

ويقول د/ بريك: «اختلف الواقدي، وابن اسحاق - وهما من تحدّثا عن سبب سرية ذات السلاسل - فيها، فبينما يذكر ابن إسحاق: أنها كانت لاستنفار العرب إلى الشام، وأن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص ﷺ إلى بلي باعتبار «أن أمّ العاص بن وائل كانت امرأة من بلي، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم يستألفهم بذلك». [من رواية ابن إسحاق عند الطبري ٣/ ٣٢].

يذكر الواقدي، وتابعه ابن سعد: أن السرية كانت بسبب المعلومات الهامة التي وصلت إلى النبي ﷺ عن التحركات العدوانية النشطة لقبائل بلي وقضاة، واستعداداتهم للهجوم على أطراف الدولة الإسلامية. [مغازي ٢/ ٧٧٠، الطبقات ٢/ ١٣١].

بينما يذكر بعض الباحثين المعاصرين لها أسباباً أخرى، فهي كانت لتأديب الأعراب في تلك الناحية [ينظر: الغزالي: فقه السيرة ٣٧٠، ود/ سيد طنطاوي: السرايا الحربية في العهد النبوي ١٣٦]، والأخذ بثأر المسلمين من القبائل التي اشتركت في غزوة مؤتة ضدهم. [ينظر: اللواء خطاب: الرسول القائد ﷺ ٣٠٩].

كما ذكر بعضهم أنه بناءً على نتيجة غزوة مؤتة، كان لزاماً على رسول الله ﷺ أن يستردّ هبة المسلمين، ويُعيد إليهم كرامتهم في تلك البلاد. [ينظر: الشريف: مكة والمدينة ٥٣٧، وهيك: حياة محمد ﷺ ٤١٥].

وسواء قصّد رسول الله ﷺ تأديب الأعراب، وصد عدوانهم على أطراف الدولة الإسلامية عندما بلغت أخبار حشودهم وتحركاتهم، فتحرك بسرعة لضربهم قبل استكمال استعداداتهم القتالية، كما هي عادته ﷺ دائماً مع أعدائه، أم أراد الثأر من القبائل العربية المنتصرة الخليفة للرومان، والتي شاركت إلى جانبهم في مؤتة، أو غير ذلك من الأسباب التي ذُكرت قديماً وحديثاً، فإن السبب الحقيقي وراء ذلك كلّ هو إعلاء كلمة الله ﷻ في تلك البقاع، ونشر الدعوة الإسلامية، بعد إزاحة القوى السياسية والعسكرية التي كانت تقف حجر عثرة في وجه نشر الإسلام في المنطقة.

والقبائل العربية المنتصرة والخليفة للدولة البيزنطية كانت من تلك القوى، وكانت تقوم بتحركات مشبوهة ونشاطات معادية للمسلمين في المنطقة الشمالية من الجزيرة على أطراف الدولة الإسلامية، وبخاصة بعد مؤتة، فكان لا بُدّ من ردعها وإخضاعها لسيطرة المسلمين، لأن المسلمين - أيضاً - كانوا في وضع استعادي متناسق ومتدرّج لمنازلة الدولة البيزنطية، إحدى القوتين العظميين في ذلك الوقت،

لوضع حدٍّ لسلطانهم، والقضاء على قُوَّتِهِم العسكرية والسياسية المناهضة لنشر الإسلام في المنطقة. والله تعالى أعلم». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٣٩٧-٣٩٨].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي رِبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ عَنْ ابْنِ رُومَانَ، وَحَدَّثَنِي أَلْحَبُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ رُقَيْشٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ حَزْمٍ، وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، فَكُلُّ قَدْ حَدَّثَنِي مِنْهُ طَائِفَةٌ، وَبَعْضُهُمْ أَوْعَى لِلْحَدِيثِ مِنْ بَعْضٍ، فَجَمَعْتُ مَا حَدَّثُونِي، وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ الْمُسَمَّيْنَ قَدْ حَدَّثَنِي أَيْضًا، قَالُوا: بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ جَمْعًا مِنْ بِلَىٍّ وَقَضَاعَةَ قَدْ تَجَمَّعُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَذْنُبُوا إِلَى أَطْرَافِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ   فَقَعَدَ لَهُ لِيَوَاءٍ أَبْيَضٍ، وَجَعَلَ مَعَهُ رَايَةَ سُودَاءَ، وَبَعَثَهُ فِي سَرَاةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - فِي ثَلَاثِائَةٍ - عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَصُهَيْبُ بْنُ سَنَانٍ، وَأَبُو الْأَعْوَرِ سَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نَفِيلٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ  ».

وَمِنَ الْأَنْصَارِ: أُسَيْدُ بْنُ حَضِيرٍ، وَعَبَادُ بْنُ بَشْرٍ، وَسَلْمَةُ بْنُ سَلَامَةَ، وَسَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ  . وَأَمْرُهُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِمَنْ مَرَّ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ، وَهِيَ بِلَادُ بِلَىٍّ وَعُذْرَةُ وَبَلْقَيْنَ، وَذَلِكَ أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ   كَانَ ذَا رَحِمٍ بِهِمْ، كَانَتْ أُمُّ الْعَاصِ   بِلَوِيَّةٍ، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَأَلَّفُهُمْ بِعَمْرُو  .

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٦٩-٧٧٠].

عدد الجيش، وقائده:

يقول د/ بريك: «لم يُحدِّد عدد الجيش غير الواقدي، وكاتبه ابن سعد في روايته: حيث قالوا: وبعثه في ثلثائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعه ثلاثون فرسًا وأمره أن يستعين بمن يمر به من بِلَىٍّ وعذرة وبلقين، فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين، وعقد له لواءً وبعث معه سراة المهاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر.

وذكر الواقدي مثله، إلا أنه سمَّى بعض أفراد الجيش، فمن المهاجرين: عامر بن ربيعة، وصهيب بن سنان، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وسعد بن أبي وقاص، ومن الأنصار: أسيد بن حضير، وعبادة بن بَشْرٍ، وسلمة بن سلامة، وسعد بن عبادة.

وورد عنده اسم رافع الطائي، وعوف بن مالك الأشجعي، ورافع بن مكيث الجهني، من خلال سياق الأحداث، بينما لم تحدِّد بقية الروايات عدد الجيش، وإنما تردَّد فيها أسماء بعض المشاركين في السرية، مثل أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، والمغيرة بن شعبة، ورافع الطائي، وعوف بن مالك، رضي الله عنهم أجمعين.

أمّا قائد الجيش، فقد ورد في رواية الزهري السابقة: أن رسول الله ﷺ بعث بعثين إلى كلب، وغسان، وأمر على أحد البعثين أبا عبيدة بن الجراح، وأمر على البعث الآخر عمرو بن العاص، فانتدب في بعث أبي عبيدة أبا بكر وعمر، فلمّا كان عند خروج البعث دعا رسول الله ﷺ أبا عبيدة وعمراً، فقال: لا تعاصيا، فلمّا فصلا من المدينة خلا أبو عبيدة بعمرو، فقال له: إنّ رسول الله ﷺ عهد إليّ وإليك أن لا تعاصيا، فلمّا أن تطيعني، وإمّا أن أطيعك، فقال: لا بل أطعني، فأطاع أبو عبيدة، وكان عمرو أميراً على البعثين كليهما.

وذكر الشعبي في روايته: أنّه بعث واحدٌ مقسومٌ قسمين: مهاجرين، وأعراب، وأنّ رسول الله ﷺ استعمل «أبا عبيدة ؓ على المهاجرين، واستعمل عمرو بن العاص ؓ على الأعراب».

عن عامر (بن شراحيل) قال: بعث رسول الله ﷺ جيش ذات السلاسل، فاستعمل أبا عبيدة ؓ على المهاجرين، واستعمل عمرو بن العاص ؓ على الأعراب، فقال لهما: «تطاولا»، قال: وكانوا يؤمرون أن يغيروا على بكر، فأنطلق عمرو ؓ فأغار على قضاة، لأنّ بكرًا أخواله، فأنطلق المغيرة بن شعبه ؓ إلى أبي عبيدة ؓ، فقال: إنّ رسول الله ﷺ استعملك علينا، وإنّ ابن فلان قد ارتبع أمر القوم (أي انتظر أن يؤمر عليهم)، وليس لك معه أمر، فقال أبو عبيدة ؓ: إنّ رسول الله ﷺ أمرنا أن نتطاول فأنّا أطيع رسول الله ﷺ وإنّ عصاه عمرو. [مسند أحمد ٣/٢٢٧ رقم ١٦٩٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الصحيح إلا أنه مرسل. مجمع الزوائد ٦/٣٠٤-٣٠٥ كتاب المغازي باب سرية بكر بن وائل رقم ١٠٣٥٠، وقال الهيثمي: رواه أحمد وهو مرسل، ورجاله رجال الصحيح].

وذلك وهم غير محفوظ، فالمعروف من روايات أهل المغازي الآخرين، كعروة بن الزبير، وموسى بن عقبة، وابن إسحاق، وابن سعد، والواقدي، وغيرهم، أنّ قائد السرية ابتداءً كان عمرو بن العاص ؓ، وأنّ أبا عبيدة بن الجراح ؓ أرسل مدداً له فيم بعد على رأس المهاجرين، وفيهم أبو بكر الصديق ؓ وعمر بن الخطاب ؓ، وأنّ أبا عبيدة سلم القيادة بعد ذلك لعمرو خشية الفرقة بين المسلمين، تنفيذاً لأمر القائد الأعلى للمسلمين رسول الله ﷺ.

وربما دخل الوهم على أحد رواة الحديثين السابقين (ربما كان الوهم في رواية الزهري من ابن لهيعة، الذي اختلط بعد احتراق كتبه، أو من يونس بن يزيد حيث إنّ في روايته عن الزهري وهم قليل، وربما دخل الوهم في رواية الشعبي من داود بن أبي هند القشيري مولا هم (ثقة متقن) كان بهم بآخره. (تقريب ٢٠٠). والله تعالى أعلم بالصواب؛ لأنّه لم يتصور أن يتأمر عمرو بن العاص وهو أقلّ سابقة على المهاجرين الأولين، أمثال أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فاختلط عليه الأمر فجعلهما جيشين بقائدين أرسلًا معاً في وقت واحد.

وما عُرِفَ عن رسول الله   من الدقة في التنظيم والحرص الشديد - دائماً - على عملية الضبط العسكري والانضباط بين جنوده في جيوشه وبعوثه وسراياه، وعدم تركه المجال للاختلافات المؤدية للفوضى والفشل واحتمالات الخطأ والصواب، كل ذلك يجعلنا نستبعد فرضية حدوث مثل ذلك الأمر. والله تعالى أعلم.

وكونه   يولي قيادة الجيش مَنْ هو أقل سابقة وفضلاً من الصحابة، فذلك لا يدلُّ على أنه أفضل منهم، ولكنه ربما رأى   بثاقب بصر العسكري المُحَنِّكَ أنه أعلم منهم في الحرب ومكائدها.

أخرج الحاكم بسنده عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ  ، قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ   عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ   فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ  ، وَفِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ  ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى مَكَانِ الْحَرْبِ أَمَرَهُمْ عَمْرُو   أَنْ لَا يَنْوَرُوا نَارًا، فَغَضِبَ عُمَرُ   وَهُمْ أَنْ يَنَالَ مِنْهُ، فَنَهَاهُ أَبُو بَكْرٍ  ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ رَسُولُ اللَّهِ   عَلَيْكَ إِلَّا لِإِعْلَامِهِ بِالْحَرْبِ، فَهَذَا عَنْهُ عُمَرُ  ». [المستدرک علی الصحیحین فی المغازی والسرایا ٤٥ / ٣ رقم ٤٣٥٧، وقال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُجَرِّجَاهُ، وَوَفَّقَهُ الذَّهَبِيُّ].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ  ، لِمَا لَمْ يَدْعِ عَمْرُو النَّاسَ أَنْ يُوقِدُوا نَارًا: أَلَا تَرَى إِلَى هَذَا الَّذِي مَنَعَ النَّاسَ مَنَافِعَهُمْ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ  : دَعُهُ، فَإِنَّمَا وَلَاهُ رَسُولُ اللَّهِ   عَلَيْنَا لِإِعْلَامِهِ بِالْحَرْبِ. [المصنف لابن أبي شيبة ٢٢٧ / ١٨ رقم ٣٤٣٥٦، وقال الشيخ عوامة: رجاله ثقات، وقال الشيخ الصوياني: حسن وسنده منقطع. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٤٤٠].

كما أخرج البيهقي من حديث يُوُسُس، عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ، عَنْ بَعْضِ مَشِيخَتِهِمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ   قَالَ: «إِنِّي لَأَوْمَرُ الرَّجُلَ عَلَى الْقَوْمِ فِيهِمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ أَقْظُ عَيْنًا وَأَبْصَرُ بِالْحَرْبِ».

[أخرجه البيهقي (دلائل ٤ / ٤٠٠)، وسنده فيه ضعف، وجهالة، وانقطاع. والله تعالى أعلم].

وأخرج البيهقي - أيضًا - عن أبي عثمان النهدي قال: سمعت عمرو بن العاص   يقول: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ   عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، وَفِي الْقَوْمِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَحَدَّثْتُ نَفْسِي أَنَّهُ لَمْ يَبْعَثْنِي عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إِلَّا لِمَنْزِلَةٍ لِي عِنْدَهُ، فَأَتَيْتُهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»، قُلْتُ: إِنِّي لَسْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ أَهْلِكَ، قَالَ: «فَأَبُوهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «عُمَرُ»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ حَتَّى عَدَدَ رَهْطًا، قَالَ: قُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا أَعُوذُ أَسْأَلُ عَنْ هَذَا» [أخرجه البيهقي (دلائل ٤ / ٤٠٠-٤٠١)،

وقال: أخرجه في الصحيح. قلت: أخرجه البخاري (الصحيح ٤ / ١٩٢، ١١٣ / ٥)، ومسلم (الصحيح ٩ / ٥)].

[غزوة مؤتة السرايا والبعوث الشمالية لبريك ٤٠٦-٤١٢].

وَعَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ   أَنَّ النَّبِيَّ   بَعَثَهُ   اسْتَعْمَلَهُ   عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، [قَالَ:] فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»، فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ:

«أبوها»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»، فَعَدَّ رَجُلًا [فَسَكَّتْ مَخَافَةً أَنْ يَجْعَلَنِي فِي آخِرِهِمْ].
[البخاري في المناقب (٣٦٦٢)، وفي المغازي (٤٣٥٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٤)، والترمذي في المناقب (٣٨٨٥، ٣٨٨٦)، ومسنده أحمد ٢٩/٣٤٤-٣٤٥ رقم ١٧٨١١].

وروى الإمام أحمد رحمه الله والبخاري في الأدب المفرد، وصححه أبو عوانة وابن حبان والحاكم من طريق موسى بن علي عن أبيه قال: سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ رضي الله عنه يقول: بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ ثُمَّ اتَّبِنِي»، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَدَ فِي النَّظَرِ، ثُمَّ طَأْطَأَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ (جيش سرية ذات السلاسل)، فَيَسْلَمَكَ اللَّهُ وَيُعْزِمَكَ، وَأَرْغَبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا عَمْرُو نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ». [مسند أحمد ٢٩/٢٩٨-٢٩٩، رقم ١٧٧٦٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وفتح الباري ٩/١٣٧-١٣٨، وقال عنه ابن حجر: إسناده حسن، والأدب المفرد للبخاري ص ٨٤ رقم ٢٩٩، وقال الشيخ الألباني: صحيح، والفتح الرباني للبنا ٢٢/٣٣٩-٣٤٠].
وعَنِ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدَ الْبَكْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ غَاصُّ بِالنَّاسِ، وَإِذَا رَايَاتٌ سُودٌ تَحْفُقُ، وَإِذَا بِلَالٌ رضي الله عنه مُتَقَلِّدُ السَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ قَالُوا: يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ وَجْهًا. [الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٧٤)، ومسنده أحمد ٢٥/٣٠٤ رقم ١٥٩٥٣، ٢٥/٣٠٦ رقم ١٥٩٥٤، وقال الشيخان الألباني والأرنؤوط: حسن].

الاستخبارات النبوية تبلغ الرسول ﷺ نبأ الغزو:

يقول أ/ باشميل: «لم يكن جهاز الاستخبارات العسكرية التابع للمدينة بغافل عن هؤلاء الأعراب، فقد كان هذا الجهاز يترصد حركاتهم ويتلقت أخبارهم، لا سيما بعد الصدام الذي حدث في مؤتة. ولهذا فلم يكد هؤلاء الأعراب المعادون يبدؤون الحشد ويتصل قادتهم بعضهم ببعض لوضع خطة غزو المدينة، حتى كان جهاز الاستخبارات النبوي ملماً بكامل تفاصيل نوايا وتحركات هؤلاء الأعراب المعادية للمسلمين، فسارع هذا الجهاز - وبأقصى سرعة - إلى تقديم تقرير شامل إلى النبي القائد ﷺ عن هؤلاء الأعراب وما يعتزمونه من القيام بغزو المدينة.

إسراع النبي ﷺ في غزوهم قبل أن يتحركوا:

وعندما أطلع الرسول القائد ﷺ على تقارير استخباراته العسكرية هذه، قرر أن ينقل المعركة إلى ديار هؤلاء الأعداء فيفاجئهم بجيشه في ديارهم قبل أن يتحركوا.

وتلك غالباً عادته ﷺ عندما يبلغه نبأ حشود تنوي غزو المدينة، فقد حشد النبي ﷺ على جناح السرعة جيشاً بلغ (أول الأمر) ثلاثمائة مقاتل، ثم أمده بنجدة حتى صار هذا الجيش خمسمائة مقاتل.

[غزوة مؤتة لباشميل ٢٢٠-٢٢١].

عمرو بن العاص   القائد لأول مرة:

وفي المدينة استدعى النبي   القائد عمرو بن العاص السهمي  ، وأسند إليه قيادة هذا الجيش، وكلفه أن يطأ بهذا الجيش ديار أولئك الأعراب فيخضد شوكتهم ويدوخهم، وقد عقد النبي   للقائد عمرو   لواءً أبيض.

وكما أن خالد بن الوليد   كان توليه القيادة للجيش في مؤتة - عقب استشهاد القادة الثلاثة - أول عمل حربي يقوم به مجاهدًا في سبيل الله عقب إسلامه، فإن غزوة ذات السلاسل هذه كانت أول مجال يقوم فيه عمرو بن العاص   بعد إسلامه بعمل حربي مجاهدًا في سبيل الله.

فقد أسند النبي   قيادة الجيش في غزوة ذات السلاسل هذه إلى عمرو بن العاص  ، وكان الجيش هذا يضم سراة المهاجرين والأنصار، بينهم: أبو بكر الصديق، وعامر بن ربيعة، وصهيب الرومي، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وسعد بن أبي وقاص من المهاجرين، ومن سادات الأنصار: أسيد بن حضير، وعبد بن بشر، وسلمة بن سلامة، وسعد بن عباد  .

الجيش يتحرك من المدينة:

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ٨ للهجرة تحرك القائد عمرو بن العاص   من المدينة بجيشه البالغ ثلاثمائة مقاتل في اتجاه الشمال نحو الحدود المتاخمة للشام، حيث تحتشد القبائل العربية المنتصرة الموالية للرومان، وكان مع ابن العاص من سلاح الفرسان ثلاثون فرسًا. [إمتاع الأسعاص ص ٣٥٢].

وكان القائد يغذ السير بجيشه ليأخذ العدو على حين غرة - وكما هي عادة السرايا والبعوث النبوية - كان القائد عمرو بن العاص   يسير بالجيش الليل ويكمن النهار.

وقد استغرق التحرك بالجيش من المدينة عشرة أيام بعدها وصل ابن العاص   بجيشه إلى أطراف ديار الأعداء، فنزل على ماء يقال له: السلاسل، والذي سُميت هذه الغزوة باسمه.

ابن العاص   يطلب النجدة من المدينة:

وكان القائد عمرو بن العاص   قد بعث أمامه برجال من استخبارات الجيش متكررة لتختلط بالعدو في دياره وأماكن تحشداته؛ لتعرف مدى قوته وحقيقة نواياه، ثم تُقدّم للقائد عمرو   تقريرًا مفصلاً عن ذلك؛ ليكون تصرفه العسكري ضد هؤلاء الأعداء مضمون العاقبة.

وقد قام رجال استخبارات الجيش بمهمتهم خير قيام، فتمكنوا من الوصول إلى ديار قضاة وبلى وأحلافهم من الأعداء واختلطوا بهم داخل معسكراتهم دون أن يشعروا بهم، ثم عادوا إلى قائد الجيش عمرو بن العاص   وقدموا له تقريرًا شفوياً مفصلاً عن تجمع هؤلاء الأعراب ومدى قوتهم وأماكن احتشادهم.

فاتضح للقائد عمرو ؓ من هذا التقرير أن قضاة وبلى وأحلافهم من عذرة والقين هم في جموع كبيرة لا تكفي القوة التي يقودها عمرو بن العاصٍ ؓ لمصادمتهم. لذلك قرر القائد عمرو ؓ التريث وعدم التعجل في الهجوم على القوم حتى يكتب إلى النبي ﷺ يطلب منه المدد، ثم أمر جيشه بالتراجع قليلاً عن ديار القوم والاختفاء لئلا يشعروا بعمرو وأصحابه ﷺ حتى تأتي النجدة من المدينة.

رسول عمرو ؓ إلى النبي ﷺ:

وكان القائد عمرو بن العاصٍ ؓ عندما رأى في تقارير استخباراته أن حشود الأعداء من الكثافة والقوة إلى درجة ليس في الإمكان أن يقوم جيشه بمهاجمتها، وهو في ذلك العدد القليل (ثلاثمائة مقاتل)، بعث - على جناح السرعة - إلى المدينة يبلغ الرسول القائد ﷺ حقيقة الموقف، ويطلب منه أن يمدّه بنجدة قوية ليتمكن من تدوين الأعداء وخضد شوكتهم وتشيت جموعهم التي كانت تحتشد للإغارة على المدينة.

وكان المبعوث الذي بعثه القائد عمرو ؓ إلى الرسول ﷺ لطلب النجدة هو رافع بن مكيث الجهني ؓ، وقد وصل رافع المدينة وأبلغ النبي ﷺ رسالة القائد عمرو بن العاصٍ ؓ، فلما اطلع النبي ﷺ على حقيقة الموقف سارع إلى إمداد القائد عمرو بن العاصٍ ؓ بنجدة كبيرة قوامها مائتان من المهاجرين والأنصار، فيهم كثير من سراتهم - مثل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﷺ - وقد أسند النبي ﷺ قيادة هذه النجدة إلى أبي عبيدة بن الجراح ؓ.

المدد يتحرك من المدينة:

تحرك قائد النجدة أبو عبيدة ؓ بنجدته نحو الشمال يغذ السير للالتحاق بالقائد عمرو بن العاصٍ ؓ الذي أوقف تحرك جيشه ورابط به في ذات السلاسل في انتظار المدد من المدينة. وكان النبي ﷺ قد أوصى أبا عبيدة بن الجراح ؓ أن لا يختلف مع عمرو بن العاصٍ ؓ عندما يلتحق به.

ووصل قائد النجدة أبو عبيدة ؓ بنجدته إلى عمرو ؓ في ذات السلاسل، فقوي جيش المسلمين حيث صار خمسمائة مقاتل.

اختلاف أبي عبيدة وعمرو ﷺ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَهُ يَسْتَفْتِي الْعَرَبَ إِلَى الشَّامِ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّ الْعَاصِ بْنِ وَاثِلٍ كَانَتْ أَمْرَاءَ مِنْ بَنِي، فَبَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ يَسْتَأْذِنُهُمْ لِذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ عَلَى مَاءٍ بِأَرْضِ جُدَامَ، يُقَالُ لَهُ السَّلْسَلُ، وَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزْوَةُ ذَاتِ السَّلَاسِلِ؛ فَلَمَّا كَانَ عَلَيْهِ خَافَ،

فَبَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ   يَسْتَمِدُّهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ   أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ   فِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ فِيهِمْ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ  . وَقَالَ لِأَبِي عُبَيْدَةَ   حِينَ وَجَّهَهُ: «لَا تَحْتَلِفَا»، فَخَرَجَ أَبُو عُبَيْدَةَ   حَتَّى إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ عَمْرُو  : إِنَّمَا جِئْتُ مَدَدًا لِي، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ  : لَا، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ، وَأَنْتَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ   رَجُلًا لَيِّنًا سَهْلًا، هَيِّنًا عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو  : بَلْ أَنْتَ مَدَدٌ لِي، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ  : يَا عَمْرُو، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ   قَالَ لِي: «لَا تَحْتَلِفَا»، وَإِنَّكَ إِنْ عَصَيْتَنِي أَطَعْتُكَ، قَالَ: فَإِنِّي الْأَمِيرُ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ مَدَدٌ لِي، قَالَ: فَدُونَكَ. فَصَلَّى عَمْرُو   بِالنَّاسِ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٢٣-٦٢٤].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَسَارَ، وَكَانَ يَكْمُنُ النَّهَارَ وَيَسِيرُ اللَّيْلَ، وَكَانَتْ مَعَهُ ثَلَاثُونَ فَرَسًا، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْقَوْمِ بَلَغَهُ أَنَّ هُمْ جَمْعًا كَثِيرًا، فَتَزَلَّ قَرِيبًا مِنْهُمْ عِشَاءً وَهُمْ شَاتُونَ، فَجَمَعَ أَصْحَابُهُ الْخُطْبَ يُرِيدُونَ أَنْ يَضْطَلُّوا - وَهِيَ أَرْضٌ بَارِدَةٌ - فَمَنَعَهُمْ، فَسَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ حَتَّى كَلَّمَهُ فِي ذَلِكَ بَعْضُ الْمُهَاجِرِينَ فَعَالَطَهُ، فَقَالَ عَمْرُو  : أَمِرتُ أَنْ تَسْمَعَ لِي وَتُطِيعَ! قَالَ: فَأَفْعَلُ!

وَبَعَثَ رَافِعُ بْنُ مَكِيثٍ الْجُهَنِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ   يُخْبِرُهُ أَنَّ هُمْ جَمْعًا كَثِيرًا، وَيَسْتَمِدُّهُ بِالرَّجَالِ، فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ  ، وَعَقَدَ لَهُ لِيَوَاءَ، وَبَعَثَ مَعَهُ سَرَاةَ الْمُهَاجِرِينَ - أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ   - وَالْأَنْصَارَ، وَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ   أَنْ يَلْحَقَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ  .

فَخَرَجَ أَبُو عُبَيْدَةَ   فِي مَاتَتَيْنِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعًا وَلَا يَحْتَلِفَا. فَسَارُوا حَتَّى لَحِقُوا بِعَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ  ، فَأَرَادَ أَبُو عُبَيْدَةَ   أَنْ يُؤَمَّ النَّاسَ وَيَتَقَدَّمَ عَمْرًا  ، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو  : إِنَّمَا قَدِمْتُ عَلَى مَدَدًا لِي، وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَوْمِنِي، وَأَنَا الْأَمِيرُ، وَإِنَّمَا أَرْسَلَكَ النَّبِيُّ   إِلَيَّ مَدَدًا. فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ  : كَلَّا، بَلْ أَنْتَ أَمِيرُ أَصْحَابِكَ وَهُوَ أَمِيرُ أَصْحَابِهِ. فَقَالَ عَمْرُو  : لَا، بَلْ أَنْتُمْ مَدَدٌ لَنَا.

فَلَمَّا رَأَى أَبُو عُبَيْدَةَ   الْإِخْتِلَافَ - وَكَانَ حَسَنَ الْخُلُقِ لَيِّنَ الشِّيمَةِ - قَالَ: لِنُطْمِئِنَّ يَا عَمْرُو، وَتَعْلَمَنَّ أَنَّ آخِرَ مَا عَهَدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ   أَنْ قَالَ: «إِذَا قَدِمْتَ عَلَى صَاحِبِكَ فَتَطَاوَعَا وَلَا تَحْتَلِفَا»، وَإِنَّكَ وَاللَّهِ إِنْ عَصَيْتَنِي لَا تُطِيعَنَّكَ.

فَاطَاعَ أَبُو عُبَيْدَةَ  ، فَكَانَ عَمْرُو   يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَأَبَّ إِلَى عَمْرٍو   جَمْعَ فَصَارُوا خَمْسَمِائَةً.

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٧٠-٧٧١].

عمرو بن العاص   القائد المحنك:

ولشدة حرص القائد عمرو   على إخفاء وجوده وجيشه عن أنظار الأعداء في ذات السلاسل أمر بأن لا يشعل أحد النار في الليل؛ لئلا يكشفهم العدو، وكان الوقت شتاء والبرد قارصًا، فحاول بعض

الصحابة من جنود عمرو ﷺ أن يشعل النار للتدفئة في الليل، فمنعهم القائد عمرو ﷺ من ذلك، فتذمروا وشق عليهم هذا المنع؛ لأنهم كانوا في الشمال وهي منطقة شديدة البرودة كما هو معروف.

وكلم بعض المهاجرين القائد عمرًا ﷺ كي يسمح للجند بإشعال النار في الليل ليستدفؤوا فأغظ له عمرو في القول، وقال - بلهجة القائد العسكري الحازم المسؤول -: أنا القائد لا أنت فاسمع وأطع، وكان أصحاب محمد ﷺ قمة في التربية الحربية والانضباط العسكري؛ ولذلك فإن قائد الجيش عمرو بن العاص ﷺ قال للصحابي المهاجر: اسمع لي وأطع، قال: أفعل، واستمر إشعال النار على الجيش في ذات السلاسل أمرًا محظورًا في الليل حتى جاءت النجدة من المدينة، وشرع القائد عمرو ﷺ في عملياته الهجومية الحربية على الأعداء.

وقد لام بعض الناس عمرًا ﷺ لشدته وإغلاظه الجواب للمهاجرين حين طلبوا منه السماح للجند بإشعال النار لدفع البرد، ولكن يظهر أن عمرًا غير ملوم في حظره إشعال النار في الليل بالقرب من معسكرات وتجمعات أعداء يخشى أن يعرفوا مكان جيشه فيجعلوا بمهاجمته قبل أن تصله النجدة التي طلبها من المدينة.

فكان عمرو بن العاص قائدًا مسؤولًا عن سلامة جنده، وله أن يتخذ من الإجراءات ما يكفل هذه السلامة، حتى وإن بدت هذه الإجراءات قاسية وشديدة.

فهو يرى أن إشعال النيران في الليل - وهو بالقرب من حشود معادية يريد مباغتها، بل ويتحاشى الصدام معها حتى تصله النجدة من المدينة - يرى أن في ذلك خطرًا على سلامة جنده؛ لأن إشعال النيران في الليل يكشف للأعداء مكان جيشه.

عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَهُ فِي ذَاتِ السَّلَاسِلِ، فَسَأَلَهُ أَصْحَابَهُ أَنْ يُوقِدُوا نَارًا، فَمَنْعَهُمْ، فَكَلَّمُوا أَبَا بَكْرٍ، فَكَلَّمَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: لَا يُوقِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ نَارًا إِلَّا قَذَفْتُهُ فِيهَا، قَالَ: فَلَقُوا الْعَدُوَّ فَهَزَمُوهُمْ، فَأَرَادُوا أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ فَمَنْعَهُمْ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ذَلِكَ الْجَيْشُ، ذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَشَكَوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَدْنِيَ لَهُمْ أَنْ يُوقِدُوا نَارًا، فَيَرَى عَدُوَّهُمْ قَتْلَهُمْ، وَكَرِهْتُ أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ، فَيَكُونُ لَهُمْ مَدَدٌ، فَيَغْطِفُوا عَلَيْهِمْ، فَحَمِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «لَمْ؟»، قَالَ: لِأَحَبِّ مَنْ حُبَّ، قَالَ: «عَائِشَةُ»، قَالَ: مِنَ الرَّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُو بَكْرٍ».

[صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٠/٤٠٤ في السير (٤٥٤٠)، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح].

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ: لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُوقِدُوا بَلِيلَ نَارًا، فَكَلَّمُوا أَبَا بَكْرٍ ﷺ، فَقَالُوا: كَلَّمْنَاهُ لَنَا، فَأَنَاءَ فَقَالَ: زَمَلُوكَ إِلَيَّ، لَا يُوقِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ نَارًا إِلَّا أَلْقِيَهُ فِيهَا، ثُمَّ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَهَزَمَهُمْ، وَلَمْ يَدْعُهُمْ يَطْلُبُونَ الْعَدُوَّ، فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرُوهُ

بِالْحَرْبِ، وَشَكُّوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «كَانُوا قَلِيلًا، فَكَرِهْتُ أَنْ يُوقِدُوا فَيَسْتَبِينَ لِلْعَدُوِّ قُلْتَهُمْ، وَكَرِهْتُ أَنْ يَتَّبِعُوا الْعَدُوَّ، وَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَادَّةٌ فَيَغْطِفُوا عَلَى النَّاسِ»، فَحَمِدَ رَسُولُ اللَّهِ   أَمْرُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «لَمْ؟»، قَالَ: لِأَحَبِّ مِنْ نَحْبٍ، قَالَ: «عَائِشَةُ»، قَالَ: لَيْسَ عَنِ النِّسَاءِ أَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَأَبُو بَكْرٍ»  . [الأحاد والثاني لابن أبي عاصم ١٠٣/٢ رقم ٨٠٤، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. السيرة النبوية للصوياني ٣/٣٤٩].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ  ، قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ   عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ  ، وَفِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ  ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى مَكَانِ الْحَرْبِ أَمَرَهُمْ عَمْرُو   أَنْ لَا يُنَوِّرُوا نَارًا، فَغَضِبَ عُمَرُ   وَهُمْ أَنْ يَنَالَ مِنْهُ، فَنَهَاهُ أَبُو بَكْرٍ  ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ رَسُولُ اللَّهِ   عَلَيْكَ إِلَّا لِعِلْمِهِ بِالْحَرْبِ، فَهَذَا عَنْهُ عُمَرُ  ». [المستدرک علی الصحیحین فی المغازی والسرايا ٤٥/٣ رقم ٤٣٥٧، وقال الحاکم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ، وَلَمْ يَجْرَأْهُ، وَوَفَّقَهُ الذَّهَبِيُّ].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ  ، لَمَّا لَمْ يَدْعُ عَمْرُو النَّاسَ أَنْ يُوقِدُوا نَارًا: أَلَا تَرَى إِلَى هَذَا الَّذِي مَنَعَ النَّاسَ مَنَافِعَهُمْ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ  : دَعُهُ، فَإِنَّمَا وَلَاهُ رَسُولُ اللَّهِ   عَلَيْنَا لِعِلْمِهِ بِالْحَرْبِ. [المصنف لابن أبي شيبة ٢٢٧/١٨ رقم ٣٤٣٥٦، وقال الشيخ عوامة: رجاله ثقات، وقال الشيخ الصوياني: حسن وسنده منقطع. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٤٤٠].

الغزوة تحقّق أهدافها:

يقول أ/ باشميل: «كانت التقارير - كما أشرنا فيها مضى - تؤكد أن قبائل قضاة وبلى وعذرة الموالية للإمبراطورية الرومانية تحتشد على حدود جزيرة العرب مما يلي الشام لغزو المدينة، فسارع النبي   وبعث بعمر بن العاص   ثم أمده بمائتي مقاتل، فتكامل له من المقاتلين الصحابة   خمسةائة. وعندما استكمل هذا العدد للقائد عمرو  ، شرع في مهاجمة هذه القبائل المعادية واجتياح ديارها الواحدة بعد الأخرى، وقد نجح في تشتيت جموعها وخضد شوكتها وتدوينها، فأزال بذلك من أذهان قادتها فكرة القدرة على مهاجمة المدينة.

فقد ذكر المؤرخون أن مجموع قضاة وبلى وعذرة وبلقين - رغم كثرتهم ورغم مساندة الرومان لهم بالمال والسلاح - قد عجزوا عن مواجهة جيش عمرو بن العاص  ، حيث لم يصمدوا إلا قليلاً ثم شردوا ممزقين في كل سهل وجبل، تاركين ديارهم وأموالهم التي وقعت غنيمة في أيدي المسلمين. وقد استمر عمرو بن العاص   في مطاردة هؤلاء الأعراب حتى انتهى في مطاردته إلى آخر بلادهم ولم يلق أثناء مطاردتهم إلا مقاومة قليلة سُحقت في الحال». [غزوة مؤتة لباشميل ٢٢٨].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَسَارَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى وَطِئَ بِلَادَ بِلْيٍّ وَدَوَّخَهَا (دوخ البلاد: قهرها واستولى على أهلها. الصحاح ص ٤٢١)، وَكَلَّمَا انْتَهَى إِلَى مَوْضِعٍ بَلَغَهُ أَنَّهُ كَانَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ جَمْعٌ فَلَمَّا سَمِعُوا بِهِ تَقَرَّفُوا، حَتَّى

انتهى إلى أقصى بلاد بلي وعذرة وبلقين، ولقي في آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير، فقاتلوا ساعة وتراموا بالنبل، ورُمي يومئذ عامر بن ربيعة رضي الله عنه فاصيب ذراعاً، وحل المسلمون عليهم فهرّبوا، وأعجزوا هرباً في البلاد وتفرّقوا، ودوخ عمرو رضي الله عنه ما هناك، وأقام أياماً لا يسمع هم يجمع ولا يمكان صاروا فيه، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم، وكانوا ينحرون ويذبّحون، لم يكن في ذلك أكثر من ذلك، ولم تكن غنائم تُقسّم إلا ما ذكر له». [المغازي للواقدي ٢ / ٧٧١].

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن انتهى جيش عمرو من مطاردة القوم إلى آخر بلادهم أمر القائد عمرو رضي الله عنه بإيقاف المطاردة وأراد المسلمون أن يستمروا في تتبع المشركين، فمنعهم عمرو خوفاً من أن يقعوا في كائن ينصبها الأعداء.

ولا شك أن المسلمين - بنجاحهم في تشتيت جموع قبائل الشمال المعادية - قد أمّنوا على المدينة من أي غزو خارجي، فقد جربت غطفان - أقوى وأشرس القبائل النجدية والوثنية - حظها، حيث كان نصيب محاولتها اقتحام المدينة - بتحريض من يهود خيبر في غزوة الأحزاب - الفشل، وها هي عشائر قضاة من بلي وعذرة وغيرهم تنالها - بالتأديب - قوات الجيش النبوي في ديارها قبل أن تستكمل احتشادها لتحرك نحو المدينة لغزوها بإسناد من القادة العسكريين الرومان الذين يحكمون الأقاليم الجنوبية من الشام.

عودة ابن العاص رضي الله عنه المنتصر إلى المدينة:

وبعد أن دوخ عمرو بن العاص رضي الله عنه قبائل بل وعذرة وكل عشائر قضاة وبلقين في الشمال، وشتت جوّعهم، وجاس خلال ديارهم حتى وصل مشارف الشام، قرر العودة إلى المدينة بجيشه الذي لم يُصب منهم أحد سوى رجل واحد جرح جراحة طفيفة بسهم أصابه من الأعداء أثناء الترامي.

البشير بالنصر إلى المدينة:

وقبل أن يتحرك عمرو بن العاص رضي الله عنه نحو الجنوب عائداً بجيشه بعث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أمامه إلى المدينة ليبشر النبي ﷺ بما حققه الله لجيشه من انتصار ساحق على أعدائه.

وقد وصل المدينة قبل أن يصل عمرو بجيشه، وحسب رغبة القائد عمرو رضي الله عنه قدّم للرسول ﷺ تقريراً عن كل الأعمال التي قام بها عمرو رضي الله عنه في الشمال، والنتائج الإيجابية التي انتهت إليها حملة التأديب التي قادها عمرو رضي الله عنه، وقد سر النبي ﷺ سروراً عظيماً بنجاح عمرو رضي الله عنه في حملته التأديبية.

ثناء الرسول ﷺ على أبي عبيدة رضي الله عنه لسماحة خلقه:

كذلك أخبر عوف بن مالك رضي الله عنه (حامل بريد القائد عمرو) أخبر النبي ﷺ بتفاصيل الخلاف الذي حدث بين عمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح، وإطاعة أبي عبيدة لعمر بن العاص، وتسليمه إياه كامل القيادة، فأثنى النبي ﷺ على أبي عبيدة ودعا له قائلاً: «يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ».

صلاة عمرو ؓ بالمسلمين وهو متيمم:

عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ؓ قَالَ: اخْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَتَيَمَّمْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا عَمْرُو صَلِّتْ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟»، فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي مَنَعَنِي مِنَ الْإِغْتِسَالِ، وَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿١٩﴾ [النساء]، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا.

[أبو داود في الطهارة (٣٣٤)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ؓ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ ذَاتِ السَّلَاسِلِ قَالَ: فَأَخْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ، فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَتَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي صَلَاةَ الصُّبْحِ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «يَا عَمْرُو، صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي اخْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ، فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، وَذَكَرْتُ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿١٩﴾ [النساء]، فَتَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا. [مسند أحمد ٢٩/٣٤٦-٣٤٧ رقم ١٧٨١٢، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف، فيه عبد الله بن هبة، وهو سعي الحفظ].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالَ رَافِعُ بْنُ أَبِي رَافِعٍ الطَّائِيُّ ؓ: وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ؓ حِينَ قَفَلْنَا اخْتَلَمَ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ كَأَشَدِّ مَا يَكُونُ مِنَ الْبَرْدِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: مَا تَرَوْنَ؟ قَدْ وَاللَّهِ اخْتَلَمْتُ، وَإِنْ ابْنُ مَالِكٍ ؓ بَرِيدًا. قَالَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ ؓ: فَقَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي السَّحَرِ وَهُوَ يُصَلِّي فِي بَيْتِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ؟» قُلْتُ: عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «صَاحِبُ الْجَزُورِ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «أَخْبِرْنِي»، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا كَانَ فِي مَسِيرِنَا، وَمَا كَانَ بَيْنَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَبَيْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ؓ، وَمُطَاوَعَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ ؓ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ»، ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ أَنَّ عَمْرًا ؓ صَلَّى بِنَا وَهُوَ جُنُبٌ وَمَعَهُ مَاءٌ لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ غَسَلَ فَرْجَهُ بِنَاءٍ وَتَيَمَّمَ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمَ عَمْرُو ؓ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَأَلَهُ عَنْ صَلَاتِهِ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اغْتَسَلْتُ لَمُتُ، لَمْ أَجِدْ قَطُّ بَرْدًا مِثْلَهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿١٩﴾ [النساء]، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَنْلُغْنَا أَنَّهُ قَالَ شَيْئًا». [المغازي للواقدي ٢/٧٧٣-٧٧٤].

النبي ﷺ يقر كل تصرفات القائد ولم ينكر عليه:

وعندما عاد القائد عمرو بن العاص ؓ بالجيش إلى المدينة أُثير أمام الرسول ﷺ موضوع منع عمرو الجيش من تعقب المنهزمين في الشمال، وموضوع صلاته وهو جنب، ومنعه الجيش من إشعال النار للتدفئة، وقد استجوب النبي ﷺ عمراً ؓ حيال هذه الأمور الثلاثة.

فأجاب بشأن منعه الجيش من تعقب عشائر قضاة المنهزمة في أقصى بلادها قائلاً: كَرِهْتُ أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ، فَيَكُونُ لَهُمْ مَدَدٌ، فَيَعْطِفُوا عَلَيْهِمْ.

أما بشأن منعه الجيش من إشعال النار أجاب عمرو: يا رسول الله، كَرِهْتُ أَنْ آذَنَ لَهُمْ أَنْ يُوقِدُوا نَارًا، فَيَرَى عَدُوَّهُمْ قُلْتَهُمْ.

فاستصوب النبي ﷺ تصرف عمرو هذا وحده عليه [السيرة الحلبية ٢/ ٣١٤].

[غزوة مؤتة لباشميل ٢٢٩-٢٣١].

وصيّة أبي بكر رافع بن رافع رضي الله عنه:

قال ابن سعد: أخبرنا جعفر بن عون، ومحمد بن عبد الله الأسدي، قالاً: أخبرنا مسعر، عن أبي عون، عن شيخ من بني أسد، قال: رأيت أبا بكر رضي الله عنه في غزوة ذات السلاسل، كأنّ لحية لهاب [لهب] العرفج، شبيهاً خفيفاً، أبيض، على ناقة له أدماء [أدماً]. [الطبقات الكبير لابن سعد ٣/ ١٧٢ رقم ٣٤٤٩، والمعجم الكبير للطبراني ١/ ٥٧ رقم ٢٤، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٤٣٧].

وعن رافع بن عمرو الطائي قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه على جيش ذات السلاسل، وبعث معه في ذلك الجيش أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وسراة أصحابه، فانطلقوا حتى نزلوا جبل طيء، فقال عمرو: انظروا إلى رجل دليل بالطريق، فقالوا: ما نعلمه إلا رافع بن عمرو، فإنه كان ريلاً في الجاهلية - فسألت طارفاً: ما الريل؟ قال: اللص الذي يغزو القوم وحده فيسرق - قال رافع: فلما قضينا غزائنا وانتهيت إلى المكان الذي كنا خرجنا منه، توسمت أبا بكر رضي الله عنه، فأتيت فقلت: يا صاحب الحلال إني توسمتك من بين أصحابك، فأتيتني بشيء إذا حفظته كنت مثلكم فقال: «أحفظ أصابعك الحمس؟» قلت: نعم، قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وتقيم الصلوات الخمس، وتؤتي الزكاة إن كان لك، وتحج البيت، وتصوم رمضان، حفظت؟» قلت: نعم، قال: «وأخرى لا تؤمرن على اثنين»، قلت: هل تكون المرأة إلا فيكم أهل بدر؟ قال: «يوشك أن تفشوا حتى تبلغك ومن هو دونك، إن الله ﷻ لما بعث نبيه ﷺ دخل الناس في الإسلام، فمنهم من دخل فهداه الله، ومنهم من أكرهه السيف، فهو عواد الله، وجيران الله في خفارة الله، إن الرجل إذا كان أميراً، فتظالم الناس بينهم، فلم يأخذ لبعضهم من بعض، انتقم الله منه، إن الرجل لتؤخذ شاة جاره فيظل ناتية عضلته غضباً لجاره، والله من وراء جاره».

قال رافع: فمكثت سنة، ثم إن أبا بكر استخلف، فركبت إليه فقلت: أنا رافع، كنت لقيتك يوم كذا وكذا مكان كذا وكذا، قال: «عرفت»، قلت: كنت مهينتي عن الإمارة، ثم ركبت بأعظم من ذلك أمة محمد ﷺ، قال: «نعم، فمن لم يقيم فيهم بكتاب الله فعليه بهلة الله»، يعني لعنة الله.

[جمع الزوائد ٥/ ٣٦٥ رقم ٩٠٢٩، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٥/ ٢١ رقم ٤٤٦٧]، ورجاله ثقات.

وقال الشيخ الصوياني: حديث حسن. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٤٣٩].

وَعَنْ رَافِعِ الطَّائِي، قَالَ: وَكَانَ لَصًّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَ: وَكَانَ يُعَدُّ لِي بِيَضِ النَّعَامِ فَيَجْعَلُ فِيهِ الْمَاءَ وَيَصْعُهُ فِي الْمَفَاةِ فَلَمَّا أَسْلَمَ كَانَ الدَّلِيلَ لِلْمُسْلِمِينَ، قَالَ: لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ ذَاتِ السَّلَاسِلِ قُلْتُ: اللَّهُمَّ وَقِّ لِي رَفِيقًا صَالِحًا، فَوَقَّقَ اللَّهُ   أَبَا بَكْرٍ  ، فَكَانَ يُنِيمُنِي عَلَى فِرَاشِهِ، وَيُلْبِسُنِي كِسَاءً لَهُ مِنْ أَكْسِيَةِ فَذِكْ فَإِذَا أَصْبَحَ لِبْسُهُ، وَلَا يَلْتَفِتِي طَرَفَاهُ حَتَّى يُخْلَهُ بِخِلَالٍ، فَقَالَتْ هَوَازُنُ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ  : نَحْنُ نُطِيعُ صَاحِبَ الْخِلَالِ؟ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ عَلَّمَنِي شَيْئًا يَنْفَعُنِي اللَّهُ   بِهِ وَلَا تَطُلْ عَلَيَّ فَأَتَسَى، فَقَالَ لِي: اعْبُدِ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ، وَتَصَدَّقْ إِنْ كَانَ لَكَ مَالٌ، وَهَاجِرٌ دَارَكَ فَإِنَّهَا دَرَجَةُ الْعَمَلِ، وَلَا تُؤَمِّرَنَّ عَلَى رَجُلَيْنِ قَالَ: قُلْتُ: لِمَ؟ أَوَلَيْسَ الْإِمْرَةُ يُرْعَبُ فِيهَا؟ وَذَكَرْتُهَا وَمَا تَصَابُ، فَقَالَ: «إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ طَوْعًا وَكَرْهًا، فَهُمْ رِعَاءُ اللَّهِ وَعَوْنُ اللَّهِ، وَفِي ذِمَّةِ اللَّهِ  ، فَمَنْ ظَلَمَ مِنْهُمْ أَحَدًا فَلَيْتَا يُخَفِّرَ اللَّهُ  »، قَالَ طَلْحَةُ: فَذَكَرْتُ هَذَا الْحَدِيثَ لِمُجَاهِدٍ وَزَادَ فِيهِ: فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَطْلُبَكَ اللَّهُ   بِذِمَّتِهِ فَافْعَلْ.

[الأحاد والثاني لابن أبي عاصم ٤٤٢/٤ رقم ٢٤٩٦، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٤٣٩].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ مِنَ الْحَدِيثِ فِي هَذِهِ الْغَزَاةِ أَنَّ رَافِعَ بْنَ أَبِي رَافِعِ الطَّائِي، وَهُوَ رَافِعُ بْنُ عَمِيرَةَ، كَانَ يُحَدِّثُ فِيمَا بَلَغَنِي عَنْ نَفْسِهِ قَالَ: كُنْتُ امْرَأً نَصْرَانِيًّا، وَسُمِّيتُ سَرَجَسَ، فَكُنْتُ أَدَلُّ النَّاسِ وَأَهْدَاهُمْ بِهَذَا الرَّمْلِ، كُنْتُ أَذْفِنُ الْمَاءَ فِي بِيَضِ النَّعَامِ بِنَوَاحِي الرَّمْلِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ أُغِيرَ عَلَى إِبِلِ النَّاسِ، فَإِذَا أَدْخَلْتُهَا الرَّمْلَ غَلَبْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَطْلُبَنِي فِيهِ حَتَّى أَمَرَ بِذَلِكَ الْمَاءِ الَّذِي خَبَأْتُ فِي بِيَضِ النَّعَامِ، فَأَسْتَخْرِجُهُ فَأَشْرَبُ مِنْهُ، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ خَرَجْتُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ الَّتِي بَعَثَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ   عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ   إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأُخْتَارَنَّ لِنَفْسِي صَاحِبًا، قَالَ: فَصَحِبْتُ أَبَا بَكْرٍ  ، قَالَ: فَكُنْتُ مَعَهُ فِي رَحْلِهِ، قَالَ: وَكَانَتْ عَلَيْهِ عِبَاءَةٌ لَهُ فَذَكِيَّةُ (العباءة: الكساء الغليظ، ويُقال فيها عباية بالياء، والفدكية: المنسوبة إلى فذك، وهي بلدة بخير)، فَكَانَ إِذَا نَزَلْنَا بَسَطَهَا وَإِذَا رَكِبْنَا لِبْسَهَا، ثُمَّ شَكَّاهَا عَلَيْهِ (شكها عليه: أنفذهها بالخلال الذي كان يخللها به) بِخِلَالٍ لَهُ (الخلال: العود يخلل به الثوب، وخللت الرداء خللاً من باب قتل ضمنت طرفيه بخلال والجمع أخلة)، قَالَ: وَذَلِكَ الَّذِي لَهُ يَقُولُ أَهْلُ نَجْدٍ حِينَ ارْتَدُّوا كُفَّارًا: نَحْنُ تَبَايَعُ ذَا الْعِبَاءَةِ! قَالَ: فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّمَا صَحِبْتُكَ لِيَنْفَعَنِي اللَّهُ بِكَ، فَأَنْصَحْنِي وَعَلِّمْنِي، قَالَ: لَوْ لَمْ تَسْأَلْنِي ذَلِكَ لَفَعَلْتُ، قَالَ: أَمُرُّكَ أَنْ تُوحِدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَأَنْ تُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتُحْجَّ هَذَا الْبَيْتَ، وَتَغْتَسِلَ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَلَا تَتَأَمَّرَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبَدًا.

قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَمَا أَنَا وَاللَّهِ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ لَا أَشْرِكَ بِاللَّهِ أَحَدًا أَبَدًا، وَأَمَّا الصَّلَاةُ فَلَنْ أَتْرُكَهَا أَبَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَمَّا الزَّكَاةُ فَإِنِّي يَكُ لِي مَالٌ أَوْدَّهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَمَّا رَمَضَانُ فَلَنْ أَتْرُكَهُ أَبَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَمَّا الْحَجُّ فَإِنِّي اسْتَطَعْتُ أَحْجَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَمَّا الْجَنَابَةُ فَسَأَعْتَسِلُ مِنْهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَمَّا الْإِمَارَةُ فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ

يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَشْرُقُونَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَ النَّاسِ إِلَّا بِهَا، فَلِمَ تَنْهَانِي عَنْهَا؟ قَالَ: إِنَّكَ إِنَّمَا اسْتَجْهَدْتَنِي لِأَجْهَدَ لَكَ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ ذَلِكَ، إِنَّ اللَّهَ ﷻ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِهَذَا الدِّينِ، فَجَاهَدَ عَلَيْهِ حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِيهِ طَوْعًا وَكَرْهًا، فَلَمَّا دَخَلُوا فِيهِ كَانُوا عَوَادَ اللَّهِ وَجِرَانَهُ، وَفِي ذِمَّتِهِ، فَإِيَّاكَ لَا تُخْفِرُ اللَّهَ (لا تنقض عهده) فِي جِرَانِهِ، فَيَتْبِعَكَ اللَّهُ خَفَرَتَهُ، فَإِنْ أَحَدَكُمُ يُخْفِرُ فِي جَارِهِ، فَيُظِلُّ نَاتِنًا عَصْلُهُ (الناتى: المرتفع المستنقع. والعصل: جمع عضلة، وهي القطعة الشديدة من اللحم) غَضَبًا لِحَارِهِ أَنْ أُصِيبَتْ لَهُ شَاةٌ أَوْ بَعِيرٌ، فَاللَّهُ أَشَدُّ غَضَبًا لِحَارِهِ. قَالَ: فَفَارَقْتُهُ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأُمِرَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: قَدِمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَمْ تَكُنْ نَهَيْتَنِي عَنْ أَنْ أَتَاكَ عَلَى رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: بَلَى، وَأَنَا الْآنَ أَمَّاكَ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَلِيَ أَمْرَ النَّاسِ؟ قَالَ: لَا أَحِدٌ مِنْ ذَلِكَ بُدًّا، خَشِيتُ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْفُرْقَةَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٢٤-٦٢٥].

وَقَالَ الْوَائِدِيُّ: «وَكَانَ رَافِعُ بْنُ أَبِي رَافِعٍ الطَّائِيُّ ﷺ يَقُولُ: كُنْتُ فِيمَنْ نَفَرَ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجُرَّاحِ ﷺ، وَكُنْتُ رَجُلًا أُغِيرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ، فَكُنْتُ أَجْمَعُ الْمَاءَ فِي الْبَيْضِ - بَيْضِ النَّعَامِ - فَأَجْعَلُهُ فِي أَمَاكِنَ أَعْرِفُهَا، فَإِذَا مَرَرْتُ بِهَا وَقَدْ ظُمْتُ اسْتَخَرَجْتُهَا فَشَرِبْتُ مِنْهَا، فَلَمَّا نَفَرْتُ فِي ذَلِكَ الْبَغْتِ قُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أُخْتَارَنَ لِنَفْسِي صَاحِبًا يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ، فَاخْتَرْتُ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ ﷺ فَصَحْبَتُهُ، وَكَانَتْ لَهُ عِبَاءَةٌ فَذَكَيْتُهُ فَإِذَا رَكِبَ خَلَّهَا عَلَيْهِ بِخِلَالٍ، وَإِذَا نَزَلْنَا بَسَطَهَا، فَلَمَّا قَفَلْنَا قُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، رَحِمَكَ اللَّهُ! عَلَّمَنِي شَيْئًا يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ، قَالَ: قَدْ كُنْتُ فَاعِلًا وَلَوْ لَمْ تَسْأَلْنِي، لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ، وَآتِ الزَّكَاةَ، وَصُمْ رَمَضَانَ، وَحُجَّ الْبَيْتَ وَاعْتَمِرْ، وَلَا تَتَأَمَّرْ (تأمر عليهم: تسلط. الصحاح، ص ٥٨٢) عَلَى اثْنَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ: قُلْتُ: أَمَا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ فَأَنَا فَاعِلُهُ، وَأَمَا الْإِمَارَةُ فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ لَا يُصِيبُونَ هَذَا الشَّرَفَ وَهَذَا الْغِنَى وَهَذِهِ الْمَنْزِلَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَ النَّاسِ إِلَّا بِهَا، قَالَ: إِنَّكَ اسْتَصْحَحْتَنِي فَجَهِدْتُ لَكَ نَفْسِي، إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ طَوْعًا وَكَرْهًا فَأَجَارَهُمُ اللَّهُ مِنَ الظُّلْمِ، وَهُمْ عَوَادُ اللَّهِ وَجِرَانُ اللَّهِ، وَفِي أَمَانَتِهِ، فَمَنْ أَخْفَرَ فَإِنَّمَا يُخْفِرُ اللَّهُ فِي جِرَانِهِ، وَإِنْ شَاءَ أَحَدُكُمْ أَوْ بَعِيرُهُ لِيَذْهَبَ فَيُظِلُّ نَاتِنًا عَصْلُهُ غَضَبًا لِحَارِهِ، وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ جَارِهِ.

قَالَ: فَلَمَّا تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ جِئْتُهُ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَمْ تَنْهِنِي أَنْ أَتَاكَ عَلَى اثْنَيْنِ؟ قَالَ: بَلَى، وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: فَمَا لَكَ تَأَمَّرْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: اخْتَلَفَ النَّاسُ وَخَشِيتُ عَلَيْهِمُ الْهَلَكَ، وَدَعَوَا إِلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ لِدَلِكُ بُدًّا. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٧١-٧٧٣].

تَقْسِيمُ عَوْفٍ الْأَشْجَعِيِّ ﷺ الْجَزُورَ بَيْنَ قَوْمٍ:

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ ﷺ، قَالَ: غَزَوْنَا وَعَلَيْنَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَأَصَابَتَنَا مَخْمَصَةٌ، فَمَرُّوا عَلَى قَوْمٍ قَدْ نَحَرُوا جَزُورًا، فَقُلْتُ: أَعَالِجُهَا لَكُمْ عَلَى أَنْ تُطْعِمُونِي مِنْهَا شَيْئًا، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَتَطْعَمُونَ

مِنْهَا؟، فَعَايَظَهَا، ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِي أَعْطَوْنِي، فَأَتَيْتُ بِهِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ  ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَهُ ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجُرَّاحِ  ، فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ  ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَهُ، ثُمَّ إِنِّي بُعِثْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ   بَعْدَ ذَلِكَ فِي فَتْحٍ فَقَالَ: «أَنْتَ صَاحِبُ الْجَزُورِ؟»، فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يَزِدْنِي عَلَى ذَلِكَ.

[مسند أحمد ٣٩/ ٤٠٢ رقم ٢٣٩٧٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده جيد].

وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ   قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ وَمَعَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ، فَأَصَابَنَا مَخْمَصَةٌ شَدِيدَةٌ، فَوَجَدْتُ قَوْمًا يُرِيدُونَ أَنْ يَنْحَرُوا جُزُورًا فَقُلْتُ: أُعِينُكُمْ عَلَيْهَا وَانْحَرُوهَا وَتَقْطِعُونِي مِنْهَا شَيْئًا؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَفَعَلْتُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: قَدْ تَعَجَّلْتَ أَجْرَهُ، وَمَا أَنَا بِأَكِلِهِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَتَقَدَّمَ عَلَيَّ النَّبِيُّ   فَلَمَّا رَأَنِي قَالَ: «يَا صَاحِبَ الْجَزُورِ». [المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٧١ رقم ١٣١].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: أَخْبَرَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ  ، قَالَ: كُنْتُ فِي الْغَزَاةِ الَّتِي بَعَثَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ   عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ   إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ، قَالَ: فَصَحِبْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ عَلَى جُزُورٍ هُمْ قَدْ نَحَرُوهَا، وَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُعْضَوْهَا (يعضوها: يقسموها)، قَالَ: وَكُنْتُ أَمْرًا لَبِيقًا (اللبق: الحاذق الرفيق في العمل) جَازِرًا (الذي يذبح الجزور)، قَالَ: فَقُلْتُ: أَتَعْطُونَنِي مِنْهَا عَشِيرًا (العشير: النصيب؛ لأن الجزور كانت تقسم على عشرة أجزاء، فكل جزء منها عشير) عَلَى أَنْ أَقْسِمَ بِهَا بَيْنَكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَأَخَذْتُ الشَّفْرَتَيْنِ فَجَزَّأْتُهَا مَكَانِي، وَأَخَذْتُ مِنْهَا جُزْءًا، فَحَمَلْتُهُ إِلَى أَصْحَابِي، فَاطْبَخْنَاهُ فَأَكَلْنَاهُ، فَقَالَ لِي أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ  : أَتَى لَكَ هَذَا اللَّحْمُ يَا عَوْفُ؟ قَالَ: فَأَخْبَرْتُهُمَا خَبْرَهُ، فَقَالَا: وَاللَّهِ مَا أَحْسَنْتَ حِينَ أَطْعَمْتَنَا هَذَا، ثُمَّ قَامَا يَتَقَيَّانِ مَا فِي بُطُونِهِمَا مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَلَمَّا قَفَلَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ السَّفَرِ كُنْتُ أَوَّلَ قَادِمٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ  ، قَالَ: فَجِئْتُهُ وَهُوَ يُصَلِّي فِي بَيْتِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، قَالَ: «أَعَوْفُ بْنُ مَالِكٍ؟»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: «أَصَاحِبُ الْجَزُورِ؟»، وَلَمْ يَزِدْنِي رَسُولُ اللَّهِ   عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٢٥-٦٢٦].

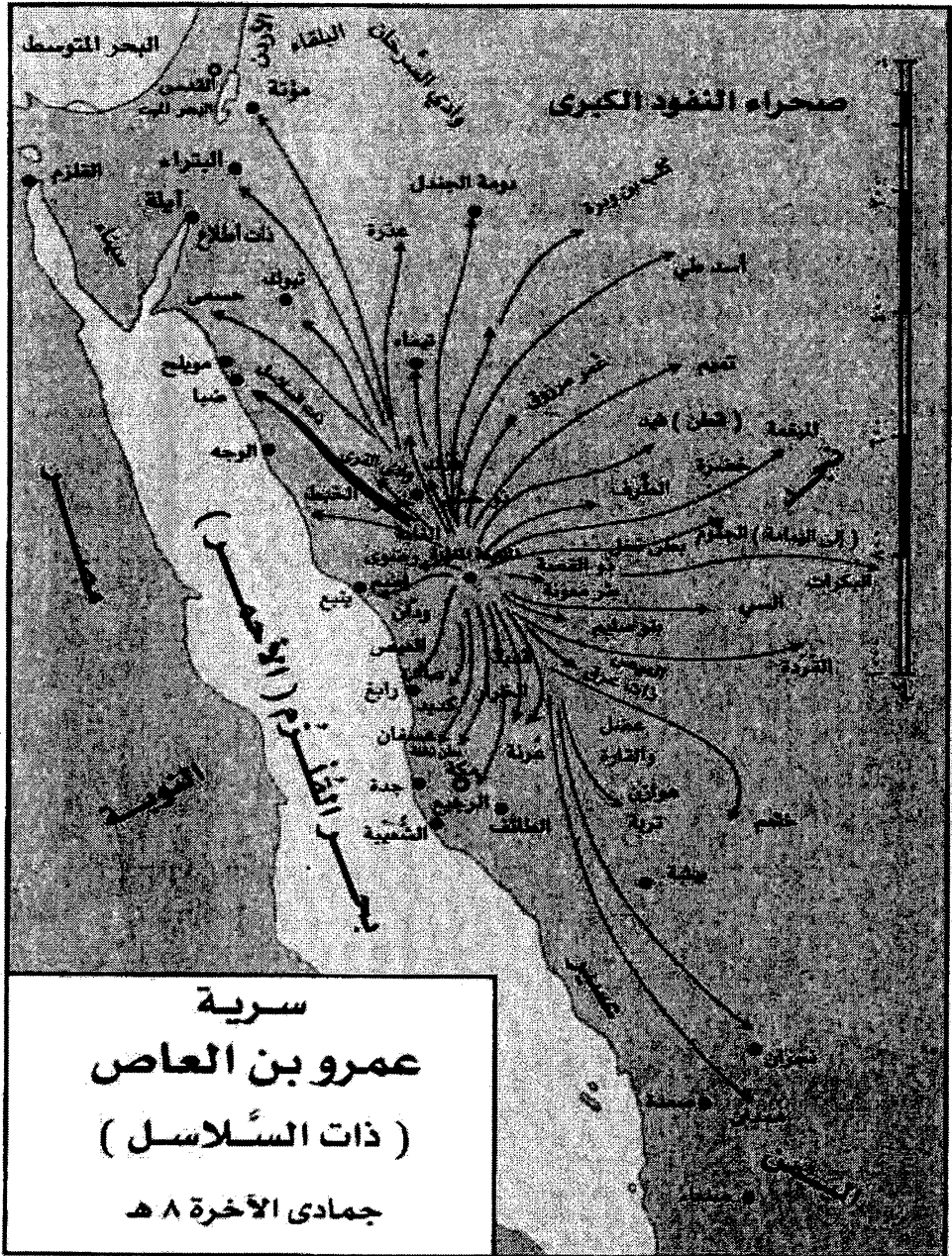
وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالَ رَافِعُ بْنُ أَبِي رَافِعٍ الطَّائِيُّ  : وَكَانَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيُّ   رَفِيقًا لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ   مَعَهُمَا - فِي رَحْلِهِمَا، فَخَرَجَ عَوْفُ   يَوْمًا فِي الْعَسْكَرِ فَمَرَّ بِقَوْمٍ بِأَيْدِيهِمْ جُزُورٌ قَدْ عَجَزُوا عَنْ عَمَلِهَا، فَكَانَ عَوْفُ   عَالِمًا بِالْجُزْرِ، فَقَالَ: أَتَعْطُونَنِي عَلَيْهَا وَأَقْسِمُ بِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ نَعْطِيكَ عَشِيرًا مِنْهَا، فَنَحَرَهَا ثُمَّ جَزَّأَهَا بَيْنَهُمْ، وَأَعْطَوْهُ مِنْهَا جُزْءًا، فَأَخَذَهُ فَأَتَى بِهِ أَصْحَابَهُ فَطَبَخُوهُ وَأَكَلُوا مِنْهُ، فَلَمَّا فَرَعُوا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ  : مَنْ آيَنَ لَكَ هَذَا اللَّحْمُ؟ فَأَخْبَرَهُمَا، فَقَالَا: وَاللَّهِ مَا أَحْسَنْتَ حِينَ

أَطْعَمْتَنَا هَذَا، ثُمَّ قَامَا يَتَقَيَّانِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما فَعَلَ ذَلِكَ الْجَيْشُ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما لِعَوْفٍ رضي الله عنه: تَعَجَّلْتَ أَجْرَكَ، ثُمَّ أَتَى أَبَا عُبَيْدَةَ رضي الله عنه فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٧٣].

مصادر ومراجع الدراسة:

- أ - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ٢/ ٦٧٨ - ٦٨٠، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهديب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦٢٣-٦٢٦، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٧٦٩-٧٧٤، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/ ١٢١-١٢٢، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/ ٣١-٣٢، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٣٩٧-٤٠٥، تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧١هـ) ٢/ ٢١-٢٧، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤٢١-٤٢٤، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٥١٣-٥١٧، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٣٨٦-٣٨٩، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٤٩٥-٥٠١، إمتاع الأسعالمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٣٤٤-٣٤٦، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ٢٦٢-٢٧٤، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٩٨-٢٠٠.
- ب - كتب السيرة الحديثية: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٧١-٤٧٢، صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٩٨-٤٠٠، السيرة النبوية لرزق الله ٥٥١-٥٥٣، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٤٤١-٤٤٤.
- ج - كتب الغزوات والسرايا: غزوة مؤتة لباشميل ٢١٧-٢٣٢، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٣٨٣-٤٣٠، مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ٢٥٨-٢٧١.

خرائط سَرِيَّةِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ   إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ



المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من

سَرِيَّةِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ   إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ

١ - تريض الأعداء بالإسلام:

يقول أ/ الشامي: «تنتشر قضاة فيما بين تبوك ومعان، وهو المكان الذي مر منه جيش المسلمين إلى مؤتة، ولا شك أن تلك القبائل علمت ما لاقاه هذا الجيش من كثرة عدد عدوه، فظنوا أن الفرصة سانحة للإغارة على المدينة، ولكن استطلاع الرسول   الدائم فَوَّت عليهم هذه الفرصة، فأرسل إليهم عمرًا   قبل أن يباشروا ما عزموا عليه، وكانت لعمر و   جولة واسعة النطاق في المنطقة استطاع من خلالها أن يفرض هيبة الإسلام وفي حدود بلاد الشام، قريبًا من موقعة مؤتة». [من معين السيرة للشامي ٤١٠].

٢ - الإخلاص:

روى الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد، وصححه أبو عوانة وابن حبان والحاكم من طريق موسى بن علي عن أبيه قال: سَمِعْتُ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ   يَقُولُ: بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ   فَقَالَ: «خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ ثُمَّ انْثَنِي»، فَأَثَبْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَدَ فِي النَّظَرِ، ثُمَّ طَاطَأَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ (جيش سرية ذات السلاسل)، فَيَسْلَمَكَ اللَّهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَرْغَبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ  ، فَقَالَ: «يَا عَمْرُو نَعَمْ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ». [مسند أحمد ٢٩٨-٢٩٩، رقم ١٧٧٦٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وفتح الباري ٩/ ١٣٧-١٣٨، وقال عنه ابن حجر: إسناده حسن، والأدب المفرد للبخاري ص ٨٤ رقم ٢٩٩، وقال الشيخ الألباني: صحيح، والفتح الرباني للبنا ٢٢/ ٣٣٩-٣٤٠].

يقول د/ الحميدي: «فهذا موقف يُذكر لعمر و بن العاص   في الإخلاص لله جل وعلا ولرسوله   والإسلام، ويدل على قوة إيمان وصدق وإخلاص عمرو بن العاص   في الإخلاص لله جل وعلا ولرسوله   ملازمة رسول الله  ، فقد كان النبي   يريد أن يتألفه ليزيد ثباته على الإسلام، فبين من جوابه قوة إيمان وصدق نيته، وقد أبان له النبي   أن المال الحلال نعمة إذا وقع بيد الرجل الصالح؛ لأنه يتغني به وجه الله تعالى، ويصرفه في وجوه الخير، ويعف به نفسه وأسرته». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٣٣].

٣ - نعم المال الصالح للرجل الصالح:

يقول د/ الغضبان: «لقد كان   يبيي الرجال، وأنشأ الجيل الأول على يديه، أما عمرو و   فقد جاء في صياغة كاملة، وبلغ مرحلة القيادة في الجاهلية، ويود   أن يُسَخَّرَ هذه الطاقات كلها لتعمل في سبيل الله، فكانت الإشارة النبوية: يا عمرو: اشدد عليك سلاحك واثني.

وكم شد عمرو ﷺ سلاحه وثيابه، وتبهاً لحرب الإسلام والمسلمين، أما الآن فإنه للمرة الأولى يشد ثياب الحرب عليه ويعد سلاحه بأمر رسول الله ﷺ، فهو يمضي إلى المجهول، لكنه في قمة السعادة فقد آن الأوان ليمضي مجاهداً في سبيل الله، وإذا كان خالد بن الوليد ﷺ وهو الأبرع والأكفأ في الحرب منه لم يوله القيادة ﷺ في مؤتة، إنما تركه يمضي جندياً مغموراً في هذه الآلاف الثلاثة، فعمرو ﷺ إذن سيكون مثل خالد ﷺ في خطواته الجهادية الأولى.

وها هو النبي ﷺ يُصْعِدُ فِيهِ النظر ويُصَوِّبُهُ، وفي ذهنه هذا المعدن النفيس الذي يتلألأ رجولة وشهامة فقال له: يا عمرو إني أريد أن أبعثك بعثاً فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة، وكان قلب عمرو ﷺ يخفق وهو يسمع هذا التكليف النبوي العظيم، ولا يكاد يجرو أن يرفع بصره برسول الله ﷺ، لكنه وهو يسمع هذا الأمر المحبب إليه، دار بذهنه صورة قائمة مع هذا الأمر، فرسول الله ﷺ يَعِدُهُ بالسلامة والغنيمة، ويجب له أن تكون غنيمة وافرة في هذا البعث، تُرى هل هان في عين المصطفى ﷺ بحيث راح يعامله لتأليف قلبه بالمال، وهو قد آمن الإيمان الذي أصبح يضارع الجبال، والإخلاص لله وحده، والتخلي عن زينة الدنيا من المال والولد، هو الذي ربي عليه النبي ﷺ أحبابه والخلص لديه.

كان لا بد أن يُزِيلَ هذا القلق الذي ارتسم على وجهه بعد أن نهب قلبه.

قال: يا رسول الله، إني لم أسلم رغبة في المال، إنما أسلمت رغبة في الجهاد والكينونة معك.

فقد صغرت الدنيا كلها في عينيه منذ تلك اللطمة النجاشية في الحبشة له، والتي أعادت تركيبه وصياغته من جديد، ويابح النجاشي ابتداء على الإسلام، ثم أتى وباع رسول الله ﷺ عليه.

إنه يريد أن يجاهد في سبيل الله، خالصاً له وحده، بعد أن أفنى عمره مخلصاً للصد عن سبيل الله، وما كان مطعمه في الجاهلية في هذه الحرب، إنما نَصَرَ عقيدته التي ورثها عن آبائه وأجداده، وهو إذن صغير جداً لعيني نبيه عندما يود أن يتألفه بالمال، وأعظم الرجال يبقى المال عندهم وسيلة لا غاية، فالمال سُلمَ المجد عندهم، وصغار النفوس هم الذين يعبدون المال، أما في الإسلام، فالمال والمجد والشهوة أدوات لطاعة الله تعالى.

فكان جواب السيد العظيم: يا رسول الله: إني لم أسلم رغبة في المال وإنما أسلمت رغبة في الجهاد والكينونة معك.

وباله من تعبير رائع (والكينونة معك) فقد ربط نفسه بقائده وحببيه ورسوله حتى الموت، وأدرك ﷺ ما كان يعتمل في نفس عمرو ﷺ، وأزال تلك الغشاوة الثقيلة التي جثت على قلب جنديه الحبيب عمرو ﷺ، ولو كان ﷺ يعلم أن عمراً ﷺ يقبل الدنية، ويعشق المال لفظمه عن ذلك، ولم يرغبه به، وحذره منه،

لكنه   يعرف خلق قلب عمرو   منه، وأن المال في الجاهلية والإسلام إنما كان وسيلة عنده، ليس رغبة وهدفاً في حد ذاته، فأعلمه إنما يقبل ذلك به له؛ لأنه رجل صالح ونِعَمًا المال الصالح للرجل الصالح.

والطريق طويل أمام عمرو  ، أما زيد وجعفر وابن رواحة  ، فقد كانت خاتمة الطريق عندهم، وهو يضعهم على رأس القيادة.

«... فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب عبد الله بن رواحة قليصطلح المسلمون على أمير».

لقد أدى القادة الثلاثة   ما عليهم ومضوا إلى ربهم في عمر جليل كان كله لله.

أما عمرو   فهذه أول خطواته الجهادية في سبيل الله بعد عمر مثقل بالصد عن سبيل الله، ولهذا قال  : «فيسلمك ويغنمك». [التربية الجامعية للغضبان ١ / ١٨٠ - ١٨١].

٤ - اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب:

يقول أ/ يونس: «إن عمرو بن العاص   أخفى أمره عن قضاة، وعمى أحواله عن الأعداء خشية أن يعرفوا عنه شيئاً، وفي هذا التصرف الحيلة والحذر، وهما من طبيعة مهمة الاستخبارات.

وكما جاء في حياة محمد   ص ٤٢٥: أن رسول الله   اختار عمرو بن العاص   في غزوة السلاسل «شمال شبه الجزيرة» وذلك أن أمه كانت من قبائل تلك النواحي، فكان من اليسير على عمرو   أن يتألفهم.

وهذا يُعد أيضاً من طبيعة عمل الاستخبارات، حيث يُختار الرجل الذي يعرف كيف يتعامل مع الأعداء». [الاستخبارات في غزوات الرسول   ليونس ١٥٧].

٥ - إلى بلي وقضاة ولخم وجذام:

يقول د/ الغضبان: «إلى الخط نفسه الذي مضى إليه سلفه خالد بن الوليد  ، إلى تلك القبائل العربية الضاربة شمالاً، والتي صحت بعد هول الصدمة الفاجعة التي تلقتها من خالد  ، ولم تكذ تصدق هل أنها خسرت المعركة من ثلاثة آلاف مقاتل، وهل ستبقى تحمل هذا العار إلى الأبد، ولم لا تغسل المدينة كلها من المسلمين حتى تغسل العار الذي لحقها من ذلك.

لقد رأينا العرب الذين قادهم مالك بن زافلة الأراشي، المائة ألف أنهم كانوا: (فِي مَائَةِ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامٍ وَالْقَيْنِ وَبَهْرَاءَ وَبَيْلٍ مَائَةِ أَلْفٍ مِنْهُمْ، عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ بَيْلٍ ثُمَّ أَحَدُ إِرَاشَةَ، يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ بْنُ زَافِلَةَ). [السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٧٥].

هذا في مؤتة، وفي ذات السلاسل: (قال البلاذري: فلقى العدو من قضاة، وعاملة، ولخم، وجذام، وكانوا مجتمعين، ففضهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم). [سبل الهدى والرشاد ٦ / ٢٦٤].

ولكن عمرو بن العاص   لم يكن اختياره اعتباطياً، بل كان ضمن هدف محدد، فإن كانت الآلاف الثلاثة الأولى قد مضت لتثأر لمقتل رسول الله   الذي قتله شرحبيل الغساني، فعمرو بن العاص   هو ولد قضاة عامة وولد بلي خاصة، إن أم العاص بن وائل من بلي، ولا يبعد أن يكون عمرو   قد مضى في طفولته لزيارة أخواله من بلي، فقد مضى رسول الله   في طفولته لزيارة أخواله من بني النجار، وهم أخوال جده عبد المطلب، وتعلم العوم في طفولته عندهم، فهل هناك غرابة أن يكون عمرو قد مضى مع أبيه العاص لزيارة أخوال أبيه من بلي.

ومن أجل هذا وجدنا أن ما ذكر عن هذه الغزوة هو هدف مزدوج:

الهدف الأول الذي رجحته الروايات، والذي يشير إلى أن جموع قضاة لخم وجذام تتأهب لغزو المدينة، ثأراً لما نزل بهم في مؤتة.

الهدف الثاني الذي ذكرته رواية واحدة لابن إسحاق أوردها البيهقي في دلائله: (بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ   عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ   لِيَسْتَنْفِرَ الْعَرَبَ إِلَى الْإِسْلَامِ (الذي في السيرة لابن هشام ٢/٦٢٣: «يَسْتَنْفِرُ الْعَرَبَ إِلَى الشَّامِ»)، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ كَانَتْ أَمْرَأَةً مِنْ بَلِيٍّ، فَبَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ   إِلَيْهِمْ يَسْتَأْذِنُهُمْ لِذَلِكَ). [دلائل النبوة للبيهقي ٤/٣٩٩].

فالمهمة إذن دعوية ومهمة قتالية قادها بطل الحرب المجرب، عمرو بن العاص  ، والداعية الجديد لدين الله.

وللجمع بين المهمتين نشهد ذلك في رواية ثالثة تقول: (وَأَمْرُهُ أَنْ يَسْعَيْنَ بِمَنْ مَرَّ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ، وَهِيَ بِلَادُ بَلِيٍّ وَعُذْرَةَ وَبَلَقَيْنَ، وَذَلِكَ أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ   كَانَ ذَارِجِمٍ بِهِمْ، كَانَتْ أُمُّ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ بَلَوِيَّةً، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ   بِتَأْلِفِهِمْ بِعَمْرِو  ). [المغازي للواقدي ٢/٧٦٩].

قال الصالحى: «فإن عمراً   كان أحد دهاة العرب، وكون العرب الذين أمره رسول الله   أن يستعين بهم أخوال أبيه كما ذكر في القصة، فهم أقرب إجابة إليه من غيره».

[سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/٢٧٠].

وعظمة شخصية عمرو   في أن يستعمل دهاءه في تحقيق الأهداف الثلاثة معاً: حرب المحاربين، وتعبئة المسلمين معه ضدهم، والدعوة إلى الإسلام، مهمة تحتاج عبقرية، وكان عمرو   هو ذلك الرجل. [التربية الجماعية للغضبان ١/١٨١-١٨٢].

٦ - شجاعة عمرو بن العاص   في الجاهلية وفي الإسلام:

يقول د/ أبو فارس: «أما في الجاهلية فقد شارك في المعارك الدامية التي حدثت بين المشركين والمسلمين كغزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق.

وأما في الإسلام فلم يمض على إسلامه ﷺ سنة حتى أمّره الرسول ﷺ على سرية ذات السلاسل، وكان في جيشه أبو بكر وعمر وعلي وغيرهم رضي الله عنهم، وقد دُوِّخ من غزاهم وطاردهم مطاردة شديدة، ولاحقهم حيث هربوا.

واختاره الرسول ﷺ أميراً على عُمان.

ومن المؤسف حقاً أن الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله وعفا عنه - قد أورد كلاماً حول هذا الصحابي عن قصة إسلامه نوره ونعقب عليه.

يقول الأستاذ أبو زهرة: (وفي قصة عمرو بن العاص رضي الله عنه عن نفسه ما يدل على أنه رجل لا يظهر في الهيجاء، ويبغي لنفسه الانحياز عن مواطن الردى، فهو يحضر بدرًا وينجو، وأُحدًا، وينجو، والخندق، وينجو، ويظهر أنه لم يقتل ولم يقاتل بل كان من النظارة أو المدبرين، كما كان شأنه في القتال بين إمام الهدى علي بن أبي طالب ومعاوية يُدبر في حرب البغاة). [خاتم النبیین ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٩٥٤].

ويعود إلى الكلام عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وتشم في كلامه الذم الذي كان الأولى به أن يدعه، فتراه يقول في غزوة ذات السلاسل التي كان عمرو بن العاص رضي الله عنها أميراً لها بأمر من الرسول ﷺ: (ولكن لم يفلح لسانه في استمالة أحد، ولم يكن كعبد الله بن رواحة رضي الله عنه يطلب من جيشه إحدى الحسينين؛ ولذلك أربته كثرة عدوه، فلم يصنع شيئاً، وأرسل إلى الرسول ﷺ ليعث إليه الرجال، وبقي ينتظر المدد). [خاتم النبیین ﷺ ٢/ ٩٦٣].

ولنا على كلام الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة هذا الملاحظات التالية:

(١) لقد أقحم الأستاذ محمد أبو زهرة رضي الله عنه نفسه في الحديث عن عمرو بن العاص رضي الله عنه والموازنة بينه وبين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه دون مناسبة تقتضي ذلك، بل حشر الحديث هنا حشراً دون مبرر مسوّغ إلا رغبة في نفسه يريد أن يقضيها وهو اللزم في الصحابي عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) إن الخوض في الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ليس له فائدة، سوى تأجيج نار الفتنة والخوض في أعراض الصحابة رضي الله عنهم، وقد تُهينا عن ذلك، وكان الأولى أن يسع الأستاذ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة].

(٣) إن اتهام عمرو بن العاص رضي الله عنه بأنه لم يكن شجاعاً، واستدلاله على ذلك بنجاته في بدر وأُحد والخندق، قولٌ متهاافت، واستدلاله ليس فيه وجه استدلال لا من قريب ولا من بعيد على صحة ما ذهب إليه، فهل يُعد كل من نجا من الموت في هذه الغزوات جبّاناً؟

ويرد هذا الزعم اختيار النبي ﷺ له أميراً على سرية ذات السلاسل، ولا يُعقل أن يختار الرسول ﷺ رجلاً لا يتصف بالشجاعة ليقود المسلمين ويقرر مصيرهم، إن ذلك لا يحتمله العقل الإنساني بحق

إنسان عادي، فكيف برسول الله   أعرف الناس بمعادن الرجال وسجاياهم وشجاعتهم وقدرتهم على إدارة المعارك وكسب النصر.

إن إرضاء الناس يكون بشيء من لعاة الدنيا لا يضر بمصلحة المسلمين عامة، وهم إرضاء النبي   وعمرو   بتأثيره على جيش فيه خيار الصحابة في صدامٍ دامٍ مسلح لا يحقق مصلحة قط، ولا يفعله الرسول  .

إن القائد في المعارك في ذلك الوقت يكون أقرب الناس إلى العدو، وتوجّه إليه السهام من كل حذب وصوب، وثباته يؤدي إلى ثبات الجند، وفراره يؤدي إلى انفراط عقد الجيش وتدميره.

إن قبول عمرو بن العاص   لتسلم قيادة ذات السلاسل في هذا الجو يعد شجاعة منه، خاصة وأنه لم يتراجع عن قتال بل طارد فلول الأعداء وأوقع بهم هزيمة نكراء.

هذا ولقد اختار أبو بكر   عمرو بن العاص   ليكون أميراً من أمراء الأجناد في الجهاد بالشام، فكيف يختاره أبو بكر   في هذه الظروف الحالكة وهو يقاتل أعظم دولة في العالم، وجيشها من أضخم جيوش دول الأرض آن ذاك، لقد اختاره أبو بكر   بعد أن سار جندياً تحت قيادته فرأى فيه الدراية بفنون الحرب والشجاعة في مقابلة العدو، وهو الذي قال لعمر بن الخطاب   حينما احتج على منع عمرو   الصحابة من إشعال النار وقد آذاهم البرد: (دعه فإن رسول الله   لم يبعثه علينا إلا لعلمه بالحرب).

ولقد حاصر قيسارية وافتتح قسرين.

وهو الذي سار إلى مصر بقوة قليلة من الجنود لا تزيد عن ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ليفتح بهم مصر، فغضب عليه عمر بن الخطاب   بسبب مغامرته بهذا العدد القليل، ولقد فتح الله على يديه مصر، وعيّنهُ عمر بن الخطاب   والياً عليها. [ينظر: فتوح البلدان ص ٢١٤].

وأمام ضرباته الشديدة استسلم له أهل حلب ومنبج وأنطاكية.

هذا وقد ولاه عمر بن الخطاب   على فلسطين.

لقد قاتل عمر بن الخطاب   جندياً تحت قيادة عمرو بن العاص  ، وعارضه في بعض الإجراءات العسكرية، ورغم ذلك فقد اختاره قائداً من قادة الفتح الإسلامي، وأميراً على أكثر من بلد. لم فعل هذا؟ هل فعل ذلك مجاملة، وهو القائل: مَنْ وَلَّى أَحَدًا فِي الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْهُ وَهُوَ يَعْلَمُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَجَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ.

نعم لقد كان عمر بن الخطاب   عالماً بالرجال وأخلاقهم وصفاتهم، إنه ذو بصيرة أدرك من أول يوم أن عمرو بن العاص   هو قائد وأمير مطبوع، تأمل قول عمر بن الخطاب   حين نظر إليه يوماً وهو يمشي: (مَا يَنْبَغِي لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا أَمِيرًا). [الإصابة لابن حجر ٢/٣].

وقال في الإصابة: (لما أسلم عمرو بن العاص   كان النبي   يُقَرِّبه ويُدنيه لمعرفته وشجاعته).

[الإصابة لابن حجر ٢/ ٢٠٣].

وقال ابن كثير: (فكان ممن شهد الحروب، وكانت له الآراء السديدة، والمواقف الحميدة، والأحوال السعيدة). [البداية والنهاية ٨/ ٢٦٠].

(٤) إن اتهام عمرو بن العاص بحب الرياسة في سرية ذات السلاسل [خاتم النبیین   ٢/ ٩٦٣، حيث قال: لقد تحرك في عمرو حب الرياسة التي ظهرت من بعد في عهد عثمان عندما عزله، وفي عهد علي التي تفرق بها وبغيرها أمر المسلمين]، كلام قد ذكره الأستاذ أبو زهرة على عواهنه، ليس له دليل، بل الدليل بخلافه.

ويرد هذا الزعم ما رواه الإمام أحمد   والبخاري في الأدب المفرد، وصححه أبو عوانة وابن حبان والحاكم من طريق موسى بن علي عن أبيه قال: سَمِعْتُ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ   يَقُولُ: بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ   فَقَالَ: «خُذْ عَلَيْكَ تِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ ثُمَّ أَتْنِي»، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَدَ فِي النَّظَرِ، ثُمَّ طَأَطَأَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ، فَيَسْلَمَكَ اللَّهُ وَيُعْنِمَكَ، وَأَرْغَبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ  ، فَقَالَ: «يَا عَمْرُو نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ». [مسند أحمد ٢٩/ ٢٩٨-٢٩٩، رقم ١٧٧٦٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وفتح الباري ٩/ ١٣٧-١٣٨، وقال عنه ابن حجر: إسناده حسن، والأدب المفرد للبخاري ص ٨٤ رقم ٢٩٩، وقال الشيخ الألباني: صحيح، والفتح الرباني للبنا ٢٢/ ٣٣٩-٣٤٠].

(٥) وأخيرًا ليس في إرسال عمرو بن العاص   رسولاً إلى رسول الله   يطلب منه المدد، وقد رأى أعداد المشركين ضخمة لا طاقة للمسلمين بقتالها ما يدل من قريب أو بعيد على عدم شجاعة عمرو بن العاص  ، إنما يدل هذا التدبير على كياسة عمرو   وذكائه ودهائه وحسن تقديره للأمور، وهو كقائد لا يفكر بشجاعته فحسب ومصيره فحسب، بل يفكر بمصير المسلمين، ومن ثم فالواجب عليه شرعاً أن يفرغ كل ما في وسعه من جهد لياخذ بكل الأسباب التي يحرز بها النصر، ويجنب المسلمين الهزيمة، فترهق أرواح طاهرة زكية وكان بإمكانه أن يدخرها.

تُرى لو خاض عمرو بن العاص   بالمسلمين وقعة ذات السلاسل وكانت نتيجتها خسارة خسراناً فادحاً، أفيكون في هذه الحالة عمرو بن العاص   شجاعاً يُشهد له بالشجاعة.

إن الشجاعة الحقيقية لا تكون بالتفريط ولا بالتهاون والتساهل والاستهانة بالخصم، إنما الشجاعة الحقيقية تكون بالأخذ بالأسباب أولاً وبالإقدام ثانياً، وقبل كل شيء الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه، وهكذا كان من عمرو بن العاص  .

وأخيراً أقول: لسنابصد المقارنة بين شجاعة عمرو بن العاص   وشجاعة علي  ، ولا أريد أن يفهم القارئ الكريم أنني أُفضّل عمرو بن العاص  ، على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب  ، فعلي - كرم

الله وجهه - أفضل عندي من عمرو بن العاص رضي الله عنه، فهو المبشر بالجنة، وهو رابع الخلفاء الراشدين، وهو إمام الفرسان الشجعان، ولكنني أردت أن أنصف ذلك الصحابي الجليل مما قد يترك كلام الشيخ أبي زهرة أثرًا غير محمود في نفس القارئ لكتاب الشيخ محمد أبي زهرة.

حيث تتابيه الظنون، وتشرده الشكوك حول صحابي جاهد في الله حق جهاده».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٥٧-٢٦٢].

٧ - ومعه سراة من المهاجرين والأنصار:

يقول د/ الغضبان: «ونلاحظ أن عدد السرية المتجهة إلى شمال الجزيرة هو عُشر عدد سرية مؤتة، فليست المهمة مواجهة مباشرة، بمقدار ما هي مهمة حرب عصابات، ومهمة دعوة لدين الله، فكان معه كبار المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، لقد كانت السرية ثلاثمائة ووجد في جنودها من سراة المهاجرين اثنان من العشرة المبشرين بالجنة، وهما: سعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، ووجد فيها أعظم قيادات الأنصار لم يتخلف من هؤلاء الأعاظم أحد، فسادة الأوس هم كما تقول عائشة رضي الله عنها: (وثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً، كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ، وعبد بن بشر، وأسيد بن حضير رضي الله عنهم). [سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ٣٣٧، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

أما اثنان منهم فكانا تحت إمرة عمرو رضي الله عنه في ذات السلاسل، وهما عبد بن بشر، وأسيد بن حضير رضي الله عنهما، وثالث الثلاثة: سعد بن معاذ رضي الله عنه كان قد مضى شهيداً إلى ربه ﷻ، واهتر له العرش.

أما سيد الخزرج بلا منازع، وأطلق عليه كثير سيد الأنصار، فهو سعد بن عباد رضي الله عنه، وكان جندياً في سرية عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقد وضع ﷺ تحت إمرته رضي الله عنه - وهو ابن الأشهر الخمسة في الإسلام - خيرة خلق الله من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار؛ وذلك ليوطن هذا الجليل نفسه فيما بعد كي يستفيد من هذه العبقرية النادرة، ويسمع لها ويطيع في مجال الحرب والمواجهة.

وهي تجربة كذلك لعمرو بن العاص رضي الله عنه ليرى نفسه في لحظة من اللحظات فوق المسلمين جميعاً وأميراً عليهم ولما يفقه الإسلام بعد، وأمثاله في عالمنا المعاصر يكونون تحت المراقبة والحراسة».

[التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٨٢-١٨٣].

٨ - مدد جديد بخيار أهل الأرض والأزمات الأربع:

يقول د/ الغضبان: «ومضى عمرو بن العاص رضي الله عنه في هذه الصحراء حتى وصل إلى أرض العدو، فبلغه أن جمعاً كبيراً قد استعد لمواجهة: (حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل - ويقال: السلسل - وبذلك سُميت الغزوة ذات السلاسل، بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث عمرو رافع بن مكيث الجهني رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يخبره أن لهم جمعاً كثيراً ويستمد».

ولم يكن هناك شك أبداً أن عمراً ﷺ سيقبل هذا الواقع، فكلاهما له من رسول الله ﷺ إمرة يتمسك بها، فليبق كل أمير على أصحابه.

ورفض عمرو ﷺ هذا الرأي، من خلال خبرته وتجربته في الحرب، فلا يمكن لجيش أن يكون بأمرين في وقت واحد، وأن يكون التشاور مستمراً، فإذا اختلفا فأَي رأي يمكن أن يُنفَّذ. أصر عمرو على رأيه قائلاً: (لَا، بَلْ أَنْتُمْ مَدَدُ لَنَا).

وفي الوقت الذي كان عمرو بن العاص ﷺ ينافح ويكافح لتبقى له القيادة كلها، ها هو يتلقى درساً عظيماً في التربية من الرعيل الأول من أبي عبيدة بن الجراح ﷺ.

وألقي أبو عبيدة ﷺ درسه النظري ابتداء فقال: (لَتَطْمَئِنَّ يَا عَمْرُو، وَتَعْلَمَنَّ أَنَّ آخِرَ مَا عَهْدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ قَالَ: «إِذَا قَدِمْتَ عَلَى صَاحِبِكَ فَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»، وَإِنَّكَ وَاللَّهِ إِنْ عَصَيْتَنِي لَأُطِيعَنَّكَ).

[الغازي للواقدي ٢/ ٧٧١].

ومضى عمرو ﷺ يغذي طموحه بعد أن رأى ذلك اللين والذلة بين المؤمنين من أميين الأمة ﷺ، الذي تمثلت به مواصفات الجيل الخالد: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فقد بلغ من شدته على الكفار، وألا تأخذه في الله لومة لائم، أن قتل أباه في غزوة بدر حتى ضربه الله ﷺ مثلاً حياً لحزب الله: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٢) [المجادلة]، ولن تجد في الدنيا كلها أعظم بطولة، وأشد رجولة ممن يقتل أباه في سبيل الله، فهذا هو حزب الله، ومن هو في هذه البطولة وفي هذه الشدة، وفي هذه العظمة، هو هو نفسه الذي يلين لإخوانه ويلين لهذا الوافد الجديد؛ ليربيه على مفهوم الطاعة، ويربيه على مفهوم الإيثار ويربيه على مفهوم الذل للمؤمنين أن يقول له: ولئن عصيتني لأطيعنك، وقال عمرو ﷺ: فإني أمير عليك، وإنا أنت مدد لي، قال أبو عبيدة ﷺ: فدونك، ونفَّذ الدرس العملي مباشرة، وعلى الملاء: (فضلى عمرو بالناس).

وها هو عمرو بن العاص ﷺ، وخلال خمسة أشهر يصبح أميراً على قادة الدنيا وسادة أهل الأرض، يصبح أميراً على جيش فيه عظماء الأمة الثلاثة، الصديق والفاروق والأمين ﷺ، وفيه سادة الأنصار: سعد بن عباد، وأسيد بن حضير، وعَبَاد بن بشر ﷺ، ويتقدم ليصلي بهؤلاء جميعاً، يسمعون له ويطيعون.

وجاء المغيرة بن شعبة ﷺ خريج الدورة الخامسة دورة الحديبية إلى أميره أبي عبيدة ﷺ قائلاً له: (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَعْمَلَكَ عَلَيْنَا، وَإِنَّ ابْنَ فُلَانٍ قَدْ ارْتَبَعَ أَمْرَ الْقَوْمِ (أي انتظر أن يؤمر عليهم)، وَلَيْسَ لَكَ مَعَهُ

أَمْرٌ)، فقال أبو عبيدة: وهو خريج الدورات كلها والجامعات كلها: العهد السري، دار الأرقم، الهجرة، بدر، الحديبية، خريج هذه الدورات جميعاً يعود لتربية أخيه المغيرة بن شعبه   قائلاً: (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ   أَمَرَنَا أَنْ نَتَطَوَّعَ فَإِنَّا أَطِيعُ رَسُولَ اللَّهِ   وَإِنْ عَصَاهُ عَمَرُوا).

[مسند أحمد ٣/ ٢٢٧ رقم ١٦٩٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الصحيح إلا أنه مرسل.]

هذا الهدف العظيم والدرس الخالد الذي قَدَّمَهُ أبو عبيدة   ليس لعمره   فقط، وليس للمغيرة   فقط، وإنما لجميع المسلمين استقاه من قول المصطفى  : «لَا تَخْتَلَفَا»، فلا يجوز أن يكون اختلاف في القيادة، والمسؤول عن تحقيق هذا الهدف أبو عبيدة  ، وليس عمرو بن العاص   المسؤول عن التنفيذ، هو الذي يملك الإيوان، واليقين، والإخلاص له ما يستطيع أن يخوض عباب هذا البحر حليماً وصبراً وأناة وليناً، ويتنازل هو حتى لا يقع الخلاف، وتتصدع الأمة، ويتمزق الشمل، إنه ما ذبح الأمة إلا الخلافات فيها، كان هذا الدرس العملي الذي تنازل فيه أبو عبيدة   لأخيه عمرو بن العاص  ، ويحسم الأمر، ويدعه يصلي بالمسلمين ويقف وراءه كما يقف بجواره أبو بكر وعمر وسعد وأسيد والمسلمون جميعاً خلفهم  .

الأزمة الثانية: وجاء الدرس العظيم الثاني من الصديق  : لقد كانت حركة الجيش في موسم البرد، ووصف بردها عمرو   نفسه بقوله: (فَاخْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ) وراح يتحدث عنها أمام نبيه   (وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اغْتَسَلْتُ لَمْتُ، لَمْ أَجِدْ قَطُّ بَرْدًا مِثْلَهُ).

وفي مثل هذه الأجواء وحين يجلس الجيش للنوم يحس بلسعة البرد أكثر، ولن يتمكن أحد من النوم فيه، فراحوا يجمعون الحطب ليقودوا النار، وإذا لغط بدأ ينتشر في الجيش كله، إن الأمير ينهاكم عن أن توقدوا نارا، وليست لحظة، وليست ساعة، إنها الليل كله، فكيف إذا يفعلون في هذا البرد القارس، وراحوا يلجأون لكبار الصحابة يرجونهم أن يراجعوا الأمير، لعله يُغَيِّرُ رأيه، فقد كادوا يُقتلون من البرد، وتعملل الجيش، وتذمر الجيش، وحاول بعضهم أن يوقد النار، فجاء الجواب على لسان الأمير عمرو  : إن الأمير ينهاكم أن توقدوا نارا، وبحث المسلمون عن أفضلهم وأحبهم إلى رسول الله   ففهم رئيس الوزراء أبو بكر الصديق  ، جاؤوا إليه يستشفعون، عند عمرو بن العاص   لعله يُغَيِّرُ أمره، فكل لحظة تمر على المسلمين كأنها سنة، ولا صبر على هذا البرد القارس، ورضي أبو بكر   أن يكون شفيعاً عند عمرو بن العاص  ، ولا شفاعته فوق شفاعته، فقال عمرو للصديق  : (لَا يُوقِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ نَارًا إِلَّا قَذَفْتُهُ فِيهَا).

وخرج الصديق   ذو القلب الرحيم يكاد يكون دافع العينين لهذا الجواب الفج الغليظ، فلا يعظم الأمير أحد، ولا يقبل شفاعته أحد، وخرج أبو بكر   للناس، وقرأوا الجواب بين عينيه، فالأمير مُصِرٌّ

على موقفه، وهم يطلبون الإشارة منه أو من عمر أو من أبي عبيدة، حتى ينفذوا ما يريدون بتوجيههم، ولعله اعتمل في قلوب الكثيرين من المسلمين، أن عمرو بن العاص ؓ لا يزال على جاهليته، وقد تظاهر بالإسلام وهو يريد أن ينتقم من المسلمين ويعذبهم ويقتلهم بردًا في هذا الليل، فهل يسكت عنه، ولا يمكن أن يكشف هذا الأمر، ويقدم على مواجهته إلا عمر ؓ، وجاؤوا إليه يوغرونه على عمرو، وليس بحاجة إلى أن يوغر صدره أحد، لكن لا يريد أن ينفرد برأي على أميره الحقيقي، وهو يعلم أن رسول الله ﷺ قال له ولأبي بكر رضي الله عنهما: «لَوْ اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُمَا». [مسند أحمد ٢٩/٥١٨ رقم (١٧٩٩٥)]، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف شهر بن حوشب، وحديث عبد الرحمن بن غنم عن النبي مرسل، وقال الهيثمي رحمته الله (بعد عزوه للإمام أحمد): ورجاله ثقات إلا ابن غنم لم يسمع من النبي ﷺ. [جمع الزوائد ٩/٥٣].

فإذا اجتمعوا على أمر فلا خيار لعمر في مخالفتها؛ لأن رسول الله ﷺ لا يخالفها، ومضى متوتر الأعصاب غاضبًا إلى الصديق ؓ؛ ليتخذ رأيًا واحدًا يواجهان به عمرو بن العاص، أو يدعه يتصرف مع الأمير بما يراه في هذا الموقف.

(فغضب عمر بن الخطاب، وهَمَّ أن يأتيه فنهاه أبو بكر) لقد تشاجر عوف بن مالك الأشجعي مع خالد بن الوليد، وتوعده عند رسول الله ﷺ، ولو أن المسلمين رأوا عمر بن الخطاب يأتي ابن العاص ويناقشه أمام المألا لأسقط في يد عمر، وعمرو نفسه يتساءل بنفسه ولا يكاد يصدق، هل يسمع له ويطيع كل هذه القيادات، أفصبح قيادات المسلمين كلها تحت إمرته، وهو يطلب منها الآن ما هو أشق ما يكون على نفسها، أن تعاني من آلام البرد وشدته في هذه الصحراء التي لا مأوى فيها ولا بيت ولا ظل بقي منه، والخطب متوافر، يمكن أن يوقد النار، ويبعث الدفء في كل جسد، وها هو الآن يتوقع في كل لحظة تمردًا وثورة، وكل ما يخشاه هو أن يشارك فيها أحد القادة الثلاثة، وجاءه أبو بكر ؓ فردّه، وعمر ؓ شديد وقاس، فهل يتم الأمر دون أزمة عنيفة بينهما؟ لكن أبا بكر ؓ أحكم الموقف وأقنع عمرًا ؓ بقوله: «إن عمرًا لم يستعمله رسول الله ﷺ علينا إلا لعمله بالحرب»، وطاعة أولي الخبرة واجبة، وليس أبو بكر وعمر بأقل خبرة بالحرب من عمرو، ولكنه الآن هو الأمير، وأثبت هذا الجيش أعظم مستوى من الانضباط والطاعة رغم الهياج الضخم والغضب الشديد من عدم إيقاد النار، ونفّذ عمرو مخططه كاملاً ليبدأ بهجومه مع الفجر، ولم توقد نار واحدة، ولم تسجل مخالفة واحدة؛ لأن المشرف على الأمة ساداتها يُربونها على السمع والطاعة للأمير مهما كانت المشقة.

الأزمة الثالثة: فقد صدرت الأوامر ألا يتبع أحد جنديًا من جنود الأعداء إن فر منه، ولا يثبت النصر إلا بملاحقة الجندي الفار وقتله وأخذ سلبه، ولم يبين عمرو ؓ سبب هذا المنع، وغدا الجيش كله يتملص من شدة أوامره، والغنيمة التي يطمع بها المقاتل في سلب العدو كثيرة، حين يقتل عدوه.

أزمات نفسية تواجه المسلمين من هذه القيادة، ويذكرون أن رسول الله ﷺ هو الذي أمّره فيصمتون طاعة لله ولرسوله، لكن القيادة للمعركة برزت في اليوم الثاني، وبرزت العبقريّة في هذه القيادة، فهو لاء الخمسمائة (فسار عمرو الليل وكمن النهار حتى وطئ بلاد العدو ودوخها كلها حتى انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان به جمع فلما سمعوا به تفرقوا، فسار حتى إذا انتهى إلى أقصى بلادهم، ولقي في آخر ذلك جمعاً ليسوا بالكثير، فاقتتلوا ساعة وحمل المسلمون عليهم فهزموهم، وتفرقوا، ودوخ عمرو ما هنالك، وأقام أياماً لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه إلا قاتلهم، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم، فكانوا ينحرون ويأكلون ولم يكن أكثر من ذلك، لم يكن في ذلك غنائم تقسم، كذا قال جماعة). [سبل الهدى والرشاد ٦/ ٢٦٤].

فقد أصبح اسم المسلمين يثير الرعب في صفوف هذه القبائل، ولا يكاد جمع يهجم بالهجوم إلا ويرى المسلمون قد انقضوا عليه فينفض الجمع نفسه وينشر الرعب والخوف في صفوف جيرانه، والمسلمون في أرض أعدائهم كأكلة جذور، ولم يضرّبوا ويهربوا وانتهى الأمر، بل يهجمون ويتحدون، ويتشرون ويلاحقون، وصاروا سادة الساحة كلها.

وقفل عمرو رضي الله عنه عائداً بجيشه المظفر، وهو متأهب للمواجهة في طريق العودة كذلك، وفي طريق العودة كانت.

الأزمة الرابعة: التي أعادت ثانية جو الريّة والتملل من القائد، فقد أصبح عمرو رضي الله عنه جُنُباً، وسأل المسلمين، وكلهم فقهاء في دين الله فأعلموه الغسل من الجنابة أنه هو الحل، وكيف يتم الغسل في هذه الصحراء المهلكة والبرد قد جمد النبات فكيف بالإنسان، ورأى عمرو رضي الله عنه خطورة الاغتسال في هذه الليلة الباردة، فغسل مغابنه وتوضأ، وأن الأوان لصلاة الفجر فتقدم وصلى بالناس، وانتشر الخبر في الجيش كله، صلى بالناس وهو جنب، ولا شك أن الناقمين عليه كانوا يزيدون في نشر هذا الخبر، فهو يمنع عنهم النار ويدعهم يعانون من شدة القر، وها هو الآن يخاف القر، ولا يغتسل ويصلي بالناس وهو على جنابة، ولا ترتفع الجنابة إلا بالغسل، ويكاد يسود في صف بعضهم الشك في إسلامه، وضعف دينه، فهم قد غضبوا منه ابتداء حين رأوه يصير على التّراس وحب السيادة ولا يتنازل عن الإمارة لسادة الدنيا أمثال: أبي عبيدة وأبي بكر وعمر، اجتمعت هذه العوامل كلها فشككت تياراً كبيراً ضده، ومع وصول عمرو رضي الله عنه إلى المدينة، ومع وصول الأخبار السارة عن النصر، ورغم كل النقد حوله، فلم يتمكن أحد أن ينال من عبقريّة قيادته للمعارك التي خاضها، والتخطيط الجيد لها، لكن رُفعت عليه ثلاث دعاوى أمام رسول الله ﷺ، وانعقدت.

المحاكمة الميدانية: التي كان رسول الله ﷺ هو القاضي فيها، وكان عمرو بن العاص ﷺ هو الأمير المتهم فيها، وهذه هي وقائع المحاكمة المثيرة العظيمة التي انتهت في دقائق حيث وصل لنا ملف الدفاع كاملاً كما رواه الحافظان الطبراني وابن حبان.

الدعوى الأولى والثانية: أن الجيش لما رجعوا ذكروا لرسول الله ﷺ مني لهم إيقاد النار ومن اتباعهم العدو.

الدفاع: يا رسول الله! إنني كرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم.

الحكم: فحمد رسول الله ﷺ أمره.

وخرج من المحاكمة بريئاً من التهم مشهوداً له بالعبقرية الحربية حيث حمد له رسول الله ﷺ فعله. أما الدعوى الثالثة: ونأخذها من مذكراته ﷺ كما رواها أبو داود وأحمد رحمهما الله: (اِخْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ، فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلَكَ، فَتَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي صَلَاةَ الصُّبْحِ). الدعوى: فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ.

رسول الله ﷺ: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟

المتهم: فأخبرته بالذي مني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ

اللَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝﴾ [النساء].

الحكم: فضحك رسول الله ﷺ.

وانفضت المحاكمة بالبراءة». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٨٣-١٩٠].

٩ - ضرورة توحيد قيادة الجيش:

يقول د/ الرشيد: «يعد توحيد قيادة الجيش أمراً ضرورياً وخصوصاً في ميدان المعركة، ولم يسجل تاريخ الحروب قديماً وحديثاً - فيما أعلم - أن معركة دارت بين قوتين وكانت القيادة لإحدهما تحت رئاستين ونجحت في قيادتها.

وقد حرص القادة العسكريون من صحابة رسول ﷺ على تطبيق هذا الأمر في كل سرية يخرجون فيها.

ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما وصل المدد الذي بعثه رسول ﷺ للجيش في ذات السلاسل، حدث خلاف حول تولي منصب القيادة بين قائد المدد وقائد السرية، فقد عرض أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ فكرته في هذا الأمر، وهو أن يتولى قيادة المدد، بينما يتولى عمرو ﷺ قيادة الجيش، بحيث يصبح لهذا الجيش

قيادتان في وقت واحد، ولكن عمراً   الذي كان يتصف بالحكمة وسداد الرأي رفض بشدة هذه الفكرة التي عرضها عليه أبو عبيدة  . [ينظر: من معارك الإسلام الحاسمة ص ٣٩، وشخصيات عسكرية ص ٢٢٦، ٢٢٧، وقادة فتح الشام ومصر ص ١٦٢: ل. ر. محمود شيت خطاب].

وإنما أصر عمرو   على رأيه مع أن قيادة الجيش من باب التكاليف؛ لأن تولي قائدين إمارة جيش واحد يكون سبباً في حدوث الارتباك وضباب المسؤولية بين الجند، وفي ذلك ضياع للجهد وتفريق للشمل، وإخلال بأهم مقومات النصر وهي وحدة الصف والتضامن.

وبعد حسم هذا الخلاف أصبح قائد هذه السرية هو عمرو بن العاص   وحده، ولو أن عمراً   قبل اقتراح أبي عبيدة   لهُزم الجيش منذ أول لحظة وللحققت به خسائر لا يعلم مداها إلا الله  . وينبغي أن يستفيد القادة العسكريون من هذا الدرس حتى لا يُعرضوا جيوش المسلمين للهزيمة والفناء». [القيادة العسكرية في عهد الرسول   للرشيد ٥٤٠-٥٤١].

١٠ - تطبيق مبدأ الحشد عند الضرورة:

يقول د/ الرشيد: «تعد مواجهة العدو بعدد أقل منه - بدرجة كبيرة - حماقة عسكرية يجب على القائد معالجتها وإلا أخفق أمام خصمه.

وقد طَبَّقَ عمرو   هذا المبدأ في سرية ذات السلاسل، فعندما وصل عمرو   إلى ذات السلاسل شعر بالفرق الواضح بين عدد جنده وجنود الأعداء، حيث كانت النسبة بين الجيشين كبيرة، إلى درجة لا تُمكن جيش عمرو   من مواجهة أعدائه.

لذا طلب عمرو   من رسول الله   مدداً، فاستجاب الرسول   لهذا الطلب لإدراكه تأثير الحشد في هذا الظرف، فأرسل مدداً مكوناً من مائتي رجل بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح  .

ولما وصل المدد وأكمل عمرو   الحشد اللازم لهذه المعركة هاجم العدو وحمل عليه، حتى تفرَّق في البلاد، وبقي   في موضعه ثلاثة أيام حتى تحقق النصر». [ينظر: من معارك الإسلام الحاسمة ص ٣٨، والرسول القائد   ص ٣١٠، وشخصيات عسكرية ص ٢٢٥]. [القيادة العسكرية في عهد الرسول   للرشيد ٥٤٢].

١١ - المَدَدُ تَبَعَ:

يقول د/ أبو فارس: «نحن مع عمرو بن العاص   في وجهة نظره، أنه الأمير الذي اختاره رسول الله   على سرية ذات السلاسل، ولما طلب من الرسول   المدد ليساعده على قتال المشركين وأرسل مائتين بقيادة أبي عبيدة  ، يبقى عمرو بن العاص   هو الأمير، لقيادته لأغلبية الجيش إذ كان تحت أمرته ثلاثمائة مقاتل، وهو أعرف بموقع المعركة، كما هو أعرف بحالة العدو وعدده وتحركاته وقدراته، وبناء على ذلك هو أقدر على وضع الخطة المناسبة بناء على المعلومات المتوافرة لديه، والتي لم تتوافر لأبي عبيدة  .

وأخيراً لقد كان أبو عبيدة   مدداً لعمر بن العاص   وبناء على طلبه، والمدد تبع.

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٨].

ويقول أ/ الشامي: «قد يُظن أن عمرًا   استأثر بإمرة الجيش فغمط أبا عبيدة   حقه، وما نظن أن عمرًا فعل ذلك وهو يعتقد أحقية أبي عبيدة، فلواء الجيش إنما عُقد له، ومجيء المدد إنما كان بناء على طلبه، والمدد تبع للأصل، وهو حينما طلب المدد ما كان يعلم بمن سيمده رسول الله  ؛ فلذا فهو إنما تمسك بحق له بمسؤولية أناطها به رسول الله   فما ينبغي أن يقصر فيها.

ولا شك أن فرحه كان عظيمًا وهو يرى ذلك المدد الذي فيه أبو عبيدة وأبو بكر وعمر  .

وكان بعض جند أبي عبيدة   يرون أحقيته لما له من سابقة في الإسلام، ولم يكن لدى أبي عبيدة   تصريح من رسول الله   بأنه هو الأمير، وإنما هناك وصية سمعها هو ولم يسمعها عمرو وهي قوله  : (فتطاوعا)، فكان على أبي عبيدة أن ينفذها وقد فعل،   جميعاً». [من معين السيرة للشامي ٤١٠-٤١١].

١٢ - جواز ولاية المفضول مع وجود الأفضل إذا كان في ذلك مصلحة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أرسل رسول الله   عمرو بن العاص   أميرًا على سرية ذات السلاسل وكان تحت إمرته كبار الصحابة كأبي بكر وعمر  .

وفي عقيدة أهل السنة والجماعة المعتمدة على الأخبار الموثقة الصحيحة أن أبا بكر   أفضل الناس بعد رسول الله  ، ثم يأتي بعده عمر بن الخطاب  .

عَنْ أَبِي عُمَيْرٍ قَالَ حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ   أَنَّ النَّبِيَّ   بَعَثَهُ [اسْتَعْمَلَهُ] عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، [قَالَ:] [فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ:] [يَا رَسُولَ اللَّهِ،] [أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟] قَالَ: «عَائِشَةُ»، فَقُلْتُ: مَنْ الرَّجَالِ؟ فَقَالَ: «أَبُوهَا [إِذَا]»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ» فَعَدَّ رِجَالًا [فَسَكَتُ مُحَافَةً أَنْ يَجْعَلَنِي فِي آخِرِهِمْ] [البخاري في المناقب (٣٦٦٢)، وفي المغازي (٤٣٥٨)، ومسلم في فضائل الصحابة   (٢٣٨٤)،

والترمذي في المناقب (٣٨٨٥)، ومسنند أحمد ٢٩/٣٤٥ رقم ١٧٨١١]. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٨-٢٠٩].

ويقول د/ العيساوي: «دل تأمير الرسول   لعمر بن العاص   على السرية وفيها كبار الصحابة مثل: أبي بكر، وعمر، وأبي عبيدة  ، على جواز تأمير المفضول على المفضول بصفة تتعلق بتلك الولاية. [ابن حجر: الفتح ٨/٩٤، وسعيد حوى: الأساس في السنة ٢/٨٧٧].

حيث إن الأمير: ينبغي أن يكون بصيرًا بأمر الحرب، حسن التدبير، ليس ممن يلقي بهم في المهالك، ولا ممن يمنعهم عن الفرصة إذا رأوها لأن الإمام ناظر لهم، وتامم النظر أن يؤمر عليهم من جربه بهذه الخصال. [شرح السير الكبير ١/٦٢].

وسياتي بحث هذه المسألة بالتفصيل في سرية أسامة بن زيد  . [فقه السرايا للعيساوي ٢١٠].

١٣ - الاتحاد قوة والتنازع ضعف:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أدرك أبو عبيدة ﷺ أن أي اختلاف بين المسلمين في سرية ذات السلاسل يؤدي إلى الفشل ومن ثم تغلب العدو عليهم؛ ولهذا سارع إلى قطع النزاع وانضم جندياً تحت إمرة عمرو بن العاص ﷺ، امتثالاً لأمر الرسول ﷺ: لا تختلفا». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٩].

١٤ - إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر مثل من الأخلاق الإسلامية التي كان يتحلى بها الصحابة ﷺ وذلك في إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

إن موقف أبي عبيدة مع عمرو بن العاص ﷺ ليعين لنا سراً من أسرار انتصار المسلمين في عصرهم الأول حيث تجردوا من حظ النفس ونظروا إلى مصلحة الجماعة، فلو أن أبا عبيدة ﷺ تصرف مضاداً فأصر على التمسك بالإمرة وأصر عمرو ﷺ على التمسك برأيه لحصل الشقاق والنزاع بين الطائفتين، وهذا عامل خطير من عوامل الانهزام قبل الدخول في المعركة.

إن حب الرئاسة والإمرة أمر مركوز في بعض النفوس، وإن مقدرة الإنسان على تحجيم نفسه وإيقافها عند حدود اعتبار المصلحة العامة وإن تعارضت مع المصلحة الخاصة.. إن ذلك أمر كبير يحتاج إلى قوة عالية من الإيثار، وهذا ما حصل من أبي عبيدة ﷺ. [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٣٥].

١٥ - الحكمة البالغة من وصية النبي ﷺ لأبي عبيدة ﷺ:

يقول د/ الحميدي: «أمر آخر لابد من الإشارة إليه، وهو الحكمة البالغة من وصية النبي ﷺ لأبي عبيدة ﷺ بقوله حين وجهه «لا تختلفا»، فقد كان يدرك أن مقام أبي عبيدة ﷺ عند المسلمين أعلى من مقام عمرو بن العاص ﷺ لسبق أبي عبيدة ﷺ في الإسلام ودماثة خلقه التي تحببه إلى الناس، فكان يخشى أن يحمل أصحابه على التمسك برأيه، كما أنه يخشى أن يتمسك عمرو ﷺ برأيه فيحصل الخلاف ثم النزاع، فقدم ﷺ حلاً لمشكلة يتوقع حصولها فحصلت ونفع الله أبا عبيدة ﷺ بهذه الوصية، فكان فيها علاج هذه المشكلة، وهكذا تكون البراعة في القيادة وتدير أمور الناس.

ومما يلاحظ في هذا الخبر أن عمرو بن العاص ﷺ هو الذي صلى بالناس مع أنه حديث العهد بالإسلام، ومعه في الجيش أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ﷺ وغيرهم من السابقين في الإسلام؛ وذلك لأنه كان هو أمير السرية، وكذلك الحال في كل القيادات والولايات في الإسلام، وإن في ذلك لحكماً عظيمة من أبرزها ربط جميع أمور الدنيا بالدين، وأن يكون لدى القادة والولاة إلمام بأحكام الدين وحفظ للقرآن بما يكفي للإمامة والخطابة، وهذا يعني أن الكفاءة للولاية مرتبطة بالكفاءة في الإمامة.

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٣٥-١٣٦].

١٦ - الزهد في الدنيا:

يقول د/ الغضبان: «أما أعظم درس في التربية الجماعية تلقاه جيش المسلمين كله ابتداء بقائده عمرو بن العاص   هو الدرس الذي قدّمه أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح  ، يوم علّم الناس الإيثار، وعلّمهم الزهد في الدنيا، وعلّمهم الزهد في المنصب، وعلّمهم إيثار طاعة الله ورسوله على كل شيء، وعلّمهم خطورة الاختلاف، وعلّمهم أن الأمير الواحد مهما كان مستواه خير من الخلاف على الأفضل والأكفأ، وعلّمهم اللين وخفض الجانب والحلم والأناة، يوم تنازل عن الإمرة لعمرو ابن العاص  ، وما أحوج دعاة اليوم وقادته وزعمائه أن يقفوا ملياً مع هذا الدرس العظيم، كما تعلّم الجيل كله تقديم الخير في الحروب ليهارس طاقاته ويبدع في الحرب». [التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٩٩].

١٧ - طاعة القائد واجبة إذا لم تتضمن معصية الله:

يقول د/ الرشيد: «من الحقوق التي أوجبها الإسلام للقائد على جنده حق الطاعة، حتى تتحقق المصلحة من تسيير الجيوش وهي إعلاء كلمة الله وكسر شوكة المعتدين.

ولكن الإسلام عندما أمر بطاعة أمراء الجيوش، لم يتركها مطلقة حتى لا تتدخل الأهواء في تحديد مفهومها، بل قيّد تلك الطاعة بأن تكون في المعروف كما ثبت في الحديث الصحيح: عَنْ ابْنِ عُمَرَ   عَنِ النَّبِيِّ   قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ [عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ، فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ]، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْمَعْصِيَةِ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ». [البخاري في الجهاد (٢٩٥٥)، وفي الأحكام (٧١٤٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٩)، وأبو داود في الجهاد (١٧٠٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٦)، وأحمد في المسند ٢/ ١٧، ١٤٢].

فإن في هذا الحديث تقييداً لما أُطلق في الأحاديث المطلقة القاضية بطاعة أولي الأمر، وهذا يدل على أن الطاعة المأمور بها لها ضوابط وحدود ينبغي ملاحظتها قبل التنفيذ.

فضابطها الشرعي: أن تكون في المعروف، وهو ما كان من الأمور المعروفة في الشرع، لا في العُرف والعادة؛ لأن الحقائق الشرعية مقدمة على غيرها؛ لكون الشريعة مصدراً للتشريع والحكم.

[ينظر: نيل الأوطار ٧/ ٢٦٠].

قال الخطابي   في شأن قصة عبد الله بن حذافة   مع أصحابه الذين أمرهم باقتحام النار: (قلت هذه القصة وما ذكرنا فيها من شأن النار والوقوع فيها يدل على أن المراد به طاعة الولاة، وأنها لا تجب إلا في المعروف، كالخروج في البعث إذا أمر به الولاة، والنفوذ لهم في الأمور التي هي طاعات ومعاون للمسلمين ومصالح لهم، فأما ما كان فيها معصية كقتل النفس المحرمة وما أشبهه فلا طاعة لهم في ذلك).

[معالم السنن للخطابي ٢/ ٢٦٦].

ومن هذا الدرس ينبغي أن ندرك بطلان ما استقر في الفكر العسكري الحديث، من وجوب الطاعة العمياء التي تعني تنفيذ الأوامر دون التفكير فيها أو مناقشة الأمر بها.

[القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٥٣٣-٥٣٤].

١٨ - السمع والطاعة للقائد العسكري:

يقول أ/ باشميل: «والعجيب أن عمرو بن العاص ؓ حين تولى قيادة هذا الجيش الذي يضم أركان السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يكن قد مر على إسلامه أكثر من أربعة أشهر، حيث إن إسلامه وخالد بن الوليد ؓ إنما كان في شهر صفر سنة ٨ للهجرة، وغزوة ذات السلاسل التي قادها كانت في شهر جمادي الآخرة سنة ٨ للهجرة.

ولا شك أن في هذا التصرف من الرسول ﷺ تربية لأصحابه وحكمة يقصد من ورائها تعليمهم كيف يكون السمع والطاعة للقائد العسكري الكفو، حتى وإن كانوا أفضل منه وأسبق إلى الإسلام وإلى الجهاد بأرواحهم وأموالهم في سبيله، فعمرو بن العاص ؓ وإن كان قد تأخر إسلامه، إلا أنه كان يمتاز بمقدرة كبيرة في فن القيادة العسكرية والمهارة السياسية؛ لهذا أسند إليه النبي ﷺ قيادة هذا الجيش الذي كان ضمن جنوده سراة المهاجرين والأنصار، وكذلك فعل أبو بكر وعمر ؓ حين توليا الخلافة فقد قدما عمرو بن العاص ؓ في القيادة على سادات المهاجرين والأنصار، حيث كان في عهد الخليفة الأول أحد قادة الجيوش الأربعة التي اجتازت حدود الشام غازية في عهد الملك هرقل، ثم كان في عهد الفاروق هو قائد الجيش الإسلامي الذي حرر مصر من الاحتلال الروماني، فتم فتحها جميعاً تحت قيادته».

[غزوة مؤتة لباشميل ٢٢٠-٢٢١].

ويقول أ/ باشميل أيضاً: «إن في تولية عمرو بن العاص ؓ قيادة أمثال أبي بكر وعمر وسعد وأبي عبيدة وسعد بن عباد ؓ، يستفاد منها درس مهم وهو أن صلاح الإنسان وتقواه وسابقته في نصرته الإسلام لا تعني أحقيته دائماً في السيادة وقيادة الجيوش، وإنما الأحقية هنا للخبرة الحربية، والمهارة في القيادة والسياسة العسكرية.

فالنبي ﷺ قد أعطى عمرو بن العاص ؓ القيادة العامة لجيش يضم صفوة أهل السابقة في الإسلام من المهاجرين والأنصار، وعمرو - مع حنكته السياسية ومقدرته الحربية - لا يصل إلى منزلة واحد ممن تولى قيادتهم من المهاجرين والأنصار من حيث الفضل والسبق إلى النصر، فهو لم يمتز على إسلامه - حينما تولى قيادة هؤلاء الأصحاب - أكثر من أربعة أشهر، ومع ذلك فقد أعطاه النبي ﷺ قيادتهم وصاروا جنوداً يأتمرون بأمره؛ لأنه عالم بشؤون الحرب. (وقد شهد له بعلمه بفنون الحرب أبو بكر الصديق. فقد ذكر في السيرة الحلبية ٣١٤/٢ أن أبا عبيدة وعمر بن العاص لما اختلفا وأصر عمرو على أن يمنع الجيش من إشعال النار في الليل غضب ابن الخطاب وهم أن يأتي عمراً فمنعه أبو بكر. وقال: إن رسول ﷺ لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب. فسكت).

وهذا لا يعني أن هؤلاء المهاجرين والأنصار ليس فيهم مَنْ لديه المؤهلات لقيادة الجيوش، فبينهم من قاد الجيوش (كعمرو) وفتح الفتوح مثل سعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح   وعلى كل حال فإن ما حدث في غزوة ذات السلاسل من إسلاص سادات المهاجرين والأنصار قيادهم لمثل عمرو بن العاص   الذي هو - بدون شك - دونهم في المنزل من حيث الفضل والسابقة - هو الخط الصحيح المستقيم الذي رسمه - عبر التربية النبوية العالية - أولئك السادة البررة الكرام لمن يأتي بعدهم من أمة محمد  ؛ ليسيروا عليه في مجال التضحية ونكران الذات، من أجل مصلحة الإسلام والمسلمين العليا، إنها عبرة لمن يعتبر وعظة لمن يتعظ، ممن يريدون حقاً نصر الإسلام وإعزاز المسلمين». [غزوة مؤتة لباشمیل ٢٢٧].

١٩ - التربية الإيمانية لأصحاب الجاه والمناصب:

يقول أ/ باشمیل: «ولعله يجدر بنا معشر المسلمين - وخاصة العرب الذين مررنا ولا نزال نمر بأحلك فترة في تاريخ الصراع، بل والاقتيال والختل والشتائم من أجل الزعامة، فأخيلنا الساحة للعدو يفعل بنا ما يشاء ويدلنا ويمتهن كرامتنا كيف يشاء، بينما تُكرَّس كل الجهود في أكثر أقطارنا (إياها) من أجل هدمنا من الداخل - لعله يجدر بنا - إن أردنا الاتعاظ والاعتبار - أن نقف عند هذه الحادثة وقفة تدبر وإمعان.

لنرى مدى الأخلاقية العالية، ودقة الضبط في السلوك، وشيوع روح التضحية بالجاه والمنصب في سبيل جمع الصف ووحدة الكلمة، بين أولئك الرجال الذين أدبهم الإسلام ورباهم القرآن أحسن تربية فصاروا يجعلون مصلحة الإسلام وأمته فوق كل مصلحة وغاية؛ ولذلك تم لهم النصر والغلبة في كل ميدان.

فأبو عبيدة بن الجراح   من السابقين الأولين ومن صفوة أصحاب محمد   الذين آمنوا به وكانوا إلى جانبه منذ انبثاق شمس دعوته الخيرة - وظلوا - أيام اشتداد المحنة عليه بمكة - كذلك يشاركونه سراء الدعوة وضراءها.

وعمر بن العاص   لم يدخل في الإسلام إلا قبل أربعة أشهر من هذه الغزوة التي أعطاها النبي   قيادة القوات التي كلفت القيام بها.

فأبو عبيدة   ومن معه من سراة المهاجرين وأركانهم - مثل أبي بكر وعمر   - يرون أن أبا عبيدة أولى من عمرو بأن يؤم الجيش - لكون أبي عبيدة من المهاجرين السابقين الأولين.

ولكن عمرو بن العاص   يرى خلاف ذلك، فهو يرى أن لا دخل للفضل والسابقة في هذا الموضوع، وإنما هو - حسب اعتقاد عمرو - الانضباط العسكري والالتزام القيادي.

فعمر   هو القائد الأول للجيش في هذه الغزوة؛ لأن النبي   أعطاها لواءها وحدد له المهمة، وهي غزو قبائل قضاة وبلى وعذرة وأحلافهم من الأعداء، فتحرَّك من المدينة على هذا الأساس قائداً لغزوة ذات السلاسل.

وأبو عبيدة وأصحابه (رضي الله عن الجميع) إنما جاؤوا مددًا لعمرو ونجدة، بعد أن اتصل عمرو بالنبي   وطلب إمداده بهذه النجدة.

ولا شك أن النبي الأعظم   - كقائد أعلى مجرب مسؤول - قد توقع أن يحدث الذي حدث من الاختلاف بين القائدَين (أبي عبيدة وعمرو) ولهذا كان من توصيته   لأبي عبيدة أن لا يختلف مع عمرو؛ ولهذا سارع أمين الأمة أبو عبيدة   إلى حسم الخلاف وألقى بقياده إلى عمرو بن العاص  ، بالرغم من أن كتيبة أبي عبيدة   تضم صفوة المهاجرين والأنصار  .

إن في هذه الحادثة عبراً ودروساً لكل ذي منصب صغر أو كبر..

إن تولية عمرو بن العاص   على هذه الصفوة من المهاجرين والأنصار الذين هم أفضل منه وأسبق إلى نصره الإسلام، تعني أشياء كثيرة ولها مغاز واسعة في مجال التربية والتوجيه المعنوي والانضباط العسكري والتهديب الخلقي.

بل إنها لقاعدة مكيئة للسلوك الحربي المستقيم والانضباط العسكري الدقيق، فتولية عمرو   على أولئك الصفوة من الصحابة تعني - من وجهة نظر التربية العسكرية الإسلامية - أن إطاعة أوامر القائد العادل الأعلى المسؤول لا تقبل النقاش، وخاصة في ظروف الحرب». [غزوة مؤتة لباشميل ٢٢٥-٢٢٦].

٢٠ - على القائد أن يسلك الأسلوب المناسب للمحافظة على سلامة قواته وأمنها:
يقول د/ الرشيد: «يُعد الحرص على سلامة القوات وأمنها أمرًا ضروريًا يجب أن تهتم به كل القيادات العسكرية؛ لما يترتب عليه من المصالح العظيمة، وقد اهتمت القيادة العسكرية الإسلامية بهذا المبدأ وأولته عناية خاصة.

. وفي سرية ذات السلاسل حرص عمرو بن العاص   أثناء قيادته لهذه السرية على سلامة قواته، ويتجلى ذلك في الصور الآتية:

الأولى: أنه كان يسير ليلاً ويختفي نهارًا: كان عمرو   يدرك بثاقب بصيرته أن العدو يمكن أن يسعى إلى معرفة أخباره قبل اللقاء بينهما، فيُعد نفسه في ضوء ما تجمّع لديه من معلومات عن جيش المسلمين؛ ولهذا السبب رأى عمرو   أن السير ليلاً والاختفاء نهارًا هو أفضل أسلوب للمحافظة على قواته.

وقد قصد عمرو بن العاص   من سلوك هذه الخطة تحقيق أمرين مهمين:

الأول: إخفاء تحركاته عن عدوه وبذلك يضمن سلامة قواته.

الثاني: حماية الجند من شدة الحر وحتى يبقى لهم نشاطهم فيصلون إلى مكان المواجهة، وهم أقوياء على مجابهة أعدائهم.

الثانية: عدم السماح للجند بإيقاد النار: كان جيش المسلمين ذات السلاسل يعاني من شدة برودة الجو^(١)، مما جعل الجند يفكرون في إيقاد نار لحاجتهم الماسة إلى التدفئة، ومع أن حصول التدفئة في ذلك الجو البارد فيه مصلحة للجيش إلا أن عَمْرًا رضي الله عنه بحكم خبرته الحربية وعمق فكره العسكري خشي وقوع مفسدة أعظم من تلك المصلحة وهي أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين - وهم قلة - لأعدائهم فيهجموا عليهم، ويتجلى هذا الفقه في قوله للرسول ﷺ: كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قتلهم، فأقره النبي ﷺ على فعله.

الثالثة: منع الجند من مطاردة أعدائهم: عندما هَزَمَ المسلمون أعداءهم طمعوا فيهم فأرادوا مطاردتهم وتبع فلولهم، ولكن قائد السرية منع جنده من تحقيق رغبتهم؛ لئلا يترتب على هذه المطاردة مفسدة أعظم منها، وهي أن يلحق جيش المسلمين أذى بسبب ذلك، ويتجلى هذا الفقه في قول عمرو رضي الله عنه للرسول ﷺ: (وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد)، فأقره النبي ﷺ على هذا التصرف الحكيم الذي يحقق للجيش الأمن والسلامة» [ينظر: شخصيات عسكرية إسلامية - اللواء محمد فرج - تقديم الدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٨ - ط ٣ دار الفكر - القاهرة ١٣٩٦ هـ من معارك الإسلام الحاسمة اللواء محمد فرج ص ٣٩، ٣٨ - الدار القومية للطباعة والنشر، بالقاهرة]. [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٥٣٥-٥٣٦].

٢١ - ضرورة استعمال الحزم مع الجند في المواقف الحاسمة:

يقول د/ الرشيد: «تَحَدَّثُ في المعارك الحربية بعض المواقف التي تحتاج من القائد إلى سرعة البت فيها وحسمها، إذ إن سَيْرَ المعركة له أثر على نتائجها.

وفي سرية (ذات السلاسل) حدث ثلاث مشكلات تتطلب علاجاً سريعاً وحاسماً، فقابلها قائد السرية بالحزم حتى استطاع القضاء عليها، وهي:

الأولى: مشكلة تعدد القادة، وهذه عاجلها بإصراره على أن يكون هو القائد الوحيد للجيش؛ لما تقتضيه مصلحة الجيش خاصة والإسلام وأهله عامة.

الثانية: مشكلة إيقاد النار، وقد عاجلها بإصراره على منع الجند من تحقيق مطلبهم حتى إنه توعد مَنْ أوقد ناراَ بقذفه فيها، مما جعل الجند لا يفكرون في هذا الأمر مطلقاً.

الثالثة: مشكلة تَتَبُعُ فلول العدو بعد الانتصار عليهم، وقد عاجلها بمنعهم من ذلك.

(١) لا منافاة بين ما ذكر هنا من حرص عمرو على حماية الجند من شدة الحر، وبين ضرورة الجند إلى التدفئة، نظرا لشدة برودة الجو، فإن المعروف أن مناطق الجزيرة العربية، ومنها الحجاز، تتميز بحرارة الصيف اللاهب، أما بلاد الشام فهي تتميز ببرودة الجو، ولعل خروج الصحابة في هذه المرة، وهي الأولى من نوعها، جعلهم لا يصبرون على برودة الجو.

وبتدبر هذه المواقف واستخلاص العبر منها يتبين أن الحزم صفة ضرورية للقائد العسكري؛ لكي ينجح في عمله، وبدون التحلي بهذه الصفة ينتج ضرران كبيران هما:

الأول: أن تردّد القائد يجعله يفقد ثقته في نفسه، فحين يصدر أمرًا يعود فيلغيه، ويستمر الأمر هكذا دون أن يستقر على رأي معين، وحينئذ ينهار جانب مهم من جوانب المعركة، إذ إنها تحتاج إلى رأي سديد وخطّة سليمة وتصرف حكيم، وهذه الأمور مجتمعة لا تتحقق في القائد المتردد.

الثاني: أن تردد القائد يفقد ثقة جنده فيه، حيث يجدونه غير مستقر على رأي واحد، وإنما يكون مترددًا لا يعرف قرارًا يتمسك به، ولا يستطيع أن يصدر أمرًا واحدًا، وإنما تكون أوامره كثيرة يناقض بعضها بعضًا» [ينظر: معارك الإسلام الحاسمة ص ٣٩]. [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٥٤٣-٥٤٤].

٢٢ - تجنّب كل ما يكشف تجمّع المسلمين وتحركاتهم:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان البرد شديدًا، وأراد الصحابة أن يُشعلوا نارًا لدفع البرد عنهم، فمنعهم عمرو بن العاص ؓ، وكان المنع لحكمة هي أن النار تكشف المسلمين لعدوهم، وهم قلة، فيطمع بهم عدوهم، ويغريه قلة عددهم لقتالهم.

وهذا ما علل عمرو بن العاص ؓ المنع فقال: (كرهت أن أذن لهم أن يوقدوا نارًا فيرى عدوهم قلتهم).

وعمر وأعلم من غيره في أمور الحرب، ومن أجل هذا ولاه الرسول ﷺ هذه السرية وفيها كثير من الصحابة، ولما شكى الصحابة لأبي بكر ؓ عمرو بن العاص ؓ وإبائه عليهم أن يُشعلوا النار وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب ؓ قال أبو بكر ؓ لعمر ؓ: (دعه فإن رسول الله ﷺ لم يبعثه علينا إلا لعلمه بالحرب) فسكت عمر ؓ.

ومن الحق أن يُقال: إن إشعال النار يتنافى مع السرية والتكتم في الأخبار والحركة عن العدو، ولا نعجب إذا رأينا الجيوش الحديثة تمنع التدخين عند السير في المهمات الاستطلاعية وعند التحرك للاشتباك مع العدو ومباغتته، بل تمنع اصطحاب كل معدن له لمعان قد يعكس أشعة الشمس أو ضوء القمر؛ فيكشف حركة الجيش ويفضح أمره». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٧-٢٠٨].

٢٣ - بناء وتربية الصف المسلم:

يقول د/ الغضبان: «فقد كانت ذات السلاسل على غرار مؤتة وللهدف نفسه.

ونجد هنا رسول الله ﷺ يختار عمرو ؓ مباشرة ليعجم عوده في الخط الإسلامي، وبطبيعة عمرو ؓ الحذرة الداهية طلب المدد حيطة لما بلغه من كثرة العدو، وكان مددًا من خيار أهل الأرض، فمعظمهم من المهاجرين الأولين، وأمر عليهم أبو عبيدة وفيهم أبو بكر وعمر ؓ.

إنها ليست معركة، أو ساحة تدريب، إنها مدرسة تربوية فذة يشهد فيها عمرو بن العاص   ابن الثلاثة أشهر في حضن الإسلام، كيف يُمدُّ بخيرة أهل الأرض أبي بكر وعمر  ، ويشمخ أنفه أن يكون أميراً على الذين أمضوا قرابة عشرين عاماً في حضن الدعوة، ولا يرضى أن يكون تبعاً لأبي عبيدة  ، وعظمة أبي عبيدة   وسماحته ووصية رسول الله   له أن لا يختلفا دفعته للقول: لئن عصيتني لأطيعنك، وسلم إمرة الجيش لعمرو بن العاص   الذي كان قبل فترة وجيزة يخطط لضرب عنق رسول الله   في الحبشة..

ومن حيث الحرب فلقد أبدى إمكانات فائقة، ونفذ الهدف المرسوم كله ووطئ أرض قضاة إذ كان مهياً لذلك، فأمه أو أخواله من بلي من قضاة.

إن أحداث المعركة وتحقيق أهدافها العسكرية لا يعنينا كثيراً بمقدار ما يعنينا بناء هذا الصف المسلم. هذا الصف الذي دخله من جديد أفواج ضخمة بالألوف وفيهم من الشخصيات النابهة أمثال خالد وعمرو  ، إنه مجتمع يُبنى بسرعة فائقة، ويُعد لحرب طاحنه فيما بعد فلا بد أن ينصهر هذا المجتمع الجديد، وتتمكن القاعدة الصلبة الأولى أن تضم هذه العناصر الجديدة، وتكيف معها وتكيفها مع الإسلام، لا بد أن يقوم الرعيل الأول بالتجارب الرائدة الفذة، بالإيثار المطلوب، بالتضحية المناسبة بالبعد عن مراكز الشهرة ليتيح للطاقات الجديدة أن تأخذ مداها وحجمها وتبرز مكون مواهبها.

واستطاعت هذه القاعدة الصلبة التي لم تكن تتجاوز ثلاثة آلاف أن تفتح صدرها لثلاثة أضعافها خلال هذين العامين، وبسرعة هائلة امتصت هذه الطاقات دون أن يقع الصراع، أو يقع التصادم، أو تبرز الأنانيات، والصراع على السلطة فيكون أبو بكر وعمر وأبو عبيدة   جنوداً تحت إمرة عمرو بن العاص  .

نكتب هذا الكلام ونقف الذاكرة عند واقع الحركة الإسلامية المعاصرة لتنهج هذا النهج، وإني لأنصوّر بعض قادة الكفر وقد هداه الله تعالى للإسلام، كيف تكون نظرة الشباب المسلم الحادة له، وتُبالغ في الصفاء والنقاء والحديث عنه لدرجة تتهم فيها قيادة الحركة بممالة الأعداء والانطلاق في تيار الاحتواء، وأنصوّر كذلك هذه العواطف الصادقة، وقد شهدت مثل حادثة الصلاة التي صلاها عمرو  ، حتى ليصلي بعد التيمم، ويظهر أن الأمر لم يكن واضحاً للقاعدة الإيرانية بجواز التيمم على الجنابة، ومن أجل هذا كان الأمر مُستغرباً، ووصل إلى رسول الله   ويسأله: أصليت بالناس وأنت جنب؟

ومن ظاهر جواب عمرو   أنه اجتهد دون الاستناد على حكم ثابت بجواز التيمم عن الجنابة؛ ولذلك ذكر رسول الله   اعتماده على قول الله  : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا  ﴾ [النساء]، وضحك رسول الله   ولم يقل شيئاً.

لقد أقر عمرًا   على اجتهاده، وليس ضحكك   إلا دعاية له وموافقة على سلوكه.

أقول لو جرت مثل هذه الحادثة في الصف المسلم اليوم، وأقدم قائد حديث العهد بالإسلام على هذا الأمر فصلى بالناس وهو جنب لأنتمت قيادة الجماعة بالكفر البواح، وخرج أكثر الصف على هذه القيادة. فالحركة الإسلامية اليوم تعاني من أزمة ثقة ضخمة بقياداتها، والأصل أنها تضعها موضع الشبهة والظنة والتهمة، في صلاتها مع خصومها.

وما أوجع شباب الحركة الإسلامية الذين هم وقود معاركها، أن يفتحوا صدرهم لمثل هذه الحادثة من السيرة، ويروا أكبر أعداء الإسلام قد صار بعد ثلاثة أشهر من إسلامه أميرًا على المهاجرين الأولين وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وأمثالهم  ، ثم يصلي بالناس على جنابته بعد التيمم ويقتدي به المهاجرون الأولون.

إن هذه التجربة الرائدة في تاريخ الأمم ما كانت لتنجح في إضافة ثلاثة أضعافها ونيف خلال سنتين، وتأخذ هذه الأعداد موقفها الحقيقي في الصف، وتقدم كل طاقاتها في سبيل الله، لو لم تكن القاعدة الصلبة الأولى على المستوى المطلوب من الانضباط والالتزام والطاعة والصبر والإيثار والتفاني في سبيل الله وغياب الذات.

ونحن لا ننفي إطلاقاً بل نقول إن الدور الأضخم والأكبر الذي ساعد هذه القاعدة على تمثل هذه العناصر الجديدة هو شخص القائد الأعظم محمد   الموحى إليه من الله تعالى، ومن أجل ذلك لا يقف الجندي المسلم ليفكر لحظة في مناقشة الأمر طالما أنه من رسول الله  ؛ لكنه يفكر في كيفية التنفيذ وسرعته في التَّوُّ واللحظة.

فأبو عبيدة   لم يقف ليوازن كثيرًا نتائج تنازله عن الإمرة لعمر و ، واحتمالات أخطائه الكثيرة وهو الجديد على الإسلام، بل كانت وصية رسول الله   منارًا هاديًا له: (لا تختلفا، نطوعا)، فاستجاب على التو وقال: لئن عصيتني لأطيعنك.

وتبدو أهمية التربية لهؤلاء القادة الكبار الذين انضموا للصف الإسلامي من جديد من خلال العرض الأخير الذي عرضه لنا عمرو  ، إذ حدثنا صراحة أن إمرته على أبي بكر وعمر وأمثالهم   جعلت لديه غرورًا بأنه أفضل من هؤلاء جميعًا، أو على الأقل أحب إلى رسول الله   منهم؛ ولكي يؤكد هذا المعنى، يأتي ليسأل نبي الله   عن أحب الناس إليه، وكان يتوقع الجواب أن يكون هو ذلك الإنسان، فإذا به يفاجأ بأن أحب الناس إلى رسول الله   بعد عائشة زوجته هو جُنْدِيهِ الذي كان تحت إمرته أبو بكر   وجنديه الذي كان تحت إمرته عمر  ، وجنديه الذي كان تحت إمرته أبو عبيدة  ، وعدد رهطاً من الصحب، واستحيا عمرو   من ذكر هؤلاء الرهط حتى توقف عن الاستفسار خشية أن يكون آخرهم،

وكان لا بد أن يتلقى عمرو ﷺ في مدرسة النبوة هذا الدرس الشديد حتى يُفَرِّق بين المهمة المحددة والموقع الأصيل، يفرق بين التكليف والإكرام، وبين الثقة بالمجاهدين الأولين الذين امضوا حياتهم وأفنوا عمرهم في سبيل الله.

واكتفى بهذه الإجابات لتجعله ضمن المدى الذي حدد له، ورضي الله عنهم أجمعين، فلم يغضب ولم تتحرك الجاهلية في كيانه، بل أصبح لاحقاً بهذا الرعيل، فيقدم لنا ذاته بخطأ تصوره وعظمة إكباره للشيوخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وإخوانهما من المهاجرين الأولين رضي الله عنهم.

وليستفد الشباب المسلم من هذا الدرس كذلك، وليضعوا ذاتهم خلفهم، وليقبلوا تقويم قيادتهم لهم في المهمات والملمات دون أن يضعوا أنفسهم فوق ما يستحقون، ودون أن يحملوا على قيادتهم حين لا تستجيب لأهوائهم كما يشتهون.

ونعرض أخيراً هذه الجوانب الجزئية كلها لتنضم في إطار هذه السمة التي لاحظنا خطوطها العريضة في مواجهة الروم، وفي بناء الصف الداخلي المتلاحم المذهل، وإن هذه التوطئة قد كانت إيذاناً بالتوجه نحو مكة لتحقيق الفتح الأكبر، وكان جنود المرحلة الأولى كأنما كُلِّف كل واحد منهم بالعديد من إخوانه يثقفه فقهاً ويربيه سلوكاً، وينصحه قدوة، وبينه مسلماً خلصاً خالصاً من برائن الجاهلية؛ لتسع القاعدة الصلبة المتجهة إلى مكة إلى عشرة آلاف مقاتل.

والحركة التي تعجز عن استيعاب عناصرها الجديد، سوف تنقسم وتشرذم إلى جماعات عدة. وحركتنا الإسلامية التي تعاني من هذا الداء العضال، يحسن أن تفقه هذا الدرس وتخطط للاستيعاب الحقيقي للطاقات الجديدة الفتية، قبل أن تأكلها هذه الطاقات وتقضي عليها، بدل أن تكون البنيان المرصوص الجديد». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/١٠٦-١٠٩].

٢٤ - إعجاب النبي ﷺ وتقديره لعمر بن العاص ﷺ:

يقول ل/ خطاب: «وقد أثبت عمرو ﷺ في هذه السرية، أنه قائد مكث غير متهور، متين الضبط، قوي الشخصية، يهتم بأمن رجاله كثيراً، فهو يقاتل بسيفه، كما يقاتل بعقله، بمهارة فائقة؛ لهذا استطاع تحقيق نتائج باهرة في سريته، فنال إعجاب النبي ﷺ وتقديره». [عمر بن العاص ﷺ لخطاب ١/٧٣].

ويقول د/ الغضبان: «فاز القائد المظفر عمرو ﷺ بأعظم (الميداليات) بعد هذه الغزوة وهي:

(١) اختاره رسول الله ﷺ أميراً على الجيش.

(٢) أثنى على عبقريته الحربية، وحكم على خصومه ضده.

(٣) فاز بها لم يفز به أحد أن يكون أميرًا على أعظم أصحاب رسول الله   من المهاجرين وعلى رأسهم: أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، ومن الأنصار وعلى رأسهم: سعد بن عباد، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر  .

وشمخت نفسه به، ورأى أنه خلال خمسة أشهر غدا فوق هؤلاء الناس جميعًا، ولا بد له أن يأخذ من حبيبه المصطفى   وثيقة بذلك، يشهد الناس له بها أنه أفضل الجميع وأحب الجميع إلى رسول الله  ، فجاء إلى قائده وحبيبه محمد   يكاد رأسه يطال السحاب ليتسمع ويُسمع أنه أفضل الناس وأحب الناس إلى رسول الله   طالما أنه كان أميرًا عليهم جميعًا، ويحدثنا عن هذه المقابلة التاريخية قائلاً: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ   عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، وَفِي الْقَوْمِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَحَدَّثْتُ نَفْسِي أَنَّهُ لَمْ يَبْعَثْنِي عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إِلَّا لِمَنْزِلَةٍ لِي عِنْدَهُ، فَأَتَيْتُهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»، قُلْتُ: إِنِّي لَسْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ أَهْلِكَ، قَالَ: «فَأَبْوَاهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «عُمَرُ»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ حَتَّى عَدَدَ رَهْطًا، قَالَ: قُلْتُ، فِي نَفْسِي: لَا أَعُوذُ أَسْأَلُ عَنْ هَذَا».

[أُخْرِجَهُ السَّيْهِي (دلائل ٤ / ٤٠٠-٤٠١)، وقال: أخرجه في الصحيح].

وفي رواية الشيخين: فَسَكَتُ مُحَافَةً أَنْ يَجْعَلَنِي فِي آخِرِهِمْ.

[البخاري في المناقب (٣٦٦٢)، وفي المغازي (٤٣٥٨)، ومسلم في فضائل الصحابة   (٢٣٨٤)، والترمذي في المناقب (٣٨٨٥)، ومسند أحمد ٢٩ / ٣٤٤-٣٤٥ رقم ١٧٨١١].

لقد دخل عمرو   في نفسية وخرج في أخرى، وتلقَّى أبلغ درس في حياته حتى الآن، ورأى أن هذه المناصب والميداليات التي نالها لا يمكن أن تجعله فوق هام هؤلاء الرجال جميعًا، وأن كل واحد من هؤلاء يعدل الأمة كلها، وعرف أن العبقريَّة الحربية لا تكفي لتكون الميزان الوحيد في الفضل، والميزان الوحيد في الحب، وانتظر أن يكون له دور بين الرجال الأوائل الذين أحبهم  ، فرأى أن المسافة شاسعة من الرجال حتى يصل الغد إليه، وصمت حتى لا يكون آخر القوم، إنه حديث عهد بالإسلام، وأكرمه النبي   بهذه الإمرة، تأليفاً لقلبه، وفسحاً للمجال أمامه كي يفتح صفحة إسلامية هامة في حياته، ودفعاً له لياخذ موقعه في الحرب ضد الكفار، وأرسل معه أحب أصحابه إليه مبالغة في إكرامه، لكن هذا لا يعني أن ميزان الرجال قد اختل، وأنه أصبح الأول على الجميع، وأدرك أن التفاضل في الإسلام غيره في الجاهلية، ففي الجاهلية لا يزيد التفاضل عن البطولة أو البلاغة في الشعر أو الحكمة في الرأي، أما في الإسلام فالتفاضل في التقوى، والتفاضل في العمل الصالح: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَوُّكُمْ» [الحجرات: ١٣]، «أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبٍ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبٍ، وَلَا لَأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى». [مسند الإمام أحمد ٣٨ / ٤٧٤ رقم ٢٣٤٨٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح، وقد جاء في صحيح مسلم ٤ / ٢١٩٩: إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد. الحديث].

[التربية الجماعية للغضبان ١ / ١٩٨-١٩٩].

٢٥ - مكانة عمرو  :

يقول أ/ الشامي: «من حق عمرو   أن يحرص على أن تكون منزلته عند رسول الله   متقدمة، فذلك أمر يحرص عليه كل الصحابة الكرام، وقد أحب أن يعرف أين هذه المنزلة، لا سيما وقد شجعه على ذلك تأميره من قِبَلِ الرسول   على جيش فيه أبو بكر وعمر  ».

وسأل، فكانت البساطة في الجواب، بحيث لم يخطر على فكر عمرو   أنه يطرح سؤالاً عاماً، فاضطر أن يحدد السؤال وأنه يسأل عن الرجال، فيجيب: إنه أبو بكر  ، إنه عمر  ، وتوقف عمرو   عن متابعة الأسئلة خوفاً أن يجد نفسه آخر القوم.

إن رسول الله   يزن بميزان الله  ، فما كان ليغبط قوماً من أمثال أبي بكر وعمر   حقهم وهم المهاجرون الأولون، وهم من حضر المشاهد وعاش الأزمات... وإذا كان   قد أعطاه تلك السرية، فذلك من باب الاستفادة من الطاقات، وعدم تعطيل القدرات المتوفرة.

وفي الحديث لفظة هامة إلى سلوكه   مع أصحابه جميعاً، فلكل واحد منهم مكانته في نفس النبي الكريم   يسأل عن الصغير والكبير، وبهذا يشعر كل منهم وكأنه صاحب المقرب له  ، وهذا ما دفع عمراً   أن يسأل.

إن الخلق العظيم الذي كان عليه النبي الكريم   كان يسع جميع الناس. إنه درس لكل الذين يقودون الأمة في كيفية التعامل مع الناس، وتعليم لهم كيف تُسَاسُ الأمور وفقاً لمقتضيات الإيمان تمشياً مع المنهج الخلقي الكريم الذي كان   أسوة للناس فيه. [من معين السيرة للشامي ٤١٢-٤١٣].

٢٦ - عمرو بن العاص   يبحث عن مكانه في قلب النبي  :

يقول أ/ الصوياني: «انتصارات لعمر بن العاص   في الحرب والسلام، خرج عمرو   منها بأشياء كثيرة لكن نفسه كانت تحذنه بنصر أكثر اتساعاً وأعمق غوراً.

فقد قام بأعمال قياسية في فترة قصيرة، وهو أمر لم يكن يحلم به، بل هو من المستحيلات لو ظل عمرو   قابعاً متخترًا بشركه، ولأه   على صاحبيه أبي بكر وعمر  ، وهو أمر لم يكن عمرو   يتوقعه، ثم إنه انتصر في المعركة وأبدع في قراراته وأصاب في اجتهاده، فإذا بقي سوى أن ينتصر على من حوله في احتلال الجزء الأكبر من قلب النبي  ، توجه عمرو بن العاص   نحو النبي   بقلب يحلم بالكثير الكثير وسأله، يقول أبو عثمان: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ   بَعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»، قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «عُمَرُ» فَعَدَّ رَجُلًا، فَسَكَتُ مُحَافَةً أَنْ يُجْعَلَنِي فِي آخِرِهِمْ. [البخاري في المغازي (٤٣٥٨)].

عندها أدرك عمرو ﷺ فضل السابقين عليه، وأدرك أيضًا تثنين النبي ﷺ لقدراته وأن عليه حسب عدالة هذا النبي ﷺ وإنصافه أن يبذل الكثير للحاق بمن سبقوه بإنجازاتهم العظيمة؛ وذلك لأن عمرو ﷺ ليس رجلًا عاديًا يقنع باعتناق الإسلام فقط دون أن يكون له دور في حياته الجديدة، عمرو بن العاص ﷺ ليس كهذا الرجل الذي جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ تَأَثَّرَ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطُوعٌ»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَصِيَامَ رَمَضَانَ»، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطُوعٌ»، قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطُوعٌ»، قَالَ: فَأَذْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ». [البخاري في الإيمان (٤٦)، ومسلم في الإيمان (١١)].

أما عمرو ﷺ فيبحث عن دور يخدم به هذا الإسلام ليعوض ذلك الفرق الذي قطعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية المهاجرين والأنصار ﷺ، وهو مَن ينطبق عليه مفهوم الخيرية التي قدمها ﷺ لبعض الصحابة عندما قالوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ «أَكْرَمُهُمْ أَتْقَاهُمْ»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلُكَ، قَالَ: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ بْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، إِبْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، إِبْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، إِبْنُ خَلِيلِ اللَّهِ»، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلُكَ، قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ سَأَلُونِي؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَخَيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا». [البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٤)].

وعمرُو وخالد ﷺ وأمثالهما أصحاب قرار وأدوار بارزة في الجاهلية، فليس من المتوقع أن يخبو وهجهم بعد إسلامهم؛ لأن الإسلام مأخوذ بتفجير الطاقات واستثمارها، ولكن نحو الأجل والأسمى، وهل هناك تفجير واستثمار كهذا الذي حصل عليه عمرو وخالد ﷺ، هل هناك من قطع بلمح البصر تلك المسافة التي قطعها أو اعتلى قمة كالتي يقفان عليها، والمستقبل بالإسلام يعد لطاقات عمرو بن العاص الكثير والكثير مما لا يحلم به لو كان منبطحًا تحت أقدام هبل وبقية الأخشاب والأحجار المقذوفة فوق ظهر الكعبة، ها هو بعد أن ترك تلك الأصنام التي حجمته في دائرة مساحتها لا تتجاوز مساحة دائرة الطواف بصنم، ها هو يتبخر على مشارف أعظم دولتين في العالم فارس والروم بكل ثقة، هذا بالضبط ما كان الإسلام يعده لأبي جهل وأمّية بن خلف وعقبة بن أبي معيط لو أسلموا، وهذا ما تنبأ أبو سفيان بحدوثه وهو واقف على بلاط هرقل الروم ينصت إلى زعيم الروم وهو يتأهب للرحيل عن بلاطه وأرضه وسلطانه وملكه لمحمد ﷺ البسيط الذي «يُخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيُحِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَرْقُعُ دَلْوَهُ».

[صحيح ابن حبان ١٢/ ٤٩٠ رقم ٥٦٧٦، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح.]

لمحمد رضي الله عنه الذي يقول عن نفسه: «أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ».

[جامع معمر بن راشد ١٠/٤١٥، ٤١٧ رقم ١٩٥٤٣، ١٩٥٥٤، وقال الشيخ الألباني: صحيح. صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/٦٥ رقم ٨].

لمحمد رضي الله عنه الذي يأمن عنده الخائف: أَنِّي النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ تَرَعُدُ فَرَائِضُهُ قَالَ: فَقَالَ لَهُ: «هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ فِي هَذِهِ الْبُطْحَاءِ» قَالَ: ثُمَّ تَلَا جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ (٥٥)» [ق]. [المستدرک علی الصحیحین فی التفسیر ٢/٥٠٦ رقم ٣٧٣٣، وقال الحاکم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُجَرَّجْهُ»، ووافقه الذهبي].

ليس محمد ﷺ فقط بل أي مسلم، عندما يتقدم للعالم بمشروعه الحضاري، عندما يضع نفسه خلف مشروعه لا أمامه، عندها فقط تجد كل شيء يحبه ويخافه، تجده يبدع يتوهج، يعيد صياغة العالم بأحرف نقية وجديدة.

أما إذا رأيت خللاً في مشروع إسلامي ففتش عمن وضع نفسه أمام ذلك المشروع لا خلفه، عندها تتهاوى أمام عينيك القيم والمبادئ والثوابت وينتهي بك المشهد إلى أكوام يستحيل معها الإبداع والإقناع، لم يكن الصحابة رضي الله عنهم يقدمون للعالم أنفسهم وأهواءهم، كانوا يقدمون كتاب الله وسنة رسوله، كانوا يضعون أخطاءهم ضمن أرصدتهم لا ضمن أرصدة الإسلام، وهو ما قفز بهم في فترة قياسية إلى حدود فارس والروم، أما قريش ذلك الخصم الذي كان يحتقرهم ويطلق عليهم ألقاباً لا تليق إلا بالمجانين وقطاع الطرق، قريش اليوم دون طرق دون معنويات، فالمعنويات والانتصارات والمساحات لمحمد وأتباع محمد ﷺ، ولم يبق لقريش سوى شرف الحج، وقد تحول إلى موسم يسخر من قريش وأصنامها وعنادها، قريش اليوم مكبلة بعهد مع خصمها محمد ﷺ، ومحاطة بمناطق يملكها خصمها محمد ﷺ، ومخنوقة بإنجازات يصنعها خصمها محمد ﷺ، فما الذي بقي لقريش سوى مكة الحزينة والأصنام التي بدأت بالتآكل، وهو في الحقيقة ليس خصماً لها بل هي التي تصر على خصومته، وها هو المجد الذي وعداها به يرف على أرض فارس والروم، ولكنه للمؤمنين به، أما قريش فقد أعماها رمد التحديق بهبل وبقية الأخشاب والأحجار الجاثمة على أنفاسها وعقولها. [السيرة النبوية للصوياني ٣/٣٥٦-٣٥٨].

٢٧ - فقه عمرو رضي الله عنه:

يقول د/ أبو فارس: اجتهاد عمرو بن العاص رضي الله عنه يدل على فقهه ووفور عقله، ودقة استنباطه الحكم من دليله. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢١٠].

ويقول أ/ الشامي: «ولئن وقف الفقهاء عند هذه الحادثة يفرعون عليها الأحكام، فإن الذي يستوقفنا في السيرة منها تلك السرعة في أخذ عمرو رضي الله عنه للقرآن وصلته به حتى بات قادراً على فقه الأمور من خلال الآيات وهو لم يمض على إسلام أربعة أشهر، إنه الحرص على الفقه في دين الله.

وقد يكون عمرو - وهذا احتمال وارد - على صلة بالقرآن قبل إسلامه، يتبع ما يستطيع الوصول إليه، وحيثئذ نكون أمام مثال آخر من عظمة هذا القرآن الذي لوى أعناق الكافرين وجعلهم وهم في أشد حالات العداوة لهذا الدين يحاولون استماع هذا القرآن، كما رأينا ذلك في العهد المكي.

يؤيد هذا ما رأيناه من معرفته بالقرآن حينما طلب منه النجاشي رضي الله عنه أن يسأل مهاجري الحبشة عن رأيهم في عيسى عليه السلام». [من معين السيرة للشامي ٤١١-٤١٢].

٢٨ - جواز التيمم لمن يتوقع من استعمال الماء الهلاك، سواء كان لأجل برد أو غيره:

يقول د/ القرشي: «استدل العلماء من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه على جواز التيمم لمن يتوقع من استعمال الماء الهلاك، سواء كان لأجل برد أو غيره.

[فتح الباري ١/ ٥٦٩، عمدة القاري ٤/ ٥١، بذل المجهود ٣/ ٥٧].

وهذه مسألة خلافية على رأيين:

الأول: جواز التيمم لمن يتوقع من استعمال الماء الهلاك، سواء كان لأجل برد أو غيره، وبه قال جمهور العلماء من الأحناف [الاختيار لتعليل المختار ١/ ٨١، النهر الفائق ١/ ٩٩، اللباب ١/ ٣١، الهداية ١/ ١٧٤، رد المختار ١/ ٣٩٨]، والشافعية [الحاوي ١/ ٢٧٢، نيل الأوطار ٢/ ٩٨، المجموع ٢/ ٢٨٢، المهذب ١/ ٧١]، والمالكية [القوانين الفقهية ١١١، المدونة ١/ ١٤٧]، والحنابلة [عمدة الفقه ١٧، مسائل الإمام أحمد بن حنبل ٣٣].

الرأي الثاني: يغتسل، وإن مات، وهو قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، والحسن، وعطاء، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦]. [نيل الأوطار ٢/ ٩٩، المجموع ٢/ ٣٢٢، بذل المجهود ٣/ ٥٩].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لو رخصنا لهم لأوشك إذا برد عليهم الماء أن يتيمموا. [نيل الأوطار ٢/ ٩٩].

وأنا أميل إلى رأي الجمهور.

ولكن العلماء قد اختلفوا في مسألة: هل تجب إعادة الصلاة أم لا؟ على أربعة آراء:

الأول: قول الشافعية قالوا: إذا كان في حضر فعليه الإعادة؛ لأن تعذر إسخان الماء في الحضر نادر، وإن كان في سفر ففي وجوب الإعادة قولان. [الحاوي ١/ ٢٧٢، المجموع ٢/ ٣٢١].

الرأي الثاني: قول الإمام الثوري، ومالك، وأبي حنيفة، وابن المنذر: لا إعادة عليه مسافرًا كان، أو مقيمًا. [الحاوي ١/ ٢٧٢، المجموع ٢/ ٣٢١].

الرأي الثالث: قول الإمام أحمد: لا يعيد المسافر، وفي الحاضر روايتان. [المجموع ٢/ ٣٢٢].

الرأي الرابع: قول الإمامين أبي يوسف ومحمد إن كان مقيمًا فعليًا لإعادة، وإن كان مسافرًا فلا إعادة عليه. [المجموع ٢/ ٣٢٢، الحاوي ١/ ٢٧٢].

وأنا أميل إليه لأن تعذر إسخان الماء في الحضر من الأعذار النادرة، والأعذار النادرة لا تسقط معها الإعادة. [الحاوي ١/ ٢٧٢]. [مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ٢٦٧-٢٦٩].

٢٩ - جواز إمامة المتيمم للمتطهرين بالماء ^(١):

يقول د/ العيساوي: «في غزوة ذات السلاسل احتلم أمير الجيش عمرو بن العاص ﷺ، وكانت ليلة باردة فخاف على نفسه الماء، فیتيمم وصلى بأصحابه الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب، فأخبره بالذي منعه من الاغتسال، وقال: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء] فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا.

[سنن أبي داود ١/ ٩٢، والبخاري هامش الفتح ١/ ٣١٠].

(١) التيمم مشروع لفقد الماء، سواء في ذلك المحدث حدثًا أصغر أو أكبر، ولا خلاف بين العلماء في مشروعيته للمحدث حدثًا أصغر، أما المحدث حدثًا أكبر، فقد ذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى مشروعيته له، وإنه يجزئه التيمم، وخالف ذلك جماعة من العلماء، فذهبوا على عدم مشروعيته له وقالوا: من أجنب ولم يجد الماء فلا يصلي حتى يجده. رُوي ذلك عن عمر، وابن مسعود، وقد روي رجوعهما إلى مذهب الجمهور. ابن أبي شيبة ١/ ١٥٧، والمجموع ٢/ ٢٠٨، وشرح مسلم ٤/ ٧٥، والمدونة ١/ ٤٥.

والحجة لهم: أن الآيات لم تبح التيمم إلا للمحدث حدثًا أصغر فقط، وبيان ذلك أن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تُجْنِبُوا أَعْيُنَكُمْ عَنْ أَنْ تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَسْمَعُوا لَهُ وَمَنْ يُعْذِرْ عَنِ الْقُرْآنِ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَالْعَفْوَ لِلَّهِ كَثِيرٌ﴾ [النساء: ٤٣]، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَجْنِبُوا أَعْيُنَكُمْ عَنْ أَنْ تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَسْمَعُوا لَهُ وَمَنْ يُعْذِرْ عَنِ الْقُرْآنِ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَالْعَفْوَ لِلَّهِ كَثِيرٌ﴾ [النساء: ٤٣]. فأوجب في كلتا الآيتين الغسل على الجنب.

أما قوله تعالى بعد ذلك في الآيتين: ﴿وَلَا تَجْنِبُوا أَعْيُنَكُمْ عَنْ أَنْ تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَسْمَعُوا لَهُ وَمَنْ يُعْذِرْ عَنِ الْقُرْآنِ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَالْعَفْوَ لِلَّهِ كَثِيرٌ﴾ [النساء: ٤٣]، فإنها هو خاص بالمحدث حدثًا أصغر. ينظر: هاشم جميل - فقه سعيد بن المسيب ١/ ١٠٣.

وأجيب بأن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْنِبُوا أَعْيُنَكُمْ عَنْ أَنْ تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَسْمَعُوا لَهُ وَمَنْ يُعْذِرْ عَنِ الْقُرْآنِ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَالْعَفْوَ لِلَّهِ كَثِيرٌ﴾ عائد على الجنب والمحدث جميعًا، والسنة الصحيحة صريحة في إجزاء التيمم عن الحدث الأكبر، فقد جاء ذلك في أحاديث كثيرة منها:

ما روي عن رسول الله ﷺ: أنه رأى رجلًا معتزلًا، لم يصل في القوم، فقال: يا فلان! ما منعك أن تصلي في القوم؟ فقال: يا رسول الله! أصابني جنبته ولا ماء، قال: عليك بالصعيد فإنه يكفيك. متفق عليه. ينظر: البخاري - هامش

الفتح ١/ ٣١٢، ومسلم هامش النووي ٥/ ١٩٠.

وصلاة عمرو بن العاص رضي الله عنه من غير غسل مكتفياً بالتيتم، فعُلَّ صحابي أقره رسول الله ﷺ، واعتبره المسلمون تشريعاً، وهذا ما يسمى في أصول الفقه بالسنة التقريرية. (السنة التقريرية: هي أن يسمع رسول الله ﷺ شيئاً فلا ينكره أو يرى فعلاً فلا ينكره مع عدم الموانع فيدل ذلك على جوازه، ينظر للمع في أصول الفقه للشيخ ابن إسحاق الشيرازي ص ٤٠ - ٤١، وإرشاد الفحول للشوكاني ص ٤١).

وجه الدلالة: أن النبي ﷺ أقر فعل عمرو رضي الله عنه، وهذا يدل على الجواز، إذ لو لم يكن جائزاً لأنكر عليه؛ لأن النبي ﷺ لا يقر على خطأ. [الدكتور هاشم جميل: فقه سعيد بن المسيب ١/ ١١٥].

وهذا مروي عن علي، وابن عمر، وعمار، وابن عباس، والحسن، وحما، وعطاء، والزهرى، وعبيد الله ابن الحسن، والثوري، وإسحاق، وأبي ثور، وداود، وابن حزم، وإليه ذهب الأئمة الأربعة.

[فقه سعيد بن المسيب ١/ ١١٥، والروض النضير ١/ ٣٢٤، والهداية ١/ ٣٨].

وخالف ذلك جماعة من العلماء: فمنعوا إمامة التيمم للمتطهرين.

وبذلك قال: يحيى بن سعيد، والنخعي، وربيعة، ومحمد بن الحسن، وروى عن علي، وابن عمر، إلا أن البيهقي حمل الرواية هذه عنهما على الاستحباب.

[البيهقي: السنن الكبرى ١/ ٣٣٤، والمجموع ٤/ ٢٣٦، والهداية ١/ ٣٨].

واحتجوا بما روي عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤم التيمم المتوضئين». رواه البيهقي، وضعفه. [البيهقي: السنن الكبرى ١/ ٣٣٤].

وفصل الأوزاعي: فأجاز الإمامة للأمر دون غيره. [المجموع ٤/ ٢٣٦].

ويبدو أنه تمسك بصورة الواقعة في حديث عمرو رضي الله عنه السابق في سرية ذات السلاسل.

والراجح ما ذهب إليه الجمهور من جواز إمامة التيمم للمتطهرين بالماء؛ لأن النبي ﷺ أقر فعل عمرو رضي الله عنه، وهذا يدل على الجوز، إذ لو لم يكن جائزاً لأنكر عليه لأنه لا يقر على خطأ. والله أعلم.

[فقه السرايا للعيسوي ٢٠٧-٢٠٩].

٣٠ - التيمم يرفع الحدث:

قال ابن القيم: «وَقَدْ اُخْتِجَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ مَنْ قَالَ: إِنَّ التَّيْمُمَ لَا يَرْفَعُ الْحَدَثَ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَهُ جُنْبًا بَعْدَ تَيْمُمِهِ، وَأَجَابَ مَنْ نَارَهُمْ فِي ذَلِكَ بِثَلَاثَةِ أَجْوِبَةٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا شَكَوْهُ قَالُوا: صَلَّى بِنَا الصُّبْحَ وَهُوَ جُنْبٌ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: «صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنْبٌ؟»، اسْتَفْهَمَا وَاسْتَعْلَمَا، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ بِعُذْرِهِ، وَأَنَّهُ تَيْمَّمَ لِلْحَاجَةِ، أَقْرَهُ عَلَى ذَلِكَ.

الثاني: أَنَّ الرِّوَايَةَ اخْتَلَفَتْ عَنْهُ، فَرَوَى عَنْهُ فِيهَا أَنَّهُ عَسَلَ مَعَابِنَهُ وَتَوَضَّأَ وَضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ صَلَّى بِهِمْ، وَلَمْ يَذْكُرِ التَّيْمُمَ، وَكَانَ هَذِهِ الرِّوَايَةُ أَقْوَى مِنْ رِوَايَةِ التَّيْمُمِ، قَالَ عَبْدُ الْحَقِّ وَقَدْ ذَكَرَهَا وَذَكَرَ رِوَايَةَ التَّيْمُمِ

قَبْلَهَا، ثُمَّ قَالَ أَوْصَلْ: وَهَذَا مِنَ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ الْمُضَرِّي، عَنْ أَبِي الْقَيْسِ مَوْلَى عَمْرِو، عَنْ عَمْرِو [أخرجها أبو داود (٣٣٥) وإسنادها صحيح، وأخرجها عبد الرزاق في «المصنف» (٨٧٨) من وجه آخر عن عبد الله ابن عمرو بن العاص، ولم يذكر التيمم. الأرنؤوط]، وَالْأَوَّلَى الَّتِي فِيهَا التَّيْمُّ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، لَمْ يَذْكُرْ بَيْنَهُمَا أَبَا قَيْسٍ.

الثَّالِثُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَسْتَعْلِمَ فَقَعَّ عَمْرُو فِي تَرْكِهِ الْإِغْتِسَالَ، فَقَالَ لَهُ: «صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُبْتُ؟»، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ أَنَّهُ تَيَمَّمَ لِلْحَاجَةِ عَلِمَ فَقَعَّ، فَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ، وَيَذُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ مَا فَعَلَهُ عَمْرُو مِنَ التَّيْمِّ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - خَشْيَةَ الْهَلَاكِ بِالْبُرْدِ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ، وَالصَّلَاةَ بِالتَّيْمِّ فِي هَذِهِ الْحَالِ جَائِزَةٌ غَيْرُ مُنْكَرٍ عَلَى فَاعِلِهَا، فَعَلِمَ أَنَّهُ أَرَادَ اسْتِعْلَامَ فَقَعَّهِ وَعِلْمِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٨٨-٣٨٩].

٣١ - جواز الاجتهاد في الواقع في حياة النبي ﷺ:

يقول د/ العيساوي: «في السرية من الفقه: جواز الاجتهاد في حياة النبي ﷺ، وإقراره على ذلك، لكن هذا في حال الحاجة إلى الاجتهاد وعدم تمكنهم من مراجعة النص، وقد اجتهد أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بين يدي الرسول ﷺ في عدة من الوقائع وأقرهما على ذلك، لكن في قضايا جزئية معينة، لا في أحكام عامة، وشرائع كلية، فإن هذا لم يقع أحد من الصحابة في حضوره رضي الله عنه البتة.

[ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٩٧، ومسلم بشرح النووي ١٢/ ٨٦].

والدليل على جواز الاجتهاد في الأمور الفرعية المعينة في حياة النبي ﷺ، ما حدث في هذه السرية من اجتهد عمرو بن العاص ﷺ في التيمم، وما حدث من اجتهد أبي عبيدة رضي الله عنه، في أكل ميتة البحر في سريته إلى الخبط». [فقه السرايا للعيساوي ٢١٠-٢١١].

٣٢ - ما يستفاد من تيمم عمرو بن العاص ﷺ:

يقول د/ أبو فارس:

(أ) التيمم يقوم مقام الغسل بالنسبة للجنب مع وجود الماء إذا خشي - أن يؤدي استخدام الماء الضرر، فلقد تيمم عمرو بن العاص ﷺ لما أصبح جنباً مع وجود الماء عنده وصلى وأقره الرسول ﷺ ولم ينكر عليه.

(ب) يجوز الاجتهاد في عهده رضي الله عنه: فقد اجتهد عمرو بن العاص ﷺ فتوضأ واغتسل وصلى وقد احتلم في تلك الليلة الباردة اعتماداً على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢٩)

[النساء]، فلم ينكر عليه الرسول ﷺ اجتهداه، بل أقره على أمرين:

الأول: جواز الاجتهاد، الثاني: تصحيح اجتهداه.

(ج) من الأسباب المبيحة للتيمم تعذر استخدام الماء وإن وجد، كالبرد الشديد.

(د) تجوز إمامة المتيمم بالمتوضى: فقد صلى عمرو بن العاص   وهو متيمم إمامًا بخمسائة صحابي قد توضعوا، وأقره الرسول   على ذلك ولم ينكر عليه. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٠٩-٢١٠].

٣٣- وصية أبي بكر الصديق لرافع الطائي  :

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر وصية نافعة من أبي بكر الصديق لرافع بن أبي رافع الطائي  ، وقد ذكر في هذه الوصية أركان الإسلام مع وضوحها أمام السائل وذلك لبيان أهميتها في الإسلام، إذ أن البناء يقوم على الأركان فإذا وقع الخلل في الأركان سقط البناء، والوصية بإقامة هذه الأركان لا تعني مجرد أدائها وإنما تعني إقامتها كاملة مع النية الخاصة وحضور القلب مع الله تعالى، فإذا أقيمت كاملة كما شرعها الله جل وعلا، فإنها تقوي الإيمان وتبعث على التقوى ويترتب عليها السلوك الإسلامي في كل شؤون الحياة، فلا غرابة في اشتغال وصية أبي بكر   على العناية بهذه الأركان.

وإن أبرز ما لفت نظر الطائي   في هذه الوصية أن لا يتأمر على رجلين، وقد ناقش أبا بكر   في ذلك، فأفاده بأن المسلمين جيران الله تعالى العائذون به، وإن ارتكاب الوالي الظلم معهم والتقصير في حقوقهم يعتبر إخفارا لذمة الله تعالى في عبادته، وإن كان إذا عدل فيهم وأوصل إليهم حقوقهم وأخلص النية حصل له الثواب على هذا العمل الصالح، لكن أبا بكر   قدّم درء المفساد على جلب المصالح، وقد ائتمنه ذلك الرجل النصيحة فنصح به بما يراه الخير له في هذا الأمر». [التاريخ الإسلامي للحميدي ١٣٨/٧-١٣٩].

٣٤- أبو بكر ورافع   والتربية العملية:

يقول د/ الغضبان: «هذا رافع قبل الإسلام كما يحدثنا عن نفسه: «كُنْتُ امْرَأً نَصْرَانِيًّا، وَسُمِّيتُ سَرَجَسَ، فَكُنْتُ أَذَلَّ النَّاسِ وَأَهْدَاهُمْ هَذَا الرَّمْلَ، كُنْتُ أَذْفَنُ الْمَاءِ فِي بَيْضِ النَّعَامِ بَنَوَاجِي الرَّمْلِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ أُغِيرُ عَلَى إِبْلِ النَّاسِ، فَإِذَا أَذْخَلْتُهَا الرَّمْلَ غَلَبْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَطْلُبْنِي فِيهِ حَتَّى أَمُرَ بِذَلِكَ الْمَاءِ الَّذِي خَبَأْتُ فِي بَيْضِ النَّعَامِ، فَاسْتَخْرِجُهُ فَأَشْرَبُ مِنْهُ، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ خَرَجْتُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ الَّتِي بَعَثَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ   عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ   إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ».

هو رافع بن أبي رافع بن عميرة الطائي، وطبيء قد دخلتها النصرانية، وكان عدي بن حاتم سيد طيئ نصرانيًا، وهو الذي وفد على رسول الله   فيما بعد.

وأبو رافع مغامر بطل صلحوك من صعاليك العرب الذي كان يعيش على الإغارة على القبائل، واختارها طريقًا لشهرته في الحياة، وحَدَّثَنَا كيف كان يذفن الماء في بيض النعام بالرمل، ثم يسرق الإبل إلى هذا الرمل، فيأس الناس منه، وفي هذه الصحراء العريضة التي تصهر الإنسان وتصهر الأشياء يخرج مدفونه من الماء فيحیی.

و شاء الله تعالى أن يسلم في هذه السنة الثامنة وقبيل ذات السلاسل، وانضم جندياً مع المدد الذي بعثه أبو عبيدة لعمره، ويذكر ابن إسحاق في المغازي - فيما رواه عنه ابن حجر في الإصابة - أنه هو الذي كلمه الذئب فيما ترعم طيء وكان في ضأن يرهاها فقال في ذلك:

فَلَمَّا أَنْ سَمِعْتُ الذُّئْبَ نَادَى يُشِيرُنِي بِأَمْحَدَ مِنْ قَرِيبٍ
فَأَلْقَيْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ قَوْلًا صَدُوقًا لَيْسَ بِالْقَوْلِ الْكَذُوبِ

[الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ١/٢/١٨٨ ترجمة (٢٥٣٤)].

ولا يبعد أن تكون الرواية صحيحة، فما الذي يدفعه إلى الإسلام، ولم تسلم قبيلته بعد، وهو معلن في هذه الصحراء، ويعيش وراء فتكه ولصوصيته، والواقدي هو الذي حدثنا عن خروجه مع المدد «وَكَانَ رَافِعُ بْنُ أَبِي رَافِعٍ الطَّائِي ۞ يَقُولُ: كُنْتُ فِيمَنْ نَفَرَ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ۞، وَكُنْتُ رَجُلًا أُغِيرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ».

وكانت أول رحلاته مع هذا الجيش، وندع الحديث له بعد ذلك: «فَلَمَّا نَفَرْتُ فِي ذَلِكَ الْبَعْثِ قُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أُخْتَارَنَّ لِنَفْسِي صَاحِبًا يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ، فَأَخْتَرْتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ۞ فَصَحْبَتُهُ، وَكَانَتْ لَهُ عِبَاءَةٌ فَذَكِيَّةٌ فَإِذَا رَكِبَ خَلَّهَا عَلَيْهِ بِخِلَالٍ، وَإِذَا نَزَلْنَا بَسَطَهَا، فَلَمَّا قَفَلْنَا قُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ! رَحِمَكَ اللَّهُ! عَلَّمَنِي شَيْئًا يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ».

وإن كان الواقدي لا ينقل لنا عن صحبته شيئاً مع أبي بكر ۞ إلا قصة العباءة، فقد روى ابن خزيمة عن طريق ابنه طارق بن رافع، إضافات ممتعة وهي بلسان أبيه: «لَمَّا كَانَتْ غَزْوَةُ ذَاتِ السَّلَاسِلِ قُلْتُ: لَا أُخْتَارَنَّ لِنَفْسِي رَافِعًا صَالِحًا، فَوُفِّقَ لِي أَبُو بَكْرٍ ۞، فَكَانَ يُنِيمُنِي عَلَى فِرَاشِهِ، وَيُلْبِسُنِي كِسَاءً لَهُ مِنْ أَكْسِيَةِ فِدْلَكٍ». [الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ١/٢/١٨٨ ترجمة (٢٥٣٤)].

وبهذه الإضافة تتجلى عظمة الحديث عن العباءة الفدكية، فقد كان الصديق ۞ أمة وحده، فهي هو يؤثر صاحبه، فينيمه على فراشه، ويلبسه كساءه، فيبقى بلا كساء، لا يلبس على جسده إلا العباءة الفدكية التي يشلها بالأعواد حتى تستر صدره وظهره، فإذا نزل بسطها للجلوس عليها، وهو سيد المسلمين بلا منازع، وخير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ، وعاش إذن في رحلته هذه يشهد إثثار سيد المسلمين له في منامه وملبسه ومنزله، فملأت هذه المعاملة حياته، وكانت التربية التي تلقاها تربية عملية، ولم يكتف بذلك فقال: «فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّمَا صَحْبَتُكَ لِيَنْفَعُنِي اللَّهُ بِكَ، فَأَنْصَحُنِي وَعَلِّمْنِي، قَالَ: لَوْ لَمْ تَسْأَلْنِي ذَلِكَ لَفَعَلْتُ، قَالَ: أَمْرُكَ أَنْ تُوَحِّدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَأَنْ تُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتُحْجَّ هَذَا الْبَيْتَ، وَتُعْتَسِلَ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَلَا تَتَأَمَّرَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبَدًا».

قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ! أَمَا أَنَا وَاللَّهِ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ لَا أَشْرِكَ بِاللَّهِ أَحَدًا أَبَدًا، وَأَمَّا الصَّلَاةُ فَلَنْ أَتْرُكَهَا أَبَدًا إِن شَاءَ اللَّهُ، وَأَمَّا الزَّكَاةُ فَإِن يَكُ لِي مَالٌ أَوْدَهَا إِن شَاءَ اللَّهُ، وَأَمَّا رَمَضَانُ فَلَنْ أَتْرُكُهُ أَبَدًا إِن شَاءَ اللَّهُ، وَأَمَّا الْحَجُّ فَإِن أُسْتَطِيعَ أَحْجَّ إِن شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَمَّا الْجَنَابَةُ فَسَأَعْتَسِلُ مِنْهَا إِن شَاءَ اللَّهُ، وَأَمَّا الْإِمَارَةُ فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَشْرَفُونَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَ النَّاسِ إِلَّا بِهَا، فَلِمَ تَنْهَانِي عَنْهَا؟».

لقد ذكر الصَّدِّيقُ لِرَافِعٍ رضي الله عنه أركان الإسلام الخمسة التي لا يقوم الإسلام إلا بها: الشهادتين والصلاة والصيام والزكاة والحج، وهذه الأمور من الفروض التي يتزلزل إيمان المسلم ما لم يأت بها، وإنما يهدم ركنًا من أركان دينه لو تخلى عنها، والاعتسال من الجنابة مفتاح الصلاة التي لا تتم الصلاة إلا به، لكن ما بال إِمَارَةِ وما دورها في رفقة هذه الأركان حتى لينهاه عنها كما ينهاه عن الشرك بالله تعالى، وليست أية إِمَارَةٍ إنما لو كانت على اثنين فلا ينصح بها، فكيف إذا كانت على أكثر، والبون شاسع جدًا بين تصور رافع وتصور الصديق، فراجع يرى أن طريق الحياة والشهرة والمجد إنما يتم عن طريق الإِمرَةِ والسيادة، فلم يستوقفه من هذه الوصية شيء كما استوقفته منها هذه الفقرة.

وفي رواية ابن هشام في السيرة: «وَأَمَّا الْإِمَارَةُ فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَشْرَفُونَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَ النَّاسِ إِلَّا بِهَا، فَلِمَ تَنْهَانِي عَنْهَا؟ قَالَ: إِنَّكَ إِنَّمَا اسْتَجْهَدْتَنِي لِأَجْهَدَ لَكَ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ ذَلِكَ، إِنَّ اللَّهَ ﷻ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِهَذَا الدِّينِ، فَجَاهَدَ عَلَيْهِ حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِيهِ طَوْعًا وَكَرْهًا، فَلَمَّا دَخَلُوا فِيهِ كَانُوا عَوَادَ اللَّهِ وَجِرَانَهُ، وَفِي ذِمَّتِهِ، فَإِيَّاكَ لَا تُخْفِرُ اللَّهَ (لا تنقض عهده) فِي جِرَانِهِ، فَيَنْبِيعَكَ اللَّهُ خَفَرْتُهُ، فَإِن أَحَدَكُمْ يُخْفِرُ فِي جَارِهِ قَيْطُلُ نَاتِنًا عَضْلُهُ (الناثق: المرتفع المتنفخ. والعضل: جمع عضلة، وهي القطعة الشديدة من اللحم) غَضَبًا لِحَارِهِ أَنْ أُصِيبَتْ لَهُ شَاةٌ أَوْ بَعِيرٌ، فَاللَّهُ أَشَدُّ غَضَبًا لِحَارِهِ». وفي لفظ: «فَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ جَارِهِ».

ونخلص هنا ونحن نتلقى عن سيد المسلمين أبي بكر رضي الله عنه إلى أهمية العدل في الإسلام، وأنه ركن من أركان هذا الدين، وأول ثمرة من ثماره، فدخول الناس في دين الله، هو دخول في جوارحه، وأجارهم الله تعالى بهذا الدخول من الظلم، ومهمة الأمير والحاكم المسلم أن يحقق العدل الذي قامت به السموات والأرض في أي حكم يصدره، وليس الأمر من السهولة واليسر أن يتمكن أي إنسان. إن الحكم والإِمَارَةَ لهما طريقان وخطان متميزان:

الطريق الأول: وهو الذي كان يتوقعه رافع بن أبي رافع رضي الله عنه هو طريق الشهرة عند الناس وحب الذكر والصيت، والرغبة الجارفة في الزعامة، ليصبح الزعيم حديث الناس ومركز تفكيرهم، وصاحب السيطرة على قلوبهم وأجسادهم وأمواهم، وهو طريق الجاهلية، حتى ولو كان لشهرة عند رسول الله ﷺ.

الطريق الثاني: وهو الذي صحح فيه الصديق   هذا الفهم الخاطيء، وهو أن الحكم والإمارة هي طريق إقامة العدل بين الناس؛ لأن الحاكم مهمته أن ينفذ إرادة الله تعالى في إجارة عبيده من الظلم، فلو أخل بهذا التنفيذ فإن هذا يعني أنه صار مخاصماً لله، محارباً لله تعالى، محل غضب الله وسخطه، والله تعالى هو خصمه؛ لأنه أذى الله تعالى في جيرانه من خلقه الذين أجارهم من الظلم بدخولهم بهذا الدين.

إن مهمة الإسلام الأولى إذن في البشرية بعد توحيد الله تعالى والدينونة له بالعبودية والطاعة هي إقامة العدل في الأرض، والإجارة من الظلم، فإذا كان الأمير لا يعرف في نفسه القدرة على تحقيق هذا العدل، فليبتعد عن ذلك حتى لا يصبح خصم الله وعدو الله الذي يطلبه الله تعالى في خفرتة.

ولعل هذا المعني يدركه أول ما يطالب بإدراكه الدعاة والعاملون لهذا الدين في الأرض، والمجاهدون لإقامة شريعة الله فيها، وهم أمناء الله تعالى على دينه، فإذا ببعضهم وقبل أن يصلوا إلى الحكم يتصارعون على المناصب، وهذا البعض هو من القيادات التي كانت محل ثقة الناس، وولاء الناس لهم.

ولعل ما أصاب إخوتنا الأفغان يعطينا دليلاً صارخاً على ذلك، فقد قدّم الشعب الأفغاني المسلم ومن ورائه شباب العالم الإسلامي قرابة مليون ونصف شهيد ثمناً لإقامة شريعة الله في الأرض وللتمكنين لدين الله في أفغانستان، وكان أكبر أحلام المسلمين في نهاية هذا القرن (القرن العشرين) أن يسمعوها عن سقوط كابل بيد المجاهدين، وأذن الله تعالى بالنصر، ودخل قادة المسلمين كابل، وسقط الحكم الشيوعي، وانتظر المسلمون الفجر الذي يزين هذا القرن ويؤجّجه بإقامة شريعة الله في الأرض، في هذه الديار التي غدت مهوى أفئدة المسلمين في كل مكان، وإذا بنا نشهد حرباً بين الأخوة القادة، تدخل الآن عامها السادس، ودمرت كل ما تبقى من حياة وعمران في أفغانستان، وجعلت الناس ينسون مآسي الكفرة الملحدين بما يعانونه من مآسي صراع الأخوة المجاهدين.

ونعود معاً لرافع بن أبي رافع   الذي يسمع أخطر درس في حياته عن مفهوم الإمرة من أكبر وزراء رسول الله  ، لنشده يشد الرحال إلى الصديق   الذي أوصاه ألا يتأمر على اثنين، حيث صار خليفة للمسلمين في الأرض.

«قَالَ: فَلَمَّا تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ   وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ   جِئْتُهُ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ! أَلَمْ تَنْهِنِي أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى اثْنَيْنِ؟ قَالَ: بَلَى، وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: فَمَا لَكَ تَأَمَّرْتَ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: اخْتَلَفَ النَّاسُ وَخَشِيتُ عَلَيْهِمُ الْهَلَكَ، وَدَعَوَا إِلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ لِدَٰلِكَ بُدًّا».

وصدق صديق الأمة، كما قالها   ثلاثاً عندما سمع عمر   يصلي بالناس فقال: «يَأْبَىٰ اللَّهُ ذَٰلِكَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ، يَأْبَىٰ اللَّهُ ذَٰلِكَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ، يَأْبَىٰ اللَّهُ ذَٰلِكَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»، حتى ولو كان عمر   هو الإمام.

وحين يصلي اليوم أبو بكر   وراء عمرو بن العاص   إنها هي عملية تدريبية تربوية لهذا الناشئ في دين الله، والذي أراد المصطفى   أن يغسل له صفحة الجاهلية السابقة بهذه الصفحة الناصعة، ويأخذ مكانه وموقعه في الأمة، والذي حدا بالصديق   أن يقبل الخلافة هو الذي حدا بأبي عبيدة   أن يعطي الإمرة لعمرو   تجنباً للفرقة والخلاف، ولا شيء يذبح الأمة مثل الخلاف بين قادتها، والصراع على المناصب في صفوفها، فحين كان الصديق   هو العاصم من الخلاف، وهو الذي تجتمع عليه الأمة، كان لا بد له من قبول ذلك وهو يتمني ألا يتأمر على اثنين، وهو الذي روض نفسه ألا يرضى الإمرة على اثنين خوفاً من الله   أن يطلبه في خفرتة، ولم يجد أهم من هذه الوصية يوصي بها رافع   صاحبه في هذه الغزوة، لقد فطم قلبه عن الدنيا، وعندها حين يقبل الإمارة إنها يقبلها تكليفاً وكرهاً لا يشقوق إليها بل يفر منها فراره من غضب الله، ولمثل هؤلاء تدين الدنيا، وكما وصفه معاوية  : فأما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده.

وبقيت وصيته لصديقه رافع على ما هي عليها وهو يلي أمر الناس: بلى، وأنا الآن أنهارك عن ذلك.

ونبحث عن رافع   بعد هذه الوصية فلنلقاه وقد تلقى درس الزهد والإيثار عن الصديق   يصفه عمرو بن حيان الطائي بقوله: «كَانَ رَافِعُ بْنُ عُمَيْرَةَ يُغَدِّي أَهْلَ ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ يَسْقِيهِمُ الْحَيْسَ، وَمَا لَهُ إِلَّا قَمِيصٌ وَاحِدٌ لَلْبَيْتِ وَالْجُمُعَةِ»، وابتعد عن الأضواء، وترك طريق الشهرة عند الناس، واكتفى أن يضع خبرته وطاقاته تحت تصرف القادة والرؤساء، واشتهر في التاريخ كأعظم أدلائه، حين قاد جيش خالد بن الوليد   من العراق إلى الشام: «فَالْتَمَسَ - خَالِدٌ   - دَلِيلًا، فَذَلَّ عَلَى رَافِعِ بْنِ عُمَيْرَةَ الطَّائِيَّ، فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: انْطَلِقْ بِالنَّاسِ، فَقَالَ لَهُ رَافِعٌ: إِنَّكَ لَنْ تُطِيقَ ذَلِكَ بِالْحَيْلِ وَالْأَثْقَالِ، وَاللَّهِ إِنَّ الرَّكَّابَ الْمُفْرَدَ لَيَخَافُهَا عَلَى نَفْسِهِ وَمَا يَسْلُكُهَا إِلَّا مُعْزَرًا، إِنَّهَا لَحُمُسٌ لِيَالٍ حَيَادٍ لَا يُصَابُ فِيهَا مَاءٌ مَعَ مَضَلِّيْهَا، فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: وَيَحْكُ! إِنَّهُ وَاللَّهِ إِنَّ لِي بَدْ مِنْ ذَلِكَ (مالي بد من ذلك)، إِنَّهُ قَدْ أَتَنَيْ مِنَ الْأَمِيرِ عَزْمَةً (عزيمة) بِذَلِكَ، فَمُرْ بِأَمْرِكَ. قَالَ: اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْمَاءِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَصُرَّ أَذُنَ نَاقَتِهِ عَلَى مَاءٍ فَلْيَفْعَلْ، فَإِنَّهَا الْمَهَالِكُ إِلَّا مَا دَفَعَ اللَّهُ». [تاريخ الطبري ٣/ ٤١٥-٤١٦].

وهنا تطالعنا عبقرية ابن الصحراء المجرب، فتابع قوله لخالد: «ابْغِنِي عَشْرِينَ جَزُورًا (جمالاً) عِظَامًا، سِمَانًا مَسَانً (كبار)، فَأَتَاهُ بِهِنَّ خَالِدٌ، فَعَمَدَ إِلَيْهِنَّ رَافِعٌ فَظَمَّأَهُنَّ، حَتَّى إِذَا أَجْهَدَهُنَّ عَطَشًا أَوْرَدَهُنَّ فَشَرِبْنَ، حَتَّى إِذَا تَمَلَّأْنَ عَمَدَ إِلَيْهِنَّ، فَقَطَعَ مَسَافِرَهُنَّ (شفاهن)، ثُمَّ كَعَمَهُنَّ (شد أفواههن) لِسَلَا يَحْتَرِزْنَ، ثُمَّ أَخْلَى أَدْبَارَهُنَّ».

إنه يعيد علينا لوصيته يوم كان يضع الماء في بيض النعام في الصحراء، ويقتاد الإبل إليها ويفوز بالإبل التي يسرقها من العرب، هذه الطاقات الهائلة والخبرات العظيمة التي كانت تنصب في الفتك بالناس والإغارة عليهم، ها هي الآن تنصب لتصنع تاريخ هذه الأمة في أعظم مغامرة شهدتها التاريخ، وفي الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد   لينقذ إخوانه في الشام، ولتتابع هذه الرحلة العجيبة مع هذا الماهر الخبير.

«ثُمَّ قَالَ لِحَالِدٍ: سِرْ، فَسَارَ خَالِدٌ مَعَهُ مُغَدًّا بِالْخَيُْولِ وَالْأَنْثَقَالِ، فَكُلَّمَا نَزَلَ مِنْزِلًا افْتَظَّ (عصر ماء كروشها) أَرْبَعًا مِنْ تِلْكَ الشَّوَارِفِ، فَأَخَذَ مَا فِي أَكْرَاشِهَا، فَسَقَاهُ الْخَيْلَ، ثُمَّ شَرِبَ النَّاسُ بِمَا حَمَلُوا مَعَهُمْ مِنَ الْمَاءِ، فَلَمَّا خَشِيَ خَالِدٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الْمَفَازَةِ قَالَ لِرَافِعِ بْنِ عُمَيْرَةَ وَهُوَ أَرْمَدُ: وَيَحْكُ يَا رَافِعُ! مَا عِنْدَكَ؟ قَالَ: أَذْرَكْتُ الرَّيَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْعَلَمَيْنِ، قَالَ لِلنَّاسِ: انْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ شَجِيرَةً مِنْ عَوْسَجٍ كَقَعْدَةِ الرَّجُلِ؟ (مقدار ما يأخذ الرجل من الأرض إذا قعد) قَالُوا: مَا نَرَاهَا، قَالَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! هَلَكْتُمْ وَاللَّهِ إِذَا وَهَلَكْتُ، لَا أَبَالِكُمْ! انْظُرُوا، فَطَلَبُوا فَوَجَدُوهَا قَدْ قُطِعَتْ وَبَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ، فَلَمَّا رَأَاهَا الْمُسْلِمُونَ كَبَرُوا وَكَبَّرَ رَافِعُ بْنُ عُمَيْرَةَ، ثُمَّ قَالَ: اخْفَرُوا فِي أَصْلِهَا، فَحَفَرُوا فَاسْتَخَرُوا عَيْنًا، فَشَرِبُوا حَتَّى رَوِيَ النَّاسُ، فَاتَّصَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ لِحَالِدِ الْمَنَازِلِ، فَقَالَ رَافِعُ: وَاللَّهِ مَا وَرَدْتُ هَذَا الْمَاءَ قَطُّ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَرَدَّتْهُ مَعَ أَبِي وَأَنَا غُلَامٌ (وفي رواية: أيها الأمير! والله ما وردت هذا الماء منذ ثلاثين سنة، وما وردته إلا مرة واحدة وأنا غلام مع أبي)، فَقَالَ شَاعِرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ:

لِلَّهِ عَيْنًا رَافِعٌ أَنَّى اهْتَدَى فَوَزَّ^(١) مِنْ قُرَاقِرٍ إِلَى سُوَى^(٢)

خَمْسًا إِذَا مَا سَارَهَا الْجَيْشُ بَكَى مَا سَارَهَا قَبْلَكَ إِنْسِيٌّ يُرَى

فَلَمَّا انْتَهَى خَالِدٌ إِلَى سُوَى، أَغَارَ عَلَى أَهْلِهِ - وَهُمْ بَهْرَاءَ - قَبِيلَ الصُّبْحِ، وَنَاسٌ مِنْهُمْ يَشْرَبُونَ حَمْرًا لَهُمْ فِي جَفْنَةٍ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَيْهَا، وَمُغْنِيهِمْ يَقُولُ:

أَلَا عَلَّلَانِي قَبْلَ جَيْشِ أَبِي بَكْرٍ لَعَلَّ مَنَابِتَنَا قَرِيبٌ وَمَا نَذْرِي
أَلَا عَلَّلَانِي بِالزُّجَاجِ وَكَرَّرَا عَلَيَّ كُمَيْتَ اللَّوْنِ^(٣) صَافِيَةً تَجْرِي
أَلَا عَلَّلَانِي مِنْ سُلَاقَةِ قَهْوَةٍ نُسَلِّيْ هُمُومَ النَّفْسِ مِنْ جَيْدِ الْخَمْرِ^(٤)
أَظُنُّ خَيُْولَ الْمُسْلِمِينَ وَخَالِدًا سَتَطْرُقُكُمْ قَبْلَ الصَّبَاحِ مِنَ الْبُشْرِ
فَهَلْ لَكُمْ فِي السَّيْرِ قَبْلَ قِتَالِهِمْ وَقَبْلَ خُرُوجِ الْمُعْصِرَاتِ مِنَ الْخَدْرِ!

فَيزْعُمُونَ أَنَّ مُغْنِيَهُمْ ذَلِكَ قَتِلَ تَحْتَ الْغَارَةِ، فَسَالَ دَمُهُ فِي تِلْكَ الْجَفْنَةِ». [تاريخ الطبري ٣/ ٤١٥-٤١٧].

وهذا رافع كما نراه وقد تتلمذ على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في تلك الدورة القصيرة العملية التي حضرها معه في غزوة ذات السلاسل، فصار أزهذ الناس وأكرم الناس، يطعم أهل ثلاث مساجد، وليس

(١) فوز: قطع المفازة.

(٢) قراقر وسوى: أساء أماكن في البادية.

(٣) كميته اللون: خالط حمرة قنوء.

(٤) القهوة: من أساء الخمر.

عليه إلا ثوب واحد للبيت والجمعة، كما رأى معلمه وهو يلبس تلك العباءة، فيجلس عليها إذا جلس، ويضعها عليه إذا سافر ويشكها بالعود، بينما يقدم له كسائه وفراشه لينام عليها، ويتعد عن الأضواء بعد أن كان يبحث عنها من خلال الإمره؛ لبحث عنه خالد بن الوليد ليكون دليلاً للجيش».

[التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٩٠-١٩٦].

٣٥- عوف بن مالك الأشجعي   والتربية العملية:

يقول د/ الغضبان: «عوف بن مالك الأشجعي  ، الذي التقيناه في مؤتة وقد تشاجر مع خالد  ، وكان محققاً في شجاره، لكنه أخطأ الأسلوب، فراه  ، ونصر خالدًا   عليه، وها هو الآن يمضي كما مضى أخوه رافع يصحب أبا بكر وعمر  ، فهي فرصة العمر أن يرى المسلمون في غزاتهم هذين الوزيرين يتأدبان بأدبها وينهلان من معينها، وندع الحديث لعوف كما رواه البيهقي عن طريق ابن إسحاق: «كُنْتُ فِي الْغَزَاةِ الَّتِي بَعَثَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ   إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ، قَالَ: فَصَحَبْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ عَلَى جُزُورٍ هُمْ قَدْ نَحَرُوا، وَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُعْضَوْهَا (يقسموها)، قَالَ: وَكُنْتُ امْرَأًا لَبَقًا (اللبق: الحاذق الرفيق في العمل) جَارِزًا (الذي يذبح الجزور)، قَالَ: فَقُلْتُ: أَتَعْطُونِي مِنْهَا عَشِيرًا (العشير: النصيب؛ لأن الجزور كانت تقسم على عشرة أجزاء، فكل جزء منها عشير. عن أبي ذر) عَلَى أَنْ أَقْسِمَ بِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَأَخَذْتُ الشَّفَرَتَيْنِ فَجَزَّأْتُهَا مَكَانِي، وَأَخَذْتُ مِنْهَا جُزْءًا، فَحَمَلْتُهُ إِلَى أَصْحَابِي، فَاطْبَخْنَاهُ فَأَكَلْنَاهُ، فَقَالَ لِي أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ  : أَتَى لَكَ هَذَا اللَّحْمُ يَا عَوْفُ؟ قَالَ: فَأَخْبَرْتُهُمَا خَبْرَهُ، فَقَالَا: وَاللَّهِ مَا أَحْسَنْتَ حِينَ أَطْعَمْتَنَا هَذَا، ثُمَّ قَامَا يَتَقَيَّانِ مَا فِي بُطُونِهِمَا مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَلَمَّا قَتَلَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ السَّفَرِ كُنْتُ أَوَّلَ قَادِمٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَحِجَّتُهُ وَهُوَ يُصَلِّي فِي بَيْتِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، قَالَ: «أَعَوْفُ بْنُ مَالِكٍ؟»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: «أَصَاحِبُ الْجَزُورِ؟»، وَلَمْ يَزِدْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٢٥-٦٢٦].

وزاد محمد بن عمر: ثُمَّ قَالَ: «أَخْبَرَنِي»، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا كَانَ فِي مَسِيرِنَا، وَمَا كَانَ بَيْنَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَبَيْنَ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ   وَمُطَاوَعَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ  ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٧٧٣].

عوف بن مالك الأشجعي   كما ذكرناه من قبل أسلم بعد خيبر، وأشجع من غطفان، فقبيلته كما قال عنها أبو سفيان يوم رآها في جيش الفتح: (هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد)، قال العباس: (وأدخل الله تعالى الإسلام في قلوبهم) [سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٣٣]، واختير عوف ليكون بشير

المسلمين إلى رسول الله ﷺ بالفتح، فهو أول من لقيه من الجيش ﷺ، وقد سأله: «أصاحب الجزور؟»، قال: نعم، فلم يتحدث أحد إلى رسول الله ﷺ بهذه القصة، وهو أول قادم، وهي موضوع خاص لم يشتهر في الجيش كله، ولا شك أن الوحي قد نزل إلى رسول الله ﷺ بقصة الجزور، والظاهر والله أعلم أنها ليست من الأهمية لهذه الدرجة التي ينتزل الوحي من أجلها، لكن حب رسول الله ﷺ لوزيرييه أبي بكر وعمر، وشوقه لأخبارهما، وحرص الوزيرين العظيمين على طاعة الله تعالى فيتقيان ما أكلا لشبهة في جلّه، فينزل الوحي لرسول الله ﷺ من أجلهما، ويباهي الله تعالى بهما ملائكته، ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ راح يسأل عوف بن مالك عن أخبار السرية كلها، وأقر عينه أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح، فدعاه بالرحمة.

وباب الشبهة كما ذكر السهيلي في الروض: (أنهما كرها أجرة مجهولة؛ لأن العشير واحد الأعشار على غير قياس، يقال: برمة أعشار إذا انكسرت، ويجوز أن يكون العشير بمعنى العشر كالثمن بمعنى الثمن، ولكنه عاملهم عليه قبل إخراج الجزور من جلدها وقبل النظر إليها، أو يكونا كرها جزارة الجزار على كل حال والله أعلم). [الروض الأنف للسهيلي ٤/ ٢٤٠].

لكنه الدرس الثاني الذي يتلقاه عوف رضي الله عنه بعد درس خالد رضي الله عنه الذي تلقاه في مؤتة، وتعلم أن يرجع ليستفتي في دينه قبل أي عمل يقدم عليه، وشهدناه فيما بعد من أعلم الصحابة (حدث عنه أبو هريرة وأبو مسلم الخولاني، وجبير بن نفير، وراشد بن سعد، ويزيد بن الأصم، وشريح بن عبيد، والشعبي، وسالم بن النضر، وسليم بن عامر، وشداد أبو عمار) [سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/ ٤٨٨]، ونشهده سيد قومه يوم فتح، قال الواقدي: (كانت راية أشجع يوم الفتح مع عوف بن مالك) [المغازي للواقدي ٢/ ٨٠٢]، وهو ثاني أشجع إسلامًا بعد نعيم بن مسعود رضي الله عنه الذي فرّق كلمة المشركين في الخندق، ونجده ليس فقط من أعلم الصحابة، بل من مجاهدي الصحابة كما حدث ثابت بن الحجاج الكلابي، قال: (شتونا في حصن دون القسطنطينية، وعلينا عوف بن مالك، فأدر كنا رمضان...). [سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/ ٤٩٠].

ونجده أخيرًا قد بشره ﷺ بشفاعته من خلال قصة يسعدنا بروايتها، قال: (عرّس) (التعريس نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة) بنا رسول الله ﷺ، فتوسد كل إنسان منا ذراع راحلته! فانتبهت في بعض الليل، فإذا أنا لا أرى رسول الله ﷺ عند راحلته، فأفرعني ذلك، فانطلقت ألتسمه، فإذا معاذ وأبو موسى يلتمسانه، فبينما نحن على ذلك، إذ سمعنا هزيًا (صوتًا) بأعلى الوادي كهزيز الوحي! قال: فأخبرناه بما كان من أمرنا، فقال: «أتاني الليلة آت من ربي، فخيرني بين الشفاعة، وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة».

فقلت: أنشدك الله، والصحبة يا نبي الله، لما جعلتنا من أهل شفاعتك؟ قال: «فإنكم من أهل شفاعتي» [سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/ ٤٩٠، وقال فيه المحقق: إسناده صحيح، وأخرجه أحمد ٦/ ٢٨...].
[التربية الجماعية للغضبان ١/ ١٩٦-١٩٨].

٣٦- التحري الشديد عن خلو الطعام من أي شبهة:

يقول د/ الحميدي: «وفي هذا الخبر مواقف: منها ما كان من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من التحري الشديد عن خلو طعامهما من أي شبهة، وهذا يعتبر قمة في السلوك الإسلامي المبني على التقوى والورع، كما أنه يعتبر من المؤهلات التي جعلت من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما قمة عالية في تاريخ الإسلام، فإن السلوك اليومي للمسلم دليل على مقدار إيمانه بالله تعالى، فإذا حماه إيمانه من الوقوع في المحارم فهذا دليل على قوة إيمانه، وإذا تورع عن الشبهات فإن هذا دليل على رفعة درجته في الإيثار، والإيمان مستقر في القلوب لا يعلمه إلا الله تعالى، وإنما يتفاضل الناس في الحياة الدنيا بالعمل الصالح الذي يُقاس به الإيمان».
[التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٤٠-١٤١].

ويقول أ/ الصوياني: «لم يبرر الجوع لأبي بكر وعمر وأبي عبيدة وعوف رضي الله عنهم أن يتناولوا لقمة شكوا في إباحة مصدرها، وكأن الصديق رضي الله عنه يجعل من جهالة تحديد أجره الذبح مبرراً لتركها، وكأنه يقول لعوف: أنه لا بد من تحديد الأجرة قبل القيام بالعمل المتفق عليه، وحكمة الإسلام هي في إقصاء أسباب النزاع بين العامل وصاحب العمل لا سيما إذا كان الاثنان من المسلمين، فالاقتصاد الإسلامي اقتصاد أخلاقي قبل كل شيء، وليس كالاقتصاد اليهود والمشركين الذي يتسم بالمراباة والاستغلال واللاأخلاقية».
[السيرة النبوية للصوياني ٣/ ٣٤٦].

٣٧- نتائج هذه السرية:

يقول د/ أبو شهبة: «وقد نجح عمرو رضي الله عنه في إرجاع هبة الإسلام لأطراف الشام، وإرجاع أحلاف المسلمين لصدقاتهم الأولى، ودخول قبائل أخرى في حلف مع المسلمين، وإسلام الكثيرين من بني عبس، وبني مرة، وبني ذبيان، وكذلك دخلت فزارة وسيدها عيينة بن حصن في حلف مع المسلمين، وتبعها بنو سُلَيم، وعلى رأسهم العباس بن مرداس، وبنو أشجع، ومعظم من لم يكن قد حالف المسلمين من القبائل المجاورة للمدينة، وأصبح المسلمون أقوى عنصر سياسي في شمال بلاد العرب، وإن لم يكن في بلاد العرب جميعها [محاضرات في السيرة وتاريخ الخلفاء للدكتور محمد مصطفى زيادة]».

[السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٤٣٣].

ويقول د/ الحميدي: «لقد كان من نتائج هذه السرية أن المسلمين بثوا الرعب في قبائل شمال بلاد العرب وحالوا بينهم وبين التجمع لغزو المسلمين، كما أنهم سيحسبون حسابًا كبيرًا لغزو المسلمين بلادهم مرة أخرى فيما لو أظهروا شيئًا من العداء لدولة الإسلام».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٤٢-١٤٣].

الفصل الثاني

سريّة أبي قتادة بن ربعي^١ إلى خضرة^(١)

شعبان ٨ هـ / نوفمبر (تشرين ثان) ٦٢٩ م / كيهك ٣٤٦ قبطي

المبحث الأول

عرض سريّة أبي قتادة بن ربعي^١ إلى خضرة

الخلاف حول هذه السرية:

يقول د/ بريك: «وقع الخلاف بين أهل المغازي في هذه السرية، فذكر الواقدي أنها كانت سرية (تعرّضية) بقيادة أبي قتادة بن ربعي^١، وذكر فيها مشاركة عبد الله بن أبي حدرد^٢، الذي جاء يستعين رسول الله ﷺ على نكاحه، فأرسله مع هذه السرية إلى غطفان نحو نجد (عنون لها الواقدي بقوله: (سرية خضرة أميرها أبو قتادة ﷺ) لعله يصيب مهر زوجته، وفعلاً غنموا في تلك السرية نَعَمًا كثيرة وغنمًا بحيث كانت سَهْمَانُهُم اثني عشر بعيرًا [ينظر: الواقدي، مغازي (٢/ ٧٧٧-٧٨٠)]، وقد أخرج الهيثمي رواية عن الإمام أحمد مشابهة تمامًا لرواية الواقدي. [ينظر: الهيثمي، مجمع الزوائد ٦/ ٣٠٥-٣٠٦ كتاب المغازي باب في سرية إلى نجد رقم ١٠٣٥١].

وكذلك أخرج الإمام مسلم في صحيحه^(٢) رواية مشابهة غير أنه لم يذكر فيها اسم الصحابي المستعين برسول الله ﷺ^(٣)، ولكن هناك بعض القرائن الدالة على وحدة القصة مثل التاريخ الذي ذكره الواقدي للسرية لا يتعارض مع إمكانية رواية أبي هريرة^٤ للخبر في الصحيح. (لأن أبا هريرة^٤ لم يهاجر إلا بعد

(١) خضرة: بفتح الحاء وكسر الضاد المعجمتين: أرض لمحارب بنجد.

(٢) النووي على مسلم (٩/ ٢١٠-٢١١). قال الإمام مسلم: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْفَزَارِيُّ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ كَيْسَانَ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا، فَإِنَّ فِي عُيُونِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا»، قَالَ: قَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهَا. قَالَ: «عَلَى كَمْ تَزَوَّجْتَهَا؟»، قَالَ: عَلَى أَرْبَعِ أَوَاقٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى أَرْبَعِ أَوَاقٍ كَأَنَّهَا تَنْحِتُونَ الْفِضَّةَ مِنْ عُرْضِ هَذَا الْجَبَلِ، مَا عِنْدَنَا مَا نُعْطِيكَ، وَلَكِنْ عَسَى أَنْ تَبْعَثَكَ فِي بَعْثٍ تُصِيبُ مِنْهُ»، قَالَ: فَبَعَثَ بَعَثًا إِلَى بَنِي عَبْسٍ بَعَثَ ذَلِكَ الرَّجُلَ فِيهِمْ. مسلم كتاب النكاح باب نذب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها رقم ١٤٢٤.

(٣) اختلفت الروايات في تسمية الصحابي المستعين برسول الله ﷺ، فرواية ابن خياط والطبري عن ابن إسحاق، والواقدي، وابن حجر ورد اسمه عندهم (عبد الله بن أبي حدرد) ونسبته رواية ابن هشام إلى أبيه، بينما وقع اسمه في رواية أحمد، ورواية البيهقي عن ابن إسحاق (أبو حدرد الأسلمي) ولعل الخلاف وقع لكون كل منهما له صحبة، فلعله اشتبه على بعض الرواة فجعلها واحدًا، أو أن كلمة ابن سقط من بعض النسخ فتلقفها من بعده أبو حدرد، وباعتبار أن كليهما له صحبة لم يشك في الأمر وأمضاه. والله تعالى أعلم.

خير، والتاريخ الذي ذكره الواقدي للسرية هو شعبان سنة ثمان، كما أن ابن حجر قد ذكر أن أول مشاهد عبد الله الحديبية ثم خير).

كما أن منطقة عمليات السرية وهدفها الذي توجهت إليه يكاد يكون واحدًا في كلا الروايتين، ففي رواية الصحيح أنه رضي الله عنه بعثهم إلى بني عبس، وفي رواية الواقدي أنه بعثهم إلى غطفان نحو نجد، ومعلوم أن بني عبس من غطفان ومسكنهم في نجد [ينظر الكلبي، جمهرة النسب ٤١٤]، فرواية الصحيح أخص وأدق من رواية الواقدي.

وكذلك كون المرأة من الأنصار في الروايتين، وتقارب قيمة المهر المدفوع فيها هو مائتا درهم في رواية الواقدي، وأربع أواق في رواية الصحيح، وقد صرح ابن حجر في «الإصابة» في رواية مختصرة ولكنها مماثلة لرواية الصحيح - خاصة فيما يتعلق بقيمة المهر - أنه ابن أبي حدرد نفسه. [ابن حجر، إصابة ٢/ ٢٩٥].

فكل هذه القرائن^(١) تعطينا بعض الدلائل التي يمكن بواسطتها الحكم بوحدة القصة، وبالتالي ترجيح رواية الواقدي الموافقة للصحيح على رواية ابن إسحاق الضعيفة من الناحية الحديثية^(٢)، والتي يذكر فيها أن هذه السرية سرية استطلاعية بعثها رسول الله ﷺ إلى الغابة^(٣) بقيادة عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه نفسه، وذلك لاستطلاع خبر رجل من جيش بن معاوية يقال له رفاعه بن قيس - أو قيس بن رفاعه - كان قد أقبل «في بطن عظيم من جيش حتى نزل بقومه ومن معه بالغابة، يريد أن يجمع قيسًا على حرب رسول الله ﷺ، وكان عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه قد استعان برسول الله ﷺ في صداق امرأة تزوجها وأصدقها مائتي درهم، فلم يجد رسول الله ﷺ ما يعينه به، فلما أقبل هذا الرجل بقومه، استدعاه رسول

(١) استدل بعض أهل المغازي بقرينة واحدة هي عدد سهان الجيش على جعل هذه السرية هي السرية التي خرج فيها ابن عمر رضي الله عنه وجاء ذكرها في الصحيحين. انظر ابن سيد الناس، عيون (٢/ ٢٠٩)، والشامي، سبل (٦/ ٢٩٠)، وابن حجر، فتح (٨/ ٥٦)، والزرقاني، شرح (٢/ ٢٨٤).

(٢) وردت رواية ابن إسحاق بثلاث صيغ إحداها مبهمة أخرجه ابن هشام، والثانية منقطعة أخرجه البيهقي، والثالثة متصلة أخرجه عنه الطبري بسند ضعيف، فكل الروايات الثلاث لا تخلو من مقال. والله أعلم.

(٣) الغابة: هي أرض من مقصر جبل أحد إذا أكنع في قناة إلى الشمال، تشمل مدفع وادي النقي في الخليل، ويمكن اعتبار الخليل كله من الغابة. البلادي، معجم (٣٢٢).

وينقل عبد القدوس الأنصاري مشاهداته عن الغابة فيذكر: أنها أرض ذات شجر متكاثف وبها شقوق هائلة غائرة في بطن الأرض، وأنه لاحظ بأطراف هذه الشقوق تقوم شجيرات الأثل والطرفاء القصيرة. عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة (ص ١٢٦-١٢٧).

قلت: قد تغير حال الغابة الآن فلم تعد غابة كما كانت من قبل حيث دخل بعض أرضها في مزارع الخليل، والبعض الآخر أصبح أرضًا جرداء فيها بقايا من الشجر الأثل القصير يحكي قصة الغابة المندثرة.

الله ﷺ، وبعثه ورجلين معه في هذه السرية، وفي الغابة تطورت المهمة وباجتهاد من أصحاب السرية من الاستطلاع إلى هجوم ليلي مكثف على حاضِر القوم بعد قتل صاحبهم رفاعه بن قيس فنجحوا في ذلك، وفر الأعراب بنسائهم وأطفالهم وما خف من أموالهم تاركين نَعَمًا كثيرة خلفهم. [ابن هشام، سيرة ٤/٦٢٩]. وساق الطبري الروایتين تحت عنوان (سرية وجهها رسول الله ﷺ في شعبان أميرها أبو قتادة).

[الطبري، تاريخ ٣/٣٤-٣٥].

أما بقية أهل المغازي فمنهم من تابع ابن إسحاق [ينظر: خليفة بن خياط، تاريخ ١٨٥، والسهيلي، الروض ٧/٤٩١-٤٩٢، والبيهقي، دلائل ٤/٣٠٣، وابن القيم، زاد ٢/١٥٠، وابن كثير، بداية ٤/٢٢٣-٢٢٤]، ومنهم من تابع الواقدي. [ينظر: ابن سعد، طبقات (٢/١٣٢-١٣٣)، لكنه لم يشر إلى مشاركة ابن أبي حدرد ؓ في السرية].

وفرق بينهما ابن سيد الناس، فساق روايتي ابن إسحاق والواقدي في مكانين مختلفين من كتابه باعتبار أنها سريتان منفصلتان. [ينظر: ابن سيد الناس، عيون ٢/٢٠٩-٢١١].

بينما جمع الشامي كعاداته بين روايات أهل المغازي وأهل الحديث، واعتبرها حادثة واحدة.

[ينظر: الشامي، سبل ٦/٢٨٧].

أما الحلبي فبعد أن ساق الروایتين ذكر أن البعض اعتبرها قصة واحدة، ثم علق على ذلك بقوله: «ولا يخفى أن السياق في كل يبعد كونها واحدة» [ينظر: الحلبي، سيرة (٣/٢٠٦)].

[السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ١٨٨-١٩٠].

سبب السرية:

يقول أ/ باشميل: «كانت قبائل غطفان من القبائل المعادية للإسلام (كما تقدم) فبعث النبي ﷺ إلى منطقة خضرة من أراضيهم دورية قتال قوامها أربعة عشر رجلاً، وأمرهم أن يشنوا عليهم الغارة، وكان قائد هذه الدورية أبو قتادة الأنصاري ؓ». [غزوة مكة لباشميل ٤٧].

أحداث السرية:

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن أبي حدرد الأسلمي ؓ أنه ذكر أنه تزوّج امرأة، فأتى رسول الله ﷺ يستعينه في صداقها، فقال: «كم أضدقت؟»، قال: قلت: مائتي درهم، قال: «لو كنتم تعرفون الدراهم من واديكم هذا ما زدتم، ما عندي ما أعطيك»، قال: فمكثت ثم دعاني رسول الله ﷺ فبعثني في سريّة بعثها نحو نجد، فقال: «أخرج في هذه السريّة لعلك أن تُصيب شيئاً فأنتلكه».

قال: فخرجنا حتى جئنا الحاضر مُمسِينَ، قال: فلما ذهبَت فحمة العشاء، بعثنا أميرنا رجلين رجلين، قال: فأحطنا بالعسكر، وقال: إذا كبرت وحملت فكبروا وأجلوا، وقال حين بعثنا رجلين: لا تغترقا، ولأسألنَّ واحداً منكما عن خير صاحبه فلا أجده عنده، ولا تمعنوا في الطلب.

قَالَ: فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَحْمِلَ سَمِعْتُ رَجُلًا مِنَ الْحَاضِرِ صَرَخَ: يَا خَضِرَةُ! فَتَفَاءَلْتُ بِأَنَا سُنْصِيبٌ مِنْهُمْ خَضِرَةُ، قَالَ: فَلَمَّا أَعْتَمْنَا كَبَّرَ أَمِيرُنَا وَحَمَلَ وَكَبَّرْنَا وَحَمَلْنَا، قَالَ: فَمَرَّ بِي رَجُلٌ فِي يَدِهِ السَّيْفُ فَاتَّبَعْتُهُ، فَقَالَ لِي صَاحِبِي: إِنَّ أَمِيرَنَا قَدْ عَاهَدَ إِلَيْنَا أَنْ لَا نُمَعِنَ فِي الطَّلَبِ، فَارْجِعْ، فَلَمَّا رَأَيْتُ إِلَّا أَنْ أَتْبِعَهُ، قَالَ: وَاللَّهِ لَتَرْجِعَنَّ أَوْ لَأَرْجِعَنَّ إِلَيْهِ، وَلَا خَيْرَ لَهُ أَتْلِكَ أَبَيْتَ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَتْبِعُهُ، قَالَ: فَاتَّبَعْتُهُ حَتَّى إِذَا دَنَوْتُ مِنْهُ رَمَيْتُهُ بِسَهْمٍ عَلَى جُرَيْدَاءٍ مِنْهُ فَوَقَعَ، فَقَالَ: اأْذُنُ يَا مُسْلِمُ إِلَى الْجَنَّةِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ لَا أَذْنُو إِلَيْهِ وَرَمَيْتُهُ بِسَهْمٍ آخَرَ فَأَنْخَسْتُهُ رَمَانِي بِالسَّيْفِ فَأَخْطَأَنِي، وَأَخَذْتُ السَّيْفَ فَفَقَلْتُهُ بِهِ، وَاحْتَرَزْتُ بِهِ رَأْسَهُ، وَشَدَدْنَا نَعْمًا كَثِيرَةً وَغَنَمًا، قَالَ: ثُمَّ انْصَرَفْنَا، قَالَ: فَأَصْبَحْتُ فَإِذَا بَعِيرِي مَقْطُورٌ بِهِ بَعِيرٌ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ شَابَةٌ، قَالَ: فَجَعَلْتُ تَلْتَفْتُ خَلْفَهَا فَتَكْبِيرُ [فَتَكْبِيرُ]، فَقُلْتُ لَهَا: إِلَى أَيْنَ تَلْتَفْتِينَ؟ قَالَتْ: إِلَى رَجُلٍ وَاللَّهِ إِنْ كَانَ حَيًّا خَالَطَكُمُ، قَالَ: قُلْتُ - وَظَنَنْتُ أَنَّهُ صَاحِبِي الَّذِي قَتَلْتُ: قَدْ وَاللَّهِ قَتَلْتُهُ، وَهَذَا سَيْفُهُ، وَهُوَ مُعَلَّقٌ بِقَتَبِ الْبَعِيرِ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ، قَالَ: وَغِمْدُ السَّيْفِ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مُعَلَّقٌ بِقَتَبِ بَعِيرِهَا، فَلَمَّا قُلْتُ ذَلِكَ لَهَا قَالَتْ: فَذُونَا هَذَا الْغِمْدَ فَشِمُهُ فِيهِ إِنْ كُنْتُ صَادِقًا، قَالَ: فَأَخَذْتُهُ فَشِمْتُهُ فِيهِ فَطَبَقَهُ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ بَكَتْ.

قَالَ: فَقَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي مِنْ ذَلِكَ النَّعَمِ الَّذِي قَدِمْنَا بِهِ.

[مسند أحمد ٣٩/ ٣١١ - ٣١٣ رقم ٢٣٨٨٢، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف. مجمع الزوائد ٦/ ٣٠٥ - ٣٠٦ كتاب المغازي باب في سرية إلى نجد رقم ١٠٣٥١، وقال الهيثمي: رواه أحمد، وفيه راول لم يسم، وبقية رجاله ثقات. وقد روى الجزء الأول منه الإمام أحمد - أيضًا - بسنده عن ابن أبي حذَرٍ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَفْتِيهِ فِي مَهْرِ امْرَأَةٍ، فَقَالَ: «كَمْ أَمْهَرْتَهَا؟»، قَالَ مَاتَتِي دِرْهَمٌ، فَقَالَ: «لَوْ كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ مِنْ بَطْحَانَ مَا زِدْتُمْ». مسند أحمد ٢٤/ ٤٧٥ رقم ١٥٧٠٦، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف لانتقاعه.]

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَهْلٍ بْنُ أَبِي حَنْمَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي حَذَرٍ الْأَسْلَمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تَزَوَّجْتُ ابْنَةَ سُرَاقَةَ بِنِ حَارِثَةَ النَّجَارِيِّ، وَكَانَ قُتِلَ بِبَدْرٍ، فَلَمْ أُصِبْ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ مَكَانِهَا، فَأَصْدَقْتُهَا مَاتَتِي دِرْهَمٌ، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا أَسْوَقُهُ إِلَيْهَا (أَيَ امْهَرَهَا إِيَّاهُ)، فَقُلْتُ: عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ الْمُعُولُ، فَجِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «كَمْ سَفَتَ إِلَيْهَا؟»، قُلْتُ: مَاتَتِي دِرْهَمٌ، فَقَالَ: «لَوْ كُنْتُمْ تَعْرِفُونَهُ مِنْ نَاحِيَةِ بَطْحَانَ (اسم وادي المدينة. النهاية ٨٣/ ١) مَا زِدْتُمْ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْنِي فِي صَدَاقِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا وَافَقْتُ عِنْدَنَا شَيْئًا أُعِينُكَ بِهِ، وَلَكِنِّي قَدْ أَجْمَعْتُ (عزمت) أَنْ أَبْعَثَ أَبَا قَتَادَةَ فِي أَرْبَعَةِ عَشَرَ رَجُلًا فِي سَرِيَّةٍ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَخْرُجَ فِيهَا؟ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُغْنِمَكَ اللَّهُ مَهْرَ امْرَأَتِكَ»، فَقُلْتُ: نَعَمْ.

فَخَرَجْنَا، فَكُنَّا سِتَّةَ عَشَرَ رَجُلًا بِأَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ أَمِيرُنَا، وَبَعَثْنَا إِلَى غَطَفَانَ نَحْوَ نَجْدٍ، فَقَالَ: «سِيرُوا اللَّيْلَ وَاحْكُمُوا النَّهَارَ، وَشُنُوا الْغَارَةَ، وَلَا تَقْتُلُوا النِّسَاءَ وَالصَّبِيَّانَ».

فَخَرَجْنَا حَتَّى جِئْنَا نَاحِيَةَ عَطْفَانَ، فَهَجَمْنَا عَلَى حَاضِرٍ مِنْهُمْ عَظِيمٍ.

قَالَ: وَخَطَبَنَا أَبُو قَتَادَةَ وَأَوْصَانَا بِتَقْوَى اللَّهِ تعالى، وَأَلَفَ بَيْنَ كُلِّ رَجُلَيْنِ وَقَالَ: لَا يُفَارِقُ كُلُّ رَجُلٍ زَمِيلَهُ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يَرْجِعَ إِلَيَّ فَيُخْبِرَنِي خَبْرَهُ، وَلَا يَأْتِنِي رَجُلٌ فَاسْأَلْ عَنْ صَاحِبِهِ فَيَقُولَ لَا عِلْمَ لِي بِهِ! وَإِذَا كَبُرَتْ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا خَلَّتْ فَأَحْمِلُوا، وَلَا تَمْتَعُوا فِي الطَّلَبِ.

فَأَحْطَنَّا بِالْحَاضِرِ، فَسَمِعْتُ رَجُلًا يَصْرُخُ: يَا خَضْرَةَ! قَتَعَاءُ لْتُ، وَقُلْتُ: لَا صِيبَنَ خَيْرًا وَلَا جَمْعَنَ إِلَيَّ أَمْرًا، وَقَدْ أَتَيْنَاهُمْ لَيْلًا.

قَالَ: فَجَرَدَ أَبُو قَتَادَةَ سَيْفَهُ وَجَرَدْنَا سُيُوفَنَا، وَكَبَّرَ وَكَبَّرْنَا مَعَهُ، فَشَدَدْنَا عَلَى الْحَاضِرِ، فَقَاتَلَ رِجَالًا، وَإِذَا بِرَجُلٍ طَوِيلٍ قَدْ جَرَدَ سَيْفَهُ صَلَاتًا (أي جرده من غمده)، وَهُوَ يَمْشِي الْقَهْقَرِي (الرجوع إلى خلف. وفي النهاية: المشي إلى خلف من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه) وَيَقُولُ: يَا مُسْلِمُ، هَلُمَّ (تعال) إِلَى الْجَنَّةِ، فَاتَّبَعْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ لَدُو مَكِيدَةٍ، وَإِنَّ أَمْرَهُ هُوَ الْأَمْرُ، وَهُوَ يَقُولُ: الْجَنَّةُ الْجَنَّةُ! يَتَهَكَّمُ بِنَا (يستهزئ بنا ويستخف)، فَعَزَزْتُ أَنَّهُ مُسْتَقْبَلٌ فَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهِ، فَيُنَادِينِي صَاحِبِي: لَا تُبْعِدْ! فَقَدْ تَهَنَّا أَمِيرُنَا أَنْ نُمْعِنَ فِي الطَّلَبِ! فَأَذْرَكْتُهُ قَرْمِيئَهُ عَلَى جُرَيْدَاءٍ مَنِيهِ (أي وسطه، وهو موضع القفا المتجرد عن اللحم؛ تصغير الجرداء. النهاية ١/ ١٥٤)، ثُمَّ قَالَ: أُوذُنُ يَا مُسْلِمُ إِلَى الْجَنَّةِ! قَرْمِيئَهُ حَتَّى قَتَلْتُهُ بِنَبْلٍ، ثُمَّ وَقَعَ مَيِّتًا، فَأَخَذْتُ سَيْفَهُ، وَجَعَلْتُ زِمِيلِي يُنَادِي: أَيْنَ تَذْهَبُ؟ إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ ذَهَبْتُ إِلَى أَبِي قَتَادَةَ فَسَأَلَنِي عَنْكَ أَخْبَرْتُهُ.

قَالَ: فَلَقِيئَهُ قَبْلَ أَبِي قَتَادَةَ، فَقُلْتُ: أَسْأَلُ أَمِيرِي عَنِّي؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَقَدْ تَعَيَّظَ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْعُنَائِمَ - وَقَتَلُوا مَنْ أَشْرَفَ لَهُمْ - فَجِئْتُ أَبَا قَتَادَةَ فَلَا مَيَّ، فَقُلْتُ: قَتَلْتُ رَجُلًا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ كَذَا وَكَذَا، فَأَخْبَرْتُهُ بِقَوْلِهِ كُلَّهُ.

ثُمَّ اسْتَقْنَا النَّعَمَ وَحَمَلْنَا النِّسَاءَ وَجُفُونَ السُّيُوفِ (بضم الجيم والفاء وأغمادها، واحدها جفن بفتح الجيم وسكون الفاء) مُعَلَّقَةً بِالْأَقْتَابِ (جمع قتب، وهو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير. القاموس المحيط ١/ ١١٤)، فَأَصْبَحْتُ - وَبَعِيرِي مَقْطُورٌ (القطارة والقطار: أن تُشَدَّ الإِبِلُ على نَسَقٍ واحدًا خَلْفَ واحد. النهاية ٨٠/ ٤) - بِأَمْرَأَةٍ كَانَتْهَا ظَنِّي، فَجَعَلْتُ تُكْثِرُ الْإِلْتِفَاتِ خَلْفَهَا وَتَبْكِي، قُلْتُ: إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَنْظُرِينَ؟ قَالَتْ: أَنْظُرُ وَاللَّهِ إِلَى رَجُلٍ لَيْسَ لِي عَنْكَ حَيًّا لَيْسَتْ تَقْدَرُ أَنْ تَكُونِي فِي نَفْسِي أَنَّهُ الَّذِي قَتَلْتُهُ، فَقُلْتُ: قَدْ وَاللَّهِ قَتَلْتُهُ، وَهَذَا سَيْفُهُ مُعَلَّقٌ بِالْقَتَبِ إِلَى غَمْدِهِ، فَقَالَتْ: هَذَا وَاللَّهِ غَمْدُ سَيْفِهِ، فَشِمُّهُ (شمت السيف: أغمدته. وشمته: سللته، وهو من الأضداد. الصحاح ص ١٩٦٣) إِنْ كُنْتُ صَادِقًا، قَالَ: فَشِمُّهُ فَطَبَّقَ (الطبق: يدل على وضع الشيء مبسوط على مثله حتى يغطيه. مقاييس اللغة ٣/ ٤٣٩. أي: ساوى)، قَالَ: فَبَكَتْ وَبَكَسَتْ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَدَرٍ رضي الله عنه: فَقَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالنَّعَمِ وَالشَّاءِ.

فَحَدَّثَنِي أَبُو مُدُودٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حَذَرْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا رَجَعْتُ مِنْ غَزْوَةِ خَضِرَةَ وَقَدْ أَصَبْنَا فَيْثًا، سَهْمُ كُلِّ رَجُلٍ اثْنَا عَشَرَ بَعِيرًا، دَخَلْتُ بِزَوْجَتِي، فَرَزَقَنِي اللَّهُ خَيْرًا. وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: غَابُوا حَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَجَاؤُوا بِبَائِتِي بَعِيرٍ وَأَلْفِ شَاةٍ، وَسَبَا سَبِيًّا كَثِيرًا، وَكَانَ الْخُمُسُ مَغْرُولًا، وَكَانَ سَهْمُهُمْ اثْنِي عَشَرَ بَعِيرًا، يَعْدُلُ الْبَعِيرُ بَعْشِرٍ مِنَ الْغَنَمِ.

حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حَذَرْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَصَبْنَا فِي وَجْهِنَا أَرْبَعَ نِسْوَةٍ، فِيهِنَّ فِتَاءٌ كَأَمْتَاهَا ظَبْيٌ، مِنَ الْخَدَائَةِ وَالْحَلَاوَةِ شَيْءٌ عَجَبٌ، وَأَطْفَالٌ مِنْ غِلْمَانٍ وَجَوَارٍ، فَافْتَسَمُوا السَّبْيَ، وَصَارَتْ تِلْكَ الْجَارِيَةُ الْوَضِيئَةُ (وضيئة بمد الهمة المفتوحة: حسنة جميلة) لِأَبِي قَتَادَةَ، فَجَاءَ حُجَيْبُ بْنُ جَزْءِ الزُّبَيْدِيِّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا قَتَادَةَ قَدْ أَصَابَ فِي وَجْهِهِ هَذَا جَارِيَةً وَضِيئَةً، وَقَدْ كُنْتُ وَعَدْتَنِي جَارِيَةً مِنْ أَوَّلِ فِيءٍ بَقِيََ اللَّهُ عَلَيْكَ، قَالَ: فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي قَتَادَةَ فَقَالَ: «مَا جَارِيَةُ صَارَتْ فِي سَهْمِكَ؟» قَالَ: جَارِيَةٌ مِنَ السَّبْيِ هِيَ أَوْضَا ذَلِكَ السَّبْيِ أَخَذْتُهَا لِنَفْسِي بَعْدَ أَنْ أَخْرَجْنَا الْخُمُسَ مِنَ الْمَغْنَمِ، قَالَ: «هَبْهَا لِي»، فَقَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَفَعَهَا إِلَى حُجَيْبِ بْنِ جَزْءِ الزُّبَيْدِيِّ». [الغازي للواقدي ٢/ ٧٧٧-٧٨٠].

وَعَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ هُنَاقَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً فِيهَا عَبْدُ اللَّهِ قَبْلَ نَجْدٍ، فَغَنِمُوا إِبِلًا كَثِيرًا، فَكَانَتْ سِهَامُهُمْ اثْنِي عَشَرَ بَعِيرًا أَوْ أَحَدَ عَشَرَ بَعِيرًا، وَنَقَلُوا بَعِيرًا بَعِيرًا [فَرَجَعْنَا بِثَلَاثَةِ عَشَرَ بَعِيرًا] [وَنَقَلَ أَهْلُ السَّرِيَّةِ بَعِيرًا بَعِيرًا فَكَانَتْ سِهَامُهُمْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ]. [البخاري في فرض الخمس (٣١٣٤)، وفي الغازي (٤٣٣٨)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٧٤١، ٢٧٤٤، ٢٧٤٥)، ومسنَدُ أحمد ٨/ ١٨٥ رقم ٤٥٧٩، ١٦٢/٩، ٢١٥، ٥٢٨٨، ١٠/١٠، ٤٤٧، ٤٨٣، رقم ٥٩١٩، ٦٣٨٦، ٦٤٥٤].

وفي رواية أخرى لأبي داود بسنده عن ابنِ عُمَرَ هُنَاقَ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى نَجْدٍ، فَخَرَجْتُ مَعَهَا، فَأَصَبْنَا نَعَمًا كَثِيرًا، فَفَقَلْنَا أَمِيرَنَا بَعِيرًا بَعِيرًا لِكُلِّ إِنْسَانٍ، ثُمَّ قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَسَمَ بَيْنَنَا غَنِيمَتَنَا، فَأَصَابَ كُلَّ رَجُلٍ مِثْلَ اثْنِي عَشَرَ بَعِيرًا بَعْدَ الْخُمُسِ، وَمَا حَاسِبْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي أَعْطَانَا صَاحِبِنَا وَلَا عَابَ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا صَنَعَ، فَكَانَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِثْلُ ثَلَاثَةِ عَشَرَ بَعِيرًا بِنَفْلِهِ.

[أبو داود في الجهاد (٢٧٤٣)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

رواية ابن إسحاق للسرية:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَعَزَّوَهُ ابْنُ أَبِي حَذَرْدٍ الْأَسْلَمِيُّ ﷺ الْغَابَةَ. وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهَا فِيمَا بَلَغَنِي، عَمَّنْ لَا أَتَمُّ عَنْ ابْنِ أَبِي حَذَرْدٍ ﷺ قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنْ قَوْمِي، وَأَصَدَقْتُهَا مِثِّي ذَرْهَمًا، قَالَ: فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْتَعِينُهُ عَلَى نِكَاحِي، فَقَالَ: «وَكَمْ أَصَدَقْتُ؟» فَقُلْتُ:

مَتَّى دَرَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! لَوْ كُنْتُمْ تَأْخُذُونَ الدَّرَاهِمَ مِنْ بَطْنٍ وَادٍ مَا زِدْتُمْ، وَاللَّهِ مَا عِنْدِي مَا أَعِينُكَ بِهِ»، قَالَ: فَلَبِثْتُ (مكثت) أَيَّامًا، وَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي جُشَمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ، يُقَالُ لَهُ رِفَاعَةُ بْنُ قَيْسٍ، أَوْ قَيْسُ بْنُ رِفَاعَةَ، فِي بَطْنِ (البطن: أصغر من القبيلة) عَظِيمٍ مِنْ بَنِي جُشَمِ، حَتَّى نَزَلَ بِقَوْمِهِ وَمَنْ مَعَهُ بِالْغَايَةِ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ قَيْسًا عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ ذَا اسْمٍ فِي جُشَمِ وَشَرَفٍ.

قَالَ: فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجُلَيْنِ مَعِيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «أَخْرُجُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ حَتَّى تَأْتُوا مِنْهُ بِخَيْرٍ وَعِلْمٍ»، قَالَ: وَقَدَّمْ لَنَا شَارِفًا عَجَفَاءَ (الشارف: الناقة المسنة، والعجفاء: المهزولة)، فَحُمِلَ عَلَيْهَا أَحَدُنَا، فَوَاللَّهِ مَا قَامَتْ بِهِ حَتَّى دَعَاهَا الرَّجَالُ (قوموها بأيديهم) مِنْ خَلْفِهَا بِأَيْدِيهِمْ، حَتَّى اسْتَقَلَّتْ (نهضت) وَمَا كَادَتْ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «تَلَبُّغُوا عَلَيْهَا وَاعْتَقِبُوهَا (اركبوها معاقبة، أي واحدًا بعد الآخر)».

قَالَ: فَخَرَجْنَا وَمَعَنَا سِلَاحُنَا مِنَ النَّبْلِ وَالسُّيُوفِ، حَتَّى إِذَا جِئْنَا قَرِيبًا مِنَ الْحَاضِرِ (الحاضر: القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه) عَشِيَشِيَّةً (تصغير عشية على غير قياس) مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ.

قَالَ: كَمُنْتُ فِي نَاحِيَةٍ، وَأَمَرْتُ صَاحِبِي فَكَمَنَّا فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى مِنْ حَاضِرِ الْقَوْمِ، وَقُلْتُ لَهُمَا: إِذَا سَمِعْتُمَايَ قَدْ كَبُرْتُ وَشَدَدْتُ فِي نَاحِيَةِ الْعُسْكَرِ فَكَبِّرَا وَشُدَّا مَعِيَ، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لِكَذَلِكَ نَسْطُرُ غَرَّةَ (غفلة) الْقَوْمِ أَوْ أَنْ نُصِيبَ مِنْهُمْ شَيْئًا، قَالَ: وَقَدْ غَشِيَنَا اللَّيْلُ حَتَّى ذَهَبَتْ فَحَمَةُ الْعِشَاءِ (أول ظلام الليل، ويقال للظلمة التي بين صلاتي العشاء)، وَقَدْ كَانَ هُمْ رَاعٍ قَدْ سَرَحَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ حَتَّى تَحُوفُوا عَلَيْهِ، قَالَ: فَقَامَ صَاحِبُهُمْ ذَلِكَ رِفَاعَةُ بْنُ قَيْسٍ، فَأَخَذَ سَيْفَهُ فَجَعَلَهُ فِي عُنُقِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَا تَبْعَنَ أَثَرُ رَاعِيْنَا هَذَا، وَلَقَدْ أَصَابَهُ شَرٌّ، فَقَالَ لَهُ نَعْرَمٌ مَعَهُ: وَاللَّهِ لَا تَذْهَبْ نَحْنُ نَكْفِيكَ، قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَذْهَبُ إِلَّا أَنَا، قَالُوا: فَخُنْ مَعَكَ، قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَتَّبِعُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ، قَالَ: وَخَرَجَ حَتَّى يَمُرَّ بِي، قَالَ: فَلَمَّا أَمَكَّنَنِي نَفْحَتُهُ بِسَهْمِي (رميته به)، فَوَضَعْتُهُ فِي فُؤَادِهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْتُ، وَوَبَّئْتُ إِلَيْهِ، فَاحْتَرَزْتُ رَأْسَهُ، قَالَ: وَشَدَدْتُ فِي نَاحِيَةِ الْعُسْكَرِ وَكَبُرْتُ، وَشَدَّ صَاحِبَايَ وَكَبَّرَا، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا كَانَ إِلَّا النَّجَاءُ يَمُنُّ فِيهِ عِنْدَكَ، عِنْدَكَ (كلمتان بمعنى الإغراء)، بِكُلِّ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ نِسَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ، وَمَا خَفَ مَعَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: وَاسْتَقْنَا إِبِلًا عَظِيمَةً، وَغَنَمًا كَثِيرَةً، فَجِئْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَجِئْتَ بِرَأْسِهِ أَحْمَلُهُ مَعِيَ، قَالَ: فَأَعَانَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تِلْكَ الْإِبِلِ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ بَعِيرًا فِي صَدَاقِي، فَجَمَعْتُ إِلَيَّ أَهْلِي.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٢٩-٦٣١].

مصادر ومراجع الدراسة:

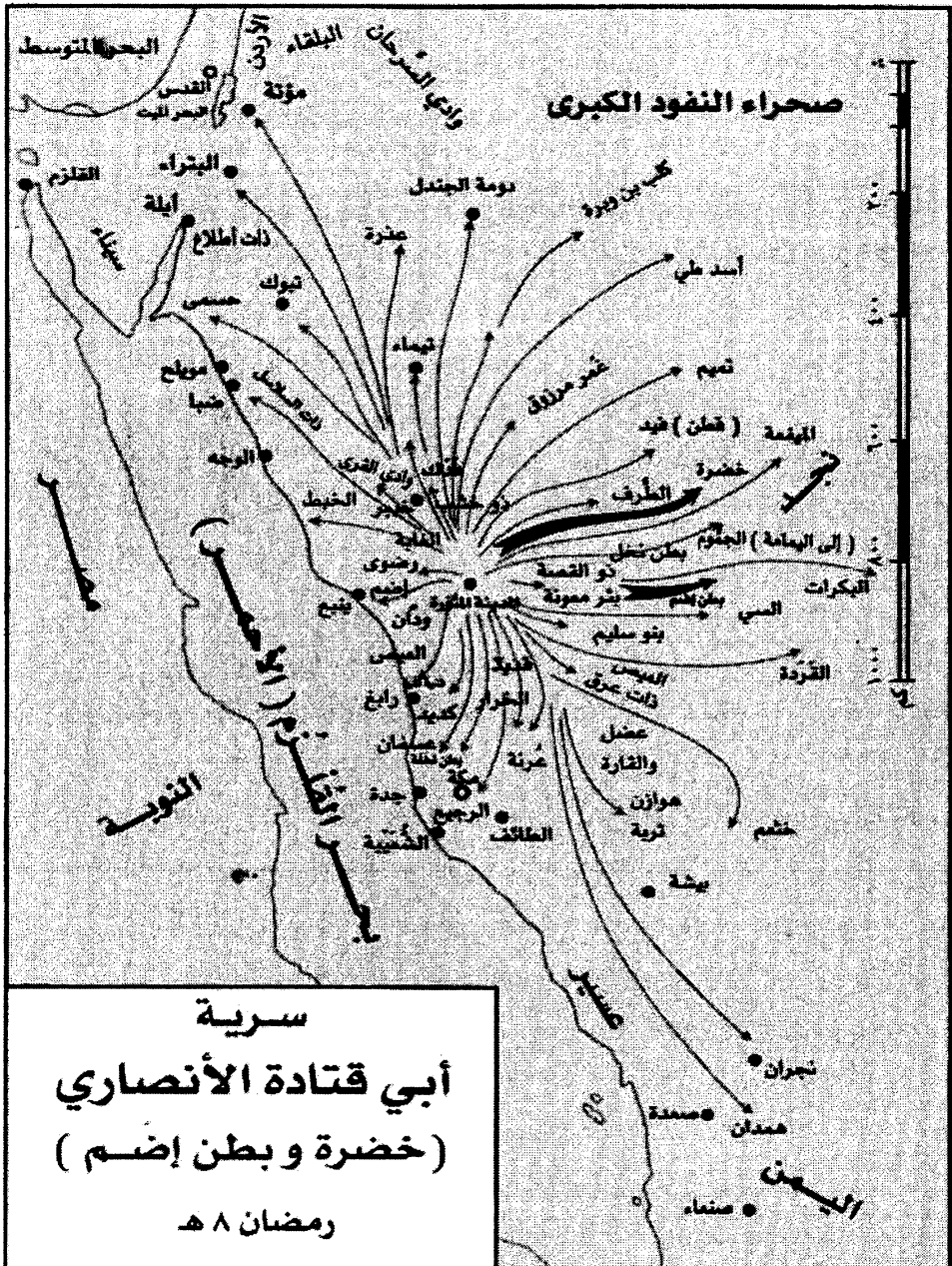
- أ - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهديب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/٦٢٩-٦٣١، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/٧٧٧-٧٨٠، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/١٢٣، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/٣٤-٣٥، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/٣٠٣-٣٠٤، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/٤٢٦-٤٢٧.

٤٢٧، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/٤٥٢-٤٥٣، ٥١٩-٥٢٠، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/٣٦٤-٣٦٦، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/٣٦٤-٣٦٦، إمتاع الأسع للمقرئزي (٨٤٥هـ) ١/٣٤٦-٣٤٧، سبل الهدى والرشاد للصالحى (٩٤٢هـ) ٦/٢٨٧-٢٩٣، السيرة الحلبية للحلبى (١٠٤٤هـ) ٣/٢٠٤-٢٠٦.

ب - كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٥٥٣.

ج - كتب الغزوات والسرايا: غزوة فتح مكة لباشمىل ٤٧-٤٩، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ١٨٦-١٩٠، مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشى ٢٧٢-٢٨١.

خُرَاطُ سَرِيَّةِ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِيعٍ رضي الله عنه إِلَى خَضِرَةَ



المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من

سَرِيَّةُ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ ﷺ إِلَى خَضِرَةَ

١ - الإنكار على من تجاوز حد الاعتدال في المهر:

يقول د/ الحميدي: «موقف الرسول ﷺ من المغالاة في المهور، حيث أنكر على من تجاوز حد القصد والاعتدال في المهر، وهذا دليل على أن المشروع في المهر هو التيسير والاقتصار على حد الكفاية، مع أن هذا الصحابي الجليل لم يزد على مائتي درهم، لكنها في ذلك العهد تعتبر مقدارًا كبيرًا بالنسبة لأوساط الناس، فليت المسلمين اليوم يتعلمون من هذا الدرس النبوي الكريم ما يدفعهم إلى الاعتدال واجتناب المغالاة والتفاخر». [التاريخ الإسلامي للحميدي ١٤٨/٧-١٤٩].

٢ - المباغته للعدو:

يقول ل/ خطاب: «لقد أحرز أبو قتادة ﷺ في هذه الغزوة انتصارًا رائعًا، وكان من أهم عوامل انتصاره، مباغته المشركين كاملة بالزَّمان، إذ لم يكونوا يتوقعون هجوم المسلمين عليه في ذلك الوقت، فلاذوا بالفرار». [قادة النبي ﷺ لخطاب ٤٦٣].

٣ - عناية الله تعالى بهذه الأمة الإسلامية:

يقول د/ الحميدي: «في هذه القصة العجيبة عبرة، حيث تغلب ثلاثة نفر (على رواية ابن إسحاق) على جيش كبير قد تجمع حول قائده، وقرب من المدينة يريد أن يلتمس من المسلمين غرة فيغير عليهم فقضى الله أمره ورد كيده بهؤلاء الثلاثة.

إن هذه النتيجة الكبيرة تمت بتكاليف قليلة بالنسبة للمسلمين، وهذا يدلنا أولاً على عناية الله تعالى بهذه الأمة الإسلامية، فلقد هيا سبحانه أسباب النصر لهؤلاء النفر.. من غياب راعي الكفار وتأخره حتى أظلم الليل، وإصرار أمير القوم على أن يخرج هو لطلبه، ثم إصراره على أن يخرج وحده ليموت بسهم مسدّد من يد مسلم غامر بنفسه وبصاحبيه في ظلام ليل حالك وفي مواجهة عدو كبير متربص.

فلما تم تكبير المسلمين وهجومهم بعد غياب قائد الكفار أيقنوا بهلاكه، ولم يكونوا يتوقعون أن المكبرين ثلاثة فقط ليس معهم جيش، فأصيبوا بالرعب وكان همُّ كل واحد منهم أن ينجو بنفسه وأهله وماله، ولم يفكروا بالمقاومة فذهبوا في الأرض فرارًا، وخلت دارهم لهؤلاء الثلاثة الذين ساقوا الغنائم إلى المدينة.

وإن من أهم عوامل نصر المسلمين إصابة الأعداء بالرعب القاتل، الذي هو سلاح من الله به على هذه الأمة، فلقد كان بإمكان هذا الجيش أن يصبر قليلًا وأن يرد بالرمية على اتجاه عدوه، ولكنهم لم يفكروا بالمقاومة، وإنما كان همهم مقصورًا على النجاة بأنفسهم وما خف من أموالمهم لهيمنة الرعب على قلوبهم».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ١٤٩/٧-١٥٠].

٤ - براعة ابن أبي حدرد ؓ:

يقول د/ الحميدي: «ما ينبغي الإشارة إليه ما كان يتمتع به قائد المسلمين الثلاثة (على رواية ابن إسحاق) من براعة فائقة في الرمي حيث استطاع في ظلام دامس أن يصيب قلب ذلك الرجل الذي مات في الحال، وهكذا يجب على أفراد الأمة الإسلامية أن يتمتعوا بمثل هذه المقدرة ليصونوا دينهم وأمتهم. كما يُلاحظ أن هذا القائد كان ماهراً في التخطيط لتلك المعركة التي لم تكن متكافئة بأي ميزان، وكان لمهارته وحسن تدبيره واغتنامه الفرص الأثر الواضح في نجاح تلك السرية».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ١٥٠/٧].

٥ - تزايد قوة الإسلام وانحسار قوة أعدائه:

يقول أ/ باشميل: «لقد دل قيام أربعة عشر رجلاً من المسلمين بالإغارة على قلب بلاد غطفان التي يعد محاربوها المعادون للإسلام بعشرات الألوف، فزارة وحدها يقود منها الأحق المطاع عيينة ابن حصن عشرة آلاف مقاتل، دل ذلك على أن هيبة الإسلام قد فرضت نفسها وأن الرعب من قوة المسلمين الحربية قد ملأ نفوس المشركين هناك، فلم يعودوا قادرين حتى على التصدي لدورية صغيرة من المسلمين مثل دورية أبي قتادة ؓ هذه التي وطئت ديار غطفان في قلب بلادهم دون أن تجد من يقف في وجهها مع أن رجالها لا يزيدون على أربعة عشر رجلاً».

لقد كان قيام أبي قتادة ؓ بدورته المسلحة الصغيرة وجوسه بها خلال ديار غطفان التي كانت في الجاهلية بمثابة «عرين الأسد» لقوتها وشدة مراس رجالها في الحرب.. كان قيام أبي قتادة ؓ بهذا العمل بمثابة جس نبض واختبار لدى قوة غطفان الحربية، أظهر ما عليه هذه القبائل من وهن وضعف وانهار، بعد أن كانت أقوى قوة حربية يخشى المسلمون جانبها من الناحية الشرقية.

فلم تعد هذه القبائل التي كادت قواتها تحتاح المدينة في عام الأحزاب (عام ٥ هـ) قادرة على الدفاع عن مضاربها في صحارى نجد، فضلاً عن أن تفكر في القيام بغزو المدينة كما كانت في السابق».

[غزوة فتح مكة لباشميل ٤٨-٤٩].

٦ - دروس في التربية الجماعية:

يقول د/ الغضبان: «تطالعنا هذه الرواية (رواية ابن إسحاق) وفيها اختلاف عن الروايات الأخرى الأكثر صحة منها، ونكاد نجزم أنها حادثان منفصلتان لولا تشابه المقدمة والعمل على كسب المهر من ابن أبي حدرد ؓ ومع ذلك فما يعنيننا منها وهو خاص بها نذكره فيما يلي:

(١) بنو جشم وهم فرع ضخمة من هوازن، لا بدع أن يهتموا بالخطر الزاحف عليهم من الإسلام ورسول الإسلام، وقد وقعت كثير من المصادمات بينهم وبين المؤمنين في أكثر من موقع، وهم المرشحون

بعد غطفان للمواجهة، وشيخ بني جشم هو دريد بن الصمة فارس العرب المشهور، لكنه أصبح هرمًا عاجزًا عن أي قيادة فجاء هذا الشاب من قبيلته يبيح الجيوش لغزو المدينة ليس من جشم فقط، ولا من هوازن فقط ولكن من قيس كلها، إنه يريد أن يفتح جبهة عريضة تجر أكبر أحياء العرب لغزو المدينة، ولذلك فالفضاء عليه قضاء على هذا الاتجاه كله.

(٢) ويمضي ابن أبي حدرد ۞ أميرًا على سرية، قوامها ثلاثة أشخاص ليخوض في جيش عدو لجب، ويحاول اغتيال قائده، ومضى مع رفاقه الثلاثة على بعير أعجف شارف هزيل لا يكاد يقوى على الحركة، وهذا هو السلاح والعتاد والآليات والتموين الذي أخذوه ليمضوا به إلى الغابة حيث تجمع العدو وكتائبه، ولكن الهدف الواضح في ذهنه حذا به إلى الاختباء في موقع يرى فيه العدو ولا يراه وكمين في ناحية تطل على تحركات هذا العدو موضحًا خطته، لصاحبيه أن يكبرا حيث يكبر ويشدان حيث يشد وجلس ينتظر المفاجآت والفرص السانحة التي تمكنه من هدفه.

(٣) وساق الله الهدف إليه كأنها يسعى إليه سعيًا، فقد خرج قائد العدو متحديًا يبحث عن الراعي المتخلف، مضى وحده غير هياب ولا وجل حتى إذا ما حاذاه أشرع سهمه في فؤاده وتجلد البطل لكن دون جدوى فالسهم أصاب مقتلاً عنده، فأجهز عليه ابن أبي حدرد، ثم كبر وكبر أخواه وفاجأوا الجيش بهجومهم الصاعق، حيث ابذعر الجيش لمقتل قائده، واستاق الفدائيون الثلاثة الإبل والغنم فيما قدروا عليه، وآبوا ظافرين بالغنيمة وقُتل قائد جيش العدو حيث احتز ابن أبي حدرد ۞ رأسه وجاء به إلى رسول الله ﷺ.

(٤) ويرى في هذه المسؤولية التي ألقاها ﷺ على هذا الفتى عظمة الاختيار وفقه الرجال، وسبر معدنهم من خلال النظرة الأولى، فهي الفراسة التي أعطاه الله تعالى لنبيه بحيث يدرك أبعاد وأعماق الرجال ونفاسة معادهم، فيضعهم على محك التجربة؛ ليخوضوا غمرات الحرب ويقدموا ثمنًا غاليًا لكل ما تصبو نفوسهم إليه، وما يذكر التاريخ عن البطل العظيم ابن أبي حدرد ۞ لو أن رسول الله ﷺ أعطاه مائتي درهم وصرفه، إنه المجد في الدنيا والآخرة لا طريق له إلا من أبواب الجهاد.

[التربية الجماعية للغضبان ١ / ٢١٠-٢١١].

٧ - حكم حمل الرؤوس إلى الولاة:

سبق تفصيله في الدروس المستفادة من غزوة بدر الكبرى.

٨ - جواز النفل من أمير السرية إلى بعض الجند أو كلهم:

سبق تفصيله في سرية زيد ثم أبي بكر ۞ إلى بني فزارة بوادي القرى رجب / رمضان ٦ هـ.

الفصل الثالث

سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري ﷺ

إلى بطن إضم^(١)

السبت هلال رمضان ٨٨ / ٢٣ ديسمبر (كانون أول) ٦٢٩م / ٢٧ كيهك ٣٤٦ قبطي

المبحث الأول

عرض سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري ﷺ

إلى بطن إضم

سبب السرية:

يقول د/ بريك: «في السنة الثامنة الهجرية، وقبل خروج رسول الله ﷺ إلى مكة، قام بعملية استعراضية مرسومة القصد منها تحويل انتباه قريش وحلفائها عن خطته لغزوها.

حيث أرسل رسول الله ﷺ (سرية تحويلية) «إلى أضم وإد من أودية أشجع» (من رواية ابن إسحاق عند البيهقي، سنن ٩ / ١١٥). [السرائب والبعض النبوية حول المدينة ومكة لبريك ٢٧٠].

قال ابن سعد: «ثم سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري ﷺ إلى بطن إضم في أول شهر رمضان سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: لما هم رسول الله ﷺ بغزوة أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي ﷺ في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم، وهي فيما بين ذي حُسب وذي المروة، وبينها وبين المدينة ثلاثة برد؛ ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار».

[الطبقات لابن سعد ٢ / ١٢٣-١٢٤، والمغازي للواقدي ٢ / ٧٩٦-٧٩٧].

أحداث السرية:

قال الواقدي: «حدثني عبد الله بن يزيد بن قسيط، عن أبيه، عن ابن أبي حذرٍ عن أبيه هذيل قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى بطن إضم، أميرنا أبو قتادة ﷺ في تلك السرية، وفيها محلم ابن جثامة اللثي، وأنا

(١) يقول د/ بريك: «قال البكري: وإد دون المدينة، قاله الطوسي. وقال عمرو الشيباني وابن الأعرابي: أضم جبل لأشجع وجهينة، وقيل: وإد لهم. البكري، معجم ١ / ١٦٥-١٦٦.

وذكر الشريف: أن وادي أضم من أعظم أودية الحجاز، ويسمى اليوم وادي الحمض، وهو يسيل من الجنوب الشرقي لخرة خير، ويسير نحو الجنوب الغربي حتى يقارب (يثرب) المدينة. حيث تتصل به أودية فرعية منها وادي العقيق، ويتصل به كذلك وادي القرى. وهو يستمد مياهه من السيول التي تنحدر إليه من العيون التي عند خير، ثم يتجه غربا حيث يصب في البحر الأحمر جنوب قرية الوجه، ويبلغ طول وادي الحمض زهاء (٩٠٠) كيلو متر. الشريف، مكة والمدينة ص ٢٦». غزوة مؤتة لبريك ٢٧٠.

فِيهِمْ، فَبَيْنَا نَحْنُ بِبَعْضِ وَادِي إِضْمٍ إِذْ مَرَّ بِنَا عَامِرُ بْنُ الْأَضْبَطِ الْأَشْجَعِيُّ فَسَلَّمَ عَلَيْنَا بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، فَأَمْسَكْنَا عَنْهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ حُلْمٌ بْنُ جَثَامَةَ فَقَتَلَهُ وَسَلَبَهُ بَعِيرًا لَهُ وَمَتَاعًا وَوَطْبًا (الوطب: سقاء اللبن خاصة. الصحاح ص ٢٣٢) مِنْ لَبَنٍ كَانَ مَعَهُ، فَلَمَّا لَحِقْنَا النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ فِيْنَا الْقُرْآنُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ فِتْنَتَانِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

فَانْصَرَفَ الْقَوْمُ وَلَمْ يَلْقَوْا جَمْعًا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى ذِي خُشْبٍ (واد على ليلة من المدينة. وفاء الوفا ٢/ ٢٩٩)، فَبَلَّغَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَى مَكَّةَ، فَأَخَذُوا عَلَى يَدَيْنِ (ناحية من أعراض المدينة) حَتَّى لَحِقُوا النَّبِيَّ ﷺ بِالسَّقِيَا^(١). [المغازي للواقدي ٢/ ٧٩٧].

وَعَنِ الْقُعْقَاعِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حَذَرِدٍ عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حَذَرِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى إِضْمٍ، فَخَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رِبْعِيٍّ، وَحُلْمٌ بْنُ جَثَامَةَ بْنِ قَيْسٍ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَطْنِ إِضْمٍ مَرَّ بِنَا عَامِرُ الْأَشْجَعِيُّ عَلَى قَعُودٍ (القعود: ما أمكن أن يُركب عليه من البعير) لَهُ، [وَمَعَهُ] مُتَبِّعٌ (تصغير متاع) وَوَطْبٌ (الوطب: سقاء اللبن يُتخذ من جلد) مِنْ لَبَنٍ، فَلَمَّا مَرَّ بِنَا سَلَّمَ عَلَيْنَا بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، فَأَمْسَكْنَا عَنْهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ حُلْمٌ بْنُ جَثَامَةَ، فَقَتَلَهُ بِسَيْفٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَخَذَ بَعِيرَهُ وَمُتَبِّعَهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ نَزَلَ فِيْنَا الْقُرْآنُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ فِتْنَتَانِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) السقيا: قرية جامعة وهي في طريق مكة بينها وبين المدينة، وقال كثير: إنها سميت السقيا بما سقيت من الماء العذب وهي كثيرة الآبار والعيون والبرك، وبالسقيا مسجد لرسول الله ﷺ إلى حنب الجبل وعنده عين وهي تجري إلى صدقات الحسين، عليها نخل كثير.

وقال عبد الله بن خميس: وترك يمينًا ونحن نجتاز حدود الحرم جبلا كبيرا ممتدًا ما بين المأزمين وعرنة وبه شعب نتركه على يميننا قبيل المأزمين يقال له الآن السقيا، ويعبر عنه قديمًا بشعب السقيا، سقيا خالصة مولاة الخيزران. وقيل: إن البئر التي نثلها عبد الله بن الزبير إلى جانب بئرهِ وبستانه هنالك.

يقول حمد الجاسر محقق المناسك: تعرف السقيا الآن باسم أم البرك، لكثرة ما كان فيها منها، وهي قرية كانت قبل ستين (يعني عام ١٩٦٧م) قوية لكونها على طريق مكة - المدينة، ولكن الطريق هذا عدل إلى الساحل فأصبح المرور بها قليلًا. ينظر: الحربي، المناسك ص ٤٥٠، وحاشية رقم (٣)، والبكري، المعجم ٣/ ٧٤٢-٧٤٣، وعبد الله بن خميس، المجاز بين البيامة والحجاز ص ٢٩٦.

خَيْرًا ﴿١٤﴾ [النساء]. [مسند أحمد ٣٩ / ٣١٠ رقم ٢٣٨٨١، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده محتمل للتحسين، مجمع الزوائد ٧ / ٦٥ رقم ١٠٩٤٢، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات، السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٦٢٦. صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٦٩].

وستأتي « قصة محلم بن جثامة » في غزوة حنين.

مصادر ومراجع الدراسة:

أ - كتب السنة: مسند أحمد (٢٤١هـ) ٣٩ / ٣١٠ رقم ٢٣٨٨١، مجمع الزوائد للهيثمي (٨٠٧هـ) ٧ / ٦٥ رقم ١٠٩٤٢.

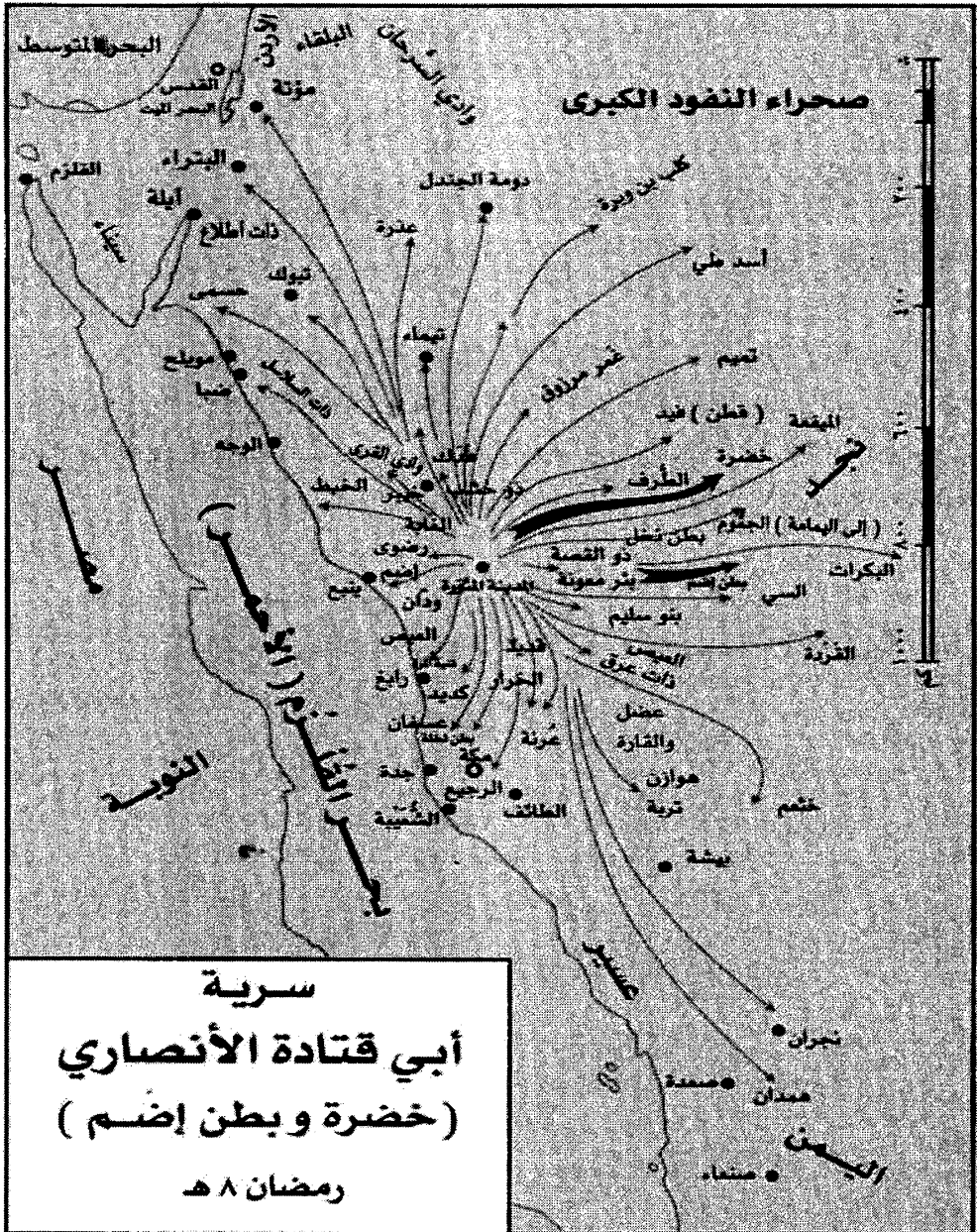
ب - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مزيّنات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ٢ / ٦٨٧ - ٦٩٢، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهديب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢ / ٦٢٦، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢ / ٧٩٦ - ٧٩٧، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢ / ١٢٣ - ١٢٤، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣ / ٣٥ - ٣٦، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤ / ٣٠٥ - ٣١٠، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢ / ٤٢٤ - ٤٢٦، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١ / ٤٥٤ - ٤٥٦، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣ / ٣٦٦ - ٣٦٧، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦ / ٣٦٦ - ٣٧١، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١ / ٣٤٧ - ٣٤٨، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦ / ٢٩٤ - ٢٩٧، السيرة الحلبية للحلي (١٠٤٤هـ) ٣ / ٢٠٦ - ٢٠٨.

ج - كتب السيرة الحديثية: صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٦٨ - ٣٦٩، السيرة النبوية لرزق الله ٥٥٤ - ٥٥٥.

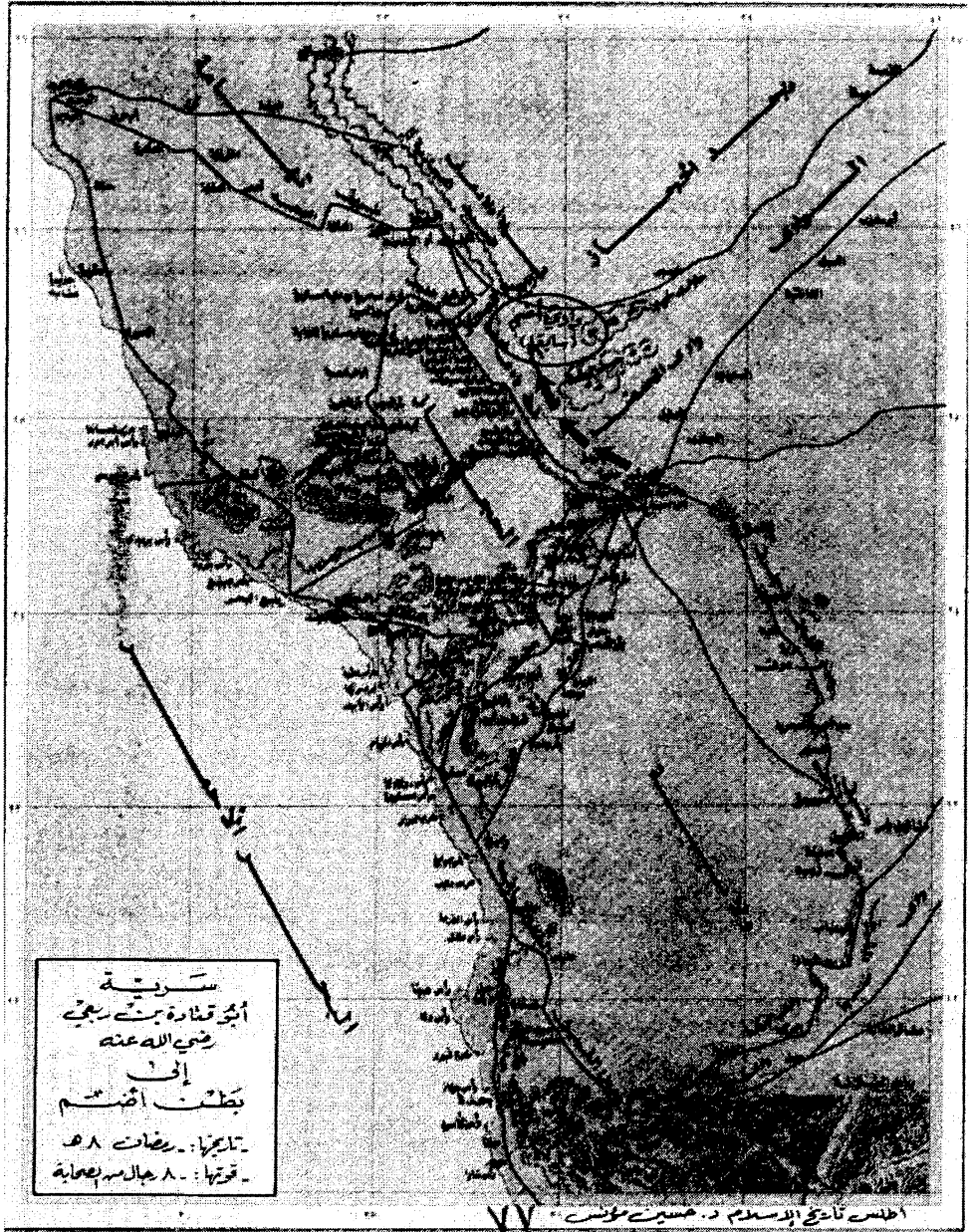
د - كتب الغزوات والسرايا: السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ٢٦٩ - ٢٧٤، مزيّنات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ٢٨٢ - ٢٨٩.

خَرَائِطُ سَرِيَّةِ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رَبِيعٍ الْأَنْصَارِيِّ   إِلَى بَطْنِ إِضْمَ

(١)



(٢)



السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك - الملحق.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من

سرية أبي قتادة بن ربعي ﷺ إلى بطن إضم

بيان حكم الكافر إذا قال: سلام عليك:

يقول د/ العيساوي: «المسلم إذا لقي الكافر فإن قال: سلام عليك، فلا ينبغي أن يقتل حتى يعلم ما وراء هذا لأنه موضع إشكال.

في سرية أبي قتادة ﷺ، إلى إضم، من الفقه ما يفيد حرمة قتل الكافر إذا قال سلام عليكم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آَلَقَ إِلَيْكُمْ االسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ فَيَبْيَنُوا إِلَيْكُمْ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء].

ذكر العلماء أن سبب نزول هذه الآية، هو ما حدث في سرية قتادة، لأن أحد أفراد السرية قتل رجلاً بعدما سلم عليهم بتحية الإسلام، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر، فنزل فيهم القرآن. [ينظر: القرطبي ٣٣٦/٥، والبيضاوي ١٠٩/٢، والطبري، التفسير ١٤٠/٥، وابن كثير، التفسير ٥٣٨/١، وابن العربي، أحكام القرآن ٦٠٦/١].

وجملة القول: إن المسلم إذا لقي الكافر ولا عهد له، جاز له قتله، فإن قال الكافر: (لا إله إلا الله) لم يجوز قتله، فقد اعتصم بعصام الإسلام المانع من دمه وماله وأهله، فإن قتله بعد ذلك قتل به.

[ابن العربي - أحكام القرآن ٦٠٦/١].

وإنما سقط القتل عن هؤلاء لأجل أنهم كانوا في صدر الإسلام، وتأولوا أنه قالها متعوذاً وإن العاصم قولها مطمئناً، فأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح، أنه عاصم كيفما قالها.

وأما إن قال له: سلام عليكم، فلا ينبغي أن يقتل حتى يعلم ما وراء هذا لأنه موضع إشكال، ومعنى هذا أن الذي قال: سلام عليكم، يكلف بكلمة التوحيد، فإن قالها تحقق إسلامه، وإن أبى تبين عناده وقُتل، وهذا معنى قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي الأمر المشكل. [ابن العربي - أحكام القرآن ٦٠٨/١].

والخلاصة: أنه لا يجوز قتل من قال (سلام عليكم) حتى يتبين حاله. [فقه السرايا للعيساوي ٢٠٢-٢٠٣].

مصادر ومراجع مجموعة غزوة مؤتة

- (١) الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج البخاري ومسلم في صحيحهما - الإمام ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (٦٤٣هـ) - دراسة وتحقيق د/ عبد الملك بن عبد الله بن دهيش - ط ٣ دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م.
- (٢) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (دكتوراه) - د/ أحمد بن عبد العزيز بن قاسم الحداد - إشراف د/ عبد الستار فتح الله سعيد - ط ٢ دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م.
- (٣) الأساس في السنة وفقهها: السيرة النبوية - أ/ سعيد حوى - دار السلام - القاهرة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م.
- (٤) الاستخبارات في غزوات الرسول ﷺ - أ/ محمد محمد البيلي يونس - مكتبة السندس - الكويت ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
- (٥) الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ - أ/ سامي بن عبد الله المغلوث - مكتبة العبيكان - الرياض ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
- (٦) أطلس السيرة النبوية - د/ شوقي أبو خليل - دار الفكر - دمشق ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م.
- (٧) أطلس تاريخ الإسلام - د/ حسين مؤنس - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة ١٩٨٨ م.
- (٨) أطلس تاريخ العرب والإسلام - د/ سيف الدين الكاتب - ط ٦ دار الشرق العربي - بيروت ١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م.
- (٩) الاكتفاء في مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء رضيه الله عنهم - الإمام أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي (٦٣٤هـ) تحقيق د/ مصطفى عبد الواحد - مكتبة الخانجي - القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م.
- (١٠) إمتاع الأسعاع بما للرسول ﷺ من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع - الإمام تقي الدين أحمد بن علي المقرئ (٨٤٥هـ) - تحقيق وتعليق أ/ محمد عبد الحميد النميسي - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م.
- (١١) البداية والنهاية - الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ) - تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي - دار هجر - القاهرة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م.

- (١٢) تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام - الإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ) - تح د/ عمر عبد السلام التدمري - ط ٢ دار الكتاب العربي - بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- (١٣) التاريخ الإسلامي - أ/ محمود شاكر - ط ٤ المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- (١٤) التاريخ الإسلامي مواقف وعبر - د/ عبد العزيز بن عبد الله الحميدي - دار الأندلس الخضراء - جدة، ودار الدعوة - الإسكندرية ١٩٩٧م.
- (١٥) تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) - الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) - تح أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم - ط ٤ دار المعارف بمصر ١٩٧٧م - ١٩٧٩م.
- (١٦) تاريخ مدينة دمشق - الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (٥٧١هـ) - دراسة وتحقيق أ/ محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري - دار الفكر - بيروت ١٤١٥/ ١٩٩٥م.
- (١٧) تأملات في السيرة النبوية - د/ محمود محمد عمارة - ط ٣ مكتبة الإيمان - المنصورة - مصر ١٩٩٨م.
- (١٨) تأملات في سيرة الرسول ﷺ - د/ محمد السيد الوكيل - ط ٣ دار المجتمع - جدة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- (١٩) تجربة مؤتة - د/ علي العتوم - مكتبة الرسالة الحديثة - عمان - الأردن ٢٠٠٥م.
- (٢٠) تحت ظلال السيوف «الطريق إلى مؤتة» - أ/ نبيل أحمد جودة السحار - دار غريب - القاهرة ١٩٨٧م.
- (٢١) التربية الجماعية (المنهج التربوي للسيرة النبوية) - د/ منير محمد الغضبان - ط ٤ دار الوفاء - المنصورة - مصر ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- (٢٢) التربية الجهادية (المنهج التربوي للسيرة النبوية) - د/ منير محمد الغضبان - ط ٤ دار الوفاء - المنصورة - مصر ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- (٢٣) تنبيه الهاجد إلى ما وقع من النظر في كتب الأماجد - الشيخ المحدث أبو إسحاق الحويني الأثري - دار المحجة - الإمارات العربية المتحدة - أبو ظبي ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- (٢٤) التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية - اللواء محمد مختار باشا - تح د/ محمد عمارة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٩٩م.
- (٢٥) جامع الأصول التسعة من السنة المطهرة - أ/ صالح أحمد الشامي - المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

- (٢٦) جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ - الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، ابن الأثير الجزري (٦٠٦هـ) - حقق نصوصه، وخرّج أحاديثه، وعلق عليه الشيخ عبد القادر الأرناؤوط - مكتبة الحلواني - دمشق ١٣٨٩هـ - ١٣٩٢هـ / ١٩٦٩ - ١٩٧٢م.
- (٢٧) الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين - الشيخ أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي - دار الحرمين - القاهرة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- (٢٨) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار صلى الله عليه وعلى آله وصحبه المصطفين الأخيار - العالم الفقيه القاضي علامة اليمن محمد عمر بحرُ الحَضْرَمِي الشافعي (٩٣٠هـ) - اعتنى به أ/ محمد غسان نصوص عزقول - ط ٢ دار المنهاج - بيروت، جدة - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- (٢٩) حياة محمد ﷺ - د/ محمد حسين هيكل - الهيئة المصرية للكتاب - مصر ٢٠٠١م.
- (٣٠) خاتم الأنبياء محمد ﷺ (قصص الأنبياء والتاريخ ٧) - د/ رشدي البدرائي - ط المؤلف - القاهرة ٢٠٠٤م.
- (٣١) خاتم النبیین ﷺ - الإمام الشيخ محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي - القاهرة د.ت.
- (٣٢) خالد بن الوليد ؓ - أ/ صابر عبده إبراهيم - مكتبة المنار الإسلامية - الكويت د.ت.
- (٣٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور - الإمام جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) - تحقيق د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، د/ عبد السند حسن بيامة - القاهرة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- (٣٤) دراسة في السيرة - د/ عماد الدين خليل - ط ١٥ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- (٣٥) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة - الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ) - توثيق وتخريج وتعليق د/ عبد المعطي قلججي - دار الكتب العلمية - بيروت، ودار الريان - القاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- (٣٦) الرسول القائد ﷺ - ل.ر/ محمود شيت خطاب - ط ٦ دار الفكر - بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- (٣٧) الروض الأئف في شرح السيرة النبوية لابن هشام - الإمام المحدث أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن الحسن السهيلي (٥٨١هـ) - تحقيق وتعليق وشرح الشيخ عبد الرحمن الوكيل (ومعه السيرة النبوية لابن هشام) - مكتبة ابن تيمية - الجزيرة - مصر ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

- (٣٨) زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ - الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، ابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ) - حقق نصوصه، وخرَّج أحاديثه، وعلق عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط والشيخ عبد القادر الأرناؤوط - ط ٢٧ مؤسسة الرسالة - بيروت، مكتبة المنار الإسلامية - الكويت ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م.
- (٣٩) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير "عباد ﷺ" (السيرة الشامية) - الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي (٩٤٢ هـ) - تح د/ مصطفى عبد الواحد وآخرين - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة ١٩٧٤ - ٢٠٠٧ م.
- (٤٠) السرايا الحربية في العهد النبوي - د/ محمد سيد طنطاوي - مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة ١٩٧١ م.
- (٤١) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة: دراسة نقدية تحليلية (ماجستير) - د/ بريك بن محمد بريك أبو مائلة - إشراف د/ أكرم ضياء العمري - الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة ١٤١٢ هـ - ط دار ابن الجوزي - الدمام السعودية ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م.
- (٤٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة - الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة المعارف - الرياض ١٩٩٥ م.
- (٤٣) السنن - الإمام الحافظ أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني المكي (٢٢٧ هـ) - حققه وعلق عليه الأستاذ المحدث الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي - الدار السلفية - الهند ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م.
- (٤٤) سنن الدارمي (مسند الدارمي) - الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (٢٥٥ هـ) - تحقيق أ/ حسين سليم أسد الداراني - دار المغني - الرياض ١٤٢٠ هـ.
- (٤٥) السنن الكبرى - الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨ هـ) - تح أ/ محمد عبد القادر عطا - ط ٣ دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م، وط تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي - مركز هجر - القاهرة ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م.
- (٤٦) السنن الكبرى - الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣ هـ) - قدم له د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي - أشرف عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط - حققه وخرَّج أحاديثه الشيخ حسن عبد المنعم شلبي - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.

- (٤٧) سير أعلام النبلاء - الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قأنيّاز الذهبي،
الدمشقي (٧٤٨هـ) - أشرف على تحقيق الكتاب وخرّج أحاديثه الشيخين شعيب الأرناؤوط وحسين
أسد وزملائهما - ط ٩ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، وقسم (السيرة النبوية) - حققه،
وضبط نصه، وعلق عليه د/ بشار عواد معروف - مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- (٤٨) السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ﷺ - الإمام علي بن برهان الدين الحلبي
الشافعي (١٠٤٤هـ) - لخص فيه عيون الأثر لابن سيد الناس، والسيرة الشامية - دار المعرفة بيروت -
توزيع مكتبة الإيمان - المنصورة - مصر د.ت.
- (٤٩) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة - أ/ محمد فريد وجدي - جمعها وراجعها وقدم لها
د/ محمد رجب البيومي - ط ٢ الدار المصرية اللبنانية - القاهرة ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- (٥٠) السيرة النبوية - الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري الحميري (٢١٨هـ) - تح أ/ مصطفى
السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي - ط ٢ مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر
١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م.
- (٥١) السيرة النبوية - الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين (٧٧٤هـ)
- تح د/ مصطفى عبد الواحد - دار المعرفة - بيروت ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
- (٥٢) السيرة النبوية - الشيخ علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي - تح أ/ سيد عبد الماجد
الغوري - ط ١٢ دار ابن كثير - دمشق ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- (٥٣) السيرة النبوية الصحيحة - د/ أكرم ضياء العمري - ط ٥ مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة
١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- (٥٤) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - د/ محمد بن محمد أبو شهبة - ط ٧ دار القلم - دمشق
١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- (٥٥) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية - د/ مهدي رزق الله أحمد - طبعة مركز الملك
فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- (٥٦) السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة : قراءة جديدة - أ/ محمد بن حمد الصوياني -
مكتبة العبيكان - الرياض ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- (٥٧) السيرة النبوية : دروس وعبر - د/ مصطفى السباعي - ط ٣ المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٥هـ /
١٩٨٥م، وط دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

- (٥٨) السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث - د/ علي محمد الصلابي - دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة ٢٠٠١ م.
- (٥٩) سيف الله خالد بن الوليد ﷺ: دراسة عسكرية تاريخية عن معاركه وحياته - الجنرال أ. أكرم - ترجمة العميد الركن صبحي الجابي - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.
- (٦٠) شرح السيرة النبوية - رواية ابن هشام - الإمام أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الحشني (٦٠٤ هـ) تصحيح أ/ بولس برونله - المطبعة الهندية بالموسكي - القاهرة ١٣٢٩ هـ.
- (٦١) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ﷺ - أ/ عبد الرحمن البرقوقي - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م.
- (٦٢) شرح معاني الآثار - الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (٣٢١ هـ) - تح أ/ محمد زهري النجار - دار الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٩ هـ.
- (٦٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان - الإمام محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي أبو حاتم البستي - الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي - تح الشيخ شعيب الأرناؤوط - ط ٢ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.
- (٦٤) صحيح ابن خزيمة - الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النسابوري (٣١١ هـ) - تحقيق د/ محمد مصطفى الأعظمي - المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
- (٦٥) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) - الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - ط ٣ المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
- (٦٦) صحيح السيرة النبوية - الشيخ إبراهيم العلي - تقديم د/ عمر سليمان الأشقر - راجعه د/ همام سعيد - دار النفائس - عمان - الأردن ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
- (٦٧) الصحيح من أحاديث السيرة النبوية - أ/ محمد الصوياني - مدار الوطن للنشر - الرياض ١٤٣٤ هـ / ٢٠١١ م.
- (٦٨) الصراع مع الصليبيين (مؤتة وتبوك) - د/ محمد عبد القادر أبو فارس - دار البشير - طنطا - مصر ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م.
- (٦٩) صلح الحديبية - الشيخ محمد أحمد باشميل - ط ٣ المكتبة السلفية ومطبعها - القاهرة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.

- (٧٠) صلح الحديبية : الفتح المبين - د/ شوقي أبو خليل - دار الفكر - دمشق ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- (٧١) صور من حياة الرسول ﷺ - أ/ أمين دويدار - دار المعارف - مصر ١٩٧٢م.
- (٧٢) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة - د/ محمد فوزي فيض الله - دار القلم، دمشق - الدار الشامية، بيروت ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- (٧٣) الطبقات الكبرى (الكبير) - الإمام محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (٢٣٠هـ) - تح د/ علي محمد عمر - مكتبة الخانجي - القاهرة ٢٠٠٢م.
- (٧٤) العبقريّة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ - العميد/ محمد فرج - دار الفكر العربي - القاهرة ١٤١٩هـ / ١٩٩٧م.
- (٧٥) عبقريّة محمد ﷺ - أ/ عباس محمود العقاد - دار نهضة مصر - القاهرة ٢٠٠٣م.
- (٧٦) عمرو بن العاص ؓ: الأمير المجاهد - د/ منير محمد الغضبان - جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- (٧٧) عمرو بن العاص ؓ: القائد المسلم والسفير الأمين - ل. ر/ محمود شيت خطاب - كتاب الأمة ٥٢، ٥١ - قطر ١٤١٩هـ / ١٩٩٦م.
- (٧٨) الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب - العميد الركن إبراهيم إسماعيل كاخيا - دار حسان للطباعة والنشر - دمشق ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- (٧٩) غزوة الحديبية - د/ محمد عبد القادر أبو فارس - دار الفرقان عمان - الأردن ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- (٨٠) غزوة فتح مكة - الشيخ محمد أحمد باشميل - ط ٣ المكتبة السلفية ومطبعتها - القاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- (٨١) غزوة مؤتة - الشيخ محمد أحمد باشميل - ط ٣ المكتبة السلفية ومطبعتها - القاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- (٨٢) غزوة مؤتة: غزوة جيش الأمراء - د/ شوقي أبو خليل - دار الفكر - دمشق ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- (٨٣) غزوة مؤتة والسررايا والبعوث الشمالية: دراسة نقدية (ماجستير) - د/ بريك بن محمد بريك أبو مائلة - إشراف د/ أكرم ضياء العمري - ط الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- (٨٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) - تح أ/ محمد فؤاد عبد الباقي وأ/ محب الدين الخطيب - دار الريان للتراث - القاهرة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- (٨٥) الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني - الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا - دار الشهاب - القاهرة - د. ت.

- (٨٦) فقه السرايا - د/ محمود خلف جرّاد العيساوي - دار عمار - الأردن ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- (٨٧) فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي - خرج أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - دار الريان للتراث - القاهرة ١٩٨٧م، وط دار القلم - دمشق ١٤٢٧هـ.
- (٨٨) فقه السيرة - د/ زيد بن عبد الكريم الزيد - دار العاصمة - الرياض ١٤٢٤هـ.
- (٨٩) فقه السيرة - د/ محمد سعيد رمضان البوطي - ط٦ دار السلام - القاهرة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- (٩٠) فقه السيرة النبوية - د/ منير محمد الغضبان - ط ٢ جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، وط دار الوفاء بالمنصورة - مصر ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- (٩١) في ظلال الرسول ﷺ - د/ عبد الحليم عويس - دار الاعتصام - القاهرة ١٩٨٠م.
- (٩٢) القادة الشهداء في مؤتة - ل/ محمود شيت خطاب - دار قتيبة - سوريا ١٤١١هـ.
- (٩٣) قادة النبي ﷺ - اللواء محمود شيت خطاب - ط ٢ دار القلم - دمشق ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- (٩٤) قادة فتح العراق والجزيرة - ل.ر/ محمود شيت خطاب - ط ٤ دار الفكر - بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- (٩٥) قراءة سياسية للسيرة النبوية - د/ محمد رواس قلعجي - ط ٢ دار النفائس - بيروت ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- (٩٦) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ - د/ عبد الله بن محمد بن عبد الله الرشيد - دار القلم - دمشق ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- (٩٧) القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات - أ/ حسن فتح الباب - مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.
- (٩٨) الكامل في ضعفاء الرجال - الإمام أبو أحمد بن عدي الجرجاني - تحقيق أ/ عادل أحمد عبد الموجود وأ/ علي محمد معوض - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- (٩٩) كبرى المعارك والفتوحات الإسلامية الكبرى - أ/ محمد سعيد مرسي - مؤسسة اقرأ - القاهرة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.
- (١٠٠) الكتب الستة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه - اعتنى به أ/ رائد بن صبري بن أبي علفة - مكتبة الرشد - الرياض ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- (١٠١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - الإمام علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين بن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، الشهير بالمتقي الهندي (٩٧٥هـ) - ضبطه وفسر غريبه الشيخ بكري حيّاني، وصححه ووضع فهرسه ومفتاحه أ/ بكري حيّاني، وأ/ صفوة السقا - ط ٥ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(١٠٢) لسان العرب - الإمام جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأفرقي المصري (٧١١ هـ) - تحقيق أ/ عبد الله علي الكبير، وأحمد حسب الله، وهاشم الشاذلي - دار المعارف - مصر د.ت.

(١٠٣) مجمع البحرين في زوائد المعجمين: المعجم الأوسط والمعجم الصغير للطبراني - الإمام الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيثمي (٨٠٧ هـ) - تحقيق ودراسة أ/ عبد القدوس بن محمد نذير - مكتبة الرشد - الرياض ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م.

(١٠٤) مجمع الزوائد = بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنيع الفوائد - الإمام الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيثمي (٨٠٧ هـ) - تحقيق أ/ عبد الله محمد الدرويش - دار الفكر - بيروت ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م.

(١٠٥) مرويات الإمام الزهري في المغازي (دكتوراه) - د/ محمد بن محمد العواجي - إشراف د/ أكرم ضياء العمري - ط الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.

(١٠٦) مرويات السرايا والبعوث النبوية: دراسة حديثة تحليلية (ماجستير) - د/ محمد عبد الستار إبراهيم القرشي - إشراف د/ علام محمد بن علام، ود/ أحمد مصطفى الخضراوي - كلية الآداب - قسم اللغة العربية - جامعة المنوفية - مصر ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م.

(١٠٧) مسائل العقيدة المستنبطة من غزوة مؤتة (ماجستير) - د/ خميس بن رئيس دويدار - إشراف د/ خالد بن حسين عبد الرحيم حمدان - كلية أصول الدين - الجامعة الإسلامية - غزة - فلسطين ١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م.

(١٠٨) المستدرك على الصحيحين - الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم النيسابوري، المعروف بابن البيع (٤٠٥ هـ) - تح أ/ مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م، وط بتحقيق الشيخ مقبل بن هادي الوادعي - دار الحرمين - القاهرة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.

(١٠٩) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة - د/ عبد الكريم زيدان - ط ٢ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.

(١١٠) المسند - الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (٢٤١ هـ) - حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرون - ط ٢ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م.

(١١١) مسند الإمام أبي داود الطيالسي - الإمام أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (٢٠٤ هـ) - تح د/ محمد بن عبد المحسن التركي - دار هجر - القاهرة ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م.

- (١١٢) مسند الإمام أبي يعلى الموصلي - الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المنثى أبو يعلى الموصلي التميمي (٣٠٧هـ) - حققه وخرج أحاديثه الشيخ حسين سليم أسد - دار المأمون للتراث - دمشق ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- (١١٣) مسند الحارث = بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث - الإمام أبو محمد الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي الخصيب المعروف بابن أبي أسامة (٢٨٢هـ) - الإمام أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر الهيثمي (٨٠٧هـ) - تحقيق د/ حسين أحمد صالح الباكري - مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- (١١٤) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام (في الجهاد وفضائله) - الإمام أبو زكريا أحمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي، ثم الدمياطي، المشهور بابن النحاس (٨١٤هـ) - تحقيق ودراسة د/ إدريس محمد علي ود/ محمد خالد إسطنبولي - ط ٣ دار البشائر الإسلامية - بيروت ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- (١١٥) المصنف - الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (١٥٩-٢٣٥هـ) - حققه وقوّم نصوصه وخرّج أحاديثه أ/ محمد عوّامة - دار القبلة - جدة، ومؤسسة علوم القرآن - دمشق ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- (١١٦) المصنّف - الإمام الحافظ أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ) - عني بتحقيق نصوصه، وتخرّج أحاديثه، والتعليق عليه الشيخ المحدث حبيب الرحمن الأعظمي - المجلس العلمي بالهند - توزيع المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- (١١٧) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية - الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) - ج ١٧ تح د/ خالد بن عبد الرحمن بن سالم البكر - تنسيق د/ سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري - دار العاصمة ودار الغيث - الرياض ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- (١١٨) المعجم الأوسط - الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) - تح أ/ طارق بن عوض الله بن محمد وأ/ عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني - دار الحرمين - القاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- (١١٩) معجم البلدان - الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (٦٢٦هـ) - دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- (١٢٠) المعجم الصغير = الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني - الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) - تح أ/ محمد شكور محمود الحاج أمير - المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

- (١٢١) المعجم الكبير - الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) - حققه وخرّج أحاديثه / حمدي عبد المجيد السلفي - ط ٢ مكتبة ابن تيمية - القاهرة د.ت.
- (١٢٢) المغازي - الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد، المعروف بالواقدي (٢٠٧هـ) - تحقيق د/ مارسدن جونز - طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - د.ت.
- (١٢٣) المفاوضات بين الحديبية وروح العصر: دراسة شرعية وقانونية - ل.ر.د/ أنور ماجد عشقي - مكتبة التوبة - الرياض ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- (١٢٤) مفهومات يجب تصحيحها حول: التوكل على الله، والجهاد في سبيل الله، ووجوه النصر - د/ عبد الرحمن حسن حَبَنَكَة الميداني - المكتبة المكية، مكة المكرمة، ومؤسسة الريان - بيروت ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- (١٢٥) من معين السيرة - أ/ صالح أحمد الشامي - ط ٣ المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- (١٢٦) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - الإمام أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) - ط ٢ دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٩٢هـ / ١٩٧١م.
- (١٢٧) منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية (ماجستير) - د/ سليم عبد الله حجازي - إشراف د/ محمد بن عبد الرحمن الراوي - المعهد العالي للدعوة الإسلامية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م - ٣٣٤ ص، ط دار المنارة - جدة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- (١٢٨) المنهج الحركي للسيرة النبوية - د/ منير محمد الغضبان - ط ٦ مكتبة المنار - الأردن ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.
- (١٢٩) الموطأ: برواياته، بزياداتها وزوائدها، واختلاف ألفاظها - الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ) - تح الشيخ سليم بن عيد الهلالي - مجموعة الفرقان التجارية - دبي ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- (١٣٠) هدي السيرة: في رحاب السيرة العطرة - الشيخ عبد الحفيظ فرغلي القرنى - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٨٣م.

[١] فهرس الموضوعات التفصيلي لمجموعة غزوة مؤتة

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٧	الباب الأول: الغزوات والسرايا بين خيبر ومؤتة:
٩	الفصل الأول: سَرِيَّةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ � إِلَى ثُرَيْبَةَ (شعبان ٧هـ / ديسمبر (كانون أول) ٦٢٨م / كيهك ٣٤٥ قبضي)
٩	المبحث الأول: عرض سَرِيَّةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ � إِلَى ثُرَيْبَةَ:
٩	قبائل هوازن
١٠	أحداث سريّة عمر � إلى تربة
١٧	المبحث الثاني: الدروس والعبر المستفادة من سَرِيَّةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ � إِلَى ثُرَيْبَةَ:
١٧	١ - جواز الاستيلاء على أموال الحربيين
١٧	٢ - أهمية الانضباط العسكري
١٨	٣ - هدف الجهاد في الإسلام
١٨	٤ - تحقيق السرية لأهدافها
٢١	الفصل الثاني: سَرِيَّةُ أَبِي بَكْرٍ � إِلَى نَجْدٍ (شعبان ٧هـ / ديسمبر (كانون أول) ٦٢٨م / كيهك ٣٤٥ قبضي)
٢١	المبحث الأول: عرض سَرِيَّةِ أَبِي بَكْرٍ � إِلَى نَجْدٍ:
٢١	الخلاف حول هذه السرية
٢٢	أحداث السرية
٢٤	المبحث الثاني: الدروس والعبر المستفادة من سَرِيَّةِ أَبِي بَكْرٍ � إِلَى نَجْدٍ:
٢٤	١ - اختيار الفرد المناسب للمهام الصعبة
٢٥	٢ - اتخاذ الشعار
٢٥	٣ - جواز التعرض لأموال الحربيين

الصفحة	الموضوع
٢٧	الفصل الثالث: سرية بشير بن سعد ﷺ إلى بني مرة بضدك (شعبان ٧هـ / ديسمبر (كانون أول) ٦٢٨م / كيهك ٣٤٥ قبطي)
٢٧	المبحث الأول: عرض سرية بشير بن سعد ﷺ إلى بني مرة بضدك:
٢٧	تاريخ السرية - سبب السرية
٢٨	بنو مرة والعداء للإسلام - أحداث السرية
٢٩	بنو مرة يبيدون الدورية
٣٣	المبحث الثاني: الدروس والعبر المستفادة من سرية بشير بن سعد ﷺ إلى فدك:
٣٣	١ - قائد جديد على الساحة الإسلامية
٣٣	٢ - جواز التعرض لأموال الحريين
٣٤	٣ - فدائية عظيمة لأصحاب السرية ﷺ
٣٤	٤ - فدائية عظيمة لبشير بن سعد ﷺ
٣٤	٥ - سياسة الرسول ﷺ في إعزاز دولة الإسلام
٣٥	الفصل الرابع: سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى الميعة (رمضان ٧هـ / يناير (كانون ثان) ٦٢٩م / طوبة ٣٤٥ قبطي)
٣٥	المبحث الأول: عرض سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى الميعة:
٣٥	الخلاف حول السرية
٣٧	الخلاف حول قاتل من قال: لا إله إلا الله
٤٥	تاريخ السرية
٤٨	أحداث سرية غالب ﷺ إلى الميعة
٥٢	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى الميعة:
٥٢	١ - استغلال القيادة لكل الطاقات
٥٢	٢ - الصبر الجميل واحتساب الأجر عند الله ﷻ
٥٢	٣ - نجاح مهمة يسار ﷺ
٥٣	٤ - إعطاء القادة القدوة في الفدائية
٥٣	٥ - إلقاء الرعب في قلوب العدو

الصفحة	الموضوع
٥٣	٦ - إعداد الخطة الحربية
٥٣	٧ - الاستعداد الجيد للمعركة يحقق أهدافه
٥٣	٨ - مباغطة الأعداء
٥٥	الفصل الخامس: سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد ﷺ بفدك (رمضان ٥٧هـ / يناير (كانون ثان) ٦٢٩م / طوية ٣٤٥ قبطي)
٥٥	المبحث الأول: عرض سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد ﷺ بفدك:
٥٥	أحداث السرية
٥٦	قتل أسامة ﷺ لقائل لا إله إلا الله
٦٠	المبحث الثاني: الدروس والعبر المستفادة من سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد ﷺ بفدك:
٦٠	١ - الثأر لشهداء المسلمين
٦٠	٢ - المحافظة على السمعة العسكرية للمسلمين
٦٠	٣ - إبقاء الطاقات في توهجها وإبداعها
٦١	٤ - علبة بن زيد ﷺ دليل السرية
٦١	٥ - استغلال الطاقات الشابة
٦١	٦ - طاعة الأمير واجبة
٦٢	٧ - أهمية الشعار في المعركة
٦٢	٨ - أهمية الهجوم الفجري
٦٢	٩ - الاهتمام بالخطة الحربية
٦٣	١٠ - أهمية وجود مسؤول عن التربية والتوجيه
٦٤	١١ - سياسة النبي ﷺ العسكرية ضد الأعراب
٦٤	١٢ - تحقيق السرية لأهدافها
٦٤	١٣ - باعث أسامة ﷺ على قتل الرجل
٦٧	١٤ - لا محاباة، ولا محسوبيات في دين الإسلام

الصفحة	الموضوع
٦٧	١٥ - لنا الظاهر والله يتولى السرائر
٦٨	١٦ - تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله
٧٢	١٧ - اعتزال أسامة <small>رضي الله عنه</small> للفتنة الكبرى
٧٢	١٨ - فوائد ذكرها ابن حجر في الفتح
٧٥	الفصل السادس: سَرِيَّةُ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ <small>رضي الله عنه</small> إِلَى الْجَنَابِ (شَوَّال ٧هـ / فبراير (شباط) ٦٢٩م / أَمَشِير ٣٤٥ قبطي)
٧٥	المبحث الأول: عرض سَرِيَّةِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ <small>رضي الله عنه</small> إِلَى الْجَنَابِ:
٧٥	التعريف بالجناب، ويمن، وجبار
٧٦	تاريخ السرية
٧٧	سبب السرية
٧٩	تفريق حشد الوثنيين
٨٠	أحداث السرية
٨١	سيد بني مرة الحارث بن عوف ينصح عيينة بن حصن ليسلم
٨٢	تحريض قريش على نقض الهدنة
٨٥	المبحث الثاني: الدروس والعبر المستفادة من سَرِيَّةِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ <small>رضي الله عنه</small> إِلَى الْجَنَابِ:
٨٥	١ - أهمية السياسة العسكرية الهجومية
٨٥	٢ - مكانة الشيخين
٨٥	٣ - مكانة الشورى في الإسلام
٨٦	٤ - حنكة ومعرفة الشيخين <small>رضي الله عنهم</small> بأمور الحرب والسياسة
٨٦	٥ - وضع الرجل المناسب في المكان المناسب
٨٦	٦ - إعادة ثقة القائد بنفسه وإعادة ثقة الجند به
٨٧	٧ - مباغطة العدو المتجهز لقتال المسلمين
٨٧	٨ - نجاح خطة الكتمان
٨٨	٩ - مكاسب هذه السرية
٨٨	١٠ - الحرص على إحياء النفوس بالإسلام

الصفحة	الموضوع
٨٩	١١ - دروس عسكرية سريعة
٩١	الفصل السابع: غَزْوَةُ (عُمَرَةَ) الْقَضِيَّةِ (القضاء) (ذو القعدة ٧هـ / مارس (آذار) ٦٢٩م / برمهات ٣٤٥ قبطي)
٩١	المبحث الأول: عرض غَزْوَةِ (عُمَرَةَ) الْقَضِيَّةِ (القضاء):
٩١	الحدث العظيم - الحل الوسط في صلح الحديبية
٩٣	كيف حقن الصلح الدماء عن أن تُراق - قانون عام غير مكتوب
٩٣	مكاسب صلح الحديبية
٩٤	تاريخ غزوة القضية
٩٥	عدد المعتمرين عمرة القضاء
٩٦	ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة - أمير على المدينة بالنيابة
٩٧	سَبَبُ تَسْمِيَّتِهَا بِعُمَرَةِ الْقَضَايِ - مَنْ لَمْ يَشْهَدْ عَمْرَةَ الْقَضَاءِ مِنْ أَهْلِ الْخُدَيْبِيَّةِ
٩٧	كمية الهدى في هذه العمرة
٩٨	من أين أحرم الرسول ﷺ بالعمرة - حَمْلُ السِّلَاحِ احتياطاً
٩٩	التحرك من المدينة - قريش تحتج على حَمْلِ المسلمين السلاح
١٠٠	اجتماع وفد قريش بالرسول ﷺ في يأجج
١٠١	تخزين السلاح قرب حدود مكة - جلاء قريش عن مكة
١٠٢	منظر رائع
١٠٤	من أين دخل النبي ﷺ مكة يوم العمرة
١٠٥	إشاعة الحمى الصفراء الكاذبة
١٠٦	النبي ﷺ يعمل على إبطال الإشاعة
١١٠	أَرْحَاؤُ ابْنِ رَوَاحَةَ ﷺ وَهُوَ يَقُودُ نَافَةَ الرَّسُولِ ﷺ
١١١	النحر بين الصفا والمروة ثم الحلق - قريش تمنع النبي ﷺ من دخول الكعبة
١١٢	أذان بلال ﷺ من على ظهر الكعبة يغيب المشركين
١١٢	ماذا قال سادات قريش عند سماع بلال ﷺ يؤذن؟ - رَوَّاجُ الرَّسُولِ ﷺ بِمَيْمُونَةٍ ﷺ
١١٤	قصة عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب ﷺ

الصفحة	الموضوع
١١٥	قريش تطلب من الرسول ﷺ أن يغادر مكة بعد انقضاء المدة
١١٧	محاولة سفهاء المشركين التحرش بالمسلمين
١١٨	مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ
١٢٢	المبحث الثاني: الدروس والعبر المستفادة من غزوة القضاء (القضية):
١٢٢	١ - تسميتها بغزوة
١٢٢	٢ - تسميتها بعمره وأساؤها
١٢٣	٣ - التعامل مع الكافر بحذر وعدم الاطمئنان إليه
١٢٣	٤ - الحيلة والحذر مع مراعاة العهود والمواثيق
١٢٧	٥ - أثر القيادة التعبوية في التأثير في معنويات المشركين
١٢٧	٦ - عمره القضاء من آثار صلح الحديبية
١٣٤	٧ - فتح القلوب للإسلام
١٣٥	٨ - كيفية استيعاب العناصر الجديدة
١٣٦	٩ - من ثمرات الثبات على العقيدة. ١٠ - الوفاء بالعهد
١٣٧	١١ - التلبية شعار المحرّمين. ١٢ - ألا تستبد بالدعاة نزوات العواطف
١٣٩	١٣ - سلامة القائد مهمة. ١٤ - استحباب إظهار قوة المسلمين وجلدهم أمام الكافرين
١٤٠	١٥ - إغاطة الكفار والمشركين ومكايدتهم مستحبة
١٤١	١٦ - الحفاظ على سمعة المسلمين المعنوية والمادية
١٤٢	١٧ - التكافؤ والتوازن في العرض. ١٨ - جواز قول الشعر في الحرم
١٤٣	١٩ - جواز الذكر الجماعي. ٢٠ - الأذان يغيظ الكافرين
١٤٣	٢١ - إشعار العدو بعزة الإسلام واستعلائه
١٤٧	٢٢ - النصر العظيم
١٤٨	٢٣ - يوم حاسم في تاريخ الإسلام
١٤٩	٢٤ - عمره القضاء أول انتصار معنوي للمسلمين
١٥٠	٢٥ - قد تُحْدِث الدعوة بالأعمال، ما لا تُحْدِثه الدعوة بالأقوال

الصفحة	الموضوع
١٥١	٢٦- تأثر المشركين بواقع المسلمين المشرف
١٥٣	٢٧- الغزو النفسي لأهل مكة
١٥٥	٢٨- عمرة القضاء وأثرها الإعلامي
١٦٠	٢٩- عمرة القضاء كانت نقطة تحول كاملة للعرب
١٦١	٣٠- قد يبقى الحكم الشرعي، بعد انتفاء حكمته. ٣١- لا يخلف الله ﷻ وعده
١٦٢	٣٢- ألا يدخل اليأس قلوب الدعاة
١٦٣	٣٣- السباحة وحسن الخلق. ٣٤- جبر القلوب الكسيرة
١٦٦	٣٥- بيان حكم مَنْ أُخْصِرَ عَنِ الْعُمْرَةِ
١٦٧	٣٦- الحراسة عبادة لا تقل عن الطواف. ٣٧- طريقة التفقد جيدة
١٦٧	٣٨- رعاية القائد لشؤون الأفراد
١٦٩	٣٩- بَيَانُ خَطَا مَنْ قَالَ تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ مَيْمُونَةً وَهُوَ مُحْرِمٌ.
١٧٠	٤٠- يجوز عقد النكاح للمُحْرِمِ. ٤١- لا يشترط في المولى على النفس أن يكون ذا رحم.
١٧٠	٤٢- التنافس على فعل الخير
١٧١	٤٣- المؤاخاة بين حمزة وزيد <small>رضي الله عنهما</small>
١٧١	٤٤- صاحب القلب الكبير والعقل الواسع ﷺ يحكم في قضية ابنة حمزة <small>رضي الله عنه</small>
١٧٤	٤٥- أحكام شرعية من قصة ابنة حمزة <small>رضي الله عنه</small>
١٧٦	٤٦- ما يستفاد من هجرة بنت حمزة <small>رضي الله عنه</small>
١٧٧	٤٧- الأمانة والوفاء عند المسلمين
١٧٨	٤٨- يقظة الصف الإسلامي
١٧٩	٤٩- بروز القادة الثلاثة في مكة: سهيل وحويطب ومكرز
١٨١	الفصل الثامن: سَرِيَّةُ الْأَخْرَمِ بْنِ أَبِي الْعُجَّاءِ السُّلَمِيِّ ﷺ إِلَى بَنِي سُلَيْمٍ (ذو الحجة ٧هـ/ أبريل (نيسان) ٦٢٩م/ برمودة ٣٤٥ قبضي)
١٨١	المبحث الأول: عرض سَرِيَّةِ الْأَخْرَمِ بْنِ أَبِي الْعُجَّاءِ السُّلَمِيِّ ﷺ إِلَى بَنِي سُلَيْمٍ:
١٨١	أحداث السرية
١٨٣	المبحث الثاني: الدروس والعبر المستفادة من سَرِيَّةِ ابْنِ أَبِي الْعُجَّاءِ السُّلَمِيِّ ﷺ:

الموضوع	الصفحة
١ - جواز القتال في الأشهر الحرم	١٨٣
٢ - استغلال الظروف للدعوة إلى الله ﷻ	١٨٣
٣ - مهمة السرية واستشهاد الأبطال	١٨٤
الفصل التاسع: سريّة غَالِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيِّ ﷺ إِلَى الْكَدِيدِ (صفر ٨هـ / يونيه ٦٢٩ م / بؤنه ٣٤٥ قبطي)	١٨٥
المبحث الأول: عرض سريّة غَالِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيِّ ﷺ إِلَى الْكَدِيدِ:	١٨٥
التعريف بالكديد - تاريخ السرية	١٨٥
سبب السرية	١٨٦
اعتقلوه تحفظاً، وهو مسلم - أحداث السرية	١٨٧
المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سريّة غَالِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْكَدِيدِ:	١٨٩
١ - اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب. ٢ - أهمية المباغته	١٩٣
٣ - تقديم صاحب السمات القيادية المتعددة	١٩٣
٤ - الحيلة والحذر. ٥ - الحزم في العلاج. ٦ - أهمية اتخاذ العيون	١٩٥
٧ - دقة الملاحظة ودقة التسديد في إصابة الهدف. ٨ - أهمية المهمة الاستطلاعية	١٩٥
٩ - حسن اختيار موقع الطليعة	١٩٦
١٠ - قوة الإيمان والطاقات الكامنة	١٩٧
١١ - وقوع كرامات الأولياء	١٩٨
الفصل العاشر: سريّة كَعْبِ بْنِ عُمَيْرٍ ﷺ إِلَى ذَاتِ أَطْلَاحٍ (ربيع الأول ٨هـ / يوليه ٦٢٩ م / أبيب ٣٤٥ قبطي)	١٩٩
المبحث الأول: عرض سريّة كَعْبِ بْنِ عُمَيْرٍ ﷺ إِلَى ذَاتِ أَطْلَاحٍ:	١٩٩
التعريف بذات أطلاح	١٩٩
تاريخ السرية - سبب السرية	٢٠٠
أحداث السرية	٢٠٢
المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سريّة كَعْبِ بْنِ عُمَيْرٍ ﷺ إِلَى ذَاتِ أَطْلَاحٍ:	٢٠٤
١ - إثارة الشهادة على الحياة. ٢ - حقد الوثنية على الإسلام وأهله	٢٠٤

الصفحة	الموضوع
٢٠٤	٣ - استمرارية الدعوة إلى الله رغم الصعاب
٢٠٥	٤ - ضخامة التضحيات الجسام لسلفنا الصالح <small>عليه السلام</small>
٢٠٧	الفصل الحادي عشر: سرية شجاع بن وهب <small>رضي الله عنه</small> إلى السبي من أرض بني عامر من ناحية رُكبة (ربيع الأول ٨هـ / يولييه ٦٢٩ م / أبيب ٣٤٥ قبطي)
٢٠٧	المبحث الأول: عرض سرية شجاع بن وهب <small>رضي الله عنه</small> إلى السبي من أرض بني عامر من ناحية رُكبة:
٢٠٧	أحداث السرية
٢١٠	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية شجاع بن وهب <small>رضي الله عنه</small> إلى السبي:
٢١٠	١ - قيادة شجاع بن وهب الأسدي <small>رضي الله عنه</small> . ٢ - المباغة بالزمان والأسلوب
٢١٠	٣ - الحرص على تطبيق المبادئ الحربية
٢١١	٤ - تحقيق السرية لأهدافها. ٥ - جواز النفل من أمير السرية إلى بعض الجند أو كلهم
٢١٤	٦ - أثر أخلاق المسلمين في غيرهم
٢١٥	الفصل الثاني عشر: سرية زيد بن حارثة <small>رضي الله عنه</small> إلى مدين (٩٩٩):
٢١٥	المبحث الأول: عرض سرية زيد بن حارثة <small>رضي الله عنه</small> إلى مدين:
٢١٥	التعريف بمدين
٢١٧	راوي الخبر وسياقه
٢١٩	تاريخ السرية - سير الأحداث
٢٢٢	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية زيد بن حارثة <small>رضي الله عنه</small> إلى مدين:
٢٢٢	١ - جواز الاستيلاء على أموال الحريين
٢٢٢	٢ - لا يُفَرَّقُ فِي السَّبْيِ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا
٢٢٣	الفصل الثالث عشر: تعقيب على السرايا بين خيبر ومؤتة:
٢٢٣	١ - مهمة هذه السرايا وأغراضها
٢٢٤	٢ - الهدف الأمني. ٣ - الهدف الدعوي
٢٢٥	٤ - اتخاذ الإدلاء. ٥ - السرية في التحرك. ٦ - المغامرة والجرأة والشجاعة
٢٢٦	٧ - الانضباط التنظيمي والعسكري. ٨ - مباغة العدو

الصفحة	الموضوع
٢٢٧	٩ - صبر المسلمين وثباتهم في القتال. ١٠ - جانب ذو مغزى تربوي في هذه السرايا
٢٢٨	١١ - الضربة الاقتصادية لا تقل أثرًا عن الضربة العسكرية
٢٢٨	١٢ - حكم الإغارة على من بلغتهم الدعوة
٢٢٩	١٣ - الابتلاء بالمحن وتربية الأمة الإسلامية
٢٣٠	١٤ - من نتائج سرايا رسول الله ﷺ في الشمال
٢٣١	الباب الثاني: غزوة (سرية) مؤتة (جمادى الأولى ٨هـ / سبتمبر ٦٢٩م / توت ٣٤٦ قبضي)
٢٣٣	الفصل الأول: عرض غزوة (سرية) مؤتة (جمادى الأولى ٨هـ / سبتمبر ٦٢٩م / توت ٣٤٦ قبضي)
٢٣٣	المبحث الأول: اسم المعركة، وموقعها، وتاريخها:
٢٣٣	اسم المعركة
٢٣٤	موقع المعركة
٢٣٧	تاريخ الغزوة
٢٣٩	المبحث الثاني: أسباب الغزوة، وحشد القوات الإسلامية:
٢٣٩	الامتداد الطبيعي للجزيرة العربية - الكومنولث البيزنطي
٢٣٩	اغتيال رسول النبي ﷺ إلى ملك بصرى والجلولان
٢٤٠	اغتيال ١٥ من الصحابة على يد المرتزقة العرب في الشام
٢٤١	القرار الخطير - عدد الجيش، وتولية القيادة
٢٤٤	تحرك الجيش يوم الجمعة، وفضل الجهاد
٢٤٥	بُكَاءُ ابْنِ رَوَاحَةَ ﷺ مَخَافَةَ النَّارِ وَشَعْرُهُ لِلرَّسُولِ ﷺ
٢٤٧	الوصايا التي تزود بها الجيش، وتوذيده
٢٤٨	ابن رواحة ﷺ يطلب الوصايا من رسول الله ﷺ - هجاء ابن رواحة ﷺ المشركين
٢٤٩	المبحث الثالث: حشد القوات الرومانية وحلفائها من القبائل المنتصرة:
٢٤٩	جواسيس الرومان في المدينة يبلغونهم نبأ الغزو
٢٤٩	استخبارات الرومان في شمال الجزيرة - مقتل أخي قائد الأعداء - الخلاف في عددهم

الصفحة	الموضوع
٢٥٣	الخلاف في قادتهم
٢٥٥	المبحث الرابع: أحداث الطريق إلى مؤتة:
٢٥٥	تشاور المسلمين في معان - المجلس العسكري في معان - اختلاف قادة الجيش في معان
٢٥٦	تَخَوُّفُ النَّاسِ مِنْ لِقَاءِ هِرَقْلَ
٢٥٧	تَشْجِيعُ ابْنِ رَوَاحَةَ ﷺ النَّاسَ عَلَى الْقِتَالِ
٢٥٨	حماسة ابن رواحة ﷺ وتمنيه الشهادة
٢٥٩	الحماسة الشاعرية لابن رواحة ﷺ
٢٦٠	اتفاق أركان الجيش على مصادمة الرومان
٢٦١	التحرُّشات العدائية التي تعرَّض لها المسلمون في طريقهم إلى مؤتة
٢٦٣	المبحث الخامس: وصف المعركة:
٢٦٣	تحصن المسلمين في مؤتة
٢٦٤	تعبئة المسلمين
٢٦٥	حراجة موقف المسلمين بمؤتة - أكبر مغامرة حربية في التاريخ
٢٦٦	نشوب المعركة الطاحنة - كانت النتيجة مضمونة وهي النصر للرومان ولكن
٢٦٧	مصرع قادة الجيش الإسلامي الثلاثة
٢٦٨	معركة مؤتة تستمر سبعة أيام
٢٦٩	متى وكيف استشهد القادة الثلاثة - اسْتِشْهَادُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ
٢٧٠	إِمَارَةُ جَعْفَرٍ ﷺ وَاسْتِشْهَادِهِ
٢٧٥	إِمَارَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ﷺ وَاسْتِشْهَادِهِ - تمنى الشهادة فأعطيه
٢٧٥	كيف استبسل ابن رواحة ﷺ
٢٧٨	مصرع قائد العرب المنتصرة
٢٧٩	اشتعال المعركة بين الجيشين
٢٨١	انهزام الجيش الإسلامي في المعركة
٢٨٢	ثابت بن أقرم ﷺ ينقذ الموقف - خالد بن الوليد ﷺ يتولى قيادة الجيش في مؤتة

الصفحة	الموضوع
٢٨٤	صعوبة المهمة الملقاة على عاتق خالد <small>رضي الله عنه</small> في مؤتة
٢٨٥	خالد <small>رضي الله عنه</small> وخطة الانسحاب الرائع - نجاح خطة التضليل أنقذت المسلمين في مؤتة
٢٨٦	خالد <small>رضي الله عنه</small> يهاجم الرومان ويلحق بهم أعظم الخسائر ثم ينسحب
٢٨٧	تسعة أسياف تتكسر في يد خالد بمؤتة - تنفيذ خطة الانسحاب إلى المدينة
٢٨٨	قيادة الرومان تأمر بعدم تعقب المسلمين في انسحابهم
٢٨٩	النبي <small>ﷺ</small> يصف المعركة قبل عودة الجيش
٢٩٣	النبي <small>ﷺ</small> يشيد ببطولة خالد <small>رضي الله عنه</small> - تحرك النبي <small>ﷺ</small> بالمسلمين سريعاً لإمداد أهل مؤتة
٢٩٥	المبحث السادس: عودة الجيش الإسلامي إلى المدينة:
٢٩٥	كَأَهِنُّ حَدَسٍ وَإِنْدَارُهَا قَوْمَهَا - الرد على التحرشات السابقة على المعركة
٢٩٥	جنز الصحابة <small>رضي الله عنهم</small> على شهداء مؤتة
٢٩٦	المظاهرة في المدينة ضد الجيش
٢٩٨	أثر مقتل جعفر على رسول الله <small>ﷺ</small>
٢٩٩	محبة النبي <small>ﷺ</small> الشديدة لجعفر <small>رضي الله عنه</small> - حزن الرسول <small>ﷺ</small> وبكاؤه لموت جعفر <small>رضي الله عنه</small>
٣٠١	نهي النبي <small>ﷺ</small> عن النواح
٣٠٢	مواساة النبي <small>ﷺ</small> للصحابة ولآل جعفر <small>رضي الله عنهم</small>
٣٠٤	بكاء النبي <small>ﷺ</small> لرؤية أسامة بن زيد <small>رضي الله عنه</small> - أنفال المسلمين من مؤتة
٣٠٥	شهداء مؤتة
٣٠٧	المبحث السابع: ما قيل من الشعر في غزوة مؤتة
٣١٢	المبحث الثامن: خرائط غزوة مؤتة
٣٢١	الفصل الثاني: الدروس المستفادة من غزوة (سرية) مؤتة:
٣٢١	المبحث الأول: الدروس العقائدية:
٣٢١	١ - ميزان التفاضل في الإسلام. ٢ - لا مفاضلة بين الصحابة <small>رضي الله عنهم</small>
٣٢٣	٣ - الاستعانة بالله من أهم أسباب النصر والتوفيق في قتال العدو. ٤ - حرب عقائدية
٣٢٥	٥ - جيش العقيدة والمبادئ السامية

الصفحة	الموضوع
٣٢٦	٦ - الباعث على التضحية حب الشهادة
٣٢٧	٧ - النصر بيد الله ﷻ. ٨ - إيمان في الذروة
٣٢٩	٩ - الإسلام يصنع البطولات
٣٣٢	١٠ - المقاييس الإيمانية الجديدة
٣٣٤	١١ - العقيدة الإسلامية وأبطالها محل التمسك والافتداء
٣٣٥	١٢ - ذو الجناحين ﷺ في الجنة
٣٣٧	١٣ - المعنى المقصود لجناحي جعفر ﷺ
٣٣٨	١٤ - كيف انتصرت العقيدة في مؤتة
٣٤٣	١٥ - إثبات صدق النبي ﷺ
٣٤٧	المبحث الثاني: الدروس التربوية والأخلاقية:
٣٤٧	١ - أسباب غزوة مؤتة
٣٤٩	٢ - مناقشة أسباب الغزوة
٣٥٢	٣ - جيش الشباب والتربية النبوية
٣٥٣	٤ - ما استفاد من وصايا النبي ﷺ
٣٥٦	٥ - الخوف من عذاب الله
٣٥٧	٦ - الشهادة طريق النجاة من عذاب الآخرة
٣٥٨	٧ - جواز الثناء على أهل الفضل ومدحهم
٣٥٨	٨ - الانشغال بالجهاد والسير إلى الغزو أفضل من الصلاة مع الرسول ﷺ
٣٥٩	٩ - وقفة مع القادة الثلاثة
٣٦٦	١٠ - حُمل الراية رجولة وشجاعة. ١١ - شجاعة زيد بن حارثة ﷺ
٣٦٧	١٢ - شجاعة جعفر بن أبي طالب ﷺ
٣٦٨	١٣ - كرم وجود جعفر بن أبي طالب ﷺ
٣٧٠	١٤ - حول روايات تردد ابن رواحة ﷺ
٣٧٧	١٥ - احذر نفسك ولا تتبعها هواها

الموضوع	الصفحة
١٦ - استشهاد القادة الثلاثة ﷺ	٣٧٨
١٧ - الوقوف على أروع البطولات لأمرء مؤتة للاقتداء بهم	٣٨٤
١٨ - فضل أمرء معركة مؤتة الثلاثة ﷺ	٣٨٦
١٩ - مكانة الأمرء الثلاثة في الجنة	٣٨٨
٢٠ - التواضع. ٢١ - شجاعة ابن أقرم وابن الوليد ﷺ	٢٩٠
٢٢ - سيف الله. ٢٣ - حب النبي ﷺ لصحابته ﷺ	٢٩٣
٢٤ - رحمة الرسول ﷺ. ٢٥ - مواساة القائد لجنوده	٢٩٤
٢٦ - إظهار الفرح والسرور بقدوم الغائب	٢٩٥
٢٧ - زيد ﷺ حب رسول الله ﷺ	٢٩٨
٢٨ - ابن رواحة ﷺ الشاعر الشهيد. ٢٩ - خالد ﷺ والإعداد القُدري	٣٩٩
٣٠ - استقبال الجيش في المدينة	٤٠٠
٣١ - دفاع النبي ﷺ عن جيش مؤتة	٤٠٤
٣٢ - التقدير والإكرام والإعجاب لبسالة الجنود	٤٠٦
٣٣ - مثل أعلى للاستحياء. ٣٤ - دروس أخرى	٤٠٧
المبحث الثالث: الدروس الفقهية:	٤٠٩
١ - الجهاد فرض عين إذا اعتدي على حرمة المسلمين	٤٠٩
٢ - أهمية الإمرة	٤١٠
٣ - التوديع	٤١٣
٤ - استحباب الدعاء للمجاهدين. ٥ - يُشرع قول الشعر والاستماع إليه	٤١٥
٦ - جواز تمني الشهادة. ٧ - جواز عقر الدابة لئلا ينتفع بها العدو	٤١٦
٨ - جواز الصيام في الحرب	٤١٩
٩ - انعقاد الإمارة في الحرب لمن نَصَّب نفسه أميرًا في حالة الضرورة	٤٢١
١٠ - جواز وضع الألقاب للأبطال. ١١ - في أدب التعامل مع القائد	٤٢٢
١٢ - جواز الاجتهاد في حياة النبي ﷺ	٤٢٥

الصفحة	الموضوع
٤٢٦	١٣ - سلب القتل لقاتله
٤٢٧	١٤ - حكم الفرار في المعارك. ١٥ - البكاء على الميت
٤٢٩	١٦ - جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفى. ١٧ - حكم نعي المتوفى
٤٣٢	١٨ - فضل تَلَقَّى المصيبة بالصبر
٤٣٥	١٩ - المواساة في الوفاة
٤٣٨	٢٠ - جواز رثاء الميت. ٢١ - القبر والقبور
٤٤٢	المبحث الرابع: الدروس السياسية:
٤٤٢	١ - دقة التوقيت وُبعد النظر. ٢ - بداية المعارك بين المسلمين والروم
٤٤٣	٣ - إعزاز الإسلام ودولته
٤٤٤	٤ - لا إسلام بلا جهاد
٤٤٧	٥ - حرب لا بد منها
٤٤٩	٦ - الفتح المبين في الحديبية
٤٥٠	٧ - تدريب القيادات على القيادة
٤٥١	٨ - مصلحة الدعوة والوطن أولاً وأخيراً
٤٥٢	٩ - تقديم القيادة الشابة
٤٥٣	١٠ - الأخذ بمبدأ الشورى
٤٥٤	١١ - من فقه القيادة.
٤٥٦	١٣ - حرية التعبير عن الرأي. ١٤ - استشراف آفاق المستقبل
٤٥٧	١٥ - خرافة التفوق التكنولوجي
٤٥٨	١٦ - أثر مؤتة في الروم وحلفائهم
٤٦٢	١٧ - أثر مؤتة في المسلمين
٤٦٣	١٨ - أثر مؤتة في نفوس المكين. ١٩ - أثر مؤتة في الجزيرة العربية
٤٦٤	٢٠ - ثمرات غزوة مؤتة
٤٧١	٢١ - الإسلام الدعوة العالمية العظمى

الصفحة	الموضوع
٤٧٢	٢٢- دسائس المستشرقين
٤٧٥	المبحث الخامس: الدروس العسكرية:
٤٧٥	١ - أهمية التورية والتمويه
٤٧٦	٢ - الحكمة في تعدد قادة السرية بالتوالي
٤٧٧	٣ - تقديم القائد لأقربائه عند الشدائد لا المغانم
٤٧٨	٤ - أعدل وأشرف قانون حرب في التاريخ
٤٨١	٥ - أن يتمسك الجند بتقوى الله وطاعته
٤٨١	٦ - الترابط بين الجبهة الداخلية والقوات المجاهدة
٤٨٢	٧ - الاهتمام بتموين الجيش الإسلامي، وتسليحه
٤٨٣	٨ - أهمية قوة الاستخبارات. ٩ - استخبارات العدو نشطة
٤٨٣	١٠ - الثقة المتبادلة بين القائد وجنوده
٤٨٤	١١ - هل الملك هرقل هو الذي قاتل المسلمين في مؤتة؟
٤٨٥	١٢ - لماذا كل هذا الحشد الصليبي؟
٤٨٦	١٣ - أهمية قوة الروح المعنوية العالية عند الجنود
٤٨٩	١٤ - لا بد من تعبئة الجيش. ١٥ - ضرورة توفر الغذاء المناسب للمقاتل
٤٨٩	١٦ - الارتباط بالدعوة لا بالأشخاص. ١٧ - تأملات في خطة خالد <small>رضي الله عنه</small>
٤٩١	١٨ - على القائد أن يسلك الأسلوب المناسب للمحافظة على سلامة قواته وأمنها
٤٩١	١٩ - للقائد أن يستعمل من أساليب الخداع ما يرى أن فيه إيماناً للعدو وإضعافاً لمعنوياته
٤٩٢	٢٠ - القضايا التعبوية: الانسحاب
٤٩٤	٢١ - الإشادة بالجنود الذين يُظهرون كفاءة عسكرية نادرة لحفز غيرهم على المضي في ذلك
٤٩٦	٢٢ - احترام القائد من أهم عوامل النصر. ٢٣ - روح القتال في ضمير أمتنا
٤٩٨	٢٤ - تميز هذه المعركة عن سائر المعارك. ٢٥ - أهمية هذه المعركة
٤٩٩	٢٦ - قتلى الفريقين في معركة مؤتة
٥٠٦	٢٧ - أهمية الشعر في المعركة كوسيلة إعلامية

الصفحة	الموضوع
٥٠٩	المبحث السادس: الدروس الدعوية:
٥٠٩	١- إظهار القوة لإرهاب العدو ومن ينصره. ٢- تأمير أكثر من أمير
٥١٠	٣- الدعوة إلى الإسلام هدف من أهداف الجهاد. ٤- وصية الأمير لمن يؤمّرهم بتقوى الله
٥١٢	٥- أين وصية رسول الله ﷺ بدعوتهم إلى الإسلام؟
٥١٢	٦- خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا
٥١٥	٧- لا يجوز التهادي في الحزن وليتذكر المحزون نعم الله عليه
٥١٥	٨- أمير الجماعة كَرَّبَ العائلة لأفراد جماعته
٥١٦	٩- مقياس النصر لا يكون دائماً من خلال ظواهر الحوادث
٥١٧	المبحث السابع: معركة مؤتة بين النصر والهزيمة:
٥١٧	١- غزوة مؤتة في نظر المستشرقين
٥٢١	٢- الخلاف في نتيجة المعركة
٥٣٠	٣- هل انتصر المسلمون في مؤتة أم انهزموا؟
٥٣٤	٤- معالم النصر في معركة مؤتة
٥٤٥	٥- تقاس الهزيمة والنصر في المعارك بما تحقّقه الأمة من أغراضها
٥٤٩	الباب الثالث: السرايا بين مؤتة وفتح مكة:
٥٥١	الفصل الأول: سرية عمرو بن العاص ﷺ إلى ذات السلاسل (جمادى الآخرة ٨هـ/ أكتوبر (تشرين أول) ٦٢٩ م/ بابه ٣٤٦ قبطي)
٥٥١	المبحث الأول: عرض سرية عمرو بن العاص ﷺ إلى ذات السلاسل:
٥٥١	مُسَمَّى السَّرية
٥٥٣	تاريخ السَّرية
٥٥٦	مكانها، أو الجهة التي توجَّهت إليها السَّرية
٥٥٨	سبب السَّرية
٥٦٠	عدد الجيش، وقائده
٥٦٣	الاستخبارات النبوية تبلغ الرسول ﷺ نبأ الغزو
٥٦٣	إسراع النبي ﷺ في غزوهم قبل أن يتحركوا

الصفحة	الموضوع
٥٦٤	عمرو بن العاص <small>رضي الله عنه</small> القائد لأول مرة - الجيش يتحرك من المدينة
٥٦٤	ابن العاص <small>رضي الله عنه</small> يطلب النجدة من المدينة
٥٦٥	رسول عمرو <small>رضي الله عنه</small> إلى النبي <small>ﷺ</small> - المدد يتحرك من المدينة - اختلاف أبي عبيدة وعمرو <small>رضي الله عنهما</small>
٥٦٦	عمرو بن العاص <small>رضي الله عنه</small> القائد المحنك
٥٦٨	الغزوة تحقق أهدافها
٥٦٩	عودة ابن العاص <small>رضي الله عنه</small> المنتصر إلى المدينة - البشير بالنصر إلى المدينة
٥٦٩	ثناء الرسول <small>ﷺ</small> على أبي عبيدة لسماح خلقه
٥٧٠	صلاة عمرو <small>رضي الله عنه</small> بالمسلمين وهو متيمم
٥٧٠	النبي <small>ﷺ</small> يقر كل تصرفات القائد ولم ينكر عليه
٥٧١	وَصِيَّةُ أَبِي بَكْرٍ رَافِعُ بْنُ رَافِعٍ <small>رضي الله عنه</small>
٥٧٣	تَقْسِيمُ عَوْفٍ الْأَشْجَعِيِّ <small>رضي الله عنه</small> الْجُرُورَ بَيْنَ قَوْمٍ
٥٧٧	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سَرِيَّةِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ <small>رضي الله عنه</small> إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ:
٥٧٧	١ - تربص الأعداء بالإسلام. ٢ - الإخلاص. ٣ - نعم المال الصالح للرجل الصالح
٥٧٩	٤ - اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب. ٥ - إلى بلي وقضاة ولخم وجذام
٥٨٠	٦ - شجاعة عمرو بن العاص <small>رضي الله عنه</small> في الجاهلية وفي الإسلام
٥٨٤	٧ - ومعه سراة من المهاجرين والأنصار
٥٨٤	٨ - مدد جديد بخيار أهل الأرض والأزمات الأربع
٥٩٠	٩ - ضرورة توحيد قيادة الجيش
٥٩١	١٠ - تطبيق مبدأ الحشد عند الضرورة. ١١ - المَدَدُ تَبَعٌ
٥٩٢	١٢ - جواز ولاية المفضول مع وجود الأفضل إذا كان في ذلك مصلحة
٥٩٣	١٣ - الاتحاد قوة والتنازع ضعف. ١٤ - إثارة المصلحة العامة على المصلحة الخاصة
٥٩٣	١٥ - الحكمة البالغة من وصية النبي <small>ﷺ</small> لأبي عبيدة <small>رضي الله عنه</small>
٥٩٤	١٦ - الزهد في الدنيا. ١٧ - طاعة القائد واجبة إذا لم تتضمن معصية الله
٥٩٥	١٨ - السمع والطاعة للقائد العسكري

الصفحة	الموضوع
٥٩٦	١٩ - التربية الإيمانية لأصحاب الجاه والمناصب
٥٩٧	٢٠ - على القائد أن يسلك الأسلوب المناسب للمحافظة على سلامة قواته وأمنها
٥٩٨	٢١ - ضرورة استعمال الحزم مع الجند في المواقف الحاسمة
٥٩٩	٢٢ - تجنّب كل ما يكشف تجمّع المسلمين وتحركاتهم. ٢٣ - بناء وتربية الصف المسلم
٦٠٢	٢٤ - إعجاب النبي ﷺ وتقديره لعمر بن العاص ؓ
٦٠٤	٢٥ - مكانة عمرو ؓ. ٢٦ - عمرو بن العاص ؓ يبحث عن مكانه في قلب النبي ﷺ
٦٠٦	٢٧ - فقه عمرو ؓ
٦٠٧	٢٨ - جواز التيمم لمن يتوقع من استعمال الماء الهلاك، سواء كان لأجل برد أو غيره
٦٠٨	٢٩ - جواز إمامة التيمم للمتطهرين بالماء
٦٠٩	٣٠ - التيمم يرفع الحدث
٦١٠	٣١ - جواز الاجتهاد في الواقع في حياة النبي ﷺ
٦١٠	٣٢ - ما يستفاد من تيمم عمرو بن العاص ؓ
٦١١	٣٣ - وصية أبي بكر الصديق لرافع الطائي ؓ
٦١١	٣٤ - أبو بكر ورافع ؓ والتربية العملية
٦١٧	٣٥ - عوف بن مالك الأشجعي ؓ والتربية العملية
٦١٩	٣٦ - التحري الشديد عن خلو الطعام من أي شبهة. ٣٧ - نتائج هذه السرية
٦٢١	الفصل الثاني: سَرِيَّةُ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ ؓ إِلَى خَضِرَةَ (شعبان ٨ هـ/نوفمبر (تشرين ثان) ٦٢٩ م/ كيهك ٣٤٦ قبطي)
٦٢١	المبحث الأول: عرض سَرِيَّةِ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ ؓ إِلَى خَضِرَةَ:
٦٢١	الخلاف حول هذه السرية
٦٢٣	سبب السرية - أحداث السرية
٦٢٦	رواية ابن إسحاق للسرية
٦٣٠	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سَرِيَّةِ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ ؓ إِلَى خَضِرَةَ:
٦٣٠	١ - الإنكار على من تجاوز حد الاعتدال في المهر. ٢ - المباغلة للعدو
٦٣٠	٣ - عناية الله تعالى بهذه الأمة الإسلامية

الموضوع	الصفحة
٤ - براعة ابن أبي حذرر ﷺ . ٥ - تزايد قوة الإسلام وانحسار قوة أعدائه	٦٣١
٦ - دروس في التربية الجماعية	٦٣١
٧ - حكم حمل الرؤوس إلى الولاة.	٦٣٢
٨ - جواز النفل من أمير السرية إلى بعض الجند أو كلهم	٦٣٢
الفصل الثالث: سَرِيَّةُ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِيعِي الْأَنْصَارِيِّ ﷺ إِلَى بَطْنِ إِضْمَ (السبت هلال رمضان ٨هـ / ٢٣ ديسمبر (كانون أول) ٦٢٩م / ٢٧ كيهك ٣٤٦ قبطي)	٦٣٣
المبحث الأول: عرض سَرِيَّةِ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِيعِي الْأَنْصَارِيِّ ﷺ إِلَى بَطْنِ إِضْمَ:	٦٣٣
سبب السرية - أحداث السرية	٦٣٣
المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سَرِيَّةِ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِيعِي ﷺ إِلَى بَطْنِ إِضْمَ:	٦٣٨
بيان حكم الكافر إذا قال: سلام عليك	٦٣٨
مصادر ومراجع مجموعة غزوة مؤتة	٦٣٩
فهرس الموضوعات التفصيلي لمجموعة غزوة مؤتة	٦٥١
فهرس الموضوعات الإجمالي لمجموعة غزوة مؤتة	٦٧١

[٢] فهرس الموضوعات الإجمالي لمجموعة غزوة مؤتة

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٧	الباب الأول: الغزوات والسرايا بين خيبر ومؤتة:
٩	الفصل الأول: سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ثرية (شعبان ٧هـ / ديسمبر (كانون أول) ٦٢٨م / كيهك ٣٤٥ قبطي)
٩	المبحث الأول: عرض سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ثرية
١٧	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ثرية
٢١	الفصل الثاني: سرية أبي بكر رضي الله عنه إلى نجد (شعبان ٧هـ / ديسمبر (كانون أول) ٦٢٨م / كيهك ٣٤٥ قبطي)
٢١	المبحث الأول: عرض سرية أبي بكر رضي الله عنه إلى نجد
٢٤	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية أبي بكر رضي الله عنه إلى نجد
٢٧	الفصل الثالث: سرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى بني مرة بحدك (شعبان ٧هـ / ديسمبر (كانون أول) ٦٢٨م / كيهك ٣٤٥ قبطي)
٢٧	المبحث الأول: عرض سرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى بني مرة بحدك
٣٣	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى فذك
٣٥	الفصل الرابع: سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى الميعة (رمضان ٧هـ / يناير (كانون ثان) ٦٢٩م / طوبة ٣٤٥ قبطي)
٣٥	المبحث الأول: عرض سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى الميعة
٥٢	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى الميعة
٥٥	الفصل الخامس: سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنه بحدك (رمضان ٧هـ / يناير (كانون ثان) ٦٢٩م / طوبة ٣٤٥ قبطي)
٥٥	المبحث الأول: عرض سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنه بحدك
٦٠	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنه بحدك

الصفحة	الموضوع
٧٥	الفصل السادس: سرية بشير بن سعد ﷺ إلى الجَنَابِ (شَوَّال ٧هـ / فبراير (شباط) ٦٢٩م / أَمَشِير ٣٤٥ قبطي)
٧٥	المبحث الأول: عرض سرية بشير بن سعد ﷺ إلى الجَنَابِ
٨٥	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية بشير بن سعد ﷺ إلى الجَنَابِ
٩١	الفصل السابع: غزوة (عُمرة) القُصَيَّة (القضاء) (ذو القعدة ٧هـ / مارس (آذار) ٦٢٩م / برمهاث ٣٤٥ قبطي)
٩١	المبحث الأول: عرض غزوة (عُمرة) القُصَيَّة (القضاء)
١٢٢	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من غزوة (عُمرة) القُصَيَّة (القضاء)
١٨١	الفصل الثامن: سرية الأخرم بن أبي العوجاء السلمي ﷺ إلى بني سليم (ذو الحجة ٧هـ / أبريل (نيسان) ٦٢٩م / برمودة ٣٤٥ قبطي)
١٨١	المبحث الأول: عرض سرية الأخرم بن أبي العوجاء السلمي ﷺ إلى بني سليم
١٨٣	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية ابن أبي العوجاء السلمي ﷺ إلى بني سليم
١٨٥	الفصل التاسع: سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى الكديد (صفر ٨هـ / يونيو ٦٢٩م / بؤنه ٣٤٥ قبطي)
١٨٥	المبحث الأول: عرض سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى الكديد
١٨٩	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية غالب بن عبد الله ﷺ إلى الكديد
١٩٩	الفصل العاشر: سرية كعب بن عمير ﷺ إلى ذات أطلح (ربيع الأول ٨هـ / يوليو ٦٢٩م / أبيب ٣٤٥ قبطي)
١٩٩	المبحث الأول: عرض سرية كعب بن عمير ﷺ إلى ذات أطلح
٢٠٤	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية كعب بن عمير ﷺ إلى ذات أطلح
٢٠٧	الفصل الحادي عشر: سرية شجاع بن وهب ﷺ إلى السبي من أرض بني عامر من ناحية رُكبة (ربيع الأول ٨هـ / يوليو ٦٢٩م / أبيب ٣٤٥ قبطي)
٢٠٧	المبحث الأول: عرض سرية شجاع بن وهب ﷺ إلى السبي
٢١٠	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية شجاع بن وهب ﷺ إلى السبي
٢١٥	الفصل الثاني عشر: سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى مَدَيْنَ (٩٩٩):
٢١٥	المبحث الأول: عرض سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى مَدَيْنَ
٢٢٢	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى مَدَيْنَ

الصفحة	الموضوع
٢٢٣	الفصل الثالث عشر: تعقيب على السرايا بين خيبر ومؤتة
٢٣١	الباب الثاني: غزوة (سرية) مؤتة (جمادى الأولى ٨هـ / سبتمبر ٦٢٩م / توت ٣٤٦ قبضي)
٢٣٣	الفصل الأول: عرض غزوة (سرية) مؤتة:
٢٣٣	المبحث الأول: اسم المعركة، وموقعها، وتاريخها
٢٣٩	المبحث الثاني: أسباب الغزوة، وحشد القوات الإسلامية
٢٤٩	المبحث الثالث: حشد القوات الرومانية وحلفائها من القبائل المنتصرة
٢٥٥	المبحث الرابع: أحداث الطريق إلى مؤتة
٢٦٣	المبحث الخامس: وصف المعركة
٢٩٥	المبحث السادس: عودة الجيش الإسلامي إلى المدينة
٣٠٧	المبحث السابع: ما قيل من الشعر في غزوة مؤتة
٣١٢	المبحث الثامن: خرائط غزوة مؤتة
٣٢١	الفصل الثاني: الدروس المستفادة من غزوة (سرية) مؤتة:
٣٢١	المبحث الأول: الدروس العقائدية
٣٤٧	المبحث الثاني: الدروس التربوية والأخلاقية
٤٠٩	المبحث الثالث: الدروس الفقهية
٤٤٢	المبحث الرابع: الدروس السياسية
٤٧٥	المبحث الخامس: الدروس العسكرية
٥٠٩	المبحث السادس: الدروس الدعوية
٥١٧	المبحث السابع: معركة مؤتة بين النصر والهزيمة
٥٤٩	الباب الثالث: السرايا بين مؤتة وفتح مكة:
٥٥١	الفصل الأول: سرية عمرو بن العاص <small>رضي الله عنه</small> إلى ذات السلاسل (جمادى الآخرة ٨هـ / أكتوبر (تشرين أول) ٦٢٩م / بابه ٣٤٦ قبضي)
٥٥١	المبحث الأول: عرض سرية عمرو بن العاص <small>رضي الله عنه</small> إلى ذات السلاسل
٥٧٧	المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية عمرو بن العاص <small>رضي الله عنه</small> إلى ذات السلاسل

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني: سرية أبي قتادة بن ربعي ؓ إلى خضرة (شعبان ٨ هـ / نوفمبر (تشرين ثان) ٦٢٩ م / كيهك ٣٤٦ قبطي)	٦٢١
المبحث الأول: عرض سرية أبي قتادة بن ربعي ؓ إلى خضرة	٦٢١
المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية أبي قتادة بن ربعي ؓ إلى خضرة	٦٣٠
الفصل الثالث: سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري ؓ إلى بطن إصم (السبت هلال رمضان ٨ هـ / ٢٣ ديسمبر (كانون أول) ٦٢٩ م / ٢٧ كيهك ٣٤٦ قبطي)	٦٣٣
المبحث الأول: عرض سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري ؓ إلى بطن إصم	٦٣٣
المبحث الثاني: الدروس المستفادة من سرية أبي قتادة بن ربعي ؓ إلى بطن إصم	٦٣٨
مصادر ومراجع مجموعة غزوة مؤتة	٦٣٩
فهرس الموضوعات التفصيلي لمجموعة غزوة مؤتة	٦٥١
فهرس الموضوعات الإجمالي لمجموعة غزوة مؤتة	٦٧١